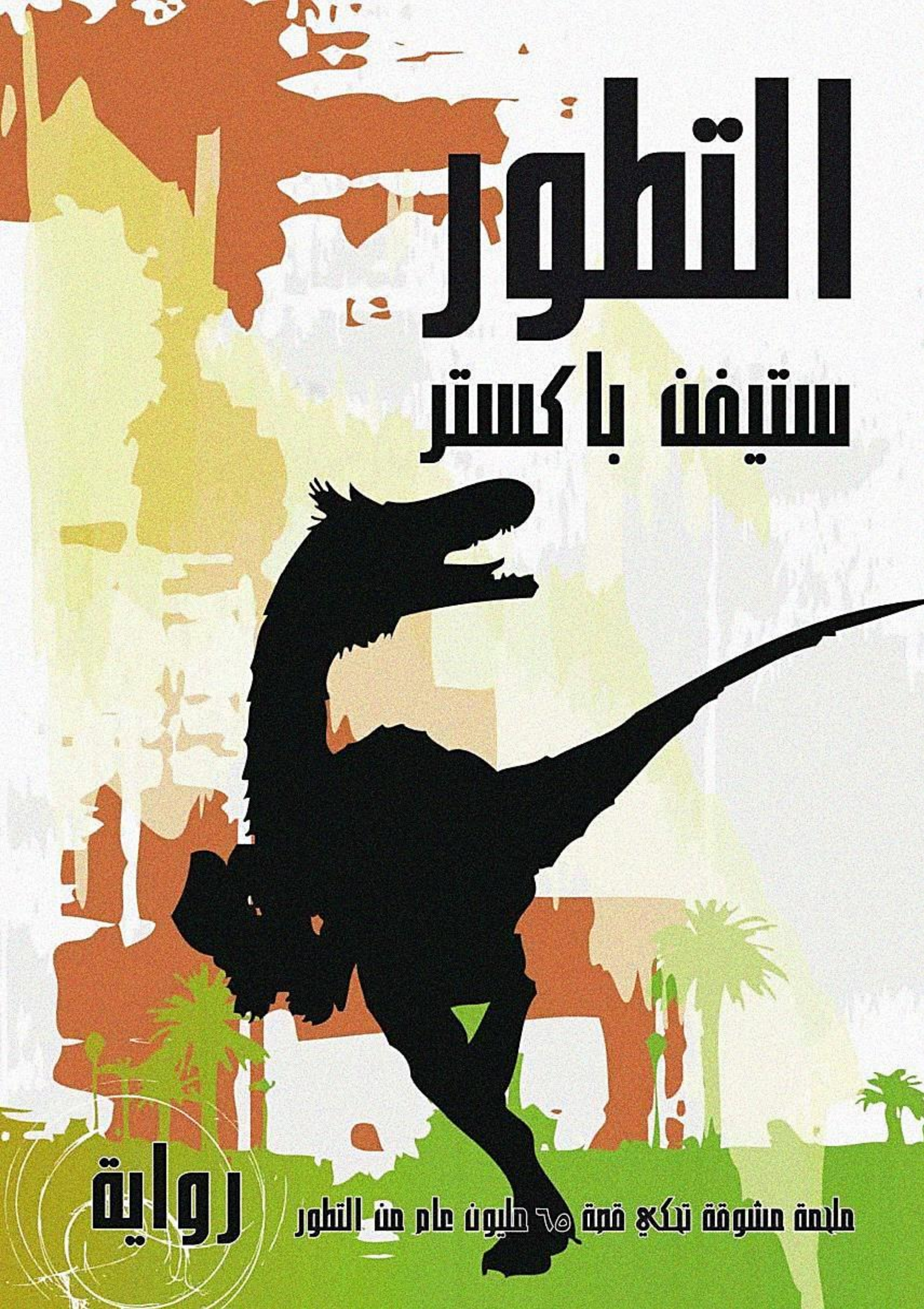

التطور
ستيفن باكستر
رواية
ملحمة مشوقة تحكي قصة ٦٥ مليون عام من التطور

التطور

التطور

ملحمة مشوقة تحكى قصة ٦٥ مليون عام من التطور

تأليف
ستيفن باكستر

ترجمة ومراجعة
قسم الترجمة بكلمات عربية

كلمات عربية

التطور
ستيفن باكستر

Evolution
Stephen Baxter

الطبعة الأولى ١٤٣١هـ-٢٠١٠م
رقم إيداع ٢٨٨٣/٢٠١٠
جميع الحقوق محفوظة للناشر كلمات عربية للترجمة والنشر
(شركة ذات مسئولية محدودة)

كلمات عربية للترجمة والنشر
إن كلمات عربية للترجمة والنشر غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبّر الكتاب عن آراء مؤلفه
مكتب رقم ٤، عقار رقم ٢١٩٠، زهراء مدينة نصر، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ‎+٢٠٢ ٢٢٧٢٧٤٣١‎ **فاكس:** ‎+٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥١‎
البريد الإليكتروني: kalimatarabia@kalimatarabia.com
الموقع الإليكتروني: http://www.kalimatarabia.com

باكستر، ستيفن
التطور / ستيفن باكستر. - القاهرة : كلمات عربية للترجمة والنشر، ٢٠١٠.
٧٩٢ص، ١٤,٥×٢١,٠سم
تدمك: ٥ ٠٥ ٦٢٦٣ ٩٧٧ ٩٧٨
١- القصص الإنجليزية
أ- العنوان
٨٢٣

المحتويات

الإهداء

مرة أخرى ... إلى ساندرا

وإلى بقية المجموعة

أملًا في استمرار اتساع الأفق

المقدمة

بينما كانت الطائرة في طريقها للهبوط في مطار داروين اخترقت كتلة من الدخان الأسود الكثيف، فأظلمت النوافذ فجأة، حاجبة ضوء الصيف الذي يخيم على أستراليا وآسيا، وأصدرت المحركات صوتًا حادًّا يشبه العواء.

كانت جوان Joan تتحدث بهدوء إلى أليس سيجوردادوتير Alyce Sigurdardottir، لكنها تململت في مقعدها، إذ كان حزام المقعد مشدودًا فوق بطنها المنتفخ، إلى درجة جعلتها لا تشعر بالراحة في جلستها. كانت الطائرة فسيحة وحديثة، فحتى مقاعد الدرجة الاقتصادية كانت مرتبة في مجموعات من أربعة أو ستة مقاعد حول مناضد صغيرة، وهو ما يختلف تمامًا عن الأوضاع في الطائرات التي كانت أشبه بعربات نقل الماشية، والتي تذكرتها جوان من أيام طفولتها التي قضتها في السفر حول العالم برفقة والدتها عالمة الإحاثة. ففي عام ٢٠٣١ — وهو عام الصعوبات — لم يكن هناك إقبال على السفر، أما من كانوا يسافرون، فلم يحظوا إلا بالقليل من سبل الراحة.

ومع زوال الخطر، أدركت فجأة مكانها والموجودين حولها.

وتأملت جوان الفتاة الجالسة في مواجهتها هي وأليس. كانت الفتاة التي خمنت أنها تبلغ نحو الرابعة عشرة تضع في أذنها أداة صغيرة فضية اللون، وكانت تشاهد صورًا منعكسة على سطح المنضدة لمركبة فضائية تحاول الهبوط على سطح المريخ. فحتى على ارتفاع عشرة آلاف متر فوق بحر تيمور، كانت الفتاة متصلة بالشبكة الإليكترونية، التي ربطت بين

نصف سكان الكوكب، وكانت مستغرقة في الأصوات والصور المتراقصة البراقة. شعرها أزرق فاتح، ربما أزرق مائل للخضرة كلون الزبرجد، ولون عينيها برتقاليّ زاهٍ يميل للحمرة، وهو لون غبار المريخ الذي ملأ سطح المنضدة الأنيقة. وأدركت جوان في كآبة أن الفتاة قد أُجريت لها قطعًا عدة «تحسينات» جينية أخرى أقل وضوحًا. كانت الفتاة مستغرقة تمامًا فيما تشاهده، فلم تلاحظ وجود المرأتين الكهلتين الجالستين في مواجهتها، ولم تُبدِ أي رد فعل فيما عدا أن عينيها اتسعتا بعض الشيء حين شاهدت جسد جوان حين جلست، وهو رد فعل كان من السهل على جوان تفهم ما يعنيه، وكأنها تقرأُ كتابًا مفتوحًا — امرأة في هذه السن تصبح حاملًا؟ كم هو أمر مقزز ....

لكن بينما كانت الطائرة تشق طريقها بصعوبة في السماء المزدحمة استدارت الفتاة لتحدق من خلال النافذة المعتمة، وانصرف انتباهها عن فقاعة التكنولوجيا المتقدمة التي كانت تشاهدها وقطبت جبينها الأملس بعض الشيء. وبدا الخوف على الفتاة وجال بخاطر جوان أن لها كل الحق، فلم يكن ليساعدها في شيء كل ما أوتيت من كمال صاغه التحسين الجيني، لو وقعت الطائرة. وشعرت جوان بمسحة غريبة من الحقد والحسد لا يتلاءمان البتة مع امرأة في الرابعة والثلاثين: «تعقلي يا جوان، فالجميع بحاجة إلى التواصل الإنساذي سواء أكان مُحَسّنًا جينيًّا أم لا. أليس هذا هو محور المؤتمر الذي ستحضرينه؟ أن التواصل الإنساني سينقذنا جميعًا؟»

مالت جوان إلى الأمام وهي تمد يدها نحوها وقالت: «هل أنت بخير يا عزيزتي؟»

فانفرج ثغر الفتاة عن ابتسامة كشفت عن أسنان كادت تتوهج من شدة بياضها وهي تقول: «أنا بخير، إنه الدخان فحسب». كانت تتحدث بلهجة سكان الساحل الغربي للولايات المتحدة التي تتميز بخروج الألفاظ من الأنف.

قالت أليس سيجورداردوتير وهي تبتسم ابتسامة تسببت في تغضن وجهها ذي البشرة القاسية: «إنها حرائق الغابات». وكانت أليس — وهي عالمة متخصصة في دراسة رتبة الرئيسيات — امرأة نحيفة في قرابة الستين

من عمرها، لكنها بدت أكبر من ذلك بسبب التجاعيد التي تملأ وجهها. «هذا كل ما في الأمر. فالحرائق الموسمية في إندونيسيا والساحل الشرقي لأستراليا أصبحت الآن تمتد لعدة شهور كل عام.»

«آه» قالتها الفتاة دون أن يبدو عليها أن ما سمعته قد طمأنها. وأضافت: «ظننت أنه قد يكون رابول Rabaul.»

قالت جوان: «أسمعت بها؟»

أجابت الفتاة وقد بدت في صوتها رنة تتهمها بالغباء: «الجميع سمعوا بها. إنها فوهة بركانية كبيرة في بابوا غينيا الجديدة تقع بالقرب من شمالي أستراليا، أليس كذلك؟ وقد شهدت ثوران زلازل وثورات بركانية خفيفة كل عامين تقريبًا طوال القرن الماضي. وشهد الأسبوعان الأخيران وقوع زلازل قوتها (واحد) بمقياس ريختر بصفة شبه يومية.»

قالت أليس: «إنك تعرفين الكثير عن الأمر.»

«أحب أن أكون على علم بالمكان الذي أسافر إليه.»

أومأت جوان برأسها وهي تغالب ابتسامة وقالت: «منتهى الحكمة فعلًا، لكن رابول لم تشهد أي ثورة بركانية كبيرة منذ ما يزيد عن ألف سنة. وسيكون من سوء الحظ ألا يُقَدَّر أن يحدث هذا إلا عندما يصادف وجودك على بُعد بضع مئات من الكيلومترات يا ....»

«اسمي بِكس، بِكس سكوت.»

أيكون بِكس هو اسم التدليل لريبيكا؟ ... إنها بِكس سكوت بالطبع. أليسون سكوت من الشخصيات المرموقة التي دأبت على حضور المؤتمر، وهي مُبرمِجة جينات تتمتع بظهور إعلامي مكثف، ولها ابنتان جميلتان بفضل الهندسة الوراثية. «بِكس، إن المادة اللزجة التي ترينها خارج النافذة ناتجة بالفعل عن حرائق الغابات. فنحن لسنا معرضين لأي خطر.»

أومأت بِكس برأسها، لكن جوان أحست أنها في حقيقة الأمر لم تطمئن.

واستطردت جوان بلهجة مبتهجة: «إذا كان من المقدر لنا جميعًا أن نحترق في فوهة بركانية، فمن الأفضل أن يتعرف بعضنا إلى بعض أولًا. اسمي جوان يوسب، وأنا عالمة إحاثة.»

قالت بِكس ببهجة: «صائدة حفريات؟»

- «شيء من هذا القبيل، وهذه السيدة ....»

- «اسمي أليس سيجورداردوتير.» مدت أليس يدها النحيلة وهي تقول: «يسرني التعرف عليك يا بِكس.»

أجابت بِكس وهي تحدق فيهما: «عذرًا، لكن أسماءكما تبدو غريبة شيئًا ما.»

قالت جوان وهي تهز كتفيها: «يوسب اسم جنوب أفريقي أو بالأحرى الصيغة الإنجليزية منه، فالاسم الأصلي غير قابل للنطق إلى حدٍّ بعيد. فأسرتي لها جذور عميقة في أفريقيا ... عميقة جدًّا.»

قالت أليس: «وأنا والدي أمريكي ووالدتي أيسلاندية. نشأت بينهما قصة حب عسكرية، إنها قصة طويلة.»

قالت جوان: «إننا نعيش في عالم مختلط. فمن المعروف عن الجنس البشري أنه دائم التجوال، فالأسماء والجينات مبعثرة في أنحاء العالم.»

قالت بِكس وهي تقطب جبينها مخاطبة أليس: «أظن أنني سمعت باسمك، هل أنت متخصصة في دراسة قردة الشمبانزي؟»

أومأت أليس برأسها وهي تقول: «توليت بعض مهام العالمة جاين جودال[1] Jane Goodall.»

قالت جوان: «تعتبر أليس واحدة من مجموعة كبيرة من العالمات المرموقات في علم دراسة الرئيسيات ... لطالما تساءلت عن سبب تفوق النساء في هذا المجال.»

ابتسمت أليس: «ألا يندرج ما تقولينه تحت بند الأفكار النمطية المعممة يا جوان؟ لكن، الدراسات السلوكية للرئيسيات في البرية تستغرق — بل استغرقت — عقودًا من الملاحظة؛ لأن هذه هي مدة حياة هذه الحيوانات في البيئة الطبيعية، وهو ما يتطلب الصبر والقدرة على الملاحظة بدون تدخل. ربما تكون تلك من الصفات المتوافرة في النساء، أو ربما طاب لنا الهروب

[1] عالمة بريطانية متخصصة في علم دراسة الإنسان وعلم دراسة الرئيسيات، ومبعوثة الأمم المتحدة للسلام، وتشتهر بدراستها للتفاعلات الاجتماعية والعائلية لقردة الشمبانزي في حديقة جومبي ستريم الوطنية بتنزانيا، وبتأسيسها معهد جاين جودال.

من التسلسل الهرمي الذكوري المعتاد في الأوساط الأكاديمية، فالغابة تفوقها تحضرًا.»

قالت جوان: «ومع ذلك فإنهن يعتبرن من الرعيل الأول؛ فمنهن جودال وبيروتيه جالديكاس[2] Birute Galdikas وديان فوسي[3] Dian Fossey.»

- «إنني آخر من تبقى من نوع في طريقه إلى الانقراض.»

قالت بِكس بلهجة تتسم بمسحة مباغتة من الوحشية: «مثل قردة الشمبانزي التي تدرسينها» وابتسمت حين لاحظت صمتهما وقالت: «لقد اختفوا جميعًا من الغابات الآن، أليس كذلك؟ قضى عليهم تغير المناخ.»

هزت أليس رأسها وهي تقول: «لا، كانت تجارة لحوم الحيوانات البرية هي السبب في ذلك.» وروت لبِكس باختصار عن فترة عملها في الكاميرون، وكيف كان الحطابون يشقون طريقهم في الغابة البكر الممطرة ومن خلفهم الصيادون.

سألت بِكس: «ألم تكن تلك التجارة غير مشروعة؟ كنت أعتقد أن كل تلك الأنواع القديمة كانت محمية.»

«بالطبع كانت غير مشروعة. لكن اللحوم البرية تدر أرباحًا، وكان السكان المحليون دائمًا ما يأكلون القرود، أما الغوريلا فكانت من اللحوم الفاخرة؛ فعند زيارة والد زوجك لا يمكن أن تقدمي له الدجاج، لكن عندما وصل الحطابون الأوروبيون ازداد الوضع سوءًا، إذ أصبحت اللحوم البرية من الأطعمة التي تلقى إقبالًا شديدًا.»

أخذت جوان تفكر في نظرية الثقب الأسود للانقراض: «إن الحياة كلها بل كل شيء في النهاية يتلاشى، ولا يتبقى سوى الثقوب السوداء في مراكز الوجوه الإنسانية. لكن، ماذا بعد ذلك؟ هل سنظل نأكل كل ما يقع عليه نظرنا من شجرة الخليقة العظيمة، حتى لا يتبقى شيء إلا نحن والطحالب ذات اللون الأخضر المائل للزرقة؟»

---

[2] باحثة كندية متخصصة في دراسة الرئيسيات وعلم سلوك الحيوان. ألفت عدة كتب تتناول الأنواع المهددة بالانقراض.

[3] عالمة أمريكية متخصصة في علم الحيوان تخصصت في دراسة الغوريلا على مدى ١٨ عامًا.

قالت بِكس بلهجة متعقلة: «لكن لا تزال هناك قردة الشمبانزي والغوريلا في حدائق الحيوانات، أليس كذلك؟»

أجابت أليس: «لم تنجح كل الأنواع في البقاء، والأنواع التي أنقذناها بالفعل — مثل قردة الشمبانزي — فهي لا تتكاثر حال أسرها، فهي أذكى من هذا. فقردة الشمبانزي هي أقرب أقربائنا الباقين. وكانت تعيش في عائلات في البرية وتستخدم الأدوات وتشن الحروب. كان كانزي Kanzi — الشمبانزي الذي تعلّم قليلًا من لغة الإشارة — من نوع البونوبو Bonobo (أو الشمبانزي القزم)، هل سمعت عنه من قبل؟ الآن انقرض هذا النوع، انقرض: هذا يعني أنه اختفى إلى الأبد. كيف نستطيع أن نفهم أنفسنا، إذا كنا لم نفهم تلك الكائنات أبدًا؟»

كانت بِكس تستمع بأدب لكنها بدت شاردة. فخطر لجوان أنها نشأت على تلقي المحاضرات الجادة، ولا بد أن كل هذا لا يهمها كثيرًا أو لا يهمها على الإطلاق، فما هي إلا أصداء عالم تلاشى قبل مولدها.

خبا حماس أليس وعاد الإحباط يرتسم على وجهها، وفي غضون ذلك ظلت الطائرة تشق طريقها بصعوبة في السماء الملبدة بالدخان الكثيف.

وحاولت جوان الحد من التوتر الطفيف الذي خيم عليهن — فهي لم تكن ترمي إلى إلقاء محاضرة على الفتاة، بل إلى صرف انتباهها عن الدخان — فغيرت الموضوع قائلة: «تدرس أليس المخلوقات التي ما زالت على قيد الحياة، أما أنا فأدرس المخلوقات التي عاشت فيما مضى ....»

بدا الاهتمام على بِكس، أخبرتها جوان — ردًّا على أسئلتها — كيف أنها حذت حذو والدتها، وأخبرتها عن عملها، الذي غالبًا ما يكون في المناطق الوسطى الصحراوية من كينيا: «الناس لا يتركون وراءهم كثيرًا من الحفريات يا بِكس، فقد استغرق الأمر مني سنوات حتى تعلمت كيف أميزها، فهي قطع صغيرة ملقاة على التربة. إنها بيئة قاسية للعمل، وقاحلة للغاية، وكل الشجيرات فيها لها أشواك، لتمنعك من سرقة مائها ... وبعدها تعودين إلى المعمل لتقضي السنوات القليلة اللاحقة في تحليل تلك الشظايا — في مسعى لمعرفة المزيد عن كيف كانت حياة ذلك الهومينيد Hominid الذي مات منذ مليون عام، وكيف مات، ومن كان.»

- «الهومينيد؟»

- «معذرة، إنه كائن من أشباه البشر. إنها من المصطلحات الدارجة في مجالنا. الهومينيد هو أي مخلوق أقرب إلى الجنس البشري منه إلى الشمبانزي، وهناك البيثيسين Pithecine والإنسان ذو القامة المنتصبة (الهومو إريكتوس) *Homo erectus* وإنسان النياندرتال Neandertal»

- «كل هذه المعلومات من كسرات من العظام؟»

- «صحيح، كل هذا من العظام. أتعرفين؟ حتى بعد عمل استغرق قرنين لم نكتشف الجديد إلا عن ألفي شخص من فترة ما قبل التاريخ كلها، ألفي شخص فقط لا غير من مليارات البشر الذين مضوا قبلنا إلى غياهب المجهول، هذا كل شيء، وكان علينا أن نستنتج من حفنة العظام تلك التاريخ الإنساني المعقد، وتاريخ الأنواع السالفة كافة، وذلك بالعودة بالزمن إلى ما حدث لسلسلة نسبنا بعد سقوط المذنب الذي قضى على الديناصورات ...»

وتفكرت في أسى، أنه في ظل عدم وجود آلة الزمن يظل الجهد الدءوب الذي يبذله علم الآثار هو النافذة الوحيدة المطلة على الماضي.

وفي تلك اللحظة بدأت بِكس تعود إلى شرودها.

تذكرت جوان رحلة قامت بها لهيل كريك بولاية مونتانا عندما كانت في مثل سن تلك الفتاة تقريبًا، في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة. كانت والدتها تعمل هناك؛ لأن المكان كان يمثل موقعًا حدوديًّا شهيرًا شهد انقراض الديناصورات، حيث يمكنك رؤية آثار الحدث الجلل الذي أنهى عصر الديناصورات، فهناك في تلك الصخور — في طبقة من الطمي الرمادي التي لا يزيد سمكها عن سمك يدها — كان ذلك الطمي الحدودي ينتمي إلى العصر الطباشيري الثلثي إذ ترسب في الأعوام الأولى بعد التصادم، كان مغطى بالرماد، أو بالأحرى الغبار المتخلف عن كارثة هائلة.

وذات يوم وجدت والدتها سِنًّا تحت الطمي.

- «جوان، هذه ليست مجرد سن، أعتقد أنها سن برجاتورياس[٤] *Purgatorius*.»

---

[٤] حيوان صغير منقرض بحجم الجرذ يعتقد أنه من النماذج الأولى لرتبة الرئيسيات.

- «ماذا تقولين؟»

كانت والدتها امرأة كبيرة الحجم وعفوية، وجهها يغطيه العرق والتراب. «أقول برجاتورياس، إنه من الثدييات التي عاشت قبل عصر الديناصورات. لقد وجدتُ السن تحت الطمي الحدودي.»

- «أعرفتِ كل هذا من سن فقط؟»

- «بالتأكيد. انظري إلى هذا الشيء، إنه قطعة محكمة من هندسة الأسنان نتجت عن مائة وخمسين مليون عام من التطور، فهناك علاقة تربط بين كل هذا، فالثدييات تحتاج إلى أسنان خاصة لتقطيع الطعام بسرعة أكبر، نظرًا لحاجتها لطاقة أكبر لتمثيل غذائي أسرع، أما إذا كانت أمك تفرز الحليب، فليس من الضروري أن يكون لديك أسنان دائمة عند ميلادك، فالأدوات المتخصصة يمكن أن تنبت فيما بعد. ألم تتساءلي أبدًا لماذا كان لك أسنان لبنية؟ يهتم الكثيرون بهذا الأمر كثيرًا يا جوان، أتعرفين لماذا؟ لأن السن الذي وجدناه ينتمي إلى أحد الرئيسيات، فهذه الكسرة الصغيرة قد تكون كل ما تبقى من أسلافنا الأكثر بعدًا، أسلافي وأسلافك — وأسلاف كل من على قيد الحياة — وأسلاف الشمبانزي والغوريلا والليمور و....»

إنها المحاضرة المعتادة من البروفيسور يوسب العظيمة. كانت جوان في سن الثالثة عشرة مهتمة بجماجم الديناصورات اللافتة للنظر أكثر من الأسنان الصغيرة البالية مثل هذه السن. ومع هذا ظل شيء ما يرتبط بتلك الأسنان عالقًا بذهنها. وفي النهاية ساعدت تلك اللحظات على تشكيل حياتها.

كانت أليكس تقول: «هذا هو الهدف من المؤتمر يا بِكس. فهو مجهود جماعي، نحن نريد أن نتعاون للتوصل إلى أفضل فهم حول الطريقة التي جئنا بها إلى هنا، نحن البشر. نريد أن نروي قصة البشر، لأنه علينا الآن أن نقرر كيف سنواجه المستقبل. فكرتنا هي «عولمة التقمص العاطفي».

كان ذلك صحيحًا، فالهدف الحقيقي من المؤتمر — الذي لا يعلمه إلا جوان وأليس وبضعة زملاء مقربين — هو تأسيس حركة جديدة، وطريقة جديدة للتفكير، وتوجُّه جديد، قد يمنع حدوث انقراض يتسبب فيه البشر.

هزت بِكس كتفيها وهي تقول: «أتعتقدين أن هناك من سيستمع إلى لفيف من العلماء؟ لا أقصد الإهانة، لكن لم يحدث أن استمع أحد لهم حتى الآن.»

قالت جوان وهي تبتسم ابتسامة مصطنعة: «لا عليك. سنحاول على أي حال، ينبغي أن يحاول أحد.»

- «كما أنه لم يعد هناك جدوى من تلك الأشياء، من علم الآثار هذا، أليس كذلك؟»

فقالت جوان عابسة: «ماذا تقصدين؟»

وضعت بِكس يدها بسرعة على فمها وهي تقول: «ما كان ينبغي أن أقول أي شيء. ستستشيط أمي غضبًا.» ولمعت عيناها المرّيخيتان.

كانت أليس في تلك الأثناء قد عادت إلى شرودها، فتطلعت من النافذة إلى سحب الدخان المتصاعدة من حطام حرائق الغابات على بعد آلاف الكيلومترات.

قالت والدة جوان لها ذات مرة: «لنفترض أنني تمكنت من اصطحابك في رحلة عبر العصور إلى الماضي السحيق، حينها ستفقدين جبهتك الجميلة المرتفعة بالعودة مائة ألف عام فحسب، ولن يعود باستطاعتك السير بقامة منتصبة على ساقيك بعد ثلاثة أو أربعة ملايين عام، وسينبت ذيلك من جديد بعد خمسة وعشرين مليون عام، وبعد خمسة وثلاثين مليون عام ستفقدين آخر ملامح القردة مثل الأسنان، وبعدها تصبحين قردة يا بنيتي، ثم يظل حجمك ينكمش، وبعد أربعين مليون عام سيصبح شكلك أقرب إلى قردة الليمور. وفي نهاية المطاف ستصبحين كائنًا صغيرًا يشبه الجرذان، يختبئ من الديناصورات.»

كانت أمها تسمح لها أحيانًا بالنوم في العراء، في الهواء البارد الذي يهف على الأراضي القاحلة التي تعج بتكوينات صخرية نحتتها عوامل التعرية. وكانت سماء مونتانا هائلة وممتلئة بالنجوم. كان درب التبانة يبدو — من منظور جانبي للمجرة اللولبية العملاقة — كطريق سريع يقطع الليل. كانت تستلقي على ظهرها وتحدق إلى أعلى متخيلةً أن كوكب الأرض الصخري قد تلاشى بما يحمله من حفريات وسواها، وأنها تهيم في الفضاء. تساءلت ما

إذا كان ذلك المخلوق الصغير الذي يطلق عليه برجاتورياس قد رأى هذه السماء نفسها. هل سبحت النجوم نفسها في السماء منذ خمسة وستين مليون عام؟ هل كانت المجرة تدور مثل دولاب هائل من دواليب الألعاب النارية الدوارة يتألق في عتمة الليل؟

وخطر لها أن الدخان المتصاعد من البركان الليلة سيُخفي كل النجوم.

الجزء الأول

الأسلاف

الفصل الأول

أحلام ديناصورات

ولاية مونتانا، أمريكا الشمالية، خمسة وستون مليون عام تقريبًا قبل عصرنا الحاضر.

١

عند حافة الأرض الخالية من الأشجار زحفت برجا خارجة من رقعة مزروعة بنباتات السرخس الكثيفة. كان الوقت ليلًا لكن ثمة ضوء وفير، ولم يكن مصدره القمر، بل المذنب الذي انتشر ذيله الرائع على صفحة السماء الصافية حتى كاد يحجب أكثر النجوم تألقًا.

كانت هذه الرقعة الصغيرة من الغابة تقبع في وهد واسع وضحل يقع بين جبال بركانية جديدة غربًا — وهي الجبال التي ستصبح فيما بعد جبال روكي — والسهول الأبلاشية الواقعة شرقًا. كان الهواء المشبع بالرطوبة خاليًا من الشوائب الليلة، لكن عادة ما كان يهُبّ السديم والضباب من الجنوب يحمله البحر الداخلي الكبير، الذي ما زال يندفع إلى داخل قلب أمريكا الشمالية. وكان يغلب على الغابة النباتات التي تستخلص الرطوبة من الهواء: إذ كانت الأشنة تكسو لحاء أشجار الأروكاريا المتغضن، وحتى شجيرات المغنولية الخفيضة كانت تغص بالطحالب. وبدت الغابة كأنها طُليت بطبقة من الطلاء الأخضر الكثيف.

غير أن أوراق الشجر ذبلت في كل مكان، وتحولت الطحالب والسرخس الذي يغطي الأرض إلى اللون البني. إذ تسببت الأمطار المسممة بالغازات المنبعثة من الاضطرابات البركانية غربًا في الإضرار بالنباتات والحيوانات على حد سواء. كان ذلك العصر يتسم بأجواء مضرة بالصحة.

ومع ذلك فقد كانت الديناصورات لا تزال تحلم بالمستقبل في الأرض الخالية من الشجيرات.

كان ندى الليل الكثيف يتلألأ على دروع الأنكيلوصورات Ankylosaur ذات اللون الأسود المشوب بالصفرة؛ التي اجتمعت في دائرة دفاعية يقف وسطها الصغار. وبدت تلك الزواحف العملاقة — وهي واقفة في هواء العصر الطباشيري العليل — أشبه بالدبابات القابعة.

في هذا الضوء الخافت تركزت عينا برجا السوداوان الواسعتان على حشرة عثة. كانت الحشرة السمينة جالسة في حالة من الرضا على ورقة شجر، وأجنحتها البنية مطوية. واندفعت برجا إلى الأمام فجأة وأمسكت بفريستها بين مخالبها وقطعت أجنحتها بقضمتين من قواطعها بالغة الصغر، ثم بدأت تمضغ جوف العثة بتلذذ، مُصدِرة صوتًا يشبه صوت قرمشة تفاحة صغيرة. في تلك اللحظة القصيرة، والطعام في فمها، شعرت برجا ببعض الاطمئنان في خضم حياتها الصعبة التي تغص بالمتاعب.

وسرعان ما ماتت العثة، دون أن يتمكن وعيها من الشعور بأي قدر من الألم.

بعد التهام العثة، انتقلت برجا إلى مكان آخر. لم تكن الأرض مكسوة بغطاء من الحشائش — فلم تكن الحشائش قد سادت الأرض بعد — لكن كان هناك غطاءٌ أخضر منخفض من نباتات السرخس والطحالب والصنوبر الأرضي والكنباث وشجيرات الصنوبر بل بضع زهور بنفسجية زاهية. هرولت برجا بين تلك الكتل المتشابكة وبين رقع النباتات الصغيرة دون أن تصدر أي صوت تقريبًا. في الظلام يصبح التجوال بحثًا عن الطعام على انفراد هو أفضل استراتيجية، فالحيوانات المفترسة كانت تصطاد فرائسها عن طريق الهجوم من مكمن، مستغلة حُجب الليل؛ ولا يمكن أن تتفوق أي مجموعة على من يطوف وحده بحثًا عن طعامه من حيث القدرة على الاختفاء، لذا كانت تعمل برجا بمفردها.

بدا العالم في عيني برجا كسهل ملون بالأسود والأبيض والأزرق يضيئه ضوء مضطرب ينبعث من المذنب الذي يسطع من خلف السحب العالية المتناثرة. لم تكن عيناها الكبيرتان حساستين للضوء مثلها مثل أفضل أنواع

الديناصورات تطورًا — فبعض الطيور الجارحة كانت تميز ألوانًا يعجز البشر عن تمييزها، كدرجات الأشعة تحت الحمراء الداكنة ودرجات الأشعة فوق البنفسجية المتلألئة — غير أن برجا كانت ترى جيدًا في ضوء الليل الخافت، وبالإضافة إلى ذلك كانت لديها شوارب تنتشر أمامها وكأنها نظام راداري.

كانت برجا تبدو أقرب إلى القوارض منها إلى الرئيسيات بشواربها وخطمها المستدق وأذنيها الصغيرتين المطويتين إلى الخلف، وكان حجمها يقترب من حجم قرد الليل الصغير، كانت تمشي عى أربع، وذيلها الأشعث الطويل يمتد خلفها شأنها في ذلك شأن السنجاب. كانت ستبدو غريبة في عيون البشر — فهي أشبه بالزواحف في سكونها ويقظتها — وربما غير مكتملة البنية.

لكن — كما سينمو إلى علم جوان يوسب في يوم من الأيام — كانت برجا بالفعل من الرئيسيات، وكانت تحديدًا سلفًا لتلك الطائفة العظيمة من الحيوانات. وخلال حياتها القصيرة كان يجري نهرٌ من الجينات منبعه في الماضي السحيق، ومصبه بحر المستقبل البعيد، ومن نهر الجينات هذا — الذي يتسع وتطرأ عليه تعديلات على مر آلاف الألفيات — ستنبثق في يوم ما البشرية جمعاء: فكل إنسان سينحدر من نسل برجا.

كانت تجهل كل ذلك، ولم تُعطِ نفسها اسمًا، فلم تكن تتمتع بوعي كوعي الإنسان، أو حتى الشمبانزي أو القرد؛ كان عقلها أقرب ما يكون إلى عقل الجرذ أو الحمامة. كان سلوكها مبنيًّا على أنماط ثابتة تحكمها الدوافع الفطرية التي تتغير في القوة والأولوية باستمرار لتبلغ ذروة جديدة كل لحظة. كانت مثل إنسان آلي ضئيل، مجردة من أي إحساس بالذات.

ومع ذلك فقد كانت تتمتع ببعض الوعي، تعرف المتعة — متعة امتلاء المعدة وأمان جحرها وأنوف صغارها وهي تحك بطنها التماسًا للحليب — وفي هذا العالم المحفوف بالمخاطر كانت تعرف الخوف جيدًا.

زحفت بين أقدام الأنكيلوصورات الحالمة. وبينما كانت برجا تتحرك تحت البطون الضخمة، سمعت القرقرة المدوية الصادرة عن أحشاء الأنكيليصورات

أثناء عملية الهضم التي لا تتوقف، كان الهواء مثقلًا بغازاتها البغيضة، ونظرًا لعدم اكتمال أسنانها بعد كانت كل مهام معالجة طعامها خشن الأنسجة وهضمه تتم في أحشائها الضخمة، التي كانت تعمل والأنكيلوصورات نائمة.

كانت الأنكيلوصورات من الديناصورات آكلة العشب، لكن كان هذا عصر الحيوانات المفترسة الضخمة والشرسة، لذا كانت تلك الحيوانات — التي تفوق الأفيال الأفريقية حجمًا — مكسوة بدرع يتكون من العظام والضلوع والفقرات المتكتلة، وهناك نتوءات عظمية مستدقة ضخمة ذات لون أسود، مشوب بصفرة، مطمورة في ظهورها، وجماجمها مقواة بشدة، حتى إنه لا يوجد إلا مكان ضئيل للمخ. وذيولها تنتهي بهراوات ثقيلة يمكنها تحطيم الأرجل والجماجم.

كانت ضخامة الديناصورات أمرًا يتجاوز مقدرة برجا على تفهمه؛ إذ كان عالمها صغيرًا يصبح فيه لوح خشب على الأرض أو بركة ماء عائقًا كبيرًا، ويصبح فيه العقرب حيوانًا مفترسًا خطيرًا، والدودة الألفية السمينة وليمة نادرة. كانت ترى في قطيع الأنكيلوصورات النائمة غابة ضخمة من الأرجل القصيرة السمينة والذيول المتدلية التي لا تربط بينها علاقة.

لكن كانت هناك جائزة ثمينة تنتظر برجا في هذا المكان: وهي روث الديناصورات، أكوام ضخمة منه مبعثرة في الأرض الطينية التي دهستها الأقدام، فهنا في جبال الألياف المكونة من النباتات شبه المهضومة قد تجد حشرات وخنافس الروث، وهي منهمكة في تفتيت أكوام الروث الضخمة، تنقب في تلك الكتل الساخنة بلهفة.

هذا هو دور أسلاف الإنسانية طوال صيف الديناصورات الطويل: ظلوا منفيين على هامش مجتمع الزواحف الكبير، لا يخرجون من جحورهم إلا ليلًا ليتجولوا بحثًا عن طعام من الروث والحشرات والغنائم الصغيرة التي تعج بها الغابة.

لكن العائد كان ضئيلًا الليلة، والروث هزيلًا كريه الرائحة. إذ إن النباتات التي دمرها البركان شكلت علفًا رديئًا للأنكيلوصورات، وما نتج من الهضم كان قليل القيمة لبرجا.

عبرت الأرض الخالية من الشجيرات واتجهت إلى الغابة، وفي تلك البقعة كانت أشجار الصنوبر العالية ترتفع في مشهد مهيب، فتنتشر أوراقها على علو شاهق لتبدو وكأنها حُصُر. ووقفت بينها أشجار أصغر تشبه النخيل بعض الشيء وبعض الشجيرات المنخفضة تحمل أزهارًا ذات لون أصفر شاحب.

تسلقت برجا بخفة بين أفرع شجرة الجنكة. وكانت تستخدم غدد الرائحة الموجودة عند ملتقى ساقيها لتعلم الشجرة. ففي عالمها المظلم تصبح الرائحة والصوت أهم من الرؤية، وإذا ما وجدت واحدة من بني جلدتها هذه العلامة في أي وقت خلال الأسبوع التالي فهي علامة مثل ضوء النيون تخبرها أنها كانت هنا، بصرف النظر عن طول الفترة التي مضت على مرورها.

أسعدها التسلق، وأسعدها أن تشعر بعضلاتها تعمل بسلاسة وهي ترفعها فوق الأرض الخطرة، وأن تستخدم التوازن الدقيق الذي يوفره ذيلها الطويل، وأكثر من كل هذا أن تقفز، تطير لثوان من فرع إلى آخر باستخدام كل إمكانات جسدها وتوازنها ورشاقتها ويديها القابضتين وعينيها المرهفتين. اضطرت للاختباء في جحور في الأرض، لكن بيئة الأشجار ثلاثية الأبعاد المعقدة شكلت كل شيء حولها، وفيها ستجد معظم أنواع الرئيسيات ملجأ لها خلال تاريخ الفصيلة الطويل.

غير أن الأمطار الحمضية التي هطلت في الشهور الأخيرة أدت إلى ذبول الأشجار والنباتات المحيطة، فصار اللحاء فاسدًا ولم يتبق فيه إلا القليل من الحشرات.

كانت برجا تشعر دائمًا بالجوع. إذ تحتاج إلى تناول طعام يساوي مقدار وزن جسمها يوميًّا، وهذا ثمن كونها من ذوات الدم الحار، وثمن الحليب الذي كان عليها أن تغذي به صغيريها اللذين يمكثان آمنين في جحرهما في مكان بعيد في الغابة. عادت أدراجها أسفل جذع شجرة الجنكة على مضض. وكان الخوف والجوع يتصارعان في ذهنها، وهي تجرب شجرة أخرى أو شجرتين لكن دون أن يحالفها الحظ.

لكنها رفعت رأسها، وارتعشت شواربها واتسعت عيناها لتمعن النظر في الغابة الخضراء المظلمة. فقد شمت رائحة اللحم: تلك الرائحة المغرية

للحم المهيض، وتناهى إلى سمعها صوت حاد يائس وعاجز، كصوت أفراخ العصافير.

أخذت تعدو خلف الرائحة.

في أرض صغيرة خالية من الشجيرات أسفل شجرة أروكاريا ضخمة متغضنة، قبعت كومة من الطحالب. وعلى حافتها بدأت تتحرك رقعة صغيرة من الطمي المغطى بالركام، وسرعان ما ارتفعت الرقعة كالغطاء وظهر عنق أعجف صغير من داخل الأرض مخترقًا طبقات الطين والركام. وانفتح فمٌ كالمنقار على سعته.

تنفس الديناصور الطفل نَفَسَه الأول ورأسه ترتعش وحراشفه الضئيلة وريشه مبللة بالمُح، وبدا وكأنه فرخ طائر أكبر من المعتاد.

هذه هي اللحظة التي ينتظرها الديدلفودون Didelphodon، فهذا الحيوان الثديي الذي يبلغ حجمه حجم قطة أليفة هو أحد أكبر الثدييات في زمانه، إنه قصير وله غطاء أسود وفضي. اندفع إلى الأمام وأمسك الفرخ من رقبته النحيلة وسحبه من البيضة وقذفه في الهواء.

مثلت حياة الفرخ حفنة من الانطباعات القصيرة الواضحة: الهواء البارد خارج البيضة المكسورة والوهج الخافت المنبعث من المذنب وإحساس بالطيران. لكن انفتح كهف ساخن من تحته، ومات الفرخ في الحال، وجلده ما زال ملطخًا بالمح.

في تلك الأثناء اندفعت المزيد من الأفراخ من تحت الأرض وخرجت من بيضها في آن واحد، وبدا المشهد كما لو أن الأرض تعج فجأة بصغار الديناصورات. واقترب الديدلفودون ومعه المزيد من الثدييات المفترسة لتتغذى عليها.

وكانت استراتيجية قديمة من استراتيجيات البقاء تُطبق في ذلك الوقت، فالديناصورات زواحف تضع بيضها على الأرض، ومع أن بعض الآباء مكثوا مع الحَضنَة، فلم يكن من الممكن حماية كل البيض والأفراخ المعرضة للهجوم، لذا وضعت الديناصورات الكثير من البيض الذي يفقس معًا، ومن المفترض أن تكون هناك العشرات من مجموعات البيض تفقس في ذلك

الوقت في كل أنحاء هذه المنطقة من الغابة، وهو ما يعني وجود مئات الأفراخ، تلخصت الفكرة في أن أرض الغابة ستغص فجأة بعدد كبير من أفراخ الديناصورات، أكثر بكثير من أن يأكلها أشد الحيوانات المفترسة جوعًا. وكانت معظم الأفراخ ستموت حتمًا، لكن هذا لا يهم، فيكفي أن يعيش البعض.

لكن في هذه الليلة لم تُصِب الاستراتيجية هدفها، وهو أمر رهيب لأفراخ الديناصورات. وكانت أم تلك الأفراخ قناصة عُزلت عن قطيعها، ولأنها كانت مرتبكة وجائعة وخائفة من الوقوع فريسة لغيرها من الضواري، وضعت بيضها في المكان القديم المعهود — وقُدّر عمر هذا المكان المخصص للتوالد بآلاف الأعوام — وغطته بالنباتات المتعفنة لتوفر له الدفء. فعلت ما عليها، غير أن هذا التوقيت كان خاطئًا، مما تسبب في أن يفقس البيض دون وجود مئات أخرى من البيض توفر له الغطاء اللازم.

امتلأ الهواء برائحة الدم الكريهة، ودمدمة الحيوانات المفترسة، والأصوات الواهنة الصادرة عن الأفراخ المشئومة. حضرت عدة أنواع من الثدييات تلك الوليمة المروعة، أكبرها الديدلفودون الكبير، واثنان من الدلتاثيريديوم Deltatheridium، وهي من الحيوانات الشبيهة بالفئران التي تقتات بالنباتات والحيوانات معًا، وليست من الجرابيات ولا المشيميات، إذ إنها من أسرة فريدة لن يكتب لها بالبقاء بعد الديناصور. وتمتع الكثير من المخلوقات الموجودة هنا بإمكانات تفوق وضعها الحالي بكثير؛ ومن بينها مخلوق صغير الحجم غير جميل يعد من أسلاف النسل الذي سيؤدي إلى الأفيال.

لكن كل ما يهمها هو بطونها الخاوية، وشعرت الثدييات بالضجر من بطء ظهور الأفراخ التي كافحت للخروج من البيض، فقد بدأت تحفر الطمي اللين بحثًا عن البيض الذي لم ينكسر وتبعثر غطاء الطحالب الذي كانت الديناصور الأم قد وضعته على العش.

في الوقت الذي وصلت فيه برجا كان المكان قد أصبح أشبه بساحة قتل دامية، تحتشد بها مجموعة من الثدييات التي تتلوى وهي تتناول طعامها. وأخذت برجا تبحث بلهفة في الوحل بعد أن تأخرت عن المعترك، وسرعان

ما بدأت تطحن بأسنانها العظام الضئيلة، وأخذت تغوص برأسها بحثًا عن الطعام المدفون، حتى إنها كانت آخر من شعر بعودة الديناصور الأم.

سمعت خوارًا غاضبًا وشعرت بالأرض تهتز.

وسحبت برجا رأسها من الوحل، وقد تبلل أنفها بالمُح اللزج. اختفت الثدييات الأخرى من قبل في غياهب الغابة التي بدت باللون الأخضر والأسود، ولمحت برجا المخلوق بأكمله، رأت وحشًا بغيضًا يغطيه الريش معلقًا في الهواء وقد بسط أطرافه وفغر فاه، ثم برزت من السماء يد هائلة بها مخالب.

فهسهست برجا وتدحرجت، فقد أدركت — لكن بعد فوات الأوان — أن هذا العش هو عش الترو.ون Troodon، وهو ديناصور مفترس يتميز بالرشاقة وسرعة الحركة، وهو مهيأ لصيد الثدييات.

ومعنى اسم الترودون هو «السن الجارحة».

كانت الترودون في حجم الكلب، فلم تكن أكبر الديناصورات حجمًا، لكن أذكاها وأسرعها حركة، ومخها يشبه — من حيث الحجم — مخ طيور لا تطير، هذه الطيور ستظهر في عصور تالية وتشبهها الترودونإلى حد ما. وعيناها كبيرتان ومتكيفتان للرؤية الليلية، شأنها في ذلك شأن عيني برجا، وتستطيعان الرؤية للأمام مما منحها الرؤية بكلتا العينين، وهو الأفضل لتحديد حجم أهدافها الصغيرة سريعة الحركة بحساب المثلثات. ولها ساقان تمكنانها من القفز كالكنغر ومخلب كالمنجل في الإصبع الثاني من كل قدم ويدان كالمجراف تطورتا للبحث عن الثدييات سريعة الحركة خاصة، وسحقها.

غطاها ريش أملس صغير، وهو تطور معقد للحراشف، لم يكن الغرض منه الطيران، بل التدفئة في برد الليالي، ففي المناخ غير المتقلب الذي ساد الأرض في ذلك العصر، لم تكن المخلوقات في حاجة إلى محرك يعتمد على عملية الأيض والدم الحار للتدفئة: فإذا كنت كبيرًا بما يكفي فسيحتفظ جسدك الذي يعتمد على الدم البارد بحرارته خلال الليل حتى لو كنت تعيش في أطراف الأرض. أي قطبيها، لكن الديناصورات الأصغر حجمًا مثل الترودون احتاجت إلى شيء من المواد العازلة الإضافية.

وسواء أكان الترودون صغيرًا أم لا، فقد امتلكت مخًّا من بين أكبر أمخاخ جميع الديناصورات. باختصار إنها من الديناصورات التي تمتلك كل ما يلزم للصيد، غير أن الترودون كانت تواجه مشكلات تخصها.

والسبب في تلك المشكلات — وهو ما لم تكن تعلمه — هو اتساع المحيط الأطلسي، وهو الحدث الجيولوجي الجلل الذي هيمن على تلك الحقبة الطباشيرية بأكملها. فبينما اتجهت الأمريكتان غربًا أصبح بحر أمريكا الشمالية الداخلي الضخم ضحلًا وجافًّا. وبالقرب من الساحل الغربي — على بعد مئات قليلة من الكيلومترات من موقع فقس بيض الترودون — ثارت سلسلة من البراكين الجديدة كالجرح الغاضب. وأربك النشاط البركاني شبكة الحياة المعقدة في عدة نواحٍ، إذ كانت البراكين الصغيرة نشطة في معظم الأحيان، وتنبعث منها سحب الدخان والرماد المحملة بالكبريت الذي تحول إلى أحماض بعد اختلاطه بالأمطار، فاختفت أنواع عديدة من النباتات، وتحولت الأشجار على الأراضي الأكثر ارتفاعًا إلى جذوع عارية، وصار الدمار أكثر وضوحًا في الأماكن الأخرى حيث وصلت ألسنة الحمم الباردة إلى أعماق الغابة.

أما الثدييات التي تغذت عليها الترودون — والتي كانت أقرب نسبيًا إلى قاعدة سلسلة الغذاء — فلم يلحقها الضرر الذي لحق بالأنواع الأكبر من الديناصورات المفترسة، ففي الواقع كانت الثدييات، بأجسامها الصغيرة وجحورها العميقة ومعدل تناسلها السريع، مهيأة بصورة أفضل للصمود في أوقات الشدة من أسياد الأرض الأكبر حجمًا.

غير أن ديناصورات الترودون اعتادت أن تصطاد في قطيع، وهذه الأنثى قد تاهت عن قطيعها قبل بضعة أيام بفعل انبعاث رهيب لبخار ساخن من صدع ما، ومع أن الترودونكانت بمفردها، فإنها حملت بيضًا من آخر إخصاب لها، لذا فقد جاءت إلى موقع تعشيش القطيع القديم وكأن شيئًا في أعماقها تمنى أن يجد آخرين من بني جلدتها في الموقع، لكنها لم تجد أحدًا هناك، لم يكن هناك سواها.

كانت الترودون تتقدم في العمر، إذ بلغت سن الخمسين وعانت مفاصلها المجهدة التهاب المفاصل، وأصبحت هي نفسها مهددة، نظرًا لتقدمها في السن ونقص قوتها ومرونتها، وعلى أي حال فقد حان الوقت للحيوانات

المفترسة القوية أن تبرر وجود دروع الصفائح على أجساد مخلوقات أكبر حجمًا من الفيلة. وجب عليها أن تتوالد؛ فكل غرائزها تدفعها نحو ذلك.

لقد وضعت بيضها بالطريقة المعتادة. فماذا ستفعل؟

اتخذ العش شكل حفرة دائرية صنعتها من الوحل، ورتبت بيضها بدقة بالغة كدقة الجَرَّاح. تأكدت من أن البيضات العشرين ليست قريبة أكثر من اللازم بعضها من بعض، وأن الجزء العلوي من كل بيضة من البيض ذي الشكل الممدود يشير إلى المركز حتى تتمكن الأفراخ الناشئة من الخروج من البيض. ثم غطت البيض بالوحل والطحالب وعادت بضع مرات إلى العش تبحث بمخالبها وتنقر على القشرة، كبر البيض كما ينبغي، وتأكدت من ذلك. لكن الآن، كان البيض قد فقس — وخرج منه صغارها — ولم يعد يتبقى منها سوى قطع مبعثرة من اللحم الأحمر والعظم المقروض، وهنا في وسط عشها المحطم وجدت حيوانًا ثدييًّا يقف ووجهه ملطخ بالدماء والمح والوحل.

لذا وثبت الترودون.

رشت برجا البول والمسك في قلة حيلة، كرائحة تحذيرية تقول: «كن حذرًا فصائد الثدييات قريب»، ثم جرت من الغابة عائدة إلى الأرض الخالية من الشجيرات التي تقبع فيها الأنكيلوصورات.

لكن برجا ترددت وهي عند حافة الأرض الخالية من الشجيرات، وجب عليها أن تختار بين خطرين. من الضروري أن تهرب من الترودون الذي يطاردها، وأن تتجه عائدة إلى جحرها حيث ينتظرها صغارها، لكن إذ عبرت الأرض الخالية من الشجيرات مرة ثانية ستتخلى عن الحماية التي توفرها الأشجار. وسرعان ما أسفرت حسابات التفاضل والتكامل التي أجرتها لا شعوريًّا عن نتيجة، وقررت أن تقامر، وانطلقت تعدو عبر الأرض الخالية من الشجر.

وفتح طفل عملاق يشعر بالنعاس جفنه العظمي.

بدا الضوء الآن ساطعًا أكثر من ذي قبل فكشف عنها بوضوح، لكن ذلك ليس بسبب بزوغ الفجر، بل بفعل ضوء المذنب الذي كانت رأسه

هائلة وضبابية ومنيرة، وبدت الغازات المنبثقة منه مرئيّة بوضوح حتى من خلال الضباب. كان منظرًا مرعبًا غير عادي أثار فضولًا مبهمًا في عقلها الذكي وهي تجري.

ورأت ظلًّا بركن عينها.

فوثبت جانبًا على نحو غريزي في اللحظة نفسها التي ضربت فيها يد الديناصور بعنف على الأرض في المكان الذي كانت تقف فيه. جرت عائدة إلى قطيع الأنكيلوصورات وهي تنطلق هنا وهناك باحثة عن الاختباء في ظل الديناصورات اللامبالية.

طاردها الترودون بين الأرجل الضخمة، لكن حتى صائد الثدييات الغاضب لم يكن يريد إزعاج تلك الحيوانات المدرعة الضخمة التي يمكنها سحقه في ثانية بذيولها التي تشبه الهراوات. ورفع إنكيلوصور قدمه الضخمة، فانزلقت برجا بطريقة خطرة تحتها، وتأرجحت القدم الهائلة فوقها كالقمر الغارب، بينما كانت الترودونتهسهس وتحك الأرض بأقدامها في إحباط.

وأخيرًا وصلت برجا إلى الطرف الأقصى من الأرض الخالية من الشجيرات، وأفلحت حاسة الشم وغريزتها في إرشادها، وأسرعت نحو الشجيرات النامية تحت الأشجار.

كان جحرها شديد الظلمة إلى درجة أن عينيها الكبيرتين عجزتا عن تمييز أي شيء، وشعرت وهي تدخله كأنها تدخل فمًا مدفونًا في التراب الدافئ. لكنه يفوح برائحة عائلتها، وسمعت صوت أنفاس صغيريها وهما يتخبطان في عمى ويظهران لها من الظلام، وفي لحظات عضت أفواههما الضئيلة الدافئة بطنها بحثًا عن حلماتها، ولم يكن زوجها موجودًا بل ظل يطوف بحثًا عن طعامه في تلك الليلة من العصر الطباشيري.

لكن من المؤكد أن الترودونقريبة من هنا؛ فرائحة اللحم الدافئ والفرو والحليب التي ساعدت برجا على العودة إلى المنزل ستجذب الصياد إلى هنا أيضًا.

تغيرت الأوامر في رأسها ثانية. فغطت أطفالها بذيلها من الخلف وتراجعت إلى داخل الجحر بعيدًا عن المدخل. برجا صغيرة السن بعكس

الترودون — كان عمرها في الواقع بضعة أشهر فقط — وهذان الصغيران هما أول صغارها. وعلى عكس الديناصورات الولودة فإن النوع الذي تنتمي برجا إليه يلد عددًا قليلًا من الصغار. ولم تكن تتحمل أن تفقد صغارها؛ لذا فهي الآن تستعد للقتال من أجلها.

وسمعت صوت تحطم خلفها.

تحطم السقف الترابي، ممطرًا برجا وفرخيها بالأتربة، وبعد ثوانٍ غمر ضوء المذنب الظلمة وسطع سطوعًا مبهرًا، كأن قنبلة قد ألقيت. وامتدت من السماء إلى الجحر يد ضخمة طامعة، فتخبط الفرخان وأطلقا صرخة طويلة حادة ورشقت أحد المخالب الدامية في أحدهما، وفاضت روحه في لحظة، ورفعه المخلب خارج الجحر وخارج حياة برجا وقد أصبح مجرد قطعة لحم لا حياة فيها.

هسهست برجا في أسى، وجرت باتجاه مدخل الجحر بعيدًا عن المخلب. شعرت بالطفل المتبقي وهو يحاول الإسراع خلفها متعثرًا. لكن الترودون الماكر تنبأ بذلك، فدفع مخلبه إلى المدخل وحطم جدرانه الترابية. وأطبقت أصابع الديناصور وانتزعت حياة الفرخ الثاني وحطمت جمجمته وعظامه الضئيلة وحولت أعضاءه إلى عجين.

اندفعت برجا مذعورةً بعيدًا عن حطام المدخل — وقد تحطم عالمها في ثوان استغرقتها دقات قلب قليلة — وتراجعت بعيدًا عن السقف المحطم عائدة إلى أعمق نقطة في الجحر، غير أن ذلك الكف المزود بالمخالب الذي يعمل كالآلة أخذ يضرب السقف مرارًا حتى حطمه، وتدفق المزيد من ضوء النيزك الشاحب إلى الداخل.

كان جسد برجا يحثها على الهرب، على البحث عن الظلام، وجحر جديد، ومأوى، على أن تكون في أي مكان إلا هنا. واعتصرها الجوع، فقد مر على رشف مح بيض الترودونوقتًا طويلًا على مخلوق سريع الأيض مثل برجا.

لكن فجأة خارت قواها.

فربضت في مؤخرة جحرها المحطم وهي ترتجف، وتطوي كفيها على وجهها وكأنها تنظف فروها من العث. منذ لحظة ولادتها في هذا العالم الذي

يعج بالأسنان والمخالب الهائلة التي تأتي مندفعة من السماء دون سابق إنذار وبرجا تصارع بالغريزة وخفة الحركة من أجل البقاء، أما الآن فقد ذهب صغارها، وتبددت دوافعها الفطرية وجثم على صدرها شيء كاليأس.

وبينما كانت برجا ترتعد في بقايا جحرها، اهتز عالم بأكمله بداخلها.

إذا استسلمت الآن فلن تترك خلفها أي نسل: سينضب نهر الوراثة الجزيئي إلى الأبد، بالطبع ستتناسل أخريات من نوعها وستستمر أنسال أخرى إلى المستقبل البعيد، فتنمو وتتطور لكنها لن تكون من نسل برجا ولن تحمل جيناتها.

ولا جينات جوان يوسب!

لطالما خضعت الحياة لتصاريف الحظ.

سددت اليد الهائلة ذات المخالب ضربة أخرى على بعد سنتيمترات من برجا، وبعد أن نفد صبر الترودون، أدخلت رأسها الكبير في الجحر، فانزوت برجا أمام حائط من الأسنان المطبقة.

لكن بينما اقترب الديناصور منها صارخًا، شمت برجا رائحة لحم وعظام مطحونة وحليب حلو؛ إذ فاحت أنفاس الوحش الحارة برائحة صغار برجا.

وفي نوبة غضب اندفعت برجا إلى الأمام.

أطبقت الأسنان الهائلة كجزء ضخم من آلة وكأنما تحش شيئًا في الهواء حول برجا، غير أن برجا انزوت لتتجنب الأقواس المندفعة وغاصت بأسنانها في جانب شفتي الديناصور، كان الجلد المكسو بالحراشف قاسيًا، لكن برجا شعرت بقواطعها السفلية تغوص في اللحم الأملس الدافئ داخل فم ذلك المخلوق.

زمجرت الترودونوتراجعت، وجرت برجا -- التي كانت معلقة فيها بأسنانها — إلى خارج الجحر وارتفعت إلى أعلى في الهواء، أعلى عدة مرات من ارتفاع جسدها، ارتفعت إلى أعلى بمحاذاة بطن الترودونالمكسوة بالحراشف، حتى أصبحت في قلب برد الليل.

خمد غضبها، ولوت رأسها نازعةً قطعة من لحم الديناصور وهوت إلى الخلف في الهواء المليء بالضباب، حتى وهي تسقط اندفعت اليد ذات البراثن

من الجنب لتمسك بها، ولأن برجا من المخلوقات المعتادة على الحياة بين الأشجار، فقد انعطفت وهي تسقط، ومرة أخرى حالفها الحظ بالرغم من المخالب الجشعة التي اقتربت بما يكفي لتتسبب حركتها في تحرك الهواء، مما جعل شعر بطنها الأزغب ينتفش.

وقعت على رقعة من الوحل الذي داسته الأقدام فاستردت أنفاسها قليلًا، إلا أن الأسنان والمخالب هوت عليها ثانية وقد تلونت باللون الفضي في ضوء النيزك المخيف. وبحركة رشيقة تدحرجت برجا ووقفت على أقدامها، وجرت باتجاه جذور أقرب شجرة. قبعت برجا هناك وحيدة وقد اتسعت عيناها وفغرت فمها وهي تلهث وترتعش كلما تحركت ورقة شجر.

كانت هناك قطعة لحم صغيرة في فم برجا، نسيت أنها من لحم الديناصور، فمضغتها بسرعة وابتلعتها لتهدئ، ولو لدقائق، حدة الجوع الذي أخذ ينخر أمعاءها مع كل ما مر بها.

أخذت تمعن النظر فيما حولها بحثًا عن ملجأ أكثر أمانًا.

ظلت الترودونتذرع المكان جيئة وذهابًا وأطلقت خوارًا ينم عن إحباطها.

واختارت برجا الحياة، لكن أصبح لها عدو.

٢

إن مذنب ذيل الشيطان Devil's Tail قديم قدم الشمس.

نشأ النظام الشمسي من سحابة هائلة تدور فيها الصخور والمواد الطيارة. وبعد أن تعرضت السحابة لصدمة انفجار نجمي حطمتها، سرعان ما اندمجت وتحولت إلى مجموعة كويكبات: وهي كتل من الصخور والثلج تسبح بلا هدف في الظلام كالسمك الأعمى.

تصادمت الكويكبات، وعادة ما كانت تتحطم وتعود موادها إلى السحابة، غير أن بعضًا منها اندمج، ونشأت الكواكب من هذا العنف الفوضوي.

ضمت الكواكب الجديدة كرات صخرية بالقرب من مركزها، كالأرض، جففتها نيران الشمس، وبعيدًا عن كوكب الأرض نشأت عوالم ضبابية ضخمة، كرات مُتخَمة بالغازات، أخف الغازات على الإطلاق، الهيدروجين والهليوم، وهي الغازات التي تكونت في اللحظات القليلة الأولى لنشأة الكون نفسه.

وسبحت المذنبات — وهي آخر الكويكبات الثلجية — في أسراب مثل الذباب حول الكواكب الغازية العملاقة.

وكان ذلك العصر خطيرًا على المذنبات، حيث انجذب عدد منها إلى داخل مجال جاذبية كلٍّ من المشترى والكواكب العملاقة الأخرى ليُغذي تلك الوحوش الناشئة. أما المذنبات الأخرى فانجذبت إلى الداخل، إلى المركز المزدحم الدافئ بفعل جاذبية المقلاع التي تتميز بها الكواكب العملاقة، وتدك الأجزاء الداخلية من الكواكب.

لكن قليلًا من المذنبات الناجية المحظوظة اندفعت إلى الاتجاه الآخر، بعيدًا عن الشمس، ونحو الفضاءات الباردة الهائلة من ظلام الفضاء الخارجي، وسرعان ما تكونت سحابة غير كثيفة من المذنبات، وسارت كلها في مدارات بطيئة شاسعة تقطع نصف المسافة إلى أقرب نجم من النجوم المجاورة للشمس.

والمذنب المعروف باسم ذيل الشيطان هو أحد تلك المذنبات.

كان المذنب آمنا هنا، فعلى مدى معظم حياته الطويلة، كان أقرب جار له يبعد عنه بُعد المشترى عن الأرض. وفي أبعد نقطة من مداره، سبح مذنب ذيل الشيطان يسبح مسافة تساوي ثلث المسافة إلى أقرب نجم من النجوم المجاورة له، حتى وصل في النهاية إلى مكان لم يعد للشمس نفسها أي تأثير فيه بسبب وجود مجالات النجوم، وأصبحت كواكبها التي تحتشد حولها غير مرئية، وبعيدًا عن الحرارة برد المذنب بسرعة وتجمد إلى درجة الصلابة، وتحول سطحه إلى اللون الأسود بفعل الغبار السلكي، وحفر صقيعٌ لا مثيل له منحوتات ثلجية هشة على سطحه منخفض الجاذبية، فأصبح كأرض العجائب التي لا معنى لها ولن تراها عين.

هنا سبح المذنب أربعة مليارات عام ونصف، بينما على كوكب الأرض تحركت القارات ونشأت الأنواع واندثرت.

غير أن جاذبية الشمس الخفيفة، بدأت تسحبه، واستجاب المذنب ببطء، ببطء أبطأ من نشأة الإمبراطوريات.

وبدأ المذنب يتجه ناحية الضوء مرةً أخرى.

تسرب ضوء الفجر الأحمر إلى الجهة الشرقية من السماء. كانت السحب تشبه الفقاعات، والسماء مشوبة بدرجة غريبة من اللون البنفسجي المائل للزرقة. في هذا الزمان السحيق، كان الهواء نفسه مختلفًا: كثيفًا رطبًا محملًا بالأكسجين، فحتى السماء كانت ستبدو غريبة للعين البشرية.

وبرجا لا تزال تنتقل من مكان لآخر، منهكة وقد أبهر الضوء المتزايد بصرها. وكانت قد تجولت إلى أبعد من أي غابة، فلم يكن هنا إلا بضع أشجار متناثرة على مسافات متباعدة على أرض بدت مخضرة بفعل حصيرة كثيفة من نباتات السرخس المنخفضة. انتشرت أشجار السيكاسية — وهي أشجار طويلة لها لحاء خشن تشبه النخيل — وأشجار السيكاس القصيرة التي تبدو كثمار الأناناس العملاقة والجنكة بأوراقها الغريبة مروحية الشكل، وهي سلالة قديمة سيقدر لها البقاء إلى عصر البشر وما بعده.

في سكون ما قبل الفجر، لم يكن شيء يتحرك، لم تكن قطعان الديناصورات قد بدأت تنشط. والكائنات التي تصطاد ليلًا عادت جميعًا إلى جحورها وأعشاشها، إلا برجا التي تقطعت بها السبل في الخلاء وكل أعصابها متحفزة لخطر مرتقب.

عبر شيء ما السماء فافترشت برجا الأرض وتطلعت إلى أعلى.

ورأت شكلًا مجنحًا يحلق عاليًا في سقف السماء، ورأت ظله الجانبي بوضوح في ضوء الفجر الرمادي المائل إلى الحمرة، فقد كان يشبه الطائرة التي تطير على ارتفاع عالٍ، لكنه لم يكن طائرة؛ بل كائنًا حيًّا.

أسفر تقدير برجا الغريزي عن عدم إعارة الزاحف المجنح أي اهتمام باعتباره لا يثير القلق، فمن وجهة نظر برجا كان أكثر الكائنات الطائرة ضراوة يقل خطرًا عن كثير من الكائنات المفترسة التي ربما تتوارى تحت أشجار السيكاسية: كالعقارب والعناكب والزواحف اللاحمة النهمة، بما فيها الأنواع الكثيرة جدًّا من الديناصورات الصغيرة المتوحشة.

واصلت المشي باضطراب نحو الفجر البازغ، وسرعان ما بدأت الخضرة تقل، فصعدت برجا على الكثبان الرملية المتراصة ذات اللون الضارب للحمرة. وصعدت على ربوة منخفضة، فوجدت نفسها أمام سطح من المياه تمتد

أمواجه الواهنة حتى الأفق. كانت رائحة الهواء غريبة، تفوح بالملح، والهواء مشحونًا بالكهرباء على نحو غريب.

وصلت إلى الشاطئ الشمالي من الجزء الكبير من المحيط الذي كان يندفع إلى قلب أمريكا الشمالية، ورأت أشكالًا ضخمة وبطيئة تشق سطح المياه.

وإلى الجنوب الشرقي — حيث ضوء الفجر يبزغ — ظل المذنب معلقًا في السماء، ورأسه كتلة ذات لون أبيض باهت تنبعث منها ينابيع هائلة من الغاز الأبيض المائل إلى الرمادي الفاتح، وراقبتها برجا وهي تتدفق، وذيولها المزدوجة تنساب بعيدًا عن الشمس وتضرب حول الأرض مخلفة كتلة من السحب كالتي تحدث إثر إطلاق النار من البندقية، انعكس المنظر الرائع بأكمله على صفحة المياه الضحلة.

وتقدمت إلى الأمام باضطراب وفتور، ونزلت إلى شاطئ منحدر ضحل، تناثرت عليه أصداف البطلينوس والأعشاب البحرية نصف الجافة. أخذت برجا تقلب في هذا الخليط من البقايا، لكن الأعشاب البحرية مكونة من نسيج مملح قاسي الألياف، ورائحة الملح تفوح من المياه؛ فلم تكن المياه تصلح للشرب هنا.

أصبحت برجا مكشوفة من موقعها على الربوة المنخفضة، وكأن دائرة ضوء قد سلطت عليها.

اكتشفت شجرة سرخس لا يزيد طولها عن متر واحد، فاتجهت إليها باضطراب، وبدأت تحفر عند جذورها على أمل حفر جحر بسيط، لكن الرمال الناعمة أخذت تهوي إلى الخنادق التي كانت تحفرها، وفي النهاية نجحت برجا عند ارتفاع الشمس فوق الأفق في حفر حفرة تكفي لإيواء جسدها، فطوت ذيلها خلفها ووضعت كفيها على وجهها وأغمضت عينيها.

أعاد إليها دفء الجحر وظلامه ذكرى بيتها الذي فقدته، لكن رائحته كانت مختلفة: لم يكن يفوح منه إلا الملح والرمل والأوزون والأعشاب البحرية المتعفنة، وهي الرائحة الكريهة النفاذة التي تميز هذا المكان حيث تلتقي الأرضُ بالبحر. حمل بيتها رائحتها ورائحة زوجها، ورائحة فرخيها اللذين كانت رائحتهما مزيجًا منها ومن زوجها، إنه خليط رائع منهم جميعًا. ضاع

كل هذا الآن. فشعرت بغصة ندم عميقة، غير أن عقلها لم يكن ذكيًّا بما يكفي لتفهم سببه.

احتكت ساقاها بالرمل المحبب الغض وهي نائمة على مدار هذا اليوم الطويل بعيدًا عن بيتها.

كان كوكب الأرض في العصر الطباشيري عالمًا يتألف من محيط وبحار ضحلة وشواطئ.

ظهر بحر هائل يُدعى تيثس — كامتداد للبحر المتوسط — يفصل آسيا عن أفريقيا، ولم تكن أوروبا سوى مجموعة متناثرة من الجزر. والصحراء الوسطى في أفريقيا لم تزل قاع محيط. أصبح العالم دافئا لدرجة أنه لم تكن هناك قمم جليدية قطبية. وظلت مستويات البحار ترتفع مدة ثمانين مليون عام، فبعد مرحلة القارة الأم المعروفة باسم بانجيا *Pangaea*، أدى انتشار القارات وتكوين سلاسل الصخور المحاذية لليابسة والرفوف الصخرية الطباشيرية إلى دفع كميات هائلة من المواد الصلبة إلى المحيطات، وهو ما يشبه وضع قوالب طوب في دلو ممتلئ بالمياه، فأغرقت المحيطات الطافحة بالمياه القارات، لكن المحيطات الواسعة الضحلة ظلت تقريبًا بلا مد، وبقيت أمواجها هادئة.

تنوعت الحياة في البحر أكثر من أي عصر آخر على مر تاريخ الأرض الطويل، إذ امتلأ بطبقات هائلة من العوالق التي تمتص أشعة الشمس. وشكلت تلك العوالق القاعدة في الهرم الغذائي الهائل الذي يضمه المحيط. وعاشت الطحالب الدقيقة المسماة بالهابتوفيتا في تلك العوالق، وبعد مرحلة قصيرة من السباحة الحرة، صنعت الهابتوفيتا لنفسها دروعًا دقيقة ومعقدة من كربونات الكالسيوم، وبموتها غاصت مليارات الجثث الدقيقة في قيعان البحار الدافئة، حيث استقرت وتحجرت متحولة إلى صخر أبيض معقد وهو الطباشير.

وفي النهاية غطت القيعان الطباشيرية الضخمة التي يبلغ سمكها عدة كيلومترات ولاية كنساس وساحل خليج أمريكا الشمالية، وامتدت بطول النصف الجنوبي من إنجلترا وفي شمالي ألمانيا والدنمرك، لذا أطلق علماء

البشر على هذا العصر: العصر الطباشيري، أو الكريتاسي — نسبة إلى «كريتا» بمعنى طباشير — وذلك نسبة لأهم آثاره الباقية التي صنعتها العوالق الكادحة.

عندما بدأ الضوء يتسرب من السماء، خرجت برجا من مأواها. وجرت بصعوبة فوق الرمال الجافة التي كانت تتحرك من مكانها مع كل خطوة تخطوها — وترتطم أحيانًا ببطنها — بعد أن حصلت على قسط من الراحة لكنها شعرت بالجوع وأضنتها الوحدة.

وصلت إلى قمة الربوة التي عبرتها بالأمس، فوجدت نفسها في مواجهة سهل واسع قليل الانحدار يمتد إلى الجبال العالية التي يكللها الدخان الواقعة غربًا، أغرق البحر الأمريكي الداخلي الكبير هذا المكان من قبل، أما الآن، فقد انحسر البحر وتحول المكان إلى سهل تغطيه بحيرات ومستنقعات واسعة ورائقة متناثرة، وعمَّت مظاهر الحياة أنحاء المكان؛ فالتماسيح العملاقة تجوب المياه الضحلة كالغواصات القوية، وتقف الطيور على ظهور بعضها، وهناك أسراب من الطيور والزواحف المجنحة المكسوة بالفرو التي تشبه الطيور وقد بنى بعضها أطوافًا ضخمة لدعم أعشاشها في وسط البحيرات بعيدًا عن الكائنات المفترسة التي تعيش على اليابسة.

أينما وجهت نظرها، رأت ديناصورات.

تجمعت قطعان من الديناصورات البرمائية والأنكيلوصورات وبضعة تجمعات من الترايسراتبس Triceratops البطيئة الخرقاء حول المياه المكشوفة تتدافع وتتشاجر، وحول أقدامها تجري وتقفز الضفادع والسمادل والسحالي، كسحالي الإغوانة والوزغة والكثير من الديناصورات الصغيرة النهاشة. وفي الجو رفرفت الزواحف المجنحة والطيور وصاحت. وعلى حافة الغابة طافت الديناصورات المفترسة بحثًا عن طرائد من بين القطعان المتدافعة.

الديناصورات البرمائية ذات المنقار الشبيه بمنقار البط المعروفة باسم الهادروصور Hadrosaur هي أشهر الحيوانات العاشبة في هذا العصر، ومع أنها أكبر حجمًا من الثدييات المماثلة لها التي ستظهر فيما بعد كالثياتل

الأفريقية والظباء فإنها كانت تمشي على قدمين مثل النعام، وخطواتها واسعة وتتمايل رءوسها، تسير الذكور في المقدمة، وتتميز بأعراف هائلة تزين أنوفها وجباهها، وكانت تلك الأعراف بمنزلة أبواق طبيعية قادرة على إصدار نغمات منخفضة أشبه بالقدرة الصوتية الدنيا للبيانو. وسُمعت أصوات الهادروصور تنعق في شجن في أنحاء السهل الذي يلفه الضباب.

في الطليعة كان قطيع من ديناصورات الأناتوتيتان Anatotitan الضخمة يعبر سهل الفيضان. بدا القطيع كأنه موكب من اللحم، وبدت تلك المخلوقات الضخمة غير متوازنة على نحو غريب، إذ كان لها رجلان خلفيتان قويتان كل منهما أطول من إنسان بالغ، ورجلان أماميتان ضعيفتان نسبيًّا وتجرجر خلفها أذيالًا طويلة سمينة مخروطية الشكل. امتلأ الهواء بأصواتها الهادرة، وهي خليط من مخض بطون العواشب الضخمة وهدير أصواتها العميقة — التي تصل إلى ترددات أدنى من القدرة السمعية البشرية، يصعب على أي أذن بشرية إدراكها — وهي تطلق أصواتًا ليطمئن بعضها بعضًا.

وتجمعت ديناصورات الأناتوتيتان في بستان من أشجار السيكاسية، بدت أوراق السيكاسية الناضجة سميكة وشائكة، أما الأوراق حديثة النمو — التي يحميها تاج من الأوراق الأقدم — فهي خضراء حلوة المذاق، وهكذا وقفت ديناصورات الأناتوتيتان على أرجلها الخلفية والتهمت الأجزاء حديثة النمو. وما إن تعود أقدامها الهائلة إلى الأرض لتدعس شجيرات السرخس، حتى ترتفع سحب من الحشرات الطائرة، وكان قطيع ديناصورات الأناتوتيتان يترك أشجار السيكاسية محطمة. ومع أن ديناصورات الأناتوتيتان بعثرت الحبوب لتنمو في المستقبل في أماكن أبعد من هذه البقعة، فإن النباتات ستأخذ وقتًا طويلًا لكي تتعافى من الدمار الذي سببته.

ملأت الضوضاء أرجاء المكان، وهي خليط من صياح ديناصورات الهاردوصور المدوية القوية، وخوار الديناصورات المدرعة، وصيحات الطيور الحادة، وصفيق الأجنحة الجلدية للأسراب الهائلة من الزواحف المجنحة، وكل ذلك يتزامن مع زئير كريه تصدره أنثى التيرانوصور Tyrannosaur،

وهي أقوى الكائنات المفترسة في هذه المنطقة. عاشت كل تلك الحيوانات في أرضها؛ ولهذا كانت حرصت على إطلاعها على تلك الحقيقة، هي وأي تيرانوصورات منافسة.

ربما يُذكر هذا المشهد أحد البشر بأفريقيا، لكن مع وجود الكثير من العواشب تقوم مقام الظباء والأفيال وأفراس النهر والثياتل الأفريقية ووجود الحيوانات المفترسة التي تصطاد مثل الأسود والفهود والضباع، فإن تلك الحيوانات بدت أقرب إلى الطيور منها إلى أي ثدييات، فكانت تسوي ريشها بالمنقار وتتباهى وتتشاجر بعضها مع بعض وتبني أعشاشها بحركات سريعة غريبة، وذلك بفعل الهواء الغني بالأكسجين. إن الديناصورات الأصغر والأكثر رشاقة التي تجري أو تمشي متشامخة خلال الشجيرات بدت غريبة، إذ لم يشهد عصر البشر وجود مثل هذه الديناصورات التي تجري على قدمين. ولم تشهد أفريقيا في القرن الواحد والعشرين مثل اثنين من الأنكيلوصورات أخذا يتزاوجان، إذ بدأ كل منهما يقترب بمؤخرته من الآخر بعناية فائقة.

سيطر العمالقة على المكان، وكانت برجا لا تمثل فيه إلا عنصرًا ضائعًا عاجزًا لا يمت للمكان بصلة على الإطلاق. لكن برجا لمحت غابة أكثر كثافة تقع في الغرب، وتمتد على مستويات تعلو شيئًا فشيئًا وصولًا إلى البراكين البعيدة.

كانت برجا قد ضلت طريقها إلى هذا المكان المطل على البحر؛ فهي مخلوق ينتمي إلى الغابة والتراب، وهذا هو المكان الذي يجب أن تذهب إليه. لكن في سبيل التوجه إلى هناك، وجب عليها أن تعبر السهل المكشوف، وأن تتجنب كل تلك الأقدام التي تشبه الجبال. وانزلقت في ذعر أسفل المنحدر الرملي.

لكنها لمحت حركة خفية في نبتات السرخس المنخفضة، فأسرعت أسفل شجرة أروكاريا غير ناضجة، وانبطحت على الأرض.

وقف أحد الديناصورات المفترسة التي تمشي على قدمين — ساكنًا كالصخرة — يتأمل ديناصورات الأناتوتيتان المتدافعة. هذا الديناصور هو داينونيكوس Deinonychus، وهو أشبه بطائر بلا ريش لا يطير، ساكن

كالتمساح، ولم يكن له إلا رائحة خفيفة — فلم يكن جلده مزودًا بغدد مثل الثدييات — بل فاحت في الهواء رائحة نفاذة حريفة ملأت برجا إحساسًا بالخطر.

وقف قريبًا جدًّا من برجا، ولو تمكن من الإمساك بها فسيقتلها بلا شك في ثانية.

ظهر طائرٌ يتسلق الشجرة التي تقف تحتها؛ ريشه أزرق زاهٍ، وعظام أجنحته مزودة بمخالب وبمنقاره أسنان. كان هذا المخلوق من البقايا التي ظلت من أزمنة مضت، ومن الروابط القديمة التي تربط بين الطيور والتماسيح والديناصورات، صعد الطائر فوق الأغصان ليطعم صغاره من الأفراخ السمينة الصارخة، ومن الواضح أنه لم يرَ الديناصور المفترس الشبيه بالطيور.

غير أن الديناصور المفترس الشبيه بالطائر طاف بحثًا عن فريسة أكبر.

راقب الديناصور المفترس قطيع ديناصورات الأناتوتيتان بعيون كعيون الصقر لا تعبير فيها، وانصبَّ تفكيره الوحيد على معرفة أي من تلك العواشب الضخمة تصلح لتكون فريسته. وإذا دعت الضرورة، فإنه على استعداد لشن هجمات متعددة على القطيع بهدف الاختلاء بأحد أفراد القطيع، فيصبح من السهل مهاجمته.

لكن ثبت أن هذا غير ضروري.

فقد تخلف ديناصور بالغ من ديناصورات الأناتوتيتان عن الباقين. تلك الأنثى التي تمشي متعبة تبلغ ما يزيد عن سبعين عامًا، واستمر نموها طوال فترة حياتها حتى أصبحت أكبر أفراد القطيع، بل في الواقع من الأكبر من نوعها على الإطلاق، وغمست رأسها الثقيل في مياه البركة الضحلة التي يعلوها الزبد.

بدأ الديناصور المفترس يتجه خلسة بثبات وهدوء نحو أنثى الديناصور البالغة، فانكمشت برجا مرتعدة وهي تختبئ خلف شجرة الأروكاريا.

بلغ طول الديناصور المفترس ثلاثة أمتار، وهو مكتنز وسريع الحركة، وله أرجل نحيفة قادرة على الجري بسرعة عالية، وذيل طويل صلب للحفاظ

على التوازن، وله مخلب ضخم في كل طرف من طرفيه الخلفين، وأصابع قدميه ترفع المخالب بعيدًا عن الأرض وهو يمشي.

لم يكن الديناصور المفترس ذكيًّا جدًّا، فمخه صغير لا يزيد عن حجم مخ دجاجة، وظل يصطاد على انفراد؛ فلم يكن ذكيًّا بما يكفي للاصطياد في جماعة، لكنه لم يكن بحاجة ليكون ذكيًّا.

لم تكن أنثى ديناصور الأناتوتيتان هائلة الحجم تدرك الخطر الذي تواجهه.

اندفع الديناصور المفترس من مكمنه، ودار في الهواء بسرعة شديدة، وأنشب مخالب قدميه الخلفيتين التي كساها السخام في قسوة. وسدد الضربات بإتقان.

تدفقت الدماء، وحاولت أنثى ديناصور الأناتوتيتان — وهي تصدر خوارًا — أن تبتعد عن المياه، إلا أن أحشاءها السوداء انزلقت من الجروح العميقة الهائلة التي أصابت بطنها وتصاعد البخار منها. وأخيرًا انزلقت قائمتاها الأماميتان في الكتل الزلقة، وبصوت كصوت الرعد انزلقت للأمام ووقعت على صدرها. وبعد ذلك انهارت الساقان الخلفيتان الضخمتان بحركة تشنجية، فانقلب جسدها الضخم على جنبه.

التفت أحد ديناصورات الأناتوتيتان الأخرى للخلف، وأصدر خوارًا حزينًا عميقًا، جعل الأرض ترتعش من تحت برجا، لكن القطيع بدأ يبتعد.

ظل الديناصور المفترس الشبيه بالطائر يلهث بسرعة؛ منتظرًا أن تخور قوى ديناصور الأناتوتيتان.

ظهرت الديناصورات لأول مرة منذ أكثر من مائة وخمسين مليون عام في وقت كان فيه المناخ الجاف والحار ملائمًا للزواحف أكثر منه للثدييات، في تلك الأيام كانت القارات كلها ملتحمة في قارة واحدة ضخمة هي قارة بانجيا، وتمكنت الديناصورات من الانتشار في أنحاء الكوكب، ومنذ ذلك الحين والقارات تنقسم وتتحرك وتدور، والنطاقات المناخية تتغير في كل أنحاء الكوكب. ومن ثم تطورت الديناصورات تبعًا لتلك التغيرات.

إن الديناصورات مختلفة حقًّا.

لم تكن تصطاد مثل الثدييات المفترسة التي ظهرت في عصر لاحق، حيث يعني كونها من ذوي الدم البارد أنها لا تجيد الركض بسرعة لمسافات طويلة، فلا يمكنها أبدًا أن تتبع أسلوب الصيد القائم على الصمود وقوة التحمل، وذلك بالجري خلف فريستها مثلما تفعل الذئاب. لكن قلوبها القوية تحملت الإجهاد الشديد. وشابه تصميم أجسامها تصميم أجساد الطيور في عدة جوانب، فعظام رقبة هذه الديناصورات المفترسة وجذعها يحتويان على نظام من القنوات يسحب الهواء من خلال رئتيها بحيث يمكن تزويد الأنسجة بالأكسجين بمعدل عالٍ جدًّا، وكانت قادرة على العدو بأقصى سرعة لمسافات قصيرة وبذل طاقة هائلة في هجماتها.

اعتمدت الديناصورات في الصيد على أسلوب يقوم على الهدوء والكمون والصمت والسكون، يتخللها فترات وجيزة من العنف الوحشي.

لم تكن الثدييات تعاني انخفاض مستوى التطور بالمقارنة بتطور الديناصورات. وجاءت برجا نتاج تسلسل النوع الذي تنتمي إليه الذي استغرق عشرات الملايين من السنين من التطور، وكانت مهيأة للغاية مع بيئتها التي تقتات منها، لكن حقائق اقتصاديات الطاقة القاسية ساعدت على حبس الثدييات في الجانب المهمل من عالم تهيمن عليه الديناصورات. وعلى أي حال استطاعت الديناصورات المفترسة أن توظف الطاقة أفضل من الثدييات، فتمكن الديناصور المفترس من الركض مثل الغزال، لكنه ظل ساكنًا كالسحلية، إن ذلك الجمع بين كفاءة الطاقة والفعالية في القتل هو العامل الذي ساعد على تفوق الديناصورات لفترة طويلة.

ربما بدا الديناصور المفترس أشبه بطائر ضارٍ ضخم أو تمساح قوي، لكنه لم يكن حقًّا مثل تلك الحيوانات، ولم يكن مثل أي شيء شهدته الأرض في عصر البشر، إذ كان شيئًا لم ولن تشاهده عين بشر.

كان ديناصورًا!

وطريقة القتل المفضلة لهذا الديناصور المفترس هي الاندفاع من مخبئه والانقضاض على فريسته وإصابتها بجراح وحشية غير مميتة، قد تهرب الفريسة لكنها ستكون قد ضعفت بسبب إصابتها بجراح في أرجلها وخاصرتها، أو قطع أوتار أرجلها، مما يؤدي إلى نزيف دمائها

وإصابتها بصدمة. لم يكن الديناصور المفترس يزاول عادات تحافظ على نظافة الأسنان — فكانت رائحة أنفاسه نتنة جدًّا — وعضته تؤدي إلى نقل جرعة هائلة من البكتريا تجعله يستطيع أن يتعقب فريسته، بل ربما يهاجمها مرة أخرى، وربما يتعقب رائحة الجراح الملوثة النتنة، حتى يعجزها الضعف.

كان التوفيق حليفًا للديناصور المفترس حينها، إذ أعجز فريسته بضربة واحدة، فكل ما وجب عليه أن يفعله هو الانتظار حتى يصبح ديناصور الأناتوتيتان أضعف من أن يؤذيه، ويصبح بإمكانه التهام فريسته وهي لا تزال على قيد الحياة.

لم يكن الديناصور المفترس ليزعج نفسه بمحاولة افتراس برجا، ذلك الحيوان الصغير، مادامت مثل تلك الوجبة الدسمة في انتظاره، فتركت برجا نباتات السرخس التي تحتمي بها، وهي تتحرك بحذر ويقظة، وانطلقت مسرعة عبر سهل الفيضان المغطى بالشجيرات عبر الطريق المدمر الذي خلفه قطيع ديناصورات الأناتوتيتان حتى وصلت إلى مكان تحميه الأشجار.

لأول مرة منذ أربعة مليارات عام تلمس الحرارة مذنب ذيل الشيطان، مما أدى إلى ذوبان المنحوتات الثلجية الهشة التي يعود تاريخ تكوينها إلى ما قبل نشأة كوكب الأرض.

بدأت الغازات تغلي داخل الصدوع في قشرة المذنب، وسرعان ما تكونت حوله سحابة لامعة من الغبار والغاز يبلغ حجمها حجم القمر، وتسببت الرياح المحملة بالمطر الخفيف التي تهب من الشمس في تدفق الغاز والغبار خلف نواة المذنب الهابط، في أذيال يبلغ طولها ملايين الكيلومترات، وكانت الأذيال المزدوجة ضئيلة إلى حد بعيد، إلا أنها عكست الضوء وبدأت في اللمعان.

ولأول مرة بدأت عيون الكائنات التي تعيش على الأرض تميز المذنب الذي يقترب، دون أن تتمكن من الفهم.

واصل مذنب ذيل الشيطان السباحة في الفضاء، وهو ينفث ويدور، والغازات تنطلق من نواته المظلمة بقوة أكبر من أي وقت مضى.

٣

مضى يوم طباشيري حار طويل آخر.

نامت برجا طوال النهار وعائلتها الجديدة تلتف حولها، لدرجة أنها نامت وأفراخها ترضع، كانت أرض الجحر الدافئ ممهدة بالفرو الناعم الذي تتميز به الرئيسيات، وكان للجحر — قطعًا — رائحة برجا وزوجها الجديد وأفراخها الثلاثة التي مثلت نصف كيانها.

لم يُطلق زوج برجا على نفسه اسمًا ولم تطلق برجا عليه اسمًا كما لم تُسمِّ نفسها، لكن إن قُدِّر لها ذلك؛ لكانت أطلقت عليه اسم سكند (الثاني) إقرارًا بأنه لم يكن أبدًا أول من دخل حياتها.

نامت برجا وحلمت. تمتعت الرئيسيات بأمخاخ كبيرة ومعقدة بما يكفي لتتطلب تطهيرًا ذاتيًّا؛ لذا فقد حلمت بالدفء والظلام، والأسنان والمخالب البراقة، وبأمها التي تحتل مكانة كبيرة في ذاكرتها.

إن برجا من ذوات الدم الحار مثل الثدييات كافة.

تقوم عمليات الأيض في الحيوانات كافة على الحرق الخلوي البطيء للطعام في الأوكسجين. ووجب على أول الحيوانات التي استعمرت اليابسة — وهي الأسماك اللاهثة، التي خرجت من الجداول التي أصابها الجفاف واستخدمت المثانة الهوائية كرئات أولية — أن تعتمد على المحركات الأيضية المصممة للسباحة، وقد توهج الوقود الأيضي توهجًا باهتًا في أجساد أول الكائنات التي مشت على الأرض. ومع ذلك، فقد نجح انتقالها الفاصل إلى اليابسة. وحاليًّا وفي المستقبل ستستخدم كل الحيوانات — الثدييات والديناصورات والتماسيح والطيور والثعابين والحيتان — شكلًا مختلفًا من نفس الجسد رباعي القوائم القديم المؤلف من: أربعة أرجل وعمود فقري وضلوع وأصابع يد وأصابع قدم.

لكن قبل نحو مائتي مليون عام من مولد برجا، ظهر نوع جديد من الأيض في بعض الحيوانات، وبفعل الاصطفاء الطبيعي اضطرت حيوانات مفترسة إلى حرق طعامها بسرعة أكبر لتتمكن من تحسين فرصها في الصيد.

وتتطلب ذلك عملية إعادة للتصميم بالكامل، فقد احتاجت تلك الحيوانات المفترسة الطموحة إلى مزيد من الطعام ومعدل أكبر للهضم ونظام أكثر

كفاءة للتخلص من الفضلات، مما أدى إلى زيادة المعدل الأيضي لديها، حتى وهي ترتاح، وجب عليها أن تزيد قدرة الأعضاء المنتجة للحرارة مثل القلب والكلى والكبد والمخ، وأصبح معدل عمل خلاياها أسرع. وفي النهاية تغيرت حرارة جسدها وارتفعت واستقرت.

اتسمت الأجساد الجديدة ذات الدم الحار بميزة غير مقصودة، فقد اعتمدت الأجساد ذات الدم البارد على امتصاص الحرارة من البيئة؛ بينما لم تكن ذات الدم الحار في حاجة إلى هذا؛ لأنها استطاعت العمل بكفاءة عالية في برد الليل، في الوقت الذي اضطرت فيه ذات الدم البارد للراحة، كما عملت بكفاءة عالية في درجات الحرارة المرتفعة، في حين اختبأت ذات الدم البارد. بل تمكنت ذوات الدم الحار من افتراس ذوات الدم البارد — كالضفادع والزواحف الصغيرة والحشرات — في فترات الفجر والغسق التي باتت فيها تلك الحيوانات بطيئة الحركة عرضة للهجوم.

لكنها لم تستطع الإطاحة بالديناصورات من على عروشها؛ فقد حالت كفاءة طاقة الديناصورات الفائقة دون ذلك.

تبددت أحلام برجا بفعل وقع أقدام الديناصورات الضخمة وهي تشرع في أنشطتها اليومية المبهمة في عالم النهار الذي تدور وقائعه أعلى الجحر. اهتزت الأرض وكأن زلزالًا قد وقع، وانهارت أجزاء من جدران الجحر ووقعت حول العائلة الغافية، وبدا الأمر كأن العالم قد امتلأ بناطحات سحاب تتحرك.

لكن لم يكن بوسعها فعل أي شيء حيال ذلك، إذ بدت الديناصورات من وجهة نظر برجا من قوى الطبيعة التي لا حيلة لها فيها تمامًا كالطقس. في عالم الديناصورات الهائل الخطير هذا أصبح الجحر سكنًا، فكانت تربة الأرض السميكة تحمي الرئيسيات من حرارة النهار وتُؤوي الأفراخ التي ما زالت بلا فراء من برد الليل، أصبحت الأرض هي ملتجأ برجا من المناخ الديناصوري.

ومع هذا ففي ركن من عقلها الصغير توجد غرفة صغيرة من الذكريات تذكرها بأن هذا لم يكن بيتها الأول، وأن هذه ليست عائلتها الأولى، وهو ما

كان بمنزلة إنذار دائم، بأنها قد تفقد كل هذا أيضًا في لحظة أخرى تنقض فيها المخالب والأسنان المستهترة اللامعة.

وعندما حل الليل وبَرِد الهواء واستقرت الديناصورات في سُباتها الليلي، ظهرت حركة في الأتربة تحت أقدامها؛ إذ بدأت كائنات الليل تظهر: ومنها الحشرات والبرمائيات وغيرها الكثير من الثدييات التي تسكن الجحور، ودبت فيها الحياة — كتيار من الحياة المصغرة — وبدأت تتحرك حول أقدام الديناصورات التي تشبه الأعمدة.

ارتحلت برجا وزوجها معًا في تلك الليلة، وسارت برجا في المقدمة لأنها أكبر قليلًا وأكثر خبرة. وقطعا المنحدر الضحل المؤدي إلى البحيرة بخطوات حذرة، وأحدهما على بعد سنتيمترات قليلة من الآخر.

عادةً لم يكونا يطوفان بحثًا عن الطعام معًا، لكن الجو كان جافًّا والحصول على مياه له الأولوية الأولى لهما.

عانت تلك المنطقة من أمريكا جفافًا طويل لا مثيل له، وكل ما تبقى من البحر الداخلي القديم هو رقعة هائلة من اليابسة التي تغطيها المستنقعات، وتغمرها رسوبيات حديثة من جبال روكي التي تقع غربًا، إذ تآكلت تلك الجبال الصغيرة تقريبًا بنفس السرعة التي تكونت بها. وفي هذه الفترة من الجفاف النسبي أصبحت أي مياه راكدة محل اهتمام الحيوانات كافة الكبيرة منها والصغيرة.

وهكذا امتلأ شاطئ البحيرة بالديناصورات.

وقف قطيع من ترايسراتبس، وهي كائنات عملاقة لها ثلاثة قرون وحواف عظمية ضخمة تغطي منطقة الأكتاف. بدت مثل مجموعة من حيوانات الكركدن ذات الجلد المدرع، وهي تغفو متدثرة بتلك الدوائر الفضفاضة التي تحيط بأعناقها، واتجهت القرون الكاسرة للأفراد البالغين من القطيع إلى الخارج لردع أي معتدٍ جائع يطوف خلسة ليلًا.

ظهر الكثير من الديناصورات البرمائية أو الهادروصور ذوات المنقار الشبيه بمنقار البط، قدلعان منها متجمعة حول هذه البحيرة الضحلة في حشود مذهلة ذات ألوان زاهية، واضطر كل من برجا وسكند أن يتسللا

بجوار غابات من الأرجل الهائلة التي لا تتحرك، فبدا الاثنان كلاجئَيْن في حديقة تماثيل ضخمة. ومع أن ديناصورات الهادروصور نامت، فقد كان شخيرها خليطًا متنافرًا من أصوات النعيب والصياح ونبراتها عميقة وحزينة، وبدت أصواتها أقرب إلى نفير أبواق السفن التي يعرقل الضباب مسيرها.

في النهاية وصلت برجا وسكند إلى حافة البحيرة بعد انحسار المياه، فاضطرا أن يعبرا جانبًا من الطين الحجري نصف الجاف الذي غطى قاع البركة والذي كان زلقًا بفعل خليط من المخاط وأوراق النباتات. وفي الضوء المخيف الهادئ، شربت برجا بسرعة وشواربها ترتعش وقد اتسعت عيناها.

بعد أن روى الاثنان عطشهما، سار كل منهما في طريق. سار سكند على طول الشاطئ الضحل يبحث عن أكوام الرمال الصغيرة التي تشير إلى وجود دودة.

بينما اتجهت برجا إلى الشاطئ إلى حافة الشجيرات الخفيضة واقتفت رائحة أكثر جاذبية.

ووجدت على الفور مصدر الرائحة الكريهة، إنها سمكة ملقاة فوق كومة من أوراق السرخس التي لها لون الصدأ، وانكمشت جثتها داخل جلدها الفضي. مضى على موتها عدة ساعات، بعد أن خرجت من المياه بطريقة ما، وعندما وكزت برجا جلد السمكة بمخالبها انفجرت وانبعثت منها رائحة نتنة بغيضة، وظهرت من داخلها كتل من اليرقات الملتوية البيضاء. فأنشبت برجا مخالبها في الجثة، وأخذت تلتهم اليرقات؛ فذاب الطعام الشهي المملح بين أسنانها بعصارته اللذيذة.

ثم ظهرت سمكة أخرى ورأتها برجا وهي تطير فوق رأسها باتجاه اليابسة في مكان بعيد عند الأشجار الخفيضة، فجفلت برجا، وانبطحت أرضًا وشواربها ترتعش.

وقف ديناصور بلا حراك في المياه الضحلة، بدا طويلًا ومنتصب القامة ويبلغ طوله نحو تسعة أمتار وله فك يشبه فك التمساح وعلى ظهره زعنفة ضخمة ذات لون أحمر مائل للبنفسجي. أسنانه معقوفة ويداه مزودتان بمخالب كالنصال الهائلة طولها ثلاثون سنتيمترًا، وفجأة أنشب مخالبه في المياه، فتحول سطح المياه المتلألئ إلى شظايا. واندفعت من المياه حفنة من

الأسماك ذات اللون الفضي إلى الأعلى وهي تتمعج وتتلوى، فأطبق الديناصور بمهارة على معظم الأسماك من الهواء بفمه الطويل.

هذا الديناصور هو السكومايمس Suchomimus، وهو مهيأ لصيد السمك، وظهر هذا النوع من الأنواع المهاجرة حديثًا من أفريقيا، إذ عبرت جسور اليابسة التي ربطت القارات في أنحاء شتى. اعتادت أن تصطاد السمك بالبحث في المياه مثل الدببة، إما بغرفها بمخالبها أو بدفع فكها الذي يشبه فك التمساح في المياه معتمدة على أسنانها المعقوفة. وكانت تصطاد ليلًا، عند دخول معظم المخلوقات التي في حجمها في حالة سبات، لأن الأسماك في هذا الوقت تخرج إلى السطح والشاطئ لتتغذى بعد أن تكون اطمأنت لخفوت ضوء النهار.

تبعها من الخلف ذكر حيوان السكومايمس على بعد أمتار قليلة، اعتاد السكومايمس أن يصطاد في أزواج مثل الكثير من الديناصورات الصيادة.

ضربت أنثى السكومايمس صفحة المياه مرة ثانية بعنف، فانهمرت الأسماك على الشاطئ الجاف، وأخذت تتخبط لوهلة، وسرعان ما اختنقت الأسماك وانطفأت ومضات وعيها، غير أن أنثى السكومايمس تجاهلت ذلك الصيد السهل مفضلة — على ما يبدو — لعبة الصيد.

وهذا هو ما فعله ديناصور الداينوسوكوس Deinosuchus.

الداينوسوكوس ديناصور أشبه بتمساح عملاق، يسبح في مياه البحيرة بدون صوت تقريبًا وقد حجبته عن الأنظار طبقة رقيقة من نباتات السرخس المائي تنساب على سطح المياه، جفونه الشفافة تنسدل على عينيه الصفراوين وتبعد الأوراق الخضراء الضئيلة.

كانت الداينوسوكوس أنثى في الستين من العمر يبلغ طولها اثني عشر مترًا، أنجبت نسلًا كبر الكثير منه وأصبح يصطاد بنفسه. وتلك الفترة من الفترات المفضلة لدى التماسيح، إذ تستمتع فيها بالحصول على فرائس سهلة، وذلك لأن الجفاف يعم فيها وتتجمع فيها الحيوانات عند المياه، إذ تخلت عن بعض حذرها الفطري بدافع العطش. لكن الداينوسوكوس كان مخلوقًا قادرًا على اصطياد التيرانوصور، ونادرًا ما يجوع مهما كانت حالة الجو.

التماسيح من المخلوقات ذات الجذور العتيقة، إذ تنحدر من الديناصورات الصيادة التي تمشي على قدمين والتي عاشت قبل ما يقرب من مائة وخمسين مليون عام، وحققت نجاحًا هائلًا، إذ سيطرت على المجاري المائية والبحيرات الضحلة في أنحاء أمريكا الشمالية وما بعدها. وكانت من ضمن الحيوانات القليلة في العصر الطباشيري التي تموت بسبب كبر السن، والتي سيُقدر لها البقاء حتى عصر البشر وما بعده بكثير.

شعرت فتحتا أنف الداينوسوكوس المتكيفة بحركة زوج السكومايمس عند حافة البحيرة. وحانت اللحظة المناسبة، وانثنى ذيلها الضخم فجأة.

رأت برجا نوعًا من الهيجان عند حافة البحيرة، وطارت الزواحف المجنحة والطيور من أعشاشها الطافية وهي تنعق بصوت أجش في احتجاج، ولم يتح لذكر السكومايمس وقت كافٍ ليدير رأسه المجرد من التعبير قبل أن يطبق التمساح فكيه على إحدى قدميه الخلفيتين الهائلتين، وتحرك التمساح إلى الخلف وهو يجر السكومايمس، حتى جعله يصطدم بالطين، فتحطم عرفه الجميل. وأخذ السكومايمس ينعق ويقاوم، وحاول استخدام مخالبه الطويلة، لكن التمساح عاد به إلى المياه وهو يسبح في خفة.

لم تمر أكثر من دقيقة بعد ظهور الداينوسوكوس حتى تلاشى الاضطراب الذي نتج عن مروره، وهدأ سطح المياه. وقد بدا الارتباك على أنثى السكومايمس لخسارتها المفاجئة. وظلت تطوف بحافة البحيرة وهي تنعق بصوت حزين.

كان التمساح قاتلًا فوضويًّا، واختلط طين الشاطئ بالدماء، وتناثرت عليه أشلاء السكومايمس مثل قطع من الأمعاء اللامعة وجزل من اللحم الممزق، بل حتى الرأس المقطوع محدق العينين. كان أول من جاء ليقتات على البقايا مجموعة من الطيور الجارحة الصغيرة سريعة الحركة؛ إذ اندفعت من الشجيرات النامية تحت الأشجار الكبيرة وأخذت تحجل وتقفز وتدور حول نفسها، ويهاجم بعضها بعضًا مثل الملاكمين وهي تتنافس على جزل اللحم الطري.

وسرعان ما انضمت إليها حيوانات تيراصور Pterosaur وهي تضرب بأجنحتها بصوت عال. هبطت على الطين وأخذت تمشي بطريقة غير رشيقة

وقد بسطت أرجلها ومرافقها مثل الخفافيش. كانت رؤوسها طويلة ومناقيرها ضيقة وتحتوي على أسنان حادة. أخذت المناقير تلتهم بقايا السكومايمس، وعندما زاد عدد الديناصورات الطائرة التي انجذبت إلى المكان، أظلمت السماء من كثرة الأجنحة الهزيلة. وقد هبطت إحدى إناث الزواحف المجنحة تجاه برجا وسكند وهما يكدحان.

شعرت برجا بما سيحدث، أما سكند فلم يشعر بشيء!

كان الإنذار الوحيد الذي لفت انتباهه هو أنه شعر بدفقة من الهواء الثقيل تندفع نحوه، ولمح أجنحة هائلة يغطيها الشعر ترفرف فوقه. ثم سقطت عليه من السماء أرجل ذات مخالب وحاصرته مثل القفص.

وانتهى الأمر قبل أن يدري سكند ماذا حدث، إذ شعر بأنه يُرفع من بين ضجيج الأرض، إلى سكون لا يكسره إلا حفيف أجنحة التيراصور وهي تصفق، وصوت عضلاته التي تشبه الأسلاك وهي تتقلص بنعومة وصوت اندفاع الرياح. ونظر إلى الأرض، فبدت بلون أخضر داكن تتخلله زرقة البرك المتلألئة وهي تتراجع من تحته. ثم بدأ المشهد يزداد اتساعًا على نحو مهيب إلى الجنوب الشرقي، وهو الاتجاه الذي يظهر فيه المذنب. كان رأس المذنب يبدو وكأنه مصباح هائل خارق للطبيعة ويتدلى فوق اللسان البحري الذي اندفع إلى داخل اليابسة من جهة خليج المكسيك.

كل ما تمناه سكند هو الخروج من قفص اللحم المغطى بالحراشيف والعودة إلى الأرض وإلى جحره. ضرب المخالب التي كانت تمسك به وحاول أن يقضم اللحم المحيط بالمخالب؛ إلا أن حراشيف هذا المخلوق الهائل أعجزت أسنانه الصغيرة.

وأخذت أنثى التيراصورفي الضغط حتى بدأت ضلوعه الصغيرة تتكسر.

كانت أنثى التيراصورمن نوع الأزهدارشيد Azhadarchid، وفي حجم الطائرة الشراعية. ولها رأس ضخم وبه من الأمام منقار مستدق مثلث الشكل يخلو من الأسنان ومن الخلف عُرف معقد، وشكل الرأس يبرر انسيابية حركتها أثناء الطيران، وعظامها المفرغة وجمجمتها المسامية من العوامل التي أسهمت في خفة وزنها الشديدة، وكان جسمها صغيرًا،

ولم تكن إلا أجنحة ورأس، وتبدو أشبه برسم من رسومات ليوناردو دافينشي.

شكل عضد كل جناح إصبعًا هائل الحجم. وكونت الأصابع الثلاثة الأخرى مِخلبًا صغيرًا في منتصف الحافة الأساسية، وأرجلها الخلفية تحافظ على انبساط الجناح، ونظرًا لانشغال الأطراف الأربعة بالتحكم في مقاومة الهواء، لم يستطع أقارب نوع الأزهدارشيد الانقسام قط إلى أنواع — مثل الطيور — منها المهيأ للركض أو للعيش في البيئة البحرية، إلا أن التيراصور حققت نجاحًا ملحوظًا في هذا المضمار، إذ مثلت — إلى جانب الطيور والوطاويط — مجموعة من بين ثلاث مجموعات، فقط من الفقاريات التي أتقنت الطيران، وقد سبقت المجموعتين في ذلك. وبحلول ذلك الحين كانت الزواحف المجنحة قد حلقت في سماء كوكب الأرض لما يزيد عن مائة وخمسين مليون سنة.

استطاعت الأزهدارشيد الإمساك بالأسماك من المياه الضحلة، واعتمدت في كسب رزقها في أغلب الأحوال على تناول بقايا الفرائس التي يصطادها غيرها. ونادرًا ما أمسكت بثدييات حية. لكن سكند — الذي كان منهمكًا في التهام دودة سحبها من الرمال — لم يدرك أن ضوء المذنب المتوهج كشف عنه بوضوح. ولم يكن الحيوان الوحيد الذي تسبب الضوء الجديد الذي ظهر في السماء في تعكير إيقاعاته وغرائزه. وأصبح بهذا فريسة سهلة! وظل سكند بدون حراك، وقد أضناه الألم، والهواء البارد يعصف به.

ورأى الأجنحة الكبيرة المنبسطة فوقه، وضوء المذنب يسطع بلون أزرق من خلال جلد الجناح شبه الشفاف. رأى كائنات صغيرة تتلوى: إذ كان جناح التيراصور مساحة هائلة من الجلد عديمة الشعر تقريبًا تمتلئ بالأوعية الدموية، مما يجعله يمثل جذبًا قويًّا للحشرات الطفيلية. وكل سنتيمتر مربع من سطح الجناح تتحكم فيه حصيرة تحتية من النسيج العضلي، مما يساعد الأزهدارشيد على التحكم في مقاومة الهواء بدقة بالغة، وتفوق تصميم جسمها على أي طائرة شراعية من صنع الإنسان.

مالت أنثى أزهدارشيد جانبًا لتتجنب سحابة أدخنة بركانية خيمت فوق الجبال، ومرورها بهذا الهواء الملوث سيفتك بأجنحتها الحساسة. وتمكنت

من تحديد مواقع ينابيع الهواء الحار المتصاعدة — التي تعلوها السحب الركامية أو تقع فوق منحدرات التلال المواجهة للشمس — والتي يمكنها أن تستدنلها في رفعها لمستوى أعلى، فقد رأت العالم على أنه شبكة ثلاثية الأبعاد من السيور الناقلة غير المرئية، التي يمكنها حملها إلى أي مكان تشاء التوجه إليه.

كان عش الأزهدارشيد يقع على أحد سفوح جبال روكي، وفوق مستوى الأشجار، وارتفع جدار صخري شديد الانحدار بعلوٍ شاهق فوق حيد جبلي ناتئ ملطخ بذرق الطيور وتناثر فيه قشر البيض والعظام والمناقير. وطافت الأفراخ في أنحاء هذه المنطقة بجلبة وهي تبعثر قشر البيض الذي خرجت منه منذ أسابيع قليلة. ظهر ثلاثة أفراخ انتهت من التهام شقيقتها الضعيفة الرابعة.

حركت الأم نتوءًا عظميًّا في معصمها، أدت إلى تغيير شكل غشاء الأجنحة: فقد مكنها ذلك — مثل مكبح الهواء — من أن تبطئ من سرعتها، لكن دون أن تتوقف تمامًا، ثم توقفت على بعد متر أعلى الحيد الجبلي الناتئ ثم هبطت على أرجلها الخلفية. وأنزلت أغشية أجنحتها الرقيقة وطوت أصابعها المستخدمة في الطيران فوق ظهرها، ومشت إلى الأمام وركبتاها مطويتان إلى الخارج ومرفقاها محنيان.

سقط سكند من مخالبها، فوقع فوق الصخور القاحلة. ولمح أنثى الأزهدارشيد البالغة تطير مبتعدة. حاول أن يخمش الصخر لكنه كان صلبًا إلى حد عجز معه أن يحفر فيه جحرًا.

وبدأت الوحوش الصغيرة تقترب منه وتحاصره، بلونها الذي بدا في ضوء المذنب أزرق ضاربًا للسواد. كبر الصغار سريعًا، إذ كان الوالدان يقدمان لها أطعمة بروتينية من السمك واللحم. لكن أجنحتها لا تزال غير مكتملة النمو، بينما أجسامها ورءوسها كبيرة نسبيًّا، بدت وكأنها ديناصورات صغيرة جدًّا. قرض أول منقار أرجل سكند الخلفية وكأنه يلعب. فأثارت رائحة دمه فجأة ذكريات عن جحره، فأحس بشيء من الأسف، وكشر عن أسنانه، وأحاطت به الأفراخ الجائعة، وانتهى الأمر في لمح البصر، وتمزق جسده الدافئ.

أحست الأم بشيء يتحرك فوقها، فلوت رأسها وتطلعت إلى أعلى. ففي تلك السماوات الطباشيرية العالية المفعمة بالهواء الغني بالأوكسجين، كان هناك هرمٌ من الضواري لها القدر نفسه من الوحشية التي تميز نظراءها من الضواري التي تعيش على اليابسة. لكن عندما رأت هذا الظل الهائل المتمدد وهو يمرق في السماء التي ينيرها المذنب فوق أكثر السحب انخفاضًا، أدركت أنها ليست في خطر.

فلم يكن سوى حوت جوي!

أكبر حيوان طائر اكتشفه البشر هو نوع من الأزهدارشيد أطلق عليه اسم: كيتزالكواتلوس Quetzalcoatlus، مدى جناحيه خمسة عشر مترًا؛ أي ما يساوي أربعة أضعاف مدى جناحي النسر الأمريكي (الكوندور)، الذي يعتبر أكبر الطيور؛ وبدا كأنه طائرة خفيفة.

إلا أن أعظم الزواحف المجنحة فاقه حجمًا.

وصل عرض الأجنحة الرقيقة الهائلة لحوت الهواء إلى مائة متر. أما عظامه فلم تتعد كونها نماذج منتفخة، إذ كانت مجوفة وخفيفة إلى أبعد حد. وفمه تجويف هائل شفاف. والخطر الأساسي الذي يواجهه هو الحرارة الزائدة التي تصل إليه من ضوء الشمس المباشر في طبقات الجو العليا. لكن جسمه كان مزودًا بعدة آليات يمكنها تعويض ذلك، بما في ذلك قدرته على تغيير سرعة تدفق الدماء في جناحيه الهائلين، بجانب وجود حويصلات هوائية في جسمه تساعد أعضاءه الداخلية على التخلص من الحرارة.

وعاش في هذه الطبقة العليا الرقيقة من طبقات الجو، التي يطلق عليها الستراتوسفير، وهي أعلى من الجبال وتقع فوق مستوى معظم السحب. لكن ظهرت حياة على هذا البعد عن الأرض: وتمثلت في طبقة أثيرية رقيقة من عوالق من الحشرات والعناكب التي تذروها الرياح. وأحيانًا تنضم أسراب من الذباب الصغير أو حتى الجراد المجتمعة للتزاوج إلى داخل ذلك العالم العلوي. وكل ذلك مثّل الجائزة التي نالها الحوت، ولم يكف عن غرفها إلى داخل فمه الهائل.

وإذا نظر الحوت الجوي بعيدًا إلى أسفل لرأى ما يحدث بين سكند وأفراخ الأزهدارشيد والتيراصور. لكن من هذا الارتفاع فإن تلك الأحداث

البعيدة لم تكن ذات أهمية. وحين تطلع الحوت من عليائه إلى مملكته العلوية، رأى منحنى كوكب الأرض: الشريط الأزرق العريض من الهواء الأكثر كثافة الذي يميز الأفق، والبحر المتلألئ في ضوء المذنب. ولون السماء فوق الأفق بنفسجيًّا باهتًا عند الرأس. طار على علو شاهق للغاية حتى إنه لم يعد هناك إلا قدر ضئيل من الهواء لينشر الضوء كما يجب، ومع سطوع ضوء المذنب، فقد رأى نجومًا.

تمكن الحوت الجوي من الدوران حول الأرض، واتباع الرياح التي تهب في طبقة الستراتوسفير، والبحث عن تيارات هوائية صاعدة، كل ذلك بدون أن يلمس الأرض ولو مرة واحدة. تكونت فصيلته من عدد بسيط — حيث إن العوالق الهوائية لم تكن لتكفي عددًا أكبر — إلا أن الفصيلة تفرقت في أنحاء الكوكب. فقد تزاوج ثلاث أو أربع مرات على مدار حياته، حيث وجد نفسه يتجه إلى أعلى القمم الجبلية على وجه الكوكب بفعل آليات التوقيت الفطرية الناجمة عن حركة الشمس. كان التزاوج مملًا ويتم بطريقة روتينية تخلو من الحماسة، فإن مثل هذه المخلوقات الهائلة الرقيقة لم تكن تقدر على طقوس الغزل التي تمارسها الأنواع التي تعيش على اليابسة. ومع ذلك طفت الغرائز القديمة على السطح في بعض الأحيان. فقد تنشب معارك — في معظم الأحيان تتسم بالوحشية — وغالبًا تكون مميتة، وعند حدوث ذلك تتساقط أجسام هائلة من السماء، مما يثير حيرة سكان الأرض من الكائنات التي تقتات على الجيف.

الحوت هو الناتج النهائي لمنافسة تطورية ضارية، تهدف غالبًا إلى التخلص من الوزن الزائد؛ فكل فاض عن الحاجة على مر الأجيال استُبعد أو ترك ليضعف ويفقد أهميته. ولما كانت طبقة الستراتوسفير الباردة لا تشهد أي أحداث على الإطلاق، فإن مخ الحوت أصبح من بين الأعضاء التي طرأ عليها الضعف. والحوت من أفضل أعضاء فصيلته من حيث الشكل المبهر، لكنه من أكثرهم غباء؛ فلم يكن مخه — مع كونه يمثل مركز تحكم دقيق لأنظمة طيرانه المعقدة — أكثر من آلة حاسبة عضوية. لذا فإن المشهد الفضائي الرائع الموجود أمامه لم يكن ليعني له شيئًا.

ساعد الهواء الدافئ المحمل بالأوكسجين الذي يميز الفترة المتأخرة من العصر الطباشيري هذه المخلوقات الكبيرة والرقيقة على الإفلات من أسر مخالب الجاذبية، ولن يتوافر أبدًا بنكٌ من الجينات مثل الزواحف المجنحة للإمداد بالمواد الخام اللازمة لتجارب تطورية مماثلة. ولن تأتي أبدًا أي مخلوقات تسد هذا الفراغ في النظام البيئي، وفي المستقبل ستسبح الحشرات التي تذروها الرياح في سلام.

ولن يتسنى لعلماء الإحاثة من البشر، الذين يسعون للتعرف على هذه الحقبة البعيدة بما يتوفر لهم من قطع من العظام ونباتات متحجرة، إلا معرفة القليل عن حقيقة تلك المخلوقات العملاقة. ومعظم بقايا الزواحف المجنحة التي سيعثر عليها ستكون من الأنواع البحرية التي تعيش في البحيرات، وذلك لأن تلك هي البيئة التي حافظت على الحفريات بسهولة، وفي المقابل فإن المخلوقات التي سادت في جبال الهيمالايا والمناطق العليا وقمم الجبال لم تترك إلا أثرًا بسيطًا، إذ إن أماكن سكناها تعرضت لارتفاعات مفاجئة لطبقات الأرض فضلًا عن عوامل التعرية. ولم تكن أعلى الجبال التي شهدها عصر البشر — وهي جبال الهيماليا — موجودة في العصر الطباشيري.

كان سجل الحفريات الذي وصل إلينا ناقصًا أو انتقائيًّا. فعلى مر الزمان عاشت وحوش وظهرت عجائب لن يُقدَّر لأي إنسان أن يعلم بوجودها، مثل ذلك المخلوق الطائر العملاق.

بأرق لمسات من أصابع السبابة الممدودة الهائلة، مال الحوت بأجنحته وارتفع نحو طبقة غنية للغاية بالعوالق الجوية.

لم يكن الليل القاسي قد انتهى بعد مما يخبئه لبرجا.

فمع أنها فقدت سكند، فإنها واصلت البحث عن الطعام، إذ لم يكن هناك خيار لديها. الموت أمر شائع. ولم يكن هناك وقتٌ للحزن.

لكن لدى عودتها إلى جحرها الصغير رأت وجهًا مستطيلًا صغيرًا يندفع من الظلام تجاهها، ورأت خطمًا يرتعش، وعينين سوداوين لامعتين وشوارب تهتز: إنه واحد من فصيلتها، ذكر آخر!

هسهست ورجعت إلى الوراء بعيدًا عن مدخل الجحر. شمت رائحة دماء، إنها دماء صغارها.

وقع الأمر مرة أخرى! وبدون تردد، اندفعت برجا باتجاه الذكر. لكنه كان سمينًا وقويًّا — ولا شك أنه أجاد البحث عن الطعام — ودفعها عنه بسهولة.

ومن فرط يأسها أخذت تعدو في الفجر الذي تكتنفه الأخطار، في الوقت الذي بدأت فيه الديناصورات الهائلة في الحركة، وحمل الهواء صدى نداءات ديناصورات الهادروصور من على بعد. اتجهت إلى نبتة سرخس عتيقة تعرف مكانها، كانت الأرض التي تحيط بجذورها جافة ومتفتتة. فحفرت لنفسها مكانًا اختبأت فيه تحت النبتة، وهي تتجاهل الديدان والخنافس التي تتلوى في لزوجة، وما إن أحست بالأمان داخل شرنقتها الترابية، حتى رقدت وهي ترتعش، وهي تحاول أن تبعد عن مخيلتها الرائحة الرهيبة لدماء صغارها.

أما الذكر الغريب، فحين شم آثار رائحتها — رائحة الأنثى الخصبة — اقتفى أثر الرائحة إلى الجحر؛ وهو يغطي آثارها بأثره بحرص، وذلك بغرض إخفائها عن أي ذكور أخرى.

عند دخول هذا الغريب الجحر، اجتمع حوله الصغيران، وتغلبت الرائحة التي تنم عن انتمائه لنفس الفصيلة على الأمارات التحذيرية التي تفيد أنه ليس من العائلة. وأدرك من رائحة الفرو والمخلفات أن هناك أنثى تتمتع بالصحة والخصوبة تعيش في ذلك الجحر. كانت الأنثى ذات منفعة له، على عكس صغيريها. فلم تكن تفوح منها رائحته، ولم تكن تهمه في شيء. فبدون الصغيرين، يصبح للأنثى الحافز الكافي لكي تربي صغيريه هو.

صار الأمر منطقيًّا للغاية من وجهة نظر الذكر، بدأ الصغيران الأكبر حجمًا يعضان بطنه، بحثًا عن الحليب، وذلك أثناء افتراسه أختهما الصغرى.

وفي الليلة التالية لذلك عثر عليها الذكر مرة أخرى، بعد أن اقتفى أثر رائحتها. ولا تزال تفوح منه رائحة صغيريها القتيلين، وهما الجزء الذي فقدته من نفسها، فصدته بضراوة.

واستمر الأمر لليلتين إضافيتين قبل أن تتقبل تودده. وسرعان ما سيبدأ جسمها في احتضان صغيريه.

كان الأمر صعبًا.

لكن تلك هي الحياة.

لم يكن الأمر يمثل أي عزاء لبرجا أن تدرك أن هذه المنطقة المتوحشة — التي قضت على مجموعتين من صغارها — سوف تغرقها في القريب موجة من المعاناة والموت يتضاءل إلى جوارها كل ما مرت به.

٤

كان كوكب الأرض الآن داخل ذؤابة المذنب المنتفخة، وهي السحابة الغازية غير الكثيفة التي تلف النواة نفسها.

وفي الجانب المظلم من كوكب الأرض، بات من الممكن رؤية ذيل المذنب يمتد بعيدًا عن الشمس. وكأنما انجرف الكوكب إلى نفق متألق. لمعت السماء بالشهب، وهي قطع صغيرة من المذنب تقع بدون ضرر في الأجواء العليا، لتصنع عرضًا ضوئيًّا تلمحه الديناصورات دون أن تعبأ به.

لكن نواة المذنب فاقت أي شهاب حجمًا، وتحركت بسرعة عشرين كيلومترًا في الثانية بين الكواكب. وتخطت مدار القمر حيث لم يبق لها إلا خمس ساعات لتصل إلى الأرض.

طوال الليل ظلت الطيور والتيراصور تعبر عن حيرتها بإطلاق الصيحات، وأثناء النهار كان نشاطها يقل من شدة الإجهاد. لم تكن برمجتها العصبية تستوعب فكرة وجود ضوء جديد في السماء، وقد أضر بها ذلك على مستوى الخلايا. وفي البحور الضحلة كذلك، أضر الضوء المتواصل بالعوالق والمخلوقات الأكبر مثل: سرطان البحر والروبيان، وهكذا وجدت الكائنات التي تصطاد عند الحيد البحري طعامًا كثيرًا.

الديناصورات الكبيرة هي الوحيدة التي لم يزعجها الأمر، حيث إن ضوء المذنب لم يكن له تأثير على حرارة الجو، وعندما خيم الليل الحقيقي، راحت في سباتها المعتاد. وفي الليلة الأخيرة — من عهد استمر ما يقرب من مائتي مليون عام — نام حكام الأرض دون أن يكدرهم شيء.

لولا بيض التيرانوصور، لرأى الجيجانتوصور Giganotosaur الصغير الترودون المشرش قبل ذلك. وتحرك بسكون بين الظلال الخضراء بين حمى الجبال، وكان اسمه جاينت أي: العملاق.

في هذه المنطقة كانت الغابة غير كثيفة، وتناثرت أشجار الأروكاريا الطويلة وأشجار السرخس على مساحة من الأرض تمتلئ بالصخور البركانية الحادة. ظل كل شيء ساكنًا، وكل ما كان يمكنه الاختباء اختبأ، وكل ما سوى ذلك ظل ساكنًا على أمل أن يمر ظل الموت دون أن يؤذيه.

وصل إلى كومة من الطحالب والأشنة. وبدت من الخارج وكأنها كومة من الأطلال تكومت عشوائيًّا بفعل الهواء أو الحيوانات المارة. لكن العملاق تعرف على الفتات المميز، ورائحة آكلي اللحوم العالقة بها.

كانت الكومة عشًّا، وأطلق دمدمة تنم عن توقعه العثور على شيء، وهو يلقي بنفسه على العش وبدأ في تفكيكه بساعديه القصيرين الغليظين. وعندما ظهر البيض، أنشب جاينت إبهامه المزود بمخلب في الجزء العلوي من أكبر بيضة بدقة بالغة. أخرج الجنين من البيضة وشده من رأسه، رأى جاينت الفرخ يتلوى بضعف، والمخاط والمح يسيلان منه، بل إنه رأى قلبه الصغير يدق.

وكما أن أجنة القرود والغوريلا والبشر تتشابه إلى حد بعيد، فقد تشابهت كل أجنة الديناصورات. ولم يكن هناك وسيلة لمعرفة أن الفرخ كان أنثى التيرانوصور. كان الفرخ أعمى وأصم غير مكتمل، لكنه ناضل لفتح فمه وهو يتخيل الشكل المبهم للأم هائلة الحجم التي ستطعمه.

ألقى جاينت بالجنين داخل فمه وابتلعه دون أن يمضغه. وانتهت حياة الفرخ في ظلمة حمضية ساحقة.

لم يكن هناك فرق، فحتى ولو لم يمر كائن مفترس من هذا الطريق، فكان سيأتي وحش أكثر ضراوة من الجيجانتوصور ويدمر بيضتها وذلك قبل أن تتمكن من الخروج منها.

انحدر جاينت من سلالة تعود لأمريكا الجنوبية عبرت جسرًا أرضيًّا مؤقتًا إلى هذه القارة قبل نحو ألف سنة.

في عالم تنفصل فيه جزر القارات ببطء، تنوعت الديناصورات في تلك الحقبة. ففي أفريقيا عاشت آكلات عشب عملاقة بدائية الهيئة طويلة الرقبة، ومخلوقات مثل الكركدن أجسامها سمينة واطئة ولها أصابع إبهام مزودة بمخالب قوية. أما في آسيا، فظهرت ديناصورات صغيرة الحجم وسريعة في الركض، لها قرون وأنوف تشبه مناقير الببغاء. وفي أمريكا الجنوبية وقعت الديناصورات الكبيرة من الرتبة الفرعية سوروبود Sauropod فريسةً للديناصورات المفترسة العملاقة التي تصطاد في جماعات، وكان الأمر أشبه بردة إلى العصر القديم، إلى بانجيا. كانت ديناصورات الجيجانتوصور تصطاد ديناصورات التيتانوصور Titanosaur الهائلة في أمريكا الجنوبية منذ نعومة أظفارها.

كان جاينت ذكرًا غير ناضج، ومع ذلك فإن حجمه كاد يفوق أكبر آكلات اللحوم في تلك الحقبة. وكان رأسه — بالتناسب مع جسمه — يفوق في الحجم رأس التيرانوصور، ومع ذلك فحجم مخه أصغر من مخ التيرانوصور. وكانت ديناصورات الجيجانتوصور تقل عنها من حيث خفة الحركة والسرعة والذكاء، وتشابهت أكثر مع ديناصورات الألوصور القديمة، إذ كانت مهيأة للقتل بالأسنان واليدين، بينما انصبت كل الأنشطة التطورية لديناصورات التيرانوصور على رءوسها الهائلة، المهيأة للقضم مثل أسماك القرش. وبينما اعتادت ديناصورات التيرانوصور الصيد فرادى من مكمن، فإن ديناصورات جيجانتوصور، على العكس منها، اعتادت الصيد في مجموعات. فلم يكن القضاء على ديناصورات السوروبود التي يصل طولها إلى خمسين مترًا وتزن مائة طن يتطلب الذكاء، بقدر توافر القوة العارمة والتعاون البدائي وشيئًا من التهور.

لكن بعد أن جاءت ديناصورات الجيجانتوصور عبر ذلك الجسر الأرضي إلى بلاد جديدة، اضطرت لمواجهة مجموعة من الديناصورات المفترسة التي تعيش في المنطقة منذ زمن، وسرعان ما أدرك الغزاة أنهم لن ينجحوا في الاستيلاء على منطقة ما، إلا إذا عملوا في بادئ الأمر انقلابًا داميًا ضد الحكام من آكلي اللحوم.

وهذا هو السبب الذي يدفع ذلك الذكر الشاب من الجيجانتوصور لالتهام أجنة ديناصورات التيرانوصور، إذ كان جاينت يكسر بيضة تلو الأخرى بمنتهى التصميم، فتحول العش المبني بعناية إلى فوضى من البيض المهشم والطحالب المتناثرة وقطع من الأفرخ الممزقة. ظل جاينت يأكل جيدًا ويتحدى.

أصبح الوضع أشبه بانتقال للسلطة. كان ديناصور التيرانوصور هو سيد الضواري، والمسيطر على مساحة من اليابسة تبلغ مائة كيلومتر مربع، وكأن النظام البيئي المعقد لم يكن سوى مزرعة كبيرة تدار لمصلحته، وتأقلمت أنواع الفرائس مع وجود هذا الديناصور الهائل الذي يعيش بينها: إما بدروعها أو أسلحتها أو استراتيجيتها الرامية للمراوغة، ووصل كل نوع من الحيوانات التي تتعرض للافتراس إلى مرحلة لا تمثل فيها الخسائر، التي تقع بين صفوفها على يد الضواري، تهديدًا لقدرة القطيع على الصمود.

وبمرور الوقت سيتغير ذلك. إذ كان جوع الغزاة سيؤدي إلى تضاؤل سلسلة الغذاء، مما يعكر صفو حياة المخلوقات الكبيرة والصغيرة، وذلك قبل إرساء توازن جديد. ربما يستغرق ذلك وقتًا أطول حتى تتمكن أنواع الحيوانات التي تتعرض للافتراس من تعلم سلوكيات جديدة، أو تتبع أنظمة تأقلم جديدة أو تنمو لها دروع واقية بفعل التطور بهدف مواجهة الجيجانتوصور.

لكن كل ذلك لم يكن ليحدث. فلن يتاح لعشيرة الجيجانتوصور وقت كافٍ لاستغلال انتصارها، وعلى مدى الساعات القليلة الباقية.

وابتعد جاينت بعد أن دمر العش. لكنه لا يزال جائعًا، كعادته دومًا.

شم رائحة تعفن في الهواء الساكن الذي يلفه الضباب؛ ثمة كائن هائل قد مات، وربما يعني ذلك الحصول على لحم سهل المنال، اخترق أجمة من شجر السرخس، فخرج إلى الجهة الأخرى ليجد رقعة صغيرة أخرى خالية من الأشجار. ووراء تلك المنطقة رأى من خلال حاجز من النباتات الخضراء، جانبًا أسود من جبل بركاني صغير.

وهناك في منتصف الأرض الخالية من الأشجار، وقف ديناصور — أنثى من نوع الترودون — بدون حراك فوق كومة من التراب.

توقف جاينت في مكانه. لم تكن أنثى الترودون قد رأته. لم يكن برفقتها أيُ مرافقين، على عادة هذا النوع من الديناصورات الصغيرة سريعة الحركة التي تتحرك في قطعان.

بدا سلوكها يبدو شاذًا. وقد أتاح له ذلك فرصة، تبعًا لما أملاه عليه عقله المبرمج على الافتراس.

وجب على الترودونأن تتجاوز خسارتها لعدد من البيض.

على أي حال فقد كان هذا العصر عصرًا تغلب عليه الوحشية. وارتفعت نسب وفيات الصغار، وكذا شاع الموت المفاجئ في أي مرحلة من مراحل الحياة. هذا هو العالم الذي تطور طبقًا له ديناصور الترودون، ليتمكن من التأقلم معه والعيش فيه.

لكن لم يعد باستطاعة أنثى الترودون التأقلم معه.

لطالما كانت أضعف إخوتها. ولم تكن لتظل على قيد الحياة في الأيام الأولى بعد الفقس، لولا ما تعرض له إخوتها من قتل عشوائي قامت به إحدى الضواري الجوالة من الجرابيات. وقد تعلمت أن تتغلب على ضعفها الجسماني وأصبحت تجيد الصيد. لكن في قرارة نفسها ظلت هي الأضعف، ولطالما استولى إخوتها على طعامها، بل لطالما رأى إخوتها أنها تصلح لتكون وجبة خفيفة لهم.

ومن العوامل الإضافية التسمم البطيء الذي تسببه الأدخنة والأتربة المتصاعدة من البراكين في الغرب، فضلًا عن إدراكها أنها تتقدم في العمر، إضافة إلى الضربة القاسمة التي يمثلها فقدان صغارها، فهي لم تستطع نسيان رائحة برجا.

لم يكن من الصعب تتبع تلك الرائحة من البقعة التي تسكنها، عبر السهل الذي ملأه الفيضان إلى ضفة المحيط، والآن إلى هذا المكان الجديد الذي كانت تفوح منه رائحة برجا.

وقفت الترودون بلا حراك وبدون صوت. دلها أنفها على أن الجحر كان عند أقدامها. فانحنت وألصقت جانب رأسها بالأرض. لكنها لم تسمع شيئًا، إذ كانت الرئيسيات من الكائنات التي تميل للسكون.

لذا انتظرت لساعات طويلة، بينما ارتفعت الشمس رويدًا رويدًا في ذلك اليوم الأخير، وضوء المذنب يزداد سطوعًا شيئًا فشيئًا. ولم تجفل الترودون عندما توهجت الشهب من فوقها.

لكنها ما كانت لتهتم، حتى إذا شعرت بوجود الجيجانتوصور الذي يراقبها، وحتى إذا استطاعت أن تتفهم معنى ضوء المذنب. كل ما يهمها هو الحصول على برجا.

من المفارقات أن نسبة الذكاء العالية التي تتمتع بها الترودونتعد من العوامل التي أودت بها إلى ذلك المصير، إذ إنها من بين الديناصورات القلائل التي تتمتع بدرجة ذكاء قد تجعلها تقوم بتصرفات جنونية.

لم يكن الظلام قد حل بعد. أدركت برجا ذلك من بصيص الضوء المتسلل عند باب الجحر، لكن ماذا كان يعني النهار؟ ماذا يعني الليل في هذا العصر الغريب؟

وبعد مرور عدة ليالٍ يغمرها ضوء المذنب، أصبحت مرهقة وشكسة وجائعة، وكان ذلك حال رفيقها الثالث، وطفليها الاثنين اللذين بقيا على قيد الحياة. كبر الصغيران تقريبًا بما يكفي ليصطادا بنفسيهما ومن ثم فقد أصبحا مصدر خطر؛ إذا لم يتوافر ما يكفي من طعام، فإن أفراد العائلة — وهم حبيسو ذلك الجحر — قد ينقلب بعضهم على بعض.

توالت الأوامر في عقلها، وتوصلت إلى قرار جديد، وهو أن تخرج مع شعورها أن الوقت غير ملائم، وحتى إذا كانت الأرض يغمرها الضوء. وتوجهت ناحية مدخل الجحر في تردد.

وما إن أصبحت خارج الجحر، حتى توقفت لتصغي، ولما لم تسمع أي خطوات أقدام تهز الأرض، تقدمت وخطمها يهتز وشواربها تستطلع.

كان الضوء قويًّا وغريبًا. وتساقطت من السماء بقايا المذنب، ومرقت عبر قبة السماء، مثل الألعاب النارية الصامتة. كان المشهد مذهلًا، وآسرًا إلى حد ما، لكنه لم يكن مخيفًا.

هوى من السماء قفص هائل، فتراجعت في اضطراب ناحية جحرها. لكن تلك الأيدي الهائلة كانت أسرع منها، وأطبقت عليها أصابع سميكة مفتولة العضلات.

وجدت نفسها تواجه صفًّا من الأسنان كالأوتاد، مئات منها، ووجهًا هائلًا وعينين كبيرتين من عيون الزواحف بحجم رأسها وفمًا عملاقًا مفتوحًا، وشمت برجا رائحة لحم.

كان وجه الديناصور، بخطمه الكبير المكسو بجلد رقيق، يفتقر إلى قابلية تحريك العضلات، على عكس برجا. أصبح رأس الترودون صُلبًا وخاليًا من التعبير، كوجه الرجل الآلي. لكن كان كيان الترودون بأكمله منصبًّا على ذلك الكائن الصغير الدافئ الذي تطبق عليه في قبضتها، مع أنها لم تستطع التعبير عن ذلك.

التصقت أطراف برجا فوق بطنها، وكفت عن المقاومة.

من الغريب في تلك اللحظة الفاصلة أن برجا شعرت بشيء من السكينة ستحسدها عليها الترودون. أصبحت برجا عجوزًا، وأصاب البط حركتها وتفكيرها. فعلى كلٍّ، كانت قد أنجزت ما يمكن لمخلوق مثلها أن يأمل في إنجازه، إذ أنجبت ذرية. حتى وهي في قبضة الترودون الباردة كانت تشم رائحة صغارها على فرائها. شعرت بالرضا. سوف تموت في ثوانٍ لكن الفصيلة سوف تستمر.

لكن ظهر شيء يتحرك وراء جسم أنثى الترودون الضخم، كان شيئًا يفوقها ضخامة، جبلًا ينسل بصمت مطبق.

إن أنثى الترودون مهملة للغاية. ولم يهتم جاينت بالسبب. ولم يهتم بفتات الطعام الدافئة التي كانت تمسكها بين يديها.

جاء هجومه سريعًا، وصامتًا ومتوحشًا للغاية، انقض على رقبتها وعضها عضة واحدة.

شعرت الترودون بالصدمة للحظة، وبألم لا يوصف، ثم لم تلبث أن شعرت بنوع غريب من الارتياح وذلك حين اكتنفها الصفاء.

انفتحت يداها، فسقطت منهما كرة من الفراء.

قبل سقوط جسم الترودون كان العملاق قد عاود هجومه. وبحركة سريعة شق تجويف البطن وبدأ يفرغه من الأحشاء، ثم تخلص من محتوياتها وهو يحركها يمنة ويسارًا، وتناثر في المكان بقايا غذاء لم يُهضم اختلطت بالدماء.

بعد قليل جاء أخواه مسرعين من جهة الأرض الخالية من الأشجار. اعتادت ديناصورات الجيجانتوصور أن تصطاد في جماعة، لكن مجتمعها كان هشًّا في أحواله العادية. علم جاينت أنه ليس في مقدوره أن يحمي فريسته، لكنه صمم على ألا يفقدها كلها. فحتى وهو يمضغ كبد الترودون، التفت إلى أخويه ليركل أحدهما أو يعض الآخر.

وجدت برجا نفسها على الأرض، وحين تطلعت إلى أعلى، رأت جبالًا تتعارك بضراوة ووحشية. وانهمر من حولها وابل من الدماء واللعاب. لم تكن تدري ما حدث، إذ كانت مستعدة للموت، وها هي ذي واقعة على التراب، وطليقة مرة أخرى.

ازداد الضوء في السماء غرابة شيئًا فشيئًا.

من الممكن أن تمر نواة المذنب خلال كتلة الفضاء التي تشغلها الأرض خلال عشر دقائق فقط.

فقد المذنب قدرًا كبيرًا من كتلته أثناء الغليان العظيم الذي مر به، لكن الكتلة المفقودة لم تكن تمثل خطورة هائلة. فلو تمكن من إنهاء دورته الكاملة حول الشمس لكان من الممكن أن يعود إلى سحابة المذنب ولبرد بسرعة، وتبددت ذؤابة المذنب الجديلة وذيله في الظلمة، ليستأنف المذنب حلمه السرمدي.

لكن ذلك لم يحدث.

لأيام وأسابيع انطلق المذنب الهائل في السماء ببطء، وسرعته التي تختلف كل ساعة لا يمكن أن يلاحظها أي مخلوق ينظر إليه دون فهم. لكن الرأس المتوهج أصبح ينحدر: ظل ينحدر رويدًا رويدًا من السماء مثل الشمس وهي تغرب، وهي تغوص ناحية الأفق الجنوبي.

وخيم الصمت في أنحاء الجانب الذي يضيئه نور النهار من الكوكب. تطلعت الديناصورات البرمائية ذات المنقار الشبيه بمنقار البط المتجمعة حول البحيرات الجافة إلى أعلى. وكفت الديناصورات المفترسة الشبيهة بالطيور عن ترصد الفرائس ومطاردتها لدقائق، وعقولها الذكية تحاول استيعاب هذا المنظر الفريد. وطارت الطيور والزواحف المجنحة من أعشاشها رأماكن الفقس وقد روعها تهديد لم تتمكن من تفهمه فلجأت للطيران لتهدئ من روعها.

وتوقفت ديناصورات الجيجانتوصور المتعاركة عن التهام فريستها.

وأسرعت برجا لتحتمي بظلمة جحرها. بينما وقع رأس الترودون المبتور خلفها، واستقر عند مدخل الجحر وهو يتبع برجا بنظرة مرعبة جوفاء، بينما ظل الضوء يغير اتجاهه.

الفصل الثاني

صيادو بانجيا

بانجيا: مائة وخمسة وأربعون مليون عام قبل عصرنا الحالي.

قبل ثمانين عامًا من مولد برجا كان أحد ديناصورات الأورنيثولستيس Ornitholestes يطوف في أنحاء الغابة الجوراسية الكثيفة، يبحث عن فريسة من ديناصورات الديبلودوكس[1] Diplodocus.

وأنثى الأورنيثولستيس تلك من أنواع الديناصورات النشطة من آكلات اللحوم، ويبلغ طولها طول الإنسان البالغ، لكن جسمها الرشيق يزن نصف وزن الإنسان البالغ. لها أرجل خلفية قوية وطويلة، ولها ذيل طويل، يساعد على حفظ توازنها، وأسنان حادة مخروطية، ويغطي جسمها ريش أزغب بني اللون، يفيد في التمويه أثناء وجودها على أطراف الغابة، إذ تطور هذا النوع ليصبح متخصصًا في صيد الجيف والبيض. بدت أشبه بطائر كبير يكسوه ريش خفيف.

لكن جبينها يشبه جبين الإنسان إلى درجة كبيرة، ولها وجه حاد القسمات يشبه وجه التمساح، والجزء العلوي من جمجمتها مرتفع ومتنافر مع الوجه، ويلتف حول وسطها حزام، وسوط مبروم. وتحمل أداة تشبه الحربة بين يديها الطويلتين القابضتين.

---

[1] من الديناصورات العاشبة كبيرة الحجم، له رقبة طويلة وذيل مثل الكرباج، وكان ضمن الحيوانات التي عاشت في الحقبة الجوراسية.

وكان لها اسم هو: ليسنر (المصغية)؛ لأنها مع صغرها لا يزال الواضح أنها تتمتع بحاسة سمع دقيقة للغاية.

وليسنر من الديناصورات الذكية، التي تصنع أدوات وتحمل اسمًا.

ومع الطابع التدميري الذي يميز قطعان الديناصورات البرمائية ذات المنقار الشبيه بمنقار البط والديناصورات المدرعة التي عاشت في عصر برجا، فإنها لم تكن تمثل سوى ذكرى لعمالقة الماضي. فقد شهد العصر الجوراسي وجود أكبر الحيوانات التي تعيش على اليابسة على الإطلاق، لكن قضى عليها الصيادون من حاملي الحراب ذات الأطراف المسممة.

تسللت ليسنر ورفيقها بهدوء في البقاع الخضراء الظليلة من أطراف الغابة، وكانا يسيران بتنسيق غير معلن، وكأنهما نصفان متطابقان لمخلوق واحد. وعلى مدى أجيال خلت، تعود إلى أسلافها من الديناصورات التي تفتقر إلى الذكاء، فإن هذا النوع من الديناصورات اللاحمة معتادة على الصيد في أزواج، كما يفعل هذان الاثنان.

ملأت غابات ذلك العصر الأشجار العالية، من الأروكاريا الصنوبرية والجنكة، والأماكن المفتوحة من الغابة يكسوها غطاء نباتي من نبتات السرخس الأرضي، وكذا الشجيرات وشجيرات السكاسية الشبيهة بالأناناس. لكن لم تكن ثمة نباتات مزهرة. بدت الغابة عالمًا يغلب عليه اللون الرمادي، ويعطي انطباعًا بعدم الاكتمال. عالم يتألف من اللونين الرمادي المائل للخضرة والبني، عالم مجرد من الألوان، يطوف فيه الصيادون.

كانت ليسنر أول من سمع صوت اقتراب قطيع ديناصورات الديبلودوكس، شعرت به على هيئة نقرات هادئة في عظامها، وعلى الفور هوت على الأرض، وهي تزيح السرخس وأشواك الصنوبريات من طريقها، ثم ألصقت رأسها في التربة بعد تسويتها.

بدا الصوت دمدمة عميقة أشبه بهزة أرضية بعيدة. تلك أعمق الأصوات التي تصدرها ديناصورات الديبلودوكس، والتي كانت ليسنر ترى أنها أصوات قرقرة البطون، وهي أصوات دمدمة احتكاك ذات تردد منخفض يمكن سماعها على مدى عدة كيلومترات. من الواضح أن القطيع غادر

الأيكة التي أمضت فيها الليل البارد، تلك الساعات الطويلة التي تعد هدنة ينسل فيها الصياد والفريسة في أضغاث أحلام لا وجود لها. إن وقت تحرك الديناصورات هو فرصة لإزعاج القطيع، وربما لانتزاع صغير غير حصين أو مريض.

ورفيق ليسنر يدعى ستيجو، وكان عنيدًا، ويصعب إقناعه بالتصرف خلافًا لإرادته، مثل ديناصورات ستيجوصور Stegosaur القوية، وإن كانت تشتهر بصغر حجم أمخاخها. وسأل ستيجو: هل يتحركون؟

أجابت هي: نعم، يتحركون.

اعتادت الديناصورات من آكلي اللحوم العمل في صمت. لذا كانت لغتهم مؤلفة من نقرات خفيفة وإشارات يدوية، ووضعية منحنية للجسم، دون أي تعبيرات على الوجه، إذ إن وجوه نوع الأورنيثولستيس كانت جامدة شأنها شأن كل الديناصورات.

وعند اقترابهم من القطيع، أصبحت أصوات بطون تلك الحيوانات الهائلة مسموعة بوضوح، وجعلت الأرض نفسها تهتز، وجعلت خوص السرخس الواهن يرتجف والغبار يتطاير إلى أعلي، في ترقب. وسرعان ما سمع الاثنان وقع أقدام هذه الحيوانات الجبارة، وهي تشبه صدمات هائلة بعيدة يدوي صداها وكأنها جلاميد تتدحرج من عَلٍ.

عندما وصل الاثنان إلى أقصى أطراف الغابة، كان القطيع أمامهما.

وعندما سارت ديناصورات الديبلودكس، تبدل المنظر، وكأنما التلال قد انتزعت من مكانها وبدأت تنساب فوق اليابسة. وكان من الصعب على أي مراقب من البشر أن يستوعب ما يراه. لا بد أن هناك خطأ في النسبة المقياسية، فلا بد أن هذه الكتل التي تدب كانت قطعًا من الظواهر الجيولوجية، وليست من عالم الحيوان.

وأكبر أفراد قطيع الديبلودوكس المؤلف من أربعين ديناصورًا هي أنثى هائلة الحجم، وظلت زعيمة القطيع لما يزيد عن قرن. طولها ثلاثون مترًا، ويبلغ ارتفاعها خمسة أمتار عند مستوى الورك، وتزن عشرين طنًّا، لكن صغار القطيع، وبعضها يبلغ عمره عشر سنوات، كانت أكبر حجمًا من حجم فيل أفريقي كبير. سارت زعيمة القطيع، وذيلها وعنقها الهائلان

ممتدان لعشرات الأمتار أفقيًّا بزاوية موازية للأرض. وكان ثقل بطنها الضخم محملًا على فخذيها العريضتين، وأرجلها التي تعوزها الرشاقة. وامتدت أربطة سميكة تشبه الحبال على طول عنقها وفوق ظهرها وعلى طول عمودها الفقري. وشد ثقل عنقها وذيلها الأربطة الممتدة على الرقبة، وبهذا ساعد على توازن ثقل الجذع. وعلى ذلك كانت تبدو أشبه بجسر معلق يسير على أربع أقدام.

بدت رأس زعيمة القطيع صغيرة إلى حد مضحك، وكأن رأسها ينتمي إلى حيوان آخر، ومع ذلك فتلك هي القناة التي يمر بها كل ما تتناوله من غذاء. كانت تأكل باستمرار، وفكاها القويان يمكنهما قضم أجزاء من جذوع الأشجار، بينما عضلاتها الهائلة تنساب أثناء الهضم السريع للغذاء قليل الجودة الذي تناولته، بل أكلت النباتات أثناء نومها. ولم يكن العثور على طعام يمثل أي مشكلة في عالم يزخر بالنباتات المورقة في مثل هذه الحقبة المتأخرة من العصر الجوراسي.

لم يكن باستطاعة مثل هذا الحيوان الضخم الحركة إلا ببطء شديد. لكن زعيمة القطيع لم يكن لديها ما يخيفها، فقد كان حجمها الهائل يحميها، فضلًا عن وجود صف من الأشواك الحادة التي تشبه الأسنان والصفائح المدرعة فوق ظهرها. لم تكن في حاجة إلى أن تكون ذكية أو خفيفة الحركة، أو أن تكون ردود أفعالها سريعة؛ فقد كان مخها الصغير مهيأ في المقام الأول لتسهيل الميكانيكا الحيوية التي تتحكم في جسمها الهائل، بما في ذلك الاتزان والوضعية والحركة. ومع أن حجمها كان هائلًا، فإن زعيمة القطيع كانت رشيقة على نحو غريب، كراقصة باليه تزن عشرين طنًّا.

وأثناء سير القطيع زمجرت الديناصورات العاشبة وخارت بضيق، كلما كان أحد أفراد القطيع يعوق فردًا آخر بجسده الضخم. وفي خلفية تلك الأصوات سمع صوت الطحن الصادر عن معداتها. ففي تلك الأحشاء القوية، دمدمت الحجارة وسحقت بلا انقطاع، للمساعدة في تقطيع الغذاء، مما جعل من أحشاء هذا النوع من الديناصورات آلة إعداد وتقطيع طعام ذات كفاءة عالية، تطحن وتقطع الغذاء ذا النوعية الرديئة الذي لم تمضغه

تقريبًا تلك الرأس الصغيرة والأشداق الخالية من العضلات. وبدا صوت أحشائها كصوت آلة ثقيلة تعمل.

صاحب هذا الموكب الضخم كائنات اعتادت على مصاحبة معسكر آكلات النباتات الهائلة؛ فالحشرات تطير حول ديناصورات الديبلودوكس وحول أكوام روثها الضخمة، وتحلق بين أسراب الحشرات تلك مجموعة متنوعة من الزواحف المجنحة الصغيرة التي تتغذى على الحشرات. وبعض الزواحف المجنحة تلك تقف على ظهور ديناصورات الديبلودوكس التي لم تكن تعبأ بها. وزوج من الطيور البدائية يصفق بأجنحته مثل الدجاج ويركض حول أقدام الديبلودوكس ويلتقط الديدان والخنافس والقرادات بحماس. والديناصورات الآكلة للحوم التي كانت تصطاد غيرها من الكائنات الصيادة. رأت ليسنر قطيعًا من ديناصورات السيلورصور Coelurosaur، تطارد فرائسها خلسة بتصميم بين أرجل الديبلودوكس التي تشبه جذوع الأشجار، وهي تعرض نفسها كل لحظة لخطر الموت دهسًا تحت قدم تخطو بلامبالاة أو بضربة ذيل.

كان القطيع أشبه بجماعة كبيرة متنقلة، أو مدينة لا تتوقف عن الزحف في أنحاء الغابة. وكانت ليسنر جزءًا من تلك الجماعة، إذ قضت كل حياتها بينها، وتنوي أن تتبعها إلى أن تموت.

واتجهت زعيمة القطيع إلى أيكة من أشجار الجنكة العالية الوارفة الخضرة، ورفعت رأسها بمساعدة عنقها الطويل لتلقي نظرة عن كثب، ثم دست رأسها في الأوراق وبدأت تأكل، وتمزق الأوراق بأسنانها القصيرة الغليظة. وبدأ أفراد القطيع من البالغين يحذون حذوها. وبدأ القطيع في هز الأشجار وقضم جذوع الأشجار، بل بدءوا في اقتلاع الجذور من الأرض. وسرعان ما سُويت الأيكة بالأرض، وسيستغرق الأمر عشرات السنين حتى تسترد أشجار الجنكة عافيتها من أثر هذه الزيارة القصيرة. وهكذا أعادت تلك الديناصورات تشكيل المكان، فقد غادرته وهو ساحة مكشوفة هائلة، أصبح ممرًّا من أعشاب السافانا الخضراء وسط عالم تغلب عليه أدغال الغابة، إذ إن القطيع كان يتلف كل النباتات والخضرة في أي مكان يحل به، وكأنه جيش هائج.

ولم تكن تلك الديناصورات العاشبة هي الأقوى — إذ إن ذلك الشرف كان من نصيب ديناصورات البراكيصورس Brachiosaurs العملاقة التي تأكل الأشجار، وتنمو حتى يصل وزنها إلى سبعين طنًا — لكن البراكيصورس ديناصورات تميل للتنقل فرادى، أو تنتقل في جماعات صغيرة. أما قطعان الديبلودوكس — التي كان يصل عدد أفرادها أحيانًا إلى مائة فرد — فكانت تشكل وجه اليابسة على نحو لم يقم به أي حيوان آخر من قبل.

ظل هذا القطيع غير المترابط متلازمًا — وظل ينتقل إلى جهة الشرق منذ زمن طويل، يتبدل أفراده لكن بنيته مستمرة — لمدة عشرة آلاف سنة. لكن كان هناك مجال لمثل هذه الرحلات الهائلة.

سيطر على كوكب الأرض في العصر الجوراسي قارة واحدة هائلة، وهي قارة بانجيا، ومعناها «الأرض كلها». وهي قطعة هائلة من اليابسة، وكانت أمريكا الجنوبية وأفريقيا قد التحمتا لتشكلا جزءًا من الصخرة القارية الكبرى، وجرى نهر هائل في وسط القارة الكبرى، ويعتبر نهرا الأمازون والكونغو فرعين له.

وعندما التحمت القارتان، سرت موجة هائلة من الموت. فقد تسبب زوال الحواجز الطبيعية مثل الجبال والمحيطات في إجبار النباتات والحيوانات على الاختلاط. وأصبح هناك اتساق في الحياة النباتية والحيوانية في كل أنحاء بانجيا، من المحيط للمحيط ومن القطب للقطب، وقد استمر هذا الاتساق، مع أنه كانت هناك قوى تكتونية هائلة تسعى لتحطيم تلك المساحة الواسعة من اليابسة. ولم يبق على قيد الحياة إلا حفنة من الحيوانات بعد التحام القارتين، ومنها الحشرات والبرمائيات والزواحف والثدييات البدائية، وهي مخلوقات من الزواحف لديها خصائص تميز الثدييات، وهي تعد مجموعة قبيحة وغير مكتملة من المخلوقات. لكن تلك الحفنة من الأنواع ستساعد في نهاية الأمر على نشوء جميع الثدييات — بما في ذلك البشر — إضافة إلى الطيور والتماسيح والديناصورات.

وازداد حجم ديناصورات الديبلودوكس حتى أصبحت ضخمة، وكأنما ذلك للتكيف مع المساحات الشاسعة التي تعيش فيها. ولا شك أن ضخامتها كانت مناسبة لهذا العصر الذي كانت تسود فيه النباتات المختلفة. فقد

كانت ديناصورات الديبلودوكس تستطيع بعنقها الطويل العمل في مساحة واسعة بدون أن تضطر للحركة، وتتناول كل ما هو متاح من النباتات الصغيرة التي تغطي أرض الغابة، بل تصل إلى أدنى فروع الأشجار.

ومع ذلك فديناصورات الديبلودوكس واجهت خطرًا جديدًا يتمثل في ديناصورات الأورنيثوليستيس الذكية، إذ تمثل خطرًا لم يفلح التطور في إعدادها لمواجهته. ومع ذلك فزعيمة القطيع التي يزيد عمرها عن قرن استوعبت حكمة عتيقة، وعكست عيناها — التي أصبحت بلون أحمر قانٍ بفعل الشيخوخة — فهمًا للخطر الذي تمثله تلك الكائنات الرشيقة التي تلاحق بني جلدتها.

لاحت أمام ديناصورات الأورنيثوليستيس أفضل فرصة لهما بعد الصبر الطويل.

لا تزال ديناصورات الديبلودوكس لا تزال تحتشد حول أيكة أشجار الجينكو المحطمة، وأجسادها الضخمة تشكل معًا هيئة تشبه نجمة تنبثق منها أشعة تمتد إلى كل الاتجاهات، ورءوسها التي تنتهي بها أعناقها الطويلة منحنية فوق أوراق النباتات المبعثرة، مثل المخالب الآلية لآلة قطف الكرز. وقد تجمعت الصغار بالقرب بعضها من بعض، لكن الديناصورات البالغة منها كانت تستبعد الصغار.

وهكذا تعرضت للاستبعاد والإقصاء، فأصبحت عرضة لأي هجوم.

أحنى ستيجو رأسه باتجاه أحد صغار ديناصورات الديبلودوكس، والأصغر من الباقين، لم تكن أكبر حجمًا من أكبر الفيلة الأفريقية، بل أصغر حجمًا حقًّا مقارنة برفاقها. واجهت صعوبة في شق طريقها بين رفاقها الذين يتناولون طعامهم، وأخذت تطوف عند أطراف القطيع، وهي تؤدي حركات مذعورة تجعلها أشبه بالطيور إلى حد بعيد.

لم يكن هناك ولاء حقيقي بين ديناصورات الديبلودوكس، واقتصر الغرض من القطيع على المصلحة، لكنه لم يكن تجمع كالعائلة. وكانت ديناصورات الديبلودوكس تضع بيضها على أطراف الغابة ثم تتركها. ومن يبقى على قيد الحياة من الصغار التي تفقس من البيض تحتمي بالغابة

إلى أن يكبر حجمها بما يكفي للخروج إلى الأراضي المفتوحة، وتبحث عن قطيع تنضم إليه.

هناك فائدة استراتيجية لوجود ديناصورات الديبلودوكس في قطعان: فبعضها يحمي بعضًا، من خلال وجودها معًا. ويحتاج أي قطيع لدماء جديدة لسد النقص الذي يعتريه، لكن إذا افترس أحد الضواري أحد أفراد القطيع من الصغار، فليكن؛ فحتمًا ما تأتي أخرى من هذه الغابات السرمدية في قارة بانجيا لتحل محلها، إذ كان القطيع، فيما يبدو، يتقبل مثل هذه الخسائر، وكأنها ضريبة ينبغي دفعها من أجل استمرار مروره في تلك الأيك القديمة.

واليوم يبدو أن دور هذه الأنثى صغيرة الحجم في دفع هذه الضريبة قد حان.

سحب ستيجو وليسنر سياطهما المصنوعة من جلود الديبلودوكس من حول خصريهما. ورفعا السياط، وكانت الرماح جاهزة، ثم تسللا عبر الشجيرات الخفيضة غير المشذبة المؤلفة من الشتلات ونبتات السرخس، التي تكثر عند أطراف الغابة. وإن لمحتها ديناصورات الديبلودوكس فلن تحرك ساكنًا على الأرجح، لأن البرمجة التطورية لها افتقرت لوجود إشارات إنذار في حالة اقتراب اثنين من هذه الضواري صغيرة الحجم.

جرت محادثة صامتة بين الاثنين؛ حركات خفية ونظرات وإيماءات بالرأس.

قال ستيجو: تلك التي هناك.

- نعم، إنها ضعيفة وصغيرة.

- سأسرع ناحية القطيع، سأستعمل السوط. حاولي أنتِ إخافتهم، وحاولي إبعاد القصيرة.

- اتفقنا، سأقوم أنا بالخطوة الأولى.

من المفترض أن يسير الأمر كالمعتاد، لكن بينما كانت ديناصورات الأورنيثوليستيس تقترب، أسرعت ديناصورات السيليوروصور بعيدًا، ورفرفت الزواحف المجنحة بأجنحتها في ارتباك، وهي تطير في الجو.

هسهس ستيجو، فاستدارت ليسنر.

وعندئذٍ رأت عيون ديناصور آخر من الأورنيثوليستيس.

لاحظت ليسنر أن هناك ثلاثًا منها، أكبر بقليل من ستيجو وليسنر. بدت حيوانات جميلة، إذ كان لكلٍّ منها عُرف مميز من الحراشف الشائكة يمتد بطول الجانب الخلفي من رأسها وعنقها، وشعرت ليسنر بالنتوءات القرنية المستدقة التي تمتد على ظهرها هي تنتصب كرد فعل، إذ كان جسدها يستجيب إلى غريزة قديمة استيقظت من تلقاء نفسها.

لكن تلك الديناصورات كانت عارية، ولم تكن ترتدي أحزمة من لحاء الأشجار حول خصرها مثل ليسنر، فلم تكن تحمل أسواطًا، ولا رماحًا، وكانت أيديها الطويلة خاوية. ولم تكن تنتمي إلى عشيرة الصيادين التي تنتمي إليها ليسنر، لكن كانت من أولاد عمومتها من ديناصورات الأورنيثوليستيس البرية، تلك السلالة غير الذكية التي نشأ منها نوعها.

هسهست، وقد فغرت فاها، وخطت بخطوات واسعة نحو الجهة المفتوحة وكأنها تقول: «ابتعدوا، ابتعدوا عن هنا!»

وبقيت ديناصورات الأورنيثوليستيس البرية في مكانها. وظلت تبادل ليسنر النظرات المتحدية، وقد فغرت أفواهها وهي تهز رءوسها.

انتابت ليسنر مسحة من الخوف، فمنذ فترة قصيرة مضت كانت أمثالها ستهرب إذا ما رأتها تقترب؛ فقد تعلمت تلك الديناصورات البرية، منذ زمن طويل، أن تخشى وخزة الأسلحة التي يحملها أولاد عمومتها الأذكياء، إلا أن الجوع تفوق على خوفها. فربما مر وقت طويل على آخر مرة صادفت فيها تلك الديناصورات البدائية عشًّا من أعشاش الديبلودوكس، التي تعد مصدر غذائها الرئيسي، وربما تمنت تلك الوحوش الانتهازية أن تسلب كل ما تمكنت ليسنر وستيجو من الفوز به.

ازداد عالم الغابة ازدحامًا.

أدركت ليسنر أن عليها ألا تظهر أي خوف، في مواجهة هؤلاء الذين يذكرونها بماضيها البدائي، فظلت تمشي ببطء وثبات باتجاه ديناصورات الأورنيثوليستيس البرية الثلاث، وهي تحني رأسها، في إيماءة مفادها: إذا كنتم تعتقدون أنكم ستسلبون فريستي، فهذا لن يكون، ابتعدوا عن هنا. لكن كان جواب الدنياصورات الثلاث غير الذكية الهسهسة والبصق.

بدأت تلك الضجة تصرف انتباه الديبلودوكس، وعادت الصغيرة إلى داخل القطيع، بعيدًا عن متناول الصيادين، وبدأت زعيمة القطيع تتلفت حولها، وعنقها يحمل رأسها، وكأنها منصة كاميرا فوق رافعة.

تلك هي الفرصة التي تنتظرها ديناصورات الألوسورس.

وقفت ديناصورات الألوسورس وكأنها تماثيل في ظلال الغابة الخضراء، تقف منتصبة القامة على أرجلها الخلفية الضخمة وأيديها الأمامية النحيفة ذات المخالب الثلاثة إلى جانبها. تكونت تلك الجماعة من خمس من الإناث لم تصل بعد إلى النضج التام، ومع ذلك فطول كل منها يبلغ عشرة أمتار، وتزن طنين. لم تهتم ديناصورات الألوسورس بالديناصورات اليافعة صغيرة الحجم، فهي تستهدف ذكرًا سمينًا من الديبلودوكس — مثلها — كاد يصل إلى النضج التام، وشرد عن باقي القطيع؛ بينما تحرك القطيع دون نظام وقد أربكته الجلبة التي سببتها ديناصورات الأورنيثوليتيس المتناحرة.

هاجمت ديناصورات الألوسورس الخمس في الحال، أرضًا وجوًّا. وأصابت الديبلودوكس بجروح بالغة بمخالبها الخلفية وكأنها خطافات، واستخدمت رءوسها ذات البنية القوية كمضارب تضرب بها الديبلودوكس، وأخذت تحفر في لحم الديبلودوكس بأسنانها التي تشبه الخناجر المسننة. وعلى عكس ديناصورات التيرانوصور، كانت أيديها كبيرة وأذرعها قوية وطويلة استخدمتها في الإمساك بالديبلودوكس وهي تمزقه.

ديناصورات الألوسورس هي أكبر آكلات اللحوم التي تعيش على اليابسة حجمًا، إذ كانت أشبه بأفيال سريعة الركض تأكل اللحوم وتقف منتصبة القامة. حدثت مجزرة هائلة وضارية.

في غضون ذلك كان قطيع الديبلودوكس يصد العدوان. والديناصورات البالغة منها تطوح بأعناقها شمالًا ويمينًا، وهي تخور محتجة، على أمل الإطاحة بأي معتدٍ يفكر في الاقتراب منها، حتى إن إحداها شبت على أرجلها الخلفية، وهو ما كان منظرًا مهيبًا.

وبدأت تستخدم أشد أسلحتها فتكًا، إذ أخذت ذيول الديبلودوكس تضرب كالسياط في كل الجهات حول القطيع، وامتلأ الهواء بطقطقة الموجات التصادمية الشديدة، ويُعد ديناصور الديبلودوكس أول حيوان

ظهر على وجه الأرض تمكن من اختراق حاجز الصوت، قبل ظهور الجنس البشري بنحو مائة وخمسة وأربعين مليون سنة.

تقهقرت ديناصورات الألوسورس بسرعة. ومع ذلك فإن إحداها أصابها طرف ذيل أشبه بسوط يضرب بسرعة أسرع من الصوت، فارتطم بأضلعها. كان تكوين جسم ديناصورات الألوسورس مهيأ للسرعة، وعظامها خفيفة؛ إذ تسبب الذيل في كسر ثلاثة من أضلاعه، وهو ما سبب متاعب لديناصور الألوسورس لأشهر لاحقة.

لكن الهجوم في تلك اللحظات الخاطفة، كان ناجحًا.

في تلك الأثناء كانت إحدى الأرجل الضخمة قد انهارت أسفل ذكر الديبلودوكس، إذ تمزقت أوتارها فعجزت عن تحمل وزنه الثقيل، وسرعان ما أدى ما فقده من دماء إلى إضعافه أكثر. رفع رأسه ونعق بصوت حزين، وإن كان الأمر سيستغرق ساعات حتى يموت — فالألوسورس مثل الكثير من آكلات اللحوم تحب اللهو واللعب — لكن حياته كانت قد انتهت.

وتوقف صوت قعقعة الذيول تدريجيًّا، وهدأ القطيع شيئًا فشيئًا.

لكن زعيمة القطيع كانت آخر من ضربت بذيلها.

عندما شنت الألوسورس هجومها، فرت ديناصورات الأورنيثوليستيس من المنطقة الخالية من الأشجار وقد وحد الخوف بينها فجأة. وأخذت ليسنر وستيجو يتسللان جنبًا إلى جنب في الشجيرات الخفيضة عند أطراف الغابة، وهما يمسكان بأسلحتهما غير المستخدمة في أيديهما، وقد حبطت مطاردتهما. لكن لم يكن الأمر كله سيئًا، فعندما تنتهي ديناصورات الألوسورس من التهام غذائها، فربما يتبقى لحم من ديناصور الديبلودوكس يمكن الحصول عليه.

ثم جاءت ضربة الذيل الأخيرة، فقد أصاب ذيل الديبلودوكس الضخم ظهر ستيجو، مما تسبب في تمزيق جلده حتى العظام، فصرخ ثم سقط متدحرجًا في المكان المفتوح، وقد فغر فاه. وكان بؤبؤا عينيه المشقوقين طوليًّا ينبضان، وهو ينظر إلى ليسنر.

ثم التفت أحد ديناصورات الألوسورس القريبة باهتمام يخلو من التعبير. ووقفت ليسنر بلا حراك وهي مصدومة.

وبقفزة واحدة وصل ديناصور الألوسورس إلى ستيجو، فصرخ ثم أخذ يخمش الطين بقدميه، فوكزته أنثى ديناصور الألوسورس بخطمها بفضول وخفة.

ثم اندفعت رأس الألوسورس إلى الأمام بسرعة مدهشة وعضت ستيجو عضة واحدة، كادت تفصل عنق عن جسده. ثم التقطته من كتفه ورفعته. وتدلى رأسه معلقًا ببضعة خيوط من الجلد، لكن جسده ظل يرتعد، وحملته إلى أطراف الغابة بعيدًا عن القطيع، ثم بدأت تلتهمه. ونجحت الألوسورس في مهمتها، كان لدى ديناصور الألوسورس مفاصل في الفك والجمجمة، لذا استطاعت فتح فمها على اتساعه وتهيئة أسنانها في أفضل وضع، مثل ثعبان الأصلة، مما يمكنها من التهام الفريسة بطريقة أفضل.

وجدت ليسنر نفسها تحدق بغباء في أثر قدم الألوسورس على الأرض، حيث انطبع أثر قدم ذات ثلاثة أصابع في الطين الذي داسته الأقدام. «صياد بدون رفيقه، هو مثل قطيع بدون زعيمة القطيع» إنه مثل من أمثلة ديناصورات الأورينثوليستيس ظل يتردد في عقلها مرارًا.

وأدارت زعيمة قطيع الديبلودوكس رأسها لتحدق مباشرة في ليسنر، ففهمت أن السلوكيات الغريبة التي كانت تتبعها الأورنيثوليستيس قد أعطت الفرصة للألوسورس للهجوم، وهكذا فقد كشفت زعيمة القطيع ستيجو بضربة ذيلها، وأعطته إلى الألوسورس. لقد كان ذلك على سبيل الانتقام.

استدارت زعيمة القطيع وهي تخور، وكأنها راضية.

تحجر شيء في عقل ليسنر، حقد أسود.

أدركت أنها سوف تقضي ما تبقى من عمرها مع هذا القطيع، وأدركت أيضًا أن زعيمة القطيع، هي أهم فرد فيه؛ إذ إنها توفر الحماية للقطيع من خلال حجمها الهائل، وتقوده بخبرتها المكتسبة على مدى سنوات طويلة. وبدونها سيصبح القطيع أقل تنسيقًا وأكثر عرضة للتهديد. ولهذا أصبحت زعيمة القطيع أهم مخلوق في حياة ليسنر. وفي تلك اللحظة أقسمت أن تثأر بنفسها.

في كل ليلة، ذهبت ديناصورات الأورنيثوليستيس إلى غابة أسلافها، حيث كانت تصطاد الثدييات والحشرات وأعشاش الديبلودوكس. انتشرت ديناصورات الأورنيثوليستيس في مجموعات صغيرة، وتُحيط المنطقة بحراس مسلحين. وفي تلك الليلة خيم حزن كبير، إذ كانت عشيرة الأورنيثوليستيس يبلغ عددها بضعة مئات فقط، ولم تكن تتحمل أن تفقد ذكرًا ذكيًّا وقويًّا في مقتبل العمر مثل ستيجو.

وعندما حل برد الليل، لم تستطع ليسنر أن تنام.

حدقت في السماء حيث كانت الأضواء القطبية تخفق وتبدو خليطًا من الأخضر والأرجواني، وفي هذا العصر كان المجال المغناطيسي للأرض أقوى بثلاثة أضعاف مما سيكون عليه في عصر البشر، وحين كان يصد الرياح التي تتدفق من الشمس، كانت الأضواء القطبية المتألقة أحيانًا تغطي الكوكب من القطب الشمالي للقطب الجنوبي، لكن الأضواء التي تظهر في السماء لم تكن تعني شيئًا للسنر، ولم تمنحها أي سلوى أو تفرج همها.

ولجأت لذكرياتها عن فترات السعادة والبساطة، حين كانت هي وستيجو يخرجان للبحث عن بيض الديبلودوكس، على عادة أسلافهما الأولين. وتمثلت الحيلة في البحث عن بقعة في أرض الغابة، لا تبعد كثيرًا عن أطراف الغابة، تبدو ظاهريًّا غير مأهولة، وتتناثر فيها أوراق الأشجار والنفايات، فإذا وضعت أذنها المرهفة على الأرض، فسوف تسمع — إذا كانت من المحظوظين — صوت أفراخ الديبلودوكس وهي تنبش داخل بيضها. كانت ليسنر تفضل دائمًا الانتظار، وحراسة «عشها» من الآخرين، حتى تبدأ صغار الديبلودوكس في فقس البيض وتطل برءوسها الصغيرة من النفايات المبعثرة.

ولعقلية مُبتكِرة مثل عقلية ليسنر لم يكن هناك حد للألعاب التي يمكن لعبها.

ربما يمكنها التخمين؛ أيّ من أفراخ الديبلودوكس ستظهر بعد ذلك، ويمكنها حساب مدى سرعتها في قتل فرخ يخرج من بيضته وذلك بالتهامه في غمضة عين عقب خروجه للنور، بل يمكنها ترك الأفراخ تخرج من قشورها تمامًا. وعندئذٍ تسرع الأفراخ، التي يصل طول كل منها إلى متر، بذيولها الواهنة وأعناقها المتدلية؛ للهروب إلى المناطق الداخلية من الغابة.

وربما يمكنها إتاحة الفرصة لفرخ للوصول — تقريبًا — إلى بقعة تكسوها الشجيرات، ثم تعيده مرة أخرى، وربما يمكنها قطع أرجله واحدة تلو الأخرى، أو قضم قطع من ذيله، وتلتهم كل ذلك، وهي تشاهد كيف يظل يكافح للفرار، حتى آخر نفس في حياته القصيرة.

وجميع آكلات اللحوم الذكية معتادة على اللعب، فهي من سبل معرفة العالم، وكيفية تصرف الحيوانات المفترسة، وصقل القدرة على سرعة الاستجابة. من ثم فإن ديناصورات الأورنيثوليستيس تُعد من أذكى آكلات اللحوم، قياسًا بعصرها.

وفي ذات مرة منذ ما لا يزيد عن عشرين ألف عام، خطرت لعبة جديدة لأحدهما. فالتقطت عصا في يدها القابضة، واستخدمتها للبحث عن البيض غير المكسور.

وفي الجيل التالي أصبحت العصي خطاطيف لسحب الأجنة، وأصبحت رماحًا حادة لطعنها.

وفي الجيل الذي يليه بدأ تجريب الأسلحة الجديدة في ألعاب أكبر، وهي ديناصورات الديبلودوكس اليافعة التي تبلغ أقل من خمسة أو ستة أعوام، ولم تنضم بعد لأي قطيع، لكنها تعد غنيمة من اللحم تساوي مئات من الأفراخ، وفي هذه الأثناء بدأت تنشأ لغة بدائية، تتيح لفريق الصيد التفاهم ببراعة.

وأعقب ذلك نوع من سباق التسلح، ففي عصر الفرائس الضخمة هذا، كان ما يتمتع به الأورنيثوليستيس من أدوات متطورة وطرق اتصال متطورة وأبنية معقدة، يساعدها على الفوز بغنائم أكبر وأفضل من اللحم. واتسعت مدارك الأورنيثوليستيس بسرعة، مما مكنها من صنع الأدوات، وإعاشة المجتمعات وصياغة اللغة، لكن ظلت هناك حاجة إلى المزيد من اللحم، لتغذية تلك العقول البارعة، وهو ما يتطلب تصنيع أدوات أفضل. إنها حلقة مفرغة ستحدث مرة أخرى، في حقبة لاحقة من تاريخ كوكب الأرض الطويل.

انتشرت ديناصورات الأورنيثوليستيس في جميع أنحاء بانجيا، إذ تعقبت قطعان الفرائس وهي تقطع أنحاء القارة الكبرى على طول الممرات الواسعة التي مر بها أسلافهم.

لكن الظروف بدأت تتغير، فقارة بانجيا بدأت تنقسم، وبدأ عمودها الفقري يضعف، فبدأت تنشأ الأودية العميقة وكذلك الأغوار الهائلة التي تمتلئ بالحمم البركانية والرماد، وستنشأ المحيطات الجديدة على شكل صليب كبير؛ فالمحيط الأطلنطي سيفصل الأمريكتين عن أفريقيا وآسيا وأوروبا، في حين سيفصل بحر تيثيس الاستوائي الهائل كلًّا من أوروبا وآسيا عن أفريقيا وأستراليا، ومن ثم ستنقسم بانجيا إلى أربعة أقسام.

اتسم ذلك العصر بسرعة وعنف التغير المناخي، لقد أدى انجراف الكتل القارية إلى تكوين جبال جديدة أدت بدورها إلى سقوط الأمطار على الأراض، واختفت الغابات، وانتشرت مساحات الكثبان الرملية. وجيلًا بعد جيل — ومع اختفاء أماكن الرعي التي تألفها، وعدم وجود وقت كافٍ لتعافي النباتات من مرورها المدمر — بدأت أعداد قطعان الديناصورات من رتبة السوروبود تتضاءل.

ومع ذلك فلولا ديناصورات الأورنيثوليستيس، لبقيت الديناصورات من رتبة السوروبود لفترة أطول، بل ربما بقيت على قيد الحياة حتى تصل إلى ذروة تطور الديناصورات، وهو العصر الطباشيري.

لولا ديناصورات الأورنيثوليستيس.

ومع أن ليسنر واصلت التزاوج أكثر من مرة مع أكثر من رفيق بهدف إنجاب ذرية تتسم بتمام الصحة والوحشية، فإنها لم تنس قط ما لحق برفيقها الأول ستيجو. لم تجرؤ ليسنر على تحدي زعيمة القطيع، إذ كان الجميع يدركون أن أفضل فرصة لبقاء القطيع على قيد الحياة تتوقف على استمرار حياة تلك الأنثى القوية، ولم تظهر زعيمة قطيع أخرى لتحل محلها على أي حال.

غير أنها وضعت خططها ببطء ولكن بثقة.

واستغرق الأمر منها عشر سنوات، وعلى مدى تلك الفترة تضاءل عدد ديناصورات الديبلودوكس في القطيع بمقدار النصف، وانخفض عدد ديناصورات الألوسورس انخفاضًا حادًّا في كل أنحاء القارة الكبرى، وذلك مع انخفاض عدد الحيوانات التي تفترسها.

وفي النهاية وبعد مرور موسم جاف وقاس للغاية، لوحظ أن زعيمة القطيع تعرج في مشيتها، فربما تكون قد أصابها التهاب المفاصل في أوراكها، إذ اتضح ذلك في عنقها الطويل وذيلها.

اقتربت اللحظة المناسبة.

ثم شمت ليسنر شيئًا في الرياح التي تهب من الشرق، رائحة لم تشمها منذ وقت طويل، كانت رائحة ملح. وأدركت أن قدر زعيمة القطيع لم يعد مهمًّا.

وفي النهاية حصلت على الإجماع بين رفاقها من الصيادين.

بلغت أنثى الديبلودوكس الهائلة حينها مائة وعشرين عامًا، وحمل جلدها ندبات من أثر الهجمات الفاشلة من الضواري عليها، وكانت الكثير من النتوءات القرنية المستدقة التي تكسو ظهرها قد انقصفت، ومع ذلك فحجمها يزداد، حتى وصل وزنها إلى ثلاثة وعشرين طنًّا، لكن تدهور عظامها — بعد عمرٍ طويل دأبت فيه على حمل الأثقال — قد تسبب في إبطاء حركتها على نحو كبير.

وذات يوم خارت قواها أخيرًا، ولم يستغرق الأمر إلا عدة دقائق حتى انفصلت عن باقي أفراد القطيع، الذي تحرك بخطواته المطردة الواسعة.

كانت ديناصورات الأورنيثوليستيس تنتظر منذ أيام، ولذا بدأت تتصرف على الفور.

تحرك ثلاثة من الذكور في البداية، وكلهم من أبناء ليسنر. واتجهوا نحو زعيمة القطيع بخطوات بطيئة وهم يفرقعون سياطهم، وهي قطع رقيقة من الجلد المُصنع تصدر صوتًا يحاكي الطقطقة ذات التردد العالي التي تصدرها ذيول الديبلودوكس.

نظر بعض أفراد قطيع الديبلودوكس إلى الخلف في بلادة، فرأوا زعيمة القطيع وصغارها من الديناصورات المفترسة. فأدمغة الديبلودوكس الصغيرة التي مر على تهيئتها مليون سنة لم تكن لتستوعب أن آكلات اللحوم النحيلة يمكن أن تمثل لها أي تهديد. فاستدارت الديبلودوكس وواصلت تناول طعامها.

ورأت زعيمة القطيع الديناصورات الصغيرة المتواثبة أمامها، فدمدمت في غضب، والحجارة الهائلة تطحن الطعام في معدتها، وحاولت رفع رأسها واستخدام ذيلها لتوجيه ضربات به، لكنها كانت تعاني آلامًا حادة نتيجة لتيبس مفاصلها.

ثم جاء الفوج الثاني من الصيادين، وهاجموا زعيمة القطيع وهم مسلحون بالرماح المسممة، وأنشبوا فيها مخالب أيديهم وأرجلهم، بنفس طريقة هجوم ديناصورات الألوسورس التي تعتمد على الكر والفر.

لكن زعيمة القطيع لم تكن تبلغ ما يزيد عن مائة عام بالمصادفة، فقد استجمعت آخر ما تبقى من طاقتها، وتجاهلت الآلام الساخنة التي انتشرت من أثر الوخزات التي أصابت خاصرتها، وشبت على أقدامها الخلفية. وبدت أشبه ببناية متداعية، وهي تقف بارتفاع شاهق أمام جماعة آكلات اللحوم، ففرت من أمامها. ثم سقطت على الأرض ثانيةً بدوي هائل يشبه الزلزال، وأحست بموجات من الألم تسري في كل مفاصل جسدها، حين اصطدمت أقدامها الأمامية بالأرض بعنف.

ولو كانت قد فرت حينئذٍ ولحقت بالقطيع، ربما كانت ستنجو، وتتخلص من آثار طعنات الرماح، لكن هذا المجهود الشاق الذي بذلته قد أجهدها، ولم يكن لديها وقت للتعافي، ومرة أخرى اقترب الصيادون، وضربوها برماحهم ومخالبهم وأسنانهم.

ثم جاءت ليسنر.

كانت ليسنر قد خلعت كل ما تلفه حول جسدها، حتى إنها تخلصت من السوط الملفوف حول خصرها، وأخذت تنقض على خاصرة ديناصور الديبلودوكس، فارتعشت بشدة. وكان جلد الديبلودوكس نفسه يشبه الجلد المدبوغ السميك، فصمد أمام مخالبها القوية، وكانت تنتشر فيه الأخاديد، وهي ندبات من أثر جراح قديمة، تنمو بداخلها أورام طفيلية حمراء وخضراء رهيبة. وكانت رائحة اللحم النتن بشعة، لكنها تشبثت وظلت تنشب مخالبها في لحم الديناصور، وتسلقت حتى وصلت إلى النتوءات القرنية المستدقة التي امتدت بطول ظهر زعيمة القطيع. وفي تلك اللحظة أخذت ليسنر تنهش لحم الديبلودوكس وبدأت تنزع الصفائح القرنية المغروسة تحته.

ربما في ركن مظلم في عقلها العتيق تذكرت أنثى الديبلودوكس اليوم الذي هدمت فيه حياة أنثى الأورنيثوليستيس ضئيلة الحجم هذه. ثم أحست بآلام أخرى في ظهرها، فحاولت أن تدير عنقها، إن لم يكن لضرب مصدر الإزعاج، فعلى الأقل لرؤية من يهاجمها. لكنها لم تتمكن من الالتفات.

ولم تكف ليسنر عن الحفر بوحشية واهتياج، حتى وصلت في حفرها إلى الحبل الشوكي نفسه، فقطعته بعضة شديدة.

ظل جبل اللحم يغذي عشيرة الصيادين أيامًا وأيامًا، بينما لعب الصغار في كهف أضلع زعيمة القطيع.

لكن ليسنر تلقت انتقادات على هيئة هزات رأس غاضبة، ورقصات وإيماءات. بمعنى: «أن هذا خطأ، لقد كانت زعيمة القطيع وكان واجبًا علينا الحفاظ عليها حتى تظهر أخرى لتحل محلها. انظري كيف تفرق القطيع، وأصبح غير منظم، وقلَّ عدده. نحن نأكل الآن وقريبًا قد نتضور جوعًا. لقد أعماكِ غضبك. كنا حمقى حين تبعناكِ.» وهكذا.

احتفظت ليسنر بآرائها لنفسها. كانت تعلم مدى الضرر الذي أوقعه غياب زعيمة القطيع بالقطيع ومقدار الضعف الشديد الذي أصابه، وتدنت نسبة بقاء أفراده على قيد الحياة. كانت تعلم أن ذلك لم يعد مهمًّا، إذ قد شمّت رائحة الملح.

عندما انتهت الديناصورات الأورنيثوليستيس من التهام زعيمة القطيع، واصلت عشيرة الصيادين سيرها، باتجاه ممر السافانا إلى الشرق كعهدها دومًا، وظلت تقتفي آثار القطيع الواضحة التي تميزها بسهولة من الأشجار المحطمة والأرض التي داستها أقدام ثقيلة.

وخرج القطيع من القارة. ومن وراء حزام من الغابات ومن وراء جرف ضحل من الحجر الرملي لاح محيط تلتمع مياهه. وظلت ديناصورات الديبلودوكس العملاقة تتحرك في ارتباك في هذا المكان غير المألوف، الذي تفوح منه رائحة كهربائية مميزة من الأوزون والملح.

وصل القطيع إلى الساحل الشرقي لما سيصبح إسبانيا فيما بعد. وأمامه بحر تيثيس الهائل، الذي شق طريقه غربًا بين الكتل القارية الفاصلة.

وسرعان ما ستندفع مياه بحر تيثيس حتى تصل إلى الساحل الغربي، وهكذا تشطر إحدى القارات الكبرى.

ووقفت ليسنر على حافة الجرف الصخري، وقد أبهر الضوء عينيها المهيأة للرؤية في الغابة، وشمت الأوزون والملح الذي كشفته منذ عدة أيام. ماتت زعيمة القطيع، لكن ذلك لم يكن مهمًّا، فليس هناك مكان يلجأ إليه قطيع الديبلودوكس بعد أن قطعوا قارة كبرى.

ربما كانت ديناصورات الأورنيثوليستيس ستحقق نجاحًا، لو أنها تمتعت بمزيد من المرونة. ربما لو تعلمت أن تربي ديناصورات الديبلودوكس التي تنتمي لرتبة السوروبود بغرض أكلها — أو حتى تجنبت الضغط عليها في فترة التغيرات هذه — لكانت بقيت على قيد الحياة فترة أطول. لكن أصولها كآكلات لحوم جُبلت على الصيد وتحكمت في تصرفاتها وقدرها. فحتى أساطيرها البدائية كانت تهيمن عليها فكرة الصيد، وأساطير تقوم على شيء أشبه بفردوس ديناصورات الأورنيثوليستيس. إنها ديناصورات مفطورة على الصيد ولديها القدرة على صناعة أدوات؛ فالصيد هو قدرها، إلى أن ينتهي كل ما يمكن صيده.

انحصر صعود ديناصورات الأورنيثوليستيس وانهيارها في فترة مدتها بضعة آلاف سنة، وهي شريحة زمنية ضئيلة مقارنةً بالفترة التي سيُقدر لإمبراطورية الديناصورات الاستمرار على مداها، ومدتها ثمانون مليون سنة. وصنعت الأدوات من المواد القابلة للفساد فقط مثل الخشب والألياف النباتية والجلد المدبوغ. لكنها لم تكتشف المعادن ولا تعلمت تشكيل الحجر، ولم تتعلم إشعال النار. كانت إقامتها على الأرض قصيرة للغاية، ولن يُقدر لطبقات الأرض الرقيقة أن تحفظ جماجمها المفرغة، وعندما تنقرض ديناصورات الأورنيثوليستيس، لن تترك وراءها أي أثر يدرسه علماء الآثار من البشر، لن تترك إلا لغز انقراض هذه الديناصورات التي تنتمي إلى رتبة سوروبود فجأة. ستختفي ليسنر وتندثر حضارتها، وشأنها شأن الحوت الجوي الضخم وغيره من الحيوانات العجيبة التي لا تحصى، ستندثر إلى الأبد.

وانتاب ليسنر إحساس مباغت بالخسران، فألقت برمحها في المحيط، فاختفى في مياهه المتلألئة.

الفصل الثالث

ذيل الشيطان

أمريكا الشمالية منذ ستة وخمسين مليون سنة قبل عصرنا الحالي.

١

فيما مضى كان اصطدام الكواكب بعضها ببعض من العوامل البناءة، كان قوة من قوى الخير.

تكون كوكب الأرض بالقرب من الشمس المتوهجة. وسرعان ما تبخرت المياه وغيرها من المواد المتطايرة، مما جعل العالم الوليد ساحة خاوية من الصخور. لكن المذنبات التي تساقطت من النظام الخارجي جاءت بمواد اندمجت في تلك المنطقة الباردة، وخصوصًا المياه التي سوف تملأ محيطات كوكب الأرض، وكذلك المركبات الكربونية ذات التركيب الكيميائي القائم على الذرات المترابطة، التي سوف تصبح جوهر كل أشكال الحياة. وقد دخل كوكب الأرض في عصر كيميائي طويل، حيث كونت الجزيئات العضوية المركبة رحم المحيطات الجديدة. وهو ما يمثل استهلالًا طويلًا للحياة. ولم يكن ذلك ليحدث، لولا سقوط المذنبات.

لكن انتهى عهد الاصطدامات، أو هكذا بدا الأمر. وفي النظام الشمسي الجديد، دارت الكواكب والأقمار المتبقية في مدارات شبه دائرية مثل آلية ساعة هائلة. وغالبًا ما استبعدت الأجرام التي تسير في مسارات مضطربة.

غالبًا وليس دائمًا.

وكان الشيء الذي خرج من الظلام وسطحه يغطيه وحل قذر يبقبق في حرارة الشمس، وكأنه ذكرى للظروف الأليمة التي صاحبت تكوين كوكب الأرض.

أو كأنه كابوس.

وفي عصر البشر، كانت شبه جزيرة يوكاتان لسانًا من اليابسة يمتد شمالًا من المكسيك إلى الخليج. وعلى الساحل الشمالي لشبه الجزيرة، كان يوجد ميناء صيد صغير يسمى بورتو تشيك شولوب Puerto Chicxulub. وكان مكانًا عاديًا لا يميزه شيء، إنه سهل من الحجر الجيري يزخر بالحفر التي تتجمع فيها المياه وينابيع المياه العذبة، وحقول الصبار الأمريكي والأدغال.

ومنذ خمسة وستين مليون سنة، في العصر الرطب الذي عاشت فيه الديناصورات، كان هذا المكان هو قاع المحيط. وسهول خليج المكسيك تغمرها مياه الفيضانات حتى سفوح جبال سييرا مادري الشرقية، وكانت شبه جزيرة يوكاتان الضحلة نفسها تحت المياه بنحو مائة متر. وشكلت الرواسب التي سوف تتكون منها بعد ذلك كوبا وهايتي جزءًا من قاع البحر العميق، والتي سوف تطفو إلى السطح بفعل حركات صدع القشرة الأرضية.

وفي عصر كانت ملأته البحار الدافئة الضحلة، كانت تشيك شولوب الغارقة مكانًا عاديًّا. ولكنها البقعة التي ستشهد نهاية فصل من تاريخ العالم.

إن اسم تتشيك شولوب من اللغة المايانية، وهي كلمة قديمة جدًّا اخترعها شعب اندثر، وبعد اندثار شعب المايا، لن يعرف أحدٌ على وجه اليقين ترجمتها. لكن تحكي الأساطير المحلية أن معناها: «ذيل الشيطان».

وفي دقائقه الأخيرة اندفع المذنب قادمًا من الجنوب الشرقي، مارًّا بالمحيط الأطلنطي وأمريكا الجنوبية.

٢

انطلق الأمونيت[1] Ammonite الضخم في المياه الضحلة الصافية.

بدا ذلك الصياد الذي يعيش في قاع البحر، وحجمه مثل حجم إطار الجرار، أشبه بحلزون عملاق، وله صدفة مقوسة وحلزونية، وتطل منها بحذر أذرعه ورأسه. ومع نموه، اتسعت بنية قوقعته الحلزونية، وكان

[1] مجموعة منقرضة من الحيوانات البحرية المصنفة ضمن رتبة الرأسقدميات.

يتحرك تدريجيًّا من تجويف يتجه للخارج إلى التجويف الذي يليه، وكانت التجاويف المرتبطة المهجورة تُستخدم لغرض الطفو والتحكم.

تحرك الأمونيت برشاقة مدهشة، وانطلقت حلزونته العمودية في المياه. واعتاد أن يفحص ما حوله بعيون واسعة ولماحة.

ظهر البحر الذي يغمره ضوء الشمس مزدحمًا، ومياهه رائقة، وتعج بالعوالق. وبعض المخلوقات الموجودة هنا — من المحار والبطلينوس وأنواع عديدة من الأسماك — ستكون مألوفة لدى البشر. لكن هناك مخلوقات أخرى لن يُقدر للبشر التعرف عليها عن قرب مثل عدة أنواع قديمة من الحبار، والأمونيت نفسه، إضافةً إلى مخلوقات أخرى تظهر بصعوبة للرائي كظلال تمر في زرقة الأعماق السحيقة للمحيطات مثل الزواحف البحرية العملاقة ومنها الموساصور Mosasaur والبليسيوصور Plesiosaur، فضلًا عن الدلافين والحيتان التي عاشت في ذلك العصر.

ومع ازدياد ضوء النهار، كانت صعد المزيد من نوع الأمونيت، وطفا مثل الأجراس في المياه الشفافة.

إلا أن الأمونيت لمح حركة في قاع البحر، فهبط بسرعة ومجساته تندفع من قوقعته. وعن طريق حاستي اللمس والبصر، وأدرك أن الشيء الذي يعدو ويحفر في الرمال هو سرطان البحر. وعندئذٍ خرجت المزيد من الأذرع ببطء من الصدفة والتفت حول ذلك الحيوان الذي ينتمي للقشريات، وكل ذراع مزودة بخطاطيف دقيقة لتثبيت قبضتها. ثم سحب الأمونيت السرطان بسهولة بعيدًا عن قاع البحر الأملس، ثم برز منه منقار كبير يشبه منقار الطيور، عض به درع سرطان البحر بين عينيه، وحقن عصارات هضمية في داخل درعه، وبدأ في امتصاص الحساء الناتج.

وما إن انتشرت قطع اللحم في المياه، حتى بدأت تقترب المزيد من حيوانات الأمونيت ببطء.

لكن الأمونيت الذي اصطاد سرطان البحر رأى ظلًّا يتحرك فوقه له خطم وزعانف، يتحرك ببطء وصمت، ويتضح شكله بسرعة، كان هذا الظل هو إلازميسور Elasmosaur، وهو من الزواحف البحرية، وينتمي إلى فصيلة البليسوصور، وله رقبة متناهية الطول. ترك الأمونيت فريسته، ثم

اختبأ داخل قوقعته. وانغلقت فتحة القوقعة على الفور بغطاء ثقيل من نسيج صلد.

لكن الإلازميسور انقض على الأمونيت ودفع قوقعتها، وأطبق فكيه القويين حول الجزء الضيق من الحلزون، لكنه لم يتمكن من اقتحامها. وبعد أن انكسرت مجموعة من أسنان الإلازميسور، ترك القوقعة، فسقطت إلى قاع المحيط. وجاشت في إدراكه البدائي مشاعر إحباط وألم.

وتحمل الأمونيت الاهتزاز العنيف، لكنه ظل سليمًا في بيته الحصين.

لكن لم تتوخ أحد حيوانات الأمونيت غير مكتملة النمو حذرها، إذ حاولت الهرب وهي تطلق دفقات من المياه تدفعها في هذا الاتجاه وذاك.

أمسك إلازميسور بفريسته هذه المرة بإحكام، وقطعت أسنانه القوقعة الحلزونية ببراعة في المكان الذي يلتحم فيه الجسم بالسطح الداخلي، ثم أخذ يهز القوقعة بشدة، إلى أن سقط منها الأمونيت في المياه — وهو لا يزال حيًّا — مكشوفًا لأول مرة في حياته. وعندئذٍ التهم الزاحف البحري وجبته على جرعة واحدة.

وهنا لمح إلازميسور سحابة في المياه؛ فاندفع إليها بدون تردد.

لم تكن تلك السحابة إلا سربا من آلاف من الكائنات الصغيرة التي تشبه الحبار، وقد تجمعت بغرض حماية نفسها، وعادةً ما كانت أنظمة الدفاع لديها — التي تعتمد على الحراسة والحِبر والحركات المضللة والاهتزاز — تفي بالغرض، ضد الضواري التي تضاهي هذا الإلازميسور في سرعته. لكن ذلك المخلوق باغتهم باندفاعته الغاضبة، فانسحبت مبتعدة وهي تنشر حبرها بكثافة في وجه هذا المعتدي الضخم، أو حتى وهي تفر من المحيط بأسره وتقفز إلى الجو الذي يضيئه ضوء المذنب. ومع ذلك مات المئات منها؛ كانت كل واحدة منها تتمتع بشيء من الإدراك، وكل منها — بطريقتها الخاصة — فريدة ولن تتكرر.

في تلك الأثناء فتح الأمونيت — قاتل السرطان — قوقعته مرة أخرى بحذر، وخرج من الفتحة أنبوب عضلي، واندفع منه تيار مياه عالية الضغط، حمل الأمونيت بقوة إلى أعلى حيث المياه الزرقاء، لكنه فقد السرطان، لكن لا يهم ذلك، فستأتي حتمًا فريسة أخرى.

وهكذا نجا. إنه زمن الضراوة في البحر كما كان الحال على اليابسة، كانت الرخويات تصطاد الأمونيت وتخترق القواقع، وتسمم فرائسها وتطلق سهامًا مميتة. وكرد فعل على ذلك، تعلمت الكائنات ذات الصدفتين أن تدفن نفسها على عمق كبير في الرواسب، أو أن يكون لها — على مدى سنوات من التطور — نتوءات عظمية وقواقع هائلة لصد المهاجمين. وهجرت حيوانات البطلينوس والقشريات من رتبة الهدابيات التي تعلق بالصخور عمق البحر، لتستعمر الأماكن الضحلة على الشاطئ حيث لا يصل إليها إلا أبرع الصيادين وأشدهم تصميمًا.

وفي تلك الأثناء كانت البحار تعج بالزواحف المفترسة. وكانت السلاحف آكلة اللحوم والبليسيوصور ذات الأعناق الطويلة تتغذى على الأسماك والأمونيت، شأنها شأن الزواحف المجنحة التي تتقن الغطس في المحيطات. ويبلغ طول البليسيوصور نحو خمسة وعشرين مترًا بينما طول زعانفه يبلغ ثلاثة أمتار، وكانت استراتيجيته تقوم على قطع فريسته كل ثلاث قطع على حدة، ويعتبر البليسيوصور من أكبر آكلي اللحوم في تاريخ الكوكب.

امتلأت المحيطات الغنية في العصر الطباشيري بالحياة والموت، ودارت فيها أحداث درامية يقوم بدور البطولة فيها الكائنات التي تصطاد والكائنات التي تقع فريسة لها، وظل الحال هكذا عشرات الملايين من السنين، أما الآن فكان هناك ضوء لامع يتزايد توهجه المنعكس على سطح المحيط، وكأنما الشمس تقع من السماء.

تطلعت عين الأمونيت إلى أعلى. تمتع بما يكفي من الذكاء ليشعر باحساس يشبه الفضول. كان ذلك جديدًا عليه، فماذا يمكن أن يكون؟! انتصر الحذر: عادة ما يكون الجديد خطرًا. مرة أخرى أخذ الأمونيت في الانسحاب داخل قوقعته.

لكن هذه المرة لم يتمكن حصنه المنيع من حمايته.

وفي جزء من الثانية أخذ المذنب في ثقب المجال الجوي للأرض. ففجر الهواء حوله، عاصفًا به في الفضاء وتاركًا وراءه فراغًا مكان مروره.

وقع الأمونيت في شرك، أسفل الجزء الذي سقط فيه المذنب. وكأنما كان هناك غطاء قد أغلق عبر السماء، وتبخرت المادة التي بداخله سريعًا، مات المحار والسمك الصدفي وكذا العوالق.

ظل الأمونيت يطوف مدة تزيد عن ثلاثمائة مليون سنة في محيطات الأرض، يفرخ آلافًا من الأنواع، لكن في سنة كانت الأنواع جميعها قد انقرضت في ذلك الحين، وفي أعشار الثانية كانت تلك السير الذاتية الطويلة قد أفلت.

أما الأمتار الاثنا عشر من المياه، فقد كانت قوتها في الصمود أمام نواة المذنب لا تذكر — مثلها مثل الهواء — فقد تحولت المياه في غمضة عين إلى بخار.

ثم ارتطمت نواة المذنب بقاع البحر، وكتلته ألف مليار طن، مكونة جبلًا طائرًا من الثلج والأتربة، وقد استغرق ثانيتين لكي ينهار على الصخر في قاع البحر مُطلقًا — في تلك الثواني — طاقة حرارية، كالتي قد تنطلق من كل زلازل وبراكين العالم على مدى ألف سنة.

ودُمرت نواة المذنب تمامًا، أما قاع البحر فقد اندثر هو الآخر كلية، وتبخر الصخر ليصبح ضبابًا. ثم نبضت موجة عظيمة متجهة إلى الخارج من خلال القاع الصخري، بينما ظهر صخر مخروطي متوهج منطلقًا ناحية المسار الداخلي للمذنب متجهًا إلى الخلف من خلال نفق الهواء، وثقب المذنب في تلك الدقائق الأخيرة من وجوده. كان يبدو كشعاع كشاف كهربائي هائل. وحول هذا الشعاع المتوهج المركزي، اندفع نثار هائل من الصخور المفتتة والمحطمة — يفوق حجمه كتلة المذنب بمئات الأضعاف — من الحفرة الآخذة في الاتساع.

ومنذ الثواني الأولى انفجرت أطنان من الصخور الصلبة وتبخرت إلى أن بلغت عنان السماء.

على السهل الساحلي للبحر الداخلي لأمريكا الشمالية، كانت قطعان من ديناصورات الهادروصور ذات المنقار الشبيه بمنقار البط تتجمع حول البرك الراكدة، وهي تنعب وتتدافع. وقفت عدة ديناصورات مفترسة، بحجم الديناصورات المفترسة الشبيهة بالطيور يصل حجمها إلى حجم دجاجة،

تراقب صغار ديناصورات الهادروصور الشاردة باهتمام بارد. وتجمعت مجموعة من ديناصورات الأنكليصور في مكان واحد، ودروعها المترية تلتمع، فبدت مثل فيلق روماني.

وبدا وهج برتقالي في أقاصي الجنوب، أشبه بفجر ثانٍ. ثم مرق شعاع رفيع من الضوء في السماء، وانطلق باستقامة وكأنه برهان هندسي، بل كان أكثر استقامة في الواقع من شعاع ليزر، إذ إن شعاع الصخور المتوهجة لم يحدث له أي انكسار وهو ينطلق من هواء كوكب الأرض شديد السخونة. وحدث كل ذلك في صمت تام.

وكانت ديناصورات السكومايمس التي يشبه وجهها وجه التمساح تمشي خلسة عند أطراف المحيط، وقد بسطت مخالبها الطويلة. وتبحث عن الأسماك، كعادتها كل يوم. وقد سبب لها موت رفيقها منذ أيام ألمًا مضنيًا، غير أنه بدأ يخف ببطء. لكن الحياة واصلت مسيرتها؛ إذ إن حزنها الهائل لم يمنعها من الشعور بالجوع.

وفي مكان آخر كانت هناك مجموعة من ديناصورات الستيجوسورس Stegoceras، تبحث عن الغذاء وهي متفرقة، وهي ديناصورات من فصيلة الباكيسيفيلوصور Pachycephalosaur، يصل طولها إلى طول الإنسان. وللذكور منها قلنسوة عظمية هائلة على جمجمتها، والغرض منها حماية دماغها أثناء المنافسات الشرسة التي تجري في موسم التزاوج، إذ تقوم بنطح رءوسها مثل الخراف الجبلية، وحينها كان هناك اثنان من الذكور يتصارعان وينطحان رأسيهما المصفحتين، ودوَّى صدى ارتطام رأسيهما في أنحاء السهول. وضحى هذا النوع بقدر كبير من الإمكانيات التطورية في سبيل تلك المنافسات. فقد أدت حاجة الحفاظ على هذه القلنسوة العظمية الواقية إلى الحد من تطور دماغ الباكيسيفيلوصور على مدى ملايين السنين. وفي غمرة منطق الكيمياء الحيوية، لم يعبأ هذان الذكران بالأضواء التي تغير اتجاهها في السماء، ولا بالظلال التي كانت تتسلل على الأرض.

وعلى هذا الشاطئ، كان يومًا عاديًّا من أيام العصر الطباشيري.

لكن جاء شيء من جهة الجنوب.

توهجت الحفرة بالشعاع الناتج عن سقوط المذنب، الذي حفر هذه الحفرة الواسعة جدًّا، التي تضارع مساحتها مساحة مدينة لوس أنجلوس من سانتا باربرا على طول الشاطئ إلى لونج بيتش، وعمقها يبلغ أربعة أضعاف ارتفاع قمة إيفرست، فالأرض تبعد عن السطح بمسارات كبيرة، وتبلغ مساحتها تسعين كيلومترًا مربعًا، وعمقها ثلاثين مترًا، لكن هذا الهيكل الضخم كان عمره قصيرًا، إذ بدأ يتصدع، وتسببت الانهيارات الأرضية التي يبلغ عرضها عشرات الكيلومترات في انهيار جدارنه الشاهقة.

وبدأ قاع البحر ينثني، واندفعت الصخور الموجودة على أعماق كبيرة داخل الأرض إلى طبقة الوشاح التي تقع تحت القشرة الأرضية مباشرةً وذلك من جراء اصطدام المذنب. وارتدت تلك الصخور إلى أن وصلت إلى مسافة عشرين كيلومترًا، لكنها عادت إلى حالتها الطبيعية عندما ذابت وتفتت ودفعها الموج إلى سطح الأرض، أو ربما انصهرت وذابت ثم تناثرت بسرعة وسقطت في بناء دائري يشبه الحفرة. وامتدت سلسة الجبال إلى ما يقرب من أربعين كيلو مترًا، وقد تكونت هذه الجبال في لحظات ثم استقرت على الأرض، وفي نفس الوقت اندفعت المياه بقوة، لتصب في الحفرة التي حُفرت في أرض المحيط، وبالطبع سقطت كميات كبيرة من المقذوفات في تلك الحفرة، وبدأت السماء تمطر وابلًا من الصخور المتوهجة المشتعلة، إلى أن بلغت درجة الحرارة ألف درجة مئوية، وهي كافية لحرق الهواء نفسه، واتحد النتروجين مع الأكسوجين ليصنع السم، لإيقاف الحياة سنوات طويلة. وكان المشهد فوضى تتصارع فيها النار والبخار والصخور المتساقطة.

وانطلق هواء شديد السخونة من موقع الاصطدام بسرعات عالية للغاية، واندفعت رياح دائرية عاتية من شبه جزيرة يوكاتان إلى أمريكا الجنوبية مرورًا بخليج المكسيك، وكانت الموجة التصادمية تتحرك بسرعة أسرع من الصوت، حين وصلت إلى ساحل تكساس.

وعند جنوب الشاطئ انتشر عمود صغير من الضوء إلى الخارج، وأصبح أكثر وضوحًا وكان متغير الألوان، فأصبح يميل إلى اللون الأبيض المائل إلى البرتقالي، إلى أن تبدد الظلام وانتشر الضوء، حتى وصل إلى الأفق الجنوبي. وما زالت هذه الأضواء تتجلى في صمت، وتتحرك أسرع من الصوت. وظلت

قطعان الديناصورات غافلة؛ إذ كانت ديناصورات الباكيسيفيلوصور اليافعة تتقاتل وتزاول رقصتها الداروينية.

لكن الطيور والزواحف المجنحة تعرف طريقها جيدًا في السماء. وحلقت مجموعة من الزواحف المجنحة فوق المحيط، حيث طارت على ارتفاع منخفض، لتبحث بمهارة عن السمك بمناقيرها الهيدروديناميكية الرشيقة، وقد انعطفت واتجهت إلى اليابسة، وأخذت تصفق بأجنحتها لتزيد من سرعتها، وتبعها سرب من الطيور الشبيهة بالنورس، تطير بأجنحتها التي تجمع بين اللونين الأبيض والرمادي فتبدو كالنبض في ضوء الصخور المتوهجة.

ومن بين آلاف الديناصورات، كان الديناصور الوحيد الذي أبدى رد فعل للضوء الظاهر في السماء هي أنثى السكومايمس. التفتت إلى الجنوب، وقد ضاق بؤبؤ عينيها المشقوقتين طوليًا، وهي تتأمل المشهد أمامها. ودفعتها الغريزة إلى الهروب من المياه باضطراب، لتصل إلى مكان أعلى على الشاطئ، وأبطأ الرمل الدافئ والناعم تحت قدميها من خطواتها. لكن مع ذلك ظلت أنثى السكومايمس تركض.

وقف ديناصوران يافعان من الديناصورات المفترسة الشبيهة بالطيور، يعبثان بدرقة سلحفاة بحرية ألقاها الموج على الشاطئ، فرفعا رأسيهما باهتمامٍ متأمل حين مرت بهما السكومايمس. وسرت موجات من إشارات الإنذار في ركن من عقل السكومايمس الذكي، فقد كانت تخرق الكثير من القواعد الفطرية، وتعرض نفسها للخطر، لكن جزءًا أعمق في فطرتها أنبأها أن خطر بقعة الظلام التي كانت تنتشر على الأفق يفوق خطر أي ديناصور من الديناصورات المفترسة الشبيهة بالطيور.

وصلت إلى ضفة من الكثبان الرملية المنخفضة، وعندئذ أحست بكرة من الفراء تتملص في سخط من تحت قدميها، ثم فرت بسرعة البرق.

وفوق السهل الساحلي، بدأ الضوء يخبو.

وأخيرًا بدأت الديناصورات تضطرب، إذ بدأت قطعان الديناصورات من آكلات العشب مثل الديناصورات البرمائية ذات المنقار الشبيه بمنقار البط والأنكيلوصورات، تكف عن الأكل والتفتت إلى جهة الجنوب.

ولم يعد من الممكن رؤية وابل الصخور المتصاعدة، إذ أخفاها حائط من الظلام يمتد بطول الأفق. لكنه كان حائطًا متحركًا يتلوى وتموج واجهته بالفقاقيع. وكان البرق يومض وميضًا متقطعًا فوق السطح المتحرك، مما جعله يتألق بلون أبيض يميل إلى البنفسجي.

وحتى في هذه اللحظات الأخيرة، كان أحاطت أجواء من الغموض بكل شيء. فقد بدا المشهد وكأنه شفق مخيف، حتى إن بعض الديناصورات شعرت بالنعاس، إذ تأثرت أنظمتها العصبية بانخفاض مستوى الضوء.

وبعد ذلك انفجرت واجهة الموجة التصادمية من الجنوب، وانقلب المشهد من السكون إلى الصخب في غمضة عين، وهشمت واجهة الموجة التصادمية قطعان الحيوانات، واندفعت ديناصورات الهادروصور البرمائية في الهواء، وكانت الديناصورات البالغة الضخمة منها تتلوى، وذاب خوارها في غمرة الجلبة المفاجئة. وانتهت المصارعة الدائرة بين ديناصورات الستيجوسورس ذات الجماجم الصلدة دون أن يخرج منها منتصر، ولم يكتب لها أن تُستأنف أبدًا، ووقفت بعض من الأنكيلوصورات في مكانها، وظلت قابعة مثل الدبابات المدرعة، إلا أن الأرض من حولها كانت ممزقة، واُقتلعت النباتات وتبعثرت، حتى البحيرات جفت مياهها، وانفجر الكثيب الرملي الضحل فوق السكومايمس، فدفنت على الفور في غياهب الرمال.

ولكن الموجة التصادمية انقضت بالسرعة نفسها التي أتت بها.

ما إن أحست السكومايمس بأن الأرض كفت عن الاهتزاز، حتى بدأت تحفر في التراب. وأخذت تنظف فتحتي أنفها من الرمال، فيما بدأت جفونها نصف الشفافة تنظف عينيها من الرمال، ووقفت بصعوبة على أقدامها.

ثم بدأت تخطو بحذر على الأرض، فوجدت الأرض هذه المرة وقد غطتها قطع الحجارة، وأصبح من الصعب السير عليها.

اختفت معالم السهل الساحلي، واختفى الكثيب الرملي الذي حماها، إذ زال ذلك العمل الذي أنجزته الرياح بصبر على مدى مئات السنين. وقد امتلأ السهل بالأنقاض: ومنها قطع مدمرة من الصخور المفتتة، والطمي الآتي من قاع البحر، بل بضع جدائل من الأعشاب البحرية والكائنات البحرية الصغيرة. ومن فوقها كانت السحب تغلي وتندفع إلى الشمال.

وبينما هي تصارع هذه الأجواء، دوَّى صوت فرقعة هائلة وسقطت شظايا من السماء، ودوت أصوات اصطدامات، لكن السكومايمس لم تسمع أي صوت، فقد أصبحت صماء؛ لأن الصدمات قد دمرت طبلة الأذن.

وتناثرت الديناصورات في كل مكان.

وحتى أضخم ديناصورات الهادروصور الكبيرة سُويت بالأرض، إذ كانت ملقاة، وقد تهشمت والتوت بعنف تحت الرمال المبعثرة والوحل، وظهرت مجموعة من الديناصورات المفترسة الشبيهة بالطيور ملقاة معًا، وقد اشتبكت أجسادها الرشيقة في كتلة واحدة، وفي كل مكان كان الكل معًا كبيرًا وصغيرًا، الآباء وصغارهم والضواري مع فرائسها، إذ وحد الموت بين الجميع. إن معظم الكوارث الطبيعية — مثل الفيضانات والبراكين — تلحق الأذى بالضعاف والصغار وكبار السن والمرضى، أو تستهدف نوعًا معينًا من الكائنات، وربما يكون مثال ذلك وباء ينقله عائل بدون قصد، وهو ينتقل عبر أحد الجسور الأرضية التي تربط بين القارات. لكن هذه المرة ولم ينج أي منها، فيما عدا السكومايمس التي حالفها الحظ.

ورأت السكومايمس سمكة فضية اللون ترتجف وهي حية، بعد أن دفعتها الموجة التصادمية عشرات الكيلومترات في الثانية، وقرقرت أحشاء السكومايمس بصوت خفيض، فمع أن العالم يوشك على الفناء شعرت بالجوع.

لكن الرياح لم تتم مهمتها بعد، ففوق المحيط كان الهواء يندفع عائدًا لملء الفراغ الذي نشأ في موقع الاصطدام. الأمر أشبه بشهيق هائل.

ورأت السكومايمس جدار الظلام ينقض مرة أخرى، وهي تلهو بسمكتها، لكنه جاء من جهة اليابسة هذه المرة، وهو يحمل الحطام مع ما تبقى من الصخور والأشجار المقتلعة من جذورها، فضلًا عن ذكر ضخم من التيرانوصور يتطاير في الهواء وقد فارق الحياة.

ومرة أخرى غاصت السكومايمس في الرمال.

وانطلاقًا من الفوهة استمرت الموجة التصادمية في الانتشار، مثل موجة دائرية تتسع من حول حجر ألقي في المياه، وفي الأجزاء الداخلية من اليابسة،

حيث أغار جاينت على عش التيرانوصور، كانت الموجة التصادمية قد ألحقت دمارًا بمساحة حول دائرة هائلة بحجم القمر.

وبدأت الأعاصير تنطاق من واجهة الموجة التصادمية مثل الأطفال العنيدين المتلهفين للتخريب.

ورأى جاينت الإعصار كأنبوب من الظلام وصل الأرض بالسماء. وعند قدميه، ارتفعت أشياء تشبه الشظايا، ودارت في دوامة ثم سقطت على الأرض. وكانت أسلاف الجيجانتوصور قد احتلت إحدى القارات، فشب جاينت على قدميه الخلفيتين، وأصدر فحيحًا، وهو يهز رأسه، وعيناه تضيقان وهو ينظر إلى الخطر الذي يقترب.

لكن ذلك الإعصار لم يكن غريمًا من بين الديناصورات. ومع اقتراب الإعصار، ازداد حجمه شيئًا فشيئًا، وظهر على علو شاهق فوقه.

وفي آخر الأمر، تركز شيء في عقل جاينت على تلك الأغصان الصغيرة المبعثرة تحت أقدام هذا الوحش المناخي، ولم تكن تلك «الأغصان» بالطبع سوى أشجار، أشجار السكوية والجنكة وأشجار السرخس وقد تناثرت وكأنها أوراق شجر الصنوبر.

وتوصل أخواه إلى نفس النتيجة. فاستدار الثلاثة إلى الخلف ولاذوا بالفرار.

وعصف الإعصار بالغابة فحطم الأشجار، وبعثر الصخور. واندفعت الحيوانات التي يبلغ وزنها خمسة أطنان في الهواء، وفجأة كانت آكلات النباتات بطيئة الحركة تطير. وقد مات الكثير منها من الصدمة قبل أن تسقط على الأرض.

استيقظت برجا في جحرها وهي ترتجف من جراء قعقعة الأرض، واقتربت هي وأليفها أحدهما من الآخرِ ثم احتضنا الفرخين وأنصتا إلى صفير الرياح، ودويِّ ارتطامِ الأشجار بعضِها ببعض وصرخاتِ الديناصورات التي تحتضر.

أغمضت برجا عينيها في حيرة وفزع وهي تتمنى أن يتوقف هذا الضجيج.

وعند سفح جبال روكي أحست أنثى من الزواحف المجنحة من نوع أزهدارشيد بقدوم الرياح العاتية، فطوت جناحيها وتهادت على رسغها وركبتيها، وسكنت إلى أن تمر الأزمة بسلام.

التفت صغارها حولها، لكن لم يكن لديها طعام تقدمه لهم، والصغار تنقرها في غضب، ولم تكن الصغار قادرة على الطيران، وأغشية أجنحتها لم يكتمل نموها بعد، فليس لديها سوى قطع فضفاضة من الجلد تمتد بين أصابعها المستخدمة في الطيران وأرجلها الخلفية، ولم يكن ذلك يساعدها في الحصول على الطعام، ومع ذلك اختُصت ببعض الجمال، وكان القشر اللامع الذي يومض في ضوء الشمس والمتناثر حول رقباتها الرفيعة، هو ما تبقى من الإرث الذي وصل إليها من أسلافها من الزواحف.

ثم بدأت السحب تتحرك بسرعة أمام الشمس. وسكنت الأعاصير، لكن الموجة التصادمية ما زالت أشبه بحائط شديد السخونة من تيارات الهواء الهائجة، وما زالت قوية حتى على هذا البعد عن موقع الاصطدام.

وعند أول عصفة ريح، دُمِّر العُش، فصرخت الأفراخ الصغيرة وتعثرت.

وعند سماعها أول صرخة، وبدون تفكير، بدأت الأم تضرب بجناحيها وطارت في الهواء؛ فقد استولت عليها ضرورة فطرية مفادها أنه على المدى الطويل سيأتي صغار آخرون، وذلك في حالة نجاتها هي، بينما الصغار المكدسة تحت أجنحتها تصرخ مُعلنة عن غضبها وخوفها.

وعند عودة السد المكون من الهواء مرة أخرى، سادت لحظة من الهدوء.

انخفضت سرعة طيران الأزهدارشيد واستدارت، ونشرت جناحيها وهنا لعبت الفطرة دورها، ومدت أصبعها المستخدم في الطيران وطرفها الخلفي إلى الأمام، وقامت الارتعاشات الدقيقة للفخذ والركبة بتكييف الشد في جناحيها، فقد كانت أشبه بآلة طيران ممتازة، آلة تتألف من الأوتار والأربطة والعضلات والجلد والفراء، شكلتها ملايين السنين من التطور.

لكن رياح المذنب لم تكن تعبأ بكل ذلك على الإطلاق.

هبت الرياح، وضربت العش في بادئ الأمر، وجرفت كل ما على الحيد الصخري، وتحطم العش، وأخذت الرياح تعصف بعظام ضحايا الزواحف

المجنحة — بما فيها عظام سكند، رفيق برجا — وببقية الحطام، وطارت الأفراخ لأول مرة، وللحظات، وإن كان ذلك لتلقى حتفها.

أما عن الأم الأزهدارشيد، فقد بدا الأمر وكأنها تتجه مباشرة إلى حائط من الأتربة، بل وقطع من النباتات والأخشاب والحجارة، وأحست بعظامها الرقيقة تتكسر، وتداعت مرة تلو الأخرى وهي عاجزة — لا حول لها ولا قوة — مثل ورقة الشجر الجافة.

ومرة أخرى ناضلت السكومايس لتقف على قدميها، ورجلاها تؤلمانها، وكذا ذراعاها وظهرها وذيلها ورأسها، من تأثير الارتطام بأجزاء الركام المتطايرة، وهو حطام العالم من حولها.

ومرة أخرى أصبح الشاطئ مكانًا مختلفًا تمامًا، فقد تناثر على الأرض حطام قادم من الأجزاء الداخلية من اليابسة وقطع من جذوع الأشجار المحطمة والحيوانات المسحوقة، والزواحف المجنحة والطيور بين ميت ومحتضر، حتى الرواسب الطينية من قاع البحيرات، لم يكن هناك شيء يتحرك، لم يكن هناك إلا المخلوقات المحتضرة، والسكومايمس.

وتذكرت السكومايمس السمكة التي كانت على وشك التهامها؛ لكن السمكة اختفت.

انطلقت سحب سوداء في السماء من فوقها، مثل ستارة تنغلق، فاختفت الشمس فترات طويلة.

أما في الجنوب، فقد بدأ غطاء السماء يتوهج بلون برتقالي مخيف، وهب النسيم وحمل معه رائحة مميزة «أوزون»، كانت تلك رائحة البحر. وخطر لها منظر المياه المتلاطمة والأسماك المتلألئة في المياه الضحلة، وأحست أن عليها أن تصل إلى البحر، فلطالما كان البحر مصدر رزقها، وستصبح في أمان هناك. وأصدرت خوارًا حزينًا لم تستطع حتى هي سماعه، وبدأت تتجه بخطوات متعثرة باتجاه الرائحة، متجاهلةً الحطام الرهيب الذي تحت قدميها.

وقد حالف الحظ السلحفاة البحرية، ففي الوقت الذي اصطدم فيه المذنب، كانت تسبح بالقرب من قاع البحر بعيدًا عن منطقة الاصطدام.

تصدر النوع الذي تنتمي إليه تلك السلحفاة قائمة السلاحف البدائية من بين سلالات الزواحف. لكن بغض النظر عن ذلك، أجادت هذه السلحفاة الصيد ببراعة، ولم يحتج جسدها قدرًا كبيرًا من الطعام، بل احتاج فقط إلى عشرين بالمائة من الطعام اللازم لديناصور من نفس الوزن. وفر لها درعها المقوى حماية شديدة، واتسمت بحذر بالغ حتى وهي تصطاد، وتلخصت المخاطر التي صادفتها خلال حياتها في الحملات السنوية التي وجب عليها القيام بها إلى الشواطئ لتضع بيضها، ثم تسرع بعد ذلك عائدة إلى المياه الآمنة.

كان مخها صغيرًا ووعيها متبلدًا. فهي تعيش وحيدة في عالم رتيب، ولم تكن تربطها صلة مع أشقائها ووالديها، ولم تكن تتفهم أن البيض الذي تضعه سوف ينتج جيلًا جديدًا. فهي عتيقة وحذرة وتتحمل الكثير من الصعاب.

ومع ذلك حدث ما يعكر عليها صفو وحدة عالمها الأزرق؛ إذ بدأ تيار هواء مخيف في جرف البحر ناحية الجنوب.

وأخذت السلحفاة تجدف في المياه في كآبة، متجهة إلى أسفل. وزودتها غرائزها التي شحذتها ملايين السنين من العواصف الاستوائية بتعليمات بسيطة، مفادها: الغطس إلى الأعماق، والوصول إلى القاع، والبحث عن ملاذ يحميها.

لكن ذلك كان يختلف عن أي تيار واجهته، وفي المياه الموحلة والمضطربة، لمحت مخلوقات أكبر منها بكثير، فيها الزواحف البحرية الضخمة المعروفة بالبليسوصور، يدفعها المد العملاق إلى الخلف. وبينما تواصل هبوطها، ارتطم بها ركام يتألف من الأمونيت والبطلينوس والحبار، حتى الصخور التي اقتلعها الإعصار من قاع البحر.

وأخيرًا وجدت الطمي الناعم، وبدأت تحفر بكل جهدها بمساعدة زعانفها الأربع لتُدخل نفسها في الطمي، وتجاهلت وابل الأشياء التي اصطدمت بترسها، وفيما بعد ستضطر إلى الصعود إلى سطح الماء طلبًا للهواء والدفء، لكنها قادرة على البقاء مدة طويلة في هذا المكان، ربما إلى أن تنقضي هذه العاصفة الهوجاء.

لئن بدأ سطح البحر اللامع يهبط باتجاهها؛ فالبحر قد جفّ، ووجدت نفسها تحت أشعة الشمس مباشرة، والطمي الرطب يئز من حولها، وفجأة وجدت شيئًا أشبه بالرجة يضيىء عقلها الصغير، لقد انقلب العالم رأسًا على عقب، وهو ما لم يبد منطقيًّا.

ثم بدأ طمي قاع البحر، الذي أصبح مكشوفًا، يهتز.

وفي الضوء الغريب الذي يغير اتجاهه، رأت السكومايمس البحر من جديد. فأسرعت إلى الأمام، وهي تطلق صيحة ارتياح بصوت أجش.

لكن سرعان ما ابتعد البحر عنها، وانكشف الطمي المتلألئ. وكلما حاولت أن تلحق بالبحر، كان البحر يبتعد بوتيرة أسرع.

وتخبطت سمكة بين قدميها، فوقفت والتقطتها من الطمي القذر وألقت بها في نمها، وأحست السمكة بوعيها الضئيل أن ذلك كان بمثابة نجدة لها، فهذه ميتة سريعة مقارنة بالاختناق الشنيع الذي كانت تقاسيه على الشاطئ الوليد.

بدا قاع البحر، الذي كشف لأول مرة منذ ملايين السنين، يتلألأ ويعج بالكائنات، إذ تناثرت فيه كائنات مثل البطلينوس والقشريات والحبار، وأسماك أخرى بمختلف أنواعها، والأمونيت بأحجامها المختلفة، وكلها تختنق.

وإلى ناحية أبعد جنوبًا، قبعت كائنات عملاقة: فقد رأت السكومايمس بليسوصورًا عملاقًا ملقًى على الشاطئ مثل غيره. بلغ طوله ثمانية أمتار، رقد لاهثًا على الوحل وزعانفه الأربعة الكبيرة منبسطة ومكسورة، هذا الكائن البحري الذي هو من آكلات اللحوم والذي يزن أطنانًا، يحاول شق طريقه بصعوبة بالغة، ويحاول تحريك زعانفه الهائلة، ويطبق أسنانه المتوحشة في غيظ من القدر الذي ألقى به على الشاطئ.

لو رأت السكومايمس ذلك في أي يوم آخر، لكان منظرًا مدهشًا. وابتعدت وقد أصابها الذهول.

وعندما نظرت شمالًا، رأت مخلوقات تزحف وهي تخرج من الغابات التي أصابها الدمار، ومن المستنقعات التي جففتها الرياح، والكثير منها من الأنكيلوصورات والمخلوقات الأخرى المدرعة، وتيحميها حتى تلك اللحظة دروعها الثقيلة التي تطورت لتتقي أسنان ومخالب ديناصورات التيرانوصور،

وزحفت باتجاه قاع البحر المكشوف، تبحث عن ملجأ تحتمي به وتأكل وتشرب فيه.

إلا أن الأنكيلوصورات فتحت أفواهها، ثم أخذت في التراجع مرة أخرى. بينما نظرت السكومايمس إليها في حيرة. خارت الأنكيلوصورات بصوت عالٍ، لكن السكومايمس لم تستطع سماعها.

وعادت تتطلع إلى البحر، وعندئذٍ رأت ما أخاف الأنكيلوصورات، فقد كان الهواء والماء سواء.

على الجانب المتأثر بالمذنب كانت الأرض ما زالت مشعة، وشديدة السخونة، وتتحرك في موجة دائرية تغطي سائر الجوانب الخارجية عبر المحيط. وقد أثرت على قدرة الأماكن القابلة للهدم، بسبب انخفاض التأثير في عمق المحيط، لكن أثناء اقتراب الموجة من ساحل أمريكا الشمالية، وصل ارتفاعها إلى ما يقرب من ثلاثين مترًا. وعند وصول أمواج التسونامي[٢] إلى المياه الضحلة عند ساحل تكساس، ازداد ارتفاعها بمقدار عشرة إلى عشرين ضعفًا عن ارتفاعها الأصلي.

ولم يطرأ أي نوع من التطور على هذا النوع من السكومايمس؛ لإعداده لما يحدث. فقد بدا البحر القادم أشبه بسلسلة جبلية متحركة، تندفع بسرعة من المحيط الذي تراجع إلى الوراء. ولم تتمكن هي من سماع ما يجري حولها، لكنها شعرت بما سببه ذلك من اهتزاز في قاع البحر، وشمت رائحة الملح والصخور المفتتة. وقفت بقامة منتصبة، وهي تهز رأسها وتكشر عن أسنانها — بتحدٍ — نحو أمواج التسونامي التي تقترب.

وارتفعت المياه فوقها. وحلت لحظة شعرت فيها بضغط، وبكتلة من السواد، وبقوة هائلة تعتصرها، ثم فارقت الحياة خلال ثانية.

وتدفقت أمواج التسونامي باتجاه اليابسة، وارتفعت إلى علو شاهق فوق الأنكيلوصورات التي تمشي بتثاقل ثم أبادتها بالكامل هي ودروعها. وظلت تندفع في طريقها نحو البحر القديم الذي جفَّ منذ وقت طويل. وحين انحسرت المياه، ظهرت ضفاف هائلة من الركام الذي رُفع من قاع

---

[٢] أمواج بحرية عاتية تنشأ بفعل ثوران البراكين أو الزلازل أو الحركات الأرضية الواقعة تحت البحر.

البحر. لقد تسبب ذلك الحجر الذي ألقي في هذه البركة الطباشيرية في اندفاع هائل للمياه على اليابسة.

أما على الأرض، في تكساس، فلم يبقَ شيء على قيد الحياة.

وفي البحر لم يبقَ على قيد الحياة سوى حفنة من الكائنات بعد كارثة المحيط.

ومن بين تلك الكائنات السلحفاة البحرية، فلقد حفرت في الطين على عمق كبير حتى تنجو من أمواج التسونامي. وحين شعرت بعودة الهدوء، جاهدت للخروج من الطين، وصعدت وهي تمر بالمياه التي عكرها الحطام ورفات الحيوانات والنباتات.

وقد تمكنت السلاحف من قبل، نظرًا لقدمها، من تخطي ذروة تنوعها. فبينما هلكت مخلوقات أجمل وأكبر بالجملة، بقيت السلحفاة على قيد الحياة. ففي عالم يحفل بالمخاطر، تصبح الوضاعة سببًا لطول العمر.

أرسل الاصطدام نبضة طاقة إلى جسد كوكب الأرض. وفي أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية، وعلى مسافة تصل إلى آلاف الكيلومترات، انشقت الصدوع، ودوى صوت انهيارات أرضية، فيما كانت الأرض ترتجف، وازداد ضعف الموجات الصخرية وهي تنتشر، لكن طبقات الأرض الداخلية قامت مقام عدسة عملاقة لإعادة تركيز الطاقة الزلزالية عند الجهة المقابلة لمكان الاصطدام، وهي جنوب شرق المحيط الهادئ. فحتى هناك، في ذلك المكان الذي يقع عند أبعد نقطة من قطر الكوكب، ألقى المحيط بموجات يصل طولها إلى عشرة أضعاف زلزال عام ١٩٠٦ الذي وقع في سان فرانسيسكو.

وقُدر أن تستمر الموجات التصادمية في السريان في جسم الكوكب، وتتقاطع وتتداخل وتشتد. وظلت الكرة الأرضية أيامًا ترن كالجرس.

ومن ينظر إلى كوكب الأرض من الفضاء، سيشاهد ما يشبه الجرح المتوهج ينتشر فوق كوكب الأرض حول موقع الاصطدام الذي لا يزال يحترق، وهو عبارة عن سحابة كبيرة من الصخور المنصهرة، تندفع إلى الفضاء.

وفي الفراغ بدأت حرارة القطرات المتناثرة تبرد وتتكثف إلى ذرات صلبة من التراب. وسيُقدر ألا تعود بعض هذه المواد إلى الكوكب إلى الأبد، إذ ستلتحم برذاذ المواد المتفرقة التي تسبح بين الكواكب. وبعد انقضاء بضعة آلاف من السنين، فإن أجزاء من قاع البحر بالقرب من شبه جزيرة يوكاتان، سيُقدر لها أن تسقط في شكل شهب على كوكبي الزهرة والمريخ وأيضًا القمر. وستدخل بعض المواد السابحة في الفضاء بترتيبات عشوائية في المدار المحيط بالكوكب، مما سيؤدي إلى تكوين حلقة مؤقتة تدور حول كوكب الأرض — وهي حلقة مظلمة وغير جميلة — سرعان ما ستتبدد بفعل قوى الجاذبية المتغيرة لكل من الشمس والقمر.

لكن معظم المقذوفات سيُقدر لها أن تسقط مرة أخرى إلى كوكب الأرض.

وبدأ ينهمر من السماء وابل هائل، وكان أول ما سقط الحطام الخشن الذي عند حافة الحفرة، وكثير منه عبارة عن شظايا من الحجر الجيري المهشم في قاع المحيط. ولم تنصهر تلك القطع بفعل الموجة الحرارية الناتجة عن الاصطدام الأول، لكنها بدأت تتوهج بشدة، وهي تسقط وتمر بالهواء الجوي الدافئ لكوكب الأرض. وظهرت في السماء شرائط من الضوء يصل طولها إلى مئات من الكيلومترات، فبدت أشبه بتمرين جنوني من تمارين الهندسة. وبدت بعض قطع الحطام كبيرة بما يكفي لتنفجر عند ارتفاع حرارتها، لتنطلق مسارات ثانوية تنتشر في كل الاتجاهات انطلاقًا من الانفجارات المتوهجة.

ومن بين كل المخلوقات، في مدار بضعة آلاف من الكيلومترات من الانفجار، كان الحوت الجوي وحده هو الوحيد — من بين تلك المخلوقات — الأقل تأثرًا.

لقد شاهد الضوء الهائل وهو يسقط على شبه جزيرة يوكاتان ورأى ذلك الشعاع من ضوء الليزر الناتج عن تبخر قاع البحر والمذنب، حتى إنه رأى الحفرة الهائلة التي أحدثها الاصطدام وهي تتكون، بينما كانت موجات هائلة من الصخور تنبض خلال قاع البحر المكشوف قبل أن تتجمد تحت الأرض. ولو أتيح للحوت أن يقوم بوصف ما رأى، لأدلى للأجيال القادمة

بشهادة شاهد عيان يصف فيها الكارثة، الاصطدامَ الأعنف من نوعه منذ نهاية القصف الذي وقع في فترة تكوين كوكب الأرض منذ أربعة مليارات عام مضت.

لكن الحوت لم يعبأ بذلك، فلم تكن الرياح تزعجه؛ إذ طار على ارتفاع شاهق، وظل يحصل على غذائه، بينما كانت هناك مساحات هائلة من الهواء غير الرائق تمر فوق الأرض من تحته. فلم تكن الأضواء البعيدة في السماء أو المتاعب التي حلت بالأرض — مثل الدوامات التي كثيرًا ما عبرت اليابسة والمحيطات — لتشغل مخلوقًا يحلق عند أطراف الفضاء. فما دامت العوالق الجوية الهشة التي يتغذى عليها تصعد إليه من الأراضي التي يحلق فوقها، فهو يطوف في بيئته المعتادة وهو هادئ البال.

لكن تلك الزوبعة لم تكن مثل مثيلاتها!

اعتاد الحوت الجوي على الشهب. فلم تكن سوى أشعة من الضوء تظهر في السماء ذات اللون الأزرق المائل إلى البنفسجي من فوقه. وكانت معظم مليارات قطع الحطام الكوني التي تتساقط على الأرض تحترق في طبقة تعلو طبقة الجو العليا، الستراتوسفير، التي تعيش فيها الحيتان الجوية.

لكن بعض هذه الشهب توغلت حتى وصلت إلى طبقة الهواء الكثيف لكوكب الأرض، وهبطت بعيدًا عنه بكثير، ولم يكن الحوت يسمع — فلم يكن بحاجة إلى القدرة على السمع في هذه الطبقة من الهواء الصامت الواهي، حيث لا وجود لاضواري — لكنه لو كان يسمع، لربما سمع صوت الشهب وهي تسقط ثانيةً على الكوكب الذي اندفعت منه منذ وقت قريب للغاية. وقد رأى الأماكن التي سقطت فيها أول القطع التي يعود أصلها إلى قاع البحار. وعلى الأرض، على مسافة شاسعة تحته، تفتحت شرارات الضوء مثل الزهور الصغيرة، واحدةً تلو الأخرى، وبدا المنظر أشبه بما يراه من يستقل طائرة قاذفة للقنابل تطير على ارتفاع شاهق.

ولأول مرة منذ طفولته بدأ الحوت يشعر بالخوف؛ إذ فجأة لم يعد الأمر مجرد عرض للأضواء الجوية بل تحول إلى وابل من الأضواء والنيران.

كان وابلًا يتساقط من حوله، ويزداد كثافة. فاستدار إلى الخلف متراجعًا. وبحركة بطيئة من جناحيه الهائلين توجه شمالًا.

ونبض ضوء أبيض.

وكانت الشظية الصخرية المتوهجة مجرد ذرة دقيقة. وقعت على جسم الحوت ثم استمرت في الهبوط نحو الغابات الطباشيرية الكثيفة، دون أن تستهلك إلا جزءًا من طاقته الحركية. لكن نظام الجهاز العصبي المعقد لدى الحوت — الذي يتمثل في مخه الصغير — هو الذي أرسل إشارات فأحس بالألم. وعندما حرك رأسه ناحية اليمين، رأى جرحًا عميقًا أعلى جناحه، الذي تمزق واحترق من أثر اصطدام النيزك به.

ولو كان النيزك قد ضرب وسط جناحه، ما كان أثره قد زاد عن مجرد ثقب، ولكان الحوت قد بقي على قيد الحياة فترة أطول، لكن الحوت كان سيئ الحظ. فقد ثقب النيزك جزءًا من عظمة إصبع الطيران لديه، الذي كان هشًا وضعيفًا. وبدأ الجناح ينطوي حول تلك القطعة المكسورة من العظمة.

وانقلب كوكب الأرض بلونيه الرمادي والأزرق، ومع أنه ظل يضرب بجناحه السليم، هوى من طيرانه الأفقي، بلا حيلة، من السماء. لكنه ما زال واعيًا ومتماسكًا، فالتوى ببطء — مثل طائرة ورقية مكسورة — وارتفع ثانية إلى السماء. لكن وابل الشهب ازداد كثافة، وأخذت الشهب تندفع؛ لتحفر أنفاقًا وكهوفًا في جسده، ومزق الهواء حويصلاته وحطمها واخترقه، إلى أن وصل إلى هيكله العظمي الرقيق، ومزق أجنحته الرائعة.

واشتد الألم، وامتلأ تفكيره بذكريات رائعة مواسية عن التحليق على ارتفاع شاهق فوق كوكب الأرض الذي لم يصبه سوء. لكنه مات قبل أن تصل بقاياه إلى الأرض، إذ إن الهواء الكثيف دمر رئتيه.

حاول جاينت بصعوبة أن يقف على قدميه من جديد.

ورأى أمامه أحد ديناصورات الستيجوسوروس يتحرك بتثاقل في ارتباك، ويبدو سخيفًا بالقلنسوة القرمزية المؤلفة من العظام واللحم التي تغطي رأسه، وقد نجا هذا الذكر اليافع من الإعصار بفضل تمكنه من الاختباء بين أشجار الأريكواريا، ولم يصب إلا بجرح في ضلعه، لكنه فقد كل أهله،

إذ شتتتهم الرياح العاتية، ورفع رأسه وهو يعوي عواءً مدويًا حزينًا، فبدا وكأنه نداء استغاثة من فرخ ضل طريقه.

ولم تكن أمه هي التي استجابت لندائه، بل ديناصوران هائلان من أكلة اللحوم، وبالتحديد من ديناصورات جيجانتوصور، واقتربا منه ببطء وهما يهزان رأسيهما، ويحدقان فيه. وحتى آنذاك، ظلت لعبة الضواري والفريسة مستمرة.

وفي غمرة الخوف الذي استبد بديناصور ستيجوسوروس ودفع بكميات من الإدرينالين إلى دمائه، لاحظ شيئًا غريبًا، رأى ديناصور جيجانتوصور ثالثًا في مثل حجم وقوة الآخرين، لكنه لم يُبدِ اهتمامًا بوجوده، وكان الديناصور الثالث يهز رأسه ويهدد شيئًا آتيًا من السماء. فالتفت ديناصور الستيجوسوروس في خوف وحيرة إلى الجنوب، حيث رأى لونًا برتقاليًّا مكفهرًّا أخذ ينتشر بين السحب السوداء المسرعة.

وصرخ الشهاب الأول فوقهم مثل دبورٍ متوهج، وحلق على ارتفاع منخفض فوق الغابة المحطمة وارتطم بسفح جبلي يقع وراءها، وانفجر حجر بركاني حديث التكوين، فانهمر سيل آخر من الشظايا الساخنة، وضربت الأرض التي تناثر عليها الحطام، فالتفتت كل الديناصوررات إلى ذلك الاتجاه، وقد تملكها الذعر، وتناست عداوتها الفطرية للحظات.

ثم اخترق الشهاب الثاني جسد ستيجوسوروس مثل رصاصة بسرعة الضوء، وبعد جزء من الثانية، سكب الشهاب ما تبقى من طاقته على الصخور، عند اصطدامه بالأرض، وتسبب الانفجار في تمزيق جسده قبل أن يجد الوقت الكافي للسقوط. وفي سيل الدماء التي انهمرت، انكمش جاينت خوفًا، وهو يعجز عن استيعاب ما يراه.

ثم أخذت الشهب تتساقط على بقايا الغابات المحطمة. وأخذت النيران تنتشر.

وأصيب جاينت وأخواه بالذعر وفروا، لكن وابل الشهب ازداد كثافة، وأخذت الشهب تدك الأرض حول ديناصورات الجيجانتوصور وتحفر حفرًا ضحلة، وتشعل النيران حتى في الشجيرات المتناثرة، وبدا المشهد وكأن الديناصورات تركض بين وابل من المدفعية.

وشمت برجا هي الأخرى رائحة الدخان.

وتمكنت الرئيسيات من النجاة من النيران في جحورها، التي تقع على عمق كبير في الأرض الباردة، ثم عادت لتصعد إلى الغابة بعد تدميرها وحرقها، لكن غريزة برجا أنبأتها بأن هذه المرة تختلف عن سابقاتها، فاندفعت بجوار رفيقها وصغيريها المذعورين، وبجوار رأس الترودون المقطوع الرهيب، وخرجت إلى ضوء النهار. وفي الحال أبهر ضوء النهار عينيها: فعيناها الحساستان المهيئتان للرؤية الليلية من الصعب عليهما التعود على هذا الفيض من الضوء، ومع ذلك، فقد تمكنت من تمييز المعالم العامة لهذا اليوم البشع: النيران المنتشرة في الغابة المحطمة، ووابل الشهب غير المفهوم والمستمر بدون انقطاع.

لم يكن في مقدورها أن تبقى هنا، لكن أين تذهب؟

ونظرًا لتحطم الغابة التي تواري ما خلفها، تمكنت من رؤية أطراف جبال روكي وفوقها سحب الدخان البركاني تخيم على قممها، وهناك سحب كثيفة مستديرة تكلل المنحدرات العليا في الجبال، وذلك حيث دفعت رياح المذنب هواءً دافئًا رطبًا عند جوانب الجبال.

ظلال وظلام، ربما ستمطر أيضًا.

وتقدمت خطوات إلى الأمام وشواربها ترتعش، وأخذت تتحرك بهزات عنيفة وسريعة، وتتوقف كل بضع خطوت وتنبطح لتستوي بالأرض.

ونظرت خلفها، إلى ما وراء رأس الترودون المقطوع، فرأت رفيقها وصغيريها يحدق ثلاثتهم فيها بعيون واسعة، وكانت فطرتها التي أصقلتها مائة مليون سنة، تلح عليها أن ترجع إلى الأرض الباردة أو إلى تسلق الأشجار، حيث الأمان، وإلا فإن هذا العالم العملاق الذي يعج بالمخالب والأنياب والأرجل المخيفة، سيقضى عليها لا محالة، لكن الأشجار تحطمت ولم يعد جحرها ملاذًا آمنًا.

فانطلقت تعدو نحو الجبال التي تكللها السحب.

وتبعها رفيقها وأحد صغيريها بحذر شديد إلى ملجأ يستريحون به، لكن برجا لم تستطع أن تفعل شيئًا من أجل الصغير الثاني، فلن تراه مرة أخرى أبدًا.

وهكذا ظلت المخلوقات الثلاثة الصغيرة، الشبيهة بالفئران — وهي تحمل داخلها مستقبل البشرية — تشق طريقها ببطء عبر السهل المشتعل المحطم، فيما كانت الشهب تنهمر من حولها.

أكلت النيران نفسها، وبدأت جيوب النيران المتناثرة تلتحم. وحين ارتفعت درجة حرارة الهواء، بدأت الشجيرات الخفيضة الرطبة تحترق. واشتدت الرياح وتزايدت سحب الدخان في السماء. وهنا وفي كل أنحاء أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية، بدأ يصبح للنيران منطق خاص بها، إذ أصبحت تأكل نفسها.

وهكذا اندلعت عواصف النيران، واحترق كل شيء قابل للاحتراق: فاحترقت كل النباتات، حتى نباتات البحيرة التي لا تزال مبتلة. واشتعلت النيران في الحيوانات: إذ احترقت الديناصورات المفترسة الشبيهة بالطيور مثل الشجيرات تمامًا، حتى الديناصورات العملاقة آكلة النباتات أنضجتها النيران وهي داخل دروعها الهائلة.

واندفعت ديناصورات الجيجانتوصور الثلاثة من الغابة في آخر الأمر، إذ جاءت إلى أرض خالية من الأشجار تقع بالقرب من بحيرة كبيرة. وقد شعرت بوطأة الحرارة الشديدة، وقد فغرت أفواهها الكبيرة، وامتلأت رءوسها برائحة الدخان.

وبدت السماء غريبة للغاية، إذ اندفع غطاء من السواد من الجنوب الشرقي، كأن ستارة هائلة تنسدل على المكان. وانتشر وهج برتقالي مخيف، وظل يزداد توهجًا شيئًا فشيئًا حتى تحول إلى اللون الأصفر. وظلت الشهب تدك الأرض الموحلة.

وبجوار البحيرة، ظهر مشهد كئيب ينتظر ديناصورات الجيجانتوصور.

فرت الديناصورات فرارًا جماعيًّا في ذعر. فكانت هناك قطعان كبيرة من أنواع متنافسة من الديناصورات البرمائية ذات المنقار الشبيه بمنقار البط تسير جنبًا إلى جنب، وكانت الديناصورات المدرعة مثل سيراتوبس Ceratops والأنكيلوصورات تتدافع وتتزاحم، وركضت الديناصورات العاشبة بجوار الضواري الضخمة. وركضت كذلك ثدييات بين الأقدام الضخمة وهي تحدق

في الضوء بعيون نصف مغمضة. وهربت كل الحيوانات مذعورة، وأقدامها تحترق من أثر الركض على الأرض المشتعلة، ويرتطم بعضها ببعض في فوضى عارمة، وكان المشهد لا يمكن تصوره منذ ساعتين فحسب. فقد انهارت تمامًا علاقات النظام البيئي المعقدة التي تربط بين آكلات اللحوم وآكلات النباتات، وبين الضواري والفرائس، الذي تكونت على مدى مائة وخمسين مليون سنة.

واندفع جاينت إلى الأمام وهو يشق طريقه بين الجمع المذعور، وقد دفعته فطرته إلى المياه. وألقى بنفسه في البحيرة، متجاهلًا الحطام المشتعل الذي يطفو على السطح، وقد ظلت الطبقات الأعمق من البحيرة باردة، لحسن الحظ. ومع أن رأسه كان مغمورًا بالمياه، رأى مزيدًا من الشهب تضرب البحيرة، مما أرسل ممرات من الفقاقيع مثل طلقات الرصاص.

ورأى جاينت ما يشبه الصاروخ يرتفع أمامه، كان ذلك فمًا هائلًا مفتوحًا حتى ظهر بياض باطنه، ورأى من خلال المياه العكرة صفوفًا من الأسنان المخروطية، فتراجع في ذعر.

رقدت أنثى التمساح في قاع بحيرتها في صمت وصبر.

وأنثى التمساح تلك من أولاد عمومة ديناصور داينونيكوس الذي يعيش في البحر. ظلت بعيدة عن كل هذه الأحداث الصاخبة، تهتز كلما اهتزت الأرض من حولها، وتغدو وتروح مع الموج، ثم لاحظت أضواء غريبة تظهر في السماء فتوقعت هبوب عاصفة شديدة مثل غيرها؛ حينئذ قررت البقاء تحت الماء ساعة كاملة، فهي تستطيع أن تغلق تفكيرها على نفسها عند الضرورة، وتعرف أيضًا كيف ترقد في الوحل. مرت العاصفة ولا بد أن تحصل على طعامها.

لكن جاء ديناصور ليتخبط في المياه، فلم يكن يقف عن الحافة فقط ليشرب أو يأكل، مثل ديناصورات الهادروصور الغبية، بل سبح في منطقة نفوذها. فشعرت بالغضب حيال هذا التطفل، كما كانت تتوقع الحصول على وجبة سهلة. فابتعدت عن الطمي ثم صعدت إلى سطح المياه، التي كانت تتلألأ بضوء الشهب. لكن اندفعت المزيد من الأجسام الهائلة لتسقط

في المياه العكرة، وهي تشق طريقها بصعوبة في الطمي الدبق الموجود في قاع البحيرة.

وهاجمت، بالطبع.

ضرب جاينت وهو يتجنب فكي أنثى التمساح، وتمكن من ركل خطم أنثى التمساح وهو يتخبط، فتراجعت أنثى التمساح لحظات، لكنها سرعان ما عادت لتهاجم، وكان جاينت سينسحب، لكن اندفعت مجموعة من الحيوانات من حوله إلى المياه وراءه. وأخذت أنثى التمساح تقاتل وتهاجم المعتدين، ودارت معركة قاسية بين الحيوانات.

ثم وقعت موجة هائلة، إذ سرت في الصخور القاعدية هزة من توابع الهزة الزلزالية التي أحدثها سقوط المذنب؛ فتصدعت الأرض وارتفعت، وجفت المياه فجأة؛ فأصبح جاينت عالقًا بين النباتات الجافة والحيوانات التي تتلوى.

وحين وجدت أنثى التمساح نفسها معرضة للهواء الساخن الجاف فجأة، لم تفهم ما حدث. وحاولت أن تحتمي في الطين، استجابة لغرائزها التي أرشدتها إلى السباحة أول مرة وهي صغيرة عندما خرجت من بيضتها. لكن الطمي تصلب وجفَّ بسرعة؛ فلم تستطع الحفر ولو في الرواسب الطينية.

وظلت الشهب تنهمر كالمطر وهي تمرق بسرعة من خلال سحابات الدخان، مثل أعمدة الضوء.

وكانت الرياح وأمواج التسونامي قد محت معظم الأحياء من الوجود، بدءًا من الحشرات ووصولًا إلى الديناصورات، وذلك في أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية. وفي كل أنحاء العالم، قضت الحرائق على معظم من بقوا على قيد الحياة.

لكن الأسوأ لم يأت بعد.

فقد عادت المقذوفات الخشنة التي انطلقت من المحيط الخارجي لموقع الاصطدام لتسقط بسرعة، وأخذ قدر كبير منها يدك الأرض المضطربة في خلال محيط دائرة أو دائرتين من الحفرة المركزية الناتجة عن الاصطدام،

بينما سقطت بقية المقذوفات على هيئة شهب أدت إلى اشتعال النيران في الغابة. لكن ظل عمود هائل من أدخنة الصخور المنصهرة يرتفع إلى عنان السماء، تدفعه الطاقة الحرارية المنطلقة منه. وفي فراغ الفضاء، بدأت جزيئات صلبة تتكثف بعد خروجها من هذه السحابة المتوهجة، وأخذت تسقط على كوكب الأرض مرة ثانية وهي ما زالت شديدة السخونة. لكن مع أنها ارتفعت إلى الجو من خلال نفق من الفراغ، بدأت تسقط في الهواء، وصرفت طاقتها في الهواء. لقد كان وابلًا من النيران، إذ انهمرت مليارات لا تحصى من الشهب الدقيقة الملتهبة على كل أنحاء الكوكب.

وبدأ الهواء يتوهج في كل أنحاء الكوكب.

ووصلت برجا إلى سفح جبلي، وكان رفيقها ثيرد (الثالث) وصغيرتها الباقية على قيد الحياة، بجوارها. ولم يستطع الثلاثة التقدم نحو جبال روكي نفسها، فالأرض متصدعة بفعل الموجات الأرضية، وقد تناثرت عليها جلاميد الصخر التي يصل ارتفاع الواحد منها إلى أضعاف طول برجا.

وفكرت برجا في أن هذا المكان سيكون ملائمًا، وبدأت تحفر في التراب غير المتماسك في محاولة لحفر جحر.

ونظرت إلى الخلف، إلى المكان الذي أتت منه. فرأت الأرض تتوهج بلون برتقالي زاهٍ، من تحت سحب الدخان المتصاعدة في الجو. كان منظرًا فوق العادة، لكن حتى فوق هذه الربوة الصخرية، شعرت برجا بالحرارة، وشمت الرائحة السيئة للدخان واللحم المحترق.

ورأت السحب، التي شدتها إلى هذا المكان، وأشكالها غير منتظمة، لكنها لا تزال تتجمع حول قمم الجبال. وتوهجت السحب بلون أبيض يميل إلى البرتقالي، بفعل انعكاس وهج الأرض المشتعلة عليها، وظهرت السماء من ورائها بلون أسود كالليل. لكن ذلك الضوء البرتقالي القادم من جهة الجنوب من وراء السحب بدأ يزحف في السماء من فوق برجا. وبدأت السماء نفسها تتوهج، وكأن الفجر ينبلج في الوقت نفسه من كل جهات السماء، وسرعان ما تصاعدت حدة الضوء فتحول إلى البرتقالي، ثم الأصفر، ثم تحول إلى الأبيض الباهر، الذي يشبه ضوء الشمس الساطع.

ووصلت إليها أول لفحة من الحرارة.

فأخذت الكائنات الثلاثة تخدش الأرض بيأس.

وفي قاع البحيرة المتشقق، تمكن جاينت من الوقوف على أقدامه بطريقة ما، ومن حوله جثث الموتى، ولم يستطع التنفس، وضاق صدره بالهواء الكثيف المحمل بالدخان وقطع النباتات المحترقة المتوهجة. وشعر كأنه يقف في وسط ضباب رمادي. ولم ير شيئًا سوى الدخان والغبار والرماد الذي يدور في دوامات.

واشتدت الحرارة، حتى صارت أشبه بحرارة الفرن. وفاحت رائحة اللحم المحترق.

شعر جاينت بألم شديد في يده، فرفعها في فضول، وجد أن أصابعه تحترق مثل الشموع.

وآخر ما فكر فيه هو أمر أخويه.

وجاء موته في لحظة صدمة مباغتة، ولم يحس بالأمر: إذ تلفت أعضاؤه الحيوية بسرعة شديدة عجز معها دماغه عن التوصل لرد فعل واعٍ، ثم احترقت عضلاته وتجمدت. وانقبض ذراعاه وساقاه، لكن عموده الفقري كان منبسطًا، لذا اتخذ عند لحظة موته وضعًا يشبه وضع الملاكم، إذ مال رأسه إلى الوراء، وارتفعت يداه، وانحنت ساقاه؛ واحترق لحمه حتى تساقط وبدأت أسنانه تتهشم.

حدث كل ذلك قبل أن يسقط جاينت على الأرض.

ثم بدأت الصخور نفسها تتشقق.

وبدا كوكب الأرض أشبه بحجر كريم، وتوهجه المفاجئ ينعكس على البحار القديمة الموجودة على القمر، فبدا جميلًا، لكنه جمال عالم يحتضر.

وامتصت الأرض والطبقات الداخلية من الغلاف الجوي نصف الطاقة الحرارية التي أطلقها الهواء الساخن. وفي كل أنحاء الكوكب كانت السماء ساخنة ومتوهجة مثل الشمس، وازدادت حرارة الهواء، وكلما احترقت الأرض احترقت الحيوانات وهي واقفة في مكانها، فبدت كأنها محنطة، وكذلك احترقت أشجار غابات العصر الطباشيري الهائلة وكأنها أوراق أشجار الصنوبر. واختفت كل الطيور التي تطير في الجو في اللهيب. كما اختفت الزواحف المجنحة في غياهب الانقراض، وتحولت الجحور التي تضم

الثدييات والحشرات والبرمائيات إلى مقابر صغيرة. وسرعان ما احترق صغير برجا الثاني، وهو يئن وحيدًا.

لكن برجا نجت، وصارت آخر السحب السوداء غير محددة الشكل، وتبددت بسرعة، وسرعان ما تحولت إلى بخار لكنها حجبت الأرض تحتها وحمتها من سماء مُتقدة مثل الشمس، وذلك في الدقائق العصيبة التي انطلقت فيها النبضة الحرارية الهائلة.

حدث كل ذلك بعد ساعة واحدة فحسب من الاصطدام.

٣

بعد انقضاء أيام قلائل، هدأ ارتجاف الأرض تدريجيًّا، ولم تعد الزواحف الجبلية الضخمة تدق الأرض بخطواتها الثقيلة.

وقد تعودت برجا على الظلام لكنها لم تتعود على السكون المخيف المستمر الذي يحيطها من كل جانب.

وعلى مدى أجيال بلا عدد، شكلت الديناصورات حياة فصيلة برجا. حتى بعد الاهتزاز الكارثي الذي وقع، ظلت برجا ترى الديناصورات مرارًا، وهي تقف في صفوف، تنتظر في صمت فريستها من الثدييات ما إن تطل من جحورها.

وأخيرًا بدا من المستحيل أن تبقى الثدييات — حيث لا يوجد طعام، ويحيط بها الخطر من كل جانب، ولم يعد هناك أثر للديدان والخنافس وهي في جحورها لا تدرك الليل من النهار، وكانت درجات نومها متفاوتة، حيث إنها بعد كل نوبة من الانفجارات تخلد إلى النوم، ثم تستيقظ على فترات، فالجوع يؤثر بلا شك على زيادة إحساسها بالخوف والغربة، ومن الغريب أنها تتشاحن فيما بينها، وينهش بعضها لحوم بعض، ومع الوقت.

بدأت درجات الحرارة في الانخفاض شيئًا فشيئًا، وبعد ساعات من احتراق السماء، بدأ الإحساس ببرودة الجو، والتجأت الثدييات إلى طبقة معينة من الأرض، لكن حتى ذلك لم يكن قادرًا على حمايتها إلى الأبد.

وأخيرًا بدأ ثيرد يتجه إلى الصغيرة لاست (الأخيرة)، فقد كانت هي آخر نسل لبرجا بقي على قيد الحياة. لم تستطع برجا رؤية ثيرد، لكن بفضل

سمعها الحاد وشواربها، شعرت باقتراب رفيقها من طفلتها خطوة تلو الأخرى، وفمه مفتوح كما لو كان يطارد فريسة من الحُرُش.[٣]

بدا ثيرد غاضبًا ومشوش الذهن وجائعًا جدًّا، وكل ما قام به كان منطقيًّا إلى حدٍّ ما، ولم يكن هناك شيء يمكن أكله في ذلك المكان، ولو أن لحم الصغير يمكن أن يحافظ على حياة الكبار لبعض الوقت الذي يكفي لإنتاج صغير آخر، لكان البرنامج قد أدى غرضه، ونجا النوع من الانقراض.

ربما لو كان الأمر في وقتٍ آخر لاستطاعت برجا أن تستسلم لعدوان ثيرد، لكن حياة برجا استمرت أطول من السلالات الباقية، وعانت بالفعل من سلسلة أحداث عنيفة من الخراب والدمار، وأيضًا من الجروح المتناثرة في معظم جسدها، وهي مصرة على الحياة، رغم تلك الظروف التي مرت بها. لا بد أن ينزوي ذلك، الكابوس الفظيع، وذلك الحصار المفروض عليها، في هذا العالم البارد الصامت.

ووصلت برجا إلى قرار: قامت بقضم ثيرد بوحشية فوق فخذه، وقفزت لتقف بجانب ابنتها.

كانت لاست مشوشة، مثلها مثل الآخرين، لكنها أدركت أن أمها تحميها من نوع ما من أنواع الهجوم من قِبل أبيها، لذا وقفت مع برجا وكشرت عن أسنانها تجاه ثيرد ولمدة نصف دقيقة، كان الجحر يعج بأصوات الهسهسة وبأقدام صغيرة تخمش الأرض باستفزاز. وتربصت الرئيسيات ذات الشوارب كل منها ينتظر أن يبدأ الآخر بالهجوم.

وفي النهاية تراجع ثيرد عن عدوانه وانطوى في ركن المخبأ. ووقفت برجا وطفلتها حتى خبا الغضب والعدوان في صدرها.

وهذه الحادثة الأخيرة هي التي غيرت توازن القوى في عقل برجا.

لم يكن في إمكانهما البقاء في هذه المجاعة، فإما أن تموتا جوعًا أو بردًا، ذلك إن لم تقتل إحداهما الأخرى قبل ذلك! من الضروري أن يخرجا بغض النظر عن الخطر الداهم — الذي اختفى بعد ذلك — في عالمهما

---

[٣] دويبات من كثيرات الأرجل تنتشر في المناطق الحارة.

الجديد، ويكفيها هزال جسدها الذي ازداد يومًا بعد يوم. واندفعت برجا وسط القاذورات، التي تسد مخرج الجحر لكنها تخطتها.

وخرجت إلى الظلام.

ظهرت البحيرة بعد يومين، واختفت السحب النارية من السماء، وكسا الغبار والرماد الأرض، وقد أحاطها بكتلات ضخمة من السحب الصفراء والبيضاء، التي تحمل حامض الكبريتيك، وتحولت الأرض إلى نجم لامع تحوطه الكآبة والظلام الدامس من كل جانب، وكل ذلك من جراء انفجار المذنب، وانتشرت الشظايا الملتهبة هنا وهناك، واكتسى البحر ببقايا الحمم البركانية التي انتشرت لتحدث هزات أرضية هائلة ومتتابعة اهتز لها الكوكب، واحترق الشجر والثدييات والفصائل المتنوعة من الديناصورات في أمريكا والصين وأستراليا والقارة القطبية الجنوبية، واحترقت النفايات من جراء العواصف النارية واسعة النطاق، وأيضًا ارتفعت درجات الحرارة بشكل مُهلك. واختلط كل شيء، وأصبح مزيجًا من طبقات الجو العليا، وانزلق الكبريت في صورة صخور مفتتة في قاع البحر من اللحظة الأولى من الانفجار، وتتطاير الجزء الآخر في الهواء على شكل بلورات من حامض الكبريتيك الذي تجمع في شكل سحب تحجب ضوء الشمس، مما أدى إلى برودة الجو وقلة درجات الحرارة.

وتحملت برجا وزحفت بحذر مع صغيرتها، لتصل إلى حافة المخبأ وارتعشت شواربها في خوف وتوتر. لو أن السماء كانت صافية حقًّا في شمال أمريكا، لاستطاع ضوء الشمس أن يعم الكرة الأرضية ليصل إلى الأفق، لكن الضوء الموجود حاليًّا لا يتعدى ضوء الغسق، ولم يكن يكفي حتى لعيني برجا المرهفتين الواسعتين.

وتعثرت في طريقها بصخرة محترقة — فكل شيء حولها قفر: فلا يوجد نباتات خضراء، ولا حتى رائحة تدل على الحياة والنمو، ويعم المكان رائحة الروث وجيف الديناصورات الميتة، واختلطت هذه الروائح الكريهة برائحة الرماد، وتلون المكان بالكامل باللون البني والأخضر لطبقة طباشيرية، حتى أوراق الشجر احترقت وكذا الروث. كل شيء دُمر، ولم يتبق إلا المعادن والصخور، والنفايات، وبدا الأمر وكأن برجا انتقلت إلى سطح القمر.

وازدات البرودة، لتخترق طبقات الدهون القليلة وتنفذ إلى عظامها.

ووصلت إلى أطلال أشجار السرخس وبدأت في حك الأرض بمخالبها، لكن الأرض كانت صلبة جدًّا وجليدية، ولذلك جرح الجليد يديها، ثم أخذت تلعق يديها، فتجمعت قطرات من المياه في فمها.

كان هذا المكان منذ أيام قلائل غابة استوائية، فلم يتكون فيه جليد قط منذ ملايين السنين، لكن الصقيع خيم آنذاك، وعادت برجا إلى خدش الأرض الجليدية، تحشو فمها بما تجده من أشياء باردة، وأخذت ترشف مقادير ضئيلة من المياه ببطء، والكثير من الرماد والقاذورات معها.

وحاولت أن تعمق الحفر، إذ كانت تعرف جيدًا أنه يمكن الحصول على الغذاء حتى بعد أشد الحرائق: مثل حبات الجوز الصلبة وبعض الحشرات المدفونة في العمق والديدان، لكن ثمار الجوز والحبوب محبوسة تحت غطاء من الأرض المتجمدة، ولم تستطع برجا الحفر فيها بكفيها الصغيرتين.

وتقدمت وهي تتحسس طريقها وسط الظلام بشواربها.

ووصلت إلى بركة صغيرة ضحلة، كانت في الحقيقة أثر لقدم أنكيلوصور، واصطدم خطمها بقوة بسطح صلب، بارد وصلب كالصخر، وسرت في فرائها برودة شديدة، فتراجعت إلى الخلف مسرعة.

لم تصادف برجا أبدًا ثلجًا صلبًا من قبل، كما لم تصادف الصقيع.

وأخذت تنقب في الثلج بيديها وخطمها بحذر أشد، وبدأت تحفر حتى استطاعت أن تشم رائحة لشيء ما يختفي في الماء، مما أثار فضولها لتصل إليه، ثم بدأت بعمل دائرة صغيرة تشبه البركة وأخذت تفحص كل جزء على حدة، وعثرت أخيرًا على أثر لقدم الأنكيلوصور، ثم وصلت إلى الطمي الناعم الدافئ في حفرة عميقة، وكأنما قد حُفرت من قبل! فالثلج هنا يختلف تمامًا — عنه في أي مكان آخر — فهو رقيق جدًّا، وكلما دفعته برجا أكثر، تصدع السطح أكثر وأكثر وتدنتت، وعندما رأت قطعة ثلج مشتعلة، قفزت للخلف وهي مندهشة! وانزلقت ببطء إلى المياه، وبمنتهى الحذر تقدمت إلى الأمام أكثر من مرة، وفي نفس الوقت غمست أنفها في المياه، فوجدتها سائلة باردة، يحيطها الجليد، فقامت بامتصاصها، متجاهلة المرارة التي خلفها الرماد والغبار.

وشربت منها وهي تصدر صوتًا عاليًا، مما جعل رفيقها وصغيرها يهرولان نحوها، وبدأ الجميع في رشف المياه بشراهة.

ولأول مرة منذ اصطدام المذنب بالأرض، بدأت الأمور تتحسن لبرجا، ليس كثيرًا لكنها كانت أفضل.

لكن شيئًا لمس كتفها: كان شيئًا خفيفًا وباردًا، فعوت والتفت، فوجدته شذرة من اللون الأبيض تذوب.

ثم بدأ المزيد من الرقائق يتساقط من السماء، بحركات عشوائية متفرقة، وكانت برجا تقفز لتلتقطها بفمها مثلما تلتقط ذبابة من الهواء، وتناولت القليل من الثلج الناعم.

كان الثلج يتساقط.

وهرولت بعد ذلك إلى الجحر خوفًا مما يجري.

تسبب الاصطدام في اندفاع مياه المحيط المتبخرة إلى الهواء، وبعد أسابيع من الترقب، بدأت تسقط على الأرض مرة أخرى في صورة أمطار.

وتزايد البخار العالق في الهواء. تساقطت أمطار غزيرة على كل أنحاء الكوكب.

لكن المطر نفسه تسبب في المزيد من الدمار، فهو مليء بحامض الكبريتيك، والسحب مليئة بالمعادن السامة التي تلوث الجو، فالسماء تمطر معادن مثل: النيكل الذي يؤدي إلى تسمم النبات. وجرفت مياه الأمطار المعادن مثل: الزئبق والأنتيمون والزرنيخ من التربة، مما يجعلها تتركز في البرك والأنهار.

وهكذا لسنواتٍ عديدة، حملت كل قطرة مطر سمومًا.

وجرفت الأمطار الغزيرة الغبار والرماد. وتكونت طبقة ناعمة من الطين الأسود في كل أنحاء العالم، أشبه برباط من الظلمة سيظل يظهر إلى الأبد في الصخور الرسوبية في المستقبل، رباط من الطين، سيُقدر لجوان يوسب وأمها أن تدرسه ذات يوم، باعتباره آخر بقايا المحيط الحيوي.

وبعد شهور من الظلام، ظهرت الشمس من خلال طبقات الغبار والرماد التي طوقت الكوكب. لكنها بدت مثل رأس دبوس، إذ لم تصب

أي حرارة على الأرض المتجمدة، وخيم شفق مظلم على الأرض طوال عام آخر.

وعادت الشمس لتنير المشهد المخيف.

لكن حتى تلك النباتات الاستوائية، إن عاشت فترة، قتلتها البرودة المفاجئة، واستسلمت كل الأحياء من الديناصورات للجوع والبرد، وسرعان ما نهشت لحومها الضواري الناجية. ووسط الرماد كانت الكائنات الحية هنا وهناك: ومن بينها الحشرات مثل النمل والصراصير، والسمادل والسلاحف والسحالي والثعابين، إلى جانب التماسيح، وكلها تستطيع أن تختفي في الوحل أو في المياه العميقة، ذلك إلى جانب العديد والعديد من الثدييات، إذ كانت أجسامها المكسوة بالفرو، واعتيادها على الاختباء في باطن الأرض؛ تحميها من وطأة البرد.

كان ذلك، كأنما العالم قد هرب مع الجرذان.

وحتى في هذه اللحظات، تكاثرت الحيوانات الناجية. وحتى في هذه اللحظات، تزايدت أعدادها، رغم البرد وندرة الغذاء، وذلك لعدم وجود الكائنات التي افترستها فيما مضى. وحتى في هذه اللحظات، أخذ مبضع التطور المواد الخام المهيأة لتناسب عالمًا اندثر، وظل يقطعها ويشكلها لتلائم ظروف العالم الجديد.

مشت أنثى اليوبليسيفيلوس[4] euoplocephalus وحيدة بخطوات متعثرة في البرد اللانهائي لتبحث عن غذاء.

كانت نوعًا من أنواع الأنكيلوصورات، طول جسمها عشرة أمتار، ووزنها يبلغ ستة أطنان قبل المجاعة التي تعرضت لها ببطء، ودرعها من العظام: غُرست هذه الصفائح العظمية في جلد ظهرها وعنقها وذيلها وجوانبها ورأسها، حتى جفونها كانت من صفائح عظمية. والتحمت الصفائح في طبقة من الأربطة القوية، مما جعل درعها العظمي الهائل مرنًا، وإن كان ثقيلًا. وانتهى ذيلها الطويل ينتهي بكتلة ملتحمة من العظم. وذات مرة

[4] من الديناصورات المدرعة التي تمشي على أربع وهي من آكلات النباتات وذيلها على هيئة هراوة.

استخدمت ذيلها الذي يشبه الهراوة لإصابة ذكر تيرانوصور، وكان ذلك هو أكبر انتصار حققته. لكنها لم تكن تذكر ذلك، إذ إن كل ذلك الدرع لم يفسح مجالًا كبيرًا، أو ضرورة كبيرة، لوجود مخ كبير.

ومع أن الموت كان مفاجئًا من الناحية الجيولوجية، لم يكن الموت الذي ينتشر في أنحاء الكوكب فوريًّا في وعي من تعرضوا له. فعلى مدى أيام وأسابيع، بل ربما شهور طويلة، تشبث الكثير ممن تعرضوا للهلاك بالحياة، حتى الديناصورات.

أصبحت ديناصورات اليوبليسيفيلوس مهيأة دائمًا للبقاء على قيد الحياة حتى نهاية العالم، فقد أتاحت لها أجسامها الضخمة وقوتها الهائلة ودروعها الثقيلة — فضلًا عن وجودها بالصدفة تحت سحب كثيفة بالقرب من ضفة النهر — تحمل الساعات القليلة الأولى الرهيبة، وقد نجت من فترات جفاف من قبل؛ فلابد أنها تستطيع الصمود أمام هذه الكارثة المباغتة. ولم يكن عليها إلا التنقل وصد الضواري.

وهكذا، بحثت عن غذاء وهي تتجول في الأرض المتجمدة، لكنها لم تجد شيئًا.

وتساقط رفاقها واحدًا تلو الآخر، إلى أن أصبحت وحيدة.

لكن من المفارقات، أنها تزاوجت لآخر مرة، مع ذكر لقي حتفه، وأصبحت على وشك وضع البيض.

وفي هذا العالم الجديد، حيث الظلام والثلج يغلف الأرض، والسماء يغطيها غطاء من اللون الأسود المشوب بالرمادي، عجزت اليوبليسيفيلوس عن العثور على أماكن فقس البيض المعروفة، ولذا فقد بنت عشًّا لها بقدر استطاعتها، وذلك من أرض الغابة الجرداء المكسوة بالرماد والجمر، خلافًا لما كانت عليه الغابة فيما مضى. ووضعت البيض، وهي تخور، وأخذت تنظم البيض بعناية على الأرض. لكنها لم تكن من الأمهات المهتمات، فلم تكن تلك الدبابات التي تزن ستة أطنان مهيأة لمنح العناية والحب. لكنها ظلت بالقرب من عشها، وظلت تحميه من الضواري.

قد يفقس البيض على الرغم من البرودة، وقد تنجو بعض الأفراخ من البرودة القارصة، فمن بين جميع أنواع الديناصورات، ربما كانت

ديناصورات الأنكليصور هي التي ستصمد في هذا العالم الجديد بظروفه القاسية.

لكن المطر اللاذع أفسد المواد الغذائية التي تحتاجها أجسام اليوبليسيفيلوس لإنتاج بيض يُقدر له الفقس، فبعض البيض قشرته سميكة جدًّا حتى إنه من المستحيل على أي فرخ كسرها والخروج منها، والبعض الآخر قشرته ضعيفة للغاية حتى إنه ينكسر تحتها وهي تضعه، ثم بدأ المطر يفسد البيض مباشرةً، وعمل المطر المنهمر بغزارة على تحلل طبقاته الواقية.

ولم تفقس بيضة واحدة، فأصيبت اليوبليسيفيلوس بالحيرة والحزن، وتركت البيض. وبعد رحيلها مباشرةً، ظهرت مجموعة من الثدييات المفترسة المكسوة بالفراء وهجمت على ،لبيض، وحولت العش إلى ساحة قتال موحلة، وهي تتشاجر معًا.

وكانت اليوبليسيفيلوس آخر فرد من نوعها، وأخذت تطوف أنحاء الأرض، ولا تحركها إلا غريزة أخيرة وهي البقاء، لكن المطر السام انهمر مرة أخرى، وأضر بها. احتمت المخلوقات التي على شاكلة برجا من المطر إما في مخبئها أو تحت الصخور أو حتى في دروع السلاحف الميتة، لكن الأمر يختلف مع اليوبليسيفيلوس، فهي ضخمة جدًّا، ولم يكن هناك مكان لتختبئ فيه، ولم تكن تستطيع الاختباء في باطن الأرض، لذلك أصيب ظهرها بحروق شديدة، وتجردت الصفائح العظمية الهائلة في درعها من اللحم، واحترقت الأربطة الضامة.

واتجهت صوب البحر بخطوات مترنحة، دون تفكير.

ومرت ثلاثة شهور بعد انفجار المذنب، وجدت برجا ومعها صغيرتها في أرض متجمدة جامدة كالصخر.

ورأت الاثنتان بضعة حيوانات: وأحيانًا كان يراقبهم ضفدع حذر وهما تمران، أو يطير طائر هاربًا عند اقترابهما، وهو يطلق صيحات حادة، متخليًا عن قطعة نفايات متجمدة على الأرض، وكانت بقايا نباتات العصر الطباشيري، وجذوع الشجر المقطوعة، ومساحات الشجيرات، قد تجمدت،

وأصبحت أشبه بالتماثيل الجامدة، وغالبًا ستفضي أي محاولة لقضمها إلى كسر أسنانها.

تاقت برجا إلى الأمان، إلى التسلق على شجرة أو إلى الحفر في التربة الطرية، لكن لم تكن هناك أشجار — لم يكن هناك سوى جذوع أشجار مقطوعة ورماد وبقايا جذور — والأرض صلبة للغاية حتى إنه من الصعب الاختباء بها. وحين أرادت النوم، نبشت في الحطام الخفيف، وصنعت أعشاشًا من الرماد والأوراق المحترقة وقطع الخشب، ورقدت فيها وهي ترتجف، واقتربت كل منهما من الأخرى طلبًا للدفء.

بعد أيام من التجوال، ذهبت برجا وصغيرتها لاست، إلى أطراف المحيط الداخلي بأمريكا.

انتشر الجليد هنا، وتحول الشاطئ الرملي إلى جليد، وكذلك البحر، وبدت السماء رمادية اللون، وكأنها مليئة بالفحم، ومليئة أيضًا بالرغوة الجليدية، لكن ما زالت المخلوقات الوديعة الضعيفة، تتنفس في المياه المالحة، والثدييات تبحث عن طعامها من العشب البحري والقشريات أو حتى من الأسماك الصغيرة.

وتدمرت أيضًا المحيطات من أثر الاصطدام، واحتجب ضوء الشمس، وانهمر المطر المحمل بالأحماض، التي قتلت العوالق التي تعيش في المحيط والتي شكلت أساسًا لسلسلة من الغذاء، الذي ذهب أدراج الرياح، وزحف الانقراض، وداهم كل الممالك في عالم الحيوان، وغطى الجليد المحيط وطوى داخله كل الأحياء التي عاشت فيه، وسوف يستغرق الأمر ملايين السنين حتى تتعافى المحيطات.

ووجدت برجا نجمة بحرية ملقاة على الشاطئ، ولم تكن قد رأت مثل هذا الحيوان من قبل، نظرًا لأنها ما زالت حديثة العهد بالبحث عن الغذاء بالقرب من المحيط. فوكزته بخطمها، وهي تحاول أن تحدد الفئة التي ينتمي إليها في عالمها: مصدر خطر، أم يصلح للأكل.

كانت حركاتها ضعيفة. في الواقع لم تكن تقوى على تفحص نجمة البحر.

بدأت قواها تخور. وعانت من العطش ومن ألم مزعج في فمها، ثم انتقل إلى بطنها، فمنذ الاصطدام وهي تفقد وزنها باستمرار، إذ كانت مخلوقًا استوائيًّا، وفجأة اضطرت للعيش في ظروف قطبية. كان جسدها نحيفًا ذا طبيعة تتلائم مع بيئتها السابقة، ولا يستطيع مقاومة ما يجري حوله من أحداث، وقد احترق أكثر من مرة، مما أفقدها طاقتها، وهي تشعر دائمًا بقشعريرة في هذا الجليد.

أصابها النحول حتى برزت عظامها، وأضناها الوهن، وأصبحت تشعر بإنهاك مستمر، كما أن تفكيرها قد أصابه الاضطراب، وتبلدت غرائزها.

إنها تشيخ أيضًا. وأسلوب البقاء الأساسي الذي تتبعه الرئيسيات، باعتبارها تعيش بأسلوب الهوام، يقوم على التكاثر السريع: فلطالما ظل عدد تلك الحيوانات أكثر من قدرة الديناصورات على القضاء عليها، فلم يكن طول العمر ينطوي على أي ميزة لهذه المخلوقات. لكن نهاية حياتها القصيرة الحافلة بالمصاعب قد حانت.

وعانت صغيرتها المسماة لاست بالطبع. لكن تمتعت بمزيد من القوة نظرًا لصغر سنها. وأدركت برجا مدى اتساع الهوة بينهما، ولم تكن المسألة مسألة غدر، بل كان هذا هو قانون البقاء، وشعرت برجا في قرارة نفسها أنه سيأتي يوم تكف ابنتها فيه عن اعتبارها رفيقة في البحث عن الغذاء، ولن تعتبرها حتى عائقًا يحول دون ذلك، بل ستعتبرها مصدر غذاء. فبعد كل ما مرت به برجا، ربما تصبح آخر ذكرياتها هي رؤية ابنتها وهي تفترسها وتغرس أسنانها في عنقها.

لكنهما آنذاك شمَّتا رائحة لحم، وشاهدتا المزيد من الكائنات الناجية، والمزيد من الثدييات التي تشبه الفئران، وهي تسرع على الشاطئ، إذ كان من الواضح أن هناك شيء يستحق الحصول عليه. وكافحت برجا ولاست لكي تلحق بتلك الحيوانات.

وصلت اليوبليسيفيلوس الضخمة إلى شاطئ المحيط بخطى متعثرة، وقد بدأ وعيها يتوهج تارة وينطفئ تارة أخرى مثل المصباح الكهربي المعطل.

ثم نظرت إلى أسفل دون فهم. كانت المياه ترتطم بأقدامها برفق، إذ هطلت أمطار غزيرة. والرمال ملوثة بالسخام الأسود والغبار البركاني، وقد تناثرت عليها عظام مخلوقات صغيرة، ورأت من بينها أجساد أسماك فضية ميتة، مزقت الطيور عيونها. لكن اليوبليسيفيلوس لم تكن تشعر إلا بما تعانيه من تعب وجوع وعطش ووحدة وألم.

رفعت رأسها، فرأت الشمس وهي تغرب في الجنوب الغربي، وقد تحولت إلى قرص أحمر قانٍ لا يعلو كثيرًا عن الأفق الذي تحول إلى سواد فاحم.

وقفت اليوبليسيفيلوس بلا حراك على حافة المياه، إنها من آخر أنواع الديناصورات العملاقة التي ظلت حية على كوكب الأرض، وقفت مثل تمثال يخلد ذكرى نوعها الذي في سبيله إلى الزوال. وقد شعرت بثقل شديد في رأسها وذيلها، وذلك بسبب ثقل كل تلك الحراشيف المدرعة التي تغطي جسدها، فتركتهما يتهدلان، إنها تُحتضر دون أن تنجب ذرية يُقدر لها الاستمرار من بعدها. واصطخبت مشاعر تعاسة بالغة في وعي اليوبليسيفيلوس البسيط.

وشعرت بقضمة حادة في خف قدمها.

لقد عضها حيوان من الثدييات، ولم يكن يفوق برجا كثيرًا، ومع ذلك كانت له أسنان حادة، مثل أسنان الأسود التي ستظهر ذات يوم، وهكذا اندفع إليها وعضها فعلًا، بجرأة سخيفة. فنعقت اليوبليسيفيلوس باستياء، ورفعت أحد أقدامها الهائلة بجهد كبير، لكن عندما ضربت بها المياه، لم يتسبب ذلك إلا في تناثر قطرات ضئيلة من المياه، فلاذ الحيوان المعتدي بالفرار.

لكن، تجمع حولها المزيد من الحيوانات الناجية في كل مكان.

لم تبق حيوانات كبيرة الحجم، فقط برجا بلاست، ومجموعة أخرى من الثدييات التي تشبه الجرذان تمكنت من البقاء على قيد الحياة بالاختباء داخل جحورها تحت الأرض، والاعتماد طوال فصل الشتاء الطويل على حرارة أجسامها الثابتة، وبقيت طيور ساعدها دمها الحار وأحجامها الصغيرة على حمايتها من كارثة لم يستطع أقرباؤها الأكثر تطورًا تحملها. وبقيت حشرات وحلزونات وضفادع وسحالٍ وثعابين. فكلها مخلوقات صمدت في

جحورها، وعلى ضفاف الأنهار أو في الثقوب العميقة. اعتادت هذه المخلوقات الصغيرة سريعة الحركة على أن تتغذى على بقايا الطعام وتختبئ في الأركان بأي طريقة، فلم يؤد اصطدام المذنب إلى زيادة الأمور سوءًا فيما يتعلق بها.

وبدأت تقترب من هذا العملاق، آخر الوحوش التي ظلت تهيمن على عالمهم فترةً تقترب من المائة مليون سنة، فعلى مدى شهور طويلة منذ الاصطدام، وبعد أن انتشرت في عالم صار أشبه بمستودع حفظ الموتى، تعلم الكثير منها استغلال مصدر جديد للغذاء: وهو لحم الديناصورات.

تغير العصر.

وغدا الانقراض نهاية أعنف من الموت.

فالموت على الأقل ينطوي على عزاء مفاده أن أبناءك سيعيشون من بعدك، وأن هناك من سيبقى على قيد الحياة من نفس نوعك، لكن الانقراض سلب تلك السلوى. فالانقراض هو نهاية حياتك وحياة أبنائك، بل وحتى أحفادك الذين قد يأتون إلى الحياة فيما بعد، أو أي ممن ينتمون لنوعك، إلى أبد الآبدين، وستستمر الحياة، لكنها لن تكون الحياة من وجهة نظرك أنت.

لطالما شاع الانقراض، مع أنه مروع، فالطبيعة تعج بالأنواع، وكل نوع يرتبط بجميع الأنواع الأخرى سواء بعلاقة تقوم على التعاون أو المنافسة، والكل يتنافس على البقاء، ومع ذلك فلم يكن من الممكن أن يستمر أحد تلك الأنواع على الدوام، فمن المحتمل أن يضعف — نظرًا لسوء الحظ أو بسبب كارثة أو غزو من أحد المنافسين الأفضل — ولطالما ظل ثمن الضعف هو الانقراض.

لكن اصطدام المذنب تسبب في انقراض جماعي، يعد الأسوأ من نوعه على مدى التاريخ الطويل لهذا الكوكب المتهالك. فالموت حلَّ بكل مستويات مملكة الأحياء، سواء على اليابسة أو في البحر أو الجو، فقد اختفت فصائل بأكملها، وممالك حيوانية بأسرها في غياهب الفناء. إنها أزمة هائلة للكائنات الحية.

وفي مثل هذه الظروف، لا يهم إلى أي مدى يمكنك التأقلم، أو إلى أي مدى يمكنك تجنب الضواري أو التنافس مع جيرانك، إذ إن معظم القواعد الأساسية تغيرت. فعند الانقراض الجماعي، يصبح من المفيد أن

تكون المخلوقات صغيرة الحجم وكثيرة العدد ومنتشرة في مساحة جغرافية واسعة، وأن تجد مكانًا تختبئ فيه.

والأهم أن يكون لديها القدرة على أكل غيرها من المخلوقات الناجية بعد الكارثة.

وحتى حينئذٍ، اعتمد البقاء على حسن الحظ بقدر ما اعتمد على الجينات الجيدة: لم يعتمد على التطور، بل على الحظ، إذ إن أكثر من نصف عدد الثدييات قد انقرض مع الديناصورات، مع كل ما تتميز به من صغر حجمها وقدرتها على الاختباء.

لكن الثدييات سيطرت على المستقبل.

لم تشعر اليوبليسيفيلوس بسيقانها وهي تنهار، لكنها أحست فجأة برطوبة باردة تحت بطنها، وبملوحة في فمها، وذلك حين تهاوت رأسها في المياه.

وأغمضت عينيها، وغطى الدرع الثقيل جفونها، وأصدرت صوت دمدمة عميقة — بصوت قوي بما يكفي كي يسمعه أحد أقرانها على بعد كيلومترات من مصدر الصوت، إذا كان قد تبقى أحدهم ليسمعها — وحاولت أن تبصق المياه المالحة من فمها، ثم انسحبت إلى داخل درعها العظمي، مثل السلحفاة التي تختبئ داخل درقتها، وسرعان ما عجزت عن سماع صوت هطول المطر على الرمال والمياه، أو صوت المخلوقات الصغيرة القبيحة المتناحرة التي كانت تحيط بها.

وهكذا لم تجد السكينة حتى في آخر لحظاتها، فقد منيت بخسارة هائلة. لكنها أحست بشيء من الألم، حين بدأت الأسنان الصغيرة تقضم لحمها.

وهكذا أصبح هذا الديناصور الضخم الأخير بمثابة مستودع من اللحم والدماء لجموع الحيوانات المتناحرة، كان يكفي لغذائها طيلة أسبوع كامل.

وفي النهاية بدأ المطر المحمل بالأحماض ينهمر، وينحر ظهر اليوبليسيفيلوس الهائل الذي قرضته الحيوانات الصغيرة إلى أن أصبح لونه أبيض لامعًا، وصادفت برجا ولاست مجموعة أخرى من الثدييات، ومعظمها

في عمر لاست أو أصغر، لذا فمن المحتمل أنها ولدت بعد الاصطدام، ولم تعرف في حياتها كلها غير هذا العالم الضيق، وبدا عليها الجوع والنحول، ومن بينها اثنان من الذكور.

كانت رائحتهما غريبة، ولم تكن لهما صلة قرابة بعائلة برجا، لكنها بلا شك من نفس الفصيلة، لم يبد الذكران اهتمامًا ببرجا، لأن رائحتها أخبرتهما بأنها مسنة جدًّا ولن تحمل أي ذرية.

نظرت لاست إلى أمها لآخر مرة، ثم أسرعت نحو الذكرين، اللذين أخذا في تحريك شواربهما ليشما رائحتها. ومنذ ذلك اليوم لم تر برجا ابنتها مرة أخرى.

٤

وبعد ذلك بشهر عثرت برجا على بساط من شجيرات السرخس، وهي تتجول وحيدة.

واتجهت برجا إليها وهي تخطو بخطوات متعثرة بأسرع ما يمكنها. ولم تكن تلك الشجيرات إلا نباتات خفيضة من الغطاء النباتي، ولكن أوراق شجيرات السرخس هذه أضفت ظلًّا أخضر باهتًا، وعلى الجانب السفلي رأت جيوب أبواغ صغيرة على هيئة نقط بنية اللون.

وهكذا بدت الخضرة في عالم يغلب عليه السواد واللون الرمادي الباهت.

وكانت شجيرات السرخس من النباتات التي نجت من الكارثة؛ إذ كانت أبواغها قوية بما يكفي لتصمد أمام النيران، وكانت صغيرة بما يكفي لتحملها الرياح إلى مسافات شاسعة، وفي بعض الحالات كانت البراعم تنمو مباشرة من الأنظمة الجذرية الباقية، وهي جذور زاحفة سوداء اللون، وتفوق جذور الأشجار من حيث قدرتها على الصمود. وفي عصر كهذا، حين بدأ الضوء يعود ببطء وأصبح التمثيل الضوئي ممكنًا، لم تعد أشجار السرخس تواجه أي منافسة تذكر. ووسط الرماد والطين المختلط بالوحل اتخذ العالم شكلًا مختلفًا لم يتخذه منذ العصر الديفوني، قبل أربعمائة مليون سنة، حيث نمت أول نباتات على الإطلاق — وكانت شجيرات السرخس من بينها — في مجموعات أولية.

تسلقت برجا فوق إحدى تلك الشجيرات، وكانت أطول تلك الشجيرات الخفيضة ترتفع فوق مستوى الأرض بسنتيمترات قليلة، ولكنها تسلقت فوق أوراق السرخس بامتنان، وكان ذلك كافيًا لينطلق في مخيلتها سيل من الذكريات البدائية حين كانت تركض على أغصان أشجار الغابات الطباشيرية الهائلة التي اختفت.

وفيما بعد بدأت تحفر. وكان المطر لا يزال ينهمر، وكانت الأرض موحلة، وأخذت تحفر في الأرض بالقرب من جذور السرخس القوية، حتى تمكنت من بناء مخبأ مناسب، وبدأت تخلد إلى الراحة لأول مرة بعد الاصطدام، وربما لأول مرة منذ أن بدأ ديناصور الترودون يطاردها.

انتهت مهمة برجا في الحياة، فقد ظلت إحدى صغارها على قيد الحياة بعد الكارثة، وستتكاثر، ومن خلالها سيتواصل نهر جيناتها إلى أجيال تالية، وصولًا إلى مستقبل مجهول. وقد كان من المفارقات أنها فيما مضى كانت مستعدة للاستسلام لمن يفترسها، لقد كان الفضل في الإبقاء على حياتها يعود لتفريغ العالم من الكائنات بالجملة، وهو ما أتاح لها فرصة العيش لعدة أشهر إضافية على حساب مليارات لا تحصى من المخلوقات.

ونامت برجا وهي راضية، في شرنقة ترابية كانت لا تزال تفوح منها رائحة الاحتراق الكبير الذي أفنى عالمها السابق.

وبدأ الكوكب يمتلئ بمخلوقات سريعة التكاثر وقصيرة العمر. وكان معظم سكان الأرض قد نشئوا في العهد الجديد، ولم يعرفوا شيئًا سوى الرماد والظلام والجيف. ولكن وهي نائمة كانت ساقا برجا الخلفيتان تتشنجان، وكانت كفاها الأماميتان تخمشان الأرض من حولها، إذ كانت برجا من بين آخر المخلوقات على الكوكب التي تذكر الديناصوارات، فقضت ليلتها وهي تحلم بها وهي تتربص بها.

وجاء صباح لم تستيقظ فيه، أصبح جحرها الصغير قبرًا لها.

سرعان ما غطت طبقة رقيقة منبسطة من الرواسب، التي رسبها المحيط، الحفرة الواسعة الناتجة عن الاصطدام. وفي نهاية الأمر اختفى ذلك التشوه الجيولوجي الهائل تحت طبقة من الحجر الكلسي يبلغ سمكها ألف متر.

ولم يبق شيء من مذنب ذيل الشيطان نفسه، إلا أقل القليل. فقد دُمرت نواته خلال اللحظات الأولى من الاصطدام، وقبل أن تصفو سماوات الأرض بوقت طويل كانت آخر بقايا المذنب وذيله المتألق — ذلك الجزء النحيل من المذنب المنفصل الآن عن رأسه الصغير — قد تبددت بفعل الرياح القادمة من الشمس.

ولكن المذنب ترك شيئًا يشبه النصب التذكاري. فقد بقيت في الوحل المحيط بالمنطقة مجموعة من النيازك — وهي قطع من الصخور الأرضية التي انطلقت إلى الفضاء ثم عادت مرة أخرى، بعد انصهارها وتحولها إلى أشكال زجاجية تشبه حبات الندى عند دخولها ثانيةً إلى حيز الهواء الجوي — بالإضافة إلى شظايا الكوارتز والمعادن الأخرى، التي تشكلت في هيئات زجاجية غريبة بفعل طاقة الاصطدام، إلى جانب شظايا من الكربون البلوري التي لا تتكون في الأحوال العادية إلا في طبقات الأرض العميقة الداخلية، ولكنها تحمصت من السطح في تلك الثواني المعدودة الضارية، وأيضًا الأحجار الصغيرة المليئة برماد الغابات المحترقة ولحم الديناصورات في العصر الطباشيري، بل كانت هناك آثار من الأحماض الأمينية، وهي المركبات العضوية التي جاءت بها المذنبات التي اختفت منذ زمن إلى كوكب الأرض الصخري، وهي المركبات التي ساعدت على ظهور الحياة من جديد هنا، وهي هدية حزينة من زائر جاء بعد فوات الأوان.

وحين انقشعت سحب الغبار في آخر الأمر وتبددت البرودة القارصة، بدأت هدية المذنب الأخيرة تؤدي دورها، إذ تخلفت في الهواء كميات كبيرة من ثاني أكسيد الكربون، الذي تكون من الحجر الجيري الناتج عن قاع البحر الذي تحطم، ونتج عن ذلك احتباس حراري هائل، وحاولت النباتات التأقلم مع تلك الظروف وهي تحاول العودة لسابق عهدها، وغلب على الألفيات الأولى وجود المستنقعات الراكدة النتنة، حيث كانت النباتات الميتة تسد البحيرات والأنهار، واكتست الأرض في كل أنحاء العالم بعروق هائلة من الفحم.

وأخيرًا، وبفضل البذور والأبواغ التي هبت في كل أنحاء العالم، بدأت تظهر للوجود مجموعات نباتية جديدة.

أخذت الأرض تكتسي بالخضرة ببطء.

وفي تلك الأثناء عملت يد الزمن في بقايا برجا الضئيلة.

فبعد ساعات من موتها وضع ذباب السروء بيضه في عيني برجا وفمها، وسرعان ما بدأ الذباب يضع يرقاته على جلدها، وأخذت اليرقات تحفر في جثتها الضئيلة، حتى خرجت بكتريا الأحشاء التي ظلت تعمل لأجلها طوال حياتها. وانفجرت أمعاؤها، وبدأت محتوياتها تصيب بقية الأعضاء بالعفن، وتحولت الجثة إلى حالة سائلة، وفاحت منها رائحة قوية تشبه رائحة الجبن، مما جذب الخنافس والذباب من آكلي اللحوم.

وبعد أيام من موتها تحولت جثة برجا إلى وليمة لخمسمائة نوع من الحشرات، وبعد أسبوع لم يبقَ من برجا سوى عظمها وأسنانها، حتى جزيئات DNA لم تستمر طويلًا، وتفتت البروتينات إلى وحدات أولية، وتحللت الأحماض الأمينية بدورها وتحولت إلى أشكال متماثلة.

وبعد أيام قلائل جرف سيل من المياه المحملة بالأحماض بقاياها، وانجرفت عظام برجا داخل منخفض ضحل، على بعد كيلومتر واحد، واختلطت بعظام الديناصورات المفترسة الشبيهة بالطيور وديناصورات التيرانوصور والديناصورات البرمائية ذات المنقار الشبيه بمنقار البط، وحتى ديناصورات الترودون، وهكذا أصبح الأعداء سواسية في ظل ديمقراطية الموت.

ومع الوقت ترسبت المزيد من طبقات الطين بفعل الفيضانات والأنهار التي تفيض بمياهها، وبفعل الضغط الشديد تحولت طبقات الغرين إلى صخور. وطرأ تحول آخر على عظام برجا، وهي في قبرها الصخري، بفعل المياه الغنية بالمعادن التي اندفعت عبر مسامها، فملأتها بالكالسيت، حتى تحولت إلى أشياء أشبه بالصخور.

وبدأت برجا رحلة مذهلة استغرقت ملايين السنين، وهي مدفونة في أعماق الأرض. وعندما تصادمت القارات ارتفعت الأرض وهي تحمل ركامها الموتى وكأنها سفينة هائلة تبحر في المحيط تحملها موجة كبيرة، وعملت الحرارة والقوى الضاغطة على تكسير الصخور واعوجاجها. ولكن التآكل استمر، وظل قوة مدمرة تعادل ما يشهده كوكب الأرض من ارتفاعات مبدعة، وفي آخر الأمر أصبحت هذه الأرض تشتمل على تضاريس مثل الهضاب والجبال والصحارى.

وفي النهاية عملت يد التآكل في القبر الجماعي الذي ضم عظام برجا. وعند تفتت الصخور ظهرت أجزاء من العظام المتحجرة، وطفت الجثث إلى السطح، وكأنها استيقظت بعد خمس وستين مليون سنة من السبات.

واختفت معظم عظام برجا وتحولت إلى غبار في لحظات جيولوجية، وبذلك ضاع كل ذلك الحفظ الصبور هباءً. لكن عام ٢٠١٠، ستلتقط أحد أحفاد برجا — من بعيد — قطعة سوداء صغيرة من جدار من الصخر الرمادي، يقع تحت طبقة غريبة من الطين القاتم، وستتعرف عليها على حقيقتها باعتبارها سِنة صغيرة.

ولكن هذه اللحظة لن تأتي إلا في المستقبل البعيد.

الفصل الرابع

الغابة الخالية

تكساس، شمال أمريكا، منذ نحو ثلاثة وستين مليون سنة، قبل عصرنا الحالي.

١

قطعت بليسي الغابة المترامية الأطراف.

وهي تشبه السناجب، وتسلقت جذع شجرة، ثم سارت على غصن سميك. ورغم أن الوقت كان يقترب من الظهيرة إلا أن الضوء كان باهتًا. وكانت منطقة الأغصان المتشابكة تعلوها بارتفاع كبير، بينما بدت الأرض غير واضحة المعالم، في غمرة الخضرة الممتدة أسفلها. وساد الصمت أنحاء الغابة، إلا من صوت حفيف أوراق الشجر في النسيم الدافئ الذي يسري بها وأصوات الطيور، تلك الكائنات الملونة التي تمت بصلة قرابة للديناصورات التي اندثرت.

كانت الغابة متنوعة، وتهيمن عليها الثدييات بما فيها الرئيسيات، مثل بليسي.

ونظرت إلى الوراء على الغصن الذي كانت تقف عليه؛ صغيرتاها هناك، وهما أنثيان، اسم الأولى ويك (الضعيفة) والثانية سترونج (القوية). إنهما في نصف حجم بليسي، وتتشبثان بغصن الشجرة، والآن تزيح سترونج ويك بلطف جانبًا، وفي بعض الأنواع الأخرى كان من المحتمل أن تتعرض ويك للإهمال حتى تموت، إلا أن فصيلة بليسي كانت قليلة الإنجاب، وفي عالم غير مستقر ومحفوف بالمخاطر مثل ذلك من الضروري الاهتمام برعاية جميع الصغار.

ولكن بليسي غير قادرة على العناية بصغارها إلى الأبد. وقد استغنت الاثنتان عن حليب بليسي، ومع أنهما تعلمتا البحث عن الثمار والحشرات، التي تسكن الشجرة التي ولدتا فيها، فإن عليهما أيضًا التحلي بقدر أكبر من روح المغامرة، مما يتيح لهما الخروج إلى الغابة، للبحث عن الطعام بدون مساعدة من أحد.

وللقيام بذلك كان عليهما تعلم القفز.

وزحفت بليسي فوق سطح الشجرة المتقشر بتردد، ثم شدت عضلاتها وقفزت.

تنتمي بليسي إلى فصيلة من الرئيسيات تسمى بليسادبيد Plesiadapid سوف يطلق عليها فيما بعد اسم كاربولستيد Carpolestid وكانت بليسي تشبه جدتها برجا التي عاشت منذ زمنٍ بعيد، وعلى غرار برجا كانت تشبه السنجاب الصغير، بجسمها الذي يقترب ارتفاعه من الأرض والشبيه بجسم جرذ كبير، وذيلها الكثيف. ومع أن بليسي من الرئيسيات فإن لها نفس مخالب برجا بدلًا من الأظافر، أما عيناها فعلى جانبي وجهها، ولا تنظران إلى الأمام، ودماغها بسيط التطور، ولديها نفس العينين الكبيرتين القادرتين على الرؤية في الظلام، نفس العينين اللتين ساعدتا برجا في زمن الديناصورات.

ولم تشهد أجسام الرئيسيات تطورًا ملحوظًا منذ عصر برجا إلا في الأسنان. فقد كانت بليسي من الأنواع المتكيفة لتقشير الفواكه، شأنها شأن حيوان الأبوسوم الذي سوف يظهر فيما بعد في أستراليا، لقد كان ذلك استجابة ضرورية من الطبيعة، تتيح للرئيسيات العثور على الغذاء. كانت الحيوانات التي تتغذى على أوراق الشجر قليلة جدًّا في ذلك الزمان. ففي مثل تلك الحقبة المعتدلة، حيث الغابات الاستوائية وشبه الاستوائية تنتشر بعيدًا عن خط الاستواء، التغيرات الموسمية نادرة، وهنا في تكساس أوراق الشجر لا تتساقط بانتظام، وفي واقع الأمر فإن الأشجار أوراقها محملة بالسموم والمواد الكيميائية مما جعلها لاذعة المذاق أو سامة للثدييات الفضولية.

ومع ذلك، ومنذ عصر برجا، فلم يطرأ إلا تطور بسيط في الكائنات التي تندرج تحت رتبة الرئيسيات، حتى على مدى مليوني سنة، وكانت تلك هي

الحال أيضًا لكثير من الأنواع الأخرى، وحتى بعد الاصطدام الهائل بوقت طويل بدا الأمر وكأن العالم الذي خلا من سكانه قد أصابته الصدمة بالركود.

وهبطت بليسي على الغصن الذي تريده بدون أي صعوبة.

لا تزال صغيرتاها تجلسان في تردد وخوف بالقرب من جذع الشجرة وهما تصيحان بصوت ضعيف. ومع أن صيحاتهما حزّت في نفسها فإنها رفعت رأسها وحركت خطمها. وحاولت تشجيع صغيرتيها لكي تتبعاها، فأخذت تقضم من عناقيد ثمار تلك الشجرة الجديدة.

وفي آخر الأمر أبدت الصغيرتان ردة فعل، ودُهشت بليسي لأن صغيرتها صغيرة الحجم، ويك، هي التي تقدمت أولًا، إذ ركضت حتى نهاية الغصن، وهي خائفة ومترددة، إلا أن توازنها كان جيدًا. رفعت ذيلها وشدت عضلاتها، ثم تراجعت بخوف وهندمت الفراء الذي يغطي وجهها، ثم قفزت في نهاية الأمر.

ولكنها لم تقدر المسافة جيدًا، فانقلبت في الهواء، واصطدمت بأمها، مما جعل بليسي تهسهس معترضة، ولكن سرعان ما تشبثت يداها وقدماها التي تتسم بخفة الحركة بلحاء الشجرة السميك، وهكذا أصبحت في أمان. ثم ركضت ناحية أمها وهي ترتعش، ودفنت وجهها في بطنها، وهي تبحث عن أثدائها، ولكنها كانت قد جفت الآن. إلا أن بليسي تركتها تمصها، على سبيل المكافأة.

ولكن كانت هناك حركة غير واضحة في الشجرة الأخرى الآن. إذ فجأة اندفعت سترونج بقوة إلى الأمام ورجلاها غير المكتملتين تنزلقان فوق اللحاء، وقفزت في الهواء بدون أن تنظر بتأنٍ، وبدون محاولة اللجوء إلى مهارتها الفطرية لكي تقدر المسافة.

صهر الخوف قلب بليسي.

وصلت سترونج إلى الغصن، لكنها وقعت عليه بشدة، وفي الحال انزلقت إلى الوراء، وبقيت معلقة لثوانٍ، ويداها الصغيرتان تخمشان في اللحاء بلا جدوى، ورجلاها الخلفيتان تتحركان في الهواء، ثم سقطت.

رأتها بليسي وهي تنقلب في الهواء وتتلوى، وقد انكشف بياض أسفل بطنها، بينما يداها ورجلاها تحاولان التشبث بلا شيء. وفي تلك اللحظة

تصاعد صوت صياحها الحاد الذي ينم عن الضياع. ثم وقعت بين أوراق الشجر، وفي لحظة اختفت وتلقفتها الخضرة في الأسفل، التي تبتلع كل الموتى في تلك الغابة.

تعلقت بليسي بالغصن الذي تقف عليه وهي ترتعش. لقد حدث كل شيء في لمح البصر، لقد فقدت إحدى الصغيرتين، وبقيت صغيرة أخرى ضعيفة وضئيلة. كان من الصعب تحمل ذلك، فهسهست في تحدٍّ وهي تنظر إلى الخضرة التي تهددها.

وتركت بليسي ويك خلفها وهي تتشبث بجذع الشجرة على نحو يثير الشفقة، وبدأت تنزل باتجاه الخضرة إلى الأرض.

وأخيرًا وصلت إلى الطبقة السفلى من الأغصان المتشابكة ونظرت إلى أسفل حيث بدت واحة من الضوء.

كانت تلك المنطقة الخالية من الشجيرات من القليل من المناطق المماثلة في هذه الغابة المترامية الأطراف، وفي خلال الأشهر القليلة الماضية سقطت شجرة عتيقة، كانت متآكلة من الداخل وقد حطمتها صاعقة برق أصابتها. وعند سقوطها حفرت مسارًا خاليًا من العشب والنباتات بين طبقة الأوراق الكثيفة، إلا أن تلك المنطقة الخالية من الشجيرات لن تستمر طويلًا. ولكن الآن فإن تلك النباتات من نوعية الشجيرات الخفيضة، مثل شجيرات السرخس الأرضي، ذات القدرة على الصمود والتحمل، كانت تنتهز تلك الفرصة لتنبت. وكانت أرض الغابة في هذا المكان وارفة الظلال وتفيض بالخضرة على غير العادة، وبدأت الشجيرات تنبت، وتشارك في سباق شرس للاستيلاء على الضوء وسد تلك الثغرة في الأغصان المتشابكة.

كانت الغابة مكانًا ساكنًا للغاية، والأشجار الوارفة الكبيرة تتنافس فيما بينها للحصول على أكبر قدر ممكن من ضوء الشمس بين طياتها. وفي ظلمة المناطق السفلى، كان الضوء ضعيفًا للغاية مما منع نمو النباتات، أما أرض الغابة فتتناثر فيها نفايات نباتية، وعظام أي حيوانات أو طيور قادها حظها العاثر للسقوط. ولكن أسفل الأرض الساكنة، تنتظر البذور والبوغ صامدة منذ قرون، وحتى آلاف السنين إذا احتاج الأمر، حتى يأتي

اليوم الذي تفتح فيه الصدفة فجوةً في الأغصان المتشابكة، ويمكن عندها أن يبدأ سباق الحياة.

انزلقت بليسي على جذر ووصلت إلى الأرض. وتحت أوراق شجيرة من شجيرات السرخس العريضة أسرعت تركض باضطراب على رقعة من ضوء الشمس المباشر. وقد أحست بشعور غريب حيال ملمس الأرض الصلبة، حيث لا تأرجح ولا انهيار، كان يشبه شعور البشر باهتزاز الزلزال.

كانت هناك في تلك المنطقة الخالية من الأشجار حيوانات أخرى جذبها توقع الحصول على طعام جديد، ضفادع وسمادل وحتى بعض الطيور، ترفرف بأجنحتها في الهواء، بألوان زاهية، وهي تبحث عن الحشرات والبذور.

وهناك بعض الثدييات.

كانت من بينها مخلوقات تشبه الراكون، ولكنها أكثر قربًا إلى الحيوانات ذات الحوافر التي سوف تظهر في المستقبل، وكذلك آكلات حشرات سريعة الحركة، التي ستنحدر منها الذبابة والقنفذ. وهناك أيضًا التينيودونت Taeniodont وشكله مثل دب الومبيت السمين، وينبش الأرض، فهو يتميز ببراعة فائقة في البحث عن الجذور والبذور والدرنات النباتية. ولن يُقدر لبشر رؤية تلك الحيوانات التي تنبش في الأرض وتعيش في هذه المنطقة الخالية من الشجيرات. وكانت تلك الحيوانات تتحرك خلسة، وتفتقر للرشاقة وتشبه الزواحف في طباعها، وتتلفت دائمًا خلفها مثل اللصوص الصغيرة التي تترقب عودة رب البيت.

تلك الثدييات مما بقي من العصر الطباشيري. ففي ذلك العصر كان كوكب الأرض بأسره كمدينة هائلة صممت لتلبي احتياجات أصحابها خاصة، وهم الديناصورات. ولكن السكان المهيمنين رحلوا الآن، واختفت البنايات الضخمة، ولم يبق على قيد الحياة إلا تلك المخلوقات التي تعيش في المدن، التي كانت تعيش في أنابيب الصرف والبالوعات، وتعيش على أكل القمامة.

ولكن الأرض التي بدأت تستعيد عافيتها اختلف شكلها عما كانت عليه إبان العصر الطباشيري الحالم، فقد ازدادت كثافة الغابات الجديدة،

ولم يعد هناك وجود لآكلات العشب الكبيرة، إذ انقرضت الديناصورات من آكلات النباتات من رتبة سوروبود، أما الفيلة فلم تظهر بعد إلى الوجود. ولم تكن هناك حيوانات كبيرة الحجم بما يكفي للإطاحة بتلك الأشجار، وتحطيم المناطق الخالية من الأشجار وممرات السافانا. ونتيجة لذلك ازداد نمو النباتات نموًّا ملحوظًا، وامتلأ العالم بالخضرة بكثافة وغزارة لم يسبق لها مثيل منذ وطئت أول الحيوانات الأرض.

ولكن الساحة كانت خالية. ففي تلك الغابات الكثيفة لم يعد هناك أي ديناصورات مفترسة، ولم تكن قد ظهرت بعد النمور الأمريكية المرقطة، ولا النمور الآسيوية. كان جميع سكان الغابات تقريبًا من الثدييات الصغيرة التي تسكن الأشجار مثل بليسي. ولفترة زمنية طويلة — تمتد إلى ملايين السنين — ستتمسك الحيوانات بعاداتها الطباشيرية، ولن يكبر حجم أي نوع من أنواع الثدييات لتصل حتى إلى حجم متوسط. كانت جميعها راضية عن وجودها في الظلام، في أركان ذلك العالم الخالي، وهي تقضم الحشرات، وتتجنب أي سمات جديدة تنشأ بفعل التطور تتعدى ظهور مجموعة جديدة من الأسنان.

وعاشت الحيوانات الناجية في نمط منظم، وكأنها سجينة لمدة طويلة، وكانت الديناصورات قد رحلت، أما الثدييات فكانت العادات المتأصلة فيها على مدى مرحلة أطول بكثير — فترة مائة وخمسين مليون سنة — من الصعب التخلي عنها.

ولكن الأحوال تتغير.

وأخيرًا سمعت بليسي صوت صياح صغيرتها.

فعند أطراف المنطقة الخالية من الأشجار تقبع سترونج في حالة يرثى لها، في شيء أشبه بعش من أوراق شجيرة سرخس ذابلة. فبعد سقوطها من فوق الشجرة إلى المنطقة الخالية من الأشجار أحست بحاجتها لمكان تحتمي به. ولكنها كانت أبعد ما تكون عن الأمان، فهناك ضفدع قرمزي مفترس يراقبها، وعيناه تمتلئان بالفضول. وعندما رأت سترونج بليسي هُرعت إلى الأمام وألقت بنفسها على أمها، وحاولت أن ترضع، كما فعلت أختها، ولكن بليسي نهرتها.

كانت بليسي منزعجة للغاية، إذ إن الحيوانات من فصيلة الكاربولستيد Carpolestid، القوية وهي في عشها دون أن تتأقلم على العيش في الأشجار — وتفتقر إلى الحرص على التزام الهدوء عند وجودها في مكان مكشوف — تتضاءل فرص بقائها على قيد الحياة. وفجأة خطر لها أن ابنتها التي يطلق عليها سترونج لم تعد اسمًا على مسمى. وأحست بليسي برغبة تدفعها إلى العثور على رفيق، وأن تنجب مرة أخرى. ولكنها الآن أمسكت الصغيرة من خاصرتها بأسنانها الحادة، وعادت بها نحو الشجرة التي نزلت منها.

ولكنها ما إن خطت بضع خطوات حتى وقفت في مكانها.

كانت عيون الحيوان المفترس، الخالية من التعبير، تنظر إلى بليسي بروية مميتة.

كان الحيوان المفترس من نوع أوكسيكلانوس Oxyclanus.

وكان حيوانًا أملس الشعر، له أربعة أقدام، وفراؤه غامق اللون، ويبدو أشبه بابن عرس كبير الحجم بجسده الطويل وأرجله السمينة، مع أن وجهه يشبه وجه الدب، ولكنه لم يكن يمت بصلة للدببة ولا ابن عرس، بل يُعتبر في الواقع من ذوات الحافر، وهو من أول أفراد الفصيلة الكبرى التي ستشمل ذات يوم الثدييات ذات الحافر، مثل الخنازير والفيلة والجياد والجمال، بل حتى الحيتان والدلافين.

كان هذا الحيوان سيبدو للعين التي ألفت رؤية الفهود أو الذئاب بطيئًا وثقيل الحركة، ولكن هذا النوع تعلم أن يطارد فريسته بين الشجيرات المتناثرة في الغابة الشاسعة، ويمكنه تسلق الأشجار لملاحقة فريسته حتى الغصون المنخفضة للأشجار. وفي هذا العصر القديم لم يكن هناك من ينافس هذا الأوكسي.

وبينما كان أوكسي ينظر إلى بليسي وهي منبطحة على الأرض وترتجف من الخوف، سيطر على ذهنه سؤالان هما: كيف يمكنني الظفر بك؟ وهل تصلحين طعامًا لي؟

وكانت بليسي راقدة على الأرض ترتعش، وشواربها تهتز، وقد كشرت عن أسنانها الحادة الصغيرة، ولكنها تتمتع بغرائز صُقلت على مدى ما يزيد

عن مليون قرن وهي تركض بين أقدام الديناصورات، وبدأ عقلها يعمل لإعادة تقييم الخطر، فقد كانت عاجزة عن الاختباء في هذا المكان المفتوح، ولم تستطع الوصول إلى شجرة تتسلقها للفرار من براثن الأوكسي، ولو أنها حاولت الفرار ركضًا، فقطعًا سوف يمسكها بمخالبه القوية الحادة بمنتهى السهولة.

وهكذا لم يبق أمامها إلا اختيار واحد.

قوست بليسي ظهرها وفتحت فمها، وهسهست بشدة، حتى إن اللعاب تناثر من فمها على وجه أوكسي.

وأجفل الأوكسي أمام هذا العدوان غير المتوقع من هذه المخلوقة الضعيفة، ولكنها لم تكن تمثل خطرًا عليه، فتملكه الغضب، وسرعان ما استعاد هدوءه واستعد لتحدي بليسي.

ولكن بليسي اختفت وسط الشجيرات الخفيضة، فلم تكن تقصد مهاجمة الأوكسي على الإطلاق، بل كانت تسعى لكسب الوقت، وتركت صغيرتها خلفها.

أما كاربولستيد الصغيرة، التي شلتها نظرة آكل اللحوم، فقد ألقت بنفسها على ألارض منبطحة، وضربها الأوكسي بكفه، فكسر عمودها الفقري. والتفتت سترونج إلى المعتدي وقد اجتاحها الألم، في محاولة لتمزيق لحمه بأسنانها. وفي دقائقها الأخيرة انتاب سترونج شعور يشبه الشجاعة، إلا أن ذلك لم يُفدها في شيء.

إذ أخذ الأوكسي يلعب بذلك الحيوان الكسيح، لبعض الوقت، ثم بدأ يأكله.

وبينما كان العالم يعود لسابق عهده أخذت أحواله المتغيرة تعمل على تشكيل سكانه.

بدأت الثدييات تختبر أدوارًا جديدة، وكانت أسلاف آكلات اللحوم، التي ستشمل في النهاية الكلاب والقطط، ما زالت حيوانات صغيرة انتهازية تشبه ابن مقرض وتتغذى على أغذية متنوعة. إلا أن أوكسيكلانوس بدأت تكتسب اختصاصات الثدييات المفترسة التي ستأتي فيما بعد، فقد أصبح

لها أرجل عمودية لضمان السرعة المتواصلة، وأسنان دائمة قوية مثبتة بجذور مزدوجة، وضروس متشابكة مصممة لتقطيع اللحم.

كان كل ذلك جزءًا من نموذج قديم، فكل الكائنات الحية تسعى لتستمر على قيد الحياة؛ تتغذى وتجدد من نفسها، وتنمو وتتجنب الضواري.

ولكن لم يكن هناك أي كائن يعيش إلى الأبد. والطريقة الوحيدة لمقاومة الفناء الذي يأتي به الموت تتمثل في التكاثر. فمن خلاله تنتقل المعلومات الجينية عن كل كائن إلى ذريته.

ولكن لم تكن الذرية تشبه الآباء إلى حد التطابق. ففي أي لحظة، كان كل نوع لديه القدرة على استحداث اختلافات كبيرة. ولكن كان على الكائنات كافة أن تعيش في داخل إطار من صلاحية السكنى تحدده البيئة — التي تتكون من الجو والكائنات الحية واليابسة — التي تشكلها الكائنات بدورها. وبينما كان الجميع يسعى للبقاء، بضراوة متواصلة، كان يجري ملء خانات الإطار البيئي، فكان يُرمز لكل اختلاف قابل للحياة في أي نوع من الأنواع التي تجد حيزًا يساعدها على البقاء.

ولكن كان ذلك الحيز نادرًا. وكان التنافس على ذلك الحيز مستمرًّا، وكانت تولد أعداد متزايدة إلى حد تعجز معه عن البقاء. وظل الكفاح من أجل البقاء متواصلًا، وكان الخاسرون تغربلهم عوامل الجوع والافتراس والمرض. أما الكائنات التي نجحت في التأقلم على نحو أفضل بعض الشيء مع بيئتها، فكانت تحظى حتمًا بفرصة أفضل نوعًا ما للفوز في معركة البقاء مقارنةً بغيرها — ومن ثم بفرصة أفضل لنقل المعلومات الجينية الخاصة بها إلى الأجيال اللاحقة.

ولكن البيئة تغيرت، عند تغير المناخات أو عند تصادم القارات أو حين اضطرت الأنواع للتعامل مع جيران جدد بحكم الهجرات فوق الجسور الأرضية. وكما تغيرت بيئة المناخ والكائنات الحية، تغيرت — بالمثل — متطلبات التكيف. ولكن ظل مبدأ الانتقاء قيد التنفيذ.

وهكذا، جيلًا بعد جيل، ظلت الكائنات الحية تتعقب التغيرات التي تطرأ على العالم. وكل الاختلافات التي تطرأ على أحد الأنواع وتنجح داخل الإطار الجديد، كانت تنجح في اختبار الانتقاء، أما الاختلافات التي لم تعد

قابلة للحياة، فقد اختفت وأصبحت في عداد الحفريات، أو طوتها غياهب النسيان. وكانت تلك التقلبات متواصلة، فمادام الاختلاف «المطلوب» يكمن في إطار ألوان الطيف الجيني المتوافرة، كانت التغييرات التي تطرأ على الكائنات سريعة، بنفس السرعة التي سينفذ بها مربو الحيوانات والنباتات من البشر أفكارهم في المخلوقات التي تحت أيديهم. ولكن عند نفاد الاختلاف المتوافر، كان التغير يتوقف إلى حين حدوث طفرة جينية جديدة، مثل حدث يأتي مصادفة قد تسببه آثار إشعاعية، مما يفسح المجال أمام إمكانيات جديدة للاختلاف.

كان هذا هو التطور، وكان كل ذلك من مقوماته: فهو مبدأ بسيط، يرتكز على قوانين واضحة وبسيطة، ولكنه سيشكل الأنواع كافة التي سكنت الأرض ابتداءً من نشأة الحياة، إلى أن يفنى الجميع، وذلك سيجري تحت الشمس، في المستقبل البعيد.

وكان قيد التنفيذ الآن.

وكان الأمر قاسيًا.

إنها الحياة.

كانت بليسي قد أبرمت صفقة صامتة مع أوكسي: «خذ صغيرتي واتركني.» وحتى وهي تتسلق الشجرة عائدة إلى مخبئها داخل الأشجار، حيث الأمان، لتبحث عن صغيرتها الباقية؛ كان تلك الاستراتيجية البشعة لا تزال تتردد في عقلها.

كما ساورها إحساس نبع من داخل خلاياها، فلو كانت تتكلم، لعبرت عنه وقالت: «لطالما كنت أعلم أن سعادتي قصيرة الأجل. لم تختفِ الأسنان والمخالب. كانوا مختبئين. لطالما كنت أدرك أنهم سيرجعون.»

صدقت فطرتها، فبعد مليوني عام من تلك الهدنة غير المستقرة، التي فرضها موت الديناصورات، بدأت الثدييات تفترس بعضها بعضًا.

وفي تلك الليلة، ظلت ويك تنظر إلى أمها النائمة في حيرة ورعب، وهي ترتعش وتزمجر أثناء نومها.

الفصل الخامس

زمن الظلال الطويلة

جزيرة إليسمير، أمريكا الشمالية، واحد وخمسون مليون سنة قبل عصرنا الحالي.

١

صحيح أنه لم يكن هناك صباح بالمعنى المعروف — خلال هذه الفترة الطويلة من أيام الصيف — في القطب الشمالي، وأيضًا لا ليل حقيقيًّا، ولكن حين انقشعت السحب من على وجه الشمس الصاعدة، وتخلل الضوء والدفء أوراق الأشجار العريضة، تصاعد ضباب من أرض الغابة المليئة بالمستنقعات، وملأت الرائحة الزكية للفواكه الناضجة أنف نوث الحساس، كما شم رائحة النباتات المتعفنة، ورائحة فراء أفراد عائلته الندي.

لقد كان كل ما حوله يوحي بأنه صباح، وكأنه البداية. وسرت في جسد نوث اليافع موجة من الطاقة المتعة.

كانت رجلاه الخلفيتان القويتان مطويتين تحته، وذيله السمين مرفوعًا في استقامة، كان يتلوى قافزًا على طول الغصن لكي يقترب من عائلته: أبيه وأمه وأختيه التوءم الجديدتين. وبدأت العائلة تنظف فراءها في استمتاع، وأخذت الأصابع الرشيقة في أيديها السمراء الصغيرة تمشط فراءها لتنظيفه من كسرات لحاء الأشجار وكتل البراز الجافة، بل حتى الحشرات الطفيلية، التي كانت تستمتع بأكلها. كان هناك بعض الفراء المتطاير، ولكن الحيوانات البالغة من فصيلة الأدابيد فقدت معظم فراء الشتاء الماضي.

ربما كان الضوء الذي بدأ يغمر المكان هو الذي ألهمها الغناء.

وتناهت من بعيد أصواتٌ متناغمةٌ لذكر وأنثى وهما يغردان برقة، ربما كانا أليفين. وسرعان ما انضمت مزيد من الأصوات إلى الأنشودة الثنائية، وهو ما بدا أشبه بغناء جماعي من الصيحات التي أضافت لحنًا مصاحبًا وإيقاعًا إلى الأنشودة الأساسية.

تحرك نوث إلى آخر الغصن لكي يسمع أفضل، وأخذ يمعن النظر خلال صفوف أوراق الأشجار العريضة التي كانت تتجه جنوبًا ناحية الشمس، فبدت وكأنها مظلات مصغرة كثيرة، كان يمكنه أن يرى إلى مسافة بعيدة، وكانت الغابة القطبية مفتوحة، وأشجار السرو والزان تفصلها مسافات مناسبة على نحو يتيح لأوراقها الحصول على ما ترسله الشمس القطبية من ضوء ضعيف، كان هناك الكثير من المساحات الواسعة الخالية من الأشجار التي تنبش وتنقب فيها مجموعة من آكلات النباتات ثقيلة الحركة التي تسكن الأرض. كانت عينا نوث من وراء الفراء الذي بدا أشبه بقناع، كبيرتين مثل عيني جدته الأولى برجا، وتتكيفان جيدًا في الظلام، ولكنهما عرضة للانبهار من شدة الضياء في ضوء النهار.

وكان معنى الأنشودة بسيطًا: «نعرفك بأنفسنا! إذا لم تكن من عشيرتنا، ابتعد، فنحن كثيرون وأقوياء! إن كنت من عشيرتنا، مرحبًا بك في وطنك.» ولكن ثراء الأنشودة يتعدى قيمتها النفعية، فمعظمها عشوائي يشبه الغناء الأعجم الذي لا معنى له، ولكن أفضل ما فيها أنها سيمفونية تلقائية متناغمة، استمرت دقائق طويلة بمقاطع تتسم بانسجام ونقاء سلبت لب نوث.

ورفع خطمه إلى السماء وأطلق صيحة.

كان نوث، نوعًا من القردة التي تُدعى: نوثركتوس، من فصيلة تدعى: أدابيد Adapid، تنحدر من فصيلة بليسيادابيد، من زمن بعيد بعد المذنب. إنه أشبه بقرد صغير من قردة الليمور. صدره مخروطي الشكل، وأرجله طويلة وقوية وذراعاه قصيرتان نسبيًا تنتهيان بيدين سوداوين قابضتين. ووجهه صغير، وله أنف كبير، وأذنان منتصبتان. وله ذيل طويل قوي وممتلئ بالشحوم يستعمله كمخزون أثناء فترة بياته الشتوي. وعمره لا يتجاوز سنة واحدة.

كان مخ نوث أكبر من مخ بليسي أو برجا بكثير، ومن ثم ارتباطه بالعالم أفضل. وحياة نوث تتسع لما هو أكثر من المطالب الملحة مثل الجنس والغذاء والألم، فهناك متسع لشيء يشبه البهجة، وهو يجد بهجته في الغناء. وسرعان ما اشترك كلٌّ من أبيه وأمه، حتى أختاه الرضيعتان، اشتركتا قدر الإمكان بصياحهما الرقيق، بجانب صيحات الكبار.

كان الوقت ظهرًا، والشمس قد وصلت إلى أعلى ما تصل إليه اليوم، لكنها ما زالت منخفضة في السماء. وتخللت أشعة من الضوء الضعيف المتسلل من بين الخضرة الأشجار فأضاءت الضباب الكثيف الدافئ الذي يتصاعد من القش الساخن المتناثر على أرض الغابة، وألقت جذوع الأشجار بظلالها على أرض الغابة فبدت على هيئة خطوط.

كانت هذه هي، جزيرة إليسمير، الجهة الأقصى شمالًا من أمريكا الشمالية. لم تكن شمس الصيف تغرب أبدًا، بل تدور في دوائر في السماء، تتدلى فوق الأفق، بينما أوراق أشجار الصنوبر العريضة تمتص الضوء. كان هذا مكانًا تكون فيه الظلال دائمًا طويلة، حتى في ذروة الصيف. والغابة الواقعة بقطب الأرض أشبه بكتدرائية هائلة، وكأن أوراق الأشجار شظايا من الزجاج الملون.

وفي كل مكان كان صدى أصوات أفراد فصيلة الأدبيد يُدوي!

تشجعت الأدبيد وبدأت تنزلق على الأغصان باتجاه الأرض.

كان نوث أساسًا من آكلي الفاكهة. ولكنه عثر على خنفساء الجوهرة الخضراء، فأخذ يقضمها حتى تكسرَّ بين أسنانه درعُها القرني الجميل، ذو اللون الأخضر المائل إلى الزرقة بظلال معدنية. وكان يتتبع رائحة وآثار فصيلته وهو يتحرك: «أنا جئت من هذا الطريق. هذا الطريق آمن. رأيت الخطر هنا. أسنان! أسنان! أنا من هذه العشيرة. يا أقربائي، تعالوا من هذا الطريق. الآخرون، ابتعدوا. أنا أنثى. اتبع ذلك لتجدني.» هذه الرسالة الأخيرة أعطت نوث إحساسًا بالتوتر غير المريح بين فخذيه. كان لدى نوث غدد للروائح في معصمه، وتحت إبطه. والآن يمسح معصميه بإبطيه ثم يمسح ساعديه بجذع الشجرة، مستخدمًا نتوءات عظمية في معصميه لتثبيت

الرائحة ولحفر ندبة مقوسة مميزة في لحاء الشجرة. وكانت الرقعة التي تحمل رائحة الإناث قديمة، وموسم التزاوج قد انقضى منذ فترة طويلة. ولكن غريزته حثته على أن يغطيها بتوقيعه الخاص حتى لا تلفت انتباه أي ذكر آخر.

حتى الآن، وبعد انقضاء أربعين مليون عامٍ على اصطدام المذنب، كان جسد نوث لا يزال يحمل سمات أسلافه الذين ينشطون ليلًا، مثل غدد علامات الرائحة. كانت أصابع أقدامه تنتهي بأطراف مستدقة، ولكن بدون أظافر مثل القردة، بل تنتهي بمخالب مثل مخالب قردة الليمور. وعيناه اليقظتان كبيرتان، ومثله مثل برجا له شوارب تساعده على تحسس الطريق أمامه. ويتمتع بحاستي سمع وشم قويتين. وأذناه متحركتان وتشبهان الرادار. ومع أن عيني نوث متسعتان وقادرتان على الرؤية الليلية الواضحة، فهما تفتقران إلى السمة التي تتيح للمخلوقات التي تنشط ليلًا التأقلم مع الظلام، وهي وجود طبقة عاكسة صفراء في العين. وكان أنفه حساسًا، وإن كان جافًّا. وشفته العليا مغطاة بالفراء ومتحركة، مما يضفي على وجهه مزيدًا من القدرة على التعبير مقارنة بمن سبقه من فصيلته. وأسنانه تشبه أسنان القرود، ولكنها تفتقر إلى وجود سِنة التمشيط — وهي سنة متخصصة في تنظيف الفراء — التي كانت لدى أسلافه.

مثل كل الأنواع التي مرت عبر السلالة الطويلة التي طرأ عليها التطور بدءًا ببرجا ووصولًا إلى المستقبل غير المتصور، كان النوع الذي ينتمي إليه نوث يمر بمرحلة انتقالية، محملًا ببقايا الماضي، ومتوهجًا بوعود المستقبل. ولكن جسده وعقله كانا سليمين، ومتكيفين كما يجب ليناسبا عالمه. واليوم يشعر بسعادة بقدر المتاح لمثله.

وفي الأعلى، في المنطقة العليا من الأشجار، حيث الأغصان المتشابكة، كانت أم نوث جالسة ترعى صغارها.

كانت تطلق على صغيرتيها الباقيتين، ليفت (اليسرى) ورايت (اليمنى)، حيث إن إحداهما تحب الرضاعة من صف الحلمات على الناحية اليسرى من أثدائها، والأخرى — وهي الأصغر والأضعف — كانت تضطر لقبول الناحية اليمنى. كانت هذه الفصيلة تنجب عادة عددًا كبيرًا من الصغار في المرة

الواحدة، لذا كانت الأمهات لديها مجموعات من الحلمات لتفي باحتياجات الصغار. في واقع الأمر كانت أم نوث قد أنجبت أربعًا، ولكن واحدة من الرضع قد اختطفها طائر، والصغير الآخر كان ضعيفًا وأصابته عدوى ثم مات. وسرعان ما نسيت الأم ما كان.

والآن التقطت رايت ودفعت بها إلى جذع الشجرة، فتشبثت به الرضيعة. وفي مكانها هذا، بدا فراؤها البني قريبًا من لون لحاء الشجرة من خلفها، وستبقى هنا إلى أن تعود أمها لترضعها. وكانت قادرة على البقاء بدون حركة ساعات طويلة.

وكان ذلك شكلًا من أشكال الحماية. وقد كانت حيوانات النوثركتوس تعيش في عمق الغابة مما يجعلها في مأمن من الطيور الجارحة، ولكن الصغيرة كانت عرضة للهجوم من الحيوانات المفترسة التي تسكن على الأرض، بالأخص حيوان المياكويد Miacoid، وهي حيوانات قبيحة في حجم النمس، وأحيانًا تغير على الجحور وتقتات على بقايا الفرائس التي تصطادها الحيوانات المفترسة، ومع أنها لم تكن من الحيوانات الجذابة، ولكنها كانت من أسلاف السنوريات والذئاب والدببة التي ستظهر في عصر لاحق، وكان بإمكانها تسلق الأشجار.

والآن تحركت الأم اليقظة على طول الغصن، لتبحث عن مكان آمن يصلح لتترك فيه ليفت. ولكن الرضيعة الأقوى كانت سعيدة بمكانها، حيث تتمسك بفراء بطن أمها. وبعد أن ظلت تدفعها برفق، كفت الأم عن محاولاتها. واتخذت طريقها للنزول عبر سلم من الأغصان إلى الأرض، وهي مثقلة بابنتها.

مشى نوث على أطرافه الأربعة فوق طبقة قش سميكة مكونة من أوراق الشجر.

كانت الأشجار في ذلك المكان موسمية، إذ تتساقط أوراقها العريضة كل خريف فتغطي الأرض بطبقة سميكة من النباتات المضمحلة. ومعظم البساط الذي يمشي عليه نوث يتألف من أوراق الخريف الماضي، التي تجمدت من برد الشتاء القارص قبل تعفنها، وبدأت أوراق الأشجار تتحول إلى قش بسرعة، وأخذ الذباب الصغير يطير في الهواء الذي يغمره الضباب وهو يطن

طنينًا متواصلًا. ولكن كانت هناك أيضًا فراشات ترفرف بأجنحتها الملونة بألوان زاهية أمام النباتات الصغيرة ذات اللون الأسمر الفاتح التي تغطي أرض الغابة.

تحرك نوث ببطء، بحثًا عن الطعام، وكان يستشعر الخطر، فلم يكن وحده هنا.

كان هناك حيوانان سمينان من نوع تينيودونت يشقان طريقهما، وهما يدسان رأسيهما بين أوراق الشجر المتعفنة، يشبهان حيوانات الومبت الجرابية التي تتسم بفك قوي، ويستخدمان أطرافهما الأمامية في حفر التراب، بحثًا عن الجذور والدرنات. ويتبعهما صغيرهما وهو كتلة ثقيلة الحركة، وظل يدفع أرجل أبويه ويمشي بصعوبة فوق طبقة أوراق الشجر السميكة. وهناك حيوان من رتبة باليندونت[١] يمشي وقد اقترب بجسمه من الأرض وهو يبحث عن النمل والخنافس، بخطمه الطويل الذي يميز آكلات النمل. وهناك حيوان الباريلامدا Barylambda، وهو مخلوق ثقيل الحركة يشبه حيوان الكسلان أرجله ذات عضلات قوية وذيله غليظ مستدق. وهذا المخلوق، الذي يفتش في كآبة في التراب، في حجم الكلب الدنماركي الضخم، ولكن بعض أولاد عمومته، الذين يعيشون في الأماكن الأكثر اتساعًا، زاد حجمها حتى أصبح يضارع حجم الثور الأمريكي، وهي تعتبر من أكبر الحيوانات في عصرها.

في أحد الأركان من الأرض الخالية من الأشجار، شعر نوث بحركة بطيئة لحيوان من الرئيسيات، في حقيقة الأمر كان ذلك صادرًا من حيوان آخر من فصيلة الأدابيد، ولكنه كان مختلفًا تمامًا عن نوث. وهذا المخلوق البطيء الذي يألف العيش على الأرض يشبه الديسم[٢] الكسول، أكثر من أي حيوان آخر من الرئيسيات، مما جعله أقرب إلى قردة الليمور الهندية التي ستظهر في عصر لاحق. وكان يمشي ببطء فوق أوراق الشجر، دون أن يصدر أي صوت، وأنفه يتشمم الأرض. كان هذا الحيوان الذي ينتمي إلى

---

[١] رتبة منقرضة من الثدييات المشيمية.
[٢] الدب الصغير.

فصيلة الأدابيد يعيش عادةً في أعماق الغابة، حيث لم يكن بطء حركته يمثل عيبًا بعكس الحال لو كان يعيش في مكان مفتوح، إذ كانت حركاته البطيئة الساكنة من العوامل التي تساعده على التواري عن الحيوانات المفترسة وفرائسه من الحشرات التي يعثر عليها من خلال حاسة الشم القوية.

جعد نوث أنفه تقززًا، إذ كان هذا الحيوان المنتمي لفصيلة الأدابيد يستخدم البول لترك علامات بالرائحة، ففي كل مرة يتجول في منطقته، يقوم بالتبول على يديه وقدميه ليترك علامته المميزة، مما جعل رائحته كريهة للغاية.

وجد نوث خلية نحل كانت قد سقطت فتفحصها بفضول وتردد. كان النحل من الوافدين الجدد نسبيًا، والنحل من بين أشكال جديدة من الفراشات والخنافس وحشرات أخرى. وكانت الخلية مهجورة وبداخلها قدر كبير من العسل اللذيذ.

وقبل أن ينقض نوث على العسل، أرهف سمعه جيدًا، وأخذ يتشمم الهواء، فدله أنفه الحساس على أن الباقين في أعالي الأشجار لا يزالون بعيدًا عنه، وعليه أن يلتهم هذا الطعام قبل أن يصلوا إليه. ولكن لا يجب أن يفعل ذلك، إذ كان عليه التروي في الأمر.

كانت منزلة نوث متدنية بين عشيرته من الذكور. والمتوقع منه أن ينادي لإبلاغ الآخرين بأنه وجد طعامًا، ثم بعد ذلك يأتي باقي الذكور والإناث ليأخذوا ما يريدون من العسل، ثم يتركون لنوث القليل منه، إذا حالفه الحظ. أما إذا التزم الصمت، وضبطه الآخرون وفي حوزته العسل، فسوف يضربونه ضربًا شديدًا، وسيأخذون منه أي طعام تبقى معه، دون أن يتركوا له أي شيء. ولكن، من الناحية الأخرى، إذا أفلت بفعلته، فهناك احتمال أن يتمكن من أكل العسل كله وينجو من العقاب.

وقد اختار، وسرعان ما أخذ يغرف العسل بيديه الصغيرتين، ويلعقه بأسرع ما يمكنه، وعيناه تدوران حوله للتأكد من عدم وجود أحد. وأجهز على العسل، ومسح آثار العسل من على خطمه قبل وصول أمه إلى الأرض.

كانت أمه لا تزال تسير وصغيرتها، ليفت، تتشبث ببطنها، وأخذت تخمش في الأرض، وكان ذيلها السمين المحمل بالشحوم مرفوعًا وراءها،

فبدا كظل أسود أمام أشعة الضوء الساطعة التي تخترق الطبقات العليا في الغابة. وسرعان ما عثرت على قطع أخرى من خلية النحل، وحاول نوث الحصول على بعض العسل، ولكن أمه دفعته دفعة شديدة وانقضت على العسل بنفسها.

وعند ذلك حاول أبوه أن يشارك في الغنيمة، ولكن رفيقته منعته، وعندها جاءت خالتا نوث، وأسرعتا للانضمام إلى شقيقتهما، وأزحن والد نوث بعيدًا وهن يكشرن عن أسنانهن ويطلقن صرخات ويقذفنه بأوراق الشجر، بل إن إحداهن اختطفت قطعة من قرص العسل من يده. وقاوم والد نوث، ولكن حجمه كان أقل من حجم أي من الإناث، شأنه شأن الذكور جميعًا، ولم تجدِ محاولاته نفعًا.

لطالما كان الأمر هكذا، فالإناث هن محور مجتمع النوثركتوس. وكانت جماعات قوية من الأخوات، والأمهات، والخالات، وبنات العم والخال يلازمن بعضهن البعض طوال العمر، ويستبعدن الذكور. كان ذلك يمثل سلوكًا قديمًا، إذ هيمنة الإناث على الذكور والنزعة لاستمرار ثنائيات الذكور والإناث بعد موسم التزاوج من الأمور التي تشيع في الأنواع التي تنشط ليلًا أكثر مما تشيع لدى الأنواع القادرة على العيش في الضوء. ويحرص هذا النظام الأمومي القوي على حصول الأخوات على أفضل الطعام قبل أي ذكر.

تقبل نوث هذا الإبعاد بهدوء، فعلى كلٍ، كان مذاق العسل الذي أكله خلسة لا يزال عالقًا بفمه. وابتعد بحثًا عن المزيد من الطعام.

لقد عاشت كلٌ من برجا وبليسي أسلوب حياة يقوم على العزلة، إذ عادة ما تقتصر التجمعات على إناث مع صغارها، أو أنثى مع ذكر بغرض التزاوج. وظل البحث عن الطعام في عزلة هو أفضل الوسائل للمخلوقات التي تنشط ليلًا، إذ كان تجنب الخروج في جماعة يصدر عنها أصوات مسموعة يساعد على سهولة الاختباء من الحيوانات التي تصطاد ليلًا، التي عادةً ما تنتظر في سكون حتى تظفر بفريستها.

ولكن الحيوانات التي تنشط نهارًا كانت تفضل أن تتنقل في جماعات، فبهذا يصبح هناك المزيد من العيون والآذان المتأهبة لاكتشاف المهاجمين، وقد بدأت حيوانات النوثركتوس تستخدم صيحات وروائح تحذيرية لتحذير

بعضها البعض من مختلف أنواع الحيوانات المفترسة — الطيور الجارحة، والضواري التي تعيش على الأرض، والثعابين — إذ كان كل منها يتطلب استجابة دفاعية مختلفة. فضلًا عن أنه، إذا كنت فردًا في جماعة، فحتمًا هناك فرصة أن يظفر الحيوان المفترس بمن بجوارك، وليس بك أنت. لقد كانت تلك لعبة حظ قاسية تنجح كثيرًا بما يكفي لكي يصبح من المفيد التأقلم معها.

ولكن العيش في جماعات ينطوي على مساوئ: فكلما زاد عدد النوع الذي تنتمي إليه، اشتدت حدة المنافسة على الطعام. وكانت النتيجة الحتمية للمنافسة هي التعقيد الاجتماعي — ولقد زاد حجم مخ تلك المخلوقات بحيث أصبحت قادرة على استيعاب ذلك التعقيد. واضطرت بالطبع لزيادة كفاءتها في البحث عن الطعام لإمداد تلك الأمخاخ الكبيرة بما يلزمها من تغذية.

وكان ذلك هو ما سيكون عليه المستقبل. فمع ازدياد تعقيد مجتمعات الرئيسيات، استمر ما يشبه سباق التسلح المعرفي، مما كان يزيد من الذكاء الذي تغذيه التعقيدات الاجتماعية.

ولكن نوث لم يكن على درجة عالية من الذكاء، وعندما عثر على العسل، طبق قاعدة سلوكية بسيطة: وهي تقوم على استدعاء الكبار إذا كانوا قريبين، وتجنب استدعائهم إذا كانوا بعيدين. وبفضل هذه القاعدة تمكن نوث من الحصول على أكبر قدرٍ من الغذاء، والإفلات بفعلته بالحد الأدنى من الضرب. ولكنها لم تكن تنجح دائمًا، ولكن كانت تنجح لعدة مرات بما يكفي ليستحق المحاولة.

كان الأمر يبدو وكأنه قد كذب بشأن العسل، لكنه كان عاجزًا عن الكذب — أي إقناع الآخرين بفكرة زائفة — لأنه لم يكن لديه فهم حقيقي أن الآخرين لديهم معتقدات أساسًا، فضلًا عن أن معتقداتهم من المحتمل أن تختلف عن معتقداته، أو أن أفعاله من المحتمل أن تصيغ تلك المعتقدات. وهكذا كان يلعب لعبة سيلعبها البشر ذات يوم مع صغارهم الرضع، وقوامها: إذا كنت تريد إخفاء نفسك، غطِ عينيك، إذا كنت لا تستطيع رؤيتهم، فهم أيضًا لا يستطيعون رؤيتك.

كان نوث من أذكى المخلوقات على هذا الكوكب، ولكن ذكاءه كان متخصصًا وليس عامًّا، إذ كان أذكى بكثير فيما يتعلق بمشاكل الأفراد الآخرين من نوعه — من حيث مكان معيشتها وقدرتها على التهديد أو الدعم والتنظيمات الهرمية التي كانت تنشئها — أكثر من أي شيء آخر في بيئته. فلم يكن يستطيع مثلًا الربط بين رؤية آثار ثعبان واحتمال أن يتعثر في ثعبان. ومع أن سلوكه كان يبدو معقدًا وبارعًا، إلا أنه كان منصاعًا للقواعد انصياعًا صارمًا، كأنه كان مبرمجًا مثل الإنسان الآلي.

ومع ذلك كانت حيوانات النوثركتوس تقضي معظم حياتها في البحث عن الطعام في عزلة، تماما كما كانت برجا تفعل. وكان ذلك واضحًا في الطريقة التي تنتقل بها: إذ كانت تدرك وجود بعضها البعض، وكانت تتجنب بعضها بعضًا، وكانت تقترب من بعضها التماسًا للحماية، ولكنها لم تكن تتحرك معًا. كانت أشبه بالكائنات التي تميل للعزلة بطبيعتها والتي تضطر للتعاون مع الآخرين على مضض بدافع الضرورة.

بينما راحِ نوث يقطع أرض الغابة، مرقت بجواره جماعة من المخلوقات الضئيلة ذات اللون القاتم في ذعر. كانت لها قواطع مثل قواطع الجرذان، ومظهر وضيع مقارنة بنوث وأسرته، وكانت مكسوة بفراء متسخ من اللونين الأبيض والأسود. وكانت هذه الرئيسيات الضئيلة من فصيلة البليسيادبيد، وكادت تكون نسخة طبق الأصل من برجا، حتى وإن كانت قد اندثرت منذ أكثر من أربعة عشر مليون سنة. كانت تلك المخلوقات من بقايا الماضي.

واقترب أحدها أكثر من اللازم، وهي تتشمم الأرض وتتخبط نظرًا لقصر نظرها الشديد، فبصق نوث بذرة عليه، فأصابته في عينه، فجفل وفر هاربًا.

واندفع من ظلال الأشجار جسم رشيق ونحيف يقترب ارتفاعه من الأرض، وكان يشبه الضبع، إنه الميزونيشيد.

أسرع نوث وعائلته بمغادرة المكان.

توقفت البليسي في مكانها. ولكنها كانت مكشوفة في هذه البقعة المفتوحة من أرض الغابة.

واندفع الميزونيشيد وانقض عليها، فتلوت البليسي وتدحرجت، وهي تهسهس. ولكن أسنان الميونيشيد كانت قد نهشت جزءًا من ساقها. الآن شم المزيد من قطيع الميزونيشيد رائحة الدم فجاءت وهي تتدافع إلى موقع الهجوم.

وقد كان الميزونيشيد نوعًا من رتبة الكونديلارث،[٣] وهي مجموعة متنوعة من الحيوانات التي تمت بصلة لأسلاف الحيوانات من ذوات الحافر. لم يكن الميزونيشيد من الحيوانات المفترسة البارعة أو التي تقتصر على أكل اللحوم، ولكنه — مثل الدب أو الفيرين — كان من الحيوانات التي تتغذى على أي شيء. لقد كان قدر جميع الحيوانات التي تنتمي إلى رتبة الكونديلارث هو الانقراض، قبل البشرية بعشرة ملايين سنة، ولكنها حاليًّا في أوج عظمتها، وهي من أخطر الضواري في عالم الغابة.

تباينت ردود أفعال سكان الغابة الآخرين. وقد كان للأدابيد الشبيه بقرد الليمور الهندي درع من الجلد المقوى يكسو نتوءات عظمية فوق ظهره، وقد دس رأسه الآن تحت هذا الدرع. استنتج حيوان الباريلامبدا الضخم أنه لا يواجه أي تهديد حتى من هذه الزمرة من الحيوانات المفترسة الصغيرة؛ فالميزونيشيد، مثلها مثل الضباع التي ستظهر في عصور لاحقة، من الحيوانات التي تقتات بالجيف في المقام الأول، ونادرًا ما تهاجم حيوانًا يكبرها حجمًا. ومع ذلك، قرر حيوان التينيودونت أن الحذر واجب، فابتعد في شموخ، وقد افتر فمه عن أسنانه العليا.

وفي الوقت نفسه واصلت بليسي المقاومة، وأخذت تخمش مهاجميها وتعضهم. وأخذت إحدى حيوانات الميزونيشيد تئن، وقد تمزقت أوتار ساقها الخلفية اليمنى، وراحت الدماء تسيل من اللحم الممزق. وفي نهاية الأمر استسلمت البليسي تحت وطأة أسنانها وثقلها. وتجمعت حيوانات الميزونيشيد على هيئة دائرة واسعة حول ضحيتها، وتجمعت أجسامها النحيفة وذيولها المتمايلة حول وجبتها، كما تتجمع اليرقات حول الجرح. وغمر أنف نوث

[٣] رتبة منقرضة من الثدييات المشيمية.

الحساس رائحة الدماء، والرائحة الكريهة للبراز الناتج عن الذعر ومحتويات المعدة.

ومع أن بعض الحيوانات من فصيلة البليسيادبيد القديمة كانت قد أصبحت متخصصة، إذ تعلمت تقشير الفاكهة مثل حيوانات الأبوسوم أو أن تقتات على الصمغ من الأشجار، فقد ظلت في المقام الأول من آكلات الحشرات. ولكنها الآن، تواجه منافسة من آكلات الحشرات الأخرى، وهي أسلاف القنفذ والزبابة، ومن الحيوانات المنحدرة منها مثل: نوثركتوس؛ فقد انقرضت الأشكال المبكرة من البليسيادبيد في معظم أنحاء أمريكا الشمالية، ولم يبق منها على قيد الحياة إلا في المناطق قليلة السكان مثل هذه الغابات القطبية، حيث لم يكن النهار الذي لا ينتهي يناسب الأجسام والعادات التي تشكلت خلال الليالي المتواصلة التي شهدها العصر الطباشيري. وسرعان ما سينقرض آخر أفرادها.

ومن مكانه المرتفع الهادئ فوق الأشجار، رأى نوث عائلته وهي تصعد إليه، وأطرافها تتحرك بسلاسة. ولكن شيئًا ما أزعجه: إذ لاحظ تحولًا في الضوء وبرودة مفاجئة. احتشدت السحب أمام الشمس حتى حجبتها، وأخذت تضمحل أشعة الضوء الهائلة التي كانت تتخلل كل أنحاء الغابة. شعر نوث بالبرودة، وانتصب فراؤه بخشونة. وبدأ المطر ينهمر بقطرات غزيرة أخذت تضرب أوراق الشجر العريضة وتدك الطين أسفل الأشجار مثل قذائف المدفعية.

حال انهمار المطر والرائحة النتنة للدماء المنبعثة من الحيوانات القتيلة أسفل الأشجار دون تمكن نوث من ملاحظة اقتراب سولو.

كان سولو مختبئًا في ظل رقعة من الظل، ورائحته تهب باتجاه الريح. رأى جماعة النوثركتوس وهي تنطلق بحثًا عن مكان آمن، ورأى أم نوث مع صغيرنها الرضيعة.

كانت أنثى خصبة تتمتع بصحة جيدة: كان ذلك هو ما استشفه من وجود رضيعة معها. ولكنها كانت بصحبة رفيقها، ولما كانت قد أنجبت صغيرة، فكان من المستبعد أن تدخل في الدورة النزوية مرة أخرى هذا

الموسم، إلا أن أيًّا من هذه العوامل لا يشكل عقبة أمام سولو. انتظر حتى استقرت عائلة نوث على غصن، وهدأت، بعيدًا عن الخطر الحالي.

كان عمر سولو ثلاث سنوات، كان ذكرًا ناضجًا قويًّا من فصيلة النوثركتوس. وكان سلوكه غريبًا.

أخذت أغلب الذكور تتجول في الغابات في عصابات صغيرة، بحثًا عن جماعات الإناث التي كانت تتسم بقلة الحركة، حيث قد تجد فرصة للتزاوج. ولكن لم يكن سولو من بينهم؛ فسولو كان يفضل التنقل وحده؛ فقد كان أكبر وأشد من أغلب الإناث التي صادفها في تنقلاته في هذه الغابة القطبية. وكان سولو غير عادي في هذا أيضًا، إذ كان متوسط حجم الذكر البالغ أصغر من متوسط حجم الأنثى البالغة.

وكان قد تعلم استخدام قوته للحصول على ما يريد.

نزل سولو من على الغصن وهو يتأرجح برشاقة ووقف بقامة منتصبة أمام والدة نوث، كان يبدو غير متزنٍ، لأن ساقيه الخلفيتين كانتا كبيرتين نسبيًّا، وساعديه قصيران ونحيفان، وكان ذيله الطويل مرفوعًا إلى أعلى حتى إنه كان يرتفع فوق رأسه. لكنه كان طويل القامة، وساكنًا للغاية ومخيفًا جدًّا.

شمت والدة نوث رائحة هذا الغريب الضخم: فأدركت أنه ليس من العشيرة، فانتابها الذعر على الفور. وهمهمت ودفعت ليفت خلفها.

وتقدم والد نوث إلى الأمام، ووقف على ساقيه الخلفيتين وواجه الدخيل. وأخذ يدعك غدده التناسلية، بحركات سريعة، في أوراق الشجر من حوله، وألقى بذيله فوق ساعديه، وذلك حتى تقوم النتوءات العظمية الصلبة في غدد رسغه بتمشيط فراء ذيله وتُشَربه برائحته، ثم لوح إلى الدخيل بذيله الذي تفوح منه رائحة الشهوة فوق رأسه. ففي عالم تهيمن عليه الرائحة التي يعيش فيها نوثركتوس، كانت هذه رسالة رهيبة: «ابتعد، فهذا مكاني، هذه العشيرة لي، ولصغاري، ابتعد.»

لم يكن سلوك الأب ينطوي على شيء يمت للعاطفة بصلة، فإنجاب ذرية سليمة تنجو من المخاطر حتى سن التزاوج، كان هو الهدف الوحيد

لهذا الأب في الحياة، إنه كان يستعد لقتال الدخيل بسبب رغبة أنانية مفادها الحفاظ على نسله.

عادة ما كانت لعبة الروائح الكريهة هذه تستمر، حتى يتراجع أحد الذكور دون اشتباك بدني. ولكن مرة أخرى فإن سولو تصرف على نحو غير معتاد، ولم يستجب لأي شكل من أشكال العرض، واستمر في التحديق ببرود في هذا الواقف المحموم.

وكان والد نوث مستاءً من هذا الوافد الجديد غريب السكون. تعثر، وجفت غدد الرائحة لديه، وتدلى ذيله.

ثم سدد سولو ضرباته.

وبأسنانه المفترسة هجم على والد نوث وانقض على صدره فوقع والد نوث وأخذ يئن. نزل إليه سولو على أطرافه الأربعة وجثم فوقه، قدمُه في صدره فوق طبقة من الفراء. صرخ والد نوث ثم انطلق بعيدًا عن الأنظار. كانت إصابته طفيفة، لكن معنوياته انهارت.

والآن تحول سولو ناحية الإناث. كان في إمكان العمات أن تقاوم سولو بسهولة، إذا تضافرت جهودها، لكنها ابتعدت عن طريق سولو؛ فهجوم سولو أزعجها بقدر ما أزعج الضحية. إنها لم تشاهد شيئًا مثل ذلك. كانت كلها أمهات؛ وهنا فكر الجميع على الفور في الرُضع التي تُركت على الأغصان العالية.

لقد تجاهلها سولو أيضًا. وكآكل لحوم فولاذي في حركاته، تقدم إلى والدة نوث، التي كانت هي هدفه الرئيسي.

فهسهست، ثم كشرت عن أسنانها، بل وركلته برجليها الخلفيتين القويتين. لكنه قاوم الضربات بسهولة، ولم يهتز أمام ركلاتها، وخطف رضيعها من يدها، وبسرعة قضم رقبة الصغير، حتى مزق قصبته الهوائية، وانتهى الأمر في غمضة عين. وألقى بكتلة اللحم المرتجفة لتسقط على أرض الغابة، حيث ركضت حيوانات الميزونيشيد، وقد نبهتها رائحة الدماء الطازجة، وهي تطلق نباحًا لا يشبه نباح الكلاب ولكنها مخيفة. التفت سولو إلى والدة نوث، وقد تلطخ فمه ويداه بالدماء. بالطبع إنها لن تكون خصبة

الآن، ربما ستظل هكذا لعدة أسابيع، ولكنه يمكنه أن يُعلمها برائحته، ليجعلها ملكًا له، ويبعد عنها أنظار الذكور الآخرين.

لم يكن سولو قاسيًا حقًا. فإذا لقيت صغارها مصرعها، فمن الممكن لأم نوث أن تدخل حيز السخونة الجنسية مرة أخرى قبل نهاية الصيف، وإذا ضاجعها سولو بعد ذلك، فستكون هناك فرصة لإنتاج المزيد من الذرية. وهكذا، كان سولو يرى في قتل الرضع وسيلة جيدة.

لم تكن استراتيجية سولو الوحشية مستساغة من الجميع؛ فذكور النوثركتوس لم تكن مهيأة للقتال، فهي تفتقر إلى الأنياب التي تستخدمها الأنواع المختلفة من الرئيسيات لإلحاق الضرر بمنافسيها. وهذه الغابات القطبية، كانت بيئة هامشية، حيث كان القتال الحقيقي ببساطة مضيعة للطاقة، وإهدارًا للموارد النادرة، وهذا هو السبب في ظهور طقس المشاجرات القائمة على الروائح. ولكن من وجهة نظر سولو، وهو الاستثناء، كانت استراتيجية نجحت مرارًا وتكرارًا، وساعدته على التزاوج مع الكثيرات وأدت إلى إنجاب الكثير من الذرية، المتناثرة في أرجاء الغابة، وتجري في عروقها دماء سولو.

ولكنها لم تكن لتنجح هذه المرة.

حدقت والدة نوث في الفراغ الأخضر تحتها، بعد أن وضع عليها القاتل علامته وكانت قد فقدت صغيرتها مثلها مثل برجا جدتها الأولى. ولكنها تعتبر أكثر ذكاء من برجا، كانت تشعر بألمها أكثر.

ملأها الحقد واندفعت نحو سولو، وأطرافها الصغيرة تلوح، وقد فغرت فمها، فأجفل فجأة، وتراجع إلى الخلف.

ومرت أمامه وسقطت.

شاهد نوث والدته تقع في الحفرة، حيث وقعت الرضيعة من قبل، على الفور اختفى شكلها تحت أجسام الميزونيشيد المتلوية الملساء.

كان نوث قد فُطم بعد أسابيع قليلة من ولادته، وسرعان ما سيأتي وقت سيبتعد فيه عن الجماعة. كان تعلقه بأمه ضعيفًا، ومع ذلك شعر وكأنه قد خسر خسارة كبيرة كما لو كان ثدي أمه قد انتزع من فمه.

وما زالت الأمطار تنهمر — بغزارة شديدة — طوال الوقت.

زحف نوث وهو يرتجف بين الأغصان، ونظرًا لهدوء حركة الرياح، أخذ المطر يتساقط في قطرات كبيرة تدك جسده المكشوف وتضرب أوراق الأشجار العريضة.

وجد أخته الرضيعة وهو يتتبع رائحة متبقية من أمه، كانت ما تزال متشبثة — بلا حركة — بجذع شجرة كما تركتها أمها، حيث كانت ستبقى — غالبًا — حتى تموت جوعًا، استنشق نوث رائحة فرائها الرطب ثم اقترب منها وضمها، عقد يديه حولها فقد كانت كتلة صغيرة ترتجف على فراء بطنه، لكنه كان يحميها من الأمطار.

كان مشدودًا إلى البقاء معها، إنها من رائحة الأسرة، وهي تشاطره الكثير من الإرث الجيني، وسيكون له نصيب في ذريتها التي قد ترزق بها في يوم من الأيام.

ولكن الأمطار ظلت تنهمر ليلًا ونهارًا، كما واصلت الشمس الدوران في السماء، وأصبحت أرضية الغابة رطبة، وبها برك لامعة، محملة بأوراق النبات المحطم العائم، وبدأت النباتات تغطي الأرض، وتخفي قطع العظام المتناثرة.

وجرفت الأمطار المتواصلة رائحة مجموعة نوث وقبيلته المميزة من الأشجار. وضل نوث وشقيقته طريقهما.

٢

ومرت الأيام برتابة ودارت الشمس في دوراتها العابثة، حتى أخذ نوث ورايت يخطوان بخطوات متعثرة بين أغصان الغابة.

مضى أسبوع منذ أن ضلا طريقهما، لم يُعثر على أحد من فصيلتهما، لكن هنا في الغابة ذات الظلال، كان يوجد العديد من الحيوانات من فصيلة الأدابيد من أبناء عمومتهما، نوثاركتوس *notharctus*. كان الكثير منها أصغر حجمًا من نوث، لقد لمح أعينها اللامعة، مثل حفر صفراء مرعبة، تلوح من أركان ظليلة. وكانت صائدات الحشرات الصغيرة هذه تشبه إلى حد كبير الفئران. بعضها يركض إلى الأغصان من غطاء مظلم إلى آخر، ولكن واحدة منها، قامت بقفزة مذهلة من شجرة إلى شجرة ورجلاها الخلفيتان

القويتان تتدلى منهما الحوافر. إن جلد أذنيها رقيق مثل الخفافيش، تصطاد الحشرات، وتمسك بها في الهواء بفكيها وهي تقفز.

كان هناك مخلوق صغير منعزل يتشبث بلحاء شجرة قديمة، يغطيه فراء أسود، وله أذنان مثل الخفاش، وأسنان أمامية بارزة، وكان ينقر بصبر على الخشب بأصابع بها مخالب، وتتحرك أذناه الكبيرتان. عندما كان يسمع صوت يرقة تحفر تحت لحاء الشجرة، كان يشق اللحاء بأسنانه ويقحم إصبعه الوسطى الطويل للغاية، ليخطف اليرقة ويلقي بها في فمه الفاغر الشره. كان هذا المخلوق من الرئيسيات التي تعلمت أن تعيش مثل الطير، ونقار الخشب.

وقد اصطدم نوث ذات مرة بعملاق — وهو مخلوق يشبه حيوان الكسلان — وكان يتعلق على غصن سميك رأسًا على عقب، ويداه تتشبثان حول الخشب. دارت رأس هذا الوحش لتتفحص نوث ورايت. كانت عيناه عقيمتين، وكان فمه يمضغ ببطء، يأكل الأوراق السميكة المتساقطة التي كانت تمثل غذاءه الأساسي. كانت فصيلته تصل إلى أحجام أكبر، للحاجة إلى تكيف قناتها الهضمية، بما يكفي لكسر السيلولوز في جدران خلايا الأوراق. إن قسمات وجه هذا الكسلان غريبة، وغير متحركة، ساكنة محدودة التعبير. الحياة الاجتماعية لهذا المخلوق العابس المتعلق غير مثيرة، ولعل بطء الأيض، ونقص احتياطي الطاقة، التي تُكرس للأنشطة الاجتماعية أفضل شاهد على ذلك.

بدأ العالم يزداد دفئًا باطراد منذ الاصطدام الرهيب. وهاجرت موجات من النباتات بعيدًا عن خط الاستواء، حتى غطت الغابات الاستوائية المطيرة كل القارة الإفريقية وأمريكا الجنوبية، وأمريكا الشمالية إلى ما سيصبح ذات يوم الحدود الكندية، والصين وأوروبا شمالًا حتى فرنسا وأغلب أستراليا، وكانت هناك أدغال حتى في القطبين.

كانت أمريكا الجنوبية لا تزال متصلة بجسور أرضية قوية مع أوروبا وآسيا، بينما القارات الجنوبية كانت في شريط هائل تحت خط الاستواء، مثل جزر مبعثرة. وكانت الهند وإفريقيا تنتقل إلى الشمال، لكن حتى الآن

ما زال بحر تيثيس يطوق خط الاستواء، وكان هناك تدفق قوي نشر الدفء حول خصر الكوكب. كان بحر تيثيس مثل نهر يمر من خلال عدن.

وحين ازداد كوكب الأرض دفئًا، تخلص أحفاد بليسي وغيرها من الثدييات من ماضيها. وكأن ورثة الأرض قد أدركوا أخيرًا أن الكوكب الفارغ يقدم لهم أكثر بكثير من مجرد حشرات يمكن مضغها. بينما لم يطرأ أي تغيير يذكر على الزواحف الناجية مثل السحالي، والتماسيح والسلاحف، سرعان ما سيجري إرساء أسس سلالات الثدييات التي ستأتي في المستقبل.

كانت بليسي مثل برجا من الحيوانات البطيئة التي يقترب ارتفاعها من الأرض، ووضعية جسدها مثل الثدييات، فهي تمشي على أربع ورأسها إلى أسفل. لكن أحفاد الرئيسيات أصبحت أكبر حجمًا، وأصبح لها أطراف خلفية أكثر قوة تساعدها على سيرها بقامة منتصبة. وفي الوقت نفسه، تحركت عيون الرئيسيات إلى الأمام وأصبحت في الجانب الأمامي من وجوهها. وقد وفر ذلك لها رؤية ثلاثية الأبعاد، تمكنها من توجيه قفزاتها الطويلة، وعمل مسح ثلاثي الزوايا عن الحشرات كفريسة، وعن الزواحف الصغيرة التي ما زالت تمثل جزءًا من نظامها الغذائي. وكلما كانت الرئيسيات تكتشف طرقًا مختلفة لكسب الرزق، كانت تنقسم إلى الكثير من الأشكال المختلفة.

لم يكن هناك هدف معين لكل هذا: لم يكن ذلك بغرض التحسين، فكل ما كان يحدث هو أن كل كائن كان يكافح للحفاظ على نفسه ونسله وأقاربه. ولكن مع التغير البطيء للبيئة، كانت الأنواع التي تسكنها تتغير أيضًا من خلال الانتقاء الصارم. ولم تكن الحياة هي التي تغذي تلك العملية، بل الموت: القضاء على الأقل قدرة على التكيف، وغربلة الاحتمالات غير الملائمة. لكن احتمالات المستقبل الخفي لم تكن تمثل أي عزاء لمن نجوا من الغربلة الصارمة.

كانت الكثير من الحيوانات التي تنتمي إلى فصيلة أدابيد قد أصبحت متخصصة جدًّا. فهذا الدفء المريح الذي يلف أنحاء الكوكب لن يدوم لها إلى الأبد. ففي الأزمنة المستقبلية الباردة، حين تقل الغابات ويزداد وضوح الاختلافات الموسمية، لن يكون من الذكاء أن يقتصر الغذاء على نوع واحد. فمن الحتمي أن يحدث الانقراض نتيجة لذلك، كما كان يحدث دائمًا.

وفي غضون ذلك، ووسط هذه الضجة التي تسببها الرئيسيات الغريبة، لم يجد الشقيقان أحدًا من فصيلتهما، نوثركتوس.

وجد نوث، وهو يستكشف أرض الغابة، نباتًا له ثمار قرنية، عبارة عن نوع من البازلاء، فقام بِكسر بضعة قرون منها وأعطى شقيقته منها.

كان يوجد نوع من آكلات النمل، طوله متر، اقترب مما يشبه عش النمل، فانقض على العش مستخدمًا قوة ذراعه وعضلات أكتافه، كما لو كان يستخدم معولًا، فكانت قواه مرتكزة على نقطة واحدة، هي طرف الإصبع الوسطى القوية الملتوية. فتدفق النمل، لقد كان النمل ضخمًا، يصل طول الواحدة منها عشرة سنتيمترات، بينما ابتلعها آكل النمل بسرعة مستعملًا لسانه الطويل اللزج، قبل اتحاد جنود النمل للدفاع. كان آكل النمل ينحدر من سلالة من أمريكا الجنوبية، سبق لها المرور هنا على الجسور الأرضية المؤقتة قبل أجيال كثيرة مضت.

وشاهد نوث ورايت، ذلك المشهد وقد اتسعت عيونهما، ولكن القلق تسلل إلى اللاوعي في عقل نوث، وهو يراقب آكل النمل.

لقد حاول الحصول على غذاء لكل منهما، لتسمين ذيليهما مع مخزون الشتاء الذي سيحل خلال الأشهر الطويلة المقبلة من البيات الشتوي، وكان ذلك بدافع ما تمليه عليه فطرته، لكن لم يكونا يأكلان ما يكفيهما. ونظرًا لوجودهما بعيدًا عن الجماعة التي ينتديان إليها، كان عليه أن يحرص على تجنب الحيوانات المفترسة.

كان يمكنه العودة، فشأنه شأن أفراد نوعه — وكان ذلك ينطبق على الذكور الذين يميلون إلى التنقل مقارنة بالإناث اللاتي يملن إلى قلة الحركة — كان يتتبع موقعه من خلال الحسابات والجمع بين الزمن والمكان والزاوية المائلة لضوء الشمس، وكانت تلك قدرة تساعده على العثور على مصادر الغذاء والمياه المتفرقة. لقد كان نوث يستطيع العودة إلى موطنه، حيث الأشجار التي تُعد مركز جماعته، لكنه لم يسمع الأنشودة التي تميز جماعته، وكانت ملكات اتخاذ القرار لديه تدفعه إلى البحث عن جماعة أخرى تقبله هو وشقيقته.

في نفس الوقت، كانت الشمس ما زالت تدور بلا انقطاع فوق الأفق، كان كثيرٌ من ضوء النهار يشوبه حمرة غروب الشمس، وهنا في أرض الغابة تتشبث البذور البنية بسعف السرخس. كان الخريف مقبلًا، ومن بعده يأتي الشتاء. وكانا يعانيان من نقص الغذاء ويداهمهما الوقت.

أصبحت رايت حزينة، كما كانت في غالب الوقت. ألقت بأعواد البازلاء، وتكورت حول نفسها، تهتز وتنتحب برقة، وهي تضع يدها على وجهها الصغير. أخذها نوث بين ذراعيه وحملها إلى منحنى غصنين، حيث بدأ يعتني بها. كان يمشط بعناية الفراء المتناثر على ظهرها وعنقها ورأسها وبطنها، فقد كان يزيل القاذورات: قطع الأوراق، والغائط الجاف، ويحل العقد، وينتقي الطفيليات التي كانت تحاول أن تتغذى على بشرتها الشابة.

هدأت رايت بسرعة، فقد أدى طقس تنظيف الفراء الذي يشمل المتعة والاهتمام والألم الخفيف إلى تدفق الأفيون الطبيعي في جسدها، وقبل أن تكبر ستدمن هذا الخدر المتع — مثلما أدمنه أخوها. كان نوث يفتقد أصابع أمه وهي تربت على ظهره بحنان.

لكن نوث كان يشعر بالقلق عليها، وفي أعماقه لم يكن يفهم.

فقد كان حزن رايت له غرض معين، إذ كان بمثابة إشارة لها بأنها قد تكبدت خسارة، بأن عالمها به ثغرة يجب سدها. ومع أن نوث لم يكن قادرًا على التعاطف الحقيقي — فإنك إن لم تكن تدرك حقًّا أن للآخرين عقولًا وأفكارًا ومشاعر مثلك، فإنك لن تستطيع أن تشاطرهم أحزانهم — فإن علامات الحزن البادية على شقيقته كانت تحتم عليه نوعًا من الحماية تجاهها، لقد كان يريد أن يصلح العالم لها: فالغريزة لمساعدة اليتيم كانت عميقة جدًّا.

لكن في النهاية كان الحزن المفرط لا يساعد على للتكيف. فإذا كانت رايت غير قادرة على التعافي، ففي النهاية لن يكون لديه ما يقوم به من أجلها. فيكون عليه أن يهجرها، ومن ثم سوف تموت بالتأكيد.

ومع مرور الأيام، كانت الشمس في أدنى نقطة في قوس السماء، قد بدأت تتسلل إلى الأفق الجنوبي. ففي البداية كانت الليالي القصيرة مثل الشفق،

وفي الليالي الصافية، ستائر من ضوء بنفسجي مشوب بحمرة يصعد على امتداد السماء، ولكن سرعان ما انحرفت الشمس إلى الاختفاء وأصبح الليل أطول، وكان يوجد فسحة متزايدة عندما تتلألأ النجوم في الزرقة العميقة، وقريبًا سيعود الظلام الحقيقي إلى الغابات القطبية.

وبسرعة أصبح الطقس أكثر برودة وجفافًا، كان هطول الأمطار نادرًا الآن، وفي بعض الأيام كان دفء الشمس يبدو — بالكاد — أنه يخترق الضباب الذي طال أمده. كان هناك بالفعل كثير من طيور الغابات ذات الظلال قد غادرت، فقد طار سرب بعد سرب في السماء، إلى أراضٍ أكثر دفئًا في الجنوب، تراقبها عيون الرئيسيات غير المدركة.

أصبح نوث متعبًا، مرهقًا وامتلأت أحلامه بالأسنان الوامضة والمخالب القاضمة، وخيال لبقايا شقيقته تلتهمها أفواه هائلة.

الآن أصبح العطش مشكلتهما الكبرى، فقد مر وقت طويل منذ آخر مرة أمطرت فيها السماء، وأصبحت قمم الأشجار ظمآنة، وبدأت أوراق الأشجار تتساقط، كانت آخر الأوراق ذابلة وبنية. وقريبًا سيضطر نوث للعق قطرات الندى البارد كل صباح.

سار الشقيقان بدافع من العطش مسافةً كبيرة، يبحثان عن المياه الجوفية. وبالقرب من بقعة بحيرة كبيرة هُرعا إلى جذع شجرة، وقد اتسعت عيونهما.

واقترب الاثنان من المياه، وتسللا بجوار اثنين من الحيوانات التي تشبه الغزلان الصغيرة، وكانت هذه حيوانات منعزلة سريعة الركض، في حجم الكلاب الصغيرة، بذيول متدلية، وكانت تبحث في الأوراق والثمار المتساقطة، فقد كانت أسلافًا لعائلة الحيوانات القوية المزدوجة الأصابع التي ستشمل في يوم من الأيام: الخنازير، والخراف، والماشية، والرنة، والظبي، والزراف، والجمال. وأزعجت رايت ضفدعًا، فقفز بعيدًا، وهو يَنِقُّ في اعتراض. انكمشت ثانية، وهي تراقب الغريب بعينين متسعتين. وسرعان ما شاهدا المزيد من البرمائيات: ضفادع، وضفادع الطين، والسمادل. تزاحمت الطيور بالأدغال، وهي تطلق صياحًا حادًّا ملأ الهواء الرطب.

شعر نوث بالارتباك، فقد كان الشاطئ مزدحمًا: لم يكن نوث ورايت المخلوقات الظمأى الوحيدة في هذه الغابة المرتجفة.

مر بهما مخلوق طوله متر، يشبه الكنغر طويل الذيل، وكان هذا ليبتيكتيديوم Leptictidium، وهو متخصص في صيد الحيوانات والحشرات الصغيرة، وكان يستكشف الأرض بأنفه المتحرك، فأزعج الفوليدوسيريس[٤] وهو حيوان مكسو بشعر شائك من أسلاف القنفذ، وأخذ يقفز مبتعدًا في سخط مثل الأرنب. كان هنا قطيع قليل العدد من الخيول صغيرة الحجم، لا يزيد طول الواحد منها عن طول كلب التريَر الصغير، وكانت لها رؤوس خيلية رائعة. وأخذت هذه المخلوقات الضئيلة الرائعة تشق طريقها بتردد عبر الشجيرات الخفيضة، وكانت تسير — مثل القطط — على أقدام مبطنة، وفي كل قدم كان عدة أصابع ذات حوافر. ظهرت فصيلتها في إفريقيا منذ بضعة ملايين عام قبل ذلك الوقت. وصدر هدير أجش من أحد آكلات اللحوم التي نفد صبرها، فجفلت الخيول الصغيرة، وفرت هاربة فجأة.

تقدم نوث وشقيقته في حذر بين هذا الحشد الغريب، وهما يتحركان بحركات سريعة مذعورة.

كانت المياه صفحة بطيئة تزدحم بالنباتات الملبدة، وأعواد القصب الميتة، والطحالب. وكان الجليد قد تكوَن في شرائح رمادية رقيقة في بعض الأماكن، ولكن في الأماكن غير المتجمدة من المياه، كانت تخوض طيور، هي أسلاف طيور البشروش والنكّات، وكان الزنبق المائي يطفو بوهن على سطح الماء.

وفوق المياه، كان هناك عنكبوت يتدلى من خيط رفيع من الحرير. وكان سرب من النمل الضخم يطير، وكل نملة منها كبيرة بحجم يد الإنسان، كان في طريقه لبناء أعشاش جديدة. بين هذا الحشد من الحشرات، هناك عائلة من الخفافيش الحساسة تصفق بأجنحتها. كانت الثدييات الطائرة الجديدة تلك تلتهم الحشرات، إذ تطورت في الآونة الأخيرة وأصبحت ضخمة وهشة مثل الطائرات الورقية. وكانت هناك أسماك بدائية عظمية تخترق

---

[٤] حيوان منقرض يشبه القنفذ Pholidocercus.

السطح وتبتلع الغذاء من الحشرات التي تطير في الهواء، وكان هناك ثعبان بحر يقوم بالشيء نفسه وهو يتلوى.

وجد الاثنان مكانًا بعيدًا — بما يكفي — عن أي من الحيوانات المفترسة، ليتمكنا من الشرب دون أن يمنعهما أحد، فانحنى الاثنان ودسا أنفيهما في المياه الباردة وأخذا يعبان المياه بامتنان.

كان أكبر الحيوانات قاطبة يتمرغ عند أطراف البحيرة الطينية.

كان هناك اثنان من اليوينتيثير — وهو حيوان يشبه الفيلة، من آكلة العشب — يقفان جنبًا إلى جنب. بدا هؤلاء العمالقة مثل وحيد القرن الهائل، لكل منها مجموعة من ستة قرون عظمية على رءوسها، ولها أنياب طويلة مثل السنوريات ذات الأنياب المقوسة. وجلودها السميكة مغطاة بالوحل، وكانت تساعدها على الاحتفاظ بالبرودة، وتبعدها عن الحشرات. كانت تتمرغ بنعومة على النباتات الرقيقة في قاع البحيرة، تمتص المياه الملطخة بالطحالب الخضراء، بينما الصغير السمين كان أكثر خفة في حركته ونشاطه، يلعب بين أرجل والديه، يُقحم نفسه في مفاصل رُكبهما التي تشبه جذوع الأشجار، برقبته القصيرة، وأنيابه التي لم تتشكل بعد. تطلع نوث إلى أقدامها الضخمة في خوف. وقريبًا من الشاطئ هناك، كانت تسير عائلة من حيوانات الميريثيريوم° Moeritherium، لا يتعدى طول الواحد منها مترًا واحدًا، الكبير منها يسير خلال المياه في ثبات وهدوء، يدمدم لطمأنة الآخرين، بينما أجسام الصغار المستديرة، تتناثر على أقدامها. لقد عملت أنوفها الطويلة بكفاءة في قاع البحيرة المنبتة. هذه الحيوانات — من أول رتبة الخرطوميات — هي أسلاف الفيلة والماموث. كانت لا تزال أقرب إلى الخنازير منها إلى الفيلة، لكنها حيوانات ذكية واجتماعية.

التفت آكلات اللحوم — في دائرة — حول قطيع آكلي النباتات. كان أغلبهما من حيوانات الكريودونت Creodont وذديبات من آكلات اللحوم تبدو مثل الثعالب وحيوانات الشره اللقام، وكانت توجد مجموعة واحدة

°حيوان منقرض من أسلاف الفيلة من رتبة الخرطوميات.

من بين الضواري ذات الحوافر، وهي مخلوقات غريبة مرعبة، مثل الخيول آكلة اللحوم، بدون قياس جزئي لمثيلتها في عصر البشر.

كانت الكثير من هذه المخلوقات تبدو بطيئة وثقيلة الحركة، وكانت قبيحة، وذلك نتيجة لتجربة البيئة لإنتاج آكلات عشب كبيرة وضوارٍ من سلالة الثدييات التي بقت على قيد الحياة بعد انقراض الديناصورات، وكانت المراعي الخضراء لا تزال على بعد ملايين السنين في المستقبل، جنبًا إلى جنب مع آكلات النباتات الرشيقة ذات الأرجل الطويلة، التي من شأنها التكيف مع المساحات المفتوحة الخضراء، وآكلات اللحوم الأذكى والأسرع التي ستنشأ لافتراسها. عندما يحدث هذا، ستستسلم أكثر الأنواع حول نوث للانقراض، لكن الرتب التي من شأنها أن تصبح مألوفة للبشر — الرئيسيات الحقيقية مثل الحيوانات ذات الحوافر، والقوارض والخفافيش، والغزلان والخيول — كانت قد ظهرت على الساحة.

لا يوجد نظام بيئي معقد ويعج بالأحياء على كوكب الأرض — حتى الآن — أكثر من هنا، على جزيرة إليسمير. لقد ظل هذا المكان محورًا على طرق الهجرة المارة بالأمريكتين وجبال الهيمالايا إلى أوروبا، وآسيا وإفريقيا. فهنا كانت تختلط وتتنافس حيوانات البنغول[٦] Pangolin من آسيا، وآكلات لحوم من أمريكا الشمالية، وحيوانات ذات حوافر من إفريقيا، وآكلات حشرات أوروبية، مثل أسلاف القنفذ، وحتى آكلات النمل من أمريكا الجنوبية.

فجأة سحب نوث رأسه إلى الخلف.

فقد ظهر من المياه اثنان من الرئيسيات ينظران إليه، ذكر قوي البنية وأنثى صغيرة الحجم. لم يستطع نوث شم رائحة الذكر، ولم يستطيع أن يحدد ما إذا كان من أقربائه أم كان غريبًا، فصرخ مكشرًا عن أنيابه، وردًا على هذا، كشر ذلك الذكر الذي ينتمي إلى رتبة الرئيسيات عن أنيابه هو الآخر.

قام نوث واقفًا على قدميه، وقد تملكه الغضب، واستعرض غدد المسك للغريب القابع في المياه — الذي استعرض هو الآخر غدد المسك، مما أثار

[٦] حيوان من آكلات النمل جسمه مكسو بقشور شبيهة بحراشف السمك.

غضبه أكثر — ثم ضرب المياه بقدميه بشدة حتى اختفت صورة الحيوان المنتمي للنوثركتوس من على صفحة المياه.

كان نوث يستطيع أن يعرف الآخرين من فصيلته، فيستطيع أن يميز ما إذا كانوا ذكورًا أم إناثًا، وكونهم أقرباء أم غرباء، لكنه لم يستطع أن يعرف نفسه، لأن عقله ليس له القدرة على النظر في داخله. وسيبقى طيلة حياته مهددًا من أي صورة منعكسة يراها مصادفةً مثلما حدث في هذه المرة.

اندفع من المياه شيء أملس الشكل وصعد على صخرة وهو يترنح بأطرافه غير الرشيقة التي تشبه الزعانف. فتراجع نوث ورايت إلى الخلف بخطوات متعثرة. وحدق الوافد الجديد إلى هذين الحيوانين الحائرين من فوق خطمه الذي يشبه خطم التمساح.

كان ذلك هو الأمبولوسيتوس Ambulocetus، وهو حيوان يشبه حيوانات الميزونيشيد الشبيهة بالضباع، وكان يكسوه فراء أسود أملس، مثل ثعلب الماء، ولديه رجلان خلفيتان كبيرتان قويتان مزودتان بأصابع يصل طولها إلى عشرة سنتيمترات. كانت أسلاف هذه الحيوان قد عادت إلى المياه منذ عصور، تطلعًا إلى حياة أفضل، وحينئذٍ بدأ الانتقاء يقوم بالتشكيل بلا انقطاع. وكان أمبولوسيتوس يبدو أقرب إلى الحيوانات المائية منه إلى الحيوانات التي تعيش على اليابسة.

سرعان ما سيعتاد هذا النوع من الحيوانات على المعيشة في المحيطات. فجمجمتها وعنقها ستصبحان أقصر، وسيتراجع أنفها إلى الخلف، بينما ستنغلق أذناها، ليمر الصوت من خلال طبقة من الدهون. وستتحول أرجلها في آخر الأمر إلى زعانف، وأضيف المزيد من العظام وأصبحت أصابع الأيدي وأصابع الأرجل منكمشة وعديمة الفائدة وفي النهاية تختفي. عندما وصلت إلى المساحات الشاسعة من المحيطين: الهادئ والأطلسى، بدأت تنمو، وأصبحت أكبر بالمقارنة مع شكلها الحالي، كالفارق بين الإنسان والفأر، لكن أحفاد هذه الكائنات الحية القوية التي تألف العيش في البحار، ظلت محتفظة بأجسامها، مثل الأحافير العظمية والآثار الجزئية وبقايا المخلوقات، التي كانت موجودة في يوم من الأيام.

حدق الحوت البري[٧] إلى الحيوانين الخائفين المنتميين لرتبة الرئيسيات دون فهم، وقرر أن هذا الشاطئ المزدحم لا يصلح للتشمس، فانعطف وسبح مبتعدًا برشاقة.

عندما تلاشى الضوء، رجع نوث ورايت إلى ملجئهما في الشجرة، لكن جميع الأغصان كانت عارية من أوراقها، ومن الصعب إيجاد غطاء، فربضا في زاوية أحد الغصون.

ألقت آكلات العشب بأنفسها خارج المياه، وأخذت كل مجموعات العائلة ينادي بعضها بعضًا، وبدأت الضوراي تنادي، بنباحٍ حادٍّ كنباح الكلاب وزئير يدوي في الغابات الضئيلة.

وحين ازدادت البرودة، أحس نوث بالبلادة تتسلل إليه. ولكنه شعر بالبرد، لضياعه هنا مع شقيقته الصغيرة الوحيدة، بعيدًا عن جماعته.

وبعد ذلك، استيقظ منزعجًا على رائحة مسك قوية.

فجأة احتشدت حيوانات نوثركتوس في كل الأنحاء، كانت فوق وتحت الأغصان، وقد وضعت أرجلها تحتها وتدلت ذيولها الطويلة السمينة، وكانت رائحتها تشير إليه، إنها من فصيلته، ولكن ليست من أقربائه. فهو لم يكتشف علامات رائحتها من قبل، وفي الحقيقة فإن العلامات قد أُحكمت بطبقات الصقيع. لكن أفراد نوثركتوس الغرباء قد رأوه.

اقتربت اثنتان من الإناث عن كثب، وقد جذبتهما رائحة رضيع. واحدة كان يُعتقد فيها أنها الكبرى، تدفع الأخرى جانبًا — التي كانت كبيرة — لتنظر عن قرب إلى رايت.

ارتج عقل نوث، إذ كان يدرك أنه من الضروري أن تقبلهما هذه المجموعة الجديدة، لذلك وصل إلى الأنثى الأقرب إليه، كبيرة، ومبدئيًّا أخذ يغرس أصابعه في فرائها الذي على رجليها الخلفيتين. فكان رد فعلها، أن مددت رجليها في سعادة.

---

[٧] هو ذاته ما يسمى Ambulocetus.

لكن عندما شاهدت بيجست ما يحدث، صاحت وصفعت كليهما، فانكمش نوث وهو يرتجف.

كان نوث ذكيًّا بما يكفي ليدرك موقعه في السلم الاجتماعي، وهو — في هذه الحالة — في أسفل درجة، لكن عقليته الاجتماعية، كانت محدودة. فقد كان لا يستطيع أن يكتشف معتقدات ورغبات الآخرين؛ لذلك لم يستطع أن يُكوّن حُكمًا عن ترتيب نسب الآخرين في المجموعة وقد أخطأ، فبيجست في مرتبة أعلى من بيج وقد توقعت بيجست أن يبدي هذا الذكر الجديد اهتمامه بها هي أولًا.

انتظر نوث بينما كانت بيجست تلعب مع رايت التي غلبها النعاس، لكنها على الأقل، لم تطرده، ومن مسافة، سمحت لنوث بالاقتراب منها ولمسِ فرائها الكثيف ذي الرائحة الفاسدة.

٣

كان كل نهار أقصر من سابقه، وكل ليل أطول مما قبله. ولم يبقَ سوى ساعات قليلة على مشرق ضوء النهار، تلك الساعات الفاصلة كانت تضيئها أضواء الشفق ذات اللون الرمادي المشوب بالوردي.

كانت الغابة الآن ساكنة تقريبًا، حيث اختفت معظم أسراب الطيور التي أكلت النباتات وهاجرت إلى الجنوب الدافئ حاملة معها زادها. ولا يوجد أي أثر، سوى اليرقات التي خلفتها أسراب الحشرات الصيفية، وبيضها المدفون على عمق كبير، والسبب في كل ذلك، أن معدل الأشجار الكبيرة قد انخفض بالفعل وعلى نطاق واسع حيث سقطت وأصبحت متلاصقة بالأرض، مثلها مثل القمامة بسبب الصقيع. ولا يمكن أن تنمو أي جذوع أو فروع أو أوراق، إلا إذا عادت الشمس خلال شهور قليلة، وتصبح النباتات مثل — نبات الخنشار — الذي عندما يموت يعود إلى جذوره ويظل ملاصقًا للأرض تحت غطاء من الثلوج والصقيع.

وأنواع النباتات هنا، تمتد جذورها من الماضي، وقد تكيفت وفقًا لظروف المناطق الاستوائية واضطرت لعمل تعديلات شديدة، لكي تُبقي على حياتها تحت ظروف القطب القاسية. أينما يعش أي نبات يعتمد على ضوء الشمس،

للنمو والطاقة، ففي خلال أيام الصيف التي لا نهاية للضوء فيها، يكون الغطاء النباتي ملفوفًا على بعضه بكثافة، ناحية زاوية الضوء، أما الآن ومع اقتراب الفصل ذي الشهور التي لا يظهر فيها سوى ضوء النجوم والقمر، فلا فائدة لنمو تلك النباتات وحتى لا تحرق طاقتها المخزونة فإنها تتجه إلى البيات الشتوي للخضر وفقًا لاستراتجيتها.

حتى النباتات نائمة.

كانت جماعة نوثركتوس المؤلفة من ثلاثين فردًا، وقد اجتمعوا في فروع شجرة صنوبر كبيرة، وكانوا يبدون أشبه بفاكهة كبيرة مكسوة بفراء، وقد تمسكت أيديهم وأرجلهم بالفروع وهم نائمون وقد دسوا وجوههم في صدورهم وظهورهم معرضة للبرودة؛ ولمع الصقيع على فرائهم الشتوي الجديد، وكانت أنفاسهم تتحول إلى بخار يتألق بلون أبيض مائل للزرقة.

وظل نوث ينام معظم الليالي الطويلة، وفراؤه ينتصب بخشونة، وهو متدثر بحرارة أجساد الآخرين من الجماعة. وأحيانا كان يحلم بأنه يرى أمه تقع لتتلقفها أنياب الميزونيشيد، أو بأنه وحده في الخلاء تحيط به ضوارٍ تحدق فيه بشراسة، أو بأنه عاد صغيرًا مرة أخرى، وأن هناك أفرادًا بالغين أقوى منه وأكبر حجمًا يطردونه من الجماعة، وذلك استنادًا لقواعد يعجز عن استيعابها، ولكن أحيانًا كانت تتلاشى الأحلام، وتغشاه حالة من البلادة، حالة من الخواء التي كانت تبشر بشهور البيات الشتوي الطويلة المقبلة.

وذات مرة استيقظ نوث ليلًا وهو يرتجف، وكانت عضلاته تتحرك حركات لا إرادية لإبقائه على قيد الحياة.

كان العالم النائم يغمره الضوء؛ إذ كان القمر بدرًا ومرتفعًا، والغابات متوهجة باللونين الأبيض المائل للزرقة والأسود، وكانت الظلال الحادة الطويلة ترسم خطوطًا طولية على الأرض المكسوة بالأغصان الميتة المتناثرة، بينما الجذوع العمودية للأشجار الجرداء تمنح المنظر دقة هندسية مخيفة، ولكن الفروع المتشابكة الموجودة في الأماكن العليا من الأشجار كانت تشكل منظرًا أعقد وموحشًا أكثر، إذ كانت جرداء تمامًا ويلتمع عليها الصقيع،

وهو ما يمثل النقيض من أوراق الشجر المتوهجة اخضرارًا ودفئًا في الصيف.

وكان ذلك منظرًا جميلًا، كانت عيناه الواسعتان تساعدانه على رؤية الألوان التفصيلية الدقيقة، على نحو لن يتاح للبشر قط، لكن كان يعتريه إحساس بالافتقاد، بافتقاد الضوء والدفء والطعام، وعدم وجود أقارب له في هذه المجموعة من الغرباء، فيما عدا شقيقته التي كانت مندسة في مكان ما وسط زحام الجماعة، وكان يعرف في قرارة نفسه أن فصل الشتاء الحقيقي بشهوره الطويلة لم يبدأ بعد، وكان جسده يستهلك طاقته لإبقائه على قيد الحياة.

ظل يتلوى على طول الغصن، وهو يحاول أن يقترب أكثر من باقي أفراد الجماعة، لكن كل البالغين يدركون أنه من مصلحة الجميع على المدى الطويل أن يأخذ كل منهم دوره على حافة المجموعة، ويتحمل البرد لفترة وجيزة كي يحمي الآخرين، فلن يكون من المجدي أن يموت الغرباء بردًا، ولكن ظلت رتبة نوث المتواضعة لا ترجحِ كفته لديهم، وعندما كان الذكور الآخرون يشمون رائحته كانوا يتكاتفون، وهم شبه نائمين، لإبعاده عن الجماعة، ومن ثم فقد انتهى به الأمر في المكان المكشوف نفسه الذي كان فيه في البداية.

رفع خطمه إلى أعلى وزفر، ثم نعق بنبرة حزينة.

لم تكن هذه الحيوانات المصنفة ضمن رتبة الرئيسيات تشعر بالراحة لوجودها مع من حولها. فقد كان نوث يستمتع بتنظيف فرائه، ويقتصر استمتاعه على أحاسيسه البدنية، وعلى التأثير الذي تتركه على سلوك الآخرين تجاهه وليس في رأيهم فيه، وكان يعتبر غيره من نوثركتوس مجرد جزء من بيئته شأنهم شأن أشجار الصنوبر وأشجار الصنوبريات، والضواري والحيوانات الباحثة عن طعامها والفرائس، لم يكن أي من ذلك له علاقة به هو.

كان كل فرد من هذه المجموعة — مع التقارب البدني بينها — أكثر انعزالًا ووحدةً من انعزالية البشر. وكان نوث حبيسًا للأبد داخل سجن رأسه، مضطرًّا لتحمل عذاباته ومخاوفه وحده.

جاء الصباح بطقس صحو، ولكن كان يخيم ضباب متجمد فوق الغابة، ومع أن الشمس كانت تزداد سطوعًا شيئًا فشيئًا، لم يكن ينبعث من أشعتها أي قدرٍ من الحرارة.

أخذ أفراد نوثركتوس يمدون أطرافهم التي تصلبت بفعل البرودة وساعات السكون الطويلة. وبدءوا ينزلون من الشجرة إلى الأرض بحذر شديد، وحين وصلوا إلى أرض الغابة تفرقوا ببطء. وجابت الإناث الأكبر سنًّا أطراف هذه الرقعة الخالية من الأشجار، وهي تستخدم المعاصم والآباط والأعضاء التناسلية لتجديد علامات الرائحة.

وأخذ نوث ينقب بين الركام المتجمد، لم يكن بحاجة إلى الأوراق الميتة، ولكنه تعلم أن يحفر تحت الأماكن التي تتناثر عليها أوراق الشجر بكثافة واضحة، وهذه التغطية من أوراق الشجر يمكن أن تترك رطوبة ويبقى الصقيع موجودًا في الغابة مع وجود الندى. ورفع نوث الثلج وبدأ يحفر في الأرض بحثًا عن الدرنات والجذور أو حتى السيقان الأرضية لنبات الخنشار.

اندلعت سلسلة من الصرخات والصيحات العالية، وتردد صداها في الغابة، فنظر نوث وشواربه تهتز.

كانت هناك ضجة حول شجرة من أشجار الصنوبر، فوجد مجموعة غريبة من إناث نوثركتوس ومعها مجموعة من الصغار تخرج من الغابة، وكانت تقترب من أشجار الصنوبر.

وكانت بيجست، ومعها بعض الإناث الأخرى، تنطلق إلى الأمام. انضم إلى مجموعة الإناث ذكر قوي كبير الحجم من الجماعة، كان يُذكر نوث بالإمبراطور، وسرعان ما انهمك الجميع في حركات الاستعراض، وأخذوا ينعبون، ويحكون المسك فوق ذيولهم، وتراجعت الإناث الغريبات، ولكنها ردت بالمثل. وضجت الغابة لدقائق بأصوات متنافرة نتيجة للشجار.

كانت عشائر الإناث — وهي محور مجتمع نوثركتوس — تتسم بالشراسة. ولكنهن تجاهلن رائحة العلامات التي خلفتها بيج وحيوانات أخرى، وهي من علامات التحذير الواضحة في مراكز الإحساس عند النوثركتوس، وفي هذا الوقت من العام يكون الغذاء قليلًا وفي النهاية

تتدافع وتحتك أجسامها بعضها ببعض، للتغلب على قسوة الشتاء، في هذا الوقت الغني الذي يستحق الدفاع عنه.

وقد تفوقت الإناث ومعها الرضع المتشبثة بفرائها على الذكور في تلك الحروب. وسرعان ما تصاعدت المواجهة ووصلت إلى حد الطعنات والعض بالأنياب. وقاتلت الإناث بشراسة.

لكن هذا لم يكن ليجدي. كانت حركات الاستعراض التي تقوم بها بيجست والأغلبية الساحقة قد أثر على الحيوانات ا جديدة القادمة، فتراجعت نحو ظلال الغابة العميقة الطويلة، رمادية اللون. وهنا قفز أحد الصغار الأكبر سنًا إلى الأمام وغرس أسنانه بوقاحة في الفاكهة الباردة الذابلة وهرب قبل أن يوقفه أحد.

فجأة أدركت الإناث ضعف موقفها، فالتففن الآن حول أشجار الصنوبر، وهن يمضغن الفاكهة بشراهة، وأخذ بعض من الذكور الأكبر سنًّا، بمن فيهم الإمبراطور، يأكلون مع بيجست والآخرين. كان نوث ومعه الذكور الآخرين، يحيطون بالمجموعة التي تأكل، وهم ينتظرون دورهم للحصول على أي شيء قد يتبقى.

فلم يكن أحد يجرؤ على تحدي الإمبراطور.

كان لدى ذكور نوثركتوس بنية اجتماعية معقدة ومختلفة تتراكب مع البنية الاجتماعية للإناث، وكانت هذه البنية هي التزاوج الذي يعتبر أهم شيء، بل هو الشيء الوحيد المهم. وكان الإمبراطور يسيطر على منطقة نفوذ كبيرة، تضم مجموعات كبيرة من الإناث. وكان يهدف إلى التزاوج من كل الإناث في منطقته، وذلك لتحسين فرصه في نشر جيناته، وكان يضع علامات بالرائحة على الإناث لإبعاد أي ذكور قد ينافسونه عليهن. وكان يقاتل بضراوة لإبعاد الذكور الأقوياء الآخرين عن إمبراطوريته الواسعة، تمامًا كما قاتل والد نوث لاستبعاد سولو.

كان الإمبراطور يسيطر سيطرة تامة على مملكته المترامية الأطراف لمدة امتدت لأكثر من عامين، ولكنه كان يشيخ بسرعة شأنه شأن جميع أفراد نوعه. وحتى نوث الوافد الأكثر تواضعًا كان يجري حسابات لا تحصى لمعرفة مدى قوة الإمبراطور وليقاته؛ فقد كانت غريزة نوث في التزاوج

وإنجاب ذرية ورؤية سلالته تستمر شديدة، شأنه شأن أي من الذكور هنا، وسرعان ما سيقابل الإمبراطور تحديًا لن يستطيع الصمود أمامه.

لكن نوث الآن لم يكن في موقف يسمح له بتحدي الإمبراطور أو أي من الذكور القوية المهاجمة التي تفوقه قوة، وكان من الواضح له أن مخزون ثمار الأشجار الصنوبرية كان يتضاءل بسرعة.

وهرع نوث يركض على أرض الغابة وتسلق شجرة برشاقة، وهو ينعب بإحباط. وكانت الفروع زلقة من أثر الصقيع والندى والأشنة، وكانت شبه مجردة من الأوراق والفواكه، ولكن ربما كان يمكن العثور على مخابئ من ثمار الجوز أو البذور، إذ كانت تخبئها بعض مخلوقات الغابة التي تتسم ببعد النظر والحرص على الاقتصاد.

وعثر نوث على تجويف في جذع شجرة عجوز، ورأى في التجويف الرطب المتعفن مجموعة من ثمار الجوز. فمد يديه الصغيرتين الرشيقتين بداخلها وأخرج ثمرة جوز منها، وعندما هزها سمع صوت النواة بداخلها، فتدفق اللُّعاب في فمه وعندما حاول كسرها بأسنانه انزلقت خارج فمه بسلاسة، فغضب وحاول مرة أخرى.

ولكنه سمع هسهسة، فصاح وأسقط حبة الجوز وفر هاربًا إلى غصن أعلى.

جاء مخلوق — أكبر حجمًا من القطط الأليفة — بخطوات مضطربة نحو مخبأ الجوز، ثم رفع رأسه إلى نوث وهسهس مرة أخرى، فبدا فمه الوردي والقواطع العليا والسفلى القوية. فاقتنع بأن ذلك المنظر قد تسبب في طرد معتدين قبله، وتناول الحيوان حبة من الجوز المخزون وهو يمسكها بفمه القوي كاسرًا قشرتها، وهو يوسع الفتحة التي صنعها في القشرة، حتى وصل أخيرًا إلى نواة الجوز — وكان نوث مختبئًا وراء جذع الشجرة وقد أعجبته رائحة الجوز الزكية التي فاحت فجأة — وبدأ يقضمها بصوت مسموع.

تبدو حيوانات أليورافوس[8] Aliuravus هذه أقرب إلى السنجاب البدائي، بوجه يشبه الفأر، ولها ذيل طويل وكثيف مثل المظلة الغرض منه إبطاء

[8] حيوان من أسلاف القطط طويلة الذيل.

سقوطه، وفي كل مرة تهبط من الشجرة بانتظام كما تفعل، وقد كانت ثقيلة الحركة من فصيلة نوثركتوس حيث تنتقل عبر الأشجار لفترة، باستخدام يديها وقدميها، ولقد كانت كبيرة بما يكفي لصد نوث.

وتعتبر حيوانات أليورافوس من القوارض الأولية، وتعتبر من فصيلة كبيرة نشأت منذ بضعة ملايين من السنين في آسيا، ومنذ ذلك الحين هاجرت إلى جميع أنحاء العالم. وكان هذا هو بداية عهد جديد من الصراع على الموارد بين الرئيسيات والقوارض.

وكانت القوارض تفوز.

وكانت القوارض تهزم الرئيسيات فيما يتصل بالغذاء، وكان نوث يحتاج إلى كسارة ليكسر الجوز أو البندق ليأكله، وحجر الرحى لطحن الحبوب مثل القمح والشعير، ولكن القوارض الشرسة بقواطعها الحادة كانت تستطيع كسر أغلفة أقسى المكسرات والحبوب، وسرعان ما ستبدأ في أكل الفواكه من أفضل الأشجار قبل نضجها.

وليس ذلك فحسب، فقد كانت القوارض تفوق الرئيسيات في عدد مرات الإنجاب بكثير، فقد كان الأليورافوس يمكنه الإنجاب عدة مرات في السنة الواحدة. وكانت الكثير من الصغار تموت بسبب الجوع أو المنافسة مع الأشقاء أو لافتراسها على يد الطيور وآكلي اللحوم، ولكن كان يكفي أن يبقى بعض الصغار على قيد الحياة حتى يستمر النوع. وكان الصغار لا يمثلون قيمة كبيرة للأليورافوس، وذلك خلافًا للنوثركتوس الذي كان يلد مرة واحدة في السنة، وكانت خسارة جرو واحد تمثل لهم كارثة فادحة، وقد كانت نسبة إنجاب القوارض العالية تمثل مادة أصلية للعوامل التي تشكل الانتقاء الطبيعي؛ إذ كان معدل التطور لدى القوارض شديدًا للغاية.

ومع أن الرئيسيات مثل نوث أكثر ذكاءً من القوارض، مثل أليورافوس، فالنوع الذي ينتمي إليه عجز عن المنافسة.

لم تكن فصيلة البليسيادبيد هي الوحيدة التي تقل أعدادها في أمريكا الشمالية، ولم يكن من قبيل المصادفة أن النوع الذي ينتمي إليه نوث كان يضطر للعيش في هذه الغابة القطبية الهامشية، ففي المستقبل ستهاجر سلالة نوث إلى أبعد من ذلك؛ مرورًا بجبال الهيمالايا إلى أوروبا ومنها

إلى آسيا وأفريقيا، وستتأقلم وتتغير تبعًا لكل مكان تحل فيه. ولكن في أمريكا الشمالية ستحقق القوارض انتصارًا كاملًا في خلال بضعة ملايين من السنوات، وسينشأ نظام بيئي جديد يقوم على كائنات مثل: الغوفر والسنجاب وهررة الغاب والمرموط وفئران الحقل والسناجب الأمريكية المخططة. ولن تكون هناك أي رئيسيات في أمريكا الشمالية، ولا حتى بعد واحد وخمسين مليون سنة أخرى، فلن يحدث هذا إلا بعد أن يأتي صيادون من البشر — وهم سلالة تنحدر من فصيلة نوثركتوس من بعيد — عبر مضيق بيرينغ من آسيا.

عندما انتهى الحيوان المنتمي للقوارض من طعامه، تسلل نوث بحذر من مكان اختبائه، وأخرج بقايا لب ثمرة الجوز التي كان الأليورافوس قد رماها، وأخذ يحشو فمه بها بدون خجل.

لساعات قليلة نهارًا، كانت السماء الجنوبية تزداد سطوعًا، ولكن الشمس بدأت تدور تحت الأفق الآن. وتجمدت معظم البحيرات، وكانت الأشجار مكسوة بالصقيع، وكان بعضه يلتمع في شظايا سميكة، بينما تجمد الضباب على بيوت العناكب. كانت حركات أفراد نوثركتوس خلال الأشجار وفوق أرض الغابة الصامتة تتسم بالبطء الشديد، ولكن لم يكن ذلك يهم؛ إذ يمكن أن توفر لهم الغابة المزيد من الغذاء في خريف هذا العام.

وجاء يوم صحو آخر عندما تكدست طبقات السحاب المشوبة بالحمرة في السماء البنفسجية الجنوبية، تدحرج الغسق الأخضر الأرجواني مثل ستار واسع فوق النجوم.

أسرعت مجموعة نوثركتوس إلى الأرض، وبدأت الحفر في الأماكن التي لم تتجمد تربتها، حيث حفظتها طبقات من أوراق النباتات، أو تحت جذور الأشجار. الليلة ستكون باردة أصعب من صقيع الشتاء. ولذلك فهي تعرف أنه قد حان الوقت للحصول على مكان تحتمي به، وهكذا ظلت الرئيسيات تحفر لبناء جحور كانت برجا ستشعر بالراحة فيها، وكان يبدو وكأن الفترة القصيرة التي قضتها جماعة نوثركتوس في الأشجار لم تكن إلا حلمًا بالحرية.

في الظلام الدامس، كان نوث يشق طريقه عبر الأنفاق التي سرعان ما أصبحت ممهدة بفعل مرور أجسام الرئيسيات فيها، كما قطع أرضًا يغطيها الفراء المتساقط. وأخيرًا اهتدى إلى رايت بحاسة الشم.

أخذ نوث يتشمم شقيقته بحنان، وكانت لا تزال نائمة، وهي متكورة وقد لفت ذيلها حولها، لا يزال فراؤها الشتوي يبدو أنيقًا وصحيًّا وخاليًا من العقد والقذارة، وكان ذيلها مكتنزًا بمخزون الدهون التي من المفترض أن تمدها بأسباب الحياة في فصل الشتاء.

وشعر نوث بشيء من الرضا، فبالنظر إلى بدايتهما الرهيبة إبان الصيف، فقد أصبحت فرصتهما في البقاء أفضل من المتوقع. ولما كان نوث لم ينجب بعد، كانت رايت هي القريبة الوحيدة له، وكان مستقبله الجيني كله يتوقف عليها، لكنه في الوقت الحالي لم يكن لديه المزيد ليقدمه لها.

وفي الظلام دنا نوث من شقيقته، وهو متدثر بروائح وأصوات أفراد نوعه، وأغمض عينيه ولم يلبث أن نام.

ورأى في منامه شذرات من ضوء الصيف، وظلاله الطويلة، وسقوط والدته من الأشجار. وسرعان ما سكن جسده وغفا عقله.

٤

سقطت أشعة الشمس الأفقية على الغابة، مثل الأضواء الكاشفة، وفوق سطح البحيرات الصغيرة — التي كانت مياهها المتجمدة قد بدأت تذوب ببطء — كان يخيم ضباب بارد، يلمع في دوائر بلون رمادي مشوب بالوردي، في جمال يذهب سدى، وامتدت الظلال السوداء إلى جذوع الأشجار العريضة الكالحة نحو الشمال. ولكن أول أوراق الشجر بدأت تنبت على الأغصان الجرداء، كانت أشبه بصفائح خضراء دقيقة تتدلى شبه عمودي لتستقبل ضوء الشمس، فقد كانت أيام الربيع والصيف أقصر من أن تتمكن فيه من استقبال ضوء الشمس طويلًا، فكان يجب الاستفادة من كل نقطة ضوء تصل إليها.

لم تكن إلا لمحة خاطفة، فجرًا جديدًا، لن يمكث إلا دقائق معدودة ثم يخبو، إلا أنها كانت المرة الأولى التي يظهر فيها قرص الشمس منذ أشهر طويلة.

كانت الغابة ساكنة هادئة. فقد كانت الحيوانات المهاجرة، من آكلات الأعشاب، ما زالت على بُعد مئات الكيلومترات جنوبًا. وكان أمامها أسابيع حتى تعود إلى هنا مرة ثانية، بحثًا عن الأراضي التي تقتات منها صيفًا، كما أن الطيور لم تكن قد وصلت بعد. وكان نوث مستيقظًا، وخرج.

خرج من مخبئه، لكنه كان نحيلًا، وكان ذيله مترهلًا وخاليًا من الدهون. وكان فراؤه رثًّا وملطخًا بالبول، وكان يتدلى حوله على شكل سحابة، وقد غمره ضوء الشمس، مما جعله يبدو في ضعف حجمه الحقيقي. كان لا يزال لديه القليل من الغذاء في الأشجار، لذلك كان عليه أن ينطلق مسرعًا فوق الأرض المغطاة بالأغصان، التي كانت باردة من أثر الشتاء. كان المكان يبدو قفرًا لا أحد يعيش فيه، وكان نوث أينما تحرك يضع علامات على الصخور وجذوع الأشجار بمسكه.

كان كل من حوله في منافسة ضارية، كان ذكور الجماعة يبحثون عن الغذاء، وكان كلهم من البالغين، حتى الحيوانات التي ولدت منذ أقل من عام اقتربت من حجمها الكامل، بينما الحيوانات المحاربة ذات القربى مثل الإمبراطور ذاته تقترب من عامها الثالث، تتحرك بصلابة أكثر من العام الماضي، بعد الفصل الشتوي ونقص النوم، بدا عليها جميعًا المرض، ومزق البرد الطويل الأمد بقسوة فراءها، وعض أجسامها التي حرمت من الدهون.

كان الانتقال في وقت مبكر ينطوي على خطورة، وكانت الإناث لا تزال نائمة في الجحور، تستهلك آخر مخزون لها في الشتاء. كانت الحيوانات المفترسة نشيطة من الآن، ونظرًا لندرة الطعام، كانت الرئيسيات التي تخرج مبكرًا تمثل هدفًا مغريًا لها. إذا عثر أحد الذكور على مخبأ من الطعام مصادفةً، سرعان ما كانت يحيط به المنافسون وقد تملكتهم الغيرة، ويتردد في الغابة صدى نعيبها وعوائها.

لكن نوث لم يكن لديه خيارٌ سوى مواجهة البرد. كان موسم التزاوج يقترب، وهي فترة المنافسة الشرسة للذكور. إن جسد نوث يدرك، أنه كلما أسرع لعرض المخزون من القوة والطاقة للمعارك المقبلة، كان ذلك أفضل فرصة للعثور على أنثى. فكان عليه أن يقبل المخاطر.

وأخذ نوث يتجول وهو يحاول تذكر خريطة المكان التي كونها في الموسم الماضي، واتجه إلى أكبر البحيرات القريبة.

وكانت معظم أنحاء البحيرة لا تزال مُجمدة، إذ كانت تكتسي بالثلوج الرمادية المتناثرة الطليقة وحبيبات الثلج الصلبة، وكان هناك اثنان من الطيور المهاجرة مبكرًا الشبيهة بالبط يسيران على الجليد، وينقران بأمل في سطحه. وتحت اللون الرمادي، رأى نوث طبقة أقدم من الجليد الأزرق، وكانت مواد متجمدة من زمن عجزت عن الذوبان خلال الصيف الماضي، ومن المتوقع أن تعجز عن الذوبان هذا العام.

بالقرب من حافة المياه مر بحزمةٍ لونُها أبيض مائل للرمادي، كان ذلك حيوان الميزونيشيد، وكان كان يتحمل الشتاء فوق الأرض مثل ثعلب القطب الشمالي الذي سيظهر في عصر لاحق، لكن هذا الميزونيشيد ضل طريقه في عاصفة ثلجية عنيفة في موجة برد مفاجئة أثناء الشتاء، ومات هنا على شاطئ البحيرة. تجمد جسده بسرعة وظل محفوظًا تمامًا حتى الآن، لكن ما إن ذابت الثلوج حتى بدأت البكتريا والحشرات تتغذي عليه. وميز نوث الرائحة الكريهة للتحلل. وتدفق اللعاب في فمه، إذ سيكون اللحم نصف المجمد جيدًا، فضلًا عن اليرقات المالحة. لكن عطشه كان يغلب على جوعه.

بالقرب من شاطئ البحيرة الضحلة الموحلة كان الجليد رقيقًا ومتشققًا، وشم نوث رائحة المياه الرطبة. كان لون المياه يميل للاخضرار، وكانت تمتلئ بالكائنات، وكانت تتناثر فيها قطع من الجليد القديم ذي اللون المائل للرمادي. دس نوث خطمه في المياه وشرب، وهو يصفي المياه من المواد اللزجة بأسنانه.

ورأى صفحة المياه وقد ازدحمت بعناقيد من الكرات الرمادية الصغيرة: إنها بيض الحيوانات البرمائية التي تسكن البحيرة، إذ كانت تضعها مبكرًا، وبالقرب من المياه الضحلة تحت قدميه، رأى نوث أشياء صغيرة سوداء تتلوى، وهي الدعاميص[٩] الأولى. وراح يمرر يديه في المياه، ويغرف المواد اللزجة براحتيه، ثم أخذ يحشو فمه بالطعام اللزج.

---

[٩] الدعمص هو الضفدع قبل تمام النمو.

وتغوط فتجمعت تحته بركة من الغائط السائل.

ولكن تكسر سطح المياه الآن، وتشقق الثلج محدثًا أصوات طقطقة حادة، وخرج شيء ضخم من البحيرة. فاندفع نوث مسرعًا عائدًا ليحتمي بأقرب الأشجار، وقد اتسعت عيناه.

لقد استيقظ التمساح مبكرًا، مثل نوث؛ أزعجه من نومه سطوع ضوء النهار. كانت عيونه واسعة مثل عيون نوث، وما إن ارتفع من البحيرة حتى انزاحت عن ظهره قطع من الثلج، وبحركة واحدة رشيقة ثبت فكيه على الميزونيشيد المتجمد فطقطق الصقيع وطُحنت العظام، ثم تراجع التمساح إلى الخلف في المياه، وهو يجر الجثة بسهولة، دون أن يصدر أي صوت.

كان التمساح جائعًا.

قبل اصطدام المذنب، كانت أكبر الحيوانات في كل بيئات العالم من الزواحف: مثل البليسوصور والأيكثيصور[١٠] Ichthyosaur في المحيطات، والديناصورات على اليابسة، والتماسيح في المياه العذبة. أزاحت الكارثة هذه الفصائل الضخمة، وسرعان ما ستحل محلها الثدييات المكافئة لها، باستثناء التماسيح.

لطالما ظلت بيئة المياه العذبة مكانًا يصعب العيش فيه. وبينما كانت الإمدادات النباتية على الأرض وفي البحر من المصادر التي يعتمد عليها في المكان والزمان، كانت بيئات المياه العذبة متغيرة، إذ كانت تكتنفها مخاطر مثل التآكل والكشط والتغرين والفيضان والجفاف، وانخفاض مستوى جودة المياه.

لكن التماسيح — وغيرها من الأنواع التي تعيش في المياه العذبة، مثل السلاحف — كانت قابلة للتأقلم، إذ تعلم البعض منها السير على الأرض بحثًا عن الماء، والبعض الآخر استطاع أن يألف البحر، وبعضها دفن نفسه على عمق ثمانية أو عشرة أمتار في الوحل، منتظرًا الأمطار الغزيرة القادمة. أما فيما يخص الطعام، فإنه حتى خلال أسوأ الحالات على الأرض وفي البحر، فإنها كانت تقتات من المواد المغذية التي نتجت عن الجيف المبعثرة

---

[١٠] حيوان بحري عملاق من الزواحف يشبه الأسماك والدلافين.

على الأرض، والتي كانت تمثل سلسلة غذاء «بنية» استمرت طويلًا بعد موت كلٍ من النباتات الخضراء والمخلوقات التي كانت تتغذى عليها.

بهذه الطريقة تمكنت التماسيح من البقاء على مدى مائة وخمسين مليون عام، فقد نجت من اصطدام الأجسام القادمة من الفضاء الخارجي بالأرض والنبضات الجليدية وتغيرات منسوب البحار والثورات التكتونية والمنافسة من فصائل الحيوانات المتعاقبة.

بعد كل هذا الوقت كانت تلك المخلوقات لا تزال قادرة على استحداث سمات جديدة بفضل التطور. وبعد اصطدام المذنب بوقت قصير، كانت أهم الضواري التي تعيش حول المجاري المائية من أبناء عمومة التماسيح، وكانت لها سيقان طويلة ومخالب حادة تشبه الحوافر. لقد كانت كابوسًا، إذ كانت تماسيح مفترسة تستطيع الركض، وتستطيع مطاردة حيوانات كبيرة في مثل حجم الخيول الصغيرة. لقد تكيفت التماسيح على العيش هنا في القطب، حيث لا تسطع الشمس لمدة شهور متعاقبة؛ وكانت تنتظر حتى تنقضي شهور الشتاء في بيات شتوي عميق.

خلافًا للديناصورات وخلافا للبليسوصور، لم تضطر التماسيح إلى الخروج من بيئاتها المألوفة في المياه العذبة على يد الثدييات حديثة العهد، لا الآن ولا في أي وقت آخر.

فقد نوث جثة الميزونيشيد ولكن بعض بقايا اللحم واليرقات المحطمة كانت تلطخ سطح الأرض. فأخذ نوث يلعق الأرض المجمدة من شدة جوعه.

أخيرًا حل موسم التكاثر.

تجمعت إناث الجماعة على غصون واحدة من أشجار الصنوبريات العالية. كانت تتغذى على الفاكهة الصغيرة الناضجة، وتشحن أجسادها بالموارد التي تحتاج إليها للوفاء باحتياجات الأمومة المقبلة. كانت الإناث الأكبر سنًّا، ومن بينهن بيج وبيجست، ترشد باقي الإناث، وكانت رايت من بينهن. وكانت قد تمكنت من البقاء على قيد الحياة بعد أول شتاء يمر بها. كان وزنها يزداد بسرعة، وعندما تساقط فراؤها الشتوي الخفيف

بدت صغيرة الحجم، ولكن كانت تتمتع ببِنية ناضجة رائعة، وعلى استعداد للتزاوج.

كان الإمبراطور يطوف بنفسه بين رعاياه الإناث، وينتقل من مضاجعة واحدة إلى أخرى. وكانت بيجست قد قبلت مضاجعته مرتين من قبل، وكان قد فض عذرية رايت دون اعتراض منها. وهو الآن يضاجع بيج، وكانت منحنية إلى الأمام وقد تشبثت بغصن منخفض ودست رأسها بين ركبتيها ورفعت ذيلها، والإمبراطور خلفها ويداه تطوقان خصرها، ووركاه تندفعان إلى الأمام في سرعة ناتجة عن الإرهاق والاستعجال.

كان هذا هو اليوم الذي ظل يعمل من أجله الإمبراطور طوال العام، وقد حان الوقت المناسب كي يستغل سلطته وطاقته، ليضاجع أكبر عدد ممكن من الإناث.

لكن الإمبراطور قد أدركه التعب من الآن، وجماعة الإناث هذه كانت واحدة من عدة جماعات أخرى في المنطقة الأوسع التي تخضع لسلطته.

في هذا المكان الموسمي الضاري، كان من الحتمي اختصار مدة العناية بالرضع في فترة قصيرة للغاية، حتى تأتي الذرية عند توافر الطعام، وتتمكن الأمهات الجدد من أكل ما يكفي لإفراز قدر كبير من الحليب. وكانت أي أنثى تتزاوج خارج موسم التكاثر يقل احتمال أن تعيش ذريتها حتى سن البلوغ. وكان أي ذكر يفقد فرصة التزاوج من أنثى خصبة يضطر إلى تحمل عام كامل من المشقة والخطر والحرمان، قبل الحصول على فرصة أخرى.

تقتصر مدة موسم التكاثر، عند نوع نوثركتوس على ثمانية وأربعين ساعة فقط. وتصبح تلك فترة محمومة.

كان اليوم هو بداية الدورة النزوية التي تحل بالإناث في الوقت نفسه، كان الهواء مفعمًا بسحابة غير مرئية من الفيرومون،[11] وكانت الذكور في كل مكان، وقد بدا عليها القلق، وكان العضو التناسلي لكل منها منتصبًا من تحت الفراء. وكان كل ذكر يستعد منذ طلوع الشمس، ويأكل لبناء قوته،

[11] مادة كيميائية تشبه الهرمونات تفرز للخارج فيحدث شمها تفاعلا في شخص آخر.

ويتدرب على حركات متأرجحة مذهلة على الأشجار، ويشارك في معارك وهمية؛ كانوا أشبه برياضيين يستعدون لمباراة ما. كان من المستحيل على الإمبراطور إبعاد كل الذكور، وكانت هناك منافسة حادة، فقد كانت تراتبية الذكور تعاني الإجهاد إلى درجة الانهيار.

وكانت الإناث ستعاني الإجهاد في وقت لاحق، أثناء فترة الحمل والإرضاع، عندما كان الجنين أو الوليد الذي ينمو بسرعة يتطلب من الأم العثور على مصدر غذاء غني بالطاقة، وكان عليها أن تأكل جيدًا في الفترة التي تكون معظم الإناث الأخريات يرضعن صغارهن أيضًا. وكانت التكلفة الباهظة للتكاثر هي التي أدت إلى هيمنة الإناث على الذكور بصفة عامة، وكان هذا هو السبب وراء حصول الإناث دائمًا على الغذاء الأفضل.

كان الموقف هو نفسه في جميع أنحاء الغابة. كانت كل جماعة من نوثركتوس تبلغ موسم التزاوج القصير في الوقت نفسه، وكان ذلك التوقيت يخضع للروائح الكيميائية غير المرئية التي كانت تتخلل الهواء على بُعد كيلومترات. فعلى مدى اليوم والغد، كانت شهوة الرئيسيات تعم أنحاء الغابة؛ الجلبة الهائلة التي تسببها الذكور المتعاركة، والإناث المحملة بهرمون الفيرومون والأوراك التي تندفع للأمام في اهتياج.

طارد نوث يافعًا آخر يعتقد أنه رايفل، ألقى بنفسه من خلال موقع الصنوبر الطليق. كان يتأرجح بذراع واحدة على الأغصان الطويلة الضعيفة. في كل بقعة على الأرض، أوراق ميتة وسرخس أخضر جديد وأشكال مملة لمخلوقات غريبة على الأرض تفر من تحته.

اقترب من فجوة بين شجرتين عاليتين. وعلى الجانب البعيد رأى رايفل يقف مستقيمًا، وأعضاؤه التناسلية الوردية تبدو واضحة، يحك رائحته المميزة على اللحاء. نبح رايفل بازدراء في تحدٍّ.

بدون تردد أخذ نوث يتأرجح. التوى الغصن وألقى به عاليًا في الهواء، على نحوٍ قطع به سلسلة قفزات متكافئة. طار وقلبه ينبض نبضات متسارعة ثم تعلق بذيله عاليًا، وبقيت اليدان والقدمان على استعداد للقبض.

كانت تملأ رأسه رائحة الدورة النزوية، كان عضوه التناسلي منتصبًا منذ استيقاظه هذا الصباح. وحتى الآن وهو يتنقل من شجرة إلى شجرة،

كان قضيبه بارزًا أمامه، وقد بدا صلبًا ووردي اللون. كان عليه أن ينجح في شق طريقه بين الذكور المتزاحمة، للحصول على أنثى مستعدة لقبول التزاوج، وشعر كما لو أن بطنه سينفجر إذا لم ينجح قريبًا، لكنه حتى أثناء استحواذ الشهوة البدائية عليه، كان يستمتع بقوة جسده الرشيق وهو يتأرجح به في الغابة التي كان متأقلمًا للعيش فيها إلى أقصى حد.

لم يشعر نوث أبدًا بكل هذه الحيوية.

هبط نوث على شجرة رايفل؛ تمامًا كما كان يهدف، فقبض على الأغصان — بدقة — بيديه، وقدميه، لكن على الفور، انقض رايفل عليه.

ووقف كل منهما في مواجهة الآخر، وأعضاؤهما التناسلية المنتصبة بارزة. اتجه نوث نحو رايفل بخطوات بطيئة، وذيله مرفوع، وهو يفرك ما بين فخذيه بشدة على لحاء الشجرة وينبح. ورد عليه رايفل بالمثل، إذ كان ذلك من اللقاء من الطقوس المتبعة، فكان كل منهما يستجيب للحركات التي يأتي بها الآخر من خلال رقصة معينة؛ رفع الذيل يليه تدليك ما بين الفخذين، وفرك المعصم في لحاء الشجرة، ونظرة متحدية مصحوبة بالبصق.

وسرعان ما تعبق الجو برائحة الغضب، واقترب كل منهما من الآخر بما يكفي كي يشعر نوث بأطراف فراء الآخر، وأصابت وجهه بصقة رايفل.

كان رايفل في عمر وحجم نوث تقريبًا، وكان قد انضم إلى القبيلة قبل نوث وشقيقته بقليل. لذلك فهو يعتقد أن نوث قد غزا القبيلة التي يعتبرها ملكًا له. كان نوث ورايفل متشابهين إلى حدٍّ كبير كما لو كانا شقيقين، وأبعد عن أن يكونا عدوين.

وكان رايفل أكبر وأثقل من نوث بعض الشيء، كما تفوق عليه في الحصول على الغذاء في بداية الموسم، لكن الصعوبات التي لاقاها نوث في ذلك العام، منحته صلابة داخلية، فظل صامدًا.

وانتصرت الحيل النفسية، إذ فجأة تراجع رايفل، وكف عن أداء حركات الاستعراض، فأدار ظهره إلى نوث وأظهر له مؤخرته الوردية لثوان قليلة على نحو رمزي، في إيماءة مقتضبة تنم عن الخضوع.

نعق نوث وهو يستمتع بلحظته، وأخذ يفرك معصميه فوق ظهر رايفل ليميز الفوز برائحته، وتبول عليه. ثم ترك رايفل يبتعد ببطء على طول الغصن باتجاه عنقود من التوت.

لم يُصب رايفل بأي ضرر. وسيتسلل بمفرده إلى شجرة لبعض الوقت، ربما ليأكل ويأخذ استراحة من الشجار، لكن فرصته للتزاوج كانت تتناقص لبضع ساعات، إذ كان بول نوث يجعله عقيمًا لفترة قصيرة، ويقلل من قدرته على إطلاق أصوات الغناء، التي تستخدم من جانب الذكور لجذب الإناث.

كان نوث يرى أنها استراتيجية مقبولة. اليوم يستحيل لأي ذكر — على أي حال — أن يحاول أن يستأثر بكل الإناث، لكنه يستطيع أن يقلل المنافسة عند الذكور بهذا التخويف الحسي.

وبعد أن هزم نوث رايفل، عاد قضيبه ينبض من جديد، وهو يدرك أنه سرعان ما سينال الإشباع الذي كان يصبو إليه. وبتأرجح سريع وقوي دفع بنفسه من خلال الأغصان، عبر الغابات باتجاه تجمع الإناث.

لكنه لم يكن يدرك شيئًا عن المعركة المروعة التي تجري هناك.

كان الإمبراطور مشغولًا مع إناثه، لقد انتهى بالفعل من تزاوج آخر، كان قضيبه صلبًا ومتدليًا، وكان يمشي بخطوات بطيئة بين الإناث، يعض وينهش أي ذكر يستطيع الوصول إليه.

وفجأة وجد نفسه يواجه سولو.

جذب الإمبراطور المسن نفسه، وفرد قامته، وهو يكشر عن أسنانه، وأخذت غدده تضخ المزيد من مسكه الفعال، وبدا منظره بشعره المنتصب، وخطمه المتحرك مرعبًا بما يكفي، لترويع أي ذكر آخر.

أي ذكر غير سولو!

لقد قضى سولو شتاءً مريحًا في ملجأ مع فريق من الإناث — ليس بعيدًا عن هنا — وفور أن عاد الضوء شارك في جولة البحث عن الطعام، بسرعة بلغ جسده أوج القوة والسلطة التي تمتع بها في العام الماضي.

لقد بدأ جولته، فقد تمكن اليوم من زرع ذريته في ست إناث في جميع أنحاء الغابة، وجاء الآن للحصول على المزيد، فور أن ينجح في القضاء على المناوئين له.

اندفع سولو إلى الإمبراطور، وهو ينطحه في بطنه بخطمه الذي يحمل ندبة.

سقط الإمبراطور منبطحًا على ظهره فوق الغصن، وكاد يسقط من فوق الشجرة، لولا أن يديه تشبثتا بلحائها، أصيب بصدمة مفاجئة نتيجة الاعتداء البدني المفاجئ باعتباره إهانة. ففيما عدا الصفعات واللطمات التي كان يتلقاها من الإناث اللائي يسعين لاحتكار الغذاء، واللكمات التي يتلقاها أحيانًا من الذكور الآخرين بدون قصد، لم يتعمد أحد قط أن يهينه في حياته.

لكن الأمر لم ينتهِ.

قفز سولو على الإمبراطور بحركة رشيقة قياسًا لمخلوق في حجمه. وجثم على صدر الذكر المسن، وهو يضغط على أضلاعه الهشة، فصرخ الإمبراطور، وظل يلهث، ويضرب ظهر سولو. إذا استخدم كل قوته، فربما تمكن من صد الآخر، ولكن إيذاء غيره كان ضد غرائزه، فكانت لكماته ضعيفة، وضرباته غير مجدية.

لقد فوت فرصته.

انحنى سولو إلى الأمام ودفع خطمه نحو ما بين ساقي الإمبراطور، وأزاح الفراء الذي كان متصلبًا من المني والسوائل المهبلية لعدة إناث، واندفع بحركة مدروسة، وعض كيس خصية الإمبراطور، فتمكن من تمزيق خصية واحدة.

أخذ الإمبراطور يعوي وهو يتقلب. وأخذ دمه يتدفق مختلطًا بسوائل التزاوج على فرائه.

وابتعد سولو بسهولة، وبحركة قوية واحدة من قدمه دفع الإمبراطور من على الغصن. فانهار جسد الذكر المسن ليهوي نحو الخضرة البادية أسفلهما، وارتطم بالأرض، ثم بصق سولو الخصية الدامية فسقطت على الخضرة التي تبدو تحت الأشجار.

تقدم سولو إلى رايت، شقيقة نوث، وهي واحدة من أصغر الإناث. وكان يلامس قضيبه الذي يزداد حجمه بسرعة بأصابعه، استعدادًا لمضاجعتها.

لكن نوث ظهر الآن، وقد بدا أصغر سنًّا، وقد تملكته الشهوة، وهبط عموديًا في الهواء إلى الأرض عند قدمي سولو. فاستدار سولو وكأنه برج دبابة ليواجه المنافس الجديد.

لم يكن نوث يعرف أن سولو هنا، لكنه كان يتذكره.

كان نوث مخلوقًا لا يدرك إلا الوقت الحاضر والمكان الحالي، لم يكن لديه تصورٌ حقيقيٌّ عن الأمس أو الغد، وكانت ذاكرته غير مرتبة ترتيبًا زمنيًّا؛ كانت أقرب إلى كونها ممرًا يحمل على جانبيه صورًا حية، بالصوت والصورة. ولكن رائحة سولو الكريهة القوية جعلته يستحضر سيلًا من الصور، أحداثًا ولمحات من ذلك اليوم البشع في مكان آخر من الغابة، وبالتحديد صراخ أمه اليائس وهي تسقط في هوة من الأسنان.

كانت هناك دوافع متناقضة تعتمل داخله، إذ ينبغي عليه أن يقوم بالاستعراض، ويقاتل ويطلق غدد الرائحة، وإلا كان عليه إظهار خضوعه لهذا المخلوق القوي، تمامًا كما استسلم له رايفل.

لكن سولو لم يكن من النمط المعتاد، فلم يكن يطيع أيًّا من القواعد غير المكتوبة التي تحكم مجتمع نوثركتوس الهش. فقد أقدم منذ قليل على تشويه الذكر الأهم في الجماعة. ولا شك أن سولو لن يكتفي بانتصار رمزي، إذ كان سولو ينوي إيذاءه، إن لم يكن قتله.

هنا كانت رايت، وهي قريبة نوث الوحيدة، ترتعد بين أوراق الأشجار عند أقدام سولو. وكانت هنا الإناث اللاتي نشأ معهن لمدة عام ونصف، واللاتي كانت تثيره أعضاؤهن التناسلية المنتفخة وتملأه بشهوة مسبقة لأيام وأسابيع، كما كان هنا هذا الوحش سولو الذي دمر كل شيء نشأ عليه.

وقف نوث منتصب القامة، وعوى.

فتردد سولو وقد بوغت.

كان معصما نوث وما بين فخذيه يفرزان المسك. وقام بأداء استعراض محموم استغرق ثانية واحدة، على سبيل إظهار قوته وشبابه، ثم بدون تفكير،

أو إدراك لما يفعله، خفض رأسه ونطح جذع سولو، وسقط سولو إلى الخلف وهو يشهق ويطلق نعيقًا، حتى سقط على ظهره على كتلة من أوراق الشجر.

ولو تابع نوث لاستطاع أن يستغل هجومه المباغت، لكنه لم يقاتل أبدًا في معركة بدنية طوال حياته. لكن سولو بغريزته، ولكونه محاربًا محترفًا ثنى ركبته، وضرب بعنف على هيكل نوث. انخفض وجه نوث أولًا، وغريزيًّا أخذ ينخر للاستمرار. اصطدمت كتلة كبيرة بظهره، سحقته في لحاء الشجرة. وشعر نوث بقواطع أسنان سولو تنغرس في لحم عنقه الرقيق، فصرخ من الألم الحاد. وأخذ يلتوى، ويتقلب. ولم يستطع التخلص من سولو، لكن قوة حركاته ألقت بهما من فوق الغصن الضيق.

ووجد نوث نفسه يهوي ويرتطم بطبقات من أوراق الأشجار والأغصان، وهو ينعق، بينما أسنان سولو تمزق لحمه.

ارتطما بالأرض، ولم يخفف غطاء الأوراق المتعفنة من سقطتهما، لكن سولو قام، وأطبق فكيه على نوث بعضة مزقت كتف نوث. قام سولو بعرضه العدائي، وزأر بصوت مزعج. ووقف منتصب القامة، ودق بقبضتيه الصغيرتين على الركام أسفل قدميه؛ فتطايرت قطع من أوراق الشجر في كل مكان، وتناثرت حوله في سحابة تكونت في ضوء الشمس.

كانت هذه معركة تدور بين مخلوقين صغيرين، لكن الحيوانات الأكبر حجمًا، كانت تراقب بخوف، وتراجعت بعيدًا عن ضراوة سولو.

كانت معركة من طرف واحد، وتقدم سولو من نوث، وهو يخطو بخطوات بطيئة من بين شظايا أوراق الأشجار. وأخذ نوث يراقبه وهو لا يقوى حتى على أداء حركات الاستعراض، وكأنه منومٌ. نظر برعب إلى كتفه، حيث كانت قطعة من جلده تتدلى وقد أغرقت الدماء فراءه.

ولكن ظهر الآن مخلوق قوي البنية وانقض على سولو. إنه الإمبراطور، ومع أن الدماء ظلت تتدفق من صفنه الممزق، قام ذلك الحيوان الضخم المنتمي للنوثركتوس بركل سولو بمقدمة قدمه في ظهره، فأسقطه أرضًا، منبطحًا على وجهه فوق الحطام.

هذه المرة لم يتردد نوث، فألقى بنفسه على سولو الممدد على الأرض وبدأ يضرب ظهره وأكتافه بقدميه ويديه وخطمه، وساعده الإمبراطور،

وكذلك الكثير من الذكور، إلى أن أصبح سولو تغطيه كتلة متراصة من المهاجمين يتدافعون وينعقون. كان يستطيع أن يهزمهم فرادى، ولكن ليس كلهم مجتمعين. كان من المستحيل أن ينهض تحت سيل اللكمات الطائشة التي كانت توجه إليه.

وأخيرًا، اختبأ مثل حيوان تينيودونت بين الركام الذي يكسو أرض الغابة، هاربًا من القطيع الصاخب. وحين لاحظ الجمع اختفاء سولو، وأن لكماتهم وركلاتهم كانت توجه إلى التراب أو لبعضهم البعض، كان سولو يبتعد وهو يعرج.

عاد نوث يتسلق الشجرة، وهو يشعر بآلام مبرحة، وحين وصل وجد مجموعة من الإناث ينظفن بعضهن بعضًا، ويلتقطن كتل المني الذي جف على شعرها القريب من أعلى فخذيها، وكأنه لم تكن هناك معركة. كان الإمبراطور يجلس في هدوء مع الأنثى بيجست، ولم تعد دماؤه تسيل، لكن حملته الرامية للمضاجعة قد توقفت إلى الأبد.

كان رايفل القوي هنا يضاجع رايت، ورأى نوث شقيقته وقد دست وجهها في فراء صدرها، وسمعها تطلق صرخات خفيضة تنم عن المتعة. شعر نوث بإحساس غريب من الارتياح. لم يشعر بالغيرة من الذكور الآخرين على شقيقته، ولا حتى من هذا الذكر الذي كان قد هزمه، والذي كان من الواضح أنه قد تعافى بسرعة شديدة. فقد أدرك جانب أعمق من بنية كيميائه الحيوية أنه في حالة حمل شقيقته، ستستمر السلالة، ذلك الخيط الجزيئي المتتابع اللامع الذي كان يمتد من برجا، مرورًا بهذه اللحظة التي تضيئها الشمس القطبية المنخفضة، إلى مستقبل لا يمكن تصوره.

سمع خوارًا بعيدًا، لقد كان نداء من أنثى الميريثيريوم، وهي الأم الرئيسية للقطيع المهاجر، كانت تسير ببطء من الجنوب، ومع عودة القطعان، حل الصيف مرة أخرى. سُمِع عويلٌ عالٍ من جميع أنحاء الغابة، كانت هذه هي أنشودة نوثركتوس، أنشودة الوحدة والحيرة.

في غضون أعوام قليلة ستنتهي حياة نوث، وسرعان ما ستختفي جماعته أيضًا، وستتحول هيئة أحفادها، بما أن الأرض قد أصبحت باردة

في منتصف ذروة الصيف، ،حتى الغابات القطبية سوف تنكمش وتموت، لكن حتى الآن ما زال قلبه يخفق ودماؤه تسري في عروقه، وفراؤه مغطى بأنواع من الأوراق.

كانت هذه هي لحظة نوث، يومه في الضوء.

اقتربت منه الأنثى كبيرة الحجم بيجست، فخاطبها بهمهمة رقيقة، فنظرت إلى عينيه، واستدارت للخلف أمامه، فأسرع نوث يضاجعها، وتلاشى عالمه في خضم متعة لا يعكر صفوها أي تفكير.

الفصل السادس

العبور

نهر الكونغو، غرب أفريقيا، اثنان وثلاثون مليون سنة قبل عصرنا الحالي.

١

هنا، كان النهر الهائل يندفع بتثاقل بين جدران من الأدغال الرطبة وارفة الظلال عند اقترابه من وجهته النهائية في المحيط. وكانت تتخلله الكثير من التمعجات والمنعطفات التي تشبه البحيرات، وكانت منفصلة عن النهر، وتحولت إلى برك ومستنقعات راكدة. وكان النهر يبدو وكأنه مرهق، فقد انتهت رحلته الطويلة، ولكن هذا النهر كان يتسبب في تجفيف وسط قارة ما.

وفي أواخر ذلك الصيف هطلت أمطار غزيرة. وكان منسوب النهر عاليًا، ويفيض على اليابسة حيث كان النطاق المائي قريبًا من السطح. وكانت المياه الموحلة الكثيفة تحتوي على قطع من الصخور المتآكلة والوحل وأجزاء من كائنات حية، بل كان يحتوي على أطواف من أغصان متشابكة وقطع من نباتات تطفو مثل مراكب شراعية جامحة على طول مجرى النهر الهائل، وهي بقايا ظلت تنتقل في مياهه لآلاف الكيلومترات من المكان الذي ألقيت منه.

وفوق المياه، في الجزء العلوي من الغابة الذي يعج بالأصوات المتنافرة، كانت حيوانات الأنثرو تزاول موكبها اليومي المدمر.

وكانت تشبه القردة، وكانت تركض على الأغصان، وهي تستخدم أذرعها القوية للتأرجح من شجرة لأخرى، ثم تبدأ في قطف الفواكه، وتمزيق خوص

النخيل، وتقشير قطع هائلة من لحاء الأشجار لتحصل على الحشرات. وكانت هناك جماعات من الإناث تسير وتعمل معًا، وتتوقف من حين لآخر لكي تنظف فراءها. وكانت هناك أمهات معهن صغار رضع يتشبثون بظهورهن وبطونهن، وكانت هناك مجموعات من الخالات يساعدنهن. أما الذكور، وهي أكبر حجمًا، وتتحرك في مساحات أوسع، فكانوا يبرمون تحالفات غير ملزمة، كانت تعقد وتفسخ باستمرار على سبيل التنافس على الطعام والمنزلة والحصول على الإناث.

وكان هناك ما يزيد عن ثلاثين من هذه الحيوانات تعمل هنا. وكانت من الحيوانات التي تجيد البحث عن الغذاء، كانت تلقي بالنفايات أينما حلت. وكان المكان يعج بصخب مبهج من الأصوات المتداخلة لتلك الحيوانات وهي تأكل وتتعاون وتتحدى بعضها بعضًا.

وكانت رومر تتأرجح وحدها من غصن سميك إلى الذي يليه. ومع أنها كانت فوق الأرض بمسافة كبيرة، فلم تكن تخشى السقوط؛ فقد كانت في مكانها الطبيعي هنا، وكان جسمها وعقلها متأقلمين للغاية مع ظروف الأدغال المتشابكة في هذه الغابة.

وكانت هناك مستنقعات من أشجار المنغروف الكثيفة إلى الغرب بالقرب من البحر. ولكن هنا، على اليابسة، كانت الغابة القديمة متنوعة، وتعج بالأشجار العالية ذات النهايات التي تتسع تتدريجيًّا للخارج: ومنها أشجار الببو والبلاذر الأمريكي والنخيل ذي السعف العريض. وكانت معظم الأشجار من أشجار الفاكهة وتزخر بالراتينج[١] والزيوت؛ كانت الغابة مكانًا مريحًا يطيب فيه العيش. ولكنها كانت من بقايا عالم في طريقه للزوال، إذ بدأت فترة من البرودة الشديدة تلف الأرض منذ عصر نوث، وتضاءلت الغابات التي كانت متنوعة وتفيض بالخير حتى أصبحت صغيرة للغاية.

وجدت رومر ثمرة جوز، فجلست على غصن لتتفحصها، وكانت هناك دودة سمينة وخضراء تزحف على سطحها، فلعقت الدودة من عليها ومضغتها ببطء.

---

[١] مادة صمغية تسيل من معظم الأشجار عند قطعها أو جرحها.

وكانت الجماعة تسير بجلبة بين الأدغال المتشابكة من حولها. وكانت رومر تدرك بالضبط أين تجد الآخرين، سواء كانت وحيدة أم لا. فعلى مدى السنوات الطويلة منذ عصر نوث، كانت الرئيسيات قد أصبحت حيوانات اجتماعية أكثر من ذي قبل، فبدأ اهتمام حيوانات الأنثرو بغيرهم من حيوانات الأنثرو الآخرين يفوق اهتمامهم بالأشياء التي تندرج تحت فئة الجماد فقط، التي كانت تستحوذ على كل اهتمامهم. وكانت رومر تعرف بقية الجماعة التي تنتمي إليها وكأنهم مجموعة من المصابيح الصينية الورقية مثبتة في أوراق الشجر، وكان بقية العالم يتضاءل في نظرها حتى لا يعدو أن يكون كتلة رمادية صماء.

كانت رومر تنتمي إلى نوع لن يُقدر للبشر تصنيفه قط، إذ كانت تبدو أشبه بالقرد المقلنس، وهو القرد الذي سيطوف يومًا ما بغابات أمريكا الجنوبية، وكان في حجمها تقريبًا. كانت تزن كيلوجرامين، وكانت مكسوة بفراء أسود كثيف يعلوه كتفان وعنق ووجه باللون الأبيض؛ فكانت تبدو وكأنها ترتدي زي راهبة. وكانت تتميز برشاقة ذراعيها وساقيها وتناسقهما، وكانت تفوق نوث من هذه الناحية بكثير؛ فبنية جسدها تناسب سكنى أدغال الغابات المفتوحة. وكانت تتسم بأنف مسطح وفتحتي أنف صغيرتين وناتئتين على جنب، مما جعلها أشبه بالقردة في أمريكا الجنوبية في عصور لاحقة منها إلى القردة الأفريقية.

كانت تشبه القرد، ولكنها لم تكن قردًا. وكان النوع الذي تنتمي إليه رومر ينحدر من أصول بعيدة تعود لفصيلة الأدابيد التي كان ينتمي إليها نوث، وكان ذلك النوع من بين أصناف الرئيسيات يسمى أنثروبويد، وهو من أسلاف القردة والقردة عديمة الذيل مثل الشمبانزي والغوريلا، إذ إن ذلك الانقسام الكبير الذي شهدته فصيلة الرئيسيات لم يكن قد حدث حينئذٍ.

فبعد مرور نحو عشرين مليون سنة بعد موت نوث، اختفت المخالب المستخدمة لتنظيف الفراء التي كان تتسم بها أقدام النوثركتوس لتحل محلها أظافر عند رومر. وكانت عيناها أصغر من عيني نوث، وكانت تتسم بالقدرة على الرؤية الواسعة ثلاثية الأبعاد التي تتعدى خطمها القصير، وكانت كل عين تستند إلى عظمتين صلبتين على هيئة كأس، أما عيني نوث

فكانت تحميهما حلقة من العظام، وكانت عضلات الخد تعوق مجال رؤيته عند المضغ. وكانت رومر قد فقدت الكثير من السمات الوراثية التي تعود لعصر البحث عن الطعام ليلًا. وتضاءل اعتمادها على حاسة الشم، وحل محلها اعتماد أكبر على حاسة البصر.

وقد جاء من نسل اليمني مجموعة كبيرة متنوعة من الكائنات، هاجرت من العالم القديم لتستوطن الغابات الاستوائية الكثيفة في آسيا، وهنا في أفريقيا. وعند هجرتها ازدهرت وتنوعت وتغيرت. ولكن سلسلة نسب حيوانات الأنثروبويد التي عاشت في العالم القديم لن تستمر من خلال رومر، ولم تعلم رومر أنها لن ترى أمها مرة أخرى، وأن مصيرها سيكون أغرب بكثير من أي شيء حل بأسلافها الأقربين.

كان بياض فراء رومر يجعل وجهها يبدو هزيلًا وغير مكتمل النمو وحزينًا، ولكنها كانت تتسم بجمال الصبا، فقد كانت تبلغ الثالثة من عمرها، وكان لا يزال أمامها سنة حتى تصل لسن البلوغ. كانت أنثى يافعة، تتميز بروح الاستقلالية، ولم تنضم بعد إلى التحالفات والتنظيمات الهرمية التي دأبت الجماعة على اتباعها، فكانت تحتفظ بشيء من الميل للانعزالية التي كانت تميز أسلافها في عصور بعيدة. وكانت تميل للعزلة وعدم الاختلاط، فضلًا عن أن الجماعة لم تكن مجموعة متآلفة في الوقت الحالي.

وكانت الفترة الأخيرة، التي امتدت لبضع سنوات، تتسم بكونها عصر الوفرة، وكانت أعداد الجماعة تزداد، إذ شهدت تلك الفترة زيادة في عدد المواليد، وكانت رومر من بين هذا الجيل. ولكن المشاكل صاحبت النضج، إذ كانت هناك منافسة شديدة على الطعام، من ناحية. وكان كل يوم يشهد مشاحنات ومشاجرات.

ومن ناحية أخرى، كانت هناك مشكلة تنظيف الفراء، ففي جماعة صغيرة، كان هناك متسع من الوقت ليتمكن الجميع من تنظيف فرائهم. وكان كل ذلك يساعد على المحافظة على العلاقات وتوطيد التحالفات. أما عندما يزداد حجم مجموعة أكثر من اللازم، فلم يكن هناك متسع من الوقت للقيام بذلك. ومن ثم، كانت تنشأ جماعات أصغر، وكان أفرادها ينظف بعضهم فراء بعض دون غيرهم، ويتجاهلون الآخرين. وكانت بعض هذه

الجماعات الفرعية تنتقل بمعزل عن الآخرين نهارًا، مع أنهم كانوا يتجمعون عند النوم.

وفي نهاية المطاف، كانت الانفعالات تبدأ في السيطرة على الموقف، فكانت الجماعات الفرعية المخصصة لتنظيف الفراء تنشطر، وكانت المجموعة تنقسم. ولكن كان من الضروري أن تكون الجماعات الجديدة الأصغر كبيرة بما يكفي لتوفير الحماية من الضواري — وهو الغرض الأساسي من تكوين هذه الجماعات التي تنشط نهارًا في المقام الأول — ومن ثم فإن الأمر كان يستغرق وقتًا طويلًا، وربما سنوات، قبل أن يستقر أي انقسام ويصبح مستمرًّا. وكان ذلك يحدث دائمًا، وهو من العواقب الحتمية لتزايد حجم مجتمعات الرئيسيات. ولكن ذلك كان يترتب عليه حدوث الكثير من المشاجرات.

كانت رومر سعيدة بأن تبتعد عن هذا التشاجر لفترة.

بعد أن انتهت من مضغ الدودة، بدأت في فحص ثمرة الجوز، كانت تعلم أن لُبها لذيذ الطعم، إلا أن يديها وأسنانها كانت أضعف من أن تكسر القشرة الخارجية؛ لذلك بدأت تضربه بغصن الشجرة.

وهنا لاحظت عينين لامعتين ترقبان، وجسدًا نحيلًا صدئ اللون يتعلق بأحد أفرع الشجرة. ولكنها لم تصب بالذعر، فلم يكن ذلك سوى «كراودر»، وهو نوع من الثدييات قريب من رومر إلا أنه أصغر حجمًا وأقل ذكاءً، وعلى مدى البصر لمحت كائنات أخرى كثيرة من النوع نفسه، متعلقة بغصون الأشجار في كل مكان داخل عالم الغابة، الذي يُضيئه لون أخضر. لم يكن الكراودر يريد منافسة رومر على ثمرة البندق، كل ما كان يريده هذا الصغير، هو بقايا ما تتركه رومر.

كانت رومر تقتات غالبًا على الفاكهة، أما حيوانات الكراودر فقد كانت مثل أسلافها من آكلات الديدان أو اليرقات، التي تنتزعها من فروع الأشجار، وكانت أسنانها حادة وضيقة لتقطيع فريستها من الحشرات. وكانت تعيش في مجموعات في مستعمرات يبلغ تعدادها خمسين أو أكثر، وهو ما كان يحميهم من الضواري والرئيسيات الأخرى، إذ كان سيكون من الصعب على

جماعة من الأنثرو، مثلًا، أن تصد أحد تلك التجمعات من الحيوانات التي تتسم بسرعة الحركة والتنظيم الجيد.

إلا أن رومر كانت أذكى بكثير من أي كراودر.

سوف تمر عشرات الملايين من السنوات قبل أن تتمكن الرئيسيات من استخدام ما يمكن أن يكون أدوات حقيقية، إلا أن ذكاء رومر كان من نوع خاص يهيئها للتكيف مع التعقيدات المتغيرة في حياتها الاجتماعية، وفهم البيئة الطبيعية التي تحيط بها واستغلالها فيما تريد. ومع أن كسر ثمرة الجوز بدقها بجذع شجرة لا يعد أمرًا بالغ الصعوبة، فإنه كان يتطلب منها أن تفكر في ذلك مسبقًا بخطوة أو خطوتين، وهو ما كان يبشر بظهور قدرة أكبر على الابتكار في العصور التالية. وأما كسر ثمرة الجوز فقد كان يمثل قفزة في الإدراك تتخطى قدرة أي كراودر، وكان هذا سببًا لوجود حيوانات الكراودر حولها الآن.

وهنا تناهى إلى سمع رومر حفيف أشجار في مكان بعيد تحتها، فالتصقت بغصن الشجرة وهي تختلس النظر إلى الظلمة المحفوفة بالخضرة.

رأت أرض الغابة المكسوة بالأوراق والأغصان الميتة، ثم لمحت شبحًا تحفه الظلال؛ يتحرك بين الأشجار تصحبه خشخشة ريش، ونقرات على الأرض، كان واحدًا من الطيور التي لا تستطيع الطيران، أشبه بالنعامة، وحين رجعت بعدها إلى الطريق الذي سلكه الطائر ليصل إلى منتصف الأرض الخالية من الأشجار، اكتشفت أشياء مدورة مصقولة تلمع.

لقد وجدت بيضًا. كان عش الطائر المبني بطريقة بدائية يضم عشر بيضات. وكان كل منها مخزنًا لُح البيض في حجم رأس رومر. وفي سكون الظهيرة، تركت الأم العش للحظات دون حماية، في غياب رفيقها، وجازفت بأنه لن يقع له مكروه، بينما هي تسعى لسد رمقها. ولكن سوء الحظ كان يحالفها؛ إذ تمكنت عين رومر الثاقبة من لمح العش بهذه السرعة.

ترددت رومر لحظة، فلو اتجهت نحو البيض فسوف تخاطر بابتعادها عن مجموعتها التي قد ابتعدت فعلًا، وربما تفقد طريقها في الغابة، كما أن الطائر نفسه، كان يمثل خطرًا عليها. كان من الطيور المتوحشة التي تتربص بفرائسها، كما كانت من آخر الطيور التي تنتمي لفصيلة امتدت

على مدى عشرين مليون سنة، فبعد سقوط المذنب بقيت الثدييات الأرضية صغيرة الحجم، تزحم الغابات الكثيفة، إلا أن بعض الطيور كبر حجمها، وبعض منها — مثل هذا الوحش الذي لا يطير — تصدرت قائمة الكائنات المفترسة، إذ تخلصت من شروط الوزن اللازمة للطيران، فتضخم حجمها، واشتدت عضلاتها، وزادت قوتها إلى حد رهيب. وأصبحت مناقيرها قادرة على تحطيم العمود الفقري للمخلوقات، إلا أنها بعد ذلك لم تستطع مواكبة غيرها، حين ازدادت أحجام الثدييات من آكلة النباتات وكذلك الثدييات آكلة اللحوم، ومن ثم لم تستطع الطيور أن تنافس الاثنتين.

كان البيض هناك أمام رومر، وكان من السهل عليها أن تأخذه.

ولو كانت أكبر عمرًا، أو أكثر اندماجًا في مجموعتها، لكان قرارها قد اختلف، ولكنها نزلت من على غصن الشجرة الخشن إلى الأرض، ولعابها يسيل. وكانت لحظة قرارها هذا هي التي غيرت مجرى حياتها تمامًا، وأيضًا غيرت مجرى حياة فصيلة الرئيسيات في المستقبل.

كانت قد ألقت بقية لب ثمرة الجوز جانبًا. وخلفها كان الكراودر، قد فاض صبره، فانقض على بقايا الثمرة الحلوة. ولكن في لحظات جاء أقرانه وتجمعوا على الغصن للاستيلاء على الجائزة.

أزعج نزول رومر من على الشجرة جماعة من حيوانات سكريتشر، كانت هذه الرئيسيات صغيرة الحجم للغاية، وكانت لها أعراف من الشعر الحريري الناعم، وشوارب بيضاء كثيفة غريبة، وفاجأها مرور رومر أمامها، فأطلقت صيحات حادة وأسرعت لتختبئ في أماكن عميقة بين أوراق الشجر، وكانت تشبه الطيور من حيث سرعة حركتها والألوان الزاهية لريشها الذي يشبه الفراء.

كانت حيوانات سكريتشر تكسب رزقها عن طريق الحفر بأسنانها السفلية في لحاء الأشجار حتى تسيل منه المادة الصمغية، وعند الانتهاء من الأكل من حفرة معينة، كانت تتبول في الحفرة لمنع الآخرين من الأكل منها، وكانت هذه المخلوقات الصغيرة تضم الكثير من الأنواع، وكان كل نوع يتخصص في التغذية على المادة الصمغية المستخرجة من شجرة

معينة، وكان يمكن تفرقة نوع عن الآخر بتنوع شكل الشعر. وكانت تلك الحيوانات بفرائها الزاهي وصيحاتها الحادة العالية تضفي مزيجًا من الحيوية والصخب والتنوع اللوني على المنطقة العليا من الغابة بأغصانها المتشابكة.

وكان يعيش على الأرض أحد أشكال الرئيسيات الأخرى، وهو حيوان بوت بيلي، كان ذكرًا، يديل للعزلة، ويزيد حجمه عن حجم رومر بأربعة أضعاف، وكان جسده الضخم مغطى بفراء أسود كثيف، وكان يجلس القرفصاء، وهو ينتزع أوراق إحدى الشجيرات أمامه ويدسها في فمه، ويلوكها بين فكيه الضخمين. كان السواد يلوث خطمه: فقد كان يمضغ قطعة من الفحم النباتي الذي استخلصه من جذع أصابته صاعقة البرق، وهو يعتبر غذاء تكميليًّا يحايد التوكسين الذي تحتوي عليه أوراق الشجر التي يتغذى عليها.

حين نزلت رومر أمامه على أرض الغابة، حدق فيها بشدة، وقد تدلي لسانه في شراسة، وزأر، وتلفتت رومر حولها في خوف من أن يصل صوته إلى أسماع الطائر الأم التي تركت بيضها.

لم تشعر رومر بأي تهديد لها من قبل هذا الحيوان؛ إذ كان له بطن ضخمة بها أمعاء غليظة كبيرة يتخمر فيها غذاؤه غير المغذي جزئيًا، وكان يضطر أن يقبع بلا حراك لثلاثة أرباع وقته، حتى يعمل ذلك المصنع العضوي الهائل على الوجه الأكمل. ولأن رومر كانت قريبة منه فقد تناهت إلى سمعها أصوات القرقرة التي تنبعث من داخل بطنه الضخمة. ومع ذلك، كان نظيفًا للغاية، وكان مضطرًا للحرص على النظافة، نظرًا لنمط معيشته، مثل الجرذان البنية. وحين ابتعدت عن بقعته المفضلة في أرض الغابة، انزوى البوت بيلي في صمت.

كانت الأرض الخالية من الأشجار في الغابة تزدحم بالنباتات. وكان من النادر وجود أراض مكسوة بالعشب، وبدلًا منه، كانت الغابة تزخر بالنباتات الصغيرة التي لا يقل طولها عن متر إلا فيما ندر، وكانت تضم شجيرات وجنبات خفيضة مثل الصبر والصبار وبعض النباتات الأخرى كثيرة العصارة، أما أكثر النباتات جاذبية فقد كانت مجموعة نباتات تشبه

نبات الشوك بأزهارها ذات الألوان الزاهية. وكانت هذه المناظر الرائعة تزين معظم المساحات الواسعة على كوكب الأرض في ذلك العصر، ولكنها لن تصبح مألوفة في عصر البشر؛ وكانت أشبه بالحياة النباتية المعروفة باسم فينبوس Fynbos في جنوب أفريقيا.

اضطرت رومر أن تبتعد عن مخبئها بين الأشجار لتصل إلى عش الطائر. إلا أن السماء المفتوحة ذلك اليوم كانت متوهجة بلون أبيض شاحب، وكان الجو معبقًا برائحة كهرباء. أدركت رومر أنها ستصبح مكشوفة هناك، فترددت وتوجست خيفة.

وأخيرًا تقدمت ببطء نحو أطراف الغابة، وهي تحاول أن تقترب من البيض.

ثم دارت حول منطقة مستنقعات، كانت جزءًا من السهل الناشئ عن فيضان النهر الكبير، ورأت المياه، وكانت تتلألأ تحت أشعة الشمس الحارقة، وهي راكدة تمامًا، وقد سدتها نباتات طافية، إلا أن الجو كان معبقًا برائحة الملح، فهنا، وعند منطقة غير بعيدة عن دلتا النهر، أصبحت قريبة من المحيط، وكان تكرر مرات فيضان النهر والتيارات العالية قد جعل التربة مشبعة بالملح، مما أدى إلى ندرة النباتات.

وأخذت الحيوانات تنتقل في الأرض الخالية من الأشجار بحثًا عن المياه، وحول مجموعة من الشجيرات الخفيضة، أخذت مجموعة من حيوانات الأستينومايلوس الشبيهة بالغزلان تأكل، وتتحرك في جماعة متراصة وتتلفت حولها بقلق وهي تلوك الغذاء، وكان يتتبعها قطيع أصغر من حيوانات الكاينوثير وهي حيوانات تشبه الظباء الصغيرة، طويلة الأذنين. وكانت هناك حيوانات أخرى تشبه الغزلان تتجول في الغابة نفسها بحثًا عن العشب، إلا أن الأستينومايلوس لم تكن من الغزلان، بل كانت أقرب إلى الجمل، شأنها شأن الكاينوثير برءوسها التي تشبه رءوس الأرانب.

وتجمعت بالقرب من الشاطئ عائلة من آكلات العشب الضخمة التي تشبه الكركدن. لم تكن من نوع الكركدن بمعنى الكلمة، وقد كان تقوس شفاهها العليا يدل على أصلها، ففي واقع الأمر كانت من حيوانات الأرسينوثير، وهي مخلوقات تتصل بصلة قرابة بالفيلة. أما في المياه، فكان هناك اثنان

من حيوانات الميتامينودون يتمرغان، وهي حيوانات قريبة الشبه بالكركدن، بينما كانت بعض الطيور المخوضة تخطو بحذر بعيدًا عن تلك الحيوانات ثقيلة الحركة. وكانت حيوانات الميتامينودون هي الأقرب صلةً بالكركدن أكثر من حيوانات الأرسينوثير.

وفي المكان الذي كانت تجتمع فيه آكلات العشب كانت الضواري والحيوانات التي تقتات على الجيف، تأتي للمراقبة، وهي تتطلع بعيونها الماكرة، كدأبها دائمًا. كانت الحيوانات الغريبة شبيهة الكركدن وتلك التي تجمع بين سمات الغزال والجمل تتبعها قطعان حذرة من الكلاب الشبيهة بالدببة، وهي ضوارٍ برمائية، وتقتات بالجيف تمشي مثل الدببة وأقدامها مسطحة على الأرض.

واستمر الأمر على هذا المنوال. ولمراقب من بني البشر كان ذلك سيبدو مثل حلم سيئ — دب على شكل كلب، جمل على شكل ظبي — وأشكال تبدو عادية إذا نظر إليها بعين نصف مغمضة، ومع ذلك فقد كانت مختلفة تمامًا في تفاصيلها. كان على فصيلة الثدييات البحث عن الأدوار التي كان عليها أن تشغلها مستقبلًا.

ولكن هذا العصر كان له أبطاله، فعند أطراف الغابة، رأت رومر ظلًّا يتحرك من خلال الأشجار، وكان ضخمًا وثقيل الحركة ويبدو خطيرًا. وكان ذلك هو الماغيستاثيريوم، وكان يمشي على أربع مثل الدب، ولكنه كان ضخمًا، يصل حجمه لضعف حجم دب من دببة كودياك، ويصل سمك أنيابه إلى خمسة سنتيمترات عند جذورها، وحجمها يصل لضعف حجم أسنان ديناصور التيرانوصور. ومثل ديناصورات التيرانوصور كان من الحيوانات المعتادة على الصيد بأسلوب الكمون للفريسة. وكان يسيطر في الوقت الحالي على هذه الغابات الأفريقية، وسيثبت أنه أكبر الثدييات من آكلات اللحوم على وجه الأرض. ولكن أسنانه الحادة، التي كانت من الأدوات الضرورية لأي حيوان يأكل اللحوم، كانت من جزأين، وهو ما يختلف عن أسنان آكلات اللحوم التي ستظهر في المستقبل، ولذلك كانت عرضة للتلف. وسيتسبب ذلك العيب الطفيف في النهاية في انقراض الماغيستاثيريوم.

وفي غضون ذلك برز ظهر أنثى تمساح رقطاء كانت تسبح في مياه أكبر البحيرات. وكانت لا تعبأ بأي من هذه المخلوقات الغريبة. فما دمت غبيًا بما يكفي للاقتراب من منطقة نفوذ التمساح، ومادام لديك لحم يشبع هذه المعدة وعظام يمكن أن يطحنها ذلك الفم، لا يهم شكلك أيًّا كان؛ فلن يختلف مصيرك.

وأخيرًا، اقتربت رومر من العش، واندفعت من المكان الذي تحتمي به، فجذبت أنظار الحيوانات من آكلة النباتات التي تنقب في التربة بأنوفها، ووصلت للبيض.

كان العش شبه مغطى بسعف شجيرات سرخس ذابلة، ومن ثم فقد كان لديها ملتجأ تعمل منه، والتقطت البيضة الأولى ولعابها يسيل من فمها، وهي مرتبكة. وتحسست سطح البيضة الأملس بيديها، ولم تجد شيئًا تمزقه أو تقطعه. وعندما ضغطت البيضة بصدرها لم تفلح أيضًا؛ فالقشرة السميكة كانت صلبة للغاية. ولم يكن هناك أغدسان بالقرب منها يمكنها تهشيم البيض بها. فحاولت أن تحشر البيضة بأكملها في فمها لتستخدم أسنانها الخلفية في كسرها، ولكن لم تتمكن من إدخالها إلى فمها لكبر حجم البيضة مقارنةً بحجم فمها الصغير.

وكانت المشكلة أن أمها هي التي كانت دائمًا تكسر البيض لها. ولم تكن تدري كيف تقوم بذلك بنفسها بدون أمها.

كان يبدو أن الضوء في السماء يزداد سطوعًا، واشتدت الرياح فجأة، فتغضن سطح البرك وتناثرت السعف البنية على الأرض. وأحست بإحساس متزايد من الذعر؛ فقد كانت بعيدة لغاية عن جماعتها. فألقت بالبيضة وأعادتها إلى العش ثم مدت يدها لتأخذ واحدة أخرى.

ولكن فجأة، وصلت رائحة المح اللذيذ إلى أنفها، إذ أن البيضة التي ألقتها انكسرت بعد أن ارتطمت بالبيض الآخر الموجود في العش. فحشرت يديها في الشق المكسور ودفعت وجهها إلى داخل المادة الدبقة الصفراء الحلوة، وأخذت تقرمش عظام الجنين غير المكتملة. ولكن حين أخذت بيضة أخرى، لم تستطع تذكر كيف فتحت البيضة الأولى، فأمسكت بالبيضة بأصابعها وحاولت عضها، وأخذت تعيد عملية التجربة والخطأ من جديد.

كانت أمها تستخدم طريقة إلقاء البيض فوق بعضه لفتح البيض أمامها، ولكن حتى إذا لم تكن أمها هنا لتريها الطريقة، لم تكن رومر ستتعلم الطريقة، إذ إنها لم تكن قادرة على استشفاف نوايا الآخر، ومن ثم فلم تستطع التقليد. كان علم النفس من المسائل التي تتعدى قدرات حيوانات الأنثرو، وكان على كل جيل أن يتعرف على كل شيء من الصفر من خلال مواد خام أساسية ومواقف معينة، إذ كان ذلك يعوض بطء التعلم. ومع ذلك فسرعان ما تمكنت رومر من كسر بيضة أخرى.

وكان كل اهتمامها منصبًّا على الطعام حتى إنها لم تنتبه للعيون الشرهة التي كانت ترقبها.

وقبل أن تتمكن من كسر بيضة ثالثة بدأت السماء تمطر. وأخذت الأمطار تنهمر بغزارة من السماء الصافية المشرقة، بدون سابق إنذار.

وهبت رياح عاتية على المستنقعات، فطارت الطيور واتجهت غربًا باتجاه المحيط، بعيدًا عن العاصفة التي كانت تقترب. والتفتت الحيوانات الكبيرة من آكلات النباتات إلى المطر، في تعاسة مستسلمة. أما أنثى التمساح فقد غاصت ببطء تحت سطح البركة، لانتظار انتهاء العاصفة في أعماق إمبراطوريتها المظلمة التي لا يعتريها التغيير.

انكمشت رومر في حطام العش، وقد التصق فراؤها بجسدها. وكانت قطرات الأمطار تدك الأرض من حولها، وتضرب النباتات وتحفر حفرًا صغيرة في الطين. ولم تشهد مثيلًا لذلك من قبل، فلطالما نجت من عواصف وهي محتمية بالأشجار، التي كانت أوراقها تخفف من أثر المياه المنهمرة. ولكنها الآن شريدة في العراء، وأدركت فجأة إلى أي مدى ابتعدت عن جماعتها. فإذا عثر عليها حيوان مفترس في هذه اللحظات، ربما كانت ستموت.

ولكن، مع ذلك فقد عثر عليها أحد بني جلدتها، وهو أحد حيوانات الأنثرو، وكان ذكرًا كبيرًا، وجلس على الأرض المبتلة أمامها ساكنًا، وهو يرقبها.

واقتربت منه بحذر وهي تئن. ربما كان من الذكور الذين يهيمنون على جماعتها — وهي المجموعة التي كانت تعتبرها بمنزلة أهلها — ولكنها لاحظت أنه ليس كذلك. فقد كان وجهه يبدو غريبًا، بفرائه الأبيض الذي

بللته الأمطار، فأضفى عليه نمط ألوان فرائه ما يشبه الشرائط الطولية البيضاء فوق بطنه المكسوة بفراء أسود، فبدت أشبه بالدماء

وكان حجم هذا الذكر — واسمه وايت بلاد — ضعف حجمها، وكان من الغرباء عن جماعتها. وكان الغرباء دائمًا مصدر خطر، فأطلقت صرخات حادة وتراجعت للوراء في اضطراب.

ولكنها تأخرت، فقد مد يده اليمنى وأمسكها من قفاها، فتلوت بعنف وقاومت، ولكنه حملها بسهولة، وكأنها ثمرة فاكهة.

وبعد ذلك جرها بسرعة وعاد بها إلى الغابة.

كان وايت بلاد قد لمح رومر — وكانت أنثى يافعة تتجول وحيدة، وهي فرصة فريدة. كان يطاردها خلسة بحرص، فمع أنه كان من آكلات الفاكهة، فقد كان يتحرك مثل صياد خبير. والآن أعطاه ستار العاصفة الفرصة التي كان يريدها لاختطافها. كان وايت بلاد يعاني مشكلات تخصه، وخطر له أن رومر قد تحل بعض مشكلاته تلك.

وكانت إناث حيوانات الأنثرو تعيش في جماعات متكاتفة. ولكن في هذه الغابة الاستوائية التي لا تمر عليها المواسم، والتي تتميز بوفرة دائمة، لم يكن هناك ضرورة لتزامن دورات التكاثر. فالحياة كانت أسهل بكثير، إذ كانت تدخل الإناث في الدورة النزوية في أوقات مختلفة.

ولذلك، كان من الأسهل على جماعة صغيرة من الذكور — وأحيانًا ذكر واحد — احتكار جماعة من الإناث. وعلى عكس الإمبراطور الذي كان ينتمي لنوثركتوس، لم يكن يضطر ذكر الأنثرو لمحاولة مضاجعة جميع إناثه في يوم واحد، أو الاضطلاع بمهمة مستحيلة من قبيل إبعاد الذكور الآخرين عن الإناث. فبدلًا من ذلك كان يكفي إبعاد المنافسين عن عدد ضئيل من الإناث الخصبة في أي وقت.

ومع أن ذكور الأنثرو كانوا أكبر حجمًا من الإناث، فلم يسعوا للهيمنة عليهن أو امتلاكهن. ولكن كانوا يسعون لحماية جماعة الإناث من الدخلاء والحيوانات المفترسة، إذ كان يربطهم بمجموعة الإناث وفاء نابع من النسب المشترك، ففي الجماعات التي يتزاوج أفرادها مع عدة شركاء، كانت ترتفع

فرصة أن يكون أي طفل يولد في الجماعة من نسلك. وكانت الإناث راضيات بجماعات الذكور المرافقة التي كانت تحيط بهن، فأحيانًا كان الذكور نافعين، ونادرًا ما كانوا يزعجونهن.

ولكن في الآونة الأخيرة اختلت موازين الأمور، في الجماعة التي ينتمي إليها وايت بلاد.

لقد دخلت عشرة إناث من الإناث البالغ عددهن ثلاثًا وعشرين أنثى في الجماعة فترة الدورة النزوية في الوقت نفسه. وسرعان ما انجذب الذكور الآخرين إليهن، وقد جذبتهن رائحة الدماء والفيرمونات. وفجأة لم يعد يكفيهم عدد الإناث الموجودات. وأصبح الموقف حرجًا، ويسيطر عليه التنافس، ونشبت معارك طاحنة بسببه، ولاح خطر انقسام الجماعة بأسرها.

ونتيجة لذلك، فقد خرج وايت بلاد لاصطياد الإناث، وكانت الإناث اليافعات هدفه المفضل؛ إذ كن صغيرات السن وصغيرات الحجم بما يكفي حتى يمكن التحكم فيهن بسهولة، وحمقاوات بما يكفي لكي يسهل انفصالهن عن جماعاتهن الأصلية. وبالطبع كان يترتب على ذلك الانتظار لسنة أو أكثر قبل أن يصبح بإمكان طفلة مثل رومر التزاوج. ولكن وايت بلاد كان مستعدًّا للانتظار؛ فقد كان تفكيره معقدًا بما يكفي كي يتصرف الآن بناءً على توقع الحصول على مكافأة لاحقًا.

وكان الموقف يبدو منطقيًّا للغاية لوايت بلاد، ولكن الأمر كان كابوسًا لرومر.

وفجأة، بدأ يتأرجح ويركض بسرعة شديدة. وكان وايت بلاد يمسك بها من قفاها، دون أن يجد صعوبة في جرها. ولم تتحرك رومر قط طوال تلك القفزات الهائلة؛ فأمها والإناث الأخريات — نظرًا لميلهن لقلة الحركة مقارنة بالذكور — كن يتحركن بحذر أكبر بكثير يختلف تمامًا عن حركاته السريعة هذه. وكانت تشم رائحة مياه موحلة، فقد كانا يقتربان من ضفة النهر نفسه.

وفي غضون ذلك، كانت الأمطار تنهمر بغزارة شديدة، وتضرب أوراق الشجر بعنف حتى تحول الهواء إلى ضباب رمادي عكر. وكان فراؤها مبتلًا وكانت المياه تدخل عينيها، حتى تعذرت الرؤية. وإلى أسفل من مكانهما

كانت المياه تتدفق على الأرض المبتلة، وكانت جداول من المياه تتجمع وتتحول إلى غدران تجرف الطين البني المائل للحمرة إلى النهر الذي أصبح يفيض بمياهه المتدفقة بسرعة هائلة. وبدا الأمر وكأن الغابة والنهر يلتحمان تحت وطأة قوة العاصفة.

واشتد ذعرها، فحاولت التملص من قبضة وايت بلاد، وعندئذ تلقت صفعات قوية على مؤخرة رأسها، جعلتها تصرخ.

وفي آخر الأمر وصلا إلى موطن وايت بلاد. وكان معظم أفراد الجماعة، من ذكور وإناث وصغار رضع، متجمعين على شجرة واحدة، شجرة مانجو كبيرة منخفضة الارتفاع. وكانوا يجلسون في صفوف على الأغصان، وهم محتشدون معًا وقد بللتهم الأمطار. ولكن حين رأى الذكور ما عاد به وايت بلاد، بدءوا ينعبون ويضربون الأغصان.

وألقى وايت بلاد برومر بسرعة عند مجموعة من الإناث، وبدأت أحداهن تضرب وجه رومر وبطنها وأعضاءها التناسلية بشدة، فضربت رومر يد الأخرى لتبعدها عنها، وهي تنعب في احتجاج. ولكن الأنثى الأخرى ظلت تضربها، واحتشدت المزيد من الإناث حولها، وهن يحاولن الاقتراب من الوافدة الجديدة. وكان فضولهن مزيجًا يجمع بين الانبهار المعتاد الذي يميز حيوانات الأنثرو بأي وافد جديد على الجماعة، وبين نوع من التنافس على هذه الأنثى التي ستصبح من المنافسات، والتي من الممكن أن تكون من العناصر الجديدة التي تنضم لصفوف التدرجات الهرمية التي لا تكف عن التغير.

كان الأمر برمته محيرًا لرومر: وميض البرق في السماء البنفسجية والأمطار التي تهطل بغزارة فوق وجهها، وهدير المياه، ومنظر الفراء المبلل، والرائحة غير المألوفة للإناث وصغارهن من حولها، وأصابها الارتباك وهي ترى تلك الأفواه الوردية الفاغرة والأصابع الباحثة تحيط بها. وحاولت الهرب، اندفعت بقوة للأمام، فوجدت نفسها تتأرجح من فوق غصن شجرة.

ثم تطلعت إلى أسفل، فرأت حيوانات غريبة.

كان هناك اثنان من حيوانات الإندريكوثير تتربص أسفل الشجرة، وكانت هذه الحيوانات الضخمة أحد أنواع الكركدن عديم القرون، وكانت

لها أرجل طويلة وأعناق لينة وجلد كجلد الفيلة، فبدت أشبه بزرافات ممتلئة القوام. كانت هذه الحيوانات رشيقة، رغم بطء حركتها، حتى وإن كان كل منها يزن ثلاثة أضعاف وزن فيل أفريقي، ونظرًا لضخامتها كانت لا تشعر بالتهديد من أي شيء. وفي هذه اللحظة كان الاثنان يمدان عنقهما ووجهيهما اللذين يشبهان وجه الحصان لالتهام أوراق الشجر المبتلة.

لكن كان الاثنان معرضين للخطر، فقد تدفقت المياه المحملة بالوحل على الأرض، وغمرت أرجل الإندريكوثير، كما لو كانت الشجرة وحيوانات الإندريكوثير تقف على حد سواء وسط النهر نفسه.

وفي النهاية انفصلت طبقة سميكة من التربة الموحلة عن ضفة النهر، بجانب الجذور الضحلة للشجرة، وانزلقت إلى النهر سريعًا. فأصدر أحد الإندريكوثير خوارًا، وأقدامه الضخمة المسطحة التي تشبه أقدام الفيل تخمش الأرض التي تحولت فجأة إلى أرض منحدرة زلقة، ثم سقط، فتهاوى جسده الذي يزن خمسة عشر طنًّا، ورقبته تلتوي وذيله الطويل يتحرك. وارتطم بالمياه محدثًا جلبة مدوية، واختفى على الفور، إذ انجرف إلى جوف النهر النهم.

وأصدر الثاني خوارًا حزنًا على فقدان رفيقه، لكنه كان في خطر هو الآخر، فقد استمرت الأرض في الانحلال بفعل المياه القوية المندفعة، وتحرك الحيوان الذي فقد رفيقه للوراء بخطوات متثاقلة إلى بقعة آمنة.

لكن الشجرة نفسها كانت في خطر، فقد أصبحت جذورها مكشوفة بفعل التعرية التي أحدثها طوفان الأمطار الغزيرة، وقوضها طغيان النهر على ضفته. وأصدر جذع الشجرة صوت صرير للحظات، ثم ترنح.

وتصاعدت أصوات طقطقة مدوية، وبعد ذلك انهارت الجذور، وبدأت الشجرة تتهاوى نحو المياه. وتساقطت الرئيسيات من الأنثرو من جميع الأحجام من الشجرة إلى المياه المضطربة وهي تصرخ، كما لو كانت فاكهة تسقط من غصن هزته يد.

عوت رومر وتشبثت بغصن والشجرة تميل على نحو مرعب ثم تسقط إلى داخل النهر.

كانت الدقائق القليلة الأولى هي الأسوأ.

فبجوار ضفاف النهر، كانت المياه تدور في دوامات وتيارات، نتيجة للتشتت بين التيار المندفع بشدة، وبين احتكاكها بالأرض، وفي هذا السيل الجارف، كانت شجرة المانجو الضخمة أشبه بغُصين ملقى في مياه جدول. وظلت الشجرة ترتج وتصدر صريرًا وتلتوي، كان أول ما ارتطم من الشجرة بالمياه أوراقها، ثم انقلبت جذورها، المحملة بكتلة من الطين والصخور، فبدت وكأنها مخالب متجهة نحو السماء. وتدحرجت رومر وغطست في مياه عكرة بنية اللون، أخذت تدخل إلى فمها وأنفها رغمًا عنها، ثم تطفو مرة ثانية على السطح.

وفي آخر الأمر، ابتعدت الشجرة ببطء عن منطقة الدوامات بالقرب من الضفة، وانجرفت في المياه إلى وسط النهر، حيث هبطت حركتها وهدأت.

وجدت رومر نفسها عالقة تحت المياه، ونظرت إلى أعلى من خلال المياه التي يعكرها الوحل، فرأت سطح النهر المتلألئ، وقد كسته أوراق الشجر والأغصان. كانت المياه تدخل فمها وحلقها، فانتابها الذعر. فأطلقت صرخة، وهي تحاول أن تخترق كتلة أوراق الشجر والأغصان المتشابكة فوقها، وصعدت نحو الضوء.

وأخيرًا نجحت في الوصول إلى سطح الماء، وهاجمها الضوء والضجة وصوت المطر المتساقط؛ فجرت جسمها من المياه، وتمددت على غصن شجرة وجدتها.

كانت الشجرة قد تحولت إلى أغصان متشابكة طافية على وجه النهر، وكانت جذورها الممزقة تتجه إلى السماء القريبة، التي كانت تلمع بالبرق، رفعت رومر رأسها وهي تتلفت باحثة عن أثر لآخرين. لم يكن من السهل عليها أن تتعرف عليهم وسط هذا الهواء الذي أثقلته الأمطار، فقد كانوا مبتلين للغاية، ولكنها لمحت وايت بلاد، هذا الذكر قوي البنية الذي حاول اختطافها، بالإضافة إلى بضعة ذكور آخرين، وأنثى كانت تحمل صغيرًا يتعلق فوق ظهرها، وقد تحول إلى كومة بائسة من الفراء المبتل.

ومع أن العاصفة هاجمت رومر بعنف وكادت تغرقها، فإنها أحست فجأة بالارتياح، فلم تكن تتحمل أن تظل وحيدة، ولكنها أحست بشيء من الاطمئنان. في وجود الآخرين رغم أنهم ليسوا من عائلتها أو مجموعتها.

حملت مياه النهر المزيد من النباتات التي نزعتها العاصفة من جذورها، وظلت تجري على سطحه، وكانت تتجمع على طول مجراه في الأماكن الأعمق، تزايدت أعداد الأشجار والشجيرات، التي جرفها هذا النهر، الذي يعد سلفًا لنهر الكونغو، لمسافة آلاف الكيلومترات من أراضٍ مختلفة وسط القارة. وكانت هناك حيوانات أيضًا، كان البعض منها يتشبث بالنباتات الطافية مثل الأنثرو. لمحت رومر زوجين من الكراودر وقد أصابهما الذعر، ورأت أنثى بوت بيلي تقبع على جذع شجرة جوز، وكانت قد وجدت لها مكانًا ثابتًا تجلس فيه دون أن يزعجها المطر، وكانت قد استأنفت عادتها في التغذية على أوراق النباتات التي كانت تعلق بين يديها وقدميها.

ولكن لم تكن جميع الحيوانات الموجودة في هذا الحشد المخيف حية، فقد غرقت عائلة من حيوانات الأنتراكوثير السمينة، التي تشبه الخنازير، وقد علقت بأغصان نخلة محطمة، فبدت كأنها ثمار ريانة. كما كان الإندريكوثير الضخم، الذي جرفته المياه قبل سقوط شجرة المانجو، هنا أيضًا، إذ كانت جثته الضخمة تطفو في المياه، ورقبته الطويلة تتدلى إلى الوراء، ورجلاه القويتان ممددتان أمامه، كان من بين الحطام الطافي وسط بقية الحيوانات.

وعند اتساع مجرى النهر، بدأ التيارات تدفع تدريجيًّا بكل هذا الحطام، المكون من أوراق الشجر والجذور المتشابكة، في كتلة واحدة حتى تكون منها طوف مؤقت جلست الحيوانات فوقه، وأخذت تحدق في بعضها البعض، وفي النهر الذي يجري في اضطراب، فيما واصل المركب البسيط الذي يربضون على متنه طفوه.

رأت رومر الغابة وهي تزداد كثافة واخضرارًا عند ضفاف النهر الضحلة المنحدرة المتكونة من الحجر الرملي المتآكل، وكانت من بين الأشجار التي رأتها أشجار المانجو والنخيل وأشجار بدائية شبيهة بأشجار الموز. وكانت الأغصان تتدلى فوق النهر حتى كادت تلمسه، وكانت النباتات المعترشة تتشابك فوق الضفاف التي تغطيها الأغصان المتشابكة. كانت

ذراعاها تحن لغصن من تلك الأغصان لتتأرجح عليه من مكانها حتى تصل إلى تلك الضفاف، إلا أن مياه النهر المضطربة كانت تفصلها عن الغابة. ومع استمرار جريان الطوف المؤلف من بقايا النباتات والأغصان في مجرى النهر، كانت تلك الضفاف العذبة تبتعد عن ناظريها، وتختفي الغابة التي تألفها لتحل محلها أشجار المنغروف التي كانت تهيمن على المناطق الساحلية.

كان المطر لا يزال ينهمر، بل ازداد غزارة، وانهمرت أمطار غزيرة من السماء الرمادية، وكانت مياه النهر تعج بالحفر التي تظهر بفعل الأمطار المنهمرة، وكانت تختفي على الفور. وطنَّت في أذنيها أصوات ضجيج، فأحست كأنها ضائعة في فقاعة هائلة من المياه، وتحيط بها المياه من تحتها ومن حولها، ولا يوجد ما تتمسك به سوى شجرة المانجو المحطمة. كانت رومر تئن والبرد يفتك بعظامها، فربضت داخل أغصان شجرة المانجو، وقبعت وحدها، وهي تنتظر أن يبتعد كل شيء، وأن يأتي من يعيدها إلى العالم الذي تألفه، ذلك العالم الذي يعج بالأشجار والفواكه وحيوانات الأنثرو.

ولكن هذا لم يكن ليحدث قط.

كانت العاصفة، رغم قسوتها، قد هدأت بسرعة، ورأت رومر خيوطًا رفيعة من الضوء تتسلل إليها من خلال أوراق الشجر. وسكنت ضجة المطر ليحل محلها صوت لطيف لارتطام أمواج النهر.

وجاهدت للخروج من الأغصان المتشابكة وتسلقت إلى أعلى الشجرة. كانت الشمس قوية وكأنما أصبح الجو صحوًا، فأحست رومر بحرارتها تنفذ إلى فرائها فتجففه بسرعة. وللحظة خاطفة استسلمت لسحر الدفء والجفاف.

ولكنها لم ترَ أي غابة حولها، فقط هذه الشجرة المتهاوية، وكومة الحطام الطافية فوق سطح المياه البنية الرمادية. بل لم تلمح أي ضفاف، كل ما كانت تراه من الجهات الثلاث المحيطة بالشجرة هو المياه التي امتدت أمامها إلى الأفق. ولكنها حين نظرت وراءها إلى الاتجاه الذي جاء منه الطوف، لمحت أرضًا، وكانت خطًّا من اللونين الأخضر والبني يشق الأفق الشرقي.

كان ذلك الخط يتوارى.

لقد انجرف الطوف المكون من الحطام إلى المحيط الأطلنطي الواسع وعلى متنه حيوانات الأنثرو والبوت بيلي والكراودر والكل.

٢

استمرت جغرافية العالم غير المستقرة في التطور بعد مرحلة نوث، واستمرت أيضًا في تشكيل مصائر المخلوقات قليلة الحظ، التي كانت تركب الأطواف في القارة.

كان الصدعان العظيمان اللذان تسببا في هلاك قارة بانجيا القديمة — شرقي غرب البحر المتوسط القديم وشمال جنوب المحيط الأطلنطي — يغلقان ويفتحان على التوالي. اصطدمت أفريقيا ببطء مع أوروبا. في هذه الأثناء انجرفت الهند شمالًا لتصطدم بآسيا، واندفعت جبال الهيمالايا إلى الخارج؛ إلا أنه بعد ميلاد الجبال الصغيرة بدأ المطر والجليد يقومان بدورهما، إذ أحدثا نقرًا وتآكلًا، وجرفا الجبال مرة أخرى إلى البحر. وعلى هذا الكوكب المضطرب اندفعت الصخور كالمياه، وظهرت سلاسل الجبال واختفت كالأحلام. إلا أنه بعد اقتراب القارات انتهى تدفق البحر المتوسط القديم، بالرغم من بقاء أجزاء من المحيط المتقلص الحجم، شكلت بعد ذلك البحر الأسود وبحر قزوين وبحر آرال والبحر المتوسط في الغرب.

بعد أن اختفى البحر المتوسط القديم حدث جفاف شديد في بطن العالم. في وقت ما عاشت غابات تعج بالأشجار الاستوائية في الصحاري، أما آنذاك فقد امتد حزام هائل من أراضٍ شبه قاحلة حول الطريق القديم للبحر المتوسط القديم عبر أمريكا الشمالية وجنوب أوراسيا وشمال أفريقيا.

في غضون ذلك كان الجسر الأرضي الضخم الذي أغلق شمال الأطلنطي وامتد من أمريكا الشمالية إلى شمال أوروبا عبر جرينلاند وبريطانيا قد انكسر؛ فاتصل المحيط الأطلنطي بالمحيط القطبي الشمالي. ونظرًا لأن ممر المحيط من الشرق إلى الغرب أُغلق فُتحت قناة جديدة من الجنوب إلى الشمال. وهكذا أُعيد تشكيل تيارات المحيط.

أصبحت المحيطات مستودعًا ضخمًا للطاقة، وظلت في حالة اضطراب تموج بالحركة وعدم الاتزان، تمتلئ بالتيارات، وبالأنهار الخفية التي تجعل

من أنهار الأرض أقزامًا. ودفعت حرارة الشمس ودوران الأرض هذه التيارات، في حين اختزنت الأمتار القليلة التي تعلو المحيطات مقدارًا من الطاقة قد يمتلئ بها الغلاف الجوي بأكمله.

أما آنذاك فإن التيارات الاستوائية الهائلة التي دارت يومًا ما حول حزام البحر المتوسط القديم فقد دبت فيها الفوضى، لكن التدفقات التي سوف تسيطر على اتساع عرض المحيط الأطلنطي بدأت تأخذ مجراها، بالإضافة إلى تدفق مبشر بمجرى نهر الخليج، وهو نهر عظيم يمتد مسافة ستين كيلومترًا من الجنوب إلى الشمال بقوة تفوق قوة نهر الأمازون ثلاث مرات.

إلا أن هذا التغيير في نمط الدوران سوف يتسبب في تغيير طبيعة الجو على الكوكب، فبينما أثارت التيارات الاستوائية الدفء شكلت التيارات القطبية من الشمال إلى الجنوب منطقة تجمد عريضة.

ولكي تسوء الأمور أكثر ظهرت القارة المتجمدة حول القطب الجنوبي من الأرض، وبدأت تجمعات الجليد تظهر لأول مرة خلال مائتي مليون عام، وبدأت تيارات محيط هائل باردة تتشكل في البحار الجنوبية، مغذية التيارات العظمى شمال الأطلنطي.

كان التغير حادًّا: بداية تبريد هائل للكواكب، وانحناء في الخط البياني الذي سوف يستمر إلى زمن وجود الإنسان، وما بعد ذلك.

وعلى كوكب الأرض بدأت الأحزمة المناخية القديمة تتقلص تجاه خط الاستواء، وعاشت أنواع النباتات الاستوائية فقط حول خطوط العرض الاستوائية. أما في الشمال فقد بدأت بيئة جديدة في الظهور، منطقة معتدلة مناخيًّا تمتزج فيها أشجار الصنوبر بأشجار أخرى مورقة سنويًّا، غطّت الأرض الشمالية التي تمتد من أمريكا الشمالية وأوروبا وآسيا من المناطق الاستوائية إلى المنطقة القطبية الشمالية.

تسبب هذا الانهيار المناخي في موت أشياء كثيرة، وهو ما سوف يسميه علماء الأحياء والكائنات الحية فيما بعد: الانحسار العظيم، وكان حدثًا ذا جوانب عديدة، واستمر لمراحل مختلفة. ففي المحيطات اختفت الكائنات الحيوانية والنباتية الطافية في المياه، واختفت أنواع كثيرة أيضًا من الرخويات والحيوانات ذات الصدفتين.

وعلى الأرض بعد ثلاثين مليون عام من الحياة المريحة واجهت الثدييات أول عملية انقراض جماعية، فقد انشطر تاريخ الثدييات إلى شطرين، فانقرضت مجموعات نوث الغريبة ليحل محلها حيوانات ضخمة من آكلات الأعشاب، لها أسنان مشرشرة حادة تمكنها من التعامل مع أنواع النباتات الخشنة المميزة للغابة الموسمية. وشهد زمن رومر ظهور أول الخرطوميات ذوات الأنياب المهيأة للتعامل مع البيئة الجديدة، وهي تتحرك في سهول أفريقيا، وكانت خراطيمها التي لا يدانيها شيء في مرونة عضلاتها، سوى أذرع الأخطبوط، تساعدها على حشو أمعائها بالكميات الهائلة من الطعام التي تحتاجها. وتميزت هذه الداينوثيريوم Deinotheres بأجساد بدينة قصيرة، وأنياب غريبة مثنية إلى أسفل؛ استخدمتها في تمزيق لحاء الشجر، لكن على عكس أجدادها من الموريثيريوم Moeritherium كانت تشبه الأفيال فعلًا، وتجاوزت أطوال بعض منها أطوال الأفيال الأفريقية التي جاءت في فترات لاحقة.

شكلت هذه المرحلة أيضًا مرحلة نجاح للخيل، فقد تنوعت سلالات المخلوقات الوديعة التي كانت تعيش في غابات عالم نوث إلى أنواع أخرى من آكلات أوراق الأشجار — كان البعض منها كبير الحجم كالغزلان، لكنها تملك أسنانًا أكثر حدة من أسلافها، تمكنها من قضم الأوراق بدلًا من الفاكهة الطرية — وهناك أيضًا حيوانات سهول، طويلة السيقان تواءمت مع نظام التغذية على الحشائش. كانت أغلب الخيل لها ثلاثة أصابع في أقدامها الأمامية والخلفية، إلا أن البعض منها الذي كان يقطن السهول بدأ يفقد أصابعه الجانبية لتحمل الأصابع الوسطى كل ثقله. ومع تقلص مساحة الغابات بدأ هنا التنوع يقل، وفيما بعد سوف يختفي الكثير من هذه الأنواع من حيوانات الغابة. شمل التنوع أيضًا أنواع القوارض، وشهد الظهور الأول للسنجاب والقندس والزغبة والهمستر ونوعيات أخرى كثيرة من السنجاب، وأخيرًا الظهور الأول للفئران.

إلا أن هذه البيئة الجديدة لم تكن ملائمة للثدييات، فقد تقلصت الغابات الاستوائية — وهي بيئتها الطبيعية — لتنحصر في المناطق الاستوائية الجنوبية. واندثرت كثير من عائلات الثدييات. أما الحيوانات آكلة الثمار مثل

رومر فقد عاشت فقط في غابات أفريقيا الاستوائية وجنوب آسيا معتمدة في غذائها على ما كانت تستمده منها. وحين ولدت رومر لم يكن هناك أي ثدييات في الشمال الاستوائي، ومع تطور القوارض انعدم وجودها تمامًا في أمريكا، ولم يتبق أي نوع منها.

وكل ذلك سيتغير.

ظهر البحر حول رومر مثل غطاء رمادي قاتم؛ تترقرق فيه الأمواج خفيفة كالزئبق. كانت رومر في مكان محير للغاية: بيئة غريبة غير واضحة المعالم ذات بعدين أوليين، فهي ساكنة لكنها تمتلئ بحركة مضطربة غامضة؛ تختلف كثيرًا عما عهدته في الغابة.

فأحست بالقلق وهي تحاول الصعود إلى سطح النباتات، توقعت بين لحظة وأخرى هجوم مخلوق فضائي مفترس يقضم جمجمتها، وكلما تحركت شعرت بقلقلة الطوف تحتها، ومكوناته المتشابكة غير الثابتة تصدر حفيفًا مع أنفاس البحر البطيئة؛ شعرت بأن كل شيء حولها سوف يتلاشى في أي لحظة.

كان هناك ستة أنثرو فقط، ثلاثة ذكور وأنثيان — من بينهن رومر نفسها — والصغير النائم الذي ما زال يتعلق بفراء أمه. هذه هي الجماعة الوحيدة الباقية من مجموعة وايت بلاد.

جلست الأنثرو جميعًا على أغصان متشابكة؛ وهي ترمق بعضها بعضًا؛ فقد حان الوقت لوضع تتابع سلطة مؤقت.

الأولويات واضحة تمامًا للأنثيين.

زاد عمر الأنثى الأخرى — الأم ضخمة الجسم — على عقد من الزمان، وصغيرها الذي تحمله هو الرابع؛ والوحيد الذي بقي على قيد الحياة، وإن لم تكن هي على علم بذلك، وأهم ما يميزها هو بقعة خالية من الفراء على أحد كتفيها نتيجة حريق تعرضت له في الغابة، أما الصغير الذي تعلق بصدر باتش فقد كان قطعة صغيرة من الفراء، ضئيل الحجم بالنسبة لسِّنه، وحين تفحصت باتش رومر صرفتها، فقد كانت رومر صغيرة أيضًا، وضئيلة الحجم وغريبة لا تربطهما قرابة، ولكون باتش أمًّا تتولى رعاية

صغيرها فإن لها الأولوية دائمًا، لذلك ولت باتش رومر ظهرها العريض، وبدأت في تحسس رضيعها سكراب.

أدركت رومر ما عليها أن تفعله، فركضت فوق الأغصان واتجهت إلى باتش وغرزت أصابعها في فرائها الذي كان ما زال مُندًّى بالماء، وبدأت في التخلص من التشابك وكل ما كان عالقًا بها من مخلفات، وحين وصلت أصابعها إلى جلد باتش لمست عضلاتها وأماكن أخرى جعلت باتش تنتفض رافضة أن يمسها أحد.

حين بدأت أصابع رومر القوية تعمل أحست باتش بالراحة تتسلل إليها، فقد كانت منهكة — شأنهم جميعًا — بعد أن قذفت بها العاصفة بعيدًا عن الغابة لتلقي بها فجأة في هذا الفراغ العجيب دون عائلتها. إلا أنها مع لمسة رومر السحرية أحست كأنها نسيت تمامًا أين هي، حتى الصغير سكراب بدا كأنه يحس بالراحة جراء تواصل الاثنتين.

أما رومر فقد هدأت وهي مستمرة في تنظيف باتش، وكأن هذه الحركات البسيطة المتكررة خلقت نوعًا من الرباط الاجتماعي بينهما.

أما المحادثات بين الذكور فاتسمت بدرامية أكثر.

وجد وايت بلاد نفسه في مواجهة أخوين صغيرين، أحدهما (كريست) تحيط بعينيه هالة غريبة من الشعر ناصع البياض؛ أعطته مظهر دهشة مستمرة، في حين استخدم لثاني (ليفت) ذراعه الأيسر بدلًا من الأيمن، حتى إن عضلات جانبه الأيسر أصبحت أقوى من تلك التي في يمينه؛ تمامًا مثل لاعب التنس الأعسر.

كان كريست وليفت أصغر وأضعف من وايت بلاد، ولذلك لم يتفوقا عليه في الغابة، أما آنذاك فقد فقد وايت بلاد كل حلفائه، ومن ثم فمن السهل على هذين الاثنين أن يتغلبا عليه.

لذلك — وبدون تردد — بدأ وايت بلاد في استعراض قوته، فوقف منتصبًا وهو يهتز صارخًا صائحًا، ثم ألقى بمجموعة من أوراق الشجر، واستدار ومد جانبه الخلفي، ثم تبرز وفرائه مندى بالماء.

أحس ليفت بالخوف بسرعة، فتراجع ولف ذراعيه حول نفسه.

أما كريست فقد كان أكثر شجاعة، ورد على العرض الذي قدمه وايت بلاد بصياح أقوى منه، إلا أن حجم وايت بلاد كان أكبر من حجمه، وبدون أي دعم من أخيه لم يكن أمامه فرصة للتغلب على الذكر الأكبر سنًّا، وحين بدأ وايت بلاد في لطمه حول رأسه وعنقه استسلم كريست بسرعة ووقع على ظهره، وفرد ذراعيه ورجليه مثل الأطفال؛ دليلًا على استسلامه، لكن كل ذلك توقف حين وجه وايت بلاد ضربة عشوائية، فتعثرت رجله في ورق الشجر لتنزلق إلى الماء البارد، فصرخ وجذب رجله إلى أعلى، ثم جلس هادئًا، وقد التفت رجلاه تحته.

إلا أنه أنهى مهمته، فقد اقترب منه الأخوان وقد خفضا رأسيهما وأحنيا جسديهما في مذلة. وتبع ذلك فاصل قصير من التنظيف المشترك الذي يؤكد تسلسل القيادة، وبدأ الذكور الثلاثة بعد ذلك في رفع القاذورات، يرفعها بعضهم من على فراء بعض.

قديمًا كانت مجموعة نوث العنيفة الشرسة مثل عصابات الشوارع، لا يجمعها إلا الثورة البدنية ورغبة السيطرة، وكان كل فرد فيها لا يشعر إلا بموقفه من طابور غذائه، أما آنذاك فقد دفعت مزايا الحياة الاجتماعية مجتمعات الثدييات إلى مودة معقدة، وحفزت تطور أنواع جديدة من الأفكار.

تطلب العيش وسط الجماعة معرفة اجتماعية واسعة؛ معرفة مَن الذي يفعل ماذا بمَن؟ وكيف تتواءم الأفعال الشخصية بعضها مع بعض، ومَن الذي يجب الاعتناء به؟ ومتى؟ حتى يمكن أن تسير الحياة بسهولة، وكلما كبرت الجماعة زاد عدد العلاقات التي يجب متابعتها، ولأن هذه العلاقات دائمة التغيير، فقد احتاج الأمر إلى قدرة كبيرة على التخمين للتعامل معها. وحتى تتمكن المجموعات من التعايش على هذه الصورة المتطورة بالغة التعقيد؛ فقد استمرت الثدييات في اكتساب ذكاءٍ أكثر.

ومع ذلك فهذا المنطق لم يسرِ على جميع الثدييات.

ففي أثناء ذلك جلست بوت بيلي الكبيرة على غصن مريح وجدته، وهي تنزع عنه أوراقه بطريقة منظمة، لم يكن لديها أدنى اهتمام بالعرض الذي قدمه الأنثرو.

وحتى في وسط مجموعتها لم تكن تعرف الكثير عن الآخرين، إذ تجاهلت الإناث الأخريات، واقتربت فقط من الذكور؛ حين شعرت برغبة في التزاوج، وهو ما شعرت به فعلًا في ذلك الوقت.

وحين أتى موسم التزاوج امتلأت أرداف كائنات الأنثرو مثل باتش وورومر بتورمات جنسية، إلا أن هذا لم يكن واقع الحال مع مخلوقة تقضي معظم وقتها مستلقية على مؤخرتها، ومن ثم ظهر على صدر بوت بيلي انتفاخات وردية اللون؛ على شكل ساعة رملية لا تخطئها العين، لكن لعدم وجود أي ذكر بجانبها، فلم يكن بإمكانها أن تفعل شيئًا.

ومع ذلك فلم يكن هذا الأمر يعني الكثير لها، فلم تكن تعي تمامًا أين هي وما حدث لها، تمامًا مثل كائنات الأنثرو، لكن ذلك لم يقلقها، فقد كان حولها كثير من الأوراق على هذه الشجرة المتهاوية تكفيها طوال اليوم، ولم يكن لديها الإدراك الكافي بأنه يوجد شيء اسمه الغد يختلف عن اليوم، وأنه قد يأتي عليها دون أن تجد نفسها في غابة لا نهاية لها تمتلئ بالأوراق المغذية.

بدأت جماعة الأنثرو تشعر بالجوع، وقلة طعامها قد بدأت تؤثر في معدتها، فكفت عن الاعتناء بأنفسها وانتشرت على أغصان شجرة المانجو المنهارة التي فقدت الكثير من ثمارها ومن ساكنيها؛ حين سقطت من على ضفة النهر، إلا أن كريست — أحد الأخوين — استطاع أن يحصل على مجموعة من الثمار، وجدها في زاوية بين الأغصان وجذع الشجرة، فصاح ينادي الآخرين.

عمل هذا المجتمع الصغير بكفاءة، فرغم أن كريست استطاع أن يستولي على بعض الثمار لنفسه، فقد جاء وايت بلاد ليدفع به بعيدًا، إلا أنه سرعان ما أفسح المجال لباتش بعد أن اغتصبت مكانه.

ومع أنها في ثلثي حجم وايت بلاد، فإن الصغير المتعلق بصدرها كان رمزًا لنوع من السلطة، لذلك تناول وايت بلاد ثمرة واحدة، وتراجع إلى الوراء وهو يزمجر مفسحًا المجال لباتش.

وفي غضون ذلك أدركت رومر مثل الأخوين أنها لن تستطيع الاقتراب من الثمار إلا بعد أن يأخذ الكبار حقهم.

تقدمت رومر بحذر تجاه حافة الطوف وأطرافها ناشبة فيه، إلى حيث كانت الأغصان أقل تماسكًا. وحين اقتربت من زوج الكراودر اللذين التصقا أحدهما بالآخر في ذعر فرَّا بعيدًا عنها. ومن خلال أوراق النباتات استطاعت أن ترى مياهًا مظلمة بنية اللون مليئة بقطع الأخشاب وأوراق الشجر وهي تتموج في كسل، ولمعت الشمس في مئات الأماكن من خلال الفجوات في غطاء الشجرة الساقطة وبدا الضوء الراقص مذهلًا.

شعرت رومر بالجوع والعطش أيضًا، فغمست يدها بحذر في الماء البارد وتناولت جرعة منه، وجدت الماء مالحًا قليلًا، لكن ليس بدرجة عالية، فعلى الرغم من بعده عن الأرض، فإن تدفق النهر القوي خفف كثيرًا من ملوحة المحيط، لكن مع زيادة جرعات الشرب بدأ طعم الملح يتجمع في فمها، فبصقت آخر جرعة تناولتها.

شعر الأخوان بالجوع والملل، فاقتربا منها يتفحصانها وهي تشرب، ورأسها مدفون في أوراق النباتات ويداها ممدودتان وقد رفعت مؤخرتها. وأخذا يشمانها بفضول فأدركا أنها صغيرة السن ولا تصلح للتزاوج.

حين انتهى الكبار من تناول الطعام هجمت رومر والآخرون على الثمار.

ومع امتلاء معداتهم بدأت جماعة الأنثرو تشعر بالهدوء. في هذه الأثناء كان الطوف قد انحرف بعيدًا عن مرمى اليابسة. أكلت الأنثرو معظم الثمار التي على شجرة المانجو الغارقة، وجلست بوت بيلي تمضغ في تراخ الأوراق التي نزعتها من على الأغصان.

ولم تشعر واحدة منها بهذا الشيء الباهت الرمادي اللون المثلث الشكل، الذي انزلق في صمت في المياه على بعد بضعه أمتار.

دار القرش حول الطوف المفكك، تنبهت شهيته للطعام بسبب جثث ساكني شاطئ النهر بعد أن لفظتها المياه نحو فم المحيط، وجذبته رائحة الدم المتعفن التي تنبعث بشدة من جثث أنثرو، إلا أنه لاحظ حركة مصدرها هذه النباتات المتشابكة الطافية فوق رأسه؛ فدار حول المكان صابرًا متحسبًا لما قد يقع.

لم يكن القرش في مستوى ذكاء الحيوانات التي تسكن الأرض، لكنه لم يكن على أي حال يشبه الحيوانات إطلاقًا، فعظام ظهره لم تكن عظامًا، بل غضاريف قوية تعطي القرش مرونة أكثر من الأسماك الأخرى المتطورة. وفكه أيضًا غضروفي التسقت فيه أسنانه المشرشرة مثل سكين اللحم، واتسمت بقدرة تامة على الافتراس. وبدا أنفه البارز غير مصقول، إلا أنه خترق المياه مثل الغواصة، وهو مزود بفتحتي أنف يستطيع أن يشم بهما آثار الدم. وتحت الأنف يوجد عضو خاص حساس جدًّا للذبذبات يمكّنه من استشعار مقاومة حيوان خائف على مسافات بعيدة، وخلف الرأس الصغير للقرش كان جسمه كله مكونًا من عضلات تساعده على الانطلاق للأمام بقوة، مثل سفينة حربية كاملة التجهيز.

ظلت أسماك القرش على رأس الحيوانات المفترسة في المحيط لمدة ثلاثمائة مليون سنة، وقد استطاعت البقاء خلال مرحلة الانقراض الكبير التي راحت فيها عائلات كثيرة من الحيوانات المفترسة على الأرض. وشهدت انحسار كثير من منافسيها من أنواع مختلفة من الحيوانات الجديدة بعضها أصغر سنًّا مثل الأسماك الحقيقية. وأثناء هذه الحقبة الطويلة لم يطرأ أي تغيير على جسم القرش، فلم تكن هناك حاجة لذلك.

إن أسماك القرش القاسية لا تعرف الرحمة، ولا يثنيها أي مكر أو خداع، بل هي مهيأة دائمًا للهجوم طالما هاجت أحاسيسها، فهي آلة خلقت للقتل.

أحس القرش بهذه الكمية الهائلة من اللحم الميت، التي انجرفت إلى منتصف الطوف، لكنه شعر أيضًا بحركة حيوانات حية على السطح، فقرر أن يترك الأشياء الميتة التي يمكنها الانتظار.

وجاء وقت الهجوم؛ اخترق القرش المياه وفاه مفتوح، ولم يكن للقرش أي جفون، لكن لحماية عينيه كان يدور بهما إلى الخلف بحيث تتحولان إلى لون أبيض، وذلك قبل ثوانٍ من لحظة الهجوم.

إن باتش أول من لاحظ اقتراب هذا المخلوق، وأول من لمح هذا الجسد الأبيض الأشبه بالطوربيد وهو ينزلق في المياه في اتجاه الطوف وأول من نظر إلى عينيه. لم تكن قد رأت مثل هذا الشيء في حياتها قبل ذلك، إلا أن

غريزتها صرخت بأن هذا الجسد الأملس يعني وجود مشكلة. فجرت إلى الجانب البعيد من الطوف فوق أوراق الأشجار المتحركة.

اجتاح الرعب بقية جماعة الأنثرو، أما الكراودر فصرخا كعصفورين صغيرين، وهما يقفزان هنا وهناك. فقط البوت بيلي هي التي لم تتحرك وجلست بهدوء على فرع الشجرة وهي تمضغ حفنة من ورق الشجر.

أما سكراب الذي انفصل عن والدته، فلم يستجب لما حصل.

وبدت باتش مرتاعة، فقد توقعت أن يتبعها صغيرها إلى آخر الطوف لكن الرضيع لم يكن قد رأى الخطر القادم، ولو أنها أم بشرية لأمكنها أن تتصور وجهة نظر طفلها وأنه لا يعي ما يدور حوله، لكن هذا الإدراك أكبر من إدراك باتش، كانت مثلها مثل نوث في هذا الصدد، كطفلة بشرية صغيرة، تتخيل أن كل مخلوق في العالم يرى ما تراه وله معتقداتها نفسها.

أخذ القرش أوراق الشجر غير الثابتة بخرطومه. وفي نظر رومر بدا هذا الظهور المفاجئ للفم المفتوح الذي أتى من العالم السفلي؛ نوعًا من الكابوس المخيف، فصرخت وراحت تجري في يأس؛ غير قادرة على الهروب من حدود الطوف.

كان الصغير أكثر حظًّا، فحين اهتز الطوف إثر هجوم القرش وجد نفسه في زاوية صغيرة بين غصن الشجرة وجذعها، فاندفعت الأم عبر الطوف وقفزت على الفجوة المفتوحة التي أحدثها القرش وخطفت وليدها.

إلا أن القرش عاود هجومه من جديد، وفي هذه المرة أقحم أنفه التي تشبه الوتد بين جذعي الشجرة الضخمين اللذين شكلا هيكل الطوف، وانفرج الجذعان عن فتحة كبيرة مغطاة بأوراق النباتات المبعثرة، وسقط أحد الكراودر وهو يصرخ في هذه الفجوة العميقة.

إن فم القرش مثل كهف مفتوح، سقط فيه الكراودر في ثانية، ولم يشعر القرش بهذه اللقمة الدافئة الصغيرة التي التهمها، فلم تكن مهمته قد بدأت بعد.

صرخت كائنات الأنثرو وهي تجري إلى حافة الطوف، مبتعدة قدر الإمكان عن الصدع الذي حدث، إلا أنها حين وصلت إلى الحافة؛ تراجعت إلى الخلف، فلم يكن أمامها سوى ظلمة المحيط.

شاهد وايت بلاد البوت بيلي جالسة برضا في مكانها على الأغصان والتورم على صدرها قد ازداد احمرارًا، مع أن الفجوة التي أحدثها القرش في الطوف أمامها. وفي تلك اللحظة الحاسمة دارت في ذهنه أفكار سريعة، بل سلسلة منطقية لا تجول إلا في ذهن أذكى حيوان بين أقرانه. لكن بصفه عامة تفوقت هذه السلالة من الأنثرو على سابقاتها في الذكاء.

قفز وايت بلاد قفزة عالية. وضرب بقدميه ظهر بوت بيلي بشدة فوقعت في البحر.

هذا المخلوق البدين الذي صارع الأمواج هو كل ما أراده القرش. فغرز أسنانه في جسم فريسته، والتف جسد القرش بمرونة وهو يهز بوت بيلي، ويمزق بأنيابه الحادة قطعة من جسد المخلوق سيئ الحظ، ثم أغلق فمه وسط بركة من الدماء في انتظار أن تنزف الضحية حتى الموت.

ارتبكت بوت بيلي حين وجدت نفسها في الماء وقد غَشِيها الألم، إلا أن مخها امتلأ بالكيماويات وتوقفت مراكز التفكير عن العمل، وفاض عليها إحساس بالسلام في هذه الظلمة المخضبة بالدماء.

جلس وايت بلاد يلهث في مكانه بعد الهجوم، فلم يتبق من بوت بيلي سوى كومة صغيرة من الفضلات كريهة الرائحة، وبعض أوراق الأشجار المفتتة. ثم بدأت الفجوة في الطوف تنغلق كأنها تداوى جراحها. وانكمشت بقية جماعة الأنثرو على نفسها وقد شغلها الألم عن العناية بنفسها.

بدأت الشمس في المغيب واستأنف الطوف رحلته في يأس واستسلام.

٣

مرت أيام وليالٍ، لم يُسمع فيها سوى صوت حفيف الأغصان وترقرق المياه.

ظهرت سماء الليل الساحقة التي شعرت رومر بالخوف منها.

لكن ضوء النهار تحت الشمس الساطعة أو السحب الرمادية لم يكشف شيئًا سوى المحيط، لم تكن هناك غابة أو أرض أو تلال. لم تُشَمّ رائحة سوى الملح ولم يُسْمَع صوت تغريد الطيور أو الرئيسيات، لم يكن هناك صوت للعشبيات. اختفت مجاري الأنهار في المحيط العظيم، حتى البقايا الأخرى التي جرفتها العاصفة اختفت، متجهة نحو قدرها بعيدًا جهة الأفق.

أبحر الطوف محطمًا.

انزلقت أجساد الأنثراكوثير Anthracothere العالقة في أغصان شجرة المانجو منذ وقت طويل، واختفى آخر كراودر أيضًا، ربما يكون قد سقط في المحيط. وانتفخ الإندرايكوثير Indricothere بعد أن شقت البكتريا طريقها بتناول أمعائه الهائلة إلى الخارج، لكن الأفواه غير المرئية التي في المحيط ظلت تأكل الإندرايكوثير من الأسفل. ونظرًا لأن اللحم اختفي بانتظام انهارت الجثة الضخمة، حتى انزلقت في المحيط آخر الأمر.

أنهت الأنثرو الفاكهة منذ وقت طويل.

حاولت تناول أوراق الشجرة، وسعدت في البداية بالرطوبة التي تملأ فاها للحظات وتخفف من حدة عطشها، لكن الشجرة المجتثة ميتة والأوراق المتبقية عليها ذابلة وصلبة. وبخلاف بوت بيلي البائسة لم يكن بمقدور الأنثرو هضم تلك الوجبة الخشنة، وفقدت سوائل أكثر مع فضلاتها.

كانت رومر حيونًا صغيرًا مهيأ للحياة الغنية في الغابة، حيث يتوفر الغذاء والماء. وعلى عكس الإنسان الذي يتكيف بدذ، مع البقاء لأوقات طويلة في العراء لم يكن بدن رومر يختزن الكثير من الدهون؛ مصدر الطاقة الرئيسي عند البشر. ساءت الأوضاع بسرعة، وسرعان ما قل لعاب رومر وأصبح سيئ المذاق، والتصق لسانها بسقف فمها، وآلمتها رأسها وعنقها بشدة، إذ تقلص جلدها من الجفاف. بات صوتها متقطعًا وشعرت بوجود كتلة مؤلمة في حلقها، لم تختف مهما حاولت بلع لعابها. في الواقع كانت ستعاني هي وكائنات أنثرو الأخرى أكثر بكثير لولا وجود السماء فوقها، لتظلها من الشمس الحارقة.

في بعض الأحيان كانت رومر تحلم، فترى شجرة المانجو الميتة مورقة فجأة، تمتد جذورها كأصابع الرئيسيات لتدفن نفسها في تربة قاع المحيط، وتنمو أوراقها الخضراء وتتمايل، وتطرح ثمارها بكميات هائلة. حلمت رومر بأنها تمد يدها لتقطف ثمرة وتدفن رأسها في السائل الصافي الذي يملأ كل قشرة. ثم تأتي والدتها وأخواتها الممتلئات القوام وكلهن نشاط مستعدات لتنظيفها.

لكن السائل يتبخر فجأة، كما لو جف بفعل الشمس الحارقة، وتجد رومر أنها لا تقرض سوى لحاء الشجرة أو حفنة أوراق ميتة.

وصلت باتش إلى قمة الاستثارة.

ونظرًا لأن وايت بلاد أهم ذكر في تلك المجموعة الصغيرة التائهة، فقد سارع بالمطالبة بحقه، فلم يكن هناك ما يمكن القيام به ولم يكن هناك مكان للذهاب إليه، لذا عاشر وايت بلاد باتش مرارًا، وفي بعض الأحيان أكثرا من الأمر حتى أصبح روتينيًّا.

في الأوقات العادية يحق للرعايا مثل الأخوين التزاوج مع باتش في بداية أيام تهيجها، ووايت بلاد الذي يجد أمامه الكثير من الإناث للاختيار من بينهن سيستبعدهن كلهن عندما تصل باتش إلى ذروة خصوبتها، بحيث تكون أفضل فرصة لجعلها حاملًا.

إن ذلك في مصلحة باتش أيضًا، يملؤها التورد ليعلن خصوبتها لأكثر عدد ممكن من الرجال. فالمنافسة ترفع من مستوى طالبي ودها دون أدنى مجهود منها. وإذا تزاوجت مع كل الذكور في المجموعة في وقت ما فلن يتأكد أي منهم أنه والد الصغير، وقبل أن يفكر أي ذكر في قتل صغير للإسراع من خصوبة الأنثى سيخاطر بقتل صغيره. هكذا أصبح التورد — تهيجها الشديد — وسيلة باتش في السيطرة على الذكور حولها بأقل مجهود منها، وطريقتها للحد من جرائم قتل صغارها.

لكن على هذا الطوف الصغير لم يكن هناك سوى أنثى بالغة واحدة، ولم يكن وايت بلاد ليسمح لأحد بمشاركته فيها. أمعن كريست وليفت النظر فيها وهما جالسان جنبًا إلى جنب يمضغان أوراق الشجر وعضواهما المستثاران يبرزان من بين فرائيهما. يستطيعان أن يحملقا في الأجزاء المتوردة البارزة من جسد باتش كيفما أرادا، لكن كلما اقترب أي منهما من باتش استشاط وايت بلاد غضبًا مستعرضًا قواه مهاجمًا المجرم، فما بالك إن لمسها أحدهما في محاولة للتقرب منها.

أما عن رومر، فإنها دائمًا ما ستحتل المرتبة الثانية بعد باتش، ستظل غريبة. لكن في هذه الظروف الصعبة فقد اقتربت بسرعة من باتش وكأنها واحدة من أخواتها.

عندما كان وايت بلاد يعاشر باتش كانت رومر تصحب سكراب. بعد عدة أيام في البداية اعتبرت سكراب أن رومر عمتها الشرفية. بدا وجه الطفلة الصغير أجرد، ولون فرائها زيتونيًّا، وهو بهذا يختلف عن لون فراء والدتها ويثير في رومر — وفي الذكور — إحساسًا بضرورة حمايتها. أحيانًا تلعب سكراب بمفردها صاعدة الأغصان الملتفة بعضها حول بعض على نحو لا يعكس مهارة كبيرة، لكنها في الأغلب تحب أن تتعلق بصدر رومر أو ظهرها، أو أن ترتمي في حضنها.

إن المشاركة في تحمل عبء تربية طفل أمر شائع بين الأنثرو، لكن عادة لم يُسْمَح إلا للأقارب بالعناية بالأطفال.

كبر صغار الأنثرو بسرعة أقل من السرعة التي كبر بها الصغار في عهد نوث بسبب الوقت الذي يستغرقه نمو عقولهم الأكبر حجمًا. ومع أن صغار الأنثرو يكونون في مرحلة متطورة من النمو عند ولادتهم مقارنة بصغار البشر، وتكون عيونهم منفتحة ولديهم قدرة على التعلق بفراء أمهاتهم، فإنهم لا يتمتعون بالقدرة على التحكم في حركاتهم، ويتسمون بالضعف، ويعتمدون اعتمادًا تامًّا على أمهاتهم في الحصول على الطعام. أصبح الأمر كما لو أن سكراب ولدت قبل أوانها وتكمل نموها خارج رحم أمها.

وضع هذا باتش تحت ضغط هائل. طوال ثمانية عشر شهرًا يكون على الأمهات من فصيلة الأنثرو أن يوازنوا بين متطلبات البقاء اليومية والحاجة إلى العناية بأطفالهن، ووجب عليها أن تُبقي وقتًا تتودد فيه لأخواتها وصديقاتها، وكل من يحتمل أن تعاشرهم. كل هذه الضغوط أصابت باتش بالإجهاد، حتى قبل أن يؤول مصيرها إلى هذا الطوف. لكن جماعة الإناث حولها وفرن لها مددًا رائعًا من القريبات والمربيات يأخذن الطفل بعيدًا عنها ويعطونها فرصة للاستراحة. إن تسلي رومر عن طريق العناية بالطفل مصدر عون لباتش، وإضافة إلى هذا فإنه مصدر سعادة جمة لرومر، ويعد

نوعًا من التدريب لها على دورها المستقبلي كأم، وكذلك سمح لها بالانغماس في الكثير من الأنشطة المتعلقة بالتدليك.

افتقد الجميع التدليك. هذا هو أصعب شيء في انحباسهم في المحيط. بل إن وايت بلاد بدت عليه علامات إفراط وصيفتيه في تنظيفه، إذ فُركت أجزاء من رأسه ورقبته حتى نزعت الطبقة العليا من الجلد. لذا سعدت رومر بتدليل الطفل لساعات طويلة ونزع فرائه برفق وتصفيفه بأصابعها، وتدليك جسده.

لكن مع مرور الأيام صارت الطفلة شديدة الاستياء بسبب شعورها الدائم بالجوع والعطش. تتجول سكراب حول الطوف، بل تزعج الذكور. أحيانًا تنتابها نوبات غضب فتنزع أوراق الشجر أو فراء أمها، أو تنطلق في غضب حول الطوف على نحو محفوف بالخطر.

كل هذا تسبب في زيادة إنهاك باتش، وإزعاج الجميع.

مضت الأيام على هذه الوتيرة. وجماعة الأنثرو محبوسة بعضها مع بعض على هذه الخشبة الجافة وسط المحيط الضخم، صار أفرادها شديدي الحساسية بعضهم تجاه بعض، ولم تكن هذه الحساسية تهدأ أبدًا. إن كان المكان الذي يعيشون فيه أوسع، لأصبح بوسعهم أن يبتعدوا عن جري الأطفال الذي يزعجهم. إن كان عددهم أكبر لما أصبح لغيرة الذكور الصغار من وايت بلاد أي وزن، إذ كان بمقدورهم أن يجدوا بسهولة إناثًا أكثر ترحابًا، وأن يشبعوا رغباتهم بعيدًا عن عين وايت بلاد.

لكن ليس هناك مجموعة كبيرة تشبع رغباتهم، ولا غابة يهربون إليها ولا طعام سوى أوراق الشجر الجافة، ولا ماء سوى مياه المحيط المالحة.

وفي يوم مشئوم وصلت جميع الأمور إلى ذروتها.

انتابت سكراب نوبة غضب أخرى، وظلت تجري بعنف بمحاذاة طرف الطوف مقتربة على نحو خطر من المحيط الذي ينتظر أي فريسة في صبر، ممزقة أوراق الشجرة ولحائها، مطلقة صرخات مدوية. لقد صارت شديدة النحافة وأصبحت بطنها الضئيلة بلا لحم تقريبًا وفراؤها في حالة متدهورة.

هذه المرة لم يبعدها الذكور، وإنما ظلوا هم الثلاثة يراقبونها وكأنهم يخططون لأمر ما.

في النهاية أعادتها باتش. ألصقت الصغيرة بصدرها وجعلتها تمتص حلمة ثديها مع أنه لم يكن به لبن يمكنها أن تشربه.

مضى وايت بلاد نحو باتش. في الأعم الأغلب اقترب منها وحده، لكن هذه المرة تبعه كريست أكبر الأخوين، والفراء الذي يعلو عينيه يلمع تحت أشعة الشمس الحارقة. بدأ كريست يداعب باتش ووايت بلاد جالس بجانبه. تدريجيًّا اقتربت أصابعه نحو بطنها وأعضائها التناسلية. هذه إشارة واضحة على أنه يحاول معاشرتها.

بدا الذهول على باتش وتراجعت للخلف، وسكراب متعلقة ببطنها، لكن وايت بلاد ربت على ظهرها مهدئًا إياها إلى أن استقرت وسمحت لكريست بأن يقترب منها مرة أخرى. مع أن كريست ظل يلقي بنظرات متوترة نحو وايت بلاد، فإنه لم يتدخل.

غاصت رومر في جزء منحني من أحد الأغصان محدقة في الذكرين، مذهولة من سلوكهما الذي لم يكن نوث ليأتي بمثله أبدًا. نظرًا لأن عقول الرئيسيات تصبح أكثر تعقيدًا تدريجيًّا، فقد بدا أن إحساسًا بالذات ينتشر، منتقلًا من برجا الوحيدة إلى ذريتها الأكثر اجتماعية. كل هذا مكّن الأنثرو من أن يضعوا تحالفات ونظمًا هرمية جديدة تتسم بالتعقيد والدهاء، وأن يقوموا بخدع جديدة. كان نوث يتمتع بفهم ثاقب لمكانته في الترتيب الهرمي الذي يحكم مجتمعه وفي تحالفاته. بل إن جماعة الأنثرو أكثر تعقيدًا من هذا، فرومر تعي مكانتها بصفتها أدنى من باتش، لكنها تعي أيضًا مكانة الآخرين بعضهم من بعض. هي تعلم أن حيوانًا كبيرًا مثل وايت بلاد لا يسمح لكريست بأن يتصرف على هذا النحو، كأنه يشجعه على معاشرة أنثاه.

في النهاية تحرك كريست خلف باتش ووضع يديه على وركيها. استسلمت باتش للمحتوم. صدَّرت لكريست مؤخرتها الوردية وأبعدت طفلتها الناعسة عن صدرها، محاولة إعطائها لرومر.

لكن وايت بلاد قفز للأمام، وبدقة الرئيسيات التي تسكن الأشجار أخذ الطفلة من يد باتش. ثم جرى بسرعة نحو ليفت، حاملًا الطفلة من قفاها وتبعه بسرعة كريست وهو متوتر.

ذهلت باتش مما حدث. حدقت في وايت بلاد وهي لا تزال ترفع مؤخرتها لعشيرها الذي اختفى.

وقف الذكور مقتربين بعضهم من بعض، وظهورهم التي يغطيها الفراء تشكل حائطًا. رأت رومر كيف يحمل وايت بلاد سكراب وكأنه يرضعها.

رفست الصغيرة بقديمها الصغيرتين وزمجرت، رافعة بصرها لوايت بلاد. بعدها وضع وايتبلاد يده على رأسها.

فجأة فهمت باتش. أطلقت صيحة غضب وألقت بنفسها للأمام.

لكن الأخوين استدارا ليواجهانها. كان كل من الذكرين غير البالغين يفوق باتش حجمًا. مع قلقهما من إبداء العداء لأنثى تكبرهما، فإنهما نجحا في إبقائه بعيدًا بالصرخات واللطمات.

أطبق وايت بلاد يده. سمعت رومر صوت تحطم العظام، صوتًا يشبه صوت بوت بيلي يقضم ورقة شجر جافة. رفست الطفلة على نحو متشنج ثم ارتخى جسدها. نظر وايت بلاد إلى الجسد الضئيل لحظة وارتسمت على وجهه تعبيرات شتى، وهو ينظر إلى الوجه ذي اللون الزيتوني وقد التوى بسبب آلامه الأخيرة. ثم انقض الذكور على الجسد الصغير. عضوا الرقبة فانفصلت الرأس سريعًا. شد وايت بلاد الأطراف يمينًا ويسارًا إلى أن انكسرت الغضاريف وتكسرت العظام. لكن لم يكن اللحم هو أكثر ما يريده الذكور، وإنما الدم، الدم الذي يسيل من رقبة الطفلة الممزقة. شربوا بنهم من السائل الدافئ إلى أن تلطخت أفواههم وأسنانهم بلون أحمر فاتح.

أطلقت باتش صيحات غاضبة، واستعرضت قوتها، واندفعت بعنف في أنحاء الطوف، ممزقة الأغصان وأوراق الشجر الميتة، وضاربة ظهور الذكور متبلدة الحس. ارتجف الطوف وتمايل، فتعلقت رومر بغصنها متوترة. لكن هذا لم يشكل فارقًا.

لم يكذب وايت بلاد، ليس بالمعنى الحرفي للكلمة. مثل نوث قبله لم يكن قادرًا على استشفاف طريقة تفكير الآخرين، ولهذا لم يستطع أن يغرس المعتقدات الخاطئة في عقولهم، ليس بالضبط. لكن الأنثرو تتمتع بدرجة عالية من الذكاء الاجتماعي، ويتمتعون بمهارة حل المشكلات حين تواجه

تحديات جديدة. وايت بلاد عبقري إلى حد ما، تمكن من أن يشحذ قوى ذكائه ويأتي بالخديعة التي نجحت في أن تسرق سكراب من والدتها.

أطلقت باتش صيحة عميقة أخيرة، وألقت نفسها على جذع شجرة المانجو ساكبةً أوراق الشجر المحطمة حولها وكأنها تصنع عشًا. وظل الذكور يأكلون، وصوت الألسنة التي تمضغ بنهم والعظام التي تتحطم بين الأسنان يعلو.

شقت رومر طريقها ورائحة الدماء تملأ رأسها متجهةً نحو طرف الطوف حيث تتدلى أفرع الشجر الميتة في المياه على نحو يجعلها تشبه أصابع اليد.

بدت مياه المحيط العكرة كالحساء الخفيف، وهي تنبض بالحياة. امتلأت الطبقات العليا التي تضيئها الشمس بعوالق من طحالب غنية تشكل نظام بيئي غني متناهي الصغر. تشبه العوالق غابة في محيط، لكنها غابة بلا بنية فوقية من أوراق شجر وأغصان كبيرة وصغيرة، وجذوع أشجار، فليس بها سوى الخلايا الخضراء الضئيلة التي تحمل الكلوروفيل وتكوّن جزءًا من ظلة الغابة يعوم في محيط غني بالمواد المغذية. مع أن التكوين البيئي للعوالق لم يتغير طوال نصف مليار سنة، فإن الأنواع الموجودة فيه تبدلت، ووقعت فريسة للتغير والانقراض مثل كل الأنواع الأخرى، ومثلما يحدث على الأرض فإن هذه المملكة الممتدة في المحيط تشبه مسرحية تظل تعرض على مدار مدة طويلة ويتغير ممثلوها باستمرار.

مر قنديل بحر، وهو كائن يأكل العوالق شكله يشبه كيسًا شبه شفاف ينبض بمجموعة انقباضات وانبساطات بطيئة ضعيفة. بدا مغطى بأرجل فضية هي مجسات تحتوي على خلايا لاسعة يستطيع بها أن يشل طعامه من العوالق.

مقارنةً بمعظم الحيوانات تعد القناديل كائنات بسيطة. فهي متماثلة تماثلًا شعاعيًّا بسيطًا، وليس لها جسد به هيكل عظمي، وتنظيم نسيجي. وليس لها دماء، لكنها قديمة الشكل جدًّا. ففي وقت من الأوقات امتلأ المحيط بكائنات تشبه قناديل البحر إلى حد ما، ألصقت نفسها بقاع المحيط محولةً إياه إلى غابة من المجسات اللاسعة. لم تكن بحاجة لأن تصبح أكثر

نشاطًا، لأنه لم تكن هناك كائنات مفترسة أو كائنات آكلة عشب تزعجها، إذ لم يكن في البيئة أكسجين يكفي تلك الوحوش الخطيرة.

أبهر المحيط رومر. ففي عالمها المياه هي مادة موجودة في البرك والأنهار وأوراق الشجر المكورة، وهي مادة عذبة خالية من الملح يمكن أن تشربها وقتما شعرت بأمان يكفي لأن تفعل هذا. ليس في خبرتها أو برمجتها العصبية الأساسية ما يعدها لأن تكون محبوسة فوق هذه المياه التي تنطلق فيها كائنات غريبة مثل قنديل البحر.

شعرت بالعطش، بل بالظمأ. مدت يدها وغاصت بها في هذا الحساء العكر ثم ملت يدها ماء ورفعت إلى فمها. نسيت أنها فعلت هذا قبل ما لا يقل عن ساعة ونسيت سوء طعم المياه المالحة.

رأت أن الذكور قد فرغوا من تناول الطعام. ثم دخلوا في حالة من السبات تحت وطأة حرارة النهار التي لا تهدأ. أما عن باتش فكل ما يُرى منها هو قدم واحدة الْتَوَت أصابعها وبرزت من عشها الذي تمكث فيه وحدها.

بحذر شقت رومر طريقها إلى المكان الذي ذبحت فيه الطفلة. الدماء تلطخ أفرع الشجرة وبها آثار لعق ألسنة الأنثرو. بحثت رومر بين أوراق الشجر بعناية. لم تجد شيئًا تبقى من الطفلة سوى مجموعة مبعثرة من الفراء، ويد صغيرة كاملة مقطوعة من الرسغ. أمسكت اليد وتراجعت إلى ركن من أركان الطوف مبتعدةً عن الآخرين إلى أقصى مدى ممكن.

وجدت اليد مرتخية واهنة كأنها يد طفل نائم. مررتها رومر على صدرها للحظات وتذكرت كيف كانت سكراب تمسك بفرائها.

لكن سكراب رحلت.

عضت رومر لحم السبابة قرب المفصل. وجدت اللحم طريًّا فأثار حنكها الجاف. بقضمة سريعة مرتعشة فصلت اللحم عن العظم. كررت هذا مع باقي الأصابع ثم التهمت لحم راحة اليد الصافي. عندما لم تعد اليد أكثر من هيكل عظمي تقريبًا، وليس بها سوى قليل من بقايا الغضاريف واللحم المتدليين منها، قضمت العظام الضئيلة التي تصدر صوت صليل، لكنها لم تجد سوى القليل من النخاع.

ألقت بالعظام المكسرة إلى المحيط شديد العمق. رأت أسماك فضية صغيرة تجتمع بسرعة قبل أن تغوص العظام في الأعماق بعيدًا عن عينها.

مكثت باتش في العش الذي بنته من أوراق الشجر طوال يومين بلا حركة تقريبًا. ظل الذكور مستلقين بلا حراك ولا نظام، وكانوا من حين لآخر ينزع بعضهم من فراء بعض الذي قلت كثافته.

جابت رومر أنحاء الشجرة بفتور باحثةً عن الراحة. لم يعد بفاها لعاب. تيبس لسانها حتى صار كتلة لا تحس ولا تتحرك، وأصبح كحجر في فمها. لم تستطع أن تصرخ أو تصيح، كل ما بوسعها هو أن تطلق تأوهات غير واضحة المعالم. وجدت نفسها تعبث بغائط بوت بيلي الجاف باحثةً عن جسم رطب، ربما وجدت القليل من لب حبات الجوز بين المخلفات. لكن روث الحيوان آكل أوراق الشجر كان جافًا ضئيلًا. غمرها حزن شديد وإرهاق وتقلبت بين يقظة ونوم.

في اليوم الثالث بعد موت سكراب تحركت باتش. راقبتها رومر بفتور. وقفت بسرعة على قوائمها الأربعة، فأصابها دوار إثر تأثر توازنها سلبًا بالمدة الطويلة التي قدتها بلا حراك وتعثرت، ورأتها رومر تمسك بطنها. إنها حامل من وايت بلاد، والحمل يستنزف العناصر الغذائية من جسدها المنهك بالفعل. لكنها رفعت نفسها وتوجهت نحو الذكور بإصرار.

جلس كريست مستقيمًا وباتش تقترب منه، فشعر بتوتر وكأنما يتوقع هجومًا. استطاعت رومر أن ترى لسانه المسود يخرج من فمه. والفراء الذي يغطي وجهه به بقع بنية إثر تلطخه بدماء سكراب.

لكن باتش جلست بجواره وبدأت تمرر أصابعها على فرائه. لم ينجح التودد نجاحا تامًّا. فأجسادهم كلها فقدت فراءها وأصيبت جلودهم بقروح وجراح لن تشفى، وبينما هي تتودد إليه فتحت الجروح التي التأمت واصطدمت بالكدمات. لكنه استسلم لها مرحبًا باهتمامها رغم ما يشعر به من ألم.

ابتعدت عنه قليلًا واستدارت مصدرةً دبرها له. لم تكن في أفضل حالاتها، ففراؤها أشعث، وجلدها مجروح، وتوردها انتهى قبل أيام من

الموعد الطبيعي لهذا. ومع هذا فإنوا وهي تضغط بمؤخرتها على صدر كريست استجاب لها وانتصب عضوه الذكري.

حينها انتبه وايت بلاد أخيرًا لانتهاك الترتيب الهرمي. ليس ما يحدث كالخدعة التي قام بها، وهو غير مقبول. هب مطلقًا صيحة غضب هستيرية بمساعدة لسانه المصاب. فتراجع كريست.

لكن باتش هاجمت وايت بلاد على الفور صادمة صدره برأسها وضاربة صدغيه بقبضتيها. سقط مذهولًا. أسرعت باتش عائدة إلى الذكور الآخرين وصدرت لهم دبرها على نحو روتيني مطلقة بعض الصيحات، ثم ألقت نفسها مرة أخرى على وايت بلاد.

تغيرت التحالفات بلا مقدمات وانتهت هيمنة وايت بلاد. دون أن يحتاج الأخوان ولو إلى تبادل النظرات، اتخذا قرارًا سريعًا. انضما لباتش في هجومها على وايت بلاد. بدأ وايت بلاد يصد الهجوم مطلقًا صرخات منخفضة صادًّا الضربات التي انهالت عليه.

كانت المعركة هزلية اشترك فيها أربع كائنات منهكة تمامًا. جاءت الضربات الموجهة بالأيدي والأقدام ضعيفة بطيئة، وشُنت في صمت لم تقطعه سوى شهقات الألم والإعياء، ولم تسمع الصرخات العالية الحادة وصيحات الاستياء التي عادةً ما تصاحب أي هجوم يقوم به صغيران ضد ذكر ذي سيادة.

ومع هذا فالهجوم كان مميتًا. فبقيادة باتش قاد الأخوان وايت بلاد خطوةً بخطوة نحو حافة الطوف.

باتش هي من وجه له الضربة القاضية، إذ دفعته في بطنه وهي تطلق صرخة غضب تنفطر لها القلوب. تقهقر وايت بلاد وسقط من على أفرع الشجر المحلولة التي تقع في أقصى طرف الطوف واقعًا في المياه. أخذ يعلو ويهبط ويضرب المياه بيديه ويخرجها من فمه، وتشرب فراؤه المياه على الفور معيقًا حركته. نظر إلى الطوف باكيًا بضعف كالأطفال.

أصيب كريست وليفت بالارتباك. إنهما لم يقصدا قتل وايت بلاد، فعدد قليل جدًّا من المعارك التي دارت بين الأنثرو للفوز بالهيمنة انتهت بالقتل.

شعرت رومر بأسى غريب. فعددهم قليل بالفعل، وحذرها حدسها أن عدم كفاية عدد الذكور الذين من الممكن أن تتزوجهم أمر سيئ. لكن فات أوان هذا.

خارت قوى وايت بلاد بسرعة، وسرعان ما صار بذل المجهود اللازم لإبقاء فمه وأنفه فوق المياه أمرًا يفوق طاقته، وكف عن الكفاح. جذبت الدماء السائلة من جراحه القرش، فالتهم جسده بقضمة واحدة.

بعد هذا زاد عناء المجموعة، فالطوف الذي يطلق صريرًا منطلق ببطء على صفحة المحيط الضخمة التي لا ترحم، وهذه المخلوقات الصغيرة تستنزف مخزونها الغذائي بسرعة، ولم يكن هناك بد من أن يمضي الحال إلى الأسوأ.

تورمت أطراف رومر. جلدها المنهك دائمًا ما يؤلمها ويتشقق بسهولة. انحشر لسانها بين فكيها وكأن فمها ممتلئ بكتلة ضخمة من الروث الجاف. تشقق جفناها وشعرت وكأنها تبكي لكن حين لمست فراءها وجدت دمًا يسيل من مقلتيها.

أصبح جسمها يتجفف وهي على قيد الحياة.

وفي صباح أحد الأيام سمعت صرخة عالية وضعيفة كصرخات العصافير.

دفعت عنها غطاءها من أوراق الشجر واعتدلت في جلستها. صار العالم أصفر، وسمعت صوت رنين غريب. من الصعب عليها أن ترى شيئًا فبصرها كأنه مغلف بالضباب، وعندما حاولت أن ترمش بعينيها لم يفدها ذلك لأن جسدها لم يمدها بأي رطوبة.

ومع هذا فقد رأت اثنين من الأنثرو — هما باتش وكريست — جالسين جنبًا إلى جنب بجوار جسد معتم مكور. ربما هذا طعامًا. شقت طريقها لتنضم إليهما وهي تشعر بالألم.

وجدت ليفت راقدًا منبسطًا وكل طرف من أطرافه متمددًا في اتجاه.

أدت حرارة الشمس اللافحة مهمتها على أتم وجه. لا يكاد يبقى أي من فرائه الأبيض على رأسه أو رقبته. تقلص اللحم الذي يكسو عظامه وصار بوسع رومر رؤية شكل جمجمته وعظام يديه وقدميه وحوضه. صار لون جلده غير المغطى بالفراء أرجوانيًّا ورماديًّا، وصار مغطى ببقع وبثرات.

ذبلت شفتاه وتحولتا إلى شريطين رفيعين من النسيج المسود كاشفتين عن أسنانه ولثته المشققة. بدا باقي وجهه أسود جافًّا وكأنه قد حرق. ذبل اللحم المحيط بأنفه فتمددت فتحتا أنفه الصغيرتان المفلطحتان، كاشفتين عن باطنهما الأسود. ضمر جفناه أيضًا كاشفين عينيه المحدقتين في الشمس دون أن تريانها أو ترمشا. الملتحمة التي تغلف عينيه صارت سوداء كالفحم بعد أن انكشف غطاؤها. خربش لحاء الشجرة في بؤس باحثًا عن طعام وجرح يديه وقدميه، غير أنه لا يوجد أثر للدم فالجروح أشبه بخدوش في جلد مدبوغ.

لكنه لا يزال واعيًا يصدر صيحات حزينة. حرك رأسه ببطء ثم فرد أصابع يده اليسرى الأكثر قوة.

في النهاية استهلك جسد ليفت نفسه وهو يحاول جاهدًا أن يبقي أجهزته الحيوية تعمل لأطول مدة ممكنة دون أن يحصل على أي غذاء. فور أن نفدت دهون جسده بدأت عضلاته تصاب بالضمور، مما ألحق ضررًا كبيرًا بأعضائه الداخلية فبدأت تتوقف عن العمل بعد أن تدهورت تدهورًا كبيرًا.

لكن في هذه اللحظات الأخيرة لم يكن ليفت يشعر بالألم، ولم يعد يشعر بجوع أو عطش.

راقبته رومر وهي تشعر بدوار وذهول، وكأنها تشاهد هيكلًا عظميًّا حيًّا.

تلاشت صرخات ليفت الأخيرة وآلت إلى الصمت. ظلت أصابعه ممتدة وقد تجمدت إلى الأبد في الوضع الأخير الذي اتخذته. أصدرت معدته المنكمشة صوتًا منخفضًا وخرج من بين شفتيه اللتين فقدتا الحياة تجشؤ أخير رائحته عفنة.

نظرت رومر إلى الآخرين نظرة خاوية. رأت أكوامًا من العظام واللحم الهزيل، وحالها ليس أفضل كثيرًا من حال ليفت، ولم يعد من الممكن تمييز أنها من الأنثرو. لم يقوموا بأي محاولة للمداعبة أو للتواصل. بدا الأمر كما لو أن الشمس بخرت كل ما يجعلها أنثرو، وسلبتها كل المزايا التي اكتسبتها بشق الأنفس على مدار ثلاثين مليون سنة من التطور.

استدارت رومر وعرجت بألم نحو بقعتها المكسوة بأوراق شجر ملوثة طالبة الحماية.

رقدت في سكون ولم تتحرك لتهدئة آلام الأجزاء المتقرحة التي تفرز قيحًا. بدا عقلها خاويًا بلا فضول. عاشت في فراغ ممل. كدست فمها بأوراق الشجرة الجافة وبلحائها، لكن لم يكن من هذا الطعام الميت إلا أن يخدش لحمها المجروح.

ظلت تفكر في جثة ليفت.

نهضت ببطء ومشت إلى جسد ليفت. وجدت أن صدره قد انشق وحدث فيه جرح بعد وفاته بسبب جفاف جلده. لم تكن الرائحة سيئة جدًّا على غير المعتاد. في هذه الصحراء القاحلة غابت عملية التحلل التي تكون سريعة في الغابات، بحيث تستهلك الجثمان بسرعة، واستمرت عملية التجفيف البطيئة التي بدأت وهو لا يزال على قيد الحياة.

دفعت يدها في الجرح بحذر. لمست ضلوعه الجافة بالفعل. شدت بقوة اللحم الذي يغطي صدره فانتُزع بسهولة كاشفًا عن القفص الصدري.

لا يكاد يبقى في جسده أي نسيج عضلي. لا يوجد أي دهون أيضًا، كل ما هناك هو بقايا مادة لزجة نصف شفافة. في تجويف جسم ليفت بوسعها أن ترى أعضاءه، أن ترى قلبه وكبده وكليتيه. تقلصت جميعًا وصارت كالثمار السوداء الصلبة.

ثمار، صحيح!

دفعت رومر يدها في التجويف الصدري. انشق القفص الصدري مصدرًا صوت تحطم وكاشفًا عن الثمار الغنية باللحم بداخله. أطبقت يدها على القلب المسود. خرج في يدها بسهولة محدثًا صوت تمزق منخفضًا.

جلست حاملة القلب وقضمته وكأنه لا يزيد غرابة عن نوع لا تعرفه من أنواع المانجو. وجدته مليئًا بالعضلات والألياف التي قاومت أسنانها المتأرجحة في فمها. لكنها سرعان ما نجحت في تمزيق العضو وكوفئت بسائل قليل هو دم في أعماقه لم يكن قد جف بعد.

بدلًا من أن يخفف اللحم آلام الجوع لم يكن منه إلى أن ألهب رغبة رومر الطبيعية في الأكل. سال اللعاب في فمها مرة أخرى، واندفعت العصارة الهضمية في معدتها مسببة لها ألمًا. قاءت أول قضمات تناولتها ملقية إياها للمحيط، لكنها لم تستسلم إلى أن مكث اللحم المليء بالألياف في معدتها.

كانت عينا ليفت البيضاويان سمينتين ولا تزالان تحدقان في الشمس التي قتلته، ويده اليسرى مضمومة في نفس الوضع الأخير الذي اتخذته.

تحركت باتش. مضت تجري ببطء وحذر نحو رومر. جسدها كرداء ضيق تتعلق به مجموعة قليلة من فرائها الأسود الجميل. بحثت في صدر ليفت المفتوح والفضول يعتريها. خرجت بالكبد والتهمته بسرعة.

أثناء ذلك لم يتحرك كريست ولم يبد أي إشارة على اهتمامه بمصير أخيه، فقد رقد على جانبه باسطًا أطرافه. ربما يكون قد مات لكن رومر لمحت حركة خفية، لمحت ارتفاع صدره وانخفاضه ببطء كبطء حركة المحيط، إذ كان يستثمر آخر ما بقي من قواه في الاستمرار في التنفس.

حينها تحرك حدس رومر. حملت باتش من وايت بلاد، لكن ربما يكون جسدها قد قضى على الجنين مستنزفًا إياه مثلما يستنزف عضلاته ودهونه ليظل يعمل. أنثيان بمفردهما ليس أمامهما ما ينتظراه سوى الموت. لذا يجب الحفاظ على كريست، آخر الذكور.

عادت رومر إلى الجثة وانتزعت الكلية، وهي قطعة جافة من اللحم المسود المصاب بالضمور. حملتها لكريست ودفعتها في فمه الواهن. أخيرًا تحرك. مد يده بحركة ضعيفة كحركات الرضع وأمسك بقطعة اللحم وبدأ يتناولها ببطء.

لم يكن من هذا الطعام إلا أن زاد جوعه، لأنه افتقر إلى الدهون التي تمكنه من الهضم على أتم وجه. ومع هذا فإن الناجين الثلاثة عادوا للجسد مرة بعد أخرى آتين على تجويف الجسد، آكلين اللحم الذي يكسو الأطراف والضلوع والحوض والظهر. عندما فرغوا من تناول اللحم لم يبق سوى عظام مبعثرة، عظام وجمجمة لا تزال تحدق مقلتاها في الشمس.

بعد هذا عاد الأنثرو الثلاثة إلى أركانهم التي تخيم عليها الوحدة. لو أنهم بشر لبدأت حسابات قاسية تعتمل في عقولهم بعد أن انتهكوا حرمة التهام لحم كائن من نفس نوعهم. فموت واحد منهم سيوفر للناجين مزيدًا من الطعام ويقلل عدد من يقتسموا ذلك الطعام.

لعلها رحمة أن الأنثرو غير قادرين على التخطيط إلى هذا الحد.

٤

اهتز الطوف تحتها. هذه الحركة أعنف من حركة المحيط البطيئة لتي لا يتركز أثرها على بقعة محدودة. لكنها لم تكن في حالة تسمح لها بالشعور بالفضول، وإنما جلست في سلبية على فراشها الخشن فوق الطوف وأفرع الشجر المربوطة بعُقَد تخز لحمها الهزيل.

صار الألم لا يفارقها. شعرت بأن عظامها تخترق جلدها، وشعرت بأن جلدها ما هو إلا قرحة عملاقة. لا تستطيع أن تغلق جفنيها الجافين. ذاكرتها تشبه قاعة صور غير منظمة، يطل منها إحساسها بأصابع أختها القوية وهي تنظفها، ورائحة لبن أمها الدافئة التي تشعرها بالأمان، والصيحات الوقحة التي يطلقها الذكور الذين يعتقدون أنهم يملكونهن جميعًا. لكن عندها تتبعثر أحلامها الباهتة بسبب ظهور أفكاك ضخمة تسيل منها اللعاب من القاع ....

حدثت هزة أخرى، هزة صحبها صوت صرير أخشاب جافة من حولها. سمعت صوت أمواج تتصادم وكان مختلفًا عن صوت اصطدام المياه الواهن في أعماق المحيط.

زقزقت الطيور فوقها.

رفعت بصرها، فرأت أول طيور تقع عينها عليها منذ أن جرفتها المياه بعيدًا عن الأرض. إنها ناصعة البياض تحلق عاليًا في مسار دائري.

تحرك شيءٌ ما على صدرها. شعرت وكأن هذا الشيء أصابع تحاول أن تحك جلدها، ربما هناك أحد يحاول أن يتودد إليها. بجهد جهيد رفعت رأسها. تأرجحت وشعرت بجلدها يخنقها، وبأن لسانها لوح خشب في فمها. وجدت صعوبة في النظر بعينيها الداميتين.

وجدت كائنًا يزحف عليها، جسده مسطح برتقالي اللون له أرجل كثيرة مقسمة إلى أجزاء ومخلبين ضخمين مرفوعين. أطلقت صيحة ضعيفة ومسحت صدرها بذراعها. جرى السرطان مبتعدًا بسرعة وغضب.

شمت رائحة جديدة بأنفها التي لفحتها الشمس جاعلة إياها سوداء كالقطران. إنها المياه. ليست الرائحة البغيضة التي تنبعث من المياه شديدة الملوحة، وإنما من المياه العذبة.

رفعت ذراعها وأمسكت بأوراق الشجر. كل خلية من خلايا لحمها المصاب باحمرار صارت مصدر ألم مبرح لها وندباتها وبثراتها تشد وتنفتح. رفعت نفسها بقوة إلى أن نجحت في أن تنهض وسيقانها مطوية تحتها. مالت رأسها إذ كانت أثقل مما تتحمل رقبتها. واحتاجت طاقة أكثر لترفعها وتبصر بعينيها المجروحتين.

لون أخضر.

رأت بقعة خضراء أفقية تمتد على مساحة شاسعة. كان هذا أول شيء أخضر تراه بعد أن تقوست آخر أوراق شجر المانجو وصار لونها بنيًّا. بعد أيام عديدة من رؤية اللونين الأزرق والرمادي للمحيط والسماء فقط، بدا الأخضر نضرًا زاهيًا، زاهيًا لدرجة أن رؤيته كادت تؤلم عينيها، كان جماله يفوق الخيال، وبدا أن النظر إليه يزيدها قوة.

دفعت نفسها للأمام وهي تزحف تقريبًا. وخزتها أوراق شجر المانجو الميتة وجرحتها، لكن لم يكن بجسدها دم يسيل، لم يكن به إلا عشرات مصادر الألم.

وصلت إلى حافة الطوف. لم تجد محيطًا أو مياهًا. رأت شاطئًا ضحلًا من الرمال الخشنة أسفل منحدر يرتفع حتى بداية غابة متناثرة الأشجار. الطيور الزرقاء والبرتقالية زاهية الألوان ترفرف بين قمم الأشجار مغردة تغريدًا مبهجًا.

الانطباع الأول الذي أخذته يمكن تلخيصه في الجملة التالية: «عدت لموطني.» لكنها كانت مخطئة.

جرّت نفسها على أفرع الأشجار وكادت تقع على الرمال. كانت ساخنة، بل شديدة السخونة وحرقت جلدها المكشوف. بكت بكاءً ضعيفًا ورفعت نفسها ثم عرجت كأنما صارت طاعنة في السن قاطعة الشاطئ، ماضية نحو الغابة.

عند حافة الغابة توجد أشجار سرخس منخفضة وظل رائع. هناك أشجار أكثر طولًا باسقة فوقها. على فروعها مجموعات من فاكهة حمراء لا تعرفها. كان فمها جافًّا لدرجة تمنع لعابها من أن يسيل، لكن لسانها ظل يصطدم بأسنانها.

ألقت نظرة على الطريق الذي أتت منه. شجرة المانجو التي صارت طوفًا نباتيًّا لا تعدو أن تكون قطعة خشب مكسرة عفنة تتعلق بها الطحالب البحرية وجرفتها المياه إلى هذا الشاطئ. تستطيع أن ترى جسد أنثرو لا يتحرك — هو جسد باتش أو كريست — يرقد هامدًا على هذا النبات المتكسر الذي يغطيه الملح. وراء الطوف هاج المحيط الضخم ذو اللون الأزرق المائل إلى الرمادي، إنه لا حد له، يمتد إلى أقصى ما يراه بصرها، مشكلًا أفقًا من الكمال الهندسي المبهر.

بدأت تسمع صوت وقع أقدام مرتفعًا يصاحبه صوت تكسر أوراق شجر مرتفع. فتراجعت رومر.

ظهر جسم عملاق من الغابة وكأنه دبابة ضخمة تمشي على النباتات. بدا ضخمًا قصيرًا يغطي جسمه درع عظمي ضخم يشبه القبة، كسلحفاة عملاقة — بل ربما مثل فيل مدرع — إذ إن له جسدًا عملاقًا مصفحًا تحمله أربعة أرجل قصيرة بدينة. في مؤخرة جسده يتأرجح بلا مبالاة ذيل كعصا مسننة تنتهي بعقدة. ورأسه الصغير المدرع يخرج للنور رمش جفنيه المدرعين. هذا المخلوق العملاق الذي يشبه الأنكيلوصور هو حيوان الجليبتودون Glyptodont. لم تر رومر أبدًا مخلوقًا مثله في أفريقيا.

لكن هذه ليست أفريقيا.

مشى الوحش المدرع العملاق بعيدًا في خطى متثاقلة. تبعته رومر بحذر في أعماق الغابة. وصلت إلى أرض بلا زرع يحيط بها حائط من أشجار طويلة مبهرة. وجدت الأرض مغطاة بنبات الصبار. جربت رومر قضم ورقة من أوراقه، فوجدته مليئًا بالعصارة، لكنه مر.

توغلت إلى الأمام ووجدت دلائل وجود مياه راكدة. اتضح أن هذه المياه هي بركة ضحلة من المياه العذبة، تعوق مجراها مجموعة من الحشائش. على جانب البركة يرعى زوج من الحيوانات الضخمة، كانتا تأكلان النباتات النامية على طرف البركة بخراطيم تشبه المغارف. بدوا قريبي الشبه من فرس النهر، لكنهما في الواقع من القوارض العملاقة.

تقع البركة على حافة سهل واسع، حيث ينتظر رومر ألغاز أكثر غرابة. مخلوقات من المحتمل أن تصبح خيلًا أو جمالًا أو غزلانًا أو حيوانات

أصغر كالخنازير ذات الحوافر. بجانبهم تتحرك مجموعة صغيرة من عائلة الدينومايد Dinomyid، وهي حيوانات ضخمة تشبه الدببة وتأكل النباتات. هذه الحيوانات قوارض عملاقة تعد أقارب للفئران والزغبة، لكنها تفوقهما حجمًا إلى حد بعيد. توجد أيضًا حيوانات مفترسة، مخلوقات تجري في مجموعات مثل الكلاب، غير أن أجسادها بها أجربة وتربطها صلة قرابة بعيدة بنظيراتها ذات المشيمة الموجودة في الأماكن الأخرى، تشكلت بفعل التطور التقاربي وتكيفت مثلها لأداء نفس الدور.

تحركت رأس في منطقة خضراء معتمة بالقرب من رومر متسببة في إفزاعها. كانت الرأس مقلوبة رأسًا على عقب وعينان سوداوان يحدقان فيها بنظرات خاوية. فوق الرأس يوجد جسم ضخم — مغطى بفراء بني — معلق من أطراف، تمسك بفرع شجرة. هذا هو حيوان الكسلان، نوع من أنواع جنس الميجاثيريوم Megatherium.

أخيرًا زحفت رومر نحو البركة بحذر. المياه عكرة دافئة لونها مائل إلى الاخضرار. لكن حين غمست وجهها فيها وجدتها ألذ ما ذاقته على الإطلاق. شربت بنهم جرعات كبيرة. سرعان ما امتلأت معدتها المنكمشة واعترت جسدها آلام مبرحة، وكأنها تتمزق من الداخل. سقطت وهي تصيح وتقيأت كل ما شربته تقريبًا. لكنها دفعت وجهها مرة أخرى في المياه وشربت من جديد.

كانت هذه البحيرة بمياهها المالحة قليلًا في واقع الأمر منخفض، عمقه خمسون مترًا وتسبب في حدوثه إذابة المياه الجوفية للأحجار الجيرية. يوجد عدد كبير من هذه المنخفضات في المنطقة، وهي تصطف بطول صدوع ضخمة موجودة في أعماق الصخور.

عندما ينظر المرء إلى المنخفضات من السماء يرى أنها تشكل نصف دائرة عملاقة يبلغ محيطها مائة وخمسين كيلومترًا. القوس الذي تشكله المنحدرات يشير إلى صدع حدودية شكلتها حفرة تشيك شولوب القديمة، التي ردمت منذ سنوات طويلة، ويمتد ما بقي منها تحت مياه خليج المكسيك الضحلة ورواسبه. إنها شبه جزيرة يوكاتان.

بعد أن لفظ نهر في أفريقيا الطوفَ الذي ركبته رومر وحملته التيارات المتجهة غربًا، فإنه عبر المحيط الأطلسي.

لا يوجد مكان على الأرض منعزل حقًا.

فتيارات المحيطات تربط الأماكن كلها، وتقطع أحيانًا مئات الكيلومترات يوميًّا. التيارات الضخمة هي كسير نقال يحمل حطام السفن حول العالم. في العصور التالية سيحرق ساكنو جزيرة عيد الفصح ألواح خشب أحمر أمريكي حُمل إلى الشاطئ بعد أن قطع رحلة بلغت خمسة آلاف كيلومتر. وسيصنع الأشخاص الذين يعيشون على الجزر المرجانية الواقعة في قلب المحيط الهادئ أدوات من أحجار مغروسة في جذور الأشجار، التي تركتها المياه بعد انحسارها عن الشاطئ.

مع حطام السفن سافرت الحيوانات. بعض الحشرات ركبت صفحة المياه نفسها. وهناك مخلوقات أخرى عامت، فالتيارات المتجهة غربًا من الممكن أن تحمل السلاحف الجلدية الظهر عبر المحيط الهادئ من مناطق رعيها قرب جزيرة أسينشان آيلاند إلى مناطق رعي في الكاريبي.

عبرت بعض الحيوانات المحيطات على أطواف تكونت مصادفة في ملاحم عاشوها دون اختيار منهم أو تخطيط وإنما بسبب تقلب الحظ، مثلما حدث مع رومر.

كان المحيط الأطلنطي الذي أخذ يتسع منذ تفكك قارة بانجيا العملاقة لا يزال أكثر ضيقًا مما صار عليه في عهد البشر، إذ لم يزد عرض أضيق منطقة به عن خمسمائة كيلومترًا، وهذه مساحة ليس من المستحيل قطعها، بل كان من الممكن للمخلوقات الضعيفة التي تعيش في الغابات مثل رومر أن تجتازها بمساعدة الحظ. إن حدوث مثل رحلات العبور هذه أمر بعيد الاحتمال، لكنه ممكن، بفضل فيضانات الأنهار العملاقة، وضيق المحيطات، وربما بفضل رياح الأعاصير.

على مدار العصور عبر ملايين السنين أنكر الحدس البشري الحظ. فوعي الجنس البشري بالمخاطر وبالأمور التي يعد حدوثها بعيد الاحتمال هو وعي غير موضوعي يلائم المخلوقات التي تقل مدة حياتها عن نحو قرن

مثلًا. الأحداث التي تقع بمعدل أقل من هذا، مثل ارتطام الكويكبات، تقع في العقل البشري تحت فئة الأحداث المستحيلة، وليس تحت فئة الأحداث نادرة الوقوع. لكن مع هذا فإن حوادث ارتطام الكويكبات تقع، ولن يبدو وقوعها بعيد الاحتمال لمخلوقات تعيش مدة تبلغ نحو عشرة مليون عام.

بمرور ما يكفي من الوقت فإن تلك الأحداث غير المحتملة مثل عبور المحيط من أفريقيا إلى أمريكا الجنوبية سيقع حتمًا، مرارًا وتكرارًا، وسيتدخل في تشكيل مسار الحياة.

وهذا ما حدث. في الأشجار المرتفعة فوق رومر بل في القارة كلها، لم يكن هناك أي كائن من الرئيسيات، إذ إن الكائنات التي تربطهم بها صلة قرابة بعيدة، الذين هم أبناء برجا الآخرين انقرضوا في هذا المكان منذ ملايين السنين، بعد أن هزمهم الضغط التنافسي الذي وضعتهم القوارض فيه.

لذا فإنه في هذا المكان الذي انتهى عالمه منذ زمن، والذي ترعى في غاباته المختلفة كائناتٌ تطورت على نحو مختلف، بدأت حياة جديدة تمثل سلالة جديدة من نسل أسرة برجا العملاقة. ستتفرع سلسلة كاملة من الأنواع الجديدة من الناجين الثلاثة فقط؛بعد أن يأخذوا ما يكفي من الوقت وتتفاعل المادة الوراثية بأجسادهم تفاعلها البطيء المفضي إلى التغير.

بكل المعايير ستكون قردة العالم الجديد ناجحة. لكن في هذه القارة المزدحمة المكونة من مجموعة غابات سيكون مصير أحفاد رومر مختلفًا عن مصير أحفاد أخواتها في أفريقيا. هناك ستتخذ الرئيسيات أشكالًا جديدة بسرعة بسبب تعرضهم لتغيرات جذرية بفعل المناخ المتقلب. هناك ستواصل سلالة برجا رحلة التشكل البطيئة التي تمر بالقردة وتفضي إلى ظهور البشرية. بل إن القردة التي ستأتي بعد هذا والتي تشبه رومر كثيرًا ستعيش في أماكن بعيدة عن الغابة، وستجد سبلًا للعيش في غابات السافانا وفي الهضاب الجبلية، بل في الصحراء.

سيكون الأمر مختلفًا. في قارة أقل تقلبًا سيكون دائمًا من المغري البقاء في الغابات المطيرة الشاسعة.

لن يترك أحفاد رومر الأشجار أبدًا. لن يصبحوا أكثر ذكاء مما هم عليه الآن. ولن يكون لهم أي دور في تحديد مصير البشرية مستقبلًا، إلا

بقدر ما للحيوانات الأليفة والفرائس والكائنات التي تثير الفضول العلمي منَ دور في هذا.

لكن كل هذا يقع في المستقبل الذي لا يمكن تصوره.

شعرت رومر أن الحياة عادت تدب فيها بفضل المدة القصيرة التي قضتها في المنطقة الخضراء، وبفضل المياه التي شربتها. نظرت حولها، رأت على الشجيرات بقعة حمراء، فمشت نحوها في خطى متعثرة. وجدت ثمرة لا تعرفها لكنها كثيرة اللحم طرية الجلد، فقضمتها. وهي تمضغ اللحم اندفع منه العصير ونقط على فرائها. كانت أحلى ما ذاقته في حياتها.

الفصل السابع

الجحر الأخير

أرض إلسوورث، قارة أنتركتيكا، قبل نحو عشرة ملايين عام من عصرنا الحالي.

١

كانت أعداد ضخمة من حيوانات الحفارات — التي بدت كبساط من الفراء بني ورمادي، يكسو سطحًا متعرجًا — تعمل في الحشائش الخشنة، والضعيفة المتشبثة بالتلال.

هنا رصدت ديج رقعة من نباتات السرخس الكثيفة، تنمو على لسان صغير يُطل على المحيط، وسلكت هناك طريقًا بدا لها أن حشود الحفارات فيه أقل كثافة، واتخذت من هذه الرقعة مأوى لها، والتقطت سعف النخيل، وفصلته بخفة يدها ذات الأصابع الخمسة، وقضمت لباب النبتة البني برقة.

وعندما بلغت ديج الثالثة من العمر كانت قد أصبحت من أقدم الحفارات، ولم يكن طولها يتعدى بضعة سنتيمترات، إنها بدينة مستديرة وتكسوها طبقة سميكة من الفراء البني، ليحفظ درجة حرارة جسمها، تبدو مثل القوارض، لكنها لم تكن منها، بل كانت من الرئيسيات.

من هذا المكان استطاعت أن ترى المحيط، والشمس تدنو من أقصى السماء الشمالية، فوق المياه الممتدة المُحال عبورها، فعندما يقترب الخريف القطبي تقضي الشمس أكثر من نصف اليوم تحت الأفق. وبعيدًا عن اليابسة استطاعت ديج أن ترى كتلًا متجمعة من الثلج في شرائح ضخمة، ورأت بالقرب من الساحل ثلجًا رماديًّا، يبدو كما لو كان ذائبًا، لكنه شرائح ضخمة تطفو على سطح المياه العالية. إنها تدرك ما تعنيه هذه الأشياء،

فنهار الأيام الصيفية لم يكن سوى ذكريات مشوشة، وسرعان ما سيكون عليها أن تتحمل الظلام المتواصل للشهور الشتوية.

على إحدى صفائح كتل الثلج رأت بقعة دموية تلطخ السطح اللامع، ورفات جثة هامدة من اللحم لا يمكن التعرف عليها. وفي السماء تحوم طيور وتنعق، منتظرةً نصيبها من الفتات الملطخ بالدماء. وينزلق ظلٌّ ممتد قوي على المياه، ويندفع خـطوم ضخم من المياه الباردة، لكي يأخذ نصيبه في الفريسة.

إنه حيوان بحري برمائي من آكلي اللحوم، ينحدر من فصيلة تسمى كولوسوكس Koolasuchus، يبلغ طوله أربعة أمتار، ويبدو مثل ضفدع وحشي مفترس، حيث يُعدُّ الضفدع من بقايا العصور القديمة، عندما كانت البرمائيات تسيطر على العالم. ،في المناخ المداري تعرضت أسلافها للهزيمة من التماسيح، التي تتشابه معها إلى حد بعيد في الحجم والشكل. أما البرمائيات الضخمة فقد تدهورت مع أول ظهور للديناصورات على الأرض، لكنها تمسكت بالعيش في المياه القطبية الباردة.

وعلى الرغم من وجود مسافة تفصل ديج فقد ارتجفت وتقوقعت أسفل السرخس.

وتسبب ظهور كائنٍ مكسو بالريش فجأة من سهل التندرة في تفرق الحفارات الزاحفة مذعورة، فارتجفت ديج. وركض الوافد الجديد منتصب القامة، رجلاه قويتان ويداه اللتان، لا يكاد أحد أن يراهما من خلال ريش أبيض غليظ، مزودتان بمخالب قاسية. ركض ذلك المخلوق إلى الثلوج الطافية، ناثرًا المياه بعيدًا عن طريقه، وها هو ذا قد بدأ مواجهته للبرمائي من أجل فتات الهيكل، تمامًا مثل محاولة الثعلب القطبي سرقة ضحية الدب القطبي بعد ذلك.

بدا هذا المقاتل الأبيض المفترس كما لو كان طائرًا عاجزًا عن الطيران، لكنه ليس كذلك، إنه منحدر من فصيلة فيلوسيرابتر Velociraptor من العصر الطباشيري.

خمسة وخمسون مليون عام بعد اصطدام المذنب، وجدت ديناصورات في أنتركتيكا.

وجدت ديج لها طريقًا في الأرض، بعيدًا عن المشهد الدموي على الساحل. تحركت متخفية بحذر، فرأت ريشًا أبيض هنا وهناك، طرحه الكائن المفترس جانبًا، محاولًا الوصول إلى الضحية التي فوق الثلج.

فور أن تسلقت الكثيب الرملي الأخير استطاعت أن ترى المنظر الطبيعي ككل.

كان سهلًا أخضر وبنيًّا منبسطًا متناثرًا من آثار المياه. والحشائش ما زالت سميكة، وبالرغم من ذلك فقد بدأت تذبل، وتحولت الأجزاء التي لم تُحصد من الأرض إلى اللون البني الذهبي. وتلاشت أغلب الزهور، لأنه لم تعد هناك حشرات تجذبها، لكن ما زالت هناك بعض الزهور الجميلة النضرة مثل: كاسر الحجر. بالقرب من برك المياه العذبة المتلألئة احتشدت الحيوانات تنشد الارتواء، لكن البرك كانت بالفعل رمادية مكسوة بالثلج.

كان مشهد سهل تندرة تقليديًّا، يشكل جزءًا من الحزام الطبيعي الذي يطوق القارة.

وعلى تلك التندرة تنزهت الديناصورات.

على بعد كيلومترات قليلة من الجنوب الغربي رأت ديج ما يشبه سحابة سوداء خيمت على الأرض، لم تكن السحابة السوداء إلا قطيعًا من المُوتا، شكلت أنفاسها سحبًا كثيفة من البخار تعلقت في الهواء البارد. إنها ديناصورات ضخمة من آكلات العشب. تبدو من بعيد مثل ماموث بلا أنياب، لكنها أقرب لأن تكون محتفظة بخصائص الديناصور التقليدية، لها أرجل خلفية أكثر قوة من الأمامية وذيول اتزان. سلوكها غريب متقلب، تتصرف بهلع أقرب إلى الطيور من الثدييات الضخمة، وفي بعض الأحيان تنتصب على أرجلها الخلفية وتصيح في ضراوة المستبد.

تنحدر المُوتا من سلالة الموتابوراصورس Muttaburrasaur، قوية البنية جوراسية الحقبة آكلة العشب، ذاقت لمرة واحدة نبات السيكاس والسرخس والصنوبر. وبحلول البرودة على قارة أنتركتيكا تعلمت الموتا أن تعيش على محصول التندرة الرديء. أصبحت أجسامها في وضع مقرفص ومستديرة، ونما عليها كساء غليظ من عدة طبقات من الريش المحرشف البني القاتم، وتدريجيًّا أصبحت حيوانات كبيرة الحجم، عشبية مهاجرة

بسهل التندرة، وهو دور اتخذته غيرها من الحيوانات فيما بعد مثل: حيوان الرنة وثور المسك والماموث. صدر صوت نحيبها المحزن من جعبة منتفخة فوق أنفها الضخم، وتردد صداه من الجدار الثلجي إلى الجنوب.

هاجرت الموتا عبر القارة في أحد الأيام، مستغلة الصيف الدافئ القصير، لكن انتشار الثلوج قلل أعداد الموتا كثيرًا، والقليل الباقي من القطيع يمشي على شريط ضيق من التندرة، بين الثلج والبحر.

تتبّع صائدٌ وحيد قطيع الموتا.

وقفت أقزام الألوسورس (الألو) Allosaur بثبات، تتفحص قطيع الموتا، إنها تبدو كتمثال ذهبي مكسو بالريش. الألو هي بقايا أقزام من سلالة مخلوقات انقرضت منذ فترة طويلة في مكان آخر، وهي في الحقيقة تنحدر مباشرة من الأسد الجوراسي الذي قتل ستيجو. لكن القطيع كان حذرًا من الألو وظل في جماعات مترابطة، وصغاره في الوسط. بينما تحركت الألو ببطء كما لو كانت مخدرة، فقد أصبح صيدها سهلًا بالفعل، بسبب مخزونها من الدهون، حيث بدأ التحول الغذائي لديها يتباطأ بهبوب الهواء البارد. وقريبًا ما ستبحث الألو عن عرينها الشتوي على منحدر ثلجي، كما يفعل الدب القطبي.

تضع أنثى الألو بيضها مع نهاية الشتاء، وتحتضنه داخل عرينها الثلجي، حيث يكون في مأمن. ويُعد الربيع أكثر متعة لثدييات أنتركتيكا لأن فيه تزيد احتمالية خروج مفاجئ لمجموعة أفراخ الألوسورس الجائعة، التي تتحرك بسرعة وتتشاجر، للحصول على أول وجبة لها.

وقريبًا من ديج حدث شغب بين جموع الجحريات، ومع هبوب النسمات الباردة على الغطاء الثلجي وصلت إلى ديج رائحة حادة ودسمة لبيض.

فركضت بأقصى سرعة بين نباتات السرخس والحشائش الطويلة، وللمرة الأولى لا تهتم بسلامتها.

كان العش يضم بيض ديناصورات، إنه بيض الموتا. إنه اكتشاف نادرًا ما يحدث في وقت متأخر من الموسم، كذلك فإن المكان بعيد عن الأماكن المعتادة لتعشيش الموتا. قد تكون وضعت البيض أم مريضة أو جريحة. رأت جحريات بالفعل، ووسط الحشد المتنازع ظهرت قليل من حيوانات الستيروبودن Steropodon ثقيلة الحركة، والضخمة ذات الشعر

الأسود والصفات البدائية الغريبة، وتنحدر هذه المخلوقات من الثدييات، التي استوطنت جنوب القارة منذ العصر الجوراسي.

استطاعت ديج أن تجد لها طريقًا إلى العش قبل أن يدمر تمامًا، وسرعان ما اكتست يداها ووجهها بمُح البيض اللزج، لكن المنافسة على البيض تحولت بسرعة إلى معركة ضارية. في الخريف كان هناك كثير من الحفارات في التندرة أكثر بكثير من العام الماضي. فكانت ديج ذكية بما يكفي لتنزعج من تزاحم الجحريات في مستوى عميق متآكل.

ولم يكن هناك سبب بسيط وراء ازدياد الأعداد بهذه الهيئة، سُجنت الجحريات في دورات بيئية معقدة، تتضمن وفرة الحياة النباتية والحشرات، والحيوانات آكلة اللحوم التي هاجمتها بدورها. ففي عصور كثرة الكائنات تجد غريزة الجحريات تحثها على الهرب إلى الأرض الخضراء، للبحث عن أماكن خالية لإنشاء جحور جديدة. إن كثيرًا منها وقع فريسة، لكن هذه طبيعة الأشياء. وينجو بعضها.

على الأقل ذلك ما حدث في الماضي، لكن آنذاك حيث برز الثلج وذبلت سهول التندرة مرة أخرى، لم يكن هناك مكان خال يمكن الذهاب إليه، ولذلك كان الزحام شديدًا دائمًا، ولزم عليك أن تقاتل دائمًا.

إنه بدون شك وضع سيئ للموتا التي وضعت بيضها. وضعت الموتا بيضها على الأرض بالطريقة التي كان يفعلها أسلافها دائمًا، والتي جعلتها غير آمنة من هجمات الحيوانات المفترسة كالجحريات. وبالفعل فإن السبب الرئيسي في تراجع أعداد الموتا هو زيادة التنافس على البروتين الموجود في بيضها الضخم. إن الثدييات العملاقة آكلة العشب مثل الماموث والرنة كان من الأفضل لها أن ترتحل إلى ذلك المكان، حيث تكون صغارها بمأمن في تلك المرحلة الخطرة من حياتها، لكن الموتا وقفت كالباقين — لا حول لها ولا قوة — عندما انفصلت أنتركتيكا عن القارات الأخرى.

فجأة ظهرت مخالب من السماء، وبخبرة — أكثر من مائتي مليون سنة من الحياة — انبطحت ديج أرضًا، بينما زأرت الجحريات الزاحفة وهي تتزاحم بعضها فوق بعض.

اختطفت المخالب حفارًا صغيرًا غير ناضج، ودفعته كله في فم أجوف، ومرة أخرى انطلقت المخالب في الهواء، غاضبة كما لو كانت قد أحبطت، لكن الثدييات تناثرت. وبعد فترة سمعت ديج صوت مضغ لا شك فيه، كما لو أن منقارًا مسننًا قد التقم أجنة الموتا واحدًا تلو الآخر.

قاطع الطريق هو ليإليناصورا (ليإلين Leaellyn؛ ديناصورًا آخر. إنه يشبه الدجاجة النشيطة. ليس مؤهلًا ليكون صيادًا حقيقيًّا لفريسة كبيرة. ليإلين في الأساس يقتات على القمامة. ولذلك فإن وجبة بيض الموتا نادرة في هذا الوقت المتأخر من الموسم لكائنات ليإلين وللثدييات.

عندما كان القاتل ليإلين يلتهم البيض حاولت ديج أن تجلس ساكنة ولا تجذب انتباهه، لكنها جائعة والصيف قصير مقفر، ومن المستحيل عليها أن تُسمّن نفسها كما يجب، لمواجهة قسوة برد الشتاء وحرمانه. وليإلين يلتهم البيض، كل بيضها.

حل الغضب واليأس محل الحذر، فرفعت ديج جسدها على قدميها الخلفيتين، مصدرة صوتًا كالحفيف، ومخالبها مشرعة.

تلطخ فم ليإلين بالدماء ومُح البيض، فابتعد مذعورًا من ظهورها المفاجئ، وأدركت ديج بعقلها البدائي الصغير أنها لا تمثل له تهديدًا، لكنها في الحقيقة وهي جالسة ككرة فراء دافئة كانت أفضل للأكل من الأجنَّة ومُح البيض.

فتح الليإلين فمه وهو يميل إلى الأمام.

تجنبته ديج وهربت، ولزم عليها أن تهجر العش وتتجاهل الشعور بالجوع.

يمكنها أن تتبع نسبها وصولًا إلى بليسي، وهو حيوان صغير قطن المنطقة الدافئة في العالم، منذ ملايين قليلة من السنين بعد سقوط ذيل الشيطان. تجولت ذرية بليسي في الكوكب، مستخدمة البرازخ والجزر والأطواف للعبور من جزيرة في قارة إلى جزيرة في قارة أخرى. عبرت فصيلة واحدة من السلالة القديمة برزخًا من أمريكا الجنوبية إلى أنتركتيكا عندما بدأت القارة الجنوبية في الاستقرار عند القطب.

وهناك التقت بالديناصورات.

كان على الديناصورات في العصر الطباشيري الدافئ أن تتحمل أشهرًا طويلة من الظلام القطبي. لذلك فإن الديناصورات التي نجت بالصدفة خلال الكارثة العالمية هنا قد تهيأت جيدًا لتحمل الشتاء الذي تبع سقوط المذنب بينما هلكت معاصراتها في المناطق الدافئة.

لكن القارات ابتعدت بعضها عن بعض أكثر فأكثر، وما زالت أجزاء حطام القارة الأم تبتعد. ذهبت أنتركتيكا بعيدًا عن باقي أجزاء جنوب بانجيا، وسرعان ما زاد الارتحال بعيدًا لدرجة منعت وجود برزخ، وأصبح الوصول إليها بطوف مستحيلًا. وما إن استرد العالم أنفاسه من تداعيات الاصطدام حتى بدأت الحياة النباتية والحيوانية لقارة أنتركتيكا تكشف عن مصيرها التطوري الفريد. بدأ صراع الديناصورات ضد الثدييات طويلًا، ويرجع الفضل إلى عاملين رئيسيين هما: ضراوة الديناصورات وبرودة الطقس في بقاء الثدييات حبيسة العصر الطباشيري المذل.

وأخيرًا استقرت أنتركتيكا في القطب الجنوبي ونما الغطاء الثلجي الضخم ببطء.

أصبحت الأيام أقصر واختفى قوس الشمس القرمزي تقريبًا من الأفق. وتحجرت الأرض بالصقيع، وماتت أجناس كثيرة من النباتات، وانتظرت البذور عودة دفء الصيف القصير.

ظهر القليل من الثلج غير المتصلب، وفي الحقيقة كانت أغلب القارة شبه صحراء، وسقط الصقيع مثل الصخور على الأرض حتى جمعته الرياح فوق الضفاف والمنحدرات.

لكن الثلج مع ندرته كان ضروريًّا للجحريات.

بدأت الجحريات التي نجت من ظروف الصيف والخريف في حفر كتل الصقيع، لإنشاء نظام أنفاق معقد تحت الطبقة الصلبة العليا، وكانت الأنفاق مدنًا واسعة ورطبة، فالجدران صلبة بمرور الكثير من الأجسام الدافئة الصغيرة، والهواء ممتلئ برائحة الفراء الرطب، ولم تكن الجحريات في دفء تام في الداخل، لكن درجة الحرارة لم تنخفض إلى درجة التجمد قط.

وانبثق الفجر في الخارج في هدوء عبر نجوم السماء الشتوية المتفرقة.

كانت الليإلين التي استولت على البيض من ديج واحدة من مجموعة من الإخوة، تصطاد معًا في جماعات صغيرة، وما إن تشعر بقدوم الطقس البارد في الشتاء حتى تتجمع.

تنحدر الليإلين من ديناصورات عشبية صغيرة، احتشدت ذات يوم في فوضى جماعية على أرض غابة أنتركتيكا. حينها نمت الليإلين حتى وصلت إلى حجم الإنسان البالغ، ولديها أعين كبيرة، تتكيف مع ظلام الغابات القطبية، لكن الليإلين تضاءلت وصغر حجمها وأصبحت أكثر بدانة مع البرد الشديد، وغطى جسدها ريش محرشف كعازل.

وبمرور الأعوام تعلمت أكل اللحوم.

وكلما اشتد البرد غاب أفراد الجماعة عن الوعي وتباطأ التحول الغذائي كثيرًا، بصورة كافية فقط لحفظ أجسادها من التجمد. تشكلت خطة قديمة عبر ملايين السنين من السكن في الأقاليم القطبية، وقد أثبتت دائمًا فعاليتها.

لم يحدث ذلك هذه المرة، فلم يكن الشتاء باردًا كما في هذا العصر. تعرضت مجموعة ليإلين لعاصفة، فذهبت الرياح الضارية بكثير من الحرارة الكامنة في أجسامها، وتجمعت الثلوج على لحومها مدمرة بنية الخلايا بداخلها، وتدريجيًّا امتدت خناجر البرد لتمزق أجسادها الصغيرة.

لم تشعر ليإلين بالألم. كان نومها صامتًا بلا أمل، إنه نوم زواحف عميق لم تر مثله أي من الثدييات، واستمر بهدوء ودون توقف حتى الموت.

جاء الصيف كل عام أقصر مما قبله، وأتت بداية الشتاء أشد قسوة. وفي كل ربيع يزداد الغطاء الثلجي الضخم، الذي يغطي وسط القارة، حيث لا وجود للحياة عليها إلا قليلًا. ذات يوم وقفت أشجار صنوبرية طويلة وأشجار السرخس والبوداكارب القديمة بعناقيد الفاكهة الثقيلة عند قاعدتها. كانت الغابة ستصبح موطن نوث. أما آنذاك فتوجد هذه الأشجار على هيئة أعواد متفحمة، مدفونة في الأعماق أسفل أرجل ديج بعد أن سقطت بفعل البرد. مرت ملايين السنين قبل ارتقاء أي من أسلاف ديج إلى الأرض.

تأقلمت الحيوانات الأولية في أنتركتيكا مع البرد. فهي لا تنمو أكثر، إذ حرص الصراع مع الديناصورات على ذلك، وتطورت لها الطبقات العازلة من الدهن والفراء، التي حافظت على حرارة أجسادها. كانت أرجل ديج باردة جدًّا، وفارق الحرارة بسيط بينها وبين الأرض، وفقدت حرارة ضئيلة. وسرت الدماء الباردة من أرجلها إلى جذعها، مندفعة في الأوعية الدموية التي تحوي دماءً دافئة. وبذلك بردت الدماء الهابطة قبل أن تصل إلى أرجلها. كانت الدهون في أرجلها وأقدامها من نوع خاص ينتج عن سلاسل هيدروكربون درجة ذوبانها أقل، وإلا لكانت تجمدت مثل الزبد المثلج.

بالرغم من كل تكيفات ديج على البرودة ما زالت من الحيوانات الرئيسية، وما زالت تحتفظ بخفة حركة يدها وقوة ساعِدها كأسلافها، ومع أن عقلها أصغر كثيرًا من أسلافها — ففي البيئة الطبيعية يكون العقل الكبير ترفًا مغالى فيه، ولم تكن الحيوانات أذكى مما تحتاج — فقد كانت أذكى من أي من القوارض.

أصبح الطقس أكثر برودة، وفي كل عام تتزاحم الحيوانات والنباتات المتبقية في شريط ضيقٍ من التندرة بالقرب من الساحل.

اقتربت النهاية.

وجدت ديج نفسها تعمل جاهدة لتتنفس.

وفي نوبة ذعر مفاجئ نقرت في الصقيع الذي يعلوها، وتطلعت يداها التي تسلقت الأشجار لحفر طريقها إلى قمة الصقيع.

شقت طريقها خارج الجحر، إلى خيط رفيع من الضوء الساطع المفجع. تلتها رائحة الهواء الكريهة، محملة برائحة الموت.

كانت مثل حزمة نحيفة من جلد وفراء ملطخ بنفايات غزيرة ملقاة على ثلج ممتد. ارتفعت الشمس في الأفق، وبدت كمشكاة صفراء معلقة في سماء أرجوانية زرقاء اللون. وجاء الربيع ولم يتحرك شيء، لا الطيور الجارحة، ولا أفراخ أقزام الألو التي تخرج من كهوفها الشتوية. ولم تهاجر أي من الجحريات إلى مناطق الصقيع. لم يتبع ديج أحد من عشيرتها.

وبدأت تشق طريقها على سطح الصقيع، وتحركت بجمود، تؤلمها مفاصلها والجوع يقطع أمعاءها وحلقها يجف من شدة العطش، وقد استهلك البيات الشتوي الطويل رُبع كتلة جسدها، وترتجف من البرد.

فشل نظام جسدها في مقاومته للبرودة فارتجفت، والخيار الأخير لها لتولد الحرارة هو حركة العضلات، التي تحرق كمًّا ضخمًا من الطاقة. لا يجب أن تحدث الرجفة.

يوجد شيء ما خطأ.

وصلت إلى الأرض الجرداء على حافة البحر. كانت التربة محاصرة بالجليد، وما زالت متحجرة كالصخر. وبالرغم من قرب انتهاء الموسم فلم ينم شيء، ما زالت البذور راقدة في ثبات داخل الأرض.

صادفت مجموعة من ليإلين، في الشتاء تتضافر أطرافها وأعناقها حتى تصبح بمنزلة تمثال من ريش متشابك. وغريزيًّا انبطحت على الصقيع.

لكن الليإلين لم تكن تشكل لها تهديدًا، فقد ماتت على هذا العناق المتشابك الأخير. ولو حاولت ديج دفع تلك المجموعة المتشابكة، لتكسرت من فورها بريشها المتجمد، وأصبحت مثل الكتلة الجليدية المتدلية.

أسرعت تاركة ليإلين في نومها الأخير.

وصلت إلى لسان صغير، يطل على المحيط. سبق لها أن وقفت في هذا المكان في نهاية الصيف السابق، تحت حزمة صغيرة من نباتات السرخس، ورأت معركة الطائر الجارح مع الضفدع. وجدت أبواغ السرخس دفنت في الأرض الجرداء، التي خلت من أي غذاء يؤكل، ورأت البحر أمامها أبيض ممتدًا بامتداد النظر على مدى الأفق. خافت من ذلك المشهد: فالأفق حاد مثل الحافة، أبيض منبسط بالأسفل، وفي أعلاه قبة زرقاء خالية.

وحده الساحل كسر رتابة المشهد، فقد كسر البحر الثلج، وتجمعت بعض مظاهر الحياة في ذلك الوقت. استطاعت ديج أن ترى حيوانات قشرية صغيرة تندفع بقوة في المياه السطحية، تتغذى على العوالق، وقناديل البحر الصغيرة والكبيرة تتحرك خلال هذا الدمار، شفافة مزركشة، إنها مخلوقات مرهفة ترتفع فوق سطح الماء.

ضج البحر الممتد بالحياة كما كان دائمًا. لكن لا يوجد به ما ينفع ديج.

ومع استمرار الانخفاض العالمي في .رجة الحرارة وبمرور السنوات زاد تماسك الثلوج الضخمة. لم تجد المجموعة الفريدة من الحيوانات والنباتات المحبوسة على الطوف المعزول مكانًا تذهب إليه. وفي النهاية لم يستطع التطور الانتصار أخيرًا على الجليد.

حدث انقراضٌ رهيبٌ بعيدًا عن أعين باقي الكوكب، امتد عبر ملايين السنين. تجمدت الأحياء كلها حتى الموت، وعندما ماتت كل الحيوانات والنباتات امتدت صفحة الوحش الجليدي أكثر، مرسلة أنهارًا جليدية تجري بين الصخور، حتى التقت بالبحر ذاته. ومع بقاء الحيوانات المتحجرة في الأعماق وفصائل العصور القديمة المتفحمة، لم يكن هناك دليل على عالم ديج وهو التندرة والحياة الفريدة التي عج بها!

استدارت ديج بعيدًا وهي تشعر بالإحباط، ثم سارت على الأرض المتجمدة تبحث عن طعام.

الفصل الثامن

مقتطفات

ساحل شمال أفريقيا منذ نحو خمسة ملايين سنة قبل عصرنا الحالي.

١

عندما بزغ الضوء في السماء استيقظ كابو، الراقد على قمة الشجرة، وتثاءب ملء شدقيه، ثم مدد أطرافه ذات الشعر الكثيف، وأمسك خصيتيه بيد واحدة ومسحهما بعناية.

بدا كابو مثل الشامبنزي، مع أنه لم يكن هناك شامبانزي في العالم، فهو أقرب إلى قرد. في السنوات الطويلة التي تلت موت رومر تغيرت العائلات المنبثقة من الرئيسيات، وانحدرت سلالة كابو عن القردة منذ نحو عشرين مليون سنة مضت. مع ذلك — قبل خمسة ملايين سنة من ظهور البشر — بدأ عصر القرود العظيم وانتهى.

نظر كابو إلى السماء، وهي زرقاء باهتة بلا أي سحب، بدا أن اليوم سيكون مشمسًا حارًّا وطويلًا.

إنه يوم جيد، حك كابو عضوه الذكري بتمعن، الذي كان منتصبًا كالعادة. توغل بعض الرعايا من الذكور مثيري الشغب في الغابة العميقة منذ بضعة أيام، ولا تزال هناك أسابيع قبل عودتهم. أسابيع من الهدوء النسبي والنظام. إنه عملٌ سهلٌ لكابو.

في سكون الصباح سُمعت الأصوات من بعيد، وكابو راقد تسرح أفكاره بعيدًا، يستمع إلى زئير من بعيد يشبه تذمر وحش كاسر جريح، جاء الصوت من جهة الغرب، أرهف كابو السمع لعدة دقائق، بذعر من شدة الصوت

المحير الذي لا ينتهي، لكنه لم يَرَ شيئًا، فقد ظل ذلك الصوت في الخلفية طوال حياته، لا يتغير ولا يمكن فهمه، فهو بعيد بما يجعله لا يثير اهتمامه.

شعر بعدم ارتياح، لكن ليس بسبب الضوضاء. بل تملكته مخاوف في مثل تلك الدقائق من التفكير.

فقد تجاوز كابو أربعين عامًا من عمره، وحمل جسده آثار معارك كثيرة، وكان شعره قد بدأ يخف نتيجة للتنظيف المستمر. ووصل من السن والذكاء إلى ما يمكنه من تذكر عدة فصول — ليس ليسردها كقصة — لكن كلمحات أو مشاهد حية ،مأخوذة من أحد الأفلام السينمائية المشوشة. وفي أعماقه شعر أن العالم لم يعد كما كان، وأن هناك تغيرات كثيرة، لم تكن بالضرورة إلى الأفضل.

لكن لم يكن هناك ما يستطيع القيام به.

تدحرج على بطنه بتكاسل. تكوّن عشه من كتلة من الأفرع الصغيرة، مصطفة بعضها فوق بعض وثابتة من جرّاء وزنه. ومن خلال بنيتها المفككة أمكنه أن يرى القبيلة المبعثرة بين الأشجار، غردت الرئيسيات بين أوراق الأشجار، وبصوت نَخْر خفيف أفرغ كابو مثانته، وسقط رذاذ وافر من عضوه الذكري، الذي ما زال شبه منتصب؛ وأمطر الأشجار.

وصل الرذاذ إلى ليف إحدى الإناث الكبيرات، وهي نائمة على ظهرها مع صغيرها المتعلق بفراء بطنها، فاستيقظت ومسحت البول السميك من عليها، وصرخت اعتراضًا.

أما كابو فقد انتهى وقت تأمله، وضَعُف انتصاب عضوه الذكري، فجلس ثم قفز من عشه.

حان وقت العمل. فإذا بكتلة بنية داكنة من الفراء تعمل على شق طريقها بين الأشجار، حطم كابو الأعشاش، وركل ساكنيها، ثم صرخ وانحنى، وظل يفعل ذلك حتى أصبحت الشجرة كلها في هرج ومرج، ولم يكن هناك أي إمكانية أن يستمر مخلوق في النوم، أو ألا ينتبه لوجود كابو المسيطر.

هبط هبوطًا قويًّا أعجبه جدًّا في منتصف عش فينجر، وهو ذكر أصغر سنًّا ممتلئ وذو عقل ماهر وأيدٍ قوية. التف فينجر حول نفسه وهو يثرثر، ثم رفع ظهره في وضع الخضوع، لكن كابو ركل مؤخرته ركلة موجهة؛

فصرخ فينجر وهو يرتعش، وهبط متدحرجًا على الأفرع إلى الأرض. حان الوقت لتلقين فينجر الدرس، لأنه أصبح معتدًّا بنفسه شاعرًا بغرور لا يعجب كابو.

أخيرًا نزل كابو إلى الأرض، ناثرًا فراءه وهو يلهث بقوة، ووقف على حافة أرض فضاء واقعة على بركة سبخة. ولم يكن قد انتهى من عرضه، فتحرك للأمام والخلف بمحاذاة صف الأشجار، يقرع براحة يده المفتوحة على جذوع الأشجار ويقتلع الأفرع الرفيعة، ودافعًا الأشجار فتتبعثر أوراقها حوله، وصياحه يعلو وصراخه.

رفع فينجر نفسه بعد سقوطه، وزحف تحت ظل نخلة قصيرة، ثم تكور بعيدًا عن عيني سيده. صرخت الذكور وصاحت، وهي تؤيد كابو، استيقظت أنثى أو اثنتان بالفعل لكنهما ابتعدتا عن طريق كابو؛ واستمرتا في روتينهما الصباحي.

عندما انتهى كابو من العرض شاهد هول — وهي أنثى ذات نبرة نداء عالية — جالسة أسفل شجرة الصمغ، تلتقط بعض كتل من الباذنجان وتحشوها في فمها. لم تكن هول قد وصلت إلى سن البلوغ لكنها قريبة من هذه السن جدًّا. وعندما نظر كابو إلى أعضائها التناسلية انتصب في الحال.

قفز كابو اللاهث على هول رافعًا رجليها واخترقها، كان مهبلها ضيقًا بشكل أرضاه، بينما أنصاره يصرخون ويدمدمون ويقرعون الأرض تشجيعًا لبطلهم. لم تقاوم هول؛ لكنها ضبطت وضعها لكي تتواءم معه، وعندما قفز عنها استمرت هي في قطف بعض ثمار الباذنجان، ولم تكترث كثيرًا.

ابتعد كابو عن هول قبل القذف، فالوقت لا يزال مبكرًا جدًّا على ذلك. أدار ظهره لتابعيه الجبناء وانحنى وأخرج غائطًا أمطرهم به جميعًا، ثم ألقى بنفسه على الحشائش المسطحة، واضعًا يديه على خاصرتيه، وسمح لبعض التابعيين المفضلين بالاقتراب، والبدء في تنظيفه في الصباح.

هكذا بدأ القائد العظيم كابو دي كابو يومه بمشهد رائع بين أفراد جماعته؛ كان كابو جد الجنس البشري (سلف سقراط ونيوتن ونابليون).

أما الأولوية التالية، فهي مَلءَ معدته.

اختار كابو من بين الرعايا قردًا يسمى فروند، وهو مخلوق طويل عصبي، يصرخ بصوت عالٍ ويوزع الضربات على رءوس المخلوقات الموجودة.

فهم فروند الرسالة سريعًا، فمهمته هي قيادة المجموعة يوميًّا بحثًا عن الطعام والماء، وقد اختار اتجاه الشرق، بناءً على اتجاه ضوء الشمس الساطعة، ومشيته مزيجًا من السير بانحناء والركوض باعتدال، ظل يجري هنا وهناك لقيادة الطريق ناظرًا إلى كابو ليتأكد من رضاه.

لم يكن لدى كابو أي سبب لرفض هذا الاتجاه. سار في خيلاء يضرب الأرض الرخوة بقدميه خلف فروند، أما باقي المجموعة فقد تشكلت سريعًا خلفه، الذكور والإناث على حد سواء؛ بالإضافة إلى الرضع المتعلقة ببطون أمهاتها.

شقت المجموعة طريقها خلال أشجار الغابة بنظام محاكية أسلوب الذكرين. بحثت غالبًا عن الفاكهة بالرغم من أنها مُهيأة لتناول الحشرات واللحم لو كان متاحًا. تنافست الذكور في صخب، بينما تحركت الإناث في هدوء أكثر. ظل الرضع مع أمهاتهم، بالرغم من أن الصغار الأكبر سنًّا تصارعت.

بعد قطع الطريق الذي لا ينتهي حتى الغابة تكونت بعض الصداقات بين الإناث في هدوء. اعتمد مجتمع كابو في الأساس على الإناث. والإناث مرتبطة بذوات القربى، تشاركها طعامها الذي وجدته، وخلقت هذه الممارسة حاسة جينية قوية، كما شعرت عماتك وبنات عماتك وأخواتك اللاتي يتشاركن ميراثك، أما الذكور فتابعة، تتجه أينما ذهبت الإناث. فمعاركها للسيطرة نوع من إظهار العلو، يدل على قلة الاهتمام بالمجموعة.

مع رطوبة عضو كابو والضربات الممتعة على صدره ومشهد البطون الممتلئة، مع هذا كله من المفترض أن يكون في أسعد حالاته. فالحياة في الغابة جيدة، وليس هناك أفضل من ذلك لكابو القائد، لكنه ظل يشعر بالقليل من عدم الراحة.

لسوء حظ كابو فإن حصيلة الثمار ذاك الصباح قليلة، مما أجبر المجموعة على الاستمرار في السير.

اقتربت المجموعة من حيوانات أخرى في الغابة، مثل حيوان أوكابى Okapi (وهو يشبه زرافًا قصير العنق)، وحيوان فرس النهر القزمي وبعض أقزام الحيوانات الخرطومية. حافظ الإقليم القديم على طرق الغابة، فهناك بعض حيوانات الرتب العليا، مثل الرئيسيات. ومروا بجوار بعض المخلوقات العملاقة الضخمة عريضة المنكبين ذات الشعر الفضي، التي تجلس في تجمعات كبيرة على الأرض، تأكل الأوراق الخضراء التي قطفتها من على الأشجار.

إنها تشبه ذوات البطون الكبيرة التي عاشت في عصر رومر، طور أسلاف كابو نوعًا جديدًا من الأسنان، التي تتناسب مع وجبة الفاكهة، ولكابو قواطع كبيرة للقضم، فهي ضرورية لأكل الفاكهة بينما كانت الطواحن صغيرة. إن أسنان الكائنات آكلة الأوراق كانت معكوسة، لذا لا تحتاج الأوراق إلى الكثير من القضم، لكنها تمضغ كثيرًا. إن هذه الوحوش الضخمة — التي كانت ذات صلة قرابة من فصيلة الجايجانتوبيثيساين الآسيوية Gigantopithecine — يزن الواحد منها أكثر من ربع طن، وكانت من أكبر الرئيسيات التي عاشت، لكن العمالقة كانت نادرة في أفريقيا آنذاك.

لم تكن في تنافس مباشر مع مجموعة كابو التي تفتقر إلى بطون العمالقة الهائلة، ولم تكن قادرة على التغذي على أوراق الأشجار. ومع ذلك انزعج كابو من اضطراره إلى تحويل مساره، لتجنب تلك المخلوقات الصامتة الصابرة. ولعدم رغبته في أن يبدو متخاذلًا مشى كابو باتجاه أكبر العمالقة، وقدم عرضًا بفراء أشعث، وتحرك في دوائر ودق الأرض. نظر آكل العشب في خمول وعدم تصديق، كان يفوق كابو طولًا وهو جالس.

أرضى كابو غروره، فتجنب العمالقة ومضى في طريقه.

لم ينقضِ وقت طويل، إلا وكانت مسيرة الصباح قد انتهت، حيث لم تتبق أشجارٌ أخرى ليبحثوا عن طعام فيها.

هذا هو السبب الحقيقي في إحساس كابو بعدم الارتياح؛ إنه ذلك الانكماش الذي غمر نصف رقعة الغابة، فلم يكن الغذاء فيها متوفرًا كما كان الحال في الماضي، وأصبحت في الحقيقة لا شيء سوى جزيرة في عالم كبير متسع.

لمح كابو هذا العالم وهو يطل من بين الأشجار، ويبرز من خلال الفجر الضبابي.

كانت هذه الرقعة من الغابة تقع على مساحة واسعة، والأرض منبسطة لامعة. وتشبه متنزهًا، خليطًا من أرض منبسطة خضراء ورقع من غابات النخيل وخشب النبق وبعض المساحات المختلطة من الغابات، تضم أشجار الصنوبر والأشجار غير الدائمة مثل شجر الجوز والبلوط والدردار والقضبان والعرعر.

إن أكثر ما يمكن أن يثير دهشة رومر، وهي عمة كابو الكبرى هو طبيعة تلك الحشائش التي غطت الأرض، وامتدت عبر المناطق الخضراء المفتوحة. فهي حشائش صلبة لها القدرة على المقاومة انتشرت ببطء في جميع أنحاء العالم.

في السهل العديد والعديد من البحيرات والبرك والمستنقعات. وارتفع الضباب في كل الأجواء، وملأت حرارة الشمس المبكرة الهواء بالرطوبة. وتدفق نهر ضخم من المرتفعات الجنوبية بصورة لولبية في السهول، على ضفافه سهول بها مستنقعات واسعة، بعضها سبخي والبعض تنساب فيه المياه. والأرض مثل إسفنجة ممتلئة تعج بالمياه، ثم جفت بعض الأشجار، وفي بعض الأحيان كانت جذورها تمتد في المياه الضحلة. ومع استمرار العالم في كونه باردًا تارة وجافًّا تارة، تقلصت بقايا الغابة وغرقت.

امتد السهل المشبع بالماء إلى الشمال على مدى رؤية كابو، لكن بعيدًا باتجاه الجنوب ارتفعت الأرض مكونة حاجزًا ضخمًا، بفعل فيضان النهر الشديد. أشرف هذا الصدع الكبير على أكثر منطقة قاحلة مغطاة بصحائف بيضاء واسعة من الملح يطل بعضها على برك صغيرة راكدة.

سُمع زئير من الشمال وعاد كابو إلى هذا الطريق. انشغلت حيوانات السهل في أعمالها. رأى كابو على مسافة ما يشبه قطيعًا من الخنازير البرية الضخمة تقتلع الحشائش الطويلة، لون أجسامها المنخفضة المتدلية بني رمادي، مما جعلها تشبه اليرقانات الضخمة. لم تكن خنازير أو حيوانات فرس النهر، بل حيوانات أنثراكوثر التي حافظت على مكانتها منذ العصور القديمة.

سار اثنان من حيوانات الكاليكوثر الضخمة ببطء عبر السهل، تقطفان من الشجيرات بمخالبها الضخمة. التقطا الطازج فقط، ووضعاه في فمهما، وهذه الحيوانات رقيقة مثل الباندا. الذكر منها أطول من الأنثى، طوله يقرب من ثلاثة أمتار من كتفه. جسداهما ضخمان ورجلاهما الخلفيتان قصيرتان وممتلئتان، لكن رجليهما الأماميتين طويلتان وتتمتعان برشاقة مدهشة. وبسبب مخالبهما الطويلة لم يكن في استطاعتهما أن تضعا أرجلهما الأمامية على الأرض، فكانتا تمشيان على مفاصلهما. وأجسامهما تشبه الغوريلًا الضخمة قصيرة الشعر، لكن رأسهما طويلة تشبه رأس الفرس. وهذه الحيوانات القديمة من أبناء عمومة الخيول. انتشرت في وقت من الأوقات، لكن الشجيرات التي كانت تعتمد عليها في غذائها أصبحت نادرة، ولذلك كانت تلك الفصيلة آخر سلالة الكاليكوثر.

وبالقرب استطاعت القرود سماع حفيف مستمر؛ فنظرت حولها بتردد. وقفت هناك عائلة من فصيلة من الفيلة تتعامل مع الأشجار على حافة الغابة، مستخدمة خراطيمها لاقتلاع الأفرع، وحشو فمها بأوراق النباتات. وهذه المخلوقات الضخمة تسمى جومفوثير Gomphothere. لكل منها أربعة أنياب، يبرز زوج من الفكين العلوي والسفلي، جاعلة وجوهها تشبه رافعة الشوكة.

هذه هي ذروة أيام الحيوانات الخرطومية. إذ نسجت أشكال أجسامها التي لا تقهر نطاقًا كاملًا من الفصائل عبر العالم. ففي شمال أمريكا ستعيش المستودون Mastodon وتبقى حتى ظهور الإنسان. وعائلة أخرى هي الأفيال ذات الأنياب الجاروفية، ذات الأنياب السفلية الممتدة والمسطحة. وبالتجول في أفريقيا وجنوب آسيا نجد الستيجودون Stegodon بأنيابها الطويلة المستقيمة، وهي أسلاف الفيلة الحقيقية والماموث التي لم تكن قد ظهرت بعد.

بدت نداءات جومفوثير التي حملها هواء الصباح البارد وتردد صداها عبر الموجات تحت الصوتية غريبًا. وهذه الخرطوميات بالذات من آكلي كل شيء. تصطاد ببطء، لكن بشكل عام تجنب الفيلة آكلة اللحوم أفضل.

حينها خرج فروند الذكر النحيل من تحت ظل الغابة، نحو الحشائش الطويلة الواصلة إلى كتفيه، تحركت الأعشاب حوله، بفعل الرياح مشكلة أمواجًا تعبر المساحات الخالية.

وقف فروند بتردد على رجليه الخلفيتين، ناظرًا إلى عالم ما بعد الرئيسيات، وإلى الخارج نحو المساحة الخضراء، حيث تسير الحيوانات من ظباء وفيلة وكاليكوثر، وهي ترعى على الحشائش الوفيرة.

ثم نزل على أرجله الأربع وانطلق عائدًا إلى ظلال الغابة، بعد أن فقد أعصابه.

وجه إليه كابو ضربة موجعة على رأسه، لقيامه بهذه المخاطرة، ثم قاد قبيلته عائدًا إلى أعماق الغابة.

تسلق كابو نفسه شجرة صمغ باحثًا عن الفاكهة والأزهار، تسلق بثبات وبأسلوب راقص، يشد نفسه للأعلى بمساعدة ذراعيه، بينما تتمسك أقدامه بجذع الشجرة.

إنها حركة شُجاعة، لم تكن رومر لتقدم عليها، أو أي قرد آخر. تمتعت قرود كابو بصدر مسطح وأرجل قصيرة وأذرع طويلة. والقرود وصلت إلى درجة عالية من المرونة، بواسطة تحريك مفاصل الأكتاف وراء ظهورها، وهذا ما مكن كابو من أن يصل إلى ما فوق رأسه. هذه هي المعدات اللازمة لرفع القرود أنفسها أعلى جذوع الأشجار، بينما قضت رومر أغلب وقتها تتنقل عبر الأغصان كان كابو متسلقًا.

أصبح لهذا التغير في البنية للتمكن من التسلق تأثير جانبي آخر، ظهر جليًّا في جسد كابو الطويل الضيق، فالاعتماد على الارتفاع الرأسي مع وجود بنية عظام جديدة ونظام اتزان جعل كابو مهيئًا للسير على رجلين، في بعض الأحيان فعل ذلك على الأشجار، متمسكًا بالأغصان لحفظ توازنه، أثناء محاولة الوصول للثمار العالية، وفي أحيان أخرى وقف أمثاله في المناطق المكشوفة كما فعل فروند.

نظرًا لأن أجسام القردة قد اتخذت شكلًا جديدًا فقد أصبحت أيضًا أذكى.

في تلك الأقاليم الاستوائية قلما أثمرت أشجار الفاكهة في الوقت نفسه، وعندما تعثر على شجرة مثمرة قد تقطع مسافة كبيرة قبل أن تجد غيرها، لذا اضطرت القرود لقضاء وقت طويل كل يوم في البحث عن مصادر مختلفة، باحثين فرادى أو في جماعات صغيرة، على موعد بالالتقاء ثانية للنوم في مساكنهم فوق الأشجار، شكلت هذه الطريقة الأساسية لجمع الغذاء صورة حياتهم الاجتماعية، كان عليهم أن يفهموا بيئتهم جيدًا؛ حتى يحصلوا على الغذاء اللازم.

عاشت حياتها بتلك الطريقة، ولم تكن الروابط بينها قوية، فمن الممكن أن تنفصل ثم تتحد ثانية؛ مكونة علاقات خاصة مع أعضاء آخرين من المجتمع، مع أنه من الممكن ألا يشاهدوهم أو يقابلوهم لمدة أسابيع. ومن أجل المحافظة على العلاقات الاجتماعية المعقدة متعددة المستويات فإن الأمر تتطلب المزيد من الذكاء. وسّعَت القرود العليا علاقتها، لكن ذلك الاضطراب الاجتماعي كان هو ما أدى إلى تطور عقلها.

في السنوات الأولى بعد تفرع فصيلة إنسان الغابة القديم إلى القرود العليا والقرود، أصبحت القرود العليا هي المسيطرة على عالم الرتب العليا القديمة. فبالرغم من أن أحزمة المناخ المتقلصة أجبرتها على العيش في نطاقات خطوط العرض المتوسطة، فلديها متسع لتعيش في الغابة المترامية، التي امتدت في قارة أفريقيا وعبر قارتي أوروبا وآسيا، من الصين إلى أسبانيا؛ اتبعت القرود العليا هذا الممر الأخضر، فخرجت إلى خارج أفريقيا، وانتشرت بين غابات العالم القديم. وفي الحقيقة كانت هجرتها جنبًا إلى جنب مع الخرطوميات.

كان في قمتها أكثر من ستين سلالة من القرود العليا، تراوحت من حجم القط إلى حجم الفيل الصغير، أما الأفيال الأكبر مثل العمالقة فكانت من آكلي أوراق الأشجار، أما الحجم المتوسط في حجم كابو فهو يفضل الفاكهة، والأصغر الذي يزن أقل من كيلوجرام يأكل الحشرات مثل أجداده الأولين. فكلما صغُر حجم الحيوان ارتفع معدل التمثيل الغذائي عنده وارتفعت نوعية متطلباته من الطعام. وبالرغم من ذلك فكان لكل فرد مكان. إنه حقًّا عصر القرود ومملكة إنسان الغابة.

للأسف لم يستمر هذا.

عندما استمر العالم في عملية البرودة والجفاف، تحولت أحزمة الغابات الكبيرة إلى جزر منعزلة، مثل هذه الجزيرة، واختفت روابط الغابات بين قارة أفريقيا وآسيا فانعزل القرد الآسيوي الذي ربما كان سيتطور إلى إنسان الغابة أو أحد أقاربه، بعيدًا عن أحداث أفريقيا. ومع انخفاض الفصائل تقلصت الأعداد. وأصاب الانقراض أغلب سلالات القرود العليا بالفعل.

وحان وقت ظهور منافس جديد.

وصل كابو إلى مجموعة من النباتات من بينها شجرة صمغ عرف أنها تنتج بصفة خاصة مجموعة من الزهور، لكنه وجد أفرعها الشائكة فارغة. وعندما أزاحها جانبًا واجه مخلوقًا ذا وجه أسود صغير، فراؤه أبيض وعلى رأسه حلية رمادية. كان قرد فيرفيت Vervet سال لعابه من فمه الصغير، حدق في عيني كابو وصرخ وهرب بعيدًا، قبل أن يفعل أي شيء.

ارتاح كابو وهو يحك صدغه بتمعن.

القردة مزعجة، ميزتها قدرتها على تناول الفاكهة غير الناضجة، لأن أجسامها تفرز إنزيمًا لمعادلة المواد الكيميائية السامة التي تستخدمها الأشجار لحماية ثمارها، حتى تصبح البذور جاهزة للإنبات. لم تكن القرود العليا تتميز بذلك، ولذا فإن القردة استطاعت أن تجرد الأشجار من ثمارها قبل أن تصل إليها القرود العليا. تحركت القردة نحو أرض الحشائش وهي تأكل البذور التي تشبه الجوز. ولذلك شكلت القرود منافسًا قويًّا للقرود العليا، مثلها مثل القوارض.

تحرك شيء نحيف أعلى رأس كابو، وتأرجح برشاقة، إنه قرد الجبون Gibbon. كان يجري بسرعة فائقة، مستخدمًا جسده كالبندول للمحافظة على توازنه، مثلما يستعمل الطفل الأرجوحة دافعًا رجليه إلى أعلى وإلى أسفل لزيادة السرعة.

إن جسد جبون نسخة قصوى من القرود العليا طويلة الأذرع ومسطحة الصدر. فمفاصل الأكتاف، والمعاصم حرة الحركة، ليتمكن جبون من التعلق بذراعيه ويلف جسمه في دائرة كاملة، ونظرًا لخفة وزنه ومرونته الفائقة

يستطيع أن يتعلق في أقاصي أفرع الأشجار المرتفعة، ويصل إلى الفاكهة التي تنمو في أطراف الأفرع الرفيعة، بعيدًا عن الكائنات متسلقة الأشجار المفترسة. ويستطيع أن يتعلق في وضع مقلوب بين الأغصان ويصل إلى أجود طعام، بعيدًا عن متناول القرود العليا التي كان وزنها يعوقها عن التسلق عاليًا، والقردة التي تركض في أعالي الأفرع.

حدق كابو في قرد جبون بغيرة من رشاقته وسرعته ومهارته التي لم يستطع هو أن يصل إليها. وبالرغم من هذه الميزات الرائعة لم يكن جبون أفضل من القرود العليا بل بقي على حاله، واضطرته المنافسة التي خسرها أمام القرود إلى العيش على هامش النظام البيئي.

وبخيبة أمل واصل كابو الجائع السير.

وأخيرًا وجد إحدى مصادره المفضلة، مجموعة من نخيل الزيت، وجوز هذه النخيل يحوي لحمًا زيتيًّا غنيًّا، لكنه مغلف بغطاء خارجي صلب منع أغلب الحيوانات من الوصول إليه، حتى أصابع القردة الماهرة لم تتمكن من اختراقه. لكنه لم يكن صعبًا على القرود العليا.

تناول كابو كمية من الجوز وألقاها على الأرض، ثم نزل وراءها، وجمع الجوز ونقله أسفل شجرة صمغ يعرفها وأخفاه تحت سعف النخيل الجاف.

ثم مضى في طريقه في اتجاه الغابة، حيث أخفى مطارقه الحجرية، وهي كتل يحملها في راحة يده، اختار واحدة ورجع إلى مخبأ الجوز.

في طريق العودة قابل هول وفكر في التزاوج معها مرة أخرى، لكن أن يوليها اهتمامه مرة في اليوم كان أكثر من كاف.

على أي حال جلست مع أحد الرضع، وهو ذكر غريب الشكل، له شفة عليا ممتدة بطريقة غريبة؛ إنه الفيل إليفانت. وهو أحد أبناء كابو في الواقع، جلس على الأرض ممسكًا بمعدته، وهو يصرخ بصوت عالٍ، ربما يعاني وجود ديدان أو بعض الطفيليات بمعدته، وهول تصرخ معه، كما لو أن الألم انتقل إليها. قطفت هول بعض أوراق الشجر ودفعت الصغير إلى أكلها، إنها تحتوي على مركبات سامة لمعظم الديدان.

رأى فينجر وفروند يشقان طريقهما في الغابة. رغب الذكران الصغيران في القيام ببضعة عمليات للسرقة، حسبما بدا لكابو، وكانا يريدان محصول كابو، وعندما أدرك هذا غضب.

حافظ كابو على صبره، وجلس تحت الشجرة، ثم ألقى بالمطرقة الحجرية، وأمسك بعصا وبدأ العمل بطريقة نظامية لينظف بين أصابع رجليه، عرف أنه إذا حاول أن يحبط محاولة الذكرين، ستجد البقية الجوز أولًا وتسرقه، لكنه — بادعاء التكاسل وعدم الاهتمام — فإنه سيوحي لهما بعدم وجود شيء مُخبأ.

على عكس رومر استطاع كابو أن يعرف نوايا الآخرين، وأدرك أن الآخرين من الممكن أن يكون لهم معتقدات تختلف عنه، كما أنه عرف أن أفعاله يمكن أن تؤثر على معتقدات الآخرين، ساعدته هذه القدرة على تنفيذ حيلة محدودة. أما هول فشاركت إليغانت معاناته. وسمح له ذلك بتوطيد قدرته على الخداع والخيانة، إلى جانب القدرة على قراءة الأفكار.

حددت هذه المقدرة معرفته بنفسه بطريقة جديدة، إن أفضل وسيلة لتصور ما في عقول الآخرين هي بقراءة ما في عقلك؛ إذا رأيت ما تراه هي، إذا صدقت ما تصدقه هي، ماذا كنت سأفعل؟ إنها نظرة داخلية، تفكير: ميلاد العقل الواعي. لو رأى كابو وجهه في مرآة؛ فسيدرك أنه هو ذاته وليس قردًا آخر في الشرفة. إنه أول الحيوانات التي تصل إلى هذا النوع من الإدراك منذ صياد بانجيا.

في النهاية ابتعد فروند وفينجر عن المخبأ. انتزع كابو مطرقته الحجرية وانهال على الجوز، سيوجه إليهما الضربات لاحقًا بدون أن يعرفا السبب على أي حال.

طرح السعف جانبًا للكشف عن سندانه الحجري المفضل، وهو صخرة مسطحة تغوص في الأرض، ولحماية مؤخرته نثر أوراق شجر عريضة على الأرض الرطبة. ثم جلس وضم رجليه إلى صدره. ووضع ثمرة جوز على السندان، ممسكًا بها بين إبهامه وسبابته، ثم ضرب بالمطرقة، بعد أن انتزع أصابعه في اللحظة الأخيرة، تدحرجت الجوزة قليلًا دون أن تنكسر، أعادها كابو وحاول مرة أخرى، إنها عملية صعبة، وتحتاج الكثير من التنسيق،

لكن كابو استغرق فقط ثلاث محاولات قبل أن يكسر ثمرة الجوز الأولى، ويمضغ لحمها بأسنانه.

سبعة وعشرون مليون عام بعد رومر وطريقتها في ضرب الجوز على الجذوع، هذه هي ذروة ما وصلت إليه التقنية على الأرض.

استمر كابو في العمل بثبات مع الجوز، مندمجًا في العملية، ومبعدًا عن رأسه الأفكار المزعجة التي عبثت بها. أشرق الصباح، ولمدة من الوقت شعر بارتياح لمعرفته أن لديه طعامًا يكفيه، على الأقل لعدة ساعات.

انتبه إليفانت الصغير إلى رائحة الجوز الغنية، وجاء ليرى ما يحدث، بدا واضحًا أن مشكلة معدته قد تحسنت بعد أن أعطته هول العلاج العشبي، أو ربما ادعى وجود ألم للفت الأنظار، وبدأ يشعر بالجوع. لاحظ وجود قشور جوز مبعثرة حول السندان الحجري، وبعض فتات النواة، فالتقطها وكدسها في فمه.

وترك كابو ما حدث يمر بسلام.

ألقى كابو مطرقته الحجرية واتجه نحو ليف. وبلطف لمس بطنها ليلفت نظرها، فاستجابت له برقة. ليف مخلوقة كبيرة رقيقة، وهي إحدى الإناث المفضلات لدى كابو، في الحقيقة كانت المفضلة لدى كل ذكور القبيلة، إذ يتنافسون لقضاء الوقت معها.

لكن كابو يختلف عن الجميع، فسرعان ما انتصب عضوه الذكري وبرز من فرائه، وكانت ليف قد اكتفت من اللمس. رفعت صغيرها من على ظهرها، ووضعته على الأرض. ثم استلقت على ظهرها وتركت كابو يخترقها، تقوس ظهرها بينما اخترقها، حتى إن رأسها انقلب، وتوازن جسمها على جمجمتها. هذه القرود العليا غالبًا ما تزاوجت وجهًا لوجه، إنها العاطفة؛ فهي تشارك بعضها بعضًا متعة الاستمالة والتزاوج.

كان كابو وليف متقاربين، علاقتهما بسيطة، في بعض الأحيان اصطحب كابو ليف إلى الغابة لأيام، هما الاثنان فقط، وخلال هذه الرحلات الناعمة استمتعا بخصوصية السلالات اللاحقة، حملت ليف أغلب صغار كابو، بما فيهم إليفانت.

لم يكن ما شعر به كابو وليف أحدهما تجاه الآخر في هذه اللحظة يشبه حب البشر، فكل منهما ظل أسيرًا داخل سجون الصمت. فلغتهما التي لم تكن متقدمة لم تتجاوز صرخات الألم، لكنهما لم يشعرا بالوحدة كغيرهما.

في هذه الأثناء انقض إليفانت على أدوات كابو، وبدأ يقرع الجوز على الحصى، والحصى على السندان.

فالقرود من فصيلة كابو تتعلم الكثير عن بيئتها منذ طفولتها وهي تنمو. إنها تحتاج إلى تعلم: أين توجد المياه والطعام؟ وكيف تستخدم الأدوات للحصول على غذائها؟ وكيف تستعمل الدواء العشبي البسيط؟ اضطرت للعيش بهذه الطريقة، وبسبب منافسيها من القرود وجب عليها أن تتعلم كيف تنتزع الطعام الذي لم تسرقه القردة. وهذا يتطلب ذكاءً.

لم يكن هناك تعليم مدرسي متاح، لم يكن إليفانت يحاول أن يعرف ما فعله كابو، لكن الاعتماد على التجربة والمحاولة والخطأ واستخدام الأدوات التي تركها الكبار — مدفوع بإغراء مذاق الجوز — تعلم إليفانت في النهاية كيف يكسر الجوز بنفسه. استغرق الأمر منه ثلاث سنوات أخرى قبل أن يقوم به بشكل صحيح. وجب على إليفانت أن يكتشف كل شيء وحده من البداية، كأنما يكرر في حياته عملية تقدم الحياة الفكرية للأنواع.

ظل إليفانت يدق ويدق على ثمرات الجوز، كما لو أنه أول قرد يحاول كسرها بهذه الطريقة.

وصل كابو إلى قمة التهيج الجنسي في ذلك اليوم، فابتعد عن ليف وتدحرج على ظهره، وبدا فخورًا بنفسه بدون مبرر، وسمح لها أن تلتقط عقد فرائه من على بطنه.

لكن راحة باله لم تدم طويلًا، فقد أزعجته أصوات من أعماق الغابة: نواح وصياح وقرع طبول وصوت حيوانات ضخمة تتسلق وتتأرجح.

جلس كابو، ففي عالمه لم يكن من الملائم ترك إثارة كبيرة تمر دون الاشتراك فيها. قفز فوق جذع شجرة وقرع على فرع، ثم ضرب إليفانت على رأسه، ووثب إلى مصدر الضوضاء.

إنها مجموعة من الذكور الشباب تطارد قردًا.

بدا لكابو أن القرد هو فيرفيت الصغير، المخلوق الذي رآه يمضغ زهور الصمغ في وقت سابق. جلس حينها فوق قمة نخلة صغيرة.

وانتشرت الذكور حول قاعدة الشجرة، وتسلقت الأشجار المجاورة خلسة، واجتمع آخرون من بينهم فروند وفينجر لمشاهدة الأمر. هذه المجموعة هي التي تصدر الضوضاء، بينما تنقلت المجموعة التي تصطاد بهدوء. لكن الضوضاء كانت مرعبة ومربكة للقرد.

انزعج كابو عندما تعرف على هوية الصيادين، إنهم ذكور يافعة مشاكسة سطت قبل أيام على محصول رحلة جمع الطعام في طرف آخر من الغابة. وقائدها غير الرسمي مخلوق قوي البنية يدعى بولدر، أثار بعض المشاكل لكابو في الماضي بأسلوبه المتمرد، وارتاح كابو لرؤيته يرحل، فتركه يناطح الأشجار، ويرتكب أخطاء قليلة، أو يجرح نفسه، لأنه سرعان ما سيرجع ليخضع إلى سلطة كابو مرة أخرى.

لكن بولدر غاب لأيام فقط، في حين توقع كابو أن تمر أسابيع، يبدو — بالنظر إلى عدائه — أن رحلته القصيرة لم تعمل على تهدئته.

انزعج كابو من الصيد أيضًا، فصيد القرود يحدث فقط عندما يكون الطعام نادرًا أثناء فترات الجفاف. فلماذا الصيد الآن؟

قفز أحد القرود العليا على الشجرة فجأة، فقفز القرد صارخًا في الاتجاه الآخر بين أحضان الصياد المُنتظِر. صاحت القردة العليا المُشاهِدة ونبحت. فأرجح الصائد القرد الصارخ وضرب جمجمته في جذع الشجرة، فانقطع صياحه على الفور. ثم ألقى الصياد بالقرد جثة هامدة على الأرض، ورأسه المُهشمة لطخت خضرة الغابة الداكنة بالأحمر القاني.

هذه هي لحظة كابو، قفز أمام بولدر ليكون أول من ينال من الجثة، أمسك بها وهي لا تزال دافئة، وطوى ساقها بقسوة، منتزعًا الساق من عند مفصل الركبة.

لكن تحدي بولدر له أدهشه، قفز الذكر قوي البنية على قدميه أولًا، ثم ضربه في صدره، فسقط كابو وانبطح على الأرض، وانتشر الألم على طول قفصه الصدري، وأخذ يلهث. حمل بولدر ساق القرد عمدًا وعضها،

فتدفق الدم على فمه. جميع القرود متحمسة بجنون، تصيح وتدمدم وتتزاحم.

تجاهل كابو آلام صدره، وقفز على رجليه مصدرًا زئيرًا. إنه لا يستطيع أن يسمح لبولدر بالإفلات بما فعل. أسرع ليصل إلى جذع منخفض، وهو يصيح بضراوة ويصرخ بصوت عال، بما يكفي لإزعاج الطيور الجاثمة فوقه، ثم قفز على الأرض. وأعرب عن غضبه من خلال اتخاذه موقفًا عدائيًّا ومفتخرًا بالانتصاب الذي بدا ظاهرًا؛ إنها علامته المميزة.

لكن بولدر احتفظ بهدوء أعصابه. وهو يمسك بيده ساق القرد الميت مثل مضرب، وبدأ عرضه الخاص، علامته المميزة كانت قفز ودمدمة مثيرة للإعجاب بقدر عرض كابو.

علم كابو جيدًا أنه لا بستطيع تحمل هذه الخسارة. وإذا حدث ذلك — وبالنظر لمجموعة بولدر من الصيادين الملطخة بالدماء — لن يفقد مركزه فقط، بل سيفقد حياته كذلك.

وبخفة لا تناسب سنه قفز سريعًا إلى الأمام، فطرح بولدر أرضًا، وجلس على صدره، وأخذ يضربه على رأسه وصدره بكل ما لديه من قوة. وقاومه بولدر، لكن إذا نحينا الشباب جانبًا كان لكابو كل المميزات؛ عنصر المفاجأة والخبرة والسلطة. لم يكن من الممكن أن يبعد بولدر كابو عنه، ولم يكن باستطاعته خلال تلك المعركة تحريك ذراعيه وساقيه القويتين.

وبالتدريج وجد كابو أنه يفوز في المعركة أمام باقي أفراد القبيلة، وذلك لا يقل أهمية عن إخضاع بولدر، الذي بدأ أتباعه في الاختفاء بين الأشجار، وسمع كابو صياح الإثارة والتشجيع الموجه إليه.

لكن حتى في معركته لإخضاع بولدر مر بعقله المتسع استنتاج بطيء. فكر في الأشجار الميتة التي لمحها وراء أطراف جزيرة الغابة، والعودة السريعة لبولدر وجماعته، وجوعها وحاجتها إلى الصيد.

لم يجد بولدر مكانًا يذهب إليه، «كانت رقعة الغابة تتقلص».

أدرك كابو صحة هذه الحقيقة طوال حياته، وأصبح لا مفر منها. لم يعد هناك متسع للجميع. إذا حاول إبقاء المجموعة هنا، فالتوتر والمنافسة — لتضاؤل الموارد — سيصبحان أشد حدة.

لا بد أن تتحرك المجموعة.

في النهاية وجب على بولدر أن يستسلم. ظل يرقد منهكًا تحت كابو وهو يمسك به من الخلف. وللحظة دلك عضوه الذكري المنتصب، كعلامة على الاستسلام. ولتحقيق هدفه المنشود استمر كابو في ضرب رأس بولدر لمدة دقائق طويلة. ثم قام من فوق الذكر الشاب، المنبطح أرضًا. اتجه إلى داخل الغابة حيث سيكون بإمكانه أن يعرج، وأن يمسح الألم عن صدره، ولن يرى أحد مقدار ألمه.

انقضّت المجموعة خلفه على الضحية، لم تكن مَعِداتها تهضم اللحم جيدًا، وفيما بعد ستلتقط كتل برازها لأكل اللحم منه مرة أخرى. لا بد للجهاز الهضمي أن يتطور، إذا كُتب على الأجيال المنحدرة من نسل هذه المخلوقات أن تزدهر في السافانا.

٢

منذ عصر رومر أعادت الحشائش تكوين العالم.

استمرت حقبة التبريد الهائلة للأرض، حيث احتُجِزت المياه بالغطاء الجليدي للقطب الجنوبي وانخفض سطح البحر، أما البحار الداخلية فتقلصت أو أصبحت محاصرة. لكن مع استمرار الكتلة القارية في البروز أصبح البحر أقل قدرة على عزل الإقليم من الحرارة الشديدة والبرودة الشديدة. وسحبت الصخور ثاني أكسيد الكربون من الهواء، مما جعلها أقل قدرة على امتصاص أشعة الشمس. وأصبح الكوكب أكثر برودة وجفافًا؛ فقد طوّر ميكانيكية استجابة واسعة تدفع سطحه لظروف ظلت متجمدة وقاحلة.

في الوقت ذاته أدت عدة صدامات تكتونية إلى تكوين سلاسل جبلية جديدة، مثل جبال الأنديز بأمريكا الجنوبية والهيمالايا بآسيا. إن هذه المرتفعات الجديدة قد تسببت في سقوط أمطار غزيرة عبر القارات، وفي هذه الأجواء سرعان ما ولدت الصحراء الكبرى، وفي التربة الجافة الجديدة تكونت أحزمة كبيرة من الغابات، التي انتشرت من الجنوب والشمال باتجاه خط الاستواء.

وانتشرت الحشائش.

إن نباتات الحشائش — التي تجمعت في مجموعات عملاقة لاعتمادها على التخصيب بحبوب اللقاح التي تقذفها الرياح — ربما كانت مُهيأة للظروف الجديدة الجافة الواسعة. استطاعت الحشائش أن تنبت بالرغم من تقطع المطر، في حين أن أغاب الأشجار التي تضرب جذورها في الأعماق لم تجد إلا الجفاف، ولم تستطع الاستمرار. لكن السر الحقيقي في بقاء الحشائش يكمن في سيقانها. إن أوراق أغلب النباتات تنمو من أطرافها، لكن الحشائش ليست كذلك. استطاعت الحشائش أن تنمو من السيقان تحت الأرض. لهذا فإن الحشائش يمكن أن يأكلها حيوان جائع دون أن تفقد قدرتها على التجدد.

مكنت هذه الخواص غير الاستثنائية الحشائش من السيطرة على العالم كله ومده بالغذاء.

طورت آكلات العشب الجديدة أمعاء قادرة على هضم أوراق العشب على مدار فترات طويلة، ومن ثم أصبحت تستخلص أكبر قدر من التغذية من الأعشاب، أصبحت الأسنان قادرة على تحمل التأثير الرهيب لحبيبات السليكا في أوراق الحشائش. تعلمت كثير من آكلات العشب الهجرة بسبب مواسم هطول الأمطار. أصبحت الثدييات الجديدة أكبر من أسلافها، فكانت هزيلة ولها أرجل طويلة، بأقدام خاصة وأصابع أقدام أقل لتساعدها على الركض والسير لمسافات طويلة وبسرعة. وفي الوقت نفسه حدث ازدياد حاد في أنواع القوارض، مثل فئران الحقول القادرة على أكل بذور الحشائش.

ظهرت أيضًا آكلات لحوم جديدة، لديها القدرة على افتراس القطعان الجديدة من آكلات العشب، لكن قوانين اللعبة تغيرت، ففي أرض الحشائش المتناثرة استطاعت الحيوانات المفترسة أن ترى الفريسة من مسافات بعيدة، والعكس صحيح، لهذا بدأت الحيوانات المفترسة والفرائس الصراع بالأيدي بالتركيز على السرعة وقدرة التحمل، وتطورت لديها أرجل طويلة وردود أفعال سريعة.

وانتشر نوع جديد من الأرض؛ خاصة في الجزء الشرقي من القارات، البعيدة عن الرياح الغربية العنيفة والأمطار التي تحملها معها. انتشرت

السهول الواسعة المغطاة بالحشائش التي تميزت بمجموعات من الأدغال والغابات المتناثرة، وبدورها تكيفت الحيوانات مع الغطاء النباتي الجديد وضمنت مصدر طعام آمن متوفر في مئات الكيلومترات.

لكن تخصصها وثبات حشائش الأرض سوف يجعل ساكنيها مرتبطين بالحشائش، والمفترسين بالفريسة، مكونًا علاقة اعتمادية مغلقة. في هذه الفترة بدت الغزلان والأبقار والخنازير والكلاب والأرانب مختلفة قليلًا عن مثيلاتها التي عاشت في عصر الإنسان بعد خمسة ملايين عام، ومع أن الكثير منها سيبدو ضخمًا جدًّا، فإنها ستصبح خارج المنافسة مقارنة بالأنواع الأصغر والأسرع؛ أولاد عمومتها.

في الوقت ذاته أدى فتح الجسور الأرضية الناتج عن انخفاض مستوى سطح البحر إلى هجرة ضخمة متبادلة للحيوانات. عبرت ثلاثة أنواع من الفيلة — دينوثر[١] وجومفوثير آكلة الحيوانات والمستودون من أفريقيا إلى آسيا، ورحلت معها القردة العليا، أبناء عمومة كابو. وفي الاتجاه الآخر ظهرت القوارض وآكلات الحشرات والقطط ووحيد القرن والغزال والخنازير والأنواع البدائية من الزرافات والظباء.

ظهرت بعض الكائنات الغريبة وخاصة على الجزر والقارات المنفصلة، ففي أمريكا الجنوبية عاشت القوارض الضخمة وازدهرت، وأنواع من الخنازير الكبيرة في حجم فرس النهر. وظهر 'الكنغر لأول مرة في أستراليا، وظهرت الحيوانات المدارية في أمريكا الشمالية وأوروبا وآسيا. كان نهر التايمز بإنجلترا متسعًا مموجًا وعلى ضفته سكنت الفيلة وفرس النهر. ازداد العالم برودة منذ عهد نوث لكنه لم يكن باردًا جدًّا، ظهرت البرودة الشديدة في عصور متأخرة.

واستمر الجفاف. وقريبًا ستصبح الحشائش وغابة الأخشاب التي كانت قادرة على إطعام عدد كبير من الحيوانات موجودة فقط على طول خط الاستواء في أفريقيا، وفي مكان آخر هجمت الحشائش على الوديان القاحلة والسافانا المتسعة. في تلك الظروف البسيطة الخشنة اختفت عدة سلالات.

---

[١] الحيوانات التي تتغذى على العشب إلى جانب اللحوم.

دفع ذلك التطور الكثيف تغيرات غير متناهية في مناخ الأرض، وغدت الحيوانات والنباتات عديمة الحيلة أمام ضربات المناخ.

في اليوم التالي لم تكن الظروف تسمح بالاسترخاء، ففور أن استيقظ كابو جلس وتأوه من ألم الأمس، ثم أفرغ مثانته وتبرز سريعًا، متجاهلًا صيحات معارضيه التي جاءت من أسفله.

قفز من عشه، وبدأ ينزل الشجرة، ومثلما فعل بالأمس أيقظ المجموعة بتحطيم أعشاشها، والصراخ والركل والضرب. لكن كابو لم يكن مهتمًّا هذا الصباح بتقديم عروضه، كان غرضه الرئيسي هو القيادة وليس السيطرة.

نيته ما زالت قوية في عقله. على المجموعة أن تتحرك، لكن الوجهة لم تكن جزءًا من قراره الجدلي. الشيء الذي بدا واضحًا جدًّا أمامه هو ضغط الأمس وصراعه مع بولدر، الذي جعله يدرك ضيق هذا الجزء من الغابة.

تجمعت المجموعة على الأرض، أكثر من أربعين فردًا، بما فيهم الرضع المتعلقة ببطون أمهاتها أو ظهورها، غالبها النعاس وبقلق حكت أنفسها مرة بعد مرة. فور أن جمعها كابو تفرقت ثانية مهتمة بأكل الحشائش والحشرات من الأرض، ووصلت إلى تين قليل النمو وفاكهة أخرى. شاهد التنافس والرفض بين الذكور، وقد تقاومه لإظهار سيطرتها بالألاعيب التي لا تنتهي. أما الإناث فكان هناك قانون بينها، بالرغم من ضوضاء كابو وعنفه.

كيف سيقدر على قيادة هذا الحشد إلى أي مكان؟

لم يكن واعيًا طول الوقت كالبشر، بل إن وعيه بدرجة متوسطة. إنه واع لأفكاره الخاصة ولنفسه، عندما فكر في الآخرين من المجموعة، لأن ذلك هو الغرض الأساسي من الوعي، أن يدرك تفكير الآخرين. لم يكن واعيًا بنفس القدر للمجالات الأخرى في حياته، مثل جمع الطعام أو استعمال الأدوات، فهذ؛ أفعال لا إرادية، لا تتعمق في وعيه مثل قيامه بالتنفس أو تحريك رجليه ويديه عند التسلق، فتفكيره مختلف عن تفكير البشر، كان مبسطًا ومركزًا.

أصبح عقله آلة جدلية تطورت أساسًا للتعامل مع ظروف اجتماعية معقدة، ولديه فهم أولي جيد ببيئته، وقاعدة بيانات في رأسه عن مصادر

الطعام المطلوبة لكي يظل على قيد الحياة، وأين يجدها. وهو أيضًا جيد في معرفة الاتجاهات، يستطيع بسهولة أن يجد مسارات قصيرة من مكان إلى آخر. ومعرفته البيئية هي التي شكلت فكرته القلقة الخاصة بتقلص حجم الغابة.

من الصعب عليه أن يرتب عناصر هذا اللغز؛ أن يدرك خطر تقلص الغابة وما يجب عليه أن يفعله مع مجموعته، لكن الخطر بدا حقيقيًّا جدًّا له، ونبهته كل غرائزه أن يبتعد من هنا. ووجب على المجموعة أن تتبعه، فالأمر بسيط، وهو متيقن منه في أعماقه؛ إذا ظلت المجموعة هنا، فمن المؤكد أنها ستموت.

صرخ لتحريك الدم في عروقه، وقدم أكثر عرض حي ممكن. وركض جيئة وذهابًا بين المجموعة ليضرب ويَخِز ويركل. قطع فروع الأشجار ولوح بها فوق رأسه، ليبدو أكبر مما هو عليه، وتأرجح وقفز فوق الأفرع والجذوع، وضرب بقوة على الأرض، وليؤكد انتصاره بالأمس ألقى بولدر على الأرض، ومرغ في وجه الذكر الشاب مؤخرته، كان مشهدًا رائعًا، كمشاهد كابو في أيام شبابه. صاحت الذكور وصرخت الإناث وبكت الصغار بينما افتخر كابو بهذا العمل.

بعدها حاول أن يقود مجموعته بعيدًا تجاه حافة الغابة، فسار بظهره يهز الأفرع ويعدو مسرعًا ذهابًا وإيابًا.

حملقت المجموعة، وفجأة أصبح يتصرف كذكر صغير منقاد، فقام بالعرض مرة أخرى، وظل يضرب ويقفز ويصرخ، وعاد إلى أسلوب إجبارهم على اتباعه.

وأخيرًا تحرك أحدها، إنه الذكر الشاب فروند، فقطع خطوتين للأمام؛ انتبه كابو فصرخ صرخة سعادة واتجه نحو فروند ليكافئه بتدليكه. فتقدم آخرون مثل فينجر وبعض الذكور الصغار، متلهفين لأن يدلكهم، لكن كابو لاحظ أن بولدر ينوي توجيه ركلة إلى ظهر فروند.

جاءت ليف تمشي بهدوء وثبات، ورضيعها على ظهرها، فسعد كابو بذلك، وعندما جاءت الأنثى القائدة اتبعتها المجموعة ومن بينها هول الصغيرة.

لكن لم تتبعها كل الإناث ولا كل الذكور. تخلف بولدر فظل جالسًا بهدوء تحت شجرة، وقد ثنى رجليه تحته بطريقة مدهشة. وتجمعت بعض الذكور الأخرى حوله. فقام كابو بعرضه أمامها بعنف مرة أخرى. لكن الذكور جلست تدلك بعضها بعضًا كما لو أن كابو لم يعُد موجودًا. إنها حركة متعمدة، فإذا أراد كابو أن يحافظ على مكانته فلا بد أن يقضي على ذلك التمرد، ويواجه بولدر مرة أخرى.

لكن المفاجأة أنه أوقف العرض ووقف يلهث.

أحس في داخله أنه فقد هذه المجموعة، وأنه ضغط عليها بقوة حتى انشقت، فمن اختار أن يتبعه سيجد طريقه معه إلى مصير جديد، مصير لا يمكن أن يتخيله، أما الذي تخلف عنه فعليه أن يغامر.

قفز بسرعة بعيدًا عن وسط الغابة، واتجه إلى ضوء النهار دون أن ينظر خلفه، بالرغم من أنه كان غير قادر على مقاومة إغراء توجيه بعض الفضلات نحو الجماعة المتمردة.

في النهاية ظل نصف الذكور وأكثر من نصف الإناث في الغابة. كان موقفًا محطمًا لسيطرة كابو، وعندما سار ناحية الضوء الساطع في الوادي استطاع أن يسمع صرخات الذكور وصياحها. بدأت معركة تحديد القائد الجديد.

توقف كابو على حدود الغابة وحافة اللاشيء.

رأى حيوانات جومفوثير مثل الأمس ترعى وسط الأشجار المدمرة شبه غارقة، وفي الشمال امتد وادي الحشائش ناحية الأفق الضبابي، مغطى ببحيرات ومستنقعات، تمر فيها القطعان آكلة العشب كالظلال. نحو الجنوب بعد كيلومتر أو أكثر تحولت الأرض إلى اللون الأبيض، إذ إن الحوض الملحي سيكون مكانًا صعبًا للعبور، لكن كابو استطاع أن يرى كيف ترتفع الأرض عاليًا تجاه هضبة خضراء، وهو ما بدا لعينيه الضعيفتين المتكيفتين على الرؤية القريبة في الغابة غطاءً كثيفًا من الأشجار الراقدة على الصخور.

إذن فهو سيتجه نحو الغابة الجديدة أعلى الهضبة، ودون أن ينظر خلفه ليرى إذا كان هناك من يتبعه اقتحم كابو الحشائش التي تموج حوله بارتفاع كتفيه.

ارتفعت الأرض وبسرعة أصبحت جافة.

ظهرت بعض الأشجار، لكنها جذوع أشجار صنوبر رقيقة متشبثة بالأرض القاحلة ولا تشبه كثافة ونداوة أشجار الغابة، ولم يكن هناك مكان يوفر الظل من أشعة الشمس. سرعان ما أصبح كابو يتنفس بصعوبة ويشعر بحرارة داخل فرائه السميك وآلمته مفاصله وقدماه. لم يستطع أن يعرق، وبدت مشيته على مفاصله التي تصلح للبيئة المعقدة المزدحمة في الغابة لا تصلح هنا؛ إنها غير فعالة.

أصبح كابو مخلوق الغابة يشعر بالخوف من هذا السهل العظيم الممتد، فصاح بخفة واشتاق للتكور ولعقد ذراعيه على رأسه والاستلقاء على أقرب شجرة.

رأى هنا وهناك حيوانات فوق الوادي الجاف. فشاهد غزلان وبعض سلالات الكلاب وعائلة من الحيوانات المنقبة مثل الخنازير ذات الأشواك. أما الحيوانات الكبيرة فكانت قليلة جدًّا. وكلما مشى كابو وجد مخلوقات أصغر تحت أقدامه؛ مثل السحالي والقوارض والأرانب البدائية.

إن العشرين فردًا أو ما يقرب من ذلك الذين اتبعوه كانوا يتألمون وهم يصعدون المنحدر خلفه. تحركوا ببطء؛ لأنهم كانوا يتوقفون من حين لآخر لتناول الطعام أو التدليك أو اللهو أو الاختلاف. تلك الهجرة لم تكن أكثر من سير بطيء لبعض الأطفال الذين يسهل تشتيت انتباههم، ولم يكن من طبيعة كابو أن يتعجلهم، هكذا كانوا.

اعتلى كابو قمة تل منخفض وأخذ يتطلع إلى الخلف؛ في أنحاء الأرض المبللة اللامعة المليئة بغابات وحيوانات عشبية مزدحمة. لكنه عندما نظر إلى الأمام في اتجاه الجنوب شاهد جفافًا عظيمًا سيقبل عليه. كان واديًا عريضًا مرتفعًا وجافًّا، به عدد قليل من الأشجار المبعثرة وقليل من الخضرة. ظل قاحلًا لوقوع حادث جيولوجي تركه في قبضةٍ صلدةٍ من صخورٍ جوفيةٍ، جرداء من الينابيع، وقليل من مياه الأمطار.

إنه مشهد مرعب. كان الوادي مكشوفًا، مفتوحًا تمامًا، وعليه أن يعبره.

من هذه اللحظة فصاعدًا لم تكن هناك غابة تمتص الضوضاء، فاستطاع أن يسمع زئيرًا غامضًا من الغرب. بدت الضوضاء البعيدة مثل صرخة لحيوان

ضخم جريح غاضب؛ أو حفيف حوافر قطيع عشبي كبير. لكنه عندما نظر إلى الغرب لم يرَ غبارًا ولا أثرًا لأجساد حيوانات. لم يكن هناك شيء سوى زئير مستمر، كأنما استمر طوال حياته.

أخذ في نزول المنحدر الصخري وظل متجهًا إلى الجنوب.

أصبحت الأرض عارية، لكن بعض الأشجار ما زالت تتشبث بالحياة هناك، وجذورها تتحرك كالديدان بين شقوق الصخور. لكن هذه الصنوبريات قليلة، وأوراقها مسننة تتطلع إلى النزر اليسير من الماء. توقف كابو تحت إحدى هذه الأشجار؛ فلم تمنحه فروعها وأوراقها الكثير من الظل. لم يجد أي فاكهة والأوراق التي أكلها حادة وجافة في فمه. فأمسك مخلوقًا يشبه الفأر ذا رجلين خلفيتين طويلتين وسال لعابه عندما فكر أن يقضم هذا الجسد الرخو المبلل ويحطم عظامه الصغيرة في فمه. لكنه على هذه الأرض الصخرية فقد براعته وتشوشت أفكاره، فهرب منه هذا الشيء الذي يشبه الفأر بسهولة.

تغيرت الأرض مرة أخرى، وصارت منحدرًا واسعًا من الأحجار المكسورة المنثورة أمامه، ثم طريقًا يؤدي إلى أعماق الوادي الجاف. أصبح السير أصعب على كابو الذي انزلق على هذه الأحجار. شعر بالسخونة والجوع والعطش، فصاح معبرًا عن اعتراضه، وألقى بشيء من الأنقاض على الأرض حوله، وأخذ في ركله. لكن الأرض لم تخف أمام عرض كابو القوي.

في هذه الأثناء شاهدت شازما Chasma صراع المجموعة وهي تحاول نزول المنحدر الغادر المتعرج.

لم تكن قد رأت من قبل مخلوقات مثل هذه، لها هذه القدرة على الافتراس، فحسبت، بطريقة غير واعية، سرعتها وقوتها ولحومها وبدأت في تصنيف الأفراد، كان هناك فرد يبدو أنه قد جرح ويعرج قليلًا، وصغير يتعلق بقوة في صدر أمه. وشاب شرد بغباء عن المجموعة.

شازما في الحقيقة هي نوع من الضباع، طويلة الأرجل ونحيفة، تبدو أقرب إلى شكل الفهد. لم تكن لديها كل مزايا السنوريات الحقيقية وسرعتها، تكيف نوعها أكثر لتحمل الظروف الناشئة في عالم الحشائش، لكن مرعاها

كبير في هذا الوادي المجدب. فهي على قمة المفترسات مهيأة بقوة لمهمتها الرهيبة.

والقردة بالنسبة لها نوع جديد من اللحم في السافانا. انتظرت وعيونها تلمع كالنجوم.

وأخيرًا شعر كابو أنه متعب جدًّا، فاستسلم. وتمدد على الأرض، ولحقت به مجموعته واحدًا تلو الآخر. ومع وصول الجميع بدأت الشمس في الغروب، وهي تملأ السماء بالحرارة وتلقي ظلالًا طويلة على أرض هذا الوادي، ذي الحصى المتناثر.

تردد كابو؛ فلا يجب على المجموعة أن تبقى في العراء، رغب جسده في تسلق جذع شجرة، ليجمع الأفرع ويصنع بها عشًّا دافئًا وآمنًا. لكن لم تكن هناك أشجار! إذن لا أمان. ومن ناحية أخرى لن تستطيع المجموعة عبور الوادي في الظلام. جميعها جوعى وعطشى ومرهقة.

لم يكن يعرف ما يفعله، ولهذا لم يفعل شيئًا.

بدأت المجموعة في التفكك، متتبعة غريزتها الخاصة. التقط فينجر حصاة كبيرة في حجم راحة اليد، ربما على أمل استعمالها مستقبلًا في عملية كسر الجوز. لكن عقربًا قفز من تحت الصخرة، فهرب فينجر وهو يصيح.

أما فروند فكان يجلس وحده، وظهره إلى باقي المجموعة؛ منشغلًا بعمل شيء ما. قفز كابو في شك وبكل هدوء، واتجه ناحية الحصى المبعثر.

وجد فروند رُكامًا من النمل الأبيض، جلس أمامه يدس العصا فيه. عندما رأى كابو تكور وصرخ. فضربه كابو في رأسه وكتفيه لكمة محترفة، كما توقع فروند. وجب عليه أن ينادي باقي المجموعة بعد اكتشافه الغنيمة.

مزق كابو شجيرة فروعها مسننة وملتوية، وعندما وضع فرعًا في فمه؛ جرحت الأوراق الجافة المسننة شفتيه. ولا بد أن يحدث ذلك. جلس كابو إلى جانب فروند، ودفع عصاه في فجوة في الركام، وأخذ يحركها حتى انزلقت في العمق. لم يكن هذا مثاليًّا، لأن العصا كانت قصيرة وملتوية، ولا يمكن أن تكون نافعة، لكن ليس هناك حل آخر، فهزها بحركة مستديرة منتظرًا بصبر، ثم سحب العصا سنتيمترًا تلو الآخر. تعلق بالعصا جنود من النمل الأبيض، أُرسلوا لكي يدافعوا عن المستعمرة ضد هذا الغازي. حرص كابو

على ألا يفقد هذا العدد، فوضع العصا في فمه، مستمتعًا بملء فمه من اللحم الحلو الطري.

عندما شاهدت بقية المجموعة ما يحدث تجمعت حوله، وصنع الأكبر سنًّا كلّ عصا الصيد الخاصة به. وبسرعة انتظموا في ترتيب اتخذوه بالركلات والوخز والصياح الحاد. كانت الذكور الكبيرة والإناث هي الأقرب للركام، بينما استبعدت الصغار التي عجزت عن فهم ما يحدث. لم يهتم كابو، ركز على الحفاظ على مكانه بالقرب من الركام وهو يعمل بدأب في التهام النمل الأبيض.

إن النمل الأبيض من المخلوقات عتيقة الطراز، مجتمعها معقد نتيجة لقصة تطورها الخاص. كان هذا الركام قديمًا يتكون من الطمي الذي تكوّن عندما كانت تهب عواصف ممطرة تسبب فيضانات مؤقتة. قشرته قوية كالصخر، تحمي النمل من أنظار معظم الحيوانات، لكن ليس من هذه القردة العليا.

إن قدرة كابو على استعمال الأدوات — مثل عصا صيد النمل والمطرقة الحجرية والأوراق التي يمضغها إلى أن تصبح أسفنجية ليستخرج بها الماء من الأعماق والعصي ذات الأسنان الناعمة التي استعملها أحيانًا في علاج أسنانه — بدت معقدة. عرف ما يريد الوصول إليه، عرف نوع الأداة المطلوبة لتحقيق ذلك. تذكر موقع آلاته المفضلة مثل المطرقة الحجرية، واتخذ قراراته بشأن استعمالها، وعلى سبيل المثال عند السفر بعيدًا كان عليه أن يحمل المطرقة بالرغم من وزنها. ولم تكن مسألة حمل حجرة مفيدة وجدها بالصدفة، عدّل في بعض أدواته مثل عصا الصيد.

ومع ذلك فلم يكن مثل الإنسان الحرفي، وظلت تعديلاته بسيطة. أدواته يتركها بعد الاستعمال، ومن الصعب تمييز منتجاته عن الجمادات. الحركات التي قام بها لصنع الأدوات جزء من تكوينه، مثل القضم ونزع أوراق الأشجار وإلقاء الحجارة. لم يخترع أي حركات جديدة كلية، مثل التجصيص وبري الخشب. استعمل كل أداة في استخدام واحد فقط، لم يتبادر إليه أبدًا أن عصا الصيد يمكن أن تستعمل كعصا تنظيف الأسنان. لم يطور أدواته بعد أن وجدها تصلح للاستخدام، وإذا حدث بالصدفة في

حياته أن وجد نوعًا جديدًا من الأدوات ومهما كان تصميمها ناجحًا، فإن استعمالها كان سينتشر ببطء شديد بين أفراد مجتمعه، ربما يظل أجيالًا ليصل إلى الجميع. إن فكرة القيادة -- التي تشير إلى أن أفكار فرد آخر يمكن تشكيلها بالتكرار والعرض — لم تكن قد اكتشفت بعد.

لهذا كانت مجموعة أدوات كابو محدودة وتقليدية جدًّا. كان أجداد كابو منذ خمسة ملايين عام مخلوقات من سلالات مختلفة، مخلوقات تستعمل أدوات ضئيلة أقل تطورًا. لم يكن كابو يدرك أنه يستعمل أدوات.

عمل كابو بدأب، عرف ماذا يريد، اختار مواد مساعدة لتحقيق غرضه وقام بصناعة وتشكيل العالم حوله. إنه الأمهر بين كل خلف برجا الممتد. بدأ الأمر كفكرة تشتعل في عينيه وعقله ويديه، فكرة سوف تتوهج قريبًا بوضوح أكثر.

ما إن توارت الشمس وراء الأفق في نهاية الوادي حتى تقاربت القردة أكثر. تدافعت وقفزت وصرخت بعضها في بعض وهي غير سعيدة، لم يكن هذا مكانها، لم يكن لديها أسلحة للدفاع عن أنفسها، ولا نيران لإبعاد الحيوانات المهاجمة. ولم يكن لديها غريزة التزام الصمت عند غروب الشمس، وقت خروج الحيوانات المفترسة. كل ما كان لديها هو تلقي الحماية بعضها من بعض، من عددها والأمل أن يُفترس غيرها وليس هي.

تأكد كابو أنه في وسط المجموعة، تحيط به أجسام الكبار.

لم يتمتع الذكر الصغير إليفانت بغريزة حماية نفسه. ونامت أمه في مكان ما وسط التجمع وهي تركز اهتمامها على طفلتها الجديدة، فأصبح إليفانت أقل أهمية. لم يكن محظوظًا لأنه كان في العمر الخطأ، إنه أكبر من أن يحميه الكبار، وأصغر من أن يصارع من أجل الوصول إلى وسط الجمع بعيدًا عن الخطر.

وفي الحال وجد نفسه مدفوعًا إلى حافة المجموعة، ومع ذلك فقد ظل يحاول الاستقرار، وجد مكانًا بالقرب من فينجر ابن عمه. إن الأرض جافة وصلبة، لم تكن بها الجذور الناعمة التي اعتاد عليها، لكنه ظل يتلوى حتى تمكن من عمل حفرة مقعرة الشكل ودفع ببطنه نحو ظهر فينجر.

لصغر سنه لم يدرك الخطر الذي يحدق به، ونام نومًا مضطربًا.

بعد ذلك في الظلام أيقظه وخز بسيط في كتفه، وخز رقيق أقرب إلى التدليك، تحرك قليلًا واقترب أكثر من ظهر فينجر، لكنه حينئذ شعر بنفس على وجنته، وسمع صوتًا كصوت تدحرج صخرة أسفل التل، ثم شم رائحة لحم منتن، فنهض في الحال، وكان قلبه يدق بشدة، فصرخ عاليًا.

انخلعت كتفه بقوة، ووجد نفسه مسحوبًا إلى الخلف مثل فرع شجرة مقطوع، ألقى بنظرة أخيرة على المجموعة التي كانت مستيقظة، مذعورة، يصرخ بعضها في بعض للابتعاد، ودارت حوله السماء التي تضيئها النجوم، وضُرب في الأرض بقوة كافية لتقطع أنفاسه.

وتحرك فوقه جسم سطع في ظلال السماء الزرقاء الداكنة اللون، وشعر بصدر قاسٍ ذي عضلات يجثم عليه، وشم رائحة فراء محترق، وأحس بأنفاس كالدماء، ورأى عينين صفراوين تطلان عليه.

وإذا بالقضمات تتوالى عليه في رجليه وفوق إحدى كليتيه. حادة كالطعنات، وظل ينتفض من الألم الشديد، فأخذ يصرخ ويتدحرج محاولًا الركض، لكن رجليه انهارت وتقطعت أوتار ركبتيه. ثم تبعتها قضمات على رقبته مرة أخرى. شعر بأنه مرفوع بعيدًا عن الأرض، وشعر بأسنان حادة تعمل داخل جلده. قاوم في بداية الأمر بيديه في الحصى، لكن جهوده جلبت له الكثير من الألم لأن لحم رقبته كان يتمزق.

استسلم وهو معلق بفم حيوان شازما، وقدماه المحطمتان تتدليان على الأرض وكذلك رأسه، وتلاشت أفكاره. ولم يعد يسمع صيحات قبيلته. أصبح وحيدًا حينها، مع الألم ودمائه، والخطوات الهادئة الثابتة لأقدام شازما.

ربما فقد إليفانت الوعي لفترة.

ثم أُلقي على الأرض. لم يهبط بعنف، لكن كل جراحه تؤلمه. وبمواء صارخ دُفع به على الأرض. تناثرت الأنقاض حوله، المكان يشبه المكان الذي جاء منه. وجد نفسه مغطى بفراء وفضلات شازما.

ثم ظهرت أجسام صغيرة حوله، سواد في سواد، تتحرك بسرعة وبطريقة خرقاء. شعر بشناب على فروته وقضمات في كعبيه ومعصميه. إنها صغار

شازما. صرخ في أعدائه ووجه لكمة بتهور. ووجد نفسه مع مجموعة صغيرة من الضحايا الساقطة على الأرض تعوي.

نبحت شازما الأم نباحًا قصيرًا، وحاول إليفانت أن يزحف وهو مذعور.

أما الصغار فقد نبحت بحماس وهي تستكمل مطاردتها القصيرة. ثم بدأت القضمات تتوالى بجدية، نحو ظهره وأردافه وبطنه. أخذ يتدحرج على ظهره، رافعًا رجليه إلى صدره وضاربًا بهما في الهواء، لكن الصغار أصبحت سريعة وغاضبة وعنيدة: فغرست إحداها أسنانها في وجنته، مستعينة بكل وزنها الضئيل لتمزيق وجهه.

نبحت الأم مرة أخرى، فتفرق الصغار. حاول إليفانت الهروب مرة أخرى. فأمسكت به الصغار من جديد وتلقى منها عدة قضمات، حتى أنهكته الجروح.

إذا لم يكن الأمر من أجل صغار شازما، لكانت قتلت إليفانت في الحال، لكنها كانت تعطي الفرصة لصغارها لمطاردة الفريسة والإيقاع بها. حتى تكون الصغار — عندما تكبر — قادرة على الإجهاز على الفريسة بنفسها وتمزيق أجزائها. بعد ذلك سوف تطلق سراح بعض فرائسها التي لم تكن قد أصيبت بأذى شديد، لتسمح للصغار بإنهاء الصيد. إنه نوع من التعليم بإتاحة الفرصة. لم يكن هذا أسلوبًا إنسانيًّا للتعلم، بل سلوكًا فطريًّا ذكيًّا مرتبطًا بسلالات آكلات اللحوم، لتُمكِّن صغارها من اكتساب المهارات التي سوف تحتاجها عند الصيد بمفردها.

ومع استمرار الدرس ظل إليفانت في وعيه، ظهرت نظرة رعب وأمل في حطام الغضاريف واللحم الممزق والدماء. أكل أقوى الصغار اللسان الذي تدلى من الفك المكسور.

لكن الصغار أصغر من الإجهاز على إليفانت بمفردها.

أخيرًا تولت الأم العملية، حيث أطبقت فكها على جمجمته، وشعر بوخزٍ وبقضم أسنان مثل إكليل من الأشواك حول فروة رأسه. وآخر شيء سمعه إليفانت هو زئير من بعيد.

عندما لاح الصباح أدرك الجميع أن إليفانت قد تم افتراسه.

نظر كابو بدهشة إلى الشعر المبعثر على الأرض حيث صارع إليفانت، ورأى آثار المخالب ترسم خطوط دماء، جفت وتحولت بالفعل إلى اللون البني، وامتدت لمسافة بعيدة. شعر كابو بحزن غريب على فقد إليفانت، كان شعورًا غريبًا ألا يشاهد الصغير الغِرّ ثانية وهو يحاول بغرابة القيام بالتدليك، ويتحسس طريقه محاولًا الحصول على لب الجوز من نخيل الجوز.

لكن قبل أن ينتهي اليوم كانت أم إليفانت هي الوحيدة التي تتذكره. وعندما تموت بدورها لن يكون هناك شيء يدل على أنه عاش، سيمضي إلى العدم الذي ابتلع أجداده واحدًا تلو الآخر.

دفع إليفانت حياته ثمنًا لنجاة قبيلته. شعر كابو بالراحة، وبدون تردد أو تقديم عرضه اليومي لتتبعه المجموعة تحرك كابو إلى أسفل المنحدر، ومنه إلى بقعة مسطحات الملح.

٣

في اليوم التالي كان على المجموعة عبور مسطح الملح، امتد الحوض أسفل السماء الزرقاء الفاتحة اللون على مدى الأفق تقريبًا، حيث تزاحمت التلال والأشجار والمستنقعات، بدا لو أن ذلك الغطاء الرمادي غلطة في العالم.

رقد الملح على طبقة رمادية صلبة من الطمي على نطاق واسع مسطح، لكن السطح له قوام وبه خطوط امتدت هنا وهناك، تلتقي في عقدة مركزية. في مكان ما كان هناك بئر جوفي، جعل الملح يندفع إلى أعلى بكميات كبيرة، صنعت تلالًا تتسلقها القردة.

لم يكن هناك شيء ينمو فوق الملح. لم تكن هناك آثار حياة، لا شيء يتحرك سوى القردة، لا أرانب ولا قوارض ولا حشرات. صفرت الرياح بشدة فوق هذه المنطقة المشبعة بمواد غير عضوية، ولم يعترض طريقها حفيف شجيرات أو أشجار أو حشائش.

لم يكن أمام كابو أي شيء يمكن عمله، إلا أن يواصل السير.

استغرق عبور الحوض الملحي عدة ساعات، بعد فترة أصبحت قدما كابو ويداه تؤلمانه، ووجد نفسه يتسلق حافة بارزة، وعلى قمتها رأى غابة؛ ولو فرضنا أنها غابة كثيفة فقد ظل يشعر بعدم الارتياح.

تردد كابو وهو يواجه الغابة. شعر بالحرارة، بينما نزفت قدماه ويداه من آثار الجروح. لكنه اندفع إلى الأمام في حذر، ودخل الغابة الخضراء.

تغطت الأرض بالجذور والأفرع والطحالب والأوراق المتشابكة. نمى الكرفس البري في كل مكان، وبالرغم من أن الوقت منتصف النهار فإن الهواء بدأ يبرد بفعل الضباب الخافت مثل ضباب الصباح. كانت جذور الأشجار كثيفة وضخمة، محاطة بخيوط طحالب خضراء غير مريحة الملمس على راحة يده. أما الرطوبة فتسللت إلى فرائه، لكنه أخيرًا وصل بعد جفاف الحوض الملحي إلى منطقة خضراء تحيط به، فأخذ يلتهم الأوراق والفاكهة والفطريات التي استطاع أن يلتقطها من الأرض حوله. شعر بأمان من خطر الحيوانات المتوحشة. فلا يمكن أن يكون هناك خطر يتهدد مجموعة جائعة متعبة في هذه الغابة الكثيفة الخضراء.

لكنه شاهد أجسامًا بنية وسوداء أمامه، يمكن رؤيتها بصعوبة من بين الخضرة المتشابكة، فتجمد في مكانه.

وإذا بذراع ضخمة امتدت نحو غصن أعرض من فخذ كابو، عضلات الكتف منسقة، فانقسم الغصن اثنين بسهولة مثلما فعل كابو لينظف أسنانه. وقطفت أصابع عملاقة الأوراق من الأفرع القريبة ودفعتها في فك عريض. تحركت الرأس كلها والحيوان الضخم يمضغ، وحركت العضلات الكبيرة الجمجمة والفك معًا.

أصبح أقرب المخلوقات إلى كابو قردًا ذكرًا، أخذ الذكر الضخم يراقب القرود الغريبة الصغيرة بدون فضول. بدا قويًّا ومصدر تهديد، لكنه لم يتحرك. لم يفعل الذكر ومجموعة صغيرة من الإناث والرضع أي شيء سوى الجلوس وتناول أوراق النباتات والكرفس البري الذي كان يملأ أرض الغابة.

تلك غوريلا ابنة عم بعيدة لكابو، فقد انفصلت فصيلته عن نسب القرود منذ مليون عام. حدث الانفصال في فترة تفكك الغابة وعزل السكان التي أوتها. فاقتصر موطنها على قمم الجبال، وأصبحت أوراق الأشجار التي

لا تنتهي غذاء هذه القردة، التي تضخمت لتقاوم البرد مع بقاء رشاقتها، التي تمكنها من التحرك بهدوء في الغابة الكثيفة.

بالرغم من أن الغوريلات سوف تتكيف بعد ذلك مع ظروف الأراضي المنخفضة، وتتعلم تسلق الأشجار وقطف الفاكهة فإن قصة تطورها قد انتهت بالفعل. أصبحت خبيرة في بيئاتها وتعلمت تناول الطعام الذي كان محميًّا جيدًا، فهو مغطى بالإبر والأشواك، بحيث لا تستطيع المخلوقات الأخرى أن تنافسها عليه. استطاعت أكل الأوراق ذات الأشواك على سبيل المثال، والمراوغة بقطع الأوراق من الساق، وثني حواف الأوراق المسننة وحشرها كاملة في فمها.

جلست في الجزر الجبلية، تأكل أوراقها بكسل، وستحافظ على بقائها بلا تغيير تقريبًا إلى وقت قدوم البشر، عندما يبدأ انقراضها الأخير.

عندما تأكد كابو أن الغوريلات لا تشكل تهديدًا زحف بعيدًا يقود الآخرين أمامًا إلى الغابة.

وأخيرًا خرج كابو من الجانب الآخر من حافة الغابة.

أخيرًا خرجت المجموعة من حوض الأرض المنخفضة القاحلة، عندما نظر كابو ناحية الجنوب عَبر الهضبة التي وصل إليها رأى واديًا صخريًّا يسد طريقه إلى الأرض المنخفضة. لكنه شاهد هناك وراء الوادي الأرض التي تمنى إيجادها، أعلى من السهل الذي تركه وراءه، لكنها تُروى جيدًا وتعج بالبحيرات المتلألئة، وتغطيها الحشائش الخضراء وجيوب الغابات. انتقلت قطعان كبيرة من آكلي العشب — قد تكون فصيلة من الفيلة — عبر هذا الوادي بعظمة.

فأطلق كابو صيحة نصر. وقفز فوق الصخور قارعًا الأرض المتحجرة، وقضى حاجته وتبول في كل مكان.

استجابت المجموعة لعرض كابو بعدم اهتمام. فهي جائعة وعطشى، وكابو مرهق، لكنه استمر في العرض، ملبيًا نداء الغريزة التي تقول: إن كل نصر مهما بدا صغيرًا يجب أن يُحتفل به.

لكنه تسلق عاليًا حتى أصبح صوت الزئير البعيد المتصل من ناحية الغرب أعلى، وبفضول استدار كابو ونظر في ذلك الاتجاه.

من ذلك المكان المرتفع شاهد طريقًا طويلًا. وتبين اضطرابًا بعيدًا، وكتلة بيضاء، بدأت تحوم فوق الأرض كسحابة تغلي، شاهد بالفعل نوعًا من السراب، منظرًا بعيدًا جدًّا وصل إليه بالانعكاس في الهواء الساخن، لكن السحاب الساخن كان موجودًا، لكن قربه من الأرض لم يكن حقيقيًّا.

رأى مضيق جبل طارق، حيث كان — ولا يظل — أقوى الشلالات في تاريخ الأرض — فقوته وحجمه يفوقان آلافًا من شلالات نياجرا — يضرب المنحدرات ويسقط على حوض المحيط الفارغ. ذات يوم كان الوادي الذي تسلقه كابو قد تغطى بالماء بارتفاع كيلومترين، فهذا هو قاع البحر المتوسط.

وُلد كابو في أحد الأحواض بين ساحل أفريقيا ناحية الجنوب وأسبانيا في الشمال. في الحقيقة لم يبتعد كثيرًا عن المكان، الذي وقف فيه قديمًا جدًّا ديناصور ضخم يسمى ليسنر على شاطئ بانجيا وحملق في البحر المتوسط القديم أمامه. وآنذاك تسلق خارج الحوض ليصل إلى أفريقيا، لكن لو أن ليسنر شاهد مولد البحر المتوسط القديم، فإن كابو شهد ما يمكن أن يوصف بأنه موته. عندما انخفض مستوى المحيط أصبح الجزء الأخير من البحر المتوسط القديم ضحلًا عند منطقة جبل طارق، أغلقت أرض المحيط العظيم الذي تبخر، حتى أصبح أخيرًا فارغًا، تاركًا وراءه واديًا كبيرًا، على عمق خمسة كيلومترات في أماكن، مغطى بتجمعات الملح.

وعندما تذبذب المناخ ارتفع مستوى البحر مرة ثانية، وضربت المياه الأطلنطية حاجز جبل طارق. أما آنذاك فإن المحيط يُعاد امتلاؤه، لكن كابو لم يخف من أمواجه العملاقة القادمة من الغرب، لأن آلاف الشلالات لا يمكن أن تملأ محيطًا في ليلة واحدة. إن مياه جبل طارق غطت الحوض العظيم بالتدريج وأوجدت أنهارًا عظيمة. تحول قاع البحر القديم تدريجيًّا إلى منطقة براري، حيث ماتت الخضرة ببطء، وقبل أن ترتفع المياه عاليًا غطت الأرض المجاورة كلها.

لكن بعد كل مرة إعادة ملء تنخفض مستويات المحيط العالمي مرة أخرى، ويتبخر البحر المتوسط ثانية، سيحدث ذلك نحو خمس عشرة مرة خلال المليون سنة التي تحيط بحياة كابو القصيرة. إن البحر المتوسط

سوف يترك مكانه قاع بحر بجيولوجيا معقدة، بطبقات من الطين تغطي مسطحات الملح التي تحدث نتيجة الجفاف المتعاقب.

لكن مرات جفاف هذا المحيط المحاصر تركت أثرًا على المنطقة التي عاش فيها كابو وعلى سلالته، قبل أن يحدث الجفاف العظيم كان إقليم الصحراء الكبرى إقليم غابات كثيفة جيد الري، وموطن العديد من سلالات القردة. لكن مع تغييرات الطقس نحو الجفاف والأمطار الغزيرة التي تسقط على جبال الهيمالايا، أصبحت منطقة الصحراء الكبرى قاحلة أكثر، وتتلاشى الغابات القديمة. واندثرت مجتمعات القردة، واتجهت كل مجموعة في رحلتها الخاصة إلى منطقة أكثر تطورًا أو إلى الانقراض.

لكن مشهد جبل طارق كان بعيدًا ولا يوحي بأي معنى لكابو، الذي استدار ونزل السهل.

أخيرًا تحرك كابو من الأرض العارية إلى الأرض المخضرة، قفز إلى الأمام، فشعر بنعومة اللون الأخضر وليونة الحشائش تحت مفاصله. وعندما اتجهت المجموعة وراءه، أخذت تتدحرج وتقفز وتجمع الحشائش الطويلة حولها، وتستمتع بالبيئة المناقضة تمامًا لتلك الصخور القاسية عديمة الحياة.

لكنها لم تصل إلى موطنها بعد، فبضعة مئات الأمتار من السافانا الممتدة المليئة بالأدغال تفصلها عن أقرب غابة، ولم يكن السهل غير مسكون.

ظهرت مجموعة من الضباع تنهش في جثة ملقاة، جسدها كبير ومستدير، ربما كان رضيع جومفوثير قد سقط من شازما. زمجرت الضباع بعضها في وجه بعض وهي تأكل اللحم الملقى، ورؤوسها مدفونة داخل معدة الحيوان وأجسادها تتلوى بمهارة.

عندما تكور كابو في الحشائش جاء فروند وفينجر بالقرب منه، وأصدرا صوتًا خفيفًا، ثم أخذا في تنظيف ظهره وهما يلتقطان الحصى وينفخان التراب. أما الذكور الأصغر فأقرت بسطته. لكن كابو عرف أن الذكور بدأت تفقد صبرها، لأنها عطشى وجوعى ومتعبة، ومرتاعة من الرحلة الشاقة في الفضاء، كان شأنها شأن غيرها من بقية المجموعة، تشتاق إلى الوصول إلى

مأوى وحماية بين الأشجار، وكل ذلك يضعف من قبضة كابو عليهم. إن التوتر بين الذكور الثلاثة ازداد بصورة كبيرة.

لكن المواجهة حدثت في صمت، حفاظًا من الثلاثة على إخفاء وجودها عن الضباع.

مع استمرار تردد كابو بدأ فروند بالتحرك، وقفز قفزة أو اثنتين إلى الأمام. وهنا ضربه كابو على رأسه من الخلف جزاء تهوره، فكشر فروند عن أنيابه وذهب مبتعدًا عن كابو.

تمايلت سيقان الحشائش الطويلة بلا نظام عندما مر عليها فروند، كما لو كان يسبح في بحر من الخضرة. وقف فروند على رجليه الخلفيتين رافعًا رأسه وكتفيه، ينظر عاليًا فوق الحشائش ليرى أفضل. أصبح بمنزلة ظلٍ رفيعٍ منتصبٍ مثل الشجرة.

أما الضباع فلا تزال منكبة على الفيل الصغير. رجع فروند إلى داخل الحشائش واستمر في طريقه.

وصل أخيرًا إلى أقرب مجموعة أشجار، وشاهده كابو — بمزيج من الانزعاج والراحة — يتسلق نخلة جوز عالية، عملت رجلاه وذراعاه بانتظام مثل تروس آلة مزيته تعمل بنعومة. عندما وصل فروند إلى قمة النخلة أصدر صوتا خفيفًا، ينادى المجموعة. ثم بدأ في جمع الجوز من النخلة، وإلقائه إليها على الأرض.

بقيادة فينجر والأنثى الكبيرة ليف تجمعت المجموعة واحدًا تلو الآخر داخل الحشائش في وسط الغابة.

لم تزعجها الضباع، بالرغم من التقاط الكثير منها رائحة القردة. القردة محظوظة لأن أفكار الضباع دارت في عقول بسيطة، فجاذبية اللحم المتاح أكبر من الرغبة في مهاجمة هذه السلالات العليا ذات المنظر المُترب.

حاول كابو أن يستفيد أكثر ما يمكن من هذا الوضع، فأخذ يضرب الذكور الأخرى عندما قفزت إلى الأمام، كما لو أنها فكرته وكما لو كان يوجهها إلى هجرتها القصيرة. استجابت الذكور لضرباته، لكنه أحس بالتوتر بينها، إنه نقص غير مرئي في احترامها له، مما جعله لا يشعر بالراحة.

عند دخول الغابة بدأت القرود تنتشر.

واندفع كابو إلى بعض الأشجار الصغيرة فوجد بحيرة راكدة؛ مسطح من المياه الزرقاء المخضرة محاطة بالخضرة المريحة واللون البني للغابة. وأسرع نازلًا إلى حافة المياه وأدخل فمه في السائل البارد وبدأ يشرب.

عندما وصلت القرود إلى البحيرة دخل بعضها وسط المياه، وهي تسير منتصبة حتى وصلت المياه إلى ارتفاع أوساطها. فأخذت تستعمل أصابعها لاصطياد الطحالب الخضراء المزرقة ووضعها في فمها، إنه نوع آخر من الغذاء؛ هبة أخرى صغيرة للكائنات ذات القدمين. غمست الصغار رءوسها في المياه، وبدأت تفرك فراءها لإزالة الغبار عنه، وأصدرت صياحًا مخيفًا ونثرت المياه يمينًا ويسارًا. حام سرب من الطيور في سلام في قلب البحيرة، لكن الطيور انزعجت ورفرفت بسرعة محلقة عاليًا في السماء.

وتجمع بعض الذكور الصغار على حافة الماء، من بينها فروند وفينجر. وجد فروند شيئًا يمكن استخدامه كمطرقة حجرية ولعب بها بخبرة، ومن حين لآخر ألقت الذكور بنظرات ماكرة تجاه كابو. باحت لغة أجسامها بمؤامرة.

ضم كابو شفتيه وأطلق صفيرًا هادئًا.

إنه ذكي جدًّا في حل المشكلات الاجتماعية، فعرف ما يفكر فيه الذكور الصغار. قادها إلى الأمان، لكن هذا لم يكن كافيًا، فإن أداءه عندما عبرت المجموعة آخر حاجز حشائشي لم يقنع أيًّا منها. ولكي يستعيد سلطته عليه أن يقوم ببعض العروض المؤثرة. يمكنه قطع بعض الأفرع، والتسكع حول حافة المياه، فالنباتات والمياه والضوء ستشكل عرضًا قويًّا. وعليه أن ينتصر في معارك قوية.

لكن الوقت لم يكن مناسبًا.

شاهد الأمهات وهي تغسل صغارها برقة، والذكور الشابة تتصارع بأدب، بعدما أراحت أطرافها وجلودها من الحرارة ولسع الملح. فقرر كابو أن يدعهم يرتاحون، قبل أن يبدأ الروتين العادي من جديد.

ولم يشعر حقيقة بأنه يريد الدخول بهذه السرعة في حرب جديدة. فأطرافه تؤلمه وجلده ملتهب وممتلئ بالخدوش والجروح، ومعدته المعتادة على تدفق مستمر من الطعام والماء تصفر طلبًا للطعام الذي توقف عنها

لفترة طويلة. كان متعبًا، وأخذ يفرك عينيه ويتثاءب، سامحًا لنفسه بغفوة بسيطة، سيكون هناك وقت فيما بعد كافيًا للعمل الشاق في الحياة، ليقوم بدور كابو، أما في تلك اللحظة فهو يحتاج إلى الراحة.

بعد أن فكر في ذلك العذر، استدار بعيدًا عن الماء وقفز في الغابة.

سرعان ما وجد شجرة كابوك، عامرة بالفاكهة الكبيرة الناضجة، لكنها مسلحة بأشواك حادة، لتحمي فاكهتها. لذلك اقتلع فرعين رخوين من الشجرة، ووضعهما تحت قدميه، وشد الأفرع بأصابع قدميه، ثم تسلق الأفرع لأعلى الشجرة، سائرًا فوق الأشواك كما لو كانت غير موجودة. إن عملية التسلق جعلت أطرافه تتوهج بمتعة معتادة، فهو يشبع مهمته القديمة، ولو لم يأخذ خطوة أخرى على الأرض بعدها، فإنه سيكون قانعًا سعيدًا.

عندما وصل إلى منطقة كثيرة الفاكهة، سحب فرعًا آخر ووضعه على الأشواك. ثم جلس كأنما يمتطي سرجًا، وبدأ يتناول وجبته.

ومن فوق استطاع أن يرى أن هذه الأشجار المكوّنة للغابة نمت حول بحيرة لها شكل القوس، والبحيرة متفرعة من نهر ملتف في الريف العميق جهة الجنوب، ويمر عبر هذه الصحراء الغنية الخضراء، أما في المستقبل فإن شريان هذا النيل العظيم سوف يتغير مكانه إثر تحرك طبقات الأرض، ليلتف باتجاه الجنوب، مبتعدًا عن الصحراء الكبرى. وفي آخر الأمر سوف يتدفق إلى منطقة بنين غرب أفريقيا، وسوف يسميه البشر باسم النيجر، فالأنهار تشكلت بفعل الزمن حينها، كما شكل ارتفاع الأرض وهبوطها، مثل ظهور واختفاء الجبال في الأحلام!

لكن حتى ذلك الوقت ما زال النهر العظيم ممرًّا أخضر في وسط البلاد. ستسير المجموعة في هذا الطريق، متتبعة الغابة ومتعمقة بعيدًا عن الساحل.

ترددت صيحة في الغابة، إنها صيحة ذات مغزى واحد «هناك خطر»، فبصق كابو الفاكهة من فمه وانبطح أرضًا.

علم المشكلة قبل أن يصل إلى البحيرة، إذ استطاع الاستنتاج من الرائحة، وعندما نظر بدقة رأى علامات مرورها: قضمات من قشور الفاكهة، ملقاة تحت شجرة كابوك نفسها، وأعشاش في الأشجار العالية.

«الآخرون».

جاءت محتشدة مندفعة من الأشجار ومن تحتها. ظهر العديد منها؛ خمسون، ستون، تفوق أعدادها أي أعداد واجهتها قبيلة كابو. تقدمت ذكورها باتجاه حافة المياه، كل عروضها شرسة وفراؤها أشعث وتقرع الجذور والأفرع، وتلقي بأنفسها على أفرع الشجيرات المنخفضة.

وصلات إلى ذلك المكان بعد معاناة شديدة، لم تكن هذه الرقعة من الغابة خالية. شعر كابو بقلبه يخفق بشدة مع شعوره بالفشل.

لكن قبيلة كابو استجابت، مع ضعفها ونداوة فرائها وصعوبة المواجهة قدمت الذكور جميعًا وزوجًا من الإناث من كبيرات السن أفضل عروض لديها. تقدم كابو إلى الصف الأمامي لقبيلته، وعلى الفور بدأ عرضه الخاص، استدعى خبراته الطويلة ليؤدي عرضًا مذهلًا ومرعبًا.

واصطفت القبيلتان، كجدارين متقابلين، وقفت القرود العليا بعضها في مواجهة بعض. كانت المجموعة الأخرى من الفصيلة نفسها، وبدا من الصعب التمييز بين المجموعتين، لكن رائحتهم مختلفة، فرائحة العائلة مألوفة ولطيفة، وعلى النقيض فإن رائحة الغرباء حادة وكريهة. ظهر بغض الأغراب في عروضها وصدق التهديد الذي قدمته، هذا هو الجانب الآخر لهذه الحيوانات البارعة ذات الروابط الاجتماعية، فعندما تنتمي إلى مجموعة، يصبح أي فرد آخر عدوًّا لك، لأنه لا ينتمي لمجموعتك.

شعر كابو بالخوف. وأدرك بسرعة أن الحيوانات الأخرى لم تَبدُ عليها أي علامات للتراجع، وأصبحت عروضها في الواقع أكثر ضراوة، وأن القادة الذكور الكبار تتقدم إلى قواته في ثبات.

إن كابو يعلم كيف ستسير الأمور، لن تكون هناك حرب شاملة، بل سُيقضى على الأقوياء أولًا؛ الذكور والإناث الكبيرة، ثم ستقدم الرضع لحمًا لذيذًا للغرباء، «ستموت المجموعة الواحد تلو الآخر». سيكون القتل دمويًّا بطيئًا، لكنه سيستمر حتى تكتمل المذبحة. صارت هذه المذابح رعبًا جديدًا يجتاح العالم، ووحدها القرود من بين كل حيوانات الأرض كانت ذكية بما يكفي لتدرك ماهيته.

علم كابو أن مجموعته لا تستطيع أن تمكث هنا، ربما يمكنها أن تستمر في سيرها ورحلتها عبر السهل، وربما يستطيع كابو أن يقود قبيلته إلى مكان خالٍ وآمن من الخطر.

لكنه في أعماقه عرف الحقيقة بشكل حدسي، ففي هذا العالم الذي تتقلص غاباته تجمهرت الحيوانات الناجية بالفعل في جميع الجزر المتبقية من الحياة النباتية القديمة، ولهذا فإن الحيوانات الأخرى ستقاتل بعنف لإبعاد هذه الحيوانات. وقف «الكثيرون» في هذه الرقعة الضيقة الضئيلة، ولم يكن هناك مكان آخر تأوي إليه مجموعته.

لا يوجد مكان آمن تلجأ إليه، ولا خيار سوى الرحيل أيضًا.

بدأ كابو رقصته الرقيقة، بجرجرة أقدامه والتلويح بالأفرع، وهذا يشير إلى أنه يريد أن يقود قبيلته بعيدًا عن هذا المكان، بالرجوع إلى حافة الغابة والعودة إلى السافانا. فاستجابت واحدة أو اثنتان من الإناث، لأنهما خافتا من وحشية الحيوانات الأخرى، مدركتين موقفهما الميئوس منه، ثم جمعت ليف والآخرين الصغار، واستعدت لتتبعه، وفروند أحد أكثر الذكور المتحدية استدار في حيرة.

لكن فينجر لم يقبل ذلك.

ظل يضرب بعنف — بمطرقته الحجرية — جذرًا مكشوفًا، مُضيفًا صوت المطرقة القوي إلى عرضه. ثم اندفع اندفاعًا فجائيًّا، وشن هجومًا ضاريًا على كابو، فطرحه أرضًا، وضرب رأسه بقبضة يده. ثم تدحرج بعيدًا وألقى بنفسه بنفس القوة على أكبر الذكور بين الحيوانات المعادية. وفجأة تعالت الضوضاء أكثر، وأصبحت متنافرة النغمات، وامتلأ الهواء برائحة دماء مريعة وبراز كريه.

تدحرج كابو على ظهره وجلس، ورقبته تؤلمه. ابتعد ذكور الحيوانات المعادية بعيدًا، وهي تصيح وتصرخ.

لم يكن فينجر يبلي جيدًا، تمكن من تثبيت الذكر الكبير على الأرض، لكن بدأ كثير من الحيوانات الأخرى يلقي بنفسه في أتون المعركة الصاخبة. وسرعان ما أمسكت بفينجر. وجذبته بعيدًا عن مُنافِسه، رافعة أطرافه ورأسه كما لو كان قردًا تم اصطياده، ودماؤه تتدفق من جلده المصاب

بالجروح البالغة. ثم ألقَت به على الأرض. لكن صراخه أصبح متقطعًا، ودمه يغمر جسده، وسمع كابو صوت التمزيق المريع للحم، وتكسير العظام، وتقطيع الأربطة.

حمل هجوم فينجر معنى مهم. فإذا وجب على أحد أن يهاجم الآخرين، فلا بد أن يكون كابو. علم أنه سيخسر، ولو استطاع النجاة اليوم فسيكون محظوظًا، وإن لم تقتله الحيوانات الأخرى، فإن مجموعته السابقة ستقتله.

واصل كابو رقصته بالرغم من العار والهزيمة، محاولًا أن يجعل قبيلته تذهب بعيدًا. إنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا آخر.

ولم يتبعه الجميع حتى الآن، فالبعض ارتعد خوفًا وهرب في الغابة سعيًا إلى قدره. ولن يراها كابو مرة ثانية.

نظرت الأنثى الشابة هول إلى قبيلتها بعينين واسعتين مليئتين بالخوف، فاتجهت مباشرة إلى الآخرين. وهي تعرف أنها سوف تقاسي الأمرين على أيدي الإناث الأخريات، لكن ربما تكون جذابة بما يكفي للذكور الآخرين ليتركوها تعيش، خاصة إذا تمكنت من أن تكون حُبلى بسرعة من خلال الرفقاء شديدي العنف، الذين سيكون عليها أن تتحملهم.

أما المجموعة التي بقيت مع كابو فقد بدأت تتحرك في النهاية وتتراجع إلى حافة الغابة، وعندما قلد فروند رقصة كابو.

أدرك كابو أنها تتبع فروند وليس هو.

تراجعت المجموعة إلى حافة الغابة، إنها — حتى الآن — غير مطاردة. لكنها كانت تلتقط الأوراق وفتات الفاكهة، في حالة من الفزع والريبة.

حزن كابو لعودته من حيث بدأ، لكأنما كان يرى جثة الرضيع، وهي لا تزال ملقاة على الأرض، فتسلق شجرة بعيدة عن الآخرين، وراح يبني بتلقائية عشًا غير مجهز.

بعد أن مات فينجر، لم يعد كابو متأكدًا من أن أحدًا يصلح لتحديه، ربما فروند، كان من الممكن لكابو أن يستمر في اتخاذ مركز قوي بتشكيل تحالف مع ذكر ضد الآخر. حينها ربما لن يستمر في كونه كبير الرؤساء، لكنه مثل صانع الملوك سيكون دعمه مهمًا، ويمكنه بذلك أن يستمر في التمتع بالعديد من امتيازات القوة، ولاسيما امتيازات التزاوج. وربما يستطيع أن

يصل إلى القمة بهذه الطريقة. فكر عقله الدقيق إلى أبعد من ذلك، وفي اعتبارات التحالفات والخيانة ....

تشتت أفكاره، شعر أن رحلته التي قام بها قد أنهكته، وأن خيبة الأمل تنتظره في النهاية. لم يعد شيء مهمًّا، ولا الألاعيب السياسية المعقدة التي فاز بمساعدتها في الماضي.

بدا على مجموعته أنها تشعر بحالته، فتجنبته وابتعدت عنه، بل إنها حتى لا تنظر إليه. إن هزيمته الشنعاء قد تأجلت بسبب موت فينجر، لكنه ما زال يشعر بغصتها في حلقه. انتهت أيام كابو وذهب عنه زهوه، وقاربت حياته على الانتهاء.

جاءت إليه ليف، تسلقت الشجرة إلى عشه وجلست بجانبه، وبدأت في تدليكه برقة، مثلما فعلت عندما كان كلاهما صغيرًا، وكان العالم مشرقا وغنيًّا ومليئًا بالإمكانيات.

لم يكن فروند مهتمًّا بكابو بصورة أو بأخرى. دار في عقله شيء آخر.

فسار لمسافة صغيرة إلى الخارج، حيث ضوء الشمس فوق البساط الأخضر. وهناك وقف على قدميه الخلفيتين مرة أخرى، وكعادته دائمًا لم يكن مستقرًّا على قدميه، لكن ارتفاع رأسه أمده بمكانة يستطيع منها أن يرى الأرض ويكتشف الضواري والأخطار الأخرى حوله.

نزل فروند في الحشائش ثانية وسار بحذر نحو جثة جومفوثير، وهو يقترب قابلته الطيور المُقتاتة بالصراخ اعتراضًا لكنها رفرفت مبتعدة. قامت الضباع بعملها جيدًا، فبدا الجسد كما لو كان قد انفجر: الأطراف والأضلاع ملقاة ومبعثرة على الأرض، عظام ودماء بلا ومض، رأس بلا لحم أو عينين تنظر إليه باتهام. أنياب تشبه المجراف ملقاة مكسورة أو مقضومة. نقب بين بقايا الجلد واللحم الذي قضمته الضباع، لكن لم يكن هناك الكثير يمكن الحصول عليه، إن الآلاف المُقتاتة بالسافانا قد عملت على استهلاك اللحم، حتى إن الضباع دمرت الضلوع الرقيقة، لكن فروند وجد عظمة فخذ طويلة وعريضة، تنتهي عند الطرف بكتلة منتفخة ضخمة. لم تكن العظمة مكسورة، ضربها ضربًا خفيفًا بعظمة أخرى، دَلَّ الصوت الصادر منها على أنها مجوفة.

وجد حصاة بين القاذورات، بالحجم المناسب لقبضته، رفع الحصاة وحطم بها العظمة. فشطرتها وبدأ يسيل منها نخاع لذيذ. ظل هذا الطعام بعيدًا عن متناول الكلاب والطيور المقتاتة، بعيدًا عن الأسنان والمناقير، لكنه بين يدي فروند، رفع العظمة إلى فمه، وأخذ يمتص النخاع بنهم.

أما الحيوانات الأخرى التي دفعت بكابو وقبيلته إلى خارج الغابات فسوف تبقى هناك، متشبثة بما لديها. إن هذه المجموعات سوف تؤدي في النهاية إلى ظهور الشامبانزي، الذي يختلف قليلًا عن أسلاف هذه الأصول. ستعيش وتزدهر، ومع انتشار الصحراء وتقلص الغابات إلى آخر مكان لها حول خط الاستواء فإن الأنهار العظيمة سوف تمد القرود بممرات تستخدمها للهجرة إلى داخل أفريقيا.

لكن فصيلة كابو في طريقها إلى مصير مختلف جدًّا. فإن هذه القبيلة من القرود العليا التقليدية اضطرت نتيجة اختفاء غاباتها أن تبحث عن طريقٍ تُوصلها إلى العيش «في الخارج». إلا أن ترك البيئة التي تكيفت عليها لملايين السنين كان صعبًا. وبما أن القرود العليا لا تستطيع السير والركض لمسافات طويلة ولا يمكنها إفراز العرق، وبما أنها لا تستطيع هضم اللحوم؛ فإن العديد منها سيموت، لكن لن ينجو إلا القليل، وهذا سيكون كافيًا.

انتهى فروند من امتصاص النخاع، ورأى المزيد من العظام لنفس الغرض. وقف ثانية ونظر إلى قبيلته، وصاح يدعو أفرادها.

ثم عاد إلى السافانا. كان من الكائنات ذوات القدمين، يستخدم الأدوات ويأكل اللحم، عنصريًّا، زعيمًا قتاليًّا ومنافسًا. كل هذه الصفات اكتسبها من الغابات، فهو يتمتع بأفضل الصفات من أسلافه، بالإضافة إلى إصرار برجا، وحماس نوث، وشجاعة رومر ورؤية كابو. وقف الذكر الشاب مستقيمًا يحدق في السهل، محملًا بالاحتمالات التي يحملها المستقبل، وآثار الماضي.

الجزء الثاني

البشر

فاصل

انخرطت أليس وجوان مع جموع المسافرين المتجهين إلى المطار. كانوا قد غادروا الطائرة منذ عدة دقائق وسط جوٍّ معبأ بالدخان، وجوان تتكئ على ذراع أليس سيجورداردوتير، إلا أنها شعرت وكأنها تذوب من شدة الحرارة.

عندما خرجت جوان من الطائرة أول ما شعرت به هو زلزال، إنه شعور رهيب، اهتزاز كأنه حلم ينتهي سريعًا فور أن تشعر ببدايته.

رابول هو سبب الزلزال بالطبع.

استعرت الصهارة والصخور الذائبة أسفل جزيرة بابيوا (غينيا الجديدة)؛ ألف متر مكعب منها، استمر هذا النزيف في الصعود عبر طبقات قشرة الأرض الرقيقة، إلى فوهة رابول القديمة، بمعدل عشرة أمتار كل شهر، وهو معدل مذهل من الناحية الجيولوجية، ودليل على الطاقة الهائلة. دفعت الكتلة الصاعدة الصخور واضعة الأرض تحت ضغط هائل.

ثار رابول مزلزلًا عدة مرات قبل الآن. وتمكن العلماء من تحديد مرتين، مرة منذ خمسة عشر ألف سنة، والأخرى منذ ألفي سنة قبل ذلك، وبدون شك فإن ثورته سوف تتكرر قريبًا.

يبدو أن المسافرين الآخرين، المتجهين في الهواء الكثيف داخل المطار الصغير لم يشعروا بتلك الهزة الأرضية. لحقت بكس سكوت بوالدتها أليسون وشقيقتها ذات العينين الذهبيتين والشعر الأخضر. وتحت سماء لوثتها الحرائق البعيدة، وبينما اهتزت الأرض تحت أقدامهم دون أن يلاحظوا؛ تحدث الأطفال الحسان المُحَسَّنون جينيًّا بسعادة مع والدتهم

الراقية. ولاحظت جوان أنهم يلبسون سدادات آذانهم الفضية في آذانهم الصغيرة. ساروا وكأنهم داخل هالة من أضواء النيون.

تذكرت جوان، وهي تشعر ببعض الذنب، تأكيداتها إلى بكس بأنها سوف تكون سيئة الحظ جدًّا إذا قرر رابول أن يثور في الوقت الذي تكون فيه بالقرب منه. وعلى تلك الأرض المرتعشة بدت تأكيداتها ضربًا من الجنون. لكن ربما كانت على حق فيما قالته، فقد يخلد الجبل مرة أخرى للسكون. وسواءً ثار أم لا، فيبدو أن معظم الناس لا يفكرون في الأمر. كان عالمًا مزدحمًا، مليئًا بالمشكلات، ولا يشغله بركان ثائر.

بدا كأن الطريق إلى المطار لا ينتهي. والكآبة تغلف المطار، رغم الصور المطبوعة والملصقة في كل مكان. أثار الاهتزاز المتقطع للأرض قلقًا قديمًا وبدا هدير المحركات النفاثة كأنه أنين حيوانات يائسة.

سمعت جوان صوت فرقعة على بعد، يشبه طقطقة خشب رطب ألقي في النار، وتساءلت: «هل كان ذلك صوت إطلاق رصاص؟»

أجابت أليس: «هناك جماعة من المحتجين بالقرب من سياج المطار، لمحتهم ونحن ندخل، عدد كبير منهم بملابس رثة، وكأنما نحن في حي فقير.»

وتساءلت جون قائلة: «من أجلنا؟»

ابتسمت أليس، «لا يمكنك أن تقيمي مؤتمرًا جادًّا عن العولمة دون أن يظهر المحتجون، هيا بنا، إنه تقليد. إنهم يهاجمون تلك المؤتمرات منذ الأزل. يجب أن تشعري بالثناء لأنهم تعاملوا معك على محمل الجد.»

أجابت جوان بوجه متجهم: «إذن، علينا أن نعمل بجهد أكثر حتى نقنعهم أن لدينا شيئًا جديدًا لنقدمه لهم. أشعر أنك لا تحبين أليسون سكوت.»

- لا أحب حياة سكوت بكاملها، إن عملها هو عمل مسرحي غير جدي، حتى أولادها اختيروا — لا خُلقوا — ليصبحوا جزءًا من الأداء. انظري إليهم.

هزت جون كتفيها وقالت: «لكن لا يمكنك أن تلوميها لأنها حسنت أولادها جينيًّا»، ثم ربتت على بطنها وقالت: «لا أظن أنني أريد ذلك التحسين

لصغيري هذا. لكن الناس دائمًا يرغبون في إعطاء أولادهم الأحسن: أحسن تعليم، أحسن سهم حجري مسنون، أحسن فرع من شجرة التين.»

جاء الرد على ذلك ابتسامة من أليس. لكن جوان قالت: «بعض التحسين الجيني سيكون مرغوبًا، إذا كان في مقدور الجميع، فليس هناك شيء مؤكد فيما يخص قدرة أجسامنا المحدودة على التعافي على سبيل المثال. لماذا لا يكون في مقدورنا أن نعيد إنماء أحد أطرافنا التي بترت، كما يفعل قنديل البحر؟ لماذا لا يكون لدينا أكثر من مجموعة واحدة من الأسنان، لماذا هما اثنان فقط؟ لماذا لا يمكننا استبدال مفاصلنا البالية، أو التي دمرها مرض التهاب المفاصل؟»

- «لكن هل تعتقدين حقًّا أن أليسون سكوت جمعت ثروتها من ذلك؟ انظري إلى أولادها: شعورهم، أسنانهم، جلودهم. إن أحشاءهم الداخلية غير مرئية. فما هي فائدة صرف النقود إن لم تستطع إظهار ما لديك؟ إن تسعين في المائة من النقود التي تصرف في الوقت الحالي على التحسينات الجينية تذهب إلى تحسينات خارجية، على ما هو مرئي. إن أولاد سكوت البائسين ليسوا أكثر من إعلانات متحركة لزيادة ثروتها وقوتها. فإنهم لم يصنفوا بأنهم «أغنياء ومُحَسَّنُون جينيًّا» بدون سبب. لم أرَ في حياتي شيئًا بمثل هذا التدهور.»

وضعت جوان ذراعها حول وسط أليس وقالت: «قد يكون الأمر كذلك. لكن علينا أن نكون واسعي الأفق. نحن في حاجة إلى مساهمة سكوت بنفس النسبة التي نحتاج فيها إلى مساهمتك أنت. أتدرين، أشعر كأن صخرة تقبع في معدتي»، قالت ذلك وهي تتنفس بصعوبة.

كشرت أليس وقالت: «أعلم ذلك. عندي ثلاثة منهم. ورجعت إلى أيسلندا من أجلهم جميعًا، هل التوقيت سيئ؟»

ابتسمت جوان وقالت: «كانت حادثة. إننا نخطط للمؤتمر منذ عامين. أما فيما يخص الطفل ....»

- «سوف تأخذ الطبيعة مجراها كما تفعل دائمًا، بصرف النظر عن مخاوفنا التافهة. من هو الأب؟»

إنه عالم حفريات حوصر في وسط حرب أهلية في ولاية كينيا المنهارة، وهو يحاول المحافظة على بعض بقايا حفريات عظام بشرية من السرقة، وظن أحد اللصوص أنه يحرس منجم فضة أو ألماسًا أو بعض مضادات الإيدز. ونتيجة لما حدث، ولأنها كانت تنتظر طفلًا، أصرت جوان على إنجاح المؤتمر.

لكن لم يكن لها رغبة في الحديث عن ذلك الآن، فقالت: «قصة طويلة».

بدا على أليس أنها تتفهم ذلك فضغطت على يد جوان بتفهم.

أخيرًا وصلوا إلى داخل المطار. وشعرت جوان باعتدال الجو ونداوته نتيجة التكييف داخل المطار، وكأنه حمّام منعش، على الرغم من شعورها بالذنب وهي تفكر في كيلووات الحرارة التي لا بد أنها تخرج في مكان آخر. جاءت ممثلة شركة كانتس للطيران — وهي امرأة من سكان «أستراليا» الأصليين — لتقودهم إلى قاعة الانتظار وقالت للركاب: «كانت هناك بعض المشكلات»، وظلت تردد ذلك للمسافرين. «لكن لا يوجد أي خطر علينا، وسوف يكون هناك بلاغ بخصوص ذلك بعد فترة وجيزة».

شقت أليس وجوان طريقهما بملل حتى وصلتا إلى مقعد حديدي خالٍ. ثم ذهبت أليس لإحضار بعض الصودا لهما.

كانت حوائط قاعة الانتظار مفيدة، بها معلومات عن الطيران؛ أخبار وترفيه وخدمات الهواتف، ثم تزايد الركاب، جاء كثير منهم لحضور المؤتمر. تعرفت جوان على بعضهم من خلال كتيب المؤتمر، ومن خلال مواقعهم على الإنترنت. وبدا على الجميع أنهم متأثرون بفرق التوقيت والاضطراب. ظهر عليهم التعب الشديد، أو النشاط البالغ، أو ربما الاثنان معًا.

اقترب أحدهم من جوان، كان قصيرًا ذا بطن منتفخ يرتدي قميصًا صنع في هاواي، وهو أصلع وغزير العرق، وعلى وجهه شبه ابتسامة، ويضع شارة بها زر، يُظهر صورًا حية لسماء المريخ برتقالية اللون، والمكوك الآلي الجديد، الذي أطلقته وكالة الفضاء الأمريكية NASA، ولو رأته جوان في طفولتها لاعتبرته شخصًا مملًّا، لم يكن عمره يتعدى خمسة وثلاثين عامًا. إذن فهو شخص ممل من الجيل الثاني، ثم مد يده: «السيدة يوسب؟ اسمي إيان موم، أنا من معمل تسيير المركبات النفاثة.»

- «معمل تسيير المركبات النفاثة، التابع لوكالة الفضاء الأمريكية. بالطبع أتذكر اسمك.» وقفت جوان بصعوبة وصافحته. «إنني ممتنة لحضورك، وعلى الأخص في هذا الوقت الدقيق من مهمتك.»

فقال: «إن العملية تسير على ما يرام، شكرًا لجو جو العظيم» ثم لمس زر الشارة التي كان يضعها. «إن هذه صور حية، وحساب حي لفرق التوقيت عن المريخ بالطبع. أنشأ جوني مصنع الطاقة، ويعمل على استخراج المعدن.»

- تعني الحديد من الحجر المريخي الصدئ؟

- هذا صحيح.

- إن اسم جوني أطلق رسميًّا تيمنًا باسم «جون فون نيومان»، مفكر القرن العشرين الأمريكي الذي نسب إليه مفهوم النسخة المطابقة العالمية Universal Replications، وهي آلات في حال تغذيتها بالمواد الخام المناسبة يمكنها أن تصنع أي شيء، بما في ذلك نسخ من أنفسها. كان جوني أحد التجارب التكنولوجية، أي مستنسخًا من النموذج الأصلي، هدفه النهائي هو عمل نسخة من نفسه باستعمال مواد الكوكب الخام.

قال موم بابتسامة خجولة: «أصبح محبوبًا بين الناس بطريقة لا تصدق، إن الناس تحب المشاهدة، أعتقد أن ذلك يرجع إلى الشعور بأن هناك غرضًا من وراء ذلك، الشعور بالإنجاز عند استكمال جزء بعد الآخر.»

- «بث حي من المريخ».

- «شيء من هذا القبيل، لا يمكنني القول إننا خططنا لهذا الإقبال الذي حصلنا عليه. حتى بعد مضي سبعين عامًا، فإن وكالة الفضاء الأمريكية لا تهتم بالعلاقات العامة. لكننا نرحب بالاهتمام.»

- متى تعتقد أن جوني سوف يُولَد؟ قبل محاولتي القيام بالاستنساخ؟

ابتسم موم بتكلف مرتبكًا مما ذكرته جوان عن بيولوجيتها البشرية، وقال: «حسنًا، من الممكن. لكنه يعمل بسرعته، وهذا ما يجعل هذا المشروع شيقًا بالطبع، إن جوني مستقل. ها هو ذا بالأعلى، لا يحتاج إلى أي شيء من الأرض. وبما أنه هو وأبناءه لن يكلفونا مليمًا آخر، فإن هذا مشروع قليل التكلفة.»

جال بفكر جوان «أبناؤه؟!»

فقالت أليس سيجورداردوتير بعدما رجعت وهي تحمل كوبين من البلاستيك مليئين بالكولا لها ولجوان: «لكن جوني لعبة هندسية خارقة أكثر منه حدثًا علميًّا، أليس كذلك؟»

ابتسم موم بسهولة أكبر تلك المرة. ولاحظت جوان — متأخرًا — أنه بالرغم من مظهره الخارجي فمن الضروري أن يكون أحد عاملي العلاقات العامة في المشروع، وإلا ما كان حضر إلى هنا. أجاب: «لا يمكنني نكران ذلك، لكن تلك هي طريقتنا، في وكالة الفضاء لطالما عملت الهندسة والعلوم معًا.» وعاد إلى جوان ليقول: «إنه ليشرفني أنك دعوتني، بالرغم من أنني لست متأكدًا من سبب هذه الدعوة، إن معرفتي بعلم الأحياء غير راسخة، فأنا أساسًا مهندس كمبيوتر، كما أن جوني ما هو إلا مجس فضائي، كتلة من السليكون والألومونيوم.»

أجابت جوان: «إن هذا المؤتمر لا يتناول علم الأحياء فقط. كنت أريد حضور أفضل وأذكى العقول في مختلف المجالات، ليتلاقوا معًا، علينا أن نتعلم أن نفكر بطريقة جديدة.»

هزت أليس رأسها بالموافقة: «وبالرغم من شكوكي — بخصوص هذا المشروع بالذات — فإنني أعتقد أنك لا توفي نفسك حقها يا دكتور موم. فكر في الأمر. أن تأتي إلى العالم وأنت عارٍ. وتأخذ ما توفره لك الأرض: المعادن والنفط ثم تشكله، وتجعله ذكيًّا، ثم تلقي به عبر الفضاء إلى عَالَم آخر. دائمًا ما كانت صورة وكالة الفضاء كئيبة، إلا أن ما تقوم به في الوقت الحالي ... رومانسي للغاية.»

أخفى موم خجلًا من هذا الإطراء خلف دعابة بسيطة: «سيدتي، سأضطر إلى أن أدعوكِ إلى الجلسة التالية عند تقييم مهنتي.»

قالت جوان وقاعة الانتظار تزداد امتلاءً بالركاب: «هل يعلم أحدٌ ما يجري؟»

أجابها موم: «إنهم المحتجون، يقذفون مُجَمّع المطار بالحجارة. والشرطة تدفع بهم إلى الوراء، لكن الوضع فوضوي. تركونا ننزل من الطائرة، لكن ليس من الآمن أن نستلم حقائبنا الآن، أو نغادر المطار.»

قالت جوان: «هذا رائع، إذن فنحن سنكون تحت حصار طوال وقت المؤتمر.»

تساءلت أليس قائلة: «من هم المتورطون؟»

- «معظمهم من العالم الرابع»، وهي تشكيلة من الدول النامية تنحدر من جماعة مسيحية منشقة، تدّعي أنها تمثل مصالح الطبقة الدنيا العالمية، أو ما يطلق عليها «العالم الرابع»، وهم أشخاص ظهورهم يقل على الساحة، أقل من الدول والمجموعات التي كانت تؤلف «العالم الثالث»، وهم الأفقر والأكثر إقصاءً، يعيشون أسفل رادار الدول الشمالية والغربية الغنية. «وهم يعتقدون أن بيكرزجيل Pickersgill موجود في أستراليا.»

شعرت جوان بشيء من عدم الراحة. إن جريجوري بيكرزجيل المولود في إنجلترا هو القائد الساحر للطائفة المركزية، وقد اتبعته أفظع أنواع المشكلات أينما ذهب، وفي بعض الأحيان المشكلات المميتة أيضًا. لكنها نَحّت الخوف جانبًا: «لنترك الأمر للشرطة، لدينا مؤتمر يجب إقامته.»

«وكوكبٌ يجب إنقاذه.» أجابها موم مبتسمًا.

- «معك كل الحق»

ظهرت حركة في إحدى زوايا المطار، حينما دُفِعَت علبة بيضاء إلى الداخل، مثل ثلاجة كبيرة. لمعت الأضواء، ودُفعت الكاميرات في وجه أليسون سكوت.

همهمت أليس: «إنها قطعة من الأمتعة لا يمكن تأخيرها.»

أجاب موم: «أعتقد أنها حمولة حية، سمعتهم يتحدثون عنها.»

حينها جاءت بكس سكوت الصغيرة مسرعة؛ نحو جوان التي لاحظت أن موم حملق في شعرها الأزرق وعينيها الحمراوين، ربما لم يكن الناس متقدمين بما يكفي في باسادينا، قالت بيكس: «دكتور يوسب» وأمسكت بيد جوان، «أريدك أن تري ما أحضرته أمي، وأنت أيضًا دكتور سيجوردداردوتير. أرجوكما أن تأتيا. كنتما لطيفتين معي على الطائرة، عندما خفت من ذلك الدخان والاهتزازات.»

- «لم تكوني في خطر حقيقي.»

- «أعرف ذلك، لكنني كنت خائفة، شعرتما بي وكنتما لطيفتين، هيا بنا، أريدكما أن تريا ما أحضرته أمي.»

فتركت جوان وأليس وموم أنفسهم لبكس تقودهم عبر القاعة.

وقفت أليسون سكوت تتحدث أمام الكاميرات، كانت امرأة طويلة وذات شخصية: «إن مجال تخصصي هو تطوير التطور، أو اختصارًا إيفو-ديفو كما تصفه الصحافة، إن الهدف هو تفهم كيف يمكن إعادة إنماء إصبع غير موجود. نقوم بذلك عن طريق دراسة الجينات الموروثة. إذا أحضرت طائرًا وتمساحًا، يمكنك أن تلمح آثار جينوم جدهما المشترك، وهو أحد الزواحف من عصر ما قبل الديناصورات، عاش منذ مائتي وخمسين مليون عام. وقبل نهاية القرن العشرين تمكنت مجموعة من الباحثين من بدء نمو أسنان في منقار دجاجة. إن الأبحاث القديمة موجودة، لكنها تحولت إلى أغراض أخرى، وكل ما عليك عمله هو البحث عن التحول الجزئي المناسب.»

رفعت جوان حاجبيها وقالت: «يا إلهي، وكأنما الحدث حدثها.»

أجابت أليس ببرود: «إن عمل تلك المرأة هو الاستعراض، ليس أقل ولا أكثر من ذلك.»

وبنشاط دقت أليسون سكوت على الصندوق بجانبها. فأصبح أحد جوانبه شفافًا، فانبهر الحشد المندفع وبدأ صيحات الإعجاب تتعالى. فقالت سكوت: «رجاءً تذكروا أن ما ترونه ما هو إلا إعادة بناء جينية، لا أكثر ولا أقل. أما التفاصيل مثل لون الجلد والسلوك فقد اخترعت.»

قالت أليس: «يا إلهي.»

بدا المخلوق بداخل العلبة أقرب ما يكون إلى الشامبانزي، لا يزيد طوله على متر واحد، كانت أنثى، وثدياها وأعضاؤها التناسلية بارزة، لكنها تمشي باستقامة، تمكنت جوان أن تميز ذلك فورًا من الشكل الهندسي الجانبي الغريب لمفصلي الورك. إلا أن المخلوقة لم تكن تسير إلى أي مكان. جلست منكمشة في أحد الأركان ورجلاها الطويلتان مضمومتان إلى صدرها.

قالت بكس: «قلت لك يا دكتور يوسب إنه ليس ضروريًا أن تبحثي عن عظام في التراب، يمكنك الآن مقابلة أسلافك.»

انبهرت جوان رغمًا عنها، قالت في نفسها: «هذا حقيقي، «لأقابل أجدادي»»، هذا ما آل إليه عملي طوال حياتي؛ بعض الجدات المشعرات. إن أليسون سكوت تتفهم الدوافع — بدون شك — لكن هل من الممكن أن تصبح هذه الكائنة الخرافية حقيقة؟ وإذا كانت الإجابة «بلا»، فكيف كان شكل الأسلاف في الحقيقة؟

أمسكت بكس — لا شعوريًّا — بيد أليس وقالت وعيناها القرمزيتان تلمعان: «كما ترين، أخبرتك أنه لا يجب أن تنزعجي بسبب ضياع فصيلة البونوبو».

تنهدت أليس وقالت: «لكن يا طفلتي، إذا لم يكن لدينا مكان للقردة، فأين سنجد مكانًا لها؟»

بدت شبيهة الإنسان خائفة وأظهرت أسنانها في شبه ابتسامة شاحبة تدل على الخوف الشديد.

الفصل التاسع

المشاة

وسط كينيا وشرق أفريقيا. قبل ما يقرب من مليون ونصف المليون عام؛ من عصرنا الحالي.

١

كان أكثر شيء تحبه في حياتها هو الركض. ذلك هو ما كان يلائم جسدها.

وعندما تنطلق تقطع مسافة مائة متر في ست أو سبع ثوان. وبإمكانها أن تعدو مسافة ميل في ثلاث دقائق بخطوات أكثر انتظامًا. إنها تستطيع الركض، وهي تركض تحترق أنفاسها في رئتيها، وعضلات سيقانها الطويلة وذراعاها تبدو متوهجة أثناء اندفاعها، أحبت شعور ذرات الغبار التي تتشبث بجلدها العاري المبلل بالعرق، وأحبت استنشاق الرائحة اللاذعة لجفاف الأرض الساخنة.

حدث ذلك في وقت متأخر من موسم الجفاف، الحرارة شديدة على السافانا وأشعة الشمس المشرقة أحمت المشهد بإشراقها. وبين سفوح التلال البركانية تناثرت الحشائش صفراء اللون في كل مكان، ترعى فيها قطعان الحيوانات العشبية. إنها تركض فيما يشبه طرقات تربط المراعي ومجاري المياه. في هذه الحقبة شكلت آكلات الحشائش الطبيعة، فلم يكن أحد من البشر الكثيرين في العالم قد اغتصب ذلك الدور.

حينما تكون حرارة الظهيرة في أوجها تتجمع آكلات الحشائش في الظل، أو تقبع ببساطة في التراب. لمحت قطعانًا كبيرة من أنواع الفيلة وكثيرًا منها يشبه السحب الرمادية. بينما تهادى نعام أخرق بخطوات عالية على الأرض، ونامت حيوانات مفترسة في خمول مع أشبالها، ومُقتاتات القمامة

والطيور الحائمة والحيوانات سريعة الركض التي تتغذى على غيرها كانت جميعها في راحة من مهامها اليومية الشاقة. لا شيء يتحرك إلا ذرات الغبار الذي أثارته، لا شيء يتحرك سوى ظلها العابر سريعًا، الذي انحصر في رقعة مظلمة أسفلها.

استغرقت تمامًا في جسدها وعالمها، فهي تركض بدون حذر أو تفكير، إنها تركض بطلاقة وحرية، لم تعرفها أي فصيلة من الحيوانات الرئيسة من قبل.

إنها لا تفكر مثل الإنسان، وليس لديها وعي بشيء سوى أنفاسها والألم الممتع في عضلاتها ومعدتها، والأرض التي تبدو كما لو كانت تجري تحت رجليها. لكنها وهي عارية تبدو تقريبًا بشرية.

كانت طويلة، يصل طولها إلى أكثر من مائة وخمسين سنتيمترًا. ففصيلتها أطول من أي قبيلة سابقة، رشيقة مع بعض الهزال، ولا تزن أكثر من خمسة وأربعين كيلو جرامًا، وأطرافها نحيلة، وعضلاتها قوية، وبطنها وظهرها مسطحين. عمرها تسع سنوات فقط، لكنها على مشارف سن البلوغ؛ فوركاها يزدادان في العرض وثدياها صغيران صلبان قد تكورا بالفعل. ولم يكن نموها قد اكتمل بعد، لكنها ستحافظ على تناسق جسدها الضئيل، ومن المتوقع أن يصل طولها إلى ما يقرب من المترين، أما جلدها المتعرق فكان عاريًا إلا من رقعة سوداء على رأسها ورقع سوداء أخرى تغطي منفرجها وتحت إبطيها. في الحقيقة اكتسى جسمها بشعر كثيف مثل أي قرد آخر، لكنه شعر شاحب وصغير. وجهها مستدير وصغير وأنفها لحميّ مدور؛ بارز كأنوف البشر وليس مسطحًا مثل القردة.

ربما بدا صدرها مرتفعًا قليلًا، مخروطي الشكل، ربما إذا ما قورن بأطرافها الطويلة لبدت غير عادية، لكن جسدها له الأبعاد البشرية المختلفة. بدت كأنها أحد ساكني المناطق الصحراوية مثل قبائل الدنكا في السودان أو قبائل تركانا أو ماسي الذين استطاعوا يومًا من الأيام السير على الأرض التي تعبرها هي الآن.

إنها تشبه البشر، أما رأسها فقد كان مختلفًا ويعلو عينيها خط متسع من العظام، ينحدر إلى الجبهة الطويلة المائلة. ومن هناك تمتد العظام بلا

ارتفاع إلى مؤخرة الجمجمة. رأسها مغطى بكتلة من الشعر الكثيف لكن من المستحيل أن نُخطئ في كونه مسطحًا، وصغير الجمجمة.

لها جسم إنسان وجمجمة قرد، لكن عينيها صافيتان وحادتان وفضوليتان. عمرها تسع سنوات، مهتمة بمراحل نمو جسدها في هذه اللحظة الفاصلة من الحياة والضوء والحرية، شعرت بسعادة قدر الإمكان. كان البشر سيجدونها جميلة.

أما أفراد قبيلتها الهومينيد؛ فهم أقرب للبشر من الشمبانزي والغوريلا، وينتمون لسلالات كانت ذات يوم تسمى الإنسان العامل أو الإنسان ذا القامة المنتصبة. وهي فصيلة عاشت بكثرة في قارات العالم القديم وتنوعت فصائلها وفصائلها الفرعية من نفس شكل الجسد العام، وكانت سلالة ناجحة ومتنوعة، ولم نعثر على ما يكفي من عظام وهياكل حتى نتمكن من معرفة قصتهم الكاملة.

أحيانًا جرى شيء بين قدميها، فتجذبه وهي قلقة تلهث. فتجده فأر القصب — أحد القوارض — وقد أزعجته حركتها البطيئة، ففر بعيدًا.

سمعت صيحة تقول: «فار.»

نظرت خلفها، فظهرت قبيلتها من بعيد، وقد تجمعت على بروز صخري، حيث قرروا قضاء الليل. ثم قامت واحدة من القبيلة — ربما أمها أو جدتها — فتسلقت إلى أعلى الصخرة، ونادت عليها بمساعدة يديها المضمومتين المتكورتين. إنها صيحة لم يستطع أن يطلقها أي قرد حتى كابو، فهي كلمة.

بدأت الشمس تغرب وامتد الظل تحت قدميها. بعد قليل ستبدأ الحيوانات في التجوال، ولن تكون آمنة، ولن يحميها نعاس العالم.

شعرت برجفة من الخوف المثير وهي وحيدة؛ بعيدًا عن قبيلتها. ففي كل يوم وفي كل فرصة جاءتها جرت بعيدًا، وكل يوم يُنادى عليها لتعود. لم يكن لها اسم، ولم يكن أي هومينيد قد حصل على اسم، لكن إذا كان لديها اسم فسيكون «فار».

استدارت ناحية الصخرة وبدأت في الركض مرة أخرى، بخطواتها الراسخة التي تلتهم الأرض التهامًا.

تكونت المجموعة من أربعة وعشرين فردًا.

انتشر أغلب الكبار على مرمى البصر، بالقرب من المنحدر الصخري، يتحركون كأشكال نحيلة على الأرض المغبرة، بسكونهم وأهدافهم ومهاراتهم، بحثًا عن الجوز والحيوانات الصغيرة. أما الأمهات فقد حملن صغارهن على ظهورهن أو في قفة أسفل أقدامهن.

كانت، أم فار تبحث في منطقة أشجار الصمغ، التي تحطمت بشكل كامل عند مرور قطيع من الدينوثيرات، وهي فصيلة من الفيلة القديمة تستخدم أنيابها السفلى لقطع الأشجار، وتكسرها بخراطيمها القصيرة، وتحفر الأرض لتنتزع الجذور. ولم يكن البشر هم فقط من يبحثون عن غذاء في هذه المنطقة، ظهرت خنازير وحشية تزمجر وتصرخ بينما تدفع الأرض بوجوهها القبيحة. وقع هذا الدمار منذ فترة وجيزة. وشاهدت فار خنافس عملاقة تدفن روث الدينوثير، وآكلات النمل وآكلات العسل تحفر في الأرض وهي تبحث عن يرقانة الخنفساء.

أصبح المكان صالحًا للرعي، ومن بين الاستراتيجيات الجيدة للبحث عن طعام في أرض غير مطروقة هي البحث عن بقايا طعام الحيوانات الأخرى، خاصة الحيوانات المدمرة مثل الفيلة والخنازير. عثرت أم فار على طعام في الأشجار المحطمة كان مخبأً أو صعب المنال. في الجذوع المكسورة وُضعت رافعات ودعامات وعصي حفر جاهزة لإخراج الجذور من الأرض، وأفرع مكسرة تحريكها بسقط الثمار، وأفرع نخيل لحفر اللب.

كانت أم فار امرأة هادئة رائعة أطول من قريناتها، يجب تسميتها كالم (الهادئة)، وهي تمشي مع صغيريها؛ طفل نائم على كتفها، وذكر في نصف عمر فار لكنه طويل مثلها، بدا الفتى نحيلًا، واعتبرت فار اسمه برات (المزعج)، إذ كان مزعجًا وماهرًا في المنافسة لجذب انتباه وعطف أمه.

أما جدة فار ووالدة كالم فكانت بجانبها. امرأة في منتصف الأربعينيات، متيبسة الجسم جدًا، ولا تستطيع أن تساعد في الحفر من أجل الطعام، لكنها تساعد ابنتها في ملاحظة الطفل الصغير. لم تكن مشاهدة كبار السن في هذه المجموعة تثير الدهشة، بدا ذلك طبيعيًّا جدًّا، لكن لم يكن هناك أي نوع سابق من السلالات العليا قد تقدم به العمر، فقد نجح القليل في

العيش لمدة طويلة. فلماذا تبقى أجسامهم حية ويبقون أحياء في حين أنهم لا يستطيعون المساهمة في التكوين الجيني؟ لكن الوضع يختلف في فصيلة فار؛ فقد لعب كبار السن دورًا.

تسلقت فار الصخرة وهي تلهث، كانت مثل مخرج يمتد مئات الأمتار ولا يظهر فوقه شيء سوى حشائش قوية وبعض الحشرات والسحالي. لكنه مأوى مؤقتًا للقبيلة، إنه جزيرة في تلك السافانا المفتوحة، كأنها بحر من المخاطر. وعلى امتداد البصر وقف بعض الرجال يصلحون السهام الخشبية، يعملون بدقة وتتحرك عيونهم كما لو أن أيديهم تعمل بمفردها. وبعض الأطفال الأكبر سنًّا يلعبون، تطلعًا إلى بلوغ سن الرشد. تصارعوا وركضوا وألقى بعضهم بعضًا على الأرض. وهناك فردان يبلغان ستة أعوام يلعبان بمفردهما يلمسان حلماتهما وبطنيهما.

لم تكن فار بالغة ولا طفلة، وفي هذه المجموعة الصغيرة لم يكن هناك شخص في مثل عمرها، ولهذا ظلت بعيدة عن الباقين وصعدت إلى الارتفاع الصخري، فوجدت جزءًا من فك ظبي مدفون، أخرجته ببعض المهارة، ونظفته بصبر الحشرات وبفم جائع، وكسّرت العظام إلى شظايا فوق الصخرة واستعملت حافة حادة لتستخرج القاذورات من رجليها وبطنها.

امتد الأفق في تلك المنطقة، مكونًا بانوراما معقدة. كان ذلك واديًا ضخمًا. وظهرت تركيبات جيولوجية ضخمة في تلك البانوراما المكونة من القباب وتدفق الحمم والحُفر. وإلى الشرق ووراء الأفق في الغرب؛ بدت الأرض مرتفعة، مكونة هضبة أقصى ارتفاعها نحو ثلاثة آلاف متر، مفروشة بتربة بُركانية خصبة. تنتهي هذه الهضبة الضخمة بحائط من الرواسب ينزل إلى الوادي.

هذا هو وادي ريفت، وهو صدع يقع بين قطعتين من الأرض التكتونية. يمتد مسافة ثلاثة آلاف كيلومتر من البحر الأحمر وإثيوبيا في الشمال مخترقًا كينيا وأوغندا وتنزانيا ومالاوي وينتهي في موزمبيق جنوبًا. أدى النشاط الجيولوجي مدة عشرين مليون عام على طول هذا الصدع الكبير إلى ظهور براكين، وأراض مرتفعة وانهيار أراض منخفضة لتصبح وديانًا، حوّلت المياه إلى بعض البحيرات الضخمة في القارة. أما الأرض نفسها فقد أعيد تشكيلها،

مُرسبة طبقة فوق طبقة من التراب البركاني، وانتشرت السفوح الواسعة من الصخور والحجر الطيني. وفي التلال البركانية نمت غابات رطبة، وطبقة من تشكيلة نباتات خضراء، من قلب الغابة إلى منطقة السافانا التي ملأت الأرض، كانت منطقة مزدحمة ومتنوعة.

وكانت مكتظة بالحيوانات.

ومع مغيب الشمس بدأت مخلوقات السافانا تصبح أكثر نشاطًا، فكانت أفراس النهر تتمشى في المروج، وقطعان الفيلة الضخمة تعبر أرض الحشائش بهدوء. ظهرت في الحقيقة عدة سلالات من الفيلة، تختلف في شكل ظهورها وخراطيمها وهياكلها العظمية. كانت تصرخ بحدة بعضها لبعض، وتسير مثل سفينة تبحر في بحر من الغبار، تثيره أثناء تحركها. بالإضافة إلى تلك الحيوانات العشبية الضخمة ظهرت عدة سلالات تعتمد مباشرة على الحشائش مثل: الأرانب البرية والحيوانات الشائكة من القوارض وفئران القصب والخنازير الحفارة. وأصبحت الحيوانات المفترسة التي تفترس أكلة العشب — وهي نفسها فريسة لعدد متزايد من الحيوانات الخطيرة — تشمل: الثعالب والضباع والنموس.

كانت حيوانات السافانا ستبدو مألوفة للعين البشرية، لأنها قد أصبحت فعلًا متكيفة مع ظروف السافانا، لكن وفرة الحياة وتنوعها هناك ستبهر الناظر المعتاد على أفريقيا التي يقطنها البشر. هذا هو أغنى إقليم على الأرض في عدد السلالات الثديية، إذ إن تنوعها وغزارتها من أسباب ازدهار ذلك العصر. وفي ذلك المكان المزدحم المعقد، ظهرت مخلوقات الوديان مثل الظباء والفيلة، تعيش بالقرب من حيوانات الغابة مثل الخنازير والخفافيش. ووفّر صدع ريفت مسطحًا أرضيًّا خصبًا، متيحًا الفرص لتكيف عدد من سلالات الحيوانات مثل: الفيلة والخنازير والظباء والبشر. تلك هي البوتقة التي انحدرت منها فصيلة فار.

ولكنها لم تستمر هناك.

بعد عصر كابو الذي تحرر من آخر الروابط بالغابة، أصبحت قبيلة فار سلالة متنقلة. ورحلت خارج أفريقيا، كانت أولى خطوات الهومينيد قد قطعت بالفعل على طول الساحل الجنوبي في الكتلة الآسيوية. إن جدات

فار ومع أنهن أكملن دائرة باتجاه الشمال والشرق والجنوب، عبر أجيال عديدة فكن يعدن إلى المكان الذي بدأن فيه.

جلست فار في الخلاء، لتمسح الأرض بعين عالم، قادرة على الحساب. اعتادت القبيلة أثناء تجوالها بصفة عامة تتبع المجاري المائية. جاءوا إلى ذلك المكان من الشمال، واستطاعت فار أن تحدد المسارات التي اتبعوها، كحية فضية تخترق الحشائش والأشجار. وبطول ضفة النهر كانت الأرض رخوة، مملوءة بالمياه، وكثيفة بالمواد الغذائية، وهو مزيج حي من الأشجار السميكة والحشائش التي نمت هناك، وتميزت بركام تلال النمل الأبيض. أما في الشرق فقد ارتفعت الأرض وأصبحت جافة وجرداء، وإلى الغرب نمت الغابة وأصبحت أكثر سمكًا، مكونة حزامًا جيدًا، وإذا نظرت فار جنوبًا فستستطيع أن ترى ما يحمله الغد، ممرًّا عظيمًا من السافانا بخليط من الحشائش والأشجار ورقع الغابات التي تفضلها قبيلتها.

فار ما زالت شابة، تتعلم عن العالم، وكيف تستغله بأفضل طريقة، لكن لديها فهم منظم عميق لبيئتها. إنها فعلًا قادرة على تحليل المشاهد غير المألوفة، واكتشاف مصادر الغذاء والماء والشعور بالخطر ومعرفة مسارات الهجرة المستقبلية.

وهذه المهارة ضرورية، اضطرت فصيلة فار أن ترضخ لدفع الرياح القاسية في الفضاء المفتوح حتى يتطور لديها نوع جديد من الإدراك للطبيعة. اضطرت لفهم عادات اللعبة، وتصنيف النباتات، وتغيير الفصول ومعنى آثار الأقدام، لكي تستطيع حل عدد لا ينتهي من الألغاز المعقدة في السافانا، بالمقارنة بالسلف البعيد كابو الذي عاش ومات على بعد آلاف الكيلومترات في الشمال الغربي لذلك المكان، تعلم سمات هذه الغابة الغنية بالفطرة، لأنه لم يكن قادرًا على قراءة خريطة الأرض، وفهم أنماط جديدة، صارع بلا نهاية كل ما هو غير مألوف.

كان الكبار والصغار عائدين إلى الصخرة، حاملين الطعام. وهم عرايا ولا يحملون إلا ما يمكن لأيديهم ومهد الأطفال في أذرعهم أن تحمله، أغلبهم قد عاد وفمه ممتلئ ويمضغ. يأكلون بأقصى سرعة، ويطعمون فقط أعضاء العائلة المقربين ولا يلجئون إلى السرقة ويأكلون بصمت فيما عدا

التجشؤ وأصوات الاستمتاع أو الانزعاج من قضم طعام فاسد، وظهرت بعض الكلمات مثل: أنا — جوز — اكسر — مؤلم.

لم تكن إلا أسماء وأفعالًا بسيطة، صيغًا ملكية، تحديات، جملًا ذات كلمة واحدة عديمة التراكيب، بلا أي نوع من القواعد، ومع ذلك كانت لغة؛ الكلمات تشير إلى أشياء محددة؛ إنه نظام متقدم عن طنطنة كابو وأي حيوان آخر.

أتى شقيق فار واسمه برات، يحمل طرف حيوان صغير، ربما يكون أرنبًا بريًّا. ويد أمها كالم ممتلئة بالجذور والفاكهة وورق النخيل.

شعرت فار فجأة بالجوع، واندفعت إلى الأمام، تبكي مثل الصغار وتلوح بيدها، فاتحة فمها.

أصدرت كالم صوتًا تجاهها، مهددة بإبعاد كل ما بذراعيها من طعام بعيدًا عن ابنتها قائلة: «ملكي»؛ هذه هي عملية التوبيخ، التي عززتها الجدة بنظرات حادة من عينيها. أصبحت فار كبيرة جدًّا، ولا يمكن أن يطعموها مثل الرضع. يجب أن تذهب لمساعدة أمها بدلًا من إضاعة طاقتها في الركض على الأرض، بلا هدف. كان شقيقها برات جيدًا في العمل، حتى إنه عاد بصيده من اللحم، كل ذلك قيل بكلمة واحدة.

لم تعد الحياة كما كانت في عهد كابو، الآن يحاول الكبار قيادة الصغار وتدريبهم. أصبح العالم معقدًا جدًّا، بحيث لم يعد هناك وقت للصغار ليعيدوا وحدهم اختراع كل تقنيات وفنون الحياة للبقاء على قيد الحياة. لا بد أن يتعلموا كيف يعيشون، وإحدى قوانين الأكبر سنًّا، مثل جدة فار هي نقل الحكمة للصغار.

لكن فار مدت يديها مرة أخرى، تتوسل بأصوات حيوانية مثيرة للشفقة، كأنها تقول: «مرة واحدة فقط، اليوم فقط، وغدًا سأعمل.»

تذمرت كالم كما علمت فار مسبقًا وألقت الطعام على الصخرة، كانت قد جمعت الجوز والفاصوليا واللوبيا ودرنات حبيبات الهليون. أعطت لفار درنات منتفخة، فقضمتها بسرعة.

جلس برات بجوار أمه، فهو ما زال صغيرًا ليجلس مع الذكور البالغين، الذين أمسكوا بكومة من غذائهم. مزق برات أرنبه البري بالقوة، ولوى

أطرافه ورأسه، واستخدم رقاقة من الصخور ليفتح صدر الأرنب. وأثناء قيامه بتقطيعه إلى قطع صغيرة اتسمت حركاته بالتوتر والارتعاد.

لا أحد من عائلته يعرف أنه يعاني مرضًا خطيرًا بالفعل، هو زيادة نسبة الفيتامينات. فقبل أيام قليلة أعطاه أحد الذكور قطعة صغيرة من كبد ضبع، قد سقطت في يده في معركة قصيرة على بقايا ظبي. والكبد شأنه في ذلك شأن أغلب أكباد الحيوانات المفترسة آكلة اللحوم مليئًا بفيتامين (أ)، وقريبًا سيظهر السم الخفي في جسد الصغير.

وخلال شهر سوف يكون في عداد الموتى، وفي الشهر الثاني عشر سيكون منسيًّا حتى لأمه.

فقيدته كالم بلطف، ونزعت بعضًا من أرنبه البري بعيدًا، لتجعله يتقاسمه مع أخته.

منذ زمن كابو اتجه العالم نحو البرودة والجفاف.

شمال خط الاستواء امتد حزام كبير من الغابة الصنوبرية في جميع أنحاء العالم — عبر أمريكا الشمالية وآسيا — إنها غابة أشجار دائمة الخضرة. وفي أقصى الشمال تشكلت التندرة لأول مرة في ثلاثمائة مليون عام. كانت الحياة التي منحتها غابة الصنوبر السبخة للحيوانات ضعيفة إذا ما قُورِنَت بالمختلطة النفضية القديمة، أو الغابات الصنوبرية المعتدلة. وبالمثل استمرت المراعي الخضراء في الامتداد؛ حيث تكون الحشائش أقل عطشًا من الأشجار، لكن الحشائش جعلت السهول القاحلة قادرة على دعم الأنواع الحيوانية المنخفضة التجمع، بعد زوال الغابات. ومع استمرار جفاف التربة حدث انقراض مرة أخرى.

لكن إذا تقلص النوع، ازداد الكم بشكل مذهل.

إن الحاجة إلى اجتياز فترات نقص الغذاء الموسمية، والحاجة إلى أمعاء قادرة على هضم أطعمة قاسية على مدار العام، قد فضّلت تطور الحيوانات العشبية الكبيرة. أما الثدييات العملاقة فقد انتشرت على نطاق لم يسبق له مثيل في أنحاء الكوكب، منذ انقراض الديناصورات. فالماموث انتشر بالفعل في أنحاء مختلفة في شمال أوراسيا، وعبرت الجسور الأرضية التي ظهرت

بعد هبوط المحيطات بشكل دوري، ودخلت أمريكا الشمالية. إلا أن التي عاشت في الإقليم الاستوائي كانت عديمة الشعر، تأكل أوراق الأشجار بدلًا من الحشائش. كانت تشبه الفيلة التقليدية، لكن لديها تيجان عالية وأنياب ملتوية، من أسلافها.

وفي الوقت نفسه تجولت الجمال العملاقة الضخمة في أمريكا الشمالية، وتجولت الغزلان الشبيهة بالموظ في آسيا وأفريقيا. وتجول نوع من وحيد القرن عبر شمال أوراسيا. ووحيد القرن له أرجل طويلة وقرن قد ينمو ليصل طوله إلى مترين، فهو يشبه أُحادي القرن مفتول العضلات.

إلى جانب هذه المجموعات الضخمة من اللحوم ظهرت المفترسات المتخصصة. تطورت القطط وأتقنت تقنيات القتل. إنها ذات أسنان جانبية كالقواطع، يمكنها أن تشق الجلد، وتمزقه وتدخل إلى قلب الجسم، وأسنانها يمكنها تقطيع اللحم. أتت الفصيلة ذات الأسنان السيفية على القمة، فهي تنمو إلى ضعف حجم السباع المعروفة في عصر الإنسان، وهي مفترسة ذات عضلات، ولها بنية الدببة، ذات أطراف مكتظة قصيرة. بنيتها مُهيأة لأجل القوة، وليس السرعة وهي صيادة ماهرة، ويمكنها أن تفتح فمها على مصراعيه لتحطيم الفريسة. لكن كل أشكال القطط جعلت الحيوانات الأخرى — حتى الكلاب — تبدو هاوية بالمقارنة، فربما كانت القطط أقوى مفترسات الأرض.

لكن في فترة ما نحو نصف مليون عام قبل مولد فار بدأت فترة من تدهور الطقس، وتغيرت القواعد لمخلوقات الأرض مرة أخرى.

صدرت صيحة من السهل تقول: «انظر ... انظر لي»، ووقف الجميع مجتمعين ليشاهدوا ما يحدث.

وإذا بذكر يقترب، وهو طويل مفتول العضلات أكثر من الباقين، وذا قوة هائلة وجبين بارز. هذا الذكر هو برو الرئيس المسيطر في عالم الذكور التنافسي، ويحمل على كتفه حيوانًا ميتًا يتدلى، كان الحيوان ظبيًا صغيرًا.

أما الرجال الثمانية البالغون الآخرون في المجموعة، فقد أخذوا يصيحون ويصرخون، ويركضون في اتجاه أسفل المنحدر الصخري، وربتوا على ظهر

برو وضربوا الظبي الأفريقي، ثم أثاروا الغبار في ضوء الشمس الغاربة، وحملوا معًا الظبي الأفريقي حتى المنحدر، ثم ألقوا به على الأرض. ركض الأطفال الأكبر سنًّا لمشاهدة الظبي الأفريقي، وبدئوا يتنافسون على اللحم. ومن بينهم برات لكنه أضعف من الصغار، يُدفع جانبًا بسهولة. شاهدت فار السهم الخشبي المغروس في صدر الحيوان، هكذا قتل برو فريسته، على الأرجح بعد كمين نصبه لها، ربما ترك السهم في مكانه ليُظهر كيف حقق هذه البطولة.

في هذه اللحظة أظهر برو عضوه الذكري منتصبًا انتصابًا كبيرًا، وأظهرت النساء علامات الاستعداد، ومن بينهن كالم أم فار، وبدأن في إغرائه، بطرق ناعمة كيد ملتوية أو فخذ بارز.

فار لا هي امرأة ولا هي طفلة، تجلس بعيدًا دائمًا عن الباقين، ظلت تأكل ببطء؛ منتظرة انتهاء الأحداث.

ذهب أحد البالغين وأحضر بعض الحصى البركاني من المجرى القريب. وبدأ الرجال والنساء بإفراغ الحصى، تعمل أيديهم بسرعة وأصابعهم تتفقد الحجر. وتشكلت الأدوات من الحجارة دون أي مجهود حقيقي. تلك المهارة بالفعل قديمة تأصلت في عقول تتسم بالاكتفاء الذاتي الصارم. وخلال بضع دقائق كانوا قد شكلوا لوحات تقطيع وسكاكين، وكلما انتهوا من تصنيع واحدة، توجهوا إلى الظبي الأفريقي.

سلخوا الجلد من المؤخرة حتى الحلق، وشدوه بقوة من على الظبي، وتخلصوا من الجلد فلم يكن أحد قد فكر في استخدام للجلد حتى ذلك الوقت، والآن وقد ذبح الظبي سريعًا، بدأ التقطيع باستعمال أحجار قوية — فضلوا الأطراف عن الجسد عند القفص الصدري لكشف الأعضاء الدافئة الناعمة داخله. ثم فصلوا اللحم عن العظام.

كانت العملية سريعة ومؤثرة، وغالبًا غير دموية؛ إن الذي ذبح ماهر تدرب لأجيال، لكن الجزارين لا يعملون معًا، ومع أنهم سمحوا لبرو أن يأخذ الشرائح الرئيسة وأن ينتزع القلب والكبد، فقد تنافسوا وهم يقتاتون بلحم الظبي وينخرون وينخس بعضهم بعضًا. ومع أن أدواتهم في أيديهم، فإنهم تعاملوا مع الظبي مثل قطيع من الذئاب.

تشاجرت بعض النساء على اللحم. فقد كانت إغارتهن على أكمة الصنوبر وغيرها ناجحة ذلك اليوم، وامتلأت بطونهم وبطون أطفالهن بالتين والتوت والحشائش والجذور والفاكهة الوفيرة في هذه الأرض الجافة، وكلها لا تتطلب تحضيرًا كثيرًا قبل الأكل.

عندما أُخذ معظم اللحم من عظام الظبي بدأت المساومة بجدية. سار برو بين الرجال وفي إحدى يديه نصل، ولوح عظيم من فخذ الحيوان في اليد الأخرى. قطّع شرائح كبيرة من اللحم، وأعطاها لبعض الرجال دون آخرين، الذين لم ينظروا إليه وكأن الأمر غير ذي قيمة، لكنهم سوف يحاولون — فيما بعد — أن ينتزعوا أفضل قطع اللحم من الباقين. كل ذلك جزء من التكتيك السياسي اللانهائي للرجال.

ثم سار برو بين النساء وهو يوزع قطعًا من اللحم وكأنه ملك زائر. وعندما وصل إلى كالم، توقف وانتصب في فخر، وقطع شريحة كبيرة وغنية من لوح فخذ الظبي. فتقبلتها وهي تتنهد، وأكلت بعضًا منها سريعًا، ثم وضعت الباقي بجانبها، بالقرب من رضيعها، الذي كان نائمًا في فراش من الحشائش الجافة، ثم استلقت على ظهرها وفتحت فخذيها وعقدت ذراعيها لتضم برو.

لم يكن برو في الأساس قد خرج يصطاد لإحضار الطعام لجماعته، فالفرائس الضخمة لا توفر عُشر ما تحتاجه مجموعته، بل جاءت الغالبية العظمى من الطعام من النباتات والجوز والحشرات والحيوانات الصغيرة التي تصطادها النساء والأطفال الأكبر سنًّا، بخلاف الرجال. بل أفادت الفريسة الكبيرة في الإمداد بالطعام أثناء الأوقات العصيبة، ربما أيام الجفاف والفيضان أو في الشتاء القارص. لكن الصيد مفيد للصائد في جميع الاتجاهات. كان لبرو — بامتلاكه لحم الظبي — القدرة على أن يعزز موقعه السياسي بين الرجال، والوصول إلى النساء اللاتي كن في نهاية المطاف هدفه في معركته للسيطرة.

بالذكاء العظيم، والطول، والأجساد الخالية من الشعر، واللغة البدائية، كان أولئك هم أكثر المخلوقات قربًا للبشر الموجودين الآن، لكن كثيرًا من طرق إدارة حياتهم كانت ستكون مألوفة لكابو. فأسلاف برو عاشوا هذا

النمط الاجتماعي، لذكور يقاتلون من أجل السيطرة، وإناث يرتبطن من خلال خط الوراثة، ويصطدن لنيل الرضا، في زمن بعيد، قبل قرار كابو المصيري أن يترك الغابة، ظهرت طرق أخرى للرئيسيات للعيش، وأنواع أخرى من المجتمعات التي يمكن تصورها، لكن فور تأسيس النمط كان من المستحيل تغييره.

على أي حال سار النظام. فالطعام فيه مشاركة، ويعم السلام بين الجميع. وبطريقة أو بأخرى حصل أغلب الناس على الطعام.

عندما انتهى برو مسحت كالم فخذيها بورقة شجر وعادت إلى اللحم، فاستخدمت قطعة ملقاة من الحجر لتقطيعها إلى شرائح، وأعطت بعضًا منها لأمها، التي كانت كبيرة في السن ولم ينتبه إليها برو، وأعطت الباقي لفار التي بدأت تأكله بشغف.

في وقت لاحق تلاشى الضوء، واقترب برو من فار. رأت هيكلًا طويل القامة، سمين الهيئة، في حمرة السماء البنفسجية الباهتة. نفد أغلب لحم الظبي، لكنها تشم رائحة دماء الظبي التي تفوح منه. حمل عظمة الرجل الأمامية، وقرفص أمامها، وهو يشمها بفضول. ثم ضرب بالعظمة على الصخرة فكسرها. استطاعت أن تشم نخاعها اللذيذ، وامتلأ فمها باللعاب، ومدت يدها إلى العظم بدون تفكير.

سحبها بعيدًا ليجعل فار تقترب.

وفار تقترب استطاعت أن تشم الرائحة بوضوح أكثر: الدماء والقاذورات والعرق ورائحة المني الذي بقي طويلًا. عدل برو عن رأيه وأعطاها العظمة، ودفعت بلسانها في النخاع تمتصه بشغف. وهي تأكل وضع يده على كتفها، وحركه بطول جسدها. حاولت ألا ترتعش وهو يستكشف ثدييها الصغيرين ويشد حلماتها. لكنها صرخت عندما فتح بأصابعه رجليها. فسحب يده واشتم رائحتها، لكن عندما لم يحس بالإثارة زمجر وانتقل بعيدًا.

لكنه ترك لها النخاع، فالتهمته بلهفة، وقضت على معظمه، قبل أن تسرق العظمة منها سيدة مسنة.

تسرب الضوء من السماء بسرعة. وعوت الحيوانات المفترسة عبر السافانا، لتمييز مملكتها الدموية على طريقتها القديمة.

تجمعت المجموعة على جزيرتها الصخرية، وهي تشعر بالخوف وبعضها يقترب من بعض، الصغار في المنتصف والبالغون حولهم وظهورهم للخارج، واستعدوا جميعًا لمواجهة ليلة طويلة مظلمة. من المفترض أن يكونوا آمنين هنا، في هذا المكان غير المضياف، فأي حيوان جارح متوحش اضطر أن يترك مكانه، ويأتي إلى هنا، حيث يكون عليه أن يواجه أسلاف الإنسان الأقوياء والمسلحين جيدًا، لكن لا توجد ضمانات. ظهر حيوان ذو أسنان مسيفة يسمى دينوفليس Dinofelis، وهو حيوان مفترس مترصد مثل النمر المنقط البدين، المتخصص في قتل أسلاف الإنسان، وكان في إمكان دينوفليس تسلق الأشجار.

بحلول الظلام كان الناس قد عادوا إلى أعمالهم، البعض يأكلون، والبعض يعتنون بأجسادهم، مزيلين القاذورات من أصابع الأقدام أو أصابع الأيدي المتقرحة. وعمل البعض على صنع أدوات. الكثير من تلك الأعمال متكررة وطقسية. لا أحد يفكر بحق فيما يفعل.

البعض يدلك؛ الأمهات وأطفالهن والأخوات والأزواج والإناث والذكور لتعزيز علاقتهن، عملت فار في رأس أمها كثيفة الشعر، وحلت العقد وجمعت الشعر في ضفيرة. احتاج الشعر حينها إلى مجهود كبير، لأنه يتشابك ويجذب القمل، وكلها أشياء تحتاج إلى علاج.

هذه الفصيلة هي الوحيدة التي لا تمتلك آلية ذاتية للاعتناء بالشعر. فعلى سبيل المثال نما شعر بعض أنواع القرود على هذه الشاكلة، وشعر فار يحتاج إلى قصه بانتظام، لكن شعر المجموعة تطور بهذه الصورة لأنهم بحاجة إلى ما يدلكونه ويمشطرنه. من المفيد في السافانا المفتوحة أن تكون جزءًا من مجموعة كبيرة، احتاجت المجموعة إلى آليات اجتماعية لتظل متماسكة. لم يعد الوقت متاحًا لأساليب القردة القديمة، التدليك الموسع لكامل الجسم مثلما فعل كابو وأسلافه. وعمومًا أصبح من المستحيل تدليك الجسد الذي بات غير مغطى بالشعر وقابلًا للتعرق. ومع هذا فقد أبقت عادات الاعتناء بالشعر البدائية على بعض ميراثها.

اختلفت القواعد اللغوية لأولئك الناس عندما مارسوا أنشطتهم المختلفة عن قواعد المجموعات البشرية. ففي الظلام يتجمعون معًا من أجل الحماية، لكن لم يكن هناك مشاركة حقيقية. لا توجد نار، ولا شيء مثل الموقد ولا توجد بؤرة تركيز. إنهم يشبهون البشر لكن عقولهم لم تكن مثلهم.

مثلما حدث في زمن كابو كان تفكيرهم مفككًا. وظل الغرض الأساسي من الوعي هو مساعدتهم في تحديد ما يدور بعقول الآخرين، تمتعوا بإدراك ذاتي إنساني حقيقي عندما يتعامل بعضهم مع بعض. إن حدود الإدراك كانت أكثر ضيقًا بكثير من عقول البشر، فقد عملوا الكثير في الأساس دون وعي. حتى أولئك الذين يصنعون الأدوات أو يعملون لإيجاد الطعام يقومون بذلك بدون كلام، فأيديهم تعمل تلقائيًّا وبدون تحكم واعٍ مثل الأسود والذئاب. هرب إدراكهم في ذلك الوقت. صنعوا الأدوات تلقائيًّا، مثلما يسير أو يتنفس البشر.

ومع ذلك سواء أكانوا بشرًا أم لا، فإن لغة بسيطة انتشرت بين المجموعة. وظهر الحديث بين الأمهات والصغار، والأعضاء الذين يتبادلون التدليك والأزواج. لم يكن هناك معلومات تنتقل بينهم، فأغلب كلامهم تنهدات من السعادة مثل غمغمة القطط.

لكن كلماتهم لها صدى الكلمات.

وجب على الناس تعلم الاتصال بأدوات صممت لمهام أخرى، فالفم للأكل، والأذن بهدف الاستماع إلى الخطر، والآن زودت بتجهيزات جديدة للاستخدام، وتهيأ الجسد لاستعمال جديد. فإن تغيُّر مكان الحنجرة والتغيرات في نمط التنفس حسنت من جودة الأصوات التي يصدرونها. لكن لكي تكون الأصوات مفيدة فيجب التعرف عليها بسرعة وبدون غموض. لكن طرق تحقيق ذلك محدودة بطبيعة الأدوات التي يستخدمونها. ومع استماع الأفراد بعضهم إلى بعض، وتقليد الأصوات المفيدة وإعادتها تم انتقاء الوحدات الصوتية (الصوت الذي يكوّن الكلمات وأساس اللغة)، بدافع ضرورة التواصل وتشكيل القيود.

لكن لم يكن هناك شيء حتى حينها مثل القواعد اللغوية، لا توجد عبارات، وبالتأكيد لا يوجد سرد، ولا توجد حكايات. فالغرض الوحيد للتحدث ليس نقل المعلومات. لا أحد يتحدث عن الأدوات أو الصيد أو إعداد الطعام.

استخدمت اللغة اجتماعية في الأوامر والطلبات، والتعبير الصريح عن المرح والألم، وللاستمالة. إن اللغة — حتى بدون العديد من المحتويات — هي الطريقة الأكثر تأثيرًا لإرساء وتعزيز العلاقات، أكثر من التقاط القراض من شعر العانة. لدرجة أنها تستخدم لاستمالة عدة أشخاص في وقت واحد.

دفع معظم التطور في اللغة الأمهات والرضع. فإن أسلاف ديموستيني ولينكولن وتشرشل لم يتحدثوا بشيء أكثر من الأمهات.

بينما الأطفال لا يتكلمون على الإطلاق.

عادلت عقول الكبار في تعقيدها إنسانًا يبلغ الخامسة من العمر. لم يكن لأطفالهم القدرة على التحدث، لا شيء أكثر من ثرثرة مثل القرود، حتى يصلوا إلى سن البلوغ. مضى عام أو عامان منذ فهمت فار كلمات الكبار، وبرات، الذي في السابعة لم يكن يتحدث على الإطلاق. وُلدت الصغار كمواليد القرود العليا لآباء من البشر.

وما إن اختفى الضوء حتى أخلدت المجموعة إلى النوم.

تعلقت فار برجلي أمها. ولم يعد اليوم المنتهي إلا جزءًا من سلسلة طويلة ممتدة، ترجع إلى بداية حياتها، وهي لا تذكر الأيام الماضية أو ترتبط بينها. تخيلت في الظلام أنها تركض في ضوء الشمس، تركض وتركض.

لم تكن لتعلم أن تلك هي المرة الأخيرة التي ستنام فيها بالقرب من أمها.

٢

منذ ملايين السنين حدث انجراف تكتوني بطيء لكنه كان شديدًا، وهو الذي تسبب في تصادم أمريكا الشمالية والجنوبية، مكونًا برزخ بنما.

بدا الحدث في مجمله صغيرًا. بنما شظية يابسة ليس لها صلة بما حدث، لكن مثلما حدث مع تشيك شولوب أصبح الإقليم مرة أخرى المركز السطحي لكارثة عالمية.

توقف الفيضان الاستوائي القديم بين الأمريكتين — آخر أثر لمجرى عدن — بسبب بنما، والآن أصبح الفيضان الوحيد الجاري هو تدفق الأطلسي العظيم. فنشأ نهر جليد متواصل من المياه الباردة التي جمّدت العالم بعنف.

اختلط غطاء المحيط الشمالي الثلجي، وانتشرت الأنهار الجليدية، مثل المخالب على المسطحات الشمالية.

بدأ العصر الجليدي، وغطت الأنهار الجليدية أكثر من ربع الكرة الأرضية بالكامل في ذروتها، ووصل الجليد إلى نهر ميسوري ووسط إنجلترا. واندثر كل شيء في الحال، فأينما تمر الأنهار تجد اليابسة قد كشطت من كل شيء، وصولًا إلى الصخر الصلد الواقع تحت التربة؛ نزولًا إلى الصخرة السفلية، تاركًا وراءه الجبال لامعة الأسطح، والصخور الكبيرة المبعثرة، والوديان الخارجية. لم يكن هناك أي جليد كثير على الأرض لمدة مائتي مليون عام. والآن دمرت بالكامل صخور وعظام ذات تاريخ، يعود إلى عصر الديناصورات.

لا يمكن أن تجد حياة على الجليد. وانتشر تحت الثلج طوق عظيم من التندرة المندثرة. حتى في أماكن بعيدة عن الثلوج، مثل الإقليم الاستوائي في أفريقيا، حيث زادت تغيرات الريح من الجفاف، وانحسر نمو النبات إلى السواحل والوديان.

لم تكن البرودة هي الصفة الغالبة. تمايل الكوكب واضطرب في حركات راقصة لانهائية حول الشمس، وببراعة غيّر درجة انحرافه أو ميله في مداره، ومع كل دورة ظهر الثلج ثم ذاب، وتقلبت مستويات المحيطات مثل نبضات القلب. وحتى اليابس احتجز تحت كيلومترات من الثلج أو تحرر بذوبان الجليد، وصعد وهبط مثل الجذر الصخري.

أحيانًا يكون تغيُّر الطقس متوحشًا، ففي عام واحد يمكن أن تتضاعف كمية الثلوج في منطقة واحدة، وينخفض متوسط الحرارة عشر درجات. وفي مواجهة هذه الفوضى من التقلبات ترحل الكائنات أو تموت.

تحركت الغابات، وأثبتت شجرة البيسيه أنها مهاجر سريع، ثم تبعتها أشجار الصنوبر التي تنتشر في مسافة كيلومتر كل عامين. وأشجار الكستناء الضخمة، وهي أشجار متكتلة ببذور كثيرة، لها أيضًا القدرة على الانتشار في مسافة مائة متر في العام. قبل العصر الجليدي كانت حيوانات خطوط العرض الوسطى بنصف الكرة الأرضية الجنوبي خليطًا من قطعان سريعة الحركة، مثل: الغزلان والخيول، وآكلات العشب العملاقة كوحيد القرن والحيوانات

السريعة، ومن أكلة اللحوم كالأسود والذئاب. ثم انتقلت الحيوانات إلى الجنوب بحثًا عن الدفء. أدت كثافة الحيوانات من أقاليم مناخية مختلفة إلى الاختلاط والتنافس في نطاق بيئي سريع التغير.

بدأت بعض المخلوقات في التكيف مع البرودة، مستغلة إمدادات الطعام، التي ما زالت تكمن تحت الشرائح الثلجية، فكثير من الحيوانات ظهر لها فراء سميك، وطبقات من الدهون، مثل الحيوانات الضخمة كوحيد القرن والحيوانات الصغيرة مثل: الثعالب والخيول والقطط. وبدأت حيوانات أخرى في استغلال التأرجح الكبير في درجة الحرارة بين الفصول، فهاجرت إلى الشمال صيفًا وإلى الجنوب شتاءً، وأصبح اليابس جُزرًا عظيمة مغمورة بالحياة، بأعداد كبيرة من جماعات متنقلة، قد تبعتها الحيوانات المفترسة.

حدثت كارثة من جراء اختلاط الأمريكيتين، فالقارتان الشمالية والجنوبية قد انفصلتا بتحطم بانجيا منذ ما يقرب من مائة وخمسين مليون عام. وأصبحت حيوانات أمريكا الجنوبية في معزل، وسيطرت عليها الثدييات الجرابية وذوات الحوافر. ظهرت الجرابيات: مثل الذئاب والقطط ذات الأسنان المسيفة، وذوات الحوافر مثل: الجمال، والخرطوميات مثل: الفيلة، وحيوانات الكسلان العملاقة التي قد تزن ثلاثة أطنان ويصل طولها إلى ستة أمتار عندما تقف للبحث بين جريد النخل. وظل حيوان الجليبتودون Glyptodont الذي يشبه الوحوش المدرعة الضخمة التي روعت رومر ما زال موجودًا، وأتى على قمة الضواري الطيور العملاقة التي لا تطير، كما في الأزمنة البالية. ظل هذا الجمع الغريب وحده ليتطور، مع أن أمريكا الجنوبية قد أمدته من وقت إلى آخر بالحيوانات الضالة، التي حضرت بالطوف أو بجسور مؤقتة مثل رومر ورفقتها سيئة الحظ، التي سكنت صغارها أدغال أمريكا الجنوبية مع القردة.

عندما سُد جسر بنما الأرضي حدثت هجرة هائلة من الشمال إلى الجنوب بواسطة أكلة الحشرات: أرانب وسناجب وفئران، ثم الكلاب والدببة واليرابيع والقطط. فشلت الحيوانات المتوطنة في أمريكا الجنوبية في منافسة الحيوانات الوافدة الجديدة. استغرق الانقراض ملايين الأعوام، لكن مملكة الجرابيات كانت قد انتهت بالفعل.

وعلى الرغم من كل الصعوبات والموت فإن ذلك الزمن الذي اتسم بتغيرات سريعة وشرسة كان زمن الفرص. ففي مجمل تاريخ الأرض (أربعة بلايين عام) مرت أزمنة قليلة مواتية للتغير والتطور. فبين حالات انقراض كثيرة حدث تطور كبير بين الفصائل.

وفي مركز ذلك النطاق البيئي كان يعيش أبناء كابو.

تكشّف فجر اليوم التالي بوضوح، وسماؤه زرقاء شاحبة. لكن الهواء جافًّا جدًّا، وله رائحة غريبة نفاذة، وبدأت الحرارة تكون خانقة. وبدا الخمول على حيوانات السافانا، حتى الطيور كانت ساكنة وأكلة الجيفة تتشبث بِجيَفها مثل الثمار السوداء الفاسدة، على أشجارها.

أصبح الأشخاص بجلودهم العارية المتعرقة مهيئين لتلك الحرارة والجفاف المطلق، مثل جميع الأجناس هنا. لكن بدءوا يومهم أيضًا في خمول، يتحركون بلا هدف على صخور الجزيرة، بحثًا عما تبقى من فتات الأمس.

لم تكن تلك المنطقة غنية على وجه التحديد، فلم يناقش الجميع خططهم — فلم تكن هناك خطط حقيقية على أي حال — لكن تحتم عليهم ألّا ينتظروا هنا. وبعد فترة وجيزة بدأ بعض الرجال يتجهون إلى مجرى المياه المتجه إلى الجنوب.

وطوال الليل تدهورت حالة برات، لأن باطن قدميه كان قد جُرح ورشح منه صديدٌ مائي، وعندما حاول أن يلقي بثقله عليهما صرخ من الألم، ولم يستطع المشي إلى أي مكان.

مكثت كالم جدة فار وأغلب النساء بالقرب من برات، وتجاهلن سلوك الرجال الغريب الذين نفد صبرهم، فساروا في خطوات ثابتة وهادئة باتجاه الجنوب.

أصبح هذا الصراع الصامت المستمر طوال اليوم شاقًّا على الجميع، فهو مأزق حقيقي. لم تكن السافانا غنية كالغابات الحقيقية في الأزمنة الماضية، ولذلك فمن الصعب السير بعشوائية إلى أي اتجاه. ففي كل يوم في تلك الأرض المتناثرة المتغيرة تساءل ساكني السافانا عن أماكن الطعام

والشراب، وعن كيفية تجنب الخطر. فإذا أخطئوا ولو مرة واحدة، فستكون التبعات وخيمة. وصحب السائرين صغار قليلون، بذلوا الكثير لهم، فليس من السهل التخلي عنهم.

استسلم الرجال في النهاية، فعاد بعضهم إلى الصخرة، يرتاح في ضوء الشمس الحارة الساطعة، ورحل آخرون قليلون تحت قيادة برو إلى مسار الفيلة. وبدا أن أحد الصغار يعرج. انتشر الرجال والنساء والصغار الباقون في أماكن الطعام، التي اكتشفوها بالأمس.

تعد طريقة حياة هذه المجموعة ضرورية؛ بإرساء قاعدة مركزية منزلية، للعمل على إحضار الطعام والمشاركة فيه وفي العمل، اضطر الجميع للعمل بجهد وجدية. وتطلب نمو صغارهم عناية كبيرة. وكان عليهم التعاون والمشاركة بطريقة أو بأخرى. لكن لم يكن هناك تخطيط بمعنى الكلمة. فغدت طريقة حياتهم أقرب إلى طريقة حياة قطيع من الذئاب؛ أكثر من كونها حياة مجتمع بشري.

قضت فار أغلب النهار في نفس الأدغال الكثيفة، التي عملت بها أمها بالأمس. كانت الأرض قد قلبت جيدًا، وللعثور على جذور جديدة وفاكهة سيحتاج ذلك إلى حفر أكثر. وبعد قليل شعرت بحرارة واتساخ وعدم ارتياح، واعتراها القلق كأنها سجينة، بينما رجلاها الطويلتان المطويتان أسفلها بدأتا تؤلمانها.

بحلول فترة الظهيرة ازداد الهدوء المتقطع لذلك اليوم الغريب الثقيل. وبينما السافانا الواسعة والمكشوفة تُغري فار كما فعلت بالأمس، وبينما الجوع الذي تشعر به قد قل؛ قهرها ضغط الوجبات العائلية وحب البقاء، وسيطرت عليها رغبتها الشديدة وتعطشها إلى مغادرة هذا المكان.

لم يلاحظ الدينوثر نخلة طويلة على قمتها عنقود من الجوز. هز فتى النخلة وهو يتوق إلى استعادة الماضي الدفين في ذاكرته، عن تلك الأيام التي كان الخضار فيها يعم المكان. راقبت فار جذعه الرشيق وهو يعمل، وشعرت برغبة غريبة أسفل بطنها.

وتوصلت إلى قرار. فتركت بقية الطعام، وتسللت خارج الأيكة، ثم أخذت تركض باتجاه الغرب.

شعرت براحة عظيمة بتحرك أطرافها وضخ الهواء في رئتيها، وأحست بملمس التراب النظيف تحت قدميها. ولبعض الوقت جرت بدون تفكير، وشعرت بأن حدة حرارة اليوم قد خفت، من جراء النسيم الذي برّد جسدها وهي تركض.

ثم سمعت صدى عميقًا متذمرًا، يهدر من أرجاء السماء، فتوقفت، ثم جثمت وهي تحدق حولها في خوف.

خف ضوء الشمس الساطع، واندفعت سحب سوداء غليظة إلى السماء من الشرق. وإذا بوميض أرجواني أضاء السحب من المركز، وسُمع صوت ارتطام وتحطم ودمدمة، تبدو كأنها آتية من السماء.

نظرت إلى الصخرة البارزة المتحجرة، التي بدت — فجأة — بعيدة جدًّا، ورأت فار القوم يركضون، ويجمعون صغارهم، وخفق قلبها، وبدأت رحلة العودة.

وانهمرت الأمطار من السماء المسودة، ونقاط المياه ثقيلة لدرجة أنها حفرت فتحات صغيرة في الوحل، ووخزتها في جلدها المكشوف، ورأسها العاري. وتحولت الأرض إلى وحل لزج تشبث بأقدامها، مبطئًا حركتها.

توهج الضوء مرة أخرى، وفي تلك المرة جرى الضوء على شكل نهر عظيم ممتد بين السماء والأرض. وغيم على عينيها فتعثرت وسقطت في الوحل، ودَوّى بالقرب منها صوت حطام، وكأن العالم ينهار.

ورأت النخلة الطويلة التي في وسط الرقعة الفسيحة وهي تحترق، وقد انقسمت إلى نصفين، واشتعل اللهب في أوراقها، التي تتدلى بعيدًا عن أطرافها. وانتشرت النيران سريعًا، إلى حطام الأشجار الكثيفة الباقية، ثم بدأت تلتهم الحشائش الجافة على السطح المنبسط.

وارتفع غطاء دخاني أسود أمامها. وحاولت مواصلة الركض، وعلى الرغم من استمرار الأمطار، فإن النيران تنتشر سريعًا. كان الموسم جافًّا على غير العادة، والسافانا تكسوها حشائش صفراء وعصارات جافة وأشجار ساقطة تستعد للاحتراق. وفي مكان ما صاحت الفيلة. ولمحت فار في الضباب أشكالًا نحيفة تفر، قد تكون الزراف.

ظل الهومينيد في مأمن بالرغم من ذلك، وألسنة اللهب تلتف حول صخرتهم البارزة، تأثروا جميعًا بالدخان والحرارة، لكن لم يمت منهم أحد. فإذا استطاعت فار أن تصل إلى الصخرة البارزة، فسوف تكون هي الأخرى بمأمن، لكنها ما تزال على بعد مئات الأمتار، أتعبها ضباب الدخان والنيران، أكلت النيران بنهم الحشـئش الجافة الممتدة، وحرقت الأوراق في لمح البصر. وأصبح الهواء مفعمًا بالدخان، مما جعلها تسعل. تطايرت أجزاء من النبات المحترق أسود اللون في الهواء، وسقطت على جسدها فحرقته.

قامت فار بالشيء الوحيد الذي تستطيعه؛ استدارت وركضت إلى الغرب بعيدًا عن النيران وعن عائلتها.

ظلت تركض بدون توقف، حتى وصلت إلى رقعة مكشوفة من غابات الأشجار الكثيفة، تؤدي إلى خضار فسيح، تمهلت تستجمع دقات قلبها؛ فقد يترصدها خطر آخر هنا لكن هذا المكان بالتأكيد بعيدٌ عن النيران، فتوغلت داخله.

ربضت بالقرب من جذور السرخس المحاطة بأوراق متشبثة، وحدقت في السافانا. فالنيران ما زالت تكتسح بضراوة الحشائش الطويلة، والدخان يندفع خلال الغابة الكثيفة، لكن أشجار تلك الغابة كانت كثيفة ومبتلة، فلم تقع تحت تهديد النيران. وكانت النار قد استهلكت وقودها، وبدأت الأمطار تطفئ اللهب.

سرعان ما ستتمكن فار من أن تخرج من هنا، حتى ذلك الحين جلست القرفصاء تنتظر.

أثار انتباهها كوة تتحرك بالقرب من رجليها — أسفل شجرة السرخس حيث الجذور النسيجية — فإذا بعقرب يتحرك بحذر شديد نحوها، وبدون تردد ضربته بعنف بأطراف يدها، وتجنبت لدغته السامة، ثم التقطته بحرص بين أصابعها ورفعته إلى فمها.

دفعها شيء ما من خلفها، فسقطت إلى الأمام على بطنها، وعلى ظهرها كتلة عضلية ثقيلة ساخنة. أحاطت بها الصيحات ونزلت قبضات على ظهرها ورأسها.

فتنفست مستجمعة قواها، وانقلبت.

جثم فوقها جسم هزيل، لم يكن يزيد عن نصف طولها، له جسم نحيف يكسوه فراء بني مسود، وله ذراعان طويلتان ورأسه الملتصق بصدره المخروطي يشبه رؤوس القردة العليا وقضيبه نحيف قرنفلي اللون، ملتصق أسفل بطنه. فراؤه رطب من أثر الأمطار، وله رائحة عفنة كريهة ونفاذة، بدا كواحد من فصيلتها وليس من فصيلة القردة.

إنه ما يسمى بيثيسين: رجل قرد Pithecine، يمثل الفصيلة الأولى للهومينيد، ويعد ابن العم غير المباشر لفار. كان الكثير من نوعه موجودًا في الأفرع فوقها، وفجأة نزلوا مثل الظلال من فوق الأشجار.

فاستدارت لتنهض، لكن شيئًا ما خبط برأسها، وغُشي عليها.

عندما أفاقت، وجدت نفسها مستلقية على ظهرها. وصدرها ورجلاها ومؤخرتها تؤلمها.

والكثير من البيثيسين ملتفين حولها.

تسلق بعضهم أفرع أشجار الماهوجني بحثًا عن الفاكهة، وآخرون يحفرون في الأرض لاستخراج جذور شجر خشب الفلين. إنهم مشاة نشيطون يعملون في صمت، لكنهم ليسوا مثلها، فهم قصار القامة كثيفي الشعر وجلودهم مترهلة مثل القرود.

صرخ أحدهم، فأدارت فار رأسها لترى ما يحدث.

ربضت إحدى إناث البيثيسين في الوحل مجهدة، ورأسها ملتو وثدياها الرخوان أثقلهما الحليب، ورأت في غير وضوح كتلة صلبة يغطيها الصمغ، والشعر تخرج من مؤخرتها، إنها رأس وليد. كانت أنثى البيثيسين تلد.

أحاطت بها الإناث: أمها وأخواتها وبنات أعمامها. يهمهمن ويصحن برقة، مددن أيديهن بين ساقي الأم الجديدة، وبهدوء تحسسن الطفل الذي كان رطبًا، وانزلق خارج قناة الولادة.

واجهت الأم الجديدة صعوبات لم تواجهها الرئيسيات السابقة. حيث إن الرضيع وُلد وهو يُعطي ظهره للأم. إن ليف الأنثى في زمن كابو كانت تستطيع أن ترى رأس مولودها عندما يظهر، خارج قناة الولادة وأن تمد يدها بين رجليها وتمسك برأس الطفل حتى يخرج، لكن أنثى البيثيسين

لو حاولت أن تفعل ذلك، لكان عنق الرضيع سيلتوي إلى الخلف وتواجه مخاطر إيذاء عموده الفقري وأعصابه وعضلاته، كانت غير قادرة على تدبر أمرها وحدها كما استطاعت ليف، لكنها لم تكن مضطرة لذلك.

عندما أصبحت يدا الرضيع طليقتين، قبضتا على فراء أمه، وبدأ يسحب. كان قويًّا بما يكفي ليساعد نفسه في الخروج.

كل ذلك من تبعات كونهم من ذوات القدمين. إن ذوات الأربع تُدَعَّم أعضاؤها البطنية بنسيج متدلٍّ من العمود الفقري. والحوض عنصر ربط فقط، ينقل الضغط على العمود الفقري إلى أسفل وخارجيًّا إلى الأوراك والأرجل، لكن إذا قررت أن تسير منتصبة فإن على الحوض أن يحمل وزن أعضاء البطن ووزن الجنين في مراحله الأولى في الداخل. تكيف حوض البيثيسين المنتصبة سريعًا وأصبح يشبه هيكل حوض الإنسان. أما قناة الولادة فتغيرت كثيرًا، فأصبحت متسعة بالعرض لا بالطول، فاتخذت شكلًا بيضاويًّا من أجل مرور جمجمة الطفل.

كانت قناة الولادة لهذه الأنثى ضيقة على رأس الجنين، مقارنة بالحيوانات الرئيسة السابقة. فطفلها كان قد دخل القناة مواجهًا الأم، ليسمح بمرور رأسه، لكن عليه أن يستدير، لتتمكن أكتافه من اتخاذ وضع يتناسب مع مقاييس عرض القناة. وفي بعض الأحيان يخرج الطفل بأسهل وضع، بأن يكون مواجهًا للأم، لكن في أغلب الأوقات يستدير بعيدًا عنها.

في المستقبل عندما يزداد حجم رأس الهومينيد ليلائم العقول الأكبر حجمًا، سوف تحتاج قناة الولادة إلى تعديلات أكثر، لذلك فإن رضيع جوان يوسب عليه أن يستدير في اتجاهات معقدة، في طريقه للخارج. لكن حتى في تلك الأزمنة القديمة احتاجت الأمهات ذوات القدمين إلى قابلة، وهو نوع جديد من الترابط الاجتماعي انتشر بين البيثيسين.

في النهاية خرج الرضيع بالكامل، ساقطًا بقوة على الأوراق المتناثرة، ويداه الصغيرتان منقبضتان. وسقطت الأم على الأرض وهي تشعر بالارتياح. التقطت إحدى كبيرات السن من البيثيسين الرضيع، وأزالت المخاط من فمه وأنفه، ونفخت في فتحتي أنفه. ومع أول عواء للصغير، دفعت القابلة بالرضيع إلى الأم وقفزت بعيدًا.

فجأة شعرت فار بأيد قوية حول كاحلها، وسحبت بينما ورق شجر والوحل يحتك بأسفل ظهرها. واختفت الأم والرضيع عن نظرها.

جُرّت على الأرض، وفي كل مرة يرتطم رأسها بصخرة أو بجذع شجرة يُفجر ألمًا. كان حولها مخلوقات تعوي وتصيح. كانوا كلهم من الذكور، تمكنت من رؤية أعضاء تناسلية مليئة بالعقد قُرنفلية اللون، تكاد تكون شبه مطمورة في الفراء، وأدهشها خُصاهم الكبيرة التي حكوها بلا وعي. وعندما مشوا بدت مشيتهم غريبة غير بارعة، ومفاصل أوراكهم غريبة.

أدركت ببطء أنهم يجذبونها إلى أعماق الغابة، لكنها فقدت إرادتها فلم تقاوم.

فجأة ظهرت مجموعة أخرى من البيثيسين وقد أتوا مسرعين من الغابة الكثيفة يصيحون بغضب. لكن الذكور الذين اختطفوا فار وقفوا لمواجهة الوافدين الجدد.

عمت فوضى عارمة، من صياح ونعيب وعروض لبعض الوقت. وانتصب شعر البيثيسين، فبدا بعضهم ضعف حجمه المعتاد، كسر الذكور الكبار الأغصان واقتلعوا الأوراق من الأشجار وضربوا الأرض. وجه أحد ذكور مجموعة فار باعتزاز عضوه الذكري القرنفلي الضخم المنتصب للدخلاء، وانحنى آخر وتبول على المتحدي. وهكذا سُمعت الأصوات المتنافرة مزيجًا من الارتباك والصدامات بين مجموعتين من المخلوقات، التي بدت متشابهة جدًّا لفار الحائرة.

في النهاية طرد معتقلو فار الدخلاء، متخذين موقفًا عدوانيًّا، ودفعوا بأنفسهم حول الأشجار، يصيحون فيما بينهم.

ثم بدأ الهدوء، فأخذت البيثيسين في التجمع على الأرض، وأصابعهم الطويلة تبحث عن أوراق شجر متهالكة وحطام. ووجد أحدهم قطعة كبيرة من صخرة سوداء من الصخور البركانية، وبسرعة وجد صخرة أخرى، وأخذ يُقلب الصخرة الأولى بين يديه، ولسانه القرنفلي خارج فمه في مشهد هزلي.

بدا راضيًا في النهاية، ثبت عيناه على الصخرة البركانية، فوضعها على الأرض بحرص بين إبهامه وسبابته، ثم نزل عليها بمطرقته الصخرية. تناثر الرذاذ بعيدًا عن نطاق الصخرة ودقيقًا بحيث تصعب رؤيته. بحث

البيثيسين في الوحل متذمرًا من خيبة أمله، ثم عاد ثانية إلى صخرته، وبدأ يقلبها ثانية بين يديه. وفي المرة التالية التي ضربها فيها، قطع منها رقاقة سوداء في حجم راحة يده. رفع البيثيسين الرقاقة في يده وقلّبها بين إصبعيه؛ الإبهام والسبابة، متفحصًا حافتها.

وهذا السكين الحجري ليس إلا شظية منشقة من الحجر. صناعتها تتطلب إدراكًا للمادة لكي تُشكل، واستخدام أداة في صناعة أداة غيرها، إن مثل هذا الإنجاز كان بعيدًا كل البعد عن كابو.

نظر البيثيسين إلى فار، وأدرك أنها لم تفقد وعيها، لكنه سيبدأ مذبحته على أي حال.

رفع ذراعه فجأة وشق بالرقاقة الحجرية كتف فار.

إن حدة الألم المفاجئة ودفء دمها المتدفق جعل فار تفيق من صدمتها. صرخت فار فاستجاب البيثيسين وصرخ هو الآخر، ورفع الرقاقة مرة أخرى، لكنها مثلما سحقت العقرب وجهت يدها إلى وجهه. فشعرت بتكسر عظامه وغطته الدماء والمخاط وقد أرضاها ذلك. فرجع إلى الوراء والدماء تسيل منه.

تراجعت كائنات البيثيسين في ذعر، وهي تصيح من خوفها، وتضرب الأرض بأيديها الكبيرة، كما لو كانت تؤكد على قوة وشراسة ذلك الحيوان الكبير الغاضب، الذي أتوا به إلى غابتهم.

تقدم واحد منهم وكشف عن أنيابه لمواجهتها.

وقفت على أقدامها بصعوبة وركضت إلى أعماق ظلام الغابة.

ارتطمت بأفرع الشجر، فإذا بنبات متسلق حول رجليها، ودفع بها بين عقد الأفرع الكثيفة. صُممت رجلاها القويتان ورئتها لتتحمل الركض لساعات على الأرض المنبسطة المتسعة، وليس للجري في تلك الطرق المعقدة الملتوية، التي لا تستطيع أن تخطو فيها خطوة بدون أن تتعثر في شيء.

في الحال بدأت البيثيسين تتحرك مثل الأشباح حولها، تهممهم وتنعب وتتسلق الجذوع وأفرع الأشجار بسهولة وتقفز من شجرة إلى أخرى. تلك بيئتهم وليست بيئتها، فعندما أقاموا في السافانا ابتعدت قبيلة فار عن الغابة، التي لم تعد مكانًا محرمًا عليهم بل أصبحت تمثل مصدر خطر،

وبما أن أولئك البيثيسين الذين يشبهون الأشباح يقطنونها، فإنهم سوف يظهرون في المستقبل في كوابيس طويلة.

أحاطوا بها من الجهتين وبدءوا يقتربون.

وفجأة تعثرت في الظلام الشديد عندما صرخ وحش جديد من أمامها وهو يصيح، فصرخت وسقطت في الوحل.

وقف الوحش على فار، ووراءه أجسام تجلس القرفصاء ونظرت الوجوه الكبيرة نحوها بترقب، بفكاكها الضخمة الماضغة.

كان الوحش من فصيلة الهومينيد، إنه بيثيسين آخر، له هيئة قوية. فكان ذلك الذكر الكبير ببطنه المتورم الضخم أطول من فصائل جراسيل النحيلة، التي أمسكت بفار. بدت هيئته وهو واقف وعندما استقام تشبه إلى حد بعيد القرود العليا، فله ظهر منحنٍ وذراعان طويلان ورجلان مقوستان. ظهرت رأسه نحتًا مجسمًا: وجنتاه مرتفعتان وفكه مثل صخرة منهكة وأسنانه قصيرة وبالية وبنيته كبيرة العظام أسفل جمجمته.

كانت فار منهكة ومتألمة وكتفها ينزف، فتقوقعت على الأرض متوقعة ضربات عنيفة من إحدى القبضات الهائلة، لكن الضربات لم تأت.

تجمعت المخلوقات على الأرض خلف الذكر الكبير بعضها بالقرب من بعض، وجميعها من الإناث بصدورهن الثقيلة على بطونهن العملاقة، وما إن تطلعن إلى فار حتى جذبن إليهن صغارهن، لكنهن ظللن جالسات يأكلن، التقطت إحدى الإناث ثمرة جوز صلبة — لو كانت فار مكانها لكانت استخدمت صخرة لتكسر قشرتها — ووضعتها بين أسنانها وضغطت على فكها بيدها، فكسرتها بسهولة، ثم بدأت تمضغها كلها.

جاءت البيثيسين النحيفة مندفعة إلى الغابة الفسيحة، وما إن رأت بيج بيلي، حتى توقفت دمدمتها، وتعثرت مثل مهرجي السيرك. وفي الحال بدأت تقدم عرضها ماشية للأمام والخلف وفراؤها منتصب، وهي تضرب الأرض، وتلقي بأغصان وقطع من الشوائب الجافة على منافسيها الجدد.

أجاب بيج بيلي متذمرًا، في حقيقة الأمر أن ذلك الرجل الغوريلا نباتي. ونتيجة لنظام غذائه الضعيف اضطر أن يجلس طوال النهار بدون حركة، بينما تعمل قناته الهضمية الضخمة على هضم الطعام. لكن هذا الوحش

الهائل ذا الأسنان القصيرة، وهيكل عضلاته القوية وارتعاد الإناث عند رؤيته، مثل مصدرًا للخوف أكثر من البيثيسين الهزيلة. فسار متبخترًا في انحناء جاعلًا الأرض وكأنها تترنح، وأحشاؤه الضخمة تهتز. سار ذهابًا وإيابًا أمام حاشيته وفراؤه منتصب، وهو يزأر في القردة الرفيعة الوقحة.

تراجعت البيثيسين وهي تعوي لما أصابها من خيبة أمل.

زحفت فار بعيدًا عن الطريق وسارت متخبطة وهي ما تزال في أعماق هذه الغابة التي لا تنتهي، لكن هذه المرة لم تكن مطاردة من أحد.

لم تستطع أن ترى الشمس مباشرة، ظهر فقط ضوء مخضر متناثر في طريقها، ولم تعلم مقدار الوقت الذي قضته في الغابة، أو مدى بُعدها. والجرح العميق في كتفها قد غطته طبقة من القشر، لكنها فقدت بعض الدم. ورأسها يؤلمها من أثر الضربة التي تلقتها بصخرة، ولا يزال صدرها وظهرها مثقلين بالكدمات. وتشعر بصدمة لفقدان والدتها وقبيلتها الصغيرة، التي كانت كل عالمها. وبدأت تعتريها الحيرة.

أحست بالتعب الشديد.

وفي النهاية تعثرت في جذر، فسقطت عند جذع شجرة سرخس لينة، وسعف ملطخ بالوحل.

حاولت أن تجبر نفسها أن تنهض، لكن بدت ذراعاها بلا قوة، فلجأت إلى كفيها وركبتيها، وتلاشى اللون الأخضر الداكن من العالم وتحول إلى لون رمادي. وبدا لها أن الأرض تميل، تنزلق من تحت رجليها، فسقطت منكبة على وجهها.

شعرت بالأرض باردة تحت وجنتها فأغمضت عينيها وهي تتألم من أثر كدماتها وجروحها التي بدأت لا تشعر بها، لكنها وخزتها من وقت إلى آخر. تملك رأسها ضجيج ورتابة وصخب، لكن بطريقة ما أراحها ذلك. تركت نفسها تغرق في الضوضاء.

بعد أن أصبح كابو أكبر المختلفين عن فصيلة القرود، كانت أنواع القردة الجديدة التي ظهرت من الهومينيد التي انحدر منها الإنسان، كانت أقرب إلى الإنسان، أكثر منها إلى القرود والغوريلات.

علمت أن المشي في انتصاب أسهل ما في تطور الهومينيد. تكيفت سلالة كابو على حياتها الجديدة بين الغابة والسافانا لتصبح من ذوات القدمين، مما تطلب — بالفعل — بنية جسدية أقل من التي تحتاجها ذوات الأربع.

أصبحت أقدامها — التي لم تعد بحاجة إلى أن تتمسك بأفرع الأشجار — وِسادات مكتنزة مبسطة وفقدت الكثير من ليونتها، ولم يعد إصبع الرجل الكبير يشبه إبهام اليد، بل عملت أقدامهم المقوسة الجديدة كماص للصدمات، فهي تمكنهم من السير مسافات طويلة بدون أذى، ومفاصل الركبة وعظام الفخذ أعيد تصميمها لتتحمل الأعباء الجديدة للوقوف منتصبًا. وأصبح العمود الفقري أطول، وتنوس لدفع مراكز الثقل إلى الأمام، ومن ثم تتحملها الأقدام، على خط وسط الجسم العمودي. وظهرت مفاصل أوراك بشكل خاص لتمكنهم من رفع قدم من على الأرض دون فقدان التوازن، مثلما كان الحال مع القردة، وبذلك تمكنوا من السير بدون ترنح، ولم تعد أيديهم تحتاج إلى مساعدة للتحرك، ومن ثم أصبحت أكثر مرونة، وأصبحت مفاصلها أرفع وإبهامهم حرًّا لاستخدامه في الإمساك المعقد والرقيق. وأصبحوا أقل قوة، ولم يعد عليهم أن يتشبثوا بالأشجار طوال الوقت.

ساعدت ذوات القدمين قرود السافانا الجدد في السير والركض لمسافات طويلة، من بين أماكن وجود مصادر الطعام إلى أماكن الحماية، وبذلك تمكنوا من الوصول إلى الثمار والتوت على ارتفاعات كبيرة. ومع مرور الوقت استقامت قاماتها، وأصبحت أطول، وخضعت إلى نفس الضغوط التي شكلت الزراف. كانت لذوات القدمين فائدة رئيسة وهي أنها تطورت بالاعتماد على ذاتها، بالرغم من أن تلك المخلوقات ستنقرض قبل ظهور الإنسان بكثير.

بدت البيثيسين الهزيلة التي طاردت فار تشبه القرود معتدلة القامة، فالقرود أكثر اعتدالًا من كابو، أو أي نوع من القردة. لكن الرأس تشبه رءوس القرود العليا ذات خطم بارز، وجزء علوي للرأس صغير وأنف مسطح. وقفتها مقوسة، فالرأس تنحني إلى الأمام، وأذرعها طويلة، غالبًا ما تصل إلى ركبها. وعندما تسير عليها أن تقطع خطوات أكثر من التي

تخطوها فار في نفس المسافة، ولا تستطيع أن تتحرك أسرع. لكن خطواتها في المساحات القصيرة مناسبة.

تمسكت بأطراف الغابة، لكنها تعلمت أن تستغل موارد السافانا، وخاصة أشلاء الحيوانات آكلة العشب العملاقة، التي افترستها الحيوانات المفترسة. فعندما تحين الفرصة فإنها تتدافع من أماكنها في الغابة إلى الجثة ممسكة بأدواتها البسيطة، وتقطع أوصالها وأوتارها. وتؤخذ الأوصال سريعًا إلى الغابة الآمنة للتقطيع ثم الالتهام، وتستخدم المطارق الحجرية، لكسر بقايا العظام من أجل النخاع.

كل ذلك جعل البقاء للأذكى. تفتقر الهومينيد إلى أسنان الضباع أو إلى مناقير طيور الجيف، فالبحث عن الطعام بشكل فعال يتطلب أدوات أفضل من الأدوات البدائية التي استخدمها كابو. وأجسامها أصبحت أفضل في التمثيل الغذائي للحوم. أنواع كثيرة من البيثيسين لها أسنان تمكنها من تمزيق لحوم نيئة وجهاز هضمي يعمل بكفاءة أفضل، يستطيع أن يتعامل مع تلك الأعلاف الغنية.

ظلت على هامش الحيوانات التي تقتات بالقمامة، في أسفل هرم آكلي اللحوم، وعليها أن تنتظر دورها بعد أن تكون الأسود والضباع والنسور قد أخذت نصيبها من الضحية الكبيرة. لم يكن أكل الرفات أو الصيد البدائي العبء الوحيد في السافانا.

أصبحت السافانا جحيمًا مفترسًا، فالفهود والدببة ضارية بما يكفي، وفي السافانا هناك ضباع وفهود مسيفة الأسنان وكلاب في حجم الذئاب. والهومينيد صغيرة وبطيئة وبلا آلية دفاع، وهي تسير إلى خارج الغابة، فكانت هدفًا سهلًا لمثل تلك المخلوقات. بعض الضواري مثل الدينوفليس (من القطط قوية الأسنان) تعلمت اصطياد الهومينيد بمهارة.

ظلت تُستنزف بلا رحمة، وتلتهم بلا هوادة، لكن الهومينيد استجابت، فاستطاعت أن تدرك سلوك المفترس، وكيف تحتمي بمخبأ آمن. تعلمت التعاون فيما بينها؛ لأن الأمان في كثرتها، واستخدمت الأدوات لإبعاد المعتدين. حتى إن اللغة تطورت، بشكل جزئي نتيجة تلك المتطلبات. فصرخات الإنذار القديمة التي دوت في الغابة، تطورت ببطء إلى عبارات أكثر مرونة.

تدخلت السافانا في تشكيل الهومينيد، لكنها لم تكن صائدة بل الفريسة.

ظل للبيثيسين نقاط قصورها، فاحتاجت إلى مخبأ الغابة كقاعدة لها، لأنها غير مهيأة للصمود طويلًا خارج الغابة، ارتبطت أجسامها بالأنهار والبحيرات والمستنقعات، لأن أنسجتها قليلة الدهون، ولا تستطيع أن تصمد فترات طويلة بدون المياه.

لكن بمرور الوقت فضلت البيثيسين الانتشار، حيث يغير مناخ أفريقيا طبيعتها، وفي بيئة ليست إلا تكتلات من غابات كان هناك الكثير من الحواف، التي أثبتت البيثيسين فاعليتها واستمرارها. وحدثت موجات من أحداث التخصص وتدفقت جموع من القرود العليا.

تخلت الغوريلا التقليدية عن مغامرة العيش على أطراف الغابة، وتوغلت إلى الأعماق الخضراء، وهنا بدأت تستغل موارد الغذاء التي لم ينافسها عليها أحد؛ أوراق الأشجار وقشور الأشجار والفاكهة غير الناضجة غير الصالحة لهضم الهومينيد، والجوز والبذور التي يصعب جدًّا على الحيوانات الأخرى كسرها. وللتكيف على نمط الحياة طورت أحشاء كبيرة مفعمة بالطاقة — مثل البوت بيلي والجايجانتوبيثيسين — لهضم غذائها قليل الفائدة، وطورت هياكل جماجم ثقيلة قادرة على تحريك الفكاك الضخمة بأسنانها التي تشبه الخناجر.

تغيرت حياتها الاجتماعية أيضًا، ففي الغابات الكثيفة حيث أوراق الأشجار وقشورها؛ تعيش مجموعات من الإناث معًا على رقعة واحدة من الغابة، وأصبح الذكور في عزلة، يحاول كل منهم الحفاظ على ما في قبضته من الإناث في إقليمه. لذلك أصبح الذكور أكبر من الإناث، يتمتعون بقسط من القوة البدنية الوحشية، ليتمكن الذكور من إبعاد أولئك الذين يحاولون اغتصاب السلطة منهم.

والغوريلا من بين الأقل ذكاء بين الهومينيد التي عاشت آنذاك، فالأحشاء الضخمة استنزفت طاقتها، ولحفظ توازن الجسم وفي أثناء تكيفها مع ما حولها كان عليها أن تقدم التضحيات في موقع آخر. لم يكن الذكاء ضرورة بين الإناث في أعماق الغابة الهادئة القاتمة، مما جعل العقول الضخمة للغوريلا التي بها دماء كثيرة تضمحل.

لضمان تزاوج ذكر الغوريلا مع إناثه أصبحت خصيتاه صغيرتين، فبالمقارنة كان البيثيسين الهزيل عليه معاشرة كثير من الإناث بقدر المستطاع، لذا احتاج إلى خصية كبيرة متدلية تبرز بسهولة، لإنتاج حيوانات منوية بغزارة.

ظهر بين هذه الأنواع الرئيسة من البيثيسين وقبيلة السيمب الهزيل وأنواع الغوريلا القوية عدد من الاختلافات، فالبعض تمسّك بالسير على قدمين والبعض لم يتمسك بها. والبعض أكثر ذكاء من الآخرين، وبعض قبائل الغوريلا أقل ذكاء من الباقين. وهناك الذين يستخدمون الأدوات الأكثر بدائية من أدوات كابو، وأنواع الغوريلات التي تستخدم أدوات أكثر تطورًا من الحجارة، كالتي تستخدمها البيثيسين الهزيلة. ظهر الكبير والصغير والمختبئون والعداءون والأقزام والعمالقة والمخلوقات الضئيلة المتنوعة في غذائها وآكلات الأعشاب مدببة الأسنان. ومخلوقات بارزة الوجه مثل الشامبنزي وأخرى لها ملامح رقيقة، غالبًا ما تكون شبيهة بالإنسان، وحدث الكثير من التهجين بين الفصائل، فتكاثر الأجناس والهجين من احتمالات تشكيل الهومينيد.

تحير علماء الطبيعة من المستقبل، محاولين ربط هذه الاختلافات معًا من أجزاء الحفريات والأدوات الحجرية، التي توضح شجرة السلالة والمسميات، ووضع تصور لأنواعها: *Kenyanthropu platypus*، أو *Orrorin tugenenis*، أو *Australopithecus garhi*، *africanus*، *afarensis*، *bahrelghazali*، *anamensis*؛ أو *Ardipithecus ramidus* أو *Paranthropus robustus*، *boisei*، *aethiopicus*، أو *Homo habilis* — (جميعها مسميات لسلالات الإنسان، التي عاشت في أماكن متفرقة في أفريقيا على اختلاف تطورها) — لكن القليل من هذه الأسماء يطابق الواقع، وبالإضافة إلى ذلك فإن الحدود الفاصلة بين هذه الأنواع من المخلوقات واضحة. وبالطبع في العالم الحقيقي لم تكن هذه المسميات ذات أهمية، ولم يكن هناك سوى أفراد يكافحون من أجل البقاء، ولزيادة ذريتهم كما هو الحال دائمًا.

أغلب هذه الأنواع سوف تنتهي مع الوقت، وسيلتهم عظامهم الضعيفة نهم الغابات الخضراء إلى الأبد. ولن يستطيع الإنسان معرفة كيف يعيش في

عالم مثل هذا، مزدحم بأنواع مختلفة متعددة. كانت حلقة تطور مكتملة، تطورت فيها الكثير من الأنواع من قاعدة ناجحة.

لكن هذه الأنواع التي لا تحصى لم يكن لها مستقبل، لأن كل سلالات القرود العليا تمسكت بالعيش في الغابة، فظللن أصابع أيديها وأصابع أقدامها طويلة ومقوسة، لتساعدها على الإمساك بجذوع الأشجار، وأرجلها الغريبة تُعد حلًّا وسطًا بين متسلقي الأشجار المتبخترين وذوات القدمين. في المساء يتخذون قمم الأشجار أوكارًا، مثل أسلافهم الذين عاشوا في الغابة. لم تتطور عقولهم أبدًا عما كان عليه حجم عقل كابو وغيرها من أبناء عمومتها، أو أسلاف الشمبانزي، لأن نظامها الغذائي المنخفض الفائدة لا يمكن أن يساهم في أكبر من ذلك.

على مدار أربعة ملايين عام ظلت البيثيسين ذات ازدهار واسع ومتنوع، في شجرة الهومينيد، وذات وقت كانت الهومينيد الوحيدة في العالم هي القرود العليا، لكن وقت التغير الجوهري كان قد انتهى بالفعل. انجذبوا إلى مأوى الغابات وحمايتها، ونتج عن ذلك ضياع كثير من فرص تطورهم. فالمستقبل يقع على عاتق مجموعة أخرى من الهومينيد، المنحدرة من البيثيسين، التي — على خلاف أي منها — حسمت بقاءها بعيدًا عن الغابة.

فار هي المستقبل.

٣

عندما فتحت عينيها بتثاقل، رأت رقعة قذرة من الأرض أسفل رأسها، فرفعت رأسها ولمحت ضوءًا مبهجًا، يسطع من بين جذوع الأشجار الكثيفة.

أخذت تدفع وتضغط على الأرض، ثم رفعت جسدها إلى أعلى. والتصقت الأوراق والقاذورات بصدرها وكتفها الجريح، ثم أمسكت بفرع شجرة، حتى تتمكن من الوقوف في وضع مستقيم، وظلت واقفة حتى انتظمت ضربات قلبها، ثم واصلت المشي قدر استطاعتها وهي تترنح وعبرت الغابة باتجاه الضوء.

أخذت تتعثر في مشيها طوال النهار، ورفعت يدها لتحمي عينها من الشمس الحمراء المنخفضة، كانت الأرض محرقة ومتصدعة وجافة،

والحشائش سوداء اللون، لكن بعد ارتفاع بسيط رأت مياهًا تتلألأ، كان ذلك نهيرًا يتدفق ماؤه من تلال متآكلة على مسافة ليست ببعيدة.

إنها لا تعرف هذا المكان، فقد أتت مباشرة من رقعة الغابات الممتدة من الشرق إلى الغرب.

خطت إلى الأمام بحذر شديد. ما زالت الأرض المحترقة ساخنة، وهنا وهناك أشجار لا يزال الدخان يصعد منها وأنصال الحشائش المجعدة تجرح قدميها. وفي القريب العاجل سوف تصبح رجلاها القذرتان نتيجة المشي في الغابة مغطاتين بالسخام، شديد السواد.

ووصلت إلى المياه، وجدت النهر صافيًا وسريعًا، جرى فوق سفح محاط بحصى بركاني، وبعض النباتات المسودة اللون تطفو على سطحه. غمرت وجهها بالماء، وشربت بنهم. وغسلت جلدها من القاذورات والدماء الجافة، ثم أخذت رائحة الدخان المتبقية في أنفها وحنجرتها تتلاشى.

وإذا بها تسمع صوتًا، كان نداءً، كلمة. لكنها لم تكن تعرفها.

فاندفعت إلى خارج المياه، وألقت بنفسها خلف صخرة متآكلة. في عالمها يُعد الغرباء أمرًا سيئًا. ومثل أبناء عمومتها من البثيسين كان الأفراد المرتحلين مصدر خوف شديد.

رأت شخصًا منكب على الأرض، ويداه تستكشفان بذكاء التربة المحترقة، بحثًا عن أي فضلات تكون النيران قد تركتها. وهو شاب أملس الجلد وذو شعر سميك.

التقط سحلية غشّاها السواد من آثار النيران، متيبسة وثابتة. شق جلدها المتفحم بنوع من الحجارة المُشكلة، التي لم يكن شكلها مألوفًا لها، فكشف عن قطعة ضئيلة من اللحم الوردي الذي ابتلعه بسرعة. ثم وجد أفعى محترقة بشدة ومتصلبة، حاول أن يقطع جلدها المحترق، لكنه كان قاسيًا، فألقى جثة الأفعى الصغيرة بعيدًا.

ثم وجد الرجل كنزًا حقيقيًّا، سلحفاة نضجت في درقتها، فالتقطها وأدارها وهو يتمتم. أخذ الرجل أداته المحمولة في يده، وهي رقاقة حجرية مثلثة الشكل تعمل على كل الأوجه، وحادة من كل الحواف، أدخلها عند بداية رقبة السلحفاة، وحاول فتح الدرقة بمجهود بسيط، وسرعان ما استخدم

الأداة لتقطيع اللحم. شكلت السلاحف هي الفريسة المفضلة لدى صيادي البيثيسين، فهي واحدة من حيوانات السافانا القليلة الأصغر من الهومينيد، ولم تكن عادةُ السلاحف في الاختباء في باطن الأرض تنقذها من الحيوانات الماهرة القادرة على دفعها إلى الخارج بالعصي، الذين يملكون أدوات قادرة على فتح الدرقات الصعبة، أقوى من أسنان الأسود والضباع.

انبهرت فار بفأس الرجل الحجرية، بحوافها المتشكلة التي تعمل على نحو ممتاز، فقد اختلفت جدًّا عن أحجار قبيلتها، والرقائق الحجرية للبيثيسين، لكنها فهمتها على الفور، وشعرت برغبة في أن تندفع ناحيته وتأخذ تلك الجوهرة الحجرية، لتجربها بنفسها.

وخلال مدة معرفتها بذلك الرجل كانت دائمًا تربط بينه وبين الأداة الحجرية، التي استخدمها باحتراف وبراعة. فسوف تفكر فيه على أنه آكس (بلطة).

فجأة نظر آكس مباشرة إلى عيني فار.

تكورت إلى الخلف وراء صخرتها، لكن ذلك جاء متأخرًا جدًّا.

تذمر الرجل وأسقط السلحفاة، فقعقعت درقتها على الأرض الحجرية، ورفع فأسه الحجرية.

لا يوجد أي مكان يمكنها أن تركض إليه، فوقفت. شعرت أن نظراته تحوم حول جسدها، ما زالت أردافها وظهرها رطبة من أثر الجدول المائي، أنزل الرجل الفأس، وابتسم لها، ثم عاد إلى سلحفاته واستمر في تقطيعها خارج درقتها.

سُمعت نداءات من مسافة بعيدة.

رأت أناسًا كثيرين، قومًا مثلها، بالغين وأطفالًا أجسامهم نحيفة مستقيمة، يتحركون مثل الظلال فوق السهل الرمادي. يستكشفون غابات صغيرة، بها أشكال ملتوية سوداء. كان ميلاد قطيع من الظباء، العديد من تلك المخلوقات غير المحظوظة تعمل باجتهاد على تربية عجولها، لم يكن في استطاعتها الهرب من النيران. أما الآن فالأفراد يقطعون الظباء بفئوسهم الحجرية الرائعة، ومن مكانها استطاعت فار أن تشم الرائحة اللذيذة للحم الناضج. ألقى آكس السلحفاة وركض نحو قبيلته.

خفق قلب فار، المزقة بين التصرف بحذر والشعور بالجوع، فبدأت تركض وراءه.

حل الليل سريعًا كالمعتاد، تجمع الناس عند تجويف صخري، التماسًا لبعض الحماية من حيوانات الليل المفترسة.

لم تجد فار مكانًا تذهب إليه فاتبعتهم.

إنها لا تستطيع قضاء ليلة بمفردها، وهي تدرك ذلك. وشعرت بعيون صفراء باردة تتعقبها، تعرف أنها دخيلة على تلك المجموعة، لم تكن تحت حمايتهم بمعنى الكلمة، كانت هدفًا، مثل كبار السن والصغار جدًّا والمرضى.

لم يطردوها بعيدًا، ولم يرحبوا بها أيضًا، لكنها عندما انزوت بنفسها في زاوية التجويف الفسيح، رابضة على بقايا اللحم التي حصلت عليها من إحدى الجثث المحترقة، تحملوا وجودها.

نظرت إلى رجل يضرب قطعة من الصخر. كان الرجل مسنًّا، في أواخر الأربعينات، نحيلًا، ذا عين واحدة والأخرى مغلقة بندبة قبيحة، جلس طفل وطفلة عند قدميه. لم يكونا أصغر بكثير من فار، ظلا يشاهدان ما يفعله سكار (الرجل ذو الندبة)، ويحاولان بأحجار كبيرة غير متقنة يحملانها في أيديهما الصغيرة تقليده. دقت الفتاة إبهامها، فأطلقت صرخة ألم. فقام سكار وأخذ الحجر من يدها بصمت، وأرشدها كيف تُمسك الحجر بشكل أكثر فاعلية، لكنه أحس بغيرة الصبي الذي وكز الفتاة، ليسقط الصخرة وصاح: «أنا ... أنا».

عندما اشتد الظلام لجأ كثير من الناس إلى الاستمالة اللطيفة الصامتة، العادة التي اكتسبوها من الغابات. داعبت الأمهات الأطفال، الرجال والنساء، يلعبون بسياسة صامتة، مراعين التحالفات والتدرجات، وفي بعض الأحيان تحولت الاستمالة إلى علاقات صاخبة.

إن فار من الغرباء، لذلك تم استثناؤها من كل تلك الملاطفة. فغرقت في النوم، وهي متعبة وجسمها يؤلمها، وكانت عين آكس عليها.

عندما استيقظت كانت السماء خارج التجويف شديدة الصفاء.

خرج الجميع، تاركين وراءهم قليلًا من فتات الطعام، ورُقعًا من غائط الأطفال، وعلامات بول رطبة.

وقفت على أقدامها سريعًا. كانت الكدمات بظهرها وصدرها قد اتحدت في كتلة ألم واحدة، لكن جسدها الشاب يقاوم ويُنحِّي بعيدًا آثار الدمار الذي عانته أمس، وظل رأسها واعيًا تمامًا. فأسرعت للخروج إلى الضوء.

سار الناس إلى الشمال باتجاه بحيرة، مثل ظلال نحيلة مستقيمة تسير بهدف، وغيمت الحرارة عليهم، فركضت فار وراءهم.

كان ساحل البحيرة مزدحمًا، ووجدت فار عددًا كبيرًا من أنواع الفيلة ووحيدي القرن والخيول والزراف والجاموس والأيائل والظباء والغزلان والنعام. وفي الماء سبحت التماسيح والسلاحف، ورفرفت الطيور فوقها بشكل صاخب. تركزت آكلات العشب العملاقة حول المياه، فدمرت الطبيعة الخلابة في ذلك المتسع الموحل، تعرجت الدروب العريضة التي يسيرون عليها في كل اتجاه حول البحيرة، وفوق الأرض الصلبة المحيطة بالبحيرة لا ينمو شيء، سوى القليل من أنواع النباتات القوية، كريهة الطعم للفيلة ووحيدي القرن، التي استطاعت التعافي بسرعة من أثر الدهس عليها.

تحرك الناس نزولًا إلى المياه، وقد اختاروا مكانًا قريبًا من قطيع الفيلة. الجميع يعلم أن الحيوانات المفترسة تتجنب الفيلة. وتجاهلت الفيلة وجود الناس، فاستمرت في مهامها المعقدة. اتجه البعض إلى المياه، وهم ينثرون المياه ويلهون بصخب، وقامت مجموعة من الأبقار بالخوار بشكل غامض، وتعالت صيحات الذكور، وتصادمت القرون الضخمة. كانت تلك الحيوانات الهائلة التي تشكل الطبيعة الخلابة شرائح من العضلات والقوة.

عملت أغلب النساء عند حافة المياه، ورأت فار إحداهن وهي تُخرج وكر سلحفاة المياه العذبة، كان بيضها الطويل ينكسر بسرعة، وتُؤكل محتوياته. وحصدت النساء الأخريات حيوان بلح البحر الذي ظهر بوفرة في المياه الضحلة، وخاصة بطلينوس المياه العذبة.

رأت فار أن آكس مثله مثل أغلب الرجال قد غاص في المياه. حمل رمحًا خشبيًّا ووقف في سكون شديد، وعيناه تركزان على سطح المياه اللامع. وخفق قلبه، ثم اقتحم المياه برمحه، فعلقت السمكة فيه بإتقان، تلوى جسدها الفضي. صرخ آكس وجذب السمكة من سن الرمح، وألقى بها إلى الشاطئ. رجل آخر، أبعدَ بقليل، تعقب طائرًا من طيور الماء على السطح،

قفز الرجل لكن الطائر أفلت بعيدًا، وسط رشرشات مياه هزلية كثيرة، وصياح.

انضمت فار إلى النساء.

وبسرعة وجدت سرطان البحر يزحف باستقرار على طول قناة وَحلَة. ومن السهل الإمساك به، فأمسكته وقلبت رأسه إلى أسفل، ولوت سيقانه ذات المخالب، على نحو غير متقن. واستخدمت حجارة لفتح درع الرأس، الذي في حجم الصحن. في الداخل بالقرب من المقدمة وجدت مجموعة من البيض، تشبه حبوب الأرز السمينة، فأخرجتها بأصابعها وابتلعتها. كانت النكهة قوية جدًّا، مثل السمك الزيتي. إن استخراج باقي لحم السرطان عسير جدًّا، ألقت الدرع الأعلى المهشم بعيدًا، وتحركت بحثًا عن المزيد من الطعام.

مر النهار ببطء على تلك الحال، والناس يعملون على تحصيل غذائهم، إنه نوع آخر كانت السافانا تزدحم به.

وباقتراب منتصف النهار، تحرك الهومينيد بعيدًا عن المياه، في حالة من الراحة والتشبع.

لكن آكس تحرك بمفرده، وسارت فار خلفه. فحدق فيها ثانية. وهي تعلم أنه يدرك أنها تتبعه.

وصل آكس إلى حافة جدول جاف به حصى بال. سار صعودًا ونزولًا السفح وهو يستكشف الصخور، حتى وجد ما يريده: قطعة حصى بحجم قبضة يده، مسطحة ومستديرة، فجلس القرفصاء على شاطئ الجدول، ونقب حتى وجد مطرقة حجرية ملائمة، ثم أحضر أجمة جافة ونثرها على ساقيه للحماية، وأخذ يعمل، وينقر في قلب الحصاة التي انتقاها. وسريعًا ما تطايرت الرقائق بعيدًا والحصاة تفرقع على نحو سريع.

جلست فار على بعد عشرة أمتار، وطوت رجليها أمامها، واحتضنت ساقيها، وأخذت تنظر منبهرة بصناعة الأداة، التي لم تكن مثل أي شيء شاهدته من قبل.

في الحقيقة كان آكس وفار قد كبرا على تقاليد صناعة الأدوات، التي تفصلهما عنها آلاف السنين.

عندما ترك الجميع الأشجار خلفهم تحركوا إلى الأمام نحو السافانا. انفتح خط جديد من الإمكانات للذين كانوا يسيرون، لم تكن حركتهم للانتقال فحسب، إنهم يهاجرون، لكن بدون هدف. كانت هذه الهجرة لكل فرد طلبًا للعيش فقط. كان من السهل لأناس قادرين على استكشاف أماكن طبيعية جديدة أن يسيروا إلى مكان ما يبدو أفضل للعيش، مقارنة بمحاولة التكيف مع الظروف القاسية.

لكن أجيال البشر المتعاقبة شغلت آلاف الكيلومترات، لدرجة أنهم ساروا من أفريقيا إلى أراضٍ لم تطأها أقدام هومينيد من قبل. قبل أن تطبق الطبقة الجليدية الضخمة قبضتها تمامًا، انتشرت ظروف متساوية خارج أفريقيا إلى جنوب أوروبا والشرق الأوسط وجنوب آسيا. عبر الناس إلى ذلك المحيط المألوف، واتبعوا أسلوب العيش السهل على الساحل، غربًا حول البحر المتوسط وباتجاه الداخل، وفي النهاية استعمروا إسبانيا وفرنسا واليونان وإيطاليا. كما قامت بعد ذلك الحيوانات التي عاشت في أفريقيا مثل: الفيلة والزراف والظباء. وتحركوا نحو الشرق، فتوغلوا عبر الهند إلى الشرق الأقصى، وانتشروا فيما أصبح الصين فيما بعد، وتوغلوا جنوبًا، حتى إندونسيا.

لم يكن ذلك غزوًا. انتشر نوع فار باتساع أكثر من أي فصيلة قرود عليا أخرى، لكن الحيوانات الأخرى مثل الفيلة انتشرت أبعد من ذلك، وتبقى القليل منها. وعلى سبيل المثال: ظلت أعدادها في أي منطقة أقل بكثير من الأسود. ورغم امتلاك الناس للأدوات فقد ظلوا حيوانات كبيرة على الساحة ليس أكثر، حيث كان تأثيرهم ضئيلًا.

لم يكن ذلك التجول بدون هدف. فواحدة من جدات فار البعيدات كانت قد وصلت حتى فيتنام، أما في عصر فار فقد أعادت المصادفة والسير اللانهائي نسلها إلى شرق أفريقيا، حيث الموطن.

لكن — في الوطن القديم — ضغوط جديدة تنتظر المهاجرين العائدين.

فبعض سكان الهومينيد اختاروا ألا يتحركوا، بالرغم من غدر الطقس المتقلب. ومن أجل البقاء اضطروا أن يصبحوا أكثر ذكاء. وأن يكون معهم أدوات أفضل، وعلى وجه الضرورة، الفأس اليدوية التي شكلت مفتاح النجاة لهم. كمن سر الفأس في شكلها الذي يشبه الدمعة. فالشكل الثنائي

الأوجه المسطح يعطي حافة طويلة القطع ووزنًا أقل. وبالرغم من استمرار المجموعة في استخدام أدوات كأدوات البيثيسين البسيطة — إذا احتاجوا إليها — فإن الرقائق سهلة الصنع، وغير مكلفة، وهي بالفعل أفضل لأداء بعض المهام، مثل الإمساك بالفرائس الصغيرة، والفأس اليدوية لم تكن تُستخدم فقط لقطع اللحم، لكن في تقطيع الأعواد من الفروع السميكة، وشحذ الرماح الخشبية، وفتح خلايا النحل، والحفر في الخشب للحصول على اليرقات، وتقشير لحاء الأشجار، وتمزيق اللب، وفتح درقات السلاحف البرية والسلاحف البحرية. انحدر آكس من مجموعة من الذين ظلوا في موطنهم.

وذلك هو السبب في أن فار، وهي من سلالة الرحل الذين عبروا إلى جنوب أوراسيا حتى الشرق الأقصى، وجدت نفسها في مواجهة آكس وفصيلته، ذات التكنولوجيا المتقدمة.

عمل آكس بصبر، وبينما نظراتها تجول حولها لاحظت فار أن السفح الجاف به فئوس يدوية مبعثرة، والعديد من الصخور التي ظنت أنها ليست إلا حصى كانت في واقع الأمر قد تشكلت. تميزت جميعها بالخاصية نفسها، ألا وهي شكل الدمعة، وشُكلت جميعها بطريقة أو بأخرى لتصبح ذات حافة مستديرة.

إلا أن تلك الفئوس غريبة، بعضها متناهي الصغر في حجم الفراشة، بينما بعضها ضخم. وبعضها متكسر، والبعض ملطخ بالدماء، لكن عندما حاولت فار أن تلتقط واحدة من الفئوس الكبيرة جرحت الحافة أصابعها لأنها بالتأكيد لم تستخدم من قبل.

وسار شخص ما نحوها، فانكمشت إلى الخلف.

إنه سكار ذو الندبة، الذي علم الأطفال كيف يكسرون الصخر. نظر إلى فار بنهم شديد، وهو ممسك في يده بفأس ضخمة، كبيرة جدًّا، أكبر من أن تستخدم في الذبح. أخذ يدير الفأس في يده، وهو لا يزال يحدق فيها، ونقر عليها بمطرقة حجرية، وضبط حافتها، ثم مسح بها على ساقه، مزيلًا صفًّا من الشعر الأسود الذي نما عليها. وخلال كل ذلك كان يراقب وجه فار وجسدها، وكان نصف عينه المغطاة يلمع.

لم يكن لديها أدنى فكرة عما يريده، حتى رأت انتصاب عضوه الذكري، يبرز من بين شعر عانته.

قارب آكس على الانتهاء من النصل الذي كان يصنعه في حجم اليد، رفيع وخشن وجاهز، من الواضح أنه أداة وظيفية، صُنعت في دقائق، لكنه عندما رأى ما فعله سكار ألقى بالفأس أرضًا بغضب، ثم نهض مبعثرًا الرقائق، وضرب كتف الرجل صائحًا: «ابتعد، ابتعد».

زمجر سكار وخمد انتصابه. وفي النهاية أمسك آكس بالفأس الضخمة المزينة من يده، وألقى بها على الأرض فطار جزء من حافتها الجميلة. ونظر سكار إلى الفأس الملقاة، وإلى فار، ثم حملق في آكس وانصرف بعيدًا.

ظلت فار جالسة في مكانها وهي تضم ركبتيها إلى صدرها، في خوف وحيرة.

حدق فيها آكس، ثم سار جيئة وذهابًا بطول الجدول الجاف مرة أخرى، وهو ينظر بتحفظ إلى الحجارة. وفي النهاية عثر على كتلة من الحجارة البركانية الثقيلة، التي احتاجت إلى قوة يدين لرفعها. وجلس ثانية، والتقط بضع مطارق حجرية، وبعثر أغصانًا مقطوعة على ساقيه.

بدأ يسحق الصخرة، مظهرًا قوته، فتطايرت الرقائق والصفائح بعيدًا، لكنه وبفضل مهاراته وقوته ظهرت — بسرعة — فأس حجرية على شكل دمعة. وعندئذٍ بدأ يستخدم الأحجار الصغيرة لتشكيل الوجهين المسطحين وإنهاء الحافة، لتصبح نصلًا نهائيًّا.

وحيث إن أولى مجهوداته سهلة، حيث أخرجها من صخرة موجود بها بالفعل، كانت تلك الصخرة الأخرى أكثر صعوبة بكثير. لم يكن يستطيع أن يختار تحديًا أقوى من ذلك، وتعمد اختيارها، وأثناء تلك العملية حرص على أن تراقبه فار.

قام المشاة في الواقع بصنع أدوات مثلها لمدة مائتي ألف سنة، وطوال ذلك الوقت الهائل أصبحت الفئوس أكثر من أدوات، وأكثر من كونها وظيفية.

بالنسبة لآكس كان صنع الأدوات بمهارة هو نوع من المغازلة. حاول أن يُبدي لياقته كرفيق لفار. ويريها برهانًا واضحًا لقوة جسده عن طريق صناعته لتلك الأدوات ودقته ووضوح أفكاره وقدرته على التصور والرؤية،

من خلال التصميم، ومهارته في تحديد مكان المواد الخام، وتنسيقه بين اليد والعين ومهاراته المكانية وإدراكه للبيئة حوله. كل تلك المميزات في رأيه ستُرَغِّبها في أن تنقلها إلى نسلها، ولذلك السبب اكتسبت مثل تلك العروض منطقًا خاصًّا بها، بعيدًا عن المنفعة المباشرة للفأس اليدوية.

إن الرجال والفتيان يصنعون المئات من الفئوس مرارًا وتكرارًا مدفوعين بالرغبة والشوق. ظلوا يعملون لساعات لصنع فأس واحدة في بحثهم عن التناسق المثالي. صنعوا فئوسًا متناهية الصغر، في حجم عقلة إبهام أحدهم، أو أشياء ضخمة غير عملية، تحتاج إلى حملها باليدين مثل الكتاب المفتوح. فإنهم يفعلون مثل آكس، ويبحثون عن المواد الأولية الصعبة ويعملون وينحتون الفئوس في كل الأحوال. وأحيانًا يلقون فئوسهم بعيدًا — عن عمد — لإظهار وفرة قوتهم ومهارتهم.

استحق الأمر عناء محاولة الخداع، كما فعل سكار، إنها لم تكن فعالة في معظم الأحيان، وسريعًا ما تعلمت النساء أن عليهن أن يرين أكثر الفؤوس روعة تُصنع أمامهن، لكن أحيانًا كان ذلك يستحق العناء، وحصل الكاذب على فرصة تمرير جيناته بكلفة منخفضة.

سيكون لذلك الخلط بين صناعة الأدوات والغزل الجنسي تأثير عميق في المستقبل، حيث إنه لا يوجد ذكر لا يمكنه التغاضي عن صنع الفئوس مثلما فعل أسلافه، وهذه وصفة لتسويف مقاومة التغير. إن أولئك الناس سوف يصنعون الأداة نفسها للهدف نفسها مرارًا وتكرارًا، عبر عدة قارات، بالرغم من تعاقب الجليد لملايين السنين. إن الأنواع المختلفة التي جاءت بعدهم استمرت في اتباع نفس التكنولوجيا. إنه تواصل وتناغم لا يوجهه عرف ولا دين. فقط الجنس يتمتع بقوة على عقل البشر لتحقيق مثل ذلك الاتساع الثلجي.

وجب على آكس أن يفكر مثله مثل البشر عندما كان يصنع أدواته. وبعكس الفأس الحجرية لدى البيثيسين الذين كانوا يتقبلون أي شكل وأي حجم للحصى، فإنه من الضروري أن يكون لآكس تصور نهائي في عقله بخصوص ما يصنع. فكان عليه أن ينتقي المواد الأولية والمطرقة الحجرية لتلائم تلك الرؤية، وعليه أن يعمل بشكل منظم باتجاه تحقيق هدفه. لكن

عقله مقسم كما لم يكن عقل إنسان. صنع آكس أدواته مثل الإنسان، لكنه جذب رفيقاته مثل الطاووس أو طير الكوخ.

عندما انتهى آكس أخذ يدير الأداة التي صنعها بين يديه مرارًا وتكرارًا، ليرى فار أوجهها الرفيعة وحافتها متناهية الرقة، كانت رائعة، وإن لم تكن عملية.

ترعرعت فار في ثقافة مختلفة، لم يكن لديها فكرة واضحة عما يفعله، وتحيرت من محاولة الغش التي قام بها سكار كما هي متحيرة الآن. لكنها شعرت باهتمام آكس بها، وانتشر الدفء في بطنها استجابة لذلك. وفي زاوية في عقلها أدركت أنها إذا تزاوجت مع آكس، وإذا أصبحت حاملًا، فستصبح جزءًا من تلك المجموعة، ويصبح مستقبلها مُؤمّنًا.

لكنها لم تمارس الجنس قط مع أي أحد، جلست عند حافة سفح الجدول بلهفة وخوف، وما زالت ساقاها مضمومتين إلى صدرها. لم تكن تعلم كيف تستجيب.

وأخيرًا ألقى آكس الفأس الجميلة وعددا من الأشياء الأخرى. ونظر إليها وهو متحير ثم مشى بعيدًا.

إن التشكل التطوري — وهو عملية نشوئية يظهر من خلالها جنس جديد — حدث نادر.

لم تتحول فصيلة إلى أخرى بسهولة. لكن التشكل التطوري اعتمد على مجموعة من الحيوانات التي انعزلت بعيدًا عن التجمع السكاني الأكبر، ووضعت تحت ضغط ضرورة البقاء. إن العزلة من الممكن أن تكون بدنية، كانعزال مجموعة من الفيلة نتيجة لفيضان، أو يمكن أن تكون سلوكية كأن تتبنى مجموعة من الهومينيد طريقة محددة للاقتيات، وتتجنبها مجموعة أخرى.

يكون الاختلاف داخليًّا في موروث كل الأنواع. كما لو كانت كل الأنواع في أي وقت محدد متضمنة في حقل ومحاطة بالحدود السكانية البيئة، فكل اختلاف فعال سيكون له دور لملء كل زاوية متاحة في الحقل. وكانت المجموعة المنعزلة حبيسة زاوية السياج في الحقل، ربما سقط جزء من

السياج الخارجي، مؤديًا إلى حقل جديد خال، بدءوا ببطء يندمجون فيه. إن الاختلافات الكثيرة قد تكون ضرورية لملء المساحات الجديدة المتاحة، وإذا كانت الاختلافات غير متاحة في الموروث فربما يمكن أن تتولد بالتغيير.

في النهاية فإن الذين وصلوا إلى أبعد زاوية في المدى الجديد ربما يكونون قد قطعوا مسافة أكبر جينيًّا من أولئك الذين بقوا في الحقل القديم. فإذا أصبحت المسافة كبيرة على الأنواع القديمة والجديدة، فتولد أنواع جديدة. فيما بعد عندما تنهار الحواجز العازلة، فإن الأنواع المطورة ربما تتفاعل مع فصيلة الآباء، وربما تحل محلهم.

قبل نحو ثلاثمائة ألف عام في جزء آخر من أفريقيا عاشت مجموعة، يصعب وصفها، من البيثيسين على حافة الغابات انقطعت عن موطنها نتيجة تدفق الحمم، فطُردوا خارج غاباتهم بشكل نهائي.

واجهتهم الكثير من التحديات. إن عادات البيثيسين القديمة في الصيد على حافة الغابات شكلت البداية، أو شيئًا يعتمد عليه. لكن خارج السافانا كانت موارد الطعام مختلفة تمامًا عن تلك التي في الغابة. فبينما زودتهم الغابات بموارد ثابتة من الفاكهة، تمثل الغذاء الرئيسي في السافانا في اللحم. كانت اللحوم ذات جودة غذائية عالية، لكنهم حصلوا عليها في مجموعات مبعثرة متناثرة على أرض جافة قاسية، حيث يجب أن تستخدم الذكاء لاكتشافها والحصول عليها وأكلها. وخارج السافانا بعيدًا عن حماية الأشجار كان من الضروري توافر نوع جديد من الأجسام يمكن أن تتحمل الجفاف والحرارة، أنواع جديدة من السلوك لاستخراج الموارد الضرورية من البيئة الجديدة، للبقاء في جحيم الحيوانات المفترسة.

فخلال عشرات الأجيال تكيف أسلاف فار بشدة.

أعيد تشكيل تصميم أجسام الرئيسيات القديمة، فامتد طولًا تقريبًا إلى حد أبعاد البشر. أصبح جسد فار أكثر ضخامة من أسلاف القرود العليا، ووزنها ضعف وزن البيثيسين البالغ الرشيق. إن تلك الضخامة كانت تكيفًا مع المساحة الواسعة؛ فالجسد الأكبر أكثر كفاءة في تخزين المياه، وهي الميزة الرئيسة على السهل، حيث يمكن أن تكون هناك ساعات من المشي بين مصادر المياه.

أصبحت عملية الأيض فعالة أكثر في خلق دهون تحت الجلد وتخزينها، لأن الدهون هي الوقود الاحتياطي الرئيس. فإن عشرة كيلوجرامات من الدهون كافية لتساعدها لمدة أربعين يومًا على العيش بدون غذاء، وكافية لاجتياز أغلب — بل كل — التقلبات الموسمية الحادة. كست الدهون جسدها، فمنحتها انتفاخًا في صدرها وأردافها وفخذيها، فاتخذت شكلًا بشريًّا أكثر من شكل البيثيسين الشبيه بالقرد، لكن فار لم تكن كالكرة، بل كانت طويلة ونحيفة، وجسدها أيضًا مشع للحرارة، وعندما تسطع الشمس من الأعلى فإن جزءًا بسيطًا فقط من جلدها تعرض مباشرة لأشعة الشمس.

من مظاهر التكيف على الحرارة الأخرى وجود رقعة شعر فوق رأسها، ظل جلدها عاريًا تقريبًا، وتعرقت بخلاف كابو، وليس مثل أي قرد من القرود العليا الأخرى خارج فصيلة عائلتها، لأن الجلد العاري من الشعر الذي يعرق أفضل منظم للحرارة للمخلوقات التي تقضي حياتها في ضوء الشمس الاستوائي الساطع. والتعرق ميزة متناقضة، لأنه يعني فقد فار للمياه، لذلك عليها أن تكون على قدر من الذكاء لتتمكن من إيجاد مصادر مياه لتعويض ذلك، وعلى عكس بعض مخلوقات السافانا الحقيقية، كان نوعها دائمًا ما يرتبط بمجاري المياه والسواحل.

سرعان ما تلاشت أكثر الخصائص الشبيهة بالقرود العليا لدى البيثيسين مثل أقدامهم التي تتعلق بالأشجار وأذرعهم الطويلة والانحناء في مشيتهم، فأصبحت أقدام فار مناسبة أكثر للركض والسير وليست للتسلق، وأصبح إصبعها الكبير إصبع قدم عادي، وليس إبهامًا. لكن القفص الصدري لفار كان أعلى قليلًا، وكتفاها أقل عرضًا، وحتى حينها ما زال جسدها يتحلى بآثار تكيفه مع التعلق على الأشجار، مثلما كان يبدو على الإنسان الحديث، وعلى جوان يوسب.

في تلك الأثناء كان عقلها قد نما أكثر من ثلاثة أضعاف كتلة عقل البيثيسين، وغدا أفضل لحل ألغاز الطبيعة الصعبة وتعقيدات مجتمعات معقدة كبيرة من الباحثين عن الطعام في السافانا. وذلك العقل الكبير متعطش للطاقة، لكن نظام غذاء فار أغنى بكثير من أي بيثيسين، فوفرة

الأغذية عالية البروتين مثل: اللحم والجوز تحتاج إلى ذكاء أكبر في جمعها، لذلك كان ذكاؤها مدفوعًا بحلقة فعالة من التطور.

إن كل تلك التغييرات شديدة، تحققت باستراتيجية تطورية للاقتصاد الرائع. كان للتقييم التطوري للتغير توقيت مختلف. إن أطفال المشاة بدوا إلى حد بعيد مثل أسلافهم االقرود العليا، وكأطفال البشر، بجماجم كبيرة نسبيًّا، ووجوه وفكاك صغيرة. إذا أردت أن تكون كابو، فعليك أن تكبّر فكك وتحافظ على عقلك صغيرًا نسبيًّا. لكن عقل فار أصبح كبيرًا، بينما ظل فكها صغيرًا، حتى جسدها كبير الحجم كبر مع مراحل النمو، تميز جسدها بشيء مثل الأبعاد النسبية لكابو جينيًّا، لكن بما يناسب شخصًا بالغًا.

لكن ذلك الجسد كبير الحجم والمخ الكبير له مقابل. لقد وُلدت ناقصة التطور، نتيجة أن رأسها قد اعتُصر في قناة ولادة أمها، فقد وُلدت غير مكتملة. لم تكن مثل القرود العليا والبيثيسين، لم يكن في استطاعة أطفال المشاة جمع الغذاء لأنفسهم حتى بعد فترة طويلة من الفطام، وبعيدًا عن طبيعتهم البدنية غير الناضجة لم يكن لهم القدرة على استغلال مصادر الطعام، مثل: اللحوم التي تم صيدها، وأصداف البحر والجوز سميك القشرة، وهي أشياء لم تكن فطرية لدى حديثي الولادة، ولذلك كان عليهم تعلمها. لكن في الوقت نفسه كان أطفال الكائنات المشاة قد وُلدوا في جحيم حيوانات السافانا المفترسة. لذلك احتاج الصغار إلى كثير من العناية.

إن أولئك الأطفال الاعتماديين والمزعجين في تربيتهم جعلوا من الصعب على أنواع المشاة أن يتنافسوا مع البيثيسين الذين يتكاثرون بسرعة، والذين يشاركونهم العادات نفسها، ولذلك عاش المشاة أطول.

إن أغلب إناث البيثيسين شأنهم، شأن القرود العليا الذين سبقوهم، ماتوا بعد انتهاء خصوبتهم، وفي الحقيقة فإن قليلًا منهن فقط عشن طويلًا بعد آخر عملية وضع. إن المشاة من النساء والرجال عاشوا عقودًا بعد انتهاء مهمتهم الإنجابية. لعب الجدات والأجداد دورًا حاسمًا في تشكيل مجتمع المشاة. فقد ساعدوا في تقسيم العمل، وساعدوا بناتهم في العناية بأطفالهن،

وساعدوا في جمع الطعام، وكانوا مهمين في نقل المعلومات المعقدة للصغار، اللازمة للبقاء.

كل ذلك تطلب كفاءة جديدة في تصميم الجسد. إن أجساد المشاة أفضل بكثير من أجسام البيثيسين في الإعالة وطول العمر، لكن ليس أجهزتهم التناسلية، فمبايض امرأة من المشاة ذات أربعين عامًا تكون متهالكة جدًّا، كما يكون عليه الحال في بقية جسدها إذا عاشت لتبلغ الثمانين.

إن دعم الجدات يعني أن بناتهن يمكن ان يتمكن من إنجاب أطفال أكثر. وبهذا تفوق المشاة على البيثيسين والقرود العليا. وعاش أغلب أطفال المشاة طويلًا بعد الفطام، ولم يحدث ذلك مع كل أطفال البيثيسين.

إن ظهور الشكل الجديد يعد كارثة للبيثيسين، إن المشاة والبيثيسين من ذوي القربى، بحيث لا يتشاركون بيئتهم بسهولة. حدثت صراعات مباشرة بين أنواع الناس: فبعض البيثيسين يطارد المشاة أو المشاة تطارد البيثيسين، لكنهم فرائس شديدة الذكاء والخطورة، بعضهم لبعض، كي تستحق المخاطرة. لكن في عصور تالية سيتسبب المشاة كبار الدماغ ذوو المرونة والحركة في انقراض أبناء عمومتهم ذوي المخ الصغير ببطء.

لم يكن صنع الأدوات والوعي كافيين للبقاء على قيد الحياة آخر الأمر.

بالطبع لم يكن هناك داع لحدوث ذلك، ولولا تقلبات المناخ وانعزال أسلاف فار المفاجئ لما كان هناك بشر، ولم يكن ليبقى سوى البيثيسين المنتصبي القامة الذين يصنعون أدواتهم البدائية ويشنون حروبهم التافهة لملايين السنين، حتى تختفي الغابات تمامًا ويكون مصيرهم الانقراض.

إن الحياة دائمًا محفوفة بالمخاطر.

قضت «فار» الليلة وحيدة تشعر بالبرد، وتنام نومًا مضطربًا.

في اليوم التالي حاولت فار المشاركة في أنشطة المجموعة، وحدقت امرأة حبلى في عينيها، في تحد صريح. هل وجود فار للحصول على غذاء طفلها الذي لم يولد بعد؟

شعرت فار بالعزلة أكثر من ذي قبل. فلم يكن لديها أي روابط مع أي واحد هنا، لم يكن هناك سبب لمشاركتهم لها في ذلك الحيز ولا في مصادر

الغذاء، بالرغم من أن المكان لم يكن يعج بالثروات. وآكس بدا الآن أنه يرفضها.

بعد انتهاء وقت الظهيرة رجعت هي وحيدة إلى تجويف صخرة الحجر الرملي. ودَسّت نفسها عند الزاوية الخارجية.

لكنها لاحظت وجود بعض الكتل الصخرية القرمزية اللون مبعثرة في آخر التجويف. فالتقطتها وقلبتها بفضول. بدت حمرتها ساطعة في ضوء النهار، وكانت رخوة. إنها كتل من أكسيد الحديد الملون، حديد أحمر. ربما انجذب شخصٌ بلونها، وبدافع غريزي أحضرها إلى هنا.

رأت كشطًا أحمر على صخور البازلت المبعثرة في آخر التجويف، بنفس حمرة أكسيد الحديد الأحمر الدامي. وجربت حك أكسيد الحديد الأحمر في الصخرة، ورُوِّعت لرؤيتها أشرطة دموية تنتشر على سطح الصخرة.

لدقائق أخذت تلهو بقطع أكسيد الحديد الأحمر — بدون تفكير — عملت أصابعها الماهرة من تلقاء نفسها؛ لتضيف خدوشها التي بدون مغزى إلى الخدوش التي على الصخرة.

ثم سمعت أصوات الناس وهم عائدون ثانية إلى قاعدتهم المؤقتة، فأسقطت قطع أكسيد الحديد حيث وجدتها، وعادت إلى زاويتها.

لكن راحة يدها أصبحت حمراء لامعة مثل الدم. وللحظة اعتقدت أنها جرحت نفسها، لكنها عندما لعقت راحة يدها تذوقت ملحًا، وزال أكسيد الحديد الأحمر من يدها.

أحمر مثل الدم، ارتبط ذلك مؤقتًا في عقلها، لاحت الفكرة في عقلها.

عادت ثانية إلى قطع أكسيد الحديد. حاولت الرسم بها على ظهر يديها، حيث رسمت شبكة من الخطوط، وعلى جرحها الملتئم بكتفها الذي جعلته أحمر لامعًا ثانية.

تركت آثارًا بين رجليها، جعلت جلدها أحمر مثل الدم، كما لو كانت تحيض، مثلما حاضت أمها من قبل.

عادت ثانية إلى زاويتها، وانتظرت حتى خَفَت الضوء. ولما اقترب الناس بعضهم من بعض، تقوقعت على نفسها وحاولت أن تنام.

اقترب شخص ما دافئ يتنفس بهدوء، إنه آكس، استطاعت أن تشم الرائحة الترابية لشظايا الصخرة العالقة على سيقانه وبطنه. لم تظهر عيناه جيدًا في الظلام، وظل كذلك لوقت طويل. ثم لمس كتفها. كانت يده ثقيلة ودافئة، لكنها ارتجفت. مال آكس نحوها واشتمها بهدوء، كما فعل برو قبل أن تنفصل عن عائلتها.

فتحت رجليها ليستطيع أن يرى الدماء في الضوء الخافت، وجلست في توتر تراقبه.

إن حياتها متوقفة على قبوله، إنها تدرك ذلك. لعل ذلك اليأس والشوق في الأساس هما سبب رغبتها في أن يراها امرأة، وذلك الذي دفعها إلى اللجوء لتلك الخدعة الغريبة.

لم يكن هو مثل أسلافه ساكني الغابة، كان آكس مخلوقًا بصريًّا لا يعتمد على الرائحة، والرسالة من عينيه تجاوزت تحذيرات أنفه، مال إلى الأمام ولامس كتفها وحنجرتها وصدرها، ثم جلس بجانبها، وبدأت أصابعه القوية تمشط شعرها المتشابك.

واسترخت ببطء.

مكثت فار مع آكس وقبيلته بقية حياتها، وكلما استطاعت ظلت تركض، بعد أن اكتسبت حكمة وقوة، وأثناء نمو أطفالها وأحفادها، الذين حمتهم وشكلتهم.

الفصل العاشر

الأرض المزدحمة

وسط كينيا وشرق أفريقيا، مائة وسبعة وعشرون ألف سنة قبل عصرنا الحالي.

١

وجد ببل نبات بطاطا معترشًا فانحنى عليه وأخذ يتفحصه.

ببل في الثامنة من عمره، وقف عاريًا إلا من لطخة حمراء اللون فوق صدره الأسطواني ووجهه العريض. جذب أحد الجذور من أسفل نبات البطاطا، نمت في هذا المكان البطاطا وليس الأعشاب. ومن الأفضل أن يستمر الحال على ما هو عليه.

دبت — من قبل — حياة وعاش أناس في ذلك المكان، قبل مجيئه هو، وربما جاء هو نفسه إلى هنا من قبل. فببلوغه الثامنة كان قد مر على كل بقعة صغيرة من أرض قبيلته، وشيئًا فشيئًا تذكر هذه البقعة المليئة بالحجر الرملي المتآكل الذي عفا عليه الدهر.

وأخذ عصاه الثقيلة، التي يستعملها في الحفر من داخل شق في صخرة، وعلى الرغم من ثقل تلك الأداة، فقد رفعها بسهولة، واستخدم كتلة الصخرة لدفع الجزء المدبب في الأرض الوعرة.

ببل قوي البنيان، ذو عضلات مفتولة وملامح قاسية، ولو كانت فار — جدته التي ماتت منذ قرون — أشبه بالمشاركين في سباقات الجري الطويل لكان ببل مبتدئًا في رمي الكرة الحديدية. ملامح وجهه ضخمة، فهو عريض الجبهة، ذو أنف جبلي ووجنتين عريضتين، مما يجعل وجهه يبدو منتفخًا. وأسنانه متساوية وعريضة، وجمجمته أكبر من جمجمة فار،

تضم مخًّا كبيرًا ومعقدًا — للوهلة الأولى تجد حجمه مثل حجم مخ الإنسان المعاصر — لكن مكان مخه كان خلف وجهه، على عكس مخ الإنسان.

وعند ولادة ببل وهو ما زال مبللًا بماء الرحم كان جسمه ملفوفًا وأملس، يوحي لعقل أمه بصورة غريبة؛ صورة حصاة تآكلت من جراء جريان مياه نُهير. وظل الناس في عهد ببل بلا أسماء، فذلك سيأتي في المستقبل البعيد جدًّا، ولم يكن هناك في مجموعته سوى اثني عشر شخصًا، فلم يكن هناك داعٍ للأسماء. ومع ذلك فإن أم ذلك الغلام كانت عادة ما تنظر إلى صخرة لامعة داخل النهير وتتذكر طفلها حينما كان رضيعًا بين ذراعيها. وهكذا أطلقت عليه اسم: ببل (حصاة).

وفي تلك الحقبة انتشر كثير من الأشخاص الأقوياء مثل ببل في أوروبا وغرب آسيا. وأطلق على الذين يقطنون أوروبا اسم نياندرتال، لكن كما حدث في زمن فار فإن معظم هذه السلالة الجديدة لم يجر اكتشافها أبدًا، أو فهمها، أو توصيفها أو ربطها بشجرة عائلة الهومينيد.

إلا أن جماعة ببل كانت قوية. وفي سن الثامنة من عمره عمل من أجل بقاء أسرته، ولم يكن قد بلغ بعد السن التي تسمح له بمشاركة الكبار في أعمال الصيد، لكن بإمكانه أن يشارك أمهرهم في الحفر لاستخراج البطاطا.

اشتد الهواء قليلًا، وأتى معه برائحة الخشب من الموطن. واستمر ببل في عمله بإرادة قوية.

أدخل يديه في الحفرة التي حفرها بأداته في الأرض الجافة، وبدأ في استخراج جذر سمين يبدو أنه وصل إلى عمق كبير في الأرض، ربما إلى عمق مترين، وعاد مرة أخرى إلى عصاه التي يستعملها في الحفر، وأخذ يحفر، فتطايرت الأتربة وأجزاء من الصخر والتصقت برجله المبللة بالعرق. عرف ما يجب عمله بالبطاطا. فعندما يحصل على الجذر، فإنه سوف يقطع منه الجزء الذي يؤكل، وبعد ذلك يعيد الجذر مرة ثانية إلى التربة لينمو من جديد. كانت عملية الحفر تساعد البطاطا بطرق خفية، فتعمل على خلخلة التربة وتهويتها، وهذا يساعد أكثر في عملية إعادة النمو.

وكم كانت سعادة أمه عندما يأتي إليها بثلاثة أو أربعة جذور سمينة، جاهزة لطهيها في النار، وكان للبطاطا — بجانب تناولها كغذاء — استخدامات

أخرى، مثل وضعها كطُعْم لبعض الحشرات والأسماك، وأيضًا يمكن حكها بالرأس للقضاء على حشرات الرأس: القمل.

سمع صوت شيء يُسحق.

سحب ببل عصاه إلى الخلف وهو خائف. وانحنى إلى الأمام وهو يغطي عينيه من ضوء الشمس الساطع، محاولًا رؤية ما كان في داخل الحفرة، من الممكن أن تكون حشرة تنقب بحثًا عن شيء تأكله، لكنه لم يتمكن من رؤية شيء، سوى قطعة بنية من نبات وكأنها قطعة من الحجر الرملي. أدخل يده في الحفرة ثم نزع الشيء الصدئ وجذبه إلى السطح. كان صغيرًا بحيث يمسكه بكفه، وعندما قربه من وجهه لينظر إليه رأى تجويفين مكان العينين.

إنها جمجمة لرأس طفل صغير.

لم يفزعه ذلك كثيرًا؛ فالأطفال يموتون طوال الوقت في ذلك المكان القاسي. لم يكن هناك — آنذاك — أي مشاعر نحو الأطفال والضعفاء والعجزة.

لكن كل الأطفال الذين ماتوا أثناء حياة ببل القصيرة دفنوا في باطن الأرض بالقرب من الأكواخ. دفنوا بعيدًا عن أيدي الحيوانات التي تقتات بالقمامة. ربما مات ذلك الطفل منذ مدة طويلة، وربما دفنه أهله قبل أن يُولد ببل بزمن بعيد في هذا المكان، حيث تنمو البطاطا.

كانت تلك الجمجمة تبدو رقيقة بشكل غريب وخفيفة. وضعها ببل في راحة يده وتأملها، كان موضع الحاجبين غطاء من العظام، انحدرت منه الجبهة في وضع أفقي تقريبًا. وضع ببل يده على جبهته وقارن الانتفاخ — بَصَليّ الشكل — بجبهته. رأى آثار أسنان على عظام الجمجمة الصغيرة — جراح دقيقة من جراء عضة قط. لكن تلك الأسنان تركت آثارها بعد أن مات الطفل، وألقي جسده على السهل.

لم يكن يعلم أنه يمسك في يده رفات برات شقيق فار التي عاشت وماتت قريبًا من هذا المكان، إن برات كان قد استسلم لنقص الفيتامين ومات وهو ما يزال طفلًا وبدون إثارة أي مشكلة، ربما سيسعد برات لو علم أنه بعد مليون سنة سوف يأتي شخص ريمسك رأسه الصغير بين يديه، وأن هذا الشخص هو أحد أبناء إخوته من بعيد.

كما أن برات لم يكن ليستطيع معرفة أن هذه الأرض هي نفسها التي كان يلعب فيها في يوم من الأيام.

إن البنية الجيولوجية لهذا الوادي — هضبة مليئة بالصخور والجبال البركانية — لم تتغير عبر الزمن، لكنها منذ أن رحلت فار أصبحت مساحة مترامية وجافة، بها أشجار صنوبر مبعثرة وحل نبات الغار محل الشجيرات الكثيفة وغابات الماضي. تغيرت المساحات العشبية كثيرًا وانتشر فيها أنواع مقاومة للحرائق. أما مجتمع الحيوانات الكبير الذي عاش في الماضي فقد انهار، ولم يبقَ فيل ولا ظبي ولا زرافة في هذه التجاويف من الغبار، كأن الحياة تحطمت. استُنزِف المكان تمامًا. أما فار فإنها كانت سوف تروّع من هذه الحالة من الفقر.

لكن رفات برات المسكين ترك علامته على العالم؛ قطعة صغيرة مرطبة حبست في هذا المدفن، المكون من غطاء رث؛ كانت كافية لتثبيت البطاطا.

وبشكل عشوائي أطبق ببل يده. فسُحِقت الجُمجمة وتحولت إلى فتات، وسقط التراب داخل الحفرة. مد يده ليمسك بأداة الحفر، حيث وجب عليه أن يستخرج بعض الجذور من الأرض.

حينها لمح غرباء.

فجثم على الأرض خلف الجرف العالي، وحبس أنفاسه.

رأى صيادين في الحال. يتبعون أثرًا قديمًا للفيلة، والأفيال تمشي ناحية الماء، وحيثما يوجد الماء توجد حيوانات كثيرة، ومن ضمنها تلك المخلوقات متوسطة الحجم؛ مثل الغزلان التي كانت مفضلة لدى الناس.

إنهم أربعة أشخاص: ثلاثة رجال وامرأة واحدة، وهم في مقتبل العمر. استطاع أن يرى أرجلهم وهي تتحرك بقوة، وجذوعهم تميل قليلًا إلى الأمام. أجسامهم قوية، ليست رقيقة ولا سريعة. لم يكن الصيادون يتمتعون بسرعة فار. غطت لحى الرجال أغلب وجوههم وربطت المرأة شعرها بقطعة من الجلد إلى الخلف. وعلى عكس قوم ببل ارتدى هؤلاء القوم ملابس مكونة من قطع جلود الحيوانات وربطوا أشرطة حولها مصنوعة من الجلد وربما من الفرو المجدول. استطاع ببل أن يرى آثار استخدام الأسنان في الملابس، فقد كانوا يصنعون هذه الأشرطة بواسطة تمزيق الجلد بأسنانهم.

حملوا أسلحتهم، وهي رماح خشبية ومعها سهام قصيرة، وكتل من الخشب بطرفها أحجار مثبتة بعقد جلدية. بدت أسلحة عمالقة يصعب على البشر حملها، فما بالك باستخدامها بغضب.

بدو أناسًا أقوياء، مثل جماعة ببل، رسموا على وجوههم وأيديهم وأرجلهم علامات حمراء، بينما كانت زينة جماعة ببل تنساب في خطوط عمودية؛ إشارات وخطوط وشرائط تشير إلى أعلى. إلا أن أولئك ارتدوا نوعًا من القماش المستعرض بدائي يدوي الصنع.

إنهم غرباء ويظهر ذلك من شكل الرسومات التي عليهم، والغرباء عادة ما يأتون بالمشكلات، هذا هو القانون الساري كشروق الشمس وبزوغ القمر.

انتظر ببل إلى أن اختفوا وراء أشجار السنط المتناثرة، ثم بدأ بمنتهى الهدوء يلملم أجزاء جسده الذي تمزق من الخوف مستعدًّا للهروب للمنزل، وترك وراءه عصاه، ودرنات نبات البطاطا.

بدا بيت ببل مثل القرية الصغيرة، فهو يضم أربعة أكواخ كبيرة تقع حول ساحة فسيحة، ومع ذلك فلم تكن قرية بالمعنى المعروف، حيث عاش أهله بطريقة لم يعرفها البشر أبدًا.

وقف ببل في وسط الساحة وهو يلهث. لم يكن هناك أحدٌ غيره، وبالقرب من أحد الأبواب انبعث دخان من نار بلا لهب. وفرشت الأرض بالعظام وبواقي الخضروات والأدوات وأوراق الشجر وأعشاب ولحاء ومشاجب وأوتاد ورماح مكسورة وقطع من الجلد، كانت الفوضى تعم المكان.

الأكواخ بدائية وقبيحة لكنها تؤدي الغرض منها، مبنية من شتلات كثيفة في صورة دوائر غير منتظمة في حفر في الأرض، والمسافات بين الشتلات مليئة بأعواد الروطان وأوراق الشجر واللحاء. ثنيت أعواد الروطان بعضها على بعض ووضعت أسفل المجموعة، وهذه الطريقة هي إحدى طرق النسج التي كان كابو سيتعرف عليها منذ خمسة ملايين سنة لأنه نسج عشه بالطريقة نفسها تقريبًا، فكل اختراع ظهر نتيجة حاجة اعتمد على ما سبقه من تجارب.

بدت الأكواخ عتيقة وموجودة منذ زمن طويل، حيث تتوارثها الأجيال. امتلأت الأرض تحت أقدام ببل بعظام أجداده، الذين شعروا بالأمان في هذا المكان، هذه بيوتهم، وهذه أرضهم.

لكن ببل شعر أن كل شيء قد يتغير.

رفع رأسه نحو السماء وصاح: «أو لو لو لو»، تلك هي صيحة الخطر والألم، أول صيحة خطر يتعلمها أي طفل بعد تعلم صيحة طلب الطعام.

أسرع أفراد القبيلة نحو الصوت، من الأكواخ ومن الأرض البعيدة — حيث كانوا يبحثون عن الطعام ويصطادون — وتجمعوا حول ببل بخوف، كانوا اثني عشر شخصًا، ثلاثة رجال وأربع نساء وثلاثة أطفال: ببل وطفلان رضيعان تُمسك بهما أماهما بخوف.

حاول أن يخبرهم بما رأى، وأشار إلى المكان الذي رأى فيه الغرباء، ثم جرى بضع خطوات جيئة وذهابًا، «آخرون ... آخرون ... صيادون!» ثم بدأ يشرح، مُلوحًا بيديه ومتنفسًا بصعوبة، في محاولة لتقليد طريقة مشي الصيادين الأقوياء، حتى إنه حاول محاكاة كيف سيحطمون الرءوس بقبضاتهم القوية.

ونفد صبر مشاهديه. فاستداروا ومشوا بعيدًا كأنهم يرغبون في الرجوع إلى الأكل والنوم. لكن رجلًا بين الحضور تابع ببل وراقب أداءه بعناية شديدة، وهو رجل قوي البنيان، ووجهه مشوَّه من أثر حادث قديم في طفولته دمر أنفه وجعله أفطس، إنه فلاتنوز والد ببل.

لغة ببل بسيطة، فهي سلسلة من الكلمات بلا قواعد أو بناء، فبعد مليون عام على موت فار أصبح الحديث مهارة اجتماعية تستخدم بصورة رئيسية للثرثرة، ولنقل تفاصيل أو معلومات معقدة كان لا بد من التكرار واستخدام سلسلة طويلة وإشارات وإيماءات وأداء بدني. أراد ببل إقناع جمهوره، بينما كان من الصعب على البالغين تقبل ما يود أن يقوله. فهم لم يروا الأغراب بأنفسهم، وربما يكون يكذب أو يهول الأمر، فهو لا شيء سوى طفل كبير. لم يكن أمامه وسيلة لإثبات صدقه سوى حماسه وطاقته في تقديم رسالته.

ظل الأمر دائمًا هكذا، فإذا أردت أن يستمع إليك أحد فعليك أن تصرخ.

وفي النهاية استسلم ببل وهو يلهث، وجلس القرفصاء على التراب، لقد فعل كل ما في وسعه.

انحنى فلاتنوز إلى جانبه. لقد صدق ابنه: إن أداءه قد أتعبه كثيرًا، ولا يعقل أن يكون كاذبًا. ووضع يده فوق رأس ابنه.

أحس ببل بالاطمئنان، فلمس ذراع أبيه، وفي ذلك المكان من ذراع أبيه وجد آثارًا لجروح طويلة مستقيمة بطول الذراع. لم تكن تلك الآثار قد أحدثها اعتداء أي حيوان. لقد فعلها فلاتنوزس بنفسه، مستعملًا نصلًا حادًّا لسكين حجرية. وعلم ببل أنه عندما يكبر سوف يفعل الشيء نفسه؛ لعبة التشويه الصامت نفسها، مثل ذلك استعراضًا للقوة! إنه جزء من تراث أبيه وقوته، لقد بدا الأمر مريحًا وهو يمر على الندوب بيده.

بدأ البالغون الآخرون ينضمون إليهما واحدًا تلو الآخر.

وبعد انتهاء لحظة القبول الصامت وقف فلاتنوز؛ فليس هناك ما يقال، علم الجميع ما يجب عليهم عمله، تحرك الكبار والأطفال وببل وفتاة أصغر منه بقليل حول المستعمرة يجمعون الأسلحة. لم يكن هناك ترتيب معين، الأسلحة والأدوات الأخرى ملقاة في آخر مكان تركوها فيه، وسط كومة الطعام والركام والرماد.

وعلى الرغم من خطورة الموقف، فإنهم تحركوا ببطء، وكأنما لا يرغبون في تقبل الحقيقة.

أما أم ببل واسمها دست فقد حاولت أن تسكت طفلها الذي يطلق نبرات صارخة بينما هي تلملم أغراضها. وكان شعرها غير المربوط، الذي أضفى عليه الزمان لونًا رماديًّا قبل الأوان كان دائمًا مليئًا بالتراب الجاف قوي الرائحة، وكان ذلك غريبًا بالنسبة لها. ففي سن الخامسة والعشرين بدأت تظهر عليها علامات الهَرم، وعرجت أثناء المشي نتيجة جرح قديم أصيبت به أثناء الصيد ولم يُشف جيدًا. ومنذ ذلك الحين وجب على دست أن تعمل بقوة أكثر، وظهر ذلك في انحنائها وقسمات وجهها الممتلئ بالهموم. لكن ذكاءها حاد وخيالها نادر. بدأت تفكر في الأوقات الصعبة المنتظرة، نظر ببل إلى وجهها، وشعر بالذنب لجلبه هذه المشكلات إليها.

وسمع تنهيدة هادئة، ولمح وميضًا، فاستدار.

رأى ببل رمحًا خشبيًّا طائرًا، منحوتًا من قطعة خشب قوية، سميكة عند أولها مستدقة الرأس عند آخرها، وقد صنعت بدقة لتحقق هدفها.

ثم بدا وكأن الزمن ينساب من جديد.

اندفع الرمح نحو ظهر فلاتنوز، فسقط على الأرض والرمح منغرس في ظهره، ارتجف وخرجت فضلات من أمعائه، وسط بؤرة من الدماء بللت الأرض من حوله.

فزع ببل من هول ما حدث، وذُهل لفترة، لم يستطع أن يستوعب ما جرى فقد رحل فلاتنوز في غمضة عين، أصبح مثل الجبل الذي اختفى فجأة أو البحيرة التي جفت في لحظة. لكن ببل رأى الموت بعينيه عدة مرات خلال سنوات عمره القصيرة. فهو يستطيع حاليًا أن يميز رائحة الدم والفضلات، إنها رائحة لحم لا شخص حي.

لمح شخصًا غريبًا تبدو عليه القوة بين الأكواخ، متلفحًا بالجلد ويمسك برمح، وأخفى وجهه برسومات حمراء، لا بد أنه قاتل فلاتنوز. ورأى ببل عصا الحفر التي نسيها في يد الغريب، لا بد أنهم رأوه عند منطقة البطاطا وتعقبوا خطواته. قادهم ببل إلى هنا.

وفي ثورة غضب عارمة انطلق للأمام.

لكنه سقط — بجلبة — على الأرض لأن أمه أمسكته من خصره، وبالرغم من عرجها فإنها لا تزال أقوى منه، وحملقت به وهي تتمتم: «غبي، غبي»، فعاد إليه صوابه، كان ببل عاريًا وغير مسلح، وعلى هذه الحال سيُقتل خلال لحظات.

خرج رجل آخر من قلب المستعمرة، عاريًا ويحمل رمحه — كان هذا الرجل هو عم ببل — ورمى بنفسه على قاتل شقيقه. إلا أن الغريب تفادى الضربة الأولى لكن العم اقترب منه أكثر، وسقط الاثنان على التراب وهما يتصارعان وكلاهما يحاول أن يضرب الضربة القاضية، وخلال فترة وجيزة اختفى الاثنان داخل عاصفة من التراب والدماء، كان الاثنان قويين بعضلات مفتولة، ويلجآن إلى كل الحيل والوسائل من أجل الانتصار، بدا العراك وكأنه يدور بين اثنين من الدببة.

وفجأة أقبل الصيادون رجالًا ونساءً في ثورة من الغضب العارم، وهم يقفزون وسط الصخور والأشجار وكلهم مسلحون برماحهم وفئوسهم، أتوا للقضاء على ببل وجماعته كما لو كانوا قطيعًا' من الغزلان الغافلة.

ورأى ببل نظرات اليأس في عيون رفاقه، فهؤلاء الوافدون لم يكونوا رحلًا، ليسوا غزاة بطبيعتهم، مثل جماعة ببل بالضبط. لا بد أن كارثة دفعتهم لذلك، للقدوم إلى أرض غريبة وشن هذه الحرب. لكن بعد أن حضروا سيقاتلون إلى الموت لأنه لا خيار آخر أمامهم.

سُمع صوت عال، وقف الصياد الذي يتعارك مع عم ببل، وذراعه تتدلى من كتفه مكسورة ودامية. لكنه بدا مكشرًا وفمه كتلة من الدم والأسنان المكسورة، بينما يرقد عم ببل تحت قدميه وصدره مفتوح.

فقدت جماعة ببل بالفعل رجلين من الثلاثة؛ فلاتنوز وأخيه، ولم تكن أمامهم فرصة للمقاومة.

فر الناجون، ولم يكن هناك وقت لإحضار شيء من الأدوات أو الطعام ولا الأطفال. وظل الصيادون يطاردون جماعة ببل وهم راحلون بضربهم. وتعرض الرجل الثالث للذبح، وأسر الصيادون امرأتين والفتاة الأصغر من ببل، وألقيت النساء على الأرض على وجوههن، وباعد الشاب بين أرجلهن معلنًا حقه فيهن.

ظل الباقون يركضون حتى يئس منهم الصيادون.

فكر ببل في الطريقة التي حضروا بها، ورأى الصيادين ينتشرون في القرية، وضاعت الأرض التي كانت لأسلاف ببل لمدة.

أدرك ببل أن الجماعة تبقى منها خمسة، امرأتان هما أمه وأخرى وببل نفسه وفتاة صغيرة ورضيع، ليست أخته. إنهم خمسة فقط.

اتجهت دست نحو ببل بوجهها الجامد، ووضعت يدها على كتفه، وقالت: «رجل» قالتها بوقار: «أنت الرجل.»

هذه هي الحقيقة التي أدركها برعب، فكان هو أكبر ذكر بين الخمسة، فلم يكن هناك ذكر في المجموعة سوى الرضيع الملقى تحت قدميه في التراب.

التقطت دست الطفل اليتيم، وقربته منها. ثم استدارت بعيدًا عن قريتها بتصميم، وبدأت تضرب الأرض متجهة إلى الشمال، بينما تترك مشيتها العرجاء أثرًا على التراب. ولم تنظر إلى الخلف، ولو مرة واحدة.

وتبعها ببل وهو مذهول وخائف.

٢

إن العصر البلستوسيني -- عصر الثلوج — عصر قاس اتسم بالكثير من التقلبات المناخية، حيث بات الجفاف والفيضانات والعواصف أمرًا عاديًّا. ففي ذلك العصر وقعت كل عَقْد كارثة من النوع الذي لا يحدث إلا كل قرن. إنه وقت تنوع شاسع في الأنواع.

خلق ذلك بيئة صعبة لكل الحيوانات التي عاشت فيها، وللتأقلم مع هذه التغييرات أصبحت الكثير من الكائنات أذكى؛ ليس الهومينيد فقط بل آكلات العشب وذوات الحوافر وغيرها. وتضاعف متوسط حجم مخ الثدييات على مدار المليوني عام للعصر البلستوسيني.

ظهرت أسرة الهومينيد العريقة التي انتمى إليها ببل في أفريقيا، كما حدث مع كثيرين غيرها في أقصى الجنوب. وسارت الأسرة الأذكى والأقوى من جماعة فار في رحلة طويلة من أفريقيا إلى أوروبا، جنوب منطقة الجليد، ومنها إلى آسيا وصولًا إلى الهند. كيفت تقنياتها وأساليبها وأجسامها على مدار وقت طويل وفقًا للظروف المختلفة التي واجهتها.

وبهذا حلت محل الأشكال القديمة للبشر، بينما ظل المشاة النحاف مثل فار في شرق آسيا، لكنهم عاشوا في بعض مناطق أفريقيا القليلة. أما في أوروبا فلم يكن لهم أثر. ونجحت جماعة البيثيسين — التي انقرضت منذ زمن بعيد — في إتاحة الفرصة للقرود وأهالي السافانا الجدد. ومع هذا فقد ظل الهومينيد محصورين في نطاق ضيق، فلم يكن هناك أشخاص منهم في الأراضي الشمالية الباردة أو في أستراليا أو في الأمريكتين. غير أن العالم القديم امتلأ بهم.

في هذه الأثناء بدأت الأرض تصبح أكثر فقرًا.

شهدت الأرض حالات انقراض مرة أخرى، وتلك المرة كانت للأشخاص يد في ذلك، حيث وجدت الكثير من الأنواع الضخمة بطيئة التكاثر نفسها مضطرة للبقاء بجوار موارد المياه تحت وطأة ضغط الأحوال المناخية. وبذلك أصبحت هدفًا سهلًا للصيادين من بين الهومينيد الذين ازدادوا مهارة، الذين بحثوا عن ضحايا بأقل خطر ممكن، لذلك اصطادوا كبار السن والصغار جدًّا.

اندثرت الأنواع الأكبر والأكثر تنوعًا أولًا. وفي أفريقيا بقيت فقط الفيلة الحقيقية من بين أسرة الأفيال الواسعة والعتيقة. وتبعتها أنواع كثيرة من الزراف والخنازير ووحيد القرن.

ثم بدأ استخدام النار.

تعد النار أحد أهم الأحداث التي وقعت في مجرى تطور الهومينيد، ولم تسبق زمن ببل بأجيال عديدة. قدمت النار مزايا عديدة؛ حيث إنها تُمد بالدفء والضوء، والحماية من الحيوانات آكلة اللحوم، إلى جانب استخدامها في تجفيف الخشب، ودورها الأساسي طهي الطعام من نباتات وحيوانات مختلفة. ولم يكن استخدام النار قد انتشر على مستوى كبير، فذلك سوف يحدث فيما بعد. لكن الاستخدام اليومي للنار له أثر عميق وتدريجي على الحياة النباتية، حيث إن النبات المؤهل لتحمل حرارة النار أصبح أفضل من الأنواع الأخرى، وبالرغم من أن الزراعة سوف تأتي مستقبلًا، فإن الهومينيد بدؤوا بالفعل بعملية اختيار الأنواع التي تفي بأغراضهم، مثلما فعل ببل حينما أزال الحشائش التي نمت بجانب البطاطا.

إن مثل تلك الخطوات البسيطة التي تكررت يوميًّا عبر مئات الآلاف من السنين، كان لها أثر كبير. ففور أن اتخذت الأرض شكلها من أثر دهس الفيلة تهمش دور فار وعشيرتها. ليس الأمر كذلك الآن. فإن تلك الأرض عاشت بأيدي البشر.

بدا كأن ذلك المنظر الطبيعي العاري المكون من أشجار قادرة على مقاومة النار وأكلة الحشائش من عمل الطبيعة، وكأنه موجود منذ الأزل، ظل الأمر كذلك لمدة طويلة، حتى إنه لا يمكن لأي عقل على ظهر الأرض أن يتذكر أن الأشياء كانت مختلفة في يومٍ ما.

أمسك سيل عنكبوتًا من على الشاطئ يعدو فوق الرمال، وأخذ العنكبوت وأعطاه لببل وهو يبتسم ويقول: «شبكة العنكبوت، سمك العنكبوت.» نقر ببل على رأس سيل يشجعه على نشاطه متمنيًا لو يستطيع مشاركته.

أسرع سيل مرة أخرى إلى تل العشب الكثيف حيث عثر على العنكبوت. بُني نسج العنكبوت في خطوط نصف قطرية قوية على هيئة مروحة، وفوقها وضع العنكبوت مادته اللزجة. وبرقة وبعصا صغيرة بين أصابعه العريضة، رفع الغلام النسيج الحلزوني من الخيوط غير اللزجة، وحرك العصا من جهة إلى أخرى، وهو يلفها ليشكل الجزء اللزج كتلة متدلية على نهاية العصا، ثم أسرع إلى البركة التي تحميها الصخور المتآكلة، ووضع عصاه في الماء، جاعلًا الكتلة اللزجة تهتز على سطح الماء.

جاءت سمكة صغيرة لتقضم هذا الشرك الجذاب ومع كل قضمة غرزت أسنانها أكثر في الشبكة، مما سهل عليه سحبها من الماء في النهاية، ووضعها في فمه وهو يشعر بالنصر، ثم غمس العصا في صمغ العنكبوت ثانية، وأمد العصا مرة أخرى في الماء.

بلغ سيل الذي أحضرته، دست من المستعمرة المهجورة قبل أحد عشر عامًا اثني عشر عامًا، أي أنه يصغر ببل بسبع سنوات، واختلفت سنواته الأولى عن طفولة ببل، فكان سيل دائم التحرك من مكان إلى آخر، إلا أنه لم يكن مستاءً من تلك الخبرة التي اكتسبها، ربما تعود على الارتحال مثل آكلي الأعشاب الكبار الذين اتبعوا الفصول. وتعلق قلبه بالمحيط، إلا أن وزنه أثقل من أن يستطيع العوم، ولم يكن وحده، بل كانوا جميعًا كذلك. وكلما رآه ببل في المياه الضحلة على مقربة من الشاطئ تذكر الثدييات المحبة للعب في البحر.

لكن بعد أحد عشر عامًا من المجزرة التي راح ضحيتها أبوه لم يكن ببل قادرًا على مشاركة سيل في مرحه.

في سن التاسعة عشرة أصبح ببل كامل النضوج، وبنيته تساوي بنية أبيه وقوته. لكنه محطم، حمل جسمه آثار جروح قديمة نتجت عن حوادث صيد يائسة. فأثناء صيد حصان وحشي كسر أحد أضلاعه الذي لم يُشف أبدًا على نحو ملائم، ولزم عليه تحمل تلك الآلام كلما حاول التنفس. وحمل جسمه آثار الجروح التي أصابه بها البشر، الذين قاتلهم كثيرًا.

ونظرًا لأنه اضطر أن يكبر سريعًا، فقد أُجبر على الاعتماد على نفسه. أخفى ملامحه خلف ذقن كثيفة، وعامًا بعد عام ازدادت كثافة وتعقيدًا، وبدت عيناه وكأنهما تتقلصان أسفل حاجبيه الكثيفين.

ومثل والده كان يحمل آثار جروح طويلة متعرجة، بطول ذراعيه.

وتنهد ببل وهو يعود مرة أخرى إلى الفحص الكئيب للشبك، الذي ألقاه في المياه العميقة. كان الشاطئ المليء بالحصا محميًّا من البحر برقعة ممتدة من الأرض، وانساب نهر المياه العذبة إلى أسفل من قاعدة الجرف العالي. هذا هو البحر الأبيض المتوسط، والمكان هو الساحل الشمالي لأفريقيا. وخلفه إلى الجنوب تعلو الأرض على مجموعة كثبان. وهذا هو المكان الذي اختاره أخيرًا اللاجئون من قوم ببل للإقامة فيه، بُني كوخ فوق الكثبان الجافة المليئة بالعشب أعلى مكان بالمياه من الشجيرات والخشب الذي تلقيه المياه.

توصل سيل إلى طريقة بسيطة في الصيد عن طريق لعبه بالعناكب وشباكها، لكن على هذا الشاطئ الكئيب كان على الجميع أن يتعلم سريعًا كيفية استغلال البحر. وفي الأيام الأولى تناثر الماء من جراء الصيد والصيادين الذين يطاردون الظباء ويقذفون بأنفسهم عليها — بطريقة عشوائية — داخل المياه، والظباء تهرب إلى الماء مندفعة خلف الأسماك والدلافين التي تتمكن من الإفلات بسهولة. وضاع مجهودهم هباء فأمضوا وقتًا طويلًا وهم جياع وبدون أمل.

لكنهم في نهاية الأمر وجدوا الفكرة الصائبة، وذلك عن طريق مراقبة العناكب والطيور والحيوانات الصغيرة، التي علقت بين فترة وأخرى في الشجيرات كثيفة الأغصان أو في الدغل اللزج أو في الكرم الممتد.

وتدريجيًّا توصلوا إلى كيفية استخدام الشباك والمصائد والفخاخ، التي غزلوها من لحاء الأشجار وقطع الجلد. وفشلت أولى تجاربهم أكثر مما نجحت، لكنهم ببطء تمكنوا من تطوير مهاراتهم في استغلال الحبال الطبيعية وأفرع الكروم، ثم تعلموا كيفية غزل وإصلاح وربط الألياف، ونجحوا في ذلك. وإذا حالفك الحظ كان بإمكانك أن توقع سمكة أو أخطبوطًا أو سلحفاة في شباكك. وكلما تعمقت في المياه أصبح صيدك أفضل.

علي أي حال لا بد أن تنجح الطريقة. وإلا فمن المحتم أن تموت جوعًا.

من الغريب أن الأرض التي تقع جنوبًا وراء تلك المنحدرات العالية ضمت أنواعًا من الأخشاب والحشائش وبركًا من المياه الحلوة والمالحة. وظهر كثير من الحيوانات فيما وراء المستنقعات وفوق الأرض العليا، منها: الأيل الأحمر والحصان ووحيد القرن، وحيوانات أخرى صغيرة من العشبيات. وفي بعض الأحيان نزلت الحيوانات إلى الشاطئ باحثة عن الملح.

لو كانت الأرض خالية من الناس لأصبحت كالجنة لمجموعة ببل. لكن الأرض لم تكن خالية، وذلك هو لب الموضوع.

وفي الأفق ظهرت جزيرة، يتطلع إليها ببل. رغم أنها بدت بسبب المسافة زرقاء مغلفة بالضباب. ومع ذلك البعد فيمكنه أن يرى غنى الجزيرة بالنباتات المورقة التي تملأ صخورها حتى المحيط. وبها أناس، يستطيع رؤيتهم في الأيام الصافية، أجسامهم ذحبلة وقاماتهم طويلة، يجرون على شاطئها وفي أعالي التلال، كأشباح شاحبة سريعة.

وجال بفكره أنه وقومه سوف يكونون في أمان هناك. وعلى جزيرة مثل تلك يمكنهم أن يعيشوا في قطعة أرض تخصهم إلى الأبد، بدون مضايقات من الغرباء. فربما لو تمكن هو وجماعته من الذهاب إلى هناك ومنازلة هؤلاء الأشخاص ذوي الأجسام النحيفة، لأمكنهم الاستيلاء على الأرض.

لو تمكنوا من الذهاب، لكنهم لا يستطيعون السباحة مثل الدلافين، ولا يمكنهم السير فوق المياه، مثل الحشرات. كان الأمر مستحيلًا إلى الأبد. لذا فقد كانوا مضطرين للبقاء.

لم يكونوا قد خططوا للوصول إلى ما هم عليه، ولم يخطط أي منهم لأي شيء من هذا. كانوا مجبرين على الاستمرار، بينما السُّنون تمضي.

لم تكن طبيعة قوم ببل تحضهم على الهجرة. إذ فَقَدَ أولئك القوم الأقوياء رغبة التجوال والترحال التي شاعت أيام فار. وانزعجوا بشدة من وجودهم في هذا الموقع غير المألوف ... كان السفر الطويل لببل كأنه انهيار بطيء، وزمن من الجنون والارتباك.

وأثناء الرحلة أصبح الأطفال رجالًا، وازداد عددهم كلما انضم إليهم لاجئون آخرون هاربون من كوارث أخرى، أصبح ببل رجلًا ناضجًا، وازدادت أعدادهم بصورة أخرى، فقد أصبح ببل أبًا بعد أن تزاوج هو وجرين؛ المرأة

الحزينة التي أتت معهم من المستوطنة القديمة، لكن أثناء الرحلة تعرضوا لظروف مناخية قاسية وعبروا أراضي جافة، أدت إلى موت الطفل.

ولم يجدوا مكانًا يؤويهم. فالعالم مزدحم بالناس.

قبل الهجوم تضمن عائلة ببل اثنا عشر شخصًا، قادرين على الاعتناء بأنفسهم دون الحاجة إلى الترحال، ولم يعملوا بالتجارة، أو يرحلوا أبعد مما يمكن بلوغه في يوم واحد من السير.

لكنهم كانوا يعرفون المجموعات الأخرى بالقرب منهم، المنتشرة في الأرض، كأنهم أشجار.

في المجمل عاشت أكثر من أربعين قبيلة، في العشيرة الكبيرة التي كانت عائلة ببل جزءًا منها، وبلغ عدد أفرادها ألف شخص. وأحيانًا كانوا ينتقلون من قرية إلى أخرى عندما أراد الشباب التزاوج مع أنثى من القبيلة الأخرى، ونشبت صراعات بين وقت وآخر، لأسباب منها: النزاع على الغذاء والأرض الغنية. لكن هذه الصراعات انتهت غالبًا بمعركة عادية أو مصارعة غير حاسمة، وفي بعض الحالات القصوى يصاب أحد الأفراد برمح في ساقه، وهي إعاقة أصبحت بمنزلة أحد طقوس العقاب.

وكان كل فرد من الألف الأقوياء — بدءًا من الأطفال إلى أحكم العجائز البالغين ثلاثة وخمسين عامًا — يحمل خطوطًا حمراء وسوداء عمودية على جسده، التي وضعها ببل على وجهه.

كانت فار ستندهش مما وصل إليه ابتكارها البريء بالحجر الأحمر، فما بدأ كخدعة جنسية غير واعية تحول على مدار الزمن إلى احتفال بالخصوبة، حيث يدهن النساء وبعض الرجال أرجلهم بلون الخصوبة، ومع الوقت جربت أصابعهم رموزًا جديدة.

وأصبحت هذه الرسوم البدائية ذات مغزى، إذ كانت رموز ببل العمودية نوعًا من دلائل الوحدة، تمثل فاصلًا بين قومه والآخرين، لم تكن مضطرًّا لتذكر كل فرد في قبيلتك، كما اضطر كابو عندما أراد قيادة مجموعته، لم تكن بحاجة لمعرفة الوجوه، كل ما تحتاج إليه هو الرمز.

وحدت الرموز القبائل، وأصبحت ما يدافعون عنه في صراعاتهم، وشكلت هذه الخطوط البدائية والرموز بداية ولادة الفن، وبداية ولادة الأمم

والحروب، حيث بدأت الصراعات وتجاوزت موت بعض الأشخاص. لذا بدأت عقول الهومينيد تزداد ذكاءً عند ابتكار الرموز مع كل جيل جديد.

وفي تلك الطبيعة ظهرت الكثير من العشائر من الحجم نفسه تقريبًا، كانوا جميعًا لا يميلون للترحال، بل يبقون حيث ولدوا على أرض الأجداد والأسلاف. وكانت لغاتهم غير مفهومة لغيرهم، لدرجة أن الكثير من علاقاتهم لم تتطور نظرًا لانعزالهم الطويل. فبقوا حيث كانوا حتى قضت عليهم بعض الكوارث الطبيعية كتغير المناخ والفيضانات أو اجتاحهم أشخاص آخرون.

وهذا هو سبب ظهور العشائر في المقام الأول؛ لإبعاد اللاجئين.

أصبح الوضع صعبًا جدًّا عليهم، وأخيرًا بعد مرور أحد عشر عامًا بعد أن أتوا إلى هذا الشاطئ، أجبروا على التوقف بعد أن انتهت الأرض.

فجأة سمع ببل صرخة حزينة آتية من البحر: «ساعدوني ... ساعدوني».

فنظر ببل باتجاه الصوت، فرأى شخصين غليظين متجهين إلى الكوخ، كانا هاندز وهايينا، تميز الأول بيدين ضخمتين قويتين والآخر بضحكة غريبة عند صيد أي حيوان، انضم هذان الشخصان إلى عشيرة ببل خلال تاريخهم الطويل. أما الآن فكانا يناضلان، حيث اتكأ هايينا على كتفي صديقه القوي، واستطاع ببل سماع صوت لهاث هايينا.

وخرجت دست أم ببل من الكوخ، وهي في الثلاثين من العمر، إلا أن شقاء السنين تسبب في انحناء ظهرها، وابيض شعرها، مشت وهي تعرج متوجهة إلى الشاطئ، نحو هايينا وهاندز وهي تقول بصوت واهن: «طعنة ... طعنة!»

انهار هايينا على الشاطئ، وتمكن ببل من رؤية نصل من الحجر يخرج من ظهره. وحاول هاندز أن يساعده على الوقوف مرة أخرى.

ومضى ببل خلف والدته وهو يتمتم.

وعندما أحضروا هايينا إلى الكوخ بدأ ضوء السماء يخبو.

وفي المساء التف الناس حول الكوخ، وكان الرجال والنساء يتمتعون بأكتاف قوية مليئة بالعضلات تظهر من أسفل ملابسهم الجلدية، وأذرعهم

ضخمة وأطراف أصابعهم عريضة. أما عظامهم فسميكة وتستطيع تحمل الضغط الشديد، ومفاصلهم ثقيلة وقوية، وبذلك كانوا أقوياء وضخامًا وكأنما هم جزء من الأرض ذاتها.

كان لزامًا عليهم أن يكونوا أقوياء، واضطروا للعمل الشاق في بيئة قاسية طوال حياتهم، فعوضوا قلة ذكائهم بقوتهم العضلية وعملهم الذي لا ينتهي. وتمكن قلة منهم ببلوغ سن كبيرة دون المعاناة من جروح قديمة وأمراض تآكل العظام، لكن لم يعش أحد بعد سن الأربعين.

كان جرح هايينا عاديًّا، ولم يكن من المستغرب أن يطعنه من الخلف هومينيد من قبيلة معادية وراء المنحدرات، فالحياة صعبة والجروح شائعة فيها.

داخل الكوخ الضيق المنخفض لم يكن هناك ضوء إلا من النار إلى جانب أشعة الشمس المتسللة من فتحات الحائط. وبالطبع افتقر المكان إلى النظام. وخلف الكوخ أكوام من العظام والأصداف التي ألقيت بعد الانتهاء من تناول الطعام. وتناثرت بعض الأدوات المكسورة أو غير مكتملة الصنع وبعض بقايا الطعام والجلد والخشب والأحجار وجلود الحيوانات. أما على الأرضية فيمكن رؤية آثار الأطعمة الرئيسية التي اعتمدت عليها المجموعة مثل الموز والتمر والجذور والدرنيات والكثير من البطاطا. اعتاد البالغون طمر فضلاتهم بالخارج لإبعاد الذباب، لكن الصغار لم يكونوا قد تعلموا هذه الطريقة بعد، مما يعني أن الأرضية كانت تحمل فضلات أطفال نصف مطمورة.

لم يكن لديهم مكان ثابت لإشعال النار، وظهر الرماد من آثار النيران القديمة عبر أرضية الكوخ وفي الخارج، على هيئة دوائر سوداء متفرقة من الحصى والرمال، وعندما يتغير اتجاه الرياح أو ينهار جزء من الكوخ يحركون جمرات الأمس إلى مكان جديد.

أي إنسان سيجد الكوخ مظلمًا ومنخفضًا وخانقًا ومكدسًا وغير منظم، وتعبق به رائحة كريهة دائمًا، رائحة العيش لسنوات طويلة، لكن الأمر عند ببل يختلف كثيرًا؛ فهذه هي حياته دائمًا.

رأت كومتان من النار تشتعلان تلك الليلة، اتجه هاندز إلى النار المشتعلة طوال اليوم، كان قد سار حول المستعمرة بحثًا عن قطع الخشب الجاف

وتمكن بعناية من جمع هرم من قطع الأخشاب ليزيد من اشتعال النار. وانتزع اللحم من رأس وأطراف طفل وحيد القرن، وأراد أن يستخدم النار لتفتيت العظام والحصول على ما بداخلها.

في مؤخرة الكوخ جلست دست مع جرين لتشعلا نارًا ثانية مع سيل وكراي ومعهم بعض الأطفال، كانوا يفتتون الأحجار إلى قطع صغيرة، لصنع السكاكين والمثاقب، التي ساعدتهم في طهي الطعام الذي تمكنوا من جمعه أثناء النهار، من مئات الأمتار حول الكوخ. كان هناك محار وفأر.

وسرعان ما تصاعد الدخان إلى سقف الكوخ، وسط همهمات وصيحات الجميع، نادرًا ما سمعت كلمة.

كراي هي إحدى الناجيات، وهي فتاة أصغر من ببل لم تحضر المستعمرة القديمة، مرت بتجربة صعبة وكانت دائمة البكاء. عمرها سبعة عشر عامًا، وقد أصبحت امرأة كاملة الأنوثة، مما دفع ببل وهايينا وهاندز إلى معاشرتها أكثر من مرة، لكنها لم تنجب قط. وكان جسدها نحيفًا وضعيفًا ولم يمتع ببل.

اتبعوا ترتيبات اجتماعية غريبة فيما بينهم، فكان الرجال والنساء يبحثون عن الغذاء ويأكلون منفصلين.

بحثت النساء في الأغلب عن الخضر وطعام البحر والحيوانات الصغيرة بالقرب من المنزل، ويجلسن لطهي الطعام — ليس شرطًا وحدهن — على النار بالاعتماد على الأدوات المصنوعة سريعًا من خامات محلية لتساعدهم في تناول الطعام. أما الرجال فكانوا غالبًا ما يبعدون عن الأكواخ، يصطادون الحيوانات ويأكلون أغلب لحومها في الحال، ويرجعون بما بقي معهم إلى البيت. أما محتويات العظم فكانت غالبًا تبقى للصائدين، وتُكسر باستخدام النار القوية.

في معظم الأوقات وفرت النساء أغلب طعام المجموعة وعززت ما يحضره الرجال من الصيد. لكن الصيد لم يكن دائمًا يهدف لإحضار الطعام فقط، بل حمل جزءًا استعراضيًّا في أنشطة الصيادين كذكر الطاووس وهو يستعرض أمام أنثاه. وهو أمر لم يتغير كثيرًا منذ أيام فار.

هناك أمور أخرى قد اختلفت؛ فأدوات الطهي الحجرية التي استخدمتها النساء لإعداد الطعام ضخمة، لكن أسطحهـ وأطرافها بدائية جدًّا مقارنة بالفأس الذي صنعه آكس بمهارة منذ أكثر من مليون عام. ومع جمال الفأس فإنها لم تكن مفيدة في أغلب المهام أكثر من شظية ذات حافة حادة. وفي الأوقات الصعبة اضطر الرجال والنساء لتعلم صنع أدواتهم بكفاءة تلائم احتياجاتهم، وتحت وطأة هذا الضغط بدأت الحاجة إلى فأس يدوية، ولم يكن الأمر إلا تجمدًا في الفكر. صحيح أنه في بعض أنحاء العالم ظل صناع الفأس يتوددون بمساعدتها، لكن مع تضاؤل يد الاختيار الجنسي العمياء ظهرت وسائل مبتكرة ومتنوعة أكثر.

وتدريجيًّا ظهرت أدوات جديدة، وهي نوع من الحجر يمكن بضربة واحدة تشكيله إلى أجزاء بالحجم المطلوب، ثم يكشطونها. وكانت حوافها بأفضل الأشكال؛ أحيانًا في أصغر حجم ومستديرة، وباستخدام مهاراتهم العالية أمكنهم صنع مجموعة متنوعة من الأدوات؛ فنجد الفئوس والرماح والقواطع والمكاشط. كانت وسيلة ناجحة لصنع الأدوات، وإن بدت بدائية.

تضمنت هذه الطريقة الجديدة خطوات تستخدم العقل أكثر من الماضي، فيجب البحث عن المواد الخام المناسبة، فليست كل أنواع الأحجار صالحة، ومن المهم تخيل شكل الفأس والنصل الذي سيبرز منه.

بعد الانتهاء من تناول الطعام اتجه الجميع إلى مهام أخرى، أحضرت جرين جلد ظبي وأخذت تشده بأسنانها، كانت خبيرة في العمل بجلد الحيوانات، بليت أسنانها من أثر العمل لسنوات. بدأ الصغار ينعسون، فاجتمعوا في شكل حلقة صغيرة ومشط بعضهم شعور بعض بأصابعهم. حاول هاندز أن يعتني بهايينا، فتفقد الجرح أسفل الكمادة وشمه ثم أعاد الكمادة مكانها.

وتمددت دست المنهكة كعادتها بجوار النار لكنها كانت مستيقظة وعيناها تدمعان حزنًا، وأدرك ببل الأمر، تذكرت رفيق حياتها؛ فلاتنوز.

دفع الأشخاص بلا شك ثمن العقل الكبير لأطفالهم، ففي حين وُلد ببل طفلًا بلا حيلة ما زال عقله في انتظار التطور، مضى وقت طويل من

النمو والتعلم قبل أن يتمكن من البقاء وحده. لم تكن مساعدة الجدات كافية، بل دعت الحاجة لظهور أسلوب حياة جديد.

لا بد، أن يظل الآباء والأمهات معًا لمصلحة الأطفال، لم يكن زواجًا أحاديًّا بالمعنى المفهوم، لكنه شبيه منه. تعلم الآباء أن عليهم البقاء إذا أرادوا انتقال جيناتهم الوراثية من جيل إلى جيل، أما النساء فكن على استعداد دائم للتزاوج. كانت خدعة؛ فإذا رغب الرجل في إنجاب أطفال وتربيتهم فلا بد أن يتأكد أنهم أطفاله بالفعل. أما إذا لم يعلم إن كانت شريكته في وقت خصوبتها فكان يضطر إلى البقاء معها.

لكن لم يكن الأمر كله إلزامًا، إذا رغب الطرفان في حياة جنسية أكثر خصوصية، أو أرادا أكبر قدر ممكن من الخصوصية في هذا المجتمع المتقارب. أصبحت العلاقات رابطًا اجتماعيًّا قويًّا أبقى الطرفين معًا. وأصبح الحب ناتجًا ثانويًّا للتطور، الحب وألم الفراق.

لكن عملية التشكيل لم تكن قد انتهت، ولم يتعد الحديث في هذا الكوخ البدائي الثرثرة، وظل صنع الأدوات وجمع الطعام والأنشطة الأخرى التي تتم بدون وعي يحتل جزءًا من تفكيرهم. واستمروا في المداعبة كالقرود.

لم يكونوا بشرًا.

شعر ببل بعدم الراحة والانزعاج والاختناق. فأخذ قطعة من أمعاء وحيد القرن من سيل الذي اعترض قائلًا: «إنها لي»، ثم ذهب ليجلس وحده في مواجهة البحر.

رأى قريبًا الأرض حيث الفلاحون يلتقطون الحشائش الضارة من الفاصوليا والبازلاء والبطاطا، وخلف ذلك نظر نحو الشمال والجنوب فشاهد الغروب، حينما لوّن ضوء الشمس الوردي السهول التي وقع عليها، كان غروبًا رائعًا في العصر الجليدي. وملأت الأنهار الجليدية المنتشرة في قارات الكرة الأرضية الشمالية الهواء بكميات كبيرة من الغبار، وانحرف ضوء الشمس عبر السحب الضخمة.

شعر ببل بأنه محاصر، كأنه أحد أسماك سيل العالقة في مصيدة شباك العنكبوت.

ودون أن يعي ما يفعل بحث في الأرض على صخرة، وعندما وجد واحدة حادة رفها إلى ذراعه اليمنى — كان يبحث عن رقعه خالية من الندوب — وضغط بها على لحمه، وتلذذ بالشعور بالألم.

تمنى ببل لو كان والده معه ليقطع معه لحمه، لكن الصخرة ظلت كما هي، وأشعره الألم بالقليل من الراحة. فحرك الصخرة بطول ذراعه وهو يشعر بدمائه الدافئة تسيل، ارتجف من الألم لكن تلذذ به لمعرفته أنه يمكنه التوقف متى شاء، لكنه لم يكن سيتوقف.

شعر بالوحدة والاكتئاب والضيق، وأصبح السلوك — الذي ساعد الشباب في الماضي على مقارنة قوتهم بطريقة غير مؤذية — مدمرًا وموحشًا. لم تكن فصيلة بشرية، لكنهم عرفوا الحب وألم الفقد والإدمان.

شاهدته أمه في الظلام من الخلف وعيناها مغرورقتان بالدموع.

استيقظ ببل قبل الفجر، لم يوقظه الضوء أو البرد!

شعر بلسان يلعق قدمه العارية، بدا الأمر مريحًا إلى حد ما، واخترق أحلامه المزعجة، لكنه عندما نظر ليرى من يلعقا، صعق وفتح عينيه على وسعهما.

رأى أمامه ذئبًا قويًّا أشعث يقف على أربع ووراءه سماء الفجر.

قام وسحب ساقيه، فابتعد الذئب بفزع، وتراجع بضع خطوات ثم استدار وزمجر.

لكن إلى جانب الذئب وقف شخص.

كانت أطول منه بذراع، وقوامها رشيقًا وكتفاها ضيقتين، ولها رجلان طويلتان رائعتان، مثل ساقي اللقلق، ولها ردفان وكتفان ضيقان ونهدان صغيران، وعنق طويل، وجسدها كله عضلات، فاستطاع أن يرى انتفاخ ذراعيها وساقيها. بدت كالطفلة الصغيرة، تتمتع بوجه بريء بلا معالم، لكنها لم تكن طفلة، بدا ذلك لببل من نهديها ومن رقع الشعر أسفل ذراعيها ومن الخطوط الدقيقة حول عينيها وفمها.

كان الأشخاص النحاف على الجزيرة يشبهونها من الرقبة إلى أسفل على أي حال. لكن ببل لم ير في حياته مثلها من الرقبة لأعلى.

برز ذقنها إلى الأمام. وبدت أسنانها صفراء ومنتظمة، ولم تكن متآكلة تمامًا مثل أسنان طفلة، كما لو كانت لم تستعملها أبدًا في معالجة جلود الحيوانات، وبدا وجهها منبسطًا وأنفها صغيرًا. شعرها مجعد أسود اللون قصير، وجبينها مسطح، وحاجبها عالٍ ومستقيم، ورأسها يشبه صخرة بارزة، ويختلف عن رأسه هو ذي الشكل المستدير، مثل درقة السلحفاة.

كانت بشرية من الناحية التشريحية، بشرية عصرية. ربما خرجت من نفق عبر الزمان قادمة من حشد مطار داروين أيام جوان يوسب. بالفعل لم يكن شيئًا أكثر دهشة لببل.

رمشت بعينيها وهي تنظر إليه وإلى جماعته — هاندز وكراي وغيرهما — الذين خرجوا ليروا ما يحدث، عند ذلك همهمت بكلام غير مفهوم، وأمسكت بالحربة وأشارت بها إلى ببل.

اندهش ببل وذعر.

بدا ذراع الحربة محزّزًا عند الطرف ومربوطًا بخيوط في الرأس. عبارة عن أسطوانة رفيعة لا يزيد سمكها عن سمك الإصبع في المنتصف، وبأحد طرفيها أنصال تشير إلى الجهة التي ستقذف فيها الحربة، ولم يكن سطحها أملس كأدواته؛ لكنه بدا أملس كالجلد.

لم تكن الحربة الأداة الوحيدة التي رآها بحوزتها. بل ارتدت قطعة جلد معالجة حول خصرها، أشبه بشبكة محاكة من سيقان نبات ومعلقة في رقبتها، وبداخلها مجموعة من الصخور المشكلة، بدت من الجرانيت وهو حجر يسهل تشكيله، رآه ببل عدة مرات أثناء رحلته خارج أفريقيا، لكن هذا الشاطئ لم يكن به حجر جرانيت مطلقًا. كيف وصل إلى هنا؟ وازدادت دهشته.

لكنه انتبه مرة أخرى إلى حد الرمح المصنوع من العظام.

استخدم قوم ببل العظام المكسورة في الحفر والطرق لمعالجة أسطح أدواتهم الحجرية، لكنهم لم يحاولوا تشكيلها. كانت العظام صعبة في العمل وفي التعامل وتتكسر بأشكال غير مرغوبة. لم ير شيئًا من قبل مثل هذه الدقة والتناسق والابتكار.

في المستقبل سيتذكرها دائمًا بهذه الأدوات الرائعة، سيتذكرها باسم هاربون (حربة). مد ببل يده بدون تفكير وبفضول ولمس رأس الحربة بأصابعه الطويلة العريضة.

فتراجعت المرأة وسحبت الحربة، وأظهر الذئب بجوارها أسنانه وزمجر.

فازداد التوتر وكان هاندز يحمل صخورًا ثقيلة أحضرها من على الشاطئ.

فرفع ببل يديه وقال «لا»، وجب عليه أن يبذل جهدًا كبيرًا لإقناع هاندز ألا يقذف الصخور. ولم يعلم لماذا يمنعه، فالغرباء ليسوا إلا أسبابًا للمشكلات، لكن المرأة والكلب لم يؤذياه.

نظرت إلى عضوه الذكري.

فنظر إلى أسفل، فرأى عضوه منتصبًا. وفجأة شعر بنبض في حلقه، وسخونة في وجهه، ورطوبة في راحتي يديه. كانت العلاقة شيئًا عاديًّا مع جرين وكراي وعادة ما كانت تشعره بالسعادة. لكن ماذا عن هذه المرأة الطفلة ذات الوجه المسطح القبيح والجسم الذي يشبه الحربة؟ إذا حاول أن ينام فوقها فمن الممكن أن يسحقها.

لكنه لم يشعر بمثل هذا الشعور منذ أول مرة له، عندما أتت إليه جرين وألقت بنفسها فوقه ذات ليلة.

زمجر الذئب؛ فجذبت هاربون رقبته ودلكته وقالت بلطف: «يا ... يا»، وكانت لا تزال تنظر إلى ببل وأسنانها ظاهرة، كانت تبتسم له.

فجأة شعر بالخجل، وكأنه غلام غير قادر على التحكم في جسمه، استدار وجرى ناحية البحر، وخاض فيه حتى غطت المياه معظم جسمه، ثم غطس ووجهه إلى أسفل، وأطبق فمه جيدًا، وأمسك بعضوه الذكري المنتصب وأخذ يدلكه، وتدفق المني الأبيض في المياه.

رفس الماء برجليه ليقف ويتنفس، وقلبه لا يزال يدق، لكن توتره قد زال. وخرج من الماء، وكانت الجروح التي أصابت ذراعه الليلة الماضية لم تشف، وتساقطت الدماء الحمراء المالحة من أثر مياه البحر على أصابعه.

رحلت المرأة. لكن أمكنه أن يرى آثار أقدام وكعوب رقيقة تتجه ناحية المكان الذي أقبلت منه، إلى ما بعد لسان الأرض، وهناك آثار أقدام ذات مخالب تتبعها.

مشى هاندز وكراي تجاهه. تفرست كراي في ببل بشك. ونادى هاندز قائلًا: «غريب، ذئب وغريب»، ثم ألقى بالصخور بغضب محدثًا صوتًا عاليًا. لم يفهم لماذا تصرف ببل هكذا، ولماذا لم يطارد أو يقتل الغريبة.

وفجأة عبر ببل عن عدم رضائه بحياته صارخًا: «يا ... يا»، ثم استدار بعيدًا عن الآخرين وأخذ يمشي متتبعًا آثار الأقدام التي خلفتها المرأة النحيلة.

أسرعت كراي خلفه منادية «لا، مشكلات، كوخ، طعام»، حتى إنها أمسكت يده ووضعتها على بطنها، وحاولت أن تنزلها إلى أسفل، لكنه لكمها في صدرها، فوقعت على الأرض حيث انبطحت وهي تنظر إليه بيأس.

٣

تتبع الآثار على طول الشاطئ، وغطت آثاره آثار هاربون ومحتها.

تغطى الشاطئ بالمحار والقشريات والنباتات البحرية، مثل عشب البحر وسمك القنديل ومئات أجزاء الحبار الملقاة. سرعان ما بدأ يعرق ويلهث وبدأ ردفاه وركبتاه يؤلمانه نذيرًا بألم المفاصل الذي سيصيبه في الكبر.

وعندما هدأ بدأت أفكار غريزية تراوده، تذكر أنه عار ووحيد.

نظر إلى الشاطئ حتى وجد صخرة كبيرة حادة تلائم حجم يده، واستمر في السير بمحاذاة الشاطئ، ومع أن الرمال ناعمة ورطبة فقد التصقت بقدميه، فعلى الأقل سار على جانب الشاطئ حتى يكون في مأمن في اتجاه من اتجاهات سيره.

وكانت آثار الأقدام وبجوارها آثار أقدام الذئب تدله في الرمال، وأخيرًا توقفت الآثار، ورأى في الظلام كوخًا.

وقف طويلًا يحدق فلم يجد أحدًا في الجوار، فاقترب بحذر.

بُني الكوخ أعلى شجيرات ألقيت على الأرض، وحيكت معًا من أعلاها، بل رآها معقودة — وليست محاكة — بمساعدة بعض الأوتار، وغطيت

بأغصان وأفرع ربطت في مكانها. وعلى فتحة الكوخ الدائرية رأى من بعيد أدوات وبعض الطمي.

لم يكن الكوخ مميزًا، بل بدا أكبر بقليل من كوخه، يتسع لنحو عشرين شخصًا أو أكثر، وهذا هو الفرق الوحيد.

غاصت قدماه قليلًا في الطمي على الأرض حول مدخل الكوخ، ثم دخل وهو ينظر جيدًا، فشم رائحة رماد قوية.

لم يكن الكوخ مظلمًا من الداخل بل ملأه ضوء بني دافئ، ورأى فتحة في أحد الجدران وقطعة من الجلد رفيعة تغطيه، بحيث تمنع الرياح لا الضوء، فتفقد الجلد بحثًا عن علامات أسنان لكنه لم يجدها. كيف يمكن إعداد الجلد دون استخدام الأسنان؟

نظر حوله، فوجد فضلات على الأرض؛ فضلات أطفال وآثار ذئاب أو ضباع، ووجد الكثير من بقايا الطعام مثل محار وأشواك أسماك، لكنه رأى أيضًا عظام حيوانات بعضها عليه قطع لحم. كانت مقطعة وممضوغة بقوة، وكانت غالبًا لحيوانات صغيرة كالخنازير أو الغزلان، فشعر بالقليل من الحقد. فهذا يعني أن هؤلاء القوم الشرسين احتفظوا بنتاج الغابة والمساحات الخضراء لأنفسهم.

فجلس وقاطع ساقيه، ونظر حوله بعد أن اعتادت عيناه على الظلام.

وجد بقايا نار؛ رقعة دائرية سوداء في الأرض. الرماد ساخن، يحترق في مكانه، وبحرص وضع إصبعه عند الطرف فغاص في طبقات من الرماد. ورأى حفرة محفورة في الأرض كالتي يوضع فيها الموتى، لكن هذه الحفرة لاحتواء النار. كان الرماد سميكًا، ورأى أن أيامًا وليالي من الاشتعال تسببت في كل هذا القدر من الرماد. وبجوار الحفرة قرب المدخل — حيث الرياح قوية — رأى صفًّا قصيرًا من الحصى قد ارتفع.

إنها مدفأة، إحدى أولى المدفئات التي صنعت في العالم، لم يكن ببل قد رأى شيئًا مثلها من قبل.

ورأى الأرض مغطاة بمساحات من خامة ما، فلمس أحدها واكتشف أنها لحاء أشجار، لكن اللحاء انتُزع بحرص من الأشجار وحيك وعولج

لصناعة هذه البطانية الناعمة. عندما رفع البطانية وجد حفرة في الأرض، مليئة بالطعام والبطاطا.

ووجد كومة من الأدوات، وأدرك أن هذا هو مكان صنع الأدوات الحجرية، ففتش في الأدوات، وجد بعضها غير مكتمل، لكنه لاحظ تنوعًا لافتًا، فرأى فؤوسًا وسواطير ومطارق حجرية وسكاكين وكاشطات وأشياء أخرى لم يعرفها.

ثم رأى ما بدا له فأسًا عاديًّا، صخرة مثبتة في ذراع من الأعلى، لكن الرأس مربوط بقوة بقطعة من نبتة متسلقة لدرجة أنه لم يستطع فكها. رأى في السابق السيقان المتسلقة وهي تخنق بعض النباتات، كأن شخصًا وضع رأس الفأس والذراع أمام ساق متسلقة حية وانتظر حتى أمسكت الساق بالأداة وربطتها بقوة أقوى من أي يد بشرية.

ثم رأى بعض الشباك كالتي حملتها هاربون على الشاطئ، كانت حقيبة بها أدوات حجرية وعظمية. رفع الحقيبة ليجربها على كتفه، كما رأى هاربون تفعل. ففصيلة ببل لم تصنع الحقائب، فحملوا فقط ما أمكنهم حمله في أيديهم أو على أكتافهم. وتفقد الشبكة الغريبة، فربما تكون ساقًا معترشًا أو متسلقًا، لكن الألياف لويت بقوة لتشكل حبلًا قويًّا أقوى من أي ساق.

فألقى الحقيبة وهو حائر.

بدا الكوخ يشبه كوخه لكنه ليس هو. فأولًا كان من الغريب أن يرى كل شيء منفصلًا، في منزله كانوا يأكلون ويصنعون الآلات حيثما شاءوا، ولم تكن المساحة مقسمة. أما هنا فبدا وجود مكان لتناول الطعام ومكان للنوم ولإشعال النار ولصنع الأدوات، بدا الأمر محيرًا.

«كو، كو، كو».

دخل رجل من المدخل، نحيف طويل، يشبه هاربون، وله نفس شكل الرأس الغريب، بدا على وجهه الضعيف الخوف، لكنه يمسك بيده رمحًا.

تدفق الأدرينالين في عروق ببل، فوقف بسرعة دارسًا خصمه.

كان الرجل يرتدي جلدًا مربوطًا وبدا نحيفًا جدًّا، بعضلات قاسية. لا يمكنه مواجهة قوة ببل الوحشية، وسلاحه ليس إلا رمح خشبي منحوت،

خفيف الوزن، فلم يكن رمحًا قويًّا ليصارعه في هذه المساحة الضيقة. بمقدور ببل قطع هذه الرقبة الهزيلة بسهولة.

لكن الرجل الخائف نظر بإصرار، ونادى ثانية: «كو، كو، كو». وخطى خطوة للأمام، فزمجر ببل واستعد لملاقاة الضربة.

فجأة جاءت هاربون وقالت: «يا، يا»، فأمسكته من ذراعه، لكنه حاول الإفلات، ودار بينهما حوار — بكلمات غير مفهومة — لا تحتوي على جمل ذات معنى، بل تكرار وحدة صوت وإشارات توكيدية. وبعدما انتهيا من الحوار الطويل، حدق الرجل في ببل وبصق على الأرض ثم خرج.

وبحذر اقتحمت هاربون الكوخ ونظرت إلى ببل، وجلست على الأرض وعيناها تلمعان في الظلام.

وجلس ببل أمامها ببطء.

بعد فترة مدت هاربون يدها أسفل البطانية وأخرجت ثمرة باوباب، ومدت يدها إلى ببل الذي أخذها بعد تردد. وجلسا معًا على الأرض كفصيلتين بشريتين، وكلاهما ينظر إلى الآخر بدون كلام.

لكن المهم أن أحدهما لم يحاول قتل الآخر.

بعد ذلك اليوم شعر ببل بعدم راحة دائمة في منزله ومع قومه.

وبدا أن الأشخاص النحيلين يتقبلونه، والرجل الطويل الذي صادفه ببل في الكوخ هو «كوكو»، نظرًا لأن ببل ظل يتذكره بالصيحة التي صاحها «كو، كو». لكنه لم يثق بصحبته! لكن بدا أن هاربون تثق به، وكانا يصنعان الأدوات معًا، متفاخرة بمهارات أصابعها الرقيقة وهو متفاخر بقوته الهائلة. نظرا عبر البحر على الجزيرة الغنية، الأمر الذي أزعج ببل باستمرار.

حاول كل منهما أن يفهم لغة الآخر، لكن لم يكن الأمر سهلًا، فهناك كلمات كثيرة مثل كلمة «غرب» التي تشير إلى اتجاه، وهي كلمة لم يحتجها أسلاف ببل مطلقًا.

وذهبا إلى الصيد معًا.

إن الوافدين صيادون بالكمائن أو نابشو بقايا، اعتمدوا على المكر بدلًا من الوحشية في القتل نظرًا لبنيتهم النحيفة والضعيفة، جمعوا أسلحتهم

المفضلة في القذف لا الضرب. بدوا مرحبين بإسهامات ببل القوية عند الاقتراب من مرحلة قتل الفريسة، عندما يحين وقت الإجهاز على الضحية من قرب.

في هذه الأثناء بدأت علاقة جديدة بين هذين النوعين من البشر، لم يتصارعا، ولم يتجاهل أحدهما الآخر، كما هو الحال بين البشر.

بل تاجرا (تقايضا)، ففي مقابل فواكه البحر وبعض المصنوعات اليدوية كالرماح القوية تلقى قوم ببل أدوات من العظام واللحوم ومح العظام والجلود وبعض المواد الغريبة كالعسل.

وعلى الرغم من مزايا العلاقة الجديدة فقد شعر الكثيرون من قوم ببل بعدم الراحة، استكشف هاندز وسيل إمكانيات الأدوات الجديدة، وبدت دست العجوز غارقة في شعور باللامبالاة، لكن كراي عدائية نحو الأشخاص الجدد، وخاصة نحو هاربون. فلم يعجبها سير الأمور على هذا الحال.

كراي من قوم متحفظين جدًّا، انتقلوا إلى منزل جديد فقط عندما اضطروا لذلك بسبب العصر الجليدي. لكن على كل حال تاجرت القبيلتان، لأن المزايا لا يمكن إنكارها.

تمكنت هاربون من منع كوكو من قتل ببل لأنه لم يكن مصدر تهديد دائمًا. لا بد من التفكير بهذا المنطق إذا أردت أن تتاجر.

إن طريقة التفكير هذه جديدة تمامًا على الهومينيد، لكن حينها لم يكن نوع هاربون يبلغ من العمر سوى خمسة آلاف سنة.

عاش مجموعة من الناس لا يختلفون عن ببل على شاطئ يشبه هذا الشاطئ على الساحل الشرقي لأفريقيا الجنوبية. امتلأ الشاطئ بصخور رسوبية غليظة لونها أصفر فاتح. كانت النباتات جديدة على هذه البقعة من العالم، فهي نباتات قديمة تذكر بأيام رومر، معظمها من الشجيرات والأشجار المغطاة بزهور ضخمة شوكية. هذا مكان غني لمن يريد الحياة فيه؛ فالبحر معطاء يوفر بلح البحر والأسماك والطيور البحرية. في بعض الأماكن تمتد الغابة إلى الشاطئ وصدى صيحات القردة والعصافير يتردد فيها، وفي الأماكن التي تقل فيها كثافة الأشجار يوجد الكثير من الحيوانات من بينها وحيد القرن وغزلان صغيرة وخنازير برية وأفيال وأبقار ذات قرون طويلة وأحصنة عملاقة.

في هذا المكان أنشأ أسلاف هاربون بيتًا قريبًا من البحر. ومثل جماعة ببل عاشوا هناك عقودًا لا تحصى واحتلت عظامهم طبقات كثيفة من باطن الأرض. من هذا المكان سينطلقون في أنحاء الأرض، لكنهم لن يبتعدوا عن بيتهم مسافةً تزيد عن بضع كيلومترات.

لكن عندها تدهور المناخ فجأة وفاض المحيط غامرًا بيت أسلافهم. ومثلما حدث لجماعة ببل اضطروا للهرب. ومثلما حدث لجماعة ببل فلم يكن أمامهم مكان يذهبوا إليه وقد تاهوا في أرض مزدحمة.

بدأ الأمر عاديًّا، تجولت امرأة — جدة هاربون العليا — وسارت بعيدًا بمحاذاة وادي النهر وشقت الأرض الجافة، في هذا السهل والمستنقعات الموسمية قدمت التربة المالحة والمرتوية جيدًا بيئة خصبة لكثير من الأعشاب والبقول والكروم والأزهار والأروروت الحولية. بعد أعوام في المستنقعات زادت مهارة هذه المرأة في استخدام الأدوات الخشبية البدائية، واستخدمت يديها في جمع النباتات من المناطق المشبعة بالمياه. ملأت معدتها بالفعل وبدأت تجمع بعض الجذور لتعود بها إلى المنزل لأطفالها.

ثم صادفت غريبًا، إنه رجل — من جماعة أخرى من أعالي النهر — يستخدم سكينًا من البازلت لسلخ أرنب، حدق أحدهما في الآخر، وأحدهما يحمل لحمًا والآخر جذورًا. يمكنها الهرب أو محاولة قتل الآخر، لكنهما لم يفعلا ذلك.

بل قايضا اللحم بالجذور، ثم مضى كل منهما في طريقه.

وبعض بضعة أيام عادت المرأة نفسها إلى البقعة نفسها، وعاد الرجل كذلك، وكانا متشككين وعابسين ولا يفهمان ما يقوله الآخر، لكنهما قايضا الطعام ثانية، وهذه المرة كان المحار والأسماك من النهر مقابل سكينتين من البازلت.

هكذا بدأ الأمر، عندما لم يجد سكان المستنقع كل ما يحتاجون إليه للبقاء على قيد الحياة في قطعة الأرض التي ورثوها، قايضا منتجات البحر والمستنقع والسهل مع اللحم والجلد والصخور والفاكهة.

بعد تعاقب جيلين هاجرا عن المكان، وبدآ حياة جديدة. أصبحوا رحالًا بكل معنى الكلمة، يسيرون بطول الطرق الطبيعية الواسعة، والشواطئ

ومجاري المياه الداخلية، وحيثما ذهبوا قايضوا. وكلما تحركوا انشقوا وانتشروا وزادت شبكات التجارة. وسرعان ما أصبح من الممكن العثور على قطع الصخور المشكلة على بُعد مئات الكيلومترات من مكان تكونها، وعثروا على أصداف على أعماق كبيرة.

مثلت الحياة بهذا الأسلوب تحديًا، فالتجارة أدت إلى رسم خريطة جديدة للعالم، ولم يعد الآخرون أشكالًا تظهر من بعيد كالصخور والأشجار، بل وجب الاحتفاظ بسجل حول الأشخاص الذين يعيشون في كل مكان، وما يمكنهم تقديمه ومدى ودهم وأمانتهم. زاد الضغط على ساكني المستنقع ليصبحوا أذكياء وبسرعة.

تغير شكل رؤوسهم تغيرًا كبيرًا، فزاد حجم جمجمتهم لتتسع لعقول أكبر من ذي قبل، ولعب تغير الأنظمة الغذائية وأنماط الحياة دورًا كبيرًا في تغير شكل وجوههم. فلم يعودوا يمضغون الأطعمة القاسية غير المطهوة أو يعالجون الجلد بأسنانهم، فأصبحت جذور أسنانهم أقل طولًا. ومع تلاشي عضلات المضغ قصرت الأسنان العليا وتراجعت، وأصبح الفك السفلي يبرز إلى اليسار وتراجع الوجه إلى الخلف قليلًا، وفقدت هذه الهومينيدات آخر أثر لأنف القرد القديمة. ومع اختلاف شكل الأنف والجبهة المستديرة اختلف شكل عضلات الوجه واختفت عظام الحاجبين البارزة.

وفي هذه الأثناء عندما بدأت كائنات الهومينيد تزداد ذكاءً لم تكن هناك حاجة لأن تحتفظ بقوتها نفسها. عكست أجسادهم الكثير من قوة أسلافهم القريبين بالإضافة إلى رشاقة جماعة فار.

لم يكن انطباع ببل الأولي عن هاربون التي تشبه الأطفال انطباعًا عرضيًّا، فبالنظر لمقاييس وجوه وعظام هؤلاء القوم الجدد مقارنة بأسلافهم فإنهم كانوا يشبهون الأطفال الذين توقفوا عن النمو تقريبًا. وبالطريقة نفسها تحت ضغط الانتقاء الشديد تنوعت الجينات بسرعة وتغيرت؛ فحسنت بسهولة من معدلات النمو النسبية لمقاييس الجمجمة.

كل تلك التغييرات تمت في غضون بضعة آلاف سنة. بعد هذه العملية صارت هاربون تشبه تمامًا البشر الذين يعيشون في عصر جوان يوسب من حيث بنية الجسد، وهذا يتضمن جمجمتها وشكل عقلها. واعتادت أن

تطبق نظام المقايضة، وهذه طريقة جديدة للتعامل مع الناس جعلتهم على الحال التي صاروا عليها.

لكن هاربون لم تصبح بشرية بعد.

أصبحت تبتكر أكثر، وتنظم حياتها أكثر قليلًا. على سبيل المثال بنى قومها المواقد، لكن حقيبة أدواتها لم تتطور كثيرًا عن حقيبة أدوات ببل وأسلافه. لغتها ظلت التمتمة نفسها غير المنظمة. كثير من طريقة حياتها ورثته من النوع الذي انحدرت منه دون أن تدخل عليه كثيرًا من التعديل، كحياتها الجنسية على سبيل المثال. لكن لا يزال في عقلها مشكلات عويصة، كفقدان الارتباطات والعلاقات في برمجة عقلها العصبية. لو أن أحدًا من البشر الذين عاشوا في عصر جوان يوسب عاد إلى عصر أسلافه، لجُن جنونه في الحال بسبب رتابة الحياة والروتين وافتقاد الفنون واللغة، بسبب الملل والكآبة اللذين يخلفهما افتقار الحياة إلى الثراء.

وسواءً أكانت بنية هذا الجمع كبنية البشر أم لا فإنهم لم يحققوا نجاحًا مبهرًا. ومع أنهم انطلقوا من مناطق مولدهم في المستنقع الجنوبي الشرقي، وانتشروا في أنحاء أفريقيا فإن أسلوب حياتهم ظل بدائيًّا. من الصعب أن تطبق نظام المقايضة إذا لم يكن هناك من يرغب في أن يقايضك. في هذا الوقت أيضًا ظل نجاح الرحّل الجدد في البقاء على قيد الحيان محفوفًا بالمخاطر، ومعظم المجموعات الناجية في أنحاء القارة لن تبقى على قيد الحياة.

قدِّر على ذرية هاربون أن تمر بعنق الزجاجة، وجيناتهم ستظل تحمل بصمة هذا الحدث. سنجد في المستقبل الآلاف المؤلفة التي ستخرج من هذه البذرة غير الواعدة متطابقة جينيًّا تمامًا، فالبشر جميعًا أقرباء.

وصلت علاقة ببل بهاربون إلى ذروتها أثناء رحلة صيد.

ففي أحد الأيام وجد ببل نفسه مختبئًا في موقع قريب من قطيع من الخيل العملاقة التي ترعى في الحشائش الطويلة بسلام. هذا المخبأ لم يعد أن يكون جدارًا من الشجيرات يقف على منحدر وتتشابك فروعه ويكسوه سعف النخل والحشائش. ربض ببل في هذا المكان واضعًا رمحه بجواره ومحدقًا في الحيوان الأعرج الكبير الذي جعله هدفًا له. وهاربون بجواره.

شعر بالتوتر والأدرينالين يتدفق في عروقه، تمتلئ رأسه بحرارة النهار ورائحة الخيل.

وإذ به يشعر بأصابعها على وجهه.

فاستدار. بدا أن جلدها يتلألأ تحت الظلال الخضراء. تحسست الخطوط المرسومة على جسده ذات اللون الأصفر المائل إلى البرتقالي، ثم انتقلت أصابعها الرقيقة إلى ذراعه، إلى الجروح التي استغرقت وقتًا طويلًا لتشفى والتي اعتاد أن يصيب بها نفسه. جعلت كل لمسة من لمساتها جسده يرتجف، وكأن أصابعها خلقت من ثلج أو من نار.

سار بأصابعه على ذراعها. أحاطت قبضته بساعدها إحاطة كاملة وكأنها ساق عصفور. شعر أنه من الممكن أن يكسر عظمتها بحركة واحدة. فجأة انتابته المشاعر نفسها التي اعتملت بداخله أول مرة قابلها فيها على الشاطئ. شعر بجفاف في حلقه وبانقباض حنجرته.

لم يفهم تلك الرغبة، الرغبة التي لم تفارقه أبدًا. فكر في الأدوات الرائعة التي تصنعها، وفي خطواتها الطويلة الرشيقة على الأرض، وفي الطعام الذي تحضره لعشيرته، وفي طرف الرمح المبهر الذي لم يتصور إمكانية صنع مثله قبل ذاك اليوم. فيها شيءٌ يتوق إليه جسده توقًا لا يحتمله.

انقلب على ظهره، وتحت ظلال المخبأ الذي يتردد فيه صوت حفيف الأشجار، فتحت قدميه وابتسمت.

٤

كان كل تجمع من أحجار الجرانيت مقبرة مصغرة، وفي بعض المناطق من البحر المختفي منذ زمن بعيد استقرت جثث القشريات في الرواسب، وتحولت الإبر الزجاجية المتناهية في الصغر التي شكّلت ذات يوم هياكل الإسفنجيات إلى كتل صلبة من الجرانيت بداخل الطبقات الطباشيرية المتجمعة.

أحب ببل دائمًا ملمس الجرانيت، فأدار صخرة هشة ناعمة السطح على يديه وتحسس هيكلها. اعتاد مشكلو أحجار الجرانيت معرفة كل الخصائص الدقيقة للحجر، وكلما زاد تعرض الجرانيت لعوامل التعرية، زاد احتمال اشتماله على كسور يتعرض لها بفعل الصقيع أو تلاطمه مع

تيارات المحيط أو النهر. إلا أن هذا الجرانيت لم تتكون على سطحه تلك الطبقة البيضاء المزرقة التي تتكون عادة بفعل التعرض للعوامل الجوية، بل كان نقيًّا ونظيفًا. ولم يكشف النقاب عن هذا الجرانيت الموجود بداخل الطبقة الطباشيرية إلا مؤخرًا بعد أن انهار الجرف. ولم يكن بإمكان المرء الحصول على مثل هذا النوع من الجرانيت في هذه المنطقة وفي أي مكان داخل هذا النطاق المكاني القديم للأفراد. افتقد ببل الجرانيت الجيد في السنوات الطويلة التي قضاها على هذا الشاطئ، قبل أن تدخل هاربون حياته.

وحين نقارن حال ببل الآن بوقت عمله في الأحجار، نستطيع أن نقول إنه لم يكن أكثر سعادة ولا أشد حزنًا مما مضى.

مرت سبع سنوات على لقائه الأول بهاربون، وأصبح ببل في السادسة والعشرين من العمر، وفي ذلك الحين كان جسده قد ذبل وظهرت علي جلده ندوب تركتها التحديات المتراكمة لحياة لم تكن يومًا سهلة على الرغم من تعاون عشيرته مع الوافدين الجدد إليها.

شمل ببل هاربون بعطفه وحنانه، كما رحب بالتجديد والتغيرات التي جلبتها، ولكن تلك التغيرات أصبحت محيرة في حد ذاتها، فقد كان عقل ببل غاية في التحفظ، وبتقدمه في العمر تزايد استمتاعه بتلك الأوقات التي يمضيها وحيدًا مع الحجر، حيث كان وقتها يستطيع أن يتقوقع داخل تجاويف عقله الفسيح.

ولكن هذا الوقت الذي ساده الهدوء لم يستمر.

«هاي، هاي، هاي! هاي، هاي، هاي!»

ها قد جاء ابنه وابنته؛ سانست القصير وسموز الطويلة النحيلة وهما يعدوان على الشاطئ جنبًا إلى جنب، ويثرثران باللهجة العامية التي نتجت عن الدمج بين لغة ببل ولغة هاربون. «تعال ... تعال هنا معنا!» أراد الطفلان منه — وكانا عاريين واكتسى جسداهما بقشور من آثار الملح والعرق — أن يصاحبهما ليشارك كو-كو والآخرين في دفع جذوع الأشجار إلى البحر.

تظاهر ببل بأنه لا يسمعهما إلى أن أصبحا تقريبًا فوق رأسه، ثم أمسك بهما صائحًا، وتدحرج ثلاثتهم على الرمل وهم يتصارعون. وفي نهاية الأمر رق ببل، وطرح حجر الجرانيت جانبًا ثم وقف وتحرك بتثاقل وراء الطفلين على الشاطئ.

كان الصباح مشرقًا، والحرارة شديدة، والجو مليئًا برائحة الملح والهواء المنعش. وبينما جرى الطفلان مندفعين أمامه وهو يمشي بتثاقل، وسموز تسابق شقيقها وتتعداه سريعًا، شعر ببل لوهلة بالفرح لنشاطهما النابض بالحياة. لم يكن هذا المكان أبدًا ليصبح موطنه، ولكن كان له متعة.

كان كو-كو وهاندز وسيل يصنعون ما يشبه الطوف في حين جلست هاربون في المكان نفسه تسند يديها على بطنها المنتفخة، وارتسمت على شفتيها ابتسامة عريضة عند اقتراب ببل منها.

قطع الرجال نخلتين ضخمتين من الغابات الواقعة داخل البلاد، ونزعوا منهما الفروع، وثبتوهما معًا بالنباتات المعترشة المجدولة. بعدئذٍ سحب هاندز وسيل هذا البنيان البسيط على الرمال وأنزلاه إلى الماء. شهدت هذه العملية جهدًا شاقًّا وثرثرة بكلام غير واضح: «ادفع، ادفع، ادفع! إلى الخلف، ارجع إلى الخلف، لا، الخلف، الخلف ...» «مرحبًا يا رفاق!»

انضم ببل إلى هاندز وسيل في مهمتهما. غير أن المهمة كانت شاقة رغم اشتراك الثلاثة في أدائها. وبعد قليل بدأ جسد ببل يعرق مثل الآخرين بينما غطت ساقيه الرمال الساخنة لتلسعهما. حاول كو-كو تقديم المساعدة إلا أن هؤلاء القوم الأقوياء لم يكن يجاريهم أحد في قوتهم الجسدية المطلقة. كان الطفلان يساعدانهم ويمثلان لهم عائقًا في ذات الوقت، وكذلك كان الذئب رفيق هاربون الذي جرى بين أقدامهم وهو يعوي يعيقهم هو الآخر.

تمتع هذا الذئب — الذي ولد لأم في الأسر — بكل خصال الذئاب فيما عدا أنه لم يكن متوحشًا. وكانت هذه الحقيقة بداية لعلاقة كانت أطول من أي علاقة أُقيمت بين البشر والحيوانات؛ علاقة سيكون من المقدر لها تشكيل الجنسين في نهاية الأمر.

لم ينس ببل أبدًا عزمه على الوصول إلى الجزيرة. وبينما يجلس مستغرقًا في تفكيره في الشاطئ الذي يرنو إليه، شاهد غلمانًا نحافًا يلعبون

بقطع من الخشب الطافي فوق الماء، وعندئذ تبادرت إلى ذهنه العلاقة بين ما يفعلونه وما يفكر فيه.

وفي غابات «المنجروف» التي كانوا يعيشون بها اضطر أسلاف هاربون (زوجة ببل) — الذين لا يتميزون في السباحة عن ببل — إلى البحث عن طرق لعبور المياه التي تعج بالتماسيح. وبعد الكثير من المحاولة والخطأ — وكانت عقوبة كل خطأ إما الإصابة بجراح في غاية الخطورة وإما الموت — اكتشفوا بالصدفة طريقة لاستخدام جذوع أشجار المنجروف بحيث يمكن للمرء الانتقال على جذع الشجرة من مكان إلى آخر وهو يستلقي فوقه ويجدف بيديه. وفي أثناء كل رحلاتهم، لم ينس الغلمان النحاف هذا الأسلوب الأساسي، وكان هذا هو ما رأى ببل الغلمان يحاولون فعله بقطع الخشب الطافية فوق سطح الماء. وأخيرًا وجد ببل ضالته في الطريقة التي يمكنه بها الوصول إلى الجزيرة.

غير أن تحريك جذع شجرة بالتجديف في مياه راكدة في غابات المنجروف شيء، والبراعة في التجديف بين الأمواج المتلاطمة في القناة المتفرعة من المحيط شيء يختلف تمام الإختلاف.

وبعد تذوقهم مرارة الفشل الذريع بضع مرات تفتق ذهن كو-كو المبتكر عن فكرة ربط جذعين معًا، فبهذه الطريقة على الأقل يمكن الحصول على قدر أكبر من الثبات. إلا أن هذه العوامات المصغرة كانت لا تزال عرضة للانقلاب.

وأخيرًا جاءوا بالجذعين إلى المياه، وطفا وهما مربوطان معًا ليكوّنا سطحًا ثابتًا.

ألقى كو-كو وهاندز بنفسيهما إلى مقدمة الجذعين مما تسبب في إحداث طرطشة قوية بالماء. رقد الاثنان منبسطين على الجذعين وأرجلهما ممتدة إلى الخلف، وبدآ يجدفان في الماء. وابتعدا عن الشاطئ ببطء ولكنّ الأمواج جعلت الجذعين يرتفعان وينخفضان، وفي نهاية الأمر انقلب الجذعان بمن عليهما في الماء، ثم تفككت الروابط بين الجذعين.

رجع هاندز مترنحًا ومتذمرًا يبصق ما ابتلعه من الماء، ثم بمعاونة كو-كو سحب الجذعين خارج الماء ووضعهما على الشاطئ.

أدرك ببل أنه لم يكن هناك أي خطر يتهددهما بما أن المياه ضحلة، مما يمكّنهم من السير إلى الشاطئ. ولكن بعيدًا عن هذا الموضع كان عمق الماء يزيد في المكان الذي يجب عليهم عبوره إذا رغبوا في الوصول إلى الجزيرة.

وهكذا استمروا في العمل مجربين طرقًا مختلفة مرة تلو الأخرى.

وتغير الكثير في حياة ببل على مدار سبع سنوات.

وتدريجيًّا اختفى من حياته كل من جاء معه من قرية فلاتنوز، أما هايينا فلم يشف من الطعنه التي تعرض لها فمات ودُفن، ولم يمر وقت طويل حتى دُفن داست أيضًا. وتدريجيًّا بدت أم ببل معجبة بهاربون: تلك الدخيلة الغريبة التي على علاقة بابنها، ولكنّ سهولة انقيادها المتزايدة تغلبت في النهاية على قوة عزيمتها.

ولكن كما هو الحال دائمًا نفس تموت ونفس تولد. كان طفلاه قريبين في العمر — في السادسة والسابعة من عمرهما — إلا أنهما كانا شديدي الاختلاف.

وسانست هو الأخ الأصغر إذ يبلغ من العمر ست سنوات، وهو ثمرة زواج فاتر بين ببل وكراي التي استمرت في مطاردته طويلًا بعد أن أقام علاقة مع هاربون. كان سانست قصير القامة بدينًا مفعمًا بالطاقة والحيوية وكثير العضلات، وله بروز أعلى جبهته يصنع ظلًّا على وجهه، وشعره لا يزال يحتفظ بلونه الأحمر النادر الذي وُلد به، وهو لون غروب الشمس في العصر الجليدي.

لم يُسْعِد سانست كراي المسكينة على الإطلاق، إذ ماتت وهي تنجبه، معترضة إلى آخر لحظات في حياتها على وجود أفراد جدد بينهما.

أما ثاني أطفال ببل فهي طفلة تُدعى سموز وقد أنجبتها هاربون. ومع أنها تشبه أباها في شيء من قصره وبنية جسده القوية، فقد كانت أكثر شبهًا لنوع أمها. وكانت بالفعل أطول من سانست، وفي كل مرة يراها ببل يندهش من وجهها المسطح وجبهتها غير البارزة التي تعلو عينيها الصافيتين.

لم يكن لدى ببل أي سبب يدعوه للشعور بالمفاجأة عندما أثمرت علاقته الجنسية بهاربون طفلة. وفي الواقع حملت هاربون مرةً أخرى، ولم

تكن التغيرات بين سلالة الأسلاف وجيل هاربون — مع أنها كانت اختلافات شاسعة للغاية — أساسية بدرجة تعيق نوعي الأفراد عن التهجين، ولا تجعل أطفالهم الهجين عقيمين حقًّا، بل سيتمتعون بالخصوبة.

من ثم فإن جينات هاربون المعدلة — وتكوينها الجسماني وأسلوب حياتها الجديدين — بدأت في الانتشار من خلال عدد السكان الأكبر من الأقوياء. وبذلك فإن اتجاه المصير الجيني سوف ينتقل من خلال سموز، التي هي طفلة طاغية القوة على شكل إنسان؛ إلى المستقبل.

فور أن انقضت فترة بعد الظهيرة ببطء استمر الرجال في محاولة استخدام جذوع الأشجار كطوف، وذلك بناءً على تصميم ببل.

كان الأمر محبطًا، ولم يملكوا سبيلًا إلى مناقشة أفكارهم إذ كانت لغتهم أبسط من أن تؤدي هذا الغرض، ولم يكن الوافدون مبدعين في التعامل مع التكنولوجيا؛ إذ إن جدران الحجيرات في عقولهم شديدة التخصص تمنعهم عن الإدراك الكامل لما يفعلونه. إنهم لم يكونوا قادرين على إمعان التفكير في النتائج، وكان الأمر شبيهًا بمحاولة تعلم مهارة جسدية جديدة مثل ركوب الدراجات، وأي جهد واعٍ لن يفيد. وإلى جانب ذلك لم يكن العمل منسقًا ولم يتقدم إلا عندما يكون شخص ما شديد التحمس بما يكفي للسيطرة على الباقين.

لكن أخيرًا، وعلى نحو مفاجئ، توصل كو-كو إلى حل. قفز كو-كو في الماء وقال: «نعم، نعم!» وبصيحات وضربات جنونية أجبر السباحين على الإمساك بجذع واحد وجعله يطفو فوق سطح الماء، ثم ذهب إلى الطرف الآخر من الجذع — عائمًا بقوة بمفرده — ووجه الجذع الخشبي عبر الأمواج المتلاطمة بالقرب من الشاطئ إلى المياه الأبعد الأكثر هدوءًا.

شاهد ببل هذا الحدث واندهش له. لقد نجح؛ استخدموا الجذع كطوف بدلًا من ركوبه لمساعدة من لا يجيدون السباحة منهم. وسريعًا ما أصبح الجذع بعيدًا جدًّا عن الشاطئ بحيث إن كل ما استطاع رؤيته هو صفّ من الرءوس المتحركة إلى أعلى وإلى أسفل والشريط الأسود للجذع بين هؤلاء الأفراد.

استطاع الأفراد الأقوياء، ثقيلو الوزن إلى درجة تعوق قدرتهم على السباحة عبور الماء بعيدًا عن الأماكن العميقة وذلك بالتشبث بالجذع والتجديف بكل طاقاتهم وحماستهم، واتضح للجميع أنهم على الأقل وجدوا سبيلًا لعبور الممر المائي الذي عاق ببل لسنوات.

أطلق ببل صيحة الانتصار، وجرى طفلاه إليه فحمل سموز ودار بها مطلقًا صيحة طويلة في الجو المشمس بينما أمسك سانست بساقيه ساعيًا لاستعارة انتباهه.

هبطت الجماعة المغيرة على جزء هلالي الشكل صغير الحجم من الرمال المبعثرة عليها القواقع والمستقرة أسفل جدران صخرة متآكلة زرقاء اللون. مشت الجماعة مترنحة خارجة من المياه ورقدت لاهثة على الشاطئ. وعلى الفور رأى ببل أن الجميع — سواءٌ الأقوياء أم النحاف — شقوا طريقهم إلى الشاطئ.

كان العبور أصعب مما تخيل ببل. إنه لم يكن يستطيع مطلقًا نسيان ذلك الشعور البغيض عندما توقف فوق الأعماق المظلمة للمياه الزرقاء حيث تسبح كائنات مجهولة، إلا أن هذا الأمر انتهى الآن.

وحينئذٍ كان كو-كو يعمل بالفعل. وحتى يكون قدوة كان يجر الجذوع الخشبية إلى الشاطئ. بدأ المحاربون — الذين بلغ عددهم اثني عشر من الأقوياء واثني عشر من الضعاف — يفرغون ما معهم من معدات. وربطت بعض الأسلحة على ظهورهم أو في حقائب من الشباك، وربطت بعضها — وهي الرماح الطويلة التي يستخدمها النحاف — في الجذوع نفسها.

مررت هاربون يدها برفق على بطنها وحدقت النظر في البحر تجاه الطريق الذي جاءوا منه. لمست الشارات العمودية المرسومة على وجه ببل باللون الأصفر المائل إلى البرتقالي، تمامًا كما فعلت أول مرة مارسا فيها الحب. إلا أنها الآن تحمل على وجهها العلامات الشرسة نفسها التي على وجهه. ابتسم ببل لها ابتسامة عريضة وردت عليه بابتسامة مثلها.

وبعد أن وحدت الرموز المرسومة على الوجوه هذين النوعين المختلفين استعدا لشن حرب على طرف ثالث.

صرخت إحدى السيدات، واستدار ببل وهاربون فوجدا أن صخرة ثقيلة بازلتية سقطت على الشاطئ لتستقر فوق ساق سيدة نحيفة. وعندما أزيحت الصخرة ظهرت قدمها محطمة وغارقة في دمائها. بدأت السيدة في البكاء، وسالت دموعها على خديها ملطخة الشارات المرسومة على وجهها.

غمغم الناس مشيرين إلى المنحدرات الصخرية. «هناك، هناك!»

حدق ببل بنظره إلى أعلى وهو يستر عينيه بيديه. لقد تحرك شيء بأعلى، وكان هذا الشيء رأسًا وكتفين غير عريضين. أدرك ببل أن الصخرة لم تسقط من تلقاء نفسها بل دفعها أحدهم أو ألقاها.

إذن فقد بدأت الحرب، من ثم أمسك ببل رمحه القوي وأطلق صيحة تحدٍّ، ثم ركض بطول الشاطئ وتبعه الناس.

على بُعد بضع مئات الأمتار، حل محل هذا الشاطئ المحاط بحواجز طبيعية مساحات مفتوحة بقدر أكبر من كثبان الرمال والمراعي. وفي مساحات الأرض المفتوحة رأى ببل مجموعة من الهومينيد الأشباح. كان يزيد عددهم عن العشرين، منهم السيدات والرجال والأطفال والرضع. وقد تجمعوا حول جثة ظبي ضخم صريع.

عندما رأوا ببل وقفوا ناظرين إليه.

انطلق ببل إلى الأمام صائحًا.

استدار بعض الهومينيد وجروا؛ بعضهم من الرجال وكذلك الأمهات اللائي كن يحملن أبنائهنّ الرضع، بينما ثبت آخرون في أماكنهم. التقطوا الصخور وبدءوا يقذفونها تجاه الدخلاء كما لو كانوا يحاولون إبعاد ضباع تهاجمهم. كان هؤلاء الأفراد طوال القامة نحافًا وعرايا، وكانت أجسادهم شبيهة ظاهريًّا بجسد هاربون إلا أن رءوسهم كانت مختلفة اختلافًا شديدًا؛ وجوههم ممتلئة وقصيرة وبارزة للأمام، وعظام جبهاتهم قوية، وجماجمهم مسطحة.

كان الهومينيد تنويعًا حدث مؤخرًا للهومو إريكتوس. جاءت هذه المجموعة إلى الجزيرة عندما غطى الجليد مياه البحر مما جعل الجزيرة

تلتحم مع اليابسة. وعندما ذاب الجليد وعاد منسوب مياه البحر إلى الارتفاع مرة أخرى ظل هؤلاء على قيد الحياة بينما مات باقي نوعهم لأنه لم يعرف أحد آخر كيفية عبور الممر الضيق متلاطم الأمواج لأخذ هذه الجزيرة منهم.

لم يستطع أحد العبور حتى الآن.

أمسك أحد الذكور — وكان أكثر ضخامة من الباقين — ببلطة ثقيلة ضخمة وجاء يعدو تجاه هاندز. وعندئذ صاح هاندز القوي الضخم وهو ممسك برمحه الثقيل بين قبضتي يديه. وبسرعة خاطفة تجنب هذا الذكر ضربة هاندز، ثم ضربه ببلطته في مؤخرة عنقه. سالت دماء هاندز الذي ترنح وسقط على وجهه. ومع ذلك قاوم واستدار على ظهره، وتشبع الوحل بدمه. فحاول رفع رمحه إلا أن الذكر الضخم وقف فوقه رافعًا بلطته مستعدًّا للإجهاز عليه.

استشاط ببل غضبًا، فرشق رمحه في ظهر الرجل. كان رمح ببل قد نجح فيما مضى في اختراق جلد فيل صغير وقفصه الصدري، ولذا فلم تواجهه متاعب تذكر في اختراقه لجلد وضلوع وقلب الهومينيد. وبعدها رفع ببل جثة الذكر عاليًا مثل سمكة صيدت برمح، سالت الدماء من فم وظهر الهومينيد، وتدفقت مادة قرمزية اللون لزجة على قصبة الرمح وفوق ذراعي ببل.

عندما انتهى الأمر جثا ببل بجانب هاندز، إلا أن الرجل الضخم لم يكن يتحرك، وكانت أطرافه ذات العضلات الكثيرة مغروستين في الوحل. شعر ببل بالأسى والحزن لفقدان رفيق آخر. ولذا وقف، ويداه وذراعاه مخضبتان بالدماء، ساعيًا نحو خوض المعركة التالية.

ولكن كان العراة الأشبه بالأشباح قد فروا، وقذف النحاف رماحهم التي استخدمت النار في نزع الرطوبة من خشبها لتكون أكثر قوة، وانهالت الرماح على الهومينيد الفارين.

ارتجف ببل، سعيدًا لأنه لم يكن هو من يطارده النحاف بهذه السعادة المميتة، إلا أنه التقط رمحه، وركض خلف حلفائه تاركًا جثة هاندز ليلتهمها الضباع.

كان قتل إحدى القوات للأخرى بطريقة نظامية شائعًا بين العديد من الأنواع الاجتماعية والحيوانات آكلة اللحوم — مثل النمل والذئاب والأسود والقرود. وفي هذه الحالة لم يكن سلوك الأفراد — كما هو في حالات أخرى — أكثر من مجرد اشتقاق لجذور حيوانية أعمق.

لم تكن هذه الحملات فعالة بين الذئاب والقرود والبيثيسين — حتى المشاة منهم — . فبدون الاستعانة بأسلحة قوية، لا يتحقق القتل فقط إلا بالاستعانة بأعداد غفيرة، ويستغرق الأمر سنوات لإنهاء حرب بين فرقتين متنافستين تشمل ثلاثين أو أربعين من البيثيسين. حتى خلال العصر الطويل للأقوياء غير الرحل، لم يكن هناك سوى القليل من المذابح واسعة النطاق، وكان الغرباء المنعزلون يُقتلون ولكن لم تنشب حروب للاستيلاء على أراضٍ.

أما الآن، فباستمرار انتشار السمات الوراثية لقوم هاربون الرحل الجدد بدأ يتغير هذا الأمر. إذ أصبح لدى الأفراد من نوع هاربون أسلحة دقيقة بعيدة المدى، وزادت قدرة عقولهم على التفكير المنهجي المنظم، وباتوا قادرين على تنفيذ عمليات القتل الشامل بإحكام غير مسبوق. غير أن هذا كان له رد فعل، إذ إن القتال مع جماعات أخرى سيجبر الهومينيد على التوحد معًا في فرق كبيرة متزايدة أعدادها، في ظل كل التعقيدات الاجتماعية التي تبعت ذلك. وسيشكل القتل حياة القتلة أيضًا: فإذا كان الحب يتطور فكذلك الكره أيضًا.

بعد إخلاء مكان مزدحم بالقتلى ازدحامًا شديدًا، احتفل كو-كو والآخرون. فأخذوا يجرون جثث القتلى من النساء والرجال والأطفال من هذا المكان ثم يلقونها في منطقة فضاء واسعة، إلى أن تجمعت في أكوام، وكانت نحو ثلاثين أو أربعين جثة، وجميعها ذات بطون مبقورة، وصدور مشقوقة، وجماجم محطمة. وبعد ذلك أشعلوا النيران وألقوا فروع الأخشاب المحترقة على أكوام الجثث، ورقص كو-كو والآخرون حول الجثث وهم يهللون ويهتفون.

وسحب الصيادون النحاف اثنين من الأسرى أحياء، أمًّا وطفلها؛ كان طفلًا صغيرًا طويلًا ونحيلًا بحيث يسهل حمله. ضيق الصيادون الخناق

على الأم عند سطح صخرة حيثما كانت تحاول الاختباء. تجمع النحاف والأقوياء حولها، مهللين وصائحين، ورفعوا الرماح في وجه الأم.

بدت الأم في عيون ببل وكأنها فاقدة للوعي، وربما كان ينتابها شعور بالذنب ظهر على هذا الوجه النحيف بارز الملامح. ومبعث هذا الشعور هو بقاؤها على قيد الحياة بينما مات الآخرون جميعًا حولها، جميعهم ماتوا ما عدا طفلها الصغير، ولم تكن قادرة على الشعور بأي شيء.

تقدم كو-كو للأمام، وبدفعة بسيطة محنكة رشق حد رمحه في صدر السيدة، فتدفق سائل أسود من جلدها. ارتعشت السيدة وماتت، وفاحت في المكان رائحة الموت.

كان الرضيع لا يزال على قيد الحياة، ويبكي متشبثًا بأمه، ويحاول قضم ثديها الملطخ بالدماء. ولكن مثلما دفعت أم الشازما من قبل صغارَها تجاه إليفانت البائس، دفعت هابون — المتباهية ببطنها المنتفخ أمامها — ابنتها سموز تجاه الصغير. فحملت سموز حجرًا حادًا، وبرشاقة تشبه رشاقة أمها بدت شديدة الانفعال ومتحمسة، رفعت الحجر الحاد وحطمت به جمجمة الصغير المسطحة.

على الرغم من أن ببل لم يهرب إطلاقًا من القتال، فإنه اشتاق فجأة إلى الابتعاد عن ذلك المكان، ومشاهدة غروب الشمس على الشاطئ، أو اقتلاع اليام من الأرض ليحضره إلى أمه عندما يعود إلى المنزل.

في الصباح التالي كانت النار قد خمدت، ولم يتبق من الهومينيد سوى هياكلهم العظمية وأجسادهم السوداء الضامرة المتخذة وضع الجنين. طاف كو-كو وسموز بين البقايا المنبعث منها الدخان، محطمين الأشلاء إلى قطع بمؤخرات رماحهم الثقيلة.

الفصل الحادي عشر

عشيرة ماذر

الصحراء الكبرى، شمال أفريقيا، قبل قرابة ستين ألف سنة من عصرنا الحالي.

١

سارت ماذر وحيدة — وكانت ذات قوام ممشوق ومنتصب — على سطح منظر طبيعي منبسط. كانت حرارة الأرض شديدة تحت قدميها، والغبار كثيف. وصلت إلى مجموعة من أشجار الصبار المعروفة باسم صبار هوديا وجلست، ثم قطعت ساقًا في حجم ثمرة الخيار، وأخذت تمضغ لبه الرطب.

لم تكن ترتدي سوى قطعة من جلد ظبي ملفوفة حول خصرها. وأمسكت بحجر مشكَّل في إحدى يديها، ولم يكن معها شيء آخر؛ وجهها يماثل وجوه البشر، وجبهتها ملساء ومستقيمة، وذقنها مدبب، ولكن فمها نحيل وعيناها غائرتان، ونظرتهما متوجسة خيفة.

كانت غابات السافانا حولها قاحلة موحشة. وامتدت الأرض المسطحة الخاوية لمسافة بعيدة لتختفي وسط ضباب كثيف مخيف يلف الأفق المحيط، وكان تسطح الأرض يقطعه بين الحين والآخر شجيرات موسمية مقاومة للجفاف أو بقايا أشجار سحقتها الأفيال. ولم يكن هناك أي روث يمكن مشاهدته، لأن الحيوانات آكلة العشب كانت نادرًا ما تمر وقتئذٍ، وكانت الخنافس قد قامت بعملها بفاعلية.

أمسكت ماذر بسيقان الصبار لتساعدها على النهوض، ثم واصلت سيرها.

وصلت إلى حافة البحيرة، أو حيثما كانت الحافة في العام الماضي، أو ربما العام الذي سبقه. أما الآن فقد أصبحت الأرض جافة وعليها طبقة من الطين الداكن المتصدع بفعل ارتفاع درجة حرارة الأرض، ولكنها كانت في غاية الصلابة لدرجة أنها لم تتفتت عندما وطئت بثقلها عليه. وكانت الحشائش القصيرة، ذات اللون الأبيض المخضب بصفرة، منتشرة هنا وهناك تتشبث بالحياة.

وضعت يديها على عينيها، فرأت المياه راكدة، ولكنها رأت وميضًا يتلألأ من بعيد. وكانت تشم الرائحة الكريهة للمياه الراكدة. وعلى الجانب الآخر البعيد للبحيرة لمحت عددًا من الفيلة، تبدو كأشكال سوداء تتحرك وكأنها سحب تركض عبر الضباب الكثيف، وحيوانات واقفة في الوحل — ربما كانت خنازير وحشية أفريقية.

لكن على سطح البحيرة المسدود، رأت طيورًا مائية، كان سربًا جاثمًا بسلام، في منتصف المياه، في مأمن من حيوانات الأرض المفترسة الجائعة.

تبسمت ماذر إذ اجتمعت الطيور في المكان الذي أرادته بالضبط. استدارت ومشت عائدة، تاركة دائرة الضوء المحيطة بالبحيرة الموحلة القاحلة.

كان جسم ماذر وهي في الثلاثين من عمرها، مستقيمًا وممشوقًا، مثلما كانت في صغرها، إلا أنه قد ظهرت علامات في بطنها، من أثر ولادة طفلها الوحيد — كما تدلى ثدياها. وكانت أردافها ممتلئة، نتيجة للتكيف مع فترات الجفاف الطويلة، التي تتطلب تخزين المياه في الدهون. وظهر بأطرافها عضلات مفتولة في حين لم يظهر على بطنها أي انتفاخ من سوء التغذية مثلما يظهر على الكثيرين من نوعها. وبكل وضوح كانت ماذر نشطة في حياتها.

لكنها لم تستطع أن تتذكر أي لحظة تمتعت فيها بالسعادة، ولا حتى عندما كانت طفلة؛ ففي طفولتها كانت خرقاء، بطيئة الكلام والاندماج مع الآخرين. كما لم تشعر بالسعادة حتى عندما وُلد ابنها بصحة جيدة وكثير الصراخ.

لقد تحملت الكثير.

تحملت هذا الجفاف على سبيل المثال، عندما تلاشت السحب وسطعت الشمس طوال اليوم، مما أدى إلى جفاف الأرض وتلاشي المياه، فماتت الحيوانات، وعانى القوم من الجوع بسبب انقشاع السحب. ولكن ما لم تستطع إدراكه هو ما الذي جعل السحب تتلاشى في الأساس، ولم تكتشف ذلك بعد.

ذلك ما كانت موهوبة فيه: رؤية الأنماط والربط بينها، والجمع بين الأسباب والتأثيرات التي أثارت انتباهها وأربكتها. إن موهبتها في اكتشاف العلاقات السببية لم تجلب لها الراحة، إذ كانت نوعًا من الشك القهري. لكنها ساعدتها أحيانًا في خوض خضم الحياة، مثل اليوم.

أقدمت على إحدى الأشجار الاستوائية من نوع الباوباب، وأخذت تفحص أغصانها الملتوية. كانت تعرف جيدًا ماذا تريد أن تفعل — إذ كانت تريد صنع سلاح مقوس للرماية — وقامت بتفتيش الأغصان والدعامات، بحثًا عن مكان يشبه فيه تجزع الخشب واتجاه نموه الشكل النهائي للسلاح، كما تصورته في خيالها.

وجدت فرعًا رفيعًا من الممكن أن يفي بالغرض. كسرته بقصفة سريعة من الناحية التي تثبته في الشجرة، ثم جلست في ظل الشجرة المحدود، وأخذت أداتها الحجرية ونزعت اللحاء، وبدأت في تقطيع الخشب. أخذت تدير النصل الحجري مرارًا وتكرارًا في راحة يدها حتى تجعل الحواف صالحة للاستخدام. إن هذا السلاح — الذي لا يُعد فأسًا بالضبط ولا سكينًا ولا مكشطة — كان سلاحها المفضل حاليًّا. ولأنه يجب حمل أي أداة فإنها صنعت هذا السلاح ليؤدي أعمالًا كثيرة، وكانت قد هذبته عدة مرات.

وبعد وقتٍ قصير نجحت في صنع عصا مقوسة ملساء طولها حوالي ثلاثين سنتيمترًا، مسطحة من جانب ومستديرة من الجانب الآخر. قامت برفع السلاح في يدها واستخدمت خبرتها الطويلة في تقييم اتزانه ووزنه، وأخذت تكشط الزوائد سريعًا.

ثم ابتعدت عن ظلال شجرة الباوباب وسارت حول حافة البحيرة الموحلة. حتى وجدت المكان الذي خبأت فيه — منذ أيام قليلة — شبكتها المصنوعة من ألياف اللحاء المضفرة. كانت الشبكة في مكانها لم يلمسها

أحد، فهزتها لتنظيفها من الأتربة، ومن الخنافس التي قضمت خيوطها الجافة.

علقت الشبكة بين شجرتي باوباب هزيلتين جيد موقعهما، لتصبح في مواجهة البحيرة. كانت قد اختارت هذا الموقع في حقيقة الأمر بسبب أشجار الباوباب.

وعندئذ عادت تسير حول البحيرة، إلى أن أصبحت في مواجهة موقع شبكتها. أخذت عصاها القاذفة، ولسانها خارج فمها، فرفعت العصا لتتدرب على الرمية، التي ستقوم بها. لن تستطيع استخدام هذه العصا إلا ضربة واحدة، ولا بد أن تسدد هذه الضربة بدقة .

كان صوت الألم يخفق في جنبات رأسها وكأنه الرعد في الجبال البعيدة.

فقدت توازنها، وعبست، متضايقة بسبب التشتت. كان الألم نفسه بسيطًا، لكنه كان نذيرًا لما سيأتي بعد؛ صداعها النصفي، أو عقابها الدائم الذي تحملته كثيرًا، ولم يكن بيدها أي شيء تجاه هذا الصداع. فبالطبع لم يكن له عندئذ أي علاج ولا حتى مسمى، لكنها كانت تعلم أن عليها الاستمرار في مهمتها قبل أن يجعلها الألم مستحيلة، وإلا فإنها، هي وابنها، سيجوعان اليوم.

تجاهلت الخفقان في رأسها، ووقفت مرة أخرى ورفعت العصا، ثم رمتها بقوة ودقة. أخذت العصا تدور بسرعة متبعة منحنى عاليًا في الهواء، فوق البحيرة، ودار نصلها الخشبي بحركة سريعة.

أخذت الطيور المائية الجاثمة تنعق بتوتر، وعندما استدارت العصا في الهواء، ووقعت عليها أصابها الذعر. وبقعقعة أجنحتها الخرقاء، طارت بعيدًا عن البحيرة. أما الأسراب التي لم تتبع الطيور المائية والتي تعجز عن التحليق عاليًا، فقد اتجهت مباشرةً إلى شبكة ماذر. فابتسمت وركضت عائدة إلى الشبكة لتحصد جائزتها.

الارتباطات: ألقت ماذر السلاح مما أخاف الطيور التي اندفعت إلى شبكتها، لأنها قد وضعتها هناك. كان ذلك مثالًا بسيطًا على تفكير ماذر السببي الارتباطي.

ولكن مع كل خطوة تخطوها يزداد الصداع سوءًا، كما لو كان مخها يرتجف في داخل جمجمتها الرحبة، وتلاشت كالمعتاد سعادتها القصيرة بنجاحها.

كانت عشيرة ماذر تعيش في معسكر قريب من قناة جافة، تجري في وادٍ ضيق، مقيمين مساكنهم وسط جرف صخري عالٍ، ذات أسقف مائلة، ومكونة من قطع من الجلد أو الخيزران المغزول مثبتة على هياكل بسيطة التركيب. لم يكن هناك أكواخ مستديمة، على النقيض من الإنشاءات التي في معسكر ببل المختفي منذ زمن بعيد. ولم تكن الأرض خصبة بشكل كافٍ لذلك. كانت تلك هي البيوت المؤقتة لأولئك الرحل العاملين بالصيد والجمع. لهؤلاء الأفراد المضطرين إلى السعي خلف طعامهم واقتفاء أثره. كانت العشيرة هنا منذ شهر.

كان للموقع مميزاته. كان هناك نُهير، والصخور جيدة صالحة لصنع الأدوات، وكان هناك عدد من الغابات المجاورة، ومصدر خشب لإشعال النار، ولحاء وأوراق ونباتات متسلقة وكرمة لصنع الملابس والشباك والأدوات والمصنوعات اليدوية الأخرى. وكان الموقع مكانًا جيدًا، لعمل كمين للحيوانات، التي تتجول بحماقة في اتجاه الوادي الضيق. ولكن ما تنتجه الأرض هنا كان ضعيفًا جدًّا، لقد كان المعسكر فقيرًا، وساكنوه ناقصو التغذية فاترو الهمة، وعلى الأرجح سيرحلون قريبًا.

كانت ماذر تترنح في طريقها إلى البيت وهي تحمل على كتفها ثلاثة طيور مائية، متدلية بحبل من الجلد. وكان ألم رأسها قد اشتد عندئذ، وبدا لها أي سطح وكأنه يلمع بشدة ومخضب بألوان غريبة. إن انتفاخ المخ البشري خلال ألوف السنين التي سبقت ميلاد هاربون — السلف البعيد لماذر — كان مذهلًا. وجلبت إعادة الصياغة المتعجلة فوائد غير متوقعة — مثل قدرة ماذر على صنع الأنماط — لكن كل شيء بثمن، مثل ابتلائها بالصداع النصفي.

«مرحبًا، مرحبًا! رمح ... رمح خطير!»

كانت واهنة حتى إنها لا تكاد ترى ما يحيط بها .

وكان اثنان من الشباب يتطلعان إليها. كانا يلبسان جلودًا على هيئة ثوب مفتوح ومعقود بشريط حول الجسم. كان كلاهما يحمل رماحًا خشبية جاءت بدائية في لمساتها النهائية، وأطرافها قويت بفعل التفحم. كانا يقذفان برماحهما جلد ثور وضعاه مثنيًّا على أغصان شجرة. وكانت ماذر قد انشغلت بالألم والأضواء الغريبة، وأخذت تتخبط في طريقها.

كان عليها أن تنتظر، حتى ينتهي راميا الرماح من مسابقتهما. لم يكن أحد من الشابين يتمتع بالمهارة والحنكة، بينما جلودهما الملتفة حول جسديهما كانت بالية. أدت رمية واحدة فقط من رماحهما إلى ثقب الجلد، بينما لم ينجح سوى رمح واحد في اختراق الجلد واستقر في الشجرة، أما باقي الرماح فقد سقطت متفرقة في الوحل.

رأت ماذر أن أحدهما يقذف رمحه بقوة أكثر من الآخر، ويحمل الرمح بطريقة غير معتادة، بعيدًا للخلف بطول قصبة الرمح، ويستخدم طول عظم ذراعه ليحصل على قوة تحكم أفضل. ولأن هذا الشاب كان طويلًا بالنسبة لسنه، وشديد النحول، فنظرت إليه باعتباره شجيرة صغيرة استمدت الاستقامة من ضوء الشمس، ولذا أطلقت عليه اسم سابلنج الذي يعني شجيرة صغيرة. عندما رمى هذا الشاب الرمح، أصدر الرمح صفيرًا حادًّا في الهواء، وكان يتأرجح بعض الشيء. كانت حركة الرمح مثيرة للاهتمام، لكن ما إن تعقبته بعينيها، حتى آلمتها رأسها أكثر.

عندما انتهى قاذفا الرمح، كانت تترنح غير قادرة على الرؤية، تنشد ظلام الكوخ الذي تتقاسمه مع ابنها.

كان بداخل كوخ ماذر امرأة سمينة، في سن الخامسة والثلاثين، ذات شعر رمادي خشن، ووجه مليء بالتجاعيد وبغيض. هذه المرأة التي تُدعى سور كانت تطحن قطعة من الجذور مستخدمة المدقة. أخذت تحملق في ماذر، وكانت تعبيراتها عدائية كالمعتاد: «أريد طعامًا ... طعامًا.»

لوحت ماذر بيدها دون اكتراث بسور قائلة: «الطيور».

وضعت سور مدقتها والجذور وذهبت إلى الخارج، لترى الطيور التي علقتها ماذر.

كانت سور عمة ماذر. وكانت تشعر بالمرارة بعد فقدانها طفلها الثاني الذي مات بعد ولادته بيومين بعد إصابته بمرض غامض. وبدا على الأجح أن سور سوف تستولي على الطيور معطية ماذر وسايلنت جزءًا بسيطًا مما أحضرته ماذر إلى البيت. ولكن ماذر التي يملأ الألم رأسها كانت مرهقة، حتى إنها لم تكن تبالي.

حاولت أن تصب كل تركيزها على ابنها، الذي كان يجلس مستندًا بظهره على الجدار المائل، وركبتاه منطويتان إلى صدره. كان ولدًا مريضًا، وهو الآن في الثامنة من عمره، قصيرًا، نحيلًا، ويستخدم جزءًا من فرع شجرة ليدفع به قاذورات الأرض. جلست ماذر بجانبه، ووضعت يدها على رأسه، تداعب شعره، فنظر إليها بعينين ناعستين. كان يقضي معظم وقته كذلك في صمت، منطويًا عن الباقين، منتظرًا أمه. كان يشبه أباه في قصره وعدم براعته في الصيد. ولم يكن أبوه قد مارس الجنس مع ماذر سوى مرة واحدة. وكان جنسًا دون أي عاطفة، وأصبح هو ثمرة هذا اللقاء الحميم.

كانت خبرتها في الجنس قليلة وغير ممتعة. فلم تقابل ذكرًا قويًّا بما يكفي أو رحيمًا بما يكفي ليقاوم قوة نظراتها، واستحواذها المفرط، وسرعة غضبها، وألمها المتكرر الذي يجعلها منطوية على نفسها. كان من سوء حظها أن الرجل الذي استطاع أخيرًا أن يجعلها حبلى، رحل بسرعة، تاركًا إياها، إلى غيرها، وسرعان ما سقط صريعًا بواسطة فأس غريمه.

دُعي الطفل سايلنت أي الصامت، وكان هذا الصمت هو السمة الغالبة على شخصيته، وبالمثل كانت تُدعى ماذر أي الأم، وبما أنها بدت بلا هوية أحيانًا في أعين الآخرين هنا — فلا هوية لأحد فيما عدا الصبي. لم يكن لدى ماذر سوى القليل لتقديمه لابنها، لكنه — على الأقل — رُحم من الجوع الذي يعمل على انتفاخ البطن الذي كان يصيب بعض الصغار الآخرين في هذا العصر بسبب الجفاف.

كان الطفل راقدًا على بعد، على جانبه، منوسًا جسمه للداخل، واضعًا إبهامه في فمه، ورقدت هي على فراش معد من حزم القش المربوطة معًا. كانت تعلم جيدًا أنها لن تستطيع محاربة الألم حتى إذا حاولت.

فضلت العزلة دائمًا حتى عندما كانت طفلة. ولم تستطع أن تندمج في ألعاب المطاردة والمصارعة والثرثرة التي ينغمس فيها الصغار الآخرون، أو حتى في تجاربهم الجنسية كمراهقين. بدا دائمًا كما لو أن الآخرين يعلمون كيف يتصرفون، ماذا يفعلون، كيف يضحكون ويبكون، كيف يتكيفون؟ كل ذلك كان لغزًا لم تستطع أن تشارك فيه أبدًا. ولم تكن محبوبة بسبب إبداعها في تلك الثقافة المحافظة، وعادتها لمحاولة تفسير لماذا تحدث أشياء، وكيف تعمل أشياء أخرى.

بمرور الوقت، بدأت تشك أن الآخرين يتحدثون عنها في غيابها، كانوا يكيدون لها، يخططون ليجعلوها تعيسة بوسائل لم تكن تدركها. ولم تساعدها أي من تلك الوسائل على التعايش مع زملائها.

لكن كان هناك ما يواسيها.

كان الصداع يرافقها دائمًا. لكن أثناء نوبات الصداع رأت الأشكال، وأبسطها كانت النجوم، لكنها لم تكن نجومًا لأنها سطعت ولمعت ثم اختفت سريعًا. كانت تحاول أن تدير رأسها لتتبعها، آملة أن ترى من أين ستأتي النجمة التالية. لكن النجوم كانت تتحرك كلما حركت عينيها، تنجرف مثل القصبات في البحيرة، ثم تأتي بعدها أشكال أكثر، متعرجة، لولبية، متشابكة، مجموعة من المنحنيات المتداخلة، والخطوط المتوازية. حتى في الظلام الحالك، عندما يعميها الألم، كانت ترى الأشكال. وعندما يتلاشى الألم، كانت ذكرياتها مع الأشكال الغريبة الرائعة تبقى معها.

حتى عندما كانت تنوي أن تريح جسدها، كانت تفكر في سابلنج ذي الرمح الطويل، وكيفية رميته له، وكانت تفكر أيضًا في سايلنت الصغير وهو يدفع بقطع فروع الأشجار إلى الخلف وإلى الأمام ... إلى الخلف وإلى الأمام ....

الارتباطات.

سابلنج يحاول من جديد.

كانت تعلو وجهه نظرة عدم ارتياح، علق الرمح في الشق الموجود في العصا التي أعطتها له مذر، ثم وهو يرفع العصا بيده اليمنى، استخدم

يده اليسرى في تثبيت الرمح على كتفه. ووجه سن الرمح إلى الأمام، خطا خطوتين مترددتين إلى الأمام، وحرك يده اليمنى أيضًا إلى الأمام، والرمح مائل إلى أعلى، وكان طرفه المتفحم يحدق في السماء، قبل السقوط ثانية على الوحل.

أسقط سابلنج العصا المشكَّلة وداسها قائلًا: «غبي ... غبي!»

صفعته ماذر المحبطة على مؤخرة رأسه قائلة له: «أنت غبي!» لماذا لا يستطيع أن يرى ما تريده هي؟ التقطت الرمح والعصا ودفعتهما في يدي سابلنج، وأغلقت أصابعه عليهما، ليحاول مرة أخرى.

كانت تعمل في هذا طوال اليوم.

بعد هذا الصداع النصفي المؤلم، استيقظت ماذر برؤية جديدة في رأسها، خليط غريب من الدفع غير الموجه لعصا سايلنت وذراع سابلنج الرامية الطويلة، ذات قوة الرفع الشديدة. تجاهلت ابنها؛ واندفعت إلى كتل الأخشاب القريبة.

وبعد قليل، أنجزت ما كانت تريد. كانت عصاه قصيرة ذات شق في إحدى النهايات. عندما وضعت الرمح في شق العصا، وحاولت تثبيت الرمح إلى الأمام، وجدت أنها حصلت على ما كانت تتخيله؛ تخيلت أن العصا بمثابة امتداد لذراعها، مما جعلها أطول، حتى من ذراع سابلنج، وكان الشق مثل إصبع يقبض على الرمح.

لم يكن يوجد على ظهر الكوكب سوى عدد قليل ممن يمكنهم التفكير بهذه الطريقة؛ أي أن بعقدوا مقارنة بين عصا ويد، بين شيء من الطبيعة وجزء من جسم الإنسان. ولكن ماذر استطاعت.

كالعادة، عندما كان يستولي على تفكيرها مشروع مثل هذا، تكون منغمسة كلية فيه، مستاءة من الوقت الذي تقضيه بعيدًا عنه في الأكل والشرب والنوم وجمع الطعام — وحتى ذلك الوقت الذي تقضيه برفقة ابنها.

كانت في أوقات صفاء عقلها، تدرك أنها تتجاهل سايلنت، ولكن تعرف أن عمتها سور تعتني به. إن هذا هو دور المسنات من الأقارب؛ المشاركة في عبء تربية الأطفال. إلا أن ماذر كانت في أعماقها تشك في سور. في حقيقة الأمر شيء ما قد فسد بداخلها، منذ أن فقدت وليدها الثاني. وبالرغم من

أن لديها طفلة، كانت تهتم بسايلنت، ولم يكن هذا طبيعيًّا، إلا أن ماذر لم يكن لديها الوقت لتفكر في ذلك، إذ تملكها رمي الرمح فمنحته وقتها كله.

استمرت في المحاولة مع سابلنج مرارًا وتكرارًا، حتى حان وقت غروب الشمس وأصاب الشاب الضجر والعطش وأتعبته حرارة الشمس، ولم تكن أعماله اليومية قد بدأت بعد، لكنه في كل مرة يفشل.

أخيرًا بدأت ماذر تتوصل إلى سبب المشكلة. لم يكن الخطأ في أن الطريقة التي تتبعها غير ملائمة، ولكن في أن سابلنج لم يكن يفهم المبدأ الذي كانت تحاول أن توضحه له، ألا وهو: أنها ليست يده هي التي ترمي، بل العصا. وإلى أن يفهم ذلك، لم يكن لينجح أبدًا في رمي الرمح.

كان هناك جدران صلبة في حجيرات عقل سابلنج، تكاد تكون في صلابة عقل ببل، جده البعيد. كان لديه ذكاء اجتماعي واضح في مناوراته وفي إقامة التحالفات والتودد والخيانات، حتى إنه كان يستطيع منافسة مكيافيلي، لكنه لم يستخدم ذكاءه هذا في الأنشطة الأخرى، مثل: صناعة الأدوات. لقد بدا الأمر وكأن عقلًا مختلفًا آخر هو الذي يعمل في تلك الأوقات، عقلًا ليس أكثر تقدمًا من عقل ذلك المدعو فار.

لكن، لم يكن الأمر هكذا بالضبط، بالنسبة لماذر وكان هذا هو سر غرابتها وعبقريتها في آن واحد.

لقد أخذت قاذف الرمح منه، وثبتت الرمح في الشق المخصص له، وجهزته وكأنها سترمي. وقالت: «اليد لا ترمي الرمح»، والآن قلدت العصا التي تدفع الرمح وقالت: «العصا، هي التي ترمي. نعم ... نعم، العصا ترمي الرمح، العصا ترمي الرمح، العصا ترمي الرمح ....»

«العصا ترمي الرمح»، ليست هذه جملة مفيدة، ولكنها التركيب الأساسي للجملة: فاعلٌ وفعلٌ ومفعولٌ به. وإنه لمن الشرف أن تكون واحدة من أوائل الجمل، التي نُطقت بلغة البشر، في أي مكان في العالم.

بتكرار رسالتها — مرارًا وتكرارًا — بدأ الأمر يتضح له بالتدريج.

ابتسم سابلنج ابتسامة عريضة، وانتزع منها الرمح والرامي: «العصا ترمي الرمح! العصا ترمي الرمح!» وبسرعة ثبت الرمح في الشق المخصص له، ورجع للخلف، ووضع الرمح على كتفه، وقذفه بكل قوته.

كانت رمية ضعيفة إلى حد ما في المرة الأولى إذ سقط الرمح في الوحل على بعد مسافة قصيرة على مقربة من النخلة التي قد حددتها له لتكون الهدف، لكنه أدرك الفكرة. ركض وراء الرمح متحمسًا وهو يغمغم، وتملكه هاجس استحوذ عليه توافق مع الهاجس المستحوذ على ماذر وحاول مرارًا وتكرارًا.

خطرت لها هذه الفكرة نتيجةً لقدرتها الخاصة على التفكير في العصا الرامية بأكثر من طريقة. ولكن ترى هل تُعتبر هذه العصا أداةً؟ الإجابة نعم، ولكنها تشبه أيضًا أصابعها في طريقة قبضتها على الرمح، بل إنها أيضًا تشبه الشخص في قدرتها على فعل الأشياء، إذ يمكنها رمي الرمح بدلًا من المرء. فإذا كان المرء قادرًا على التفكير في شيء بأكثر من وجهة نظر واحدة، يمكنه تخيل هذا الشيء يقوم بعمل كل ما يريد. ومن وجهة نظر ماذر أصبح الوعي أكثر من مجرد أداة للكذب.

وعلى الأرجح لم يكن سابلنج سيستطيع التوصل إلى هذا الفهم بنفسه، لكن عندما أفهمته ماذر أدرك الفكرة بسرعة. على أي حال، لم يكن عقله مختلفًا كثيرًا عن عقلها. وما إن قذف سابلنج العصا الرامية إلى الإمام، فإن القوة الهائلة التي استخدمها على الرمح تسببت في انثنائه. وبدا الرمح المنثني وكأنه يقفز بعيدًا وكأنه غزال يهرب من الفخ. دارت الأفكار في عقل ماذر برضا وتدبر.

كانت عمتها سور واقفة خارج المسكن الذي يتشاركونه، تشير إلى الداخل قائلة: «مريض». أفسدت الكلمة السطحية القبيحة شعور ماذر بالنشاط والسعادة.

فركضت ماذر عبر الوحل إلى المسكن، وما إن وطئت قدماها داخله حتى شمت الرائحة الكريهة للقيء. فقد كان سايلنت محنيًا يمسك ببطنه المنتفخة. كان يرتجف ووجهه أملس بفعل العرق وجلده شاحبًا. كان القيء والروث منتشرين من حوله.

وفي الضوء الساطع خارج المسكن ارتسمت على شفاه سور ابتسامات السعادة الغامرة، والقسوة بادية على ملامح وجهها.

مات سايلنت خلال شهر.

وكاد ذلك يدمر ماذر تمامًا.

إن إدراكها الفطري للعلاقات السببية قد خدعها. ففي ذلك الظرف الطارئ الأخير لم ينفعها شيء. كان هناك بعض الأمراض التي يمكن علاجها، فمثلًا: إذا كسرت ساق أحد الأشخاص وأخذنا هذه الساق وأعدناها لمكانها الطبيعي ثم ربطناها، فإنها — في الغالب — ستعود سليمة كما كانت من قبل. وإذا دعكت أوراق عشب الحماض على مكان لدغات الحشرات، فإن السم سيخرج. ولكن لم يكن لديها ما تفعله إزاء هذا الهزال الغريب، الذي ليس له حتى مسمى يطلق عليه.

أحضرت له أشياء يحبها؛ قطعة متشابكة من الخشب، وقطعًا من المعدن الأصفر اللامع، وحجرًا حلزونيًّا غريبًا، كان في الحقيقة صدفة متحجرة عمرها ثلاثمائة مليون عام. لكن سايلنت لم يكن يمكنه سوى الإشارة إلى الألعاب، وعيناه ساهمتان، أو يتجاهلها كليةً.

جاء يوم لم يستطع فيه التحرك من فراشه، وكانت تهزه وتدندن له بدون كلمات، مثلما كانت تفعل عندما كان رضيعًا. وفجأة تدلت رأسه، وحاولت حشر الطعام في فمه، لكن شفتيه أصبحتا زرقاوين وفمه باردًا. لقد حاولت حتى أن تضع ثديها في فمه، رغم أنها لم يكن لديها حليب.

في النهاية جاء الآخرون.

تعاركت معهم، مقتنعة أنها إذا حاولت أكثر، فإنه سوف يبتسم ويمد يده إلى قطع المعدن الأصفر اللامع وينهض ويركض في الضوء. غير أنها سقطت فريسة للوهن والضعف أثناء مرضه فأخذوه منها دون أن تمانع.

حفر الرجال حفرة في الأرض خارج المخيم. ووضعوا جثة الطفل المتصلبة داخلها، ثم ردموا ثانية التراب الذي كانوا قد أخرجوه من الحفرة، تاركين وراءهم كومة من تراب متغير لونه.

كان ذلك عملًا وظيفيًّا، لكنه كان نوعًا من المراسم، كان الناس يدفنون الأجساد بباطن الأرض منذ ثلاثمائة ألف عام. وفيما سبق، كانت هذه طريقة ضرورية للتخلص من النفايات. عندما يعيش المرء في مجتمع ثم يصبح مسنًّا ثم يموت في نفس المكان الذي ولد به، فلا بد أن يبقى

المكان نظيفًا. ولكن الناس عندئذ أصبحوا من البدو الرحل. وسوف ترحل عشيرة ماذر من هنا قريبًا. وقد تخلصوا من جسد الطفل، وسوف يتركونه للكلاب والطيور والحشرات لتقتات عليه، ما الفرق؟ ومع ذلك فما زالوا يقومون بالدفن كما كانوا يفعلون دائمًا. يبدو أن ذلك هو ما يجب عمله.

ولكنهم لم ينطقوا بكلمة واحدة، ولم يتركوا أي علامات، وتفرقوا سريعًا. كان الموت حتميًّا كما هو معتاد. وبالنسبة للإنسان من أسلاف الهومينيد والحيوانات الرئيسية، كان الموت نهاية ... نهاية الوجود، وأولئك الذين رحلوا عن العالم أصبحوا بلا معنى شأنهم شأن حبيبات ندى تبخرت، وضاعت هويتهم بعد جيل واحد.

لكن، لم تكن تلك هي الحال لماذر، لا ... لم تكن كذلك قط.

في الأيام التالية لهذه النهاية الموجعة، وعملية الدفن التي أجريت في حينها، كانت تعود — مرارًا وتكرارًا — إلى رقعة الأرض التي تحوي عظام ابنها، حتى بعدما بدأت الأرض — التي قلّبوها — تفقد لونها، وأخذت الحشائش تنمو، منتشرة في المكان، وكانت لا تزال تتذكر بالضبط أين مكان الحواف الخشنة في الحفرة، وتستطيع أن تتخيل كيف يرقد في باطن الأرض.

لم يكن هناك سبب لموته، كان ذلك هو ما يؤرقها. فلو أنها قد رأته يسقط، أو يغرق أو كان قد داسته قطعان الحيوانات، فإنها كانت ستعرف لماذا مات، وربما كانت تقبل ذلك. بالطبع، لقد رأت الأمراض تصيب كثيرًا من أعضاء القبيلة. ورأت الكثير من الناس يموتون لأسباب مجهولة، فضلًا عن عدم إيجاد علاج. ولكن ذلك يجعل الأمر يزداد سوءًا بالنسبة لها. إذا كان أحد يجب أن يموت، فلماذا يكون سايلنت؟ إذا كان قد قتل مصادفة — وإذا كان أحد المقربين لها قد مات وأُخِذَ مصادفة؛ إذن فإنه من الممكن أن يقع ذلك لها، في أي وقت، وأينما كانت.

لا يمكن قبول ذلك، فكل شيء له سبب. ولذلك، لا بد من وجود سبب لموت سايلنت.

وانطوت على نفسها وحيدة، تملؤها الهواجس.

٢

بعد عصر ببل وهاربون مباشرة، جاءت فترة من العصور الجليدية، وفترة فاصلة من المناخ المعتدل، بين ألوف السنين الطويلة التي سادها الجليد، ذابت القمم الجليدية الضخمة، وارتفع منسوب مياه البحار وفاضت على السهول المنخفضة وتشوهت الخطوط الساحلية. ولكن بعد موت ببل باثني عشر ألف سنة أوشك هذا الصيف الأخير العظيم على الانتهاء، وبدأت موجات برد عاتية في الظهور، وأخذ الثلج يعود مرة أخرى. وما إن امتص الثلج الرطوبة من الهواء، حتى بدا الكوكب كأنما يستنشق أنفاسًا جافة عظيمة. وانكمشت الغابات وانتشرت الأراضي العشبية، وفي أماكن أخرى ازداد التصحر مرة أخرى.

لم تكن الصحراء الكبرى ،التي تشكلت في ظل أمطار الهيمالايا الهائلة، بالفعل صحراء بعد، فقد امتدت البحيرات الضحلة العريضة عبر الصحراء الكبرى، تلك الكتل المائية كانت تزداد وتتناقص، وأحيانًا تجف بالكامل. ولكن على قدر امتدادها العظيم كانت مليئة بالأسماك والتماسيح وأفراس النهر. بينما تجمع حول المياه النعام والحمر الوحشية ووحيد القرن والأفيال والزرافات والجاموس ومختلف أنواع الظباء، وحيوانات أخرى لم تدركها العقول الحديثة لأنها من نوع إفريقي مميز، مثل: الثيران والخراف البربرية والماعز والحمير.

فأينما يوجد الماء يوجد الصراع ويوجد أناس. كانت تلك البيئة تعد مهدًا لعشيرة ماذر، لكنها كانت مكانًا ثانويًّا، مجرد طبقة من طبقات حياتهم الضحلة. وكان على الناس أن يعملوا بأقصى جهدهم من أجل البقاء.

وما زالوا منتشرين في الأرض على نحو متباعد.

لم يخرج أي من البشر بَعدُ من أفريقيا. وفي أوروبا وعبر آسيا لم يكن يوجد سوى الأقوياء ذوي الجبين العريض، وفي أماكن أخرى تواجدت أشكال أقدم: المشاة النحاف. كانت أمريكا وأستراليا لا تزالان فارغتين تمامًا.

حتى في أفريقيا كان البشر قليلين على الأرض. كانت طريقة الحياة المعتمدة على التجارة التي تؤدي إلى كثرة التنقل، والتي ولدت مع هاربون وفصيلتها، نعمة غير موحدة، حتى منذ الخروج من الغابات، أصبح الهومينيد

مرضة للإصابة بداء المثقبيات trypanosomes، وهي الطفيليات التي تسبب مرض النوم، والتي نُقلت بواسطة أعداد هائلة من ذباب التسي تسي التي تبعت القطعان ذوات الحوافر التي تسكن غابات السافانا. فانتشرت هذه الأمراض، وأثبتت شبكات التجارة البشرية؛ فاعليتها جدًّا، في تبادل السلع، والإبداعات الثقافية والجينات، ولكنها أيضًا كانت سببًا في انتقال الأمراض.

وثقافيًّا ... لم يحدث شيء.

كان في مقدور ببل التعرف على معظم الأشياء في مخيم ماذر، كان الناس ما زالوا يفصلون رقائق الحجارة عن قلب الأحجار، كما كانوا ما زالوا يلفون الجلود حول أجسامهم ويثبتونها في مكانها بشرائط قوية أو مصنوعة من الجلد. وحتى لغتهم كانت لا تزال غمغمة بلا شكل لكلمات ملموسة تدل على الأشياء أو المشاعر أو الأفعال، لذلك كانت عديمة الجدوى، في نقل المعلومات المعقدة.

عبر سبعين ألف عام كان من النادر أن يقوم أولئك الناس ذوي السمات الجسمانية الجديدة — فحتى المخ كان شكله حديثًا — بأي إبداع مميز في التكنولوجيا أو التقنيات شأنهم في ذلك شأن إنسان القرن الحادي والعشرين. فقد كان ذلك هو وقت السلبية المذهلة والركود المذهل. بعد كل ذلك الزمن كان الإنسان مجرد حيوان يستخدم الأدوات الموجودة في البيئة، مثل القنادس أو طيور البوربيرد التي لا تزال رتبتها لا تعلو إلا قليلًا عن رتبة الشمبانزي التي ينظر إليها باحترام، وتدريجيًّا كانوا يخسرون معركتهم من أجل البقاء.

ثمة حلقة مفقودة.

فكرت ماذر أن تدفن نفسها وحيدة.

فلماذا تحيا في عالم بدون سايلنت؟

لكن في النهاية نجحت في الخروج من أحلك لحظات حياتها سوادًا.

مرةً أخرى، بدأت في جمع الغذاء لتأكل وتشرب. كانت مضطرة لذلك، فإذا لم تفعل، فإنها سوف تموت. لم يكن هذا المجتمع غنيًّا، ومع ذلك؛

كانت هناك عناية بالضعفاء والمصابين والمسنين، كان هناك استعداد لدى الجميع لبذل بعض الطاقة من أجل مساعدة أولئك الذين لا يستطيعون مساعدة أنفسهم.

كانت ماذر دائمًا صيادة ماهرة حادة البصر، وبالأدوات التي اخترعتها، أو عدلتها أو ارتجلتها، أصبحت في الحقيقة أكثر فاعلية من تلك الأصغر أو الأقوى منها. وها هي قد تعافت بسرعة، ولكن حيرتها لم تتبدد.

لم تكن تعلم علم اليقين ما الذي دفعها لرسم علامات في الصخرة.

إنها لم تكن حتى واعية، وكانت تجلس بجوار بروز من حجر رملي رخو، وفي يدها المكشطة المصنوعة من البازلت. وكانت تعد رداء لها من جلد عنزة، فصنعت نقوشًا دقيقة في الصخور؛ زوجًا من الخطوط المتعرجة يرقدان متموجين بتوازٍ أحدهما مع الآخر.

في أول الأمر، أربكتها هذه العلامات، لكنها بعد ذلك، شاهدت حبيبات الرمل المبعثرة تحت الكشط، فأدركت الروابط السببية المرتبطة، كما كانوا يفعلون دائمًا. وبدون تفكير استخدمت المكشطة، فالمكشطة هي التي أحدثت العلامات، لذلك قامت هي بعمل العلامات.

مما أثار اهتمامها، أن تلك العلامات كانت مثل الخطوط التي تتخيلها في رأسها.

أسقطت قطعة الجلد التي تعمل بها وركعت أمام الصخرة وهي تشعر بسعادة غريبة. أدارت المكشطة الثلمة لتكشف عن حافة جديدة، وزجتها في الصخرة، متتبعة الخط. تمكنت من رسم خط حلزوني، ولم يكن الخط أنيقًا ولامعًا مثل الأشكال التي تدور في ذهنها وإنما كان مرسومًا بطريقة خرقاء، وعمقه متفاوتًا، والمنحنى ذو زوايا وغير ملائم.

لذلك حاولت مرةً أخرى، لقد كان لديها دائمًا مهارة دقيقة عندما تصنع الأدوات من الحجارة أو الخشب أو العظام. هذه المرة، كان الخط الحلزوني أقل نعومة، وأقرب — إلى حد ما — إلى الشكل المثالي الذي تعتقده. ففعلت ذلك مرارًا وتكرارًا حتى غطت كتلة الصخر غير جذابة الشكل بالخطوط الحلزونية والحلقات والدوائر المتداخلة والمسارات.

كان هذا أشبه بما رأته عندما أغلقت عينيها، بدا ما فعلته من قبيل الإعجاز بالنسبة لها إذ استطاعت أن ترسم نفس الأشكال التي رأتها في خيالها.

لاحقًا، خطر ببالها أن تجرب أكسيد الرصاص.

كان الناس لا يزالون يستخدمون الحديد الأحمر الخام — باعتباره طباشير ملونًا — لرسم علامات على جلودهم، بالرموز العشائرية، كما كانوا يفعلون في عصر ببل. والآن قامت ماذر بعمل تجربة بالمادة الناعمة، ووجدتها أسهل في الاستخدام على الصخرة من المكشطة، ويمكن تطبيقها على الأسطح الأخرى أيضًا. كان ذراعاها وساقاها، وقطع الجلد التي ترتديها أو الموجودة على كوخها، وأدواتها، ومكشطتها المصنوعة من الحجارة، والعظم والخشب؛ كانت كلها مغطاة بالحلقات والدوائر المتداخلة والتعرجات.

رأت ماذر زهرة أشعلت فتيل المرحلة القادمة من تطورها المتميز.

كانت الزهرة من أنواع دوار الشمس ليست مثيرة للدهشة، ولم تكن بذورها صالحة للأكل، وأيضًا غير سامة. ولم تكن الزهرة ذات فائدة كبيرة، غير أن بتلاتها أحاطت بمنحني حلزوني أصفر اللون، ملتف لأسفل نحو قلب مركزي أسود اللون. ارتمت ماذر على الزهرة — صارخة — إعجابًا بها.

بدأت بعد ذلك ترى أشكالها في كل مكان: في حلزونات الأصداف والمخاريط وشبكات أقراص العسل، وحتى التعرجات المدهشة للبرق التي تتقوس في السماء أثناء العواصف. بدا الأمر وكأن محتويات جمجمتها المظلمة، تخطط لنفسها في العالم الخارجي.

كان أول من قلدها، فتاة.

رأتها ماذر وهي تمر، وعلى كتفها أرنب، وفوق وجنتها مرسوم خط حلزوني قرمزي ملتف تحت عينها. ثم قلدها سابلنج واضعًا على ذراعه الطويلة خطوطًا متعرجة.

بدأت بعد ذلك، ترى الخطوط والحلقات تظهر في كل مكان، مثل طفح جلدي انتشر فوق أجساد الناس. فإذا جاءت هي ببعض التصاميم

الجديدة اشبكة أو منحنيات، فإنه سوف يُنسخ ويقلد بسرعة، بل يضيف عليه الشباب بعض التفاصيل.

نتج عن ذلك حالة رضا غريبة. فالناس لم يعودوا يتجنبونها الآن، بل كانوا يقلدونها، وأصبحت زعيمة، ولم يكن هذا حالها من قبل.

لكن سور كانت أقل سرورًا بمنزلة ماذر الجديدة، فنأت بنفسها عنها. ففي الحقيقة منذ موت الطفل والمرأتان تتجاهل كل منهما الأخرى.

إلا أن أيًّا من التصميمات التي رسمتها بنفسها، أو رسمها الآخرون، لم تقترب من الكمال الهندسي البراق الذي بدأ يتدفق على ذهنها في سكون إلى أن وصلت إلى المرحلة التي تمنت فيها أن يعود الألم إليها لكي ترى هذه الأشكال مرة أخرى.

كانت التغيرات التي تحدث أثناء وعيها أحيانًا تخيفها. فماذا يعني ذلك؟ إنها غريزيًّا تريد عمل ارتباطات، كانت هذه طبيعتها، لكن ما الارتباط الذي يمكن أن يكون بين وميض الضوء في عينيها، والعاصفة الشاهقة في السماء؟ هل العاصفة هي سبب الضوء الذي يبزغ في رأسها أم أن العكس هو الصحيح؟

استمرت الحياة، ودورة التنفس التي لا تنتهي، وجمع الطعام، وتوالي الشمس والقمر، وشيخوخة الجسم البطيئة. انقضت الشهور، وغرقت ماذر أكثر وأكثر في غرابة مراكزها العصبية الحسية. فقد بدأت ترى ارتباطات في كل مكان، كما لو أن العالم كان متشابكًا بأسباب مثل خيوط شبكة عنكبوت هائلة غير مرئية وشعرت وكأنها تذوب في إحساسها بتشتت الذات.

لكن بكل هيامها الداخلي، فإنها تتشبث بذكرى ابنها، التي كانت بمنزلة ألم لا ينتهي، وكأنها ما تبقى من ساق مبتور.

وتدريجيًّا بدا موت سايلنت، وكأنه بؤرة كل تلك المسارات السببية.

توصلت العشيرة إلى إجماع غير مصحوب بكلمات، بأن يتم تفكيك المخيم، واستعد الجميع للرحيل.

رحلت ماذر معهم. وأظهر سابلنج والآخرون ارتياحهم، فقد اعتقد البعض أنها قد تصر على البقاء بجانب الحفرة التي تحوي عظام ابنها.

بعد رحلة طويلة وصلوا إلى معسكر جديد، قريب من بحيرة يحيطها الوحل. أقاموا مساكنهم، وصنعوا مفارشهم. ومع استمرار الجفاف، ظلت الحياة قاسية، وظل الكبار والأطفال يعانون.

ذات يوم؛ أحضر سابلنج رأس نعامة صغيرة لماذر، كانت رقبتها قد قُطعت أسفل الفك بمسافة كف اليد، وثُقب رأسها بدقة برمية رمح.

يُعد صيد نعامة سريعة، والتصويب الدقيق على الرأس الصغير للطائر الذي يعدو بسرعة خمسين أو سبعين مترًا عملًا بطوليًّا. فبعد شهور من التدريب الشاق تعلم سابلنج والصيادون الشباب الآخرون كيفية استخدام رامي الرمح لقذف رماحهم عبر مسافات غير مسبوقة بدقة مذهلة. كان اختراع ماذر اختراعًا قويًّا. وبتزايد الثقة بدأ الصيادون يصلون لمسافات أبعد داخل غابات السافانا، وسريعًا ما تعلمت حيوانات السهول المفترسة خشيتهم كما لو كانوا قد حصلوا فجأة على بنادق.

في ذلك اليوم بدا أن سابلنج لديه ذكريات كثيرة متعلقة بما قتل، وأمام المرأة التي علمته أول مرة كيفية استخدام رامي الرمح، قلد كيف قذفه وكيف طواه، وكيف أصاب هدفه بدقة. قال وقدماه تضربان الأرض: «الطائر جرى سريعًا، سريعًا» ثم أشار إلى نفسه قائلًا: «جريت سريعًا، أنا، أنا. الجلد. الصخرة. الطائر جرى بسرعة، بسرعة. الرمح.» ثم قفز من خلف صخرته التي تخيلها وقتئذٍ، وقلد قذف رمحه المنتصر مرة أخرى.

في تلك الأيام لم يكن لدى ماذر سوى وقت قليل تقضيه مع الناس، وأصبحت أكثر انغماسًا في خيالاتها الجديدة، لكنها تحملت سابلنج، الذي كان أقرب شيء إليها، كصديق تستمع إلى ثرثرته وهي شاردة.

«تحمل الرياح معها رائحة. الرائحة تلمس النعامة. النعامة تركض. الآن، هنا، وقفت، وقفت، اختبأت. الرياح تحمل الرائحة. النعامة هنا، الرياح هناك، رياح تحمل الرائحة بعيدًا ....»

كانت لغته، إلى حد ما، أشبه باللغة المبسطة التي تستخدم للتواصل بين من يتحدثون بلغات مختلفة، وكانت الكلمات بسيطة، ليست إلا أسماء وأفعالًا وصفات بدون نهايات صرفية. وكان بها كثير من الاستخدامات للتكرار والمحاكاة للتأكيد. وباستخدام نظام حقيقي بسيط، وُجِدت لغة حرة

للجميع غير أنها لم تساعد على الاتصال بين أي اثنين من الناس، حتى الذين تربوا معًا كأشقاء لا يتكلمون بطرق متشابهة أبدًا.

لكن سابلنج كان يستخدم الجُمَل أحيانًا، لقد تعلم ذلك من ماذر. وكل جملة كانت مكونة من: فاعل وفعل ومفعول، أي مُرَكبة. كانت لغة الناس البدائية، تتطور سريعًا بالاستناد إلى هذا الأصل التركيبي بالفعل. وفعليًا كان على الأفراد المتحاورين ابتكار ضمائر: لك، لي، له، لها، وطرقًا مختلفة للتعبير عن الأفعال ونتائجها: أنا قتلت، أنا أقتل، أنا لم أقتل ... كان لديهم القدرة على التعبير عن المقارنات والنفي واستكشاف البدائل. إنهم يعتبرون، الذهاب إلى البحيرة اليوم أو عدم الذهاب إلى البحيرة، كلها أحداثًا، تقع في عالم من الكلمات كان عليهم فيه من قبل اختيار طريق أو آخر أو الانقسام إلى أحزاب.

إنها لم تصبح بَعدُ لغة كاملة، لم تكن حتى ثرية مثل لغة الكريول (وهي لغة تكونت من مزيج من بعض اللغات المنفصلة بفعل التقاء الثقافات)، لكنها كانت البداية وكانت تنمو بسرعة.

وإلى حد ما، كانت ماذر قد اكتشفت — ولم تبتكر — تركيب الجملة الأساسي الذي عكس منطقه الرئيسي الإدراكَ العميق للعالم عند الهومينيد — عالم الأشياء ذات الخصائص — والذي عكس بدوره البنية العصبية الأعمق الشائعة عند معظم الثدييات. فإذا استطاع الأسد والفيل، التحدث مثلًا، فسوف يتحدثان بهذه الطريقة أيضًا. إن هذه الدعامة المركزية ستصبح عاملًا مشترك في العدد الهائل من اللغات البشرية التي سيتحدثها الناس في العصور التالية، وستصبح قالبًا شاملًا يعكس السببية الضرورية للعالم، والفهم الإنساني لها. لكن تطلب الأمر عبقرية ماذر الغامضة لإعطاء هذه البنية العميقة تعبيرًا، وإلهام البنية الفوقية اللغوية، التي تبعت ذلك بسرعة.

وكان الوقت — آنذاك — قد حان لخطوة أخرى.

قال سابلنج شيئًا جذب انتباهها: «الرمح يقتل الطائر» وقالها بحماس: «الرمح يقتل الطائر، الرمح يقتل الطائر.»

تجهمت: «لا، لا.»

توقف في غمرة انهماكه في عمله، وبدا كما لو أنه نسي أنها كانت هناك. قام بتقليد طيران الرمح وهو يقول: «الرمح يقتل الطير» والتقط رأس النعامة المقطوع، وقوّس يده الممتدة نحوها، بالضبط مثلما طار رمحه، مستقيمًا وبشكل صحيح.

صرخت هي: «لا!» ثم نهضت وقبضت على يده: «أنت ترفع اليد»، ودفعت رامي الرمح في قبضة يده. «اليد تدفع العصا. العصا تدفع الرمح. الرمح يقتل الطائر.»

انسحب حائرًا «الرمح يقتل الطائر، أليس هذا ما قلته؟»

كررت ما قالته مرة أخرى — بغضب: «أنت ترفع اليد. الرمح يقتل الطائر. أنت تقتل الطائر.» كانت هناك سلسلة سببية، لكن النية كانت في مكان واحد، في داخل رأس سابلنج. كان يمكنها أن ترى ذلك بوضوح، لقد كان هو الذي قتل الطائر، وليس الرمح. وصفعت رأسه وكأنها تقول: هنا، هو المكان، حيث مات الطائر يا غبي، داخل عقلك، أما البقية فلم تكن سوى تفاصيل. تجادلا لبعض الوقت، لكن حيرة سابلنج ازدادت، إذ إن سروره الطفولي البسيط في قتل فريسته، أخذ يتضاءل الآن إلى درجة أن تفاخره قد انقلب إلى هذه المناقشة الفلسفية الغريبة.

وفجأة طعن الألم ماذر في جانبي رأسها بشكل حاد، مثلما طعن رمح سابلنج فجأة رأس النعامة البائسة. وعندئذ سقطت على ركبتيها وقبضتاها تضغطان على جانبي رأسها.

ولكن الآن، فجأة، في تلك اللحظة — ومن خلال الألم — استطاعت أن ترى حقيقة جديدة.

تخيلت الرمح يتقوس في الهواء، مثل البرق اللامع في رأسها، يخترق جمجمة الطائر ويطفئ ضياء روحه. كانت تعلم أن سابلنج ألقى بالرمح، لقد أراد موت الطائر، وكل ما تبع ذلك، كان غير ذي صلة.

لكن ماذا لو لم ترَ سابلنج يرمي الرمح؟ ماذا لو كان مختبئًا خلف صخرة أو شجرة؟ هل كانت ستقتنع أن هذا الرمح هو السبب النهائي؟ أن الرمح ذاته قد نوى قتل الطائر؟ بالطبع لا، حتى لو أنها لم تستطع

أن ترى السلسلة السببية الكاملة، فيجب أن تتواجد. إذا رأت الرمح يطير، فإنها ستدرك أنه لا بد أن يكون شخص ما قام برميه.

إن رؤيتها الغريبة للعالم، والشبكة العنكبوتية السببية الممتدة في كافة أنحاء العالم، من الماضي إلى المستقبل، تعمقت أكثر. إذا سقطت نعامة قتيلة، فإن الصياد قد نوى ذلك. وإذا مات شخص، سيُلام شخص آخر. بهذه البساطة، رأت كل هذا على الفور، أدركته على المستوى البديهي العميق، بدون كلمات، بظهور الارتباطات الجديدة في وعيها المعقد سريع التطور.

كان المنطق واضحًا وأخاذًا ومروعًا ومسليًا.

علمت كيف تتصرف في ظل هذا الفهم الجديد.

شعرت بسابلنج وهو يجثو أمامها، ممسكًا بكتفيها: «ألم؟ الرأس؟ ماء. النوم. هنا ...» أخذ بذراعها، محاولًا مساعدتها على الوقوف.

لكن شدة الألم كانت تعاودها ما بين لحظة وأخرى، وكانه نيزك يترك أثرًا من الحطام ويعيد رسم علاقات في عقلها. وقفت وتجاوزته، وأسرعت عائدة باتجاه المخيم، كان هناك شخص واحد فقط تحتاجه الآن، وشيء واحد لا بد أن تفعله.

كانت سور في ملتجئها، تتكئ على مُتكأ خشن من سعف النخيل هربًا من قيظ الظهيرة.

وقفت ماذر فوقها، ممسكةً بيدها كتلة كبيرة من الصخر، أكبر ما أمكن لها حمله، هزتها، كما هزت سايلنت ذات مرة.

إن ماذر لم تنسَ أول يوم مرض فيه سايلنت، ففي ذلك اليوم، تغير كل شيء بالنسبة لها، كما لو أن الأرض كانت متمركزة حولها، وكما لو أن السحب والصخور تتبادل الأماكن. كانت بداية الألم، ولم تنسَ ابتسامة الشماتة التي ارتسمت على شفاه سور التي كانت تعني: «إذا لم يكن باستطاعتي أن يكون لي طفل ملكي، فإنني مسرورة لفقدانك طفلك.»

الآن رأت كل شيء بوضوح. لم يمت سايلنت بالصدفة، لا شيء يحدث بالصدفة في عالم ماذر ... ليس لأكثر من ذلك. ثمة علاقة تربط بين كل الأشياء، وكل شيء له معنى. كانت هي أول من ابتدع نظرية المؤامرة.

كان أول شخص فكرت فيه هو أقرب فرد لها في أفراد العائلة الباقين على قيد الحياة.

لم تعرف ماذر كيف ارتكبت سور جريمتها. فربما تكون نظرة، أو كلمة، أو لمسة، أو أي طريقة بارعة أو سلاح غير مرئي أمات الولد مثل رمح مصنوع من الخشب المشكّل دون أدنى شك، ولكن كيف؟ لا تهم الوسيلة وإنما كل ما يهم ماذر هو أنها عرفت من ستتهم.

رفعت ماذر الصخرة.

وفي لحظتها الأخيرة، استيقظت سور منزعجة من حركة ماذر ورأت الصخرة تسقط فوق رأسها. لقد انتهت حياتها تمامًا مثلما انتهي العصر الطباشيري (الكريتاسي) على الأرض بفعل ذيل الشيطان.

تطور عقل الهومينيد بسرعة بعد أن دعته الحاجة إلى ذكاء متزايد، وأصبح ينعم بنظام غذائي غني بالدهون. لقد كان أكثر تعقيدًا من أي حاسب آلي يمكن أن يصنعه البشر. كان بداخل رأس ماذر مائة مليار خلية عصبية، تتفاعل مع التحولات الكيميائية الحيوية — وهو عدد يقارن بعدد النجوم في المجرة، ولكن كل هذه التحولات كانت قادرة على اتخاذ مائة ألف موقع متغير، وهذه المجموعة الكاملة من التعقيدات غُمرت في سائل مرتبط بأكثر من ألف مادة كيميائية، تختلف مع الوقت، والموسم، والإجهاد، والنظام الغذائي، والعمر، ومئات التأثيرات الأخرى، التي يمكن أن يؤثر كل منها على أداء التحولات.

قبل ماذر كانت عقول الناس مقسمة إلى أجزاء مستقلة. وكان وعيهم المصقول يقتصر على التعاملات الاجتماعية، بينما كانت الوحدات المتخصصة تتعامل مع أعمال مثل: صنع الأدوات والإدراك البيئي، بالإضافة إلى المزيد من الوظائف الفسيولوجية الأساسية، مثل: التنفس. إن وظائف المخ المختلفة، تطورت إلى حد ما بصورة منفصلة إحداهما عن الأخرى، مثل: عدم دمج الوظائف الفرعية المنفصلة في برنامج رئيسي.

مع ذلك كانت وظائف المخ جميعها مُكتشفة دون سابق ترتيب، وكان هذا الحاسب الآلي المعقد الكيميائي الحيوي عرضةً للتحول غير الكيميائي.

إن الاختلاف المادي بين مخ ماذر وأولئك الناس من حولها، كان ضئيلًا، نتيجة لحدوث تحول بسيط، وتغير طفيف في كيمياء الدهون في جمجمتها، وإعادة تجهيز الدوائر العصبية التي تدعم وعيها، لكن ذلك كان كافيًا لمنحها مرونة جديدة في التفكير، واختراق الأجزاء المختلفة لذكائها وإدراكها العام.

إلا أن إعادة توصيل خلايا ذلك الكمبيوتر العضوي شديد التعقيد؛ كان — حتمًا — له آثار جانبية ليست كلها مرغوبة.

لم يكن ما تعانيه ماذر مجرد صداع نصفي، إذ كانت تعاني مما يمكن تشخيصه بمرض انفصام الشخصية، وقد تفجرت أعراضه بموت ابنها. حتى في الازدهار الأول للإبداع الإنساني، أنذرت ماذر بالعديد من العباقرة الخاطئين، الذين سيضيئون ويُظلمون التاريخ الإنساني، في الأجيال المستقبلية.

لم تكن هناك قوات شرطة، ولكن القتلة العشوائيين لم يكونوا موضع ترحيب في ذلك المجتمع الصغير المتماسك، لذلك فقد جاءوا يبحثون عنها.

ولكنها ولت الأدبار.

سارت وحيدة مدة أيام عبر غابات السافانا، عائدة إلى آخر منطقة خيموا فيها: منطقة الممر الضيق الجاف، كانت رقعة الأرض الآن قد تغيرت بفعل الطقس، وزادت في النمو، ولكنها كانت هي الوحيدة — بالتأكيد — التي يمكنها التعرف عليها.

أزالت النباتات والحشائش ونظفت المكان، ثم تناولت عصا حفر: مثلما حفر ببل الذي مات منذ زمن بعيد بحثًا عن جذور البطاطا، وبدأت تحفر في الأرض.

وعلى عمق متر أو أكثر، لمحت أخيرًا العظم الأبيض. كان أول جزء انتشلته هو ضلع يومض بالبياض في ضوء الشمس الشديد، خاليًا تمامًا من اللحم والدم؛ وقد لفت نظرها فاعلية الديدان، لكنها لم تكن تريد الأضلاع. فقامت بتنحية العظم، ودست يدها في التربة. كانت تعلم أين تبحث، متذكرة كل تفاصيل ذلك اليوم المشئوم، عندما أُلقي بسايلنت في هذه القطعة من

الأرض. كيف أسقِط فيها برأس متدلٍ إلى الخلف وأطراف منبسطة، وآثار فضلاته لا تزال موجودة على سيقانه النحيفة.

وعلى الفور أطبقت يدها على رأسه.

رفعت الجمجمة عاليًا في الهواء وكان تجويفا العينين، في مواجهتها، وكان ما ثبَّت الفك في مكانه بقايا غضروف، لكن الغضروف المتعفن انفصل بعد ذلك، وصار الفك مفتوحًا، كما لو كان الطفل الهزيل يحاول أن يقول لها شيئًا، لكن الابتسامة الجوفاء ظلت عريضة بشكل غريب. وتلوّت دودة سمينة حيث كان اللسان، وبعد ذلك، سقط الفك في التراب.

إن ذلك لا يهم، إنه لا يحتاج إلى فك. ماذا عن الأسنان القليلة؟ قامت بالبصق على الجمجمة حتى تلمعها ونظفتها من التراب بكفها، وهزت الجمجمة مدندنة.

عندما عادت إلى البحيرة، كان الناس ينتظرونها. جميعهم هناك، ما عدا الأطفال الصغار والأمهات مع الرضع. كان بعض البالغين يحملون الأسلحة: السكاكين الحجرية والرماح الخشبية، كما لو كانت ماذر فيلًا شريرًا يمكن أن ينقلب عليهم فجأة. وكما ظهر الامتعاض على كثيرين أظهر آخرون العداء علانية. كان سابلنج على سبيل المثال واقفًا هنا ورامي رمحه متدليًا على ظهره بطول الوتر، وما إن رأى المرأة التي علمته الكثير، حتى أظهرت عيناه الشاحبتان الحزن والخوف عليها. كان الكثير منهم يضعون العلامات التي هي نتاج إلهامها على لحمهم أو ملابسهم.

كان من تبقى على قيد الحياة من أبناء سور فتاةً عمرها ثلاثة عشر عامًا. وكانت عرضة للبدانة دائمًا، وأصبح الوضع الآن أكثر سوءًا لأنها أدركت سن البلوغ، وكانت كبيرة الثديين وجلدها بني اللون غريبًا مائلًا إلى الصفرة، كان في لون العسل. وكانت ثمرة مقابلة عارضة مع جماعة متجولة من الشمال منذ جيلين مضيا. وقفت تلك الفتاة التي تُدعى — هَني — أي العسل والتي تربطها بماذر علاقة قرابة بعيدة تحملق فيها بغضب محير، ووجنتاها المتسختان بالتراب تُسطرهما الدموع.

عدائية، أم حزينة، أم مشفقة أم مرتبكة؟! لقد كان جميعهم غير متأكدين. عندما أدركت ماذر هذا الغموض، فإنها شعرت بنوع من الدفء

الداخلي. وبدون أن تلجأ إلى الصراخ، أو استخدام العنف، وبدون الكثير من الإيماء، كانت مسيطرة على الموقف.

قامت برفع الجمجمة، وأدارتها، بحيث يصبح تجويفا العينين العمياوين في مواجهتهم، فاندهشوا وأحجموا، لكن الأكثرية كانوا ينظرون بحيرة أكثر من كونهم خائفين. ما فائدة هذه الجمجمة البالية؟

لكن واحدة من الفتيات استدارت وابتعدت، كما لو أن الجمجمة المحدقة تنظر إليها باتهام. كانت الفتاة شديدة النحافة، انفعالية، وفي الرابعة عشرة من عمرها، ذات عيون واسعة. كانت تلك الفتاة، التي تُدعى آيز، أي العيون، لديها تصميم حلزوني متقن جدًّا مخطط أعلى ذراعيها بأكسيد الرصاص. نظرت إليها ماذر نظرة اهتمام، وطبعت صورتها في ذاكرتها .

تقدم رجل إلى الأمام، وكان رجلًا ضخمًا، ذا طبع حاد، مثل ثور هائج. أشار هذا الرجل الآن الذي دُعي أوكس، أي الثور، إلى كوخ سور وقال: «ميتة»، وأشار بفأسه إلى ماذر. «أنت. الرأس، الصخرة. لماذا؟»

بذلت طاقة هائلة للتحكم في الموقف إذ كانت تدرك أن ما ستقوله الآن سيحدد مستقبلها بالكامل، فإذا طُردت من المخيم، فهي لا تتوقع أن تعيش طويلًا.

بل إنها كانت واثقة من ذلك.

نظرت إلى الجمجمة، وابتسمت ثم أشارت إلى جسد سور وقالت: «قتلت الولد، قتلته.»

ضاقت عينا أوكس السوداوان، فإذا كان ذلك صحيحًا — أن سور قتلت الولد — فإن أفعال ماذر يمكن تبريرها. إن أي أم أو حتى أب، من المتوقع منه الانتقام للطفل المقتول.

لكنّ هَني — ابنة سور — اندفعت إلى الأمام قائلة: «كيف، كيف، كيف؟» وأخذت تصارع للتعبير عن نفسها، وبطنها المنتفخ يهتز، مقلدة الطعن والخنق. «لم يُقتل. لم يُمس. كيف، كيف، كيف؟ مرِض الولد. مات الولد. كيف. كيف؟» وكأنها تقول: كيف لأمي أن تفعل ذلك؟

رفعت ماذر وجهها إلى الشمس، التي أبحرت خلال قبة السماء الزرقاء الخالية من السحب والمائل لونها إلى الأبيض، وقالت: «ملتهبة» ماسحة

جبينها. «شمس ملتهبة. الشمس لا تلمس. إنها لا تلمس. إنها تقتل.» تعني ماذر بما قالته أن للشمس مفعولها من على بُعد، وليس من الضروري للشمس أن تلمِس جسمك لتدفئتك، وليس من الضروري لسور أن تلمِس ابني لقتله.

كان الخوف يبدو على وجوههم الآن. فقد كان يوجد الكثير من القتلة الغامضين المستترين في حياتهم، لكن فكرة أن شخصًا ما استطاع أن يتحكم في هذه القوى كانت فكرة جديدة ومخيفة.

أجبرت ماذر نفسها على الابتسام. «أمان. هي ميتة. أمان الآن.» قالت ذلك وكأنها تريد قول: لقد قتلتها لكِ. قتلت الشيطان. ثقي بي. ثم رفعت الجمجمة وضربتها قائلة: «هو أخبرني» ولذلك حدث ما حدث.

حملق أوكس في ماذر، تذمر وضرب الأرض، وأشار إلى صدرها بفأسه قائلًا: «الولد ميت. لا يتحدث. الولد ميت.»

ابتسمت — حاضنة الجمجمة في ثنايا ذراعيها مثل رأس الرضيع، وهم يحدقون فيها شبه مصدقين ما تقول، استطاعت الشعور بقوتها تسود.

لكن هَني لم تكن لتقبل أيًّا من هذا، ولذا صرخت وتفوهت بكلام غير مفهوم، واندفعت إلى ماذر، لكن النساء أوقفنها.

سارت ماذر مبتعدة باتجاه ملتجأها، وكان الناس ينكمشون إلى الخلف عند مرورها وأعينهم محملقة.

٣

اشتد الجفاف، وها هو ذا يوم حار، بدون سحب، يفسح المجال ليوم آخر. فقد جفت الأرض سريعًا، وتقلصت مساحات الجداول وأصبح لونها بنيًّا ولم تعد تزيد عن قطرات مياه. وماتت النباتات ثانيةً، بالرغم من وجود جذور لها يمكن استخراجها من الأرض ببراعة وقوة. أما الصيادون، فكان عليهم أن يتجولوا بعيدًا؛ بحثًا عن اللحم، وكانت أقدامهم تدب على الأرض المتربة المتفحمة الجافة.

كان أولئك أناسًا يعيشون في الخلاء مع الأرض والسماء والهواء. لقد كانوا شديدي الحساسية للتغيرات في العالم من حولهم، وأدركوا أن الجفاف سوف يزداد سريعًا.

ومن المفارقة أن الجفاف جلب لهم منفعة قصيرة الأمد.

عندما استمرت فترة الجفاف مدة ثلاثين يومًا، فكت المجموعة مخيمها، ثم ارتحلت إلى البحيرة الأكبر في المنطقة، وهي حوض كبير من المياه الراكدة التي ظلت قائمة باستثناء أكثر الفصول الجافة شراسة. وجدوا هناك الحيوانات آكلة العشب مثل الفيلة والثيران والظباء والجاموس والخيول، التي غلب عليها الاضطراب بفعل العطش والجوع. تجمعت الحيوانات حول البحيرة، تتنافس للنزول إلى المياه، وأقدامها الضخمة وحوافرها قد حولت محيط البحيرة إلى تجويف طيني مسحوق بالأقدام، بحيث لا يمكن لشيء أن ينمو. لكنّ بعضها سقط على الأرض مثل الكبار في السن والصغار جدًّا إلى جانب الحيوانات الضعيفة ومن لديها في أجسادها قدر قليل من الاحتياطي يمكن أن يكفيها خلال هذه المرحلة الحرجة.

استقر البشر حذرين، بجانب مقتاتي القمامة الآخرين. كان هنا جماعة أخرى من البشر، وأصناف أخرى من الناس الكسالى كثيفي الحاجبين، الذين يمكنك أن تلمح أحدهم أحيانًا من على بُعد. لكن البحيرة كانت كبيرة، ولم تكن هناك حاجة للاحتكاك والنزاع.

كانت المعيشة سهلة لبعض الوقت، ولم يكن من الضروري أن يصطاد المرء؛ فالحيوانات آكلة العشب تُصاد بمنتهى السهولة وهي واقفة، وكل ما علي المرء عمله هو السير إليها وأخذ ما يريد. لم تكن المنافسة مع باقي الحيوانات آكلة اللحوم منافسة حامية الوطيس، فهناك الكثير من الغذاء للجميع.

لم يكن على الناس أن يأخذوا الحيوان بالكامل: إن لحم فيل مقتول — على سبيل المثال — يكون أكثر من مقدرتهم على الاستهلاك قبل أن يفسد. لذلك كانوا يأخذون فقط القطع المختارة، مثل: الجذع، والأقدام المفرطحة اللذيذة الغنية بالدهون، والكبد، والقلب، ونخاع العظام، تاركين الباقي لمقتاتي القمامة صعبي الإرضاء. وأحيانًا يهجمون على حيوان لم يمت بعد، لكنه ضعيف جدًّا لا يستطيع المقاومة، وإذا كانوا سيتركون الحيوان الضعيف لمواصلة حياته، فإنه سيصبح مخزنًا للحوم الطازجة للحيوانات المفترسة ما دام على قيد الحياة.

لذلك كانت الحيوانات تموت ويُستهلك لحمها وتتبعثر عظامها وتُسحق بفعل الأحياء الأقوياء، حتى تقلص الطين الذي يحيط بالبحيرة وأصبح يومض بقطع بيضاء من العظام.

لكن الجفاف لم يكن كارثة بالنسبة للقبيلة، ليس بعد.

انتقلت ماذر إلى البحيرة، إلا أنه وبدون شك، لم يكن المسار الرائع الموجود بداخلها الذي تتبعه مهمًّا بالطبع، ولكن المهم هو أن عليها أن تظل تأكل لتبقى حية، ولنيل ذلك كان عليها أن تكون جزءًا من المجموعة.

وبدأت الحياة تصبح أسهل لها.

لم يكن من الممكن أن ينمو شيء بالقرب من هذه الحفرة الطينية، ومع استمرار الجفاف، إضافة إلى تدمير الأشجار الذي أحدثته الأفيال والباحثون الآخرون بشكل زاد من اتساع دائرة القحط؛ بات على العشيرة أن تتجول بعيدًا لجمع مواد خام لنيرانهم وفراشهم وملتجآتهم.

كانت ماذر تتلقى المساعدة في هذا العمل. وكانت آيز الفتاة المحملقة الانفعالية التي تأثرت كثيرًا بنظرة جمجمة سايلنت، قد أحضرت خشبًا لماذر، كما كان ذراعاها النحيفان تحملان العشب المجفف الشائك. تقبلت ماذر ذلك بدون تعليق، ثم تركت آيز تجلس وتشاهدها وهي تقوم برسم علامات في التراب. بعد فترة، قامت آيز — على استحياء — بمشاركتها.

كان هناك أحد الشباب بالقرب من آيز وكان ذا أصابع طويلة، وكان مغرمًا — بطريقة غريبة — بالتهام الحشرات. ذلك الشاب؛ المُسمى آنت-إيتر، أي آكل النمل، سخر من ماذر وحاول أن يجذب آيز بعيدًا، ولكن آيز قاومته.

تناولت ماذر جذعًا طويلًا مستقيمًا، وغرسته في الأرض على مسافة غير بعيدة، ثم وضعت جمجمة سايلنت على قمته. وفي المرة التالية التي جاء فيها آنت-إيتر يتلصص حول آيز، سار مباشرة في اتجاه نظر سايلنت، ثم قفز بعيدًا متذمرًا.

ومع تكرار مشاهدة الجمجمة صباحًا ومساءً بدأت قوة ماذر تزداد.

وسريعًا، لم تكن آيز فحسب هي التي تأتي لها بالخشب والطعام، لكن الكثير من النساء كن يفعلن ذلك. وكان الذكور، إذا سارت على حافة

المياه، يفسحون لها الطريق على مضض، ويتركون لها أول قطعة لحم، من أحدث ضحية للجفاف.

كل هذا بسبب سايلنت بالطبع. كان ابنها يساعدها، بطريقته الرقيقة الهادئة المميزة. وضعت ماذر أُعبه المفضلة — ردًّا للجميل — عند قاعدة الدعامة، وكانت هذه اللعب قطع المعدن الأصفر اللامع، والعصا الخشبية الملتوية. وكانت تأخذ له ما تبقى من الطعام: لحم فيل صغير مطهوًّا جيدًا وممضوغًا بأسنانها، وهي الطريقة التي كان يحبها وهو صغير. وكل صباح، يكون اللحم قد اختفى.

إنها لم تكن حمقاء. فهي تدرك أن سايلنت لا يحيا حياة البشر المادية، لكنها رأت أنه ليس ميتًا وإنما يعيش بطريقة أخرى. ربما يعيش في جسد حيوان من تلك الحيوانات التي تتغذى على الطعام الذي تتركه له. أو ربما يكون في فراشه الذي تفترشه عندما تنام. وربما موجود في قلوب عشيرتها التي تأتيها بالطعام. لا يُهم كيف يوجد، فقد كان يكفيها أن تدرك أن الموت إنما هو مجرد مرحلة، مثل الميلاد، ومثل ظهور الشعر في الجسم، أو الإنهاك بسبب التقدم في العمر. إذن، فلا شيء يستدعي الخوف. إن الألم الذي عانته كان يتلاشى عندما تستلقي على فراشها وحيدة في الظلام. كانت تشعر بقرب سايلنت منها، مثلما كان رضيعًا وهو يحتمي بحضنها.

كانت تعاني فعلًا من انفصام حقيقي. ربما لم تعد عاقلة. كان من المستحيل معرفة ذلك؛ ففي العالم أجمع، كان هناك حفنة قليلة من البشر مثل ماذر، فالقليل من الرءوس فقط عامرة بالنور، ولم يكن هناك معنى للمقارنة بينها وبين غيرها.

ولكن، سواء أكانت متعقلة أم لا، فإنها كانت أسعد من أي وقت مضى منذ زمن بعيد، حتى إن وزنها بدأ يزداد رغم هذا الجفاف. أما من جهة القدرة على البقاء فقد كانت ناجحة وأفضل من أقرانها.

إذن فإن جنونها — إن كان جنونًا — كان جنونًا قابلًا للتغير.

وذات يوم جاءت آيز بشيء جديد.

فقد بدأت آيز ترسم علامات جديدة على قطعة مسطحة من جلد الفيل، وكان مصدر إلهامها لفعل ذلك تمثال من العاج المنحوت كانت ماذر تحتفظ

به بجانبها. في بادئ الأمر، كان عملها غير متقن، مجرد رسومات مصنوعة بأكسيد الرصاص ومرسومة على عجالة على جلد مترب، لكن آيز ثابرت، محاولة أن تكرر ما رأته في مخيلتها باستخدام أكسيد الرصاص على الجلد. ومن خلال مراقبتها، لاحظت ماذر أنها تشبهها، عندما كانت تحاول في الأوقات السالفة المضنية إخراج تخيلاتها الغريبة إلى النور.

وبعد ذلك فهمت ما كانت آيز تحاول أن تفعله.

على هذه الرقعة من جلد الفيل، كانت آيز ترسم حصانًا. كان الرسم بسيطًا وطفوليًّا؛ الخطوط سيئة، والتركيب البنيوي مشوه. لم يكن شكلًا تجريديًّا مثل خطوط ماذر المتوازية والحلزونية. ولكن مما لاشك فيه أنه كان حصانًا: له رأس رشيق، ترفعه الرقبة، ويظهر شكل الحوافر في الأسفل.

بالنسبة لماذر كان ذلك بمثابة لحظة مذهلة أخرى، لحظةً انقطعت فيها الارتباطات، ومرةً أخرى عاد رأسها يتشكل من جديد. سقطت صارخةً على الأرض باحثةً عن قطع من أكسيد الرصاص، والفحم. هنا فزعت آيز وانزوت خائفة من أن تكون قد فعلت شيئًا خطأ، لكنّ ماذر أمسكت قطعة من الجلد، وبدأت تخدشها وتخربش فيها مثلما فعلت آيز.

استشعرت أول وخزة لألم رأسها تنبئها بأنها على وشك معاناة ألم أشد، لكنها استمرت تعمل من خلال ذلك الألم.

وبعد قليل كانت آيز وماذر قد غطتا سطح الأرض حولهما، صخورًا وعظامًا وجلودًا وترابًا جافًّا، بصور مشوشة لغزلان قافزة، وزرافات طويلة وفيلة وخيول وظباء.

عندما رأى الآخرون ما تفعله آيز وماذر انبهروا على الفور، محاولين تقليدهما. وتدريجيًّا، انتشر هذا التخيل الجديد وأصبحت صور الحيوانات المرسومة بأكسيد الرصاص والرماح داكنة اللون تقفز وتتطاير في كافة أنحاء المجتمع الصغير. وبدا الأمر كأن مظهرًا جديدًا للحياة قد كسا وجه العالم، وغيّر أحدُ جوانب العقل كلَّ شيء يلمسه.

وبالنسبة لماذر كان ذلك نوعًا جديدًا من القوة. حين أدركت أن الأشكال التي تراها في مخيلتها، تتطابق مع ما يوجد في العالم الخارجي، فقد بدأت تفهم أنها أصبحت في بؤرة الشبكة العالمية للسببية والتحكم، كأن عالم

البشر والحيوانات والصخور والسماء، كان مجرد خريطة لما يوجد بداخلها من خيال. والآن بهذه التقنية الحديثة الخاصة بآيز، أصبح هناك طريق جديد متكامل للتعبير عن هذا التحكم، وتلك الارتباطات. فكان التقاط شكل الحصان وتخيله في داخل رأسها، ثم نقله في صورة جماد على صخرة أو قطعة من الجلد؛ كان ذلك كأنها قد ملكته إلى الأبد، بصرف النظر عما إذا كان الحصان يركض عبر السهول الجافة دون وجود ما يعوقه.

كان الكثيرون يخافون هذه الصور الجديدة، وأولئك الذين يقومون برسمها. فقد أصبحت ماذر قوية أكثر من اللازم، أقوى من أن يتحداها أحد؛ فإن قليلًا منهم كانوا يستطيعون مجابهة تلك النظرة العمياء للجمجمة القابعة على قمة الدعامة، لكن آيز أقرب معاونيها كانت هدفًا أسهل.

ذات يوم جاءت آيز إلى ماذر وهي تبكي. وكانت شعثاء وملطخة بالوحل، والتصميمات المتقنة التي قامت برسمها على جلدها تلطخت وطُمست. وكانت مهارات آيز اللغوية لا تزال ضعيفة، وكان على ماذر أن تستمع إلى الكثير من إطناب مفردات اللغة المبسطة، قبل أن تفهم ما حدث.

فقد كان آنت-إيتر — الصبي الذي أظهر اهتمامًا بآيز — قد تعقبها مرةً ثانية. وعندما أظهرت له عدم الرغبة، حاول أن يفرض نفسه عليها. قاومته، فحملها إلى البحيرة وألقاها في المياه، ولطخها بالوحل، محاولًا أن يمحو الرسومات التي على جلدها.

نظرت آيز إلى ماذر كما لو كانت تتوقع منها المواساة، أو أن تحتضنها، وكأنها طفل صغير حزين، لكن ماذر جلست أمامها فحسب، وملامح وجهها قاسية .

بعد ذلك ذهبت إلى فراشها ورجعت بمكشطة حجرية ملساء، وجعلت الفتاة تريح رأسها على رجلها، ووخزت وجنتها بالحجر. صرخت آيز وانسحبت بعيدًا، حائرة، فلمست وجنتها، ونظرت إلى الدم على أصابعها في فزع. لكن ماذر أخذت تلاطفها، وجعلتها تستلقي ثانية، ثم ثقبت وجنتها مرة أخرى، هذه المرة، أسفل الجرح الأول. أخذت آيز تقاوم، بجهد بسيط، وفي النهاية استسلمت، وتدريجيًّا تخدر جسمها وزال الألم منه.

وعندما انتهت ماذر، قامت بمسح الدم، ثم أخذت قطعة من أكسيد النحاس، وحكّت الصخور المفتتة في جروح الفتاة باستخدامها. بكت آيز عندما لسعتها هذه المادة المالحة واحتكت بلحم جسدها المجروح.

ثم أخذت ماذر بيدها قائلة: «تعالي إلى المياه.»

قادت ماذر الفتاة المترددة الحائرة إلى البحيرة، بين الحيوانات المتكاسلة آكلات العشب. ثم قفزا في المياه، وغاصت أصابع أقدامها في الوحل الموجود بقاع البحيرة، إلى أن وصلت المياه إلى ركبتي كل منهما. ظلتا واقفتين حتى هدأت الأمواج البسيطة، واستقرت المياه الضحلة وهدأت أمامهما.

أمرت ماذر آيز أن تنظر إلى الأسفل لترى صورتها المنعكسة.

رأت آيز خطًّا حلزونيًّا قرمزي اللون يجري واضحًا من عينها وعلى وجنتها. كان الدم ما زال يتسرب من الوشم البدائي. عندما نثرت المياه على وجهها زال الدم، لكن الخط الحلزوني ظل موجودًا. تثاءبت آيز وابتسمت، بالرغم من أن تحريك قسمات وجهها جعل الجرح الموجع يؤلمها أكثر. والآن فهمت ما كانت ماذر تفعله.

كان الوشم تقنية قد جربتها ماذر على نفسها، وكان بالطبع مؤلمًا. وكان الألم — الذي برأسها، وألم فقدان سايلنت — هو ما تسبب في إحداث التغيير العظيم بحياتها. كان لا بد من الترحيب بهذا الألم والاحتفاء به، وما من طريقة أفضل من أن تجعل تلك الطفلة ملكًا لها.

يدًا بيد، سارت الاثنتان عائدتين إلى الشاطئ.

واستمر الجفاف قاسيًا، يومًا بعد يوم.

أصبحت البحيرة بركة رطبة في منتصف تجويف من الطين المشقق، وتعكرت المياه من أثر الروث وجثث الحيوانات، لكن الناس — رغم ذلك — كانوا يشربون منها، لأنهم لم يكن لهم خيار آخر، وقد عانى كثير منهم الإسهال وأمراضًا أخرى. واستمر موت الحيوانات تدريجيًّا لإصابتها بالأمراض، لكن كان القليل من اللحم الطازج لا يزال موجودًا، كما كانت هناك منافسة ضارية على هذا اللحم من جانب الذئاب والضباع والقطط.

كانت جماعات النحاف وذوي الحاجبين الكثين تحدق النظر إحداهما بالأخرى بتجهم.

كان أول من مات من عشيرة ماذر طفلة رضيعة، استنزف الإسهال جسدها الصغير. ندبت الأم موت ابنتها وأعطت الجثمان الصغير لأخواتها ليدفنوها في الأرض. ولكن التراب كان جافًا وصلبًا؛ فواجهت العشيرة الضعيفة صعوبات في الحفر. وفي اليوم التالي مات فرد آخر، رجل مسن، ثم اثنان آخران، وفي اليوم الذي تلاه، مات طفلان آخران.

بعد ذلك، حينما بدأ الناس يموتون، أتى البعض إلى ماذر.

اقتربوا من فراشها، بينما الجمجمة تلمع على الدعامة، ثم جلسوا على الأرض المغبرة، يتطلعون إلى ماذر وآيز والحيوانات والرسوم الهندسية التي رسمتاها في كل مكان. بدأ كثير منهم يقلدون ممارسات ماذر، في رسم الخطوط الحلزونية الخطوط المبعثرة متحدة المركز والخطوط المتموجة على وجوههم وأذرعهم، وهم يحملقون في التجويفين الفارغين لعيني سايلنت، كأنهم يبحثون عن الحكمة فيهما.

ما كان يهمهم هو سبب الموت. استطاعت ماذر أن تخبرهم لماذا توفي ابنها بمرض غير معروف، لم يتمكن أحد من تسميته؛ لقد كانت قادرة على أن تعلم أن سور — المرأة التي تسببت في إحداث هذه الوفاة — هي المذنبة وأن تعاقبها. فبالتأكيد، إذا كان هناك شخص يمكنه أن يعلم لماذا يصيبهم هذا الجفاف، فإنه سيكون — دون شك — ماذر.

درست ماذر هذا الحشد الهائج من الناس، وعمل عقلها بدون توقف، ولمعت الأفكار والارتباطات في ذهنها. إن للجفاف سببًا؛ بالطبع. وإن وراء كل سبب تبرير، ويوجد عقل سواء أرأيته أم لم تره، ومادام هناك عقل، إذن يمكن للمرء أن تتفاوض معه. وعلى أية حال، كانت عشيرتها — بالفعل — من التجار، منذ سبعين ألف سنة، أي مفاوضين بالفطرة.

ولكن كيف يمكنها التفاوض مع المطر؟ ماذا لديها لتمنحه له؟

كانت ريبتها من العشيرة تجثو فوق كل تأملاتها، من منهم يمكنها الوثوق به؟ من منهم تحدث عنها في غيابها؟ حتى الآن — ,ونظراتهم إليها تحمل أملاً خافتًا — هل كانوا يتواصلون معًا، بطريقة أو بأخرى، ويرسلون

رسائل سرية بعضهم إلى بعض بالإشارات، أو بالنظرات، أو حتى بعلامات منقوشة على التراب؟

في النهاية، جاءتها الإجابة.

وجاء أوكس، الرجل الضخم العصبي، الذي تحداها بعد وفاة سور، جاء لينضم إلى حشدهم الهائج، وكان الإسهال قد أضعفه.

وقفت ماذر فجأة واقتربت من أوكس، واتبعها سابلنج.

وجلس أوكس، الذي أنهكه المرض وأضعفه، على التراب مع الباقين بشكل مثير للشفقة. ووضعت ماذر يدها على رأسه برقة. فنظر إلى أعلى، مندهشًا، وابتسمت له. ثم أشارت إليه ليتبعها. وقف أوكس، بطريقة خرقاء، وكان مشوش الذهن، متعثرًا لكنه ترك سابلنج يقوده إلى فراش ماذر. وهناك أمرته ماذر أن يستلقي.

تناولت رمحًا خشبيًّا طرفه متفحم وملطخًا بالدم وصلدًا من كثرة الاستعمال. وواجهت العشيرة قائلة: «السماء. المطر. السماء تُنزل المطر. الأرض تتشرب المطر». نظرت إلى أعلى، إلى التجويف الخالي من السحاب في السماء: «السماء لا تفعل المطر. غضب. غضب. الأرض تشرب مطرًا أكثر. عطشى. عطشى. تتغذى الأرض.»

وبحركة واحدة رشيقة غرزت الرمح في صدر أوكس، فانتفض، وقبض بيده على الرمح، وسال الدم من فمه المفتوح، وجرى البول من بين رجليه، لكنها بكل ما بها من قوة ثنت الرمح، وشعرت به يمزق أحشاءه. ارتمى أوكس بثقله إلى الخلف على الفراش، ولم يتحرك ثانية. ابتسمت ماذر وأخرجت الرمح، واستمر الدم في السيلان على الأرض.

ساد الصمت، وحدق سابلنج وآيز مندهشين.

انحنت ماذر وأمسكت بحفنة تراب متشرب بالدماء: «انظروا! التراب يشرب. الأرض تشرب»، وأخذت تحشر التراب في فم جمجمة ابنها، فتلطخت أسنانه الصغيرة باللون الأحمر. وقالت برفق: «سوف يأتي المطر» ثم تفحصت الأشخاص المحدقين حولها.

نظروا إلى أسفل، واحد تلو الآخر، خاضعين لنظراتها.

قامت هَني ابنة سور بكسر حالة الذهول، بصرخة يائسة، منتقية حفنة من الحصى وألقتها على ماذر فتفرقت على الأرض دون فائدة. ثم ركضت هَني بعيدًا باتجاه البحيرة.

راقبتها ماذر بنظرات قاسية وهي تذهب.

كانت ماذر مؤمنة في أعماقها بكل ما قالته، وكل ما فعلته. ففي الحقيقة، إن تضحيتها بأوكس المسكين كان لها مغزى سياسي دون إحداث بلبلة في ثقتها بنفسها وبأفعالها. كان واحدًا من الذين كانوا يعارضونها علانية، وجاء موته ليكون حيلة، بالإضافة إلى أنه سيستنزل المطر. نعم، كان هذا هو المقصد.

تركت ماذر سابلنج ليتخلص من الجثة، ومضت إلى ملتجئها.

بالرغم من تلك التضحية، لم يهطل المطر. انتظرت القبيلة يومًا يعقبه يوم آخر قاحل ولم تظهر سحابة واحدة في السماء. وتدريجيًّا، ظهر على وجوههم الضجر، وعلى الخصوص أصبحت هَني تسخر علانية من ماذر وآيز وسابلنج وأولئك المتعلقين بهم.

لكن ماذر — ببساطة — انتظرت هادئة. فهي مقتنعة أنها على صواب، بعد كل ذلك. يبدو أن وفاة أوكس لم تكن كافية لاسترضاء السماء والتربة. إنها ببساطة مسألة تتعلق بالعثور على المبادلة الصحيحة، هذا هو كل شيء. كان الصبر هو ما تحتاجه، حتى بالرغم من هزال جسمها، حتى أصبحت جلدًا على عظم.

يومًا ما، جاءتها آيز، وكان آنت-إيتر هو من يقودها. وبالرغم من الهزال الذي أصابهما، فقد أدركت ماذر أنهما يريدان التزاوج.

لم يكن آنت-إيتر يسخر الآن، بل كان يتوسل. وكان شعوره الآن نوعًا من الحب أو الشفقة تجاه آيز، لأن الوشم الذي نحتته ماذر بهمجية على وجه آيز، أصبح ملوثًا من مياه البحيرة الراكدة. فقد كان شكله الحلزوني، بالكاد يُرى، تحت الكتلة المنتفخة من اللحم التي غطت جانبًا واحدًا من وجه الفتاة.

لكن ماذر تجهمت، فهذا الارتباط لن يكون صحيحًا. فوقفت وأمسكت يد آيز وأزاحتها بعيدًا عن آنت-إيتر الخائف، ثم سارت بالفتاة عبر الأفراد المنتشرين في المكان، إلى أن وجدتا سابلنج مستلقيًا على ظهره، ينظر إلى السماء الجرداء.

دفعت ماذر بآيز على التراب بجانب سابلنج، الذي نظر إلى ماذر بارتباك، وقالت ماذر: «أنت. أنت. عاشرها. الآن.»

نظر سابلنج إلى آيز، محاولًا بوضوح إخفاء اشمئزازه، وبالرغم من أنهما هو وآيز كانا قد قضيا وقتًا طويلًا مع بعضهما في صحبة ماذر، فإنه لم يسبق له إظهار أي اهتمام جنسي تجاه آيز، حتى قبل أن يصبح وجهها مشوهًا بهذا الشكل، وحتى هي لم تظهر له أي اهتمام من قبل.

لكن ماذر رأت الآن أنه من الصواب أن يتزوجا. إذ إن آنت-إيتر يمكن أن يكون الزوج الخطأ، بينما سابلنج هو الزوج الملائم. فَهِم سابلنج ما تريده ماذر، التي ظلت واقفة معهما إلى أن بدأت يد سابلنج تتحرك لمداعبة ثدي آيز الصغير.

بعد مضي شهر كامل على وفاة أوكس فُزعت العشيرة — من نومها — على صرخة عالية مدوية عنيفة. كانت صرخة ماذر، وكانوا متحيرين، وكان أغلبهم مرعوبين من هذه المرأة المزعجة التي تعيش معهم، فجاءوا يركضون ليروا ما هو الجديد الغريب الذي سيحيق بهم.

كانت ماذر جاثية بجانب جذع الشتلة الذي كان يحمل جمجمة ابنها. وكانت الجمجمة ملقاة على الأرض، محطمة إلى قطع صغيرة، نبشت ماذر في الحطام وهي تندب وكأن ابنها قد توفي للمرة الثانية.

ظلت آيز وسابلنج في المؤخرة، غير متأكدين مما تريده ماذر منهما.

أخذت ماذر تهز قطع الجمجمة المحطمة المثيرة للشفقة بيدها اليسرى، وهي تحملق في الأفراد من حولها، ثم أشارت بيدها اليمنى إلى الأمام قائلةً: «أنت!»

تقهقر الناس، ثم استدارت الرءوس متابعة إشارتها. كانت ماذر تشير إلى هَني.

«هنا سيري. سيري هنا!»

ارتعد، أسفل ذقن هَني المتدلي من الفزع، وحاولت الابتعاد إلى الخلف لكن هؤلاء الذين حولها أوقفوها. وفي النهاية، تقدم سابلنج إلى الأمام، قابضًا على الفتاة من رسغها، وجذبها ناحية ماذر.

ألقت ماذر فتات الجمجمة في وجهها. «أنت! أنت رميتِ الحجر. أنت حطمت الولد.»

«لا. لا. أنا ....»

كان صوت ماذر مدويًّا: «أنتِ. أوقفت المطر.»

صرخت هَني بحدة، مرعوبة، وكأن ماذر محقة فيما تقول، وسال البول من بين فخذيها.

هذه المرة، لم يكن على ماذر أن تقتل بنفسها.

لم يأتِ المطر في ذلك اليوم، أو الذي يليه، أو الذي بعده، وفي اليوم الثالث الذي تلا التضحية بهَني دوى صوت الرعد في السماء. وتزاحم الناس، انعكاسًا للحدث الذي يعود تاريخه إلى عهد اختباء برجا في مخبأها. هطل المطر أخيرًا، وانفجر من السماء منهمرًا.

ركض أفراد القبيلة يضحكون، ويستلقون على ظهورهم وأفواههم مفتوحة للمياه التي تهطل من السماء، ويتدحرجون ويقذف بعضهم بعضًا بالطين، والأطفال يتصارعون، والصغار يبكون، وحدث التزاوج بكثرة، استجابةً فطرية لنهاية الجفاف، وهذه البداية الجديدة للحياة.

جلست ماذر بجوار فرشتها المتشربة بالدماء تراقب كل ذلك؛ بابتسامة.

وكالعادة، فهي تفكر على عدة مستويات في وقت واحد.

كانت تضحيتها بهَني نوعًا من الدهاء السياسي مرةً أخرى. لم تكن هَني خصمًا داهية، لكنها كانت مركز معارضة؛ وبزوالها يكون من الأسهل على ماذر أن تعزز قواها. وفي الوقت ذاته، كانت التضحية ضرورية بوضوح. فالسماء والأرض استُرضيتا؛ ورَقت الآلهة الأولى للبشر وسمحت لأطفالهم بأن يعيشون.

لكن، على مستوى آخر من التفكير المتروي، إن ماذر تعلم أن العاصفة كانت ستأتي مهما فعلت. فإذا لم تعقب الأمطار التضحية بهَني، كان عليها

أن تستعد للاستمرار في التضحية بأفراد القبيلة واحدًا تلو الآخر، وتغرس رمحها حتى في قلب آيز نفسها، إذا اضطرت لذلك.

إنها تدرك كل ذلك في وقت واحد؛ فهي تؤمن بمتناقضات كثيرة في ذات الوقت. كانت هذه هي خلاصة ذكائها. فضحكت، ومياه المطر تجري على وجهها.

٤

كان سابلنج يسير ببطء على طول ضفة النهر العشبية، مرتديًا لفافة جلد بسيطة، ولا يحمل سوى رمح مربوط على ظهره، وحقيبة شبكية تحتوي على القليل من الأدوات المصنوعة من العظام، والأعمال الفنية دون الاشتمال على أدوات حجرية: فإذا ظهرت الحاجة إليها، فإنه يمكنه تشكيلها في الحال ثم حملها.

سابلنج الآن في الثلاثين من عمره — وقد مرت خمسة عشر عامًا، بعد وفاة أوكس وهَني وتنصيب ماذر القائدة الفعلية للقبيلة — وقد امتلأ جسمه وقست ملامح وجهه وأصبح شعره خفيفًا وبه خطوط رمادية، لكن جسده كان لا يزال نحيفًا جدًّا كما كان دائمًا، ولم يكن من الممكن أن يُخبئ الوشوم التي تغطي ذراعيه ووجهه، لكنه كان حريصًا على إزاحة التراب والوحل من فوق جلده ليخفف تأثيرها. وقد أثبتت الوشوم على مرِّ السنين أنها إنذار للغرباء، وعلى أية حال، فقد كان حاجز عدم الثقة عاليًا بما يكفي.

كان يبدو مثل الصياد يستكشف في الخارج، عشوائيًّا بعيدًا عن قبيلته، وربما يرغب في التجارة. لكنه لم يكن وحده، وكان الآخرون يراقبون كل خطوة من خطواته، وهم مختبئون في خضرة ضفاف النهر. كان مظهره أكذوبة متقنة، واستكشافه لم يكن عشوائيًّا على الإطلاق. لقد كان مستطلعًا.

كان أول من اكتشفته طفلة، طفلة صغيرة ممتلئة الجسد، تلعب بالحصى البالي عند حافة المياه، ربما تبلغ الخامسة من العمر، كانت عارية، باستثناء خيط من الخرز وضعته حول رقبتها. تطلعت الطفلة إليه بنظرة

مندهشة، وابتسم لها بعينيه الواسعتين، فصرخت وفرت باتجاه ضفة النهر. كما كان يتوقع، فسار ببطء وراءها.

كانت علامات المستوصنة، قد ظهرت عن قرب. وكانت الأرض الموحلة تحت القدم، بها علامات بفعل آثار أقدام أخرى، ورأى شبكات صيد أسماك مرتبة عبر النهر. وبعد المشي بطول منحنى ضيق في النهر، رأى المستوطنة ذاتها، ورأى خيوطًا متعرجة من الدخان تتصاعد إلى السماء من مجموعة من الأكواخ، وكان الوقت عصرًا.

أدرك على الفور أن ما رأى لم يكن مخيمًا مؤقتًا، فقد كانت الأكواخ مقامة على جذوع أشجار قوية ومثبتة بعمق في الأرض. إن عشيرة النهر هذه كانت هنا منذ فترة ومن الواضح أنهم قرروا البقاء.

ألقى سابلنج نظرة على النهر، فتبين له سبب بقائهم. فعلى طول الضفتين من على قرب، كان من الواضح وجود نباتات على الأرض، وكان يستطيع أن يرى وميض الأحجار في قاع النهر. لقد كان ذلك معبرًا، حيث تستطيع القطعان المهاجرة المرور عبر الماء. وكان كل ما على الناس فعله هو أن ينتظروا الحيوانات في ذلك المكان، حتى تأتي إليهم. وحقيقةً لقد رأى كومة كبيرة من العظام، يبدو أنها لظباء، أو ثيران، أو حتى أفيال، مكدسة خلف الأكواخ.

لكنه كان متحيرًا من الأكواخ نفسها، فقد كان لها جدران صلبة، باستثناء ثقب في قمة كل كوخ، ليسمح بخروج الدخان، ولم يكن هناك سبيل لدخول الضوء إلى الداخل. فمن الذي يمكنه العيش في مثل هذه الظلمة؟

جاءت سيدتان تركضان باتجاهه، وكانتا تحملان رماحًا خشبية غير مميزة، وفئوسًا حجرية، وترتديان لفافات مستقيمة من الجلد، تشبه إلى حد بعيد تلك التي يرتديها. كان وجهاهما تغطيهما تصميمات بأكسيد الرصاص، بدائية لكنها دالة على الوحشية. وكانت كل واحدة منهما تضع في أنفها أجزاءً من العظام. رفعت إحداهما رمحها باتجاه صدره قائلةً:

«فو، فو، ني، هاي، ني، فو! ....»

لم يتعرف على أي من تلك الكلمات، لكنه أمكنه قول إن هذه الثرثرة البسيطة كانت مثل اللغة البسيطة التي كبر وهو يتحدث بها، لكنها كانت بدون الثراء الذي تطور باستمرار بين عشيرة ماذر.

وكان سيُتوصل إلى ذلك بسهولة.

لقد ابتسم مضطرًا، وتحرك ببطء ثم أزاح حقيبته من على كتفه، وتركها تسقط مفتوحة. وهو يراقب المرأتين، أخرج صدفة بحرية منقوشة، ووضعها على الأرض أمامهما، وتراجع إلى الوراء مبتعدًا، فامتدت الأيدي وكانت خاوية. «أنا غريب، نعم، أنا لا أمثل تهديدًا، أريد المتاجرة، وهذا هو ما لدي، انظرا كم هي جميلة!»

سيطرت المرأتان على رد فعلهما، وظلت إحداهما مصوبة الرمح نحو صدره، بينما انحنت الأخرى لتفحص الصَدَفة.

إن آخر مرة لوجود تلك الصَدَفة في البحر كانت منذ عشر سنوات، ومنذ ذلك الوقت وهي تتنقل مئات الكيلومترات برًّا عن طريق الحلقات التجارية الضعيفة التي تتسم ببعد المسافة، والآن ها هي منحوت عليها رأس فيل متقنة، بيد أفضل الحرفيين مهارةً، وكانت فتاة صغيرة ذات أصابع رقيقة. عندما تعرفت المرأة على رأس الفيل، أخذت تتنفس سريعًا بشكل طفولي، ثم أمسكت بالصَدَفة وتشبثت بها تجاه صدرها.

بعد ذلك أشارت المرأتان إلى سابلنج ليتبعهما إلى المستوطنة، وسار بسهولة دون أن ينظر خلفه، واثقًا من أن رفاقه سوف يبقون مختبئين.

ولقد أثار الانتباه في مستوطنة عشيرة النهر، ولذا حملق الناس فيه وهو يمر بينهم، وحدقوا بطمع في الصدفة المنقوشة. وكان يتعقبه — بفضول — طفلان يثبان، منهما الفتاة الصغيرة التي قامت بإطلاق الإنذار أولًا.

قادته السيدتان إلى أحد الأكواخ، وكانت الأكواخ أماكن مثالية للعيش، بها مواقد متقنة، وفُرش للنوم، وطعام وأدوات وجلود متراصة. بدا الأمر كأن عشرات من الأفراد يعيشون هنا ومعهم الأطفال. أخلت الأسرة الكوخ، تاركة رجلين فقط ملتحيين، كبيري السن مثله، والمرأتين اللتين أحضرتاه إلى هنا. كانت الأرض ممهدة جيدًا ومملوءة بالبقايا المعتادة للحرف البشرية:

عظام، وطبقات الحجارة من أثر تشكيلها، وفاكهة وجذور قليلة مأكولة بعض أجزائها.

جلس الرجال أمام الجمرات الخامدة نيرانها في الموقد. وكان لديهم جميعًا عظام ضخمة مثبتة في حواجز أنوفهم. أومأ أحدهم إيماءة وقال: «قرن!» كانت الكلمة غير مألوفة غير أن الإيماءة كانت واضحة.

جلس سابلنج على الجانب البعيد من النار، وقُدمت له جذور مطهوة ليأكل، وشراب من سائل سميك. وما إن وضع بضاعته، حتى ألقى نظرات متلهفة حول الكوخ. كان الموقد متقن الصنع أكثر بكثير من الحفر البسيطة التي حفرتها عشيرة ماذر في الأرض، وبالقرب كان توجد حُفَرٌ مبطنة بالجلود ومليئة بالمياه، وصخور كبيرة مسطحة من صخور قاع النهر. وعلى الفور أدرك كيف يمكنهم تسخين المياه بإسقاط الحجارة الساخنة المشتعلة بها. كانت توجد تركيبية من الطوب الصلصالي والقش فشل سابلنج في إدراكها؛ لأنه لم يسبق له أن رأى فرنًا من قبل. كان هنا القليل من المصنوعات اليدوية غير المعتادة، مثل سلة مصنعة بإتقان، وسلطانية مصنوعة مما اعتقد في أول الأمر أنه خشب، لكن تبين أنه نوع غريب من الصلصال المتحجر.

لكن المصابيح، كانت هي الأكثر روعة.

لقد كانت المصابيح مجرد أقداح صلصالية ممتلئة بشحم الحيوان، وبها قطع من غصون شجرة العرعر التي استُخدمت كفتائل تحترق ببطء، غامرة الكوخ بضوء أصفر واضح. أدرك الآن، لماذا لا تحتاج هذه الأكواخ إلى نوافذ! وكان عقله في سباق بإدراك أن تلك المصابيح من الممكن أن تضيء أينما أراد، حتى في أعماق الليل، حتى في عدم وجود نار.

كان من الواضح أن أولئك الناس كانوا أكثر تقدمًا في صناعة الأدوات من عشيرته، لكن صناعتهم كانت محدودة، بالرغم من أن العديد منهم كانوا يضعون خيوطًا من الخرز مثل التي رآها حول عنق الفتاة الصغيرة. وقد تبين أن الخرز مصنوعًا من عاج أنياب الفيلة.

لذلك فإنه لم يتعجب، عندما أذهل الشيوخ بمجموعة البضائع التي كان قادرًا على عرضها أمامهم. عرض عليهم تماثيل صغيرة عظمية ومصنوعة

من العاج لحيوانات وبشر، ورسومات مجردة ورمزية، منحوتة ببروز على الصدفة وقطعًا من الحجر الرملي، وواحدًا من الأشكال الرائعة الخاصة بماذر، لمخلوق له جسد بشري برأس ذئب.

كان رد فعلهم قد رآه هو كثيرًا من قبل. إذ إن الأعمال الفنية لعشيرة ماذر قد تقدمت تقدمًا كبيرًا خلال عقدين، منذ أول مرة تحسست فيها الأشياء بِحَيْرة. وكان الناس مستعدين لذلك، بعقولهم الكبيرة وأصابعهم البارعة، وكل ما تطلبه الأمر وقتذاك هو توصل أحد الأشخاص إلى الفكرة، وبالمثل كانت العقول الفسيحة لعشيرة النهر هذه مستعدة للفن أيضًا. بدا الأمر وكأن ماذر قد أسقطت حبوبًا من الغبار في محلول مفرط التشبع وعلى الفور تشكلت بلورة.

لم يكن لدى سابلنج طريقة يتواصل بها مع عشيرة النهر هذه، باستثناء الإيماءات وتكهن الكلمات، لكن معايير المناقشة سريعًا ما أصبحت واضحة. سوف يكون هناك تجارة؛ بين فن سابلنج والأدوات والمصنوعات اليدوية المتقدمة الخاصة بهؤلاء الغرباء الكسالى.

وفي الوقت الذي تركهم فيه لينضم إلى رفاقه المختبئين، في قرابة منتصف اليوم التالي، كان معه حقيبة مليئة بالبضائع البسيطة. وقد تذكر جيدًا مكان كل فرن وكل موقد متقن.

لقد فعل كل ذلك من أجل ماذر، كما أنه أنجز الكثير من المهام الأخرى، لكن ماذر لم تكن بجانبه لتشاركه في العمل والمخاطر. وأحس في أعماق قلبه بشيء من الاستياء، مما أثار دهشته.

كانت ماذر تجلس على مدخل ملجئها، وقد طوت ساقيها تحتها، ووضعت يديها على ركبتيها، ووجهها تجاه الشمس، وكان ظهرها دافئًا من أثر حرارة النار التي أشعلوها لتدفئتهم ليلة أمس. كانت تطعن في السن، وتبدو هزيلة، وبدت تعاني مشكلة البقاء في مكان دافئ، لكنها كانت حتى الآن مستريحة، وراضية بشكل غريب.

إن كل سنتيمتر مربع من جلدها تغطًى بالوشم، حتى نعال قدميها كانت مزخرفة بتصاميم متداخلة. كانت هذا اليوم ترتدي جلدًا ملفوفًا

كالعادة، وكانت زخرفة جسدها مغطاة، لكن الجلد ذاته كان ينبض حياة بالألوان والحركة: حيوانات تقفز، ورماح تقذف ونجوم تتفجر. وعلى دعامة خشبية بجانبها تقبع جمجمة طفلها الميت منذ زمن بعيد، وقد أعادت لصقها بصمغ مصنوع من لحاء شجرة.

رأت ماذر الناس يستمرون في أداء عملهم اليومي، وكانوا ينظرون إليها نظرات سريعة، وأحيانًا يومئون في احترام، أو أنهم يستديرون بعيدًا في عجالة متجنبين نظرات ماذر وابنها مجوف العينين، لكن على أية حال كانوا ينزوون مثل الكواكب التي تبتعد بعيدًا عن مجال جاذبية بعض النجوم السوداء الضخمة.

على أية حال كانت ماذر هي التي تتكلم مع الموتى، وكانت ماذر التي تلتمس الرحمة من الأرض والسماء والشمس. فإذا لم تكن ماذر موجودة، فإن الأمطار لم تكن لتسقط، ولم تكن الحشائش لتنمو ثانية، وكانت الحيوانات ستمكث بعيدًا. حتى وهي تجلس في صمت، فإنها كانت أهم شخص في المجتمع.

لقد كان المخيم الأخير عرضًا متنوعًا للألوان والأشكال، كأن ماذر قد زجت بكل هذه القبيلة تدريجيًّا في رأسها، داخل خيالها الوامض المنسق، وإلى حد ما فعلت ذلك. كانت أشكال الحيوانات والبشر والرماح والفئوس، والكائنات الغريبة التي هي خليط من البشر والحيوانات والأشجار والأسلحة، تقفز من كل الأسطح، من الصخور التي اختُيرت لإمكانية التشكيل باستواء عليها، ومن الجلود المعالجة التي كست كل ملتجئ. وتشابكت بهذه الأشكال الرمزية أشكال مجردة ميزت دائمًا عالم ماذر: الخطوط الحلزونية وانفجار النجوم والشبكات والخطوط المتموجة. ولقد استُثمرت تلك الرموز بمعان متعددة، فمثلًا: صورة الظبي الأفريقي يمكن أن تمثل الحيوان ذاته، أو معلومات الناس عن سلوكه، أو تمثل نشاط الصيد المطلوب لإسقاطه، وصناعة الأدوات والتخطيط والمطاردة خلسة، أو شيئًا أكثر رقة — مثل جمال الحيوان أو ثراء ومرح الحياة ذاتها.

وفي النهاية كانت الجدران القديمة بين عوالم عقل ماذر تنهار، وكذلك الجدران الموجودة داخل عقول التابعين لها. ولم يعد وعيها الكامل مقيدًا

بالتعامل مع الآخرين، بينما الأيدي والأرجل والأفواه تعمل بصورة مستقلة عن الفكر، ولم يعد الوعي مقيدًا بوظيفته القديمة المتمثلة في نموذج نوايا الآخرين. والآن إنها تستطيع أن تفكر في الحيوان وكأنه شخص، وفي الأدوات وكأنها بشر تتفاوض معهم. بدا الأمر وكأن العالم قد سكنته أنواع أخرى من الأحياء، وكأن الأدوات والأنهار والحيوانات حتى الشمس والقمر، أناسٌ يُتعامل معهم ويُفهمون كغيرهم.

بعد ألوف السنين من الركود، أصبح الوعي أداة قوية متعددة الأغراض، منعكسة على الطبقات والمعاني المتعددة للقطع الفنية، كمرآة لنوع جديد من العقل. وفيما يخص البشر ذوي الحواجب المرتفعة، كان هذا وقت التخمر الفكري.

لم تكن ماذر المحفز الوحيد، إذ كان يوجد الكثير من نوعها متفرقين في جميع أنحاء النطاق الإنساني. وكان كل واحد من أولئك الرسل العباقرة — إذا لم يُقتل بسرعة على أيدي زملائه المرتابين — بمثابة بؤرة نوع جديد من التفكير، وطرق جديدة للحياة، ونوع جديد من الحماس. وكان ذلك بداية تغير متفجر في طريقة تفاعل الناس مع العالم من حولهم.

وكان عدم الاستقرار المناخي هو الذي أدى إلى تطور هذا النوع الجديد من العقل. كانت البيئة المتقلبة للغاية لهذا العصر الحديث — متفردةً دون تكرار الأمر في الأوقات اللاحقة — مصفاة بلا رحمة: فإن الأفراد الاستثنائيين فقط هم الذين نجوا من القسوة الاستثنائية، لنقل تراثهم الجيني. ولم يكن الأمر متعلقًا فقط بتحسن متوسط العقل إذ إن الأفراد الاستثنائيين مثل ماذر أصبحوا أكثر شيوعًا، مثل إخصائيي التكنولوجيا المستبصرين الذين منحوا عشيرة النهر طاقم أدواتهم المتقدمة. إنه من المفيد للعقل أن يكون قادرًا على أن ينتج عبقريات عرضية، وذلك من وجهة نظر الأنواع. فإنهم قد يموتون ويُدفنون في التراب، وقد يخترعون شيئًا يغير أقدار البشر.

وعندما تحدث مثل تلك الإبداعات فإن العقول الفسيحة لزملائهم تكون مستعدة لذلك، كما لو كانوا مشتاقين إلى ذلك. وكان لدى الناس الأجهزة الضرورية على مدى سبعين ألف سنة، والآن فإن ماذر والآخرين من أمثالها قدموا، إن صح القول، البرمجيات التي تعمل بها هذه الأجهزة.

إن الطريقة الجديدة للتفكير في العالم جلبت بالفعل لعشيرة ماذر منافع غير مسبوقة. كان المعسكر — فيما عدا تزيينه — مباني معتادة لها أسقف مائلة، لكنّ المعسكر الأخير كان كبيرًا، وكان عدد الناس به ضعف عدد الذاس هنا، مقارنةً بالأوقات السابقة قبل وعي ماذر. مر وقت طويل منذ أن عانوا كلهم الحزن وانتفاخ البطون من أثر الجوع. كانت طرق ماذر ناجحة.

رأت ماذر الفتاة فِنجر،أي إصبع، تجلس وحيدة في ظل شجرة باوباب عملاقة. كانت فِنجر في الرابعة عشرة فقط من عمرها، وكانت تعمل بحرص في نحت تمثال جديد عن طريق تشكيل قطعة من العاج برفق، وقد لفت ساقاها إحداهما حول الأخرى، ووضعت قصاصة من الجلد على رجلها. كانت عين ماذر التي لا تزال حادة النظر، تستطيع أن ترى وميض القطع المهدرة من العاج على الأرض من حولها. هذه الفتاة هي التي قامت بنقش صَدَفة رأس الفيل الرائعة التي أعطاها سابلنج لعشيرة النهر.

تحمل فِنجر فوق وجنتها وشمًا حلزوني التصميم، أصبح شارة لأولئك المميزين بقربهم الشديد من ماذر: كان وسام كهنوتها. لكن فِنجر كانت الجيل الثاني، إنها ابنة آيز التي ماتت منذ زمن بعيد إثر عدوى الوشم البدائي. وقد وُشمت فِنجر بالشارة الحلزونية عندما كانت لا تزال رضيعة. ويمكن اكتشاف ذلك من كيفية تشوه وذبول الوشم كلما كبرت، وهذه العلامة تشير إلى فخر وشرف من نوع خاص.

لكن الفتاة نضجت بسرعة، وتعرف ماذر أن عليها في القريب العاجل أن تجد لها شريكًا — بالضبط — كما اختارت لأمها آيز شريكًا من قبل. دار في ذهن ماذر عدد من المرشحين، فتيان وشباب من بين كهنوتها، وهي تثق في موهبتها في الاختيار الصحيح عندما يحين الوقت.

مر بها ظل آدمي وكان لامرأة اقتربت منها بتردد، ونظراتها مثبتة على الأرض الترابية. كانت شابة، لكنها تسير بانحناء. وقد جلبت معها لحم فخذ غزال وضعته على الأرض أمام ماذر، وقالت بوهن، خافضة رأسها: «قرحة، قرحة في الظهر، أتحرك ورأسي إلى أعلى، الظهر يؤلم، أحمل الطفل، الظهر يؤلم.»

أدركت ماذر أنها في مطلع العشرينيات من عمرها، لكنها تعاني مشكلات في ظهرها، منذ أن اشتبكت في معركة حمقاء مع أخيها — الأكبر منها والأثقل منها — منذ بضع سنوات مضت.

كانت ماذر ترفض — تقريبًا — أمثال هذه المطالب، إذ إن النظر إليها بأنها تفعل المعجزات عندما يُطلب منها ذلك لا يعود عليها بالنفع، سواء أنجحت أم فشلت. لكنها اليوم، في دفء الشمس، عندما رأت عبقرية فِنجر الصغيرة وهي تعمل؛ كان مزاجها جيدًا. فطقطقت أصابعها، وأشارت إلى الفتاة لتنزع لفافة الجلد من على جسمها، وتجثو مديرة ظهرَها إليها.

امتثلت الفتاة بحماسة وانحنت عارية أمام ماذر.

أخذت ماذر حفنة من الرماد البارد من الموقد الذي خلفها، وبصقت عليها وجعلتها معجونًا لينًا من التراب، ورفعته إلى نظرة سايلنت العظمية لتريه إياه، ثم فركت معجون الرماد على ظهر الفتاة، وهي تدمدم بغمغمة مبهمة. ابتعدت الفتاة عندما لامس الرماد جسمها، كما لو كان لا يزال حارًّا.

وعندما انتهت ماذر ضربت ظهر الفتاة، وأمرتها بالوقوف. وقالت لها وهي تحرك إصبعها: «كوني قوية لا تفكري بشكل سيئ. ولا تقولي شيئًا سيئًا.» إذا صح العلاج، فإن ماذر ستنال الشرف، أما إذا فشل، فإن الفتاة ستلوم نفسها، لكونها لا تستحق. وعلى أي حال، ستحصل ماذر على شرف أكبر.

هزت الفتاة رأسها بعصبية، وتركتها ماذر تذهب راضية، ثم أخذت اللحم ودفعت به إلى الكوخ الخاص بها، ليقوم شخص ما بطهيه وتخزينه لها بعد ذلك.

كل ذلك حدث خلال يوم عمل.

إن معالجة ماذر البدائية أعطت مريضتها شعورًا حقيقيًّا بتخفيف ألم ظهرها الشديد. كان هذا العلاج هو الذي سيُطلق عليه يومًا تأثير العلاج الوهمي؛ لأن الفتاة آمنت بقوة العلاج، فإنها قد أحست بتحسن. لكنّ حقيقة أن التأثير الوهمي نجح في ذهن الفتاة وليس في جسدها هي مسألة لم تؤثر على جدوى العلاج أو تجعله أقل كفاءة؛ فبعدها ستصبح أكثر قدرة على

أن تعتني بأطفالها، الذين سيكون لديهم فرصة أفضل للعيش من أولئك الذين ينتمون إلى العائلات موضع المقارنة التي بها أمهات لم يؤمنّ واللاتي لم يكن من الممكن أن تتحسن الأعراض التي يشكين منها بالعلاج الوهمي. وهكذا، فإن أولئك الأطفال — ذوي الأمهات المؤمنات بها — من المحتمل أن يكون لهم أولاد سيرثون ميل جدتهم الداخلي إلى الإيمان.

لقد كانت الحال نفسها تنطبق على الصيادين الذين شرعوا في رسم صور حيواناتهم المفترسة على الصخور والحوائط الجلدية لمتجآتهم. وسوف يُطاردون هذه الصور، ويرشقونها بالرماح في القلب أو الرأس، حتى إنهم يتناقشون مع الحيوانات عن السبب الذي يجعلها تَهب حياتها لمنفعة البشر. كان خوف الصيادين في ظل هذه الطقوس قد زال عنهم. فقد كانوا في الغالب يُجرحون أو يُقتلون من جراء طيشهم، لكن معدل نجاحهم كان عاليًا، أعلى من أولئك الذين لا يعتقدون أن لديهم أي طريقة للتواصل مع فريستهم.

إن البشر الناشئين لا يزالون كالحيوانات، ولا يزالون مقيدين بقانون الطبيعة. وليس لديهم إبداع تأصل في طريقة معيشتهم، إن لم يعطهم أي ميزة تكيفية في الصراع اللانهائي للبقاء. فقد كانت القدرة على الإيمان بالأشياء غير الحقيقية أداة قوية.

كانت ماذر — بوعي شبه كلي — تقوم بما في وسعها لتساعد هذا الميل إلى الإيمان في السيطرة والانتشار. وعن طريق التوفيق بين الأزواج من بين أتباعها المؤمنين بها؛ كانت ماذر تقوم بعمل فصل جديد مثمر. والفضل يعود إلى ذلك في أن اختلاف أنواع الأشخاص؛ المؤمنين عن أولئك غير القادرين على الإيمان، سوف يكون سريعًا بصورة مدهشة مما يؤدي إلى اختلافات مميزة في كيمياء المخ وتنظيم عشرات الأجيال. كان ذلك بداية وباء فكري سوف يتفشى سريعًا بين جميع السكان.

ورغم ذلك، فإنه في العالم وراء النطاق البشري في شمال أوروبا والشرق الأقصى، لا يزال العجائز والأقوياء ذوو الحواجب البارزة والمشاة الطوال النحاف يصنعون أدواتهم البسيطة وفئوسهم اليدوية القديمة، ويعيشون حياتهم البسيطة كما اعتادوا دائمًا.

وبعد ذلك رأت ماذر الفتاة — التي كانت قد عالجتها من قبل — وهي تسير بشكل أكثر سهولة، وأصبح انحناؤها أقل. فابتسمت، ولوحت لماذر التي سمحت لنفسها برد الابتسامة.

في نهاية اليوم عاد سابلنج من حملته على طول النهر، مغبرًا، عطشان، شاعرًا بحرارة الطقس. ومن بين كل المصنوعات اليدوية التي جلبها انتقى واحدة لعرضها على ماذر: كان مصباحًا مصنوعًا من صلصال رائع محروق. قام بإضاءة فتيله المصنوع من لحاء الشجر ووضعه بداخل كوخها، لينير به الظلام الداخلي بعد أن يتلاشى ضوء النهار. أومأت ماذر برأسها وكأنها تقول: لابد أن يكون لدينا هذا. وبجمل مقتضبة، بدأت تضع خططًا لفعل ذلك.

لكن ماذر لاحظت غرابة في سلوك سابلنج. ولأنه المساعد الأقرب إليها منذ وفاة آيز، فقد كان يحترمها كما كان دائمًا رغم نفاد صبره المؤكد في سلوكه، لكن الضوء المتألق المنبعث من المصباح الصغير أذهب الأفكار عن رأسها.

اختار سابلنج أفضل صياديه في رحلات استكشافية حول مخيم عشيرة النهر.

وأخذ يشرح لهم كيف يريد أن يحدث الهجوم، وقام برسم خرائط تخطيطية على التراب، ووضع أحجارًا تمثل نماذج الملتجآت والناس. إن لموهبة تفسير الرموز العديد من الاستخدامات. فقد كان على الصيادين الذين يصطادون بغرض التسلية تنسيق هجماتهم دائمًا. كما أن الذئاب والقطط الكبيرة كانت تفعل ذلك، وكذلك الطيور الجارحة في العصور القديمة، لكن لم يكن هناك تخطيط دقيق وكامل إلى ذلك الحد من قبل، مثل الذي خططه الهومينيد الماهر.

ما إن اقتربت الجماعة المغيرة من مركز عشيرة النهر، حتى واجهوا بعض الحيوانات. كانت المخلوقات المفترسة قد تعلمت — بالفعل — أن تخشى أولئك الصيادين المهرة الجدد بأسلحتهم بعيدة المدى وذكائهم الهائل.

وكانت بعض الحيوانات بالفعل، مثل الخنازير، ونوع معين من ظباء الغابة؛ قد أصبحت نادرة في هذه المنطقة، إذ أباد الإنسان معظمها.

كان ذلك بالطبع إرهاصة مبكرة لما سوف يحدث في المستقبل.

لكن سابلنج ومجموعته حتى ذلك الوقت، كانوا يطاردون البشر وليس الحيوانات.

عندما وقع الهجوم لم تسنح فرصة لعشيرة النهر للفوز، ولم تكن أسلحتهم هي التي أعطت المهاجمين أفضلية، ولا عددهم، بل تصرفاتهم.

كانت عشيرة ماذر تتعارك بنوع من الجنون المتحرر، فكانوا يواصلون القتال حتى عندما كان رفاقهم يُقتلون ويسقطون حولهم، بعد معاناة من جروح كان يمكن أن تضعفهم حتى وإن بدا حتميًّا قتلهم. كانوا يتعاركون وكأن لديهم اعتقادًا بأنهم لا يمكن أن يموتوا، وفي الواقع، كان ذلك قريبًا من الحقيقة. ألم ينجُ طفل ماذر من الموت، ومن تواجده بين الصخور والقاذورات والمياه والسماء، ليعيش مع الناس غير المرئيين، الذين يتحكمون في الطقس والحيوانات والحشائش؟

وبما أنهم كانوا قادرين على الاعتقاد في أن تلك الأشياء — الأسلحة أو الحيوانات أو السماء — بطريقة ما ليست إلا أناس، فإنه لم يكن صعبًا إقناعهم بأن بعض الناس ليسوا إلا مجرد أشياء. كانت الفئات القديمة قد انتهت، وفي الهجوم على عشيرة النهر، لم يكونوا يقتلون بشرًا، أناسًا مثلهم، بل كانوا يقتلون أشياء، حيوانات، أي أنواعًا أقل منهم. وبالرغم من المهارة التقنية لعشيرة النهر في شئون النار والصلصال، فإنهم لم يكن لديهم مثل ذلك الاعتقاد. لقد كان ذلك سلاحًا لا يستطيعون مجاراته، وأسس هذا النزاع البسيط الأثيم نمطًا سوف يتكرر مرارًا وتكرارًا في العصور الدموية الطويلة القادمة.

عندما انتهت المعركة طارد سابلنج بقية سكان المخيم، وذبح أغلب رجال عشيرة النهر صغارًا وكبارًا، أقوياء أو ضعفاء. وحاول أن يبقي على عدد من الأطفال والنساء الشابات؛ فالأطفال ستُوضع عليهم العلامات وسيُدربون على احترام ماذر ومعاونيها. وسوف يوزع النساء على رجاله المحاربين، فإن أصبحن حبالى، فإنه لن يسمح لهن بالاحتفاظ بأطفالهن، ما

لم يصبحن هن أنفسهن، من الأتباع المساعدين. كان قد أسر أيضًا بعضًا من الذين يفهمون كل ما يتعلق بالأفران، والمصابيح وكثير من الأشياء الذكية الأخرى، فإذا تعاونوا فسوف يكون لهم حق الحياة. وبذلك كان يرغب في أن يتعلم قومه تقنيات عشيرة النهر.

كانت هذه عملية أخرى ناجحة، وهي جزء من النمو طويل الأجل لمجتمع ماذر.

عندما شاهدت ماذر قرية عشيرة النهر سُرَّت وتقبلت انحناءة سابلنج الساجد أمامها. ومرة أخرى، لاحظت عبوسًا على وجهه، فاعتقدت أنه ربما أصبح مستاءً من الطاعة الدائمة لتعليماتها، أو ربما أراد لنفسه الحصول على أشياء أكثر. فكان يجب أن تضع ذلك في اعتبارها وتفعل شيئًا حياله.

لكن الأوان قد فات لمثل هذا التخطيط، حتى وهي تدرس ذلك الغزو الأخير، كانت قد بدأت تموت.

لم تفهم ماذر ماهية ذلك السرطان الذي كان يفترسها من الداخل، لكنها كانت تشعر به؛ كان تورمًا في بطنها، وكانت أحيانًا تتصور أنه سايلنت عاد من بين الأموات يستعد لميلاد جديد. عاد الألم في رأسها بنفس القوة المعتادة، وكانت الأضواء المتألقة تومض خلف عينيها بتعرجات وتشابكات ونجوم تنفجر كجرح مليء بالصديد. لقد وصلت الآن إلى الدرجة التي لا تستطيع معها أن تفعل شيئًا، سوى أن ترقد في ملتجئها مع ضوء المصابيح المدخنة الحارقة لدهون الحيوانات، وتستمع إلى أصوات لها صدى في جمجمتها المتسعة.

وفي النهاية جاءها سابلنج، وكانت — بالكاد — يمكنها رؤيته من خلال تألق الأنماط التي تراها، ولكن كان هناك شيء ما تحتاج إلى أن تبلغه به. أطبقت على ذراعه بيد مثل المخالب، وقالت: «اسمع».

فتحدث بصوت خفيض كما لو كان يحدِّث طفلًا، قائلًا: «فلتنامي.»

وقالت هي بإصرار بصوت أجش: «لا، لا ... لا أنت. لا أنا.» رفعت إصبعها وضربت به على رأسها وصدرها وقالت: «أنا، أنا ماذر»؛ وقالت «جا-آن».

وهكذا أقامت ماذر علاقة ارتباط أخرى. والآن، كان لديها رمز لنفسها: وهو ماذر؛ الكلمة التي تعني الأم. وبهذا كانت أول شخص في تاريخ البشرية بأكمله يكون له اسم. وعلى الرغم من أنها تموت دون أن يكون لها ولد لا يزال على قيد الحياة، فكرت أنها كانت أمهم جميعًا.

همس سابلنج قائلًا: «جا-آن» ثم ابتسم في وجهها متفهمًا ما تقول. انحنى عليها وقبلها وغطى فمها بشفتيه. وبعد ذلك ضغط على أنفها كاتمًا أنفاسها.

وبينما كان يقبلها هذه القبلة الرهيبة، كانت رئتاها الضعيفتان تحاولان جذب الهواء إليها وسريعًا ما عمت الظلمة.

توقعت ماذر من كل فرد في الجماعة — في وقت أو آخر — أنه يكن لها الضغينة منذ وقت طويل؛ توقعت ذلك من الجميع ما عدا سابلنج، معاونها الأول، وفكرت في غرابة هذا الموقف.

إن الاعتقاد المتزايد في أن وراء كل حدث لا بد أن تكون هناك نية — سواءٌ أكانت فكرة شريرة في عقول أحدهم أو هوًى مقصده خير لأحد آلهة السماء — كان حتميًّا في نفوس المخلوقات ذات الإدراك الفطري للسببية. فإذا كنت ذكيًّا بما يكفي لصنع أدوات متعددة المكونات، فإنك في النهاية ستؤمن بالآلهة، التي هي نهاية كل السلاسل السببية. وربما كان هناك ثمن لذلك بالطبع. وفي المستقبل، من أجل خدمة آلهتهم وشاماناتهم الجدد، سيضطر الناس إلى القيام بالمزيد من التضحيات: بأوقاتهم وثرواتهم، وحتى بحقهم في إنجاب الأطفال، وأحيانًا سيضطرون إلى التخلي عن حياتهم، على أن يكون نفع ذلك ألا يكونوا مضطرين إلى الخوف من الموت.

والآن لم تكن ماذر خائفة، وانطفأت الأضواء في رأسها أخيرًا، واختفت الصور، حتى إن الألم هدأ.

الفصل الثاني عشر

القارة العائمة

١

شبه جزيرة إندونيسيا، جنوب شرق آسيا، منذ قرابة اثنين وخمسين ألف سنة قبل عصرنا الحالي.

دفع الأخوان الزورق خارج ضفة النهر: «احذر ... احذر ... إلى يساري. حسنًا ... نحن في مأمن. والآن إذا اتجهنا إلى اليمين أعتقد أنه سيكون بإمكاننا أن نعبر هذه القناة.» كان إجان في مقدمة الزورق المصنوع من اللحاء، وأخوه تور في المؤخرة. وعمر الأخوين على الترتيب عشرين، واثنتين وعشرين سنة. وكلاهما صغير الحجم ونحيل وقوي وذو بشرة داكنة بلون البندق وشعر أسود مموج.

قاما بعدة مناورات بزورقهما عبر مياه يعوقها خيزران متشابك مع طمي الفيضان والجذوع المدفوعة نحو الشاطئ، وتراصت على الضفتين أشجار الماهوجني والكارايا والساج والمنجروف الطويل، إلى جانب ستار كبير شبه شفاف من شبكات العناكب العالقة التي تدلت فوق الغابة وقد جذبت الضوء، وعتمت كثافة الخضار من الداخل، وغشيت الحرارة النهر كله، وغُمر الهواء بالضوء. أخذ إجان يعرق بشدة، والهواء المحمل بالرطوبة يملأ رئتيه.

كان صعبًا أن يصدق أن هذا يحدث في غمرة العصر الجليدي، وأن الغزلان العملاقة تمرح في نصف الكرة الأرضية الشمالي محتمية من الرياح بالمرتفعات الجليدية التي يبلغ سمكها عدة كيلومترات.

وأخيرًا وصلا إلى المياه المفتوحة، لكنهما فزعا من الازدحام الذي شاهداه.

كان هناك عدد كثيف من الزوارق المصنوعة من لحاء الأشجار، بينما بعض العائلات تستخدم زورقين أو ثلاثة زوارق تربطها معًا بغرض حفظ التوازن، وبين تلك الأساطيل الفخمة انطلقت الزوارق الأقل فخامة، والأطواف المصنوعة من خشب المنجروف والخيزران والقصب. وكان هناك صيادون يصطادون بدون قوارب أو أطواف على الإطلاق، وامرأة تخوض في الماء قريبًا من الشاطئ وهي تحمل زوجًا من العصي تصطاد بهما الأسماك التي يدفعها حمقها نحو الشاطئ. ووقفت مجموعة من الفتيات والماء يصل إلى خصورهن وهن يمسكن بمجموعة من الشباك عبر النهر، ورفيقاتهن يتحركن نحوهن من اتجاهات مختلفة مثيرات زوبعة من الرذاذ لدفع الأسماك إلى الشباك.

ويختلف كل ذلك اختلافًا شديدًا عن طريقة الجذوع العائمة البسيطة التي استخدمتها قبيلة هاربون من قبل، فقد توصلت العقول البشرية المبدعة التي لا تهدأ إلى مجموعة متنوعة من طرق الصيد من المياه بعد أن حفزتها الثروات الهائلة التي تفيض بها السواحل والأنهار والمصبات.

ناور الأخوان ببراعة للمرور بين ذلك الحشد.

وتذمر إجان قائلًا: «اليوم يعج بالنشاط ... وسنكون محظوظين إذا أكلنا هذا المساء. لو كنت سمكة لابتعدت عن هنا.»

- «لنأمل إذن أن تكون الأسماك أكثر غباء منك.»

حرك إجان المجداف الخشبي بقوة، وبلل أخاه بين الحين والآخر.

سمع الأخوان صرخة تأتي من أسفل النهر، فالتفتا وحملقا وقد ضيقا أعينهما.

ومن خلال سحب الحشرات الكثيفة التي ضوأتها الشمس والتي تحلق فوق المياه، رأيا طوفًا مصنوعًا من أعمدة المنجروف، يقف على سطحه ثلاثة رجال يبدون كأشباح نحيلة سوداء في الهواء الرطب، واستطاع إجان أن يرى معداتهم وأسلحتهم والجلود المثبتة في الطوف.

قال إجان بانفعال: «إخواننا»، وخاطر بالوقوف في الزورق، واستند على تور ليحفظ توازن هذا الزورق الصغير، ولوح بشدة. وعندما رآه هؤلاء الأخوة لوحوا له وهم يقفزون إلى أعلى وأسفل فوق الطوف، مما جعله يهتز،

فاليوم يخرج ثلاثتهم إلى عرض المحيط على هذا الطوف، محاولين العبور إلى الأرض الجنوبية الواسعة.

جلس إجان وقد غلب قلقه فرحته التي تبخرت برؤية إخوانه، وغمغم: «ما زلت أرى أن هذا الطوف ضعيف جدًّا.»

استمر تور يجدف دون اهتمام قائلًا: «أوسا والآخرون يعرفون ما يفعلونه.»

- «ولكن التيار في المحيط شديد، والطريقة التي يرتفع بها المد ....»

ذكّره تور قائلًا: «لقد قتلنا قردًا قربانًا لجا-آن الليلة الماضية، إن روحه معهم.»

لكن إجان فكر وهو قلق في أنه هو من يحمل الاسم القديم «الحكيم»، وليس أيًّا منهم، وقال: «ربما كان علي أن أذهب معهم.»

رد تور بتعقل: «مضى أوان ذلك الآن.» وبالفعل كان الأوان قد مضى، ورأى إجان الإخوة الثلاثة وهم يبتعدون ويجدفون مع التيار في اتجاه مصب النهر، فقال له تور: «هون عليك يا إجان، وهيا نصطاد.»

وعندما وصلا إلى مساحة مفتوحة في عمق المياه أخذ الأخوان شبكتهما المغزولة من الكتان، ونزلا إلى الماء، وسبحا مبتعدين أحدهما عن الآخر حتى بسطا الشبكة، ثم علق إجان إصبع قدمه الكبير في حافة الشبكة السفلى حتى يبسطها عموديًّا، ثم حوَّلا شبكة الصيد إلى سياج بعرض النهر طوله نحو خمسة عشر مترًا، وبدأ الأخوان يسبحان إلى الأمام وهما يمشطان المياه بشبكة الصيد.

انسابت المياه ببطء، وكانت دافئة وهي تلامس جلد إجان، وموحلة وعكرة ومليئة بالنباتات الخضراء.

وبعد نحو خمسين مترًا من السباحة معًا أغلقا الشبكة. لم تكن الغنيمة عظيمة، فالأسماك اليوم قد ابتعدت خائفة، ولكن كانت هناك بضع أسماك سمينة ألقوا بها داخل الزورق، وحرصوا على إطلاق سراح الأسماك الصغيرة، إذ لن يأكل أحد سمكة صغيرة، في حين أنه يستطيع الانتظار والتهام سمكة سمينة بعد بضعة أشهر. طوى الأخوان الشبكة المسرودة، واستعدا للسباحة ضد التيار مرة أخرى.

لكنهما سمعا عندئذ صرخة من الشاطئ؛ نحيبًا مخيفًا.

التفت إجان إلى تور قائلًا: «أمنا ....»

- «علينا أن نعود.»

علقا الشبكة على جذع شجرة مقطوعة حيث يمكن تركها، واندفعا عائدين إلى الزورق، وغيرا اتجاهه ودفعاه مرة أخرى إلى كتل الحطام المنجرف المغطي لضفة النهر.

وعندما رجعا إلى المعسكر وجدا شقيقاتهما يحاولن تهدئة روع أمهم الحزينة، فلم يكن الأشقاء الثلاثة قد ابتعدوا كثيرًا عن الشاطئ عندما ثارت موجة مدية حطمت مركبهم الضعيف، ولم يظهر أحد منهم بعد ذلك، فقد غرقوا جميعًا.

ولن يعود أوسا أو بورن أو إينر أبدًا بعد اليوم إلى ربط زوارقهم بزورق إجان.

شق إجان طريقًا وسط إخوته واتجه نحو أمه، ووضع يده على كتفها وقال: «سأقوم بهذه الرحلة من أجل أوسا والآخرين، ولن أموت في محاولتي هذه.»

لكن أمه علا نحيبها، وقد تبعثر شعرها الأشيب، واغرورقت عيناها بالدموع.

كان إجان ينحدر من سلالة آيز وفِنجر من بُعد، كان من نسل الأم الأفريقية الأصلية.

وبعد ماذر لم يعد تطور البشرية مقيدًا بسرعة تطور الثورة البيولوجية، على مدار الألفيات، فالآن كانت اللغة والثقافة تتطوران بسرعة الفكر، وهكذا تصبحان أكثر تعقيدًا.

لم يمضِ وقت طويل بعد موت ماذر حتى بدأ نزوح جماعي من أفريقيا، وانتشر البشر بأعداد كبيرة في جميع الأرجاء. وتوجه قوم إجان ناحية الشرق. وفي تتبعهم لخطوات سلالة فار من المشاة، شقوا طريقهم نحو الحدود الجنوبية لأوراسيا على طول الخطوط الساحلية والأرخبيل. والآن أصبح هناك العديد من البشر من إندونيسيا والهند الصينية، الذين

مروا عبر الهند والشرق الأوسط في عودتهم إلى أفريقيا. وبالتزايد التدريجي لعدد السكان أخذوا في استعمار رءوس الجسور الساحلية، على طول الممرات المائية الداخلية وإلى داخل القارة العظيمة.

كان إجان وتور من نتاج أنقى سلالات الرُحّل الساحليين، أولئك الذين حافظوا على هجرتهم إلى الشواطئ جيلًا بعد جيل. وبغرض استثمار ثروات الأنهار والمصبات والأشرطة الساحلية، إلى جانب الجزر البعيدة عن الشاطئ، شحذ أولئك البشر تدريجيًّا مهارتهم في صنع القوارب والصيد.

لكنهم الآن في مأزق. حيث إنه على ذلك الأرخبيل، في الجانب الجنوبي الغربي لآسيا الممتدة، فإنهم سافروا إلى أبعد ما يمكن ولم تتبق أرض أخرى يمكن الرحيل إليها، وكان المكان يزداد ازدحامًا.

كانت هناك فرص للذهاب إلى أبعد من ذلك ... فالجميع يعرفون ذلك.

ومع أن الجليد الأخير لم يصل بعد إلى أقصاه من البرودة فإن مستوى البحر انخفض مئات من الأمتار. وفي إعادة التشكيل الساحلي التي نتجت عن ذلك التحمت جزيرتا جافا وسومطرا بجنوب شرق آسيا لتشكلا سطحًا صخريًّا كبيرًا، وأصبحت معظم إندونيسيا شبه جزيرة مستطيلة. وبالطريقة نفسها بزغت أستراليا وتسمانيا وغينيا الجديدة لتصبح كتلة عظيمة.

وفي تلك الجغرافيا المؤقتة والفريدة كانت هناك أماكن، حيث كتلة الأرض الآسيوية منفصلة عن أستراليا العظمى بمسافة تقرب من مائة كيلومتر.

كان الجميع يعرف أن الأرض الجنوبية موجودة، لقد لمحها البحارة الشجعان، أو غيرهم من سيئي الحظ، الذين أُلقي بهم بعيدًا عن الشاطئ وعن الجزر البعيدة عنه. ولم يعرف أحد مداها الحقيقي، ولكن على مدى أجيال كانت حكايات المسافرين قد تراكمت، حتى تأكد الجميع أنها لم تكن جزيرة فحسب، ولكنها كانت أرضًا جديدة، واسعة وخضراء وغنية بالخيرات على طول ساحل مزدحم وطويل.

كان الوصول إلى هناك سيصبح عملًا بطوليًّا. كان الناس قد وصلوا إلى هذا المكان البعيد من خلال الانتقال من جزيرة إلى أخرى، وخوض البحار الهادئة إلى حد ما، من بقعة أرض إلى أخرى، وكلها واضحة لهم واحدة تلو

أخرى. وكان التحرك من تلك الجزيرة الأخيرة إلى الأراضي الجنوبية — دون رؤية الأراضي على الإطلاق — يُعد تحديًا مختلفًا تمامًا.

ومع ذلك، فكل ما يلزم لفتح عالم جديد هو وجود شخص جسور ومقدام ومحظوظ، وذكي بما يكفي ليحاول العبور.

استغرق العثور على الشجرة التي يريدها إجان عدة أيام.

مشى وإلى جانبه تور عبر حدود الغابة، وهما يتدارسان النخيل ونبات الإسطرقوليَّة. كان إجان يقف أسفل الشجرة يراقب الخطوط التي على الجذع، ويقرع على اللحاء بقبضة يده، ليكتشف العيوب الداخلية.

وأخيرًا اختار نخلة سميكة جدًّا وسليمة، وجذعها كدعامة ضخمة، ليس بها شائبة، ولكن النخلة كانت بعيدة جدًّا عن مستوطنة عشيرته. لم تكن النخلة بعيدة جدًّا عن ضفتي النهر فقط، بل إنها كانت ثقيلة فلم يقدرا على جرها إلى المخيم.

فكر تور في التذمر من ذلك، لكنه عندما رأى التصميم المرسوم على وجه إجان الصغير احتفظ بهذا الشعور في نفسه.

بداية قطع الأخوان النخلة بفأسيهما الحجريتين، وبسرعة نزعا اللحاء عن الجزع، فكان الخشب المكشوف رائعًا، كما تمنى إجان، وشديد الصلابة تحت يديه.

ثم رجعا إلى المعسكر مشيًا على الأقدام ليطلبا العون لإحضار الجذع. ومع أنهما تلقيا تعاطفًا كبيرًا لفقدانهما أشقاءهما الثلاثة، فإن أحدًا لم يستمتع باحتمالية جر النخلة العظيمة لهذه المسافة الطويلة خلال الغابة. وفي النهاية كان أفراد العائلة — إجان وتور والفتيات الثلاث — هم من عادوا إلى النخلة المقطوعة.

وعندما أخذ النخلة إلى المعسكر بدأ إجان على الفور في العمل؛ إذ جوّف الجذع قطعة بعد أخرى، معتنيًا بأن يترك اللب سليمًا عند المقدمة والمؤخرة. واستخدم في ذلك الفئوس الحجرية وأدوات النحت التي سريعًا ما ثلمت ومع ذلك فإنها سريعًا ما شكلت الخشب.

وقد ساهم تور في أول يومين من العمل، ولكنه انسحب بعدها. ولأنه الأخ الأكبر الذي لا يزال على قيد الحياة، فإن عبء المسئولية أُلقي على كاهله بشدة، لذا كرس نفسه لأداء الأعمال الروتينية الأساسية للعائلة لتبقى على قيد الحياة.

وبعد أيام قلائل أحضرت الصغيرة روشا — أخت إجان الصغرى — لإجان شبكة صغيرة مليئة بالتمر. فوضعها على سطح المؤخرة المنحوت في الخشب، وبذهن شارد وضع بعضًا من التمر في فمه، وهو منهمك في العمل.

تبلغ روشا من العمر خمسة عشر عامًا، وهي صغيرة المبسم، نحيلة، ذات بشرة داكنة، وهي أيضًا هادئة وقوية. سارت روشا حول الجذع لترى ما تم به.

فوجدت أن التجويف قد امتد الآن بطول جزء كبير من الجذع. وكانت قاعدة الجذع العريضة ستصبح مقدمة مركب، وكان إجان قد ترك سطحًا عريضًا ليقف عليه صائد الحيتان. وصنع مقعدًا صغيرًا مستويًا ليجلس عليه موجه الدفة، وكم كان مبهرًا ظهور مركب من ثنايا الخشب، لكن الحُفَر التي حفرها إجان في الجذع كانت سطحية جدًّا، والأسطح خشنة، ولا تزال تتطلب الكثير من العمل عليها.

تنهدت روشا قائلة: «أنت تعمل بجهد شديد يا أخي، فقد اعتاد أوسا أن يصنع الطوف في يوم أو يومين على الأكثر.»

وقف إجان ومسح العرق الذي يتصبب من جبينه بذراعه العاري، ثم أسقط نصل فأس آخر، «ولكن طوف أوسا أزعجه ... فالمحيط الذي بيننا وبين الأرض الجنوبية ليس هادئًا مثل مياه النهر، ولا يوجد طوف قوي بالدرجة الكافية.» وأدخل يده في التجويف وقال: «سأكون بأمان داخل هذا المركب الصغير، وكذلك كل ما أصطحبه معي. حتى لو انقلبت فلن أتعرض للخطر، وسيستقيم المركب بسهولة. انظري هنا» وقرع على السطح الخارجي للجذع وقال: «إن هذا الجذع صلب للغاية من الخارج، واللب خفيف من الداخل. وبهذا يطفو الخشب جيدًا ولا يمكن أن يغرق، وهذه أفضل طريقة للعبور ... صدقيني.»

مررت روشا يديها الصغيرتين على الخشب المصنَّع وقالت: «إذا كانت هناك ضرورة لصنع زورق فلا بد أن تستخدم اللحاء؛ لأن القوارب المصنوعة منه أسهل في الصنع، هذا ما قاله تور، وقد أراني ذلك. وبإمكانك أن تستخدم سطحًا واحدًا من اللحاء وتثبته في مكانه بكتل الصلصال في المقدمة والمؤخرة، كما يمكنك أيضًا تثبيته بأجزاء معدنية رفيعة و....»

- «وتقضين رحلتك وأنت تنزحين الماء من المركب، وقبل أن تصلِي إلى منتصف الطريق يغرق المركب. أختاه، إنني لست في حاجة إلى تثبيت هيكل الزورق بشيء؛ فلا يمكنه أن يتشقق ولن يتسرب الماء إليه.»

- «لكنّ تور يفكر أن ....»

قال بكلمات لاذعة: «كثير من الناس يفكرون، ولكن لا يفعل كثير منهم شيئًا. لقد تناولت البلح كله. اتركيني الآن.» ثم انحنى ليكمل عمله، يكشط الخشب بعناية.

ولكن روشا لم ترحل، بل تسللت بجهد إلى داخل القارب غير المصقول وقالت: «أخي، إذا كلماتي لا تفيدك فربما تكون يداي أكثر نفعًا، فأعطني المكشطة.»

فوجئ بما تقول فابتسم ابتسامة عريضة وأعطاها المكشطة.

تقدم العمل بشكل ثابت، وعندما اقترب الزورق من الاكتمال حفّ إجان الجدران من الداخل ليتيح مساحة كافية لشخصين وعدتهما. ومن أجل تجفيف الخشب وتقطيعه أشعلا نيرانًا بسيطة بعناية داخل الزورق وخارجه.

كان يومًا عظيمًا عندما أخذ الأخوان الزورق إلى النهر، جلس إجان في المقدمة، وجلست روشا في المؤخرة.

كانت روشا لا تزال قليلة الخبرة، والمركب الأسطواني معرض للانقلاب في أي وقت، لكنه سيستقيم مرة أخرى بسهولة. لذا تعلمت روشا أن تزيد إحساسها بتوازن جسدها وسط الزورق، حتى تتمكن هي وإجان من الحفاظ على ثبات الزورق، بتحركات عضلية بسيطة. وسرعان ما تمكنا من جعل الزورق متوازنًا — على الأقل فوق المياه الثابتة للنهر — دون التفكير في الأمر، وتمكنا بمجاديفهم من الوصول إلى سرعة ممتازة.

وبعد عمل اختبارات في النهر قضى إجان أيامًا كثيرة يعمل في الزورق لأنه في بعض الأماكن تصدع الخشب وتشقق عندما جف. وأصلح العيوب بالشمع والصلصال، وأضاف مادة صمغية إلى الأسطح الداخلية والخارجية للحماية من التشققات.

وعندما انتهى رأى أن المركب جاهز لأول تجربة في المحيط.

طلبت روشا أن يسمح لها بمرافقته، لكنه كان مترددًا، فمع تعلمها السريع فهي لا تزال صغيرة وغير مدربة وغير قوية وهذا ما سيتغير فيما بعد. وفي النهاية بالطبع احترم رأيها، وسواءٌ أكانت صغيرة أم كبيرة فإن حياتها ملكها، تعيشها كما تريد. كانت تلك هي الطرق التي يتبعها الصيادون جامعو الطعام مثل هؤلاء، وستكون هكذا دائمًا؛ حيث إن ثقافتهم المبنية على اعتماد أحدهم على الآخر ولدت الاحترام المتبادل.

وأخيرًا، ولأول مرة، انزلق الزورق من مصب النهر الواسع تجاه المحيط، وأثقل إجان الزورق بالصخور ليوازن الحمولة من الطعام والمياه التي يحملانها معهما لعبور المحيط فعليًّا، في رحلتهما التي من المحتمل أن تستغرق بضعة أيام.

وعندما مرا بالصيادين على الزوارق وقفوا وصاحوا، وهم يحركون رماح صيد الحيتان وشباك الصيد، وجرى الأطفال على الضفة يصيحون وتورد إجان خجلًا من الفخر.

وفي بادئ الأمر سار كل شيء على ما يرام، وعندما خرجا من مصب النهر ظلت المياه هادئة، وثرثرت روشا بحماس عن سهولة الإبحار في المحيط وسرعة عبورهما.

ولكن إجان كان صامتًا، ورأى أن المياه التي تحيط بمقدمة الزورق كانت بنية اللون ملوثة ومليئة بأوراق شجر وحطام. وما زالا في مخرج النهر حيث تندفع مياهه إلى البحر. وربما إذا ذاق الماء يجده عذبًا، كأنهما لم يغادرا النهر بعد.

وعندما وصلا إلى التيارات الحقيقية للمحيط، مثلما خشي إجان أصبحت المياه فجأة هائجة وعنيفة وتدافعت الأمواج الشديدة على سطح المركب، فقلبت الزورق الأسطواني البسيط، وغطس إجان في المياه الباردة المالحة. وبتنسيق

بينهما كانا قد تدربا عليه ألقيا بجسميهما على الجانبين لموازنة القارب، وخرجا من المياه مبللين يلهثان، وسريعًا ما انقلب الزورق مرة أخرى. وبحدوث الانقلاب تفككت أجزاء الحمولة الوهمية ولمح إجان الصخور التي عبأها من قبل تسقط في أعماق الماء.

وعندما استقر الزورق رأى أن روشا طرحت بعيدًا، وسريعًا ما نهضت تبصق وتلهث.

عرف إجان أن التجربة انتهت، فألقى بقية الصخور في الماء، وجدف بسرعة ناحية أخته، ليسحبها معه، وبدأ طريق عودتهما إلى مصب النهر.

وعندما عادا إلى المعسكر كان استقبالهما هادئًا، وساعدهما تور في وضع الزورق على المرسى، لكنه لم يتحدث كثيرًا، ولم تكن أمهما موجودة. كانا قريبين جدًّا من الشاطئ ليرى الجميع شكلهما الغريب، وهو ما أثار الذكرى المؤلمة لما حدث لأشقائهما أوسا وبورن وإينر.

لم يتراجع إجان عن مشروعه، فهو يعرف أن العبور في الزورق ممكن، والمهم هو التحمل والمهارة، وهو يعرف أن روشا المسكينة في ظل إصرارها هذا ليس لديها هاتان الصفتان، لكنه إذا وصل إلى الأرض الجنوبية فسيحتاج إلى رفيق أقوى.

لذا دنا من تور.

وكان تور منهمكًا في صنع زورق جديد خاص به، بطريقة متطورة من اللحاء المثبت في الزورق. ولكنه وقتئذٍ أمضى معظم أوقاته في جمع الطعام والصيد. وكان ظهره منحنيًا بسبب الانحناء على الشجيرات والجذور، وظهر جرح كبير فوق ضلوعه من أثر هجوم خنزير، وكان شفاؤه منه بطيئًا.

اعتقد إجان أن أخاه يبدو أكبر من سنه، ورأى فيه القوة والإحساس بالمسئولية التي ورثها عن جده الأكبر، الذي سماه بهذا الاسم.

قال إجان: «تعالَ معي، فستكون مغامرة عظيمة.»

قال «تور» بتجهم: «إن محاولة العبور ليست ... ضرورية، ولدينا الكثير لعمله هنا، والأمور صعبة علينا الآن يا إجان، ونحن قلة والأمر ليس كما كان من قبل.» ابتسم تور ابتسامة مصطنعة، ولكن عينيه كانتا صريحتين، واستطرد قائلًا: «تخيل أننا الاثنان داخل النهر في زورقك الرائع ... فكيف

حال الفتيات وهن يصرخن؟ كما أنني أشفق على أي تمساح تتكسر أسنانه على هيكل زورقنا.»

قال إجان بهدوء: «لم أصنع الزورق للخروج إلى النهر ... ولكنني بنيته للخروج إلى المحيط، وأنت تعرف ذلك، والوصول إلى الأرض الجنوبية هو السبب نفسه الذي دفع أشقاؤنا حياتهم ثمنًا له.»

عبس تور ورد قائلًا: «أنت تفكر كثيرًا جدًّا في أشقائنا، قد رحلوا، وأرواحهم الآن مع جا-آن إلى أن يعودوا في قلوب الأطفال الجدد. لقد حاولت مساعدتك يا إجان وساعدتك لإعادة الطوف، وتمنيت أن كل هذا يخلص رأسك من أحلامك المقلقة، ولكنك الآن قد وصلت إلى المرحلة التي تستعد فيها لتترك المحيط يقتلك مثلما قتل أشقاءنا.»

قال إجان والغضب يعتصر أعماقه: «ليست لديّ الرغبة في أن أكون قتيلًا.»

قال تور بكلام لاذع: «وماذا عن روشا؟ هل ستقودها إلى الموت في سبيل تحقيق حلمك؟»

هز إجان رأسه بحيرة وقال: «لو كان أوسا حيًّا لجاء معي.» ثم صفع هيكل زورق تور الجديد المثبت فيه اللحاء، وقال: «إن زورقين أفضل من زورق واحد. ولو كان هذا زورق أوسا لربطه بزورقي وأبحرنا جنبًا إلى جنب في المحيط حتى ....»

صاح تور: «حتى تغرقا معا! وأنا لست أوسا ولا هذا زورقه.» رأى إجان الغضب والإحباط على وجهه وصُدم وكان هذا ما توقعه. قال تور: «إجان، إذا فقدناك ....»

قال إجان بهدوء: «تعالَ معي، وشد زورقك إلى زورقي، وسنهزم المحيط معًا.»

هز تور رأسه بتوتر متجنبًا النظر في عينيه.

واستعد إجان للرحيل بكل حزن.

قال له تور بهدوء: «انتظر، لن أذهب معك، ولكنك ستأخذ زورقي، وسيكون بجانب زورقك، وسأبقى بجسدي هنا، أحفر للبحث عن الجذور.» ثم ابتسم ابتسامة عريضة باشتياق قائلًا: «أما روحي فستكون معك في الزورق.»

- «أخي ....»
- «فلترجع فقط.»

عندما استخدم إجان زورق تور بزغت في ذهنه فكرة جديدة.

إن الزورق الثاني لن يكون عليه من الأشخاص من يوجهه، مع أنه سيُحمل بالطعام والتجهيزات الأخرى. وهذا يعني أنه لن يكون ثقيلًا مثل زورق إجان، وربطهما معًا جنبًا إلى جنب لن يكون الحل الأمثل للثبات.

وبعد التفكير بعض الوقت وإجراء العديد من التجارب ثبّت زورق تور المتين المصنوع من اللاحاء بزورقه بعارضتين من الخشب طويلتين ومتقاطعتين. بذلك ارتبط الزورقان بإطار من الخشب دون حواجز، كما لو كان يصنع طوفًا مؤسسًا على الزوارق.

عندما واتاه هذا المفهوم أصبح مهتمًّا بالفكرة، وربما بهذه الطريقة الجديدة كان باستطاعته الجمع بين أفضل تصميمين، بحيث يكون المجدفون وأمتعتهم مغطين بإحكام داخل جسم الزورق المصنوع من جذع شجرة مجوف، بدلًا من أن يكونوا مكشوفين على سطح الطَّوف، ولكن الزورق الثاني كان سيمنحهم ثباتًا لسطح الطوف العريض.

ورتب إجان مع روشا ترتيبًا جديدًا لعمل التجارب في النهر، بمحاذاة ساحل المحيط، ولكنّ التصميم مزدوج الهيكل كان أشد صعوبة من زورق واحد في المناورة، ولكنه كان أكثر ثباتًا. ومع أنهما تقدما في المحيط لأبعد من المرة الأولى التي جربا فيها الزورق المصنوع من جذع شجرة مجوف فإنهما لم ينقلبا مرةً أخرى. ولأنهما لم يضطرا إلى العمل باستمرار للحفاظ على ثبات المركب كما فعلا مع الزورق الأول البسيط، فالرحلة أصبحت أقل تعبًا.

وأخيرًا شعر إجان بأنه مستعد!

وللمرة الأخيرة حاول إثناء روشا عن الذهاب معه، ولكنه رأى في عينيها نفاد صبر شديد وعزمًا من حديد على مواجهة هذا التحدي العظيم. وشأنها شأن إجان كان اسمها مورَّثًا من الماضي، فربما في سلالة روشا كان هناك مسافر آخر عظيم.

حمّلا الزورقين بالمؤن — اللحوم والجذور المجففة والمياه، والقواقع والجلود لنزح الماء من المركب، والأسلحة والأدوات، حتى حزمة من الخشب الجاف لإشعال النار. وبذلك حاولا أن يكونا مستعدين، لأنهما لم يكن لديهما فكرة عما سيجدانه على هذا الساحل الأخضر في الجنوب على الإطلاق.

وعندما بدآ رحلتهما هذه المرة لم يكن هناك أي جو من الاحتفال، وانصرف الناس إلى ممارسة أعمالهم الروتينية، حتى تور لم يكن موجودًا هناك، ليشاهد الزورق المزدوج وهو ينزلق بسهولة خارج مصب النهر، ولم يستطيع إجان فعل شيء، وشعر بالاضطهاد بسبب عدم موافقتهم، حتى عندما أحس بتأرجح زورقه وهو يشق طريقه في المياه العميقة.

ولكن هذه الرحلة الاستكشافية البسيطة كانت بداية مغامرة كبيرة.

في كل مكان في شبه الجزيرة كان تصميم الركيزة التي استخدمها إجان للحفاظ على توازن الزورق يصنَّع بصفة مستقلة عن تصنيع الزورق. وفي بعض الأماكن كان تصميم الركيزة ينشأ من زورقين مثل زورقي إجان، وتخرج الركيزة في النهاية من الزورق الثاني الذي يكون أكثر غوصًا في الماء. وفي البعض الآخر كان التصميم مثل الطوف المكشوف، وفي أماكن أخرى كان الناس يختبرون التصميم باستخدام السواري البسيطة المثبتة على الحافة العليا من الزورق لتحسين القدرة على التعامل معها. ومهما كانت أصوله المتفاوتة فإن تصميم الركيزة كان حلًّا لعدم استقرار الزوارق الذي قصر استعمال الزوارق في الماضي على التنقل في الأنهار فقط.

وفي الأجيال المستقبلية فإن نسل أولئك الناس سينتشر باستخدام زوارقهم عبر أستراليا والمحيط الهندي وأوقيانوسيا، ثم سيصلون إلى أقصى الغرب حتى مدغشقر على ساحل أفريقيا، وشرقًا عبر المحيط الهادئ حتى جزيرة إيستر، وشمالًا إلى تايوان على الساحل الصيني، وإلى أقصى الجنوب إلى نيوزيلندا ناقلين اللغة والثقافة معهم. كانت هجرة ملحمية، ومما لاشك فيه فإنها سوف تستغرق عشرات الآلاف من السنين.

ولكن في نهاية الأمر فإن أطفال هؤلاء القوم المقيمين على ضفاف النهر سوف يسافرون لأكثر من مائتين وستين درجة حول محيط الأرض.

وكان العبور السلس للممر المائي إلى الأرض الجديدة سهلًا للغاية وأقل من المتوقع.

سار إجان وروشا بطول ساحل غير معروف، وفي آخر الأمر وصلا إلى مكان وجدا فيه نهيرًا عذب الماء قاطعًا النباتات المتشابكة داخل البلاد، وأدارا زورقهما في مواجهة الشاطئ، ثم أخذا يجدفان بقوة، حتى أحسا أن مقدمة الزورق قد اصطدمت بقاع البحر الضحل. فنزلا على جزء من الشاطئ تحيطه الغابة المتشابكة الكثيفة.

صاحت روشا: «أنا أولًا، أنا أولًا!» ثم وثبت خارج الزورق، أو بالأحرى حاولت فعل ذلك؛ إذ بعد قضاء يومين في البحر لم تعد رجلاها قادرة على حملها وانزلقت على ظهرها في الماء وهي تضحك.

لم يكن هبوطًا مثيرًا للإعجاب؛ فلم يُلق أحدٌ خطبة، ولم يلوّح أحد براية. ولم يتم تخليد الواقعة، وفي الواقع بعد ثلاثين ألف سنة أخرى سوف يكون موقع ذلك الهبوط الأول قد أغرقه البحر. وعلى الرغم من ذلك فقد كانت تلك لحظة حاسمة. وبالنسبة لروشا فإنها كانت أول هومينيد يلمس التربة الأسترالية، وقدمه أول قدم تطأ أرض القارة.

خرج إجان ببطء وحذر، ثم وهما واقفان وعمق الماء الساحلي الدافئ يصل إلى ركبهما سحبا زورقيهما إلى أن استقرا على الأرض بثبات.

جرت روشا مباشرة إلى النهير عذب الماء، وألقت بنفسها فيه واستدارت، مالئة فاها بكميات كبيرة منه ودلكت جلدها قائلةً: «أفّ لهذا الملح! أشعر أنني منقوعة فيه.» وبحيوية الشباب خرجت من النهير ووصلت إلى حافة الغابة لتبحث عن الفاكهة الطازجة.

تناول إجان قدرًا كبيرًا من المياه الباردة العذبة، وغطس برأسه في الماء لفترة طويلة، حتى ارتعشت قدماه ثم عاد إلى الشاطئ. تفحص إجان الغابة وتعرف على أشجار المنجروف والنخيل، كانت الغابة شبيهة إلى حد بعيد بالغابة في وطنه. وتساءل عن مساحة هذه الجزيرة الجديدة، وعمن عليها.

أطلقت روشا صرخة طويلة حادة بهدوء فأسرع نحوها.

من بين النباتات المتشابكة كان هناك شيء يتحرك بصمت، وكان ضخمًا. ومع ذلك زحف بسكون رهيب، مما أثار مخاوف مبدئية شديدة في

قلبيهما. والآن جاء يزحف خارج الأشجار المتشابكة؛ كان ثعبانًا، رآه إجان فور ظهوره لكنه لم يرَ حجمه هذا من قبل؛ فطوله يبلغ سبعة أو ثمانية خطوات، وعرضه يبلغ خطوة واحدة، على أقل تقدير. فأمسك كل من الأخ والأخت أحدهما بالآخر، وأسرعا خارجَيْن من الغابة إلى الشاطئ.

وهمست روشا: «وحوش، لقد أتينا إلى أرض الوحوش العظيمة.»

وحدق كلٌّ منهما في عيني الآخر، وهما يتصببان عرقًا ويلهثان، ثم أخذا يضحكان، وتحول الرعب إلى ابتهاج.

ورجعا إلى الزورق وهما يترنحان، وأشعلا النار، وكانت أول نار صناعية على تلك الأرض العملاقة، التي لم تر النار من قبل.

ولكنها لن تكون الأخيرة.

٢

الشمال الغربي لأستراليا، منذ واحد وخمسين ألف سنة قبل عصرنا الحالي.

على قطعة أرض على الشاطئ المبعثرة عليه الصخور كان جانا يجمع بلح البحر. كان عاريًا، لا يستر جسده سوى حزام تتدلى منه الأكياس المصنوعة من نسيج الشباك التي تحتوي على ما يجمعه؛ بشرته بنية غامقة، وشعره مجعد مجتمع عند مقدمة رأسه، ويبلغ من العمر واحدًا وعشرين عامًا، نحيل وقويّ وطويل، ويتمتع بصحة جيدة، إلا أن قدمه كانت مريضة، إثر شلل الأطفال الذي أصابه في الطفولة.

كان غارقًا في عرقه، ولكنه توقف عن العمل ونظر إلى أعلى، وتجاه الغرب كانت الشمس تنزل مختبئة خلف المحيط كما تفعل يوميًّا، وإذا وضع يديه على عينيه ليحميهما من الشمس كان في مقدوره رؤية ركائز الزوارق والصور الظلية المنعكسة على البحر على هيئة هزيلة نتيجة للضوء، وكانت لأفراد في الماء، اليوم يوشك على الانتهاء، والأكياس حول خصر جانا ثقيلة.

اكتفى جانا بما جمعه اليوم، ورجع وشق طريق العودة ببطء على طول الشاطئ. وبينما يمشي ترنح على نحو طفيف.

وعلى طول الساحل يعود الناس إلى منازلهم، وكأنهم ينجذبون مثل الفراش إلى حلقات الدخان التي ترتفع إلى السماء. واحتشدوا، هنا يعيشون في مجتمعاتهم المحدودة المزدحمة ويتغذون من البحر والأنهار.

ذلك هو الجيل الخمسون، منذ أول إنسان خطا على الأرض في أستراليا. كان إجان وروشا قد عادا إلى منزلهما محضرين الأخبار عما وجداه وما تبع ذلك، وما زال أحفادهما المتمسكون إلى حد بعيد باقتصادهم حول ضفاف الأنهار والمتمركز حول الشواطئ، ينتشرون حول ساحل أستراليا العظمى وعلى طول الأنهار إلى السهول المزروعة بالثمار قرمزية اللون في الداخل. ولكن روشا وإجان كانا أول من ذهبا إلى هناك، ولا تزال روحاهما ترفرفان من جيل إلى جيل، فقد اشتق اسم جانا من إجان وسكنته روح إجان، وما زالت قصة عبورهما تتردد، وكيف أنهما حلقا فوق المياه على قارب مبطن بريش النورس وقاوما الثعابين العملاقة والوحوش الأخرى عندما هبطا على الأرض. كل هذه القصص رددها الشامانات في الظلام الذي أناره ضوء النار.

وصل جانا إلى منزله، وكانت عشيرته تعيش في مجموعة من الأكواخ ذات الأسطح المائلة في ملتجأ متآكل على جرف عالٍ من الحجر الرملي. وقد ازدحمت الأرض بأغراض المسافرين عبر البحار، من زوارق وركائز وأطواف تُسحب على الشاطئ في المساء، وقد تكومت العشرات من رماح صيد الحيتان كل منها في مواجهة الآخر على شكل الخيام المخروطية، وظلت الشباك نصف المصنعة أو ندف المُصلَّحة متراكمة في كل مكان.

وفي منتصف المستوطنة، في مساحة مكشوفة من الفضاء، اشتعلت نيران عظيمة مشتركة بين أكثر من كوخ من شجر الأوكالبتوس، واشتعلت نيران أصغر في المواقد بفعل الفحم الحجري داخل الأكواخ، وكانت الأحجار التي يطبخون عليها موضوعة في مواقد الأكواخ، وكان الجميع منشغلين بوزن السمك وتنظيف أحشائه، رجالًا ونساءً وأطفالًا. وعدا الأطفال الصغار في كل مكان يثيرون المشكلات والضوضاء كما يفعل الأطفال دائمًا، وينشرون على وجوه الناس البهجة التي تربط بينهم.

ولكن جانا لم يستطع أن يرى أجيما.

اتخذ طريقه — ممسكًا بحقيبته المصنوعة من الخيط — إلى أكبر الأكواخ ذات الأسطح المائلة، حيث كانت أجيمِا تعيش فيه مع والديها، وهما أبناء عمومة لأبوي جانا، إلى جانب عائلتها الكبيرة والأشقاء. تنفس جانا نفسًا عند المدخل المظلم للكوخ، وجمع شجاعته، ثم خطا إلى الداخل فوجد كثيرًا من النشاط والأطفال، وشم مزيجًا من الروائح لدخان الخشب واللحم المملح والعرق واللبن.

ثم رآها وكانت تنظف أحد الأطفال؛ طفلة متشابكة الشعر صغيرة مُغطى وجهها بمخاط الأنف.

رفع جانا حقيبته الشبكية وكان بلح البحر يتلألأ داخلها وقال: «لقد أحضرت لكِ هؤلاء.» ونظرت أجيما إلى أعلى، وعلت الابتسامة البسيطة وجهها، ولكنها تحاشت النظر إليه، ولكن الطفلة حدقت فيه بعينين متسعتين، قال جانا: «أعتقد أنها الأفضل، ربما استطعنا ....»

وعندها بزغت قدمٌ من الظلام وعرقلت ساقه المريضة، فوقع على الفور على الأرض الصلبة مما أوقع بلح البحر على الأرض، ثم سمع ضحكة أحاطت بمسامعه، وأحس بيد قوية تمسك به من تحت ذراعه وتجره لتنزله أكثر إلى الأرض.

«إذا أردت أن تثير إعجابها فلا يجب أن تحاول السير — ليس بقدم كهذه — ولكن بالقفز مثل الكانجرو.»

وجد جانا نفسه — وقد احتقن وجهه — يحملق في عيني أوزيو — أخو أجيما — الجميلتين. وقتئذٍ كان العديد من أقاربها حوله، وحاول جانا أن يسيطر على غضبه وقال: «لقد أوقعتني.»

وعندما رأى أوزيو الغضب العارم على وجه جانا أبدى الحزن وقال بلطف: «لم أقصد بذلك عدم الاحترام.»

ولكن لطفه زاد الأمر سوءًا، وبعدها انحنى جانا ليجمع بلح البحر.

قال أوزيو لجانا: «دعني أساعدك.»

رد جانا بكلمات لاذعة: «لا أحتاج إلى مساعدتك، لقد أحضرتها إلى ....»

فنظر أوزيو إلى الفتاة ورآه جانا وهو يغمز لها بعينيه، بعد أن قال: «آه، إن البلح لأختي؟»

عندها تقدم أخ آخر لها اسمه سالو إلى الأمام، وكان طويلًا جدًّا فوق العادة، وجميل المظهر للغاية، وقال: «اسمع يا رجل، إذا أردت أن تثير إعجابها فهذا هو ما يجب عليك أن تحضره لها» وأخرج صدفة بلح البحر وأراه إياها، كانت ضخمة لا يستطيع أن يمسكها بيد واحدة.

لم يرَ جانا بلح بحر بهذا الحجم من قبل، على مدار الفترة الطويلة لجمع الرخويات، وفي الحقيقة لم يرَ أحدٌ مثل هذه الصدفة العملاقة: «أين وجدتها؟»

أومأ سالو برأسه بغموض وقال: «وجدتها على الشاطئ، في ركام قديم من القاذورات، وأنا أفكر في استعمالها كقدح.»

أومأ أوزيو وقال: «بلح بحر عملاق، أليس كذلك؟ لا بد أن إجان وروشا قد أكلا جيدًا في تلك الأيام. والآن كل ذلك قد انتهى بالطبع. فلتحضر لنا واحدًا من هذا الصدف العملاق أيها الكانجرو الصغير، وسوف تتزوجك أجيما سريعًا، أسرع مما ينفتح بلح البحر صدفته على النار.»

ترددت ضحكات أكثر، ولاحظ جانا أن أجيما كانت تخفي وجهها، ولكن كتفيها كانتا تهتزان. ومرة أخرى ظهر عليه غضب فكبحه، وأدرك جانا أنه لا بد أن يخرج من المكان قبل أن يتصرف مثل الطفل الصغير الغاضب، بل الأسوأ أن يضرب أحد الإخوة الذين أثاروا غضبه.

لملم بلح البحر ونهض بكرامة شديدة تناظر الكرامة التي جمع بها البلح، ولكن حتى عندما غادر كان بإمكانه سماع صوت أوزيو الساخر على نحو طفيف وهو يقول: «لقد سمعت أن عضوه الذكري ملتوٍ مثل ساقه.»

لم ينم جانا جيدًا في هذه الليلة، وبينما يرقد مستيقظًا عرف جيدًا ما عليه أن يفعله.

استيقظ قبل الفجر وجمع الحبال والرماح المقواة بالنار، والأقواس والسهام وأدوات إشعال النار وتسلل خارج المعسكر.

ومشى بطول ضفة النهر ثم شق طريقه ناحية الجزء الداخلي.

سار بصمت عبر الجماد المنتشر على أرض الغابة فأزعج مجموعة من المخلوقات المسرعة الشبيهة بالقوارض، وكانت هذه المخلوقات من أنواع

الكانجرو. حدّقت في وجهه — بعيون كبيرة مستاءة — قبل الهروب، ولكنه لم يكد يلاحظها وهو يتقدم في سيره.

كانت معظم الأشجار على ضفة النهر في الغابة غير الكثيفة من أشجار الأوكالبتوس المتشابكة مع أشرطة اللحاء نصف المزال. وهذه الأشجار الغريبة، مثلها مثل الكثير من نباتات هذا العصر، كانت من سلالة بعيدة لنباتات الجوندوانالاند التي دُفعت إلى الشاطئ عندما انفصلت هذه القارة العائمة عن الأراضي الجنوبية الأخرى. وعبر ماء النهر طاف مزيد من أطلال العهد القديم، تلك التي تمثلت في التماسيح التي تنقلت في المياه مثلها مثل الأوكالبتوس — وفي اختلافها عن الأشجار وتشابهها مع سائر التماسيح المنتشرة في كل مكان لم تتغير التماسيح عبر الزمان.

وجاء إلى أرض جرداء ليس بها أشجار.

وعبر هذه الأرض شقت طريقها عائلة تتكون من مخلوقات من ذوات الأربع في حجم وحيد القرن. وكان لها آذان صغيرة وأذناب قصيرة وبدينة، وأرجل مسطحة مثل الدببة. كانت هذه المخلوقات تمشي في الغابة بطريقة فوضوية، وبأسنانها السفلية الشبيهة بالأنياب تكشط الأرض بثبات للبحث عن الشجيرات المفضلة لديها المزروعة على أرض مالحة. كانت ذوات الجراب هذه آكلات العشب من فصيلة مزدوجات الأسنان الأولية diprotodons وهو نوع من حيوان الومبت الضخم.

كانت هناك أنواع متعددة من الكانجرو، وبحث بعض من الأنواع الأصغر عن الحشائش والنباتات القصيرة على الأرض. ولكن الأنواع الأكبر كانت أطول من جانا بكثير، ولقد نمت هذه الأنواع العملاقة طويلة حتى يكون باستطاعتها الوصول إلى أوراق الشجر. وبينما تبحث حيوانات الكونغرو عن الطعام فإنها ترفع نفسها إلى أعلى بواسطة أرجلها الأمامية والأذناب، والأرجل الخلفية القوية، وهي وسيلة فريدة للتحرك. وكانت هذا الحيوانات بطيئة الحركة وتتمتع برشاقة غريبة، بالرغم من كبر حجمها.

ولكن سُمع زئير صادر من الغابة، من الجانب الآخر للأرض الجرداء. فاستدارت حيوانات الكانجرو بأحجامها الكبيرة والصغيرة، وهربت واثبة بعيدًا بوثباتها المرنة غير العادية. قفز الحيوان الصادر منه هذا الزئير إلى

الأرض الجرداء بصفة عارضة، وبدا أنه أسد، ولكنه لا يمت بصلة قريبة لأي من فصائل القطط. فهو أسد جرابي أو ثيلا كوليو thylacoleo، من ذوات الجراب، يشبه مزدوجات الأسنان الأولية والكانجرو ولكنه من الحيوانات الضارية آكلات اللحوم، وقد اتخذ شكل الأسد بفعل أدوار وفرص مماثلة، تحرك المخلوق المتخذ شكل فصائل القطط بحركة انسيابية حول الأرض الجرداء، وعيناه العدوانيتان تتفحصان فريسته.

تحرك جانا بحذر حول حافة الأرض الجرداء ناظرًا إلى الأسد الجرابي.

وبينما سيطرت الثدييات المشيمية، في الأماكن الأخرى في العالم، على سائر الحيوانات الأخرى فإن أستراليا أصبحت مختبرًا بحجم القارة لتكيف ذوات الجراب. وكان هناك حيوانات الكانجرو آكلات اللحوم التي تصطاد الحيوانات المفترسة التي تقفز عاليًا، وهناك مخلوقات غريبة مختلفة عن الموجودة في أي مكان آخر، حيوانات عملاقة من فصيلة خَلد الماء، وسلاحف عملاقة في حجم السيارات العائلية، وتماسيح برية. وفي الغابة سحالي ضخمة — يُطلق عليها لورل monitor lizard — تنتمي إلى سلالة تنين الكومودو الموجود في آسيا ولكنها أكبر كثيرًا، ومما يُذكر ويخيف عن العصر الطباشيري أن السحالي الآكلة للحوم بلغ وزنها طنًّا وكانت كبيرة تستطيع أكل كانجرو أو إنسان.

تقدم جانا في طريقه واستمرت أفكاره في الشرود.

لقد عرف أجيما طيلة حياتها كما تعرفه هي. ففي هذا المجتمع المحدود، كل الأشخاص يعرف بعضهم بعضًا، ولما بلغت السابعة عشرة — في العام الماضي فقط — انجذب إليها، ولكنه لم يستطع تحديد ما الذي أسره فيها، فهي ليست طويلة ولا جميلة، ونهداها صغيران وأردافها عريضة جدًّا، وكان وجهها مستديرًا بأنف صغير، وفمها معوج إلى أسفل، ولكنها هادئة مثل البحر عندما يكون ساكنًا وتضع فيه زورقك بعيدًا عن اليابسة، هدوء يحجب أعماقها وثراء شخصيتها.

وكان قليل الحديث معها في هذا الشأن، ونادرًا ما تحدث معها على الإطلاق، ولم يكلمها في الواقع منذ عام، منذ أن بدأ ينظر إليها على هذا النحو.

وكان ما جرحه أن أوزيو والبلهاء الناهقين الآخرين أثاروا غضبه عندما أشاروا إلى ساقه العرجاء، وعدم مناسبته زوجًا لها. لقد كانوا يحاولون حماية شقيقتهم من هذه الزيجة السيئة، لكنه يعرف أن ساقه المريضة ليست عائقًا حقيقيًّا في حياته، وقدرته على مساعدة أجيما في تربية الأطفال التي أراد مشاركتها فيهم، ولكن الذي عليه فعله هو إقناعها وأهلها بذلك.

ولم يفعل ذلك أبدًا عن طريق نحت بلح البحر من الصخور مثل الأطفال، ولكنه ذهب ليصطاد، ويحضر بعض الحيوانات الكبيرة التي يصطادها، وكان سيفعل ذلك بمفرده، وبذلك يستطيع أن يثبت لأجيما والباقين أنه قوي وواسع الحيلة وقادر، مثل أي رجل آخر.

إن جزءًا كبيرًا من طعام الناس وقتها كان مصدره صيد مخلوقات صغيرة أو عن طريق البحث عن الطعام في البحر والنهر، وعلى الشريط الساحلي الموازي للغابة، أي أنهم يحصلون على الطعام بطريقة مباشرة، تنخفضة فيها نسبة التعرض للخطر، إلى جانب أنها ليست طريقة مميزة. أما اصطياد الحيوانات المفترسة الأكبر فكان عمل الرجال، وكانت لعبة الصيد تلك لعبة خطرة، أعطت الرجال والفتيان الفرصة ليستعرضوا رشاقتهم التي كانوا يمتلكونها دائمًا، وعلى جانا الآن أن يمارس تلك اللعبة القديمة.

مما لا شك فيه أنه لم يكن أحمق ليصطاد أي شيء ضخم جدًّا بمفرده إذ إن الحيوانات الكبيرة جدًّا لا يمكن السيطرة عليها إلا بالصيد التعاوني، ولكن كان هناك هدف واحد يمكن لأي صياد بمفرده إحضاره إلى المنزل وقت العودة.

استمر في سيره، متعمقًا أكثر وأكثر داخل الغابة.

وفي النهاية وصل إلى منطقة أخرى في الغابة خالية من الأشجار، وهنا لمح ما كان يبحث عنه.

وجد عشًّا مجمعةٌ فيه أوراق النباتات ويوجد بداخله عشرات البيض الموضوع بتنظيم شديد. إن ما جعل العش فوق العادة هو كبر حجمه، فربما كان يكفي أن يرقد فيه جانا نفسه، وكان به بعض البيض الذي يبلغ

حجمه حجم جمجمة جانا. ولو كانت برجا قد رأت ذلك التركيب الضخم لاعتقدت أن عصر الدينوصورات قد عاد من جديد.

وضع جانا مصيدته بمهارة، واستطلع حول المنطقة الخالية من الأشجار حتى رأى آثار أقدام الطائر الأم مفلطحة القدمين، وتتبع آثار الأقدام إلى الغابة في طريق قصير، ثم علق الأحبال بين الأشجار عبر آثار الأقدام، وأخذ رماحه مزدوجة الرأس ورشقها في الأرض.

وبعد ذلك حان وقت إشعال النيران.

وكان جمع قطع الخشب الجافة عملًا يتم بسرعة، ومن أجل إشعال النيران استخدم قوسًا صغيرًا لتدوير عصا من الخشب في تجويف في لوح خشبي صغير، وزود اللهب باستخدام قطع من الضرم، وعندما توهجت النار دفع المشاعل نحو اللهب وألقاها حول الغابة.

ومن ثم استقرت المشاعل على الأرض في كل مكان، واشتعلت وكأنها زهور تتفتح.

صاحت الطيور بصرخات عالية وهي تفر بعيدًا عن الدخان المتصاعد، واندفعت حيوانات الكانجرو الصغيرة على أقدامها، واتسعت أعينهم من الشعور بالخطر. وبمجرد أن رجع إلى المنطقة الخالية من الأشجار كان اللهب قد انتشر في كل مكان، والتحمت النيران المنفصلة بعضها ببعض.

وأخيرًا جاءت العملاقة ثنائية القدمين صارخةً من الغابة، ونفشت ريشها الغامق، وبدت رأسها فوق عنقها الطويل، وبدا أن قدميها المليئتين بالعضلات تهزان الأرض وهي تجري. كانت من فصيلة جنيورنيس genyornis، وهي طائر عملاق لا يطير، ويبلغ حجمها ضعف النعام الأسترالي emu. وفي الحقيقة كانت أحد أكبر الطيور التي عاشت على الأرض، لكنها كانت خائفة واستطاع جانا إدراك ذلك؛ كانت عيناها واسعتين، ومنقارها متناهي الصغر منفرجًا.

تعثرت قدماها الكبيرتان بحبله، فسقطت على الأرض وأدت قوة اندفاعها إلى دفع جسدها بإحكام تجاه رمح جانا، ولكنها لم تمت في الحال. وهي واقعة في الشرك، والرمح الملطخ بالدماء بارز من ظهرها، أخذت تضرب بجناحيها الضعيفين بلا فائدة. وكان جزء كبير من وعيها يشعر بنوع

من الندم، لأن أسلافها القدامى قد تنازلوا عن الطيران في الهواء. وفي هذه اللحظة كان الهومينيد يصرخ ويثب مرحًا ووقع منه فأسه على الأرض.

وكان لهب النيران ينتشر في الغابة وكان على جانا الإسراع في الذبح والخروج من ذلك المكان.

كانت هناك نيران بالطبع قبل وصول الإنسان إلى أستراليا، وكانت معظم النيران تحدث في موسم الرياح الموسمية وقت حدوث الكثير من البرق. ونتيجةً لذلك تطورت بعض فصائل النباتات المقاومة للنار، ولكنها لم تكن منتشرة أو سائدة.

ولكن الآن كان كل شيء يتغير، وكل مكان يتجه إليه الناس يشعلون الحرائق؛ لتشجيع نمو النباتات الصالحة للغذاء، وليجبروا الحيوانات المفترسة على الخروج إلى الأماكن التي لا يسكنوها. وبدأت النباتات تتكيف وكانت الحشائش المنتشرة شديدة القدرة على احتمال الحرائق — كما هو حالها في كل مكان — تشتعل بقوة لكنها تظل قادرة على البقاء. وتطورت أشجار الأوكالبتوس ذات اللحاء المقاوم للاشتعال لتتحمل لهب النيران وكانت أجزاء صغيرة من اللحاء تتبعثر وتنتقل بالرياح فتشعل عشرات الكيلومترات. ولكن أمام كل فائز كان هناك خاسرون كثيرون، إذ إن النباتات التي لا تستطيع مقاومة النيران التي تُعتبر أكثر من النباتات المقاومة للنيران لم يكن باستطاعتها التنافس والبقاء في الظروف الجديدة. ومنها صنوبر السرو، التي كانت منتشرة من قبل، وأصبحت نادرة الآن. حتى إن بعض النباتات التي استخدمها الناس كمصادر للغذاء، مثل الشجيرات المثمرة، أصبحت مختفية. ولأن مواطنها كانت تُحرق تدافعت مجتمعات الحيوانات إلى الداخل.

ومن المرسى الصغير الأصلي الذي رسا عليه إجان تعاقبت الأجيال واحدًا تلو الآخر وانتشروا على طول السواحل وضفاف الأنهار، كموجة كبيرة من النار والدخان انتشرت من الحدود الشمالية الغربية لأستراليا عبر الجزء الداخلي للأرض الحمراء الواسعة. وقبل ذلك الدمار استسلمت الحياة العتيقة، وكان فقدان بلح البحر العملاق أول الكائنات التي انقرضت.

وبمجرد أن غادر جانا الغابة كانت النيران لا زالت تشتعل بسرعة وتنتشر سريعًا، وعلا الدخان ليبلغ عنان السماء، ولأن جانا لم يكن مهتمًّا بالنيران فإنه لم يعد ليتفقدها.

لم يستطع أن يحمل الطائر بأكمله إلى المنزل، وفي حقيقة الأمر لم يكن الغذاء هو ما يبغيه. وعندما وصل جانا إلى المعسكر ومعه رأس طائر الجنيورنيس فوق رمحه كان مسرورًا بتصفيق أوزيو والآخرين، وبقبول أجيما هديته بخجل.

٣

نيو ساوث ويلز، أستراليا منذ قرابة سبعة وأربعين ألف عام قبل عصرنا الحالي.

كان الزورق المصنوع من اللحاء واقفًا على مياه البحيرة المظلمة الساكنة.

كان جوون وزوجته ليدا يصطادان، جوون واقف ممسك برمحه المجهز لصيد السمك، والرمح مزود عند طرفه المستدق بعظام كنغرو الولب الصغير، وشُحذ إلى أن أصبح حادًّا، وغُلّف بمادة الراتينج الصمغية. وكانت ليدا قد صنعت صنارتها من ألياف اللحاء المسحوق، ثم زودتها بخطاف مصنوع من أجزاء صدفية، ولكن الخطافات كانت هشة والصنارة ضعيفة، ولذا نوت ليدا أن تستدرج السمكة المعلقة في الخطاف بلطف قدر الإمكان، بينما يقف جوون جاهزًا لطعنها.

يبلغ جوون من العمر أربعين عامًا، وكان هزيلًا لكنّ وجهه المجعد نم عن خفة ظله، مع أن حياته كانت مليئة بالعمل الشاق، وكم كان معتزًّا فخورًا بقاربه.

كان الزورق مصنوعًا عن طريق قطع جزء بيضاوي طويل من اللحاء المستخرج من شجر الأوكالبتوس وشد طرفيه لعمل مقدمة القارب ومؤخرته، والحافة العليا من جانب المركب مقواة بعصا ملفوفة بألياف النباتات، وزُودت بعصي أقصر لتعمل على توزيع زاوية الحبال، والشقوق مسدودة بالصلصال والراتينج، والزورق يتأرجح، ولأن الجانب المنخفض كان في الماء فقد انثنى

مع كل موجة ورشح كثيرًا. ولكن أمكن التجديف فيه بمهارة بسيطة سواء أكان يرشح أم لا، حتى مع اضطراب الأمواج. وإذا كان تصنيعه النهائي بسيطًا فإن جماله الأساسي كمن في بساطته، إذ صنعه جوون في يوم واحد.

مشى أسلاف جوون، بدءًا من هبوط إجان الأول عبر أستراليا من الشمال الغربي إلى ذلك الجانب في الجنوب الشرقي يمين مركز القارة القاحل، ولكنهم لم يفقدوا براعتهم في بناء القوارب الممتازة. وحتى زورق جوون فإن به نارًا مشتعلة، تشتعل على لوح من الصلصال الرطب موجود في القاع حتى يمكنهما طهو جراد البحر الذي يصطادانه، أو أي شيء آخر.

ولم يكن جوون يهتم في حقيقة الأمر بطول مكوثه في البحر، ففي إمكانه الوقوف في صمت — طوال اليوم — في قاربه سواء أَصْطادَ أم لا. حتى التماسيح التي كانت تمر به، بعينيها المتلألئتين، لم تؤثر على اتزانه، فذلك أفضل من رجوعه إلى المعسكر على الشاطئ، حيث يجري الأطفال في كل مكان، ويتفاخر الرجال، وتطحن النساء الجذور، فضلًا عن نباح كلاب الدنغ الأسترالية. وفي رأيه إن هذه الكلاب شبه المفترسة كانت مزعجة أكثر من اللازم حتى وإن ساعدت أحيانًا في الإيقاع بالفرائس.

نفد صبر ليدا وباشمئزاز دفعت صنارتها إلى المياه وقالت: «سمكة غبية!»

جلس جوون في مواجهتها قائلًا: «الآن يا ليدا إن السمك خجول اليوم، ولا يجب أن ترمي صنارتك بعيدًا، بذلك سنضطر إلى ....»

قالت ليدا أيضًا: «وزورق غبي عديم الفائدة يسرب المياه!» وضربت في الطين الراكد في مياه النهر، أسفل قاعدة الزورق المائلة، مما جعل الرذاذ يتطاير ويبلله.

تنهد جوون وأحضر إناءً من الخشب المنحوت وبدأ يجرف المياه من القارب.

تراكمت أحشاء السمك على رأس ليدا، وشيئًا فشيئًا تعرضت لسخونة أشعة الشمس، ونتج عن ذلك زيت كريه الرائحة على جسدها ورأسها، وأبعد الزيت البعوض الذي ملأ البحيرة في هذا الوقت من العام. كان أنفها

الصغير معوجًا إلى أعلى وفمها مجعدًا، وتصغر جوون بعام واحد، وعندما كبرت أصبحت سمينة وعصبية وسريعة الغضب.

ظن جوون أنها لم تكن أقبح من ذلك قط، ومع ذلك كان يعرف أنه لن يتركها أبدًا، وتذكر — كما لو كان بالأمس — عندما اضطر إلى أخذ طفلها الصغير منها وهشم رأسه بالحجر، ثم ألقى بجسده في النار. وبعد بضعة شهور أُجبر على أن يجهضها عن طريق ضرب بطنها، إلى أن جاء طفلها ورأى العالم قبل الأوان.

تفهمت سبب اضطراره إلى أخذ الأطفال بعيدًا عنها، إذ كان الناس قد بدءوا في الرحيل، وهي تحمل رضيعها، الذي فطمته منذ قليل، ولم تكن تقوى على أن تحمل طفلًا آخر. وهي تعرف كل ذلك بالإضافة إلى أنها لم تكن قد كونت ارتباطات وثيقة مع طفليها. لقد أُخذا منها مبكرًا جدًّا، ولكن هاتين الحادثتين شكلتا شخصيتها، وجعلتا لها بصمة مستمرة إلى الأبد مثل الأرض المتصدعة في قاع بحيرة جافة. أما عن الألم الذي عانته فهي تحمله لجوون.

قالت ليدا بكلمات لاذعة: «علينا أن نعمل أفضل من ذلك.»

حك جوون ذقنه قائلًا: «إمم! أتقصدين أن نحصل على صنارة أقوى؟ أو ربما تقصدين ....»

«لا أتحدث عن الصنانير القوية يا روث التمساح! انظر إلى هذا.» ثم رفعت رمحه الملصقة فيه قطع من العظم قائلة: «كم أنت أحمق، فأنت تصطاد بقطع من العظم بينما يستخدم ألاي رمح صيد الحيتان المزود بحجر الجرانيت الوخاز، فليس غريبًا على أطفاله أن يسمنوا.»

أغمض عينيه كابتًا تنهيدة أخرى: «ألاي، ألاي، ألاي» منذ أيام وهو يسمع ذلك الاسم، إنه اسم أخيها الأكبر، الذي كان أذكى بكثير من جوون فضلًا عن مظهره الجيد وقدرته على التعامل مع الحياة، وتذمر قائلًا: «يا له من عار عدم استطاعتك الإبقاء على ولديك بصحبته.»

قالت بنبرة لاذعة: «ماذا قلت؟»

- «لا عليك يا ليدا، تعقلي، فلم يتبقَ لنا أي جرانيت.»

- «إذن فلتحصل على البعض منه؛ اذهب إلى الساحل وتاجر.»

كبت جوون اندفاعه للمجادلة، وعلى أي حال لم يكن اقتراحها سيئًا إذا ما غض الطرف عن الإهانة، وكان الطريق إلى البحر البالغ مائة كيلومتر ممهدًا، وقال: «حسنًا، ولسوف أطلب من ألاي أن يأتي معي ....»

ردت ليدا: «لا» ونظرت بعيدًا.

فتجهم وجهه: «لم لا؟ لقد تحدثت مع أخيك بالأمس قبل الرقص، فماذا قلتِ له؟»

قالت ليدا وهي تقرص على شفتيها: «تحدثنا فحسب.» وازداد غضبه وقال: «فيم تحدثتما؟ عني؟ هل أهنتني أمام أخيك مرة أخرى.»

قالت بصوت خفيض: «نعم، إذا أصررت على معرفة ذلك، لذا إن كنت لا تريد أن تبدو كالطفل الأحمق أمام الجميع يجب أن تبتعد عنه، ولتذهب بنفسك.»

- «لكنّ هذه الرحلة ....»

قالت: «اذهب بنفسك» وأمسكت بالمجداف من أسفل الزورق قائلة: «والآن سنرجع.»

وفي النهاية لم يكن لديه اختيار سوى الاستعداد للذهاب بمفرده إلى الساحل، ولكنه قبل أن يذهب عرف الحقيقة؛ عندما كانت ليدا تتحدث مع ألاي لم تهاجم جوون لكنها دافعت عنه ضد سخرية أخيها، لم يقل جوون لها أي شيء قبل أن يذهب، لكنه احتفظ بالحقيقة المريحة لنفسه بالقرب من قلبه.

وعندما بدأ رحلته رأى زوجًا من كلاب الدنغ يتبعانه خارج المعسكر فرماهما بالصخور، إلى أن ابتعدا يزمجران.

وبعيدًا عن البحيرة مشى في صمت، الأرض مستوية وحمراء ومليئة بحشائش السبينفكس spinifex البيضاء الشاحبة، ولم يتحرك شيء سوى ظل قدميه على الوحل. وعلى مرمى البصر لم يوجد بشر هناك.

كانت أستراليا دائمًا مكانًا هامشيًّا للحياة، فبعد خمسة آلاف سنة من سكن الإنسان لها لم يبلغ عدد السكان في القارة بأكملها ثلاثمائة ألف نسمة، بمعدل شخص واحد لكل خمسة وعشرين كيلومترًا مربعًا، ومعظمهم متمركز حول السواحل وضفاف الأنهار والبحيرات. وفي قلب القارة الأحمر

الضخم في سهل حجر الكلس القديم الواسع والصحراء ذات التربة المالحة عاش أقل من عشرين ألف نسمة.

مع ذلك سكن البشر أستراليا — بالرغم من قلة عددهم — وغطوا مساحات منها بنسيج ثقافتهم الرقيق، بالقاذورات والمواقد والأصداف، وبالصور المحفورة على الصخور القرمزية. وكان جوون لديه الثقة حتى وهو بمفرده، حتى وهو مسن وفي الأربعين خريفًا، في أن يمشي حافيًا على التراب الأحمر، مسلحًا برمحه فقط والعصا التي يستخدمها لرمي الرمح. وكان واثقًا بسبب معرفة عائلته الوثيقة بالأرض.

وخلال رحلته كان يتتبع الآثار الملتوية الناتجة عن زحف الثعبان القديم، وهو أول ثعبان على الإطلاق، قيل عنه إنه حيًا إجان وقت أول نزول له على هذه الأرض وهو في قاربه بعد قدومه من الغرب، وكل سنتيمتر من الآثار كان له قصة غناها لنفسه أثناء مسيرته، وكانت القصة تجميعًا لمعرفة الناس بالأرض، وخريطة محددة للغاية وكاملة.

وتعلقت أهم التفاصيل بمصادر المياه، وكانت هناك حكايات متعلقة بكل أنواع برك المياه والشقوق الصخرية المتعددة والصهاريج والأشجار المجوفة والصائد. وكان المصدر الأول الذي وقف عنده جوون ارتشاح مياه تخرج ببطء من الأرض، وتمثلت قصته المميزة في كيف تجمعت حيوانات الكانجرو الضخمة حول هذا المكان في الأيام السالفة، مفتتنين بالمياه ومن ثم كان من السهل جدًّا قتلهم. أما الآن فقد رحل الكانجرو تاركين فقط البقية من شجر الأوكالبتوس المدمرة لتحرس الماء.

وهكذا ... من وجهة نظر جوون، كانت الأرض ممتلئة بالتفاصيل الحيوية، كما لو كانت مرسومة باللافتات والأسهم. ومع ذلك فلقد مر في ذلك الطريق مرة واحدة فقط من قبل.

كانت مثل هذه الحكايات بداية خلق الأسلاف الأوائل، وستستمر هذه الحكايات مادام أحفاد جوون يحافظون على ثقافتهم المستقلة حتى وإن أجروا بعض التغيرات وأصبحوا أكثر تعقيدًا، محافظين مع ذلك دائمًا على جوهر الحقيقة، وسيكون من الممكن دائمًا استخدام قصة الثعبان القديم لإيجاد الماء والطعام.

وبغض الطرف عن المسافة التي مشاها الناس والوقت الذي استغرقوه، فإنه كان من الممكن دائمًا تتبع آثار خلق الأسلاف الأوائل عبر الأرض، ورجوعًا إلى الشمال الغربي، وحتى المكان الذي شهد نزول إجان وأخته على الأرض لأول مرة.

وبهذه الحكمة الشفهية لم يستطع جوون أن يدرك على الإطلاق أن تلك الأرض كانت أكثر فراغًا بكثير مما كانت عليه عندما وصل أسلافه القدامى إليها أول مرة.

وبعد يوم من مسيرته وصل إلى بقعة في الغابة، ونوى أن يصطاد فيها، ليضيف اللحم إلى ما يملكه من بضائع تجارية قبل العبور إلى الساحل، فتحرك في صمت إلى الغابة.

وسريعًا ما وجد وليمة؛ عسلًا بريًّا مستخرجًا من خلية نحل معلقة في شجرة صمغ. ولما فكك الخلية اقترب منه ثعبان أسود إلا أنه كان قادرًا على إمساك ذيله والضرب به كالسوط، فكان من السهل تحطيم رأسه على الغصن.

وكان إنجازه الأكبر في مساء هذا اليوم اكتشاف سحلية الإجوانا goanna — وهي من فصيلة الورل يبلغ طولها بضع خطوات — وعندما رأته فزعت واختبأت في فرع كبير مجوف، ولكن جوون انتظر. وبمجرد أن نظرت إليه الإجوانا تجمد في مكانه ووقف ساكنًا لا يتحرك له طرف، وكانت الشمس تميل بعيدًا جهة الغرب وتوهجت التربة بلونها القرمزي اللامع. ورأى جوون لسان الإجوانا المتأرجح يتفحص المكان بحذر شديد خارج الفرع. ومعروف أن الإجوانا تحب تذوق الهواء لترى ما إذا كانت الحيوانات الضارية أو الفريسة بالقرب منها أم لا. وحتى الآن كان جوون لا يزال واقفًا مثل كتلة الصخر، وكان الهواء ساكنًا فلم تصل إليها رائحته.

وأخيرًا، كما كان يعلم أن ذلك سيحدث، نسيت الإجوانا ذات التفكير البطيء وجود جوون، فجرت سريعًا خارج الفرع. وبسرعة أصابها رمحه بهجمة واحدة، فالتصقت بالأرض.

وأسفل شجرة أوكالبتوس، أشعل جوون النار عن طريق حك العصا، وسلخ جلدها سريعًا، وأخرج أحشاءها وشوى لحمها على النار، وتمتع بهذه الوجبة الشهية، وفوقه شرارة من النار ارتفعت عاليًا في الظلام الدامس.

وعندما استيقظ في الفجر، كانت النار قد خمدت ولكنها لا تزال تنير الظلام. تثاءب وتمدد وقضى حاجته سريعًا، ثم تناول المزيد من لحم الإجوانا.

بعد ذلك صنع مشعلًا من الخشب وأشعل ناره، وبدأ في السير داخل الغابة يشعل النيران. وأخذ يبحث بصفة خاصة عن الأشجار المجوفة التي ستكون جيدة عند الاشتعال، وأشعل الحطام أسفلها.

بعد كل ذلك الوقت لم تتغير الاستراتيجية الأساسية لصيادي الغابة، وتتمثل هذه الاستراتيجية في استخدام النار للإيقاع بالفرائس.

وسريعًا ما أجبر الدخان حيوانات الأبوسوم والسحالي والفئران الجرابية على الخروج من الجذوع. كانت مخلوقات صغيرة جميعها، ولكنه تمكن من الإيقاع ببعضها وأضاف جثثها الصغيرة إلى الكومة التي جمعها بالقرب من موقده الأصلي. ولكن حتى يبهر الصيادين على البحر كان يحتاج إلى صيد أكبر مما صاده، ولذلك فقد بدأ التجول على نطاق أوسع في الغابة، مشعلًا شجرًا وشجيراتٍ أكثر بالنيران.

وتدريجيًّا انتشر لهب النيران في كل مكان واتحدت النيران جميعها بتنظيم ذاتي نابع منها، وتغذى اللهب بعضه على بعض ونتج عن ذلك تيارات من الرياح والسحب التي أشعلت نارًا أكثر. وسريعًا ما اتحد اللهب المنفصل مكونًا نارًا ضارية لم يكن من الممكن السيطرة عليها، وتكون جدار ناري متحرك أسرع من جري الإنسان.

لكن جوون في ذلك الوقت كان في أمان خارج الغابة، وعندما شبت النار في قمم الأشجار، كما لو كان قوامها الماغنيسوم، وقف جوون مستعدًّا برمحه.

وأخيرًا بدأت الحيوانات تندفع خارج الغابة المحترقة، ومن بينها الكانجرو والأبوسوم والسحالي وعدد من الفئران الجرابية، وجميعها في حالة ذعر. كانت تعدو في كل الاتجاهات والبعض منها — مما كان أعمى ومتحيرًا — جرى في اتجاه جوون، فتجاهل الصغير منها سريع الحركة. ولكن ظهر زوج من حيوان الكانجرو الضخم الأحمر، يجريان بسرعة غير عادية تجاهه، فأخذ رمحه وثبته في رامي الرمح الذي ورثه عن جده وانتظر، وكانت أمامه فرصة واحدة فقط لاصطيادهما.

وفي آخر لحظة رآه حيوانا الكانجرو وغيرا اتجاههما، وبذلك خاض رمحه سحابة الدخان دون فائدة.

وبصيحة يملؤها الإحباط جرى ليستعيد سلاحه، ثم وهو يلعن تعنت ليدا وحماقته ثبت رمحه في الرامي واستقر على أن ينتظر مرة أخرى، ولكنه يعرف أنه فقد الفرصة الحقيقية. ولذا عليه أن يرضى بالصيد الذي أوقعه من حيوانات الأبوسوم والسحالي لأنه لم يعد هناك حيوانات ضخمة لقتلها.

وقد كانت الإجوانا التي أوقع بها جوون تنتمي إلى السحالي العملاقة آكلة اللحوم، التي كانت تمشي من قبل متعاظمة في مركز القارة الأحمر، وحجم هذه السحلية التعسة جزء من حجم تلك السلالات الضخمة، والآن رحل العمالقة جميعهم، اصطيدوا واحترقوا حتى الفناء. وكان زوج الكانجرو الأحمر الذي حاول اصطياده من الأصداء المنكمشة للسلالات العملاقة. فكل الحيوانات الكبيرة قد قتلت، والصغار منها هم الأحياء، سريعو الحركة وسريعو الإنجاب وذوو القدرة على اجتياز النار ورماح الصيادين.

منذ وصول إجان رحلت خمس وخمسون فصيلة من الحيوانات، ذات الأعمدة الفقرية إلى الظلام، وقد اختفت كل المخلوقات الأكبر من الإنسان من جميع أنحاء القارة.

في النهاية وصل جوون إلى البحر، إلى الساحل الشرقي لأستراليا وليس بعيدًا عن المكان الذي سيُسمى يومًا ما سيدني. وهناك بهر عينيه الضوءُ الذي كان أكثر سطوعًا من الداخل، وطغت على حاسة الشم عنده نتانة الملح والعشب البحري والسمك، وملأ أذنيه صوت الموج المتذمر الهائج. فبعد رحلته إلى وسط القارة في الغبار الأحمر لم يكن معتادًا على تلك الجلبة الحسية.

وبمجرد أن نزل إلى الشاطئ رأى الناس الذين يعملون في البحر في القوارب وعلى الأطواف. وفي الجانب المضيء ناحية البحر كان الناس صورًا مستقيمة ونحيفة تعمل بالصنانير والشباك والرماح. فأولئك البشر قد لازموا الساحل والسمك مصدر الطعام الرئيسي لهم، وهذا هو سبب استعدادهم لمقايضته باللحوم التي يؤتى بها من الداخل.

اقترب جوون من الناس بيدين خاويتين، إلا من قطع صغيرة من اللحم، ملقيًا عليهم التحية بكلمات قلائل يعلمها من اللغة المحلية.

كان أول من قابلهم من الناس أصحاب البلد سيدات ومعهنّ من يرضعهنّ، وكنّ يشققن طريقهنّ عبر كومة من المحار. وبينما يمشي تجاههنّ وجد نفسه يسحق أصداف المحار المفتوحة والمكسورة، وكانت طبقة يزداد سمكها كلما اقترب منهنّ. وفي النهاية وجد بدهشة أنه يمشي أعلى ركام من الأصداف أطول منه، وتلك رواسب القرون من جمع الأصداف المستمر، وكان هذا الركام خارج أحد الكهوف الكثيرة المبنية من الحجر الرملي، المترامية على شواطئ هذا الميناء، وبعض مداخل هذه الكهوف غطتها ألواح بسيطة من اللحاء المجدول، وفي ظل أقرب الكهوف لعب الأطفال بأكوام الأصداف القديمة.

لم تُبدِ السيدات اهتمامهنّ به كثيرًا ولذا استمر في المشي.

وأخيرًا جاءت سيدة عجوز تعرج خارج أحد الكهوف، وكان شعرها رماديًّا وجسدها العاري ممتلئًا بالتجاعيد والثنيات. تحدثت السيدة بشيء غير مفهوم، ونظرت في عجالة في السلع التي في حوزته باستخفاف وأشارت له إلى داخل الكهف.

كانت الأرض بالداخل مكسوة برقائق حجر الجرانيت وأكوام الأصداف والعظام والفحم. وعندما أخلّت قدماه بترتيب هذا الفتات رأى طبقات أعمق من القمامة، حتى بقايا مخلفات الإنسان، وقد جفت بدون رائحة. ومثلهم مثل عشيرته لم يكن هؤلاء الصيادون مهتمين بالتعامل مع قمامتهم على النحو الصحيح، وكانوا يتركون المعسكر عندما يفقد صلاحيته للحياة، واثقين بأن قوى الطبيعة غير المرئية ستعتني بكل شيء بدلًا منهم.

ولكنه استطاع أن يرى كومة هائلة من حجر الجرانيت عند مؤخرة هذا الكهف، وكان ذلك كنزًا يُحسدون عليه. وقد قيل إن هناك كهوفًا على الساحل الآخر في الجنوب يمكنك اقتلاع حجر الجرانيت من جدرانها. ولكن الناس في الداخل — مثل جوون — يعرفون القليل عن مصدر تلك الأحجار الثمينة، ولذا يتاجرون مع من يعرفون الكثير عنها.

كان الصيادون يعرفون معنى الضيافة، ويهتمون بالعلاقات المستقبلية، فأعطوه الماء والغذاء. وبلغتهم غير المفهومة لكل منهما، حاولوا أن يعرفوا

منه ما رآه في رحلته وما السمات الجديدة للأرض التي لاحظها، ولكنهم لم يكونوا متلهفين للتجارة، وأخذوا منه صبغته من أكسيد الرصاص وبقايا اللحم الذي معه، ولكن كان من الواضح أن ما أعطاه لهم يعادل القليل جدًّا من حجر الجرانيت، لكنه مع حزنه رأى أن ذلك أفضل من لا شيء.

سمح له الصيادون بالبقاء هذه الليلة.

رقد على مفرش من العشب البحري المجفف الذي يوحي برائحة الملح والتعفن. ووجد نفسه يحملق في ضوء النار، الذي يخبو وينعكس فوق اللوحات على الجدران، وكانت الصور من الفحم وأكسيد الرصاص والصبغة أرجوانية اللون التي تبين أنها استُخرجت من مخلوق بحري. وهناك صور نابضة بالحياة لحيوانات الومبت والكانجرو وطيور النعام الأسترالي، والأفراد الذين ظهروا في الصورة يصطادونهم بدوا شامخين فوق الحيوانات الهاربة.

وعندما حملق أكثر ليرى على نحو أفضل بدت تلك الصور منقوشة فوق صور أكثر غرابة؛ طيور عملاقة وسحالي، بل كانجرو وجميعها علا فوق البشر الذين يصطادونها. ظن جوون أن هذه الصور لا بد أنها كانت أقدم من التي رآها في البداية؛ لأنها بأسفل، ولكنه تحير بسبب مقصد هذه الصور، وافترض أنها لا تعني شيئًا، وربما رسمها طفل.

وبالطبع كان مخطئًا، وهي مأساة خاصة أن يتجاهل جوون وجيله ما فُقِدَ.

رقد جوون مغمضًا عينيه ومقررًا تجاهل الصخب الذي يحدثه زوجان يرقدان في الفراش في أحد الأركان وانتظر أن ينام. وتساءل عما ستقوله ليدا له عندما يعود إلى الوطن وفي حوزته حفنة من أحجار الجرانيت، وفي الوقت نفسه تتراقص في ذهنه الطيور العتيقة المتلاشية والكانجرو العملاق والثعابين ومزدوجات الأسنان الأولية والسحالي، يرقصون حزنًا في ضوء النار.

الفصل الثالث عشر

التواصل الأخير

غرب فرنسا، منذ قرابة واحد وثلاثين ألف عام، قبل عصرنا الحالي.

١

اقتربت جانا من الفتاة البدائية الحمقاء، وهي تُخفي تمثال الماموث المنحوت في قبضة يديها.

ونظرت المخلوقة الحزينة إليها في حيرة وخوف مبهم. وجلست على الطين البارد جدًّا، وهي متسخة وفي حالة رثة ولا تفعل شيئًا.

جلست جانا ونظرت بعمق مباشرة إلى عيني تلك المخلوقة. وكانت عيناها شديدتي السواد مستديرتين مخبأتين تحت بروز عظام جبهتها العريضة، ونسبةً إليها أُطلق على نوعها اسم الحمقى؛ للاعتقاد أن الحمقى ليس لديهم مخ وإنما عظام فحسب. وتبلغ جانا من العمر اثني عشر عامًا، وكانت الفتاة الحمقاء في الواقع في مثل ذلك العمر أيضًا، إلا أن التشابه بينهما في هذه النقطة فقط. فبينما كانت جانا طويلة شقراء نحيلة وتتمتع بمرونة الجسم، كشجرة راتينج صغيرة، كانت الفتاة البدائية الحمقاء قصيرة وبدينة وقوية ولكنها قبيحة ومستديرة مثل صخرة ضخمة. وبينما ترتدي جانا ملابس ضيقة محاكة من الجلد والألياف النباتية، وحذاء نعله مبطن بالقش، وقلنسوة مبطنة بالفرو وقبعة منسوجة، فإن الفتاة البدائية الحمقاء كانت مغطاة بلفافات بسيطة من الجلد البالي المتسخ المربوط حول جسدها بقطع من الأربطة.

قالت جانا رافعة قبضة يدها: «انظري يا حمقاء انظري إلى الماموث.» وفتحت يديها، لتكشف عن ذلك الشيء الصغير.

صرخت الفتاة البدائية الحمقاء وتراجعت إلى الخلف، مما جعل جانا تضحك منها، وبالطبع يمكنك ملاحظة حماقة الفتاة البدائية، فأصحاب العقول المحدودة لا يمكنهم تخيل وجود ماموث مصنوع من العاج. فبالنسبة إليهم، لا يمكن أن يعبر أي شيء سوى عن شيء واحد في وقت واحد، إنهم أغبياء.

والآن جاء ميلو، شقيق جانا مهرولًا، وهو يبلغ من العمر ثماني سنوات، وهو كتلة صغيرة من الحيوية، ويحدث ضوضاء كبيرة، ويغطي جسده جلد عجل البحر بحجم لا يناسبه، ويرتدي في قدميه جلد طيور النورس المقلوب، حتى يحتفظ الريش بدفء قدميه. وعندما رأى ما تفعله جانا اختطف من يديها الماموث قائلًا: «أنا، أنا! انظري يا حمقاء، انظري إلى الماموث!» ولطم وجه الفتاة البدائية الحمقاء على النقش الصغير في وجهها.

وتقطر البول على ساقي الفتاة البدائية الحمقاء وصرخ ميلو فرحًا.

«جانا، ميلو!» دُعيا الصغيران واستدار كل منهما، وهنا أتى والدهما روود، إنه طويل وقويّ، يكشف ذراعيه بالرغم من برودة الجو في فصل الربيع. وهو ينتعل حذاءه المحبب المصنوع من جلد الماموث، خطا خطوات واسعة بقوة، وبدا مبتهجًا ومنفعلًا.

استجابةً لحالته المزاجية توقف الصغيران عن اللعب، وذهبا مسرعين لرؤيته. وحينما عانقه ميلو كعادته من ساقيه انحنى روود لمعانقته. وكانت جانا تشم رائحة السمك في أنفاسه. فألقى عليهم التحية بطريقة رسمية، تبعًا لأسمائهم: «ابنتي، أمي، ابني، جدي.» ثم مد يديه إلى خصر ميلو ودغدغه، فصاح الولد وتلوى بعيدًا. قال روود: «حلمت البارحة بعجول البحر وكركدن البحر، وتحدثت إلى الشامان، وقام الشامان بإلقاء العظام التي يستخدمها.» ثم أومأ قائلًا: «إنه حلم يبشر بالخير، إنه يعبر عن الحقيقة، وسوف نذهب إلى البحر لنصطاد الأسماك وعجول البحر.»

قفز ميلو من الفرحة وقال: «أريد أن أركب المزلجة!»

ونظر روود إلى وجه جانا وسألها: «ماذا عنك يا جانا؟ هل ستأتين معنا؟»

انسحبت جانا من حضن أبيها وأخذت تفكر مليًّا.

لم يكن والدها قاصدًا التملق إليها عندما طلب منها موافقتها. ففي مجتمع الصيادين هذا، يُعامل الأبناء باحترام منذ الصغر، وجانا تحمل اسم والدة روود وروحها، لذلك فإن حكمتها تحيا في عقل جانا، وبالمثل يحمل ميلو الصغير روح جد روود. ولم يكن الناس يخلدون بأجسادهم، ولكن بأرواحهم ومعارفهم. (كان اسم جانا بالطبع اسمًا خاصًّا جدًّا، ولم يكن ذلك فقط بسبب أنه اسم جدتها، لكنه كان اسم جدة جدتها أيضًا. فهذا الاسم له جذور تمتد لفترة ثلاثمائة عام.) وإلى جانب تاريخ الاسم، كيف يمكن أن يكبر الأطفال إذا لم يتم معاملتهم على أنهم كبار بالفعل؟ لذلك انتظر روود ردها بصبر. وبالطبع لم يكن قرار جانا ليُتخذ، ولكن سيتم سماع رأيها والنظر فيه.

نظرت جانا سريعًا إلى السماء وأحست بالرياح، وتناثرت السحب على نحو غير كثيف، وتحسست الأرض المتجمدة بإصبع قدمها، وفكرت في إمكانية أن يصبح الجو دافئًا اليوم. وفي الواقع شعرت بشعور غريب من عدم الارتياح، لكن حماس والدها كان غامرًا، وسرعان ما أزاحت الشك من قلبها.

قالت جانا بجدية: «إنها فكرة سديدة، سنذهب إلى البحر.»

وصاح ميلو وقفز على ظهر والده قائلًا: «المزلجة! المزلجة!» وتوجهوا معًا نحو القرية.

وخلال ذلك الحديث تجاهلوا الفتاة البدائية الحمقاء التي تجلس منحنية في مساحة صغيرة، ترتعد على التراب، والبول يقطر بين ساقيها.

وفي القرية كانت استعدادات الصيد جارية.

وعلى عكس بلدة الحمقى الكريهة المليئة بالعشش، كانت القرية مكونة من أكواخ على شكل قباب، وكل كوخ محاط بشجيرات راتينج أُحضرت من الغابات إلى الجنوب، وأُحيطت هذه الشجيرات بأكوام من الجلود وتربة سهل التندرا. وفُتحت الأبواب والنوافذ وفتحات المداخن في الحوائط، وكانت أرضيات الأكواخ ممهدة، تبعًا لما هو سائد، بأحجار قاع النهر. حتى المناطق المفتوحة بين الأكواخ كانت ممهدة أيضًا، وذلك لحماية الناس من الوقوع في طين سهل التندرا الهش.

وكل الأكواخ مبنية على طبقة من عظام كبيرة جدًّا من الماموث أو قرون الوعل الأقرن. وهذه الطبقة تساعد في حماية الأكواخ من الرياح العاتية في فصل الشتاء وحماية الحيوانات، وتدرك الحيوانات أن البشر يصطادونها فقط عندما يكونون مضطرين إلى ذلك، وفي المقابل فإنها تعير قوتها لحماية البشر.

وحول هذه الأكواخ المبنية على العظام يُسمع ضجيج العمل والتعاون.

كانت أوليث عمة جانا — وهي صائدة طويلة القامة — تستخدم إبرة عظمية رفيعة، لتصليح سروالها المصنوع من جلد الأيل. بينما آخرون، في منطقة مفتوحة صغيرة تُستخدم كورشة عمل، يصنعون الشباك والسلال ورماح صيد الحيتان الشائكة من العظام والعاج. والنساجون يستعملون الأنوال لصنع القماش من ألياف الخضروات. فمعظم الملابس التي يرتديها الناس مصنوعة من جلود الحيوانات للتدفئة ولمتانتها، وهناك ملابس فاخرة تُنْسج مثل: التنورات وملابس السيدات الداخلية والأحزمة وشبكات الشعر والأوشحة. ويرجع تاريخ تلك المعرفة بالحبال إلى عشرات الآلاف من السنين، ودعمت الرغبة في الاستغناء عن أوتار الحيوانات في ربط الأطواف والزوارق تلك الصناعة.

كان الجميع يرتدون الزينة والقلائد والعقود، والخرز مثبت على ملابسهم، وزُين كل سطح وكل أداة عظمية أو خشبية أو حجرية بصور أشخاص وطيور ونباتات وحيوانات؛ أسود ووحيد القرن وماموث وحيوان الرنة وخيول وأبقار وحشية ودببة وتيوس الجبل ونمور، حتى البوم. ولم تكن الصور طبيعية، إذ صُوِّرت الحيوانات وهي تقفز وتتبختر وصُورت أرجلها ورءوسها بغير وضوح، بل كانت تحتوي على تفاصيل دقيقة حددها الأشخاص الذين اعتادوا على مر الأجيال معرفة الحيوانات التي يعتمدون عليها اعتمادًا شديدًا تمامًا كما يعرف بعضهم بعضًا.

وكان كل شيء مصور على هذا النحو له دلالة، لأن كل عنصر جزء من القصة المتواصلة التي تساعد الناس على فهم أنفسهم، وفهم العالم الذي يعيشون فيه. فكل شيء يحمل معنى واحدًا وغرضًا واحدًا، وهو أن ذلك الفن واسع الانتشار كان دليلًا على التكامل الجديد لعقول الناس.

ولكن حتى الآن لا تزال أشباح التقسيم القديم للعقل تخيم على التفكير، كما ستستمر في فعل ذلك. أصر رجل مسن على أن يشرح لفتاة كيفية استخدام نصلها المصنوع من الجرانيت لتنحت ماموثًا صغيرًا من العاج. وفي النهاية كان من الأسهل عليها أن يأخذ الأداة منها، ويريها كيف يفعل ذلك بنفسه، تاركًا حركات جسمه التلقائية تعبر عما يفعل.

بدا هؤلاء الناس أصحاء في أداء أعمالهم، وهم يتصفون بالطول وطول الأطراف، والثقة والحماسة، وبشرتهم النظيفة والنقية، وهناك عدد قليل من الأطفال.

مرت جانا بكوخ الشامان، ولكن الرجل الضخم المخيف لم يكن موجودًا. فربما كان نائمًا، من كثرة الإجهاد في الليلة الماضية، عندما رقص وعَبَر طريقه إلى عالم التأملات الذهنية. ويوجد خارج كوخه مجموعة متناثرة من عظام كتف الماعز والجياد، بعض منها محمول على عصا مشقوقة موضوعة بين النيران. وبنظرة سريعة استطاعت جانا قراءة الأقدار من أنماط اشتعال النيران؛ فاليوم سيكون ملائمًا حقًّا للصيد في البحر.

بالرغم من أن قدرتهم اللغوية متقدمة تقدمًا شديدًا فإنهم لجئوا إلى آلهة قديمة غير معروفة. ومن ثم فإنهم رجعوا إلى فطرتهم الأولى، فكما لاحظ ببل ذات مرة أن التواصل في موقف ما، عندما لا تملك لغة أو عندما تعرف لغة محدودة، يجب أن يكون بسيطًا ومكررًا وواضحًا، أي: معتادًا. وكما حاول ببل ذات مرة إقناع والده بأنه يقول الحقيقة عن الاقتراب من الغرباء، تعب الشامان ليجعل آلهته غير المبالين يسمعون ويفهمون ويستجيبون، وكان ذلك عملًا شاقًّا. لذلك لم يستأ أحدٌ من نومه إلى وقت متأخر.

وصل ميلو وجانا إلى الكوخ الذي يعيشان فيه مع الأب والأم وأختهم الرضيعة وأقاربهم. وقد كانت ميزني، والدتهم، تجلس في الظلام تدخن لحم حيوان الأقرن، الذي وقع منذ بضعة أيام عند صيد أسد.

جرى ميلو إلى والدته وأمسك بساقيها قائلًا: «ميزني، ميزني! إننا ذاهبون إلى البحر، هل ستأتين معنا؟»

احتضنت ميزني ابنها قائلة وهي تبتسم: «ليس اليوم، فاليوم دوري في إعداد اللحوم، أمك مسكينة ... ألا تشعر بالأسف نحوها؟»

قال ميلو بنبرة لاذعة: «إلى اللقاء» وخرج بعيدًا عن الكوخ مسرعًا.

لم يعجب ميزني ما حدث، وظهرت على وجهها ملامح الاستياء المصطنع، واستمرت في العمل بصبر.

كان معظم ذبيحة حيوان الأقرن مخزنًا في حفرة في التربة الجليدية المتجمدة. وقد استخدمت ميزني سكينًا حجرية لقطع اللحم إلى شرائح رقيقة، ثم علقتها على إطار خشبي، إلى جانب الموقد. وبعد مرور عدة أيام سوف تكون شرائح اللحم قد حُفظت بطريقة جيدة، فهو مصدر للبروتين يمكن تخزينه عدة شهور. داعبت رائحة اللحم أنف جانا، إذ في الشهر الأخير حل فصل الربيع ـتمكينهم من الصيد وجمع الطعام، ولإحضار اللحم الطازج إلى الكوخ. فقد كانوا قبل ذلك يتحملون الشتاء الطويل مستهلكين البقايا التي جُفِّفت في الفصل الأخير، واشمأزت جانا حقًّا من الأطعمة الشبيهة بالجلد عديمة الطعم.

ثم ربتت بيدها على ظهر والدتها قائلة: «لا تقلقي، سوف أبقى معك لتدخين اللحم على مدار اليوم، وليركب ميلو المزلجة.»

- «إنني متأكدة أنك سوف تحبين بذلك، وبهذا العرض قمت بعمل واجباتك، والآن خذي ...» أعطت ميزني جانا قطعة من اللحم مغلفة بالجلد قائلة: «لا تجعلي والدك يترك العدائيين البائسين الحمقى يشعرون بالجوع، فأنت تعرفين طباعه، وأنا لا أثق به في ذلك.» وناولت جانا قطعة من سمك اليلقون المجفف.

كانت أسماكًا شبيهة بسمك السردين وغنية جدًّا بالدهون، إلى درجة أن باستطاعة الإنسان وضعها في وضع مستقيم وإشعالها كالشمعة، وربما يستطيع غلي المادة الدهنية لاستخدامها مرقة أو دواء أو حتى طاردًا للبعوض، أو إذا اقتضت الضرورة يمكن تناول السمك فحسب؛ فالأسماك التي تحتوي على نسبة عالية من الدهن تعمل على تقوية الإنسان فترة طويلة، وهذه الأنواع الثمينة اعتُبرت أدوات ضرورية.

أخذت جانا السمك بجدية ووضعته في ثنايا سترتها الضيقة. كانت تلك مسئولية مهمة ألقيت على عاتقها، ولكن روح جدتها التي تسكن قلبها

منحتها الثقة في نفسها للموافقة على تحمل هذه المسئولية. قبلّت والدتها ووعدت قائلة: «إنني سوف أعتني بكل شخص.»

وردت عليها أمها: «أعرف ذلك، والآن استعدي وانطلقي.»

أمسكت جانا برمح صيد الحيتان المفضل لديها وتعقبت ميلو خارج الكوخ.

وضع فريق الصيد على المزلجة الشِّباك ورماح صيد الحيتان والصنانير وحقائب النوم المصنعة من جلود الرنة والإمدادات الأخرى، كانت المزلجة قوية ويبلغ عمرها عشر سنوات، وهي هيكل خشبي مثبت على دعامات طويلة من العاج يمكنها الانزلاق. والحبال والصنانير مصنوعة من جلود عجل البحر، واللجام الذي يتحكم في جر الحمقى صُنع من جلود الماموث. كانت المزلجة مفيدة فقط في بداية الربيع وأواخر فصل الخريف، عندما تكون الأرض مجمدة أو مغطاة بالثلج. أما في أواخر الربيع والصيف فإن الأرض تمتلئ بالمستنقعات، مما يُصعِّب جر المزلجة. ومع ذلك ففي عالم لم يكن العَجَل فيه قد اخترع بعد، ولم يكن قد رُوِّض فيه الحصان، كانت تلك المزلجة المصنوعة من الخشب والعاج تعد أفضل وسائل تكنولوجيا النقل.

وفي تلك الأثناء مشى روود إلى معسكر الحمقى وهو يبحث عمن يجر المزلجة.

كان المعسكر كوخًا حقيرًا على حافة القرية التي يسكنها البشر. كانت تلك الأكواخ والأكشاك قصيرة ومشوهة الشكل، مثل الحمقى أنفسهم، وكانت مشيدة على تربة سهل التندرا مثل كومة الروث الكبيرة، ويتحرك البالغون والأطفال المستغربون بتثاقل في كل مكان. وفي مثل تلك الأماكن، وفي أي مكان عاش فيه الحمقى الأقوياء في العالم القديم، فإنهم صنعوا الأدوات البسيطة، وشيدوا الكهوف القبيحة، مثلما كان سائدًا على مدار نصف مليون عام، منذ عهد ببل وما قبله. وعلى عكس الثورة الثقافية للجنس البشري لم يكن هناك تنوع ذو أهمية في صناعة الحمقى عبر الأماكن والحقب.

وضرب روود بسوطه اثنين من الحمقى تبدو عليهما القوة فمشيا خلفه بسلبية، وتركا نفسيهما ليُربطا إلى المزلجة.

وسريعًا حُملت المزلجة. وكل ما كان على روود أن يفعله هو لمس الأحمقين بسوطه، حتى يتحركا في جر المزلجة. وتطلب التحرك الأول من أجل إخراج دعامات المزلجة من الأرض الصلبة بعض المجهود؛ فقد كان الحمقى متقوسي الساق وتعوزهم الرشاقة، وكانت أجسامهم مبنية لتكون قوية وليست سريعة. وسريعًا ما جرّ الأحمقان المزلجة بسرعة أكبر من سرعة المشي، فأصدرت صوتًا خفيفًا، وتابعهما الصيادون وهم يهتفون ويهللون.

وعلى صوت النحيب، الذي يصدر من المزمار المصنوع من العظام، اجتازت المجموعة كيلومتر تلو الآخر على سهل التندرا. وكان روود يجلس فوق الأكوام المتكدسة أعلى المزلجة، وسوطه المصنوع من الجلد المُعالج مستعد لجلد ظهري الأحمقين، وجلس ميلو بجانب أبيه وشعره منسدل.

وقع ذلك في شمال فرنسا، وكانت جماعة الصيد المتجهة إلى الساحل الأطلنطي في الجنوب الغربي قد مرت بالقرب من مقر باريس النهائي. إلا أن خط الأشجار — أي النطاق الذي يمكن أن تنمو الأشجار فيه طويلة — كان يقع على بُعد عدة كيلومترات إلى الجنوب. وقريبًا إلى الشمال من هنا كانت توجد حافة الغطاء الجليدي القطبي. وفي بعض الأحيان كان من الممكن سماع الصوت المدوي للرياح الباردة بفعل الجليد، ذلك الهواء البارد الذي تدفق من القطب نفسه، والرياح الشديدة الهائجة القاسية التي أزالت صحراء كبيرة باردة أسفل الأنهار الجليدية.

كانت الأرض مزيجًا من اللونين الأبيض والأزرق وتناثرت في أرجائها الأشجار الخضراء التي نمت قبل أوانها. وأصدرت دعامات المزلجة حفيفًا وهي تصطدم بأشجار الصفصاف والبتولا القصيرة، التي كانت مسطحة ومتشبثة بالأرض مختبئة بعيدًا عن الرياح. ولم تكن الأرض في هذه البقعة عميقة، فقد كانت طبقة رفيعة من التربة التي تمتد بها جذور الأشجار والنباتات، ومن أسفلها طبقة أكثر سمكًا من التربة الجليدية التي ظلت متجمدة منذ سنوات. تناثرت البحيرات، التي كان لا يزال الكثير منها متجمدًا، عبر أرجاء المكان، وقد لمع سطحها الأزرق الذي يخفي تحته طبقات عميقة من الثلج لن تذوب طوال الصيف. إن المستنقعات والبرك والبحيرات التي

تتكون في الصيف لا تعدو أن تكون مساحات من المياه السائلة تغطي طبقة التربة الجليدية لفترة مؤقتة من الوقت.

ولكن الربيع على الأبواب، فقد بدأت الحشائش تنمو في بعض الأماكن، وأخذ السنجاب الأرضي يجري هنا وهناك منشغلًا بجمع الطعام الذي سيخزنه خلال الشتاء.

كانت التندرا مكانًا خصبًا على نحو مثير للدهشة، ومن ضمن النباتات هناك أنواع عديدة من الحشائش ونبات البردي والشجيرات الصغيرة إلى جانب النباتات العشبية كأنواع من البازلاء والأقحوان وعشب الحوذان، ونمت النباتات سريعًا وبوفرة كلما تسنى ذلك. كما أن فصول النماء القصيرة للنباتات المتعددة لم تتزامن معًا، ومن ثم حظيت الحيوانات التي تتمكن من العيش هنا وهناك بمدة طويلة من التغذية الجيدة كل عام.

وهذا النظام المعقد المكون من النباتات المتنوعة والمختلفة ساعد عددًا ضخمًا من آكلات العشب على الحياة. عاش في أوربا الشرقية وآسيا فرس النهر والخراف البرية والماعز والأيل الحمراء وأيل الرو والأيل الأسمر والخنزير البري والحمار والذئب والضبع وابن آوى. أما في غرب أوربا هنا فقد عاش وحيد القرن والبيسون والخنزير البري والماشية والحصان وحيوان الرنة وتيس الجبل والأيل الأحمر وأيل الرو والظبي وثور المسك، وغيرها العديد من آكلات اللحوم، ومنها دب الأسد والضبع والثعلب القطبي والذئب.

وكما شاهدت جانا في أقصى الجنوب، هناك قطيع من حيوان الماموث يعمل في الأرض المكسوة بالثلوج المبعثرة بين أرجائها.

كان قطيعًا كبيرًا — يسير بتثاقل وببطء — فهو أشبه بجدار من الأجسام امتد بين الأفقين. ولم يكن القطيع من المهاجرين الحقيقيين، لكنهم قضوا الشتاء مخيمين في الوديان جهة الجنوب، حيث تتجمع قطعان هائلة تفصل بينها جغرافيا المكان. كان شعر الماموث بنيًّا ضاربًا إلى السواد الشديد، وعندما تسير يتحرك شعرها الطويل والخشن المتدلي من الخرطوم والخاصرة في انسيابية، ويتموج ويلمع باللون الذهبي في ضوء الشمس الخافت في فصل الربيع. وكان الماموث يشبه الجلمود الضخم، جلمودًا ضخمًا مكسوًّا بالفراء. وبين الحين والآخر يرفع أحد أفراد القطيع رأسه

وحينها يظهر الخرطوم أو الناب الملتوي على نحو خاطف أو يُسمع نهيم مثير ومميز. لقد أصبح الماموث الصوفي الأكثر نجاحًا من بين جميع سلالات الفيلة إلى حد بعيد، حيث يمكن العثور على هذا الحيوان على امتداد حزام التندرا الكبير الذي يلف حول قطب الكرة الأرضية كلية، مما يشكل قطيعًا عملاقًا يفوق عدده أي أنواع أخرى من الحيوانات ذات الخرطوم التي حيت على وجه الأرض على الإطلاق.

وفي هذه الأراضي المفتوحة الفسيحة، حيث تسير فريسة ضخمة عبر الأرض المفتوحة، كان الصيد أيسر بالنسبة للبشر مما سيصبح على مدار تاريخهم جميعًا. لكن العصور تتغير بالفعل، وسرعان ما سيعود الجليد إلى الانحسار مرة أخرى، وسواء أأدرك الناس الأمر أم لا، فقد بدءوا في إعادة تشكيل حياتهم وكذلك الأرض، تمامًا كما حدث في أستراليا.

كان البشر مبعثرين على نحو طفيف، وبدت الحياة صعبة، لكن بطريقة ما وصلوا بالفعل إلى ذروة نجاحهم.

فكلما ارتحلوا أوضح الصيادون معالم الأرض بعضهم لبعض، كل جرف وكل نتوء جبلي وكل نهر وبحيرة. وكان هناك اسم لكل شيء، حتى المعالم الموجودة في الأراضي البعيدة، وأُصغي لجميع الأفراد بكل احترام وهم يتبادلون معلوماتهم مع الآخرين ويصدقون عليها. في هذه الأرض الهامشية كانت المعلومات الدقيقة نادرة وثمينة للغاية، فمعرفة معالم الأرض تعني النجاح والازدهار، وعدم معرفتها يعني الموت جوعًا، والخبراء أثمن من الزعماء.

فقد رووا قصصًا عن الحيوانات التي لحوها، وعن طريقة عيشها والأفكار التي راودتهم والقيم التي آمنوا بها. وكان تشبيه الحيوان بالإنسان، أي نسب الصفات البشرية إلى الحيوانات ومنحها شخصيات وصفات، كان أداة فعالة للصياد. لم يفكر حيوان الماموث أو الطائر أثناء بحثه عن الطعام أو أثناء تحركاته بنفس الطريقة التي يفكر بها الإنسان بالطبع، لكن تخيل أنه وهو يفعل ذلك يقدم أداة رائعة تنبئ بسلوك الحيوان.

ومن ثم تجاذبوا أطراف الحديث كثيرًا أثناء ارتحالهم.

كانت هذه الأرض موطن جانا، بالمثل كما كانت موطن روود وأمه جانا، كذلك من قبله. فقد امتلك أهلها هذه الأرض، لكن لم ينظروا إليها

باعتبارها ملكية خاصة يمكن التخلص منها، بل نظروا إليها باعتبارها جزءًا لا يتجزأ منهم كأجسادهم. ولطالما عاش أسلاف جانا هنا، على امتداد الأجيال السابقة التي لم يطوها النسيان والتي عاشت منذ زمن عندما، كما قيل، جاء الإنسان إلى الوجود من النار والخداع. لم يكن بوسع جانا تخيل الحياة في أي مكان آخر.

توقفت المجموعة في منتصف الرحلة تمامًا.

وانجرفت الثلوج داخل مخيم وهو جرف من الحجر الرملي. أزاح روود الثلوج بذراعيه بقوة وبسرعة، ثم عثر على شريحة ضخمة من جلد كركدن البحر، وكان لا يزال بها دهون عالقة. كانت هذه الشريحة هناك منذ الخريف الماضي، والتهم معظمها الثعالب وطيور النورس والغربان المارة. قطع روود قطعًا كبيرة باستخدام سكين حجري حاد، وسرعان ما أخذوا يمضغون الطعام، حيث كان اللحم عسير المضغ والمتعفن جزئيًّا شيئًا من الترف، وكان لهذا اللحم اسم خاص به، يعني شيئًا مثل لحم الموتى. وكان قد تُرك هنا كمخزون للطوارئ في حال أن ضلت مجموعة مرتحلة طريقها.

سُمح للأحمقين اللاهثين، اللذين كان من الواضح أنهما يعانيان من آلام في مؤخرتيهما وركبتيهما؛ باستراحة بعض الوقت، ومضغ قطع من اللحم.

وشرع الصيادون في الحديث عن نبوءات الشامان، وقال ميلو الصغير فجأة: «لقد راودني حلم، حلمت بأنني نورس كبير، وأنني سقط في البحر، وكانت المياه باردة، ثم جاءت سمكة كبيرة والتهمتني، وكان الظلام مخيمًا، ثم، ثم ....»

أنصت الصيادون بجدية، وهم يومئون برءوسهم.

كانت الأحلام ذات أهمية، حيث يواجه الناس في كل يوم قرارات حيال نمط جمع الطعام أو الصيد أو نوع الحيوانات التي ينبغي مطاردتها، وكيف ستكون الأحوال الجوية. وكان من الضروري اتخاذ القرار السليم، فقد تؤدي سلسلة من التخمينات الخاطئة إلى موت عائلتك جوعًا سريعًا. امتلأت رءوسهم بالمعرفة الدقيقة عن الأرض وفصول السنة والنباتات وسلوك الحيوانات، تلك المعرفة التي اكتسبوها على مدى حياتهم واستخلصوها من خبرة الأجيال.

وفوق هذا وذاك كمية البيانات اليومية الضخمة التي عليهم استيعابها، عن الأحوال الجوية وآثار الحيوانات، وتعين أن تُعالج كل هذه البيانات الغزيرة والتجريبية سريعة التغير بحيث تدعم صنع قرارات سريعة وراسخة.

جاء أسلوب تفكير الصيادين نتيجة لحدسهم أكثر من كونه نتيجة لتفكير منهجي واستدلالي. كانت الأحلام، التي يحظى فيها اللاوعي بفرصة لفرز البيانات المتاحة لديه واستكشافها، جزءًا حيويًّا من عملية المعالجة تلك. ومن ثم كان الشامانات، بتراتيلاتهم ورقصاتهم وما يقومون به من شرود وطقوس، أكثر الحالمين جموحًا على الإطلاق.

كان التقارب بين رؤى الشامان ونبوءاته وأحلام روود وميلو يبعث على الطمأنينة، حيث قدم معلومة صحيحة لإرشاد الصيادين، وأظهر أن حدسهم العميق بشأن طبيعة العالم كان متوافقًا.

إلا أن جانا رأت أن روود بدا منزعجًا. اقتربت منه وهو يركل الأحمقين في أقدامهم قائلة: «أبي؟ تبدو حزينًا.»

نظر إليها بوجه عابس وقال: «إنه ذلك الحلم الذي راود ميلو فحسب، المياه والبرد والظلام. لا شك أن الحلم قد يعني أنه يصيد في البحر أو أنه يصطاد سمكة، لكن ...» ثم رفع رأسه واستنشق الهواء وقال: «إن حدس ميلو أقوى من حدسي وحدسك يا ابنتي، لعله يشعر بشيء لا نشعر به. لكننا ملزمين، دعينا نذهب ونركب البحر.»

وبصفعة قوية على مؤخرة أحد الأحمقين، أطلق المزلجة عبر الأرض المتجمدة مرة أخرى. أطلق ميلو وهو يجثم فوق كومة من ألحفة النوم صيحة فرح.

عندما وصلوا إلى الساحل، أطلق روود سراح الأحمقين وتركهما يطوفان بحثًا عن الطعام فوق الأرض المتجمدة. لم يكن لديهما من الطاقة ما يمكنهما من الفرار، ولا من الذكاء ما يخيل لهما الهرب.

كان المحيط مجمدًا.

وفي ذلك الوقت من العام، لا يوجد مكان يخلو تمامًا من أكوام الجليد التي تطفو فوق سطح الماء سوى الحافة الساحلية، ولكن في مقدمتها كان

الثلج مفككًا وكانت الحافة في المقدمة قنوات ضخمة مفتوحة من المياه السوداء التي تشعبت من قمة اللسان الممتد في المحيط. عرف الصيادون تلك القنوات التي تشكلت في هذا المكان كل عام بسبب شكل الساحل — وذلك كان سبب مجيئهم إلى هنا.

صعد الصيادون بشغف فوق أكوام الثلج المتجمعة فوق سطح البحر، يمسكون في أياديهم المكسوة بالقفازات رماح صيد الحيتان العظمية. وتقدم كل من جانا وميلو الآخرين، راجين أن يكونا أول من يصل إلى حيوان عجل البحر.

وجدت جانا نفسها محاطة بسلاسل جبال مصغرة وتلال صغيرة من الجليد ترتفع في الهواء على مسافة أربعة أو خمسة أمتار. هبت كسرات من كريستالات الثلج بتثاقل، وأخذت طيور النورس تحوم باحثة عن أسماك. وكلما ارتفع البحر صدر صوت صرير ناتج عن تصدع طبقة الجليد فوقه، وامتلأ الهواء بضوضاء شديدة، لكن كان الجليد خشنًا، حيث أدت عواصف الخريف والمد والجزر حول اللسان إلى تراكم كومات من الشرائح الضخمة المهشمة.

تجمع روود وبرفقته عدد من الأفراد الآخرين حول المياه المفتوحة، وصاحوا بحماسة. برز كركدن بحر إلى السطح ليلتقط أنفاسه، ولعل الصيادين سيصيدونه بشكل مثير.

لكن ميلو أسرع متقدمًا إلى الأمام وهو ينعق كالنورس عبر المتاهة الجليدية، وعدت جانا خلفه، ووصلا إلى مكان كانت المياه فيه مكسوة بقشرة من الجليد الرمادي الجديد. وكان الجليد مجوفًا بحفر دائرية كل خطوة أو خطوتين.

وصل ميلو وجانا إلى حفرة ونظرا داخلها. كانت المياه الباردة تعج بالحياة، ولم تستطع جانا تمييز العوالق المائية الدقيقة التي اكتظت بها المياه، لكنها رأت السمك الصغير والأسماك التي تشبه سمك الجمبري التي تغذت عليها. في هذه الأوقات الباردة والجافة والعاصفة هب الثرى المتآكل من الأرض بعيدًا إلى البحر، مرسبًا معه أملاح الحديد وجعل الحديد، الذي دائمًا ما يكون شحيحًا في المحيط الحياة تزدهر.

أمسك ميلو بذراعها وأشار إلى حيوانات عجول البحر المستلقية فوق الجليد بعيدة بعض الشيء عن البحر وقريبة من حفرة مغطاة بثلج نصف ذائب. وكانت حيوانات عجول البحر جسمًا بني اللون من اللحم الرخو، كانت مسترخية تمامًا وشظايا الثلج تلمع فوق فرائها. ودائمًا ما تستقطب مثل هذه الحفرات حيوان عجل البحر، حيث يمكنهم التنفس والصعود إلى السطح للتشمس.

شعرت جانا بالإثارة أمام هذه الفرصة هنا.

وبحذر شديد شق ميلو وجانا طريقهما عبر الجليد، مع عدم إحداث أي ضجيج قدر استطاعتهما، وإذا رفع أحد عجول البحر رأسه ثبتا في مكانهما، وجثما على الجليد إلى أن يسترخي الحيوان مرة أخرى. وفي تلك الأثناء هبت ريح محدثة صوت عواء. لم تعبأ جانا بالرياح فلم تكن الأحوال الجوية تهمها الآن، فحواسها، بصرها وسمعها، مكرسان لعجل البحر فحسب. ساعدت الرياح في إخفاء أصوات خطوات أقدامهما.

لقد وصلا تقريبًا، واقتربا كثيرًا إلى درجة تمكنهما من لمس أقرب عجل بحر، حينها رفعا رماح صيد الحيتان.

ثم، وبدون سابق إنذار، عوت الرياح كحيوان جريح.

فاستيقظت عجول البحر في حالة ذعر، ونظرت حولها وهي تصيح، وبرشاقة انسيابية وسرعة انزلقت داخل المياه. صاح ميلو في إحباط وقذف رمحه، انزلق الرمح داخل المياه بعيدًا عن الأنظار دون جدوى.

نظرت جانا إلى أعلى، ورأت جدارًا من الثلوج تسوقه الرياح ينحدر نحوهما، واستحال العالم إلى اللون الأبيض.

أمسكت جانا بيد ميلو وجذبته نحو ساتر من كتلة ثلجية ناتئة. جلست جانا وميلو بجوارها وجسداهما ينحنيان للأمام فوق الجليد، ضامين ركبتيهما إلى صدرهما. عوت الرياح من الحفر والقنوات الموجودة في الجليد، وكان صوت الرياح شديدًا للغاية إلى درجة جعلت من الصعب أن تسمع صوتها أو أن تفكر.

وغطتهما الثلوج.

ولم تتمكن من رؤية أي شيء، سوى اللون الأبيض؛ فلا بحر، ولا أفق، ولا سماء، وبدا الأمر في تفكيرها كما لو كانا قد اندفعا إلى داخل بيضة محكمة الإغلاق؛ منعزلة عن العالم.

وسريعًا ما كان يعلق الثلج بالفرو الذي يرتديانه ويتكوم على الجدار الجليدي. من ثم، عرفت أنه كان هناك خطر يكمن في انجراف الثلج هنا في المأوى الموجود داخل هذه الصخرة، وحاولت أن تزيح الطبقات المتجمعة من البلورات البيضاء الحادة.

ولكن العاصفة استمرت، ومع كل نبضة قلب كانت الاحتمالات القائمة أن روود والآخرين يبتعدون أكثر وأكثر.

ونفد صبر ميلو، فدفعها بعيدًا ووقف ولكنّ الرياح الدوامة بدأت تصدمه في قدميه، ولذا سحبته أخته إلى أسفل مرةً أخرى.

قال ميلو: «لا!» صارخًا مقاومًا الرياح وهو يقول: «سوف نموت إذا بقينا هنا.»

صاحت جانا ترد عليه: «وسوف نموت إذا غادرنا من هنا، انظر إلى الثلج، وأنصت إلى صوت الرياح، وفكر: أي هذه الطرق يؤدي إلى البر؟»

رجع ميلو بغموض، ووجهه الصغير المستدير يضربه الثلج.

قالت جانا: «لقد ارتكبنا بالفعل خطأً جسيمًا، فلم نرَ العاصفة وهي قادمة، فما الذي تحدثك نفسك به؟ وبماذا تخبرك روح جدك الأكبر، ميلو؟»

كان من الممكن أن تستطيع التغلب عليه عن طريق إجباره على البقاء، ولكن هذا الإجراء لم يكن سيصبح سديدًا. فما عليها القيام به هو إقناعه أن يظل في مكانه، لأنه إذا اختار أن يغادر فهذا من حقه.

وأخيرًا بدأ يلين وسقطت الدموع متجمدة على خديه، ورجع إلى الثلج، وانضم مرة أخرى إلى أخته، فاحتضنته حتى توقف عن البكاء.

استمرت في أداء عملها الروتيني المتمثل في إزاحة الثلج المتفكك، ولكن عندما حل الظلام — وتحولت الفقاقيع الثلجية البيضاء إلى اللون الرمادي، ثم إلى اللون الأسود، والعاصفة مستمرة — كانت جانا قد وهنت، وأصابها الإرهاق وشعرت بالجوع والعطش.

وأخيرًا لم تستطع أن تقاوم النوم أكثر من ذلك، وفكرت في أن تستريح لفترة قصيرة، ثم تستيقظ قبل أن يصبح الجليد كثيفًا جدًّا. وأخذت تحلم بهدهدتها كما لو كانت طفلة صغيرة بين ذراعي والدها.

عندما استيقظت، شعرت بثقل رأس أخيها في حجرها، وكان صوت العاصفة قد اختفى. كان الظلام يعم المكان، ولكن الطقس كان دافئًا؛ ظلام ودفء وأمان. فأغمضت عينيها واستلقت، وأحست أنه لا ضرر في أن تستريح فترة أطول قليلًا.

ولكن ميلو أخذ ينهج كما لو كان يقاوم الهواء، وتذكرت حلمه عن الظلام والغطس والغرق، فربما كانت هي كذلك في نفس الحلم الآن.

الظلام!

وفي خوف مفاجئ سحبت جانا ميلو بعيدًا، وشعرت أن بأعلاها طبقة كثيفة من الثلج المفكك، فدفعت نفسها تجاه قدميها، ودفعت بوجهها خلال الثلج المتماسك.

ووجدت نفسها محاطة بضوء باهر، وبدأت تنهج ومن حولها هذا الهواء النظيف البارد المفاجئ. كانت السماء قبة زرقاء رائعة أبحرت الشمس خلالها. حملقت جانا فيما حولها، في ذلك المنظر الطبيعي للكتل الجليدية غير منتظمة الشكل المضمنة في الثلج الرمادي المائل إلى الزرقة المتدفق داخل البحر، والمبعثر عليها انجرافات الثلج والصقيع؛ كان كل شيء غير مألوف. وكانت واقفة في الثلج حتى خصرها، وكم كانت محظوظة لأن تستيقظ وقت أن استيقظت، حيث إنها أدركت أن الجليد المنجرف جعلها تشعر بالدفء، لكنه كان قد أوشك أن يجعلها تختنق.

انخفضت إلى أسفل لتدفع الجليد بعيدًا، حتى وجدت كتفي ميلو وبدأت تسحبه إلى الخارج في الهواء. وسريعًا ما فتح عينيه في الضوء ودعكهما. وتحول الجليد الذي كان يرقد فوقه إلى اللون الأصفر من أثر التبول فيه. وسألته جانا: «هل أنت بخير؟» وهي تزيل الثلج من على شعره ووجهه، وجعلته يخلع قفازيه، وأخذت تحرك أصابعه: «هل تشعر بأصابعك؟»

قال وهو يشعر بالحزن: «أنا عطشان.»

- «أعرف.»

- «أريد روود وأريد ميزني.»

- «أعرف ذلك.» كانت «جانا» غاضبة من نفسها، وتشعر أنها مهملة بنومها على هذا النحو، فهذا الإهمال كاد يكلفها حياتها وحياة ميلو هو الآخر. «هيا نرجع إلى مكان اللسان في البحر.»

- «حسنًا.»

ارتدت قفازيها، وأخذت بيديه، وسارا حول الكتلة الثلجية التي حمتهما، ورجعا من الطريق الذي أتيا منه بالأمس، ولم يكن هناك أي لسان في البحر. فيمكنها أن ترى الأرض، ولكن الشاطئ منخفض ومظهره بالٍ، ومغطى بطبقة هشة من الثلج غير المحطم.

صرخ ميلو بحزن قائلًا: «أين روود؟»

ولفترة كانت جانا تحاول بصعوبة تقبُل ما كانت تراه. فكل شيء يبدو غريبًا نتيجة للعاصفة الربيعية، ولم تكن معرفتها بالأرض عميقة، مثل معرفة أبيها بها، ولكن كان واضحًا لها أن الشاطئ الذي تراه لم يكن الشاطئ الذي تركته قبل هبوب العاصفة. «أعطني القوة يا جانا، يا جدتي، أعتقد أن الثلج المتدفق إلى البحر لا بد أنه قد تهشم أثناء العاصفة. لقد انجرفنا ناحية البحر.» وتذكرت حينئذ تلك الأحلام عن الهدهدة الواهنة، «وانتهى بنا الأمر هنا.»

قال ميلو مشيرًا إلى الأرض: «لا أستطيع التعرف على هذا المكان.»

- «لا بد أننا قد حُملنا مسافة طويلة.»

قال ميلو بشكل عملي ونظامي: «حسنًا، فإن المكان الذي يجب أن نذهب إليه هو الأرض، أليس كذلك يا جانا؟»

- «نعم، هذا هو المكان الذي علينا الذهاب إليه.»

- «تعالي إذن» وأخذ بيديها، «هذا هو الطريق، راقبي خطواتك.» وتركته يقودها.

وبدآ يرحلان على طول الساحل يغمرهما الجليد، وكانت الأرض ساكنة، لا يتحرك فيها أي شيء إلا ثعلب قطبي موسمي ونورس قذر، وكذلك بومة. وكان السكون مخيفًا ومثيرًا للأعصاب.

وكان السير صعبًا خلال الجليد المتراكم، حتى لو مشيا بالقرب من الشاطئ، وخاصة بالنسبة لميلو بساقيه القصيرتين. ولم يكن لديهما فكرة عن المكان الذي يسيران فيه، ولا أي فكرة عن المسافة التي حملهما الثلج المنجرف عبرها. ولم يعرفا حتى ما إذا كانا يرجعان من الطريق الذي أتيا منه، تجاه اللسان في البحر. وفكرت جانا وهي ترتعد أنهما كانا محظوظين لأن الجليد الطافي على مياه البحر لم يحملهما ببساطة إلى داخل البحر، حيث كانا سيتجمدان حتى الموت لعجزهما عن فعل أي شيء.

ووجدا نهيرًا يجري سريعًا بدرجة كافية لأن يظل خاليًا من هذا الجليد غير الموسمي. فانحنيا على مرفقيهما في الثلج ليشربا مصدرين بخارًا من فميهما. وشعرت جانا بالراحة، لأنهما لو لم يجدا ماءً عذبًا فسيضطران إلى أكل الثلج، لإطفاء نار الظمأ التي كانت تشتعل داخل أجسادهما، وعندما يحدث ذلك، كما يعرف الجميع، كان الموت هو المصير.

شربا الماء، لكنهما لم يجدا طعامًا، لا طعام على الإطلاق، وواصلا السير.

ومشيا بمحاذاة الساحل وهما يشعران بعدم الرغبة في اختراق هذا الهدوء داخل البلاد، فقد كان هناك الكثير من الأخطار، ولم يكن البشر أقلها خطرًا.

بينما كافحت الرئيسيات ذات الأجسام المبنية لتتناسب مع المناخ الاستوائي من أجل البقاء على قيد الحياة في ظل الظروف المتناقضة سريعة التغيير المميزة للعصر الجليدي، فإنها اعتمدت على السمات القديمة التي ورثتها عن مخلوقات الغابة غير معروفة الاسم؛ اعتمدت على صلات القرابة والتعاون.

فالعشائر المتناثرة عبر أوراسيا وأفريقيا عاشت في عزلة تامة بعضها عن بعض، وأصبحت العزلة شديدة جدًّا. وعلى بعد خمسين كيلومترًا من مسقط رأس جانا عاش أفراد يتحدثون بلغة شديدة الاختلاف عن

لغتها، أكثر من الاختلاف بين الفينيقية والصينية. وفي زمن فار وحتى بيل، كان يوجد اتساق عبر القارات، والآن هناك فروق كبيرة بين أحد وديان النهر والوادي الذي يليه. كان لدى البشر فيض من روح الإيثار، ويمكن أن يموت الإنسان لإنقاذ الآخرين، مع أنهم كانوا يرهبون الأجانب رهبة شديدة وينظمون إبادات جماعية مقصودة ومتعمدة. ولكن في الأراضي الجافة التي بها نقص في الطعام، كان من المنطقي لأعضاء في المجتمع مساندة الآخرين — دون أنانية — والاحتياط من الآخرين الذين ربما يسرقون الموارد النادرة. حتى إن الإبادة الجماعية كان لها منطق مرعب.

إذا اكتشف الغرباء وجود الطفلين، كان من الممكن الإبقاء على حياة جانا، بغرض التزاوج. ويكون أقصى أمل لها أن تكون حاملًا، وتفوز بانتمائها إلى أحد هؤلاء الرجال. ولكنها ستكون دائمًا مهيضة الجناح، ولن تكون أحد الأفراد الأصليين. وفي الوقت نفسه قد يُقتل ميلو وقد يكون ذلك بعد قيامهم ببعض التسلية. كانت تعرف أن هذا ما سيحدث، فقد رأته يحدث بين أفراد جنسها. ولذلك فمن الأفضل أن يظلا متخفيين.

وسارا ببطء والجوع يتملكهما؛ فليس معهما طعام ولا حتى سمك اليلقون.

وعبرا مجموعة جبال صخرية منخفضة. وفي جانبها المحجوب عن الرياح كانت توجد مجموعة أشجار راتينجية، أشجار قزمة. لم تكن الأشجار أطول من جانا، ولكنها، في ظل الصخور، كانت مرتفعة عن الأرض.

وفجأة أمسكت جانا بميلو وألقته أرضًا على نحو فظ، فتواريا عن الأنظار، وأطلا برأسيهما عبر الصخور الجبلية.

وفي بركة متجمدة وراء هذا الشريط الجبلي كان يطير سرب صغير من طيور الترمجان، وكانت هذه الطيور تنقر في الثلج غامرة مناقيرها في الشقوق ورءوس الجبال. وقد اتسمت باللون الأبيض اللامع مقارنةً باللون الأزرق الرمادي للثلج الشبيه بلون الصلب. كانت هذه الطيور التي وصلت مبكرًا لا تُرى وسط الجليد ولكنها برزت بشكل لامع في وجود اللون الأخضر والبني المميزين لآخر موسم الربيع.

قالت جانا: «تعال» واستدارا وانزلقا إلى أسفل الشريط الجبلي، وعادا إلى مجموعة الأشجار الراتينجية الصغيرة.

انتقت جانا شجرة يافعة صغيرة يسهل قطعها وأسقطتها بسرعة فوق الثلج، بفأس حجرية من جرابها، وكان طولها يبلغ عرض الكف فوق الثلج. وبدأت تزيل تيجانها الخضراء، وتركت الجذع بنفس الطول الذي يقترب من طولها. والآن بمساعدة ميلو صنعت ثقبًا في الجذع، ودفعت فيه وتدًا فانشق الجذع بسهولة، وأصبح لديها شريط رفيع مطاطي. وبدأت تكشطه بسرعة، وفي الوقت نفسه بدأ ميلو يقشر اللحاء من على باقي الجذع. وشقه إلى ألياف وعقدها معًا سريعًا في شريط طويل. لم تكن العقد مربوطة جيدًا وكانت هناك أجزاء منها متدلية في المناطق التي رُبطت بسرعة. وأدركت جانا أن عملهما ذلك لم يكن مثاليًّا، ولكنه سيفي بالغرض منه.

بعد ذلك عملت على صنع أسهم من بقايا الجذع، ولكن لم يكن هناك نار من أجل تقوية الأسهم وبالطبع لم يكن هناك ريش — وهذا هو الأهم — ليطير مع الأسهم. ولذا اخترعت شيئًا؛ أخذت أجزاءً صغيرة من اللحاء المقشر وثبتتها بإحكام في الشقوق الموجودة في الأسهم التي معها.

وعملا بأقصى سرعة ممكنة، ولكن الشمس كانت قد هبطت قليلًا من السماء وقت انتهائها من العمل.

أطلت برأسها وكتفيها أعلى الجبال مرة أخرى بانحناءة ناجحة، وكانت الطيور لا تزال موجودة، فحددت هدفًا وسحبت الوتر.

واتجه أول سهم بعيدًا جدًّا ولم يسبب أي إزعاج للطيور، ثم أطلقت سهمها الثاني فأزعج الطيور وأخافها ومن ثم طارت بعيدًا، صارخة في احتجاج وهي تضرب الهواء بأجنحتها اللامعة. ثم أطلقت سهمها الأخير وكانت محاولة أصعب بكثير لإصابة الهدف المتحرك، لكن سقط أحد هذه الطيور من السماء.

وأخذ الأخوان يتسلقان الجبل وهما يهتفان، ثم بدأ كل منهما يجري هابطًا على الجانب الآخر إلى البركة المتجمدة. وكان الطائر يتمدد باسطًا جناحيه فوق الثلج على بقعة من الدم على ريشه الممزق، وكان الطفلان يعرفان معلومات لا تجعلهما يندفعان مباشرةً نحو الثلج. ووجد ميلو جزءًا

من فرع شجرة راتينجية، استخدماه وهما يستلقيان على بطنيهما فوق الأرض الصلبة على حافة الثلج، وسحبا به هذا الطائر إلى الشاطئ.

وقد كان منظر الطائر الميت بشعًا من أثر الضربة، ولكن جانا وضعت رأسه الصغير في يديها، وأخذت قطعة من الثلج وجعلتها تذوب في كفيها، ثم قطرت الماء على منقار الطائر الساكن، وكانت تلك هي الشربة الأخيرة، وقالت: «شكرًا لك.» كان من المهم إظهار هذا النوع من الاحترام للحيوانات والنباتات على حد سواء. لقد كان الكون سخيًّا، فقط إذا لم تسبب له الكثير من المشكلات.

وعندما تمت تلك الطقوس الصغيرة بدأت جانا تنظف الطائر من الريش بسرعة، ثم تفتح برفق بطنه وتفصل الجلد عن الدهن، ثم طوت جلده ووضعته في جرابها. وسوف تستخدم هذا الريش الذي منحها إياه هذا الطائر الترمجان، في صنع أسهم أفضل من ذي قبل.

أكلا لحم الطائر نيئًا، وكانت الدماء تسيل على خديهما، وتكوّن بقعًا قرمزية في الجليد من أسفلهما. ولقد كانت لحظة انتصار، ولكن شعور جانا بالرضا عن هذا الصيد لم يستمر طويلًا، لأن الضوء بدأ في الزوال، وكان الهواء يزداد برودة.

وقد يموتان دون ملاذ.

وعند الانتهاء من تناول آخر قطعة من لحم الطائر في فمها، قادت جانا ميلو مسافة قصيرة إلى داخل البلاد، وكانت تمسك بقوسها وراء ظهرها. وسرعان ما وصلا إلى سهل واسع مغطى بالجليد، وتجاه مركز هذا المرج بلغ ارتفاع الثلج إلى ركبتيها تقريبًا.

وكان هذا كافيًا.

شكلت جانا كتلًا من الثلج حولها، وكان ذلك عملًا صعبًا، فلم يكن لديها أدوات تستخدمها سوى يديها، ونصل من الأحجار، وكانت الطبقات العلوية من الثلج ناعمة فتفتتت بسهولة. ولكن في الأعماق كان الثلج مضغوطًا وصلبًا بدرجة كبيرة.

وبدأت ترص تلك الكتل الثلجية في حلقة محكمة حولها وانضم ميلو إليها بإرادة قوية، وسرعان ما بنيا جدارًا دائريًّا من الكتل الثلجية حول

الحفرة المتزايد عمقها. وبعناية شديدة أخذا يضعان الخطوط الحلزونية التي صنعاها من الكتل الثلجية داخل الدائرة حتى عملا شكل قبة أنيقة. وشقت جانا نفقًا داخل الجدار، ومن خلاله استطاعا الخروج والدخول، ومهد ميلو سطح القبة من الداخل والخارج.

كان ذلك المنزل الثلجي صغيرًا وبسيطًا وجاهزًا، ولكنه يفي بالغرض.

خفت الضوء سريعًا، وعلت في الأنحاء أصداء عواء الذئاب. فدخلا سريعًا إلى منزلهما الثلجي.

«نحن الآن أكثر أمانًا عن الليلة السابقة» هذا ما جال بفكر جانا عندما انضم أحدهما إلى الآخر من أجل الدفء. «ولكن غدًا يجب علينا أن نجد المزيد من الطعام، ويجب أن نشعل النيران».

٢

عاد الصيادون من البحر، وتفرقوا بين أسرهم، وهم يحملون الطعام الذي أحضروه، ولم يكن هناك أي تعبير عن الامتنان، فأولئك الناس لم يكن لديهم من الكلمات، ما يرجون به فضل الآخرين أو يشكرونهم. وبين أولئك القوم الذين كانوا يعيشون على الجمع والصيد، لم تكن هناك أي تفاوتات اجتماعية تستلزم مثل هذه العذوبة؛ فالطعام يتشارك فيه الجميع ببساطة، وفقًا للحاجة.

أما جانا وميلو فلم يعلم بهما أحد.

وميزني — والدة ميلو وجانا — عانت من أجل السيطرة على نفسها، وكان هذا ظاهرًا بوضوح. مع أنها أدت المهام اليومية، وهي تعتني بطفلها، وتنظف أحشاء الأسماك، وتعد ما تبقى من الصيد الذي أحضره روود إلى المنزل؛ ولكنها أحيانًا كانت تنزل سكينها أو أحشاء الأسماك، وتغمرها حالة من اليأس اللامتناهي، وأحيانًا تبكي.

أصابها الجنون من الحزن، وهذا ما كان يظنه روود. وكان الناس يهنئون أنفسهم، بسبب رباطة جأشهم وسيطرتهم على مشاعرهم؛ فإن إظهار الغضب أو اليأس كان يعتبر تصرفًا من تصرفات الأطفال الصغار، الذين لا يستطيعون فعل غير ذلك.

أما روود فقد تقوقع حول نفسه وكان يتجول حول القرية، وخارجها في البلدة، وهو حزين ويغمره إحساس بالعار، مجاهدًا ليبقى وجهه دون تعبير، ولم يكن هناك شيء يستطيع عمله لميزني، وكان يعرف أنها يجب أن تتكيف مع الخسارة التي حلت بها، ولا بد أن تستعيد شعورها الداخلي بالهدوء والسيطرة على النفس.

ولكن الخسارة كانت بالفعل كبيرة على ذلك المجتمع الصغير، ولم يكن هناك عدد كبير من الأشخاص. فتلك القرية الصغيرة، التي يبلغ عدد سكانها عشرين فردًا، تكونت بشكل أساسي من ثلاث أسر كبيرة، وكانت هذه الأسر جزءًا من عشيرة أكثر امتدادًا، تجتمع مع بعضها في كل ربيع، على ضفة نهر كبير إلى الجنوب من تلك المنطقة، لعمل مهرجان تجاري احتفالي كبير، والبحث عن شريك الحياة، وسرد الأحاديث والقصص. ولكن على الرغم من أنهم أتوا من مكان بعيد فلم يتعدَ عددهم ألفًا في تلك التجمعات؛ فسهل التندرا لا يتحمل كثافة سكانية أكبر من ذلك العدد.

وفي العصور التالية سوف يجد علماء الآثار مقتنيات خلّفها أولئك الناس، مثل مقتنيات روود، وسيتساءلون ما إذا كان بعضها دل على سحر الخصوبة. ولكنها لم تدل على شيء، فلم تكن الخصوبة مشكلة لقبيلة روود. ولكن على العكس من ذلك فالمشكلة كانت هي التحكم في أعدادهم، فقد عرف الناس أنه يجب ألا يزيدوا عن قدرة الأرض التي يعيشون عليها، وأنهم يجب أن يظلوا متنقلين في حالة الفيضان أو النيران أو التجمد أو الجفاف.

ولذلك فقد اهتموا بعدد الأطفال، الذين كانوا يربونهم، وباعدوا بين كل طفل والذي يليه، بثلاث أو أربع سنوات، وكان هناك عدة وسائل لتحقيق ذلك، فقد أرضعت ميزني طفليها جانا وميلو لأعمار متقدمة، لكبح تلك الخصوبة لديها. وكان الامتناع عن المعاشرة الجنسية والعزل يقومان بالمهمة نفسها. وكان الموت يطارد الصغار كما كان يفعل دائمًا، وأخذ المرض والحوادث وكذلك الفرائس نصيبًا كبيرًا من الضعفاء.

وإذا ما اقتضت الضرورة، إذا ما أُنجب طفل مصح ليس له مكان بينهم، قُتِل للتخلص منه، مع أن روود امتن أنه لم يتعرض لذلك شخصيًّا.

وماداموا واجهوا العائق الأساسي الخاص بعدد الناس — حتى في ذلك المكان الطبيعي الواسع على حافة العالم الآهل بالسكان — فقد أكل أهل روود جيدًا، واستمتعوا بالكثير من أوقات فراغهم، وفي ذلك المجتمع بالغ الاحترام عديم الطبقات وهبهم الله صحة جيدة، في عقولهم وأبدانهم. وقد عاش روود في جنة شبه مجمدة مليئة بالمستنقعات، حتى وإن كان على حساب بعض من الأرواح الصغيرة غير المعدودة، التي أُزهقت في ذلك الظلام البارد المؤسف.

ولكن لم تكن تلك الحسابات مثيرة للاشمئزاز تنطبق على ميلو وجانا.

جاء كلاهما في وقت كان والداهما قادرين فيه على التعايش مع بقائهما على قيد الحياة. وقد ظلا حيين مع الأخطار التي تصيب الصغار في الطفولة المبكرة، وكانا ينموان ويكبران بشكل صحي. وقد اقتربت جانا من مرحلة بدء الإحاضة ولذا كان روود ينتظر أول حفيد. والآن، فنتيجة عاصفة ربيعية بشعة وإهمال منه — لا يمكن التسامح فيه — حُرم من كل الاستثمار الذي استثمره فيهما من مجهود وعاطفة.

في غمرة انشغال بال خرج روود من المستوطنة، وكان يقترب من المناطق الخربة والمهدمة البسيطة الآهلة بالحمقى.

نظر الحمقى إليه بغباء عندما مر عليهم، وكان بعضهم يلتهم أجزاء من جلود كركدن البحر، ورأته إحدى الفتيات البدائيات الحمقاوات — وكان ابنها الرضيع يتشبث بثديها — فمشت بعيدًا عنه وهي ترتعد. فلم يكن للحمقى مكان في تلك الأرض التي يملكها البشر، وبالفعل كانوا سيجوعون لولا سخاء البشر وقاذوراتهم. ولأن الحمقى لم يكونوا حيوانات ولا بشرًا، فلم يكن هناك شيء متعلق بهم يستحق الاحترام، فهم حتى ليس لهم أسماء يُنادون بها.

ولكنهم قد يكونون ذوي نفع.

صادف روود إحدى الفتيات البدائيات، التي كانت أصغر سنًّا من الباقيات، وهي في حقيقة الأمر، نفس الفتاة التي عذبتها جانا قبل حادث الرحلة المؤسفة إلى البحر بوقت قصير.

صعدت الفتاة البدائية النظر فيه بغباء، وكانت جمجمتها المسطحة على نحو مضحك ملطخة بالقاذورات. وكان روود يعرف أنها في مثل عمر جانا ولكن جسمها كان يفوق جسم ابنته، فتلك المخلوقات تنمو بسرعة، وتعيش حياة شاقة، وتموت في عمر أصغر. جلست الفتاة وسط القاذورات، وكانت مغطاة بلفافات من الجلد غير مربوطة عابثةً بحلية مكسورة بالية. وعلى ما يبدو كان أولئك الحمقى لديهم من الوعي ما يكفي لأن تبهرهم مقتنيات البشر، وما لا يكفي لأن يصنعوها لأنفسهم؛ فكان من الممكن طلب أي شيء من أولئك الحمقى في مقابل عقد مصنوع من عاج الماموث، أو أحد رماح صيد الحيتان المصنوع من العظام المنحوتة.

وفي موجة من الاهتياج لم يستوعبها روود تمامًا انحنى لأسفل وانتزع الغطاء من على جسم الفتاة. وفكر للحظة؛ مع أن وجهها مسحوب إلى الأمام ورأسها مفلطح فإن جسمها ليس سيئًا، فلم يكن جسمها قد نما نموًّا كاملًا وامتلأ مثل جسم الدببة وهو الامتلاء الذي تتميز به الفتيات البدائيات البالغات.

شعر الرجل بالإثارة.

فانحنى على الأرض وسحب كاحلي الفتاة البدائية ولفها على ظهرها. أما هي فقد استجابت بسهولة، وكان من الواضح أنها لم تكن المرة الأولى لها. ولوهلة تمكن من نسيان تلك اللحظة المفجعة عندما هبت العاصفة وأدرك أنه فقد جانا وميلو في الثلج.

ولكن سريعًا ما استعاد وعيه، وعندما ابتعد عن الفتاة البدائية أحس باشمئزاز شديد، ونظف نفسه.

رفعت الفتاة البدائية يديها، وهي ما زالت عارية، وتوسلت بسكون.

كان روود يضع حول رقبته حلية متدلية، وهي إحدى أسنان دب الكهوف، فنزعها من رقبته وقطع الطوق المصنوع من جلد الإبل، وألقى الحلية والطوق في القاذورات. تحسست الفتاة الأرض بحثًا عن الحلية، ورفعتها تطالعها أمام وجهها، وتديرها مرارًا وتكرارًا محدقةً في ألغازها اللامتناهية.

واصل كل من جانا وميلو طريقهما بمحاذاة الساحل، آملين أن يعبرا اللسان في البحر، وهو المكان الذي رأيا فيه أباهما ورفقاءه في المرة الأخيرة. وفي المساء كانا يبنيان أكواخًا ثلجية في حالة وجود ثلج، أو ينامان أسفل الأكواخ المائلة المشيدة بعجالة. وكان قوس جانا وردود أفعال ميلو السريعة يوفران لهما بعض الطعام، من الحيوانات الصغيرة والطيور.

وقد استطاعا أن يطعما نفسيهما، وأن يبنيا مكانًا يلجآن إليه، ولكن ميلو كان قد قضى إحدى الليالي المؤلمة بعد تناول سمكة، لم تكن أحشاؤها قد نُظفت جيدًا. وأسوأ ما في الأمر أنهما فشلا ليلة بعد أخرى في إشعال نيران، بصرف النظر عن المجهود الذي قاما به في حك العصي، أو قطع الصخور المهشمة معًا. وكان ذلك يكلفهما غاليًا. فالطعام — غير المطبوخ — جعل أسنان جانا ومعدتها تؤلمانها، وأثناء الليل كانت تتخيل أنها لن تشعر بالدفء مرة أخرى.

واستمرا في المشي بثقل فلم يكن لديهما خيار. إلا أن ذلك كان يفقدهما بعضًا من وزنهما، وكانا يشعران بتعب وإرهاق أكثر يومًا بعد يوم، وأصبحت ملابسهما رثة. كانا يموتان ببطء، وقد عرفت جانا ذلك، وعلى الرغم من أن أرواح أجدادهما كانت تقودهما فإنهما لم يعرفا بعد كل ما يحتاجانه ليبقيا على قيد الحياة.

وصلا إلى مكان انحرف فيه خط الأشجار إلى جهة الشمال، لذلك كان يتحتم عليهما الخوض في جزء من الغابة. فالأشجار والصنوبريات والأشجار الراتينجية نمت في هذا المكان متفرقة ومتشابكة، وكانت هزيلة وبدون أوراق، وقد بدا منظرها هزيلًا على نحو غريب. وكان الطريق الذي يتبعه الطفلان، الذي ارتادته الغزلان أو الماعز، ممهدًا بالطحالب، وهو طريق ملولب خلال الأشجار، ومن حين إلى آخر مشيا خلال ممرات أكثر انفتاحًا.

وحين خبا الضوء، وهو ينهي يومًا كئيبًا آخر، كانت ظلال الأشجار تخطط الأرض، وتحولت الشجيرات الصغيرة إلى اللون الأسود. وكان ميلو وجانا يبعدان خمسة ملايين سنة عن كابو، آخر أسلافهما الساكنين الغابة. وما كانا يعرفانه عن الغابة أنها مكان مليء بالوحوش والشياطين، ولذا أسرع الطفلان قدمًا بشيء من القلق.

وأخيرًا خرجا من بين الأشجار، ووجدا نفسيهما على بقعة من الأرض العشبية المغطاة بالثلج، التي ينتهي المرج الأصفر فيها عند حافة جرف جرداء. وقد التف البحر فيما وراء ذلك الأفق المتلبد المسطح، تاركًا الثلج المتدفق إلى البحر يصر ويتصدع من بعيد، كما كان يفعل دائمًا.

لكن الطفلين قابلا واجهةً من اللحوم والقرون؛ كان ذلك قطيعًا من حيوان الأقرن، وهي مخلوقات ستُسمى في يوم ما الظبي الأيرلندي. سار القطيع بأعداد هائلة، وهو يأكل العشب الجديد الذي نما بين الثلج المتفرق.

وفي الطليعة كان هناك ذكر ضخم، يحدق النظر في الطفلين من أسفل أنفه الطويل. وكان على ظهره سنام لحمي كبير، وهي كومة من الدهون لتسانده خلال الأوقات الصعبة. وفي هذا الربيع المبكر كان سنامه مفرغًا، وقرناه، اللذان يبلغان ضعف طول إنسان شكلين عظيمين ثقيلين يشبهان يدي عملاق مفتوحتين، وله نتوءات مثل الأصابع في شكلها تتفرع من قرنيه الناعمين.

كان هناك الآلاف من الغزلان بمفردها في ذلك القطيع تتزاحم بعيدًا عن الطفلين. ومثل آكلي النبات العملاقة في ذلك الوقت الخصب شديد الاختلاف عن الأوقات السابقة، كانت مخلوقات الأقرن تنمو بين الأعداد المهاجرة الهائلة، وتتجول عبر ذلك العالم القديم، من بريطانيا إلى سيبريا والصين. اقترب ذلك القطيع الكبير ناحية جانا وميلو عن عمد، فكان عائقًا متحركًا ببطء، مع ضجيج القرون الهائلة والبطون الجائعة، وكان الهواء ممتلئًا بنتن الروث وإفرازات الحيوانات التي غمرت المكان.

وكان الصغيران، في حاجة ماسة إلى الخروج من ذلك الطريق، وفورًا علمت جانا أنهما لا يستطيعان تجنب القطيع عن طريق الإسراع نحو البر الداخلي؛ إذ كان القطيع كثير العدد ومنتشرًا في كل مكان. وبالتأكيد لم يكن قطيع الغزلان ليمضي بعيدًا في الغابة، ولكنه قد يُجبر الصغيرين على الرجوع داخل ذلك الظلام الحالك، الذي كان مكانًا غير مرغوب في الذهاب إليه مرة أخرى.

وفجأة، أمسكت جانا بيد أخيها وقالت: «تعال إلى الجرف.»

وأخذا يجريان عبر العشب المتجمد، وكانت حافة الجرف منحدرة بشدة بعيدًا عن إحدى حواف الأرض العشبية. وأسرع الصغيران إلى هناك، وعلق القوس الذي على ظهر جانا ببروزات الصخرة، فأبطأها، ولكنهما نجحا في الوصول وانضم أحدهما إلى الآخر فوق نتوء ضيق، يحدقان في تلك المساحة الواسعة المغطاة باللونين البني والأسود التي اكتسحت ببطء قمة الجرف.

أما الحيوان الذكر كبير الحجم فقد راقبهما بلا مبالاة، ثم تحرك بعيدًا ورأسه الثقيل ساقط إلى الأمام.

وقد كان من الصعب عليه حمل قرونه التي كانت كالأثقال المحمولة بطول الذراعين، ولذا فإن رقبته صُممت لتحمل ذلك العبء، مدعمة بأجزاء من عظام فقارية وعضلات ضخمة، تشبه الكابلات. وكان قرنا الوعل موجودين لاستخدامها في الاستعراض الجنسي والعراك، ويبدو المنظر مخيفًا عند اشتباك اثنين من تلك الوعول العملاقة وهما يدليان رأسيهما إلى أسفل. ومن الممكن أن تؤدي تلك القرون الكبيرة إلى موت الحيوانات. عندما تَراجع الجليد وانكمش موطن تلك الحيوانات أصبحت هناك ضرورة لاختيار الأحجام الأصغر، وبينما انكمشت الفصائل الأخرى لتناسب هذه الضرورة فقد ثبت أن حيوان الأقرن قد عجز عن التخلي عن العروض الجنسية التفصيلية، وأصبح متخصصًا فيها بشكل مبالغ فيه. وكانت قرونه الهائلة عالية القيمة، ولكن ثبت عجزها عن التكيف مع التغير.

سمع الصغيران زئيرًا مكتومًا، واعتقدت جانا أنها رأت شكلًا غير واضح قصيرًا وسمينًا يتحرك فوق الثلج، مثل شبح قوي، وكان يقتفي أثر الأيل. ومن الممكن أن يكون أسدًا فارتعشت.

همس ميلو: «والآن ماذا سنفعل؟ لا يمكننا البقاء هنا.»

قالت جانا وهي تنظر حولها: «لا.» فقد رأت أن النتوء الذي يجلسان عليه يؤدي إلى أسفل الجرف أمام تجويف في الأسفل يبعد بمسافة. ثم قالت: «من هذا الطريق، أعتقد أنه يؤدي إلى كهف.»

وأومأ ميلو بإيجاز، ثم تقدم الطريق على حافة النتوء الضيق إلى أسفل، متشبثًا بالحجر الجيري. وأدركت جانا أنه كان أكثر خوفًا مما كان مستعدًا للتصريح به.

وأخيرًا انتهى ذلك الهبوط الخطير، وألقيا بنفسيهما داخل التجويف، ورقدا ينهجان على الأرضية الخشنة. امتد الكهف المجوف داخل الجير، إلى أعماق مظلمة، وقد امتلأت الأرضية بالسماد وأجزاء من قشور البيض. وبذلك لا بد أن يكون قد استخدم كأرضية لأعشاش طيور النورس، وكان موجودًا على الأرض بقع سوداء متفرقة، ليست لمواقد ولكن لمواقع واضحة لإشعال النيران.

قال ميلو مستغربًا: «انظري، بلح البحر.»

كان محقًّا فقد تراكم المحار الصغير في كومة منخفضة، محاطًا بشظايا من الجرانيت المتناثرة. وكان بعض الفضول هو ما جعل جانا تتساءل، كيف وصلت تلك الأشياء إلى ذلك المكان. ولكن الشعور بالجوع طغى على كل شيء، وجلس كلاهما أمام المحار. وبجنون حاولا أن يفتحا بعض المحار بأصابعهما وبالنصل الحجري، ولكن المحار كان صلبًا ولم يُفتح.

وبعدها سمعا صوتًا عظيمًا!

فاستدار الاثنان.

وكان ذلك الصوت المخيف آتيًا من أعماق الظلام في مؤخرة الكهف، وتقدم شيء إلى الأمام، وكان رجلًا ضخم الجسم، تغطيه لفافة تبدو من جلد الأيل. اعتقدت جانا أنه ليس رجلًا؛ كان أنفه كبيرًا وبارزًا، وساقاه قويتين سمينتين، ويداه ضخمتين. إنه أحد الحمقى؛ ذكر عظيم الحجم وقد حملق فيهما.

تراجع الصغيران إلى الوراء، وكل منهما يمسك بالآخر.

لم يكن له اسم، فلا يُطلِق هؤلاء الحمقى أسماء على أنفسهم، لكنه فكر أن يطلق على نفسه «العجوز» وكان مسنًّا بالنسبة لنوعه، ويبلغ من العمر حوالي أربعين سنة.

وقد عاش وحيدًا مدة ثلاثين سنة من تلك السنوات.

كان يغفو في مؤخرة ذلك الكهف، في حرارة المشاعل التي أبقاها مشتعلة هناك والتي يتصاعد منها الدخان. لقد قضي الصباح الباكر يمشط الشواطئ أسفل الجرف، في المد المنخفض، باحثًا عن المحار. ومع حلول المساء استيقظ سريعًا؛ فالمساء هو وقته المفضل من اليوم.

ولكنه قد انزعج مبكرًا على جلبة وضجة عند مدخل الكهف. معتقدًا أنها ربما تكون طيور النورس، التي أتت وراء أكوام المحار — أو شيئًا ما أسوأ من ذلك، فقد يكون ثعلبًا قطبيًّا قد أتى متحركًا بتثاقل تجاه الضوء.

لم تكن طيور نورس ولا ثعلب، إنهما صغيران، أجسامهما طويلة ونحيلة بشكل مضحك، وأطرافهما ضامرة وأكتافهما غير عريضة، ووجهاهما مسطحان كما لو كانا مسحوقين بضربة شديدة، وذقناهما دقيقان، ورأساهما ناتئان إلى أعلى، في شكل كوميدي مثل الفطريات الضخمة.

إنهما النحاف، دائمًا ما يأتون النحاف. شعر بضجر شديد، وصدى للوحدة التي شغلته كل لحظة استيقاظ وأزعجت أحلامه.

وبدون تفكير واع،تحرك نحو الصغيرين، وامتدت يداه العظميتان إليهما، وكان يمكن أن يسحق جمجمتيهما بقبضة واحدة، أو يسحقهما معًا مثل بيض الطيور، وتكون تلك هي نهاية الأمر. وكانت عظام أكثر من سارق نحيف مفترشة على الشاطئ الصخري تحت ذلك الكهف، وكثير من العظام الأخرى ستنضم إليها قبل أن يتقدم في العمر أكثر من ذلك ولا يستطيع المدافعة عن ذلك الحصن الأخير.

صرخ الصغيران وأمسك كل منهما بالآخر، والتصقا بجدار الكهف. ولكن الأطول فيهما — الفتاة — دفعت الآخر خلفها، لقد كانت مرعوبة، واستطاع الأحمق أن يرى ذلك، لكنها حاولت أن تدافع عن أخيها، وكانت متحكمة في أعصابها. وعلى الرغم من أن البول قد سقط على ساقي الصغير العاريتين من الخوف فقد ظلت الفتاة مسيطرة على نفسها، وتسللت يداها إلى سترتها الضيقة وسحبت شيئًا ما تدلى بخيط حول رقبتها: «أيها الأحمق، أيها الرجل الأحمق! اتركنا وشأننا، وسوف أعطيك هذه! إنها رائعة الجمال أيها الرجل الأحمق!»

لمعت عينا العجوز العميقتان.

وكانت الحلية قطعة من الكوارتز، وهي مسلة صغيرة لامعة وشفافة، أحد وجهيها مصقول بنعومة بالغة، والوجه الآخر منحوت بمهارة عالية في تصميم يجذب الرؤية، ويُدهش العقل. لوحت الفتاة بالتميمة إلى الأمام وإلى الخلف، وحاولت أن تجذب انتباه عينيه وبدأت تتقدم إلى الأمام، وهي تقول:

«أيها الرجل الأحمق، إنها جميلة» وحملق العجوز في عينيها الزرقاوين، اللتين نظرتا إليه بالمثل بالأسلوب المباشر المتحير الذي يميز النحاف؛ نظرة المفترس.

مد يديه وحاول خطفها، لكنها لفت حول رقبة الفتاة واصطدمت بالجدار من خلفها، وصرخت حيث إن الخيط الجلدي قد لسع رقبتها. ومد العجوز يده مرة أخرى، وكاد الأمر ينتهي في لمح البصر.

ولكن الصغيرين كانا يتكلمان بصوت غير مفهوم، بلغتهما السريعة المعقدة «دعيه يبتعد! دعيه يذهب وشأنه!»، «لا تخف يا ميلو فإن جدك الأكبر بداخلك سوف يساعدك.»

وترك العجوز يديه الكبيرتين تنزلان إلى جانبيه.

ونظر إلى بلح البحر الذي حاولا أخذه من قبل، كانت الأصداف مكشوطة ومقطوعة، وعلى إحداها آثار للأسنان، ولكن جميعها لا تزال مغلقة. وكان الصغيران لا حول لهما ولا قوة، أكثر من أي مخلوق من نوعهما، حتى إنهما لم يستطيعا سرقة بلح البحر.

لقد مر وقت طويل على سماع أي أصوات من أي نوع في ذلك الكهف، سوى صوته هو، والنعيب القبيح للنورس، أو نباح الثعالب.

ودون أن يفهم السبب تراجع إلى مؤخرة كهفه، حيث يخزن اللحوم الخاصة به وأدواته ومجموعة من الخشب. وكان قد أحضر حملًا ملء ذراعيه من أخشاب الصنوبر، أحضره من منطقة في الغابة عند قمة ذلك الجرف وتركه بالقرب من مدخل الكهف. والآن أحضر أحد المشاعل، وهو فرع شجرة صنوبر سميك به مادة صمغية ومربوط بجلد عجل البحر مليء بالدهون. يشتعل المشعل باستمرار ولكنه ينتج عنه دخان، ويظل مضيئًا طوال اليوم. فوضع ذلك المشعل على الأرض وبدأ يكوم الخشب عليه.

وما زال الصغيران ملتصقين بالجدار، وعيناهما متسعتان وهما يحملقان فيه، وأشار الصغير إلى الأرض: «انظري أين موقده؟ إنه يحدث فوضى.» فوضعت الفتاة يدها على فمه.

وعندما اشتعلت النيران وتوهجت، ركلها ليظهر الحطب المشتعل بداخلها، ثم التقط القليل من بلح البحر، وألقاه داخل النار، فانفتحت

أصداف بلح البحر. وكان قد اصطادها بعصا، وبعد أن نضجت أخذ يلتقط محتوياتها المملحة اللذيذة بيديه الفظتين، واحدةً تلو الأخرى.

تلوّى الصبي وقال: «لا أستطيع مقاومة رائحتها، أنا جوعان.»

- «توقف واثبت.»

أخذ العجوز كفايته من بلح البحر، وبعدها رفع ساقه وأخرج غازات المعدة، ثم وقف بجهد على قدميه وتحرك بتثاقل إلى مدخل الكهف، وجلس هناك، وإحدى ساقيه مثنية والأخرى ممدودة، ولفافة جسده الجلدية على ساقيه وفخذيه. والتقط بلاطة من الجرانيت كان قد تركها هناك منذ أيام مضت، وباستخدام حصاة من حجر الصوان كمطرقة حجرية بدأ سريعًا يشكّل حجر الجرانيت. وسرعان ما بدأت الشظايا تتراكم حول ساقيه. فقد رأى دلافين اليوم وكانت هناك فرصة جيدة، لأن تكتسح تلك المخلوقات الرشيقة الشاطئ في اليوم التالي أو بعد يومين. لم يكن يخطط بالضبط ولم يكن يفكر كما يفكر النحاف، ولكن كان لديه حدس عميق عن بيئته، شكّل اختياراته وتصرفاته.

وبينما ترك يديه تعملان وتشكلان تلك الكومة من الحفريات الطباشيرية المضغوطة — كما كانت أيدي أسلافه تعمل مدة مائتين وخمسين ألفية — كان يحملق بنظره ناحية الغرب، حيث بدأت الشمس في الغروب على المحيط الأطلنطي وتحول الماء إلى صفحة من النيران.

وفيما وراءه زحف جانا وميلو إلى النيران، وهو الأمر الذي لم يلحظه، وألقيا المزيد من بلح البحر فيها وأكلا من لحمه المملح.

وبمرور الأيام تزايدت إذابة الثلج سريعًا نتيجة لحلول فصل الربيع، وذابت البحيرات، وبدأت الشلالات التي مكثت طوال الشتاء مكسوة بالثلج في التدفق، حتى سطح البحر المتجمد بدأ يذوب ويتكسر.

وعندئذ حان موعد التجمع، وكانت تلك الهدية مُنتظرة بشوق، وهو الفصل الأكثر أهمية في السنة، على الرغم من السير أيامًا عديدة عبر التندرا.

ولم يستطع الجميع الخروج — فالصغير والمسن والمريض لا يستطيعون القيام بهذه الرحلة، وقد كان على البعض أن يظلوا في مكانهم للاعتناء بهم.

وهذا العام — ولأول مرة منذ سنوات عديدة — تخلص روود وميزني من عبء رعاية الأطفال، ما عدا أصغرهم ذلك الرضيع الصغير جدًّا الذي يمكن حمله طول الوقت، وكانا بإمكانهما السفر.

لم يكن ذلك الموقف من اختيار روود، ولكنه اعتقد أنهم يجب أن يستفيدوا استفادة قصوى من حياتهم المحطمة، وطلب من ميزني أن تذهب معه إلى التجمع. ولكن ميزني فضّلت أن تمكث في المنزل، وقد تحولت عنه وابتعدت متقوقعة في حزنها المظلم. ولذلك قرر روود أن يخرج مع أوليث — أخت ميزني — خالة أطفاله. وأوليث كان لديها أيضًا طفل كبير، مات والده من مرض السعال، وقد ترك أوليث وحدها، ومر على ذلك شتاءان.

بدأ الحفل على أرض التندرا.

وفي أثناء ذلك الفصل القصير من العام المتميز بالدفء والضوء، كانت الأرض تحت الأقدام مليئة بالحياة، عليها نباتات كاسر الحجر saxifrages، وزهور التندرا، والحشائش، والآشنات lichens. وهناك سحب من الحشرات، تجمعت في الهواء الرطب فوق البرك، تتزاوج على عجل. وهناك أسراب عظيمة من الإوز والبط والطيور المخوضة waders، التي تغذت واستراحت على البحيرات الضحلة في التندرا. أشارت أوليث وهي ممسكة بذراع روود إلى البط البري والإوز الجليدي والغواص divers والسامك loons والكركي cranes، التي حلقت عاليًا، وهي تملأ الهواء بأصواتها الثرثارة. وفي المكان المشتمل على الشجيرات المنبسطة كثير من تلك الطيور بنت أعشاشها على الأرض. وعندما تخطو مقتربة من عش الكركر الصياد jaeger يغوص طائران فيه وهما يطلقان صوتًا عاليًا حادًّا. وعلى الرغم من أن معظم آكلات الأعشاب المهاجرة لم تكن قد عادت بعد، فإن الناس لمحوا قطعانًا هائلة من الماموث والغزلان، وهي تمشي عبر الأماكن الطبيعية، مثلها مثل ظلال السحب.

فكر روود كم كان غريبًا أنه إذا حفر على بعد أذرع قليلة في أي مكان تحت ذلك البساط المزدحم بالحركة والألوان، فقد يجد الثلج والأرض الثلجية، حيث لا يمكن أن يعيش فيها شيء.

قال روود: «لقد مضى وقت طويل، منذ آخر مرة مشيت في هذا الطريق، لقد نسيت معالمه.»

شدت أوليث على ذراعه واقتربت منه وقالت: «أعرف شعورك الآن.»

«إن كل ورقة عشب وكل ورقة راقصة من كاسر الحجر، عذابٌ لي، وجمالٌ لا أستحق أن أراه.» من على بُعد منها، كان رووِد يشم رائحة زيت الخضروات الذي دلكت به شعرها القصير، إنها ليست مثل أختها ميزني؛ فهي أطول وأنحف منها ولكنها عظيمة الثديين.

ذكّرته أوليث بولديه قائلة: «لم يذهب الصغيران، بل إن روحيهما سوف تولدان من جديد، عندما تنجب أطفالًا آخرين. ولم يكونا كبيرين في السن بدرجة كافية لأن يتمتعا بالحكمة، ولكنهما يحملان روح أجدادهما، وسيحملان أيضًا الفرحة والمرح لـ ....»

قال لها بقسوة: «إنني لم أضاجع ميزني منذ أن رأينا جانا وميلو آخر مرة، وقد تغيرت ميزني.»

همست أوليث مندهشة بكل وضوح: «لقد كان ذلك منذ وقت طويل.»

هز رووِد كتفيه بلا مبالاة: «ليس وقتًا طويلًا من وجهة نظر ميزني، وربما لن يكون طويلًا بدرجة كافية عليها مطلقًا!» ونظر إلى عيني أوليث وقال: «لن يكون لي أطفال آخرون من ميزني، لا أعتقد أنها سوف ترغب في هذا.»

نظرت أوليث بعيدًا ثم خفضت رأسها، وأدرك أن هذا شيء مدهش؛ تلميح عن كلا الشيئين: التعاطف والإغواء.

وفي تلك الليلة ذات البرودة القارسة على أرض التندرا المكشوفة، وأسفل كوخ مائل مبنيٍّ على عجالة من فروع الصنوبر، رقدا معًا لأول مرة. عندما عاشر رووِد الفتاة الصغيرة الحمقاء استراح من ذنبه ومن شكوكه المزعجة المستمرة. ولكنّ أوليث كانت تعني له الكثير، أكثر من أي حيوان أحمق آخر بالطبع. ولكن بعد ذلك عندما كانت أوليث بين ذراعيه شعر بالجليد يلف قلبه مرة أخرى، كما لو كان يشعر — وهو في وسط الربيع — أنه لا يزال محصورًا في أعماق برد الشتاء.

وبعد نزهة استمرت أربعة أيام متواصلة وصل رووِد وأوليث إلى ضفة النهر.

كان هناك مئات الأفراد قد أتوا إلى هذا التجمع، وكان هناك أكواخ أنشئت على الضفة، وأكوام من الرماح والأقواس، وحتى جثث لذكر حيوان الأقران الضخم. وصنع الناس لأنفسهم علامات باستخدام الوميض الشديد لأكسيد الرصاص وصبغة الخضراوات، وكانت لتصميماتهم عناصر مشتركة مما دل على وحدة عشيرتهم الكبيرة، إنها دقيقة ومتنوعة احتفاءً بهوية عصبتهم الفردية وقوتها.

من المحتمل أن يأتي إلى التجمع قرابة خمسمائة فرد؛ لم يكن هناك من بعْد. وكان ذلك سيشكل نصف إجمالي الناس على الكوكب الذين يتحدثون بشكل مختلف عن روود.

كانت المجموعة التي مَشَتْ من المنزل مع روود وأوليث قد انتشرت، والكثير منهم كانوا يبحثون عن أزواج؛ ربما لنزوة سريعة خلال الربيع، أو لعلاقة طويلة الأمد. وكان هذا التجمع الذي يستمر بضعة أيام هو الفرصة الوحيدة لمقابلة أشخاص جدد، لتفقد ما إذا كان الأطفال النحاف الذين يتذكرونهم من العام السابق كبروا على النحو الذي يتمنونه للزواج منهم.

رأى روود سيدة تسمى ديلا، وكانت ملفوفة القوام وسمينة ولها ضحكة رنانة، وكانت قادرة على صيد الحيوانات الكبيرة. وفي صباها كانت جميلة — وقد عاشرها روود مرتين قبل ذلك. رأى روود أنها أنشأت كوخًا كبيرًا مزخرفًا بالجلود الممتدة والمرسومة على نحو مبهج بتصميمات من الحيوانات العداءة.

سار روود وأوليث معًا على ضفة النهر، ورحبت ديلا به وعانقته، وصفعته صفعة ودية على ظهره، وقدمت لهما الفاكهة ومشروب اللحاء الساخن. وعلى الرغم من أن ديلا رأت أوليث وتساءلت في قرارة نفسها عما حدث لميزني فإنها لم تسأل علنًا.

اشتعلت نيران عظيمة على الأرض الخالية أمام الكوخ، وكان هناك شخص يُلقي قطعًا من شحم الأسماك فيها، فتنتج تفجيرات وفرقعات. وكانت قبيلة ديلا هي التي أحضرت حيوان الأقرن. وكان هناك سيدات صغيرات قويات يقطعن لحم الغزال، وامتلأ الهواء برائحة الدماء والأحشاء.

جلس روود وأوليث مع ديلا حول نار منخفضة، وبدأت ديلا تسأل روود كيف سار عمل الصيد في هذا العام. وكان يجيبها بلطف، وتحدثا عن بدء الموسم هذا العام، وكيف تصرفت الحيوانات، والأضرار التي وقعت نتيجة للعواصف الشتوية، وارتفاع قفزات الأسماك، وعن طريقة جديدة اخترعها أحد الأشخاص لمعالجة أربطة القوس حتى تتحمل أكثر قبل أن تتقطع، وعن طريقة أخرى اكتشفها شخص آخر لنقع عاج الماموث في البول لجعله يستقيم.

كان الغرض من هذا التجمع هو تبادل المعلومات والطعام والبضائع والتزاوج. ولم يبالغ المتحدثون في ذكر النجاح أو يقللوا من الفشل، وبأقصى ما لديهم من جهد تحدثوا بالتفاصيل وبالدقة الكافية، وسمحوا لمشاركين آخرين في المناقشة بطرح أسئلة. وكانت الدقة أكثر أهمية من التباهي والتفاخر، وبالنسبة للأفراد الذين اعتمدوا على الثقافة والمعرفة لكي يُبقوا أنفسهم أحياء، كانت المعلومات أهم شيء في هذا العالم.

وأخيرًا تمكنت ديلا من الانتقال إلى الموضوع الذي أبهرها بشكل واضح.

قالت بحذر: «وماذا عن ميزني، هل ظلت في المنزل مع الأطفال؟ لماذا؟ لا بد وأن جانا قد أصبحت طويلة الآن، وأنا أتذكر كيف كانت تجذب أبصار الصبية في العام الماضي؟ و...»

قال روود — بلطف: «لا» وهو يشعر بيد أوليث تغطي يديه. أنصتت ديلا في صمت عندما كان يصف بالتفصيل المؤلم كيف فقد طفليه في العاصفة الثلجية.

وعندما أنهى حديثه رشفت ديلا الشاي، متجنبة النظر إليه، وكان لدى روود إحساس غريب بأنها تعرف شيئًا ما، لكنها لم تفصح عنه.

وحتى تكسر حاجز الصمت أخذت ديلا تحكي قصة أرضها.

قالت: «وعن هذين الأخوين اللذين فُقدا في الجليد فقد سقطا في النهاية، وأحدهما توفي والآخر ظل على قيد الحياة وحزن على أخيه، ولكنه بعد ذلك رأى ثعلبًا يحفر أسفل زند شجرة، وقد كان فراؤه أبيض ناصعًا. ابتعد الثعلب ولكن الأخ عرف أن الثعلب سوف يعود إلى نفس البقعة، لاسترجاع ما دفنه، ولذلك فقد نصب له شركًا وانتظر، وعندما عاد الثعلب اصطاده

الأخ وأمسك به، ولكن قبل أن يقتله غنى له الثعلب، وكان غناؤه نحيبًا على الأخ المفقود مثل هذا ....»

ومثل حكايات عصر الأسلاف الأوائل عند جوون، على الرغم من أنها كانت مزيجًا من الأساطير والحقائق، فمثل تلك الأغنيات والقصص كانت طويلة ومميزة ومحملة بالحقائق. وكان ذلك ثقافة شفوية، وبدون الكتابة لتسجيل البيانات الواقعية، كانت الذاكرة هي المهمة. فإذا كانت الأحلام والافتتان بالشامانات وسيلة لتكامل المعلومات المنقولة للمساعدة في صناعة القرار الحدسية، فالأغنيات والقصص هي وسيلة مساعدة لحفظ هذه المعلومات في المقام الأول.

ومن الملحوظ أن القصة التي حكتها ديلا كانت تتطور هي نفسها، حيث إنه بانتقال القصة من مستمع إلى مستمع آخر، ومن خلال الخطأ والتجميل تتغير عناصرها باستمرار. ومعظم هذه التغيرات كانت تفاصيل عرضية، لا تؤثر في الموضوع، تطيل القصة دون تأثير. إن أساسيات القصة وروحها والعقد الأساسية ومغزاها تميل إلى أن تظل ثابتة، ولكن ليس دائمًا؛ فأحيانًا يحدث تغير كبير تبعًا لنوايا المتحدث أو الأحداث التي يتعرض لها. وإذا كان العنصر الجديد يحسّن القصة يُبقى عليه. والقصص — مثلها مثل الجوانب الأخرى في ثقافة الناس — قد بدأت مسارًا تطوريًّا خاصًّا بها يُمثل حتى النهاية في نطاقات العقول الواسعة للأفراد الجدد.

ولكن قصة ديلا لم تكن مجرد قصة عابرة، أو وسيلة للتذكر. فمن خلال قصتها، وفي ظل صياغتها للقصة الخاصة بأرضها وتقبل السامعين لها، عن طريق الاستماع إلى قصتها، فإنها تعلن عن حقها في شيء ما. فمن خلال معرفة الأرض جيدًا بدرجة تكفل رواية قصتها بشكل صحيح، كان يمكنك التأكيد على حقك في هذه الأرض. ولم يكن هناك عقود مكتوبة ولا وثائق ولا محاكم، وكانت صحة ادعاء ديلا تأتي فقط من علاقة الراوي بالمستمع، ويُعاد تأكيدها في تجمعات مثل هذا.

كان هناك صخب وضجة احتفالية عظيمة من خارج الكوخ، فالشريحة الأولى من لحم حيوان الأقرن المذبوح قد وضعت في النيران، وسرعان ما ملأت رائحة لحمه السمين الهواء كله، وبدأت احتفاليات الليلة.

كان هناك الكثير من الطعام وارقص والصياح، وفي نهاية الليلة اندهش روود عندما اقتربت منه ديلا.

- «استمع لي الآن يا روود، أنا صديقتك، ولقد عاشرتني مرة من قبل.»

- «لا بل مرتين بالفعل.» قالها بابتسامة حزينة.

- «مرتين! حسنًا، وما أقوله لك الآن، أقوله بدافع صداقتنا، وليس لأجعلك تتألم.»

عبس قائلًا: «ماذا تريدين أن تقولي؟»

تنهدت وقالت: «هناك قصة سمعتها هنا منذ يومين، روتها مجموعة من الجنوب. فهم يقولون إنه على مساحة من أرض مهجورة قرب الساحل، هناك أحد الحمقى يسكن في كهف موجود أعلى الجرف. وفي ذلك الكهف، كما يُقال وكما يدّعي أحد الصيادين، أنه رأى طفلين يعيشان فيه.»

لم يفهم روود: «أطفال ذلك الأحمق؟!»

- «لا، ليسا من الحمقى، إنهما طفلان بشريان. ورآهما الصياد وهو منهمك مع فريسته، من على مسافة. وكما يقول الصياد، إن أحدهما فتاة ربما تكون طويلة جدًّا.» رفعت يدها وقالت: «والآخر ....»

تنفس روود وقال: «فتى. فتى صغير!»

قالت ديلا: «أعتذر لقولي هذا.»

تفهم روود الموقف، وأدركت ديلا أن روود تقبل فقدان طفليه. والآن ها هي قد أشعلت الآلام الباردة للأمل في قلبه الميت مرة أخرى. قال لها بتثاقل: «غدًا سوف تأخذينني إلى هذا الصياد وعندئذ ....»

- «نعم ولكن ليس الليلة.»

وفيما بعد في تلك الليلة الليلاء رقدت أوليث مع روود ولكنه لم يكن مرتاحًا.

همست له قائلة: «سوف يأتي الصباح سريعًا؟ وسوف تغادر.»

قال لها: «نعم، تعالي معي يا أوليث.»

فكرت قليلًا، ثم أومأت برأسها، فلم يكن من الحكمة أن يسافر بمفرده، بالإضافة إلى أنها سمعته يطبق على أسنانه، فلمست فكه وشعرت بعضلاته المشدودة، وقالت له: «ما الأمر؟»

- «إذا كان هناك ذكر أحمق، وإذا ألحق الضرر بهما ....»

قالت أوليث بصوت خفيض: «إن عقلك يذهب بعيدًا. أعط فرصة لجسدك ليستريح ونم الآن.»

ولكن النوم كان مستحيلًا لroوود.

٣

رجع الأحمق إلى الكهف، ورأت جانا أن لديه عجل بحر — الحيوان بالكامل — معلقًا على كتفيه، وكان ذكرًا ثقيلًا وسمينًا. وحتى الآن، وبعد قضاء أسابيع في هذا الكهف فوق الجرف، كانت قوة الأحمق لا تزال تدهشها.

أتى ميلو يجري إلى الداخل، وكانت اللفافة الجلدية التي تشبه لفافة الأحمق تتطاير، وقال: «عجل البحر، عجل البحر، سنأكل الليلة جيدًا!»

واحتضن ساقي الأحمق اللتين تشبهان جذع الشجرة، كما اعتاد أن يحتضن ساقي أبيه. طرحت جانا تلك الأفكار المؤلمة بعيدًا عن ذهنها، فليس لها مكان هنا، ويجب أن تكون قوية.

كان الأحمق يتصبب عرقًا من جراء حمل ذلك الوزن من الشاطئ إلى أعلى الجرف، وحدق في الصبي، ثم أخرج أصواتًا بلعومية من حلقه، وكانت لا تعني شيئًا ... أو على الأقل، كان ذلك في اعتقاد جانا. وأحيانًا كانت تتساءل، هل ما يتفوه به الأحمق كلمات لم تستطع هي إدراكها، يا لها من فكرة غريبة أن يكون للحمقى كلمات.

تقدمت إلى الأمام، وأشارت إلى نهاية الكهف. وأمرته قائلة: «ضع هذا العجل هنا، سوف نذبحه على الفور. انظر، لقد أشعلت النار بالفعل.»

وبالفعل، كانت قد أشعلت النيران. فمنذ أيام أعدت حفرة لاستخدامها كموقد مناسب، وعملت أيضًا على تنظيف بقع الرماد التي كانت منتشرة بعشوائية على الأرضية. وأيضًا نظمت الفوضى التي كانت في الكهف، وكانت خليطًا من بقايا الطعام وأجزاء من الجلود والأدوات، وجميعها مختلطة مع جميع أنواع الفضلات. والآن أصبح الكهف — إلى حد ما — صالحًا للسكن.

كان صالحًا لسكن شخص من البشر، ولم يخطر ببالها أن تتساءل، ماذا يعني مصطلح «يصلح للسكن» للمخلوق الضخم الذي تعتقد أنه من الحمقى.

والآن لم يبدُ على هذا الأحمق أنه سعيد، وكان من غير الممكن التنبؤ بأحواله. أصدر صوتًا مزعجًا، وهو يضع العجل على الأرض. وبعد ذلك وعرقه يتصبب — وكان عرقه قذرًا — وجلده مكسوًّا بملح البحر، تراجع إلى آخر الكهف، لينعم بقيلولة قصيرة، كما كان يفعل دائمًا.

وأخذت جانا وميلو في تقطيع شرائح من لحم العجل الذبيح، الذي كان قد قتل برمح في القلب، ترك فيه ثقبًا واسعًا وقبيحًا وشعرت جانا بالخوف وهي تتخيل المعركة، التي لا بد أن تكون قد سبقت حادثة القتل تلك. إلا أن الصغيرين قاما بعمل جيد من تقطيع وتمزيق عجل البحر، بنصل حجري حاد بين أيديهما الصغيرة، وسرعان ما كانت أولى شرائح ذلك العجل فوق النيران.

وكعادة ذلك الأحمق فقد استيقظ عندما كان اللحم جاهزًا، وأكل الصغيران طعامهما شديد النضج، أما هو فكان يفضله نيئًا أو شبه نيئ، وقد سحب قطعة كبيرة من على النيران وذهب بها إلى مكانه المفضل عند مدخل الكهف، وأخذ يمزق اللحم بأسنانه، في مواجهة الشمس الغاربة. ابتلع الأحمق كمية كبيرة من اللحم، لِنَقُل: ضعف ما يأكله روود، لكنه بذل جهدًا كبيرًا في العمل بعد ذلك، وطوال الوقت.

لقد كان مشهدًا عائليًّا غريبًا، وهذا ما استمرت عليه الحال خلال الأسابيع التي بقيت فيها جانا وميلو في ذلك المكان. وإلى حد ما كان الأمر على ما يرام.

كان يزعج العجوز دائمًا أن يعيش وحيدًا، فقد كان نوعه اجتماعيًّا جدًّا، ولكنه عانى أكثر من مجرد الوحدة. فقد كان عقله من العقول ذات التصميم القديم المقسّم، وكان معظم ما يجول بخاطره داخل جمجمته الكهفية يقوم به بلا وعي، كما لو كانت يداه هما اللتان تصنعان الأدوات الجرانيتية وليس هو. وعندما يكون مع الناس يشعر أنه حي حقًّا وعلى وعي شديد بما يحدث، وإن لم يكن بصحبتهم، بدا كأنه في حلم. وبالنسبة لنوع ذلك العجوز الأفراد الآخرون هم الأذكى، والأكثر نشاطًا في الفضاء حوله. وبدون أفراد آخرين حوله يصبح العالم كئيبًا وثابتًا وبلا حياة.

كان ذلك هو السبب وراء تسامحه مع الصغيرين، بالرغم من ثرثرتهما وتطفلهما، وهو السبب الذي جعله يطعمهما ويلبسهما، وهو السبب الذي سيجعله يواجه الموت سريعًا.

همست جانا: «انظر يا ميلو.» وهي تراقب العجوز لتتأكد من أنه لا يرى، أزاحت بعض الأوساخ جانبًا وكشفت عن مجموعة من العظام السوداء.

تنفس ميلو سريعًا والتقط جمجمة، وكانت ذات وجه ناتئ، وجبهة كبيرة أعلى العينين المتسعتين، ولكنها كانت صغيرة، بل هي أصغر من رأس ميلو نفسه، ربما كانت لطفل صغير. سألها ميلو: «أين وجدتها؟»

همست قائلة: «في الأرض، في مقدمة الكهف عندما كنت أنظفه.»

أسقط ميلو الجمجمة، وأحدثت صوتًا وهي تسقط على العظام الأخرى، فنظر الأحمق بغباء. وهمس ميلو: «إن هذا مخيف، فربما قتل هذا الأحمق الطفل، وربما يأكل الأطفال.»

قالت جانا: «لا، يا لك من سخيف!» ولأنها رأت خوف أخيها حقيقيًّا، طوقته بذراعيها، وأضافت: «ربما قد وضعه فقط في التراب عندما مات.»

لكن ميلو كان يرتعد، ولم تكن جانا تقصد أن تخيفه. فدفعت بالجمجمة بعيدًا عن نظره، وبدأت تحكي له قصة لتهدئته.

- «استمع إليّ: منذ قديم الأزل، كان الناس مثل الموتى، والعالم مظلم، وتعوز أعينهم الحيوية، ويعيشون في معسكرات كما يعيشون الآن، ويقومون بنفس الأشياء التي يقومون بها الآن، ولكن كل شيء كان معتمًا، وليس واقعيًّا كالظلال. ثم جاء إلى ذلك المعسكر في يوم ما شابٌّ، ومثل الموتى، ولكنه مختلف وفضوليّ، وأحب أن يذهب لصيد الأسماك والفرائس، ولكنه فضل دائمًا السباحة في أعماق البحر، أكثر من أي شخص، ولذا تساءل الناس عن السبب ....»

وعندما كانت تقص القصة بصوت خفيض استرخى ميلو أمامها واستغرق في النوم، بينما توارت الشمس خلف المحيط. وحتى الأحمق الضخم غلبه النعاس، وقد رأته يرقد مقابل هذا الجدار، وهو يتجشأ بهدوء، وربما كان يستمع إلى القصة مع ميلو.

كانت تلك القصة أسطورة الخلق وتُحكى منذ أكثر من عشرين ألف سنة مضت، مثل تلك الأساطير — التي تقول إن مجموعة جانا كانت أنجح الخلق وأن طرقهم أفضل الطرق، وأن الآخرين أقل من أن يطلق عليهم بشرًا — تعلم الناس أن يعتنوا على نحو جاد بأنفسهم وعشيرتهم وتعلمهم بعض مثلهم القيمة، على حساب البشر الآخرين فضلًا عن غير الآدميين مثل نوع العجوز.

استطردت تقول: «... وفي أحد الأيام رأوا أن ذلك الشاب يمشي مع أسد البحر، يعوم ويسبح في الأمواج معه، بل يعتني به بعاطفة. وفي لحظة غضب أوقفه الناس عما يفعل وأمسكوا بأسد البحر. ولكن عندما ذبحوه وجدوا سمكة بداخل رحمه، سمكة سمينة.» كانت تعني سمكة اليلقون eulachon. استطردت: «جُعل ذلك الشاب والد تلك السمكة، ومن ثم لم يكن إنسانًا ولا سمكة، ولكنه شيء مختلف. ولذلك ألقى الناس هذا الرجل السمكة في النار، وانفجر رأسه مشتعلًا، مكونًا ضوءًا ساطعًا أبهرهم. وهنا طار الرجل السمكة إلى السماء، وكانت السماء مظلمة بالطبع. فهناك بحث عن المكان الذي يكون الضوء فيه مختبئًا، حيث اعتقد أنه يمكن أن يخدع الضوء لينزل إلى العالم المظلم، وعندئذ ....»

وعندئذٍ دخل أبوها ....

لقد كان العجوز إنسان نياندرتال.

كان نوعه موجودًا في أوروبا خلال تغيرات العصر الثلجي الشديدة مدة ربع مليون سنة. وأثبت أولئك الأقوياء نجاحهم في الحياة على نحو بارز، أوجدوا الوسائل التي تمكنهم من العيش هنا في أكثر البيئات الهامشية على حافة العالم، حيث لم يكن الطقس قاسيًا فحسب، بل يتنوع بسرعة خادعة، وموارد النبات والحيوان زهيدة ومعرضة للتغير بشكل غير متوقع.

وعلى مدار فترة طويلة تمكنوا من مقاومة أبناء ماذر. وخلال فترات الدفء تمكن أولئك البشر الجدد من دخول أوروبا من الجنوب. وبأجسامهم القصيرة القوية الممتلئة وتجاويفهم الكبيرة المدفئة للهواء والأجهزة الهضمية التي تتعامل مع اللحوم بثبات، كان أولئك الأقوياء هم الأفضل، في

القدرة على تحمل البرد أكثر من هؤلاء العصريين. جعلتهم بنياتهم التي تشبه بنية الدببة محاربين مرعبين وأعداء قاسين للبشر، سواء أكانوا ذوي تكنولوجيا أفضل أم لا. وعندما اشتد البرد مرة أخرى تراجع العصريون إلى الجنوب، واستطاع الأقوياء أن يعيدوا تعمير أراضيهم القديمة.

لقد حدث ذلك مرة بعد مرة. ففي جنوب أوروبا والشرق الأوسط كانت هناك كهوف وأماكن أخرى غلفتها طبقات مخلفات البشر ومخلفات إنسان النياندرتال، وسكنها البشر مرة أخرى.

ولكن خلال الذوبان الأخير للثلوج نظر أولئك العصريون مرة أخرى إلى أوروبا وآسيا، وكانوا قد تقدموا ثقافيًّا وتكنولوجيًّا، وفي تلك المرة لم يتمكن الأقوياء من المقاومة. وبالتدريج تم التخلص منهم في معظم آسيا ودُفع بهم إلى حصنهم البارد أوروبا.

كان عمر العجوز عشر سنوات عندما عثر الصيادون النحاف لأول مرة على أهله في مخيمهم.

وكان المخيم مقامًا على ضفة النهر في مواجهة الجنوب، على بُعد بضعة كيلومترات إلى الوراء من قمة الجرف، وبالقرب من آثار القطعان الهائلة لآكلات الأعشاب المهاجرة التي اكتسحت المكان كله. عاش الناس هناك كما كانوا يعيشون دائمًا، منتظرين المواسم لتأتي القطعان إلى أبوابهم، وكانت ضفة النهر مكانًا جيدًا بالفعل.

حتى جاء النحاف.

لم تكن هناك حروب بينهما، ولكنّ الاندماج بينهما كان أكثر تعقيدًا وفوضوية وأطول من الحروب الطبيعية.

ففي البداية كان هناك نوع من المقايضة، حيث قايض النحاف بمنتجات البحر لحوم الحيوانات العملاقة التي تمكن البشر من قتلها برماحهم الطعانة وقواتهم الهائلة. ولكن بدا النحاف يرغبون في المزيد والمزيد، وعندما أتى الصيادون النحاف يتجولون على تلك الأرض برماحهم الغريبة النحيلة، وقطع الأخشاب التي تقذف الرماح بعيدًا، كانوا أقوياء للغاية. وسريعًا ما بدأت الحيوانات تحترس منهم وغيرت من عاداتها، ولم تعد تتبع آثارهم

القديمة وتتجمع عند الأنهار والبرك والبحيرات، وكان على الأقوياء التجول بعيدًا بحثًا عن الفرائس التي كانت من قبل تأتي إليهم.

وفي الوقت نفسه تزايد تواصل أهل العجوز مع النحاف مما لا يدع مجالًا للشك.

أقاموا معًا علاقات جنسية طوعًا أو كرهًا، وكان هناك شجار بينهما؛ فإذا تعارك أحد الأقوياء مع أحد النحاف أمكنه أن يسحق عموده الفقري أو يسحق تلك الجمجمة الكبيرة الهشة بضربة واحدة. ولكن النحاف لم يقتربوا منهم، فهم يضربون من بعيد، من خلال رماحهم التي تُلقى بشدة، وأسهمهم الطائرة، ولم يستطع الأقوياء أن يردوا تلك الضربات، وحتى بعد عشرات الآلاف من المعيشة جنبًا إلى جنب مع النحاف، فإن نسل ببل فشل في محاكاة أبسط ابتكاراتهم. وعلاوة على ذلك حين يجري النحاف يصيح بعضهم لبعض بأصوات كأصوات الطيور — بملابسهم الملونة شديدة التعقيد وأجسامهم المزخرفة، وبسرعتهم الشديدة التي تنم عن قلقهم، كما لو كان العالم بطيئًا جدًّا وثابتًا من حولهم — كان من الصعب حتى أن تلمحهم، ولا يمكنك أن تحارب ما لا يمكنك رؤيته.

وفي النهاية أتى اليوم الذي رغب فيه النحاف في المكان الذي يعيش فيه قوم ذلك العجوز موطنهم على ضفة النهر.

لقد كان ذلك بسيطًا لهم، إذ قتلوا معظم الرجال وبعض النساء، وطاردوا الباقين على قيد الحياة بعيدًا لينتزعوا لأنفسهم أي مكان كلما أمكنهم ذلك. ووقت رجوع العجوز من رحلة استكشافية بمفرده إلى النهر كان أولئك النحاف يحرقون الأكواخ ويبيدون الكهوف؛ الأماكن التي ترقد فيها عظام جدات ذلك العجوز منذ مائة جيل مضى.

وتجول البشر بعد ذلك بلا هدف، وأجبرت المخلوقات المستوطنة على أن تُصبح رحالة. وإذا حاولوا أن يقيموا قاعدة جديدة يهدمها النحاف مرة أخرى سريعًا، ويموت الكثيرون منهم جوعًا.

وفي النهاية انجذبوا إلى مخيمات النحاف، وحتى الآن لا يزال الكثير من نوعه يعيشون هناك، ولكنهم مثل الحمقى الذين تبعوا مخيم جانا، حيث كانوا يعيشون على القاذورات مثل الفئران، وهم الآن كما كانوا سابقًا

طالما تحملهم النحاف، وهكذا فإن مصيرهم كان معروفًا، مصيرهم جميعًا ما عدا العجوز الذي ابتعد عن أماكن النحاف الكئيبة.

ولم يكن آخر جنسه، ولكنه كان آخر من يعيش عيشة أسلافه قبل مجيء العصريين. لقد كان آخر من عاش حرًّا.

وعندما ماتت ماذر، قبل ستين ألف سنة من ميلاد المسيح، كان لا يزال هناك الكثير من الأنواع المختلفة من البشر في العالم. فقد كان هناك عشيرة ماذر الشبيهة بالبشر في أجزاء من أفريقيا. وفي أوروبا وغرب آسيا عاش أقوياء على شاكلة ببل ومثل النياندرتال. وفي شرق آسيا لا يزال هناك مجموعات المشاة النحاف ذوو العقول الصغيرة من ذوي القامة المنتصبة. وظل تعقيد الهومينيد القديم يهيمن على الكثير من السلالات المتنوعة، حتى في الأنواع المهجنة من أنواع مختلفة.

ومن خلال الثورة التي بدأت في جيل ماذر، ومع التوسع الكبير الذي تلا ذلك، تغير كل ذلك. ولم تحدث إبادة جماعية، ولا خُطِّطَ لذلك، وكان التغير مرجعه إلى البيئة؛ حيث تصارعت الأشكال المتنوعة من البشر على نفس الموارد. وفي جميع أنحاء العالم كانت هناك موجة من الانقراضات — البشرية — وموجة من التواصل الأخير، وحالات وداع خالية من الندم، كلما اختفت سلالة هومينيد بعد الأخرى. وإلى وقت معين تشبث آخر المشاة بعزلتهم على الجزر الإندونيسية، وظلوا على قيد الحياة وقتًا طويلًا مثلما فعل فار. ولكن عندما انخفضت مستويات البحر مرة أخرى أُعيد إنشاء الجسور التي تؤدي إلى داخل البلاد وعبر العصريون إليها. وبالنسبة للمشاة، بعد تاريخ طويل وثابت استمر مليوني سنة، انتهى الأمر.

وهكذا ... كانت النتيجة حتمية وسرعان ما كان العالم فارغًا من البشر، فارغًا ما عدا من نوع واحد فقط.

وبعد أن فقد العجوز أسرته هرب من النحاف، وتوجه نحو الغرب، ولكن هناك في ذلك الكهف الساحلي وصل إلى الشاطئ الغربي لأوروبا على حافة المحيط الأطلنطي. وكان المحيط عائقًا لا يمكن تخطيه، ولم يبقَ لديه مكان آخر يذهب إليه.

كانت مقابلة جانا مع العجوز هي التواصل الأخير من نوعه.

بدا روود، وظله منعكس بفعل الغروب، متربًا ومنفعلًا، وكانت بجواره أوليث خالة جانا، وكانت عينا روود متسعتين وهو يستوعب ما رآه في الكهف.

وبالنسبة لجانا بدا الأمر وكأنها استيقظت من كابوس، فأسقطت قطعة الجلد التي كانت تعمل بها، وجرت إلى الأمام عبر أرضية الكهف الذي بدا فجأة قذرًا وفوضويًّا، وألقت بنفسها بين ذراعي أبيها، وبكت مثل طفلة صغيرة، في حين ربّت روود بيديه بتردد على لفافة الحمقى البسيطة التي ترتديها.

وهنا استيقظ الأحمق، وقد ظهر عليه ظلا الاثنين يعكسهما شعاع غروب الشمس. فرفع يديه ليحجب الشعاع عن عينيه، وعندئذ — وعيناه غائمتان من النوم وجسمه ثقيل من أكل اللحم — جاهد ليقف على قدميه وهو يصدر صوتًا عاليًا.

دفع روود بالصغيرين إلى أوليث التي أمسكت بهما، ثم رفع حصاة ليقذفها تجاه جمجمة ذلك الأحمق المناضل.

وصرخت جانا: «لا» وقد قاومت لتحرر نفسها من أوليث وأمسكت بيد أبيها.

حملق فيها روود، وأدركت هي أن عليها الاختيار.

وفكرت جانا في الأمر في لمح البصر؛ تذكرت العجول وبلح البحر والنيران التي كانت توقدها، ونظرت إلى ذلك الجبين القبيح كثير الكتل. وتركت ذراع أبيها.

ترك روود يده ترمي الحصاة، وكانت ضربة قوية سقط على إثرها الأحمق، ولكن جماجم الحمقى غليظة وخُيل إلى جانا أن العجوز سيستطيع الوقوف، ويستمر في العراك الآن، ولكنه لم يفعل، وبين أوساخ كهفه ظل جاثيًا على يديه وركبتيه.

استغرق الأمر أربع أو خمس ضربات، قبل أن يصيب روود جمجمته. وقبل الضربة الأخيرة بوقت طويل استدارت جانا بعيدًا.

مكثوا في الكهف ليلةً أخرى مع الأحمق المسجى على الأرض، وقد سالت دماؤه خلف جمجمته المسحوقة. وفي الصباح أكلوا ما تبقى من لحم العجل

واستعدوا لرحلة العودة، ولكن قبل أن يغادروا أصرت جانا على حفر حفرة واسعة في الأرض ولكنها ضحلة، ثم وضعت في تلك الحفرة عظام الطفل التي وجدتها، وجثة الأحمق الضخمة، ثم أعادت التراب إلى الحفرة مرة أخرى وداستها بقدميها.

وبعد أن ذهبوا أتت طيور النورس، ونقرت في قطع لحم العجل، وبقع الدم الجاف في مدخل الكهف المواجه للبحر.

الفصل الرابع عشر

الاحتشاد

الأناضول، تركيا، منذ قرابة تسعة آلاف وستمائة سنة قبل عصرنا الحالي.

١

كانت الأختان تأكلان بتأنٍّ بذور الحبوب البرية، وهما مستلقيتان جنبًا إلى جنب.

قالت سيون: «إذن، فأنت تميلين إلى توري أكثر من جايبي.»

أزاحت جونا، ذات الستة عشر ربيعًا، شعرها الأشقر اللامع من فوق عينيها وهي تصغر أختها بسنة واحدة، وقالت بحذر: «ربما، وأعتقد أنه يميل إليّ أكثر مما يحبني جايبي.»

- «ولكنك قلتِ إن توري قزم، وإنك تحبين شعر جايبي وهو يتطاير أثناء جريه، وأيضًا يعجبك فخذاه الممتلئتان و....»

قالت جونا — بعدم ارتياح: «أعرف جيدًا ما قلت، ولكن توري يمتلك ....»

- «مقومات ذكرية أفضل؟»

ردت جونا بعنف: «يمتلك شخصية أفضل.»

انطلقت ضحكة سيون الرنانة وترددت في المكان، وكان هناك كلب نائم في ظل كوخ الرجال، كلف نفسه عناء فتح عين واحدة ليتفحص مصدر هذا الإزعاج، ثم استأنف نومه مرة أخرى.

كان غبار القرية يحيط بالفتاتين، وشكل كوخ الرجال المنهار يهيمن على المكان، وهو مبنى متداع من الخشب والخيزران. وأكواخ النساء توابع أصغر

للكوخ العملاق البدائي. وأعلن شخيرٌ من داخل كوخ الرجال للفتاتين أن الشامان نائم، بعد ليلة أخرى مليئة بالرؤى ومترعة بالجعة. ولم يكن هناك أحد يتحرك! لا الكلاب ولا الكبار، ومعظم الرجال في الخارج يصطادون، بينما النساء ينعسن في أكواخهن مع أطفالهن الرضع، ولم يكن هناك أي أطفال في الجوار.

رشت سيون بعض الشمر المطحون على حبوبها. وكان الزيت العطري لنبات الشمر أداة دفاعية أخرجها النبات في الحقبة التي سبقت موت الديناصورات. وكان المقصود منه أن يجعل الأوراق أكثر مراوغةً لسيقان الحشرات القارضة المثقبة. والآن أعطت فروع النبات التطورية القديمة نكهة لوجبة سيون الخفيفة. قالت سيون: «أنت تمزحين جونا، أنا أحبك يا عزيزتي، ولكنك أكثر شخص ساذج أعرفه. فمنذ متى كانت الشخصية تشكل لك شيئًا مهمًّا؟»

وشعرت جونا بوجهها يشتعل من الإحراج.

- «آه ... هناك شيء ما، لم تخبريني به»، تفرست سيون في وجه جونا مثل تفرس الصياد الخبير لفريسته وقالت: «هل كانت بينكما علاقة حميمة؟»

أجابت جونا بحدة: «لا.»

كانت سيون لا تزال متشككة: «لم أعتقد أن توري كانت له علاقة حميمة مع أحد حتى الآن، باستثناء أكتا بالطبع.» كان أكتا أحد أكبر الرجال سنًّا — بغض النظر عن أنه أكثرهم بدانة — إلا أنه استمر في إثبات قوته، في قيادته الماكرة للصيد، واستمر في التأكيد على حقوقه على الأولاد والشباب: «أنا أعرف أن توري قد فاض به الكيل، من اضطراره لتحمل معاشرة أكتا الكريهة له؛ هذا ما أخبرني به جايبي! وقريبًا سوف يرغب في أن يكون له علاقة مع امرأة، ولكن ليس الآن ....»

وهنا لم تستطع جونا أن تنظر في عين أختها، حيث إن الحقيقة أنها بالفعل مارست علاقة حميمة مع توري كما كانت سيون تشك. وكان هذا في الخارج في الأجمة، مع توري بكل تباهٍ في ليلة مترعة بالجعة، ولم تكن تعرف لماذا تركته يفعل ذلك معها، ولم تكن حتى متأكدة أنه قد فعل ذلك

بالطريقة الصحيحة، وكانت تواقة لأن تخبر أختها بكل شيء — كيف توقف النزيف، وكيف أنها الآن تشعر بحياة جديدة تتحرك بداخلها — ولكن كيف يمكنها قول ذلك؟ كانت تلك أوقاتًا عصيبة، ولم يكن ذلك وقتًا مناسبًا لأن تنجب طفلًا من ذلك الصبي الضعيف. إنها لم تخبر توري نفسه حتى الآن، ولم تخبر حتى والدتها بيبيول التي كانت تنتظر طفلًا هي الأخرى.

- «سيون، أنا ....»

عند هذه اللحظة وضع شخص يده على ذراعها، يدًا دافئة وثقيلة، ونفس معطر بأنواع توابل غير مألوفة. «مرحبًا يا فتاتان، ماذا يدور في خلدكما؟» تحاشته جونا وسحبت ذراعها بعيدًا.

كان ذلك هو كال رجل الجعة، ضخم الجثة، وأكثر بدانة من أكتا ويرتدي ملابس مقيدة غريبة: سترة وسروالًا ضيقين، وحذاء جلديًّا ثقيلًا، وقبعة محشوة بالقش، وعلى ظهره قربة جلدية ثقيلة مليئة بالمزر، وهو نوع من الجعة، ترجرجت بينما يجلس القرفصاء بجوارهما. وكان وجهه محفورًا مثل التربة بعد المطر، وأسنانه بنية اللون مكسورة وقبيحة. لكن نظرته وهو يبتسم في وجه جونا تعبر عن حدة الجوارح وشراستها.

حدقت فيه سيون وقالت: «لماذا لا تعود من حيث أتيت؟ لا أحد هنا يرغب في وجودك.»

تجهم لحظة وحاول بجهد أن يفهم ما قالته، إذ إن لغته تختلف عن لغتهما. وكان الاعتقاد السائد أن كال وقبيلته أتوا من مكان ما في أقصى الشرق، وهم يحملون لغتهم ولهجتهم الغريبة معهم. وقال أخيرًا: «أوه، فالكثيرون يرغبون في وجودي هنا، وبعضهم يصرون على وجودي. ولسوف تندهشين لما قد يعطيه لي الناس مقابل ما يمكنني أن أعطيه لهم.» ثم نظر إليهما بشهوانية مرة أخرى، مظهرًا فمًا مليئًا بالأسنان البنية القبيحة، وقال لجونا: «ربما ينبغي أن نتحدث عن ذلك أنا وأنت، ربما ينبغي علينا أن نجد ما يمكن أن يقدمه كلٌّ منا للآخر.»

قالت جونا — مرتعشة حانقة: «ابتعد عني.»

ولكن كال ظل يحملق فيها بنظرة الثعبان القاسية الحادة.

شعرت بالراحة عندما سمعت وقع خطوات الرجال العائدين، ساحقة أقدامهم العارية الأرض من أسفلهم، وأجسامهم مغطاة بالأتربة، وقد علا ملامحهم الضجر بشكل واضح. ولاحظت جونا أن الاثني عشر رجلًا عادوا مرة أخرى إلى منازلهم خاليي الوفاض، إلا من بعض الجرذان والأرانب لأن الفرائس الكبيرة كانت نادرة جدًّا.

كان ذراع أكتا — الرجل المسن — معلقًا على كتفي توري. ولم ترغب جونا أن تتلاقى عيناها بعيني الفتي النحيل. ومع ذلك فقد كانت تواقة لمعرفة فيما كان يفكر، وماذا سيكون رد فعله إذا أخبرته بما حدث نتيجة معاشرتهما الغبية.

ابتعد كال عن الفتاتين ونهض رافعًا قربته المليئة بالجعة على رأسه قائلًا: «أهلًا بالصيادين.»

سار أكتا مسرعًا ناحيته، ولسانه يتدلى مثل الكلب، وكأن هذه القربة المتدلية تحتوي على الشراب الوحيد في العالم، وقال: «كال، يا صديقي — أتمنى لو تمكث هنا دائمًا، لأنك أفضل من هذا الشامان الساحر المسن الأحمق الذي يجلس في الكوخ.»

شهقت سيون عند سماعها تلك الألفاظ الدالة على الكفر.

قدم إليه كال قربة الجعة قائلًا: «تبدو وكأنك تحتاج إليها.»

اختطفها أكتا واحتضنها، ولكن ظهرت آثار مكره القديم في عينيه العميقتين اللتين تشبهان عيني الخنزير، وقال: «وماذا عن الدفع؟ يمكنك رؤية حالنا. ليس لدينا إلا القليل من اللحم لأنفسنا. ولكن ....»

قال كال بهدوء: «ولكن سوف تأخذ الجعة على أي حال، أليس كذلك؟» وظل يحدق فيه حتى اضطر أكتا إلى خفض نظرته. وغمغم بعض الرجال بعدم ارتياح لهذا الضعف. ولكن ما قاله كال كان حقيقيًّا بكل وضوح. وضرب كال على كتف أكتا بمودة قائلًا: «سنتحدث عن ذلك فيما بعد. اذهب واسترح في الظل. أما أنا ....»

غمغم أكتا وهو يحملق في الجعة قائلًا: «خذها، وافعل ما تشاء» ومشى متثاقلًا إلى كوخ الرجال. وألقى الصيادون الآخرون بصيدهم خارج أكواخ

النساء، وتبعوا أكتا متلهفين للمشاركة في شرب الجعة. وسرعان ما سمعت جونا صوت الشامان الذي كانت رائحة الجعة النتنة تنعشه.

رجع كال إلى الفتاتين وهز رأسه وقال: «إن في موطني مثل هذا الفاسق الأخرق يُنبذ.»

شعرت سيون بوخزة نتيجة لهذه الإهانة الجديدة، وقالت: «يعيش الفتيان مع الرجال في أكواخهم وهذا مكان للحكمة، حيث يتعلم الفتية كيف يصبحون رجالًا. وكل رجل لديه منزل صغير لزوجته وفتياته وأبنائه الرضع. هذه هي عادتنا، كانت دائمًا هي عادتنا.»

قال كال بفظاظة: «قد تكون هذه عادتكم ولكنها ليست عادتي.»

أُثير فضول جونا على إثر ذلك.

الشيء الوحيد الذي يعرفه أي شخص عن الناس الجدد، بالإضافة إلى قدرتهم الرائعة على صنع الجعة، هو أنهم كثيرون، كثيرون جدًّا. وقد تهامست بعض النساء، بأنه ليس هناك طفل — أيٌّ طفل على الإطلاق — يُنبذ بين الغرباء، وهذا يوضح لماذا يوجد الكثير منهم، على الرغم من أنه ليس هناك لدى أي أحد أدنى فكرة عن كيف يطعمون أنفسهم. ربما لا تزال في أوديتهم وسهولهم حيوانات تتحرك في قطعان عظيمة، مثلما كانت الحال في الأيام السالفة، في عصر الأساطير.

سألت سيون بهدوء: «من؟»

- «من؟»

قالت سيون: «قال أكتا: خذها ... يأخذ من؟»

قال كال: «زوجته بيبيول — آه — أستطيع أن أفهم لماذا أنتما مهتمتان بذلك، فأكتا ليس أباكما ولكن بيبيول أمكما. أليس كذلك؟»

وابتسم ابتسامة عريضة محملقًا في وجه جونا بشدة وأضاف: «وهذا سوف يزيد شوقي إليكِ، فعندما أضاجعها سوف أفكر فيك أيتها الصغيرة.»

قالت سيون ببرود: «إن بيبيول حامل.»

فابتسم قائلًا: «أعرف ذلك، فأنا أحبهن بهذه البطون الكبيرة.» وبنظرة فاحصة تحول بنظره ناحية جونا، ثم أخذ حفنة من الذرة المطحونة من الهون الخاص بها، ومشى ناحية كوخ أمهما.

تركت جونا الرجال مع شرابهم، وهي خائفة ومستاءة. وتجولت في البلدة مع جدتها شيب، التي كانت على مشارف الستين من العمر، وتتحرك بحذر، ولكنها طوال حياتها تجنبت التعرض للجروح والأمراض الخطيرة ولا تزال رشيقة.

عاش الناس على هضبة مرتفعة، وكانت الأرض جافة ومنبسطة، وليس بها ما يميزها. والنباتات تتشبث بجذور عميقة بسطح الأرض تبحث عن الماء. هناك ينابيع وأنهار ولكنها تتدفق بكميات ضعيفة بين الضفاف القوية. وبدا على الناس الجوع الشديد وبدوا بقايا لما اندثر.

تحركت النساء عرايا ويحملن حبالًا طويلة ورماحًا صغيرة ذات حواف حجرية صغيرة، من مكان إلى آخر، وكنّ ينصبْنَ أو يتفقدنَ مصائد الصيد الصغير التي توفر الأسس الرئيسة لغذاء الناس. وكنّ سيندهشن إذا ما استطعنَ رؤية القطعان الهائلة، من آكلات الأعشاب، التي تبعتها جانا وعشيرتها ذات مرة. هذا على الرغم من القصص الشعبية التي روت أيامًا أكثر ثراءً فيما مضى.

تساءلت جونا: «لماذا يشرب الرجال الجعة؟ إنها تجعلهم أغبياء وقبيحين وترغمهم على أن يلجئوا إلى هذا الوغد كال. إذا كانوا مضطرين لتناول الجعة فيجب عليهم أن يصنعوها بأنفسهم. سيكونون حمقى بالمثل، ولكن على الأقل سيضطر كال إلى الرحيل.»

تنهدت شيب قائلة: «ليس هذا بالأمر البسيط، لا يمكننا صنع الجعة. فلا يعرف أحد كيف يقوم بذلك، ولا حتى ذلك الشامان، إنه سر يحتفظ به قوم كال لأنفسهم.»

«وعندما يصبح الرجال حمقى لا يستطيعون الصيد، وكل ما يفكرون فيه هو الجعة، وهي كل ما يرونه.»

هزت شيب رأسها: «لن أجادلك في ذلك يا طفلتي. إن والدي لم يشرب الجعة مطلقًا، ولم نسمع عنها أبدًا في تلك الأيام، وكان صيادًا ماهرًا ... انظري إلى هذا الأرنب القريب.»

تحسست جونا أجزاء الأرنب على نحو ملائم وضغطت عليه لترى مدى طزاجته. كانت في حاجة ملحة للتحدث عن توري.

ولكن شيب لديها ما تقوله قالت: «إنني أتذكر عندما كنت في عمرك، أمطرت السماء ذات مرة، كما لو كانت السماء قد انشقت وانهمر منها الماء، يومًا بعد يوم، وتحولت الأرض إلى وحل حتى وصل إلى أعلى رُكبنا، وملأت المياه هذا الوادي، ولكنه ليس هذا المجرى الموحل الذي ترينه الآن، على طول الطريق إلى أعلى الضفة، انظري كيف أن الحافة متآكلة!» وبالفعل، لو نظرت جونا بإمعان لاستطاعت أن ترى كيف تآكلت الضفة أعلى مستوى الماء الحالي.

ولكن ماذا الآن؟ ربتت جونا على بطنها بذهن شارد. فقد كانت قصص جدتها عن العواصف الممطرة، والأرض التي تحولت إلى وحل، ثم تتبعها أزهار متفتحة، مثل الرؤى السحرية للشامان، وكان ذلك لا يعني شيئًا لها، فماذا يعني المطر والأنهار مقارنة بما ينمو داخلها؟

صفعت جدتها رأسها بخفة فأجفلت جونا، وعبست شيب مما جعل تجاعيدها تزداد عمقًا وقالت: «إنصاتك إليَّ سوف يفيدك أيتها الطفلة الحمقاء. أتَذكّر كيف كانت الحال في آخر مرة نزل فيها المطر، وأتَذكر كيف تعايشنا مع المطر، وكيف انتقلنا إلى الأرض العالية، وكيف استطعنا عبور النهر. وربما لن أعيش لأرى الأمطار مرة أخرى، كما كانت من قبل، ولكن ربما سوف تعيشين لترينها وسوف يبقيك ما قلته لك اليوم على قيد الحياة.»

شعرت جونا بصحة ما قالته جدتها حيث كان المسنون يُعتنى بهم اعتناءً كبيرًا. فقبل وفاة والدة شيب رأت جونا شيب تمضغ الطعام للأم حتى يصبح طريًّا، وتضعه لها في إناء. ففي هذا المجتمع الأمي يعتبر كبار السن منابع للحكمة والخبرة، والآن قررت شيب أن تجعل حفيدتها تستمع إليها.

ولكن جونا اليوم لم تكن مهيأة لمعرفة درس عن التواضع. وحاولت أن تنظر إليها متحدية وممتعضة، ولكنها انهارت أمام نظرات شيب الضارية، وقالت: «آه شيب.» وبكت فجأة وبسهولة، وأسندت رأسها على كتف شيب وتركت دموعها تتساقط على الأرض الجافة.

- «أخبريني، ما الذي يمكن أن يكون بهذا السوء ويحزنك؟»

استمعت شيب بهدوء لما قالته لها، وسألت أسئلة محددة: من الأب؟ وكيف اقترب منها؟ أو اقتربت هي منه؟ ولماذا اختارت أن تحمل الآن؟ وبدت مستاءة بشدة مما حدث مرجعةً إياه إلى عبث طفولي. واستجابةَ لأسئلة شيب المؤلمة قالت: «شيب، ماذا عليّ أن أفعل؟» والآن لم تقل شيب شيئًا، ولكن جونا اعتقدت أنها ترى مصير مستقبلها الصعب في الخطوط الحزينة التي تعلو ملامح شيب.

ثم سمعا عويلًا يأتي من ناحية القرية، وأخذت جونا بذراع جدتها، وساعدتها لتسرع إلى المنزل.

اتضح أنه صوت بيبيول والدة جونا وابنة شيب التي جاءها مخاض الولادة مبكرًا.

وعندما دخلت جونا المخيم مع شيب رأت رجل الجعة كال يمشي جهة الشرق راجعًا إلى منزله الغامض. وهو يحمل حقيبة ممتلئة بالبضائع على ذراعه، متجاهلًا صيحات المخاض لهذه المرأة التي ضاجعها صباح هذا اليوم، وحملقت جونا بعدائية كبيرة فيه وهو عائد إلى منزله.

وفي كوخ بيبيول، كانت سيون موجودة بالإضافة إلى الكثير من النساء القريبات. وهرعت جونا إلى جوار بيبيول وتحولت عينا بيبيول الغائمتان المليئتان بالألم ناحية ابنتها، وأمسكت بيد جونا، ورأت جونا كدمة من أثر قبضة يد رجل على كتف أمها.

وكما كانت عادتهن أقامت النساء إطارًا من الخشب لتتشبث به بيبيول وتجلس عليه القرفصاء، بينما ترطب الأخريات الأرض تحت بيبيول لتصبح طرية، وكن يحفرن حفرة ضحلة بالقرب منها، وظهرت رائحة نفاذة من القيء والدماء.

شهدت جونا حالات كثيرة من الولادة قبل ذلك وساعدت فيها، ولكنها لم تشارك أبدًا في تحمل مثل ذلك الألم وهي تحمل عِبأها داخلها.

على الأقل كانت هذه الولادة سريعة، وخرج الطفل بسهولة بين ذراعي إحدى أخوات بيبيول. وبحركة سريعة واثقة قطعت الحبل السري وربطته بقوة، ومسحت السائل الناتج عن الولادة بقطعة من الجلد. وعندئذ تجمعت

النساء المتقدمات في العمر، ومن بينهن شيب، حول الطفل يشاهدنه عن قرب ويتفحصنّ أطرافه ووجهه.

وغمرت وجه جونا فرحة مفاجئة وغير متوقعة وقالت لبيبيول: «إنه ولد، ويبدو جميلًا ....»

وحملقت أمها فيها بوجه خال من أي تعبير ثم التفتت بعيدًا. وسمعت جونا همهمة تصدر عن النساء الممسكات بالطفل، وقد حدق بعضهن في جونا بعدم رضا.

رأت جونا ما كن يفعلنه، إذ وضعن الطفل على الأرض وهو يتنفس بوهن. ورأت جونا أن لديه خصلات من الشعر الأشقر، ملتصقة بفروة رأسه من جراء سائل الولادة. وأمسكت شقيقة بيبيول بعصا ودفعت الطفل إلى الحفرة التي حفرها النساء، كما لو كانت تدفع قطعًا من اللحم الفاسد، ثم بدأت النساء في ملء الحفرة. وسقطت أول حفنة تراب على وجه الطفل البريء غير المدرك.

صرخت جونا وهي تندفع إلى الأمام: «لا.»

وبقوة مفاجئة أمسكتها شيب من كتفيها، ثم دفعتها إلى الخلف قائلة: «لا بد من فعل ذلك.»

وقاومت جونا: «إنه سليم وبصحة جيدة.»

قالت شيب: «هذا ليس شخصًا ... الكبار فقط يُطلق عليهم أشخاص وهذا الطفل لا يُعتبر شخصًا بعد، ولن يكون أبدًا.»

- «ولكن بيبيول ....»

- «انظري إليها، انظري يا جونا، إنها ليست مجروحة، وليست حزينة، وتلك هي العادة، فهي لا تشعر بأي عاطفة نحو الطفل، ولا حتى في اللحظات القليلة الأولى عندما اتّخاذَ القرار. إذا كان سيعيش ليصبح شخصًا فسوف تصبح الروابط وثيقة بالطبع بينهما، ولكن ليس هناك وجود الآن لأي روابط، والآن لن تكون هناك روابط بالمرة.»

وهكذا ....

سعلت بيبيول وبدت مرهقة ومريضة. وفكرت جونا في كال الذي ضاجع أمها منذ ساعات وتساءلت عن أي مرض جاء به إليها!

وما زالت شيب تتحدث معها.

وفي النهاية أسقطت جونا رأسها قائلة: «ولكن الطفل بصحة جيدة». وتهامست: «إنه سليم.»

تنهدت شيب: «ألا ترين يا صغيرتي أننا لن نستطيع إطعامه، مهما كان سليمًا، فليس هذا بالوقت المناسب لهذا الطفل، ليس لبيبيول على أي حال.»

رفعت جونا رأسها وتهامست: «وماذا عني؟ ماذا سيحدث لي؟ وماذا لطفلي؟»

بدا القلق على عيني شيب.

استدارت جونا وجرت مبتعدة عن الكوخ، برائحته النتنة للدماء والفضلات واللبن عديم النفع.

جلست الأختان تتهامسان في أحد أركان المخيم الصغير الذي شيدتاه لنفسيهما وهما طفلتان.

وحكت جونا لسيون كل شيء.

قالت جونا: «لا بد أن أرحل، وتوصلت إلى ذلك في اللحظة التي ألقين فيها بالطفل في الحفرة. إن بيبيول قوية وذات خبرة، ولكنني لا زلت طفلة. وأكتا مع — سُكره — لا يزال بجوارها. ولا يعرف توري حتى الآن أن طفلي هو طفله. ولو أن طفلها قد ألقي في الحفرة، فماذا عن طفلي أنا؟»

وفي الظلام والتراب هزت سيون رأسها وقالت: «لا ينبغي أن تتحدثي هكذا. لقد كانت شيب على حق، فلم يكن المولود شخصًا بعد، فإنه حتى لم يكن له اسم.»

- «لقد قتلوه.»

- «لا، لم يكن باستطاعتهن تركه على قيد الحياة، حيث إننا إذا تركنا جميع المواليد أحياء فلن يكون هناك ما يكفي من الطعام، وهذا سيقتلنا جميعًا. وأنت تدركين حقيقة ذلك. ليس هناك ما يمكن عمله سوى ذلك.»

لقد كانت حكمة قديمة غُرست فيهم منذ ميلادهم، وصدى عشرات الألفيات لإعاشة البشر. فكان على جوون وليدا أن يواجهاها، وكذلك قوم

روود، كان ذلك هو الثمن الذي يُدفع. ولكن كان هذا ثمنًا باهظًا للبعض في كل جيل.

قالت جونا: «لا يعنيني هذا.»

وأمسكت سيون بيد أختها وقالت: «لا يمكنك مغادرتنا، لا بد أن تضعي طفلك هنا، واتركي النساء وقتها يأتين إليكِ، وإن قررن أن الوقت غير مناسب ....»

قالت جونا وهي بائسة: «ولكنني لست مثل بيبيول، ولن أكون قادرة على التخلي عنه، أعرف ذلك.» ونظرت إلى وجه أختها الحزين وقالت: «هل أنا مخطئة؟ لماذا لست قوية مثل أمِّنا؟ يبدو أنني أحب طفلي، حتى الآن أحبه، بنفس قوة حب بيبيول لك ولي، وأعرف أنهن إن أخذنه مني فعندئذ قد أتبعه إلى تلك الحفرة، لأنني لن أستطيع العيش بدونه.»

قالت سيون: «لا تتحدثي بهذه الطريقة.»

قالت جونا محاولة أن تبدو أقوى: «سوف أغادر في الصباح، وسوف آخذ رمحًا، وهذا كل ما أحتاجه.»

- «وإلى أين ستذهبين، فلا يمكنك العيش بمفردك. وبالطبع كذلك وأنت تحملين طفلًا رضيعًا. فأي مكان ستذهبين إليه سوف يرميك الناس بالأحجار، وأنت تعرفين هذا، ونحن سنفعل نفس الشيء.»

فكرت جونا أن هناك مكانًا واحدًا كان الناس فيه مختلفين، على الأقل فهم لا يقتلون أطفالهم، ولن يطردوها منه.

- «تعالي معي يا سيون رجاء.»

جفت عينا سيون وانسحبت إلى الوراء، وقالت: «لا، إذا أردت أن تقتلي نفسك فأنا أحترم اختيارك، لكنني لن أموت معك.»

- «إذن لم يعد هناك شيء ليقال.»

لم تحمل معها سوى رمح وقاذفه، وارتدت لباسًا بسيطًا من جلد الماعز المصبوغ، وبدأت تهرول بسهولة، وقطعت مسافة كبيرة من الأرض بسرعة، على الرغم من العبء الثقيل الذي تحمله في بطنها.

كانت الأرض جافة وكانت آثار أقدام كال واضحة. وهنا وهناك وجدت بقايا آثار بوله شبه الجاف على الصخور، وفضلاته الصلبة الملفوفة؛ فتقفي أثرِ رجال الجعة، كما يبدو، ليس بالشيء الصعب.

وحتى بعيدًا عن القرية، أبعد مما اعتاد الصيادون التجول، كانت الأرض خالية.

بعد زمن جانا تراجع الثلج فترة طويلة إلى القطب الشمالي، واتجهت غابات الصنوبر إلى الشمال لتُخَضِّر التندرا القديمة. وعبر العالم القديم انتشر الناس من ملاجئهم التي عاشوا فيها الشتاء العظيم، ناحية الجزر التي يسودها الدفء النسبي، في البلقان وأكرانيا وإسبانيا. وسرعان ما بدأ أطفالهم في اللعب في السهول الهائلة المهجورة في أوروبا وآسيا.

ولكن الأشياء لم تكن كما كانت عليه وقت تراجع الجليد آخر مرة.

ففي أستراليا، منذ خطا إجان أول خطواته، استغرق الأمر خمسة آلاف سنة ليتحقق انقراض الحيوانات العظيمة لتلك الحقبة، كالكانجرو والزواحف والطيور، والآن في كل مكان يذهب إليه الناس تتشابه النماذج والأنماط ....

في شمال أمريكا كانت هناك حيوانات الكسلان الأرضي sloth في حجم وحيد القرن، والجمال العملاقة والبيسون bison ذوو القرون الحادة مستدقة الأطراف، التي يزيد طولها عن طول المسافة بين ذراعي إنسان من طرف إلى الآخر. كانت تلك المخلوقات الضخمة فريسة لنمور اليغور الأمريكية jaguar، والنمور ذات الأسنان الحادة، والذئاب المرعبة ذات الأسنان القادرة على طحن العظام، والدببة الشنيعة ذات الوجوه الصغيرة. وبدت المروج الأمريكية كسهل سيرنجيتي Serengeti الأفريقي في الأوقات اللاحقة.

وعندما سار البشر الأوائل من آسيا إلى ألاسكا انقرض ذلك الاحتشاد الحيواني الرائع، وفُقد سبعة من عشرة فصائل حيوانية كبرى في غضون قرون، وحتى الجياد الأصيلة لم يعد لها وجود. أما المخلوقات الباقية، مثل غزلان المسك والثيران والبيسون والموظ moose والأيل، فكانت مثل البشر المهاجرين من آسيا ومعهم تاريخ طويل من تعلم كيفية البقاء في عالم يملكه البشر.

وبالمثل في أمريكا الجنوبية، فحين سار البشر عبر برزخ بنما قُضي على ثمانية من عشرة فصائل حيوانية كبيرة، وقد حدث ذلك عبر السهول العظيمة من أوراسيا أيضًا، حتى إن الماموث تلاشى وبذلك تلاشت جميع الحيوانات الضخمة مثل الضباب.

ولم يحدث التدمير والخطر دائمًا نسبة إلى حجم الإقليم الذي يشغله الحيوانات، ففي نيوزيلندا حيث لا يوجد من الثدييات إلا الخفافيش لعب التطور دورًا مهمًا في تفاعل الثدييات مع باقي المخلوقات، وخاصة الطيور، حيث كان يوجد نوعٌ من الإوز الذي لا يطير بدلًا من الأرانب، وطيور مغردة صغيرة بدلًا من الفئران، ونسور عملاقة بدلًا من النمور، وسبع عشرة فصيلة مختلفة من فصائل طيور الموا والطيور العملاقة التي لا تطير وكائنات أخرى مخيفة شبيهة بالظباء. والحيوانات الفريدة الخاصة بإقليم معين، مثل الحيوانات الموجودة على كوكب غريب، انقرضت جميعها في غضون بضع مئات من السنين من استيطان البشر، وليس دائمًا بسبب البشر فحسب، ولكن أيضًا بسبب المخلوقات التي جلبوها معهم، وخاصة الفئران التي أغارت على أعشاش الطيور القاطنة على الأرض.

وعاشت تلك الحيوانات — جميعها — تحت ضغط من الطقس سريع التغير في نهاية الجليد، ولكن معظم الفصائل القديمة عاشت في ظل ظروف متغيرة شبيهة بما قبل. والاختلاف في تلك المرة هو وجود البشر، ولم يكن هناك حرب خاطفة كبيرة، فقد اتسم الناس بعدم العقلانية مثلهم مثل الصيادين، والصيد الضخم ساهم فقط في طعامهم بنسبة صغيرة. اعتقدت الكثير من المجتمعات مثل قبيلة جانا أنهم لا يمسون الحيوانات بسوء إلا قليلًا، ولكن بالضغط على تلك الحيوانات في وقت كانت فيه غير حصينة، وبالقتل والإبادة الانتقائية للصغار، وتدمير مواطنهم، وأخذ مكونات أساسية من الطعام الذي كان يُدعّم مجتمعات من المخلوقات، فإنهم تسببوا في حدوث تدمير هائل. وفي أفريقيا فقط — حيث تطورت الحيوانات بجانب البشر واستغرقت ما يكفي من الوقت للتكيف مع طرقهم — حوفظ على ما يشبه التنوع القديم في العصر الحديث.

اختفت جنة روود شديدة البرودة منذ وقت طويل، وتقلصت ببشاعة ونتج عنها عالم خالٍ له صدى، مشى فيه الناس وكأنهم متحيرون، متناسين سريعًا أن الوحوش الضخمة المذهلة والأنواع المختلفة من البشر كانت موجودة.

ولا يزال الناس يعيشون اعتمادًا على الصيد وجمع الطعام بالطبع، ولكن تبين أن صيد ظبي وخنزير في الغابات أصعب كثيرًا من التربص لحيوان الرنة ومهاجمته وهو يعبر الأنهار إلى البادية المفتوحة. وبعد الانقراض أصبحت الحياة عشوائية مقارنةً بما كانت عليه في الماضي في ظل وجود طعام ذي جودة أقل ووقت فراغ أقصر. لقد تنقلت ثقافة الشعوب في جميع أنحاء العالم وأصبحت أبسط.

وربما أدركوا في أعماقهم أنه كان هناك شيء خطأ، ولكنهم الآن يواجهون تحديات جديدة.

استغرقت جونا في سفرها نصف يوم فقط حتى وجدت كال، وكان يتمدد في ظل الجرف العالي من الحجر الرملي المتآكل، وهو يأكل الجذور. وكانت اللحوم والمصنوعات الصدفية والعظمية التي أخذها من الناس ملقاة على الوحل بجواره.

رآها عندما اقتربت وعيناها تلمعان في الظل وقال بنعومة: «حسنًا، يا ذات الرأس الذهبي الصغير.»

لم تفهم كلمة «ذهبي» وقد تباطأت عندما اقتربت مرتاعة من نظرته المحملقة فيها.

وقف على قدميه بحماقة، وكان منتفخ البطن فوق قميصه الجلدي. وقال: «يا لكِ من أرنب خائف. انظري لقد قطعتِ كل هذا الطريق لتجديني وليس العكس. إنني ألاحظ أنني مهما كنت منفرًا فإنك لن تهربي بعد الآن، وإلا فلماذا أنت هنا الآن؟»

وقفت صامتة تحملق فيه، وبدا عقلها خاليًا من أي أفكار، كأن صخرة عظيمة سقطت عليها ودفعتها على الأرض. وعلى الرغم من أنها قد تدربت على هذه المواجهة وتخيلت أنها يمكن أن تتحكم في الموقف وتعلن طلباتها، فإن هذا لم يحدث كما كانت تخطط له.

قال لها: «أليس هناك رد؟ أقول أنا السبب. أنتِ تريدين شيئًا ما مني» واقترب منها — وكانت نظراته المحدقة تتفحص جسدها — واستطرد: «هكذا أدبر معيشتي، فكل شخص يريد شيئًا ما، ولو أنني أستطيع أن أعرف هذا الشيء، لاستطعت أن أجعل أي شخص يفعل أي شيء أرغب فيه.»

أجبرت نفسها على الحديث قائلة: «كما يرغب أكتا في احتساء الجعة.»

ابتسم ابتسامة عريضة واستطرد: «إنك تفهمينني، وهذا رائع، والآن مثلك مثل أكتا بالضبط، ترغبين في شيء مني، ولكنك لن تحصلي عليه أيتها الفتاة الصغيرة، حتى تعرفي ما أرغبه منك.» ودار حولها، وترك أطراف أصابعه تلمس جسدها، وقال لها: «إنك نحيفة جدًّا وهذا لا يتناسب مع ما أفضله، وأفترض أن ذلك بسبب مطاردة الماعز البري.» وتثاءب وتمدد، ونظر إلى بعيد قائلًا: «أقول لك الصراحة أيتها الطفلة، لقد ضاجعت أمك البدينة مرارًا وتكرارًا.»

وعند ذلك رفعت ملابسها إلى أعلى بتهور لتريه بطنها.

لمس جسدها وتحسس بطنها المنتفخ وهو في حالة من الدهشة، وكان ملمس كفه شديد النعومة، ثم قال وازداد تنفسه: «حسنًا، لقد عرفت أن هناك شيئًا مختلفًا فيك، لا بد أن لدي قدرات حدسية كبيرة، أما بالنسبة لك فقد فهمتِ ما أريد؛ إن رغبتي الغريبة نحو السيدات الحوامل، هي نقطة ضعفي الوحيدة ...» أمسك بذقنه وقال: «ولكنني ما زلت لا أعرف ماذا تريدين؟ ولا أعتقد أن بطني السمين يفتنك وتريدين مضاجعتي ....»

قالت فجأة: «لقد قتلوا الطفل.»

- «أي طفل هذا؟ طفل أمك؟ ألم يدعوها تحتفظ بوليدها؟ أعرف ماذا تفعلون أيها الأوغاد، إنكم تقتلون صغاركم، والبعض يقول إنكم تحتفلون بأكل الجثث الصغيرة.» ثم واصل تفحصه لها معاينًا إياها، وقال: «أعتقد أنني أفهم الآن، فإذا وضعت طفلك فلسوف يأخذونه كذلك ويقتلونه، وهذا هو سبب هروبك وحضورك وراء حقير جشع مثلي لإنقاذ حياة طفلك الذي لم يولد بعد.» وسريعًا ما اختلف تعبير وجهه، واعتقدت أنها قد شعرت ببعض التعاطف معها.

وهمهمت قائلة: «إنهم يقولون ....»

- «نعم؟»

«إنهم يقولون إن عندكم لا يُقتل الأطفال.»

هز كتفيه بلا مبالاة وقال: «لدينا الكثير من الطعام، وليس علينا أن نقضي عمرنا كل يوم نجري وراء الأرانب كما تفعل عشيرتك، وهذا هو السبب الذي لا يجعلنا مضطرين إلى قتل أطفالنا.»

تعجبت من هذه المعجزة وكيف تحدث، فلا بد أن لدى قوم كال هؤلاء شامانًا قويًّا بالفعل.

ولكن إشراقة وجه كال الوجيزة تبددت وحل محلها نوع من الجشع الشديد. فاقترب منها وشد على كتفيها بعنف شديد فاحتملت وكتمت صراخها. وقال لها: «إذا أتيت معي فسوف يكون صعبًا عليك. إن طريقة الحياة عندنا ...» ولوح بيده ناحية السهل الواسع مكملًا حديثه: «مختلفة تمامًا عن كل ذلك أكثر مما تتخيلين، وسيجب عليك أن تفعلي كل ما آمرك به، فهذه هي عادتنا.»

كانت تشم رائحة نفسه، أغلقت عينيها وحاولت أن تبعد عن مخيلتها وجهه المستدير المليء بالبثور. علمت أن هذه هي مرحلة اتخاذ القرار، ولا يزال يمكنها الرجوع والإسراع بالعودة إلى المنزل، ولكنها إن عادت فسيقتلون طفلها. وعندما يعرف أكتا وبيبيول فربما يحاولان إجهاضها.

قالت مسرعة: «سوف أنفذ ما تأمرني به، فماذا يمكن أن يحدث أسوأ من ذلك؟»

قال كال، بينما تخرج من فمه أنفاس قصيرة ساخنة: «حسنًا، والآن هيا إلى العمل، نامي.»

وهكذا بدأ الأمر هناك في الوحل، وكانت ممتنة لأنه لم يكن هناك من يراها ممن تعرفهم.

٢

جعلها تحمل حمله من اللحوم وحقيبته المشتملة على الجذور نصف المضوغة، وقربة الجعة الفارغة، وقال إن هذه هي العادة في وطنه.

لم يكن الحمل ثقيلًا، فلم يكن اللحم أكثر من مجرد صيد صغير أحضره الرجال في اليوم السابق. ولكنه بدا غريبًا لجونا أن تُجبر على المشي خلف كال باللحم على كتفيها، بينما هو يمشي متبخترًا أمامها، وهو يلوح برمحها دون خبرة باستعماله.

وسرعان ما قطعا مسافة بعيدة عن طريقها المعتاد، وكان من المخيف أن تفكر في أنها سوف تذهب إلى أرض من المحتمل ألا يكون أحد أجدادها قد وطئها ولو مرة واحدة؛ محظورات عميقة كانت تلهمها بها مخاوفها من الموت على أيدي غرباء وقفت حائلًا دون اندفاعها نحو الاستمرار. وبالرغم من ذلك فقد استمرت، لأنه لم يكن هناك خيار آخر.

كان عليهما قضاء ليلة واحدة في العراء. رأخذها إلى مخيم في جرف عال شبيه بالكهف، كان قد استخدمه من قبل، حيث إنها وجدت كثيرًا مما يدل على وجوده فيه من قبل. وهناك لم يسمح لها بأن تأكل من اللحم أو حتى تصطاد صيدًا آخر، وكان من الواضح أنه لا يثق بها إلى أقصى حد، ولكنه أعطاها بعض الجذور الرفيعة رديئة الطعم التي كانت لديه.

وعندما حل الظلام عاشرها مرة أخرى. وجعلتها مضاجعته الوحشية تشعر أن التلامس الصبياني مع توري يبدو مليئًا بالحنان والعطف. ولكن مما سبب لها الشعور بالراحة أنه نال شهوته سريعًا — إذ أرهق نفسه في هذا اليوم — وعندما ابتعد عنها غلبه النعاس سريعًا.

دلكت ساقيها المتعبتين، وهي وحيدة مع أفكارها.

وفي الصباح هبطا من الهضبة الجافة المرتفعة إلى الوادي الفسيح، وكانت تلك الأرض أكثر خضرة وينمو فيها العشب بكثافة. واستطاعت أن ترى شريطًا أزرق من ماء النهر ينساب ببطء، واصطفت الأشجار بطول الضفة. فكرت أنه من الممكن أن يكون هذا المكان جيدًا للعيش فيه أفضل من الأراضي الجنوبية القاحلة، ولا بد أن يكون فيه الكثير من الصيد. ولكن عندما نزلا أكثر لم تلمح سوى بعض الأرانب والفئران والطيور. ولم يكن هناك أثر دال على وجود حيوانات كبيرة.

وفي النهاية رأت صخرة مغمورة بنية اللون عريضة، بالقرب من ضفة النهر. تصاعد الدخان من عدة أماكن، ولاحظت حركةً ما، تسللًا شاحبًا، مثل

وخز الجرح. كانت تلك الحركة، في حقيقة الأمر، لبشر متزاحمين ويظهرون صِغارًا نظرًا لبعد المسافة.

وفهمت تدريجيًّا أنها بلدة كبيرة ممتدة، واندهشت لأنها لم ترَ بشرًا في تجمع بهذا المقدار. وشعرت بتوجس متزايد كلما تقدمت في المسيرة.

وحتى قبل وصولهما إلى المستوطنة بدآ يلتقيان بالناس.

كان الجميع يبدون قصيري القامة سُمر البشرة ومنحنين، ويرتدون ملابس قذرة. والرجال والنساء والأطفال على حد سواء يعملون في رُقع من الأرض. ولم تكن جونا قد رأت شيئًا مثل هذا من قبل. وفي أحد الأماكن كانوا منحنين يحفرون في التربة الجرداء، بأدوات حجرية مثبتة على الخشب. وأبعد قليلًا كان هناك مرج أخضر مغطى بالعشب — ولا شيء سوى العشب — والناس هناك يقتلعون سوق العشب والبذور لجمعها في سلال وأوانٍ. حدق بعضهم النظر فيها عند مرورها مظهرين فضولًا فاترًا.

رأى كال أنها تحملق فقال لها: «هذه حقول، وهذه هي الطريقة التي نغذي بها أطفالنا. أترين؟ إننا نخلي الأرض ونزرع البذرة، ونزيل الأعشاب الضارة، وعندما تنمو المحاصيل نحصد المحصول.»

حاولت بجهد أن تفهم ذلك؛ فهناك الكثير من الكلمات غير المألوفة. قالت: «وأين يوجد الشامان الخاص بكم؟»

ضحك رفال: «ربما نكون جميعًا شامانات.»

ومرا على منطقة أخرى مفتوحة، حقل كبير آخر — كما يطلق عليه كال — حيث كانت الماعز حبيسة داخل سياج من العصي الخشبية والمصنوعة من العليق. وعندما اقترب كال وجونا فرت الماعز — وهي تثغو — إلى ناحية السياج، ورءوسها إلى الأمام. كانت جائعة وفهمت جونا ذلك على الفور، إذ أكلت العشب الموجود داخل هذا السياج، وكانت تتوق إلى الحرية حتى تذهب إلى الوادي والتلال. وام يكن لديها أدنى فكرة عن السبب في أن يحبسها الناس بهذه الطريقة!

وأخيرًا وصلا إلى أسفل الوادي، وكان هذا المكان هو نهاية العشب، وحل محله الوحل الذي تنقل مع الأقدام والذي كان مليئًا بالفضلات الصلبة

والبول، فضلاتِ الإنسان التي تُلقى هناك. ودار في ذهنها كأن الوضع يشبه العيش في كومة من النفايات.

وأخيرًا وصلا إلى المستوطنة نفسها، كانت الأكواخ قوية ودائمة ومبنية من جذوع الأشجار الممتدة في الأرض الموحلة وملصقة من أعلى بالطين والقش، وبها فتحات في الأسقف، يتصاعد منها الدخان حتى الآن في منتصف النهار. والأكواخ يشبه أحدها الآخر في كل مكان، ولكن كان هناك العديد والعديد منها، عدد كثير، حتى إنها لم تستطع عدها.

وكان هناك بشرٌ في كل مكان.

بشرٌ يرتدون ملابس غريبة وضيقة، وهي أنواع الملابس التي يفضلها كال. وقد كانوا جميعًا أصغر حجمًا منها، رجالًا ونساءً على حد سواء، وكانت بشرتهم داكنة ومليئة بالندب والبثور. ومعظم النساء يحملن أحمالًا ضخمة، وإحدى النساء الصغيرات انحنى ظهرها، من أثر قربة ضخمة كانت مربوطة بجبهتها، وبدا كأن ذلك الحمل يزن أثقل من وزنها هي. وعلى النقيض بدا الرجال لا يحملون شيئًا سوى القليل، إلى جانب ما يستطيعون حمله في أيديهم.

لم تر في حياتها هذا العدد من الناس المتكدسين معًا في مساحة صغيرة مثل تلك. وعلى الرغم مما لمحته من حقول فلا تزال غير مدركة الطريقة التي يغذون بها أنفسهم وهم بهذا العدد الكبير. وبالتأكيد لا بد أن كل أنواع الصيد ستفر من المكان سريعًا، ويلتهمون كل ما يصلح أكله من النباتات في تلك المنطقة. ومع ذلك فقد رأت أجساد الذبائح مكومة خارج أحد الأكواخ، وسلال الحبوب خارج كوخ آخر.

كان هناك عدد كبير من الأطفال، وبعض منهم سار خلف جونا يمسكون ملابسها، ويحملقون في شعرها اللامع. وعندئذ أدركت أن ما قيل عنهم معظمه حقيقي، فهناك أطفال كثيرون بالفعل أكثر مما يمكن لمجتمعها تحمل إطعامه. ولكن عظام معظم الأطفال كانت مقوسة، وجلودهم بها بثور، وأسنانهم بنية. وبعضهم كان هزيلًا وبطونهم منتفخة من سوء التغذية، وهو ما ينذر بالسوء.

احتشد الرجال حول كال وجونا وهم يثرثرون بلغة غير مفهومة، وبدا أنهم كانوا يهنئون كال وكأنه صياد عاد إلى المنزل بفريسته. وعندما بدأ الرجال يحدقون النظر فيها رأت أسنانهم الفاسدة مثل أسنان كال.

وفجأة بدأت أعصابها تنهار لوجود الكثير جدًّا من الناس فتراجعت إلى الوراء، ولكنهم تبعوها واقتربوا منها أكثر، وبدأ الأطفال يمسكون بشعرها الأصفر وهم يهللون، ووجدت نفسها غير قادرة على التنفس ومرعوبة، وتمنت رؤية الخضرة، ولكن لم يكن هناك أي خضرة، لا شيء سوى الفضلات الصلبة المكومة والعفنة في هذا المكان. ثم دارت بها الدنيا وسقطت خائرة القوى، فسقطت اللحوم الخاصة بكال على الأرض القذرة. وسمعت صياح كال الغاضب، ولكن الأطفال استمروا مع الكبار في الصخب من حولها محدقين وضاحكين.

أفاقت ببطء وعلى غير رغبة.

وأخذوها داخل أحد تلك الأكواخ. كانت راقدة على ظهرها على الأرض، واستطاعت أن ترى ضوء النهار يدخل من الفتحات، من السقف فوقها.

وكان كال فوقها مرة أخرى وهو يضغط عليها بشدة. ولم تستطع أن تشم شيئًا سوى رائحة الجعة في أنفاسه.

كان بالكوخ آخرون يتحركون في الظلام المعتم، ويثرثرون بلغة لم تستطع فهمها، كما كان هناك الكثير من الأطفال، أعمارهم متفاوتة. وتساءلت ما إذا كانوا جميعًا أولاده. واقتربت إحدى السيدات، وكانت قصيرة مثل الباقين ونحيفة، ولها وجه مخطط غير مشدود، ولها شعر أسود ينسدل على وجهها، وكانت تحمل إناء يحتوي على بعض السوائل، وتبدو أكبر سنًّا من جونا.

وأمسك كال فكيها بيده البدينة بشكل مؤلم قائلًا: «انظري إليَّ أيتها الخنزيرة وليس إليها»، واستمر يضاجعها بعنف أقوى من ذي قبل.

وعند الفجر حضرت المرأة ذات الشعر الأسود، التي تسمى جويري لتوقظ جونا بضربة شديدة في ظهرها. نهضت جونا وهي تزيح الغطاء

القذر عنها، محاولة كتم أنفاسها عن الهواء الكثيف المحمل برائحة العرق والغازات الكريهة.

ثرثرت المرأة مع جونا، وهي تشير ناحية الموقد، ولكنها غضبت لأن جونا لم تفهمها، وخرجت مسرعة من الكوخ، ثم عادت إليها بحطب سميك وألقته في النيران. وهي تدفع الأطفال عن الطريق كشفت عن بقعة في الأرض تحتوي على كتلة من الأشكال البيضاء المنتفخة. وفي البداية خمنت جونا أنها فطريات، وربما كانت عش الغراب. ولكن المرأة قضمت إحدى تلك الكتل، وكسرت بعضها، ورمت بحفنة منها إلى أولئك الأطفال الصاخبين.

ثم ألقت بقطعة منها إلى جونا التي جربت أكلها بحذر. فلم يكن لها طعم ولا نكهة وكأنما كانت تعض على الخشب. وكان بذلك الطعام رمل وأجزاء صلبة بداخله اصطدمت بأسنانها، لكنها لم تأكل شيئًا منذ أن قابلها كال على السهل المرتفع، وبدأت تشعر حقيقةً بالجوع، ولذلك فقد التهمت الطعام كما فعل أولئك الأطفال.

وكان هذا الطعام هو أول قطعة من الخبز تتناولها، على الرغم من مرور أيام كثيرة قبل أن تعرف اسمه.

وعندما كانوا يأكلون كان كال يغط في فراشه. وكان غريبًا على جونا أن يختار كال العيش مع أولئك النسوة، ولكن على ما يبدو لم يكن هناك كوخ للرجال.

وبعد تناول الطعام صحبتها جويري إلى البلدة أعلى الوادي، إلى الفضاء الواسع على الجانب البعيد. وقد سارتا في صمت، فإحداهما لا تعرف لغة الأخرى، وكانت جونا متحيرة من عدم الفهم ولكنها استراحت، لأنها خرجت فقط من أكوام الناس الهائلة أي البلدة.

وسرعان ما انضم إليهما المزيد من النساء والأطفال والصبية، والقليل من الرجال، وتتبعوا آثار الأقدام الكثيرة المطبوعة على الأرض. وحدّقت بعض النسوة في جونا بفضول، وكذلك الرجال بنظرات متدبرة، ولكن بدا الإنهاك عليهم حتى قبل بدء يومهم. وتساءلت جونا أين سيذهب كل هؤلاء، ولم يكن أحدهم يحمل أي أسلحة في يديه، ولا أي رماح أو شباك، ولم يكونوا

يبحثون عن آثار للحيوانات أو روث أو أي دلالة على أن الحيوانات كانت بالجوار، ولم يتفقدوا المنطقة التي يسكنونها.

وأخيرًا وصلت إلى الأماكن المفتوحة، التي لمحتها أمس وهي الحقول، وقد قادتها جويري إلى أحد الحقول، حيث كان الناس يعملون بالفعل، وأعطتها إحدى الأدوات، وبدأت تهمهم، وتحاكي من يعملون ممسكة بقبضتي يديها معًا وتحفر بإزميل.

استكشفت جونا تلك الأداة وكانت مثل الفأس، ولها رأس صخرية مثبتة على يد خشبية بمادة الراتنيج والأربطة القوية. ولكنها كانت كبيرة، وأثقل جدًّا من أن تُستخدم كفأس، وحتى الآن كان ذلك النصل الحجري الملتوي غير عملي للاستخدام كرمح. وأخذت جويري تصرخ في وجهها بإحباط شديد، بينما هي لا تزال تحملق خلفها.

وفي النهاية كان على جويري أن تريها كيف تعمل، فانحنت على التراب وأمسكت بالأداة، وغرزت النصل بعمق في الأرض، ثم تحركت إلى الوراء بأقدام ثابتة في الأرض وهي منحنية، وهي تجر النصل في الأرض. وصنعت أخدودًا في الأرض بعمق طول اليد.

ورأت جونا أن الآخرين يفعلون مثلما تفعل جويري، ويجرون الفئوس المنحنية خلال الأرض، وتذكرت رؤية الناس وهم يفعلون ذلك بالأمس. وكانت مهمة بسيطة قد يستطيع الطفل الصغير القيام بها، إذا كان قويًّا بما يكفي، ولكنها كانت شاقة. بعد حفر الأخاديد، التي يبلغ طولها خطوات قليلة، كانوا جميعًا يتذمرون تعبًا، وكانت وجوههم يعلوها العرق والوسخ.

وحتى الآن كانت جونا تجهل السبب وراء ما يفعلون، لكنها أخذت الأداة من جويري ورشقت النصل في الأرض، وانحنت مثلما تفعل جويري، وسحبت اليد إلى الخلف، حتى شقت أخدودًا مثل أخدود جويري، وسخرت منها إحدى النساء وصفقت بيديها.

أعادت جونا الفأس مرة أخرى إلى جويري وقالت بلغتها: «لقد فعلت ذلك، والآن ماذا أفعل؟»

وجاءت الإجابة بسيطة. كان عليها أن تقوم بنفس الشيء مرة أخرى، وعلى مسافة أبعد قليلًا، وبعد ذلك مرة أخرى. كان عليها هي والناس

الموجودين في هذا المكان، ألا يعملوا شيئًا سوى أن يحفروا تلك العلامات في الأرض فحسب.

طوال النهار على الحال نفسها.

فأين إذن المهارة في خدش الأرض الخصبة، مقارنةً بأبسط أنواع الصيد، عمل فخاخ للأرانب؟ أليس لدى هؤلاء الناس عقول؟ ولكن ربما كان جزءًا من السحر الذي يستخدمه الشامانات هنا ليصنع لهم أكوامًا من الطعام الكثيرة التي تمكنهم من التجمع في أسراب كاليرقات ويفترشون الأرض بالأطفال. بالإضافة إلى ذلك ذكّرت نفسها أنها غريبة في هذا المكان، ولا بد أن تتعلم عادات جويري وليس العكس.

ولذلك فقد انحنت على عملها الممل المتكرر، ولكن قبل أن ترتفع الشمس أكثر تمنت أن تهرب من هذا الضجر، وأن تجري في السهل العالي. وبعد يوم من إجبار جسمها — الذي كان آلة رائعة التصميم للمشي والجري والرمي — على تحمل هذا العمل الصعب المتكرر أصبحت الآلام مبرحة بحيث أصبح كل ما ترغب فيه هو أن تضع لذلك حدًّا.

وفي اليوم التالي أخذوها إلى حقل آخر وأعطوها نفس أداة الحرث المملة. وفي اليوم الذي يليه حدث نفس الشيء.

وفي اليوم التالي كذلك.

كانت تلك هي الزراعة؛ بدائية ولكنها الزراعة. فهذه الطريقة الجديدة للمعيشة لم تكن مخططة من قبل إطلاقًا، ولكنها برزت وحدها، خطوة بخطوة.

ومنذ زمن بيل، وحتى قبل ظهور البشر الفعليين، كان الناس يجمعون النباتات البرية، التي يفضلونها ويتخلصون من الباقي. وبدأت تربية الحيوانات أيضًا بمحض الصدفة، فقد تعلمت الكلاب أن تصطاد مع البشر، وكانت تُكافأ على ذلك. وتعلمت الماعز كذلك أن تتبع المجموعات البشرية للقاذورات التي يتركونها بعدما يرحلون. وتعلم الناس بدورهم استخدام الماعز، ليس لأجل لحومها فقط ولكن لألبانها كذلك. وعلى مدى مئات الآلاف من السنوات كان هناك انتقاء لتلك الأنواع من النباتات والحيوانات الأكثر إفادة للبشر دون وعي، والآن أصبح ذلك يحدث بوعي.

لقد بدأ هذا في وادٍ ليس بعيدًا عن هنا. فمنذ قرون استمتع الناس هناك بالطقس الدافئ باستمرار، وبالنظام الغذائي الثري من الفاكهة والحبوب البرية والحيوانات البرية. ولكن بعد ذلك جاءت فترة مفاجئة من الجفاف والبرودة فانكمشت الغابات، وبدأت مصادر الطعام البري تختفي.

ولذلك فإن الناس ركزوا مجهوداتهم على زراعة الحبوب التي يفضلونها — الحبوب ذات البذور الكبيرة التي كان من السهل إزالتها من غلاف البذرة، والسوق التي لا تتحطم وتحتفظ بكل البذور معًا — محاولين ضمان نموها على حساب النباتات غير المرغوبة من حولها.

وكانت البازلاء إنجازًا آخر مبكرًا، وكانت قرون البازلاء البرية قد تنفجر فتنتشر الحبوب على الأرض، لتنبت مرة أخرى. وقد فضل الناس البازلاء التي تعرضت عرضيًّا للطفرات، والتي لم تتفتح قرونها لأنه كان من الأسهل جمعها. وهذه البازلاء كانت ستفشل في النمو في الصحراء، ولكنها ازدهرت تحت عناية البشر. وكان من المفضل أيضًا نباتات شبيهة ومتنوعة لا تتفتح أغلفتها مثل العدس والكتان والخشخاش.

ولذلك بدأ الناس عملية الانتقاء مع انتشار البذور للنباتات المفضلة والتخلص من البذور غير المرغوب فيها، وبدأت تتكيف النباتات بسرعة، وخلال قرن واحد بدأت تظهر النباتات الحُبيبية المشتملة على حبوب كثيرة، مثل الجاودار. وفُضلت بعض النباتات لكبر حجم بذورها مثل دوار الشمس، وأخرى لصغر بذورها مثل الموز الذي أصبح ثمرة بالكامل وليس مجرد بذور. وبعض الجينات، التي كانت من قبل مميتة للنباتات، هي الآن مفضلة، مثل جينات قرون البازلاء غير المتفتحة.

إن زارعي الجاودار الأوائل لم يعدوا لزراعته في بادئ الأمر على الفور. ولفترة ما كانوا يجمعون محاصيلهم الأساسية البرية إلى جانب المحاصيل الهزيلة. وكانت الحقول الجديدة كأنها مخزن يمكن الاعتماد عليه ووقاية من المجاعات في الأوقات الصعبة، وكما هو الحال مع جميع الابتكارات نشأت الزراعة من الممارسات التي سبقتها.

ولكن الزراعة الجديدة أثبتت أنها فعالة جدًّا، حتى إنهم سرعان ما كرسوا حياتهم لها. إلا أن معظم ما زرعوه من النباتات البرية كان غير

صالح للأكل، ولكن تسعة أعشار ما استطاع الفلاح زراعته كان يؤكل، وذلك هو السبب الذي جعل أولئك الناس قادرين على الإبقاء على حياة هذا العدد الكبير من الأطفال، وهذا ما ساعد على إطعام هذه الكومة العظيمة من الناس في البلدة.

كانت تلك الثورة هي الأكثر عمقًا في حياة الهومينيد منذ أن رحل ذوو القامة المنتصبة من الغابة وألزموا أنفسهم بالعيش في السافانا. ومقارنة بهذا التغير المرحلي كانت تطورات المستقبل — حتى الهندسة الوراثية — مجرد تفاصيل، ولم يكن هناك تغير جذري بعد ذلك مرة أخرى إلا عندما اختفى البشر أنفسهم من على الكواكب.

ولكن الثورة الزراعية لم تجعل من الأرض جنة.

فالزراعة تعني العمل اللانهائي والكدح القاسي الذي يؤلم العظام كل يوم. وعندما تُخلى الأرض من كل شيء، ما عدا ما يرغب الناس في زراعته، كان على البشر القيام بكل شيء كانت الطبيعة تقوم به من قبل؛ تهوية التربة، ومحاربة الآفات، والتسميد، وإزالة الأعشاب الضارة. فقد كانت الزراعة تعني التضحية بحياتك ومهارتك ومتعة الانطلاق وحرية اختيار ما تريد فعله، في سبيل الكدح في الحقول.

ولم يكن الطعام الذي يحصدونه من الأرض بكد غنيًّا بما يحتاجون إليه. فبينما كان القدماء من الصائدين وجامعي الطعام يستمتعون بنظام غذائي متنوع مشتمل على كميات كافية من المعادن والبروتينات والفيتامينات، فإن الفلاحين كانوا يأخذون معظم قوتهم من المحاصيل النشوية، وكأنهم استبدلوا الطعام عالي الجودة بغذاء متوفر ولكنه رديء الجودة. ونتيجة لذلك، ونظرًا للعمل الكادح القاسي عديم الشفقة، أصبحوا أقل صحة من أسلافهم، وكانت لديهم أسنان أسوأ، وأصابهم داء الأنيميا. وكانت مرافق النساء متعبة للغاية بسبب طحن الحبوب، وعانى الرجال بشكل كبير من الضغط الاجتماعي المتزايد، وأدى ذلك إلى العراك والقتل باستمرار.

ومقارنة بأسلافهم الطوال الأصحاء كانوا بالفعل يتقلصون في الحجم.

ثم تحدث الوفاة بعد ذلك.

كانت حقيقةً أن الأمر لا يستوجب من الأمهات هنا التضحية بأطفالهن. وبالفعل كانت النساء تُشجعن على إنجاب الأطفال بسرعة كبيرة كلما أمكن، حيث إن الأطفال يسدون الحاجة اللامتناهية إلى المزيد من العمال للعمل في الحقول، وعندما تبلغ كثير من النساء الثلاثين ينهكهن العمل الذي لا ينتهي من تربية الأطفال والاعتناء بهم.

ولكن حيثما كان يولد الكثيرون منهم، فالكثيرون منهم أيضًا يموتون. ولم يمض وقت طويل حتى شهدت جونا ذلك بنفسها؛ فقد كان المرض نادرًا بين قبيلة جونا، ولكنه ليس نادرًا هنا في هذا المكان القذر المزدحم بالناس، حيث ترى المرض ينتشر — بانتشار السعال والعطس بين الناس — عندما يخدشون القرح المرتشحة ويلوث الإسهال مصادر مياه جيرانهم. وكانت المحن المتزايدة تستهدف الضعفاء والكبار والصغار. فقد مات الكثير والكثير من الأطفال، أكثر مما حدث في قبيلة جونا ذاتها.

ولم يكن هناك سوى مجموعة صغيرة من الناس قد بلغوا عمر جدتها. وتساءلت جونا عما يحدث للحكمة والمعرفة عندما يموت الكبار مبكرًا جدًّا، وبدون سبب.

مرت الأيام متماثلة ولا معنى لها، وكان العمل روتينيًّا. ولكن كل شيء كان روتينيًّا بالمثل والأشياء نفسها تحدث كل يوم.

استمر كال في معاشرتها معظم الليالي فبدت عليه علامات الإرهاق، وبدأ يفعل ذلك ليزيد من إثارته.

كان رجلًا خائر القوى كما أدركت جونا، ولكن كان له السلطة عليها مع أنها لم تَخَفْ منه. وفي النهاية فإن معاشرته لها بدت شيئًا روتينيًا، مجرد جزء من حياتها. ومع ذلك كانت تشعر بالراحة لأنها لا يمكنها أن تحمل منه حيث ينمو طفل توري في رحمها.

وفي يوم ما، بينما كانت تكدح لسحب محراثها الحجري عبر الأرض الصخرية جاءت الأغنام تتخبط طريقها أعلى الجرف العالي، وتثغو بصخب. ولأن العمال دائمًا ما يرغبون في الحصول على استراحة من العمل فإنهم نهضوا من انحنائهم ليشاهدوا الأغنام، وضحكوا عندما تعثرت الأغنام على

الأرض المحطمة، يدفع بعضها بعضًا بتوتر ومتحسسة التربة بحثًا عن العشب.

وسُمع نباح شديد لكلب يتألم على الجرف العالي، يطارده ولد صغير يحمل أداة خشبية، في حين يضحك العمال ويصفقون ويصيحون، وبدأ الولد والكلب يطاردان الأغنام في مفارقة كوميدية مضحكة.

وكانت جويري بجوار جونا فحملقت في وجهها المتحير، ثم أشارت إلى الأغنام — بغير قسوة — وقالت: «أويس، ديو، تربيز» ولكزت جونا محاولةً جعلها تستجيب لها.

بذلك ازداد الشعور بغرابة كل شيء في ذهن جونا التي كانت تعاني ألمًا في ظهرها وكان شعرها متشابكًا، عازمة على أنها لن تفهم إطلاقًا.

ولكن جويري لم ينفد صبرها، وبكل وضوح كررت ما قالته لجونا مرة أخرى.

وبدأت تتحدث معها — بلغتها الخاصة -— ولكن ببطء أكثر، وبشكل أوضح عن المعتاد، وبكلمة أو كلمتين تعلمتهما من كال وهذا ما أدهش جونا. وكانت تحاول أن تخبر جونا شيئًا غاية في الأهمية.

استكانت جونا وأنصتت، واستغرق ذلك وقتًا طويلًا، ولكن تدريجيًّا استطاعت أن تفهم ما تريد جويري أن تخبرها به. كانت تعلمها اللغة عن طريق الاستماع إليها، لأن هذه هي الطريقة الوحيدة للابتعاد عن كال، وبالفعل أنصتت.

وبتردد هزت رأسها وقالت: «أويس» وكررت «الأغنام، أويس، واحد، اثنان، ثلاثة ....»

وهكذا تعلمت جونا أولى كلماتها في لغة جويري وكال، لغة المزارعين الأوائل؛ أولى كلماتها للغة التي سوف يطلق عليها فيما بعد «اللغة الهندوأوروبية الأم».

وتعاقبت الأيام، وكبر حجم بطنها، وبدأ يعيق عملها في الحقل، وبدأت قوتها تخور. ولاحظ العمال ذلك فبدأ بعضهم يتضجر، على الرغم من أن معظم النساء سامحن جونا في التباطؤ في العمل.

ولكنها شعرت بالقلق، فماذا سيفعل كال عندما يولد الطفل؟ هل سيجدها أكثر إثارة بدون هذا البطن؟ وإذا طردها فسوف تكون في وضع سيئ كأنها أضاعت فرصتها في هذا السهل المرتفع، وربما أسوأ، بعد شهور من الطعام الرديء، والعمل المجهد للظهر، في مكان لم تعرفه قط ولم تفهمه مطلقًا. وقد زاد ذلك التفكير من قلقها وضيقها، واستحوذ على تفكيرها، كما بدأ الطفل الذي ينمو بداخلها يستنفد قوتها.

ولكن حدث شيء ما، جاء شخص غريب ذو عقد براق حول رقبته إلى البلدة.

كان ذلك في المساء، وكانت تمشي متثاقلة، راجعة من عملها في الحقول كالمعتاد، وهي منهكة، ويغطي جسدها الطين.

وكان كال يشق طريقه إلى كوخ إعداد الجعة، ولمحت جونا الإناء الخشبي الكبير داخل الكوخ الذي يقلب فيه صانع الجعة النباتات المحلية والمكونات غير المعروفة الأخرى ليصنع شراب المزر البسيط من القمح. وبدا أن للجعة تأثيرًا ضعيفًا على قوم كال — في حالة عدم تناول كميات كبيرة منها — مقارنةً بما تفعله الجعة بأكتا والآخرين. ولا عجب في أن هذه التجارة كانت ذات نفع وقليلة التكلفة لكال ولا تكلف أكتا شيئًا.

ولكن في هذا المساء كان لدى كال رجل طويل مثل جونا وإن لم يكن فارع الطول مثل بعض رجال قومها، وكان وجهه حليقًا وشعره الطويل الأسود مربوطًا ومعقودًا على ظهره. وبدا صغير السن، ولكنه أكبر منها قليلًا، وكانت عيناه صافيتين ويقظتان، وكان يرتدي ثيابًا غير معتادة، مصنوعة من الجلد المعالج إلى أن أصبح ناعمًا، ومحاكة بدقة ومزخرفة بتصميمات حيوانات راقصة باللون الأحمر والأزرق والأسود. ولذا اندهشت من الوقت المستغرق في صناعة هذه الملابس.

ولكن ما لفت نظرها هو ذلك العقد الذي يضعه حول رقبته، وكان سلسلة بسيطة من الأصداف المثقوبة. وفي منتصف تلك الأصداف، أسفل ذقنه، كان هناك شيء مثبت فيها لونه أصفر لامع، مثل ضوء الشمس وقت الغروب.

كان كال يراقبها، وترك الشاب مستمرًّا في السير نحو كوخ صناعة الجعة، وقال لها بلغتها بلطف: «معجبة به، ألست كذلك؟ أمعجبة أنتِ بالذهب المحيط برقبته؟ هل تفضلين جسده النحيف على جسدي؟ إن اسمه كيرام، وسوف يفيدك جدًّا معرفة اسمه. إنه من «كاتا هوك» Cata Huuk إنك لا تعرفين موقع هذه المنطقة، أليس كذلك؟ ولن تعرفيها مطلقًا» وأمسك بها من كتفيها بعنف وقال لها: «لن تكوني لغيري» ثم دفعها وسار مبتعدًا عنها.

لم تكد تلحظ الإهانة الأخيرة، وكررت الأسماء الغريبة في قرارة نفسها — كيرام، كاتا هوك — مرارًا وتكرارًا.

لقد اعتقدت أن الشاب نظر إليها لوهلة قبل أن يستدير ويتجه إلى كوخ صنع الجعة، واتسعت عيناه كأنه يعرفها.

ومضت ثلاثة شهور قبل أن يعاود كيرام السفر من كاتا هوك إلى البلدة مرة أخرى.

وكان بذلك قد أجّل هذه الزيارة بالفعل، وبما أنه الابن الأصغر لبوتوس، فكان دائمًا من نصيبه أسوأ المهام، وكانت مباشرة جمع الجزية من هذه البلدات البعيدة على حافة المنطقة النائية من المهام السيئة للغاية.

قال لصديقه موتي: «وهذا المكان أسوأ من الجميع، انظر إليه.» إذ كانت البلدة التي تطل على ضفة النهر ركامًا من الأكواخ المزخرفة بالروث التي تآكلت وأصبحت بلا شكل جذاب بسبب المطر، والدخان كريه الرائحة يتصاعد من أسقفها. استطرد قائلًا: «أتعرف ماذا يطلقون على هذا المكان؟ يطلقون عليه القلب» وكان كلاهما يتحدث لغةً استُخدمت في منطقة استعمارية واسعة امتد إلى الخلف من هذا المكان وحتى الشرق.

ابتسم موتي ابتسامة عريضة وقال: «القلب، لقد أحببت هذا المسمى. أيمكن أن تكون قلب العالم؟ ولماذا تبدو مؤخرته إذن؟» ضحك كل منهما ولمعت القلادتان اللتان يرتديانهما، المصنوعتان من كتل الأصداف والذهب وصدر عنهما رنين.

وجاء كال إليهما، وشاركهم تاجر الضحك، وعينا كال المجبرتان على الابتهاج — الباهتتان الشبيهتان بعيني الخنزير — تتفحصهما واحدًا بعد الآخر. وتحرك الحرس خلف كيرام بمهارة مما ينم عن انتباههم، مميلين رءوس رماحهم.

وقال كال: «السيد كيرام، كم أنا مسرور لرؤيتك، فكم أنت جميل، وتلمع ملابسك في ضوء الشمس!» واستدار إلى موتي واستطرد: «كما لا أصدق ....»

وهنا قدم موتي نفسه: «ابن عم كيرام، وحليفه.»

ابتهج كيرام لامحًا في عيني كال الحذر المجرد عندما أضاف التاجر اسم موتي ووظيفته إلى التخطيط المؤقت الذي خططه لتوضيح هياكل السلطة في كاتا هوك. وبدأ كال يحدث الجلبة ويتحرك كثيرًا وهو يقودهم إلى البلدة: «تعاليا، إن الجزية جاهزة بالطبع ومجمعة في كوخي، كما أن لديّ الطعام والجعة لكما، وكل الطعام طازج من أراضينا. هل ستقضيان الليلة هنا؟»

وقال كيرام: «لا زال أمامنا أماكن كثيرة لزيارتها قبل أن ....»

وهنا قاطعه كال قائلًا: «ولكن لا بد أن تستمتع بضيافتنا، وكذلك رجالك، كما أن عندنا فتيات عذارى من أجلك.» ونظر إلى موتي وغمز له واستطرد: «أو رجالًا، كما تريدون. إنكم ضيوفنا لأي مدة تختارون أن تقضوها معنا.»

وساروا برفق على الأرض الموحلة المليئة بالفضلات الصلبة، وسار موتي متكئًا على كيرام، وقال: «يا له من حشرة سمينة كريهة.»

– «إنه يحاول تصيد الفرص. إنه ليس رئيس بلدة القذرين الصغيرة هذه، ولديه بعض نقاط الضعف الملحوظة خاصةً النساء السمينات، فربما يذكرنه بالخنازير التي هي حبه الحقيقي، ولكنه مفيد ومن السهل التحكم فيه.»

وتساءل: «هل سيزور كاتا هوك؟»

تذمر كيرام قائلًا: «ما رأيك يا ابن العم؟»

عندئذٍ اقتربوا من كوخ كال، وهو أحد أفخم الأكواخ في هذه البلدة، ولكنه لا يزال في عيني الشابين كومة من الطين.

وسأل كيرام موتي: «هل ترغب في أن تظل مدة قصيرة؟» وأومأ برأسه للحراس الأربعة، واستطرد: «عادةً ما أترك كلاب حراستي خارج الحظيرة مدة قليلة. وفائدة كال تكمن في إخراج الفتيات الجذابة من الأماكن الموحلة التي يجلسن فيها، فأحيانًا يجعلهنّ اليأس من الوحل المحيط بهنّ مثيرات. ولكن يجب أن تتوقع أن تصيبك بعض القاذورات ....»

سأل موتي وهو في حالة من الذهول: «ما هذا؟»

خرجت فتاة من كوخ كال، وكانت شديدة الاختلاف عن السيدات البدينات القصيرات ذوات البشرة الداكنة في البلدة. وعلي الرغم من أنها كانت هزيلة ومهمومة بشكل واضح فإنها كانت طويلة مثل كيرام فعلًا ونحيلة، وشعرها أشقر لامع مثل الذهب، على الرغم من القاذورات التي تشابكت فيه. وربما كانت تبلغ من العمر ست عشرة سنة أو سبع عشرة سنة.

وعندما رآها كال تقترب غضب غضبًا عارمًا، وصفعها بقبضة يده السمينة على صدغها، وطرحها أرضًا في الوحل قائلًا: «ماذا تفعلين هنا؟ ارجعي إلى الكوخ، سوف أحاسبك فيما بعد.» ثم ضربها وهي واقعة على الأرض لا تستطيع أن تفعل شيئًا.

فأمسك موتي بذراع كال القصير البدين بلطف ولواه خلف ظهره فصرخ كال، وسرعان ما استكان.

أخذ كيرام بيد الفتاة، وساعدها لتقف على قدميها، وكان صدغها قد أصيب بكدمة، كما رأى أن ساقيها وذراعيها متغير لونهما من أثر الكدمات أيضًا. وكانت ترتعد ولكنها وقفت بثبات في مواجهته، فقال لها: «ما اسمك؟»

قال كال بنبرة لاذعة: «سيدي، لا تتحدث إليها ...» فلوى موتي ذراعه بعنف أكثر، مما جعله يتأوّه.

قالت: «جونا» وكانت لهجتها غير معتادة، ولكن كلامها كان واضحًا: «اسمي جونا، وأنا من كاتا هوك.» وقالت بجرأة: «أنا مثلك.»

ضحك كيرام غير مصدق، ولكن ضحكته تلاشت عندما بدأ يتفرس فيها، وبالتأكيد لم يكن طولها ورشاقتها وحالتها الجيدة نسبيًّا ينمان عن

أنها عاشت مع الخنازير في هذا المكان، وقال بحذر: «إذا كنت من المدينة فكيف انتهى بك الأمر هنا؟»

- «لقد أخذوني وأنا طفلة، هؤلاء القوم هم مَن أخذوني، وربوني مع الكلاب والذئاب، ولذلك فلا أتحدث مثلك، ولكن ....»

قال كال: «إنها تكذب، إنها لا تعرف حتى ما هذه المدينة كاتا هوك. إنها بربرية من قبائل الغرب، من البشر المتوحشين الذين لا بد أن أتعامل معهم. وكانت أمها عاهرة سمينة تبيع جسدها من أجل الجعة. و....»

قالت جونا بثبات وعيناها تنظران إلى كيرام: «ينبغي ألا أكون هنا. خذني معك.»

وتبادل كيرام وموتي نظراتهما معها، متشككين في صحة ما تقول.

ابتعد كال غاضبًا من موتي وهو يقول: «هل تريد أن تضاجعها؟ هل هذا هو الأمر؟» وشق عن جونا قميصها، ومزقه من على بطنها المنتفخة، ثم أضاف: «انظر، إن بطن البغيضة مليء بصغارها. هل تريدها؟»

فسألها كيرام عابسًا: «هل هذا الطفل ابن كال؟»

ارتعدت أكثر قائلة: «لا، وإن كان بطني يعجبه وكثيرًا ما يعاشرني، فإن الطفل لرجل من كاتا هوك، وقد أتى هنا، واعتدى عليّ، ولم يخبرني باسمه ووعدني ....»

صاح كال غاضبًا: «إنها تكذب، كانت حاملًا عندما وجدتها.»

قالت جونا محملقة في البلدة باشمئزاز طفيف: «أنا لست من هذا المكان، ولا ينتسب طفلي إليه، إنه ينتسب إلى كاتا هوك.»

نظر كيرام مرة أخرى إلى موتي الذي هز كتفيه بلا مبالاة، وقال مبتسمًا: «لا يمكنني أن أعرف إذا كنت تقولين الحقيقة أم لا يا جونا، لكنك امرأة غريبة وقصتك سوف تسلي أبي ....»

قال كال بعد أن أفلت مرة أخرى من قبضة موتي: «لا! لا يمكنك أخذها!» وهنا تحرك الحرس إلى الأمام.

تجاهله كيرام وهز رأسه إلى موتي قائلًا له: «رتب الجزية المجمعة. وأنت يا جونا هل لديك أي ممتلكات هنا؟ أي أصدقاء ترغبين في توديعهم؟»

بدا عليها الارتباك في فهم معنى هذا الكلام، وكأنها لا تعرف بالضبط ما تعنيه كلمة «ممتلكات» وقالت: «لا، لا شيء، ومن الأصدقاء جويري فقط.»

هز كيرام كتفيه، فالاسم لا يعني شيئًا له وقال: «استعدوا، سوف نغادر سريعًا» وصفق بيديه وتقدم موتي والجند تنفيذًا لأوامره.

ولكن كال — الذي احتجزه أحد الحراس — استمر في الالتماس والتوسل: «خذني معك، خذني!»

٣

سوف يستغرق قطع المسافة إلى وطن كيرام الغامض في كاتا هوك ثلاثة أيام.

جُمعت سريعًا الحبوب واللحوم فيما أطلق عليه كيرام الجزية، ولم يكن لدى جونا فكرة عن سبب إعطاء أهل البلدة — الذين لديهم بالكاد ما يكفي لأنفسهم — الكثير من مؤنهم لهؤلاء الغرباء، حتى إنهم لم يحصلوا على الجعة في مقابل ذلك.

ولكن الوقت لم يكن مناسبًا لتتساءل عن مثل هذه الأمور، والحديث الذي تدربت على قوله لفترة طويلة، منذ أن رأت كيرام لأول مرة، آتى ثماره الآن. وقد حان الوقت لأن تكون هادئة وتسير في الطريق الذي تُقاد إليه.

ومشى الجميع على نحو طليق وكان كيرام وموتي في المقدمة، وتبعهما الحراس الأربعة قصار القامة؛ اثنان منهم لا يحملان شيئًا، كي يستخدما الأسلحة بمهارة، والآخران يحملان الجزية. جونا، التي لم تحمل شيئًا غير الرمح الذي وصلت به إلى هذا المكان، اقتربت من أحد الحراس، متوقعةً أن يعطيها نصيبًا من هذه الحمولة.

وبخها كيرام قائلًا: «دعيهم يقوموا بوظيفتهم.» فهزت كتفيها وقالت: «في بلدة كال كانت ستصبح هذه وظيفتي.»

- «حسنًا، أنا لست كال، ويجب أن تفعلي كما نفعل أيتها الفتاة، وهذه هي عادتنا.»

- «لقد أخذوني وأنا طفلة من ....»

قال كيرام — وقد ارتفع حاجباه في دعابة رقيقة: «تذكرت ما قلته لي، ولكني أشك في صدقه، ولكن أنصتي، في كاتا هوك تُعد كلمة بوتوس قانونًا، وأنا ابن بوتوس وسوف تطيعينني ولن تسأليني عن شيء، هل تفهمين؟»

كان قوم جونا متساوين، مثل باقي قبائل الصيد وجمع الطعام، ولم تكن تفهم ما قاله كيرام، ولكنها هزت رأسها بحمق.

بدأت الرحلة وتوجه الشابان إلى الأمام — خاليي الأيدي — بخطوات واسعة وبسهولة، كما فعلت جونا على الرغم من حملها والشهور الأربعة التي تحملت فيها الغذاء الرديء والعمل الشاق، ولكن الحراس نهجوا وشكوا من أقدامهم المتعبة.

أحست جونا براحة كبيرة لخروجها من تلك البلدة القذرة، ولأنها ستكون في البلد الفسيح مرة أخرى، وستمشي معتدلة بدلًا من انحناء ظهرها في الحقول المغبرة، حتى وإن كانت على وشك الانتقال إلى منطقة بعيدة جدًّا عن المكان الذي عاشت فيه هي وأسلافها وهم يتجهون إلى الشرق.

كانوا يتوقفون في كل ليلة في بلدان صغيرة، لم تكن أكثر أو أقل إثارة للإعجاب من بلدة كال. وقُدم فيها للحراس النساء والجعة، بينما لم يتفارق كيرام وموتي أبدًا على الإطلاق، وكانا يقضيان الليل بهدوء في الأكواخ. وسمحا لجونا أن تمكث معهما جالسة في أحد الأركان.

لم يمسها أي منهما، وربما كان السبب هو حملها، وربما لم يصدقاها. كانت جونا — جزئيًّا — سعيدة لتحررها من رغبات كال الحقيرة، ومستمتعة بألا يشاركها أحد جسدها، ولكنها كانت أكثر تدبرًا وشعرت بالندم. فهي لا تدرك إدراكًا فعليًّا ماهية هذا المكان «كاتا هوك» ولكنها شكت في أن فرصتها الأفضل للبقاء على قيد الحياة في أن تربط نفسها بكيرام أو موتي.

ولذا تأكدت من أنها في كل مساء وكل صباح، عندما تخلع لباسها، تُظهر لهما جسدها، وكانت تدرك الكيفية التي ينظر بها كيرام إليها بينما اعتقد أنها لم تكن تراه.

وهم يمشون في الطريق أصبحت الأرض أكثر ازدحامًا بالحقول والمدن، ولم يكن هناك أشجار تنمو، على الرغم من وجود بقايا أشجار مقطوعة وأجزاء من الغابات المحترقة، ولم يكن هناك في الواقع مساحات مفتوحة على

الإطلاق سوى الأرض الصخرية عديمة القيمة أو المستنقعات. وكان هناك حقول وأجزاء من الأرض التي حُرثت من قبل، ولكنها مهجورة وقاحلة الآن وبلا فائدة. ولم تكن أقدامها تطأ الأرض دون أن تخطو على أثر شخص آخر مشى قبلها، إلا نادرًا. وقد أذهلها مدى إعادة تشكيل العالم على يد هؤلاء الناس المحتشدين.

وأخيرًا وصلوا إلى كاتا هوك نفسها.

وكان أول شيء رأته جونا جدارًا مبنيًّا من الطوب الطيني والقش، وكان سورًا دائريًّا بلغ ارتفاعه ثلاثة أضعاف طول رجل واحد، وعليه رزة. وخارج الجدار كانت توجد حلقة كبيرة من الأكواخ القذرة ذات الأسطح المائلة المبنية من الطين وفروع الأشجار، وكان الجدار واسعًا جدًّا، وبدا يقسم الأرض إلى نصفين متساويين.

وهناك طريق واسع ممهد يقود إلى الجدار نفسه، وهو طريق اتبعته مجموعة كيرام. ولكن عندما اقتربوا أتى إليهم الناس منفعلين مثل الدبابير خارج أكواخهم، وهم يصرخون، ممسكين بثوب كيرام ويحملون اللحوم والفاكهة والحلوى وقطع الخشب والأحجار المنحوتة. وتراجعت جونا ولكن كيرام أكد لها أنه لا شيء يجب الاهتمام به، وهؤلاء الناس كانوا يحاولون ببساطة أن يبيعوا أشياءهم، وهذا المكان سوق، ولم تعنِ لها هذه الكلمات شيئًا.

كانت هناك بوابة عظيمة مصنوعة من الخشب، موضوعة في الجدار، ونادى كيرام بصوت مرتفع، ولوح رجل فوق قمة الجدار ففتحت البوابة، وسارت المجموعة خلالها.

وبينما كانت جونا تمشي مستغربة وجدت نفسها ترتجف.

كانت الأكواخ أول شيء أثار انتباهها، وقد كان هناك العشرات والعشرات منها وكانت مبعثرة في تكتلات عبر المجمع الذي تمتد مساحته عدة كيلومترات بين جدران السور. ومعظمها لم يكن أفضل من أكواخ جماعة كال، إذ كانت كتلًا من الخشب والوحل حالتها رثة. ولكن بعض الأكواخ المتجهة نحو مركز المدينة كانت أفخم من ذلك، إلى جانب أنه كان هناك أبنية متداعية ترتفع طابقين أو ثلاثة، وواجهتها محاطة بأعشاب صفراء مجدولة مشرقة

في الشمس. ومجموعات الأكواخ تتخللتها ممرات قسمت بين كل مجموعة والأخرى على نحو يشبه شبكة العنكبوت. وكان الدخان عالقًا مثل سحابة رمادية عظيمة في كل مكان، وكان الصرف الصحي يجري في قنوات في منتصف كل شارع، وطنَّ الذباب متجمعًا في سحب مستقيمة ضخمة فوق النفايات المتدفقة ببطء.

احتشد الناس وسار الرجال معًا، وكان الأطفال يجرون ويصرخون، وتحمل النساء أحمالًا ثقيلة على رءوسهن وظهورهن، إلى جانب وجود حيوانات متزاحمة بشدة مثل زحام الناس من ماعز وخراف وكلاب، وكانت الضجة مذهلة وغير متناهية، وانتشرت روائح البراز والبول والحيوانات واللحوم الدهنية المطبوخة والنيران، وسيطرت على المكان.

تلك هي كاتا هوك ولأنها يسكنها عشرة آلاف من البشر، متزاحمين داخل جدرانها، كانت إحدى أوائل المدن في الأرض. وحتى بلدة كال لم يكن لديها مثل تلك الاستعدادات الموجودة في كاتا هوك. وبالنسبة لجونا فقد بدا لها الأمر كأنها تنظر إلى بحر قاتم كبير مليء بالناس.

ابتسم لها كيرام قائلًا: «هل أنت بخير؟»

– «أي إله خلق كل هذه الحشود من البشر؟»

– «إنها ليست من خلق الإله، ولكنهم البشر يا جونا، الكثير والكثير منهم. يجب أن تعي ذلك جيدًا، فبغض النظر عن غرابة كل ما يحدث فإن ذلك من صنع الإنسان، مثلي ومثلك.» واستطرد ببراءة ساخرة: «بالإضافة إلى أن هذا هو المكان الذي تنتمين إليه.»

فقالت عاجزة عن إقناعه: «هذا هو المكان الذي ولدت فيه، لكنني خائفة لا أستطيع إيقاف هذا الشعور بالخوف.»

قال لها بصوت خافت: «سأكون معك.»

وفكرت وهي تضع يدها في يده، ولمحت أن موتي رآهما وابتسم متكلفًا.

ساروا في طريق مشجر نصف قطري نحو الأبنية العظيمة إلى مركز المدينة، وكانت جونا مندهشة بالفعل؛ فالمباني ترتفع ثلاثة طوابق، وكانت مباني عظيمة تبدو عملاقة بين باقي مباني المدينة. وأنشئت هذه المباني في مربع غير مكتمل حول فناء في الوسط تنمو فيه الحشائش والأزهار بشكل

كثيف. ووقف الرجال المسلحون بالرماح الشائكة في كل مدخل، وهم يتفرسون بنظرات يشوبها الشك، وتحركت النساء بأواني الماء يرششنها على الحشائش.

وابتسم موتي ابتسامة عريضة في وجه جونا قائلًا: «ها هي تحملق مرة أخرى فيما ترى، ما الأمر الغريب في ذلك؟»

عانت وهي تعبر عما تريد قائلة: «لماذا يلقين الماء على العشب؟ فالمطر يسقط وينمو العشب.»

وهز موتي رأسه: «لا يسقط بانتظامٍ كافٍ هنا، وأعتقد أن بوتوس أمر الطقس نفسه بهذا.»

مشت المجموعة إلى أكبر المباني ودخلتها، ولم تكن جونا قد رأت مساحة مغلقة كبيرة بهذا الحجم. وكانت السلالم تربط بين الطابق السفلي والأرضيات التي تعلوه كطوابق وسطى. وعلى الرغم من ضوء النهار الساطع اشتعلت المصابيح مدخنة على الجدران، تُخلف وراءها ظلالًا، وتملأ القصر بالضوء الأصفر. ومشى الناس المرتدون ملابس براقة على كل الطوابق، ولوح بعضهم من أعلى إلى كيرام وموتي عند المرور بهم. وبدا الحال كالنظر إلى أعلى إلى فروع شجرة عظيمة. وحتى الأرضية كانت غير عادية، ومصنوعة من الخشب المقطع بنعومة بالغة تحت قدميها، وممسوحة بالزيت أو الشحم مما أضاف إليها لمعانًا.

ووصلوا الآن إلى مركز المبنى حيث توجد منصة يجلس عليها، فوق كتلة كبيرة من الخشب منحوتة على نحو مزخرف، أكثر الرجال الذين رأتهم جونا في حياتها بدانة. وكان ثدياه أكبر من ثديي أم ترضع، وله بطن منتفخ لامع بالزيت، ورأسه كرة من اللحم خالية تمامًا من الشعر؛ إذ كان رأسه محلوقًا ولم تكن له لحية أو شارب أو حتى حاجبان، وكان عاريًا حتى الوسط، ولكنه يرتدي سروالًا جميلًا.

كان ذلك المخلوق البدين هو بوتوس، أكثر الرجال قوة، وكان أحد أولئك الملوك الأوائل من الجنس البشري. وكان يتحدث إلى رجل نحيف يشبه الجثة واقف بجانبه ولكنه لم يصل إلا إلى كوعه، وكان هذا الرجل يقلب بين كفيه أطوالًا من الخيط المعقود بتركيز شديد.

انتظر كيرام وموتي بصبر إلى أن ينتبه إليهما بوتوس كليةً.

وهمست جونا: «ماذا يفعلان بهذا الخيط؟»

همس إليها موتي: «الحسابات، إنهم يسجلون أعمال المدينة والمزارع، وعدد الخراف والماعز لديهم، ومقدار كمية الحبوب التي يتوقعونها من الحصاد القادم، وعدد المواليد، وكذلك عدد الأموات.» وابتسم لعينيها الواسعتين، وأضاف: «إن أمورنا تُسرد على هذه الأجزاء من الخيوط، يا جونا، وهذا هو نظام مدينة كاتا هوك.»

وخزه كيرام؛ فقد انسحب الرجل الذي يحمل الخيط، والتفت رأس بوتوس الضخم نحوهم، فانحنى كل من كيرام وموتي على الفور، وحملقت جونا فقط حتى سحبها كيرام إلى أسفل.

قال بوتوس له: «دعها تقف» وكان صوته يشبه صوت الحصاة في قاع النهر، وعيناه على جونا، فأشار إليها.

وسارت جونا بتردد إلى الأمام.

انجه ناحيتها متكئًا، واستطاعت أن تشم رائحة زيت الحيوان على جلده، وأسسكها من شعرها وجرها بقسوة شديدة جعلتها تصرخ، وقال: «من أين أتيتما بها؟»

شرح كيرام بسرعة ما حدث في بلدة كال قائلًا: «إنها تقول يا سيدي إنها ولدت هنا ... هنا في كاتا هوك، وتقول إنها خُطفت وهي طفلة و....»

قال بوتوس لها بنبرة لاذعة: «اخلعي ملابسك.»

حملقت فيه وهي مستاءة من رائحته، ولم تطعه، ولكن موتي مزق عن جسدها سترتها الجلدية حتى جعلها تقف عارية أمامه.

هز بوتوس رأسه، وكأنه يقيم فريسة صياد قائلًا: «جسم جميل، وطول معقول، وهيئة جيدة، و... طفل في بطنها، فهمت. هل تصدقها يا كيرام؟ لم أسمع مطلقًا عن طفلة اختُطفت من هنا ... منذ متى؟ منذ خمس عشرة أو ست عشرة سنة؟»

قال كيرام: «ولا أنا.»

- «يقولون إن الفتيات من البرية خلف هذه الحقول، يكبرن على هذا النحو؛ حيث الطول ومظاهر الصحة الجيدة، على الرغم من الطريقة المخيفة للحياة التي يعشنها.»

قال كيرام بحذر: «ولكن إذا كانت بربرية فإنها فتاة ماهرة، وأعتقد أن حكايتها سوف تمتعك.»

قالت جونا: «إنها الحقيقة»

علا صوت بوتوس بالضحك: «إنها تتحدث.»

- «إنها تتحدث بشكل جيد، إنها ماهرة يا سيدي ولها ....»

«ارقصي لي يا فتاة» وعندما نظرت إليه جونا محملقة فيه دون أن تنطق كلمة واحدة، قال لها بوتوس بقسوة طفيفة: «ارقصي لي وإلا ستُطردين من هنا جرًّا على الأرض الآن.»

فهمت جونا القليل مما يحدث، ولكنها فهمت أن حياتها تعتمد على كيفية تصرفها الآن.

رقصت وتذكرت الرقصات التي كانت ترقصها هي وأختها سيون عندما كانتا طفلتين، والرقصات التي اشتركت فيها وهي فتاة كبيرة متبعةً رقصات الشامان.

وبعد فترة ابتسم بوتوس ابتسامة عريضة، ثم بدأ هو وكيرام وموتي في التصفيق لها على إيقاع قدميها الحافيتين عندما تضرب بهما أرضية الخشب المصقول.

رقصت وهي عارية، والاستغراب يحاصرها من كل جهة، رقصت ثم رقصت.

منذ البداية رأت جونا بوضوح أنها إذا أرادت أن تظل بصحة جيدة وتتغذى جيدًا، وتتحرر من عذاب العمل الذي لا نهاية له، العمل المجهد لظهرها، فإنها يجب أن تظل قريبة من بوتوس قدر استطاعتها.

ولذا جعلت نفسها مشوقة قدر المستطاع، وأخذت تنقب في بحر ذكرياتها عن المهارات والإنجازات التي كانت شائعة بين قومها، وتبدو رائعة في أعين سكان خلية النحل هذه. فنظمت سباقات لمسافات طويلة وفازت بها بسهولة مذهلة، حتى وهي في حملها الثقيل، وصنعت قاذفات للرماح وأظهرت مهارتها في ضرب الأهداف الصغيرة والبعيدة جدًّا التي لم يستطع معظم حاشية بوتوس رؤيتها. وكانت تأخذ أجزاءً عشوائية من

الخشب والحجر والصدف وتشكل منها الأنصال وتنحت الحلي في عملية بدت مبهرة ومذهلة لهؤلاء البشر الذين كانوا بعيدين جدًّا عن موارد الأرض.

ثم وضعت طفلها، وكان طفلًا نحيلًا، سوف ينمو ويكبر ليصبح مثل توري، أبوه المفقود. وبمجرد أن تكون لديها القدرة فسوف تدربه على الجري والرقص والرمي كلما أمكنها ذلك.

وعندما ضاجعها كيرام أخيرًا — عندما سامحها على كذبها الذي كذبته عليه حتى تقنعه بأن يحضرها إلى هنا — وعندما ارتدت العقد الصدفي المطعم بالذهب بعد عام، حملت وأنجبت له طفلًا، وشعرت أن مكانها في قلب هؤلاء الناس آمن.

أما المدينة فلم تستغرق جونا وقتًا طويلًا لترى حقيقة خلية النحل المزدحمة هذه.

وكان هذا المكان طبقي النظام، ويتسم بالصرامة والانضباط، وكرس الناس حياتهم هنا لإطعام بوتوس وأبنائه وزوجاته وبناته وأقاربه، وهؤلاء الذين يخدمونه، والكهنة، والشبكة الخفية من الزاهدين الشبيهين بالشامانات الذين يبدو أنهم يعيشون حياة أفخم من حياة بوتوس نفسه.

لا بد أن تكون الحياة على هذا المنوال. وبتهجين النباتات أصبحت الأرض أكثر إنتاجًا، والموانع الطبيعية التي حالت دون نمو السكان أزيلت فجأة فانفجر عدد السكان.

وفجأة لم يعد البشر ينجبون مثل الرئيسيات، بل يتكاثرون مثل البكتريا.

وجعل الأفراد الجدد الكثيرون نمو أنواع جديدة من المجتمعات أمرًا ممكنًا، حيث المراكز الكبيرة للسكان والمدن والبلدات، التي يطعمها تدفق هائل من الطعام والمواد الخام من الريف.

لم يكن هناك مطلقًا مثل تلك الأعداد من البشر من قبل، ولا مثل تلك التعقيدات في العلاقات البشرية. فقد غيرت المدن — التي كان التغير ضروريًّا لها — من معالمها وأصبحت شكلًا جديدًا من التنظيم الاجتماعي. وفي المجتمعات الشبيهة بمجتمع جونا كانت صناعة القرار أمرًا مشتركًا، والقيادة غير رسمية، ماداموا جميعًا يعرف بعضهم بعضًا. وكانت الروابط

الأسرية كافية لحل معظم الصراعات، وبين المجموعات الأكبر قليلًا كان الرؤساء يشحذون القوى المركزية لإدارة شئون مجتمعهم.

والآن لم يعد ممكنًا للجميع أن يشاركوا في كل قرار، ولم يعد فعالًا في كل عائلة أن تزرع طعامها وتجمعه، أن تصنع أدواتها وملابسها، وأن تتاجر مع جيرانها مباشرةً وجهًا لوجه. ويومًا بعد يوم استطاع الناس توقع لقاء الغرباء والتعايش معهم، بدلًا من إبعادهم أو قتلهم، كما كان يحدث في الأيام السالفة. ولم تعد المحظورات القديمة المتعلقة بشئون القرابة كافية، فالسياسة نوعًا ما كانت مطلوبة للحفاظ على النظام.

أثبت الحكم المركزي فاعليته سريعًا، وتجمعت السلطة والموارد بصفة متزايدة في يد الصفوة في المجتمع، وظهر الرؤساء والملوك باحتكارهم صناعة القرارات والمعلومات والسلطة. وظهر نوع جديد من الاقتصاد المعاد توزيعه، وكان هناك تنظيم سياسي وتكنولوجيا سريعة التقدم، وحفظ للسجلات وبيروقراطية وضرائب؛ تطور هائل في تقدم الوسائل التي يتعامل بها البشر أحدهم مع الآخر.

ولأول مرة في تاريخ الهومينيد أصبح يوجد أفراد ليسوا مضطرين للعمل من أجل إيجاد الطعام.

وعلى مدار ثلاثين ألف سنة وُجد الدين والفن والموسيقى وسرد القصص والحروب. أما الآن فقد أصبح من الممكن أن يكون لدى المجتمعات الجديدة متخصصون، أي أفراد لا يقومون بشيء سوى الرسم أو تأليف الألحان المتكاملة على الناي المصنوع من العظام أو الخشب، أو تأمل طبيعة إله يمنح هبات النار والزراعة إلى بشر لا يستحقونها، أو القتل. ونبع من هذه التقاليد في النهاية الكثير من الجمال والعظمة المفهومة ضمنًا في الإمكانيات البشرية، ولكن ظهرت كذلك جيوش محترفة، وقتلة متخصصون، كان حراس كيرام من نفس نوعهم.

وفي كل مكان تقريبًا، منذ البداية، سيطر على المجتمعات الجديدة رجالٌ يتنازعون على السلطة، في مجتمعات تعاملت مع النساء، بطريقة أكثر أو أقل، كوسيلة. وأثناء الفترات التي عاش فيها البشر على الصيد وجمع الطعام تخلص الناس لولهة من السجن القديم للقوامة الذكورية

للرئيسيات. ولم تكن المساواة والاحترام المتبادل من المكملات، فمجتمعات الصيد وجمع الطعام كانت تؤمن بالمساواة الفطرية، حيث إن مشاركة أحد الطعام والمعرفة كانت بديهية في اهتمامات الجميع. ولكن هذه الأيام تلاشت، وفي سعيهم للتوصل إلى طريقة جديدة لتنظيم الأعداد المتزايدة من البشر كان الناس يعودون بسلاسة وتدريجيًّا إلى أساليب استُخدمت في ماضٍ لا يتسم بالعقلانية.

بدت الحشود المتحضرة الجديدة طريقة حديثة تمامًا للحياة، فليس هناك أي هومينيد — ولا رئيسيات — عاش في هذه التجمعات الكثيفة من قبل، ولكنها لم تكن حديثة بل كانت في الواقع تراجعًا إلى نمط شديد القدم. وكان في المدن الجديدة أشياء مشتركة مع مجتمعات الجمع والصيد في ماضيهم المباشر أقل مع اشتراكها مع مجموعات الشامبانزي في الغابة.

لم تدم فترة الأمن التي عاشتها جونا أكثر من أربع سنوات.

ففي ظلام ذات ليلة أيقظها كيرام وقال لها: «تعالي وخذي معك الطفلين، لا بد أن نرحل.»

استعدت جونا للرحيل بعينين ناعستين. وفي الليلة الماضية أقاموا حفلًا كبيرًا، وشربت جونا الكثير جدًّا من خمر الميد المصنوع من العسل، أكثر مما ينبغي. فلا توجد هذه المشروبات الكحولية إلا في الأراضي الزراعية؛ لأنها تحتاج إلى حبوب تُزرع بغرض صناعتها، وهذه إحدى الميزات الأساسية للفلاحين على الصيادين، الذين كبروا معتمدين على الخمور، ولكنهم لا يستطيعون صناعتها — على الإطلاق — لأنفسهم. وكانت هذه الميزة رفاهية لجونا، لا تزال في حاجة إلى الاعتياد عليها.

نظرت حولها محاولة أن تستيقظ وتتخلص من ارتباكها، فقد كانت الحجرة مظلمة، ولكن كان هناك ضوء خارج النافذة، ولكنه ليس ضوء النهار، لقد كان حريقًا.

وحينئذٍ استطاعت أن تسمع الصياح.

انزلقت سريعًا من مضجعها، وارتدت لباسًا بسيطًا، وذهبت إلى الحجرة المجاورة وأخذت طفليها. وكان الصبيان غاضبين لإزعاج نومهما، ولكنهما

عادا إلى النوم مرة أخرى على ذراعيها. وذهبت مرة أخرى إلى كيرام الذي كان يجمع الأسلحة والمواد القيمة في حقيبة له، وقالت: «أنا مستعدة الآن.»

نظر إليها وهي واقفة تنتظره مع طفليها اللذين تحملهما على ذراعيها. جرى ناحيتها، وقبلها قبلة عنيفة على شفتيها وقال لها: «إني أحبك كثيرًا بحق رأس بوتوس، إن كانت لا تزال فوق عنقه.»

لقد كانت مذهولة من هذه الكلمات غير مدركة ما تعني.

قال لها بحزن: «إن هذه الليلة سيئة لكاتا هوك ولنا، إذا لم نكن محظوظين.» واستدار واتجه نحو الباب وهو يسحب حقيبته وقال: «تعالي، سوف نغادر من البوابة الخلفية.»

خرجوا مسرعين من منزلهم، ووقتئذٍ استطاعت أن ترى مصدر النيران، إنه القصر الأصفر العظيم؛ قصر بوتوس يحترق، ولهب النيران يرتفع عاليًا في الهواء، وسمعت جونا الصيحات من داخل القصر نفسه ولمحت الناس يعدون.

وامتلأت الشوارع بالبشر؛ نحافًا تعلوهم القاذورات، والكثيرون منهم تغطيهم جلود مهلهلة أو خرق من الألياف النباتية، وجميعهم يندفعون مثل الفئران الجوعى. وبالنسبة لجونا، لم تكن الأصوات المتداخلة للبشر آدمية، بل كانت مثل زئير الرعد أو دمدمة العاصفة المطرة، شيء يتجاوز التحكم البشري. وهي ممسكة بطفليها حاولت أن تتحكم في خوفها وقالت: «إنه الجوع.»

- «نعم.»

المجاعة؛ كلمة أخرى جديدة كان على جونا أن تتعلمها. فهناك آفة زراعية أصابت محصول القمح الأساسي في مزارع المنطقة، ولم يفهم أحد هذا الأمر، وليس باستطاعة أحد تقديم المعالجة. وعندما فشل المحصول انتشر الجوع سريعًا، وكانت الإشارات الأولى للضيق قتل جامعي الجزية الذين حاولوا أن يجمعوا كل ما كان من حق بوتوس، والآن انتهى الأمر هكذا. كانت قبيلة جونا تتغذى على الكثير من النباتات البرية، ولم يكن هناك آفة زراعية تدمر هذه النباتات، كما استطاعت التخلص من محصولهم الأساسي الوحيد. المجاعة، هبة أخرى غامضة من هبات طريقة الحياة الجديدة.

حاولت الأسرة ألا يراها أحد، متجنبة الدروب الرئيسية، واتخذت طريقًا متعرجًا، نحو البوابة الرئيسية.

وقال كيرام: «توجد مستوطنة جديدة إلى الغرب من هنا، بجوار الساحل؛ الأرض الزراعية خصبة فيها وموارد البحر غزيرة، ولكن الوصول إليها يستغرق أيامًا ...» قالت جونا بقوة: «سنقوم بهذه الرحلة ....»

أومأ برأسه على نحو طفيف وقال: «إننا مضطرون.»

وفي النهاية وصلوا إلى البوابة المفتوحة، وكان موتي ينتظرهم، وتسلل ثلاثتهم ليلًا، ممسكين بالطفلين.

وعندما توجهوا إلى الشرق، وفي كل مكان ساروا فيه، مشوا خلال الأرض التي غيَّرها الفلاحون وبناة المدن. وحتى الأرض التي مرت بها جونا من قبل وهي تهرب مع كال من موطنها، تغيرت تمامًا ولم تعرفها، فكان التوسع سريعًا جدًّا.

حدث ذلك التوسع لأن الأرض المزروعة سرعان ما ازدحمت، والأبناء والبنات أرادوا أن يمتلكوا نصيبهم من العالم ويسيطروا عليه، كما فعل آباؤهم. وقد تحقق هذا بسهولة، ولم تقتصر معرفة الفلاحين على نوع معين من الأراضي، مثل معرفة الصيادين وجامعي الطعام. وكان تفكيرهم نظاميًّا؛ إذ عرفوا كيف يحولون الأرض ليجعلوها كما أرادوا أيًّا كانت طبيعتها، ولم يقبلوها بالحال التي كانت عليه، وكان إنشاء المستعمرات أمرًا سهلًا جدًّا على الفلاحين.

وبذلك بدايةً من أول المزارع المحروثة بطريقة بدائية والممتدة في شرق الأناضول، بدأ التوسع العظيم. وكان ذلك نوعًا من الحرب البطيئة التي شُنت على كوكب الأرض نفسه، حيث تحولت الأرض لتتناسب مع احتياجات ذلك التجمع المتزايد من البطون البشرية. وأصبح التوسع كبيرًا وسرعان ما تجاوز جغرافيًّا انتشار ذوي القامة المنتصبة والأجيال السابقة من بني البشر، وهو توسع سوف يتزايد بسرعة مذهلة.

ولم يكن ذلك التوسع يحدث في الفراغ، ولكن في الأرض التي ضمت المجتمعات القديمة المعتمدة على الصيد وجمع الطعام.

ولم يكن من الممكن حدوث مشاركة فيه بالطبع. وذلك لوجود صراع بين نظرتين مختلفتين بشكل أساسي للأرض؛ فقد رأى الصيادون أن الأرض مكان يرتبطون به، مثل الشجرة التي نبتت من تلك الأرض. ولكن الأرض للمزارعين مصدر للامتلاك والشراء والتقسيم والتوزيع، وهي ملكية وليست مكانًا مباحًا. ولذلك كانت هناك نتيجة واحدة فقط، هي: تزايد عدد المزارعين عن عدد الصيادين جامعي الطعام.

بعد سفر استغرق ثلاثة أيام وصلوا إلى مدينة من المدن الفقيرة، وهي مجموعة متواضعة من المخيمات والأكواخ ذات الأسطح المائلة. حدقت جونا فيما حولها، وهي متوترة غير مهتمة، وقالت: «لماذا جئنا إلى هنا؟ لا بد أن نرحل قبل أن يحل الظلام ....»

وضع كيرام يده بلطف على ذراعها، وقال: «اعتقدت أنك تودين التوقف هنا جونا، ألا تستطيعين التعرف على هذا المكان؟»

وتردد صوت امرأة مألوف قائلًا: «يجب فعليًّا التوقف هنا.»

استدارت جونا، وكانت هناك سيدة تمشي وهي تعرج مقبلة نحوها، ورأسها مغطى بقطعة من الجلد البالي. واختلط الأمر على جونا؛ لقد كانت الكلمات غريبة، نعم، لأنها كانت بنفس اللغة التي تربت عليها جونا وهي كلمات لم تسمعها منذ اليوم الذي تبعت فيه كال خارج قريتها.

والآن استطاعت جونا أن ترى وجه المرأة، إنها سيون أختها الكبيرة. فغمرها شوق جارف، لا يوصف، وقالت: «أوه، سيون»، وتقدمت إلى الأمام ومدت إليها ذراعيها.

ولكن سيون تراجعت وتغيرت تعبيرات وجهها قائلة: «ابتعدي، إن المرض لم يقتلني كما قتل الكثيرين غيري، ولكني قد أكون أحمله.»

- «سيون، من مات؟»

وضحكت سيون ضحكة مريرة: «من مات؟ من الأفضل أن تسأليني عمن ما زال على قيد الحياة.»

نظرت جونا حولها: «وهل هذا حقًّا المكان الذي عشنا فيه؟ لم يبق شيء على حاله.»

قالت سيون بتذمر: «لقد شرب الرجال الخمور، وعملت النساء في المزارع، ولم يعد أحد يصطاد الآن يا جونا، وطردت الحيوانات بعيدًا عن الحقول، لكننا ندبر أمورنا، وأحيانًا نغني الأغنيات القديمة للفلاحين، ليعطونا المزيد من الجعة.»

- «ومن الشامان الآن؟»

- «لا يُسمح هنا بوجود شامانات، وآخر واحد منهم شرب حتى الموت، ذلك البدين الأحمق.» وهزت كتفيها بلا مبالاة قائلة: «وليس هناك فرق، فلا يوجد شيء يمكن أن يخبرنا به الشامان لمساعدتنا الآن. وليس الشامان هو الذي يعرف كيف ينمو القمح، لا أحد يعرف سوى الفلاحين وساداتهم القادمين من المدينة بخيوطهم وعيونهم الضيقة التي تحملق في السماء.»

كان المرض الذي أصابهم هو مرض الحصبة.

كان الجنس البشري فريسة دائمًا لبعض الأمراض، وكان بالطبع الجذام والياوز yaws والحمى الصفراء من بين الأمراض القديمة. وكان سبب الكثير منها الميكروبات التي تدافع عن نفسها في التربة أو في تجمعات الحيوانات، كما حملت القرود الأفريقية الحمى الصفراء. ولكن الناس كان لديهم الوقت ليتكيفوا مع معظم تلك الأمراض والآفات.

بظهور المجتمعات الجديدة المزدحمة ظهرت أمراض جديدة؛ أمراض الازدحام، مثل الحصبة والأنفلونزا والحصبة الألمانية والجدري. وعلى عكس الأمراض القديمة فإن الميكروبات المسئولة عن الأمراض الجديدة لم تكن قادرة على العيش إلا في أجسام الأحياء فقط من البشر. ومثل تلك الأمراض لم تكن لتتطور في أجسام البشر إلى أن أصبحوا مزدحمين بأعداد هائلة، ويتنقلون حتى يسمحوا لها بالانتشار.

وإذا انتشرت العدوى بين البشر المزدحمين فلا بد أن يكون سببها الزحام، وهكذا تنتشر العدوى: بين زحام الحيوانات، والمخلوقات التي تعيش في قطعان اجتماعية مزدحمة، التي يعيش الناس بالقرب منها، والحيوانات التي استوطنت فيها الأمراض فترة طويلة. فقد انتقل السل والجدري والحصبة إلى البشر عن طريق الماشية، وانتقلت الأنفلونزا من الخنازير، وانتقلت الملاريا من الطيور. وفي الوقت نفسه وصلت ناقلات الأمراض

المعدية — مثل الفئران والجرذان والبراغيث والبق — إلى البشر المتجمعين بازدحام غير مسبوق، وذلك بمساعدة بناء مخازن الحبوب. ولكن أصبح لدى من بقي من البشر على قيد الحياة مقاومة من نوع ما، مع أن بعض الآليات التي استخدموها كانت غير متقنة ولها آثار جانبية مدمرة. وأدت آليات التعايش مع الأمراض عملها ببطء شديد لإزالة هذه العيوب والنقائص مقارنةً بالمعدل السريع لتغير الثقافة البشرية.

ولكن لم يكن لدى الصيادين جامعي الطعام في نطاق المزارع الموسع أدنى مقاومة، ولذا هلكوا في الوقت الذي تحكم جيرانهم من المزارعين في أراضيهم.

وذلك التحول من الطريقة القديمة للحياة إلى الطريقة الجديدة، كان لحظة حاسمة في التاريخ البشري. وتُوصل إلى اختيار جماعي غير واع بين تحديد النمو السكاني من جهة من أجل التناسب مع الموارد المتاحة — مثلما فعل الصيادون جامعو الطعام من قبل — ومحاولة زيادة الإنتاج الغذائي من جهة أخرى من أجل إطعام عدد متزايد من السكان. وبمجرد أن تُوصل إلى هذا الاختيار تزايد توسع المزارعين. ومن الآن فصاعدًا كانت الجماعات المتبعة الطرق القديمة ستعيش فقط في أكثر البيئات هامشية؛ على حدود الصحراء، وقمم الجبال، والغابات الكثيفة ... وهي الأماكن التي لا يمكن للفلاحين استصلاحها.

وسيحدث هذا في أفريقيا، حيث انتشر المزارعون من قبائل البانتو المسلحون بالأسلحة الحديدية، خارج الصحراء الكبرى الغربية، قاهرين أفرادًا مثل الأقزام والجماعات الخويسانية — أسلاف جوان يوسِب — إلى الساحل الشرقي لجنوب أفريقيا. وسيحدث أيضًا في الصين حيث سيتجه المزارعون من الشمال، وستساعدهم في ذلك الجغرافيا المتكاملة للصين، من أجل إعادة تعمير أجزاء كثيرة في جنوب شرق آسيا الاستوائية، وعدل توافق بينها وبين غيرها من المناطق، دافعين السكان الموجودين أمامهم في غزوات ثانوية هاجمت تايلاند وبورما.

وأثبتت المساحات الشاسعة من الشرق إلى الغرب في أوراسيا أنها من العوامل المفضية بصفة خاصة إلى حدوث توسع. إذ انتشر المزارعون

بسهولة على طول خطوط العرض، متنقلين إلى مناطق ذات طقس متشابه، وعدد ساعات في الليل والنهار متشابهة، ومناطق مناسبة كذلك لمحاصيلهم وبهائمهم. وبماشيتهم وماعزهم وخنازيرهم وخرافهم وإنتاجهم المرتفع من القمح والشعير وأعدادهم المتزايدة، كان أحفاد مزارعي كاتا هوك سيصبح لهم ملكية تامة لمحصولي القمح والأرز. أما أهرام مصر فسوف يبنيها أولئك العمال الذين اعتمدوا في تغذيتهم على المحاصيل، وهم أنفسهم الذين امتدت جذور أسلافهم إلى جنوب غرب آسيا. وسيأخذون معهم اللغة الأوربية الهندية، ولكنها ستنقسم وتتحول وتتكاثر لينتج عنها اللاتينية والألمانية والسنسكريتية والهندية والروسية والويلزية والإنجليزية والإسبانية والفرنسية والكاليكية. وفي النهاية سوف يستعمرون منطقة كبيرة في الشمال الشرقي تمتد من الساحل الأطلنطي إلى تركستان، ومن سكاندينافيا إلى شمال أفريقيا. وفي يوم ما سوف يمكنهم عبور المحيطات في قوارب من الخشب أو الحديد.

وعبر هذه المساحة الهائلة من الأراضي المزروعة سوف تزدهر المدن والإمبراطوريات وتنهار مثل عيش الغراب. وفي كل مكان يذهب إليه المزارعون يحملون أمراضًا كثيرة معهم، ويحملون أيضًا أشياء وأفكارًا عديمة القيمة مع تيار اللغة والثقافة والحرب.

قالت جونا باندفاع: «تعالي معنا يا أختاه.»

نظرت سيون إلى كيرام وموتي وضحكت قائلة: «إن هذا ليس ممكنًا» ثم حدقت بشيء من الأسى إلى طفليّ جونا اللذين كانا ينامان على ذراعي موتي وكيرام وهمست: «إلى اللقاء» وأسرعت راجعة إلى الأكواخ.

ذهبت جونا وراءها لتوديعها ولكنها فكرت أنها ستكون آخر كلمة تتحدث بها بلغتها الأصلية لأنها لن تأتي إلى هذا المكان مرة أخرى على الإطلاق.

ولذلك، وبدون أن تتحدث، أدارت وجهها، واستأنفت مع طفليها سيرها السريع الثابت إلى الغرب، حيث المدينة الجديدة على الساحل.

الفصل الخامس عشر

الضوء يخبو

روما، عام أربعمائة واثنتين وثمانين بعد مولد المسيح.

١

كانت الشمس ساطعة في روما، والهواء في إيطاليا مندًى بالماء، بالنسبة لرجال ألفوا الطقس المعتدل الذي تميزت به بلاد الغال Gaul. ورائحة المدينة الكريهة ما زالت عالقة في الأجواء، رائحة النار والطهي، وقبل ذلك كله رائحة الصرف الصحي.

وحين قاد هونوريوس أثالاريك إلى الساحة حاول أثالاريك جاهدًا ألا يشعر بأي ارتباك.

تعثر هونوريوس العجوز النحيل قليلًا في ثوبه الروماني الفضفاض البالي الذي أحاط بجسده، وقال: «لم أتوقع أن تكون الشمس بهذه القوة، ومن المؤكد أن هذا الضوء الساطع كان له تأثيره في تشكيل أجسام أجدادي ومَلئهم بالقوة والنشاط ... آه ... كم اشتقت أن أرى هذا المكان ... فهذا هو «الطريق المقدس»؛ حيث يوجد معبد «كاستور وبولاكس» Castor and Pollux، وهناك معبد «قيصر المتحدِّي» Defied Caesar وبجواره «قوس أوجستس» Arch of Augustus. ثم شق طريقه بعد ذلك إلى ظل أحد التماثيل؛ بطلٍ من البرونز يمتطي صهوة جواده، وقد ارتكز على قاعدة مربعة يزيد ارتفاعها وحدها على أكثر من عشرة أضعاف أو اثني عشر ضعفًا عن طول قامة أثالاريك. ثم استند إلى الرخام، وأضاف وهو يتنفس بجهد: «لقد قال أوجستس إنه وجد روما مدينة من القرميد، وتركها مدينة

من الرخام، والرخام الأبيض — كما تعرف — يأتي من لونا في الشمال، أما الرخام الملون فهو من شمال أفريقيا واليونان وآسيا الصغرى. ولم تكن هذه المناطق أجنبية كما هي الآن.»

كان أثالاريك يصغي إلى معلمه، دون أن يرتسم على وجهه أي تعبير.

هنا كان قلب روما، وهنا كان دولاب العمل يدور حتى في العصور الجمهورية. ومنذ ذلك الوقت سعى القادة والأباطرة منذ أيام حكم يوليوس قيصر وبومبي إلى المجد، من خلال تجميل هذا المكان الأثري العتيق، بحيث أصبحت المنطقة تموج بالمعابد وأقواس النصر وصروح الباسيليقا — أي كنائس الحكمة — والأساليب الشعائرية وقاعات المشورة والمنابر والساحات المفتوحة. في حين كانت قصور الأباطرة فوق تل بلاتين Palatine hill تعلو على كل هذه الصروح وتمثل رمزًا للقوة الغامضة.

أما الآن فقد ذهب هؤلاء الأباطرة، مثل الجمهوريين من قبلهم.

كان أثالاريك قد اختار أن يرتدي في ذلك اليوم أحسن ما يمتلك من مظاهر الزينة المعدنية، فقد كان حزامه مزينًا بحلية من البرونز تتخللها خطوط رفيعة من الذهب والفضة، كما كان المشبك الأمامي الذي يثبت عباءته مصنوعًا من الذهب الموشى بالفضة والعقيق. وقد أثارت هذه الحلي البربرية استهزاء وسخرية الرومانيين، إلا أنها في تلك اللحظة وفي قلب مدينتهم كانت تعكس أضواء شمس إيطاليا الحارقة. بل إن أثالاريك لم ينسَ أيضًا أن يضع حول عنقه قطعة الصفيح المطروق التي تشير إلى أن أباه كان أحد العبيد، وذلك حتى يتذكر تمامًا من أين أتى.

كان فخورًا بنفسه وبما يمكن أن يفعله.

ومع ذلك كان اتساع المكان — وهو الذي اعتادت عيناه على المدن الصغيرة في الغال — يثير دهشته.

كانت روما في معظمها مدينة من القرميد والخشب والحجارة غير المصقولة. وكان اللون الغالب عليها هو الأحمر المتوهج على الأسطح التي تغطي الكثير من المباني السكنية. وكان السكان منذ الأزمنة البعيدة قد تجاوزوا حصون المدينة القديمة، وأيضًا الأسوار الممتدة التي بنيت لمقاومة تهديد غزو البربر منذ قرنين ماضيين. وقد قيل إنه في وقت ما قطن مليون

نسمة هذه المدينة التي حكمت إمبراطورية من مئة مليون نسمة، إلا أنها هذه الأيام انتهت، وبقيت الضواحي المهجورة شاهدة عليها، ولكن على الرغم مما حفلت به الأيام من أزمات، فإن كثرة المباني بها كانت تثير الذهول. فقد كان هناك سيركان ومدرجان، وأحد عشر حمّامًا عامًّا، وستة وثلاثون قوسًا، وقرابة ألفين من القصور، وآلاف البحيرات والنافورات التي كانت تغذيها مياه نهر التيبر من خلال تسع عشرة قناة.

ووسط هذا البحر من القرميد الأحمر والبشر المحتشدين أحس أثالاريك أنه وسط جزيرة هائلة من الرخام الذي لا يستخدم في الأعمدة والتماثيل فقط، بل في كسوة الطبقة الخارجية من المباني وأعمال الرصف أيضًا.

ومع ذلك، وبالرغم من اتساع الساحة وامتلائها بأكشاك البيع، فإن أثالاريك شعر بالحزن العميق. فلم تعد المدينة خاضعة للحكم الروماني، بل كان يحكمها رجل ألماني سكيري يدعى أودواسر فرضته القوات الألمانية المتمردة، وقد اختار أودواسر بلدة رافينا عاصمة له، وهي بلدة تقع عند الحدود الشمالية، أما روما فقد نُهبت مرتين.

بدأ أثالاريك — بدافع من دهشة يشوبها بعض القسوة — يشير إلى مظاهر التخريب والتدمير في المدينة: «انظر إلى قواعد التماثيل الخالية ... لقد سُرقت التماثيل، أما تلك الأعمدة فقد تهاوت ولن يصلحها أحد، وحتى بعض الرخام الذي يكسو حوائط المعابد قد نُهب! إن روما تتهاوى يا هونوريوس.»

أجاب هونوريوس بحدة: «بالطبع إنها تتهاوى.» وتحرك قليلًا ليبقى في ظل التمثال: «طبعًا إن المدينة تتهاوى، وأنا كذلك.» ورفع يده التي ظهرت فيها بقع بنية: «وأنت كذلك يا أثالاريك رغم شبابك وعجرفتك. ومع ذلك فإنني ما زلت شابًّا، فأنا هنا، أليس كذلك؟»

أجابه أثالاريك بشيء من العطف: «نعم أنت هنا، وروما أيضًا هنا.»

هزَّ هونوريوس رأسه قائلًا: «هل تعتقد يا أثالاريك أن الطبيعة قد بدأ يصيبها التعب والإرهاق؟ وأن جميع أشكال الحياة بدأت تتلاشى مع الأجيال المتتالية؟» فرد عليه: «من المؤكد أن هذا المكان العظيم قد شيده رجال ذوو عقول وقلوب رائعة، رجال لن تجدهم في عالمنا الحاضر، الذي يمتلئ بالتمزق والمشاحنات، رجال من الواضح أنهم قد انتهوا تمامًا على نحو مأساوي.

ولذلك يجب علينا أن نتجمل ونتصرف مثل من سبقونا — هؤلاء العظام الذين شيدوا هذا المكان — وليس هؤلاء الذين يحاولون هدمه وتخريبه.»

هزت هذه الكلمات مشاعر أثالاريك وإن كانت تستبعده، فقد كان يعلم جيدًا أنه تلميذ جيد، وأن هونوريوس يحترم عقليته. وبالرغم من أن أثالاريك لديه سبب لأن يحس بشيء من مسئولية الحماية تجاه هونوريوس بل بكثير من المودة — «إلا لما كان قد صحبه في هذه الرحلة الخطرة عبر أوروبا بحثًا عن عظام قديمة — فإنه كان يحس في أعماقه بوجود حواجز في قلب هونوريوس ثابتة وراسخة مثل هذه الأسوار العظيمة من الرخام التي تحيط به.

كان أجداد هونوريوس من شيدوا هذا المكان العظيم، وليس أجداد أثالاريك، وكانت نظرة هونوريوس إليه — مهما فعل — ستظل نظرته إلى ابن أحد العبيد، بل أحد البرابرة.

تقدم منهما رجل يرندي عباءة فاخرة — تختلف تمامًا عن عباءة هونوريوس الرثة. إلا أن بشرته كانت داكنة كالزيتون.

ابتعد هونوريوس عن قاعدة التمثال وانتصب واقفًا، أما أثالاريك فقد أزاح ثوبه جانبًا ليظهر السلاح الذي يحمله حول وسطه.

وقف الرجل ينظر إليهما مليًّا — ببرود — وقد اختفت يداه في عباءته، وبصوت واضح قال باللاتينية: «لقد كنت أنتظركما.»

رد هونوريوس: «ولكنك لا تعرفنا.»

رفع الرجل حاجبيه وتأمل عباءة هونوريوس المتربة من جراء رحلتهما، ثم ثبَّت عينيه على الزينة التي يتحلى بها أثالاريك: «نحن ما زلنا هنا في روما، والقادمون من المقاطعات الأخرى يمكن التعرف عليهم بسهولة. أنا مَن تبحث عنه يا هونوريوس، ويمكنك أن تدعوني باباك.»

- «هذا اسم ساساني ... اسم شهير»

ابتسم باباك قائلًا: «يا لك من مطلع.»

ثم بدأ يسأل هونوريوس بسهولة عن مصاعب رحلتهما، وأثناء ذلك كان أثالاريك يتأمله بدقة. والاسم بمفرده أخبر عنه الكثير؛ كان من الواضح أنه فارسي، من هذه البلاد العظيمة القوية، التي تقع وراء حدود بقايا

الإمبراطورية شرقًا، ومع ذلك فكل ملابسه رومانية خالصة، ولا يشير شيء إلى أصله، فيما عدا لون بشرته والاسم الذي يحمله.

كان من المؤكد أيضًا — في اعتقاد أثالاريك — أنه أحد المجرمين. ففي هذا الزمن الذي تهاوى فيه النظام، كان الذين يصلون إلى الثراء هم من يعملون في الظلام ويستغلون الجشع والبؤس والخوف عند المواطنين.

قاطع أثالاريك الحوار المرن بين الاثنين — وهو يقول في نعومة: «اغفر لي معلوماتي الفقيرة، ولكن ما أذكره عن التاريخ الفارسي هو أن باباك كان زعيم عصابة استولى على العرش من الحاكم الذي أقسم على الولاء له.»

استدار باباك نحوه ببساطة قائلًا: «لا يا سيدي، لم يكن زعيم عصابة وإنما كان كاهنًا ثائرًا، رجلًا له مبادئه. نعم ... لم تكن حياة باباك سهلة، وكانت اختياراته صعبة، أما حياته فقد كانت مشرقة، وهو اسم له إجلاله واحترامه، وأنا فخور بأني أحمله. هل تريد أن نقارن بين سلالتينا؟ إن أجدادك من الألمان كانوا يطاردون الخنازير في الغابات الشمالية ....»

تدخل هونوريوس قائلًا: «أيها السادة، أعتقد أنه من الأوفق أن نناقش لب الموضوع ....»

رد أثالاريك بحدة: «العظام يا سيدي، إننا هنا لنتقابل مع السكوثي scythian ونرى عظام أبطاله.»

وضع هونوريوس يده على ذراع أثالاريك يهدئه، إلا أن أثالاريك كان يشعر بتوتره وهو في انتظار رد باباك.

وكما توقع أثالاريك تنهد الفارسي ثم بسط يديه وقال: «نعم لقد وعدتكما بمقابلة السكوثي هنا في روما نفسها، إلا أنه يأتي من الصحراء الشرقية ولذلك يصعب العمل معه. على الرغم من أن عدم وجود جذور له يجعله ذا فائدة كبيرة بالطبع.» ثم حك أنفه الضخم بأسى قائلًا: «إن الانتقال من الشرق في هذه الأيام العصيبة ليس بآمن كما كان سابقًا، ولذلك يتردد السكوثي في المجيء ....»

وأحس أثالاريك بالضيق لنجاح خدعة باباك.

قاطعه هونوريوس مؤمنًا على كلامه: «لقد كان الأمر كذلك دائمًا، فقد كان التعامل مع الفلاحين أكثر سهولة. والحرب المنطقية يمكن أن تدور

بين من يملكون الأراضي، وإذا تمت أي تعاملات فالكل يتفهمها جيدًا، أما البدو الرحل فيشكلون تحديًا قويًّا، إذ كيف لك أن تقهر أي رجل لا يعرف أساسًا معنى كلمة القهر؟»

قال أثالاريك بحدة: «لقد كان بيننا اتفاق، وتبادلنا اتصالات شاملة معك على أساس استلام قائمة بالآثار محل الاهتمام، ولقد جئنا عبر أوروبا لمقابلة هذا الشخص، وأنفقنا كثيرًا من المال إلى جانب المخاطر التي تعرضنا لها، كما أذكرك أيضًا بأننا دفعنا نصف المبلغ الذي اتفقنا عليه، والآن أنت تخل باتفاقنا.»

وبالرغم من ذلك تأثر أثالاريك برد فعل باباك تجاه ما اعتبره جرحًا لكرامته، وثار باباك واشتعل وجهه غضبًا وقال: «إن سمعتي تمتد عبر القارة. وحتى في هذه الأوقات الصعبة يوجد الكثيرون مثلك يا سيد هونوريوس من خبراء البحث عن عظام الحيوانات والأبطال الذين عاشوا في الماضي. فقد كان ذلك واحدًا من الموروثات في عصر الإمبراطورية القديمة آلاف السنين، فإذا اتهمتني الآن بأني غشاش أو مخادع ....»

قاطعه هونوريوس وهو يحاول أن يسترضيه: «أثالاريك، من فضلك، أنا واثق من أن صديقنا الجديد لم يتعمد خداعنا.»

رد أثالاريك بشيء من التثاقل: «إن الأمر الذي أذهلني أننا بمجرد أن تقابلنا تبخرت وعودك لنا مثل ندى الصباح.»

قال باباك بافتخار: «إنني لا أنوي الرجوع عن كلمتي، ولكن السكوثي ... رجل صعب، ولا أستطيع أن أقدمه لكم كأنه قدح من النبيذ، رغم شعوري بالأسف لذلك.»

زمجر أثالاريك: «ولكن ....»

- «يمكنني أن أعرض عليكما حلًّا وسطًا.»

أحس هونوريوس بشيء من التفاؤل: «أرأيت يا أثالاريك. لقد كنت واثقًا من الوصول إلى حل إذا ما التزمنا بالصبر والإيمان.»

تنهد باباك وقال: «ولكني أخشى أن يتطلب ذلك منكما السفر مرة أخرى.»

رد أثالاريك بشك: «والمقابل؟»

- «سوف يقابلكم السكوثي في مدينة نائية إلى حد ما ... في البتراء Petra القديمة.»

تنهد هونوريوس وقد غادره بعض من حماسه.

كان أثالاريك يعلم أن البتراء موجودة في الأردن، وهي أرض ما زالت تحت حماية الإمبراطور زينو Zeno في القسطنطينية. وفي تلك الأوقات كانت البتراء تُعتبر عالمًا بعيدًا آخر. فأمسك أثالاريك بذراع هونوريوس قائلًا: «كفى أيها السيد، فهذا الرجل يتعامل معنا بالحيل التي يتعامل بها التجار؛ فهو يحاول فقط أن يشدنا إلى ....»

قاطعه هونوريوس مغمغمًا: «حين كنت طفلًا كان أبي يدير محلًّا أمام البيت الذي نسكنه، وكنا نبيع الجبن والبيض ومنتجات أخرى من إنتاج المزرعة، ونشتري ونبيع تُحفًا من جميع أنحاء الإمبراطورية، ومن خارجها أيضًا. وهذا هو سبب اهتمامي ومعرفتي بالآثار، بالإضافة إلى الحس الذي أملكه تجاه المعاملات التجارية. أنا طاعن في السن، ولكني لست مغفلًا يا أثالاريك! وأنا واثق من أن باباك سيستفيد من هذا الموقف ولكني لا أعتقد أنه يكذب في الأمور الأساسية.»

فقد أثالاريك صبره «إن لدينا عملًا كثيرًا ينتظرنا في بلدي، ولذلك فإن فكرة أن يسوقنا إلى رحلة عبر المحيط، من أجل حفنة من العظام القديمة المتحللة ....»

إلا أن هونوريوس كان قد استدار صوب باباك قائلًا: «البتراء ... هذا اسم له شهرته مثل روما نفسها! وسوف يكون في جعبتي الكثير من قصص المغامرات المثيرة لأرويها لأحفادي حين أعود إلى بورديجالا Burdigala. والآن أعتقد يا سيدي أنه حان الوقت لنبدأ في مناقشة ترتيبات الرحلة.»

ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه باباك، في حين كان أثالاريك يتفرس في عينيه محاولًا معرفة مدى صدق ما يقول.

استغرق الأمر أسابيع عديدة قبل أن يصل هونوريوس وأثالاريك إلى الأردن، بسبب البيروقراطية التي فرضتها الإمبراطورية الشرقية. فقد كان الشك يساور جميع المسئولين تجاه الغرباء القادمين من البقايا المتهرئة من

الإمبراطورية الغربية، حتى من هونوريوس نفسه على الرغم من أن والده كان أحد أعضاء مجلس الشيوخ في روما.

كان عهد أثالاريك الذي أخذه على نفسه هو الاعتناء بهونوريوس.

فقد كان لهونوريوس ابنٌ كان صديق طفولة أثالاريك، وكان هونوريوس قد اصطحب عائلته ومعها أثالاريك إلى إحدى الاحتفالات الدينية في تولوسا Tolosa جنوب الغال، إلا أنهم تعرضوا لهجوم إحدى العصابات. ولم ينسَ أثالاريك أبدًا شعور اليأس الذي انتابه وهو صبي؛ حين رأى كيف أوسعت العصابة هونوريوس ضربًا، ثم اعتدت على بناته، وأخيرًا قتلت الصبي الشجاع بلا مبالاة، وهو يحاول الدفاع عن شقيقاته. كان مواطنًا رومانيًّا رائعًا، ولكن أين رفاقك من المحاربين القدماء؟ أين نسورك؟ أين أباطرتك؟

شيء ما في أعماق هونوريوس تحطم في هذا اليوم الأسود، كأنما قرر أن ينسلخ من هذا العالم الذي يحتاج فيه أبناء أعضاء مجلس الشيوخ إلى رعاية النبلاء من القوطيين، وحيث تعيث العصابات فسادًا بحرية داخل ما كانت سابقًا المقاطعات الرومانية. وبالرغم من أن هونوريوس لم يهمل قط واجباته المدنية أو العائلية، فإن دراسته السابقة للآثار القديمة بدأت تستحوذ على كل اهتماماته بصورة متزايدة، هذه الآثار الغامضة التي تتضمن العظام والمصنوعات التي تشير إلى عالم انتهى وكان يسكنه العمالقة والوحوش.

وفي غضون ذلك كان أثالاريك قد تولدت بداخله مشاعر من الإخلاص والوفاء العميق لهونوريوس العجوز، الذي اتخذ عنده على ما يبدو مكان الابن الذي فقده، وقد شعر بالسعادة — وإن لم تكن الدهشة — حين وافق والده على أن يتتلمذ على يد هونوريوس في دراسته للقانون.

لم تكن قصة هونوريوس سوى واحدة من مآسٍ كثيرة صغيرة، خلفتها قوى تاريخية حاقدة غيرت من أوروبا. فالبناء السياسي والعسكري والاقتصادي القوي — الذي شيده الرومان — مر عليه ألف سنة، وفيما مضى انتشر في أوروبا وشمال أفريقيا وآسيا، وبدأ الصراع بين الجند الرومانيين ومواطني اسكتلندا في الغرب والصينيين في الشرق. وازدهرت الإمبراطورية مع توسعاتها التي جلبت انتصارات كبيرة للجنرالات الطموحين، والأرباح للتجار، بالإضافة إلى كونها مصدرًا لا ينضب للعبيد.

ولكن حين توقفت هذه التوسعات بدأ النظام بدوره ينفرط عقده.

ثم وصل إلى مرحلة كان كل دينار من الضرائب يُحصل يصب في مساندة الجهات الإدارية والعسكرية. وتعقدت أمور الإمبراطورية وتغلغلت فيها البيروقراطية وأصبح من الأكثر تكلفةً إدارتها، وساد عدم المساواة في الثروة. وحين جاء نيرون في القرن الأول كانت جميع الأراضي من نهر الراين إلى الفرات يملكها فقط ألفان من الأفراد فاحشي الثراء. وسرى تهرب الأغنياء من الضرائب كالوباء، في حين وقع عبء دعم الإمبراطورية على عاتق الفقراء، وتهاوت الطبقة الوسطى القديمة التي كانت العمود الفقري للإمبراطورية، بعد أن استنزفتها الضرائب والمطالب المادية الباهظة. كانت الإمبراطورية تستهلك نفسها من الداخل.

حدث ذلك سابقًا، فالتوسعات الهندية الأوروبية العظيمة أفرزت حضارات كثيرة — كبيرة ومتواضعة — في حين دُفنت مدن عظيمة في زوايا التاريخ بعد أن تناساها العالم.

وبالرغم من أن الغرب كان مصدر انتشار الإمبراطورية، فإن الشرق أصبح مركز الجاذبية. فقد كانت مصر تنتج من القمح ثلاثة أضعاف ما تنتجه أغنى المقاطعات في أفريقيا. وحينما كانت حدود الغرب الواسعة عرضة لهجمات الألمان المتعطشين للأراضي، وأيضًا الهون Hunni وغيرهم، كان الشرق ثابتًا راسخًا. وكان استنزاف الموارد من الشرق إلى الغرب قد أحدث توترًا سياسيًّا واقتصاديًّا متناميًا. وأخيرًا وبعد ثمانين عامًا من زيارة هونوريوس إلى روما، بدأ الانقسام بين نصفي الإمبراطورية القديمة يترسخ، وبعدها انهار الغرب بسرعة.

كانت القسطنطينية ما زال يحكمها القانون الروماني، وكانت لغة الدولة لا تزال اللاتينية، إلا أن أثالاريك اكتشف صعوبة البيروقراطية وتعقيداتها، واتجاهها أكثر إلى النظام الشرقي. وكان من الواضح أن علاقاتها مع الدول الغامضة الأخرى الواقعة خلف بلاد فارس في قلب آسيا المجهول تؤثر في أقدارها. وأخيرًا تمكن أثالاريك من إنهاء جميع الإجراءات الكتابية، رغم انكماش موارد هونوريوس من الذهب خلال الرحلة، ثم توجه مع هونوريوس على ظهر قارب يحمل الحجاج — وأغلبهم من

الطبقة الأرستقراطية الرومانية الدنيا من الأراضي الغربية — إلى الأرض المقدسة. وبعدها استأنفا رحلتهما على ظهور الخيل والجمال إلى الداخل الأعمق.

ومع تواتر الأيام بدأ هونوريوس يزداد ضعفًا ووهنًا، وأحس أثالاريك بالأسف لأنه لم يقنع معلمه بالعودة إلى روما.

كانت البتراء مدينة من الصخور.

وكان تعليق هونوريوس: «هذا شيء عجيب» ثم ترجل عن حصانه، وتقدم إلى الأمام تجاه المباني الضخمة وهو يردد: «عجيب فعلًا!»

ترجل أثالاريك بدوره عن حصانه، ولمح باباك والحمالين وهم يقودون الخيل إلى المياه، ثم تبع معلمه. كانت الحرارة شديدة، ولم يشعر أثالاريك بشيء يحميه في هذا الجو الجاف الممتلئ بالغبار، وهو في ثيابه المحلية الواسعة ناصعة البياض التي وفرها له باباك.

كانت المقابر والمعابد الضخمة تبرز من السهول الواسعة الجرداء، التي بدت أشبه بالصحراء، بالرغم من أنها كانت مدينة تموج بالحركة — هكذا رآها أثالاريك. وبها نظام دقيق من القنوات والأنابيب والصهاريج، حيث تُجمع المياه وتُخزن لري البساتين والحقول، إلى جانب متطلبات المدينة نفسها. ومع ذلك فإن السكان بدوا وكأنهم أقزام بجانب الآثار العظيمة التي تحوطهم، وكأنما الزمن قلص من أحجامهم.

قال هونوريوس وهو يتأمل المكان: «هل تعرف أن هذا المكان كان في يوم من الأيام مركز العالم. وكانت هناك معركة للسيطرة عليه بين آشور وبابل والفرس ومصر، وجميع الأطراف تجمعت في هذه المنطقة؛ لأن البتراء أثناء حكم الأنباط Nabataens كانت تسيطر على التجارة بين أوروبا وأفريقيا والشرق. وكان موقعها قويًّا للغاية، وازدادت ثراءً تحت حكم الرومان.

أومأ أثالاريك برأسه: «إذن لماذا حكمت روما العالم؟ ولم تكن البتراء؟»

أجاب هونوريوس: «أعتقد أنك لو نظرت حولك فسوف تجد الرد على سؤالك. انظر.»

لم ير أثالاريك شيئًا سوى بعض الأشجار التي تحاول البقاء وسط الشجيرات والأعشاب والحشائش، وبعض الماعز التي كان يرعاها صبي مهلهل الملابس واسع العينين، وهي تقضم الفروع المنخفضة.

استأنف هونوريوس حديثه قائلًا: «كانت هذه المدينة في يوم ما مليئة بالغابات، تحفل بأشجار البلوط والفستق — هكذا يقول المؤرخون — إلا أن الأشجار قُطعت لبناء المنازل والأسوار. أما الآن فإن الماعز تأكل ما تبقى منها، والأرض التي استنزفتها الزراعة بدأت تجف وتتلاشى، وكلما ازداد فقر الأرض وجفت المياه تزايدت هجرة السكان أو ازداد جوعهم. ولو لم تكن البتراء موجودة هنا بالفعل، لما كان من الممكن أن تقدم لها هذه المنطقة الخلفية الفقيرة النائية عنها ما يساعدها على البقاء، وأعتقد أنه في غضون قرون قليلة سوف يهجرها الجميع بالكامل.»

أحس أثالاريك بصدمة وإحساس ثقيل بهذا الضياع وقال: «إذن ما فائدة هذه الأكوام الرائعة من الحجارة، وهذه الأرواح التي استُنزفت في بنائها، إذا كان الناس يستنزفونها ويوصلونها إلى هذه الحالة من الجدب، هل تصل إلى الانهيار والخراب؟»

رد هونوريوس بتجهم: «ويمكن أيضًا أن تتحول روما في يوم من الأيام إلى مكان يمتلئ بالحجارة والآثار المتهاوية، ويسكنها قوم قذرون يسوقون الماعز في الطريق المقدس دون أن يشعروا بعظمة البقايا التي يرونها حولهم.»

كان باباك قد اقترب منهما وهو يصغي باهتمام، فغمغم قائلًا: «ولكن إذا كانت المدن ترتفع وتهوي، إذن فإن الإنسان هو سيد مصيره، وأعتقد أن هذا أحد أسياد مصيرهم.»

كان هناك رجل قادم من المدينة يتجه نحوهم. وكان فارع الطول إلى درجة لافتة للنظر، ويرتدي ملابس سوداء اللون تلتصق بالنصف الأعلى من جسده وساقيه، في حين كانت رأسه وأغلب وجهه مغطى بقماش قرمزي اللون، وكان الغبار يتطاير حول قدميه، وبدا لأثالاريك كشخص غريب يأتي من زمن آخر.

غمغم هونوريوس: «أعتقد أن هذا هو رجلك، السكوتي.»

رد باباك: «نعم، إنه هو.»

فاستقام هونوريوس ومد يده داخل طيات ثوبه الروماني، وأحس أثالاريك بشيء من الفخر ممتزجًا بإحساس من الحسد وربما النقص أيضًا. فمهما كان شكل هذا الغريب مهيبًا فقد كان هونوريوس مواطنًا رومانيًّا لا يخشى أحدًا.

أزاح السكوتي الغطاء عن رأسه ووجهه، وهو يثير غبارًا أكثر حوله. وكان وجهه متعبًا من أثر التقلبات الجوية، وأنفه حادًّا، وفوجئ أثالاريك بأن شعره كان أصفر اللون تمامًا مثل السكسونيين.

غمغم هونوريوس لباباك: «وجه إليه تحياتنا، وأكد له أن نوايانا طيبة تمامًا من أجل ....»

قاطعه باباك بسرعة قائلًا: «هؤلاء الأشخاص الذين يأتون من الصحراء، لا وقت لديهم لهذه المجاملات يا سيدي. فما يريد إلا أن يرى ذهبكم.»

زمجر أثالاريك قائلًا: «لقد جئنا من مكان بعيد، ولسنا على استعداد لنتحمل إهانة من برغوث قادم من الصحراء.»

انزعج هونوريوس من حديث أثالاريك وقال: «أرجوك يا أثالاريك، أعطه النقود.»

أزاح أثالاريك رداءه جانبًا وهو يحدق في السكوتي ليريه الذهب، ثم رمى إليه بقطعة منه، فوضعها بين أسنانه ليقيم مصداقيتها.

همس هونوريوس: «والآن لنتحدث عن العظام، هل هي حقيقة؟ أرني يا سيدي، أرني إياها.»

لم تكن هناك حاجة لترجمة ما قاله، فسحب السكوتي من أحد جيوبه صرة من القماش، وبدأ يحلها بعناية، ويتكلم بلغته الخاصة.

غمغم باباك: «إنه يقول إن هذا كنز حقيقي، وقد جلبه من أقاصي الصحراء ذات الرمال الذهبية، حيث عظام حيوان العنقاء Griffins ....»

قاطعه هونوريوس بضيق: «إنني أعرف كل شيء عن العنقاء ولا تهمني في شيء.»

رد باباك في حدة أيضًا: «من أقاصي أرض الفرس، أو أرض إمبراطورية جوبتا Guptas، أجد صعوبة في الترجمة، ولكن إحساسه بمن يملك الأرض ليس كإحساسنا، ووصفه فيه كثيرٌ من التطويل والتدقيق.»

وأخيرًا، وبحس التاجر الذي يدرك قيمة التوقيت المناسب، أزاح السكوثي الأربطة عن اللفافة التي كان يحملها فظهرت جمجمة!

تنفس هونوريوس سريعًا ثم اندفع صوب شظى العظام: «إنها لرجل ولكنه ليس مثلنا!»

كان أثالاريك قد شاهد خلال فترة تعليمه الكثير من الجماجم البشرية، لقد كانت هناك صلة ما بين وجه الجمجمة المسطح وفكيها وبين البشر، أما عظام الجبين الكثيف أعلى الحاجبين فلم تكن بشرية، وكذلك فجوة المخ الصغيرة، التي يُمكن أن توضع في قبضة اليد.

قال هونوريوس لاهثًا: «كم تمنيت أن أدرس مثل هذا الرفات، هل يمكن أن يكون ما كتبه تيتوس لوكريتيوس كاروس Titus Lucretius Carus صحيحًا؟ أن الإنسان القديم كان يمكنه تحمل أي بيئة رغم أنه تنقصه الملابس والنار؟ وأنه كان يسافر في جماعات مثل الحيوانات؟ وينام على الأرض أو في الأدغال؟ وأنه كان يأكل أي شيء ولا يمرض إلا قليلًا؟ آه يا سيدي يجب أن تأتي إلى روما، أن تأتي إلى الغال! فهناك يوجد كهف على ساحل المحيط حيث رأيت ....»

إلا أن السكوثي لم يكن يستمع إليه، فقد كان اهتمامه الأكبر موجهًا إلى الذهب الذي كان أثالاريك يحمله، ومع ذلك، فقد رفع الجمجمة كأنما هي أكليل للنصر.

لمعت الجمجمة التي كانت لأحد ذوي القامة المنتصبة التي صقلتها ملايين السنين في ضوء الشمس.

٢

وافق السيثياني أخيرًا تحت ضغط هونوريوس على المجيء إلى روما، ورافقه باباك أيضًا ليقوم بأعمال الترجمة، وما زاد من فزع أثالاريك أنه اصطحب معه اثنين من الحمالين استأجروهما في الصحراء.

واجه أثالاريك باباك أثناء إبحارهم عائدين إلى إيطاليا قائلًا: «أنت تستنزف أموال الرجل العجوز ... أنا أعرف أمثالك جيدًا أيها الفارسي.»

لم يهتز باباك وقال: «نحن متساويان، فأنا آخذ نقوده، وأنت تفرغ عقله. ما الفارق؟ إن الشباب يعيشون دائمًا على ثروة الكبار بطريقة أو بأخرى، أليس كذلك؟»

- «لقد آليت على نفسي أن أعود به إلى منزله سالمًا، وسوف أفعل ذلك مهما كانت طموحاتك.»

ضحك باباك في هدوء قائلًا: «أنا لا أنوي شرًا بهونوريوس.» ثم أشار إلى السيثياني قائلًا: «لقد أعطيته ما أراد، أليس كذلك؟» إلا أن سلوك السيثياني وهو يصغي إلى هذا الحوار بين الاثنين أوضح لأثالاريك بجلاء، أنه لا يعتبر نفسه ملكًا لأحد، ولو كان ذلك بصفة مؤقتة.

ومع ذلك ففضول أثالاريك كان كبيرًا بعد أن وصل هذا البدوي الذي يسكن الصحراء إلى أعظم مدينة في العالم.

أمضوا ليلة في إحدى الفيلات التي استأجرها هونوريوس في ضواحي روما.

وكانت تقع فوق مرتفع على أطراف المدينة، وتعبر تمامًا عن نمط المنازل في عصر الإمبراطورية، ويتضح في تصميمها تأثير المعمار اليوناني والإترورى. كان المنزل يحتوي على مجموعة من غرف النوم، تتجمع حول ثلاثة جوانب من بهو مكشوف، وفي الخلف توجد غرفة للطعام ومكاتب وبعض غرف الخدمات، بالإضافة إلى غرفتين تطلان على الشارع وتستخدمان كمتجرين. وقال هونوريوس إن ذلك كان مألوفًا أيام الإمبراطورية، وذكّر أثالاريك بالمتجر الذي كانت تديره عائلته ذات يوم.

إلا أن الفيلا — مثلها مثل المدينة التي تشرف عليها — كانت قد شهدت أيامًا أسعد، فالمتاجر الصغيرة الآن مغلقة، وحوض السباحة الواقع في وسط البهو المكشوف قد حفر بصورة غير متقنة، للوصول فيما يبدو إلى الأنابيب الرصاصية التي كانت يومًا ما تجمع مياه الأمطار.

هز هونوريوس كتفيه أمام هذا الخراب: «لقد فقد هذا المكان الكثير من قيمته بعد حوادث النهب. فقد كان من الصعب الدفاع عنه وهو بمنأى عن المدينة، ولذلك تمكنت من استئجاره بسعر زهيد.»

وفي تلك الليلة، ووسط هذه الفخامة الغابرة، تناولوا الطعام معًا، وكانت الفسيفساء التي تكسو أرضية غرفة الطعام قد تعرضت للتلف أيضًا، ومن الواضح أن اللصوص قد نهبوا أي قطع تبدو فيها آثار من طلاء الذهب.

كان الطعام أيضًا نموذجًا للامتزاج الأوروبي الآسيوي الذي أعقب انتشار المجتمعات الزراعية، وكان الغذاء الرئيسي هو القمح والأرز اللذين يجلبان من الأناضول، بالإضافة إلى السفرجل من القوقاز، والدخن من آسيا الوسطى، ثم الخيار والسمسم والموالح من الهند، وأخيرًا المشمش والخوخ من الصين. وكان هذا الطعام عبر القارتين معجزة يومية لا يلاحظها من يتناوله.

وفي اليوم التالي اصطحبوا السيثياني معهم إلى الأحياء القديمة من المدينة.

فساروا إلى البلاتين والكابيتول والسوق، وكان السيثياني يحدق فيما حوله بعينيه الثاقبتين في محاولة لتقييم ما يراه. كان يرتدي ملابسه الصحراوية السوداء، وغطاء رأسه الأحمر، ولا بد أن هذه الملابس لم تكن ملائمة لجو روما الرطب، لكن لم تبد عليه أي علامات للانزعاج.

غمغم أثالاريك موجهًا كلامه إلى باباك: «لا يبدو عليه التأثر بما يرى.»

إلا أن السيثياني تلفظ ببعض الكلمات بلغته القديمة الموجزة، وترجم باباك تلقائيًّا فقال: «إنه يقول إنه يفهم الآن لماذا كان على الرومان أن يأخذوا عبيدًا وذهبًا من موطنه.»

شعر هونوريوس بالرضا، وقال: «قد يكون السيثياني همجيًّا، لكنه ليس أحمق ... وهو لا يرهب شيئًا، حتى روما العظيمة نفسها ... وهذا شيء يحسب له.»

كانت منطقة وسط روما — بعيدًا عن المناطق الأثرية — تشمل شبكة من الشوارع والحارات الضيقة الكئيبة، وهي نتاج أكثر من ألف سنة من التوسع العشوائي، وكثير من المباني هنا تتكون من خمسة أو ستة طوابق، وشيدها مجموعة من الملاك الذين كان همهم الأوحد استغلال كل

شبر من الأرض الغالية لمصلحتهم، ومن ثم كانت المباني مهتزة غير ثابتة. وشعر أثالاريك وهو يجول خلال هذه الشوارع غير المرصوفة التي تغطيها قاذورات المجاري، وقد تزاحمت فيها المباني وتلاصقت حتى كادت تتلامس فوق رءوسهم، شعر بأنه يمر خلال شبكة هائلة من المجاري مثل تلك التي تجري تحت روما إلى نهر التايبر.

كان الناس في الشوارع يضعون أقنعة على أفواههم وأنوفهم من الشاش المغموس في الزيت أو البهارات؛ إذ تفشى في المدينة حديثًا وباء الجدري. كان المرض يمثل تهديدًا مستدرًّا لهم، وكان الناس لا يزالون يروون الحكايات عن طاعون أنتونيناس الفتاك الذي حدث منذ ثلاثة قرون سابقة. وخلال آلاف الأعوام التي مرت منذ وفاة جونا لم يساعد التقدم العلمي على وقف زحف الأمراض الفتاكة، وجعلت طرق التجارة الواسعة التي ربطت أوروبا وشمال أفريقيا وآسيا من هذه المنطقة مرتعًا للميكروبات، وأدى تزاحم الناس في مدن تفتقر إلى المرافق الصحية إلى تفاقم المشكلة. وخلال عصر الإمبراطورية الرومانية كان من الضروري تشجيع الهجرة المستمرة للفلاحين الأصحاء إلى المدن ليحلوا محل من توفوا، والواقع أن المجتمعات الحضرية لم يصبح لديها اكتفاء ذاتي حتى القرن العشرين.

كان هذا المكان المزدحم نتاجًا مرضيًّا للثورة الزراعية؛ مكان احتشد فيه الناس كالنمل لا كالرئيسيات.

أحس الجميع بشعور أقرب إلى الراحة عندما وصلوا إلى منطقة كانت قد احترقت في واحدة من غارات السلب التي شنها عليها البرابرة، ومع أن هذا التدمير كان قد لحقها منذ عشرات السنين، فلم يُعد بناؤها قط، ومع ذلك استطاع أثالاريك هنا وسط الحطام أن يرى السماء دون أن تحجبها الشرفات المليئة بالقاذورات.

قال هونوريوس للفارسي: «سله فيم يفكر الآن ....»

استدار السيثياني وأخذ يتفحص صفوف المباني السكنية المتلاصقة، ثم غمغم ببعض كلمات ترجمها باباك قائلًا: «كم غريب أنكم تختارون العيش في المنحدرات مثل النوارس.» وأحس أثالاريك بنبرة الاحتقار في صوت السيثياني.

بعد عودتهم إلى الفيلا اكتشف أثالاريك أن كيس النقود الذي كان يربطه حول خصره قد قطع بدقة وسرقت منه النقود، فشعر بالغضب من نفسه ومن اللص على السواء. كيف يمكنه أن يحمي هونوريوس وهو لا يستطع أن يحمي كيس نقوده؟ غير أنه كان يعرف أن عليه أن يكون ممتنًّا لأن اللص الخفي لم يمزق جسده وهو يسرق النقود فيسلبه روحه أيضًا.

في اليوم التالي أخبرهم هونوريوس أنه سيأخذهم إلى الريف، إلى ما سماه متحف أوجستس. فتجمعوا في المركبات التي سارت بهم على طرق مرصوفة بالحجارة ولكن تكسوها الأعشاب، وعبر المزارع التي تحتشد على حدود المدينة.

ووصلوا إلى بلدة صغيرة لا بد أنها كانت في الماضي تقتصر على الصفوة والأغنياء، وهناك وجدوا سورًا من الطوب اللبن يحيط ببضع فيلات ومجموعة من المساكن الحقيرة التي كان يسكنها العبيد. كان من الواضح أن المكان مهجور، وأن السور الخارجي قد هدم، والمباني قد حرقت ونهبت.

قادهم هونوريوس إلى داخل هذا المجمع من المباني وهو ممسك بخريطة في يده يقلبها وهو يتمتم ببعض الكلمات.

كانت طبقة سميكة من الأعشاب قد اخترقت الفسيفساء والبلاط الذي يكسو الأرض، وتعلقت أشجار اللبلاب بالجدران التي تصدعت جراء الحرائق، وقال أثالاريك في نفسه: لا بد أن محنة مرت بهذا المكان حين تهاوت آخر الأمر الإمبراطورية ذات الألف عام وتلاشت حمايتها. إلا أن وجود الأعشاب الجديدة وسط الخراب أعطى شعورًا بالاطمئنان، وكان عزاء له أن يتخيل أنه بعد بضعة قرون أخرى — حين تعود الخضرة مرة ثانية — قد لا يبقى من هذا المكان سوى بعض الآكام في الأرض، وبعض الأحجار الغريبة الأشكال التي يمكن أن تحطم محراث فلاح غافل عنها.

قادهم هونوريوس إلى مبنى صغير في وسط هذا المجمع، وربما كان يومًا ما أحد المعابد، لكن النار أتت عليه فدمرته كالمباني الباقية. واضطر الحمالون إلى إزالة غابة من الكروم المتشابكة وأشجار اللبلاب. وأخذ هونوريوس ينقب في الأرض، ثم أطلق صيحة انتصار وهو يمسك بعظمة كتف في حجم طبق

كبير وقال: «كنت واثقًا من ذلك، لقد استولى البرابرة على الذهب التافه والفضة اللامعة، لكنهم لم يعرفوا شيئًا عن الكنوز الحقيقية هنا.»

وحين رأى الباقون هذا الأثر الرائع الذي عثر عليه هونوريوس انتابهم الحماس، وبدءوا ينقبون في التربة والأعشاب من حولهم. وبدا أن الحمالين الأغبياء قد انتقلت إليهم عدوى الفضول الفكري، ربما لأول مرة في حياتهم، وسرعان ما كان الجميع يستخرجون من الأرض عظامًا ضخمة وأنيابًا وجماجم مشوهة. كانت لحظة مفعمة بإثارة غير عادية.

خاطبهم هونوريوس قائلًا: «كان هذا المكان ذات يوم متحفًا للعظام شيده الإمبراطور أوجستس، وقد أخبرنا سويتونيوس كاتب التراجم أن هذا المتحف أقيم أساسًا على جزيرة كابري، وفي الأزمنة اللاحقة نقل أحد خلفاء أوجستس أفضل القطع إلى هنا. وقد تهشم بعض منها، انظروا مثلًا إلى هذه القطعة. من الواضح أنها قطع قديمة جدًّا، وأنها تعرضت لمعاملة سيئة للغاية.»

وفي تلك اللحظة عثر هونوريوس على لوح ثقيل من الحجر الرملي الأحمر، مرصع بأشياء ناصعة البياض. كان اللوح في حجم غطاء التابوت، وكان أثقل من أن يستطيع زحزحته، فساعده الحمالون على رفعه. ثم قال: «والآن يا سيدي السيثياني، لا شك أنك ستتعرف على هذا المخلوق الجميل.»

ابتسم السيثياني واحتشد أثالاريك والآخرون ليروا هذا الاكتشاف.

كانت الأشكال البيضاء المطمورة في المادة الحمراء عظامًا؛ بقايا هيكل عظمي لمخلوق مطمور في الصخرة. وكان من الواضح أن طول جسد هذا المخلوق يبلغ ارتفاع قامة أثالاريك، وأن أطرافه الخلفية كبيرة، وأن أضلاعًا واضحة تتصل بعموده الفقري، وله ذراعان أماميتان قصيرتان ومتشابكتان على صدره، أما الجمجمة فهائلة الحجم يعلوها جزء عظمي مجوف، وبها فك ضخم قوي يتصل بما يبدو منقار طائر، وفي الوسط عينان فارغتان تحملقان فيما وراء الزمن.

كان هونوريوس يراقب أثالاريك وعيناه تلتمعان، ثم سأله: «ماذا ترى يا أثالاريك؟»

همهم أثالاريك: «لم أر في حياتي قط شيئًا كهذا، ولكن ....»

- «ولكنك تعرف ما هو.»

لا بد أنه من الجريفن griffin؛ تلك الوحوش الخرافية التي عاشت في الصحاري الشرقية، ومع أنها من ذوات الأربع فلها رأس طائر ضخم، وقد غزت صور الجريفن اللوحات والمنحوتات لآلاف السنين.

عندئذ بدأ السيثياني يتكلم بطلاقة وسرعة، وكافح باباك لمجاراته في الترجمة، «إنه يقول إن أباه وجَدَّه من قبله جابا الصحاري الشرقية الكبرى بحثًا عن الذهب الذي يهبط به الماء من الجبال، وكان الجريفن يحرسون ذلك الذهب، فقد رأى كثيرًا من عظامهم في كل مكان مغروسة في الصخور، مثل هذه تمامًا.»

قال هونوريوس: «كما وصفهم هيرودوت بالضبط.»

قال أثالاريك: «سله هل رأى أحدهم حيًّا؟»

رد السيثياني: «لا، لكنه رأى بيضهم كثيرًا، فهم مثل الطيور يضعون بيضهم في أعشاش، لكنهم يبنونها على الأرض.»

تمتم أثالاريك: «ولكن كيف وصل هذا الوحش إلى داخل الصخر؟»

ابتسم هونوريوس قائلًا: «تذكر بروميثيوس.»

- «بروميثيوس؟»

- «لقد عاقبت الآلهة القديمة بروميثيوس لأنه أهدى النار إلى البشر، فقُيِّد بالسلاسل إلى أحد الجبال في الصحاري الشرقية التي يحرسها الجريفن البكم. ويحكي إسكيلوس كيف دفنت جسده الانهيارات الصخرية والأمطار، وظل دفينًا لقرون طويلة، حتى عاد إلى النور بعد أن بليت الصخور، وهذا ما حدث لهذه الوحوش يا أثالاريك.»

استأنف الجميع بعد ذلك التنقيب في العظام. كانت كلها غريبة وعملاقة ومشوهة ولا يمكن التعرف عليها. وكانت معظم هذه البقايا لحيوانات وحيد القرن والزراف والأفيال والأسود والكاليكوثير Chalicotheres، وهي الثدييات الضخمة التي عاشت في عصر البلايستوسين، والتي أعادتها إلى النور الحركة التكتونية في هذا المكان الذي تتجه فيه أفريقيا ببطء شمالًا نحو أوراسيا، وحدث هنا ما حدث في أستراليا وفي كل أنحاء العالم؛ فقد نسيها الناس، ولم تبق إلا ذكرى مشوهة لهذه الحيوانات العملاقة.

أخذ الرجال يتبادلون الحديث ويتفحصون هذه الحفرية، وعندئذ ظهرت أمامهم جمجمة البروتوسيراتوبس Protoceratops، وهو ديناصور حاصرته عاصفة رملية قبل ميلاد بورجا ببضعة قرون فقط.

«... هذه أحداث دونها هسيود وهوميروس وكثيرون غيرهم، لكن أجيالًا متعاقبة من الرواة تناقلتها قبلهم.»

«ظلت الأرض خاوية قبل وجود الإنسان الحديث زمنًا طويلًا، لكن هذه الأرض البدائية أفرخت سلسلة من الجبابرة Titans الذين يشبهون الإنسان، لكنهم أضخم حجمًا، وكان بروميثيوس واحدًا منهم. ثم دفع كرونوس Kronos إخوته من الجبابرة إلى قتل أبيهم، لكن سلالته أفرزت الجيل التالي؛ العمالقة. وفي تلك الأيام — بعد نشأة الحياة نفسها بقليل — كانت هناك فوضى في اختلاط السلالات، فتكاثرت أجيال من العمالقة والوحوش.»

كانوا جالسين في البهو المركزي في الفيلا التي استأجروها. وظل الجو حارًّا ساكنًا مع دنو المساء، إلا أن النبيذ وطنين الحشرات والخضرة الكثيفة المحيطة بالمكان خلقت نوعًا من الدفء والراحة.

وفي هذا المكان المتداعي، وحول كؤوس النبيذ المتلاحقة، حاول هونوريوس أن يقنع الرجل القادم من الصحراء أن يرافقه في رحلته إلى أبعد من ذلك، وأن يجتاز معهم أطلال الإمبراطورية غربًا حتى شاطئ محيط العالم نفسه، ولذلك قص عليه قصص ميلاد الآلهة وموتها.

مر جيل آخر، وظهرت أشكال أخرى جديدة، فأنجب الجبابرة كرونوس وريا Rhea آلهة الأوليمب التي جاءت بعد ذلك، وكان من بينهم جوبيتر إله الرومان. وفي النهاية تزعم جوبيتر الآلهة الجديدة الشبيهة بالبشر في مواجهة تحالف من الجبابرة والعمالقة والوحوش، وكانت حربًا للسيطرة على الكون نفسه.

همس هونوريوس: «لقد تحطمت الأرض، وطفت جُزُر من الأعماق، وهوت جبال في البحار، وجفت الأنهار أو حولت مجراها وأغرقت الأرض، ودفنت عظام الوحوش حيث قضت نحبها.»

ثم استأنف حديثه: «والآن يعارض فلاسفة الطبيعة دائمًا هذه الأساطير، فهم يبحثون عن أسباب طبيعية تخضع لقوانين الطبيعة، وربما كانوا محقين في ذلك، إلا أنهم يغالون أحيانًا، فأرسطو يؤمن بأن المخلوقات تتكاثر تكاثرًا حقيقيًّا (تلد مخلوقات مشابهة لها)، وأن أنواع الحياة ثابتة على مر الأزمنة. دعه إذن يفسر عظام العمالقة التي استخرجناها من باطن الأرض! قد يكون هذا الشيء المطمور في الصخر في المتحف واحدًا من الجريفن وقد لا يكون. ولكن أليس من الواضح أنها عظام قديمة؟ كم تستغرق الرمال لتتحول إلى صخور؟ أليس هذا اللوح الذي عثرنا عليه دليلًا على أزمنة أخرى في الماضي؟»

«انظر إلى ما وراء هذه القصص، استمع إلى جوهر ما نستخلصه من هذه الأساطير: إن الأرض كانت تقطنها مخلوقات أخرى مختلفة في الماضي؛ أنواع كانت تتكاثر تكاثرًا حقيقيًّا في بعض الأحيان، وتلد هجناء ومسوخًا تختلف عن آبائها اختلافًا تامًّا في أحيان أخرى، كما يتضح من العظام التي عثرنا عليها. ومهما كانت الحقائق الدقيقة، أليس واضحًا أن الأساطير تحمل بعض الحقيقة؟ فهي نتاج ألف عام من دراسة الأرض وبحث المغزى منها. ومع ذلك ... ومع ذلك ....»

وضع أثالاريك يده على كتف صديقه: «هدئ من روعك يا هونوريوس ... إنك تتحدث جيدًا، فلا داعي للصراخ.»

كان هونوريوس يرتجف من شدة انفعاله: «أنا أقول إننا لا نستطيع تجاهل الأساطير. ربما كانت ذكريات، لكنها أفضل ما لدينا من ذكريات عن الأحداث الكبرى والأزمنة الرائعة التي مرت في الماضي، والتي شهدها بشر ربما لم يفهموا الكثير مما يحدث حولهم؛ بشر ربما كانوا أنصاف بشر ليس إلا.» وهنا لمح التقطيبة التي ارتسمت على وجه أثالاريك فقال: «نعم أنصاف بشر»، وأمسك هونوريوس بالجمجمة التي أعطاها له السيثياني والتي يشبه وجهها وجوه البشر وتشبه هيئتها جماجم القردة، ثم غمغم قائلًا: «بشر ليسوا بشرًا! إنه لغز الألغاز. من سبقنا على الأرض؟ ومن يستطيع أن يجيب عن هذا السؤال؟ ماذا غير العظام؟ أيها السيد السيثياني، لقد أخبرتني أنك قد أحضرت هذه الجمجمة من الشرق.»

ترجم باباك حديثه، ثم قال: «إن السيثياني يقول إنه لا يعرف مصدرها على وجه التحديد، فقد تناقلتها أياد كثيرة، وارتحلت غربًا حتى وصلت إليك.»

غمغم أثالاريك: «وبالطبع كان السعر يرتفع مع كل صفقة.»

رفع باباك حاجبيه الرفيعين: «يقال إن هذه العظام منتشرة في الأرض الواقعة في أقصى الشرق التي يقطنها قوم فاتحو البشرة ضيقو العينين، وهم يطحنونها ويستخدمونها في المستحضرات الطبية والتعاويذ، وفي رفع خصوبة الأرض.»

مال هونوريوس إلى الأمام وهو يقول: «إذن نحن نعرف الآن أن سلالة من المخلوقات عاشت ذات يوم في الشرق لها شكل البشر لكنها تتصف بصغر حجم أمخاخها؛ «حيوانات بشرية».» كان صوته يرتجف: «وماذا لو أخبرتك أنه في أقصى الغرب، عند حافة العالم، عاشت ذات يوم سلالة أخرى من أسلاف البشر؛ بشر لهم أجسام كأجسام الدببة وحواجب مثل خوذات قادة الرومان؟»

أصاب أثالاريك الذهول، فلم يخبره هونوريوس من قبل بشيء من هذا.

بدأ السيثياني في الكلام، وكانت حروفه المتحركة الناعمة وحروفه الساكنة الرقيقة أشبه بأغنية يترنم بها، أغنية لم تؤثر فيها ترجمة باباك الخرقاء، أغنية صعدت من قلب الصحراء لتحلق في سماء هذه الليلة الرطبة من ليالي إيطاليا.

«إنه يقول إن أنواعًا كثيرة من البشر عاشت في الماضي، وقد اختفى كل هؤلاء البشر الآن، وحفظت ذكراهم الصحراء والجبال في الحكايات والأغاني، لكننا نسيناهم. كان العالم يومًا ما يعج ببشر آخرين، وحيوانات أخرى، لكننا نسينا.»

صرخ هونوريوس: «نعم»، ثم هب واقفًا فجأة وقد احمر وجهه وقال: «نعم، نعم، لقد نسينا كل شيء تقريبًا، كل شيء ما عدا الآثار المشوهة التي تحتفظ بها الأساطير. إنها لمأساة، عذاب من العزلة. أنا وأنت أيها السيد السيثياني نسينا كيف يكلم أحدنا الآخر، ومع ذلك فأنت تحس، كما أحس

أنا، بأننا نطفو مثل بحارة على متن طوف يبحر بنا في بحر من زمن مجهول. تعال معي، يجب أن أريك العظام التي وجدتها، تعال معي.»

٣

جاء أثالاريك وهونوريوس من بورديجالا، وهي مدينة تنتمي إلى مملكة القوطيين التي عاشت ثلاثين عامًا، وتضم الآن أجزاء كبيرة من مقاطعات الغال وإسبانيا اللتين كانتا فيما مضى تابعتين لروما. وحتى يعودا إلى وطنهما اضطرا للمرور خلال أراض في غرب أوروبا نشأت كولايات رومانية ثم انهارت.

كانت العلاقة بين روما والقبائل الألمانية التي كانت دائمًا تثير الصخب في الشمال تشوبها القلاقل، وكان الألمان يضغطون بشدة على حدود الإمبراطورية الشمالية الطويلة غير الحصينة. ولقرون عديدة ظلت الإمبراطورية تستخدم بعض هؤلاء الألمان كمرتزقة، ثم سمحوا في النهاية لقبائل كاملة بالاستيطان داخل الإمبراطورية على أساس أن يتحالفوا مع الرومان ضد أي عدو مشترك خارج حدودهم. وبذلك لم يعد الرومان هم من يسكنون الإمبراطورية ويسيطرون عليها، بل أصبحت تحت رحمة الألمان والقوطيين والفاندال الأشد منهم بأسًا.

ومع ازدياد الضغط على الحدود، وهو نتيجة غير مباشرة للتوسع العظيم للهون خارج آسيا، تلاشت آخر عناصر سيطرة الرومان، واختفى الحكام ومساعدوهم، وظل آخر جنود الرومان متمسكين بمواقعهم، مع ضآلة مرتباتهم، وسوء معداتهم، وانخفاض روحهم المعنوية، لكنهم أخفقوا في منع تدهور النظام.

انهارت الإمبراطورية الغربية دون أن يلتفت إليها أحد، وظهرت دول جديدة وسط هذه الفوضى السياسية، وأصبح العبيد ملوكًا.

وعبر مملكة أودواسير إيطاليا وبقايا المقاطعات القديمة ريشيا ونوريكوم في الشمال، سار أثالاريك وهونوريوس مخترقين مملكة بورجانديا التي تشمل المناطق النائية من الرون شرقي الغال ومملكة سواسون في شمال فرنسا، قبل أن يصلا أخيرًا إلى مملكة القوطيين الغربية.

خشي أثالاريك أن تشعره رحلته إلى قلب الإمبراطورية القديمة المتهاوية بالنقص لتواضع إنجازات أهل وطنه، إلا أنه بعد عودته شعر بالعكس تمامًا، فقد بدت بورديجالا — أمام روعة أنقاض روما — مدينة ريفية بدائية صغيرة قبيحة، لكنها تتسع وتتطور، وكانت هناك مظاهر واضحة لهذا التطور حول منطقة الميناء الذي كان يغص بالبواخر.

كانت روما مدينة رائعة، لكنها ميتة، وهنا المستقبل؛ مستقبله الذي سوف يصنعه بيديه.

كان ثيودوريك عم أثالاريك تربطه صلة قرابة بعيدة بيوريك الملك القوطي للغال وإسبانيا. وكان ثيودوريك الذي يحمل طموحات طويلة الأمد له ولعائلته قد أقام ما يشبه بلاطًا مستقلًّا في فيلا قديمة رحيبة خارج بورديجالا، وحين علم بوجود الزوار الذين جاءوا بصحبة أثالاريك وهونوريوس معهما، أصر على أن يقيموا في الفيلا، وبدأ على الفور يخطط لمناسبات اجتماعية يتباهى فيها بزائريه وبإنجازات ابن أخيه وأسفاره.

في هذه الاحتفالات كان ثيودوريك يستضيف أعضاء من النبلاء القوطيين الجدد بالإضافة إلى الأرستقراطيين الرومان.

وإن كانت السلطة السياسية قد انتهت، فثقافة الإمبراطورية ذات الألف ما زالت سائدة، وقد أظهر الحكام الألمان الجدد استعدادهم للتعلم من الرومان، لذلك أمر الملك القوطي يوريك بأن يسن رجال القضاء الرومانيون قوانين مملكته، وأن تصدر باللاتينية، وهذه هي القوانين التي يدرسها أثالاريك على يد هونوريوس. وفي خلال ذلك ظل الأرستقراطيون القدامى أصحاب الأطيان يعيشون إلى جوار القادمين الجدد، وظل الكثيرون منهم بعد قرون من حيازة الأملاك يتمتعون بالثراء والقوة والسلطة.

وحتى بعد أن زار أثالاريك روما نفسها وجد من الغريب أن يرى أبناء الأسر العريقة بملابسهم الرومانية — وكثير منهم ما زالوا يحملون ألقابًا ملكية — يتجولون بسهولة خلال الغرف التي اختلطت أناقة لوحاتها الجصية والفسيفساء بالصور البدائية للمحاربين على خيولهم بخوذاتهم ودروعهم وحرابهم. ويمكن القول — وهذا ما قاله هونوريوس — إن جشعهم الدائم عبر القرون كان سببًا في القضاء على الإمبراطورية التي

صنعتهم، غير أن استبدال الزعماء القوطيين والبرجانديين بالبنية الفوقية الإمبراطورية الواسعة لم يحدث أثرًا ملموسًا في حياة هؤلاء الأرستقراطيين المترفة.

والواقع أن انهيار الإمبراطورية قد فتح أمام البعض منهم أبواب العمل.

لم يكن ثيودوريك راضيًا عن السيثياني كضيف شرف، فقد بدا أن هذا القادم من الصحراء ينفر من القاعة الفسيحة والحدائق وغرف الفيلا، وكان يفضل قضاء وقته في الغرفة التي خصصها له ثيودوريك، لكنه تجاهل السرير وبقية الأثاث في الغرفة، وفرش البطانية التي كان يحملها على الأرض، وأقام ما يشبه الخيمة من مجموعة الملاءات، فكأنه أحضر معه الصحراء إلى الغال.

وفيما كان السيثياني محبِطًا من الناحية الاجتماعية، كان باباك ناجحًا تمامًا كما توقع أثالاريك، فقد كانت تحيط بالفارسي هالة من الغرابة، وكان يتحرك بسلاسة بين ضيوف ثيودوريك من المواطنين والبرابرة على السواء؛ يسرف في مغازلة النساء، ويأسر عقول الرجال بالقصص التي يرويها عن المخاطر العجيبة للشرق، وانبهر به الجميع.

من بين ما جلب باباك معه لعبة الشطرنج التي حازت إعجابًا كبيرًا، وقال عنها إنها لعبة اخترعت لتسلية البلاط الفارسي، ولم يسمع بها من قبل أحد في الغال. وجعل باباك أحد الفنانين في بلاط ثيودوريك ينحت له لوحة الشطرنج وقطعه، وكانت اللعبة تلعب على لوحة مقسمة إلى ستة مربعات طولًا وستة مربعات عرضًا، تتحرك وتتقاتل فوقها قطع على شكل أحصنة ومحاربين. وكانت قواعد اللعبة سهلة، إلا أن استراتيجيتها عميقة. وقد أثارت هذه اللعبة الجديدة اهتمام القوطيين الذين كانوا يفخرون بإنجازاتهم الحربية، مع أن الكثيرين منهم لم يقربوا الخيل طوال عشرين سنة، وكانت مسابقاتهم الأولى سريعة ودموية، إلا أنه بفضل توجيهات باباك الحكيمة بدأ اللاعبون المتميزون يدركون خبايا اللعبة، وأصبحت المباريات أطول وأكثر إمتاعًا.

أما هونوريوس فكان متبرمًا، لأن ألعاب الفارسي أثارت اهتمامًا أكبر من قصصه عن العظام القديمة، لكن أثالاريك يعلم جيدًا — رغم حبه

لهونوريوس — أن الرجل العجوز لم يكن أبدًا ناجحًا اجتماعيًّا، بالإضافة إلى جهله بتعقيدات الحياة في البلاط. وأصر هونوريوس على عدم الابتعاد عن لعبة الطاولة التي اعتادها، والتي كان يشاركه فيها رفقاؤه من قدامى الأرستقراطيين، وهي «لعبة أفلاطون» كما كان يسميها.

بعد بضعة أيام من إقامتهم استدعى ثيودوريك ابن أخيه لمقابلته في غرفة خاصة.

فوجئ أثالاريك بوجود جالا هناك. كانت طويلة القامة سوداء الشعر وتتميز بأنفها الروماني الكلاسيكي الذي ورثته عن أجدادها، وكانت زوجة لواحد من المواطنين من الطبقة العليا في المجتمع، لكنها في الأربعين من عمرها تصغر زوجها بنحو عشرين عامًا، وكان معروفًا عنها أنها صاحبة السلطة في بيته.

كانت ملامح الجدية مرتسمة على وجه ثيودوريك الملتحي وهو يضع يده على ذراع ابن أخيه قائلًا: «أثالاريك، نحن بحاجة إلى مساعدتك.»

- «هل لديك مهمة لي؟»

- «لا، لدينا مهمة لهونوريوس، ونعول عليك في إقناعه بقبولها. دعنا نشرح لك الأمر.»

خلال حديث ثيودوريك، كان أثالاريك يشعر بنظرات جالا الفاحصة تراقبه، وقد انفرجت شفتاها الممتلئتان قليلًا. هناك أسطورة يتداولها آخر الرومان هؤلاء أن البرابرة جنس يتميز بالشباب والفتوة، وربما كانت جالا تبحث من خلال علاقاتها برجال لا تراهم أفضل كثيرًا من الهمج إلى متعة لا بد أنها تفتقدها في زواجها من رجل عجوز تنقصه الحيوية والنشاط.

إلا أن أثالاريك — الذي كان يكبر ولدي جالا التوءم بما لا يزيد عن خمس سنوات — لم تكن لديه أي رغبة في أن يكون لعبة في يد أرستقراطية فاسدة، فقابل نظراتها ببرود، دون أن يرتسم على وجهه أي تعبير.

مر هذا الموقف بين الاثنين دون أن ينتبه إليه ثيودوريك.

قالت جالا بنعومة: «اسمع يا أثالاريك ... منذ ثلاثة عقود فقط — كما أتذكر — كانت مملكة يوريك لا تزال جزءًا من نظام الإمبراطورية الفيدرالي.

إلا أن الأحوال تغيرت تغيرًا سريعًا. ومع ذلك فما زالت الحواجز تفصل بين قومنا، سواء في الزواج أو القانون أو الكنيسة.»

تنهد ثيودوريك قائلًا: «إنها على حق يا أثالاريك، فمجتمعنا الصغير يعاني كثيرًا من التوتر.»

كان أثالاريك يدرك هذه الحقيقة جيدًا، فالحكام البرابرة الجدد يسيرون على قوانينهم الموروثة التي يرونها جزءًا من هويتهم الشخصية، في حين يتمسك رعاياهم بالقانون الروماني الذي يرونه صالحًا للعالم بأسره، وكثيرًا ما ثارت نزاعات حول الأحكام المختلفة الصادرة بمقتضى النظامين. وكان الزواج بين العنصرين الروماني والبربري محظورًا، ومع أن الجميع يدينون بالمسيحية، فإن القوط يتبعون تعاليم آريوس التي كان رعاياهم الكاثوليك ينظرون إليها نظرة عدائية.

كان هذا كله يشكل عقبة أمام الاندماج الذي نجح فيه الرومان الملكيون لقرون عدة، وكان هذا الاندماج من عوامل استقرار وبقاء المجتمع. ولو ظلت هذه المنطقة تحت حكم الرومان لسنحت الفرصة لثيودوريك ليكون مواطنًا رومانيًّا بالكامل. لكن القوط لن يقبلوا أبدًا أبناء جالا أندادًا لهم، ولن يمنحوهم سلطة حقيقية.

استمع أثالاريك باهتمام إلى حديث ثيودوريك ثم قال: «هذا صعب، لكنني إن كنت قد تعلمت شيئًا من هونوريوس فهو أن الزمن طويل، وأن كل شيء يتغير بمرور الزمن، وربما تزول هذه الحواجز آخر الأمر.»

أومأ ثيودوريك برأسه وقال: «أنا أومن بما تقول، وقد أرسلتك لتتعلم في مدرسة رومانية، وبعد ذلك على يدي هونوريوس.» ثم أطلق ضحكة خافتة وقال: «ما كان أبي ليسمح بذلك قط، فلم يكن يؤمن بالمدارس، وكان يقول: «إذا تعلمت الخوف من سوط مدرسك، فلن تتعلم أبدًا أن تنظر إلى السيوف أو الرماح دون أن ترتجف من الخوف.» كان ينظر إلينا على أننا محاربون قبل أي شيء، أما الآن فنحن جيل مختلف.»

قالت جالا: «ونحن أحسن حالًا بفضل ذلك، فالإمبراطورية لن تعود، لكنني أومن بصدق أن اتحاد قومنا هنا وفي جميع أنحاء القارة سيؤدي ذات يوم إلى ميلاد دم جديد، وقوى ورؤى جديدة.»

رفع أثالاريك حاجبيه، فقد كان في أسلوب حديثها شيء ما ذكَّره لسوء الحظ بباباك، وتساءل ما الذي تحاول أن تقنع عمه به، ثم قال بجفاء: «وإلى أن يحين هذا اليوم الرائع ....»

- «إلى أن يحين هذا اليوم فأنا قلقة على أبنائي.»

- «ولماذا؟ هل هم في خطر؟»

ردت جالا وقد ظهر عليها الضيق: «في الواقع، نعم. لا بد أنك كنت غائبًا زمنًا طويلًا، أو ربما غشت بصرك تعاليم هونوريوس.» أضاف ثيودوريك: «كانت هناك اعتداءات وتدمير للممتلكات وحرائق وسرقات.»

- «ضد الرومان؟»

تنهد ثيودوريك وقال: «نعم للأسف، وإني لأتذكر جيدًا حالة الإمبراطورية في السابق، وأود أن أحافظ على أفضل ما تميزت به: الاستقرار والسلام والمعرفة وعدالة القانون، لكن الشباب لا يعلمون عن ذلك شيئًا، فهم — كأسلافهم الذين عاشوا حياة بسيطة في السهول الشمالية — يكرهون ما يرونه من مظاهر الإمبراطورية؛ سلطان على الأرض، وسلطان على الرعية، وثروة ليس لهم فيها نصيب.»

رد أثالاريك: «ولذلك يريدون عقاب من تبقى منهم.»

قالت جالا: «لا تهم الأسباب والدوافع وراء سلوكهم، المهم هو ما يجب أن نفعله لإيقافهم.»

رد ثيودوريك: «لقد جمعتُ ميليشيات. بالإمكان قمع الاضطرابات، لكنها تندلع ثانية في مكان آخر. ما نحتاجه هو حل بعيد الأمد، وعلينا أن نستعيد التوازن.» ثم ابتسم واستأنف قائلًا: «من الغريب أن أومن آخر الأمر بإعادة القوة إلى الرومان مرة ثانية.»

رد أثالاريك بسخرية: «كيف؟ بأن تعطيهم جيشًا؟ أم تبعث أوجستس من قبره؟»

أجابت جالا دون أن تلقي بالًا إلى سخريته: «يجب أن يكون لدينا أسقف.»

بدأ أثالاريك أخيرًا يفهم ما ترمي إليه.

استأنفت جالا حديثها: «تذكر أن البابا ليو هو الذي أقنع أتيلا بأن يقفل راجعًا عن أسوار روما.»

- «لذلك جئتم بي إلى هنا، أنتما تريدان أن يصبح هونوريوس أسقفًا، وتريدان مني أن أقنعه بذلك.»

أومأ ثيودوريك برأسه مسرورًا وقال: «لقد قلت لك يا جالا إن هذا الفتى حاد الذهن.»

هز أثالاريك رأسه: «سوف يرفض هونوريوس، فهو لا يبالي بالمكاسب الدنيوية، واهتمامه منصب على عظامه القديمة، لا على السلطة.»

تنهد ثيودوريك وقال: «لكن ليس لدينا كثير ممن يصلحون لهذه المسئولية يا أثالاريك. معذرة يا سيدتي، فقد ثبت أن معظم أبناء الطبقة العليا من الرومانيين حمقى ومتعجرفون وطماعون ومتسلطون.»

أضافت جالا بهدوء: «وزوجي من بينهم ... وهذه هي الحقيقة التي لا تعد إهانة يا سيدي.»

قال ثيودوريك: «إن هونوريوس هو الوحيد الذي يستحق الاحترام الحقيقي، ربما بسبب ترفعه عن المكاسب الدنيوية.» ثم نظر إلى أثالاريك وقال: «لو لم يكن كذلك لما تركتك تتتلمذ على يديه.»

تقدمت جالا إلى الأمام: «أنا أتفهم مخاوفك يا أثالاريك، ولكن هلَّا حاولت مع ذلك؟»

هز أثالاريك كتفيه: «سوف أحاول ولكن ....»

مدت جالا يدها وأمسكت بذراعه وقالت: «ما دام هونوريوس حيًّا، فهو المرشح الوحيد لهذا المنصب، ولا يستطيع غيره أن يؤدي هذا الدور «ما دام حيًّا»، وأرجو أن تبذل كل جهدك لمحاولة إقناعه.»

فجأة أحس أثالاريك بالقوة الكامنة في تلك المرأة؛ قوة إمبراطورية قديمة، وقوة أم غاضبة تستشعر خطرًا. خلص نفسه من قبضتها وقد أثارت حدتها اضطرابه.

استعد هونوريوس للمرحلة الأخيرة من الرحلة الكبرى التي لم تجل بخاطره إلا عندما قابل السيثياني على حافة الصحاري الشرقية. وتشكلت المجموعة

الأساسية من هونوريوس وأثالاريك وباباك والسيثياني كما كانت في البداية، ولما كانت المناطق البعيدة عن المدن تفتقر إلى الأمان، فقد انضم إليهم عددٌ من ميليشيات ثيودوريك، إلى جانب مجموعة من الشباب القوطي المحبين للاستطلاع، وبعض أفراد الأسر الرومانية القديمة.

واتجهت القافلة إلى الغرب.

وتصادف أن سلكت المجموعة الطريق نفسه تقريبًا الذي سلكه فريق الصيد بقيادة رود قبل ثلاثين ألف عام، غير أن الجليد كان قد تراجع إلى الحدود الشمالية منذ زمن بعيد، حتى نسي الإنسان أنه كان يكسو هذه البقاع ذات يوم، ولو مر رود نفسه هنا لما عرف هذه الأرض الخصبة المعتدلة المناخ، ولأذهلته كثافة السكان الذين يعيشون فيها الآن، تمامًا مثلما كان أثالاريك سيندهش لو رأى قطعان الماموث أيام رود وهي تجوب أرضًا خالية من البشر.

وأخيرًا وصلوا إلى النهاية؛ إلى منحدر من الحجر الجيري نحتته عوامل التعرية بمرور الزمن، ويطل على المحيط الأطلنطي المضطرب، وكان السهل المنبسط الذي يمثل قمة المنحدر قاحلًا تعصف به الريح، فيما عدا غطاء عشبيًّا ضعيفًا تناثرت عليه فضلات الأرانب.

وفيما كان الحمالون يفرغون أمتعة الرَّكْب من عرباتهم، سار السيثياني وحده إلى حافة المنحدر، وهبت الريح على وجهه، فتطاير شعره الأشقر الغريب على حاجبيه، وأحس أثالاريك بغرابة المنظر؛ فها هو رجل رأى محيط الرمال الهائل في الشرق، وقد أتى الآن إلى الحافة الغربية للعالم. وأطرى أثالاريك في نفسه رؤية هونوريوس: مهما كانت استنتاجات السيثياني من عظام هونوريوس الغامضة، فالرجل العجوز قد صنع ببراعته لحظة مميزة.

ومع أن الرحلة الطويلة من بورديجالا قد أنهكت أفراد فريقه، كان هونوريوس متلهفًا للوصول إلى نهايتها، فلم يسمح لهم إلا بفترة راحة قصيرة، لتناول الطعام والشراب، وقضاء الحاجة، ثم تقدمهم إلى حافة المنحدر. وتبعه الباقون فيما عدا الحمالين اللذين يتبعان باباك، ولاحظ أثالاريك أنهما منهمكان في إعداد شرك للأرانب التي تعج بها قمة المنحدر.

حاول أثالاريك مرة أخرى وهو يسير بجوار هونوريوس أن يقنعه بقبول عرض الأسقفية.

كان لهذا العرض مَنطِقُه، فحين تهاوت الإدارة المدنية للإمبراطورية، ظلت الكنيسة قلعة حصينة، واكتسب الأساقفة مكانة وسلطة، وكان رجال الكنيسة كثيرًا ما يُختارون من الأرستقراطيين أصحاب الأراضي وذوي العلم والخبرة الإدارية المكتسبة من إدارتهم لضياعهم الواسعة بالإضافة إلى نظام الزعامة المحلية. ربما يكون علمهم بالدين مزعزعًا، لكن ذلك أقل أهمية من دهائهم وخبرتهم العملية. وقد تمكن هؤلاء القساوسة العلمانيون وقت الاضطرابات من حماية الشعب الروماني، عن طريق الدعوة إلى حماية المدن، وتوجيه المهام الدفاعية، بل وقيادة الرجال في المعارك.

لكن هونوريوس — كما توقع أثالاريك — رفض العرض رفضًا تامًّا، واحتج بشدة قائلًا: «هل ستبتلعنا الكنيسة جميعًا؟ هل ستلقي بظلالها القاتمة على كل شيء في العالم؟ كل ما بنيناه في أكثر من ألف عام؟»

تنهد أثالاريك، فلم يكن يدرك ما يفكر فيه الرجل العجوز على الإطلاق، لكن الطريقة الوحيدة التي يمكن أن يحاور بها هونوريوس هي أن يحدثه بلغته فقال: «أرجوك يا هونوريوس، هذا لا علاقة له البتة بالتاريخ أو الدين، الأمر كله يدور حول السلطة المؤقتة، والواجب المدني.»

- «واجب مدني؟ ماذا يعني ذلك؟» ثم أخرج من إحدى الحقائب الجمجمة البشرية الأثرية التي أعطاها له السيثياني، ولوح بها في غضب قائلًا: «هذا مخلوق نصفه إنسان والنصف الآخر حيوان، ومع ذلك فمن الواضح أنه مثلنا. فمن نحن إذن؟ هل نحن أرباع حيوانات أم أعشار حيوانات؟ قال جالينوس الإغريقي منذ قرنين: إن الإنسان لا يعدو أن يكون نوعًا من القردة، هل سنستطيع يومًا ما أن نتخلص من انتمائنا للمملكة الحيوانية؟ ماذا يعني الواجب المدني للقرد؟»

لمس أثالاريك بتردد ذراع الرجل العجوز قائلًا: «حتى لو كان ما تقوله صحيحًا، وحتى لو كان يحكمنا موروث حيواني من الماضي، فنحن الذين نختار أن نتصرف كأن الواقع غير ذلك.»

ابتسم هونوريوس بمرارة قائلًا: «أهو اختيارنا حقًّا؟ لكن كل ما نبنيه ينتهي يا أثالاريك، ونرى ذلك رأي العين. فقد عايشت في حياتي انهيار إمبراطورية عمرها ألف عام أسرع من سقوط الملاط من جدران مبانيها الكبيرة، ولو كان كل شيء ينتهي فيما عدا طبيعتنا البهيمية، فما فرصتنا؟ حتى المعتقدات تذبل مثلما تذبل حبات العنب على كرومها.»

فهم أثالاريك ما يعنيه هونوريوس، فهذا من مخاوفه التي ردَّدها كثيرًا، ففي القرون الأخيرة من الإمبراطورية تراجعت مستويات التعليم، وساد الجهل، واستحوذ الطعام الرخيص والمشاهدة الوحشية في الكولوسيوم على عقول القوم المتلبدة، وحلت الخرافات محل القيم التي قامت عليها روما والمذهب العقلي الإغريقي القديم. كان الأمر — كما أوضحه هونوريوس لتلميذه — كأن حضارة كاملة بدأت تفقد عقلها، فقد نسي الناس كيف يفكرون، وسرعان ما نسوا أنهم نسوا، وكان هونوريوس يرى أن المسيحية لم تزد الأمر إلا سوءًا.

- «لقد حذرنا القديس أوجستين من أن الإيمان بالأساطير القديمة يتلاشى مع الزمن، وذلك منذ قرن ونصف، حين توطدت العقائد المسيحية، ومع فقدان هذه الأساطير القديمة ستختفي تعاليم ألف سنة كانت جزءًا من هذه الأساطير، وستقضي عقائد الكنيسة على البحث العقلي لعشرة قرون أخرى. إن النور يخبو يا أثالاريك.»

ألح أثالاريك قائلًا: «إذن اقبل عرض الأسقفية. احم الأديرة، وأقم ديرك الخاص إذا اضطررت لذلك، وفي مكتبة الأسقفية وحجرات النساخ في الأديرة اجعل الرهبان يصنعون نسخًا من النصوص العظيمة قبل أن تضيع.»

بصق هونوريوس وقال: «لقد رأيت الأديرة. أما نسخ تراث الماضي العظيم فكما لو كانت نوعًا من السحر على يد مجموعة من البلهاء تستحوذ على عقولهم فكرة الرب ... تبًّا! أظن أنني أفضل حرقها بنفسي.»

حبس أثالاريك تنهيدة كادت تند عنه: «أنت تعرف أن أوجستين وجد راحة في إيمانه، وكان يؤمن أن الرب خلق الإمبراطورية حتى تنتشر رسالة المسيح، فكيف يتركها تنهار؟ إلا أن أوجستين انتهى إلى أن الله هو محرك التاريخ، وليس الإنسان. ولذلك فإن سقوط روما — في النهاية — لا يهم.»

نظر إليه هونوريوس ساخرًا: «لو كنتَ دبلوماسيًّا لأوضحت لي أن أوجستين المسكين مات حين اكتسح الفاندال شمال أفريقيا، ولقلتَ إنه لو كان أكثر اهتمامًا بالأمور الدنيوية منه بالروحانيات، لاستطاع أن يعيش سنوات أطول، ولتسنى له مزيد من الدراسة. هذا ما ينبغي أن تقوله إذا أردت إقناعي بقبول عرض الأسقفية السخيف.»

رد أثالاريك بجفاء: «أنا سعيد بتحسن حالتك النفسية.»

ربت هونوريوس على يده وقال: «أنت صديق طيب يا أثالاريك، وأنا لست جديرًا بصديق مثلك، لكنني لا أستطيع أن أقبل بالأسقفية التي يهدينيها عمك. إن الرب والسياسة لا يتفقان معي، دعني مع عظامي وهذياني. لقد أوشكنا على الوصول.»

كانوا قد وصلوا إلى حافة المنحدر.

شعر هونوريوس بالحزن، فالطريق الذي يتذكره قد كسته الأعشاب فلم يعد سوى شق في جانب المنحدر المهدم ربما أحدثته الماعز والأغنام. استخدم الجنود رماحهم لإزالة بعض الأعشاب والحشائش. قال هونوريوس وهو يتنهد: «مضت سنوات طويلة منذ كنت هنا آخر مرة.»

رد أثالاريك في جدية: «سيدي، لقد كنتَ صغيرًا حين أتيتَ إلى هنا؛ أصغر كثيرًا، يجب أن تأخذ حذرك ونحن نهبط.»

رد هونوريوس: «وماذا أخشى من الصعوبات يا أثالاريك؟ إذا كان الطريق مغطى بالأعشاب الآن، فمعنى ذلك أنه لم يُستخدم منذ أن كنتُ هنا آخر مرة، وأن العظام التي عثرت عليها ما زالت في مكانها، فهل هناك أهم من ذلك؟ انظر، لقد بدأ السيثياني فعلًا في الهبوط، وأنا أريد أن أرى رد فعله. تعال.»

اصطفت المجموعة في صف واحد، وبدءوا يهبطون بحذر على الطريق المتداعي واحدًا واحدًا، وأصر هونوريوس على السير بمفرده، وكان الممر ضيقًا لا يتسع لاثنين يسيران جنبًا إلى جنب، إلا أن أثالاريك تقدم أولًا حتى يستطيع أن يحمي الرجل العجوز إذا ما سقط.

وصل الجميع إلى كهف منحوت داخل الواجهة الجيرية الناعمة، ثم انتشروا، وبدأ رجال الميليشيا في جس أرض الكهف وجدرانه بحرابهم.

تقدم أثالاريك بحذر. كانت الأرض بجوار مدخل الكهف تكاد تكون بيضاء اللون من فضلات الطيور البحرية وقشر البيض الذي يغطيها، وكانت جدران الكهف وأرضيته ملساء تمامًا بفعل التآكل كأنما سار عليها كثير من المخلوقات أو البشر قبلهم. وشم أثالاريك رائحة قوية ربما كانت بفعل الثعالب، لكنها كانت رائحة عطنة، وكان واضحًا أنه لم يعش أحد هنا منذ زمن طويل، فيما عدا طيور البحر.

لكن هونوريوس وجد عظامه الثمينة في هذا المكان حينما كان شابًّا.

أخذ هونوريوس يجوب المكان وهو يسير بصعوبة، ويتفحص بقعًا متفرقة من الأرض، ويزيح جانبًا بقدميه أوراق الشجر الجافة وبقايا أعشاب البحر الميتة، وسرعان ما وجد ما كان يبحث عنه، فركع على ركبتيه وأزال بحرص الفضلات التي تغطي الأرض مستخدمًا أطراف أنامله فقط، وقال: «إنها على الحال التي وجدتها عليها — وتركتها عليها — لأني أردت ألا يعثر عليها أحد.»

أحاط الجميع بهونوريوس، ولاحظ أثالاريك أن واحدًا من الشبان الرومانيين من حاشية جالا يدفع الجميع بصورة غريبة ليظل بالقرب من هونوريوس. لكن لم يكن هناك داع للقلق، فربما كان ذلك نوعًا من الحماس من جانب الشاب.

انبهر الجميع عندما أخرج هونوريوس كنز العظام الذي كان مخبأ في التراب، وأدرك أثالاريك على الفور أنه هيكل عظمي لإنسان قصير القامة قوي البنية ممتلئ الجسم، عظام أطرافه ضخمة وأصابعه طويلة، ولاحظ أن الجمجمة مشوهة، بل يبدو أنها محطمة من الخلف، ربما بفعل ضربة. وكانت هناك تحت العظام كومة مبعثرة من الأصداف ورقائق من حجر صوان.

أشار هونوريوس إلى ما وجده وقال: «انظروا هنا، يمكنكم رؤية بقايا المحار التي أكلها، إن قشرتها محترقة، وربما رمى بها إلى النار حتى يستطيع فتحها، وأعتقد أن هذه الرقائق من حجر الصوان هي بقايا أداة صنعها. من الواضح أنه كان بشريًّا، لكن ليس مثلنا. انظر إلى هذه الجمجمة أيها السيد السيثياني، هل سبق أن رأيت مثل هذه الحواجب الكثيفة والوجنات

البارزة؟» ثم نظر إلى أثالاريك وعيناه تلتمع فيهما الدموع وقال: «كما لو كنا قد عدنا إلى زمن آخر؛ إلى قرون مجهولة طواها الماضي.»

انحنى السيثياني يتفحص الجمجمة.

وهنا وقعت المفاجأة ....

تقدم الشاب الروماني خطوة إلى الأمام تجاه هونوريوس، ورأى أثالاريك يده ترتفع بسرعة البرق ثم تهوي، وسمع صوتًا خافتًا لعظام تتحطم، ثم انفجرت الدماء، وسقط هونوريوس فوق العظام.

تفرق الجميع وقد أذهلهم هول المفاجأة، وأطلق باباك صرخة طويلة حادة، إلا أن السيثياني تلقى هونوريوس قبل أن يسقط وأراحه على الأرض.

رأى أثالاريك رأس هونوريوس وقد تهشمت من الخلف، فوثب على الشاب الذي كان واقفًا خلف هونوريوس وأمسك بتلابيبه صارخًا: «أنت من فعل ذلك، لقد رأيتك، أنت من فعل ذلك ... لماذا؟ لقد كان رومانيًّا مثلك؛ واحدًا من قومك.»

قاطعه الشاب قائلًا في ثبات: «لقد كانت حادثة.»

صاح أثالاريك: «كاذب!» ثم صفعه صفعة فجرت الدم من وجهه وقال: «من الذي دفعك إلى هذه الفعلة الشنعاء؟ جالا؟» وهمَّ بضربه مرة ثانية، لكنه أحس بأيدٍ قوية تلتف حول خصره وتجذبه بعيدًا. حاول أثالاريك المقاومة وهو ينظر إلى الآخرين ويهتف بهم: «ساعدوني، لقد رأيتم ما حدث، هذا الرجل قاتل.»

لكنهم لم يقابلوا توسلاته إلا بنظرات خالية من التعبير.

وهنا أدرك أثالاريك الحقيقة.

كان الأمر كله مدبرًا، وكان كل من حوله ضالعين في المؤامرة، فيما عدا باباك الذي كان يرتجف خوفًا، والسيثياني، إلى جانب أثالاريك نفسه؛ البربري الذي يجهل عادات هذه الحضارة القوية، ومن ثم لم يتوقع هذه المؤامرة الخبيثة. حين رفض هونوريوس قبول الأسقفية أصبح مصدرًا للمتاعب للقوطيين والرومان على السواء. ولم يبال مدبرو هذه المؤامرة الحمقاء الشنيعة بالعظام الأثرية التي اكتشفها هونوريوس، ولم يروا في هذه الرحلة إلى شاطئ البحر البعيد إلا فرصة لتنفيذ خطتهم، وربما يلقون

بجسد هونوريوس المسكين في البحر دون أن يعيدوه إلى بورديجالا حيث يمكن التحقيق في الأمر.

تخلص أثالاريك من قبضة مهاجميه وأسرع إلى هونوريوس، كان السيثياني قد احتضن رأسه المهشمة بين ذراعيه المخضبتين بالدماء، وكان لا يزال يتنفس وإن كانت عيناه مغمضتين.

- «أيها المعلم ... هل تسمعني؟»

فتح هونوريوس عينيه بأعجوبة وقال: «أثالاريك؟» ثم دارت عيناه في محجريهما وهو يردد: «لقد سمعت صوت تحطمها، كأنها تفاحة قضمها طفل عنيد ....»

- «لا تتكلم.»

- «هل رأيت العظام؟»

- «نعم رأيتها.»

- «كانت لرجل من فجر التاريخ، أليس كذلك؟»

ذهل أثالاريك حين قال السيثياني باللاتينية التي جاءت مفهومة وإن شابتها لكنة أجنبية واضحة: «نعم، رجل من فجر التاريخ.»

تنهد هونوريوس وزفر زفرة حارة، ثم قبض على يد أثالاريك بقوة حتى شعر الأخير بالألم.

كان الصمت يخيم على المحيطين بهونوريوس، القادمين من الشرق والقوطيين والرومان المشتركين في الجريمة، فيما عدا السيثياني والفارسي. ثم تراخت قبضة هونوريوس وارتجف رجفة أخيرة قبل أن يسلم الروح.

أراح السيثياني جسد هونوريوس بحرص على العظام التي اكتشفها؛ العظام النياندرتالية، عظام مخلوق ظن أنه أبو البشر. وشيئًا فشيئًا تشربت الأرض الجيرية بركة الدم التي تجمعت.

تغير اتجاه الرياح، وهب النسيم من البحر محملًا بالملح إلى داخل الكهف.

الفصل السادس عشر

ضفة متشابكة

داروين، المنطقة الشمالية، أستراليا عام ٢٠٣١.

١

اتخذت الأحداث في رابول مسارًا محتومًا، كما لو كان الجبل البركاني العظيم وما يحويه باطنه من الصهارة آلة جيولوجية هائلة.

ظهر أول شق في الأرض، وارتفعت سحابة هائلة من الرماد نحو السماء المحملة بالضباب والدخان، وتفجرت الصخور المنصهرة الملتهبة مثل النافورة، وكانت كتلة الصهارة المندفعة لأعلى لا تزال على عمق خمسة كيلومترات تحت الأرض عندما عجزت القشرة العليا الرفيعة عن تحمل هذا الضغط الرهيب.

وفي داروين، ازدادت الزلازل سوءًا.

كانت نهاية اليوم الأول من المؤتمر، وبدأ المشاركون الذين انتهوا من تناول طعام العشاء في أماكن متفرقة يتدفقون إلى بار الفندق، وكانت جوان جالسه فوق أريكة وقد رفعت قدميها على مقعد صغير منخفض، تراقب الناس وهم يتناولون شرابهم ويدخنون لفافات الماريجوانا ويتعاطون العقاقير، وقد انخرطوا في أحاديث حماسية في مجموعات صغيرة.

أحست جوان بشيء من العطف المزوج بالسخط على أعضاء المؤتمر الذين رأتهم نموذجًا للأكاديميين، فملابسهم شتى في أشكالها بدءًا من السترات ذات اللون البرتقالي الفاقع والبنطلونات الخضراء التي يبدو أن

الأوروبيين القادمين من ألمانيا وبلجيكا وهولندا ولوكسمبرج يفضلونها، إلى الصنادل المفتوحة والقمصان التي شيرت والشورتات التي يرتديها وفد كاليفورنيا الصغير، إلى الأرياء الوطنية التي يتفاخر بها قلة من المشاركين. كان الأكاديميون يتندرون على أنهم لا يفكرون أبدًا فيما يرتدونه، لكن اختياراتهم غير الواعية تظهر من جوانب شخصياتهم ما لا تظهره ملابس ضحايا الموضة أمثال أليسون سكوت.

أحست جوان أن البار نفسه نموذج للثقافة الاستهلاكية المؤسسية، حيث امتلأت الجدران بالشعارات والإعلانات والأخبار والصور الرياضية، وكان الجميع يتحدثون بصوت عال، حتى القواعد التي توضع عليها الأكواب كانت تحمل إعلانات مختلفة لأنواع من الجعة، وشعرت جوان أنها تغوص في بحر من الضجيج. تلك هي البيئة التي نشأت وعاشت فيها طوال حياتها، فيما عدا الصمت الذي كان يخيم عليهم أثناء الحفريات الميدانية التي كانت تقوم بها أمها في مناطق نائية. ولكن بعد هذه الفترة الفاصلة المخيفة في ممرات المطار حيث الهدير المميز للطائرات النفاثة، وأصوات طلقات المسدسات التي تترامى من بعيد، والواقع الميكانيكي الكئيب؛ أحست أنها في غير مكانها. كانت هذه الضوضاء المتواصلة تسليها بعض الشيء، مع أن لها قدرة رهيبة على خنق الأفكار.

لكن ما يغطي جدران البار الأنيقة الآن هو صور ثورة البركان في رابول التي ما برحت تتفاقم، حتى إنها غطت على قنوات الأخبار والرياضة، بل على البث المباشر لأنشطة مسبر إيان موجان فوق المريخ.

قدمت أليس سيجورداردوتير قدحًا من الصودا إلى جوان قائلة: «هذا الساقي الأسترالي شاب رائع! انظري إلى شعره وأسنانه. لو كنتُ أصغر مما أنا عليه بأربعين عامًا لكان لي منه موقف آخر.»

سألت جوان وهي ترشف الصودا: «هل تظنين أن الناس في حالة رعب؟»

أجابت أليس: «مم؟ من ثورة البركان؟ أم من الإرهابيين؟ أظن أنهم يشعرون الآن بمزيج من الإثارة والخوف، ولكن ربما يتغير ذلك.»

مالت جوان قليلًا إلى الأمام وقالت: «معك حق يا أليس، أصغي إليَّ. بخصوص حظر التجول الذي فرضته علينا الشرطة بسبب رابول؛ لقد زعموا أن الرماد المتخلف عن البركان يختلط بمخلفات حرائق الغابات البعيدة صانعًا مزيجًا سامًّا إلى حد ما. لكن ليس هذا كل ما في الأمر.»

أومأت أليس برأسها وقد تجمدت ملامح وجهها المجعد وقالت: «دعيني أخمن. أتقصدين سكان العالم الرابع؟»

- «إنهم يزعمون أنهم زرعوا قنابل محملة بجرثومة الجدري حول الفندق.»

ظهر على وجه أليس الامتعاض وقالت: «إن عام ٢٠٠١ يتكرر من جديد.» ثم أحست بحالة التردد التي انتابت جوان فقالت: «أصغي إلي، نحن لا نستطيع أن نتخلى عما نفعله بسبب هؤلاء الحمقى، يجب أن يستمر المؤتمر في أعماله.»

جالت جوان ببصرها في الغرفة وقالت: «نحن نتعرض الآن لضغوط كبيرة، وقد تطلب الأمر شجاعة من معظم المشاركين ليأتوا إلى هنا، بل لقد تعرضنا للهجوم في المطار. ولكن إذا ترامت إلى مسامع المشاركين أنباء عن وباء الجدري ... ربما تثير ذعرًا قبل الكلمة غير الرسمية التي ألقيها مساء اليوم.»

أمسكت أليس بيد جوان — كانت كفها جافة خشنة — وقالت: «إن مرور الوقت لن يغير من الأمر شيئًا، وتذكري أن هذه الكلمة هي لب الموضوع.» ثم مدت يدها وأخذت كوب الصودا من يد جوان وقالت: «هيا انهضي. وابدئي الآن.»

ضحكت جوان قائلة: «ماذا تقولين يا أليس؟!»

- «انهضي كما قلت لك.»

تخيلت جوان كأنما أليس تشجع تلميذًا يخشى قردة الشمبانزي والبابون على اقتحام الأدغال المظلمة، لكنها أذعنت لها، فخلعت حذاءها ووقفت على إحدى المناضد بمساعدة أليس.

غمرها شعور طاغ بغرابة وسخافة موقفها، فمؤتمرها يتعرض للهجوم، فكيف تقف لتحاضر زملاءها عن كيفية إنقاذ الكوكب؟ ولكن ها هي ذي

واقفة وقد بدأ الجميع يتطلعون إليها، ثم صفقت بيديها حتى التفت إليها عدد كاف.

بدأت جوان كلمتها بشيء من التردد: «أصدقائي، أستميحكم عذرًا، لكنني بحاجة إلى أن تولوني انتباهكم. لقد اجتهدنا في العمل طوال اليوم، لكنني أخشى أنني لن أستطيع أن أمنحكم بعض الراحة الآن.»

«نحن مجتمعون هنا لنناقش تأثير البشرية على العالم في ضوء نشوئنا وتطورنا. لقد جمعنا هنا مجموعة بارزة فريدة تنتمي إلى مجالات متنوعة ودول مختلفة، وربما لا يعرف أحد على وجه الأرض أكثر مما نعرف عن أسباب الفوضى التي نواجهها اليوم وملابساتها، وعلى هذا فلدينا فرصة — ربما تكون فريدة، وقد لا تتكرر — لأن نفعل شيئًا حيال الأمر بدلًا من الحديث عنه فقط.»

«ولديّ هدف آخر — هدف خفي — لجمعكم هنا، فأنا أود أن أستغل هذه الليلة في جلسة إضافية؛ جلسة استثنائية، وإذا سارت الجلسة على النحو الذي أرجوه فربما تفتح لنا بابًا جديدًا تمامًا؛ أملًا جديدًا.» أحست جوان بالحرج لهذه اللغة غير العلمية التي تستخدمها، وكان كثير من الحضور قد رفعوا حواجبهم وزموا شفاههم، لكنها استأنفت حديثها قائلة: «لذلك املؤوا كئوسكم وابحثوا عن أماكن تجلسون فيها لكي نبدأ.»

وفي بار هذا الفندق المتواضع بدأ أعضاء المؤتمر يجلسون على المقاعد أو المناضد، وبدأت جوان حديثها عن الانقراض الجماعي.

ابتسمت جوان وهي تستهل كلمتها قائلة: «حتى أمثالي من المتخصصين في علم الحفريات يفهمون معنى التعاون والتعقيد. إن بابا داروين نفسه في نهاية كتابه «أصل الأنواع» استخدم استعارة تلخص الأمر برمته»، وشعرت جوان ببعض الحرج وهي تقرأ من قصاصة تحملها: «إنه لشيء مثير أن تتخيل ضفة نهر متشابكة تغطيها نباتات كثيرة من أنواع شتى، وتغرد فيها الطيور على الأغصان، وتنتشر الحشرات، وتزحف الديدان على الأرض الرطبة، وأن تتخيل أن هذه الأشكال المعقدة التكوين التي تتباين فيما بينها

تباينًا واسعًا ويعتمد بعضها على بعض اعتمادًا كبيرًا؛ كلها نتاج القوانين التي تحكم العالم من حولنا.»

ثم وضعت جوان القصاصة جانبًا واستأنفت حديثها قائلة: «أما الآن فإن هذه الضفة المتشابكة تواجه مأزقًا. ولستم بحاجة إلى أن أشرح لكم.»

«نحن نتعرض الآن لانقراض جماعي، والتفاصيل تدعو إلى الأسى، فقد عايشت بنفسي اختفاء آخر الفيلة البرية من السافانا والغابات، ذهبت الفيلة بلا عودة! كيف سنبرر ذلك لأحفادنا؟ وفي سنوات عمري فقدنا ربع الأنواع التي كانت حية عام ٢٠٠٠، وإذا استمررنا على هذا المعدل، ففي نهاية هذا القرن سنكون قد قضينا على ثلثي الأنواع التي كانت تعيش عام ألف وتسعمائة. إن خطورة الحدث الذي نمر به الآن تضعه في نصاب المراحل الخمس الكبرى التي مرت بها الأرض في تاريخها.

«ومن ناحية أخرى تبين أن تغير المناخ الذي أحدثه الإنسان أشد خطرًا بكثير مما توقع أي عالم من العلماء، إلا قليلًا منهم، فالمدن الساحلية الرئيسية في أفريقيا بدءًا من القاهرة وحتى لاجوس غمرتها المياه كليًّا أو جزئيًّا، ونتج عن ذلك نزوح الملايين من الأشخاص، وأغرقت الفيضانات بنجلاديش بأكملها تقريبًا، ولو لم نرصد مليار دولار لحماية فلوريدا من الفيضان لتحولت إلى مجموعة من الجزر. إلى غير ذلك.»

«ومسئولية الخطأ تقع على عاتقنا وحدنا. لقد زاد تعدادنا زيادة هائلة، فتعداد البشر الآن يبلغ واحدًا إلى عشرين من تعداد كل من عاش على وجه الأرض من البشر، في حين تبلغ هذه النسبة في باقي الأنواع واحدًا إلى ألف، ونحن بهذا نستنزف الأرض.»

«ولا يزال السؤال يتكرر حتى الآن: هل الأمر خطير حقًّا؟ إننا نفقد بعض الثدييات اللطيفة وكثيرًا من الحشرات التي لم يسمع أحد بها، فماذا في ذلك؟ نحن ما زلنا هنا.»

«نعم، نحن لا نزال هنا. لكن النظام البيئي يشبه جهازًا ضخمًا لحفظ الحياة، وهو يعتمد على التفاعل بين الأنواع على جميع مستويات الحياة، بدءًا من الفطريات التي تعيش على جذور النباتات إلى دورات الماء والأكسجين وثاني أكسيد الكربون. هذا ما قصده داروين بالضفة المتشابكة. كيف

تحافظ هذه الآلة على استقرارها؟ لا ندري. ما أهم مكوناتها؟ لا ندري. إلى أي مدى نستطيع أن نأخذ منها دون أن تنهار؟ لا ندري هذا أيضًا. وحتى لو أمكننا أن نحدد الأنواع اللازمة لبقائنا ونحافظ عليها، فلن نعرف ما الأنواع التي تعتمد هي عليها بدورها. ولكن إذا ظللنا في مسارنا الحالي، فسرعان ما سنكتشف حدود قوتنا.»

«ربما كنت متحاملة، لكنني أومن أن الخطب سيكون عظيمًا لو قتلتنا حماقتنا، لأننا نمنح العالم ميزة لم يمنحه إياها مخلوق آخر في تاريخه الطويل، هذا الشيء الوعي بالهدف. بوسعنا أن نفكر في وسيلة للخروج من هذه الورطة.»

«ولذلك فالسؤال الذي أطرحه الآن بوعي وإدراك للهدف هو: ماذا نحن فاعلون؟»

وهنا توقفت جوان وقد تملكتها مشاعر الحماس والتردد وهي واقفة على المنضدة.

كان بعض الحاضرين يومئون برءوسهم، في حين ظهرت على البعض الآخر علامات الملل.

كانت أليسون سكوت أول من وقف وساقاها الطويلتان تنفردان ببطء، وحبست جوان أنفاسها.

- «أنت لم تأتِ بجديد يا جوان، فموت المحيط الحيوي ببطء صار مبتذلًا؛ صيغة مكررة، ويجب أن أوضح أن ما فعلناه هو في الحقيقة أمر محتوم، فنحن حيوانات، وسنظل دائمًا نتصرف كالحيوانات.» تعالت صيحات الاستياء من البعض، لكن سكوت استمرت في حديثها قائلة: «وقد عرفنا أن من الحيوانات ما يأكل بعضها بعضًا حتى ينتهي الأمر بانقراضها، ففي القرن العشرين نُقِلت حيوانات الرنة إلى جزيرة صغيرة في بحر بيرنج، وازداد عددها من تسعة وعشرين إلي ستة آلاف في عشرين عامًا، لكنها كانت تقتات على نبات الأشنة الذي ينمو ببطء، والذي لم يكن لذلك يجد وقتًا كافيًا لينمو من جديد بعد أن ترعى فيه حيوانات الرنة.»

هنا صاح أحد الحاضرين: «لكن حيوان الرنة لا يعرف شيئًا عن علم البيئة.»

ردت سكوت بنعومة: «لقد فعلنا ذلك طوال تاريخنا، وما حدث في جزيرة بولينيزيا مثال شهير، فمدينة بترا التي تقع في الشرق الأوسط ....»

وكما كانت جوان تأمل، تفرق الحاضرون إلى مجموعات متجادلة.

- «... تلك الشعوب التي عاشت في الماضي، وعجزت عن إدارة مواردها، كان جرمها أنها عجزت عن حل مشكلة بيئية صعبة.»

«نحن بالفعل نواجه تدفقات في الطاقة والكتلة بمعدل يوازي العمليات الطبيعية، وعلينا الآن أن نستخدم هذه الطاقات استخدامًا واعيًا.»

«لكن مخاطر العبث بأساسيات كوكب مكتظ ....»

«إن كل هذه الأنشطة التكنولوجية سوف تكلفنا طاقة، ومن ثم تزيد الانبعاث الحراري على كوكب الأرض ....»

«إن حضارتنا ليست لها خطة مشتركة. ماذا تقترحون لحل القضايا السياسية والقانونية والأخلاقية والثقافية والمالية التي تتضمنها اقتراحاتكم؟ ....»

«لقد ظللت طوال حياتي أستمع إلى هذا الحديث التكنوقراطي الفارغ. ما هذا؟ أهو إعلان لتمويل ناسا؟»

«فليذهب النظام البيئي إلى الجحيم. من يحتاج إلى الضفادع بأي حال؟ دعوني أوجز الأمر فأقول إن كل ما عليكم هو سحب ثاني أكسيد الكربون وضخ الأكسجين والتحكم في درجة الحرارة. أهذا صعب التنفيذ؟»

- «معنى هذا ياسيدتي أنك تريدين أن تعيشي في عالم أشبه بعالم فيلم *Blade Runner*؟»

اضطرت جوان للتدخل مرة ثانية لاستعادة انتباه الحضور من جديد، فقالت: «نحتاج إلى توحيد الإرادة، وإلى تحرك لم نر مثله من قبل، ولكن ربما لم نضع أيدينا بعد على الحل المنشود.»

ردت أليسون سكوت قائلة: «بالضبط.» ثم وقفت ثانية ووضعت يديها على شعر ابنتيها اللامع بلونيه الأزرق والأخضر، وقالت: «إن الهندسة الكبرى حلم ميت من أحلام القرن العشرين، والحل ليس بعيدًا عنا، فسوف نجده بداخلنا.»

قوبلت كلماتها بمزيد من مشاعر العداء. «إنها تقصد هندسة الأطفال، مثل ابنتيها الصغيرتين عجيبتي الخلقة.»

ردت سكوت بحدة: «أنا أتحدث عن التطور، وهو ما يحدث للأنواع حين تتغير البيئة، وقد أثبتنا على مدار تاريخنا أننا نوع يتمتع بقدرة عالية على التكيف.»

وهنا وقفت امرأة سوداء في الستين من عمرها تقريبًا، وعرفتها جوان، فهي إيفلين سميث التي كانت فيما مضى واحدة من أبرز المتخصصين في علم الأحياء التطوري، وقالت ببرود: «إن البشرية لم تتأثر بالانتخاب الطبيعي طوال عشرات الآلاف من السنين، ويكشف الذين يزعمون خلاف ذلك عن قصور في فهم الآلية الأساسية، فنحن نعرقل عمليات الغربلة التي يقوم عليها الانتخاب: قضت أسلحتنا على الحيوانات المفترسة، وساعد تطور الزراعة في الحد من المجاعات، إلى غير ذلك. لكن ذلك سوف يتغير إذا حدث الانهيار الوشيك، وفي هذه الحالة سوف يعود الانتخاب. وهذا بالمناسبة هو موضوع البحث الذي سوف أعرضه في الجلسة الثالثة.»

كانت هناك بعض الاحتجاجات.

- «... أي انهيار وشيك؟»

- «... على الرغم من كل مظاهر العظمة التي تبدو على سطح مجتمعنا، فقد بدأت تظهر عليه أعراض الانهيار: تصاعد التفاوت الاجتماعي، وتراجع عائدات التوسع الاقتصادي، وانهيار معايير التعليم والإنجاز الفكري.»

«أجل، والموت الروحي. حتى نحن الأمريكيين لا نظهر إلا احترامًا اسميًّا فقط للرموز المقدسة: العَلَم والدستور والديمقراطية، وفي الوقت نفسه الذي نسلم فيه إلى المؤسسات السيطرة على حياتنا، ونعزي أنفسنا بالتعاليم الصوفية والتشوش الذهني. لقد حدث ذلك من قبل، ويبدو التشابه واضحًا مع ما حدث في روما ....»

«... فيما عدا أننا الآن جميعًا متحدون في كل أنحاء العالم، فإذا سقطنا فلن يتبقى لنا ما نستطيع الاعتماد عليه للوقوف على أقدامنا من جديد.»

«... هذه نظرة مغالية في التشاؤم، فنحن نتمتع بالمرونة، وقد أنجزنا أشياء عظيمة من قبل ....»

«لقد استخرجنا كل ما نستطيع استخراجه من المعادن ... وأحرقنا كل ما وصلت إليه أيدينا من البترول والفحم، ولو وقع الانهيار فعلًا فلن نجد ما نستطيع أن نبدأ به إعادة البناء.»

قالت سميث بعناد: «ما أقوله هو أن الوقت يداهمنا.»

أخرست هذه الكلمات التي خرجت هادئة الجميع، ورأت جوان الفرصة سانحة.

فقالت بلهجة جافة: «أعتقد أننا لو أردنا ألا تعود أيام الماضي السيئ الذي لم يكن فيه الإنسان إلا حيوانًا من الحيوانات التي يتكون منها النظام البيئي، فيجب أن نوقف هذه الفوضى. وأظن أن هناك وسيلة لذلك.» ثم ابتسمت وهي تتحسس بطنها دون وعي وأردفت: «وسيلة جديدة، لكنها معروفة لنا منذ وقت طويل؛ وسيلة تتميز بها الرئيسيات.»

ثم بدأت تعرض ملامح رؤيتها.

قالت جوان: «كانت الحضارة الإنسانية نوعًا من التكيف لمساعدة الناس على التعايش مع التقلبات الجوية العنيفة خلال عصر البلايستوسين، والآن — في مفارقة قاسية عبر آلاف السنين — تسبب هذه الحضارة أضرارًا بيئية بالغة، وأصبحت الحضارة التي كانت تتسم فيما مضى بقدرة هائلة على التكيف؛ أصبحت غير قابلة للتكيف، وأصبح تغييرها ضرورة.»

«ليست الحياة تنافسًا فحسب، لكنها تعاون وتكامل أيضًا. وهي كذلك منذ نشأتها، فقد اعتمدت الخلايا الأولى على تعاون البكتريا الأبسط منها تركيبيًّا، وهكذا ظهرت الأنظمة البيئية الأولى. والآن صارت حياتنا تعتمد بدرجة كبيرة على التعاون المتبادل بحيث أصبح من المحتم أن تسير في المستقبل لتحقيق هدف واحد مشترك.»

- «أنت تتحدثين عن العولمة، ما المؤسسة التي تمولك؟»

- «لقد عدنا مرة ثانية إلى جايا وآلهة 'الأرض الأخرى، أليس كذلك؟»

قالت جوان: «إن مجتمع العولمة الآن معقد التركيب، بحيث صار كلًّا وجزءًا في آن واحد؛ كيان واحد مركَّب، وعلينا أن نتعلم أن ننظر إلى أنفسنا على هذا النحو، وأن نعتمد على الجانب الآخر من طبيعتنا كنوع من الرئيسيات؛ الجانب الذي لا يتعلق بالتنافس والخوف من الآخر. إن

الرئيسيات تتعاون أكثر مما تتنافس، وهذا هو الحال بين قردة الشمبانزي والليمور، ولا بد أن الحال كان كذلك عند الأنواع السابقة للإنسان العاقل كإنسان جاوة والإنسان المنتصب وإنسان نياندرتال. إن ظاهرة التكامل بين البشر قديمة قدم التاريخ. والآن أصبحنا دون أن نقصد نحتل المحيط الحيوي بالكامل، وعلينا أن نتعلم كيف ندبر أمره معًا.»

وقفت أليسون سكوت مرة ثانية وسألت: «ماذا تريدين بالتحديد يا جوان؟»

- «أريد بيانًا رسميًّا، تصريحًا، خطابًا مشتركًا موجهًا إلى الأمم المتحدة وموقعًا منا جميعًا، يجب أن تأتي المبادرة من جانبنا، وأن نبدأ خطوة جديدة، يجب أن نرسم طريقًا إلى مستقبل مستدام. مَن غيرنا يستطيع أن يفعل ذلك؟»

- «مرحى، يمكننا أن ننقذ العالم.»

- «إنها محقة، لن تكون جايْ هي الأم؛ بل الابنة.»

- «ما الذي يجعلك تظنين أن أصحاب السلطة سوف يستمعون إلى مجموعة من العلماء؟ إنهم لم يفعلوا ذلك قط. إنها أضغاث أحلام!»

تدخلت إيفلين سميث قائلة: «سوف يصغون إلينا إذا ضاقت بهم السبل.»

وقفت أليس سيجوردادوتير قائلة: «قال كونفوشيوس: «على من يقولون إن هذا مستحيل أن يُفسحوا الطريق لمن يستطيعون.»» ورفعت قبضتها النحيلة بإشارة القوة وأضافت: «نحن ما زلنا ننتمي إلى رتبة الرئيسيات، لكننا أرقى، أليس كذلك؟»

وعلى الرغم من ارتفاع بعض صيحات الاستهجان، فإن جوان أحست بشيء من الترحيب في الوجوه المصطفة أمامها ... وقالت في نفسها: «سينجح الأمر. إنها بداية فحسب، لكننا سوف ننجح. بإمكاننا حل هذه المشكلة.» ثم تحسست بطنها.

والواقع أنها كانت محقة، وكان يمكن أن ينجحوا.

ربما تكون الضغوط السياسية والاقتصادية قد خلقت لدى قادة العالم مرونة لم توجد قبل ذلك، وكان من الممكن أن ترسم لهم أفكار جوان طريق

الجمع بين التواصل الذي توفره التكنولوجيا وغرائز التعاون القديمة لدى الرئيسيات، وربما تجاوز الأمر حدود إدارة الأنظمة البيئية، فلم يسبق أن امتلكت أي أنواع أخرى القدرة على التواصل على مستوى الكرة الأرضية، ليس خلال عمر الحياة على الأرض البالغ أربعة مليارات عام. ربما لو مُنِحت طريقة جوان وقتًا كافيًا لأحدثت طفرة معرفية كالتي أحدثها التكامل في جيل الأم.

ازداد ذكاء البشر حتى دمروا كوكبهم، وربما يحتاجون الآن وقتًا قصيرًا حتى يستطيعوا إنقاذه بذكائهم.

وقتًا قصيرًا ليس إلا.

وعندئذ انطفأت الأنوار، وبدأت الانفجارات، كأنها وقع أقدام هائلة، وتعالت صيحات الناس وهم يلوذون بالفرار.

وفي الوقت نفسه اشتدت قوة الزلازل في رابول، حتى شقت آخر الأمر قاع البحر فوق غرفة الصهارة، وبدأت الصهارة تتصاعد إلى السطح عبر أنفاق ضخمة بلغ اتساع بعضها ثلاثمائة متر، واندفعت مياه البحر إلى هذه الأنفاق، وتحولت في لمح البصر إلى بخار. وفي هذه الأثناء ظلت الغازات الأخرى مثل ثاني أكسيد الكربون ومركبات الكبريت ذائبة في الصهارة بفعل قوة الضغط الهائلة في الأعماق، مثلما يظل ثاني أكسيد الكربون داخل زجاجات المياه الغازية، لكن الزجاجة قد تحطمت الآن، وخرجت الغازات في صورة فقاقيع.

وتزايد الضغط في الفجوات الصخرية تزايدًا رهيبًا.

٢

في البار الذي تجمع فيه أعضاء المؤتمر، أضاءت أنوار الطوارئ، وملأت الغرفة بوهج بارد.

وكان السقف الداخلي قد تهشم إلى قطع من البوليستيرين تساقطت على رءوس الفارين، ولمحت جوان أليسون سكوت وهي تجذب طفلتيها إلى أحد الأركان، وبدأت الفجوة التي سببها انهيار السقف، الذي كان يغص بالأنابيب المغلفة بالمواد العازلة — ككهف غائر مظلم قذر.

ثم سقطت حبال النايلون الرفيعة عبر هواء مثقل بغبار البوليستيرين، ولمحت جوان أشباحًا متشحة بالسواد تتحرك مثل العناكب في فجوة السقف، ثم تنزلق إلى أرضية البار المغطاة بالتراب، كانوا يرتدون ثيابًا سوداء تلتصق بأجسادهم، وعلى رءوسهم خوذات تغطي وجوههم. أحصت جوان سبعة منهم، لكنها لم تستطع أن تميز أرجال هم أم نساء، وكانوا جميعًا يحملون أسلحة آلية خفيفة.

كانت أليس سيجوردادوتير تجذبها من يديها لتنزل من على المنضدة، لكنها قاومتها عالمة أنها لا تزال مركز الاهتمام، وشعرت — وربما كان شعورًا غير منطقي — أن الأمور ستزداد سوءًا لو استسلمت للفوضى.

بدا أن أحد المقتحمين يتولى القيادة، فعلى الأرض تجمع الباقون حوله وهو يراقب الموقف، ولم تدر جوان أكان رجلًا أم امرأة؟ لكنها خمنت أن قائد هذه المجموعة لن يكون إلا رجلًا. بقي بجوار القائد اثنان من المهاجمين، واتجه الأربعة الباقون ناحية الأبواب، ثم صوبوا أسلحتهم وظهورهم إلى الحائط نحو الحضور الذين تجمعوا مثل قطيع من الأغنام في وسط الغرفة.

لم يكن هناك من العاملين بالفندق سوى شخص واحد: عامل البار الأسترالي الشاب الذي لفت انتباه أليس في البداية. كان نحيل الجسم ذا شعر أسود سجعد، ويبدو أنه ينتمي على الأقل جزئيًّا إلى سكان البلاد الأصليين، وكان يرتدي ربطة عنق فراشية، وسترة لامعة. تقدم الشاب بشجاعة وقد بسط يديه وقال: «اسمعوا، لا أعرف ماذا تريدون، ولكن إذا سمحتم لي بأن أتصل بـ ....»

كان صوت المسدس هادئًا، وسقط الصبي وجسده ينتفض، وفجأة انبعثت رائحة الموت؛ رائحة لم تشمها جوان منذ كانت في أفريقيا. وصرخ الأعضاء وتراجعوا إلى الخلف وتجمدوا في مواقعهم وهم يحاولون — كل بطريقته — ألا يشدوا انتباه القتلة إليهم.

وفي غضون ذلك — وفي مشهد يتناقض مع ما يحدث — واصلت الحوائط الذكية دورانها، وهي تعرض صورًا لا معنى لها لبركان غينيا الجديدة، ولمصانع الإنسان الآلي في المريخ، وإعلانات الجعة والمخدرات وحلي تكنولوجية صغيرة.

وكما توقعت جوان، اقترب القائد منها بعد أن ارتكب جريمته التي قصد بها توجيه رسالة محددة. كان مسدسه في جانبه ما زال ساخنًا، وكان قناعه مثبتًا إلى خوذته الأنيقة.

وقبل أن يستطيع التحدث صاحت فيه جوان قائلة: «هل تخاف أن تكشف وجهك؟»

فضحك ونزع قناعه، وكانت جوان مصيبة حين ظنت أن القائد لا بد أن يكون رجلًا. كان أبيض البشرة حليق الرأس ذا عينين بنيتين، وكان عمره نحو خمسة وعشرين عامًا، ولا بد أنه لم يكن يكبر الساقي الذي قتله للتو بكثير. حدق فيها، وهو يزن تحديها الصامت.

نزع رفقاؤه أيضًا أقنعتهم، وكانوا جميعًا حليقي الرءوس. كانوا أربعة رجال — بمن فيهم القائد — وثلاث نساء.

سألته جوان: «هل أنت بيكرزجيل؟»

ضحك القائد وقال: «لا وجود لبيكرزجيل، إن الشرطة الدولية تطارد وهمًا. بيكرزجيل نكتة لطيفة ومفيدة.» كانت لكنته تنتمي لوسط أمريكا، لكنه يضغط على حرف الراء بطريقة غريبة غير ملحوظة تمامًا، وذلك نتيجة سيطرة اللغة الإنجليزية الأمريكية على العالم هذه الأيام. من المستحيل أن تعرف من أين جاء هذا الصبي.

- «من أنت إذن؟»

- «أنا إليشا ....»

قالت جوان بحرص: «وماذا تريد يا إليشا؟»

رد قائلًا: «أنت لا تضعين جدول الأعمال الآن، سوف أخبرك بما فعلنا. لقد أطلقنا الوباء يا د. جوان يوسِب.»

اقشعر جلد جوان.

«لقد أصابتكم العدوى جميعًا، ونحن أيضًا، وسيموت معظمنا في بضعة أيام ما لم نتلق علاجًا، ولو وصلنا إلى حل نرتضيه لهذا الموقف فربما نعيش جميعًا. لكننا مستعدون للموت في سبيل معتقداتنا، فهل أنتم أيضًا مستعدون لذلك؟»

تدبرت جوان الأمر قليلًا ثم قالت: «هل تريد المنضدة؟»

سار جيئة وذهابًا أمام المنضدة وهو يدير الأمر في ذهنه، كان من الواضح أن هذه المنضدة الصغيرة أصبحت مركز السلطة في الغرفة، وهو بالطبع يريدها. «نعم، انزلي.»

ساعدتها أليس على النزول، وقفز إليشا إلى منصة جوان المرتجلة، ثم بدأ يصدر أوامره إلى زملائه بلغة تبدو أقرب إلى اللغة السويدية.

تمتمت أليس: «سلوك بدائي تقليدي، تسلسل القيادة المميز للسلطة الذكورية، بارانويا، رهاب للغرباء يقترب من الفصام. هذا ما يكمن تحت هذا الهراء.»

«لكن استجابتنا لهذا الهراء هي التي ستخرجنا من هذا المأزق ....»

غطى صوت رفرفة هائلة على حديثها، كأن تيروسورًا عملاقًا يهبط على سطح الفندق، كانت طائرة مروحية معلقة في السماء بعيدًا عن السطح. وعندئذ دوى صوت عبر الجدران يعلن عن مقدم قوات الشرطة.

أمطر الإرهابيون السقف بأسلحتهم فتهاوي المزيد منه. وصرخ أعضاء المؤتمر وهم ينكمشون مرتعدين، وأضافوا بذلك إلى الضجة التي أراد الإرهابيون إثارتها. هذا ما جال بذهن جوان وهي تضع يديها على أذنيها حتى صمتت الأسلحة بعد أن توقفت الشرطة عن محاولة الاتصال بهم.

وقفت جوان بحذر وهي تنفض التراب عن ثيابها، والعجيب أنها لم تشعر بالخوف، ثم نظرت إلى إليشا الذي كان يدور ببطء حول المنصة وقد احمر وجهه وأخذ يتنفس بصعوبة وأراح سلاحه على كتفه، وقالت: «لن تجد فرصة للحصول على ما تريد — أيًّا كان ما تريد — ما لم تسمح لهم بالتحدث إليك.»

- «لكنني لست بحاجة إلى أن أتحدث مع الشرطة أو مستشاريهم النفسيين غرباء الأطوار ما دمتِ معي هنا، أنتِ التي تتزعمين العولمة الجديدة، هذا الهولون.»

تنهدت أليس قائلة: «لماذا يخالجني شعور بأن هذه الكلمة البريئة سوف تصبح فجأة اسم شيطان جديد؟»

- «لقد استمعنا إلى خطبتك الرائعة ونحن كامنون في السقف، بعيدون عن الضوء ... كم كان هذا ملائمًا!»

ردت جوان قائلة: «إنكم حقًّا ...»، وتوقفت قبل أن تكمل بـ«لا تفهمون» إذ أحست أن هذا سيكون خطأ من جانبها، فاستدركت قائلة: «أرجوك، حدثني عن مخاوفك.»

حدق فيها قليلًا، ثم هبط من فوق المنضدة، وحدثها بنبرة هادئة قائلًا: «أصغي إليّ. لقد استمعت إلى ما قلتِه عن النظام العالمي الذي يجب علينا أن نتحد تحت رايته. حسنًا، لكن لكل نظام حدودًا، فماذا عن الواقعين خارج هذه الحدود؟ د. جوان يوسِب، إن أغنى ثلاثمائة شخص على كوكبنا يملكون قدر ما يملكه أفقر ثلاثة مليارات من إخوتهم في الإنسانية. وبعيدًا عن المناطق التي تسكنها الصفوة المميزة، هناك مناطق أخرى فقيرة تعيش تحت نير العبودية، ويُستغَل الناس فيها من أجل جهودهم أو أجسادهم أو أجزاء من أجسادهم. فكيف سيدرك جهازك العصبي العالمي بؤسهم؟»

بدأت الأفكار تتسارع في ذهنها. يبدو أنه قد تدرب جيدًا على هذه الكلمات، فهذه هي الفرصة التي كان ينتظرها؛ اللحظة الحاسمة في حياته. ولذلك كان عليها أن تبني كل ما تقوله على فهم هذه الحقيقة ... هل كان طالبًا؟ لو كان واحدًا من المثقفين الاستعماريين في رحلة، فربما تتمكن من العثور على نقاط ضعف في التزامه.

لكنها تذكرت أنه قاتل أقدم على جريمته بقسوة دون أن يتردد لحظة، وتساءلت عن نوع المخدر الذي يستعمله.

– «بعد إذنك.» كان صوتًا جديدًا، صوت أليسون وهي واقفة أمام إليشا وبجوارها طفلتاها المذعورتان وقد لمع شعرها الأخضر والأزرق في ضوء الحوائط المتقطع، الذي لا معنى له.

أحست جوان بوخزة ألم في أسفل بطنها، شهقت من الألم، وأحست بأن الأمور تزداد سوءًا.

كانت بيكس تنظر إليها باتهام.

– «بيكس ... هل أنت بخير؟»

– «لقد قلت إن رابول لن يلحق بنا أي أذى ما دمنا هنا، وقلت إننا بمأمن.»

- «أنا آسفة يا أليسون، أرجوكِ عودي إلى مكانك فلا يوجد ما تفعلينه هنا.»

تجاهلتها سكوت، وقالت: «استمع إلي يا هذا، مهما كنت ومهما كان ما تُريد، لقد أنهكتنا الحرارة والإرهاق والعطش، وقد بدأنا نشعر بغثيان.»

رد إيشا ببرود: «هذا سخيف، إنها أعراض جسدية لاضطراب نفسي، فأنت عصابية.»

زمجرت سكوت: «لا تحلل شخصيتي، أنا أطالب ....»

قاطعها إليشا: «تطالبين ... تطالبين. كلام. كلام. كلام ...» ثم اقترب منها فلم تتحرك، بل لفت ذراعيها حول ابنتيها. رفع إليشا شعر بيكس الأخضر وشده بيديه وقال: «معالج جينيًّا.»

أصدرت سكوت صوتًا كالفحيح: «دعها وشأنها.»

- «كم هما جميلتان.» وبدأ يتحسس شعر بيكس حتى كتفيها، ثم أمسك بصدرها الصغير.

صرخت بيكس، وجذبتها سكوت بعيدًا عنه: «إنها في الرابعة عشرة من عمرها ....»

- «هل تعرفين يا د. جوان يوسِب ماذا يفعل مهندسو الجينات؟ إنهم يضيفون كروموسومًا إلى أجساد أطفالهم يحوي كل الجينات المرغوبة. هل تعلمين ما يفعله هذا الكرموسوم الإضافي باستثناء الشعر والأسنان؟ إنه يمنع زاوج هؤلاء الأطفال المتميزين منا نحن البشر القدامى الذين لم يخضعوا للتطوير. هل هناك حاجز أعلى من هذا بيننا وبينهم؟ حتى الأغنياء هذه الأيام ينتمون لنوع منفصل عنا.» وكأنما لا يدري ما يفعله، انتزع بيكس من قبضة أمها، مثلما ينتزع ثمرة من غصنها، وأمسكت واحدة من الإرهابيين بسكوت تثبتها في مكانها. مزق إليشا القميص الذي كانت ترتديه بيكس، فظهر قميصها الداخلي، وأغمضت بيكس عينيها، كانت تتمتم لنفسها بأغنية أو لحن ما.

- «أرجوك يا إليشا ...» وأحست جوان بوخزه ألم جديدة في بطنها، فانحنت إلى الأمام، وهي تقول في نفسها: ليس الآن، ليس الآن.

فجأة وجدت أليس بجوارها: «تمالكي نفسكِ يا جوان، اجلسي ....»

أحست جوان أن الصور تتغير على الجدران، وغامت الرؤية أمامها، وتداخلت الألوان؛ البرتقالي والأسود والرمادي.

كانت أليس تبتسم ابتسامة غريبة ليست ابتسامة مرح أو سرور؛ كانت ابتسامة جامدة: «إن رابول ينفجر، يا له من وقت مناسب!»

كان إليشا قد أمسك بمعصمي الفتاة ورفع ذراعيها إلى أعلى.

قالت جوان بسرعة: «لا تفعل ذلك يا إليشا، أنت لم تأت إلى هنا من أجل هذا.»

- «أحقًّا؟»

ردت سكوت بحدة: «إذا كنت مضاجعًا امرأة، فأنا هنا أمامك.»

أجاب إليشا «وما المغزى من ذلك؟ الفكرة ليست فيما نفعل، ولكن فيما يرمز إليه الفعل نفسه، فهذه المرة الأولى منذ اندثار إنسان نياندرتال التي يوجد فيها في العالم نوعان منفصلان من البشر.» ثم حملق في الفتاة وأردف: «هل يعد الفعل بين نوعين مختلفين اغتصابًا؟»

انفجرت الأبواب.

كانت هناك صرخاتٌ، وأناس يندفعون هنا وهناك، وأصوات طلقات، واندفعت كرات سوداء من الأبواب المفتوحة لتنفجر بالداخل، وبدأ دخان أبيض يملأ الجو.

بحثت جوان عن الإرهابيين وهي تحاول أن تحصي عددهم. سقط اثنان منهم عندما انفجرت الأبواب، وسقط اثنان آخران وهما يعدوان ويطلقان الرصاص، وكان أغلب أعضاء المؤتمر ممددين على الأرض أو مختبئين تحت الأثاث، وبدا أن ثلاثة أو أربعة منهم قد أصيبوا، فقد شاهدت جوان خلال الدخان المتصاعد أشباحًا خامدة، وبقعًا من الدماء وسط التراب الرمادي. ومرة أخرى أحست جوان بموجة من الألم في بطنها.

وقف إليشا أمامها مبتسمًا، وهو يمسك في يده حبلًا طويلًا أسود يخرج من حزام حول وسطه. كانت بيكس قد فرت إلى أحضان أمها وكانتا تتراجعان بعيدًا عنه.

- «إليشا، لستَ مضطرًّا للانتحار.»

اتسعت الابتسامة على شفتيه وقال: «هناك خمسمائة منا في جميع أرجاء الكوكب لإلقاء نفس الخطاب.»

تقدمت أليس خطوة تجاهه وقالت: «بحق السماء، لا تفعل ذلك يا إليشا.»

أجابها وهو يعيد القناع إلى وجهه: «لن يصيبكم أذى، سوف أموت كما عشت، بدون وجه.»

صرخت جوان: «إليشا!»

جذب إليشا الحبل كأنما يدير محركًا يعمل بالجازولين، فتوهج شيء حول وسطه؛ حزام عابر من الضوء، ثم انفصل نصف جسده الأعلى عن الأسفل، وتهاوى الشطران إلى الأرض، وفاحت رائحة الدماء، ورائحة محتويات المعدة الحمضية.

تعلقت أليس بجوان وهي تغمغم: «يا إلهي. يا إلهي.»

كان الدخان يتكاثف ويعمي أبصارهم، وبدأت جوان تسعل كمن أدمن التدخين سنوات طويلة. وعاد الألم من جديد يعصف ببطنها، فتمسكت بأليس، وقالت: «ألم يخطر لك من قبل كم أن الانتحار الجماعي يسير ضد التكيف؟»

- «جوان ....»

- «ما أقصده أن الانتحار الفردي ربما يكون مبررًا في بعض الأحيان من الناحية البيولوجية، فقد يزيح الانتحار عبئًا. ولكن ما المنطق البيولوجي للانتحار الجماعي؟ فالقدرة على الإيمان بمبادئ الحضارة تساعد على التكيف، وإلا لما كنا في حاجة إليها. ولكن أحيانًا تكون آلية التنفيذ خاطئة.»

- «نحن مجانين. هل هذا ما تريدين قوله؟ إننا جميعًا مجانين؟ أنا أوافقك تمامًا.»

ظهر أمامها شبح يبدو كجندي يرتدي بدلة فضائية، وقال وهو يمد يده إليها: «سيدتي، من فضلك تعالي معي.»

هاجمها الألم ثانية، فتهاوت أمام أليس سيجورداردويتر. ثم سمعت صوت انفجار ظنت أنه جزء من عمليات الشرطة أو الجيش.

لكنها كانت مخطئة، فقد كان ذلك انفجار رابول.

فحين تسربت مياه البحر إلى غرفة الصهارة أصبح الانفجار محتومًا.

واندفعت قطع من الصهارة عاليًا في الهواء بسرعة أكبر من سرعة الصوت، ووصلت في ارتفاعها إلى خمسين كيلومترًا، ثم تحولت إلى شظايا جامدة، تراوحت ما بين ذرات صغيرة من التراب إلى قطع عرضها مترٌ تقريبًا، وامتزجت معها كتل من الجبل الذي تهاوى، وارتفعت هذه الكتل الصخرية في الهواء إلى أبعد من الطائرات والبالونات، وحتى أبعد من طبقة الأوزون، واختلطت شظايا رابول بالشهب والنيازك وهي تحترق محدثة بريقًا ساطعًا. امتلأت السماء بالصخور.

وعلى الأرض كانت الموجات الزلزالية تتحرك من منطقة الانفجار البركاني بسرعة تبلغ ضعف سرعة الصوت، وأخذت تحطم كل شيء في طريقها: المنازل والمعابد والأشجار والجسور، وفي مرورها كانت تبعث طاقة في الجو تتحول إلى حرارة عالية تحرق كل ما حولها.

كان الناس يرون الهزة قادمة، لكنهم كانوا عاجزين عن سماعها، وعن الفرار. كانت النيران تلتهمهم مثلما تحترق أغصان الصنوبر، ولم تكن تلك سوى البداية.

أحاطت مجموعة من الجنود الذين يرتدون ملابس الفضاء بجوان، وأخرجوها إلى الهواء الطلق بعيدًا عن البار الذي ملأه الدخان، وبعيدًا عن الفندق، ثم وضعوها على محفة التفت بها سريعًا. كانت حولها عاصفة من الحركة؛ أناس يعدون، وسيارات تندفع على الأسفلت، وطائرات مروحية تحلق في سماء برتقالية.

أحست بهم جوان ينقلونها إلى إحدى المركبات. هل كانت سيارة إسعاف؟ واحد، اثنان، ثلاثة ... ارفع. وانزلقت النقالة داخل المركبة بجانب سرير مثبت في أحد جانبيها، وعلى جدرانها أجهزة مجهولة لا تصدر أصواتًا أو همهمة مثل تلك الأجهزة التي كانت قد اعتادت عليها من قبل.

حركت يدها في الهواء وهي تغمغم: «أليس»

أمسكت أليس بيدها: «أنا هنا يا جوان.»

- «أحس كأنني إحدى البرمائيات، وأنني أسبح في بحر من الدم والبول، لكنني أتنفس هواء الحضارة.»

كان وجه أليس مرهقًا يعكس مشاعر الارتباك والخوف: «ماذا؟ ماذا قلت؟»

- «كم الساعة الآن؟»

- «جوان، ادخري أنفاسك. صدقيني، لقد مررت بهذه التجربة من قبل، وسوف تحتاجين إلى قوتك.»

- «أنحن في الليل أم النهار؟ أنا لا أعرف، ولا أستطيع أن أخمن من النظر إلى السماء.»

- «إن ساعتي قد تهشمت، لكنني أعتقد أن الوقت ليل.»

أحست جوان بشخص يحرك ساقيها، أيمزق ملابسها؟ وبدأت عربة الإسعاف تتحرك وصوت صافرتها يترامى إلى سمعها، كعويل حيوان ضل في الضباب، لم تكن ترى سوى سقف المركبة العاري بطلائه الكئيب، وهذه المعدات التي لا معنى لها، ثم وجه أليس الشاحب.

- «استمعي إلي يا أليس.»

- «أنا هنا.»

- «لم أخبرك من قبل بتاريخ أسرتي الحقيقي.»

- «جوان ....»

قاطعتها جوان بحدة: «إذا لم تكتب لي النجاة، فأخبري طفلتي من أين أتت.»

أومأت أليس برأسها في هدوء: «أتيتم إلى أمريكا عبيدًا.»

«لقد حكى جدي الأكبر القصة بكاملها؛ جئنا مما يعرف الآن بدولة ناميبيا، على مقربة من ويندهوك. كنا من السان أو البوشمن الذين كاد البانتو يمحونهم من الوجود، وكانوا يقتلوننا أيام الاستعمار كأننا من الهوام، لكننا احتفظنا بشيء من هويتنا الحضارية.»

- «جوان ....»

لكن جوان استطردت: «أليس، إن الدراسات المستمرة للجينات تشير إلى أنها في نساء السان أشد تنوعًا منها في أي مكان آخر على الأرض، ويعني

هذا أن جينات السان ظلت في جنوب أفريقيا فترة أطول من أي جينات أخرى في أي مكان آخر من العالم. ولذلك فإن الذين ينحدرون من سلالة السان هم الأقرب إلى النسل الذي ينحدر من أمنا حواء ....»

أومأت أليس برأسها في هدوء وقالت: «فهمت. وعلى هذا ستكون طفلتك واحدة من أصغر الأشخاص على الأرض ... وأكبرهم.» ثم ربتت على يدها قائلة: «أعدك أن أخبرها.»

بدأ الألم يهاجمها مرة أخرى في موجات متلاحقة، وأحست كأن رأسها سينفجر. جاهدت لتستطيع التفكير وقالت: «هل تعلمين أن الإحصائيات تقول إن الولادة الطبيعية للإنسان عادة ما تحدث ليلًا؟ وهي سمة قديمة في الرئيسيات، وميزتها أنها تتيح لهم حمل أطفالهم إلى الأعشاش في أعالي الأشجار في أمان.»

- «جوان ....»
- «دعيني أتكلم، فالحديث يُذهب الألم.»
- «المخدرات أيضًا تذهب الألم.»
- «آه. إن الألم هذه المرة مختلف، هل توجد مُولدة في هذه المركبة؟»
- «إنهم جميعًا مسعفون مدربون، فلا داعي للخوف.»
- «أعتقد أن ابنتي تريد أن ترى ما بداخل هذه المركبة الحقيرة.»
- «ليس الموقف جديدًا عليك. والآن هيا: ادفعي مع الزفير.»

بدأت جوان في التنفس بسرعة متلاحقة؛ أوف. أوف. أوف.

ظلت أليس تتطلع إلى مكان الجنين: «رائع، استمري.»

- «حتى لو كان لدي حوض مثل قردة أوسترالوبايثيسين.»
- «جوان يوسِب، هذا كلام فارغ.»
- «لا أعتقد ذلك.»
- «إن الطفلة على وشك الخروج. إنها على وشك الخروج ....»

كانت عظام جمجمة الطفلة لينة يمكن أن تتشوه إذا تعرضت للضغط لإخراجها من قناة الولادة، ويمكنها أن تتحمل نقص الأوكسجين حتى لحظة الولادة.

وهذه اللحظات الأخيرة هي أكبر تغيير جسدي سوف تعانيه حتى لحظة الموت، لكن جسم الطفلة كان ممتلئًا بالمسكنات والمخدرات الطبيعية، فلم تشعر بأي ألم حقيقي، فقط استمرار حلم الرحم الطويل الذي اندمجت فيه ذاتها وهويتها شيئًا فشيئًا.

تناول أحد المسعفين الطفلة، ونفخ في أنفها الهواء، وضربها على مؤخرتها، فصرخت صرخة مطمئنة ملأت سيارة الإسعاف، ثم لُفَّت هذه القطعة الصغيرة من اللحم المندى بالماء في بطانية بسرعة وأُعطيَت إلى جوان.

كانت جوان مرهقة، لكنها أحست بالدهشة وهي تلمس خد طفلتها، وأدارت الطفلة رأسها وفمها يتلوى بحثًا عن شيء تمصه.

ابتسمت أليس وهي تنظر إليهما والعرق يتصبب منها والإرهاق بادٍ عليها كأي خالة فخورة، وقالت: «يا إلهي! انظري إليها. إنها تتواصل معنا بطريقتها، إنها بشرية فعلًا.»

- «أعتقد أنها تريد أن ترضع. ولكن لا أعتقد أن عندي لبنًا الآن، أليس كذلك؟»

نصحتها أليس: «على أي حال دعيها ترضع فسوف يحفز ذلك جسدك لإفراز المزيد من الأوكسيتوسين.»

هنا تذكرت جوان دروسها فأكملت: «وهو الذي سوف يتسبب في انقباض الرحم، فيخفف من النزيف ويساعد على طرد المشيمة.»

قال أحد المسعفين: «لا تقلقي، فقد حقناك بالأوكسيتوسين بالفعل.»

تركت جوان الطفلة تلعق حلمة ثديها: «انظري إليها إنها تحرك يديها كأنما تريد أن تقبض على شيء، وتخطو أيضًا، أنا أشعر بقدميها.»

- «ولو كان لك صدر أشعر لتعلقت بشعرك وزحفت على جسدك. ولو تحركت حركة مفاجئة لتمسكت بجسدك أكثر.»

- «انتظري عشرين دقيقة أخرى، وسوف تُخرج لك لسانها.»

أحست جوان كأنها تطفو، وكأن كل شيء حولها ليس حقيقيًّا، فيما عدا هذه الكومة الصغيرة الدافئة بين ذراعيها، وقالت: «أنا أدرك تمامًا أن كل شيء فطري، وأنني أخضع لإعادة برمجة حتى لا ألفظ هذا الطفيل الرطب الصغير. ومع ذلك، مع ذلك ....»

وضعت أليس يدها على كتف جوان، وقالت: «ومع ذلك فهي المعنى وراء حياتك السابقة، لكنك لم تدركي ذلك من قبل.»

- «نعم.»

صدر صوت من الهاتف الجوال الذي تحمله أليس، فأخرجته من جيبها، ولمحت بعض الأضواء والصور على صفحته مع تحركات سريعة.

همس أحد المسعفين إلى جوان: «نحن نقترب من المستشفى، لا تخافي فلها مدخل آمن مغلق.»

احتضنت جوان ابنتها قائلة: «إذن ستجتاز لوسي ممرًّا آخر طويلًا مظلمًا كالذي اجتازته منذ لحظات.»

تردد الرجل قائلًا: «لوسي ...؟»

- «هل يوجد اسم أجمل من ذلك أطلقه على طفلة من الرئيسيات؟»

ابتسمت أليس: «جوان، لست أول أم تلد طفلًا.»

تساءلت جوان «ماذا تعنين؟»

- «لقد تمكن إنسان إيان موهان الآلي على ظهر المريخ من إنتاج نسخة مطابقة له، تمكن من التكاثر، ويبدو من لهجة رسالته أنه سعيد جدًّا.»

- «هل أرسل يخبرك بذلك؟»

- «أنت تعرفين هؤلاء الرجال، فليذهب بقية العالم إلى الجحيم ما دامت أحدث آلاته تعمل كما ينبغي. لقد قتل سكان العالم الرابع مخلوقة أليسون سكوت، أعتقد أنهم ظنوا أنها شيء بغيض. ترى ماذا ظنت هي؟»

- «أعتقد أنها كانت تطلب الأمان فقط.»

تأملت جوان طفلتها الوليدة، لقد بدأ عالم جديد منذ لحظات قليلة، في حين يلفظ عالم آخر أنفاسه الأخيرة.

- «لقد اقتربنا من تحقيق أحلامنا، أليس كذلك يا أليس؟ المؤتمر ثم الإعلان الرسمي. كان يمكن أن ننجح، أليس كذلك؟»

- «بلى ... أعتقد هذا.»

- «لقد خاننا الوقت، هذا كل ما في الأمر.»

- «نعم، خاننا الوقت والحظ، ولكن يجب ألا نفقد الأمل يا جون.»

توقفت سيارة الإسعاف، وفُتحت أبوابها، وهب هواء لطيف داخلها، والتفت مجموعة من المسعفين حول جوان لينقلوها إلى محفة، وحاولوا أن يأخذوا الطفلة منها، لكنها لم تسمح لهم بذلك.

كان علماء الجيولوجيا يعلمون أن الأرض لم تتعرض منذ وقت طويل لحادثة بركانية كبرى.

ولم يكن انفجار رابول سنة ألفين وواحد وثلاثين أسوأ الثورات البركانية المعروفة أو أسوأها في التاريخ المدون، ومع ذلك فقد كان أخطر من انفجار بيناتوبو في الفلبين عام (ألف وتسعمائة وواحد وتسعين) الذي تسبب في انخفاض درجة حرارة الأرض بمقدار نصف درجة مئوية، وكان أسوأ من انفجار تامبورا في إندونيسيا عام (ألف وثمانمائة وخمسة عشر) الذي أدى إلى «عام بلا صيف» في أمريكا وأوروبا. كان رابول هو أكبر حدث بركاني منذ القرن السادس الميلادي، وواحد من أكبر البراكين خلال الخمسين ألف عام السابقة، كان رابول شيئًا عظيمًا.

لم تكن التغيرات المناخية تدريجية دائمًا ومتناسبة مع مسبباتها، فقد كانت الأرض معرضة دائمًا لتغيرات حادة ومفاجئة في المناخ والبيئة، وكانت تنتقل من حالة مستقرة إلى أخرى، وكان تأثير أقل الاضطرابات يتضخم مع الأحداث.

كان رابول واحدًا من تلك الاضطرابات، لكنه لم يكن حدثًا صغيرًا.

ولم يكن هو السبب في حد ذاته، بل كان هو القشة الأخيرة، بعد أن أدى النمو الهائل للبشر إلى وصول الأشياء إلى نقطة الانفجار. ولم يكن الأمر سوء حظ، فلو لم ينفجر رابول، لحدث بركان آخر أو زلزال أو اصطدم بالأرض أحد الكويكبات، أو أي شيء آخر.

ولكن مع انهيار النظم الطبيعية للكوكب، سوف يكتشف الإنسان أنه ليس في النهاية إلا حيوانًا يعيش في نظام بيئي، وحين تموت هذه الأنظمة الطبيعية، فسوف ينتهي هو بدوره.

وفي غضون ذلك واصل الآليون على ظهر المريخ عملهم، وتحول ضوء الشمس الشاحب والتراب الأحمر والهواء المكون من ثاني أكسيد الكربون

إلى مصانع صغيرة تنتج بدورها نسخًا من الآليين أنفسهم، بأرجل مفصلية، وخلايا شمسية، وأمخاخ صغيرة من السيليكون.

كان الآليون يرسلون أخبار محاولاتهم إلى صناعهم على الأرض، ومع أنهم لم يتلقوا ردًّا، فقد استمروا في العمل.

وتحت شمس المريخ البرتقالية المحترقة تمر الأجيال بسرعة.

وبالطبع فإن عمليات النسخ، سواء أكانت بيولوجية أو ميكانيكية، لا يمكن أن تكون مثالية، فبعضها تزيد نسبة نجاحه عن الآخر. وكان الآليون مبرمجين بالفعل على التعلم، والاحتفاظ بالأفكار الناجحة ومحو ما عداها. كان الآليون الأقوياء هم الذين ينالون البقاء ويورثون التغيرات في تصميمهم إلى الأجيال التالية.

وبذلك بدأ التنوع والاختيار يحدثان أثرهما.

استمر الآليون في الاجتهاد في العمل إلى أن لمع قاع البحر والوديان التي غطتها المخلفات المعدنية.

الجزء الثالث

الأحفاد

الفصل السابع عشر

ظل طويل

مكانٌ وزمانٌ غيرُ معروفين.

١

إن الاستيقاظ من سبات بارد طويل لا يُقارن بالاستيقاظ العادي في سريرك وزوجتك بجانبك، كان ذلك أشبه بالصعود إلى السطح من أعماق صهريج مملوء بسائل متجمد عازل للصوت.

والآن انكسرت الظلمة، واتسعت دائرة الضوء وتركزت على وجه غير واضح الملامح. كان وجه أحمد، كبير الملاحين، وليس وجه القائد. كانت هذه أول إشارة دلت سنُوي Snowy على وجود خطأ ما.

وكان أحمد يردد: «هل أنت بخير؟»

قبل أن يخضع سنُوي إلى الحقن، كان قد تدرب على كيفية الاستجابة لنداء الإيقاظ. ابتسم ورفع الإصبع الوسطى ليده اليمنى، وقال: «أي هبوط تستطيع التحرك بعده هو هبوط جيد.» كان صوته خشنًا، وفمه جافًّا كالصحراء.

قال أحمد بتجهم: «أنت لن تستطيع المشي بَعدُ أيها المتذاكي.»

قال سنوي: «أين روبرت ماد؟» وروبرت ماد هو القائد.

قال أحمد: «فيما بعد.» وانسحب تاركًا سنُوي لمعاينة الجدران المعدنية للتجويف. وألقى بحصته من الطعام على السرير. «اخرج من عندك، وساعدني مع الآخرين.»

سنُوي هو روبرت وين سنو، يبلغ من العمر واحدًا وثلاثين سنة، وكان ملازمًا في البحرية الملكية البريطانية التي منحته على الأقل الاستعداد لطاعة الأوامر. لذا فقد كافح حتى يتمكن من الجلوس.

كانت المقصورة أسطوانة من المعدن، رمادية اللون، جدرانها غير مزينة ومخصصة لمعدات وأجهزة الاستشعار. وكان الضوء يأتي من مصابيح الفلوريسنت منخفضة الطاقة التي تلقي بوهج شاحب في جميع الأنحاء. كانت جميع الأجهزة متوقفة، شاشات فارغة فقط. والأمر أشبه بالوجود داخل صهريج للنفط، والمقصورة مليئة بنحو عشرين سريرًا مكدسة بعضها فوق بعض، وفوق الأسّرة أغطية من البلاستيك الصلب. كان أحمد يتجول في الغرفة، ويفتح الأغطية واحدًا تلو الآخر، ويعيد غلق معظمها.

كان سنُوي عاريًا تمامًا، لكنه لم يكن يشعر بالبرد. والتقط حصته من المؤن. كانت كيسًا مفرغًا من الهواء يحتوي على موز مجفف، وشيكولاتة، وغيرها من الحلوى. مزق الكيس مستعملًا الأداة الوحيدة المتوفرة لديه، وهي أسنانه. انفجر الكيس وسمع صفير الهواء يندفع إليه، ثم أفرغ محتوياته على سريره وحشر بعض الموز في فمه. شعر كأنه كان يعدو في سباق ماراثون. كان قد خاض تجربة التجميد مرتين قبل ذلك لأغراض التدريب والتقييم، وقد استغرقت كل مرة أسبوعًا. وكان من غرائب العملية أنك لا تشعر بالبرودة في أي وقت، لكنك تستيقظ دائمًا في حالة جوع شديد. وربما يرجع ذلك إلى أن جسمك يستهلك مخزونه حتى يظل حيًّا، وذلك حسبما قال الأطباء.

ولكن كان هناك خطأ ما في سريره، فقد رأى المكان الذي كان مستلقيًا عليه، ورأى كيف ترك جسمه علامة واضحة جدًّا، مثل سرير الأم الميتة المخيف في فيلم «نفوس معقدة» Psycho. تحسس سنُوي المرتبة، كانت صلبة ومليئة بالكتل. والملاءات التي كان مستلقيًا عليها تمزقت عندما وكزها بيده، كأنها لفائف تغطي مومياء.

شعر بشيء من الخوف ينمو داخله.

كان أحمد يساعد إحدى الفتيات في أحد الأسرة العلوية تدعى جون، وكانوا يدعونها باسم مون. كانت جذابة، سواء بملابسها أو بدونها، ولكنها الآن وهي عارية بدت هشة، بل مريضة، ولم يشعر سنُوي نحوها إلا برغبة

في مساعدتها، بعد أن سقطت بطريقة غير ملائمة من سريرها، وأجفلت عندما مس جسدها العاري المعدن المصقول.

وباستيقاظ مون بدأ سنُوي يشعر بالتوتر والخجل، فمد يده أسفل سريره باحثًا عن ملابسه.

غير أن الأرض بدت مائلة، فاعتدل متوقعًا أن يصفو ذهنه، لكن الأرض ظلت تبدو مائلة، والخطوط العمودية للأسرة المتراصة بعضها فوق بعض بدت مائلة كما يميل السكارى. وقال سنُوي في نفسه: «لا يبدو هذا جيدًا.» لم يستطع أن يرى ما الذي يستطيع أن يزحزح هذا الكيان الذي يبلغ وزنه مائة طن، ولم يكن هذا باعثًا على الاطمئنان.

مد يده أسفل سريره مرة أخرى. كان الصندوق الكرتوني الذي يحتوي على ملابسه قد اختفى، لكن ملابسه نفسها موجودة ومكوّمة. ولكن عندما أمسك بها تفتتت، مثلما تفتتت الملاءات على سريره.

قال أحمد وهو يراقبه: «انس ذلك وأحضر بذلة الطيران. يبدو أن بذلات الطيران استطاعت الصمود.»

- «الصمود؟»

- «أظن أنه البلاستك.»

امتثل سنُوي. ووجد حذاءه لا يزال سليمًا أيضًا، فهو مُصنّع من بعض الخامات الاصطناعية التي لا تفنى، ولكن لم يبق لديه جوارب على الإطلاق، ويمكن أن يمثل ذلك مشكلة.

ساعد سنُوي مون في الحصول على بعض الطعام، بينما استمر أحمد في دوريته.

اجتمع المستيقظون في دائرة، وجلسوا على الطابق الأسفل من الأسرَّة، ولم يكن هناك سوى خمسة أفراد من العشرين فردًا الذين جرى تخزينهم هنا، والخمسة هم: سنُوي، وأحمد، وسايدوايز، والفتاة مون، وملاح صغير يدعى بونر.

استمر الصمت فترة من الوقت، بينما انقضّوا على الموز والشيكولاتة، وشربوا زجاجات من المياه. وكان سنُوي يعلم أنه يفضل في المواقف الجديدة

دائمًا أن تمنح نفسك بعض الوقت للجلوس والاستماع والتفكير، والتكيف على الوضع الجديد.

ألح سنُوي في سؤال أحمد عن القائد، وأراه أحمد أن جسد روبرت ماد قد ذبُل وانكمش وكأنه محنط بالمعنى الحرفي للكلمة، لحم جاف فقط يكسو العظم، وكان الأربعة عشر الباقون في الحالة نفسها.

لم يستطع سايدوايز أن يُبقي فمه مغلقًا كما هو متوقع. كان سايدوايز ضابطًا في القوات الجوية نحيفًا وقويًّا، وقد اشتهر بالقيام بحركات مثيرة في حلبة رقص. ألقى سايدوايز نظرة على المجموعة الصغيرة وقال لسنوي: «اللعنة، أهذا ما قالوا عن هامش الأمان؟»

قاطعه أحمد بحدة: «أغلق فمك.»

وسأل بونر أحمد: «فماذا كان نداء الاستيقاظ؟»

فقال أحمد بوضوح: «لم يكن هناك نداء.»

- «فما الذي أيقظنا إذن إن لم يكن نداء الاستيقاظ؟»

هز أحمد كتفيه وقال: «ربما كان في المقصورة مؤقت تلقائي، أو ربما توقف شيء ما عن أداء وظيفته فنبذتنا للخارج.»

كان بونر فتى وسيمًا، مع أن أحد الأوبئة قد تركه بدون شعر من قمة رأسه حتى أخمص قدميه. تحسس بونر بيده جلد رأسه العاري، وقال بلكنة تقترب من لكنة أهل ويلز: «ربما نكون قد بالغنا كثيرًا. كان من المفترض أن تكون المقصورة مخزنًا لتجميد الحبوب وأجنة الحيوانات وغير ذلك؛ نوعًا من الوقاية من الانقراض الجماعي. لكن ليس للبشر ....»

قال سنُوِي: «وبخاصة ليس أمثالك من البشر يا بونر. ربما كان ضراطك هو ما فجر باب المقصورة.»

خففت هذه الدعابة من توترهم كما تمنى سنُوي.

قال أحمد: «ربما أنشئت هذه المقصورة في الأصل لأجنة الفيلة أو غيرها، لكنها جُربت على الإنسان، وقد شاهدنا جميعًا المحاضرات عن عوامل السلامة، ومدى دقة النظام.»

أضاف سايدوايز: «بالتأكيد، لكن أي نظام سوف ينهار بمرور الوقت، مهما كانت جودة تصميمه وبنائه.» أصابهم ذلك بالصمت، ثم أضاف سايدوايز: «هل لاحظ أحدكم الساعة؟»

كانت معظم أجهزة المقصورة قد توقفت عن العمل، ولكن كانت هناك ساعة احتياطية ميكانيكية تستخدم قدرًا ضئيلًا من الطاقة الحرارية، تحصل عليه عن طريق جذور عميقة في الأرض أسفل منها. وقبل خضوعهم للتجميد، تعرفوا جميعًا على طريقة عمل الساعة. كانت التروس المصنوعة من الماس غير قابلة للبِلى بالاستعمال، وكان القرص معدًّا بحيث يبقى خمسين عامًا. كانت خدعة نفسية غير خفية تمامًا تهدف إلى طمأنتهم أنه مهما طال الزمن، ومهما حدث في العالم في الخارج، ومهما أصاب الحفرة من خلل؛ فإنهم سيكونون دائمًا قادرين على معرفة التاريخ.

لكن سنُوي لمح عندئذ عقارب الساعة وقد انحشرت في طرف القرص.

فكر سنُوي في زوجته كلارا، كانت حاملًا عندما خضع لعملية التجميد. خمسون سنة! يكون الطفل خلالها قد ولد وكبر وصارت له ذرية، وربما أحفاد! لا. طرد الفكرة من ذهنه، إنه شيء غير منطقي؛ إذ كيف يمكن أن تحيا حياة بشرية طبيعية مع وجود فجوة مدتها خمسون عامًا؟!

لكن سايدوايز لا يتوقف عن الحديث: «ليس أقل من خمسين عامًا. ما المدة التي تجعل جسد القائد يصل إلى هذه الدرجة من التحنط؟ والتي تجعل ملابسنا جميعها تبلى على هذا النحو؟» كانت مشكلة سايدوايز أنه لا يتردد قط عن قول ما يخشى الجميع مجرد التفكير فيه.

قاطعه أحمد: «كفى.»، كان أحمد رجلًا قصيرًا ممتلئ الجسم: «لقد مات القائد، وأنا الأقدم هنا ... أنا المسئول.» ونظر حوله وهو يحملق غاضبًا: «هل يعترض أحدكم على ذلك؟»

بدا أن مون وبونر قد انفصلا عن الجميع، وأما سايدوايز فكان يبتسم بطريقة غريبة، وكأنه يعرف سرًّا لا يشاركه فيه أحد.

هز سنُوي كتفيه. كان يعلم أن أحمد قد قام بدور رئيس وردية، أي ما يعادل رتبة رقيب أول في البحرية، وكانت فكرة سنُوي عنه هي الكفاءة ومراعاة الآخرين، ولكن مع نقص الخبرة، وفي الوقت نفسه لم يكن ذا شعبية كافية. ولكن لم يكن هناك أحد أفضل تأهيلًا منه هنا، بصرف النظر عن الرتبة. قال سنوي: «أقترح أن نتجاوز هذا الأمر ونستمر، يا سيدي.»

نظر إليه أحمد نظرة امتنان ثم قال: «حسنًا. الواقع أنه لم يكن لدينا أي نداء إيقاظ، ولا أي اتصال من الخارج، ولا أستطيع أن أعرف متى كان آخر اتصال لنا من أي نوع. إلى جانب أن معظم أنظمة التشغيل قد توقفت.»

قالت مون: «إذن نحن لا نعرف ما يحدث هناك في الخارج؟»

قال سنُوي: «قل لنا ما يجب علينا فعله.»

– «نغادر هذا المكان. نحن لسنا بحاجة إلى ملابس واقية، فهناك عدد كاف من أجهزة الاستشعار الخارجية تفيد ذلك.»

أحس سنُوي براحة لذلك، فلم يكن يرغب في الاعتماد على البذلة النووية البيولوجية الكيمائية لحمايته، خاصة إذا كانت قد تعرضت إلى التآكل نفسه مثل باقي ملابسه.

أخرج أحمد صندوقًا حديديًّا من أسفل السرير يحوي مسدسات كل منها موضوع في كيس من البلاستيك مملوء بالزيت، وقال: «لقد اختبرت واحدًا بالفعل، نستطيع اختبار إطلاق النار بالخارج»، ثم سلّم كل واحد منهم مسدسًا.

فتح سنُوي الكيس، ونظف مسدسه بقطع من الملاءة الممزقة، ووضعه في حزامه. فتش فيما تبقى في الكيس: الخوذات، وسترات النجاة، ومعدات طيران. وبدت المكونات البلاستيكية سليمة تمامًا، ولكن كل ما كان مصنوعًا من القماش أو المطاط قد تعرض للتلف. لقد أخذ معه ما كان يعتقد أنه سيكون في حاجة إليه، وندم أنه ترك خوذته المفضلة.

تجمعوا أمام باب الخروج. كان الباب ثقيلًا، حوافه مستديرة، ولا ينفذ الهواء، وكان يفتح بواسطة عجلة. كان أقرب إلى باب الغواصة. بدأ أحمد كسر الأقفال.

لاحظ سنُوي أن الجميع خائفون، وإن لم يرد أي منهم أن يظهر ذلك أمام الآخرين.

همس سايدوايز: «ماذا تظن أننا سنجد؟ الروس؟ الصينين؟ حفر أحدثتها القنابل؟ أم أطفالًا برأسين؟ الجميع يرتدون أقنعة القردة كما في فيلم كوكب القرود؟»

– «سايدوايز، اخرس أيها الأحمق.»

بقوة أدار أحمد عجلة التحكم في الباب، فانفتح القفل الأخير مصدرًا صوتًا، وانفتح الباب.

وتدفق ضوء أخضر إلى الداخل.

إن بيولوجيا التجميد علم رائع حقًّا.

وأساسها أنه تحت درجة حرارة تجمد الماء، تُبطئ الجزيئات من حركتها المحمومة، التي تسمح بحدوث التفاعلات الكيميائية، بحيث يمكن تخزين خلايا الدم الحمراء لمدة عقد أو أكثر. فيمكنك تجميد القرنيات ثم إذابتها وإعادة استخدامها، وكذلك الأنسجة العضوية والأنسجة العصبية، ويمكن تجميد الأجنة. فإن البرد حليف بقدر ما هو عدو، لكن تمدد بلورات الثلج يؤدي عادة إلى تدمير جدران الخلايا. لذا يحقن الأطباء الأنسجة بمواد واقية من البرودة مثل الجليسرول وداي ميثيل سالفوكسايد.

لكن لا يزال إحياء كائن معقد ناضج يزن مائة كيلوجرام تحديًا صعبًا، ففي جسد سنُوي أنواع مختلفة من الخلايا، وكلٌّ منها تتطلب نوعًا مختلفًا من التجميد. وفي النهاية استطاعت الهندسة الوراثية حل المشكلة، وأُعطيت خلايا سنُوي القدرة على تصنيع مضادات طبيعية للتجمد، وهي جليكوبروتينات، وهي حيلة مقتبسة من بعض أنواع الأسماك القطبية. وكان التحكم في التجميد يجري على مستوى الخلايا نفسها.

من الواضح أن هذه الفكرة لاقت نجاحًا، وخرج سنُوي من العملية وهو على قيد الحياة، وأجهزته مستمرة في العمل، وبعد نصف ساعة لم يشعر بشيء.

بالطبع كان من المفترض أن يخرج وهو يقاتل.

كانت وحدته تتبع رسميًّا قوة الأمم المتحدة للحماية، ولكن الجميع يعلمون أن ذلك ليس إلا غطاء، وأصبحت الاستراتيجية تُعرف باسم «زرع أسنان التنين». وعندما تصاعد الصراع العالمي بسرعة، ظهرت بعد رابول أشكال جديدة من الردع. وكانت الفكرة هي أنه سيكون من غير المجدي لأي قوة أن تحاول الغزو إذا عرفت أن الأرض زُرعت بمجموعات من العسكريين الجدد، المدربين تدريبًا عاليًا، والمجهزين تجهيزًا كاملًا، وعلى

استعداد لاستئناف المعركة. وأن التنين سوف ينمو من هذه الأسنان المنتشرة، وهذه هي الفكرة.

وبالطبع كانت هناك سلبيات، فإن عملية التجميد في حد ذاتها عملية خطرة، وقد ينتج عنها إصابة أو وفاة، ولكن بنسبة منخفضة لا تزيد عن خمسة وسبعين في المائة، كما أنك لا تعرف أبدًا أين سيكون موقعك، فالتجميد يجري في مستودعات مركزية ضخمة، والذين يُجَمّدون ينقلون ويوضعون داخل المستودعات وهم فاقدو الوعي، إلى جانب أن تلك المستودعات توجد في مواقع مختارة في جميع أنحاء البلاد، وفي الخارج. لكن سنُوي كان يعرف أن وحدته المكونة من طياري القوات البحرية لن تتفرق، وزاد ذلك من اطمئنانه.

كانت هناك مهام أسوأ، فمدة الخدمة عامان، ومما لا شك فيه أن هذا أكثر أمانًا من أن يسند إليك عمل في بقعة من البقاع الملتهبة في المحيطات أو في بحر الأدرياتيك أو بحر البلطيق، أو بحر الصين الجنوبي. الوضع هنا كان باردًا. كانت هذه المهمة عجيبة، لكنها مهمة كغيرها من المهام.

كان سنُوي سعيدًا بالقيام بالعملية، مع أن ذلك يعني أن يبقى بعيدًا عن زوجته، وكان يتوقع أن يخرج من الحفرة سعيدًا وبصحة جيدة، وأغنى كثيرًا نظرًا للرواتب المتأخرة التي لم يكن قد صرفها. والاحتمال الأسوأ أن يخرج وهو يقاتل، لكن ذلك هو ما تدرب عليه، وهو حتى الآن يتوقع أن يخرج في منتصف حرب عالية التقنية، وكان ذلك سبب تجميد الطيارين في المقام الأول. ولكنه لم يتوقع ألا يجد قيادة منظمة، وأن يخرج جاهلًا تمامًا بالظروف في الخارج، وحتى بمكان وجوده. لكن هذا هو ما حدث.

تقدم سنُوي زملاءه وخرج من الفتحة.

كان خارج المقصورة بئر سلم حفر في الأسمنت، كانت البئر تؤدي إلى مستطيل من الضوء الأخضر الساطع: أوراق شجر، وآثار من زرقة السماء. أهذه غابة؟

وكان في الخرسانة التي بني منها السلم بقع بنية اللون من أثر صدأ التركيبات المعدنية. وعندما مال سنُوي بجسمه على الحافة الأسمنتية انهارت. وكانت درجات السلم نفسها لا تكاد ترى تحت كومة من الطحالب وأوراق الشجر. وأهدر سنُوي بعض الطاقة في محاولة إزاحة تلك الأشياء بعيدًا،

لكنه وجد أن كثيرًا منها في الواقع ينمو هنا، من طبقة من الطمي فوق الطبقة الأسمنتية.

تجاهل سنُوي هذه الفوضى، وصعد خارجًا من البئر.

أخيرًا وجد نفسه واقفًا على أرض تغطيها الأوراق، وكان يلهث بشدة. من الواضح أن التجميد قد أنهك قواه أكثر مما توقع. كان الآخرون يتبعونه واحدًا تلو الآخر، وهم ينفضون الأوراق الميتة والطحالب والنشارة وكثيرًا من الأشياء من فوق ملابسهم.

كانت الغابة تتكون من أشجار عالية، ذات فروع منخفضة، وأوراق منتشرة؛ ربما أشجار البلوط. وكانت الريح تحدث حفيفًا، والهواء الساخن يلفح وجه سنُوي. كان الطقس أقرب إلى أواخر الربيع أو أوائل الصيف، والهواء منعش يحمل روائح الغابة والخضرة والأرض الرطبة.

كانت مقصورة التجميد موضوعة على الأرض، نصف مخفية بغطاء أسمنتي كبير. لكن الغطاء كان منحرفًا ومشروخًا، والنباتات تنمو من خارج السطح.

كان لدى أحمد حقيبة ظهر صغيرة سوداء تحوي مذياعًا يعمل بزنبرك، وعلى غرار المسدسات كان قد خُزن في الزيت. والآن فتحه وعبأ الزنبرك ومد الهوائي، ثم بدأ يتجول في المنطقة الخالية من الأشجار.

كان مون وبونر يبدوان صغيري السن جدًّا وخائفين وتائهين في الظلال الخضراء.

وقف سايدوايز إلى جانب سنُوي، وركل الغطاء الأسمنتي في عصبية وقال: «إنه لأمر مذهل أن مصدر الطاقة ظل يعمل طوال هذه المدة.»

أجابه سنُوي: «أشعر وكأننا نخرج من تشيرنوبيل.»

- «أظن أن تشيرنوبيل لم يعد يمثل مشكلة الآن.»

- «ماذا؟»

- «كم من الوقت تظن أننا ظللنا في تلك الحفرة؟»

استعاد سنُوي رباطة جأشه وقال: «أكثر من خمسين عامًا؟»

قال سايدوايز: «انظر حولك يا صديقي، هذه أشجار البلوط، وانظر إلى هذه ...» قالها وهو يقوده إلى الأمام ناحية شجرة سقطت، كان الجذع

قد قُطع ربما على مسافة متر من سطح الأرض. وكان جزء كبير من الجذع الساقط تكسوه الخضرة، وفطريات ضخمة تلتصق بالجزء الأعلى من الجذع كأنها أقراص عالقة في الخشب. قال سايدوايز: «سنُوي، أنت محاط بغابة نامية، وهذه أشجار عتيقة. إن تلك الشجرة تقدم بها العمر حتى سقطت دون أن تقطع. ألا تتذكر حصص النظام البيئي في فترة التدريب؟ ماذا يحدث إذا تركت مساحة بدون أشجار في غابة؟»

ستكون الحشائش والأعشاب أول من يستعمر المساحة الخالية، وفي غضون عام أو نحو ذلك، ستظهر شجيرات الصنوبر والبيرش وغيرها من الأشجار الموسمية التي ستنبت من بذور تركت في الأرض، أو من أجزاء من الجذوع. وحالما يوفر الصقيع بعض الحماية، فربما تمتلئ الأرض بأشجار من الفصيلة الصنوبرية. وعندما تتغير الظروف ستتنافس أنواع مختلفة على الضوء والمساحة، وربما بعد خمسين عامًا، عندما تشتد كثافة الغابات، تتيح الحشائش على الأرض الفرصة لنباتات الظل مثل العنبية والطحالب. وبعد ذلك تعود أشجار لبلوط.

لم يهتم سنُوي كثيرًا بهذا النوع من الأشياء في المدرسة، وخلال التدريب، أو بعد ذلك. فمادة البيئة كانت دائمًا باعثة على الإحباط، فليس بها إلا قوائم من مخلوقات ميتة.

أخذ سايدوايز ينكت في لجذع الساقط، وأضاف: «انظروا إلى هذه الطحالب والأشنات والفطريات والحشرات التي تختبئ بعيدًا. أنت تعرف أن في أيامنا كان مثل هذا الجذع الميت نادرًا كالذئاب!»

- «في أيامنا؟»

كان أحمد قد كف عن التجوال حول المساحة الخالية: «لا شيء، لا توجد أي إشارة على أي تردد، ولا حتى النظام العالمي لتحديد المواقع GPS.»

قالت مون: «ربما توقف المذياع عن العمل.»

ضغط أحمد على الزر الأخضر في المذياع وقال: «الاختبار الذاتي على ما يرام.»

قال بونر: «إذن، ماذا نفعل؟»

قال أحمد: «نحافظ على أنفسنا لنبقى على قيد الحياة. ونخرج من هذه الغابة اللعينة، ونجد قائدًا نتبعه.»

هز سنُوي رأسه متسائلًا: «إلى أي اتجاه؟»

أجاب بونر على الفور: «الخرائط.»

كان التدريب يفرض نفسه، وعادوا سريعًا إلى المقصورة.

كانت المقصورة مجهزة بمخازن لخرائط ورقية لاستخدامها إذا وجدت مجموعة نفسها قد استيقظت دون توجيه خارجي، وكان من المفترض أن تكون الخرائط موضوعة في صناديق مقاومة لعوامل الطقس خارج الحفرة، ولا بد أن تأتي الخرائط بتعليمات محددة. كان سنُوي يعلم أنهم جميعًا سيطمئنون عند العثور على شيء محدد يحدد لهم مسارهم.

غير أن كل محاولاتهم للعثور على أي أثر لصناديق الخرائط باءت بالفشل. لم يكن هناك شيء سوى سطح من الخرسانة المتآكلة تستعمره الطحالب والأعشاب.

ساعد سايدوايز في عملية البحث، لكن سنُوي شعر أنه ليس جادًّا في البحث، كأنه يعرف أن الخرائط لن تكون هنا. وبدأ سنُوي يشعر بخوف غامض من سايدوايز، لأنه يسبقهم بشوط كبير، ولم يكن يرغب في معرفة ما استنتجه سايدوايز بالفعل.

توقفوا عن البحث عن الخرائط، وظل أحمد يحاول أن يتولى القيادة، وأن يكون حاسمًا، وأعجب به سنُوي لذلك. تشمم أحمد الهواء وتطلع حوله، ثم قال: «الأرض ترتفع في هذا الاتجاه، لذا سنتخذ هذا الطريق. وإذا حالفنا الحظ فسنتمكن من الخروج من هذه الغابة، موافقون؟»

هزوا جميعًا أكتافهم وأومؤوا برءوسهم علامة الإيجاب.

٢

لم يكن في المقصورة الكثير مما يستحق أن يحملوه معهم، لا شيء سوى ما يمكنهم نهبه من زملائهم الأموات: جميع الأسلحة والذخيرة التي أمكنهم العثور عليها، والملابس، وحصص الطعام. وصنعوا حقائب من بذلات الطيران الاحتياطية ووضعوا بها أمتعتهم.

وانطلقوا في الاتجاه الذي اختاره أحمد. بدت الشمس في طريقها إلى الغروب، وفكر سنُوي أنهم يتجهون نحو الشمال، ما لم يكن ذلك أيضًا قد تغير أثناء السنوات التي أمضوها في مقصورة التجميد.

كانت أشجار البلوط الكبيرة تطغى على الغابة، وإن كانت تتخللها أنواع أخرى مثل أشجار الجميز والصنوبر. وكان هناك كثير من الطيور، معظمها من الزرازير. وبدا سنُوي مندهشًا لرؤية أجنحة خضراء وصفراء اللون تمر عبر الشمس. وأحيانًا كانوا يشاهدون حيوانات مثل الأرانب والسناجب الصغيرة والغزلان، وما يشبه الذئاب، مما جعلهم جميعًا يضعون أصابعهم على المسدسات.

وبعد ما يقرب من الساعة، وصلوا إلى حفرة مستديرة في الأرض مليئة بالأنقاض، ولكن كان من الواضح أنها من صنع الإنسان. تلك القطعة بشرية التصميم شدت انتباههم في الحال، فتجمعوا حولها، وشربوا المياه من الزجاجات الصغيرة التي يحملونها.

وقال سنُوي لسايدويز: «هل رأيت تلك الطيور الخضراء؟ كنت تشبه ....»

- «الببغاوات الأسترالية، وهي تنحدر من الببغاوات المستأنسة الفارة. ولم لا؟ الأرجح أن هناك ببغاوات صغيرة أيضًا. وبعض هذه الغزلان بدت لي أقرب إلى الغزلان الآسيوية، ولعلها جاءت من حديقة الحيوان. حتى بعض الأشجار تبدو مستوردة مثل شجرة البلوط التركية هناك. وكما علمونا أنه ما إن يبدأ الإخلال بالتوازن الطبيعي، والبدء في استيراد الأنواع من بيئات أخرى، فإن الأمر لا يعود قط إلى ما كان عليه.»

قال سنُوي: «كان هناك ذئب.»

رد سايدوايز بحدة: «هل أنت متأكد أنه كان ذئبًا؟ ألم يكن أقل ارتفاعًا وأسرع حركة من الذئب؟»

لو أمعنا التفكير في الأمر، لوجدنا سايدوايز على حق. فقد بدا ذلك ماكرًا منخفض الارتفاع، وأشبه بالقوارض.

وقال بونر: «حسنًا أيها الأذكياء، ماذا عن هذه الحفرة؟ لقد أزال أحدهم بقايا جذع شجرة من هنا، وفعل ذلك عن قصد.»

وأضاف سايدوايز: «ربما. ما زلنا نستطيع العثور على حفر حفرها الصيادون منذ عشرات الآلاف من السنين، ويدلنا كل ذلك على أنه لم يمر عصر جليدي آخر.»

نظر إليه أحمد وهو يحملق غاضبًا: «أنت لا تفعل الكثير لرفع المعنويات يا سايدوايز.»

أجاب سايدوايز على الفور قائلًا: «وماذا عن معنوياتي أنا؟ أنا لا أستطيع أن أتجاهل ما هو واضح تمام الوضوح في كل مكان حولنا.»

مرت لحظة من الصمت المشوب بالتوتر. وللحظة أخذ سنُوي يفكر في ماضي سايدوايز، ذلك الماضي الذي لم يتحدث عنه قط: الطفل متوقد الذكاء في المدرسة، ونافد الصبر مع الآخرين، الذي يتحرش به زملاؤه دائمًا.

قال بونر بخشونة: «لنمض قدمًا.» هز أحمد رأسه وتقدم الفريق.

وسرعان ما وصلوا إلى ما يشبه الطريق، الذي لم يكن سوى شريط متعرج من الأرض ملتوٍ ولا يكاد يُرى. إلا أن النباتات في هذا المكان لم تكن كثيفة، وشعر سنُوي أن الأرض هنا صلبة لم تتحرك تحت ثقل جسمه كما كان يحدث في أماكن أخرى. إنه مسار من صنعِ الإنسان بالتأكيد، وليس من صنع الحيوانات.

لم يتحدثوا، فلا أحد يريد لهذا الأمل الضئيل أن يتلاشى بمحاضرة من محاضرات سايدوايز. لكنهم جميعًا تتبعوا المسار، وساروا في صف واحد، وتحركوا بسرعة أكبر ليصلوا إلى المنحدر.

وكان سنُوي يشعر أنه متعب وأعصابه مشدودة.

أدرك أنه لا يفكر في زوجته، ولا في رفاقه هناك في الوطن، ولا في الحياة التي يبدو أنها اختفت إلى الأبد. فكل شيء كن غريبًا جدًّا، ولم يكن لديه الوقت حتى يفكر. لكنه كان يتوق إلى كل ذلك، كان يفكر في سرير التجميد الآمن وأجهزته الطنانة. وهناك في العراء كان يشعر بالخطر، فمسدسه لا يوفر له كثيرًا من الحماية، وكان يدرك تمامًا أنه عند حلول الظلام في هذا المكان الغريب سوف يكون — هو ومن معه — معرضين للهجوم.

قال في نفسه: «علينا أن نجد بعض الإجابات قبل حلول الظلام.»

بعد ساعة أخرى، بدت الأشجار تقل، ووجد سنُوي نفسه يمشي في العراء، لكن الرؤية ظلت منخفضة. كان على مقربة من أرض واسعة مرتفعة قمتها تختبئ في الأفق القريب، وكانت الأرض جيرية، تربتها رقيقة ومتآكلة بشدة.لا ينمو فيها شيء سوى الأعشاب القصيرة، وتبرز منها حواف الصخور العارية.

كانت السماء صافية إلا من بعض السحب العالية المتناثرة، والشمس الغاربة تلقي بظلال طويلة على الأرض، ويدل مدى انخفاضها على أن الغروب قد بدأ بالفعل. ولكن لم يكن في غرب السماء احمرار، وكانت الشمس بيضاء ساطعة. فهل تلاشى الرماد؟

صاحت مون: «آثار إطارات! إطارات سيارة!» وأشارت إلى أسفل المنحدر من الجهة اليمنى وهي تتواثب في سعادة.

جرى الجميع في الاتجاه الذي أشارت إليه، وحقائبهم تتأرجح فوق ظهورهم.

كانت مون على حق، فآثار الإطارات واضحة تمامًا؛ آثار مركبات مخصصة للمناطق الوعرة تتجه إلى أسفل المنحدر.

فجأة شعروا بالسعادة، وابتسم بونر ابتسامة عريضة، وقال: «إذن هناك شخص ما على مقربة. شكرًا للسماء على ذلك.»

قال أحمد: «حسنًا، لدينا خياران، نستطيع أن نستمر في اتجاه الأرض المرتفعة، بحثًا عن موقع المراقبة، أو نستطيع تتبع هذه الآثار إلى أسفل التل والعثور على الطريق.»

رأى سنُوي أن السير في اتجاه الأرض المرتفعة هو التحرك الأذكى، ولكن في تلك الظروف، لم يرغب أحد في التخلي عن آثار الإطارات، فهي تمثل نشاطًا بشريًّا، لذا بدءوا ينزلون إلى أسفل التل، وهم يتتبعون الآثار المزدوجة.

سار سايدوايز إلى جانب سنُوي، وتمتم: «إن هذا شيء غير منطقي.»

- «سايدوايز ....»

- «انظر إلى ذلك، لا شك أن هذه آثار إطارات سيارة، ولكنها تحولت إلى أخاديد. انظر إلى هناك، لقد وصلت إلى طبقة الصخر السفلية. في منطقة كهذه، وفوق حد الأشجار، قد يستغرق الأمر قرونًا ليعود غطاء التربة والغطاء النباتي كما كانا بعد إزالتها. قرون.»

حدق فيه سنُوي، كان وجهه الرفيع يتحول إلى اللون الرمادي في الضوء الذي يخبو، وقال: «تبدو هذه الآثار وكأنها منذ الأمس فقط، كأن شخصًا قد مر هنا للتو.»

- «أؤكد لك أن هذه المسارات قد تكون من أي وقت، وأنا لا أعرف.» وبدا أنه يتوق إلى لفافة تبغ.

تعرجت الآثار أسفل التل، وقادتهم في نهاية المطاف إلى وادٍ متسع، في أحضانه نهر وانحرفت فوق الأرض الوعرة متجهة إلى حافة الوادي.

هبط الفريق إلى سطح الطريق، وبدءوا يسيرون في اتجاه الأرض المنخفضة، وروحهم المعنوية مرتفعة على الرغم من الإجهاد الذي يشعرون به.

إلا أن سنُوي لاحظ أن الطريق كان في حالة سيئة، فهو مليء بالأشجار والحشائش وبقايا الأسفلت الذي أصبح باليًا ومشققًا، كان يراه كبقع صغيرة سوداء وسط اللون الأخضر. وكان عليه أن يزيح النباتات والفطريات أثناء سيره. كان وكأنه يمشي فوق قمة جبل به بعض الخضرة.

عاد سايدوايز يمشي بجواره من جديد: «ما رأيك؟ أين نحن؟»

كانوا جميعًا قد دُرِّبوا على المعالم الجغرافية لأوروبا وأمريكا الشمالية. قال سنُوي على مضض: «إن الوادي غير متجمد. فإذا كنا في أوروبا، فنحن لسنا بعيدًا ناحية الشمال، نحن في جنوب إنجلترا. ربما فرنسا.»

«لكن مر زمن طويل دون أن يعتني أي شخص بهذا الطريق، انظر إلى هناك. وأشار إلى خط محفور في جانب الوادي، إنها صخور عارية فقط.»

- «وماذا يعني ذلك؟»

«أرأيت كم هو مستوٍ؟ أعتقد أن هذا الوادي قد تعرض لفيضان ذات يوم، ثم أقيم سد. ففي مستوى سطح الماء يكون هناك الكثير من التآكل، وتحدث مثل هذه الصدوع الأفقية، وعندما يخضع تدفق المياه للسيطرة — فإن منسوب المياه يتغير سريعًا.»

- «إذن أين السد؟»

أجاب سايدوايز بتجهم: «سنصل إليه.»

وبعد ساعة أخرى من السير، وجدوا السد.

رأوه أمامهم بعد أن داروا حول طرف الوادي. ووجدوا فرعًا من الطريق يقود إلى أسفل الوادي.

ولكن السد كان قد اختفى. تبين سنُوي دعامات الجسر التي لا تزال قائمة على الشاطئ، متآكلة تكسوها الأعشاب، أما الجزء الرئيسي: الحاجز الضخم المقوس والبوابات والآلات التي كانت تتحكم في النهر من قبل، فلم يتبقَ شيء منها سوى نتوء مقوس على قاع الوادي، أقرب إلى ربوة منخفضة الارتفاع لا تكاد تؤثر في اندفاع النهر.

قالت مون: «ربما فجره أحد.»

هز سايدوايز رأسه بالنفي وقال: «ليس هناك شيء منيع، هناك دائمًا شقوق ونقاط ضعف يمكن للمياه أن تتسرب إليها، وإذا لم يجر إصلاحها، يزداد الأمر سوءًا حتى ...» وصمت، ثم أردف: «كل ما تحتاجه هو الوقت.»

غمغم بونر: «يا للهول.»

وبدا لسنوي أن الحقيقة التي لا مفر منها بدأت تظهر للجميع. ولم يكن على سايدوايز أن يضيف شيئًا حتى يدرك الجميع ذلك.

خطا أحمد بضع خطوات إلى الأمام، وأطل على مساحة على بعد من أسفل الوادي. كان أحمد طيارًا مثلهم جميعًا يتمتع بعينين حادتين. وقال: «أظن أن هناك مدينة بالأسفل.»

قال سنُوي في نفسه: ربما. كانت مجرد رقعة من اللون الرمادي المخضر، ولم ير بها أي حركة؛ لا وميض لزجاج سيارات أو نوافذ، ولا دخان يتصاعد، ولا أنوار. ولكن لم يكن أمامهم مكان آخر يذهبون إليه.

وقبل مغادرتهم للأرض المرتفعة، أطلق أحمد بضعًا من طلقات الاستغاثة التي أخذها من المأوى. ولكن لم يكن هناك رد.

وتبع الفريق أحمد وهو يمشي بخطوات جريئة على امتداد الطريق الذي كسته الأعشاب، إلى أسفل الوادي في اتجاه المدينة. بدأ الظلام يهبط، ولم يظهر أي ضوء في البلدة التي يتجهون إليها، بل خيم الظلام والصمت في جميع الأنحاء.

كانت ضفة النهر قد عادت في بعض الأماكن أرضًا سَبِخَة ومستنقعات، بها روابٍ خضراء تشير إلى ما كان يومًا ما مبان. وفي أماكن أخرى، كانت تصطف على الضفاف أشجار الصفصاف الرشيقة العجوز، وفيما وراء ذلك كان السهل الفيضي مغطى بغابة من أشجار الحور والدردار. ورأى سنوى فيما وراء الغابة غابة من أشجار البلوط تنتشر على التلال المنخفضة.

وقبل وقت طويل من وصولهم إلى وسط المدينة، اضطروا إلى الخروج كم الطريق المليء بالأعشاب بعد أن انخفض إلى أسفل مستوى النهر.

قالت مون ببطء: «إذا أردت أن تبني على ضفاف نهر، فعليك أن تستصلح الأراضي على كلا شاطئيه، أليس كذلك؟ لكنك عندما ترحل عن المدينة، فإن منسوب المياه في النهر سوف يرتفع، لأنك لم تعد تعتمد عليها في الأنشطة الصناعية، وسوف تفيض المياه على الجانبين.»

لم يُعلق أحد. واستمروا يسيرون على حواف النهر والمستنقعات.

وأخيرًا وصلوا إلى البلدة نفسها. كانت هناك شوارع مخططة، شبكة مستطيلة فوق المنحدرات الضحلة. كانت الطرق في حالة سيئة كالطريق الذي سلكوه إلى هنا، والمباني ذاتها لم تعد إلا رواب تكسوها الأعشاب لا يزيد ارتفاع معظمها عن ارتفاع الخصر. كان المكان كله أشبه بمقبرة مليئة بالأعشاب. أحس سنُوي أنهم ربما يكونوا قد مروا بأنقاض مماثلة في الغابة وظنوا أنها مجرد مرتفعات صخرية؛ نتاج لعوامل الطبيعة. حتى النباتات لم تكن تختلف عن نباتات البراري المحيطة بالمدينة. كل ما هنالك أن النظام في هذا المكان يشي بأن يدًا قد شيدت هذا المكان، وأن عقولًا قد صممته.

كانت تظهر هنا وهناك بقاع وسط اللون الأخضر، وكان هناك تلٌّ مستديرٌ تكسوه الخضرة كباقي الأشياء، وتساءل سنُوي أهذا حصن؟ أهو قاعدة لواحدة من قلاع النورمانديين العظيمة التي بنيت لاحتلال إنجلترا في القرن الحادي عشر. إذا كان الأمر كذلك، فقد بقي هذا الشيء في حين تلاشت أشياء كثيرة. وصلوا إلى صف من الأعمدة المتهدمة التي لم يبقَ منها سوى قواعدها، التي يبدو أنها كانت مغطاة بالرخام. ربما كانت واجهة فخمة لأحد البنوك أو لدار البلدية.

كان هناك تمثال سقط على ظهره، ووجهه المغطى بالطحالب الذي نحتته عوامل التعرية يتطلع إلى السماء. وقد لاحظ سنُوي أن التمثال يحمل آثار تفحم، وبحث لعله يجد تاريخًا ما، لكنه لم يعثر على شيء.

وعندما حفر في طبقة الأعشاب التي غطت رواب أخرى لا يعرفون كنهها، وجد مزيدًا من آثار الحريق والسناج. إذن فقد تعرض هذا المكان للحريق قبل أن يُدمّر. كان يسير فوق مسرح المأساة؛ فوق كارثة غطتها الأعشاب. وتساءل عن مدى العمق الذي عليه أن يحفره قبل أن يجد العظام.

ووصلوا إلى مساحة مفتوحة نسبيًّا. ربما كان هذا ميدانًا رئيسيًّا، وربما سوقًا. دعاهم أحمد إلى التوقف، فأنزلوا أحمالهم، وشربوا، وتفحصوا فيما حولهم. كانت أطلال المدينة تبدو مخيفة في ظلال المساء الطويلة، فلم تكن هذه المدينة تبدو مكانًا من صنع الطبيعة ولا من صنع البشر، لا هذا ولا ذاك.

جرى مخلوق يشبه الفأر بسرعة فوق الأسفلت تحت قدمي سنُوي، ناحية شق في السطح، واختفي وسط الأعشاب بعيدًا عن الميدان. كان يبدو فأرًا من فئران الحقل. وعندما تتبعه سنُوي لمح أرنبًا. وبسرعة مذهلة، فر الأرنب بعيدًا عن المكان.

تمتم سنُوي إلى سايدوايز: «أرانب وفئران حقول! كنت أظن أننا سنرى قططًا وكلابًا.»

هز سايدوايز كتفيه، والعرق والأوساخ تلطخ وجهه، وقال: «انقرض الناس، أليس كذلك؟ وسقطت الحضارة، إلى آخر ذلك الهراء. كانت القطط والكلاب قد دُللت ورُوِّضَت، وتغير تركيبها الجيني، ولم تكن لتستمر طويلًا بدوننا.»

- «كنت أظن أن القطط ستبقى، فحتى القط الصغيرة كانت معتادة على الصيد.»

- «كانت القطط البرية آلات قتل ممتازة، أما النوعية التي رُوضت، فكانت ذات أسنان صغيرة وفكوك أصغر وعقول ضئيلة، لأن السيدات كن يفضلن القطط على هذا النحو.» وغمز سايدوايز بعينه: «لقد كنت دائمًا

أعتقد أن القطط تتصنع ذلك، فهي ليست شديدة القوة، لكنها مصدر للإزعاج.»

وتساءلت مون: «أين السيارات؟ إنني أرى ما تبقى من المباني، فماذا عن السيارات؟»

قال سايدوايز: «إذا حفرت في الأعشاب فقد تجد بعض بقع الصدأ، أو قطعًا من البلاستيك.» ثم نظر إلى أحمد نظرة حادة وقال: «ماذا؟ هل ستوبخني مرة ثانية لأنني أخفض الروح المعنوية؟ إن ما أقوله واضح وضوح الشمس.»

رد أحمد في هدوء أثار إعجاب سنُوي: «لكنك لست مضطرًّا للتعامل مع هذا الآن. فإن ما علينا أن نفعله واضح أيضًا.»

قال سنُوي: «علينا أن نجد مأوى.»

تسلق بونر ربوة منخفضة ربما كانت فيما مضى جدارًا، وأشار نحو الغرب وقال: «أرى في هذا الاتجاه جدرانًا، أعني جدرانًا لا تزال قائمة لم تغطها الأعشاب.»

نهض سنُوي وقد أحس ببعض الأمل، ورأى أن هذه الجدران كنيسة؛ كنيسة من القرون الوسطى تبدو فيها النوافذ الطويلة الضيقة والمدخل المرتفع. لكن الأبواب والسقف كانت قد تهدمت منذ فترة طويلة، تاركة المبنى مكشوفًا للسماء. وشعر بخيبة أمل وشيء من الإعجاب.

كان سايدوايز — فيما يبدو — يشاطره فكره، وأضاف: «إذا كنت ستبني فابنِ على حجر.»

- «أين نحن يا ترى؟ إنجلترا أم فرنسا؟»

هز سايدوايز كتفيه وقال: «ماذا أعرف أنا عن الكنائس؟»

التقط أحمد حقيبته وقال: «ليس هناك سقف، لذلك سيتعين علينا أن نصنع سقفًا مائلًا. بونر، سنُوي، تعاليا معي، سنجمع بعض الفروع. ونحن بحاجة لأن نوقد نارًا. مون وسايدوايز، عليكما القيام بذلك.» تطلع إلى وجهيهما اللذين يتألقان مثل العملات المعدنية في الظلام. هذه هي المرة الأولى التي يتفرق فيها هذا الجمع منذ استيقاظهم، وحتى سنُوي انتابه التردد. قال أحمد بلطف: «لا تبتعدا كثيرًا. نحن وحدنا هنا، ولن يساعدنا

أحد. ولكننا سنكون بخير مادمنا نتوخى الحذر، وإذا ما ساءت الأمور فعليكما بالصياح أو استخدام مسدسيكما، وسنسرع إليكما. مفهوم؟»

هزا رأسيهما وتمتما. ثم تحرك الفريق إلى الظلام، كل لإنجاز المهام الموكلة إليه.

كانت الكنيسة من الداخل مجرد رقعة أخرى تكسوها الأعشاب. وكانت هناك ربوة واحدة يبدو أنها فيما مضى كانت المذبح، ولكن لا توجد علامة على المقاعد، أو صليب يمثل المسيح المصلوب أو كتب صلاة أو شموع. وكان السقف مفتوحًا إلى السماء، وليس هناك أثر لخشب البناء، الذي كان من المفترض أن يغطي الجدران.

وتحت الأسقف التي صنعوها، وفي وجود الأسرة التي أعدوها من أوراق الشجر، لن تكون الليلة سيئة للغاية. إنهم جميعًا مرّوا بتدريبات على البقاء، ولا يعد هذا سيئًا بالمقارنة بتلك.

تمسكوا بمواد البقاء التي كانوا يحملونها، وبها بعض الموز ولحم البقر المجفف. ولم يأكلوا فواكه الغابة. شعر سنُوي أن ذلك قد يكون إيمانًا بالخرافة بعض الشيء، كما لو كانوا يريدون التشبث بالماضي ما أمكن، قبل الاستسلام لهذا الحاضر الغريب. كان أحمد يتفهم الأمر جيدًا، لذا سمح بذلك. ومن المؤكد أنه على المدى الطويل لن يكون هناك فارق.

كان الجميع مرهقين بعد أن قطعوا تلك المسافات الطويلة، بعد خروجهم من مقصورة التجميد. وتساءل سنُوي ماذا لو اضطروا فعلًا للقتال؟ ربما لم تكن تلك الاستراتيجية الموضوعة بالجودة التي تخيلها المخططون. كانت أرجلهم تؤلمهم من كثرة ما بها من بثور، ولعل عدم ارتدائهم للجوارب هو سبب المشكلة. وكان سنُوي يخشى استهلاك الكميات المحدودة من المراهم التي يحملونها بسرعة كبيرة، عليهم أن يفعلوا شيئًا في هذا الصدد اليوم التالي.

لكن المبيت في هذا المأوى من بقايا ما بناه البشر كان مريحًا، كما لو كانت الحضارة الإنسانية لا تزال تحيط بهم. ومع ذلك فقد قرروا ترك النار موقدة طوال الليل.

شعر سنُوي بالارتياح لأن شدة انهاكه منعته من كثرة التفكير، ومع ذلك فقد بقي مستيقظًا.

تدحرج على ظهره وتململ. كان الهواء شديد السخونة بالنسبة لفصل الربيع في إنجلترا، ربما تَغيُّر المناخ وأصبح الاحترار العالمي أكثر وضوحًا أو ما شابه ذلك. قبة السماء المفتوحة قد تناثرت فيها النجوم التي تحجبها أحيانًا بعض السحب، وبدا الهلال رفيعًا للغاية، فلم يستطع نوره أن يخفي النجوم. لقد تعلم بعضًا من علم الفلك في خلال التدريبات على الملاحة في الصحراء، وكان بوسعه تمييز المجموعات النجمية، رأى هناك في السماء كاسيوبيا، لكن المجموعة المألوفة مكانت تضم نجمة سادسة؛ نجمة صغيرة متوهجة ربما وُلدت بعد خضوعه للتجميد! يا لها من فكرة غريبة.

همس سايدوايز من قلب الظلام: «لا أرى المريخ.»

ففزع سنُوي الذي لم يكن يعلم أن سايدوايز مستيقظ، وتساءل في ذهول: «ماذا؟»

أشار سايدوايز إلى السماء بذراعه: «الزهرة والمشتري وزحل على ما أعتقد. أين المريخ؟»

- «ربما غرب بالفعل.»

- «أو ربما حدث له شيء.»

- «هذا أمر سيئ، أليس كذلك؟»

ولم يرد سايدوايز.

همس سنُوي: «رأيت ذات مرة بعض الأطلال الرومانية، جدار هادريان. وكان مغطى بالأعشاب كهذا. حتى الملاط كان نخرًا.»

غمغم سايدوايز: «كان ذلك على نطاق مختلف. حتى من روما كانت لدينا حضارة عالمية، عالم مزدحم. كل شيء متصل بعضه ببعض.»

- «ما الذي تعتقد أن يكون قد حدث؟»

- «لا أعرف. ربما هذا البركان اللعين، ربما المجاعة، الأمراض. المشردون في كل مكان، ثم الحرب آخر الأمر. وأنا سعيد لأنني لم أعايش هذه الأحداث.»

غمغم أحمد: «كفاكما، أنتما الاثنان.»

جلس سنُوي؛ وأطل عبر نافذة بلا زجاج في جدار الكنيسة، لم ير شيئًا. الأرض يغطيها الظلام، لا بصيص من النور، لا وهج لأنوار الشوارع في الأفق. وربما كان الظلام يغطي كل شبر من الأرض، وربما كانت النار التي أوقدوها هي مصدر الضوء الوحيد في إنجلترا، بل في الكوكب بأكمله. كانت فكرة عجيبة عسيرة على التصديق. ربما يستطيع سايدوايز استيعابها على الوجه الصحيح، لكن المؤكد أن سنُوي لا يستطيع ذلك.

كان نوع ما من أنواع الحيوانات يعوي أثناء الليل.

ألقى سنُوي المزيد من الحطب في النار، ودفن جسده في الربوة الخضراء.

كان سايدوايز على حق، فالمريخ في عداد المفقودين.

عاشت الآلات القادرة على التناسخ؛ إنسان إيان موهان الآلي، كان البرنامج قد صُمِّمَ ليكون مقدمة للاستعمار البشري لذلك الكوكب. فالروبوتات القادرة على التناسخ كانت ستتلقى التعليمات ببناء مساكن لرواد الفضاء من البشر، وبصنع سيارات وأجهزة كمبيوتر، وبتجميع الماء والهواء، بل وإنتاج الطعام اللازم لهم.

لكن البشر لم يحضروا قط، ولم تعد تصلهم منهم أي أوامر.

لم يثر هذا قلق الروبوتات. ولماذا يثير قلقهم؟ فالهدف الوحيد لوجودهم هو التناسخ، حتى تصلهم أوامر بخلاف ذلك. لا يهم شيء آخر، ولا حتى الصمت الغريب من العالم الأزرق في السماء.

وقد تناسخوا.

جربوا تعديلات كثيرة، وأدخلوا بعضًا منها، وتخلوا عن البعض الآخر. ولم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى خرج تصميم أفضل مختلف تمامًا.

وبدأ الآليون يستخدمون أجزاء من المصنع في تكوين أجسادهم، واصبح النوع الجديد يشبه جرارات بدون سائقين تتدحرج فوق التراب الأحمر، ويزن الواحد منها نحو طن، واستغرق كل واحد منها سنة ليصنع نسخة من نفسه، وهو وقت أقصر بكثير من ذي قبل، إذ أصبح باستطاعتهم الوصول إلى الموارد نفسها.

وبعد عام يصبح الواحد من الآليات الجديدة اثنين، وبعد عام آخر يصبح الاثنان أربعة، ثم ثمانية، وهكذا.

كان النمو أُسيًّا، والنتيجة متوقعة.

ففي غضون قرن، كانت الروبوتات قد انتشرت في كل مكان على سطح المريخ، من القطب إلى خط الاستواء، ومن قمة أوليمبوس إلى أعماق حفرة هيلاس. ودخل بعضهم في صراع على الموارد، فوقعت حروب ميكانيكية بطيئة، وبدأ البعض الآخر يحفر من أجل الحصول على المواد المدفونة في أعماق المريخ، ومع حفر المناجم ظلت الموارد متوفرة.

لكن المناجم أخذت تزداد عمقًا، وفي بعض الأماكن انهارت قشرة الكوكب، لكنهم ظلوا يحفرون. كان المريخ عالمًا باردًا ووعرًا وصخريًّا في مناطقه الداخلية، وساعد ذلك عمليات التعدين. ولكن عندما ازداد عمق الحفر، وتغيرت الأحوال، اضطرت الروبوتات إلى التعلم سريعًا، والتكيف مع الأحوال الجديدة، ولم يكن هذا صعبًا عليهم بطبيعة الحال.

لكن اختراق الطبقة التالية للقشرة ظل يواجه صعوبات فنية معينة.

إن وزن المريخ مائة مليار مليار مرة ضعف أي واحدة من الجرارات الآلية، لكن هذا العدد صغير في مواجهة تضاعف الروبوتات في كل جيل، وبسبب الصراعات المستمرة فإن معدل النمو كان أبطأ من المعدل الأمثل. وحتى مع ذلك، ففي خلال بضع مئات من الأجيال كان المريخ قد انتهى، فيما عدا نسبة ضئيلة من مادته التي تحولت إلى آليين.

وهكذا تحول الكوكب برمته إلى نسخ من الروبوتات، واستخدمت الروبوتات الأشرعة الشمسية والمحركات التي تعمل بطاقة الاندماج، والمحركات التي تعمل بالمادة المضادة؛ لتجوب النظام الشمسي بحثًا عن المواد الخام.

وفي اليوم التالي تجولوا في الريف حول المدينة، وشاهد سنُوي الطيور والسناجب والفئران والأرانب والجرذان. وذات مرة اعتقد أنه رأى عنزة، وقد فرت عند اقترابه منها.

لم يرَ الكثير غير ذلك. وعلى ما يبدو لم يكن هناك الكثير من الطيور. كان المكان صامتًا، وكأن كل المخلوقات الحية قد جمعت وأُزيلت.

كانت بعض الجرذان هائلة الحجم، وكانت هناك الذئاب الجرذان التي ظن أنه لمح واحدًا منها. وأيًّا كانت تلك الحيوانات فقد كانت تلوذ بالفرار عند اقترابه.

قال سايدوايز: «ظلت القوارض دائمًا في منافسة مع الرئيسيات، وحتى في أوج حضارة البشر التقنية، كان البشر يكتفون بإبعاد القوارض عن الأنظار، وعن الطعام. والآن وقد انتهى البشر، فمن الواضح أن الجرذان تزدهر.

مع ذلك فمن السهل اصطيادها. وضع سنُوي مجموعة من الفخاخ بغرض التجربة، ونجحت الفخاخ، فالأرانب وفئران الحقل بدت أليفة بصورة غريبة. وهي علامة سيئة إذا فكرت في الأمر، فذلك يعني أنها لم تر بشرًا منذ زمن بعيد.

في نهاية اليوم الثاني طلب منهم أحمد الجلوس في أطلال الكنيسة في دائرة على كتل حجرية متآكلة.

شعر سنُوي ببعض التغييرات الطفيفة في المجموعة. كانت مون تنظر إلى أسفل متجنبة أعين الجميع، وبونر وأحمد وسايدوايز يراقب بعضهم بعضًا، وسنُوي يبدو حذرًا.

رفع أحمد علبة طعام فارغة، وقال: «لا يمكننا البقاء هنا وعلينا أن نخطط.»

هز بونر رأسه قائلًا: «أهم شيء هو البحث للعثور على أشخاص آخرين.»

قال سايدوايز: «علينا مواجهة الأمر، لا يوجد هنا أحد غيرنا، لا يستطيع أحد أن يساعدنا بأي حال من الأحوال، فنحن لم نر أحدًا، ولم نر أي علامة تشير إلى أن أي شخص زار هذا المكان في الآونة الأخيرة.»

وقال أحمد مشيرًا إلى السماء: «لا علامات على وجود طائرات، لا شيء على الراديو على أي تردد. ولا أقمار صناعية. هناك خطأ ما قد حدث.»

ضحكت مون ضحكة جوفاء وقالت: «لم يعد هناك شك في ذلك.»

- «لا نستطيع أن نعرف كيف وقعت الأحداث، ولا بد أن الفوضى قد عمت قبل النهاية. لم يوقظنا أحد، وأظن أنهم نسوا أمرنا آخر الأمر، حتى أفقنا عن طريق الصدفة.»

أجبر سنُوي نفسه على أن يسأل هذا السؤال: «كم ظللنا مجمدين يا سايدوايز؟»

فرك سايدوايز أنفه وقال: «من الصعب القول، لو كان لدينا تقويم فلكي لاستطعنا التوصل إلى ذلك من تغيّر مواقع النجوم. ومع تعذر ذلك فأفضل الاحتمالات هو القائم على أساس نضج غابات البلوط.»

قاطعه بونر: «هذا هراء أيها الأعجف. ما طول المدة؟ خمسون سنة، ستون؟ ....»

أجاب سايدوايز: «ما لا يقل عن ألف سنة. ربما أكثر. على الأرجح أكثر من ذلك.»

وفي صمت تركوا عقولهم تستوعب ما قال، وأغلق سنُوي عينيه متخيلًا أنه يقفز من على متن حاملة طائرات في الظلام.

ألف سنة. لكن ذلك بدا وكأنه لا يختلف كثيرًا عن الخمسين عامًا التي ظن أنها تفصل بينه وبين وزوجته، لأن الأمر كان يفوق تصوره.

قال بونر بعصبية: «يا له من مستقبل؛ لا سيارات نفاثة، لا سفن فضاء تسافر إلى النجوم، لا مدن على سطح القمر.»

وقال أحمد: «علينا أن نفترض أننا لن نجد أي شخص آخر، وأننا وحدنا، وعلينا أن نرسم خططنا على هذا الأساس.»

صاح سايدوايز: «انهارت الحضارة ومات الجميع، ونحن عالقون على بعد ألف سنة في المستقبل. فكيف لنا أن نخطط لذلك؟»

قال سنُوي: «ربما يكون هذا النهر نظيفًا، فجميع هذه المصانع قد أغلقت منذ قرون.»

أومأ إليه أحمد بامتنان وقال: «حسنًا، أخيرًا عثرنا على شيء يمكن اتخاذه كأساس. نستطيع أن نصطاد السمك، وأن نصطاد الحيوانات، ونستطيع أن نبدأ من الغد. سايدوايز! لماذا لا تستعمل عقلك في شيء مفيد وتفكر في صيد السمك؟ فكر في طريقة لصنع صنانير وشباك الصيد. وأنت يا سنُوي، عليك أن تفعل الشيء نفسه من أجل صيد الحيوانات. سيكون علينا أن نجد مكانًا نعيش فيه، ربما نجد مزرعة. ابدأوا في التفكير في تطهير الأرض وزراعة القمح.» ونظر إلى السماء ثم أردف: «ما رأيكم؟ في

أي موسم نحن؟ بداية الصيف؟ نحن في وقت متأخر لمحصول هذا العام، ولكن في الربيع القادم ....»

قاطعه سايدوايز: «أين تظن أننا سنجد القمح؟ هل تعرف ما يحدث إذا تُركت الذرة أو القمح دون حصاد؟ ستسقط الكيزان والسنابل على الأرض وتتعفن، فالقمح يحتاج إلينا من أجل البقاء. وإذا تُركت الأبقار بدون حليب بضعة أيام فستموت نتيجة لانفجار ضروعها.»

قال سنُوي: «هون عليك.»

- «ما أقوله هو أنكم إذا أردتم أن تزرعوا، فعليكم البدء من الصفر، عليكم إعادة الدورة من بدايتها: الزراعة والثروة الحيوانية، بدءًا من الطيور والنباتات والحيوانات البرية.»

أومأ أحمد برأسه موافقًا، وأضاف: «جميعنا يا سايدوايز، فنحن جميعًا نشترك في المشكلات هنا، وسنشترك في حلها معًا. وفي غضون ذلك نجمع ونصطاد ونعيش مما تخرجه الأرض. لن يكون هذا جديدًا.»

أمسكت مون بملابسها وقالت: «هذه الأشياء لن تبقى إلى الأبد، سيكون علينا معرفة كيفية صنع القماش، وأسلحتنا سوف تكون غير مجدية عندما تنفد الذخيرة.»

قال بونر: «ربما نتمكن من صنع المزيد من الذخائر.»

ضحك سايدوايز قائلًا: «فكر في الفئوس الحجرية يا صديقي.»

أجاب بونر: «لا أعرف كيف أصنع فأسًا حجرية.»

رد سايدوايز: «ولا أنا. أتدري؟ أراهن أنه لا توجد أي كتب تخبرنا كيف نفعل ذلك. كل تلك الحكمة التي جاهدنا للوصول إليها منذ الإنسان الأول العاري الذي كان يركض في أفريقيا انتهت، تلاشت.»

أجاب أحمد بحزم: «ما علينا سوى أن نبدأ ذلك من جديد.»

حدجه بونر ببصره وقال: «لماذا؟»

نظر أحمد إلى السماء وقال: «إننا مدينون بذلك لأطفالنا.»

قال سايدوايز: «أربع رجال وحواء واحدة.»

مرت فترة صمت طويلة وثقيلة. كانت مون مثل التمثال، عيناها جامدتان. ولاحظ سنُوي مدى اقتراب يدها من مسدسها.

نهض أحمد وقال: «لا تفكروا في المستقبل. فكروا في ملء بطونكم.» وصفق بيديه ثم قال: «لنتحرك.»

تفرقوا. كان الهلال قد ارتفع بالفعل وبدا يلمع مثل الفضة في السماء الزرقاء.

قال سايدوايز لسنُوي وهم يتحركون: «كيف تجد الحياة في المستقبل؟»

رد سنُوي بمرارة: «كالحياة في السجن يا رفيقي. كالحياة في السجن.»

٣

حاول سنُوي إشعال نار، ربما على بعد حوالي خمسة كيلومترات من المعسكر.

كان يقف في مكان يبدو أنه كان حقلًا فيما مضى، وكانت لا تزال هناك آثار لأحجار جافة ترسم حدود مستطيل واسع. ولكن بعد مرور ألف عام على صار كأي قطعة أرض أخرى مجاورة تخنقها الأعشاب والحشائش المعمرة والشجيرات الموسمية ودائمة الخضرة.

كان قد صنع لوحًا للنار بطول ساعده، وحفر به تجويفًا. وكان معه عصا مدببة، وقطعة من الصخر تتناسب تمامًا مع يده، وقوس، وبعض الفروع مربوطة برباط حذاء من البلاستيك. واستخدم قطعة من اللحاء كطبق يجمع فيه الجمرات التي سيصنعها. وجمع في الجوار كمية من اللحاء وأوراق الشجر الجافة والأعشاب الميتة لتغذية النيران. وركع على ركبته اليمنى ووضع كعب قدمه اليسرى على لوح النيران. لقد قام بعمل أنشوطة في القوس انزلق العمود من خلالها. وشحّم السن بقليل من شمع الأذنين، ووضعه في نهاية عمود الدوران داخل الصحن المعد لتلقي النار، وبعد ذلك ضغط على الحجر بخفة، وحرك القوس ذهابًا وإيابًا، وزاد في سرعته في انتظار الدخان والجمرة.

كان سنُوي يعرف أن شكله يبدو أكبر من سنه، فقد أطلق شعر رأسه الآن، وكان يربطه خلف رأسه بقطعة من السلك، كما أن لحيته كانت نامية أيضًا، مع أنه يهذبها كل بضعة أيام بسكين. وأصبح جلده جافًّا، وظهرت التجاعيد حول عينيه وفمه. وقال في نفسه: «الواقع أنني تقدمت في السن، بألف سنة. ويجب أن يظهر ذلك عليّ.»

كان من الصعب أن يصدق أنه لم ينقضِ إلا شهر وبضعة أيام منذ خروجهم من مقصورة التجميد.

لم يكن مضطرًّا للقيام بهذا النوع من المهام بعد، مثل إشعال هذه النار من الصفر. فلا يزال متبقيًا لديهم الكثير من علب الكبريت المقاوم للماء، بالإضافة إلى كميات وفيرة من التريوكسان، وهو مصدر كيميائي للتدفئة يستخدمه الجيش. ولكن سنُوي كان يفكر في اليوم الذي يتعذر فيه الاعتماد على ما يخرجونه من المقصورة، فهذا يعد نوعًا من الغش بطبيعة الحال. وقد استغل سكين الجيش السويسري لعمل القوس ولوح النار، وسيكون عليه فيما بعد تجربة السكاكين الحجرية. ولكن خطوة خطوة.

كان ذلك الحقل القديم كأنه فرع من غابات البلوط التي تهيمن على الطبيعة في إنجلترا بعد انقراض الإنسان. إلى الغرب، وإلى أسفل التلال كانت هناك بحيرة. واستطاع سنُوي أن يرى بقايا من الجدران الحجرية تختفي تحت الماء الساكن. لكن سطح البحيرة كان تتزاحم فيه الزنابق والغاب والأعشاب، وتكسوه الطحالب الرمادية والخضراء. قال سايدوايز إن هذا نمو مفرط. حتى الآن تتسرب المغذيت الصناعية — ولاسيما الفوسفور — من الأرض إلى البحيرة، وتشجع نمو الأنظمة البيئية الدقيقة. ولم يستطع سنُوي أن يتخيل أنا كل ما كان الفلاحون يضخونه في أراضيهم لا ي زال يسمم البيئة حتى الآن.»

كان المشهد غريبًا؛ الفراغ والصمت يحاصرانه. فلم تكن هناك حتى أصوات طيور.

ربما ازدهرت بعض المخلوقات حالما توقف الصيد البشري ومكافحة الآفات واستغلال الأراضي، مثل الأرانب والدجاج البري. ولما كانت الثدييات الأكبر حجمًا تتناسل ببطء، فلا بد أن الأمر استغرق في حالتها وقتًا أطول. ولكن يبدو أن هناك أنواعًا عديدة من الغزلان والخنازير التي لمحها سنُوي في الغابات. لكنهم لم يروا حيوانات مفترسة ضخمة، وحتى الثعالب كانت نادرة. ولم يكن هناك أي من الطيور الجارحة، باستثناء عدد قليل من الزرازير التي تبدو عدوانية. قال سايدوايز إن السلاسل الغذائية عندما انهارت، انقرضت الضواري العليا. والأرجح أنه لم يعد في أفريقيا أسود

أو فهود أيضًا، حتى لو كانت قد أفلتت من براثن آخر الجياع من البشر اللاجئين.

قال سنُوي في نفسه: ربما حدث ذلك. ولكن ماذا حدث للفئران؟

لا شك أن التوازن سيعود على المدى البعيد، وسيتكفل بذلك التنوع والتكيف والانتخاب الطبيعي، وسيأتي من يقوم بالأدوار القديمة بشكل أو بآخر. ولكن قد لا تتكون مجتمعات شبيهة بالمجتمع الذي اندثر. وقال سايدوايز لمّا كانت الثدييات لم تعش في المتوسط سوى بضعة ملايين من السنين، فسوف تمر ملايين السنين — ربما عشرة ملايين أو عشرين مليون سنة — قبل أن يتجمع مرة أخرى عالم بالثراء الذي كان عليه عالمنا قبل أن يندثر.» ولذلك فحتى لو عاد البشر واستطاعوا البقاء خمسة ملايين عام، فلن يروا عالمًا كالذي عرفه سنُوي صغيرًا.

لم يكن سنُوي من أنصار حماية البيئة، لكن كان هناك شيء مثير للقلق بشدة في تلك الأفكار. من الغريب أنه عاش ليرى ذلك بعينيه.

لا يوجد دخان بعد، فلم تشتعل تلك الجمرات الملعونة بعد. واصل العمل بالقوس.

المشكلة الرئيسية في إشعال النار أنها تمنحه وقتًا طويلًا للتفكير، فكان يحن إلى أصدقائه، والصداقة الحميمة لحياة البحرية. وكان يحن إلى عمله، حتى المهام الروتينية المعتادة، وربما كان حنينه إلى المهام الروتينية المعتادة أكثر من أي شيء آخر، لأن ذلك كان يعطي لحياته معنى تفتقر إليه الآن.

كان يحن إلى الضجيج؛ التلفزيون والإنترنت والموسيقى والأفلام والإعلانات والشعارات والأغاني. فالشيء الوحيد في العالم الجديد الذي سيصيبه بالجنون آخر الأمر هو الصمت؛ الصمت الرهيب البارد غير البشري. واقشعر جسده وهو يتصور ما كان عليه الوضع في الأيام الأخيرة، عندما تتوقفت جميع الأجهزة، وأخذت اللافتات ومصابيح النيون والشاشات تومض ثم تموت، واحدة تلو أخرى.

وافتقد كلارا، بالطبع افتقدها. إنه لم ير طفله أو طفلته قط.

في البداية، كان يعاني نوبات من الشعور بالذنب؛ الذنب لأنه ما زال حيًّا بينما الكثيرون قد ابتلعهم الظلام، الذنب لعجزه عن فعل أي شيء من

أجل كلارا، والذنب لأنه يأكل ويتنفس ويتبول ويختلس النظرات إلى مون بينما كل من عرفهم من الناس قد ماتوا. لكن هذا الشعور كان يخبو لحسن الحظ. فقد قال له سايدوايز ذات مرة إنه محظوظ لافتقاره إلى الخيال.

أو ربما كان أكثر من ذلك.

فعلى ضوء هذا العصر الجديد، بدا وكأن حياته القديمة في إنجلترا المزدحمة المظلمة في القرن الحادي والعشرين كانت حلمًا. كما لو كان يذوب في اللون الأخضر.

كانت هناك حركة في أوراق الشجر، على بعد نحو عشر خطوات، فتحرك في هذا الاتجاه في سكون وصمت. كانت هناك ساق نبات واحدة تحمل بذورًا وتتمايل برشاقة، وكان قد نصب فخًّا في هذا المكان. فهل هناك شيء بين أوراق الشجر؟

وضع القوس والعمود الدوار أرضًا، ووقف ثم سار نحو المكان الذي سمع منه الحفيف، وأنزل القوس من على ظهره، وسحب سهمًا من جعبته المصنوعة من جلد الأرانب، ووضعه في مكانه بعناية.

لم تكن هناك حركة في الأوراق، حتى كاد يصل إلى مكان الحركة، وهنا حدثت حركة خاطفة بعيدًا عنه، ولمح جلدًا شاحبًا مرقطًا باللون البني، وأطرافًا طويلة. ثعلب؟ لكنه كان كبيرًا، أكبر من أي شيء رآه هنا حتى الآن.

جرى ناحية ذلك الشيء بلا تردد، ثم ركله بحذائه في ظهره، ورفع قوسه ناحية الرأس. تلوى ذلك المخلوق وسقط على ظهره وعوى مثل القطط، ووضع يديه على وجهه.

خفض سنُوي قوسه. يدان! كان للمخلوق يدان، كأيدي البشر أو القرود.

ألقى بالقوس وقلبه يخفق، ثم ركع فوق المخلوق، وأمسك بمعصميه. كان طويلًا ولين الجسم، لكنه قويّ جدًّا، وقد لجأ سنُوي إلى كل ما لديه من قوة ليبعد تلكما اليدين عن وجهه. واستمر المخلوق يبصق ويقول كلامًا غير مفهوم.

ولكن وجه ذلك المخلوق، لا بل وجهها، لم يكن يشبه وجه الشيمبانزي، ولا وجه أي قرد. كان بدون أدنى شك وجهًا بشريًّا.

ولثوان ظل سنُوي مذهولًا فوق الفتاة.

كانت عارية، وبالرغم من أن جلدها الشاحب كان ظاهرًا، إلا أنه كان مغطى بفراء لونه خليط من البني والبرتقالي. وكان الشعر على رأسها داكن اللون، غابة من الخصلات القذرة تبدو كأنها لم تقصها قط. لم تكن طويلة القامة، لكن كان لها ثديان؛ كيسان صغيران متدليان، وحلمتان تبرزان من خلال الشعر، وتحت مثلث الفراء الداكن أسفل بطنها ما يبدو أنه دم حيض. وكانت لها علامات شد على بطنها تشير إلى أنها حملت من قبل.

ليس ذلك فحسب، بل كانت رائحتها نتنة كأقفاص القرود.

لكن ذلك الوجه لم يكن وجه قرد؛ أنفها صغير ولكنه بارز، وفمها صغير، وذقنها مثلثة الشكل بها نقطة غائرة، وعيناها زرقاوان، وجبينها أملس. هل كان أدنى بقليل من جبينه؟

كانت تبدو بشرية، على الرغم من بطنها المغطى بالشعر. لكن عينيها غائمتان. كانت خائفة ومذهولة.

أحس بغصة في حلقه وهو يتحدث إليها: «هل تتحدثين الإنجليزية؟»

أخذت تصرخ وتضرب بذراعيها.

فجأة شعر سنُوي بشهوة فانزلق بسرعة من فوق الفتاة، ومد يده ناحية القوس والسكين.

إلا أن الفتاة لم تستطع الوقوف، فقدمها اليمنى قد انحشرت في الفخ، وأخذت تتحرك على الأرض الرطبة حتى انحنت على قدمها، وأخذت تتحرك جيئة وذهابًا وهي تتألم وقد انتابها الرعب.

تلاشت موجة شهوة سنُوي، إنها الآن تشبه القرد في حركاتها وفي بؤسها الأعمى، حتى وإن كان جسدها يبدو جسد امرأة. فكر سنوي في زوجته كلارا (اغفري لي، لقد مر وقت طويل وقد ...) وزاد نفوره منها عندما رأى بقايا الفضلات التي جفت على ساقيها، والبراز الذي تجمع حيث كانت ترقد.

وفتش في جيب بذلة الطيران، وأخرج بقايا طعامه، كان لا يزال لديه بعض المكسرات، واللحم البقري، وبعض الموز المجفف. أخرج بعض شرائح الموز المجفف ومد يده نحو الفتاة.

تراجعت مبتعدة عنه قدر استطاعتها.

حاول أن يجعلها تقاده، فوضع رقاقة أو اثنتين في فمه، وأخذ يأكل ويتمتم: «لذيذ.»

لكنها لم تأخذ الطعام من يده. وفكر سنُوي أن الغزلان أو الأرانب كانت ستتصرف على النحو نفسه، فوضع الرقائق على الأرض أمامها وتراجع.

خطفت اثنتين من الرقائق ووضعتهما في فمها. وأخذت تمضغ وتمضغ كأنها تستخرج كل نكهتها منها، قبل أن تبتلعها في النهاية. وكأنها لم تأكل شيئًا لذيذًا كذلك من قبل.

أو ربما كان الأمر أنها تتضور جوعًا، فقد وضع الفخ منذ يومين، ومن الممكن أن تكون لم تمس طعامًا منذ ثمانٍ وأربعين ساعة بالفعل. وكانت الفضلات والبول وطريقة تلبد الفراء على ساقيها تشير إلى ذلك أيضًا.

وبينما كانت تأكل أخذ ينظر إلى قدمها التي كانت محشورة داخل الفخ. كان مجرد فخ مزود بحلقة، وضع خصيصًا للأرانب. وأخذت تحاول التخلص من الفخ، لتنال حريتها. فضاق الفخ على قدمها، وجرحها جرحًا عميقًا، حتى ظهرت عظامها، وكان يمكنه رؤية بياض العظم في الجرح.

ماذا الآن؟ كان في إمكانه أن يفقدها الوعي ويحملها عائدًا إلى المعسكر، لكنها لم تكن فريسة، فلم تكن أرنبًا بريًّا، ولم تكن كذلك نوعًا مهمة مثل الببغاء الذي أمسك به سايدوايز على حافة بركة راكدة. كانت إنسانًا بصرف النظر عن شكلها، ثم تذكر علامات الشد التي تُثبت أن لديها طفلًا واحدًا على الأقل، وأنه ما في مكان ما ينتظر عودتها.

غمغم سنُوي: «هل قطعت كل هذه المسافة، ألف سنة، لأفسد عليك حياتك كما أفسدتُ حياتي؟ لا.» ودون تردد قفز فوقها.

كانت مباراة مصارعة. وثبتها على الأرض، ووجهها إلى أسفل وذراعاها تحتها وفخذاه على ظهرها، ثم استعمل سكينه السويسري لقطع السلك، وأخرج الحلقة من الحفرة الدموية في قدمها، ثم استخدم أشياء أخرى من مدخراته الثمينة لتنظيف الأوساخ والدم والصديد الجاف، ثم أضاف السوائل المطهرة. وقد اضطر إلى التقاط الشعر البني من حول الجرح ووضع بعض الكريم عليه. فربما تترك تلك المواد مدة تكفي لتطهير الجرح.

وفي اللحظة التي أطلقها فيها ذهبت مسرعة. فلمح شخصًا طويلًا ورشيقًا يعدو خلال الحشائش الطويلة متجهًا نحو الأشجار، ويتحرك بسرعة على الرغم من عرجه.

كان المساء قد حل، ولا يفترض أن يكون وحده في الظلام بعيدًا عن القاعدة، كانت تلك أوامر أحمد الدائمة. كان يود تتبع الفتاة في داخل الجزء الأخضر الكثيف من الغابة. لكنه كان يعلم أنه يجب ألا يفعل ذلك. فجمع العتاد ورجع آسفًا إلى المعسكر.

كان سنُوي آخر من انضم إلى المجموعة في تلك الليلة.

قرروا المبيت قريبًا من البحيرة، على بعد بضعة كيلومترات من أطلال المدينة.

جمعهم أحمد حول جذع شجرة قد سقطت، حيث جلس بشيء من الخيلاء. أراد سنُوي أن يخبر الآخرين عما حصل له، وعما وجد. لكنه رأى أن المزاج العام لن يسمح بذلك، فجلس ولم يقل شيئًا.

ازداد انعزال مون وضوحًا بمرور الأسابيع، والآن كانت تجلس القرفصاء أمام أحمد وعيناها تنظران بعيدًا، لكنها كانت مركز كل شيء كالعادة؛ كل المناورات الصامتة. كان سايدوايز غامضًا كالعادة، ولكنه كان يجلس في مواجهة مون، ولاحظ سنوي أن عينيه مثبتتان على منحنى فخذيها، وعلى السنتيمترات القليلة العارية أعلى حذائها. كان أحمد جالسًا إلى جوار الفتاة فوق ما تبقى من جذع الشجرة، كما لو كان يمتلك الفتاة.

كان بونر من بين الجميع الذي ظهر شبقه بالفتاة واضحًا. كان يجلس وقد توترت عضلاته، وعلى وجهه خط من الطين، وهو نوع من التنكر يستعمله الصيادون. وأحس سنُوي أنه يبدو أشبه بالحيوانات.

كانوا على وشك التفرق، أو هذا ما لاحظه سنُوي، وقد بدأ الانشقاق يظهر بينهم. وربما يقتل بعضهم بعضًا للفوز بمون، هذا إن لم تقتلهم مون أولًا.

ولم يكن قائدهم أحمد يشعر بشيء من ذلك، بل كان يبتسم وهو يقول: «كنت أفكر في المستقبل.»

زمجر سايدوايز زمجرة مكتومة.

واصل أحمد: «أعني المستقبل البعيد، فيما بعد الأشهر القليلة القادمة، بل والسنوات القليلة القادمة. فحتى لو استطعنا تجاوز الشتاء القادم ستكون الظروف عصيبة على أطفالنا.»

عندما ذكر الأطفال، نظر سنُوي ناحية مون، كانت تحدق في يديها وقد شبكت أصابعها.

قال أحمد إن البشر قد استنفدوا خلال الحقبة الصناعية — لاسيما خلال العقود المحمومة الأخيرة — كل المخزون الذي كان متاحًا من الوقود الحفري: الفحم والبترول والغاز الطبيعي. «إن الوقود الحفري يتكون من جديد الآن، نحن على يقين من ذلك، لكنه يتكون ببطء شديد. فما أحرقناه من الوقود الحفري خلال بضعة قرون قد تكون في أربعمائة وخمسين مليون سنة. لكن أحفادنا لن يجدوا صعوبة في الحصول على الوقود. يتكون فحم المستنقعات عندما تتحلل الطحالب وغيرها من النباتات في المستنقعات في ظروف نقص الأكسجين. أليس كذلك؟ وفي بعض المناطق ظل الناس يستخدمون فحم المستنقعات وقودًا حتى منتصف القرن العشرين.»

قال سايدوايز: «في أيرلندا والدول الاسكندنافية. ليس هنا.»

- «إذن نذهب إلى أيرلندا أو سكاندينافيا، وربما نعثر عليه هنا، فقد تغيرت الظروف كثيرًا منذ خضعنا لعملية التجميد. على أي حال، إذا لم نجد فحم المستنقعات فسنجد بديلًا. لقد ورثنا عالمًا خاليًا من الوقود، لكننا ما زلنا نمتلك عقولنا وذكاءنا.»

قال سيدوايز: «يا إلهي! أحمد، ألا تدرك أنه ليس بيننا رحم سوى واحد؟»

قالت مون دون أن تنظر إليهم: «رحمي أنا أيها الأحمق.»

قال أحمد بهدوء: «حديد المستنقعات.»

حملق فيه الجميع.

أردف أحمد: «نحصل على أكسيد الحديد الذي يتكون في البرك والمستنقعات. عندما تتعرض المياه الجوفية الغنية بالحديد للهواء فإنها

تصدأ، أليس كذلك يا سايدوايز؟ وقد اعتاد الفايكنج استغلال هذه المادة، فلماذا لا نفعل مثلهم؟»

وعندما طال الجدال تطلع سنُوي إلى الغابة القريبة؛ إلى الخضرة التي تكسوها الظلال. وقال في نفسه: إن سايدوايز محق، فنحن هنا بمحض الصدفة، وسوف نتفرق وتلتهمنا الغابة ككل المباني المهدمة، ونختفي، وتنضم عظامنا إلى مليارات العظام المكدسة في باطن الأرض. و

وعندما تفرقوا، أخذ سنوي سايدوايز جانبًا وحكى له ما صار مع الفتاة البرية.

سأله سايدوايز على الفور: «هل أقمت معها علاقة حميمة؟»

كشر سنوي وقال: «نعم فكرت في ذلك، لكنني لم أستطع عندما رأيتها على حقيقتها.»

ربت سايدوايز على كتفه وقال: «لا غبار على رجولتك يا صديقي، ولعل وينا ليست من النوع الذي يناسبك، هذا كل ما في الأمر.»

- «وينا؟»

- «إنها من التراث الأدبي القديم، لا عليك. أصغ لي، مهما قال ذلك الرئيس الواقف هناك، فعلينا أن نعرف المزيد عن هذه الكائنات، فهذا أهم بكثير من استخراج المخلفات الجافة. علينا أن نعرف كيف تستطيع البقاء هنا، لأننا سنضطر إلى العيش بنفس الطريقة. اذهب وابحث عن فتاتك يا سنُوي، واسألها هل تود أن تلقاني وصديقتي؟»

بعد مرور بضعة أيام، وقبل أن يبدأ أحمد في تنفيذ خطته لإعادة بناء الحضارة، وقع فريسة للمرض، واضطر للانعزال في كوخه، والاعتماد في مأكله ومشربه على ما يحضره له الآخرون.

ظن سايدوايز أنه أصيب بتسمم الرصاص من كومة النفايات المجاورة للمعسكر، فقد ظل البشر يستخدمون الرصاص طوال قرون في صنع كل شيء؛ من القبعات إلى المرايا إلى الأدوية القاتلة للجراثيم وعلاجات الزهري، وأغلب الظن أن التربة مشبعة به. وحتي الآن، بعد ألف سنة، ما زال يتسرب

إلى مياه البحيرة، ويصعد في السلسلة الغذائية حتى يصل إلى أعلى تركيز له في أجسام الأسماك، وأفواه البشر الذين يتغذون عليها.

ويبدو أن سايدوايز رأى كل هذا مثيرًا للسخرية؛ أن تنتهي حياة أحمد المخطط العظيم — والوحيد من بينهم الذي ظل على تمسكه الشديد بالأحلام التوسعية للقرن الحادي والعشرين الذي تقادم به العهد — بسبب جرعة من السم، وهو ميراث خلَّفه ذلك العصر القاتل.

لم يبال سنُوي كثيرًا بالأمر، فالعالم مليء بأشياء أهم كثيرًا من كل ما يقوله أو يفعله أحمد.

مثل وينا وجماعتها من المشعرين في الغابة.

بنى سنُوي وسايدوايز نوعًا من المخابئ؛ كوخًا مغطى بالحشائش والأوراق الخضراء، في موقع لا يبعد كثيرًا عن المكان الذي التقي فيه سنُوي أول مرة بالفتاة الشبيهة بالقردة التي سماها سايدوايز وينا.

ألقى سنُوي نظرة على سايدوايز وهو ممدد في ظل المخبأ، وقد اعتاد كلاهما في هذا الصيف القائظ الذي لم يألفاه في إنجلترا أن يتحركا عاريين إلا من سراويل قصيرة وحزام معدات وحذاء طويل الرقبة. كان جلد سايدوايز داكنًا وملطخًا بأوساخ كثيفة، ويُعد تمويهًا أفضل من أي شيء صنعته يد الإنسان، فبعد خمسة أو ستة أسابيع فقط من الخروج من مقصورة التجميد، تغيرت ملامحه وصار التعرف عليه مستحيلًا.

همس سايدوايز: «انظر هناك.»

خرج أربعة أشباح لونها بين الرمادي والبني من بين الظلال على حافة الغابة، وخطوا بضع خطوات حذرة نحو العراء. أشباح عارية، لكنهم نحيلو القوام منتصبو القامة، ويحملون في أيديهم أشياء هي على الأرجح مطارقهم وسكاكينهم البدائية المصنوعة من الحجارة. وقفوا في دائرة وظهورهم إلى الداخل، وهم يحدقون فيما حولهم ويحركون رءوسهم حركات عنيفة.

خرج سايدوايز كعادته بقصة تفسر من أين جاءت هذه الكائنات المشعرة ضئيلة الجسد، فقال: «أطفال المجاري. عندما انهارت المدن، من الذي استطاع البقاء لأطول فترة ممكنة؟ الصغار البائسون الذين كانوا

بالفعل يسكنون المجاري وقنوات الصرف الصحي، ويعيشون على القمامة. وربما مرت سنوات قبل أن يلاحظ أحدهم أن شيئًا ما قد تغير.»

عندئذ انطلق المشعرون يعدون عبر السهل الأخضر نحو جثة ظبي كبير مكومة على الأرض. اصطاد سنُوي وسايدوايز هذا الظبي بالمقلاع، وألقوا به هنا على أمل أن يغري المشعرين بالخروج من مكمنهم داخل الغابة. تكأكأ المشعرون على الجثة، وبدأوا يمزقون المفاصل التي تصل الأرجل الخلفية بأسفل الجسد. وبينما هم منهمكون في عملهم في صمت، ظلت إحداهم واقفة طوال الوقت وهي تجول ببصرها هنا وهناك لحراستهم.

تمتم سنُوي: «هذه طريقتهم، يأخذون الأرجل، أرأيت؟»

رد سايدوايز: «طريقة سهلة وسريعة، أسهل جزء في تقطيع الذبيحة؛ اقطع ساقًا ثم أسرع بها إلى الغابة قبل أن يأتي حيوان أشد منك قوة وينازعك عليها. إنهم منظمون حتى إن لم يكونوا قادرين على الكلام. أرأيت كيف يتناوبون على الحراسة؟ إنهم يصطادون في جماعات، أو يتغذون على الجثث على أي حال.»

تساءل سنُوي لماذا يتوخون الحذر إلى هذه الدرجة إذا كان سايدوايز محقًّا بشأن عدم وجود ضوار كبيرة الحجم في المنطقة.

همس سنُوي: «إنهم يبدون كالبشر، لكنهم لا يتصرفون كالبشر. أترى ما أعني؟ إنهم لا يشبهون دوريات الحراسة، وهم يتلفتون حولهم كالقطط والكلاب.»

زمجر سايدوايز وقال: «لا يمكن أن يكون لدى أطفال المجاري هؤلاء ثقافة أو علم، ولم يعرفوا طوال حياتهم سوى المجاري. وربما يكون هذا سبب عجزهم عن الكلام، ولعل احتماءهم بستار الصمت في المجاري كان أهم عندهم من اللغة.»

- «هل فقدوا اللغة؟»

- «ولم لا؟ الطيور تفقد قدرتها على الطيران طوال الوقت. العقل مكلف يا سنُوي، ولو كان بحجم عقلك، فهو يستهلك كثيرًا من طاقة جسدك، وربما لا يعد العقل في هذا العالم نافعًا كسرعة الجري أو حدة البصر، والأرجح أن إلغاء اللغة — والوعي نفسه — لم يحتج تعديلًا كبيرًا في المخ، وصار

بوسع أمخاخ البشر الآن أن تنكمش، وفي غضون مائة عام سيصبحون أشبه بقردة أوسترالوبايثيسين.»

هز سنُوي رأسه وقال: «ظننت دائمًا أن الرجال في المستقبل ستكون لهم رءوس ضخمة وسيفقدون أعضاءهم التناسلية.»

نظر إليه سايدوايز في ظلام المخبأ وقال في مرارة: «لم ينفعنا ذكاؤنا كثيرًا، أليس كذلك؟» ثم تطلع إلى المشعرين وهو يمرر يده على وجهه وقال: «أفكر عندما أنظر إليهم كم كانت الحياة قصيرة. كانت هناك يومًا ما عقول في هذه الرءوس قادرة على الإدراك والتغيير والبناء، وانتهى كل ذلك الآن، تبخر، وعدنا إلى ما تراه، نعيش كالحيوانات؛ حيوانات لا تختلف عن غيرها النظام البيئي.»

ظلَّا برهة يشاهدان جماعة المشعرين العراة وهم يمزقون أطراف الظبي الميت، يتعاونون أحيانًا ويتشاجرون أحيانًا أخرى، ثم يحملون غنيمتهم ويعودون إلى الغابة من جديد.

ثم عاد سنوي وسايدوايز إلى معسكرهما.

فوجدا بونر يقلب المكان رأسًا على عقب لأن مون قد اختفت.

- «أين ذهبت هذه اللعينة؟»

كانت مون قد أقامت كوخًا صغيرًا لها، أقوى من بقية الأكواخ وأكثر خصوصية، وأحس سنُوي طوال الوقت أنها لو وجدت قفلًا لوضعته على بابها. اختفى كل شيء؛ حقيبتها التي صنعتها من بذلة طيران احتياطية، وأدواتها وملابسها، والمشط الخشبي الذي صنعته بنفسها.

أخذ بونر يفتش بعنف فيما بقي من حاجياتها، وهو يحطم جدران الكوخ. كان عاريًا إلا من سراويل قصيرة صارت بالية، وقد برزت عضلاته، ولوث الطين وجهه وصدره، وانتصب شعره الأشعث كالأشواك. وخطر لسنُوي أنه لم يبق إلا أقل القليل من الطيار الخجول الذي يذكر أنه منحه رعايته عندما التقيا أول مرة في مهمة إلى حاملة طائرات في بحر الأدرياتك.

خرج أحمد من كوخه وهو مدثر ببطانية مفضضة، وسأل: «ماذا هناك؟»

صرخ بونر في حنق: «لقد رحلت اللعينة!»

دنا منه سايدوايز قائلًا: «كلنا نرى أنها رحلت أيها الأحمق ....»

وجه إليه بونر ضربة صاعقة، وحاول سايدوايز الإفلات من قبضة الطيار الشاب، لكنها أصابته في جانب رأسه، فسقط على الأرض.

أسرع سنُوي إلى بونر وأمسك بذراعيه من الخلف، وقال: «أرجوك يا بونر، اهدأ.»

قال بونر: «هذا الوغد المخادع كان يضاجعها طوال هذا الوقت.»

ظهر على أحمد الإحباط التام كما توقع سنُوي، فرحيل مون قضى على أملهم الوحيد في التناسل، وانهارت كل خططه العظيمة قبل أن تبدأ.

تساءل أحمد: «لكن لماذا ترحل؟ لماذا تصبح وحدها؟ ما الذي سيعود عليها من ذلك؟»

قال سنُوي: «ما الذي سيعود علينا من كل هذا؟ نحن جميعًا سنقضي نحبنا هنا، ومن المستحيل أن تنجح خطتك، ولن يغير من ذلك كل حديد المستنقعات في العالم.»

ابتسم سايدوايز بصعوبة وقال: «لا أظن أن بونر مهتم بمصير الإنسانية الآن، أليس كذلك يا بونر؟ فكل ما يشغل باله هو أن الأنثى الوحيدة في العالم قد اختفت قبل أن يمسها ...»

زمجر بونر وطوح بقبضته ثانية، لكن سنُوي استطاع أن يقيد حركته هذه المرة.

وانسحب أحمد إلى كوخه وهو يسعل.

عندما عاد الهدوء النسبي إلى الجماعة، توجه سنُوي إلى النُصب الذي علقوا عليه مجموعة من الأرانب بعد سلخها، وبدأ يعد الطعام.

وقبل أن ينضج لحم أول الأرانب في النار كان بونر قد أعد صرة، ووقف هناك في ضوء الشفق في مواجهة سنُوي وسايدوايز، وقال: «إني راحل.»

أومأ سايدوايز برأسه وسأله: «هل ستذهب للبحث عن مون؟»

- «ماذا تظن أيها الغبي؟»

- «أظن أنها بارعة في العمليات البرية، ولن يكون العثور عليها سهلًا.»

قال بونر محنقًا: «سأتدبر الأمر.»

قال سنُوي في تعقل: «انتظر حتى الصباح، وتناول بعض الطعام، فالرحيل في الظلام يعني البحث عن المتاعب.»

لكن يبدو أن الجزء الخاص بالتفكير في عقل بونر قد توقف عن العمل إلى الأبد، فقد نظر إليهم بغضب عبر قناع الطين الذي يغطي وجهه، وتوترت كل عضلاته، ثم حمل صرته على ظهره ورحل.

وضع سايدوايز قطعة أخرى من الأرنب على النار، وقال: «لن نراه مرة أخرى.»

- «أتظن أنه سيعثر على مون؟»

فكر سايدوايز ثم قال بهدوء: «ليس إذا اكتشفت وجوده قبل أن يعثر عليها، وستقتله إذا حاول استعمال العنف معها، فهي قوية.»

أوشك الأرنب على النضوج، فسحبه سنُوي من النار، وأخذ ينزع قطع اللحم من الأسياخ ويضعها في أطباقهم الخشبية البدائية. كان كل ليلة يقسم الطعام على خمسة أطباق، أما الآن وقد رحل بونر ومون، فسيقسمه على ثلاثة أطباق فحسب.

ظل سنوي وسايدوايز هنيهة ينظران إلى الأطباق الثلاثة في صمت. كان أحمد في كوخه بعيد عن العين، بعيد عن البال. تناول سنُوي الطبق الثالث، وقسَّم بسكينه اللحم على الطبقين الآخرين، وقال: «إذا تحسن أحمد فسيستطيع أن يهتم بنفسه، أما إذا لم يتحسن، فليس بيدنا ما نستطيع أن نفعله من أجله.»

ظلا بعض الوقت يمضغان طعامهما في صمت.

ثم قطع سنُوي الصمت فقال: «سأرحل غدًا.»

لم يحر سايدوايز جوابًا.

- «ماذا عنك؟ أين ستذهب؟»

رد سايدوايز: «أظن أنني أود أن أستكشف هذا العالم، أرى المدن، لندن وباريس إذا استطعت عبور القنال الإنجليزي، أعرف مزيدًا عما حدث.

أغلب الظن أن هذه المدن قد انمحت بالفعل، لكن لا بد أن بعضها يبدو كأنقاض الإمبراطورية الرومانية.»

قال سنُوي: «لن يرى غيرك هذه المشاهد.»

- «هذا صحيح.»

قال سنُوي في تردد: «وماذا بعد ذلك؟ عندما يتقدم بنا العمر، وتضمحل قوانا.»

رد سايدوايز باقتضاب: «لا أظن أن هذه ستكون مشكلة، فستكون العقبة الحقيقية أن تختار كيف تموت؛ أن يكون لك إرادة في هذا الأمر على الأقل.»

- «بعد أن ترى كل ما تود رؤيته.»

ابتسم سايدوايز وقال: «لا عليك، ربما أجد في باريس بضع نوافذ أحطمها، أو بعض البراندي المعتق منذ ألف عام. سأستمتع بذلك.»

رد سنُوي ضاغطًا على حروفه: «لكنك لن تجد من تحدثه عن ذلك.»

قال سايدوايز بحدة: «هذا معروف من البداية، منذ اللحظة التي خرجنا فيها من مقصورة التجميد إلى غابة البلوط القديمة، ساعتها بدا هذا واضحًا.»

رد سنُوي: «ربما بدا واضحًا لك.»

تحسس سايدوايز جبهته بأصابعه حيث بدأت تتكون كدمة بسبب لكمة بونر، وقال: «هذا عقلي الذي ما زال يخرج بفكرة عقيمة تلو الأخرى، ولا شيء منها يصنع فارقًا، لا شيء. لنعقد اتفاقًا بيننا، سنختار مكانًا للقاء، ونسعى لأن نلتقي فيه كل سنة، وقد لا نتمكن من اللقاء كل مرة، لكن بوسع كل منا أن يترك رسالة أو شيئًا ما.»

اختارا مكانًا يسمى ستونهينج في سهل سالزبري الذي لا يزال من السهل تمييزه، واختارا يوم الانقلاب الصيفي موعدًا للقاء، وهو يوم يسهل تحديده عن طريق الالتزام الذي غرسه فيهم أحمد بتسجيل الوقت. كانت فكرة جيدة، وبطريقة ما أحس سنُوي بالراحة عندما فكر أن مستقبله ستكون له خطة ما.

وعندما أنهيا طعامهما، كان الظلام قد خيم على المكان، ولم يكن الطقس باردًا، لكن سنُوي وضع على كتفيه بطانية بدائية صنعوها من لحاء الأشجار، ثم سأل سايدوايز: «أحقًّا ما قاله؟»

- «من؟»

- «بونر. هل ضاجعت مون؟»

- «نعم، فعلت.»

- «إذن فأنت الحصان الأسود في هذا السباق. لم ألاحظ ذلك قط. لماذا أنت؟»

- «دوافع بدائية يا رئيقي، لعلها انجذبت لذكائي الذي يفوق الذكاء العادي.»

فكر سنُوي بعمق ثم قال: «إذن ليس لأمخاخنا الكبيرة إلا فائدة واحدة.»

- «أجل، لطالما نفعتنا عقولنا في هذا، ولعل هذه هي وظيفتها الأساسية، وكل ما عداها هراء.»

- «أيها الحصان الأسود اللعين.»

٤

تبع سنُوي جماعة البشر القردة.

لم يعش كما يعيشون، واستعمل فخاخه لصيد فرائس لا يزيد حجمها عن حجم الخنازير أو الغزلان الصغيرة، واستعمل السكاكين والنار والأكواخ للحماية وسلخ الفرائس. لكنه ظل يتبعهم أينما ساروا.

كانوا يتجولون في مساحة شديدة الاتساع، عبر الغابات الهائلة التي تغطي جنوب إنجلترا، وتخفي أنقاض المدن والكاتدرائيات والقصور والحدائق. وصار القلق يداهمه كلما غابت وينا عن ناظريه، وتعود إليه الطمأنينة عندما يعثر عليها ثانية. وأصبح يعرف كل أفراد هذه الجماعة الصغيرة، وأطلق عليهم أسماء مثل العجوز والقصير والطبيب، وتابع حياتهم لحظات سعادتهم وحزنهم، كأنه يشاهد مسلسلًا طويلًا.

ولم يمر وقت طويل قبل أن يلاحظ أنهم يخشون الفئران الكبيرة؛ الفئران الذئاب التي تمارس الصيد في جماعات.

وتساءل: «كيف يبدو لهم؟» من الواضح أنهم يعون وجوده، لكنه لم يتعرض لهم، ولا للطعام الذي يجمعونه، فتركوه وشأنه دون أن يلتفتوا إليه. وأحس سنُوي أنه يبدو شبحًا؛ شبحًا من ماض مندثر يطارد هؤلاء البشر الجدد.

بعد بضعة أشهر، ومع اقتراب نهاية هذا الصيف المفرط الطول، وصلوا إلى شاطئ، وظن سنُوي أنه كان في مكان من شاطئ ساسيكس على الساحل الجنوبي لبريطانيا.

جمع المشعرون بعض الطعام على أطراف الغابة، متجاهلين سنُوي كالمعتاد.

سار سنُوي على الشاطئ، ورأى الغابات تصل إلى الشاطئ كأن هذه جزيرة استوائية من عالم روبنسون كروزو، وليست إنجلترا على الإطلاق. وجد مكانًا للجلوس في مواجهة الأمواج.

التقط حفنة من الرمال، فوجدها ناعمة ذهبية تنساب بسهولة من بين أصابعه، لكنه رأى وسط الرمال حبوبًا سوداء، وقطعًا برتقالية وخضراء وزرقاء مصنوعة على الأرجح من البلاستيك. بدت الحبوب السوداء أشبه الرماد الناتج عن رابول، البركان القاتل، أو من الحرائق التي اجتاحت العالم عندما انهار كل شيء.

تعجب سنُوي كيف تلاشى كل شيء. لقد وقعت كارثة حقًّا، والرمال دليل على ذلك. صخور القمر والكاتدرائيات وملاعب كرة القدم والمكتبات والمتاحف واللوحات والطرق والمدن والأكواخ وشكسبير وموتسارت وآينشتاين وبوذا ومحمد ويسوع والأسود والفيلة والخيول والغوريلا وبقية الحيوانات ... كلها هلكت وابتلعتها الأرض، واختلطت بقاياها بالرمال الممزوجة بالسناج التي انسابت بين أصابعه.

المُشعرون يرحلون. إنه يرى ملامح أجسامهم الضئيلة وهم ينسلون في صمت إلى أعماق الغابة.

فنهض ونفض الرمال عن كفيه، ووضع صرته على كتفيه، وتبعهم.

الفصل الثامن عشر

مملكة الجرذان

شرق أفريقيا بعد نحو ثلاثين مليون عامًا من عصرنا الحالي.

١

كان اسم الكويكب في وقت ما إيروس.

كان لإيروس جغرافيته المصغرة، وكانت أرضه مغطاة بحُفر، وأنقاض وحطام متناثر، وأكوام غريبة من غبار ناعم جدًّا يميل لونه إلى الأزرق يحمل شحنة كهربية نتيجة تعرضه لأشعة الشمس القاسية. يبلغ طول إيروس نحو ثلاثة أضعاف عرضه، وكأنه جزيرة مانهاتن وقد أطيح بها في الفضاء.

كان إيروس قديمًا قدم ذيل الشيطان، وكان مثل المذنب تشيكشولوب من بقايا تكوين النظام الشمسي ذاته، لكن إيروس — على عكس المذنب — اندمج جيدًا ضمن آلية النظام الداخلي، في مدار المشتري. في الأيام الأولى كان هناك دمار شامل، حيث تحطمت الكويكبات الناشئة وهي تسير في مداراتها نتيجة لاصطدامها بعضها مع بعض، وتحطم معظمها ليصبح سحبًا من الغبار، أو سقط في الحوصلة الكبيرة لكوكب المشتري، أو في النظام الداخلي المزدحم والخطر. ودارت الكواكب الناجية في مدارات منتظمة حول الشمس الساطعة.

ولكن حتى الآن، فإن القوة الخطيرة للجاذبية جعلت مدارات الكويكبات تهتز كأوتار القيثارة.

على مضض خرجت إلى السطح في ضوء النهار.

لقد رأت حلمًا مزعجًا آخر، وتشعرت أن رأسها مشوش، وأطرافها متيبسة. ومن خلال سقف عشها البسيط أعلى الشجرة، رأت خضرة المظلة الشجرية العليا، وأجزاء تلتمع من السماء الاستوائية شديدة الزرقة. كان فراش القش تحت جسمها وسقف العش مصنوعين من عدد كبير من أغصان الأشجار وأوراقها، بُنِيا على عجالة في الساعة الأخيرة قبل حلول الظلام، وسرعان ما سيُهجران.

كانت مستلقية على ظهرها، تتوسد ذراعها اليمنى، وساقاها مطويتان على بطنها، وجسدها العاري مغطى بالشعر الذهبي الخفيف. وكانت في الخامسة عشرة من عمرها؛ أوج حياتها، وعلامات الشد على بطنها وثدييها الصغيرين تشير إلى أنها قد أنجبت بالفعل، وعيناها اللتان ملأهما النوم بالقذى كبيرتان وسوداوان وحذرتان، وهذه علامة على إعادة التكيف ببطء مع الحياة الليلية. وفوق العينين جبين مسطح وجمجمة صغيرة، وملامحها يحجبها شعر داكن مجعد.

جزء منها لم يكن ينام بعمق قط، مهما كانت أعشاشها محكمة البناء، ويقلق أحلامها دائمًا المساحات الشاسعة أسفل الشجرة التي يمكن أن تسقط فيها، وهو خوف لا يبدو منطقيًّا لأن قمم الأشجار هي الأماكن الوحيدة الآمنة ليعيش فيها قومها، لكنه خوف لا تستطيع التخلص منه، وسيحتاج الأمر مزيدًا من الوقت حتى يألف البشر عودتهم إلى الأشجار.

وما زاد الأمر سوءًا أن تلك المساحات في الأسفل قد ابتلعت طفلها الوحيد حتى الآن، فقد تراخت قبضته على فرائها بسبب المطر، وسقط جسمه الصغير وسط الغابة الخضراء.

لم تتحدث عن هذا قط مع أي شخص، بل لم يعد أحد يتحدث مع الآخرين عن أي شيء، فقد ولت منذ زمن بعيد أيام تبادل الأحاديث، ولم تعد هناك أهمية للحناجر والقدرات المعرفية عند قوم يعيشون على الأشجار.

حتى إنها لم تكن تحمل اسمًا، لكنها ربما تحمل في داخلها ذكرى دفينة لماض مختلف. لنطلق عليها اسم رميمبرانس (ذكرى).

سمعت حفيفًا في الطبقات السفلى من الأشجار؛ وابل من قشور الفاكهة يسقط من خلال أوراق الشجر، وسمعت الصيحات الأولى للذكور.

تدحرجت على بطنها ودفنت وجهها في فراشها المصنوع من الأغصان. لم تستطع أن ترى إلا المستعمرة نفسها، كتلة تتدلى من الطبقات الأكثر عمقًا في الغطاء الشجري. وفي جميع أنحاء المستعمرة أشباح رفيعة تتحرك وتعمل وتتشاحن. كان عمل اليوم يبدأ، ومن غير المستحب أن تصل متأخرة.

وقفت رميمبرانس منتصبة القامة على الفرع، ثم فتحت عشها وخرجت كأنها فرخ طير يخرج من البيضة، ثم أطلت برأسها الصغير على عالمها.

في كل مكان كانت الغابة مغطاة بطبقات خضراء دالة على الحياة، والظلة الشجرية ترتفع إلى مسافة كبيرة فوق رأسها، وإلى الشمال والغرب والشرق رأت فيما وراء الأشجار بريقًا أزرق متلألئًا. لطالما فتنها ضوء المحيط، ومع أنها لا تستطيع أن تتبين الساحل الجنوبي، فإن حدسها يشعرها أن المحيط يصل إلى هناك صانعًا حزامًا كبيرًا يطوق الأرض كلها، فقد عرفت أنها تعيش فوق جزيرة شاسعة، لكن المحيط شيء آخر لا علاقة لها به، أبعد من أن يشغل تفكيرها.

نشأ هذا الجيب الكثيف من الغابة قد شُق من أخدود عميق في طبقة الصخور، تحميه جدران من صخور صلبة، وتغذيه جداول تجري على امتداد قاع الأخدود. كان هذا مكانًا مزدحمًا نابضًا بالحياة، على الرغم من وجود بقع عارية هنا وهناك صنعتها أشجار البارومتز، وهي شكل جديد من أشكال الحياة.

لكن الأخدود نفسه لم يكن طبيعيًّا، فقد حفره البشر منذ زمن بعيد في طبقة الصخور في عمليات بناء الطرق، وقد فعلت عوامل التعرية فعلها في هذا الأخدود، فعندما توقفت صيانة قنوات الصرف والمجاري انهارت جوانب الطرق، ومع ذلك لا يزال بإمكان جيولوجي صبور أن يلاحظ طبقة رقيقة داكنة في الصخور الرملية التي تجمعت ببطء في قاع الأخدود، وهذه الطبقة الداكنة من القار، وهي طبقة لا تزال متناثرة هنا وهناك مع شظايا السيارات التي مرت ذات يوم في هذا الطريق.

حتى في ذلك الزمن ترك مرور البشر بصماته.

مر ظل على أوراق الشجر التي تحف من حولها، سريع الحركة، صامت، رسمته أشعة الشمس المنخفضة. فخفضت رأسها بسرعة وسعت إلى أمان الغطاء الأخضر. كان ذلك بطبيعة الحال طائرًا، فالجوارح التي تتحرك في المظلة العليا قد بدأت يومها، ولا يجدر بها إهمال التخفي.

نظرت نظرة أخيرة إلى ما تبقى من العش الذي تناثرت فيه بقايا البراز والشعر المبلل بالبول، وبدأت تهبط إلى أسفل.

مع إشراقة شمس ذلك اليوم الاستوائي، كان البشر قد انتشروا خلال الأشجار برشاقة ومرونة، وبدءوا يومًا جديدًا من البحث الذي لا ينتهي عن الفواكه والحشرات التي تحفر في لحاء لأشجار، والماء المتجمع في الأوراق.

كان الكسل يغلب على رميمبرانس، لذا تخلفت عن الآخرين وأخذت تراقب.

كان هناك ذكور وإناث على السواء، وبعض النساء يحملن الرضع المتشبثين بهن. واستعرض الذكور كثيرًا عن طريق الصياح والقفز العدواني جيئة وذهابًا. وهذا شيء لم يتغير على مدى السنوات الطوال، فبنية مجتمع الرئيسيات ظلت كما هي: هرم علوي من الذكور، على رأس جماعات من الإناث الصابرات.

في تلك الطبقات الوسطى من مظلة الأشجار، تندفع الأشجار الأكثر طولًا إلى أعلى متجاوزة قمم الأشجار القصيرة، وفي هذا المكان المتوسط الارتفاع كان البشر آمنون نسبيًّا من المخاطر التي تأتي من أعلى ومن أسفل، وهنا وسط جذوع الأشجار الطويلة بنوا مستعمرتهم.

وهي كرة يبلغ قطرها عشرة أمتار، وجدارها السميك مصنوع من الأغصان وأوراق الشجر الجافة المترابطة معًا بطريقة بدائية. فالأوراق يجري تليينها بمضغها قبل وضعها في فتحات الهيكل، وتوضع الكرة كلها في زوايا الأغصان القوية. ويسكن البشر هذه الكرة، فهناك تيار من البول والفضلات يسيل على جذع الشجرة الكبيرة، وهو الصرف الذي يخرج من الفتحات في قاعدة المستعمرة.

وهذه الكرة المبنية من اللعاب والأغصان هي أقصى ما استطاع البشر الجدد التوصل إليه في البناء، لكنها ثمرة الغريزة لا العقل، وخالية من أي تخطيط كعش طائر، أو بيت من بيوت النمل الأبيض.

رأت رميمبرانس وجوهًا صغيرة تطل بخوف من خلال ثغرات في جدار المستعمرة البدائية، وتذكرت الوقت الذي قضته مع طفلها داخل هذه الجدران الرطبة الكريهة الرائحة. الغرض الأساسي للمستعمرة هو توفير مأوى للضعفاء ضد الجوارح المفترسة في الغابة، ففي المساء يتزاحم فيها الصغار غير البالغين والشيوخ والمرضى، ولكن خلال النهار لا يسمح إلا لأصغر الأطفال وأمهاتهم بالبقاء في المأوى، في حين يغامر الباقون في الأماكن المفتوحة بحثًا عن طعام.

وعندما تسللت أشعة الشمس من خلال مظلة الأشجار تألقت جدران المستعمرة، فبين الأغصان والأوراق وُضِعت حجارة لامعة جمعوها من أرض الغابة، بل هناك أيضًا قطع من الزجاج. يتغير الزجاج بمرور ملايين السنين، فيفقد شفافيته عندما تتكون داخله بلورات بالغة الصغر، لكن هذه الشظايا الزجاجية قد احتفظت بأشكالها؛ قطع من الزجاج الأمامي لسيارات أو من المصابيح الخلفية أو الزجاجات، استعادتها جماعة البشر الآن، وجُمعت لتزين جدران هذا البناء البشع.

بدت شظايا الزجاج وكأنها وضعت للزينة، لكن الواقع غير ذلك، فالزجاج والحجارة يستخدمان للدفاع، فحتى الآن ما زالت الضواري تخشى المباني، وتخاف من الزجاج والحجارة، تدفعها إلى هذا الخوف غرائز دفينة تكونت في عصر أخطر قتلة عاشوا على وجه الأرض. لذلك قلد قوم رميمبرانس مباني أسلافهم، وهم عاجزون حتى عن تخيل ما يقلدون.

فيما مضى كانت الأشجار تقع بالكامل تحت سيطرة الرئيسيات، حيث كانت تتجول بدون أدنى خوف من الافتراس، لكن القرود والشيمبانزي لم تكن تحتاج إلى حصون من أوراق الشجر والأغصان. لقد تغيرت الأزمنة.

وعندما تلكأت رميمبرانس سمعت ذكرًا شابًّا يصدر فحيحًا نحوها، كانت له رقعة بيضاء غريبة من الفراء على ظهره جعلته أشبه بالأرانب، وعرفت رميمبرانس ما يفكر فيه: إنه يظن أنها تحاول الاستيلاء على قطعة

اللحاء التي يعمل فيها مع أمه وإخوته. لم تعد عقول البشر كعقول أسلافهم، لكن رميمبرانس لا تزال قادرة على معرفة ظنون الآخرين ونواياهم.

لكن عائلة ذوي الرقعة البيضاء ضعاف اليوم، فمنذ آخر لقاء لها بهم رحل ابنهم الأكبر، ربما ذهب إلى مستعمرة أخرى معلقة في مكان ما في أعماق الغابة الخضراء، وربما مات. وظهرت على أفراد الأسرة أنفسهم آثار معاناتهم لفقد فرد منهم، وكان ذلك واضحًا في تلفتهم في خوف دون سبب واضح، وفي تركهم مكانًا خاليًا بينهم لكبيرهم الذي لن يعود أبدًا. لكن جراحهم سرعان ما ستندمل، وسوف يضيع الشقيق في سُحب الماضي، كما ضاع كل أبناء البشر منذ حفر آخر قبر.

لن تعرف رميمبرانس نفسها ما حدث للابن الآخر، فليس هذا عصر المعلومات، ولم يعد أحد يحدث أحدًا عن أي شيء، فكل ما كانت تعرفه على وجه اليقين هو ما شاهدته بنفسها.

غير أن ما حدث كان فرصة لرميمبرانس، فربما تستطيع قتال هذه المجموعة التي أصابها الضعف من أجل الحصول على مكان على شجرتهم، لكن نومها المضطرب ترك لديها شعورًا بالهشاشة والتوتر، وهو شعور يلازمها منذ وفاة طفلها. مر أكثر من عام على وفاة الطفل، لكن ألمها لفقده لا يزال عميقًا مسيطرًا على عقلها كأنما فقدته بالأمس. كانت رميمبرانس — كبقية أفراد نوعها — مخلوقة لا تعتمد على التخطيط الهادف، إنما على الرغبة. واليوم لم تكن ترغب في محاربة تلك المجموعة من أجل مكان على غصن مزدحم، ولا في تقشير اللحاء بحثًا عن اليرقات.

ابتعدت وشقت طريقها بين أغصان الشجر المتشابكة.

وبدأت تشعر بالتحسن وهي تقفز من غصن إلى آخر، وسرعان ما تلاشى تيبس عضلاتها، وصارت مستيقظة تمامًا، حتى إنها نسيت لفترة قصيرة فقدان طفلها. كانت لا تزال شابة، فأفراد نوعها يعمرون عادة إلى ما بعد الخامسة والعشرين أو الثلاثين. مر زمن طويل منذ خروج أسلافها زاحفين من شبكة المجاري إلى الخضرة وضوء النهار المبهر، وقد تكيف جسد رميمبرانس جيدًا على أسلوب حياتها، وإن لم يتكيف عقلها تمامًا بعد.

وهكذا أحست وهي تنطلق بسرعة البرق خلال الأشجار بنوع من البهجة، ولِمَ لا؟ لقد فقدت الكثير، لكن هذا لا يهمها الآن، فلا بد أن تستمتع بهذه اللحظات القصيرة في ضوء الشمس. وبينما هي محلقة وسط الغسق الكثيف الذي يخيم على الغابة، انفرجت شفتاها بعيدًا عن أسنانها، وضحكت بصوت عال، وهو انعكاس لاإرادي لم يفقده بنو الإنسان على الرغم من مرور ثلاثين مليون عام.

كانت غابة رميمبرانس الاستوائية جزءًا من حزام هائل يلتف حول وسط الكوكب، حزام لا تعترضه إلا المحيطات والجبال. كانت الغابات ثرية ومورقة على الرغم من آلاف السنين التي استغرقتها لكي تعود إلى ما كانت عليه من خصوبة بعد توقف الإنسان عن القطع الشرس للأشجار.

أما العالم الجديد فقد ابتلعته الغابات تاركة مساحة بسيطة لأحفاد البشر، ولذلك ترك أسلاف رميمبرانس سطح الأرض وعادوا مرة أخرى إلى رحم مظلة الأشجار، وقد سبقهم إليها أنواع أخرى من الرئيسيات؛ القردة التي نجا أسلافها من البشر الجائعين في أيامهم الأخيرة، وأفلتت من الانقراض العظيم. في البداية كان البشر الجدد أقل خبرة بالغابة من القردة، لكنهم أكثر ذكاء، وسرعان ما أنهوا عملية الإبادة التي بدأها أسلافهم.

وبعد ذلك بدءوا يتكاثرون، لكن الضغوط التي طردتهم من فوق الأرض ظلت تلاحقهم.

لم تكن رميمبرانس تدري شيئًا من كل ذلك، لكنها تحمل في داخلها ذاكرة جزيئية؛ خطًّا متصلًا من الجينات الوراثية التي تمتد إلى قوم رحلوا بعد أن نحتوا طريقًا في الصخر، بل أبعد من ذلك، إلى أزمنة عاشت فيها مخلوقات شبيهة برميمبرانس في أشجار لا تختلف عن هذه الشجرة.

توقفت عند فرع محمل بفاكهة حمراء كبيرة، وجلست القرفصاء على فرع آخر، وبدأت تأكل سريعًا، تقشر الفاكهة ثم تدتص محتوياتها اللينة، تاركة القشور تسقط في الظلام أسفلها، لكنها ألصقت ظهرها بجذع الشجرة وهي تأكل، وهي توجه نظرات خائفة نحو الظلال، وكانت حركاتها سريعة.

على الرغم من يقظتها أفزعتها قشرة أصابت مؤخرة الرأس.

فانكمشت واتصقت بجذع الشجرة، ونظرت إلى أعلى، فرأت أن الفروع تتدلى منها فاكهة ضخمة، لكن تلك الفاكهة نبتت لها أذرع وسيقان ورءوس وعيون متلألئة، وأيد ماهرة تقذفها بقشور وقطع من اللحاء والأغصان. يبدو أنهم كمنوا في انتظار اقترابها، ثم تجمعوا في صمت حول مكانها، بل لقد ألقوا عليها كتلًا من الفضلات الدافئة.

ثم بدأت الثرثرة، ثرثرة غير مفهومة تملأ رأسها وتربكها، وهذا هو الهدف منها. فتكورت على نفسها في زاوية الفرع واضعة يديها على أذنيها.

المثرثرون أبناء عمومة لفصيلة رميمبرانس، فأسلافهم من البشر أيضًا، لكنهم يعيشون حياة مختلفه،فهم جميعًا صيادون متعاونون، بدءًا من الصغار الذين لم يتجاوزوا سن الفطام فصاعدًا، وهم يعملون بانضباط غريزي لإسقاط أي فريسة، أو الاشتباك مع أي من الضواري، واستراتيجيتهم ناجحة، فقد رأت رميمبرانس أكثر من واحد من أفراد نوعها يسقط في مواجهة جيش قمم الشجر.

على الرغم من اختلاف أساليب معيشة هذين النوعين من البشر، كان التزاوج بينهما ممكنًا منذ بضعة ملايين من السنين، وإن جاءت ذريتهما مصابة بالعقم، لكن هذا أصبح مستحيلًا الآن. كانت هذه حالة من حالات كثيرة لتشعب الأنواع. ولم تكن رميمبرانس في نظر المثرثرين واحدة من عشيرتهم، ولم تمثل لهم أكثر من تهديدٍ محتملٍ، أو ربما وجبة طعام.

كانت محاصرة، وبدا أن هناك واحدًا من المثرثرين على كل فرع، ولا تستطيع أن تفر منهم لتلجأ إلى شجرة أخرى. ليس أمامها إلا طريق واحد للابتعاد عن هذا الجذع، وهو الهبوط إلى الأرض.

لم تتردد، وأخذت تهبط إلى أسفل الجذع تاركة نفسها تسقط مسافات طويلة، واثقة في قدرتها على التعلق بالأغصان لإبطاء سرعة هبوطها، وهربت نحو ظلام أرض الغابة.

في البداية تتبعها المثرثرون، وأمطروها بوابل من قشور الفاكهة والفضلات، وسمعتهم ينتشرون في الشجرة التي طردوها منها، وهم يثرثرون ويصرخون في سعادة بانتصارهم التافه.

في النهاية تخلت رميمبرانس عن جذع الشجرة، وكانت تنوي أن تتجه إلى جذع شجرة أخرى كبيرة يبعد عنها بضع مئات من الأمتار، وهي مسافة تكفي لتعود في أمان من المثرثرين إلى مظلة الأشجار.

خطت إلى الأمام واتسعت عيناها في حذر وهي تمشي منتصبة القامة.

كانت رميمبرانس ذات ساقين طويلتين وخصر ضيق، وهي صفات ورثتها عن قردة السافانا التي كانت تمشي على قدمين. كانت قامتها أكثر انتصابًا من أي قرد من عائلة الشمبانزي، وأكثر انتصابًا من قوم «كابو» Capo، ولكن حتى مع انتصاب قامتها، ظلت ساقاها مقوستين قليلًا، وعنقها منحن إلى الأمام. كانت كتفاها ضيقتين، وذراعاها طويلتين وقويتين، وقدماها كبيرتين يواجه إبهاميهما بقية الأصابع، وكل هذا يساعدها في التسلق والتشبث والقفز، فالحياة على الأشجار قد أعادت تشكيل أفراد نوعها، وعاد الانتخاب الطبيعي إلى معظم التصاميم القديمة التي ظلت قوالبها كما هي مع كثرة ما دخل عليها من تعديلات.

لم تشعر رميمبرانس بالراحة على الأرض، وعندما نظرت إلى أعلى، رأت طبقات من أوراق الشجر التي تتنافس على امتصاص الطاقة الشمسية، حاجبة كل شيء ما عدا القليل من الضوء. وأحست أنها تنظر إلى عالم آخر؛ إلى مدينة ثلاثية الأبعاد.

وعلى النقيض، كانت أرض الغابة مظلمة ورطبة، وتناثرت الشجيرات والأعشاب والفطريات وسط هذا الظلام الذي لا ينتهي. ومع أن سقوط الأوراق والحطام لا يتوقف من المظلة الخضراء في الأعلى، فلم تكن تترك طبقة سميكة على سطح الأرض، وهذه مهمة النمل الأسود والنمل الأبيض الذي تقف بيوته كأنها أعمدة بالية على سطح الأرض.

وصلت رميمبرانس إلى فطر هائل من فطريات عيش الغراب، فتوقفت وبدأت تحشو فمها بلحمه الأبيض اللذيذ، فلم تكن أكلت شيئًا يذكر في ذلك اليوم، بالإضافة إلى أنها بذلت جهدًا كبيرًا في هروبها من المثرثرين.

تحرك شيء في الظلال وراء صف من الشجيرات النحيلة، أشكال ضخمة تنخر تعبث بأنوفها في التراب. توارت رميمبرانس خلف عيش الغراب.

خرجت المخلوقات من الظلال، ورسم الضوء الخافت حدود أجسادها. كانت أجسادها ضخمة مشعرة، ورءوسها ضخمة، ولها خراطيم قصيرة تخمش بها في الأرض، وتلتقط بها أوراق الشجر والفاكهة من الفروع المنخفضة للأشجار. وكان طولها مترين، وتشبه فيلة الغابات، وإن كانت بلا أنياب.

كانت آذانها الصغيرة وأذيالها الملتوية تشي بأسلافها، فهذه خنازير تنحدر من إحدى السلالات القليلة التي روضها البشر، ونجت من الدمار العظيم، وتحورت إلى هذا الشكل الناجح. والواقع أن آخر الأفيال الحقيقية قد انقرضت مع البشر.

رأت رميمبرانس مزيدًا من المخلوقات المشعرة، وكانت تشبه الأفيال أيضًا، ولها نفس حجم وشكل الخنازير، وفي حين كانت الخنازير ذات خراطيم وبلا أنياب، لم يكن لهذه الحيوانات خراطيم، لكنها كانت تحمل قرونًا ضخمة تلتف أمامها وتحقق لها ما حققته القرون للفيلة ذات يوم؛ تزيل العوائق من طريقها، وتنتزع بها الجذور والدرنات من الأرض. كانت هذه الحيوانات أكثر توترًا وعدوانية من الخنازير، وهي تنحدر من حيوان آخر من حيوانات المزرعة: الماعز.

وكلا النوعين من الحيوانات — الخنازير-الأفيال والمعز-الأفيال — يرعيان في الأراضي الضحلة، ويسمح اختلافهما باشتراكهما في هذا الحيز، ويتجاهل كل منهما وجود الآخر. انكمشت رميمبرانس في انتظار فرصة للهرب من هذه السلالات التي تطورت كثيرًا من حيوانات المزرعة.

ثم أحست بأنفاس على رقبتها، وأحست بأثر خفيف جدًّا من الدفء، وشمت رائحة لحم فاسد.

وعلى الفور اندفعت إلى الأمام، متجاهلة الخنازير-الأفيال والمعز-الأفيال، وأخذت تجري حتى وصلت إلى جذع شجرة، فتسلقته إلى أعلى وهي تتشبث بالشقوق الموجودة في اللحاء. لم تتردد لحظة، ولا حتى لتنظر إلى الوراء لترى ذلك الشيء الذي كاد ينقض عليها.

لكنها رأت لمحات خاطفة. كان مخلوقًا في حجم الفهد، أحمر العينين، طويل الأطراف، ذا براثن، وقواطع قوية.

عرفت ما هو؛ كان جرذا. وعندما تشتم رائحة الجرذان، فعليك بالهرب.

لكن الجرذ تبعها.

ومن أجل مطاردة الفرائس القادرة على التسلق، تعلم الجرذ-الفهد التسلق أيضًا، فله مخالب، وأصابع متقابلة للتعلق بالأغصان، ورجلان أماميتان تمكنانه من التأرجح من فرع إلى آخر على مسافة بعيدة، بل له ذيل قادر على التعلق بالأغصان. لكن براعته في التسلق لم تصل بعد إلى براعة الرئيسيات مثل رميمبرانس. لكنه لا يحتاج لأن يكون كأفضل الرئيسيات، فكل ما يحتاجه هو أن يكون أفضل من أسوئها من الضعفاء والمرضى وعاثري الحظ.

هكذا واصلت رميمبرانس التسلق، وصعدت إلى الضوء الأخضر الشاحب في المظلة العليا، أسرع فأسرع، وتجاهلت تفجر الألم في رئتيها، والوجع في ذراعيها، وسرعان ما غمرها الضوء، وقد قاربت على الوصول إلى أبعد مدى في غطاء الأشجار، لكنها واصلت التسلق، إذ لم يكن لديها خيار آخر.

حتى وصلت إلى نور النهار.

وكادت تتعثر عندما اندفعت فجأة خارج المظلة الخضراء، وتعلقت بغصن رفيع أخذ يتأرجح تحت ثقلها بطريقة مخيفة، وكان مكسوًّا بالأوراق الخضراء التي تتشرب ضوء الشمس.

كانت متعلقة بأعلى غصن في الشجرة العملاقة، ورأت مظلة الأشجار بساطًا أخضر يمتد حتى المحيط، لكنها استطاعت أن ترى الجوانب الصخرية للأخدود الذي يحيط بالجزء الذي تعيش فيه من الغابة؛ الطريق القديم الذي أنشأه أسلافها. لم تعرف أين تذهب، وأخذت تلهث وقد أصابها الإنهاك، وارتعشت عضلاتها التي استنفدت طاقتها، ولم يعد بوسعها إلا التشبث بهذا الغصن الرفيع. كانت أشعة الشمس المسلطة عليها شديدة الحرارة، ولم تكن رميمبرانس مؤهلة للعيش في المناطق الكشوفة، على عكس أسلافها، فقد اختفت في أفراد نوعها القدرة على إفراز العرق.

إلا أن الجرذ لم يتبعها، وظنت أنها لمحت عينيه الحمراوين تلمعان قبل أن يهبط راجعًا إلى ظلام الغابة.

للحظة قصيرة شعرت بالاغتباط، فألقت برأسها إلى الخلف، وصاحت من الفرح.

ولعل هذا ما فضح مكانها.

شعرت أول الأمر بتيار من الهواء، ثم سمعت حفيف ريش يكاد يكون معدنيًّا، وانقض عليها ظل من السماء.

انغرزت مخالبُ في لحم كتفيها، وأحست على الفور بألم حاد ازدادت شدته عندما رفعتها هذه المخالب لأعلى وثقلها كله معلق على قطع من لحمها. كانت تطير، ورأت الأرض تتحرك أسفل منها، ولمحت قطعًا من الغابات والمراعي، ومساحات خضراء تكسوها الحشائش، وبساتين من أشجار البارومتز بنية اللون، وكلها تنمو فوق أرض بركانية متآكلة. ورأت الحزام البحري المتلألئ وراء كل ذلك.

في عالم رميمبرانس جوارح شرسة فوقها وتحتها، كأنها أفواه حمراء تحيط بها في انتظار أقل خطأ منها. وفرارها من خطر واحد ألقى بها مباشرة بين براثن خطر ثان.

كان الطائر هجينًا بين البومة والنسر، ذا منقار أصفر شرس، وعينين بارزتين مستديرتين تكيفتا مع ظلمة الغابات. لكن هذا الطائر لم يكن بومة ولا نسرًا، فهذا القاتل الشرس ينحدر في الواقع من سلالة العصافير، وهو أحد الناجين من الكارثة التي حاقت بالإنسانية.

إنها تعلم ما سيحدث إذا نجح الطائر في اختطافها إلى عشه.

بدأت تصرخ وتكافح، وتضرب بقبضتيها ساقي الطائر وبطنه، وتمزق لحم كتفيها وهي تكافح وتدفق الدم على فرائها، لكنها تجاهلت شدة الألم.

نعق الطائر غاضبًا وخفق بجناحيه اللذين يشبهان خيمتين هائلتين تضربان رأسها وظهرها، وشمت رائحة الدماء الصدئة على منقاره. لكنها كانت قطعة كبيرة من اللحم، حتى لذلك الطائر العملاق، وأثناء عراكهما مالا إلى الأمام ناحية الأرض وهما معلقان في الهواء؛ الإنسان والطائر مشتبكان في قتالهما الأخرق. وأخيرًا نجحت في غرز أسنانها في اللحم اللين الذي يلي مخلب الطائر، فصرخ الطائر وتشنج وفتح مخالبه.

وأخذت تسقط في صمت مفاجئ، والصوت الوحيد هو صوت لهاثها وحفيف الهواء، وما زالت ترى الطائر ظلًّا يحوم فوقها ويبتعد بسرعة. مدت يديها محاولة الإمساك بالأغصان أو الصخور، لكن لم يكن هناك شيء تتشبث به.

الغريب في الأمر أنها لم تشعر بالخوف وهي تواجه أسوأ كوابيسها، كابوس السقوط، بل كانت مسترخية تنتظر!

اصطدمت بشجرة، وآلمت الأغصان وأوراق الشجر جلدها وهي تسقط من خلالها، لكن الأوراق خففت سرعة سقوطها، حتى وقعت في النهاية على الأرض المكسوة بالأعشاب، وقد تمزق جسدها وامتلأ بالرضوض، وتقطعت أنفاسها. وللحظات لم تستطع حراكًا.

ولو تعرض إنسان لهذه الصدمة لكان وقعها أشد بكثير. من المسئول عن هذه السلسلة من النكبات؟ الجرذ، أم الطير الجارح، أم سحر من عدو ناقم، أم إله حاقد؟ لماذا حدث ذلك؟ ولماذا حدث لي؟ لكن رميمبرانس لم تجل في ذهنها هذه الأسئلة، فالحياة لرميمبرانس ليست شيئًا يمكن السيطرة عليه؛ فالحياة عشوائية لا تسير على وتيرة ثابتة، ولا هدف لها.

هذا ما صارت إليه أحوال البشر الآن؛ لا أحد يعيش طويلًا، ولا يملك أحد تغيير العالم من حوله، ولا يكاد أحد يفهم ما يتعرض له من أحداث. كل ما يشغل بالك هو الآن؛ أن تتنفس نفسًا آخر، تجد وجبة أخرى، تفر من القاتل العبثي القادم.

عندما استردت رميمبرانس أنفاسها من جديد، زحفت على أطرافها الأربع، وفرت هاربة في ظلال تلك الشجرة التي خففت سقطتها.

٢

كان من الممكن أن يُطلق على عصر رميمبرانس «عصر الأطلنطي».

منذ سقوط الإنسان استمرت الحركة العشوائية للقارات. والمحيط العظيم الذي نشأ كصدع في بانجيا منذ أكثر من مائتي مليون سنة أخذ في الاتساع. كانت الأمريكتان قد جنحتا ناحية الغرب، وانفصلت أمريكا الجنوبية عن الشمالية، واستأنفت حياتها كقارة تتكون من جزيرة واحدة.

في الوقت نفسه جنحت مجموعة القارات المحيطة بآسيا نحو الشرق، مما أدى إلى انغلاق المحيط الهادي ببطء، وامتداد ألاسكا حتى آسيا، وإعادة بناء جسر مضيق بيرينج الذي بُني ودُمر عدة مرات نتيجة لعصور جليدية.

كانت هناك اصطدامات هائلة طال أمدها، وتحركت أستراليا شمالًا حتى اصطدمت بجنوب آسيا، واصطدمت أفريقيا بجنوب أوروبا، كما لو أن القارات قد تزاحمت في النصف الشمالي من الكرة الأرضية تاركة الجنوب خاليًا إلا من القارة القطبية الجنوبية التي تحاصرها الثلوج. إلا أن أفريقيا نفسها قد تجزأت، وأصبح الجرح القديم من الوادي المتصدع أكثر عمقًا.

وحيث التقت القارات تكونت سلاسل جبلية جديدة، وحيث كان البحر الأبيض المتوسط تكونت سلسلة جبال هائلة تصل شرقًا إلى جبال الهيمالايا. وكان ذلك هو الانقراض النهائي لبحر تيثيس Tethys القديم. لم يبق أثر لروما القديمة، وانسحقت عظام الأباطرة والفلاسفة على السواء وذابت وتسربت إلى داخل الأرض نفسها. ولكن في حين تكونت جبال جديدة، تبخر البعض الآخر مثل الندى، فلم يتبق من جبال الهيمالايا إلا هضاب منخفضة، وهكذا فُتحت طرقٌ جديدة للهجرة بين الهند وآسيا.

وكل ما قامت به البشرية في تاريخها الدموي القصير، لم يكن له تأثير يذكر على هذا التغير الجغرافي.

في غضون ذلك، فإن الأرض التي تركت لوسائلها الخاصة قد استعانت بمجموعة متنوعة من آليات الشفاء الفيزيائية والكيميائية والبيولوجية والجيولوجية للتعافي من الآثار المدمرة للتدخلات البشرية، فعملت أشعة الشمس على تحليل ملوثات الهواء وتشتيتها، وامتصت خامات المستنقعات الكثير من النفايات المعدنية، واستوطنت النباتات المناطق المهجورة من جديد، وجذورها تخترق الخرسانة والأسفلت، وتكسو الخنادق والقنوات، وتسببت التعرية — بفعل الرياح والمياه — في القضاء نهائيًّا على آخر الأبنية، وحولتها إلى رمال.

وأثناء ذلك نشطت عمليات التغيير والانتخاب التي لا تتوقف لملء عالم أصبح فارغًا.

ارتفعت الشمس إلى كبد السماء. وعلى الرغم من كل الأحداث التي مرت بها رميمبرانس، لم يكن الظهر قد حان بعد.

سقطت رميمبرانس في سهل معشوشب، ورأت على البعد تلالًا بركانية أرجوانية اللون، وقلة قليلة من الأشجار والشجيرات، ومجموعة من شجر البارومتز، وهو نوع جديد من الأشجار. وهنا في ظل تلك التلال الأرجوانية، كانت الأمطار متقطعة وغير منتظمة، والتربة تتسم عادة بالجفاف، ولا تستطيع الأشجار النمو في هذه الظروف، وظلت السيطرة للأعشاب كاملة تقريبًا. وظهرت مجموعات من الخضروات أيضًا، وأصبحت أشجار البارومتز منافسًا جديدًا للأعشاب.

كانت الشجرة التي أنقذتها أثناء سقوطها عارية من الفاكهة، وجافة، ومتشبثة بالحياة في التربة الجافة لتلك الأرض العشبية. لم يكن هنا شيء يؤكل، لا شيء سوى العقارب والخنافس التي تخرج من تحت الصخور، أما البق فقد ألقت به في فمها.

تبينت حزامًا من الغابة بالقرب من التلال الأرجوانية البعيدة يومض وسط الدخان الذي تسببه تلك الحرارة، وأدركت دون سبب واضح أنها لو وصلت إلى هناك فستكون أكثر أمانًا، وقد تجد بعض الطعام، أو بعض أفراد نوعها.

لكن الغابة بعيدة. كان بوسع جدات رميمبرانس الأوليات أن تقطعن بسهولة هذه المنطقة المكشوفة من السافانا، لكن رميمبرانس لا تستطيع ذلك، فهي لا تجيد المشي، ومثل كابو — وهو قرد من زمن آخر يشبه الشمبانزي — كانت فصيلتها تتسم بطول شعورها، وعجزها عن إفراز العرق.

لذا جلست في ذلك المكان، عاجزة عن الوصول لأي خطط، في انتظار حدوث شيء ما.

فجأة انقضّ رأس صغير من السماء، فأجفلت رميمبرانس وتراجعت ناحية جذع الشجرة. رأت عينين سوداوين متسعتين في ذهول في وجه نحيل مغطى بالفراء، وأذنين طويلتين تتجهان إلى الخلف حتى تصلان إلى عنق أنيق. كان رأس أرنب، لكنه كبير كرأس الغزال.

من الواضح أن الأرنب-الغزال قرر أن هذه البشرية لا تمثل تهديدًا معينًا له، واستمر في قطع الحشائش التي تنمو في ظل الشجرة.

زحفت رميمبرانس بحذر إلى الأمام.

واكتشفت عندئذ أن الزائر فرد في قطيع منتشر في السهول والمراعي يتغذى على الحشائش. وتميز أفراد القطيع بارتفاع القامة، حتى إن طول بعضهم بلغ ضعف طولها، وكانوا في رشاقتهم وأجسادهم النحيلة يشبهون الغزلان، لكنهم في الواقع ينحدرون من سلالة الأرانب، كما يتضح من آذانهم الطويلة وأذيالهم البيضاء الصغيرة.

كانت سيقان تلك الحيوانات كسيقان الغزلان، وقائمتاها الأماميتان طويلتان، ويمكن ببعض الجهد تثبيتها في مكانها لتحمل ثقل هذا الحيوان، لكن لهذه الحيوانات في منتصف القائمتين الخلفيتين مفاصل تنثني إلى الخلف هي في الواقع رسغ القدم، ويشبه الجزء الأسفل من الساق قدمًا ممتدة تتزن على إصبعين يشبهان الحوافر، أما الركبة فتقع لأعلى قرب الجذع، ويغطيها الفراء. والأرانب-الغزلان على استعداد دائم للعدو لأن أرجلها الخلفية تتخذ دائمًا وضعية استعداد العدائين، فالعدو أهم عمل في حياتها. ظل القطيع متماسكًا أثناء الرعي، والصغار بقرب الكبار، وكان هناك دائمًا فرد واحد على الأقل من القطيع يبحث في الحشائش.

وسرعان ما اتضح السبب وراء كل هذا، فقد أجفل واحد من الغزلان الكبيرة وتشنج، ثم لاذ بالفرار. وتبعه بقية أفراد القطيع في الحال بسرعة خاطفة مثيرين زوبعة من الغبار.

فمن وسط الصخور اندفع شبح أسود نحيل؛ جرذ آخر مهيأ للجري مثل الفهد المرقط. واختفى الجرذ-الفهد في سحابة من الغبار منطلقًا وراء قطيع الأرانب.

خيم السكون من جديد، ولفترة لم يتحرك شيء فوق السهل المغطى بالحشائش، لا شيء سوى حركة الهواء. انحدرت الشمس نحو المغيب، لكن درجة الحرارة لم تنخفض، وأخذت رميمبرانس تلهث من العطش.

تسللت من مكانها ووجهها البشري ذي الأنف المستقيم والفم الدقيق والذقن الصغير تبدو تجاعيده واضحة في ضوء ما بعد الظهيرة، ونهضت

وفردت قامتها وأخذت تتشمم. سمعت صوت اصطكاك أنياب يبدو آتيًا من جهة الشرق، بعيدًا عن الشمس، وشمت رائحة الماء.

أخذت تجري في ذلك الاتجاه، تتحرك سريعًا من رقعة ظل إلى الأخرى، وتزحف بين الحين والآخر على أربع. كانت سليلة البشر هذه تجري مثل الشمبانزي.

أخيرًا وصلت إلى قمة تل من الصخور الرملية، متآكل ومنخفض الارتفاع، وجدت نفسها في مواجهة بحيرة واسعة تغذيها روافد تنحدر من تلال بعيدة، لكنها رأت أن البحيرة تختنق بنباتات البامبو، ويحاصرها الطين من جميع الجهات، ووجدت شجرة سنط لتستظل تحتها، ثم أخذت تنظر حولها بحثًا عن وسيلة تصل بها إلى الماء.

هنا، كما هو الحال دائمًا، تجمعت آكلات العشب للشرب.

رأت مزيدًا من الأرانب، وكائنات جفولة تشبه الغزلان من النوع الذي رأته من قبل، لكن كانت هناك أيضًا كائنات قوية ضخمة الأجساد تشبه الثور الأمريكي، وحول أقدامها تجري وتقفز كائنات صغيرة. تفرقت الأرانب وتكيفت بسرعة بعد انقراض الإنسان نظرًا لانتشارها وسرعة تكاثرها. ولكن لم تتخل جميع الأنواع الجديدة عن الطرق القديمة، فلا يزال هناك بعض أكلة العشب الصغار، وخاصة في الغابات، حيث تقفز الحيوانات الصغيرة وتركل مثلما فعل أجدادها.

وفي تلك الأثناء أخذت الخنازير الوحشية تنخر وتشمشم في الشاطئ الطيني المحيط بالبحيرة، ويبدو أنها لم تتغير تقريبًا مع مرور هذا الوقت، فالطبيعة محافظة ما لم تدع الحاجة للتكيف. ورأت رميمبرانس كائنات ضخمة بطيئة الحركة، تخطو بهدوء خلال المياه الضحلة، وتربطها علاقة نسب بالمعز التي قابلتها في الغابة، لكن هذه كائنات عملاقة، سيقانها كجذوع الأشجار، وقرونها ملتوية كأنياب الماموث، وليست لها خراطيم، فلم تظهر هذه الحيلة التشريحية لدى أي من هذه الحيوانات المجترة، لكن لها أعناقًا طويلة كالزراف تسمح لها بالوصول إلى الأوراق الغضة التي تنمو على أغصان الأشجار المنخفضة، وإلى مياه البحيرة.

وقف قطيع آخر من الحيوانات المنحدرة من الماعز في البحيرة والماء يصل إلى ركبتيها. كانت لها أغشية بين أصابع أقدامها تحول دون غوصها في الطمي والرمال الناعمة، ولكل منها قناع عريض يشبه المنقار أمام وجهه، وتستخدم هذه المناقير المصنوعة من القرون في التغذي على الأعشاب اللينة التي تنمو على حواف البحيرات. كانت هذه الماعز تبدو وهي تمتص في هدوء النباتات الخضراء النامية على شاطئ البحيرة أقرب ما تكون إلى الهدروصور، وهو الديناصور ذو المنقار الشبيه بمنقار البط الذي انقرض منذ زمن طويل.

ومثلما كانت الهدروصورات أكثر مجموعات الديناصورات تنوعًا قبل سقوط المذنب، فإعادة اكتشاف هذه الاستراتيجية القديمة تفتح المجال لتنوع جديد، فهناك بالفعل أنواع كثيرة من المعز ذات المناقير التي تشبه مناقير البط، تميز بينها فروق طفيفة في تصميم القرون وأحجامها، وميولها الغذائية، وتعيش هذه الأنواع في كثير من المجاري المائية في المناطق الاستوائية في العالم وغيرها.

في هذه الأثناء حول هذا المشهد الذي يضم آكلات عشب مسالمة نسبيًّا تطفئ عطشها، أخذت أعين الضواري تراقب هذه الحيوانات آكلات العشب.

لو نظرت إلى هذا المشهد دون تركيز لوجدت من المستحيل أن تتخيل أن الحيوانات التي محتها من وجه الأرض أفعال الإنسان قد عادت من جديد. لكن الأدوار المألوفة في هذه السافانا الأفريقية الجديدة يقوم بها ممثلون جدد ينحدرون من كائنات استطاعت النجاة من حادثة انقراض الجنس البشري، وهي الكائنات التي صمدت أمام كل محاولات البشر لإبادتها مثل: الهوام ولاسيما القادرة منها على العيش في بيئات متنوعة مثل العصافير والزرازير والأرانب والسناجب، والقوارض مثل الجرذان والفئران، ولذلك كانت هناك أرانب تحورت إلى غزلان، وجرذان صارت فهودًا. لم تتغير إلا الفوارق الطفيفة: الرجفة العصبية للأرانب، وسرعة الجرذان الشديدة في العدو التي حلت محل الرشاقة البطيئة للقطط.

فجأة ثارت موجة من الحركة، وسُمِع صوت اصطدام هائل كأنه صوت عظام تتحطم، فقد نشبت معركة بين اثنين من ذكور المعز-الأفيال الضخمة،

وتمايلت رءوسهما وتأرجحت فوق أعناق طويلة كأعناق الزراف، وتناطحت قرونهما الملفوفة أمام وجهيهما.

انكمشت رميمبرانس أكثر داخل ظل شجرة السنط عندما بدأت آكلات العشب تتقاتل من حولها بعد أن أثارت اضطرابها المعركة، ولم تكن آمنة تمامًا، فالشجرة كلها يمكن أن تتحطم وتؤكل وتُلتَهم في لحظات.

واستغلت الجوارح المتربصة فرصة هذا الاضطراب.

فانطلقت مجموعة منها من مكامنها. تميزت هذه الجوارح برشاقة أجسامها، ومكرها، وسيقانها الطويلة القوية، وأقدامها السميكة؛ كانت أقرب ما تكون إلى الجرذان. تحركت المجموعة معًا في قلب جماعة المعز-الأفيال حتى تتمكن من عزل ذكر ضخم عجوز منها عن باقي القطيع. وكانت نابه الضخمة المشرشرة تحمل آثار حياة أمضاها في العراك. أطلق ذلك الحيوان الهائل صرخة غضب وخوف وأخذ يجري، واكتفت الجرذان بمتابعته وهي تجري معًا.

كانت هذه الحيوانات المتحورة عن الجرذان أشبه بالكلاب، لكنها لم تكن كلابًا، فقواطعها المميزة للقوارض قد تحورت تحورًا طفيفًا من أسنان مصممة للتعامل مع البذور والحشرات إلى نصال ذات نهايات مدببة، وأضراسها الخلفية تشبه مقصات مهيأة جيدًا لتمزيق اللحوم. وتتحرك هذه الحيوانات في قطعان أكثر تماسكًا من قطعان الكلاب، لكنها استراتيجيتها الأساسية تشبه استراتيجية الكلاب، وهي مطاردة الماعز-الفيل حتى يصيبه الإنهاك.

وبعد قليل ابتعدت الفريسة والمطاردون عن نظرها.

عاد المعز-الأفيال مرة أخرى إلى الشرب والعراك، مع أن بعضًا منها أدارت رءوسها الضخمة ناحية المكان الذي كان يقف فيه العجوز متذكرة غيابه.

انتهزت رميمبرانس تلك الفرصة لتزحف إلى الأمام.

كانت المياه مليئة بالأوساخ، لكنها ملأت كفها، وأخذت تنقط الماء في فمها، بينما تغطت أصابعها وكفها بطبقة من الطمي الأخضر.

ومن داخل الماء كانت هناك عينان صفراوان تراقبانها. كان ذلك بالطبع تمساحًا، وقد نجت هذه الحيوانات من الكارثة التي حاقت بالبشر كما نجت من كوارث كثيرة من قبل، بواسطة الاعتماد على سلسلة الغذاء البنية البشعة للأراضي الميتة، والحفر في الطين أثناء الجفاف. وحتى الآن عجزت الخنازير والأرانب والرئيسيات والأسماك والطيور والزواحف والبرمائيات — وحتى القوارض — عن طرد التماسيح من مملكتها المائية.

ارتجفت رميمبرانس وتراجعت عن حافة المياه.

ظهر حيوان آخر من الجوارح على شاطئ البحيرة، فأسرعت رميمبرانس إلى الاختباء مرة ثانية، مستترة خلف الأجساد الضخمة لقطيع المعز ذات المناقير التي تشبه مناقير البط.

كان ينحدر من سلالة القوارض، وبالأحرى نوع من الفئران، لكن مسلكه لم يكن يشبه مسلك أي نوع من الكلاب أو القطط. وصل إلى حافة البحيرة، ورفع جسده على قائمتيه الخلفيتين الهائلتين. تراجعت آكلات العشب الواقفة على حافة البحيرة في خوف، لكن هذا الهجين بين الفأر والطير الجارح لم يكن مهتمًّا بالكائنات التي ترعى من حوله. وفي شموخ غمس فمه في البحيرة ليتذوق الماء، ثم سار عائدًا إلى الأرض الجافة حيث استخدم يديه الضعيفتين في انتزاع الحشائش، كأنه يختبرها.

كان يشبه الديناصورات الضخمة آكلة اللحوم التي تعود إلى العصر الطباشيري، فطرفاه الأماميان صغيران، وذيله سميك لحفظ التوازن، وقائمتاه الخلفيتان ماكينتان جبارتان من العضلات والعظام. وقد تطورت قواطعه إلى أسلحة قوية قاطعة، يوجهها بدفعات من رأسه الضخمة. كان هذا الفأر-الطير قرشًا بريًّا كأنه تيرانوصور أعيد اكتشافه تصميم جسده ليكون فعالًا بصورة مدمرة. ومع ذلك احتفظ هذا الكائن المتغطرس بالأذنين الصغيرتين والفراء البني المميز للقوارض الصغيرة التي انحدر منها.

بدا على الفأر-الطير الرضا عن الماء والعشب، فصاح وبصق وقرع بذيله على الأرض. ومن بعيد جاءت سلسلة من الصيحات والقرعات والصرخات ترد عليه.

توافد مزيد من الفئران-الطيور على البحيرة، وانتشروا على رقعة من الأرض العشبية وهم يتشممون الهواء، وأخذت مجموعة من الصغار تعدو حول أقدام الكبار وهم يتصارعون ويعض أحدهم الآخر عضات صغيرة في فضول عابث طالما اتسمت به الضواري.

وعندما تجمع الفئران-الطيور، استدار البالغون منهم، وفتحوا أفواههم، وأخذوا يطلقون صياحًا متزامنًا. وردًّا على صيحاتهم، جاء قطيع من نوع آخر من الحيوانات يمشي بخطوات ثقيلة نحو البحيرة.

كانت حيوانات ضخمة يماثل حجمها حجم المعز-الأفيال، واحتشدت معًا وهي تتدافع وتتصايح. لكنها وهي تترنح متوجهة نحو الماء — تحت توجيه الفئران-الطيور فيما يبدو — أخذت تقطع في عجلة الحشائش تحت أقدامها.

كانت أجسادها مغطاة بفراء خفيف، ورءوسها تنتهي من أعلى بأعراف، وجماجمها مصممة بحيث تحمل عضلات الخدين الضخمة التي تتحكم في فكوكها السفلى هائلة الحجم. بدت رءوسها أشبه برءوس قردة البايثيسين القوية، وآذانها الملتصقة من الخلف بجماجمها الضخمة كبيرة مليئة بالأوردة، كأنها زعانف تبريد ضخمة صممت لتخليص أجسادها من الحرارة الزائدة، ومع أن أرجلها الخلفية ضخمة بحيث تستطيع حمل أوزانها، فإنها تبدو مقوسة في الاتجاه الخاطئ كأرجل الأرانب-الغزلان؛ أرجل مخصصة للفرار.

كانت هذه الحيوانات قبيحة تشبه الأفيال، لكنها لم تنحدر من المعز أو الخنازير، فأعينها تتجه إلى الأمام تحت جبهة بارزة، أعين كبيرة داكنة تتطلع إلى العالم في ذهول وخوف. وهذه الحيوانات تسير على أطرافها الأربع، لكنها ترتكز على مفاصل أصابعها المطوية، وهو وضع أطلق عليه فيما مضى «السير على مفاصل الأصابع.»

وتنحدر هذه الحيوانات من البشر، مثل رميمبرانس.

انتظرت رميمبرانس حتى انصرفت هذه الحيوانات الكبيرة القبيحة إلى الشرب والتدافع والتصايح، وآذانها مشرعة في هواء المساء البارد، ثم زحفت مبتعدة.

استغرق الأمر ملايين السنين حتى عادت الحياة من جديد.

وإلى الشمال من غابة رميمبرانس الاستوائية، زحف نطاق من الغابات والأراضي والعشبية حول الأرض، ممتدًّا من أوروبا وأفريقيا عبر بآسيا إلى أمريكا الشمالية. وهنا كان مزيد من الأنواع الشبيهة بالأرانب يتغذى على أوراق النباتات الباردة، بينما حيوانات أخرى شبيهة بالقنافذ والخنازير تتغذى على الشجيرات. وفي الأشجار تعيش طيور وسناجب وكثير من الخفافيش. واستمرت هذه المجموعة المتنوعة من الثدييات في التكاثر والتشعب، وهناك الآن أنواع من الطيور الليلية التي فقدت أعينها تمامًا، وأنواع أخرى تعلمت أن تنافس الطيور على حصاد النهار الوفير.

وفي أقصى الشمال نمت الغابات الصنوبرية، وهي أشجار دائمة الخضرة تتمتع أوراقها إبرية الشكل بالقدرة على استغلال أشعة الشمس الشحيحة. وتعيش الحيوانات آكلة العشب على الأغصان الصغيرة والأوراق الإبرية في فصل الصيف، وعلى اللحاء والأشنات بقية العام، ومعظم هذه الحيوانات من المعز، وأكثرها شيوعًا الأنواع الشبيهة بالهدروصور ذات المناقير الشبيهة بمناقير البط. ومن الضواري التي تتغذى عليها الفئران والجرذان الواسعة الانتشار، لكن هناك أيضًا سناجب آكلة للحوم وطيور جارحة ضخمة يبدو أنها تحاول محاكاة الزواحف المجنحة التي عاشت في العصر الطباشيري في ظروف توفر الأكسجين في الجو.

تكون حزام من التندرا على الحواف الشمالية للقارات، وفي هذا المكان عاش أحفاد الخنازير والماعز على أوراق الأشجار والنباتات الصيفية، واحتشد بعضها إلى جوار بعض لاتغلب على برد الشتاء. وكانت لبعض تلك الحيوانات أجسام ضخمة مثل الماموث المنقرض حتى صارت أجسادها صخورًا مستديرة هائلة من اللحم، وتلك ميزة تمكنها من الاحتفاظ بالدفء. وفي التندرا نمت قواطع الجرذان حتى أصبحت أقرب إلى النمور سيفية الأنياب التي عاشت في العصور القديمة، بل كانت هناك جماعات من الخفافيش المهاجرة التي تعلمت أن تعيش على الأسراب الكبيرة من الحشرات التي تظهر أثناء الربيع القصير في التندرا.

وبالطبع لن يحمل أي من هذه الأنواع الجديدة أسماء بشرية.

كان هناك اختلاف واحد أساسي بعد العودة الأخيرة للحياة، مقارنة بالصدمة التي أصابتها بعد تشيكشولوب، فالقوارض لم تظهر إلا بعد انقضاء نحو عشرة ملايين سنة من تصادم المذنب، لكنها هذه المرة غزت كل مكان بعد عودة الحياة.

والقوارض حيوانات منيعة، فقواطعها الأمامية مهيأة للقرض، ولها جذور عميقة في فكوك قوية للغاية، حتى إن الجرذان تستطيع قرض الخرسانة، مما مكنها من أن تأكل طعامًا قويًّا جدًّا لا يستطيع غيرها من الثدييات تناوله، لكن قدرة القوارض على التكاثر والتكيف كانت أكثر أهمية، فهي تعيش فترات قصيرة، وتتكاثر في سن صغيرة، حتى بين الأنواع الكبيرة عملاقة كالجرذان-الفهود نجد أن فترة حمل الإناث قصيرة، وأنها تلد أعدادًا كبيرة من الصغار، ومع أن عددًا كبيرًا منها يموت، فإن كل واحدة من تلك الوفيات كانت بمنزلة مادة خام لعمليات التكيف والانتخاب التي لا تتوقف.

ومع وجود المساحة الخالية تطورت الجرذان بسرعة، وفي العودة الكبرى للحياة بعد أحرزت تفوقًا كبيرًا، والآن أصبح من الممكن أن نطلق على الأرض مملكة الجرذان، على اليابسة على الأقل.

كل ذلك كان قد ترك مساحة محدودة لسلالة البشر.

وفي ظل مزاحمة الجرذان المتوحشة تخلى البشر الجدد عن استراتيجية التفوق في الذكاء، التي حازت لهم فيما مضى نجاحًا كبيرًا، وجلبت عليهم الدمار، وعادوا يبحثون عن فرص المأوى والاستراتيجيات السلبية. فصار بعضهم كائنات صغيرة الحجم سريعة الحركة والتكاثر، بل صار بعضهم قادرًا على حفر جحور في الأرض، أصبحوا مثل الهوام. ورجع أجداد رميمبرانس إلى سُكنى الأشجار، لكن الجرذان الآن غزت ذلك الملجأ القديم.

جرب البشر الأفيال حيلة أخرى، فقد وفرت لهم الحماية أجسادهم العملاقة، لكن ذلك لم يكن له حظ كبير من النجاح، وتستطيع أن ترى ذلك في سيقانهم الخلفية الشبيهة بسيقان الغزلان، فالأفيال لم تكن تستطيع الجري بسرعة، لكنها لم تكن بحاجة لذلك، إذ لم يكن أي من الضواري في العصور الماضية يستطيع مهاجمة فيل بالغ. غير أنه في مواجهة الضواري

المنحدرة من سلالة الجرذان، أصبح البشر الأفيال بحاجة إلى استعادة القدرة على الفرار.

لكن هذا أيضًا لم يكن كافيًا.

فالفئران-الطيور حيوانات تعيش في مجتمعات، وهي صفة متأصلة فيها تعود إلى حيوانات المرموط والكلاب البرية التي كانت لها القدرة على تكوين مستعمرات، وعاشت في مدن منظمة تتكون من ملايين الحيوانات. تتنقل هذه الحيوانات بحثًا عن الماء والفرائس، ويعمل بعضها في حراسة الآخرين، وتمارس الصيد في جماعات، فضلًا على أنها تستعمل وسائل للاتصال، فالحيوانات البالغة تستعمل الصيحات والصراخ وتضرب الأرض بأذيالها القوية التي ترسل موجات اهتزازية في سطح الأرض.

هذه القدرة على العيش في جماعات منحت هذه الحيوانات المفترسة قوة كبيرة لا تضاهي بالنسبة إلى البشر الجدد، وشهدت أعداد الحيوانات الكبيرة آكلة العشب تناقصًا مطردًا.

غير أن هذا كان له أثر سلبي على الضواري أيضًا، ولذلك نمت مع الوقت علاقة تكافل بين الفئران-الطيور وأشباه الأفيال، فتعلمت الضواري حماية قطعان أشباه الأفيال بطيئة الحركة، وتحذيرها بوسائل مختلفة من المخاطر الأخرى مثل الحرائق، واستطاعت أيضًا بوسائل مختلفة من المخاطر الأخرى مثل الحرائق، واستطاعت أيضًا إرشادها إلى أماكن الماء والمرعى.

وكل ما طلبته الجوارح في المقابل هو الحصول على نصيبها من اللحم.

قبلت أشباه الأفيال كل هذا في سلبية، فلم يكن لديها خيار، وبمرور الوقت تحورت هذه الحيوانات بفعل الانتخاب الطبيعي لتلائم الأحوال الجديدة، فعندما تولت الفئران-الطيور مهمة إبعاد الضواري الأخرى لم تعد هناك حاجة لسرعة الحركة، وعندما صارت تفكر بدلًا من أشباه الأفيال لم تعد هناك حاجة إلى الذكاء.

وعندما زادت أحجام أجساد البشر، انكمشت عقولهم بعدما طرحت عنها عبء التفكير، وصاروا كالدجاج المستأنس الذي تخلى عن العقل في مقابل الحصول على أمعاء أطول وجهاز هضمي أكثر كفاءة. لم يعد الأمر بهذا

السوء بعد التعود عليه، بل إن أعدادهم زادت تحت قيادة الفئران-الطيور. لم يكن الأمر سيئًا ما دمت تدير ظهرك عندما تخطف الفئران-الطيور أمك أو أختك أو طفلك.

ليست الحياة في مزرعة الفئران الطيور سيئة إلى هذا الحد.

بدأ الضوء يتسرب من السماء، لذلك وجدت رميمبرانس مجموعة أخرى من أشجار السنط، وزحفت بحذر شديد إلى أغصان أطول الأشجار. كان يجب أن تكتفي بذلك، فأقل ما يقال إنها قد نجحت في أن ترتفع من على الأرض.

وحالما اختفى الضوء ظهرت النجوم، واكتظت بها السماء.

وكانت الشمس في دورانها اللانهائي حول المجرة تمر حاليًّا من خلال سحابة من الغبار والغاز بين النجوم، وهي سحابة هائلة تمتد لسنوات ضوئية، وقد تنبأ بهذا الفلكيون من البشر، وكان ذلك طليعة فقاعة جبارة نُفخت في الغاز بسبب انفجار نجم في مرحلة السوبرنوفا، وفي منتصفها منطقة تتكون فيها النجوم. ولهذا كانت السماء الجديدة رائعة، مليئة بالنجوم الساطعة الجديدة.

لكن لم يعد على الأرض من يستطيع أن يفهم شيئًا من كل ذلك. أمضت رميمبرانس ليلة بلا نوم وهي تستمع إلى صياح الضواري وزئيرها، بينما مجموعات نجمية غير معروفة تسبح في السماء.

٣

أول بضع مئات من الكويكبات اكتشفها علماء الفضاء كانت تدور في حزام منتظم بين المريخ والمشتري، بعيدة نسبيًّا عن الأرض، وكانت تلك الصخور الفضائية ظاهرة عجيبة؛ مشكلة نظرية تواجه دارسي نشأة المجموعة الشمسية.

وجاء اكتشاف إيروس صدمة.

فقد وُجد أن إيروس يتحرك داخل مدار المريخ، في أقرب أجزائه من الأرض، وكان بعده من الأرض يقترب من ربع أقرب مسافة بين المريخ

والأرض، وفيما بعد اكتُشفت كويكبات تمر عبر مدار الأرض، مما يجعلها مهيأة للاصطدام بالأرض.

ولم ينس أحد قط إيروس؛ أول المارقين. ونظرًا لاهتمام الناس بمثل هذه الأشياء، أصبح الكويكب واحدًا من الأبطال بين أمثاله، وأكثرهم شهرة.

في بداية القرن الحادي والعشرين أصبح إيروس هدف أول مسبار يدور حول كويكب، وسمي المسبار «نير». وفي نهاية المهمة هبط المسبار على أرض الكويكب برفق، وكان علماء الفلك قد أطلقوا على ذلك الكويكب الاسم الرومانسي اليوناني لإله الحب، وكان هناك الكثير من الكلام عن أن «نير» قد قبّل الكويكب المستهدف، وتحمست الصحافة لذلك وقالت إن تلك القبلة قد قبل يوم عيد الحب بقليل.

لكنهم في ظل الظروف التي وقعت اختاروا للكويكب أبعد تسمية عن الحقيقة.

ولفترة طويلة كان يُعتقد أن إيروس بمداره العجيب الذي يقربه دائمًا من مدار المريخ لا يمثل أي خطر للاصطدام مع الأرض، بل يبدو أقرب إلى الاصطدام مع المريخ نفسه.

لكن المريخ اختفى.

وعلى مدى فترات طويلة، وتحت تأثير عوامل جاذبية الكواكب والدوران السريع للشمس، بالإضافة إلى عدم الاستقرار الديناميكي الطبيعي، تغير مدار الكويكب. وبعد مليون سنة من فناء البشر اقترب إيروس جدًّا من كوكب الأرض، ليصبح مرئيًّا للعين المجردة، ذلك لو كان هناك من ينظر.

وبعد تسعة وعشرين مليون سنة لا يزال يقترب.

شعرت رميمبرانس بحكة وهي عالقة في شجرة السنط، فأخذت تبحث في فرائها عن القراض والحشرات التي تحب أن تتغذى على دمها، أو تضع بيضها أسفل جلدها، ولكن كانت هناك أماكن لا تستطيع الوصول إليها، مثل أسفل ظهرها، وبطبيعة الحال تجمعت الحشرات في ذلك المكان. كان ذلك تذكيرًا مؤلمًا بوحدتها، وبما أن اللغات كانت قد اضمحلت، وعادات التجمل والنظافة رجعت من جديد لتخدم الترابط الاجتماعي (والواقع أنها

لم تبتعد قط عن هذا الغرض). لكن رميمبرانس لم تكن قد مارست أي نوع من أنواع التنظيف منذ أن نامت آخر مرة ملتصقة بأمها في العش.

كانت تعاني من الحرارة والجوع والعطش والوحدة، وتشعر بحكة. انتظرت رميمبرانس في شجرة السنط حتى صعدت الشمس مرة أخرى إلى عنان السماء.

ثم في نهاية المطاف هبطت إلى أسفل.

كان البشر-الأفيال وحراسهم من القوارض قد رحلوا، ولم تكن هناك إلا حركة قليلة على الأرض الخالية المكسوة بالأعشاب، والصمت ثقيل كحرارة الجو، ورأت من خلال الغبار العالق ناحية الشرق بقعة داكنة ربما كانت قطيعًا من الخنازير-الأفيال أو المعز-الأفيال، أو أشباه البشر. ورأت جهة الغربة حركة، ولمحت فراء بنيًّا ربما كان لفأر مفترس يتحرك مع جرائه.

وإلى الشمال، حيث تلوح في الأفق الجبال الأرجوانية، رأت الغابات الخضراء. ولم تكن ترغب إلا في التوجه مباشرة إلى أمان الغابة.

بدأت رحلتها عبر السهل وهي عارية فارغة اليدين، تسير من حين إلى آخر على مفاصل يديها؛ جسد صغير يعبر سهلًا شاسعًا أجرد، لا يرافقها سوى ظلها تحت قدميها.

لم تعثر على ماء، ولم تجد ما يؤكل إلا بعض الحشائش، وبينما استمرت في السير كان العطش الذي تشعر به يشتتها، وازداد السكون ثقلًا. وبعد قليل، شعرت أنه لم يعد في حياتها إلا هذه الرحلة؛ كأنما ذكرياتها عن العائلة والغابة لا معنى لها، مثل كابوس سقوطها.

وجدت نفسها تسير في منحدر قليل العمق يقود إلى منخفض واسع من الأرض قطره كيلومترات، وأمام ذلك المنخفض الكبير ترددت.

كان هناك واد يمر في قلب ذلك الصحن، واد نحته نهر في الماضي، لكنها رأت من مكانها أنه جاف، وأن النباتات التي تنمو هنا تختلف عن النباتات في السهل الذي قطعته، فلم يكن هنا سوى بعض الشجيرات، وبعض الرُّقع من العشب الأخضر متناثرة هنا وهناك، وكانت هناك رقعة واسعة من أوراق بنفسجية اللون.

إن الارتياب في أي شيء جديد يُعد قاعدة عملية جيدة، لكن ذلك الصحن الكبير يقطع طريقها، ويعزلها عن الغابة التي لا تزال بعيدة. لم تر أي حيوانات في ذلك المكان؛ لا حيوانات عاشبة، ولا حيوانات مفترسة.

لذا استأنفت طريقها وهي حذرة متيقظة.

تبين لها أن هذه الرقعة البنفسجية اللون أزهار تنمو في أجمات كثيفة يصل ارتفاع بعضها إلى خصرها، وبينها حشائش رفيعة باهتة اللون. وواصلت السير حتى صارت وسط هذه الأزهار البنفسجية، ولكنها لم ترَ أي ماء.

كانت هناك فيما مضى مدينة في ذلك المكان. وحتى الآن، بعد مرور فترة طويلة على زوال المدينة، لا تزال التربة ملوثة بحيث لا تستطيع النمو فيها سوى النباتات التي تتحمل الملوثات المعدنية، مثل الأزهار النحاسية ذات الأوراق البنفسجية التي تنمو هنا.

في النهاية المطاف قلت كثافة الزهور الأرجوانية، وفي قلب ذلك المكان الغريب وجدت ضفة النهر الضحلة. كانت القناة جافة مليئة بالغبار المتحرك، فقد حولت التغيرات الجيولوجية القديمة مجرى الماء الذي نحت فيما مضى هذه القناة. هبطت رميمبرانس الضفة المتآكلة، وحاولت أن تحفر في القاع الترابي، لكنها لم تجد أثرًا للماء.

ولم يمر وقت طويل بعد خروجها من المنخفض حتى واجهت عقبة أخرى.

كانت هنا أشجار، وتلال من بيوت النمل الأبيض، ومستعمرات نمل واسعة منخفضة الارتفاع، متناثرة كأنها تماثيل فوق سهل قاحل خال من الحياة. لم تكن هذه غابة، فهي ليست كثيفة الأشجار إلى هذه الدرجة، بل هي أقرب إلى بستان زرعت أشجاره على مسافات مناسبة من بعضها، وتحيط بها حدائق صغيرة من تلال النمل الأبيض وبيوت النمل. كان هذا هو النوع الجديد من أشجار البورامتز، وأثار البستان شعورًا غير مبرر من التوتر في نفس رميمبرانس؛ شيء ما في داخلها يخبرها أن هذه ليست الأرض التي نشأ منها الهومينيد.

لكن هذه المنطقة المليئة بالأشجار والنمل الأبيض كانت حاجزًا آخر يعترض طريقها، ويمتد يمينًا ويسارًا إلى آخر حدود بصرها. وعندما بدأت الشمس تنحدر مسرعة نحو الغرب، بلغ الجوع والعطش مبلغهما من رميمبرانس.

ولم تجد أمامها إلا مواصلة السير.

لكن شيئًا وخزها في قدمها فصرخت وقفزت إلى الوراء.

كانت قد مشت فوق صف مزدوج من النمل يسير من وإلى قريته في طريق يقود إلى الجذور العريضة لواحدة من الأشجار. جثت رميمبرانس على ركبتيها، وأخذت تملأ راحتيها بالنمل. كان التراب يتجمع في قبضتيها أكثر من النمل لكنها نجحت في قذف بعضه في فمها، وأخذت تمضغ. تجمع مزيد من النمل حول قدميها، غافل عما حدث لرفاقه.

لم يكن هناك ما يلفت النظر في الشجرة التي يقصدها النمل، فهي شجرة قصيرة لها جذع سميك، وأغصانها مكسوة بأوراق صغيرة مستديرة، ولها جذور عريضة تنتشر فوق الأرض قبل أن تنغرس فيها كأنها أصابع تحفر.

سارت رميمبرانس إليها وأخذت تتفحصها. لم تكن أغصانها تحمل أي فاكهة، لكن هناك ما يشبه الجوز ذي القشور الصلبة ينمو في مجموعات من قاعدة الجذع، قريبًا من جذور الشجرة. غير أن عدد ثمار الجوز قليل جدًّا، أقل من عشرة، وعندما حاولت رميمبرانس انتزاعها وجدت أنها مثبتة بقوة إلى الشجرة بحيث تعجز أصابعها عن انتزاعها، وقشورها شديدة الصلابة لا تستطيع كسرها بأسنانها. فانتزعن بضع أوراق ومضغتها، لكنها كانت جافة مرة المذاق.

فتخلت عن المحاولة وألقت بالأوراق، واتجهت نحو مصدر آخر للطعام. كان أقرب تلال النمل الأبيض يصل إلى ارتفاع قامتها؛ مخروط ضخم من الطين الصلب. عادت ثانية إلى الشجرة بحثًا عن غصن صغير، وكانت قد جربت من قبل صيد النمل الأبيض، لكنها لم تصل لمهارة كابو، بل لم تصل لمهارة الشمبانزي في عصر البشر، غير أنها قد تستطيع أن تحصل على ما يسد جوعها من النمل ...

لمحت رأسًا يتحرك وأسنانًا كالمناجل، كان جرذًا. قفزت إلى أعلى محاولة الوصول إلى أغصان شجرة البارومتز. كانت الأغصان رفيعة ومتشابكة، ومن الصعب الإمساك بها، لكنها حشرت جسدها بينها، فلم يكن لديها مخبأ آخر.

كان ذلك واحدًا من الفئران-الطيور؛ واحدًا من القطيع الذي قاد البشر-الأفيال إلى البحيرة. صرخ هذا الكائن صرخة حادة، ووقف على قائمتيه الخلفيتين الهائلتين، وأخذ يمزق بقواطعه الحادة الملطخة بالدماء الأوراق المنخفضة من شجرة البارومتز، ويضرب جذعها برأسه الضخمة.

لم يكن الفأر-الطير قد اصطاد فريسة كهذه من قبل، وكان تتبع رميمبرانس إلى هنا لعبة جيدة. لكنه لعب بما يكفي، ويريد أن يتذوق هذه الفريسة الجديدة.

أصيبت رميمبرانس بخدوش مؤلمة من اللحاء الخشن لشجرة البارومتز، ولم يستطيع الفأر أن يصل إلى الأغصان العالية، لكن شجرة البارومتز أخذت تهتز من ضربات رأسه الضخمة، وعرفت رميمبرانس أنها لن تصمد طويلًا، وسرعان ما ستسقط. وإذ أصابها الذعر، أخذت تشق طريقها بين الأغصان محاولة الابتعاد قدر استطاعتها عن الفأر.

غير أن أغصان البارومتز الهشة تهشمت بسهولة، فهذه سماتها التطورية التي تمنع بها الطيور والخفافيش والثدييات المتسلقة من سكناها.

وفجأة انكسر الفرخ الذي كان أسفل بطنها، فوجدت نفسها تسقط في الهواء لترتطم بالأرض بقوة، ورقدت على ظهرها متقطعة الأنفاس.

لكن سطح الأرض تهشم بدوره أسفل منها، ووجدت نفسها تسقط من جديد متبوعة بالغبار وقطع من التربة، ومرة ثانية ارتطمت بالأرض بالقوة على عمق أكبر، وسقط الحطام على وجهها، وسد فمها وأنفها وعينيها.

شمت رائحة كرائحة اللبن؛ لبن مختلط بالبول والفضلات، وشعرت بشيء يتحرك على بطنها، شيء صغير، لكنه ثقيل ودافئ وعار من الشعر، فأمسكت به دون تفكير، ووجدت أنها تمسك بجذع عار رطب، وأحست بضربات ضعيفة من أذرع وأرجل. كانت تمسك بطفل أملس.

لكن واحدة من هذه الأيدي وصلت إلى صدرها، وبدأت المخالب تقطع جلدها، فصرخت وقذفت بهذا المخلوق بعيدًا، وسمعته يرتطم بالأرض ثم ينزلق مبتعدًا.

لكنهم أحاطوا بها من كل جانب. سمعتهم في الظلام يتحركون، ورأتهم في الضوء الخافت.

البشر-الخلدان. هذا ما أوحى به مظهرهم، فلهم جلود سميكة فضفاضة تتجمع في ثنيات حول أعناقهم وأجسادهم الخالية من الشعر، ورءوسهم أيضًا خالية من الشعر ذات فروة حمراء مجعدة، وليست لهم رموش أو حواجب. وآذانهم صغيرة أثرية، وقد استطالت أنوفهم حتى صارت كالخراطيم. بل إن لهم شوارب كشوارب القطط، ووجوههم بلا أعين، وهناك طبقات من الجلد تغطي التجاويف التي كانت بها أعينهم.

أما أذرعهم وسيقانهم وجذوعهم ورءوسهم فهي بشرية، وإن كانت كلها صغيرة، فحجم الواحد منهم لا يزيد عن حجم الطفل من نوعها. غير أن كثيرًا منهم من البالغين، فقد رأت في هذه الأجساد الصغيرة أثداء وأعضاء تناسلية كاملة النمو.

وسواء أكانوا عميان أم لا، كانوا يجفلون من الضوء، ويبتعدون ليختفوا في أنفاق محفورة في الأرض، وكانت أظفار أيديهم مخالب متحورة لتساعدهم في الحفر، ولمسة واحدة من هذه المخالب تركت جروحًا عميقة في كتف رميمبرانس.

كانت داخل جحر يضم أناسًا يزحفون كالديدان ويحفرون في الأرض. صرخت في فزع شديد من هؤلاء البشر المشوهين؛ فزع لم تستطع فهمه، وحاولت الوصول إلى الضوء.

وجدت نفسها تحدق مباشرة في عيني الفأر-الطائر، فأطلق فحيحًا واستعد للهجوم.

تراجعت رميمبرانس داخل النفق الخالي.

كانت الجدران ملساء بفعل مرور أعداد لانهائية من الأجساد الزاحفة، وغمرتها الرائحة المميزة من اللبن والبول. حفر البشر-الخلدان هذه الأنفاق بحيث تتناسب مع أحجام أجسادهم النحيلة، لكنها كانت صغيرة للغاية

لجسد رميمبرانس، فاضطرت للزحف على بطنها وهي تجر جسدها بذراعيها وساقيها اللتين آلمتاها سريعًا. كان كابوسًا من كوابيس الحصار.

غير أن هناك ضوءًا يأتي من مداخن ضيقة تصل إلى السطح، وهي أنفاق رفيعة تسمح بمرور الهواء، لكنها لا تكفي لمرور الحيوانات المفترسة، وكان الضوء القادم منها كافيًا ليعطي رميمبرانس انطباعًا عامًّا للأنفاق التي تتحرك خلالها.

أنفاق تتفرع في كل اتجاه، شبكة كاملة من الأنفاق. وسمعت وهي تتحرك صدى أصوات من فراغات حولها وأسفلها؛ غرف وممرات وفجوات تتفرع إلى ما لا نهاية. وكانت ترى من حين إلى آخر لمحات خاطفة من البشر-الخلدان؛ طرفًا يخمش، أو مؤخرة تتراجع، أو فجوتين مغلقتين تحدقان إليها دون بصر.

تملكها الرعب، لكنها لم تملك خيارًا سوى التقدم.

وفجأة سقطت عبر جدار رفيع داخل حجرة مزدحمة، وعلى الفور تجمع عليها الأطفال يعضونها ويخمشونها.

كانت الحجرة الكبيرة مزدحمة بالأطفال؛ نسخ مصغرة من البالغين الذين رأتهم أولًا، والحجرة تغمرها رائحة الدم والفضلات واللبن والقيء. صارعت رميمبرانس حتى دفعت الأطفال بعيدًا عنها. كان معظمهم من الإناث، وأثارت أجسادهن اللينة الدافئة اشمئزازها أكثر من أجساد الكبار. استدارت وحاولت أن تعود إلى النفق الذي سقطت منه.

لكن الكبار خرجوا أفواجًا من النفق، ولم يتراجعوا كما تراجع أولئك الذين قابلتهم في البداية، فهؤلاء جنود جاءوا لحماية غرفة المواليد من الدخيل.

وثب عليها أول الجنود ومخالبه مشرعة، فرفعت رميمبرانس ذراعها لتحمي عنقها، وسقطت تحت ثقل هذا الجندي وسط كومة الأطفال مرة ثانية.

كان الجندي أنثى بالغة، لكن ثدييها صغيران كثديي طفلة، وأعضاؤها التناسلية غير تامة النمو؛ كانت عقيمة. لكنها قاتلت بشراسة كما لو كان أطفالها هم من يتعرضون للخطر.

كادت رميمبرانس تسقط أمام هجوم هذه المجندة، وأنقذها الحظ، فقد أصاب كعب رميمبرانس خصمتها تحت عظام الصدر تمامًا، فطارت المخلوقة الصغيرة إلى الخلف، واصطدمت بهؤلاء الذين كانوا يحاولون اللحاق بها، فتحولوا إلى كومة متشابكة من الأطراف والمخالب.

ولمحت رميمبرانس فتحة نفق في الجانب البعيد من الحجرة، فاندفعت في اتجاهه زاحفة على أطرافها الأربع وهي تشق طريقها وسط الأطفال الباكين.

لكن الجنود واصلوا مطاردتها، فظلت تكافح عبر الأنفاق، وتنتقل عشوائيًّا من نفق إلى آخر، ولم تدر أتتحرك في اتجاه الصعود أم تزداد غوصًا في الأرض، فما يشغل بالها الآن هو الفرار.

حطمت جدارًا آخر وسقطت على أشياء صلبة كأنها كومة من الحجارة. لا، ليست كومة من الحجارة، إنها ثمار الجوز الكبيرة الثقيلة التي تنمو على شجرة البارومتز. سارت خطوات أخرى فوجدت كومة هائلة من البذور والجذور. كانت هذه الحجرة مليئة بالطعام.

ظل الجنود يحتشدون خلفها وهم ينخرون.

قفزت إلى الركن البعيد من الحجرة، وحشرت جسدها خلف كومة البذور الثقيلة، وأخذت تلتقط الجوز والبذور وتقذفها بأقوى ما تستطيع. لم تكن تخطئ التصويب، وأصابت ضرباتها رءوس الجنود. ارتفعت صيحات الألم وساد الاضطراب عندما تراجع الصف الأمامي في مواجهة الصفوف التالية في محاولة للفرار من هذه الشيطانة التي تمطرهم بالقذائف.

لكن لم يتراجع كل الجنود، وظل العديد منهم عند فتحة النفق يصيحون ويبصقون عليها.

ولم تعبأ بهم رميمبرانس بعد أن نال من جسدها الإنهاك والإصابات، ولم تكن تستطيع الخروج من مكانها، لكن الجنود أيضًا كانوا عاجزين عن الوصول إليها، فتوقفت عن قذف الجوز.

شمت رائحة الرطوبة، ووجدت مكانًا في جدار النفق خلفها يخرج منه جذر رفيع من جذور الشجرة، وكان الجذر قد انكسر وأخذت تتساقط منه عصارة مائية، فوضعته في فمها وبدأت تمتص العصارة. كانت حلوة

المذاق وهي تنساب إلى حلقها الذي جف من العطش. ووجدت أيضًا بعض الدرنات تحت كومة الجوز، وراحت في الظلام الذي أوشك أن يحل تسد بها جوعها.

رقدت رميمبرانس فوق ما تبقى من الجذو ر التي سرقتها، وهي تقبض على ثمار الجوز الثقيلة قريبة من صدرها، وسرعان ما أحست أن صياح الجنود العاجزين كأنه صوت عاصفة مطيرة بعيدة لا تثير انزعاجها. ونعست بعد أن نفدت طاقتها.

لكنها أحست بحركة في الحجرة، فرفعت رأسها على مضض فوق حاجز ثمار الجوز، ورأت البشر-الخلدان يتحركون هنا وهناك في الحجرة. غير أن هؤلاء لم يكونوا جنودًا، ويبدو أنهم نسوا وجودها. أخذ هؤلاء يجمعون ثمار الجوز وينقلونها خارج الحجرة إلى مدخل النفق. لم تكن لديها فكرة عما يفعلون، بل لم تكن تتمتع بالمقدرة العقلية اللازمة لطرح السؤال، وكل ما أهمها هو أنهم لم يعودوا خطرًا عليها.

هبطت ثانية إلى عشها المرتجل، وأخلدت إلى النوم وهي تمضغ قطعة من الجذر.

بدأت حياة البشر-الخلدان تحت الأرض استجابة للجفاف السائد في ذلك المكان، هذا إلى جانب انتشار الحيوانات المفترسة، فحتى الجرذان تعجز عن الوصول إليك لو حفرت في الأرض.

وكان لهذا ثمنه بطبيعة الحال، فقد انكمش البشر جيلًا بعد جيل حتى تتناسب أحجام أجسادهم مع شبكة الأنفاق المعقدة، وبمرور الوقت تغيرت الصفات الجسدية بفعل قيود الحياة داخل الأنفاق، فاختفت العينان اللتان لم تعد لهما فائدة، وتحورت الأظفار إلى مخالب مهيأة للحفر، واختفى الشعر فيما عدا شوارب كشوارب القطط تنبت من أنوف طويلة لتساعدهم في تحسس طريقهم في الظلام.

شجع الجفاف أيضًا على التعاون.

عاش البشر-الخلدان على الجذور والدرنات؛ الثروات المدفونة في الأرض. ولكن في ظروف الجفاف زاد حجم الدرنات وتباعدت أماكنها، وهذا أفضل

للنباتات لأن الدرنات الكبيرة لا تجف بسهولة. غير أن الواحد من عشيرة الخلدان قد يتعرض للموت جوعًا قبل أن يستطيع العثور على درنة من الدرنات المتباعدة، لكن لو كان لديه الاستعداد لاقتسام ما يعثر عليه فمن الأفضل أن يحفر عدد كبير من أفراد العشيرة في كل الاتجاهات، وبهذا تزيد فرصة نجاح المجموعة ككل.

كان كل البشر الجدد اجتماعيون كأسلافهم، لكنهم يختلفون في الطرق التي نشأت بها نزعتهم الاجتماعية، وبلغت هذه النزعة أعلى مستوياتها عند البشر-الخلدان، فأصبحوا يعيشون كالحشرات الاجتماعية مثل النمل والنحل والنمل الأبيض، بل ربما كانوا أشبه بالخلدان؛ القوارض العجيبة التي تعيش في خلايا النحل، والتي اجتاحت فيما مضى الصومال وكينيا وإثيوبيا، قبل أن تنقرض.

وهذه خلية نحل، ومع أنه ليس هناك عقل واع هنا في الخلية، فليست هناك ضرورة لوجود الوعي، فنظام الخلية كلها يأتي من مجموع تفاعلات أفرادها.

معظم سكان المستعمرة من الإناث، لكن لا يتمتع بالخصوبة إلا قليل منهن، وتلكم «الملكات» هن أمهات الأطفال الذين وجدتهم رميمبرانس في حجرة المواليد، أما بقية الإناث فعقيمات، والواقع أنهن لم يبلغن قط، وحياتهن مكرسة لا لرعاية أطفالهن، بل لرعاية أطفال أخواتهن وبنات عائلاتهن.

يبدو هذا منطقيًّا بالطبع على مستوى الجينات، وإلا ما حدث من الأساس، فالمستعمرة عائلة واحدة كبيرة يربط بينها تزاوج الأقارب، وبقاء المستعمرة هو الذي يضمن بقاء مادتك الوراثية في المستقبل، ولو لم يكن ذلك من خلال ذريتك مباشرة، بل إن هذه هي الوسيلة الوحيدة لتوريث جيناتك لو كنت عقيمًا.

مزيد من التضحيات. عندما انكمشت أجساد هؤلاء البشر، ضمرت عقولهم، فلم تعد هناك حاجة إلى العقل، وستتولى الخلية رعايتك مثلما تولى الفئران-الطيور حماية البشر-الأفيال، وهناك أشياء يجدر بك أن تستغل طاقة جسدك فيها بدلًا من أن تكون وقودًا لعقل لا داعي لوجوده.

وبمرور الوقت تخلى البشر-الخلدان عن أثمن ما ورثوه من الثدييات؛ الدم الحار. فلما كانوا لا يخرجون من أنفاقهم إلا نادرًا، لم تعد هناك حاجة لهذه الآلية التمثيلية المكلفة، والكشاف ذو الدم البارد يحتاج طعامًا أقل من ذي الدم الحار. جاء هذا التطور لاشعوريًّا. وسيستمر تناقص حجم البشر-الخلدان مع الوقت، حتى يصبحوا أصغر من تحتفظ أجسادهم بتصميم الثدييات ذوات الدم الحار. وبعد بضعة ملايين من السنين، سيصبح البشر-الخلدان كالسحالي، وسينافسون الزواحف والبرمائيات التي سكنت دائمًا الأنظمة البيئية الصغيرة.

هكذا زحف البشر-الخلدان في خوف وجهل خلال أنفاقهم وشواربهم ترتعش، لكن أعينهم التي غطتها جلودهم سوف تلتمع وتتحرك وهم يحلمون أحلامًا عجيبة فيها سهول واسعة وجري متصل.

فقدت رميمبرانس إحساسها بالوقت وهي محاصرة في الحرارة الخانقة داخل الحجرة، تأكل الجذور والدرنات، وتمتص الماء من جذور الشجرة. تركها البشر-الخلدان وشأنها، فظلت هناك أيامًا، لا تفكر، ولا رغبة لديها في فعل أي شيء سوى الأكل والشرب والتغوط والتبول والنوم.

غير أن شيئًا أقلقها أخيرًا فأفاقت ونظرت لأعلى في كسل.

رأت في الضوء الخافت البشر-الخلدان يدخلون إلى الحجرة ويخرجون منها عبر ممر في السقف، كانوا يتدافعون في عمود وجلودهم المترهلة تتجعد وهم يتضاغطون، وشواربهم ترتعش، ومخالبهم تخمش.

لم يتلاش الخوف من الفأر-الطائر والمخاطر الأخرى من عقلها، لكنها وجدت أنها تشتاق إلى الخروج إلى العراء؛ إلى لمحة من النهار؛ إلى الهواء الطلق والخضرة.

ظلت في مكانها حتى مر البشر-الخلدان، ثم وقفت على أكوام الجذور ودفعت جسدها نحو الفجوة الضيقة في السقف.

كانت الفجوة تشبه مدخنة رأت في نهايتها سماء لونها مزيج من الأسود والأرجواني، وحفزها مرأى السماء، فحشرت جسدها أكثر وأكثر داخل المدخنة الضيقة غير المنتظمة، وهي تحفر في التراب بيديها وقدميها

وركبتيها ومرفقيها، وتحشر صدرها وخصرها في فجوات تبدو أصغر كثيرًا من أن تستطيع المرور عبرها.

وفي النهاية خرجت رأسها فوق مستوى الأرض، فأخذت تعب جرعات كبيرة من الهواء، وفي الحال شعرت بالنشاط. لكن الهواء كان باردًا، وأشجار البارومتز الملتفة تحجب سماء الليل المرصعة بالنجوم، والليل هو الوقت الطبيعي لخروج عشيرة الخلدان إلى السطح. أخرجت ذراعيها من الحفرة، ووضعت يديها على سطح الأرض، وبقوة اكتسبتها من تسلق الأشجار سحبت جسدها لأعلى وانتزعته من الحفرة كما تُنزع سدادة الفلين من فم الزجاجة.

كان البشر-الخلدان منتشرون في كل مكان، يجرون على سيقانهم الخلفية ومفاصل أصابعهم، لكن حركتهم منظمة، فهم يتحركون في أعمدة طويلة تدور حول تلال النمل الأبيض وبيوت النمل لتصل إلى أشجار البارومتز، ويجمعون ثمار الجوز التي تنمو في مجموعات عند جذور الأشجار، ثمار يصل حجمها أحيانًا إلى حجم رءوسهم. لكنهم لا يحاولون كسر هذه الثمار لفتحها، ولا يأخذونها إلى مخازنهم تحت الأرض، بل إنهم في الواقع يُخرجون ثمار الجوز من مخازنهم.

يُخرِجون ثمار الجوز واحدة في كل مرة إلى حافة بستان البارومتز، وهناك يحفر العمال في الأرض حفرًا صغيرة يضعون فيها الجوز ويدفنونه.

كانت كل واحدة من أشجار البارومتز مركزًا لمجتمع متكافل من الحشرات والحيوانات.

والتكافل بين النباتات والكائنات الأخرى قديم جدًّا، والواقع أن النباتات المزهرة والحشرات الاجتماعية ظهرت في نفس الوقت، وكل منهما تخدم احتياجات الأخرى. والحشرات الاجتماعية — النمل والنمل الأبيض — هي أول ما وقع عليه الاختيار ليكون جزءًا من استراتيجيات التكاثر عند الأنواع الجديدة من الأشجار.

وكل علاقة تكافلية هي صفقة من نوع ما، فالنمل أو الثدييات تأخذ بذور شجرة البارومتز، لكنها لا تأكلها، إنما تخزنها. وعندما تصبح الظروف ملائمة تنقلها إلى مكان مناسب لزراعتها، وهو عادة على حافة غابة قائمة

من أشجار البارومتز، حيث لا تكون هناك منافسة مع أشجار أو حشائش نامية بالفعل، وبهذا تنمو غابات البارومتز. وفي مقابل هذا العمل يحصل الطرف الآخر على الماء، ماء تجلبه الأشجار حتى في أشد المناطق جفافًا من أعمق طبقات المياه الجوفية بواسطة جذورها.

لم يكن صعبًا على البشر-الخلدان بمجتمعهم التعاوني وعقولهم وأيديهم سريعة الحركة المميزة للرئيسيات أن يقلدوا النمل والنمل الأبيض، ويتولوا بأنفسهم رعاية أشجار البارومتز. والواقع أن أحجامهم الكبيرة جعلتهم أقدر على حمل أوزان أثقل مما تحملها الحشرات، ونشأت لذلك أنواع جديدة من البارومتز لها بذور ضخمة.

والأمر بالنسبة لشجرة البارومتز يتعلق بالتوفير، فالشجرة تحتاج إلى استهلاك طاقة أقل بكثير في كل عملية إنبات من البذور مقارنة بمنافسيها، ولذلك فإن استراتيجية تكاثرية هي التي مكنت شجرة البارومتز من الازدهار في أماكن عجزت أنواع أخرى من الأشجار عن النمو فيها. وشيئًا فشيئًا انتقلت أشجار البارومتز إلى السهول العشبية عندما حُملت بذورها من الغابات إلى السهول. وبعد خمسين مليون عام على الأقل من انتصار الحشائش، وجدت الأشجار سبيلًا للدفاع عن نفسها.

جسدت أشجار البارومتز أول ثورة نباتية كبرى منذ ظهور النباتات المزهرة قبل سقوط تشيكشولوب، وفي العصور القادمة سيكون لهذا النموذج النباتي أثر عميق على كل أشكال الحياة، مثل الظهور الأول للنباتات على الأرض الذي مكن الحيوانات من الرحيل عن البحر، ومثل ظهور النباتات المزهرة، ومثل ظهور الحشائش.

جلست رميمبرانس على الأرض وهي لا تزال تلهث، وأخذت تشاهد السلوك المحير لعشيرة البشر-الخلدان، ثم سمعت وقع أقدام مألوفًا، وفحيحًا مفزعًا، فأدارت رأسها ببطء محاولة أن تظل تتوارى عن الأنظار.

كان هذا هو الفأر-الطائر الذي ضل عن قطيعه من البشر-الأفيال ليطاردها إلى هنا، وكان واقفًا أعلى صف من البشر-الخلدان الذين يسرعون جيئة وذهابًا بين الشجرة والأرض التي يلقون فيها البذور، غافلين عن الخطر الذي يحوم فوقهم.

عاد الفأر-الطائر مرة أخرى كما لو كان ينتقم. لا يملك القدرة على اختراق القشور القوية لثمار البارومتز إلا قليل من القوارض، ومع انتشار أشجار البارومتز، ستواجه السلالات آكلة البذور التي ينتمي إليها هذا الفأر-الطائر — إلى جانب طيور وأنواع أخرى — خطر تضاؤل كميات الغذاء، وتضاؤل نطاق معيشتها، والانقراض في بعض الحالات.

اتخذ الفأر-الطائر قراره، فانحنى إلى أسفل معتمدًا في الاحتفاظ باتزانه على ذيله الطويل، واستخدم مخالبه الأمامية الحساسة لالتقاط إحدى إناث البشر-الخلدان، ثم قلبها وأخذ يتحسس بطنها الأملس.

قاومت مقاومة ضعيفة وهي بمعزل عن المستعمرة لأول مرة في حياتها، وأحست كأنها طفت فجأة على سطح محيط من اللبن والدم، وللمرة الأولى والأخيرة أصابها فزع شديد، ثم هبطت رأس الطائر.

استمر رفاقها يهرولون تحت أقدام قاتلها دون أن يضطرب إيقاع حركتهم.

استدار الفأر-الطير وأذناه الصغيرتان ترتعشان، ونظر إلى رميمبرانس. ودون تردد، قفزت عائدة إلى الحفرة التي خرجت منها في الأرض.

مكثت رميمبرانس في حجرة الطعام أيامًا أخرى عديدة، لكنها لم تستطع أن تسترخي وسط الضباب الذي أحاط بها.

وفي النهاية كان جنون البشر-الخلدان هو ما دفعها إلى الخروج.

كان الموسم جافًّا حتى بمقاييس هذه المنطقة الجافة، وازدادت الصعوبة التي يواجهها البشر-الخلدان في العثور على الجذور والدرنات التي يعتمدون عليها، وتناقص مخزون الطعام في الغرفة تناقصًا مطردًا، وبدءوا يستبدلون به نباتات أخرى مثل أوراق أزهار النحاس البنفسجية. لكن هذا الغذاء غير المرغوب فيه يحوى عناصر سامة، وشيئًا فشيئًا ازداد تركيز السموم في دماء البشر-الخلدان.

وفي النهاية انهار كل شيء.

استيقظت رميمبرانس فزعة مرة ثانية عندما اندفع البشر-الخلدان داخل المخزن الذي كاد يفرغ تمامًا، غير أنهم هذه المرة لم يكونوا يتحركون

في طوابيرهم المنظمة، بل كانوا يتدافعون في جنون؛ يرتفعون إلى أعلى ويخرجون من الحجرة محطمين سقفها في لهفة للصعود إلى السطح.

ابتعدت رميبرانس عن طريقهم، ثم تبعتهم بحذر شديد. وخرجت هذه المرة وسط ضوء النهار الساطع.

كان البشر-الخلدان يتجمعون في كل مكان حولها. كانت أعداد هائلة منهم تجري على سطح الأرض؛ بساط من لحم عار يتلوى على الأرض، وأفعمت الهواء رائحتهم اللبنية، وتعالت أصوات احتكاك أجسادهم بعضها ببعض. فاقت أعدادهم ما يمكن أن يخرج من مستعمرتها وحدها، فلا بد أن خلايا كثيرة قد أخرجت ما في باطنها بعدما اجتاحت موجة الجنون سكانها المصابين بالتسمم.

بدأ وجودهم يثير اهتمام الضواري، ورأت رميمبرانس واحدًا من الجرذان-الفهود وجماعة من الفئران الشبيهة بالكلاب، ومن فوق رأسها بدأت تهبط الطيور الجارحة. كانت هذه معجزة لأكلة اللحوم، فهذه القطع الصغيرة من اللحم خرجت فجأة من الأرض.

جاء كل ذلك نتيجة نقص الطعام. خلت أنفاق البشر-الخلدان التي كانت مكتظة بعدما اندفعوا في كل الاتجاهات في بحث محموم عن مصدر للطعام. لكنهم عجزوا بفعل آثار السم الذي أصابهم عن الابتعاد عن الخطر، وسيموت كثير من أفراد هذه العشيرة اليوم، معظمهم بين أنياب الضواري. لن يؤثر ذلك في الخلايا على المدى البعيد، فكل منها تحتفظ بذرية تكفي لبقائها، ولم يكن تناقص أعدادهم في وقت الجفاف أمرًا سيئًا بالضرورة، فالخلدان تتكاثر بسرعة، وسرعان ما ستمتلئ الأنفاق والحجرات الخالية حالما يتوفر الطعام.

ستستمر الجينات، وهذا كل ما يهم. وحتى هذا الجنون المؤقت جزء من خطة كبرى، لكن كثيرًا من العقول الصغيرة سوف تنتهي حياتها اليوم.

عندما بدأت الضواري تتناول طعامها، تصاعدت في الهواء أصوات قضم العظام والغضاريف، وصراخ الذين يواجهون الموت، ورائحة الدماء. انسلت رميمبرانس مبتعدة عن هذا المكان الذي يموج بالجنون والموت، واستأنفت رحلتها التي طال توقفها نحو التلال الأرجوانية البعيدة.

٤

أخيرًا وصلت رميمبرانس إلى خليج كبير؛ مكان يمتد فيه المحيط داخل اليابسة.

هبطت منحدرات من صخور رملية عارية. كانت هذه المنطقة ذات مرة تحت البحر، وتجمعت الرواسب خلال ملايين السنين. والآن ارتفعت الأرض وحفرت الأنهار والجداول أخاديد عميقة في قاع البحر العاري، كاشفة طبقات كثيفة عميقة حملت بعضها بين طبقات الدسخور الرملية السميكة آثار من حطام السفن وأنقاض من المدن التي اختفت.

في النهاية وصلت رميمبرانس إلى شاطئ البحر، وأخذت تعدو بمحاذاة حافته العليا دون أن تبتعد عن ظلال الصخور والحشائش القصيرة. كان الرمل خشنًا تحت أقدامها ومفاصل أصابعها، وملأ فراءها. فهذا شاطئ حديث العهد، ولا تزال رماله مليئة بالشظايا الحادة التي لم تصبح ملساء بفعل عوامل التعرية بعد.

ثم وصلت إلى جدول من المياه العذبة التي تنساب من الصخور في اتجاه الشاطئ، وقد نبتت مجموعة صغيرة من الأشجار في موضع سقوط الماء على الرمال. انحنت رميمبرانس ووضعت فمها في الماء البارد وأخذت تعب جرعات كبيرة، ثم نزلت في مياه الجدول وراحت تنظف فراءها من الرمال والبراغيث والحشرات الأخرى.

وعندما انتهت زحفت إلى ظلال الأشجار. لم تكن هناك ثمار، لكن الأرض الباردة الرطبة المغطاة بأوراق الأشجار كانت مأوى لكثير من الحشرات التي ألقت بها رميمبرانس في فمها.

كانت أمواج البحر تتلاطم في نعومة أمامها، ومياهه تلتمع تحت ضوء الشمس الساطعة. لم يعن البحر شيئًا لها، لكن طالما جذبها بريقه البعيد، وشعرت بسعادة غريبة لوجودها هنا.

والواقع أن البحر هو منقذ نوعها.

تحول الوادي المتصدع في أفريقيا تحت تأثير القوى التكتونية الهائلة إلى صدع حقيقي في نسيج القارة، واندفع البحر إلى هذا الصدع فانفصل الجزء الشرقي بأكمله وأخذ يسبح مبتعدًا نحو ما كان يدعى فيما مضى المحيط

الهندي، حيث يبدأ مصيرًا مستقلًّا. سارت هذه العملية ببطء شديد حتى إن الكائنات ذات الأعمار القصيرة التي عاشت على تلك الجزيرة الجديدة لم تلحظ حدوثها. ومع ذلك كان هذا التغير حاسمًا لأفراد نوع رميمبرانس.

فبعد سقوط البشرية، كانت هناك جماعات متفرقة من الناجين في جميع أنحاء الكوكب، واشتعلت منافسة ضارية مع القوارض في كل مكان تقريبًا. وهنا فقط، على هذا الجزء الذي انفصل عن أفريقيا، أنقذت حادثة جيولوجية البشر الجدد، ومنحتهم وقتًا للعثور على وسائل للنجاة من إبادة القوارض التي لا ترحم.

كان هذا المكان — شرق أفريقيا — فيما مضى المهد الذي احتضن نشأة البشر، وهو الآن الملاذ الأخير لأبناء البشر.

رأت رميمبرانس شيئًا في الماء، فزحفت في حذر عائدة إلى الظل.

كان شيئًا ضخمًا أسود اللون، ذا جسد أملس وقوي، وبدا أنه يتقلب في الماء، وبرزت في الهواء زعنفة تشبه جناح الطائر. رأت رميمبرانس رأسًا صغيرًا يرتفع فوق الماء، له منقار عريض يشبه الغربال، واندفع الماء من منخارين فوق منقاره متلألئًا في الهواء، محدثًا في اندفاعه صفيرًا قويًّا، ثم انثنى الجسد الضخم وغاص أسفل السطح مرة ثانية. لمحت رميبرانس ذيلًا قبل أن يختفي المخلوق في الماء. وعلى الرغم من حجمه الهائل، لم يحدث غوصه موجات في سطح الماء.

وفي أعقاب هذا العملاق وثبت من الماء أجساد أخرى أصغر حجمًا وأشد قوة، خمسة منهم. كانت هذه الكائنات تقفز في رشاقة راسمة أقواسًا قبل أن تعود مرة ثانية إلى الماء، ثم تصعد لتكرر القفز مرة بعد أخرى. هذه الكائنات الشبيهة بالدلافين تشبه أجسادها أجساد الأسماك، لكن من الواضح أنها ليست أسماكًا، فلها مناقير برتقالية طويلة كمناقير الطير.

وخلف هذه «الدلافين» ظهرت كائنات أخرى أصغر كثيرًا تقفز فوق سطح المحيط، وهذه أسماك حقيقية. كانت حراشيفها المبللة بالماء تتألق في الضوء، وزعانفها التي تشبه الأجنحة ترفرف على جانبي أجسادها الذهبية الرفيعة كلما حلقت في الهواء.

لم يكن «الحوت» حوتًا حقيقيًّا، ولا «الدلافين» دلافين حقيقية، فهذه الثدييات الضخمة سبقت البشر إلى الانقراض. أما هذه المخلوقات فتنحدر من الطيور، وبالتحديد من طيور الغاق التي عاشت على جزر جالاباجوس في المحيط الهادي، والتي ذهبت بها إلى هناك من أمريكا الجنوبية رياح معاكسة. تخلت هذه الطيور عن الطيران واعتادت على استغلال ثروة البحر، وتحورت أجنحة ذريتهم بمرور الوقت إلى زعانف، وأقدامها إلى أذيال، ومناقيرها إلى أنواع مختلفة من الأدوات المتخصصة لاستخراج الطعام من المحيط. بل إن بعض أنواع «الدولفين» نمت في أفواهها أسنان تعود إلى الزواحف التي انحدرت منها، فقد ظل التصميم الوراثي للأسنان معطلًا في المادة الوراثية للطيور طوال مائتي مليون سنة، في انتظار إعادة استخدامه عند الحاجة.

ومع أن التكيف والانتخاب الطبيعي يتسمان بالبطء الشديد حتى إن ملاحظة تأثيرهما مستحيلة بالمقاييس الزمنية البشرية، لكنهما قادران — في ثلاثين مليون سنة — على تحويل طيور الغاق إلى حيتان أو دلافين أو فقمات.

والغريب أن كل ما رأته رميمبرانس من أنواع الطيور السابحة ميراث غير مباشر لجوان يوسيب.

شاهدت رميمبرانس مخلوقًا شبيهًا بالدولفين يخرج من الماء وسط سحابة من الأسماك الطائرة. تفرقت الأسماك مرفرفة بزعانفها، لكن منقار «الدولفين» أطبق على ثلاثة منها قبل أن يغوص جسده الأملس في الماء من جديد.

بدأت الشمس رحلتها الطويلة نحو البحر، فنهضت رميمبرانس، ونفضت الرمال عن جسدها، واستأنفت سيرها الحذر على امتداد حافة الشاطئ، لكن شيئًا في السماء شتت انتباهها، فنظرت لأعلى خشية أن يكون هذا طائر آخر من الجوارح، ورأت ضوءًا كضوء النجوم، مع أن الشمس لا تزال مشرقة بحيث يستحيل ظهور النجوم. ثم تحرك الضوء عبر صفحة السماء.

كان هذا الضوء في السماء إيروس.

ظل المسبار المتواضع «نير» — الذي انتهى منذ عهد بعيد — يدور في فلك إيروس في فضاءات أبعد من كوكب المريخ، وتآكلت الأجزاء المكشوفة

منه حتى صارت الجدران المعدنية في سمك الأوراق بفعل الاصطدامات الميكروسكوبية اللانهائية. ولو لمسه رائد فضاء بقفازه لانهار كأنه منحوت من التراب.

لكن «نير» استطاع البقاء طوال هذا الزمن، ليصير واحدًا من آخر ما صنعته يد البشر، ولو ظل إيروس في دورانه العجيب حول الشمس لاستطاع «نير» أن يبقى زمنًا أطول، لكنه لن يحصل على هذه الفرصة.

سيكون مرور الكويكب بالغلاف الجوي سريعًا، وسيحترق المسبار الهش فور عودته إلى الكوكب الذي صنع عليه، ويتحول في أجزاء من الثانية إلى بخار، قبل أن يلحق الدمار أيضًا بالكويكب الضخم الذي لازمه زمنًا طويلًا.

كثيرًا ما تلقت معامل التطور على الأرض دفعات منشطة من خارج الكوكب، وها هو الآن محفز جديد، وسرعان ما سيسدل الستار على المشهد المشرق الذي تتطلع إليه رميمبرانس.

ستنجو رميمبرانس نفسها، كما سيكتب البقاء للأطفال الذين ستحملهم في المستقبل. وسيبدأ من جديد العمل العظيم، ومن جديد سترسم عمليات التنوع والانتخاب ملامح ذرية الناجين لتملأ بهم أنظمة بيئية أصابها الدمار.

غير أن الحياة ليست قادرة على التكيف بلا نهاية.

من بين الأنواع في عالم رميمبرانس كثير من الأنواع الجديدة، لكنها جميعًا تنويعات على ألحان قديمة، فكل الحيوانات أنشئت على التصميم الجسدي القديم رباعي الأرجل، الموروث من أول سمكة زحفت خارجة من الطين، ولأنها جميعًا كائنات فقارية، فكلها تنتمي إلى شعبة واحدة؛ إمبراطورية عظيمة للحياة.

يعد الانفجار الكامبري أول انتصار لأشكال الحياة عديدة الخلايا على الأرض، قبل ظهور الإنسان بنحو خمسمائة مليون عام. ففي موجة من الإبداع الوراثي خرجت إلى الحياة مائة شعبة من الكائنات، وكل شعبة تضم مجموعة هامة من الكائنات التي تمثل تصميمًا هامًّا من التصميمات الجسدية. فصارت كل المخلوقات ذات العمود الفقري جزءًا من شعبة الحبليات، وضمت شعبة مفصليات الأرجل — وهي أكبر الشعب من حيث

أعداد الكائنات — كائنات كالحشرات، وعديدات الأرجل، والديدان ذوات الألف رجل، والعناكب، والسرطانات، وما إلى ذلك. ونجت ثلاثون شعبة من أول كارثة أرضية.

منذ ذلك الحين ظهرت أنواع واندثرت أنواع أخرى، وواجهت الحياة كوارث كبرى مرة بعد مرة وتعافت منها، لكن لم تظهر شعبة واحدة جديدة؛ ولا شعبة واحدة، حتى بعد حدث الانقراض في بانجيا، وهو أكبر حدث انقراض على الإطلاق، ففي زمن ذلك الحدث القديم أيضًا كانت قدرة الحياة على الابتكار محدودة للغاية.

إن مادة الحياة سهلة التشكيل، وعمليات التنوع والانتخاب خلاقة، لكن لهذه القدرات حدودًا تزداد ضيقًا بمرور الوقت.

والأمر يتعلق بالحمض النووي، فبمرور الوقت تطور البرنامج الجزيئي الذي يتحكم في تطور الكائنات، وأصبح أكثر إحكامًا، وأشد قوة، كما لو أن كل جينوم قد أعيد تخطيطه مرة بعد أخرى، وأزيلت منه في كل مرة النفايات والعيوب، وازداد في كل مرة تماسكه ككل، غير أنه في كل مرة تقل إمكانية التغيير. طال عمر الحياة كثيرًا، وصارت أميل إلى المحافظة على القديم بسبب تعقيد الجينوم نفسه. لم تعد الحياة قادرة على الابتكارات العظيمة، وحتى الحمض النووي أصابته الشيخوخة.

كان ذلك العجز عن الابتكار فرصة ضائعة، ولم تعد الحياة تتحمل مزيدًا من الضربات.

كان الضوء في السماء غريبًا، لكن رميمبرانس عرفت بغرائزها أنه لا يمثل خطرًا عليها، وجانبها الصواب في ذلك. وبورجا التي شاهدت ذيل الشيطان يتحرك في صمت عبر صفحة السماء كانت ستخبرها بذلك.

قبل أن تتوارى الشمس خلف الأفق، كانت رميمبرانس قد وصلت أخيرًا إلى التلال البركانية التي سارت نحوها أيامًا عديدة. ونظرت إلى الأشجار العالية أمامها، وإلى المظلة الشجرية التي ترتفع لأعلى نحو السماء. ظنت أنها رأت أشباحًا نحيلة تتسلق الأغصان، وربما كانت تلك العقد السوداء أعشاشًا.

لم يكونوا من عشيرتها، لكنهم بشر، وربما يصبحون مثلها.

رفعت جسدها من على الأرض وتسلقت إلى المظلة الخضراء الآمنة.

رفرف شيء بجانب رأسها، وكانت سمكة طائرة آتية من البحر. وإذ وقفت رميمبرانس تتأملها، توجهت السمكة الطائرة إلى مظلة الغابة، وهي ترفرف بزعانفها بقوة. ثم استقرت في أحد الأعشاش، والهواء يدخل رئتيها البدائيتين.

الفصل التاسع عشر

مستقبل بعيد

مونتانا، وسط بانجيا الجديدة، بعد قرابة خمسمائة مليون سنة في المستقبل.

١

حفرت ألتميت Ultimate في التراب دونما اهتمام، لعلها تجد عقربًا أو خنفساء. كانت أشبه بكتلة من الفرو البرتقالي على الأرض الممتزجة بالصدأ.

كان هذا سهلًا جافًّا من الرمال والصخور القرمزية اللون، كما لو أن الأرض قد كُشِطت بنصلٍ هائل، وصقلت الرياح طبقة الصخور حتى لمعت بلون نحاسي براق. كانت هناك فيما مضى جبال ناحية الغرب؛ مخاريط أرجوانية اللون تريح العين بعد طول النظر إلى تلك الأرض المسطحة. ولكن منذ وقتٍ طويل دمرت الرياح الجبال كلها تاركة مساحات شاسعة من الصخور المتناثرة على السهول، ومع الوقت تآكلت هذه الصخور ومُحيت آثارها.

وبعد نصف مليار سنة من فناء آخر البشر الحقيقيين، تجمعت قارة عظمى جديدة معظم مساحتها صحراء حمراء كقلب أستراليا قديمًا، وكانت أشبه بدرع هائل يغطي وجه الأرض الأزرق، وعلى بانجيا الجديدة هذه، لم تكن هناك حواجز، لا بحيرات ولا سلاسل جبلية. ولم يعد مهمًّا في أيامنا هذه إلى أين تذهب؛ فمن القطب إلى خط الاستواء، ومن الشرق إلى الغرب، كانت كل الأماكن متشابهة، والغبار في كل مكان، حتى الهواء كان مشبعًا بالغبار الأحمر الذي تثيره العواصف الرملية، مما جعل السماء قبة بلون الكراميل. كل هذا جعل الأرض أقرب شبهًا إلى المريخ.

لكن الشمس صارت قرصًا مخيفًا، يشع حرارة وضوءًا أشد توهجًا بكثير من ذي قبل، ولو رأى أي بشري هذه النار المتأججة في السماء لأصابه الفزع.

وبسبب ذلك التوهج الهائل، اشتدت الحرارة على الأرض ليلًا ونهارًا، وساد السكون إلا من صوت الريح وحركة بعض الأحياء. لم يكن هناك ما يدل على أن ماضي هذا الكوكب الأحمر كان مختلفًا. بدت الأرض جرداء يخيم عليها سكون عميق، كأنها خشبة مسرح هجرها الممثلون.

وتحت التراب الذي حفرت فيه ألتميت يوجد المكان الذي عُرِف فيما مضى باسم مونتانا، مدفون تحت طبقات من الرواسب التي تراكمت طوال نصف مليار عام، تحت الملح والصخور الجيرية التي تتكون منها أرض بانجيا الجديدة. ولم تبعد ألتميت كثيرًا عن هيل كريك Hell Creek حيث انضمت عظام أم جوان يوسِب أخيرًا إلى عظام الديناصورات والثدييات القديمة في طبقات الأرض التي طالما اجتهدت في التنقيب فيها.

لم يكن بوسع ألتميت أن تعرف موقعها الفريد من التاريخ، فضلًا عن استيعابه، لكنها من آخر أفراد سلالتها.

عادت ألتميت إلى بيتها، وهو تجويف محفور في الصخور الأشد صلابة يقيها من الرياح، وفيه كانت ألتميت ومن بقي من سلالتها يحتالون على العيش.

بدا هذا التجويف صناعيًّا؛ فأرضيته ملساء، وجدرانه شديدة الانحدار مزودة بدرجات. والواقع أن هذا التجويف كان محجرًا صنعه البشر منذ نصف مليار عام على عمق كبير في طبقة الصخور. وعلى الرغم من مرور كل هذا الوقت، ومع أن جبالًا قامت وانمحت، ظل المحجر باقيًا لم تتغير معالمه تقريبًا، ظل ذكرى لما صنعه الإنسان.

نمت الأشجار في أرضية المحجر، منتصبة وحدها في مهابة كأنها حراس، وحولها في كل اتجاه مستعمرات النمل الأبيض. كانت أشجارًا قصيرة قبيحة المنظر ذات أوراق إبرية مستديمة تتحدى الزمن، ولم يكن يعيش إلى جانبها

في هذا المكان إلا البشر، وكائنات أخرى تعيش حياة تكافلية مع الأشجار، وأعداد هائلة من المخلوقات الدقيقة التي تكافح وسط التراب.

بينما كانت ألتميت تهبط على جدار المحجر، تغير اتجاه الرياحِ فأخذت تهب من الغرب، من ناحية المحيط الداخلي، وشيئًا فشيئًا ازدادت نسبة الرطوبة، وأخيرًا بدأت سحب سوداء ثقيلة تحتشد فوق أطلال الجبال في الغرب.

أطالت ألتميت النظر إلى الناحية الغربية من السماء. لم تمطر السماء هنا قط طيلة حياتها، فمعظم السحب الآتية من المحيط البعيد تسقط أمطارها قبل أن تصل إلى هذا المكان بوقت طويل، لأنه يقع على مسافة كبيرة في عمق القارة العظمى، ولا يستطيع اختراق هذه المساحات الشاسعة من الأراضي القاحلة إلا عاصفة عاتية؛ عاصفة جبارة من النوع الذي لا تراه إلا مرة في العمر. والعاصفة التي تقترب الآن عاصفة من هذا النوع. تستطيع أن تستشعر نذرها في الهواء؛ تحس أن حدثًا غير عادي يوشك أن يقع.

أسرعت جماعة البشر إلى شجرتهم، وتسلقو أغصانها المرحبة. صحيح أنهم أسرعوا، لكن خطواتهم ظلت ثقيلة بطيئة كأنهم يسبحون في الهواء الكثيف شديد الحرارة.

كانت ألتميت في العاشرة من عمرها تشبه قردًا صغيرًا، ساقاها طويلتان، وجذعها نحيل، وكتفاها كذلك. وحتى في هذه السلالة البعيدة المنحدرة من البشر ظل التصميم الأساسي لأجسام الرئيسيات كما هو. تغطي جسم ألتميت النحيل طبقة من فراء سميك لونه أحمر زاه كلون الرمال، ولها رأس صغير وجبهة عريضة ووجه متحرك معبر؛ وجه بشري تمامًا، ولها ثنيات جلدية تشبه الجفون تستطيع بها أن تغطي أذنيها وأنفها وفتحتي الشرج والمهبل للاحتفاظ بالرطوبة. كانت جبهتها بارزة كما لو أن الفص الأمامي المميز للبشر عاد للظهور في سلالتها، لكن لم يكن وراء هذه الجبهة إلا عظام إسفنجية تصنع شبكة كبيرة من التجاويف تعمل كنظام تبريد للاحتفاظ بدرجة حرارة المخ.

ومع أنها وصلت إلى تمام النضج، فجسمها أشبه بجسم طفلة. كانت ألتميت أنثى من ناحية التصنيف الوظيفي، فما زال البشر يتمتعون بالقدرة على الإنجاب، لكن لم يعد هناك ذكور، ولم يعد هناك معنى للتصنيف الجنسي. لم يكن لألتميت نهدان ولا حتى حلمات أثرية، فليست هناك اليوم حاجة إلى لبن الأم، كما أنه ليست هناك حاجة إلى الأمخاخ الكبيرة معقدة التركيب، فالشجرة تتولى كل ذلك لمصلحة البشر.

لم تكن ألتميت تمشي على قدمين، وظهر ذلك واضحًا وهي تسلك طريقها عائدة إلى الشجرة، فذراعاها وساقاها مُصممة للتأرجح والتسلق، والقدمان تستعملان للإمساك بالأشياء، وليس لانتصاب القامة أثناء المشي. لقد اندثرت تجربة السير والانتقال منذ عهد بعيد، وتعد ألتميت بالمقارنة بأسلافها خاملة بطيئة الحركة، كجميع أفراد نوعها.

عندما وصلت ألتميت إلى الشجرة بحثت عن ابنتها.

كانت الطفلة في شرنقة من أوراق الشجر موضوعة في زاوية فرع منخفض، وخيوط شعرها برتقالية اللون مبعثرة فوق جبينها البارز، كانت الصغيرة ملفوفة في الريش الأبيض الناعم. وعندما مرت العصارة خلال الخيط الشاحب للجذر المغذي، تقلبت الطفلة ودمدمت، وإبهامها داخل فمها الصغير وهي تحلم أحلامًا خضراء.

شيء ما ليس على ما يرام. لم تتمتع ألتميت بقدرة كبيرة على التحليل، لكن غريزتها لم تكن تخطئ. أخذت تتحسس بيديها الفراء الأحمر المتشابك على بطن طفلتها الصغيرة، وتسوي بطانة الشرنقة الناعمة الشبيهة بالقطن. فأخذت الطفلة الصغيرة تئن وهي تتقلب بلا وعي في نومها. لم تستطع ألتميت أن تتخلص من الشعور بأن شيئًا ما ليس على ما يرام. وفي حيرة أعادت الشرنقة كما كانت.

اشتدت الرياح كأنها زفرة هائلة.

صعدت ألتميت إلى أغصان الشجرة الودود التي تحتضنها، وبسرعة أحكمت لف شرنقتها حول جسدها. كانت الأوراق سميكة وصلبة كأنها شرائح من معدن مرن، وكان الآخرون يفعلون مثلها، واحتشدت جماعة البشر على الفروع كأن الشجرة أثمرت فجأن ثمارًا سوداء هائلة.

وتحركت السحب في السماء حاجبة حرارة الشمس الشديدة، وتطلعت ألتميت إلى السماء. لم يعد الفضول يجدي نفعًا الآن، فالعالم لا يتغير إلا قليلًا مهما تفاوتت الأزمنة وتباعدت الأمكنة. لكن اليوم مختلف، فلم تشعر ألتميت قط بالهواء رطبًا ثقيلًا حارًا كما هو اليوم، ولم ترَ قط سحبًا سوداء تغلي وتفور على هذا النحو.

وفي اللحظة الأخيرة قبل أن تضربهم العاصفة لمحت شيئًا جديدًا.

فعلى سطح السهل العتيق استقرت كرة بلغ ارتفاعها ضعف طول ألتميت. لم تكن زرقاء كلون السماء قبل مغيب الشمس، ولا حمراء كلون الأرض، ولم تكن بلون الرمال أو التراب كمعظم المخلوقات في هذا العالم، لكنها كانت مزيجًا متلألئًا من الأرجواني والأسود؛ ألوان الليل.

كان هذا شيئًا عجيبًا في ذلك اليوم المفعم بالغرابة. فغرت ألتميت فمها عاجزة عن الفهم، لكنها شعرت أن هذا الشيء الجديد لا ينتمي لعالمها، وأصاب حدسها.

عندئذ ضرب البرق فدفنت وجهها في الأوراق الخضراء وهي تبكي. انغلقت عليها الأوراق بإحكام، ووسط الظلام والدفء صار الهواء رطبًا لطيفًا. ولكن عندما أخذ الجذر المغذي يتحرك باحثًا عن تلك الفتحة الشبيهة بالصمام تحت سرتها مباشرة، دفعته بعيدًا عنها، فهي هنا من أجل المأوى، وليس لديها اليوم ما تمنحه للشجرة.

وعندها هبت العاصفة.

جاءت الريح والغبار من ناحية الغرب كأنهما جدار أحمر، فانسحقت النباتات الجافة، وحتى الأشجار العملاقة المتناثرة اهتزت واقتُلِعت أغصانها. وانتُزِع البشر وغيرهم من الكائنات المتكافلة من شرانقهم، وأصابهم فزع شديد.

سقطت قطرات المطر الأولى على الأرض كأنها طلقات الرصاص، وكانت نذيرًا بهطول وابل من المطر. وجاء المطر ثقيلًا حتى إنه أخذ ينحت في بيوت النمل الأبيض العتيقة التي تماثل الصخور صلابة. لم يكن هناك شيء يستطيع امتصاص هذه الأمطار الغزيرة، فالأرض عارية من العشب الذي يمسك التربة غير المتماسكة، وفي دقائق معدودة تدفقت المياه إلى الجداول

وقيعان الأنهار الجافة، واندفعت موجة هائلة من الماء والطمي إلى داخل المحجر، وتجمع الماء الذي لونه الطمي باللون الأحمر حول جذور الأشجار.

غير أن المطر هدأ سريعًا مثلما بدأ، وانقشعت السحب متجهة إلى قلب القارة العملاقة، وسرعان ما انحسر الماء بعدما شربته الرمال العطشى.

لم تر ألتميت قط عاصفة كهذه منذ أن فتحت أمها عينيها لأول مرة، ولم يكن من بين ما مر بها من خبرات ما يؤهلها لمواجهة هذا الوابل المروع. لكن الشجرة بحلمها وبطئها المميز للنباتات فهمت.

وعندما انكمشت ألتميت رعبًا في شرنقتها، أحست بالأوراق التي تلفها تنبض حول جسدها، وأحست أنها تود أن تمكث هنا في الظلام والرطوبة بدلًا من أن تواجه المجهول القابع وراء هذه الجدران التي تحيط بها، لكن الشجرة جعلت مشاعر الاضطراب والتوتر تتسلل إليها رغمًا عنها، لأنها أرادتها أن ترحل لتمارس عملها.

أسندت ألتميت ظهرها إلى جدار الشرنقة ودفعت بقدميها فانفصلت الأوراق بعضها عن بعض، وسقطت ألتميت من الشجرة وهبطت وسط الوحل.

كانت جماعة البشر في كل مكان حولها تهبط من الأشجار. أخذوا يجربون السير ويمشون على مفاصل أصابعهم، وأحسوا بملمس الطمي غريبًا عليهم، فهو مادة ثقيلة لزجة قرمزية اللون تلتصق بأرجلهم وأقدامهم وأيديهم.

عادت الشمس القاسية تتوهج من جديد، وبدأ الوحل يجف، والماء يتحول إلى بخار يحمله الهواء، والأرض تعود صلبة ساخنة. غير أنه خلال هذه الدقائق النادرة ضجت الأرض بالنشاط، فتحركت محاليق وأوراق — بل وأزهار — خارجة من قلب الوحل بسرعة كبيرة، وقد أنبتتها بذور ظلت خامدة قرنًا من الزمان، وسرعان ما تفتحت السبلات، وأخذت تطلق بذورًا جديدة في الهواء كأنها مدافع دقيقة، وكانت دورات تكاثرية كاملة تتم في دقائق.

خرجت الحشرات من مخابئها لترقص وتتزاوج فوق برك المياه المؤقتة، وعلى سطح الأرض زحفت أنواع أكثر من الحشرات: النمل والعقارب

والصراصير والخنافس وسلالاتها التي تحورت كثيرًا. كانت معظم أنواع النمل تتغذى على الأوراق، ورأت ألتميت صفوفًا هائلة من النمل تتحرك جيئة وذهابًا حاملة قطعًا صغيرة من أوراق النباتات النامية الخضراء إلى مستعمراتها.

كان هناك الكثير والكثير من السحالي الصغيرة، ولم يكن من السهل رؤيتها لأن لونها الأحمر يضاهي لون التربة بدرجة كبيرة. كانت السحالي تبحث عن الصيد في كل مكان، واستخدم بعضها استراتيجية بدائية للصيد فقبعت بجوار صفوف النمل وفتحت أفواهها في انتظار من تزل قدمها من تلك الحشرات الخرقاء.

انتزع أحد النباتات الصغيرة القوية الشبيهة بالصبار — أقرب إلى كرة من الجلد القوي والأشواك الدفاعية — جذوره العليا من التربة، متخليًا عن شبكة جذور ممتدة عميقة، وعلى هذه الجذور التي ترتعش كأنها أرجل لم تعتد الحركة، سار النبات وهو يترنح متجهًا ناحية المياه التي ما زالت تجري، وعندما وصل إليها غاص في الطمي وكأنه يتنهد ارتياحًا. وعلى الفور بدأت العضلات النباتية الضعيفة التي منحته القوة ليقطع هذه الرحلة القصيرة تتحلل، وبدأت جذور جديدة تشق طريقها في التربة الرطبة.

في كل مكان في المحجر أخذت جماعة البشر تتغذى على النباتات والزواحف والبرمائيات والحشرات التي ظهرت فجأة. كانت أغلبية الجماعة من البالغين، فالأطفال ندرة في هذه الأوقات العصيبة، وكانت الشجرة تؤدي دورها في هذا الصدد.

وها هي ذي ألتميت — التي لم تشهد قط عاصفة ممطرة — تتطلع إلى كل هذا في ذهول.

خرج من الأرض مخلوق أقرب إلى الضفدع، وقفز وترنح حتى وصل إلى أقرب البرك المؤقتة، حيث وثب إلى الماء وبدأ ينق نقيقًا مزعجًا مرشدًا من تبعه من الإناث إلى الماء. وسرعان ما تحولت البركة إلى ساحة محمومة لتزاوج البرمائيات. أمسكت ألتميت واحدًا من هذه الضفادع، وأحست كأنه كيس من الماء مغطى بالطمي، فضغطت عليه في فمها، وشعرت لفترة وجيزة ببرودته وقلبه يدق بقوة على لسانها، كأنه يحس بخيبة الأمل لأن انتظاره

الذي دام قرنًا داخل شرنقة من الطين الجاف سوف ينتهي هذه النهاية المخزية، ثم بدأت ألتميت تمضغ وتدفق الماء اللذيذ والدم المالح داخل فمها.

غير أن البرك آخذة في الجفاف، والماء تبتلعه الأرض الظامئة، وذرية الضفادع قد خرجت من البيض، وأخذت تتحور سريعًا، وتأكل الطحالب وحيوانات الجمبري الصغيرة، ويأكل بعضها بعضًا. خرج صغار الضفادع من الماء محاكين الآباء والأمهات، وفي الحال التهمتها جماعة من السحالي الصغيرة في نوبة من السعار، لكن الصغار كانوا بالفعل يحفرون في الطمي، ويعدون لأنفسهم فجوات مبطنة بالمواد المخاطية سيمكثون فيها عقودًا حتى تهب العاصفة القادمة. ستجف جلودهم، ويتقلص التمثيل الغذائي لديهم حتى يصلوا إلى حالة التوقف الحيوي.

أصبحت جماعة البشر تبتعد عن أماكن الاغتذاء، وكان بعضهم يحمل بذور الشجرة الثقيلة؛ قرونًا ضخمة حجمها كحجم رءوسهم، فهذا اليوم الغريب هو بالنسبة للشجرة — كما هو بالنسبة للضفادع — الفرصة التي لا تسنح إلا مرة كل مائة عام لتجعل حشودها من الكائنات المتكافلة تدفن لها بذور جيلها القادم.

رأت ألتميت كاكتاس تطارد سحلية صغيرة سريعة الحركة، ذات ذيل سمين مليء بالدهن المختزن.

ولدت كاكتاس في نفس الوقت الذي ولدت فيه ألتميت تقريبًا، ومعًا اكتسبتا بمرور الوقت خبراتهما عن العالم؛ تقاسمتا وتنافستا وتشاجرتا. كاكتاس صغيرة ممتلئة الجسم، وهذا غير مألوف في جماعتها الذين تغلب عليهم النحافة وطول الأطراف، وهي سمات تجعل من السهل على أجسامهم التخلص من الحرارة، وهي سريعة الغضب. كانت كاكتاس أقرب إلى رفيقة — بل شقيقة — لألتميت، لكنها لم تكن صديقتها، فالإنسان يحتاج إلى معرفة رؤية من يستطيع أن يدعوهم أصدقاءه، وهذه القدرة قد اختفت منذ زمن بعيد، ولم يعد البشر هذه الأيام يقيمون صداقات، فلا صديق لهم سوى الشجرة.

أرادت ألتميت أن تتبع كاكتاس، لكن انتباهها تشتت، ففجأة اشتاقت إلى الملح، وهذه رسالة الشجرة إليها؛ رسالة انطبعت في كيميائها العضوية

التي استمدتها من الشجرة أثناء وجودها في الشرنقة. الشجرة تحتاج إلى الملح وعليها هي أن تعثر عليه. تذكرت أين توجد طبقة من الملح، على بعد بضع مئات من الأمتار، فاتجهت إلى هناك لاإراديًّا.

ولكن في هذا الاتجاه تقف الكرة؛ تلك الكتلة الغامضة التي تتألق باللونين الأسود والأرجواني، والتي هبطت في صمت فوق الأرض التي تموج بالحركة.

ترددت ألتميت وتنازعتها رغبتان متعارضتان. كانت تعلم أن الكرة تحمل شرًّا، فعلى الرغم من تراجع الذكاء الإنساني منذ عهد بعيد، ظل الناس يحتفظون بفهم جيد لجغرافية الأرض ومواردها، فمهارة البحث عن الغذاء والماء لا غنى عنها للعثور على المأكل والمشرب وسط هذا الجفاف. لذا أدركت ألتميت جيدًا أنه لا مكان للكرة هنا، لكن هذا هو الطريق إلى الملح.

وعلى الرغم من شعورها بعدم الراحة، توجهت إلى هناك.

كان مستودع الملح موجودًا أسفل الكرة تقريبًا، ورأت أن الوحل قد التصق بسطحه اللامع. حاولت أن تتجاهل الكرة، وبدأت تزيل الطمي الجاف بأظفارها.

لم يكن هناك نقص في الملح، فمنذ مائة مليون سنة حينما تحركت القارات تلقائيًّا واتحدت مكونة بانجيا الجديدة، تكوّن بحر داخلي وغطى معظم مساحة أمريكا الشمالية، لكن اليابسة زحفت على البحر تاركة فقط بحيرات متفرقة من المياه شديدة الملوحة. إلا أن هذا البحر الذي اختفى خلَّف طبقة شاسعة من الرواسب الملحية؛ سهلًا لامعًا يمتد مئات من الكيلومترات. والسهل مغطى بالحطام الذي تنزل به الأمطار من أطلال الجبال التي تتآكل بسرعة، فهو مدفون الآن تحت أمتار من الرمال الحمراء بلون الصدأ، لكنه لا يزال موجودًا.

قبل مضي وقت طويل كانت ألتميت قد حفرت إلى أعمق نقطة استطاعت الوصول إليها بذراعها، وأخذت تخرج حفنات من التراب المزوج بالملح الأبيض الرمادي، وتلوك التراب حتى تذوب بلورات الملح في فمها، ثم تبصق الرمال. والآن وقد أصبح الملح في جوفها جاهزًا لتوصيله فيما بعد للشجرة، أحست ألتميت أنها قد أدت مهمتها.

مرة أخرى انتبهت لوجود الكرة، ورأتها قد تحركت من الموقع الذي رأتها فيه أول مرة، وأصبحت تحلق فوق سطح الأرض على ارتفاع يقترب من طول الإصبع.

اقتربت ألتميت من الكرة، وهي تمشي على رجليها الخلفيتين ومفاصل أصابعها، وشيء من الفضول يلتمع في عينيها. لم تشعر بخوف شديد، فعالمها الصحراوي يكاد يخلو من الأشياء الجديدة، لكنه أيضًا يكاد يخلو من المخاطر، ففي هذه المنطقة المسطحة المكشوفة تواجه الحيوانات المفترسة صعوبة في الإيقاع بأقل الفرائس ذكاء وأبطئها حركة.

تحسست الكرةَ بطرف إصبعها في حذر فوجدت حرارتها معتدلة، فوجدتها لا دافئة ولا باردة، وأحست بنعومتها، فهي أكثر نعومة من أي شيء لمسته من قبل. انتصب الشعر على يدها كالأشواك، كأنما تعرض لشحنة كهربية، وميزت رائحة غريبة كأنها رائحة قلب الصحراء ذاته؛ رائحة شياط كهربائية، رائحة احتراق، رائحة جفاف.

كانت رائحة المعدن المحترق ناتجة عن التعرض للفراغ؛ نتيجة للسفر عبر الفضاء.

بعد الانتهاء من البحث عن الطعام، عادت الجماعة واحدًا تلو الآخر إلى الشجرة، وتسلقوا فروعها، وأحكموا لف أوراقها حول أجسادهم.

لفت ألتميت الأوراق حول جسدها، وسرعان ما تلوى الجذر المغذي باحثًا عن الصمام فوق معدتها، ليستقر داخلها كأنه حبل سُرِّي أعيد توصيله. وفي حين بدأت سوائلها المحملة بالملح تسري إلى الشجرة، كوفئت ألتميت بمشاعر السلام والطمأنينة التي غمرتها، وهي مشاعر سببتها مواد كيميائية تسربت إلى جسدها وهي تستبدل بدمها عصارة الشجرة، وهي مكافأتها الفورية لجلب الغذاء للشجرة، أما مكافأتها على المدى البعيد فهي الحياة ذاتها. لم تكن الشجرة تأخذ شيئًا دون مقابل، فعلاقتها بالبشر ليست علاقة تطفل، بل علاقة تكافل حقيقية.

لكن شيئًا ما لم يكن على ما يرام، وشعرت ألتميت باضطراب وتوتر لا تستطيع التعبير عنه.

ومع أن العصارة أثقلت رأسها بالنعاس، ظل بالها مشغولًا بالطفلة التي ترقد في شرنقتها وإبهامها في فمها والجذر ملفوف أمامها. ثمة خطب ما. كل غرائزها تحدثها بذلك.

ازداد اندفاع العصارة إلى أمعائها وامتلأ دمها بالمواد الكيميائية المنومة، وكانت هذه الجرعة المركزة تعني أن الشجرة تريدها أن تظل هنا آمنة في شرنقتها، لكن ذلك الشعور المزعج بأن شيئًا ما ليس على ما يرام ظل يلح عليها.

انتزعت الجذر من معدتها، ودفعت بقوة بكتفيها وساقيها حتى انفتحت الشرنقة وهبطت هي إلى الأرض.

ولفترة وجيزة غمرها الدفء وبهر عينيها الضوء، فمع أن الوقت كان نهارًا والشمس لا تزال ساطعة، فإن الزمن داخل الشرنقة يتحرك بإيقاع يختلف عن العالم الخارجي، إيقاع تحدده الشجرة. كانت الأرض صلبة ومغطاة بالتراب، فيما عدا بضع بقع صنعتها قطرات المطر، واختفى أي أثر للعاصفة.

لم تر ألتميت أحدًا حولها، وكانت كل الشرانق مغلقة، كلها إلا واحدة. حدقت إليها كاكتاس من عل ورأسها الصغير بارز من شرنقتها نصف المغلقة، وبنظرة مرحة خرجت كاكتاس من شرنقتها وهبطت بجوار ألتميت.

وما زال شعور القلق يتزايد عند ألتميت.

فأسرعت إلى أسفل الشجرة ووجدت شرنقة طفلتها في مكانها في زاوية الغصن المنخفض، لكنها كانت مغلقة بإحكام، وعجزت ألتميت عن فتحها. انضمت إليها كاكتاس كما لو كانت هذه لعبة تلعبانها، وحشرتا أصابعهما في الشقوق بين الأوراق المنغلقة بقوة، وأخذتا تشدان وتدفعان بما لديهما من قوة، وتلهثان.

في الماضي كان يمكن أن يخطر لشخص ما أن يستخدم أداة لفتح غلاف الشرنقة، ولكن ليس الآن، فقد اندثر صنع الأدوات، وبليت كل مصنوعات الإنسان. ولم تكن ألتميت وكاكتاس بارعتين في حل المشكلات غير المألوفة، فهما لا تواجهان في عالمهما الممل كثيرًا من الأشياء الجديدة.

وأخيرًا انفتحت الشرنقة محدثة صوتًا.

وظهر جسد طفلة ألتميت وهو لا يزال مدثرًا بالنسيج الأبيض الشبيه بالقطن الذي يبطن الشرنقة، لكن ألتميت رأت على الفور أن النسيج الأبيض قد ازداد سمكًا، وأنه ينغلق على وجه الطفلة، وأن محاليق تخرج منه وتنغرس في فمها وأنفها وعينيها وأذنيها.

أجفلت كاكتاس، وظهر على وجهها تعبير الاشمئزاز.

وعرفت الاثنتان معنى ذلك، فقد رأتاه من قبل، الشجرة تقتل طفلة ألتميت.

بانجيا جديدة.

بعد مائة مليون سنة من دفن رميمبرانس في قبرها المجهول، بدأت الأمريكتان تنزلقان إلى الشرق مرة أخرى، وعندما انغلق المحيط الأطلنطي تحركت أفريقيا إلى شمال خط الاستواء، ودفعت يوراسيا أبعد ناحية الشمال. وفي غضون ذلك تحركت القارة القطبية الجنوبية إلى الشمال لتصطدم بأستراليا، وبدأ هذا التجمع الجديد يتحرك إلى شرق يوراسيا. وبهذا ولدت قارة عظمى جديدة. وصارت أفريقيا مركز القارة العظمى الجديدة، بعدما التحمت الأمريكتان بالجانب الغربي، ويوراسيا بالجانب الشمالي، وأستراليا والقارة القطبية الجنوبية بالجانبين الشرقي والجنوبي. وسادت الأحوال المناخية القاسية المناطق الداخلية البعيدة عن تأثير المحيطات، فأصبح الصيف جافًّا قائظ الحر، والشتاء قارس البرد.

زالت كل الحواجز التي كانت تقف في طريق الانتقال، ونشب نزاع شرس عندما بدأت النباتات والحيوانات تهاجر في جميع الاتجاهات، وكان هذا شبيهًا بالامتزاج العالمي الذي فرضه البشر خلال البضع آلاف من السنين التي سيطروا فيها على كوكب الأرض، ومثلما حدث من قبل كان اتحاد العالم بداية تدهوره، وبداية الانقراض السريع.

وبمرور الوقت ازدادت الأمور سوءًا.

بدأت الشيخوخة تدب بسرعة في القارة العظمي الجديدة، وأدت التصادمات التكتونية إلى تكوين جبال جديدة أسهم الحطام الناتج عن تآكلها في إثراء السهول بالعناصر الكيميائية المغذية مثل الفوسفور، ولكن

لم تعد هناك جبال جديدة تتكون الآن، ولم تعد هناك حركات رفع تكتونية، وبليت آخر الجبال. تسربت مياه الأمطار والمياه الجوفية إلى التربة، واستخلصت آخر ما فيها من مواد مغذية، وعندما نفدت لم يحل محلها شيء.

وتكونت صخور رملية حمراء جديدة، حمراء في لون الصدأ، حمراء كما كانت صحاري المريخ الخالية من الحياة: رمز الفناء، الرياح وعوامل التعرية، والبرودة والحرارة. وأصبحت القارة العظمى سهلًا شاسعًا قرمزي اللون يمتد آلاف الكيلومترات، ولا يوجد به سوى بقايا آخر الجبال.

في غضون ذلك أدى انخفاض منسوب المياه في البحر إلى كشف الأجزاء قليلة العمق من الرصيف القاري، وحالما جفت هذه الأجزاء بالكامل بدأت تتآكل، وتسحب الأوكسجين من الهواء. على الأرض مات كثير من الحيوانات بسبب الاختناق، وفي المحيطات أدى اختفاء التدرج الحراري من القطب إلى خط الاستواء إلى إبطاء حركة المياه في المحيط، فركدت المياه.

تساقطت الأنواع على الأرض وفي البحر كما تتساقط أوراق الأشجار في الخريف.

وفي عالم يتعرض للجفاف، لم تعد ألعاب التنافس المألوفة بين الضواري والفرائس ناجحة، فلم يعد في العالم طاقة تكفي الشبكات والأهرام الغذائية الهائلة والمعقدة.

وبدلًا من ذلك عادت الحياة تعتمد على استراتيجيات موغلة في القدم.

مبدأ المشاركة قديم قدم الحياة ذاتها، وحتى خلايا جسد ألتميت جاءت نتيجة اندماج صور أكثر بدائية، فأقدم أشكال البكتريا كانت مخلوقات بسيطة تعيش على الكبريت وحرارة الأرض الهائلة في بداية تكوينها، وكان ظهور السيانوبكتريا (الطحالب الخضراء المزرقة) كارثة عليها، فهي أول مخلوقات تقوم بعملية البناء الضوئي التي تستخدم أشعة الشمس لتحويل ثاني أكسيد الكربون إلى كاربوهيدرات وأوكسجين، والأوكسجين الناتج عن التفاعل يعد سُمًّا قاتلًا للأشكال الأولى من البكتريا.

وتمكنت الكائنات الناجية من البقاء بفضل التعاون فيما بينها، فاندمج كائن يتغذى على الكبريت بكائن آخر بدائي حر المعيشة يسبح في الماء، وفيما بعد انضم إلى هذا المزيج نوع من البكتريا يتنفس الأوكسجين،

وأصبح هذا الكيان الذي يضم ثلاثة عناصر — كائن يسبح في الماء وكائن يتغذي على الكبريت وكائن يتنفس الأكسجين — قادرًا على التكاثر عن طريق انقسام الخلايا، وعلى ابتلاع الطعام. وفي مرحلة رابعة امتصت بعض الكائنات الناتجة بكتريا خضراء تقوم بعملية البناء الضوئي، ونتجت عن ذلك الطحالب الخضراء التي تسبح في الماء، وهي سلف جميع الخلايا النباتية. وهكذا دواليك.

طوال فترة تطور الحياة كان هناك كثير من المشاركة، إلى حد تبادل المادة الوراثية. فالبشر أنفسهم — وأحفادهم، ومنهم ألتميت — كانوا أشبه بمستعمرات من كائنات متعاونة، بدءًا من البكتريا النافعة التي تعيش في أمعائهم وتساعد في هضم الطعام، إلى الميتوكوندريا التي امتُصَّت منذ ملايين السنين، والتي تعد مصدر الطاقة لخلاياها.

وهذا ما صار إليه الوضع حاليًّا. إن حدس جوان يوسِب منذ وقتٍ طويل كان صائبًا، فمستقبل البشر — بطريقة أو بأخرى — هو التعاون بعضهم مع بعض، ومع المخلوقات التي تحيط بهم. لكنها لم تكن لتتوقع هذا على الإطلاق؛ الصورة الأخيرة من صور التعاون.

إن الشجرة وهي تنحدر من أشجار البارومتز التي عاشت أيام رميمبرانس قد أخذت بمبدأ التعاون والتبادل إلى أبعد مدى لهما، والآن لا تستطيع الشجرة أن تعيش بدون النمل الأبيض وغيره من الحشرات التي توصل الغذاء إلى جذورها العميقة، ولا تستطيع العيش بدون الثدييات ذات الفراء والأعين اللامعة التي تحمل لها الماء والطعام والملح، وتزرع بذورها. ولو تحرينا الدقة لقلنا إن أوراقها تنتمي لنبات آخر يعيش على سطحها ويتغذى من عصارتها.

غير أن الكائنات الأخرى المتكافلة — ومنها جماعة البشر — ما كانت لتعيش بدون الشجرة، فأوراقها القوية تحميهم من الضواري، ومن الحرارة الشديدة، ومن العواصف الممطرة التي تهب مرة واحدة في القرن. والعصارة تصل عن طريق الجذور المغذية التي تمدها الشجرة إلى أحشائهم، وبالطريقة نفسها تحصل الشجرة على غذائها. ولم يكن الأطفال يعتمدون في التغذية على الرضاعة، بل تحتضنهم الشجرة، وتغذيهم باستعمال هذه الأحبال

السُرِّية النباتية. والعصارة التي تمتصها الشجرة من المياه الجوفية المدفونة على أعماق كبيرة أمدتهم بأسباب الحياة خلال أسوأ فترات الجفاف القاري، وساعدت المواد الكيميائية المفيدة التي تحملها في شفاء إصاباتهم وأمراضهم. بل أدت الشجرة دورًا في تكاثر البشر.

كان الجنس لا يزال موجودًا في ذلك الوقت، لكن في صورته المثلية فقط، إذ لم يعد هناك إلا جنس واحد. وكان يُمارَس من أجل الترابط الاجتماعي والمتعة والراحة، فلم يعد الناس يحتاجون الجنس من أجل التكاثر، ولا من أجل مزج المادة الوراثية، فالشجرة تفعل كل ذلك، فهي تحمل مع عصارتها السوائل من أحد الوالدين، وتنقلها عبر جسمها القوي، وتمزجها بغيرها، ثم توصلها إلى الآخر.

لكن البشر ما زالوا ينجبون، وقد أنجبت ألتميت نفسها هذه الرضيعة التي ترقد في المهد المصنوع من أوراق الشجرة. وتبين أن هذه الرابطة القوية بين الأم وطفلها تراث لا يمكن التنازل عنه. لكن الأم لم تعد تغذي طفلها، لا عن طريق الرضاعة ولا بأي وسيلة أخرى، وكل ما عليها أن تعطيه لطفلها هو الاهتمام والحب. ولم يعد عليها تربيته، لأن الشجرة تتولى كل ذلك عن طريق الآليات العضوية في شرانقها الورقية.

بالطبع ما زال الانتخاب الطبيعي موجودًا نوعًا ما، فهؤلاء الذين يتعاونون جيدًا مع الشجرة ومع رفاقهم هم وحدهم الذين تحتضنهم الشجرة وتسمح لهم بتوريث مادتهم الوراثية. أما المرضى والضعفاء والمشوهون فيُطردون بلا رحمة.

ربما بدا هذا الاندماج بين مملكتي النبات والحيوان مستبعدًا، لكن التكيف والانتخاب الطبيعي إذا توفر لهما الوقت الكافي يستطيعان تحويل سمكة رئوية ذات أربعة زعانف إلى ديناصور، أو إلى إنسان أو حصان أو فيل أو خفاش، أو تعيدها حوتًا مرة ثانية، وهو مخلوق يشبه الأسماك. وبالمقارنة يبدو اتصال البشر والأشجار عن طريق حبل سري إنجازًا بسيطًا من إنجازات إعادة الهندسة.

حملت الأساطير القديمة للبشر الذين اندثروا إرهاصات بتلك العودة الجديدة، فقد تحدثت أساطير حمل التارتاري Lamb of Tartary في العصور

الوسطى عن شجرة البارومتز التي كانت ثمارها تحوي حملانًا بالغة الصغر. ومع أن أساطير البشر طواها كلها النسيان، فإن قصة البارومتز، والعلاقة المتشابكة التي ترسمها بين الحيوان والنبات، لها أصداء غريبة في الزمن الحالي.

لكن هناك ثمنًا لكل شيء كما هو الحال دائمًا، فهذه العلاقة التكافلية المعقدة مع الشجرة قد فرضت نوعًا من الخمول على البشر في عصر ما بعد الإنسان. وبمرور الوقت، تكيفت أجسام ألتميت وأفراد نوعها لمقاومة الحرارة والجفاف، وأصبحت أقل تعقيدًا وأكثر كفاءة. وما إن حدث هذا الترابط المهم بين البشر والشجرة، أصبح كلاهما متكيفًا تمامًا مع الآخر، ولم يعد أي منهما يستطيع التغير سريعًا.

ومنذ أن وجدت الأحبال السُرِّية الملتوية طريقها إلى بطون البشر، ومنذ أن تجمع البشر أول مرة في أحضان أوراق البارومتز، مرت مائتا مليون سنة في غفلة.

غير أن العلاقة التكافلية تظل حتى الآن — بعد مرور كل ذلك الوقت — ضعيفة إذا ما قورنت بالقوى القديمة.

وبطريقة ما توصلت الشجرة إلى أن البشر الآن لا يتحملون إنجاب طفل آخر، وكانت تعيد امتصاص طفلة ألتميت، وتسترد مكوناتها.

إنها عملية حسابية قديمة: من الأفضل في الأوقات العصيبة التضحية بالصغار الضعفاء والإبقاء على الأشخاص البالغين الذين قد ينجبون مرة أخرى عندما تتحسن الأحوال.

لكن الطفلة أوشكت على أن تصل إلى سن تتمكن فيه من إطعام نفسها، ولو مُنحَت مزيدًا من الوقت لعاشت لتصبح مستقلة. وهذه هي طفلة ألتميت، أول طفلة لها، وربما الوحيدة التي سيسمح لها أن تنجبها. تصارعت الدوافع القديمة، وهذا الصراع بين الغرائز قصور في التكيف.

إنها قصة قديمة ترددت كثيرًا في عصر بورجا وعصر جونا، لكن بالنسبة لألتميت هنا في نهاية الزمن، كانت المشكلة مؤلمة وكأنها سُكَّت في نيران الجحيم.

استغرق الأمر لحظات لتحسم أمرها، وفي النهاية تغلبت الرابطة القوية بين الأم وطفلتها على الروابط بين الكائنات المتكافلة، فغرست يديها في النسيج الشبيه بالقطن، وسحبت طفلتها من الشرنقة، واقتلعت الجذر المغذي من أحشاء الصغيرة، وانتزعت الألياف البيضاء من فمها وأنفها. فتحت الصغيرة فمها، وحركت رأسها.

شاهدت كاكتاس ما حدث في ذهول، ووقفت ألتميت تلهث وفمها مفتوح.

ماذا تفعل الآن؟ كانت واقفة هناك تحتضن طفلتها متحدية الشجرة التي منحتها حياتها. صارت ألتميت وحدها، وقد تجاوزت حدود غريزتها وخبرتها. لكن الشجرة حاولت قتل طفلتها، فلا مجال إذن للاختيار.

ابتعدت ألتميت خطوة عن الشجرة، ثم خطوة أخرى، ثم خطوة أخرى.

ثم أخذت تعدو، ومرت بالمكان الذي حفرت فيه لإخراج الملح، كانت الكرة قد رحلت وتلاشت من ذاكرتها، وظلت تجري وطفلتها بين ذراعيها حتى وصلت إلى جدران المحجر، وتسلقتها في لمح البصر.

ثم ألقت نظرة على المحجر الهائل وراءها، ورأت أرضه مغطاة بأشباح أشجار البارومتز الصامتة الكئيبة. وعندئذ لحقت بها كاكتاس وهي تجري وعلى وجهها ابتسامة تحد.

٢

كانت الأرض عارية إلا من بضع أشجار قصيرة، وشجيرات ذات لحاء كالصخر وأوراق كالأشواك، ونباتات صبار صغيرة صلبة كالحصى ومزودة بأشواك مليئة بالسم. وهذه النباتات تدافع بعنف عن مائها، وكانت ألتميت وكاكتاس تعلمان تمامًا مدى خطورة الاقتراب من هذه النباتات ما لم تكن هناك حاجة ملحة لذلك.

عليك أن تنتبه جيدًا أين تضع يديك وقدميك.

هناك تجاويف في سطح الصحراء القرمزي، تجاويف حمراء زاهية تشبه الأزهار بعض الشيء، ولا تكاد ترى وسط التربة الحمراء، وفي مراكزها نقاط مظلمة. ومن حين لآخر تسقط السحالي والبرمائيات — بل وبعض

الثدييات — في هذه الشراك المنصوبة على حين غفلة، ولا تخرج مرة ثانية، لأن هذه التجاويف أفواه.

وهذه الأفواه تنتمي لكائنات تعيش في جحور ضيقة تحت الأرض، كائنات بلا أعين ولا شعر، وسيقانها متحورة إلى أعضاء تشبه الزعانف القصيرة مزودة بمخالب تحفر بها في الرمال، وهي من القوارض، من بين آخر بقايا السلالات الكبيرة التي سيطرت على الكوكب فيما مضى.

لم يكن هذا الزمن الذي صارت فيه الأرض مكشوفة وقلت فيه المخابئ زمن الضواري الكبيرة، واضطر من بقي منهم إلى البحث عن استراتيجيات جديدة. تقضي هذه القوارض المتحورة حياتها في فجوات في الأرض مترقبة سقوط أي فريسة في فمها، وتعيش بمعزل عن تقلبات المناخ، ولا تتحرك من جحورها إلا بغرض التزاوج، ولذلك تتميز أجسادها ببطء عمليات التمثيل الغذائي والصغر الشديد في حجم المخ، فمطالبها في الحياة محدودة وهي راضية بحياتها.

لم يكن صعبًا على مخلوقات في ذكاء ألتميت وكاكتاس أن تتجنب هذه القوارض، وتقدمت الرفيقتان جنبًا إلى جنب.

وصلتا إلى مجرى جدول جاف ملأته العاصفة المطيرة بالحصى والصخور حتى كادت تسده تمامًا، لكن بقي تيار بسيط من مياه الجريان السطحي الممزوجة بالطمي. جثت كاكتاس وألتميت وهي تحمي طفلتها ودفعتا وجهيهما في الماء وهما تمتصانه بامتنان.

وجدت ألتميت نباتًا هنا في هذه التربة الرطبة، كان نوعًا من الأوراق الزاحفة القاتمة المجعدة بعض الشيء، شكلها عتيق جدًّا، وتبدو بدائية للغاية حتى إنها لا تملك وسائل للنمو في اتجاه الضوء. الواقع أن هذا النبات ينحدر من سلالة حشيشة الكبد، ولم تطرأ عليه أي تغيرات تقريبًا مع مرور الوقت، فهو نسخة غير معدلة تقريبًا من أحد النباتات الأولى التي عاشت على الأرض؛ أرض لم تختلف كثيرًا عن هذا المكان الجاف. دارت عجلة الزمن ووجدت حشيشة الكبد مكانًا تعيش فيه. تملَّك ألتميت الفضول فانتزعت الورقة من الصخرة التي التصقت بها ومضغتها، فوجدتها شمعية لزجة،

ثم قبَّلت طفلتها تاركة قطعًا من الورقة تنساب إلى فمها. أخذت الطفلة تقضم بصوت مسموع وعيناها الصغيرتان تتحركان في محجريهما.

رأت ألتميت بالقرب من أحد نباتات الصبار الشبيهة بالحصى خنفساء، ظهرها فضي اللون، تجاهد لدفع كريَّة جافة من الروث في شق صغير، وفكرت ألتميت لفترة قصيرة أن تمسك بالخنفساء.

لكن الخنفساء بعد أن خرجت من ظل نبتة الصبار انقض عليها من الظلام شبح قرمزي صغير، كانت سحلية أصغر من خنصر ألتميت، ورأسها أصغر كثيرًا من الخنفساء نفسها، لكنها أطبقت فكيها على مؤخرة الخنفساء. سمعت ألتميت صوت القضمة الخافت، وحركت الخنفساء أرجلها وقرونها، لكنها لم تستطع الفكاك. وبعد أن انتهت شحنة الطاقة التي تفجرت عند السحلية، نشرت أغشية كبيرة تشبه الأشرعة من أرجلها وعنقها، وهذه المراوح التي تستعملها للتبريد جعلتها تبدو في ضعف حجمها الأصلي، وأكسبها لونها الأحمر قدرة على التمويه وسط تربة بانجيا الجديدة ذات اللون الأحمر. بدأت السحلية — وهي آمنة من ارتفاع الحرارة — تستمتع بامتصاص السوائل الحيوية الملحية ببطء عبر درع الخنفساء.

لكنها لم تنل هذه المتعة، ففجأة ظهر طائر صغير أسود الريش لا يطير، وله جناحان قصيران أثريان، ودون تردد انقض على السحلية بدقة قاتلة بمنقار أصفر مليء بأسنان بالغة الصغر. أطلقت السحلية الخنفساء وحاولت أن تفر إلى أسفل نبتة الصبار، وقد طوت أشرعتها المروحية، لكن الطائر أمسك بواحدة من زعانفها وجذبها ثانية إلى الضوء وهو يطوح جسدها الصغير.

زحفت الخنفساء المشوهة ناحية كاكتاس، فأمسكتها بمخلبها الصغير وألقتها في فمها.

كان حولهم كثير من الطيور، فهذه السلالة القديمة العظيمة تتمتع بقدرة هائلة على التكيف مع أي ظروف، حتى مع عالم اليوم القاسي الذي تغير كثيرًا. لكن معظم الطيور في هذا الزمن لا تطير، فلماذا تطير وليس هناك ما تفر منه، وليس هناك مكان تذهب إليه يختلف عن مكانها الحالي؟ ولذا ألفت الطيور الأرض، واتخذت أشكالًا كثيرة.

في غضون ذلك خرج مزيد من السحالي تحت قدمي كاكتاس بعد أن أثار اضطرابها هجوم الطائر. كانت هناك أعداد كبيرة منها، كلها أصغر من الزعنفة المروحية التي أمسكها الطائر، وأصغر من أظفار ألتميت، بل إنها صغيرة جدًّا لدرجة أنها تضطر إلى تسلق الحصى وهبوط الحفر الصغيرة في التراب كأنها تلال ووديان. اندفعت السحالي في كل الاتجاهات وقد أفاقت من نومها اليومي، وراحت تستتر خلف الصخور والحصى.

شاهدت ألتميت كل ذلك في افتتان.

مع استمرار الجفاف العظيم في بانجيا الجديدة اندثرت الكائنات كبيرة الحجم، فوسط الجدب الذي سيطر على القارة العظمى لم يعد هناك مكان يصلح لاختباء مخلوق بحجم ألتميت، ناهيك عن غزال أو أسد، واختفى على مستوى الأنواع الضخمة الصراع القديم بين الضواري والفرائس.

لكن على مستوى الأنواع الأصغر حجمًا ظهر نظام بيئي جديد، فتحت قدمي ألتميت كانت هناك فجوات في الصخور، وشقوق في الرمال، وثقوب في جذوع أشجار البارومتز، وتشابكات في المجموع الجذري. وحتى في أكثر المناطق انبساطًا، هناك تضاريس تستطيع — إن كان حجمك صغيرًا بدرجة كافية — الاختباء فيها من الضواري، أو نصب شراك للفرائس، أو التواري عن أعين الآخرين.

ولكن إذا كان عالم المخلوقات الصغيرة لا يزال يتمتع بالكثير من فرص العيش، فهو عالم معظم مخلوقاته من ذوات الدم البارد.

تحتفظ الحيوانات ذات الدم الحار بدرجة حرارة العالية ثابتة في أجسادها، لكن هناك عاملًا يحدد كمية الشعر والدهون العازلة التي يستطيع الحيوان أن يحملها قبل أن يتحول إلى إلى كرة مشعرة عاجزة عن الحركة، وهو أقصى معدل انبض قلبه. وصل طول آخر حيوانات الخلد إلى سنتيمتر واحد وكانت قلوبها المتناهية الصغيرة تنبض بسرعة هائلة. لكن حجم هذه الحيوانات لا يزال يعد ضخمًا، فهناك أنواع كثيرة من الكائنات تقل عن هذا الحجم وتتنوع أنماط حياتها.

تنتمي هذه الكائنات الصغيرة كلها إلى الحشرات والزواحف والبرمائيات. ونظرًا لصغر حجمها وضمور أجسادها، تتوارى ذوات الدم البارد من

حرارة الشمس وبرد الليل تحت الصخور وفي ظل الأشجار ونباتات الصبار. وتستطيع الآن أن تجد في حفنة من التراب كائنات كاملة التكوين تنحدر من الضفادع والسمادل والثعابين، بل والتماسيح التي لا نهاية لقدرتها على التحمل، وهناك على جانب ذلك أسماكًا رئوية ضئيلة، ومخلوقات فضية صغيرة تكيفت في وقت قصير مع الحياة على الأرض بعد أن جفت المسطحات المائية الداخلية. صارت أكبر القارات تسيطر عليها أصغر الكائنات.

ولولا الشجرة لما استطاعت الثدييات الكبيرة ذات الدم الحار — مثل جماعة ألتميت — أن تعيش طويلًا، فهي كائنات ترجع إلى عصور أكثر رخاء، وتبدو في غير موضعها في هذه البيئة الفقيرة. عندما تواصل الارتفاع في درجة الحرارة، واستمر الجفاف الكبير، انكمشت الجماعات التي تسكن الأشجار، وأخذ الموت يحصد أفرادها واحدًا واحدًا. لكنها نجحت في البقاء، وها هي ألتميت آخر حلقة في سلسلة هائلة تضم الآن مائة مليون جدة، كلهن تحورن وتغيرن وأحببن وانتهت حياتهن، وتعود السلسلة إلى بورجا نفسها، وإلى كائنات سابقة لها.

شاهدت ألتميت وكاكتاس الحركة النشطة للكائنات الصغيرة فوق التراب، ثم انقضتا وهما تصيحان على السحالي المندفعة هنا وهناك. وكان معظمها أصغر من أن تستطيعا الإمساك بها، فما أن تقبض كفك عليها حتى تخرج من الجهة الأخرى. وحتى عندما تمكنت ألتميت من وضع واحدة منها في فمها، أحست أنها لقيمة صغيرة لا تسد جوعًا.

غير أنهما كانتا تلهوان، فلا حاجة بهما إلى أكل السحالي، ولا يزال اللهو ممكنًا حتى الآن. ووسط الصمت المخيم على بانجيا الجديدة، رددت الصخور العارية أصداء صياحهما ومرحهما، فليس هناك على امتداد البصر كائنات كبيرة تتحرك غيرهما، في أي مكان.

حل الغروب سريعًا.

وقد غسلت الأمطار الهواء من الغبار، وعندما أوشكت الشمس على المغيب، ارتسمت الظلال على الأرض المنبسطة، والمرتفعات الصغيرة، وكثبان الرمال، والحصى الذي يلقي بظلال تمتد عشرات الأمتار. وتحول لون السماء

من الأزرق إلى الأرجواني، ثم آل آخر الأمر إلى السواد. كان غروبًا كالغروب على سطح القمر الخالي من الهواء.

انكمشت ألتميت بجانب كاكتاس وبينهما الصغيرة. قضت ألتميت كل ليالي عمرها في حضن الشجرة، والآن تبدو لها الظلال براثن طير جارح تمتد إليها.

ولكن عندما انخفضت درجة الحرارة ظهرت قدرة ألتميت على التكيف مع الصحراء.

كان جلدها ساخنًا، فجسمها يختزن الحرارة أثناء النهار في طبقات الدهون والأنسجة، وفي هواء الليل البارد يشع معظم هذه الحرارة إلى البيئة مرة ثانية. ولولا هذه الحيلة التي تستعملها للتبريد لاضطرت إلى التخلص من هذه الحرارة عن طريق العرق، ولأدى هذا إلى فقدان ماء لا تتحمل إهداره. وكانت كاكتاس وألتميت تتنفسان بعمق وبطء لكي تحصلا على أكبر كمية من الأوكسجين مع كل شهيق وزفير، ولا تفقدا إلا أقل قدر من الماء. وفي غضون ذلك كان جسد ألتميت يصنع الماء من الكاربوهيدرات في الطعام الذي تناولته، وسينتهي الليل وقد ازدادت نسبة الماء المدخر في جسدها.

غير أنه مع هذه الهندسة الفسيولوجية الرائعة، لم يكن لديهما ما يفعلانه سوى الجلوس وتحمل الليل، والتنفس ببطء، والوصول إلى حالة أشبه بالأحلام مع تباطؤ أداء جسديهما.

في حين تجلت فوقهما سماء خلابة.

بدت المجرة واضحة أمام ناظري ألتميت، وظهر الذراعان اللولبيان الهائلان كأنهما ممران ساطعان يمتدان عبر صفحة السماء المرصعة بنجوم زرقاء كاللازورد وسُدُم حمراء كالياقوت، وفي مركز القرص يقع مركز المجرة، وهو مجموعة من النجوم لونها بين الأصفر والبرتقالي تشبه صفار البيض المقلي، وقد استغرق الضوء خمسة وعشرين ألف سنة ليصل إلى الأرض من هذا المركز المزدحم.

في زمن البشر كانت الشمس جزءًا من هذا القرص المسطح العملاق، ولم تكن المجرة ترى إلا من حوافها، وحال دون رؤية بهائها سحب الغبار

التي غطت القرص. أما الآن فقد تحركت الشمس في مدارها البطيء حول المركز المجرة إلى خارج مستوى المجرة. كان هذا يشبه التطلع إلى أضواء مدينة خفية.

أجفلت ألتميت.

فقد ظهر في السماء قوس عظمي. كان هذا هو القمر؛ هلال رفيع في طريقه ليصير محاقًا، وظل الوجه الحليم الذي حدق إلى الأرض قبل ظهور الإنسان بوقت طويل كما هو تقريبًا بعد مرور نصف مليار عام. لكن نور هذا الهلال النحيل أشد سطوعًا في القارة العظمى عنه في الأراضي المستوية في الماضي، لأن نور القمر انعكاس لضوء الشمس التي اشتد ضوؤها.

لو عرفت ألتميت أين توجه بصرها لرأت بقعة خافتة في السماء بعيدًا عن قرص المجرة تُرَى بوضوح في الليالي الصافية. هذه البقعة الخافتة هي المجرة الهائلة أندروميدا التي يبلغ حجمها ضعف حجم جارتها، وتبعد عن الأرض مليون سنة ضوئية. لكن بعدها عن الأرض في زمن البشر كان يبلغ ضعف هذه المسافة، وحتى في ذلك الوقت كانت تُرى بالعين المجردة.

أندروميدا ودرب التبانة في طريقهما إلى الاصطدام بعد نصف مليار سنة أخرى، وستمر المجموعتان النجميتان العملاقتان إحداهما خلال الأخرى كأنهما سحابتان تمتزجان، وسيندر التصادم المباشر بين النجوم. لكن سيولد عدد كبير من النجوم، وستتفجر طاقة تغمر مركزي المجرتين بالإشعاع الثقيل. سيكون مهرجانًا رائعًا وقاتلًا من الأضواء.

غير أنه بحلول ذلك الوقت لن يبقى إلا قلة من الأحياء على الأرض لمواجهة هذه الكارثة، فزيادة توهج الشمس كان آخر الأزمات التي واجهتها الحياة.

جاء الصباح بإطلالته المفاجئة، واتجهت السحالي والحشرات إلى الشقوق والجحور حيث ستختبئ طوال النهار منتظرة مجيء المساء.

بكت الطفلة، وقد تلبد فراؤها، وبدت الفتحة المخصصة للجذر المغذي ملتهبة. ظلت الصغيرة تشكو ورأسها الصغير يتحرك جيئة وذهابًا، حتى مضغت ألتميت بعضًا من نبات حشيشة الكبد في فمها، وأطعمته للطفلة.

وأخذت كاكتاس هي الأخرى تزمجر وهي تنفض عن فرائها التراب والفضلات الجافة.

وفي الصباح بدا لهما أن وجودهما في العراء في هذا المكان النائي عن مسكنهما لم يكن فكرة جيدة، لكن ألتميت عرفت عندما احتضنت طفلتها أنها مضطرة لأن تبقى بعيدة عن الشجرة، أو تفقد طفلتها، فتشبثت بهذه الحقيقة المؤكدة.

سلكت ألتميت وكاكتاس طريقًا عشوائيًّا عبر المنطقة، متجهتين بعيدًا عن المحجر، وكما فعلتا في اليوم السابق أكلتا حيث استطاعتا العثور على الطعام، لكنهما لم تجدا ماء، وتجنبتا أفواه الفئران وغيرها من المخاطر.

وفي وقت ما بعد ظهر هذا اليوم، عندما بدأت الشمس رحلتها نحو المغيب، وجدت ألتميت نفسها فجأة في مواجهة الكرة مرة ثانية.

كانت قد نسيت وجودها، ولم يجل بخاطرها أن تتساءل كيف انتقل جسم هائل كهذا إلى هنا من المحجر؟

لم تُبد كاكتاس أي اهتمام بعد أن أدركت أن الكرة ليست شيئًا يؤكل، فمرت بها وهي تزمجر وتنفض الغبار الأحمر عن فرائها.

سارت ألتميت وطفلتها نائمة بين ذراعيها نحو الكتلة ذات اللونين الأرجواني والأسود، وتشممتها ثم تذوقتها هذه المرة، وللمرة الثانية أحست بمذاقها الكهربي غير المألوف. ظلت ألتميت واقفة في مكانها كأن شيئًا ما يجذبها، لكن الكرة لم تقدم لها شيئًا.

ولكن فجأة أخذت كاكتاس تصرخ وتتقلب على الأرض، فاستدارت ألتميت وانحنت على الأرض، كانت ساق كاكتاس اليسرى عالقة والدم يتفجر من قدمها، وسمعت ألتميت صوت عظام تنسحق، كما لو أن فمًا عملاقًا يلتهم ساق كاكتاس.

لكنها لم تر ذلك الفم.

ولم تكن هناك أسنان أو مخالب تمسك بكاكتاس، لكن جروحًا ظهرت على صدرها وجذعها كأنما جاءت من العدم، وسال منها دم تثير حمرته الفزع. ومع ذلك قاتلت وأخذت تطوح بقبضتيها وتركل، وحاولت أن تعض حتى وهي تصرخ، وأصابت ضرباتها أهدافًا، إذ سمعت ألتميت صوت لحم

يتلقى ضربات، وكانت هناك بقع ملونة عجيبة في الهواء فوق كاكتاس؛ بقع أرجوانية وزرقاء، وبدأ دمها يرسم حدود مهاجمها ببقع قرمزية. وبصعوبة استطاعت ألتميت أن تميز جذعًا أسطوانيًّا طويلًا، وساقين غليظتين وقصيرتين، وفم واسع ينهش.

لكن كاكتاس كانت تخسر معركتها، وانحشرت ساقاها والجزء العلوي من جسدها تحت الكتلة اللامعة، فالتفتت إلى ألتميت ومدت يدها نحوها.

تنازعت الغرائز في نفس ألتميت، وربما اختلف الأمر لو كان بوسعها أن تتصور شعور كاكتاس؛ الرعب الهائل الذي يعصف بها. لكن ألتميت كانت عاجزة عن ذلك، فالتعاطف من السمات التي فقدتها البشرية ضمن ما فقدت.

طال تردد ألتميت أكثر من اللازم.

ارتفعت تلك الكتلة غير واضحة المعالم إلى أعلى ثم هبطت فوق كاكتاس، فاندفعت دماء كثيفة تلك المخلوقة البائسة.

هنا تلاشت صدمة ألتميت، فصرخت صرخة رعب، ثم استدارت ولاذت بالفرار، وطفلتها تصرخ وتتعلق بصدرها، وهي تجر قدميها ويدها الحرة على الأرض المغبرة، وظلت ماضية في طريقها حتى وصلت إلى صخرة قرمزية قمتها متآكلة.

ألقت بنفسها على الأرض ونظرت خلفها، ورأت كاكتاس ساكنة بلا حراك، لكنها لم تستطع أن ترى شيئًا من الجسم الشفاف الهائل الذي أهلكها. غير أن مخلوقات جديدة ظهرت وكأنها خرجت من العدم. كانت تبدو كالضفادع بأجسادها المفلطحة وجلودها القوية المميزة للبرمائيات، وأقدامها ذات المخالب، وأفواهها الواسعة المجهزة بأسنان حادة كالإبر قادرة على التمزيق والانتزاع. اقتربت شقت إحداها صدر كاكتاس، وأخذت تلتهم الأعضاء التي ما زالت دافئة.

أدى المفترس الخفي مهمته، ورقد منهكًا في بحيرة من دم كاكتاس، ووصل به الإعياء درجة أعجزته عن إطعام نفسه، فاكتفى بالفتات التي حملها له إخوته الجشعون. وكان اللحم يظهر وهو يتمزق بين أسنانه الطاحنة، ثم يمر إلى المريء والمعدة حيث تبدأ آليات الهضم في امتصاصه وتمثيله.

خلا العالم، وكشفت عوامل التعرية سطح الأرض، وأصبح الافتقار إلى المخابئ القاتل الأساسي، ففي منطقة منبسطة كمنضدة البلياردو لا تستطيع إخفاء سمندل وزنه ألف كيلوجرام، ولو صبغته بلون الصخور الأحمر. لهذا اختفت معظم الكائنات الكبيرة سريعًا، بعد أن تفوقت عليها مثيلاتها الصغيرة.

لكن هذه الكائنات اتبعت استراتيجية جديدة؛ قمة التمويه. واستغرقت إعادة التصميم عشرات الملايين من السنين.

الاختفاء — أو على الأقل الشفافية — استراتيجية اتبعتها بعض الأسماك في العصور القديمة، وكانت هناك بدائل شفافة لمعظم المواد البيوكيميائية في الجسم، وكان من الضروري العثور على بديل للهيموجلوبين على سبيل المثال، وهو البروتين الأحمر الذي يتحد مع الأكسجين في خلايا الدم لنقله إلى جميع خلايا الجسم.

بالطبع ليس في استطاعة أي مخلوق يعيش على البر أن يصبح خفيًّا تمامًا، فحتى في هذه العصور الجافة كان الماء هو المكون الأساسي في أجسام كل الحيوانات، ولا تستطيع الوصول إلى الخفاء إلا الكائنات المغمورة في الماء حيث عاشت تلك الأسماك الشفافة المنقرضة. لكن الضوء يتحرك حركة مختلفة خلال الماء والهواء، وفي الهواء بدا الشكل البري الأخير غير المرئي أقرب إلى قربة ضخمة من الماء موضوعة على التراب.

غير أن هذا الأسلوب حقق نجاحًا، فلن يراك أحد ما دمت ساكنًا بلا حراك، ولن تظهر إلا هالة من الضباب، أو اضطرابًا طفيفًا يمكن بسهولة أن تظنه هالة حرارية، وتستطيع أن تكمن بجوار مرتفع صخري، مطمئنًّا إلى أنه لن يظهر منك للفريسة إلا أخفى أجزائك. بل إن لك فراء شفافًا كالألياف الضوئية ينفذ بعضًا من ألوان الخلفية ليربك فريستك.

مع ذلك لم يستخدم حيلة الاختفاء إلا بضعة أنواع، لأن الاختفاء آفة.

فكل الأخفياء بالطبع مصابون بالعمى، لأن الشبكية الشفافة لا تمتص الضوء، وفوق ذلك كانت الكيمياء الحيوية لهذه الكائنات أقل كفاءة بكثير لأنها مقيدة باستخدام المواد الشفافة فحسب، وليست هناك حماية — حتى للأجزاء الداخلية — من ضوء الشمس الساطع وحرارتها وأشعتها فوق

البنفسجية، ولا من الإشعاع الكوني الذي ظل يضرب الكوكب على الرغم من درعه المغناطيسي الهائل. وأعضاء الأخفياء شفافة، لكنها ليست شفافة بحيث تسمح بمرور كل الإشعاعات الضارة.

كان قاتل كاكتاس يعاني بالفعل ألمًا شديدًا، وسرعان ما ستقتله الأورام السرطانية التي تتكون في أمعائه الشفافة، وهو يحتفظ بخصائص الطفولة، وسيموت قبل البلوغ، فلم يعش واحد من الأخفياء قط حتى يلد ذرية من نوعه، ولا تملك مادتهم الوراثية التي دمرها الإشعاع القدرة على إنتاج ذرية قادرة على الحياة.

كانت هذه المخلوقات البائسة مريضة وعاجزة منذ ولادتها، ولذلك بدأت تموت حتى قبل خروجها من البيض.

لكن ذلك لم يكن مهمًّا من ناحية الجينات، فهو ذو نفع للعائلة.

وقد توصلت تلك المخلوقات البرمائية إلى حل وسط، فمعظم صغارها تولد عادية تمامًا، لكن ربما يولد واحد من كل عشرة غير مرئي، وهؤلاء الأخفياء يحيون حياة أقرب إلى حياة الشغالة في خلية نحل، ذهم يعيشون حياة قصيرة مؤلمة، ثم يموتون صغارًا، من أجل غرض واحد هو جلب الغذاء لإخوتهم، فتراث الأخفياء يبقى من خلال ذرية إخوتهم، لا ذريتهم هم.

وهي استراتيجية مكلفة، لكن من الأفضل التضحية بأن يعيش واحد من عشرة في كل جيل حياة قصيرة مؤلمة بدلًا من الاستسلام إلى الانقراض.

بطبيعة الحال يؤدي وجود الغذاء في معدات الأخفياء، والفضلات في أمعائهم، إلى كشف وجودهم. ولذلك كلما أصاب إخوتهم الجوع حرموهم من الطعام حتى تخرج الفضلات من أجسادهم وتعود إليهم شفافية أجسادهم من جديد. بعد ذلك يطلقونهم مرة أخرى تحت الشمس الحارقة آملين أن يجلبوا لهم وجبة أخرى قبل موتهم.

سجلت الكرة ملاحظاتها عن تلك الأحداث.

والكرة كائن حي وغير حي في الوقت نفسه، وهي جسم مصطنع وغير مصطنع في الوقت نفسه. ومع أنها لا تحمل اسمًا، لا هي ولا أفراد نوعها، فهي واعية.

وهي واحدة من مجموعة كبيرة تدور الآن حول النجوم في حزام استعماري عظيم يلتف حول طرف المجرة. مع ذلك جاءت الكرة إلى هنا، إلى هذا العالم الخرب، بحثًا عن أجوبة.

كانت الذكريات تعود إلى الماضي السحيق. والهوية بين أفراد نوع الكرة ليست لها ملامح محددة، فهم يتقاسمونها ويتشاركونها ويورثونها بواسطة مكونات ومخططات. كانت الكرة قادرة على العودة بذاكرتها إلى الماضي عبر آلاف الأجيال، لكنها رحلة تنتهي وسط الضباب. لقد نسيت المجموعة منشأها.

تمنت الكرة أن تعرف من أين جاء هذا الحشد من الآليين المسافرين بين النجوم؟ وهل ظهر بعضهم تلقائيًّا نتيجة اتحاد التروس والدوائر الكهربية على سطح كويكب معدني؟ أم أن هناك مُصمِّمًا — كائنًا من نوع آخر — أوجد أسلاف هذه الجموع الحاشدة؟

درست الكرة طوال مليون عام توزيع آلات النسخ في المجرة، ولم يكن أمرًا سهلًا، فالقرص الهائل دار حول نفسه مرتين منذ نشأته مبعثرًا الآليين المستعمرين في أنحاء السماء، ودارت النجوم حوله. وبُنيت نماذج رياضية هائلة للإبقاء على هذا الدوران، لإعادة النجوم إلى ما كانت عليه حتمًا فيما مضى، وإعادة تتبع توسع آلات النسخ الذي راح جزء كبير منه طي النسيان.

وفي النهاية توصلت الكرة إلى هذا العالم — من بين عوالم أخرى — على أنه المنشأ المفترض، ووجدت فيه عالمًا من الكيمياء العضوية، ومخلوقات مثيرة نوعًا ما. لكنه عالم يحتضر، تلفحه الشمس بحرارتها، وأشكال الحياة فيه تنحصر في حواف قارة متصحرة، وليست هناك علامة على وجود إدراك منظم.

لكن الصخور القديمة في القارة العظمى مميزة بشقوق وحفر عميقة هائلة بدا للكرة أنها متعمدة. ربما كان هنا ذات يوم عقل مفكر، لكن المؤكد أنه تلاشى من عقول هذه الكائنات البائسة التي تزحف على الأرض.

كانت الكرة تمثل شكلًا جديدًا من أشكال الحياة، لكنها أشبه بطفل يبحث في لهفة عن أبيه الذي فقده، وضاعت آخر آثار التصميم الأصلي للكائنات الآلية المريخية التي صنعها مهندسو وكالة ناسا في معامل الحاسب الآلي في كاليفورنيا ونيو إنجلاند، والتي أُدخلَت عليها كثير من التعديلات

منذ ذلك الحين. والعجيب أن أعظم وأغرب ما تركه الإنسان قد توصل إليه بمحض الصدفة، وأن الكائنات التي صنعها تركت لتلاقي مصيرها.

لم يبق هنا شيء تتعلمه الكرة، فتوجهت نحو النجوم، وتضاءل العالم الصغير خلفها.

انكمشت ألتميت في التراب حتى انتهى الإخوة المفترسون من التهام طعامهم، ثم ابتعدت وهي تحتضن ابنتها، ولم تلحظ اختفاء الكرة.

٣

استمرت ألتميت في الاتجاه غربًا، بعيدًا عن محجر الباروميتز.

وفي المساء حشرت نفسها مع الصغيرة في الشقوق بين الصخور وهي تحاول محاكاة احتضان الشرنقة، وأكلت كل ما وصلت إليه يداها: الضفادع المدفونة في الطين، والسحالي، والعقارب، وجذور الصبار وأجزاء منه، وأطعمت صغيرتها عجينة من اللحم والخضروات الممضوغة، لكن الطفلة لفظت الطعام لأنها ما زالت تفتقد الجذر المغذي، وأخذت تبكي.

واصلت ألتميت المسير.

ولم تكن لديها خطة إلا مواصلة التحرك لتحافظ على صغيرتها من التأثيرات الكيميائية للشجرة، وأن تترقب ما يحدث، فلو كان تفكيرها أكثر تطورًا، لتمنت أن تجد بشرًا آخرين، ومكانًا تستطيع أن تقيم فيه، بل ربما مجتمعًا يعيش مستقلًّا عن الأشجار.

لكنها ستكون أمنية مستحيلة، فلم تعد هناك مجتمعات كهذه في أي مكان على الأرض، ولم تكن هي تدري شيئًا عن هذا، لكن لم يكن هناك مكان تذهب إليه.

بدأت الأرض ترتفع ببطء، ووجدت ألتميت نفسها تسير فوق حصى ورمال خشنة.

وبعد نصف يوم من السير في هذه الأماكن وصلت إلى مكان به تلال منخفضة، وتناثرت حولها على امتداد البصر شمالًا وجنوبًا بقايا الجذوع المتآكلة، كيلومترًا بعد كيلومتر، حتى حدود الأفق المحمل بالغبار، وأبعد من

ذلك. كانت تسير خلال بقايا سلسلة جبلية كانت يومًا عظيمة، نشأت من التقاء القارات القديمة. غير أن رياح بانجيا الجديدة المحملة بالغبار قد أبلت الجبال حتى تحولت إلى هذه النجاد.

وعندما نظرت خلفها رأت آثار قدميها مصحوبة بآثار مفاصل أصبعها في الأماكن التي توقفت فيها للأكل أو قضاء الحاجة أو النوم. ولم تر آثارًا غيرها في هذه التلال الموحشة.

استغرقها عبور هذه الجبال يومين.

وبعد ذلك بدأت الأرض تهبط مرة أخرى.

وعلى السهل نمت مزيد من النباتات. كانت هناك أشجار ذات أشواك وأغصان ملتفة وأوراق إبرية الشكل. وتعيش حول جذورها مجموعة من الفئران الشرسة، وهي القوارض شديدة التحمل التي نجت من الانقراض، وتمتاز أجسادها بالقدرة على الاحتفاظ بالماء، هذا إلى جانب الكثير والكثير من السحالي والحشرات. أخذت ألتميت تطارد الكائنات الصغيرة كالأبراص وسحالي الإجوانا وتلتهم لحومها، لكنها كانت تضطر لالتزام الحذر في المناطق الرخوة من التربة، خوفًا من أفواه الفئران الكامنة في التربة، وكمائن الصيادين الأخفياء.

وكلما انخفضت الأرض أكثر، انكشف المشهد أكثر ناحية الغرب. رأت ألتميت سهلًا كبيرًا، فوراء حافة ساحلية كانت الأرض بيضاء كالعظام، وكأنها صفحة منبسطة تمتد حتى الأفق. هبت على وجهها رياح لطيفة، واستطاعت أن تتذوق فيها طعم الملح. ولم يكن هناك شيء يتحرك على مرمى بصرها.

وصلت إلى جزء من المحيط الداخلي الميت، وما زال به بعض المياه، فجفاف مياه البحر يستغرق زمنًا طويلًا للغاية. غير أن هذا الجزء لم يكن إلا لسانًا رفيعًا من مياه شديدة الملوحة لا تكاد تحتوي على أي شكل من أشكال الحياة، ويحيط بها حزام أبيض من المسطحات الملحية يمتد إلى حدود الأفق.

دفنت ألتميت وجه الطفلة في فراء صدرها، وواصلت النزول في إصرار.

حتى وصلت إلى بداية المسطحات الملحية، ورأت خطوطًا هائلة متوازية حيث كان مجرى الماء، فالتقطت حفنة من التراب المخلوط بالملح ولعقتها، ثم بصقتها في الحال لمرارتها. ورأت نباتات هنا؛ نباتات قادرة على النمو

في التربة الملحية. قطعت ألتميت جزءًا من شجيرات صفراء شوكية وحاولت مضغها، لكنها لم تقدر على مضغها لأنها جافة جدًّا، فقذفتها على الملح في إحباط.

وعندئذ رأت آثار الأقدام.

في فضول وضعت قدميها في التجاويف الضحلة في الأرض؛ هذه آثار أصابع قدمين، وهناك حفرة ربما سببها الضغط على مفاصل الأصابع. ومن المستبعد أن تكون هذه الآثار حديثة، فالطمي قد تصلب من حرارة الشمس حتى صار كالصخر، ولم يترك وزنها فيه أثرًا.

اتجهت الآثار في خط مستقيم عبر السطح الملحي نحو الأفق الخالي، وسارت ألتميت خطوة أو خطوتين مقتفية أثرها، لكن الملح شديد الصلابة والسخونة، وكلما تسرب إلى الخدوش والجروح الصغيرة في قدميها آلمها بشدة.

لم ترجع آثار الأقدام في نفس الطريق، ولم يعد صاحبها أيًّا كانت هويته، وربما كان هدفه الوصول إلى المحيط، أو الذهاب سيرًا إلى أمريكا الشمالية، فلم تعد هناك الآن حدود.

عرفت أنها لن تستطيع أن تقتفي آثار الخطوات لتصل إلى قلب هذا البحر الميت.

وما كان وصولها إليه سيصنع فارقًا، فأينما ذهبت في بانجيا الجديدة، فستجد نفس الأرض الحمراء والحرارة الشديدة.

قضت بقية النهار على الشاطئ الصامت الموحش، وبدت الشمس لحظة غروبها ضخمة، ومحيطها الدائري يرتعش، وقد صبغ ضوءها السهل الملحي بلون وردي باهت.

كانت هذه آخر الرحلات الهامة التي قام بها أي من أفراد عائلتها القديمة الجوالة، لكن الرحلة وصلت إلى نهايتها، وكان هذا الشاطئ القاحل هو أبعد نقطة تستطيع الوصول إليها. وهذا آخر عهد بني البشر بالاستكشاف.

وعندما خبا الضوء استدارت ألتميت وبدأت تسير صاعدة الأرض المنحدرة، دون أن تنظر خلفها.

في السنوات التي تلت موت ألتميت، ظلت الأرض تدور حول نفسها، وسرعة دورانها تتناقص تناقصًا حادًّا، ورقصتها مع قمرها الآخذ في الابتعاد تتباطأ شيئًا فشيئًا.

واشتد توهج الشمس كثيرًا، وهو المسار الطبيعي الذي تمليه طبيعة تكوينها الهيدروجيني.

كانت الشمس فرن اندماج، لكن رماد الهيليوم يتراكم في مركزها، والطبقات المحيطة تسقط نحو الداخل؛ كانت الشمس تنكمش، وحرارتها تزداد بسبب هذا الانكماش، ليس بنسبة كبيرة، فهي واحد في المائة فقط كل مائة مليون عام، لكنها زيادة لا تتوقف.

في معظم فترات تاريخ الأرض استطاعت الحياة أن تحمي نفسها من هذه الارتفاع الثابت في حرارة الكوكب بواسطة الأنهار والمحيطات وتفاعل تريليونات من الكائنات الحية وإزالة المخلفات وإعادة المواد الغذائية إلى حيث تكون مطلوبة. وكان ثاني أكسيد الكربون يستخدم للتحكم في درجات الحرارة، وهو غاز حيوي من غازات الاحتباس الحراري، وهو المادة الخام لعملية البناء الضوئي. وكانت هناك حلقة تغذية مرتجعة، فكلما زادت درجة الحرارة، زاد حجم ثاني أكسيد الكربون الذي تمتصه الصخور المتآكلة، فيقل تبعًا لذلك تأثير الصوبة الزجاجية، وتعود درجة الحرارة إلى معدلها الطبيعي. كان هذا منظمًا حراريًّا حافظ على ثبات درجة حرارة الأرض طوال عصور.

غير أن حرارة الشمس أخذت في الارتفاع، وامتصت الصخور مزيدًا من ثاني أكسيد الكربون، وقلت الكمية المتوفرة منه للنباتات.

وفي النهاية، بعد خمسين مليون سنة من زمن ألتميت، عجزت النباتات عن القيام بعملية البناء الضوئي، فذبلت الحشائش والأزهار والأشجار والسراخس، وماتت كلها، كما ماتت المخلوقات التي كانت تعيش عليها. وانهارت الممالك الكبرى في الحياة، فاختفت القوارض، ثم الثدييات، ثم الزواحف. وبعدما اختفت النباتات العليا، اختفت الفطريات، والأوليات المهدبة، والطحالب، كما لو كان التطور قد انعكس في ذلك الزمن، وتخلصت الحياة من تعقيدها الذي وصلت إليه بصعوبة كبيرة.

ولم يستطع العيش في حرارة الشمس الحارقة آخر الأمر إلا البكتريا المحبة للحرارة، وانحدر كثير منها من أقدم أشكال الحياة على الأرض؛ البكتريا البسيطة التي تتغذى على الميثان، والتي عاشت قبل انتشار غاز الأكسجين السام في الغلاف الجوي. وكان هذا بالنسبة لها عودة إلى العصور القديمة السعيدة قبل ظهور البناء الضوئي. امتلأت السهول القاحلة في آخر قارة عظمى لفترة قصيرة بألوان مبهرجة جريئة؛ فكسا الأرجواني والأحمر الصخور المتآكلة.

غير أن ارتفاع درجة الحرارة لم يتوقف، وتبخر الماء حتى تحولت محيطات بكاملها إلى بخار ماء معلق في الهواء، وفي النهاية وصلت بعض السحب العملاقة التي تكونت إلى طبقة الاستراتوسفير، وهي الطبقة العليا من الغلاف الجوي، وفيها تكسرت جزيئات الماء تحت تأثير أشعة الشمس إلى هيدروجين وأكسجين، وضاع الهيدروجين في الفضاء، وضاع معه احتمال إعادة تكون الماء. كان الأمر كما لو أن صمامًا قد انفتح، وتسرب منه الماء بسرعة إلى الفضاء.

عندما اختفى الماء، ارتفعت درجة الحرارة حتى تحرر ثاني أكسيد الكربون من الصخور، وتحت الهواء الذي بلغت كثافته كثافة المحيط، ارتفعت درجة حرارة قيعان البحار حتى أصبحت كافية لصهر الرصاص، وذوت حتى الكائنات المحبة للحرارة، وكانت هذه آخر مراحل الانقراض.

غير أن البكتريا تركت على الأرض الصخرية التي صارت ساخنة كجدران الأفران جراثيم جافة، وداخل أغلفتها الصلبة التي يستحيل تدميرها، ظلت البكتريا كامنة عبر السنوات.

ظلت هناك هزات عندما سقطت على فترات متقطعة كويكبات ومذنبات على سطح الأرض القاحلة؛ مزيد من الحوادث المشابهة لحادثة سقوط تشيكشولوب، ولم يبق هناك بالطبع ما تقتله هذه المذنبات. غير أن كميات هائلة من الصخور اندفعت إلى الفضاء بسبب انحناء سطح الأرض وارتداده مرة أخرى.

لم تتعرض بعض المواد على حواف مناطق سقوط المذنبات والكواكب لصدمات كهربية، لذا وصلت إلى الفضاء غير معقمة، وبهذه الطريقة رحلت الجراثيم البكتيرية عن الأرض.

ابتعدت هذه الجراثيم عن الأرض، وبفعل الضغط المتصل المعتدل لضوء الشمس كونت سحابة هائلة منتشرة حول الشمس. كانت البكتريا المتحوصلة داخل جراثيمها قادرة على البقاء إلى الأبد، وكانت تنتقل في ظروف قاسية بين الكواكب. أحاطت البكتريا أشرطة الدي إن إيه الخاص بها بسلاسل بروتينية صغيرة تزيد صلابة الأشكال الحلزونية وتدافع عنها ضد الهجمات الكيميائية. وتستطيع الجرثومة عندما تبدأ في النمو أن تحفز إنزيمات خاصة لإصلاح أي تلف في الحمض النووي، حتى إن بعض أنواع التلف الناتج عن التعرض للإشعاع يمكن إصلاحها.

واصلت الشمس دورانها اللانهائي حول مركز المجرة، بكواكبها ومذنباتها وسحابة الجراثيم وغيرها.

وفي النهاية وصلت الشمس إلى سحابة جزيئية كثيفة، وهي مكان تولد فيه النجوم، وتزدحم فيه السماء بنجوم وليدة متلألئة تتصادم في أسراب هائلة. وبدت الشمس الملتهبة بكواكبها الخربة أشبه بامرأة عجوز تعسة تقتحم روضة أطفال.

غير أنه من حين إلى أخر تلتقي واحدة من الجراثيم السابحة في الفضاء بحبة من الغبار بين النجمي الغني بالجزيئات العضوية والماء المتجمد.

انكمش جزء من السحابة تحت تأثير الإشعاعات المنبعثة من النجوم المحيطة بها في مرحلة السوبرنوفا، وولدت شمس جديدة، ومنظومة جديدة من الكواكب؛ كواكب عملاقة مليئة بالغازات، وعوالم صخرية صلبة. سقطت المذنبات على سطح الكواكب الصخرية الجديدة، كما حدث من قبل في نشأة الأرض.

وحملت بعض هذه المذنبات بكتريا أرضية المنشأ، قليلًا منها، لكن الأمر لم يكن يحتاج إلى أكثر من هذا القليل.

شاخت الشمس، وزاد حجمها بدرجة مهولة، وصارت تتوهج بضوء أحمر.

كانت هذه الهزات الكبرى علامة على نهاية الأرض، أما على الكوكب الجديد الذي يتبع نجمًا جديدًا فلم يكن السديم إلا ألعابًا ضوئية. المهم هو هنا والآن؛ المحيطات والأراضي التي تجمعت فيها أنظمة بيئية جديدة،

تغيرت فيها المخلوقات تبعًا للتغيرات في بيئتها، وعمل فيها التنوع والانتخاب عشوائيًّا لتشكيل وتعقيد أشكال الحياة.

ظلت الحياة دومًا محفوفة بالمخاطر، والآن وجدت الحياة وسائل للنجاة من حدث الانقراض الأخير، وبدأ التطور من جديد في محيطات جديدة في مناطق غريبة.

لكن البشر لم يكن لهم علاقة بهذا التطور الجديد.

عادت ألتميت إلى قلب المحجر القديم، منهكة محملة بالغبار، وجسدها مغطى بمائة من الخدوش والكدمات والوخزات الصغيرة، وهي تحتضن طفلتها بين ذراعيها.

بدت الأرض وكأن مطرقة دكت سطحها فصار مستويًا، والشمس متعامدة عليها كأنها قبضة هائلة متوهجة. وللوهلة الأولى لم تكن هناك دلائل تشير إلى حياة باقية في هذا العالم المهجور، ولا إشارة واحدة.

دنت ألتميت من الشجرة نفسها، فرأت الشرانق المتدلية التي تحوي بداخلها البشر خاملة وسوداء. وظلت الشجرة قائمة في مكانها دون أن تلومها أو تعفو عن خيانتها الصغيرة.

عرفت ألتميت ما عليها أن تفعله، فوجدت كرة مطوية من الأوراق، ثم فتحتها بحرص، وشكلتها على هيئة مهد مؤقت، ووضعت طفلتها داخلها بحذر.

تلوت الطفلة وأحدثت صوتًا، وبدا عليها الارتياح هنا وسط الأوراق؛ كانت سعيدة بعودتها إلى الشجرة. ورأت ألتميت أن الجذر المغذي تحرك إلى الفتحة المخصصة له على بطن الطفلة، وأن محاليق بيضاء تخرج من ثقوب في أوراق المهد لتصل إلى فم الطفلة وأنفها وأذنيها وعينيها.

لن تشعر الطفلة بألم. هذا ما عرفته ألتميت وأحست بالعزاء لمعرفته، فداعبت خد الطفلة المكسو بالفراء للمرة الأخيرة، ودون أن تشعر بالندم، طوت الأوراق وأحكمت إغلاقها.

أوت ألتميت إلى شرنقتها المفضلة، وأغلقت الأوراق الكبيرة على جسدها بعناية. سوف تمكث هنا حتى يأتي يوم أفضل؛ يوم أقل حرارة وأكثر

رطوبة من بقية الأيام، وزمن تستطيع فيه الشجرة أن تطلق سراح ألتميت من حضنها الآمن، لتخرجها إلى العالم من جديد، ولتلقي في جوفها بذور جيل جديد من البشر.

غير أنه لن يكون هناك أبدًا إخصاب جديد، ولا ميلاد جديد، ولن يخرج للعالم أبدًا طفل جديد محكوم عليه بالهلاك.

وستنكمش الشرانق واحدة بعد الأخرى بعدما تُمتص أجساد سكانها لتعود مكوناتها إلى شجرة البورامتز مرة أخرى، وفي النهاية ستسقط شجرة البورامتز نفسها، بعد أن وقفت آلاف السنين بصلابة وشجاعة، وستنقطع السلسلة الجزيئية التي امتدت من بورجا عبر أجيال من الكائنات التي تسلقت وقفزت، وتعلمت المشي وسارت على تراب عالم آخر وصغر حجمها وتراجع عقلها وعادت مرة أخرى إلى الأشجار. انقطعت السلسلة آخر الأمر عندما واجهت آخر حفيدات بورجا خطرًا عجزت عن تحمله.

كانت ألتميت آخر أم على الإطلاق، ولم تستطع أن تحافظ على طفلتها، لكنها كانت في سلام.

وضعت ألتميت الجذر المغذي في معدتها، فساعدت الكيماويات المخدرة والمساعدة على الالتئام على تخفيف ألمها وشفاء جروحها الصغيرة، ومحت العلاجات النفسية النباتية الذكرى المؤلمة لطفلتها المفقودة، وشعرت بسعادة أحست أنها ستدوم إلى الأبد.

ولم تكن نهاية سيئة للقصة الطويلة.

الخاتمة

على جزيرة بارتولوم تجمعت عصبة من الأطفال الوحشيين، ولذلك حملت جوان ولوسي معهما الشباك والبنادق والصواعق، ثم اتجهتا إلى المحيط الهادئ في زورقهما الذي يعمل بالطاقة الشمسية.

انعكست أشعة الشمس الاستوائية على بشرة جوان الممتلئة بالندوب، كانت قد بلغت الثانية والخمسين الآن، ولكنها كانت تبدو أكبر من ذلك بكثير؛ جراء ما تعرضت له في البيئة التي عاشت بها بعد رابول. لكن لوسي لم تكن قد التقت إلا بعدد قليل من كبار السن خلال عمرها القصير، ومن ثم لم تتح لها الفرصة لعقد أي مقارنة بينهم وبينها. كانت جوان هي جوان، أمها وأقرب رفيقة لها.

كان اليوم مشرقًا، وكانت السحب القليلة العالية ترسم خطوطًا متقاربة في السماء، وكانت الشمس تضرب بقسوة على الشراع الذي انبسط فوق رأس لوسي. ومع ذلك كانتا تحملان معهما ملابسهما الثقيلة، وبين لحظة وأخرى كانت المرأتان تحدقان إلى السماء خوفًا من سقوط الأمطار التي قد تحمل معها المزيد من التراب الكثيف السام، والرمال المشعة التي كانت من قبل حقولًا ومدنًا وأناسًا، وأصبحت الآن تدور حول كأنها غطاء رمادي.

وكعادتها دائمًا، أخذت جوان يوسِب تثرثر.

«كان لدي دائمًا ضعف تجاه الإنجليز رحمهم الله، ومع أنهم في أوج مجدهم لم يلتزموا دومًا بالسلوط الطيب، فإن قصة جالاباجوس الإنسانية لم تكن قصة سعيدة: الفلاحون النرويجيون المجانين، ومعسكرات الاعتقال

الإكوادورية، والجميع يستهلكون الحياة البرية بأسرع ما يستطيعون. حتى الأمريكيون استخدموا الجزر قواعد لصواريخهم. في حين أن كل ما فعله البريطانيون للجالاباجوس هو إرسال داروين إليهم مدة خمسة أسابيع. وكل ما خرجوا به هو نظرية التطور.

لم تلتفت لوسي كثيرًا إلى ثرثرة أمها أو إلى هذه الذكريات العشوائية عما لم تعرفه قط.

حلقت فوق رءوسهم طيور الفرقاطة وهي تتبع الزورق كما كانت تتبع مراكب الصيد وقوارب السياح التي كانت تعج بها هذه المياه. كانت طيورًا ضخمة كئيبة المنظر سوداء الريش تذكر لوسي دائمًا بالزواحف المجنحة التي كانت تمتلئ بها كتب أمها ونشراتها القديمة. وظنت لوسي أنها لمحت أسد البحر في المياه، وربما جذب انتباهه صوت محرك الزورق الكهربائي. ولكن هذه الثدييات كانت نادرة الآن بعد أن قضت عليها النفايات السامة التي لا زالت تحملها مياه المحيطات بطيئة الجريان.

كانت الجالاباجوس مجموعة من قمم البراكين التي طفت منذ ملايين السنين على سطح المحيط الهادئ عند خط الاستواء، على بعد ألف كيلومتر غرب أمريكا الجنوبية. وكان بعض منها لا يزيد عن مجموعة صخور بركانية ضخمة، متراكمة بعضها فوق بعض، والبعض الآخر تعرض لتطورات جيولوجية. فعلى سبيل المثال في جزيرة برتولوم، كانت الطبقة الخارجية الرقيقة لقمم البراكين القديمة قد تلاشت، وتحول قلبها إلى اللون القرمزي بعد أن أصاب الصدأ الحديد الذي بداخلها. إلا أن مقذوفات البراكين من الحمم الجديدة أغرقت الساحة حول هذه التشكيلات القديمة، وتحولت المنطقة إلى حقول من مقذوفات البراكين الجديدة التي أغرقت الساحة حول هذه المقذوفات والبراكين، التي صارت كبحر فضي تلاطم أمواجه أقدم هذه الآثار العتيدة.

ومع ذلك كانت هناك حياة على هذه الجزر الجديدة التي لم يكتمل تكوينها بعد، نعم كانت هناك بقية من حياة كانت يومًا ما معروفة للعالم.

لمحت لوسي طائرًا هزيلًا يقف على إحدى الرءوس الصخرية، وهو طائر الغاق المائي الذي لا يستطيع الطيران. كان طائرًا كئيبًا حقيرًا أسود

اللون له جناحان قصيران انعدمت فائدتهما، وريش مشبع بالزيت. كان يقف وحيدًا على جزء صغير من صخرة بركانية يحاول أن يخترق البحر بنظراته في صمت وصبر، مثل كثير من الكائنات البرية، في تلك المنطقة الخالية من الضواري، كأنما الجميع في انتظار شيء ما.

تمتمت جوان لنفسها: «يا للقبح! يا للقبح! هذه الجزيرة بطيورها وحيواناتها رائعة فعلًا، لكنها قبيحة. فالجزر دائمًا مختبرات هائلة للتطور، أما الآن فهي فراغ يملؤه فقط عدد لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة من المخلوقات التي تحلق في الفضاء أو تلك التي تركب البحر، في هذا الفراغ البيئي، مثل طائر الغاق هذا الذي هو على ما يبدو حصاد ثلاثة ملايين عام: مخلوق ما بين البجعة والبطريق، وبالرغم من ذلك ففي خلال بضعة ملايين من السنين سوف تتحول هذه الأجنحة عديمة الفائدة الآن إلى أجنحة صالحة للطيران، وسوف يصبح ريشه نافعًا للحياة ولا أدري ماذا سيكون بعد هذا التطور؟ ولذلك فليس عجبًا أن داروين تفتحت عيناه هنا، حيث يبدو أثر الانتخاب الطبيعي واضحًا.»

- «أماه ....»

تجهمت جوان وقالت: «أنت تفهمين كل ذلك بالطبع، تعرفين أن قدر الكبار هو أن يصبحوا مثل آبائهم وأمهاتهم، هكذا كانت تحدثنا أمي، كل حديثها كان يتحول إلى محاضرات.»

اقتربا من شاطئ ضحل، وتوقف الزورق، وقفزت لوسي من فوقه ليرتطم حذاؤها الخفيف بالرمل الأسود الخشن، ثم استدارت لتساعد أمها، أسرعت الاثنتان بالزورق، ثم أخذتا معداتهما.

وبينما بدأت جوان في إعداد الشراك، تناولت لوسي بندقيتين، واتجهت تتفقد الشاطئ.

كان الشاطئ مخيفًا، فالرمال البركانية السوداء تتكاثر فيها صخور سوداء أيضًا، وحتى مياه البحر تبدو سوداء بدورها كبحر من البترول، من جراء ظلمة أعماقها. وعلى بعد لمحت لوسي أشجار المنجروف، وهي أشجار قادرة على النمو في المياه المالحة. كانت بقعة خضراء وسط الأسود والأحمر.

وكانت هناك مجموعة من السحالي البحرية من آكلات العشب، تصطف كتماثيل سمينة متراصة، وقد اتجهت بوجوهها التي تخلو من كل تعبير صوب الشمس. كانت بدورها شديدة السواد حتى إنها تحتاج إلى تكرار النظر إليها كي تتأكد أنها مخلوقات حية وليست تشكيلات مخيفة من مقذوفات الحمم والبراكين. وفي الماضي كانت أجداد هذه السحالي على الشاطئ — حيث معمل داروين — ومعها السلاحف والضفادع التي سبحت إلى هناك؛ مخلوقات تعيش على الأرض الجافة وتتسلق الأشجار، وكانت قد تأقلمت على غذائها من الطحالب والأعشاب التي تستخرجها من ماء البحر. لكنها كانت تلفظ المياه الزائدة، وكان الجو يمتلئ بأصواتها وهي تُخرج المياه من أفواهها كنافورات تتلألأ في أشعة الشمس، وكانت تعتمد على حرارتها لتسخين هذا الطعام الخفيف بداخل معداتها.

كانت بندقية لوسي جاهزة للانطلاق، ففي وجود الأطفال الوحشيين، يجدر بالمرء أن يكون حريصًا.

في أثناء هرولة البحث عن أماكن على ظهور القوارب القليلة الأخيرة العائدة إلى البر، كان الأهالي اليائسون قد تركوا أطفالهم هناك، فمات الضعاف منهم، وبقيت عظامهم متناثرة على الشاطئ والرءوس الصخرية، مثل عظام أكلة الأعشاب والقدلرس البحري كبير الحجم، إلا أن بعض الأطفال تمكنوا من البقاء على قيد الحياة، والواقع أن كلمة «أطفال» اسم خاطئ، فقد عاشوا عمرًا يكفي أن ينجبوا جيلًا آخر، عاشوا دون أن يروا شيئًا سوى هذه القطع من الصخور الجرداء، والمحيطات التي تمتد إلى ما لا نهاية. كانوا أطفالًا ليست لديهم ثقافة، ولا قدرة على الكلام؛ أطفال متوحشون لا يستخدمون الأدوات، ويستعملون لغة بدائية لم تتطور، لكنهم بشر قادرون على التعلم.

كانت الشراك التي نصبتها جوان بسيطة، لا تزيد على شباك خفية ومصائد، وكان الطُعم بداخلها طعامًا متبلًا نفاذ الرائحة. وحين انتهت مهمتها اختبأت هي ولوسي بعيدًا عن الأنظار تحت ظل نتوء صخري، مستعدة لمواجهة الأطفال الوحشيين.

منذ انفجار رابول لم تكن الحياة سهلة بالنسبة لجوان وابنتها، ولكنها أيضًا كانت بالغة الصعوبة بالنسبة للجميع على سطح الكوكب، وعلى الرغم من أن مشروعها العظيم كان قد انهار، فإن جوان لم تكف عن العمل، ورحلت إلى جالاباجوس مع ابنتها لوسي الصغيرة ذات العينين الواسعتين.

الغريب أن هذه الجزر الهشة نجت من الكارثة العالمية الكبرى، وكان يقطنها فيما مضى سبعة عشر ألف شخص معظمهم من المهاجرين من الإكوادور. وقبل رابول كان هناك تعارض دائم بين احتياجات السكان الذين يتزايد عددهم، وبين الحياة البرية الفريدة التي كانت تحميها رسميًّا قوانين إكوادور الخاصة بالمحميات الوطنية. لكن الجزر كانت تعتمد دائمًا على الدولة في الحصول على الطعام، وعندما انهار كل شيء بعد انفجار رابول، وعجزت البواخر عن الوصول إلى الجزر، فر أكثر السكان عائدين إلى موطنهم.

وعندما أصبحت الجزر خالية من السكان والفئران والماعز والمخلفات والبترول ومياه الصرف؛ بدأت هذه الجزر تزدهر مرة ثانية.

استقرت جوان ولوسي — وعدد قليل من بينهم أليس سيجوردادردوتير حتى وفاتها — وسط أطلال ما كان محطة أبحاث تشارلز داروين على جزيرة سانتا كروز. وتعاونتا مع السكان الأصليين الذين ظلوا هناك في مساعدة المخلوقات التي أثارت اهتمام داروين نفسه وحمايتها من الانقراض.

ولفترة كان هناك نوع من الاتصال، إلا أن القنابل بعيدة المدى المدمرة للأجهزة الإليكترونية التي استخدمت في الحروب الفوضوية متعددة الأطراف دمرت طبقة الأيونوسفير. وحين دُمرت آخر الأقمار الصناعية، كان ذلك نهاية التليفزيون والراديو. ومع ذلك ظلت جوان مثابرة على الاستماع ما توفرت الأجهزة والطاقة. لكن سنوات مضت دون أن يصل إلى سمعها أي شيء.

لم يعد هناك راديو، ولم تعد تظهر في السماء آثار مرور الطائرات، ولم تعد هناك بواخر تلوح في الأفق، ولم يكن هناك عالم خارجي من الناحية العملية.

بدأت الاثنتان تتعودان الوحدة، فالأشياء التي تبلى لا يمكن أن تعود، أما ما تركه آلاف الراحلين من ملابس وبطاريات ومشاعل وأوراق وحتى

الطعام المعلب؛ فكان كفيلًا بإعاشة هذا المجتمع الصغير الذي لم يتجاوز عدد أفراده المائة طيلة حياتهم.

ربما كان العالم ينتهي، لكن ليس هنا، ليس بعد.

بالطبع لم تختف البشرية، ولا يزال أمام الدراما الختامية الدائرة في جميع أنحاء العالم سنوات طويلة، بل عقودًا. غير أن جوان كانت تدرك عندما كانت تفكر في بعض الأحيان في المدى البعيد أنها لا تستطيع أن ترى شيئًا من مستقبل لوسي التي لم تتجاوز الثامنة عشرة بعد، وأطفالها من بعدها، لا تستطيع أن ترى من مستقبلهم أي شيء على الإطلاق. لذلك لم تشغل بالها به بصورة عامة، وهل كان بوسعها أن تفعل غير ذلك؟

كانت سرطانات البحر تعدو تحت قدمي لوسي عبر الصخور، ولونها أحمر زاه على الأرض السوداء، وأعينها بارزة زرقاء في لون السماء.

- «أمي ....»

- «ماذا يا حبيبتي؟»

«ألا تتساءلين قط هل ما تفعلينه من أجل هؤلاء الأطفال هو المطلوب حقًّا أم لا؟ أعني ... ماذا لو أن أجداد هذه السحالي البحرية قالوا: «لا، لا تأكلوا هذه الكائنات البحرية اللزجة. عودوا إلى أعالي الأشجار إلى حيث تنتمون.»»

أغمضت جوان عينيها وقالت: «أعلينا أن ندع الأطفال يتطورون مثل السحالي؟»

- «ربما ....»

- «حتى تستطيع ذرية مجموعة صغيرة من الأطفال أن تتكيف، لا بد أن يُحكَم بالإعدام على معظم من هم اليوم على قيد الحياة. وأخشى أننا — نحن البشر — لم يعد لدينا القابلية الأخلاقية التي تجعلنا نسمح بحدوث ذلك. لكن لو عجزنا ذات يوم عن مساعدتهم، فسيسري عليهم قانون التطور. لا شك أنهم سيتكيفون، لكنهم لن يصبحوا أمثالنا في النهاية، فمن أجل البقاء هنا تخلى الغاق عن الطيران الذي ربما كان أجمل نعمة يتمتع بها، ولا أدري ما الذي سنفقده نحن. لكن هذا حكمي الخاص. أليس جميلًا

أن نتخيل أن عملية التطور مهما بدت لنا قاسية، فربما ينتج عنها شيء جديد أفضل منا في بعض الجوانب؟»

ارتعدت لوسي على الرغم من الحرارة المرتفعة وقالت: «هذا مخيف.»

ربتت جوان على ساق لوسي وقالت: «الخوف علامة جيدة توضح أنك تتعلمين استخدام خيالك. أحيانًا يصيبني التفكير في هويتنا ومغزى وجودنا بالرعب، وحتى الآن.»

أمسكت لوسي بيدها وقالت: «أماه، إن نظرتك للحياة لا وجود فيها للخالق.»

تراجعت جوان قليلًا وقالت: «كنت أعلم أن هذا اليوم سوف يأتي، إذن فقد عرفتِ هذا الوهم.»

أحست لوسي بلا مبرر بأنها في موقف اتهام، فدافعت عن نفسها قائلة: «أنت من شجعني دومًا على القراءة، وكل ما في الأمر أنني لا أستطيع أن أصدق أن الخالق ليس إلا مفهومًا صنعه البشر، أو أن العالم لا يعدو كونه ... آلة هائلة تمتزج فيها حيواتنا القصيرة، وتشكل أطفالنا كأنهم مجموعة من الطحالب في وعاء.»

- «ربما لم يزل هناك متسع للخالق، لكن أي إله هذا الذي يتدخل في حياة مخلوقاته طوال الوقت؟ أليست القصة وحدها رائعة؟»

- «انظري إلى الأمر على هذا النحو، فكري في جداتك. إن لديك أجدادًا كثيرين في كل جيل، لكن ليس لك سوى جدة واحدة فقط من ناحية الأم، ولذلك فإن هناك سلسلة وراثية واحدة تربط كلًّا منا بالماضي السحيق. إن لك عشرة ملايين جدة يا لوسي، منذ أن قضى ذلك المذنب على الديناصورات وأعطى الفرصة للثدييات الأولى، عشرة ملايين. تخيلي لو اصطففن جميعًا الواحدة بجوار الأخرى، جدتك بجوار أمها ثم أم أمها، وهكذا.»

«ستكون الوجوه بشرية أول الأمر بالطبع»، ومن بينها تلامذة الأم، أسلاف الشعوب الأفريقية التي انحدرت منها جوان، وإذا تتبعت لوسي سلالة أبيها الأوروبية إلى الماضي، لشاهدت ضمن أشكال الوجوه المحددة وجه جونا من كاتا هوك، ووجه جانا، تلك الفتاة التي تقابلت مع آخر إنسان نياندرتال، الذين كانوا بدورهم ينحدرون من سلالة الأم. وأضافت جوان: «ولكن بعد

ذلك تظهر التغيرات الدقيقة جيلًا بعد جيل. فتفقد عيونهم ضوء الفهم تدريجيًّا. وتحدث الانفجارات الداخلية: تنكمش الجبهة، ويضمر الجسد، وتأخذ الوجوه شكل القردة. وأخيرًا يحدث التغير التشريحي الأكبر لاستعادة شكل المخلوقات ذات العيون الواسعة التي عاشت فوق الأشجار، والتي كانت آخر أسلاف البشر والأنواع الأخرى من الكائنات الشبيهة بالإنسان المعروفة بإنسان نياندرتال والتي عاشت منذ ربع مليون عام في عمق التاريخ. وإذا ذهبنا إلى أبعد من ذلك لمررنا بفار وشعبها الجميل منتصب القامة، ثم بعد ذلك تأتي مرحلة إنسان جاوة البدائي، ثم غابة كابو. وأبعد وأعمق من ذلك بكثير نصل إلى برجا حيث كانت المخلوقات الذي كان يعيش جنبًا إلى جنب مع الديناصورات النائمة تحت ضوء المذنب. واستأنفت جوان حديثها: «ومع ذلك، كان كل واحد من هؤلاء الملايين العشرة — وأغلبها حيوانات لا عقل لها — من أسلافك. ولكنك لم تتقابلي مع أحد منهم يا لوسي ولن تفعلي ذلك في المستقبل، ولا حتى أمي، جدتك. فقد رحل الجميع، كلهم موتى ابتلعتهم الأرض. «إنها الآن واهنة عاجزة عن الحركة، لا تسمع ولا ترى، صارت جزءًا من حركة الأرض اليومية، مع الصخور والحجارة والأشجار».»

ردت لوسي في جفاء: «شعر وردزورث، أليس كذلك؟ شخص آخر ميت.»

- «إن العالم للأسف مليء بالموتى، لكنها قصتنا، وأعتقد أنني رأيت في هذه الآلية العظيمة التي شكلتنا جميعًا بعضًا من الألوهية. ما رأيته من الله يكفيني ...» وتنهدت واستأنفت: «وبالطبع يجب أن يكون لك أنت تفكيرك الخاص، وهذا هو الجزء الأكبر من المتعة.

- «هل كنت سعيدة يا أمي؟»

قطبت جوان جبينها بطريقة غريبة وقالت: «لم تسأليني هذا السؤال من قبل.»

بقيت لوسي صامتة، دون أن تخلصها من المأزق.

فكرت جوان في الأمر.

مثل كل أسلافها كانت جوان قد جاءت من عمق الزمن، لكنها بخلاف معظمهم تمكنت من التحديق في اللجج المظلمة التي اكتنفت حياتها، فأدركت

أن أسلافها لم يكونوا شبهيهن بأي شيء آخر في عالمها، وأنه لا أحد مثلها سيكون قادرًا على الحياة في المستقبل، ولكنها كانت تعلم أيضًا أن الحياة سوف تستمر طالما بقيت الأرض، وربما بعد ذلك أيضًا، وهذا يجب أن يكون كافيًا لأي شخص.

احتضنت جوان ابنتها وقالت: «نعم يا حبيبتي، لقد كنت سعيدة ....»

أسكتتها لوسي بإشارة من يدها نبهت جوان إلى أصوات وصلت لسامعهما؛ صوت كالحفيف، ثم بكاء خافت حزين، أمعنتا النظر حول الصخرة.

كانت طفلة صغيرة قد وقعت في الشباك. لم يكن عمرها يزيد على خمسة أعوام، عارية الجسد وشعرها ملبد، وكانت تبكي لأنها لم تستطع الوصول إلى الطبق الذي يحتوي على الخضروات المتبلة التي وضعتها جوان.

ظهرت جوان ولوسي أمام الطفلة فانكمشت مبتعدة عنهما.

تقدمت الاثنتان تجاه الطفلة المتوحشة بخطوات حذرة، وأيديهما مفتوحة وعلى شفاههما بعض الكلمات المطمئنة. ظلتا بجانبها حتى هدأت قليلًا ثم بدأتا في جذب الشباك بعيدًا عنها.

«هذه هي روعة هذه النظرة إلى الحياة ... فمن بدايات بسيطة تطورت — وما زالت تتطور — أشكال بارعة الجمال لا حصر لها.»

تشارلز داروين

تعقيب

هذه رواية حاولت فيها أن أصوغ التطور العظيم للإنسان في قالب قصصي، ولم أسع إلى تعريف التطور، وأرجو أن تكون قصتي مقنعة. إلا أن هذا الكتاب يجب ألا يُقرأ على أنه مرجع علمي. فمعظمه يقوم على إعادة تمثيل الماضي من خلال خبراء في هذا المجال، وفي حالات كثيرة اخترت ما بدا لي أكثر الأفكار مصداقية وإثارة من بين الاقتراحات المتنافسة، ولكن بعضًا منها نتاج خيالي الجامح.

أدين بالشكر إلى إريك براون Eric brown الذي علق على المخطوطة، والبروفيسور جاك كوهين Jack Cohen، والبروفيسور إيان ستيوارت Ian Stewart من جامعة وارويك Warwick University الذين أعطوا كثيرًا من وقتهم لتقديم النصائح النابعة من خبراتهم لدعم تخميناتي غير العلمية. كما أني مدين أيضًا لسايمون سبانتون Simon Spanston الذي فاقت مساندته لي واجبه كمحرر. وأتحمل وحدي المسئولية عن أي أخطاء باقية.

ستيفن باكستر

جريت ميسيندن، المملكة المتحدة

مايو ٢٠٠٢

التطور

رواية تمتد من الماضي السحيق إلى المستقبل البعيد، ومن الأرض في أيامها الأولى إلى النجوم، وهي سيمفونية رائعة تحكي قصة الصراع والانقراض والبقاء، وملحمة مذهلة تضم مجموعة كبيرة من فروع العلم، ومجموعة من الشخصيات التي لا تنسى، لتنقل دراما التطور المثيرة بكل سحرها وجمالها الأخاذ. منذ خمسة وستين مليون سنة، حينما كانت الديناصورات تسود الأرض، عاش حيوان صغير من الثدييات، واحد من الرئيسيات الأولى من نوع بورجاتوريوس *Purgatorius*. ومن هذه البداية المتواضعة يتتبع باكستر نسل البشر من الماضي إلى المستقبل. والمغامرة التي ستتكشف أحداثها هي ملحمة أسرة تحكمها الصدفة والمنافسة؛ رحلة محفوفة بالمخاطر إلى غاية مجهولة عبر طريق تحدق به ثورات مفاجئة كارثية؛ طريق ينتهي بمعظم الأنواع إلى الركود أو الانقراض، فلماذا نستثني البشرية من هذا المصير؟

ستيفن باكستر مهندس متمرس حاصل على درجات علمية من جامعة كيمبريدج (في الرياضيات)، وجامعة ساوثهامبتون (دكتوراه في أبحاث هندسة الطيران). فاز باكستر بالجائزة البريطانية للخيال العلمي وجائزة لوكاس، ورشح للفوز بجائزة آرثر سي كلارك أخيرًا عن روايته Manifold: Time. فازت روايته Voyage بجائزة سايدوايز لأفضل رواية في التاريخ البديل، ونال جائزتي جون دابليو كامبل وفيليب كيه دك عن روايته The Time Ships. اشترك مع آرثر سي كلارك في كتابة رواية Time's Eye، وهي أولى روايتين في أدب الخيال العلمي ترتبطان بسلسلة روايات «ملحمة الفضاء» لآرثر كلارك التي حققت أعلى المبيعات.

٧٩٢ صفحة

ISBN 978-977-6263-50-5

http://www.kalimatarabia.com

كلمات عربية